فرسان من عصر النبوة

تأليف

أحمد خليل جمعة



اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

فرسان من عصر النبوة

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م



اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ برامكة ـ جانب الهجرة والجوازات ـ ص.ب ٣٧٧ ـ تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ ـ ٢١٢٣٢٤٥
بيروت ـ ص.ب ٥٤٨٨/١١٣ ـ تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ١. ـ جوال ٨٥٣٥٨٦ ٣.
Http://www.dar-alyamama.com
e-mail: alyamama@scs-net.org

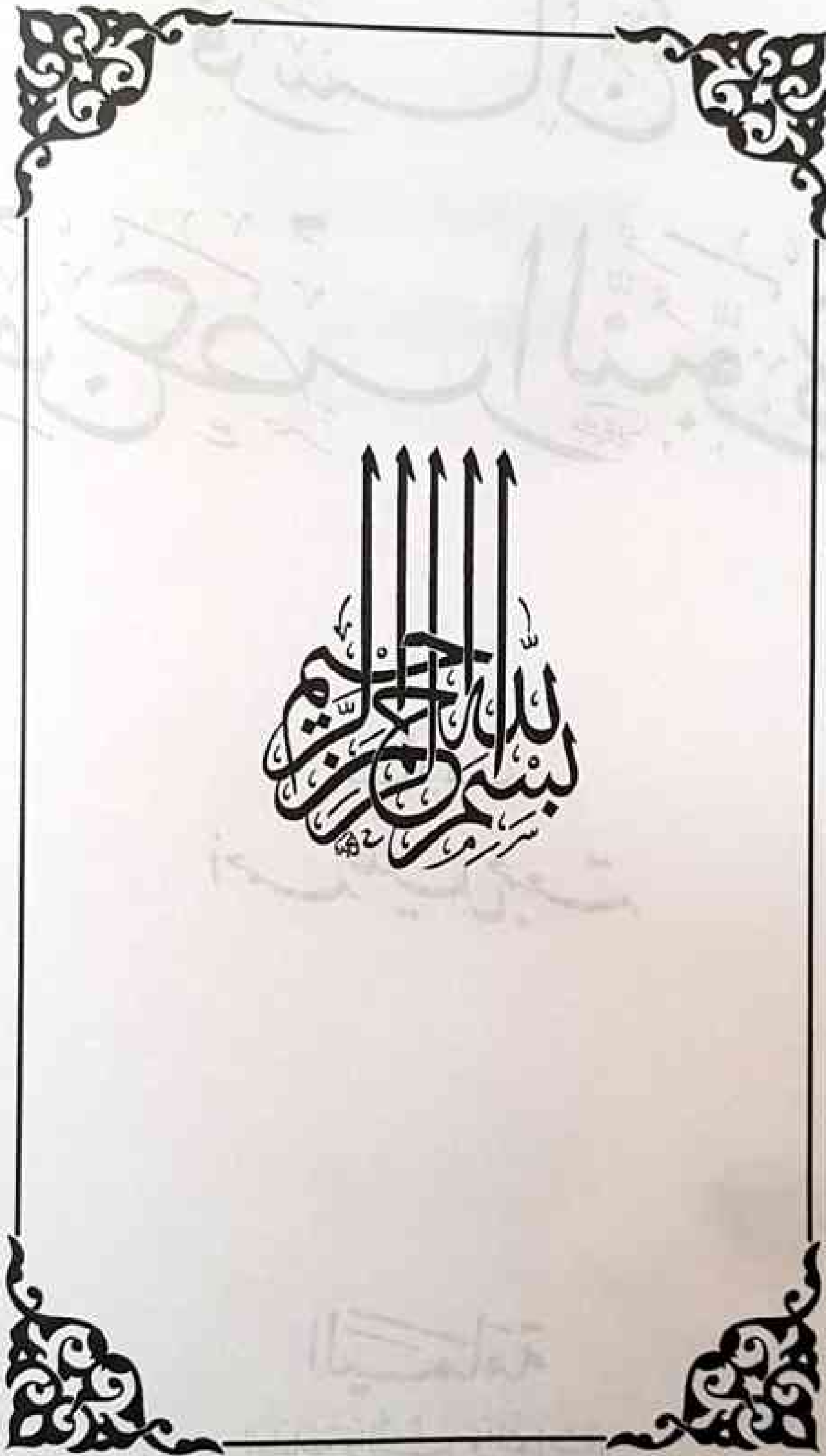
Scanned by CamScanner

فرسان من عصر النبوة

تأليف

أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، نستهديه، ونستغفره، ونعوذ به من سيِّىء القول والعمل، ونحمده حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده.

يا ربَّنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد، سيِّد الكائنات، والمبعوث رحمةً للعالمين.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وأخرج الناسَ من الظلمات إلى النور، فانطلقوا في أنحاء الأرض ينشرون العدلَ، والعلمَ، والحضارة؛ أينما حلَّتْ أقدام أولئك الفاتحين.

ورضي الله تعالى عن صحابة رسول الله ﷺ؛ الذين آمنوا بما أُنزل عليه، وهاجروا، وجاهدوا في سبيل الله، وتمثَّلوا سُنَّته الشريفة؛ في أقوالهم، وأعمالهم، وحياتهم، وكانوا التلاميذ المخلصين لمدرسة النبوة الشريفة؛ فكان منهم الخلفاءُ، والقادة، والولاة، والقضاة، والعلماء العاملون.

رضي اللهُ تعالى عنهم أجمعين. . . بحبل الله عز وجل اعتصموا، وبِسُنَّة النبي ﷺ اقتدوا، ففازوا، وربحوا، وانتصروا في الحياة الدنيا، ولهم عند الله في الآخرة الرضوان الأكبر.

ولقد صدق رسولُ الله ﷺ الذي قال: «خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1].

أما بعد:

فإنَّ الحديثَ عن فرسان رسولِ الله ﷺ له وَقْعُه الخاص في النفس المؤمنة، فأولئك الفرسان العظام تخرَّجوا في مدرسة الحبيب الأعظم سيدنا محمد ﷺ، وسخَّروا كل إمكانياتهم لإعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، ونذروا أرواحهم لتحيا كلمة التوحيد، فكانت صوارمُهم تخفقُ في الآفاق، تستأصل الشر والعدوان، وتدحر الظالمين الضالين.

أولئك قومٌ باعوا أنفسهم في سبيل الله، كما قال الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: «وأقام اللهُ له جنوداً من المهاجرين والأنصار، تُقاتل معه بالسَّيف، والسَّهم، والسِّنان، وتتصاول بين يديه في ميادين السِّباق تصاول الأقران، وتبذل في نُصرته مِنْ نفوسها، وأموالها نفائس الأثمان، تسليماً للمبيع الذي جرى عَقْدُه على يدي الصَّادق المصدوق، والتزم للبائع الضَّمان: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وها هو رسولُ الله ﷺ يُعلِّم صَحْبَهُ الكريم، ويرشدهم إلى ما فيه قوَّتهم، فيحثّ على تعلُّم فنون الفروسية، ومنها الرمي، فيقول: «ألا إنَّ القوةَ الرمي»[2].

وأمَر ﷺ أصحابهَ برمي جنود الأعداء إذا اقتربوا منهم، فعن حمزة بن

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٣٤) ومسلم (٢٥٣٣/ ٢١١).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧) ومسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) وابن ماجه (٢٨١٣).

أسيد، عن أبيه قال: قال النبي ﷺ يوم بدر حين صَفَفْنا لقريش، وصفُّوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم نبلكم»[1].

وفي رواية: «إذا أكثبوكم فارموا النبلَ، واستبقوا نبلكم»[2].

وهذا في مرحلة القتال الدفاعي. أما في مرحلة القتال الهجومي حين تتداخل الصفوف، فيأمر ﷺ بسلِّ السيوف والمجالدة بها. يقول ﷺ: «لا تسلّوا السيوفَ حتى يغشوكم»[3].

إنه الرسولُ المقدام، والقائد المغوار، المتَّصف بكل سمات القيادة العسكرية المثلى، من الشجاعة، والتقوى، والحزم، والتضحية في سبيل العقيدة، مع القوة والاقتدار، والخبرة الحربية الكاملة.

وها نحن أولاء في كتابنا هذا سنستعرض ـ بعون الله ـ حياة طائفة من الصحابة الفرسان؛ الذين بذلوا أرواحهم ليحيا دينهم خفّاقاً في كل مكان، وكل واحدٍ منهم كان سيِّداً في مجاله، وخبراته، ومهاراته، فبعضهم قد أتقن فن الرماية، وبعضهم كان عدّاءً لا يُسْبَق، وبعضهم الآخر ارتسمت على محيّاه أمارات العبقرية والجرأة... وهَدَفُ سائرهم خدمة الإسلام والمسلمين.

وقبل أن نشرع في عَرْض سِيَر أولئك الفرسان الأشاوس، لا بُدَّ من مقدمة حول الفروسية، وتاريخها، وصفات الفارس، وأنواع الأسلحة الفردية المستخدمة لدى الفرسان، وبواعث الفروسية، وغير ذلك، فلنشرعْ بالتفصيل، والله الموفِّق.

*** وقفة مع الفرسان والفروسية:**

حفل تاريخُ العرب والمسلمين بالحديث عن الفروسية والبطولة، فكانت هذه الصفة نعتاً يَسمِ الحياة العامة بالمُثُل السامية، والصفات الرفيعة، بما تحتوي عليه من جليل الأعمال، وبارع الأحوال؛ ممَّا يعطي صدىً واسعاً

---

(١) رواه البخاري (٢٩٠٠). «أكثبوكم»: قربوا منكم.

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٤ و٢٩٨٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٦٤).

يتجاوب مع الصحراء المترامية الأبعاد.

لقد كان وَضْع المرء في ذلك الوقت يتطلب ضرورةً حيازةَ مبدأ الفروسية؛ دفاعاً عن النفس، وصدّاً للغارات، وتمثيلاً للمبادىء التي تتعشّق القوة، وتُوجب القتال؛ بما يتلاءم مع طبيعة الحياة القائمة على الكرّ والفرّ، والغزو، والصراع، فهذا الوضعُ مليء بالمخاطر، مُفعَم بالمخاوف، يُوجبُ امتلاك الإنسان لعنصر القوة؛ لوجوب الدفاع، وتسويغ الحرية؛ المرتبطة بعامل الفروسية.

والفارسُ منذ القِدَم تغنّى بالحرب، وترنّم بإيقاعها الداوي، وموسيقاها المجلجلة؛ بما توحيه من صور متلاحقة متتابعة، في مشاهد اقتحام الخيل لقلب المعمعة، حين تشتدُّ الأمور، وتدلهمّ الخطوب، وتخفت الأصوات، وتبقى همهماتُ الأبطال، وصليل السيوف، وصهيل الخيول، والعرق يتصبّب من الأجساد، وذاك يصرخ من الألم، بينما الآخر يتضرّج بدمائه، والثالث يطعنُ برمحه، إلى ما هناك من مشاهد قاسية، تُوجِب لحظات الألم، وتبعث على القسوة، وروعة المشاهد، وثبات الشجاع بقوة وجَلَد، فهو لا يعرفُ التواكل، ولا يركن إلى الهزيمة، مُوطّناً نفسه على اقتحام الوغى، فتراه في مُقدِّمة القوم، يحمي وجوههم، ويصدُّ عنهم.

*** من صفـات الفروسيـة:**

الذي نعلمه من عالم الفروسية: أنه يتوجَّبُ على أفرادها الأشاوس أن يتمتَّعوا بسامي المثل، ورفيع الصفات، كالجود، والمروءة، والمعونة، والنجدة... وذلك في اتصالٍ أخلاقي مع الحرب[1]، فالقوة بجانب

---

(١) سَجَّل الشعراءُ الفخرَ بأخذ الأسرى في الحرب، وليس بعيداً عن الذهن مقولة أكثم بن صيفي في واحدةٍ مِنْ خطبه يوم الكلاب الثاني بين تميم ومذحج، وذلك في قوله: «أهنأ الظفر كثرة الأسرى». انظر: أيام العرب في الجاهلية؛ لمحمد جاد المولى ورفاقه (ص ١٢٦).
ومِنْ فخرهم بأخذ الأسرى قول عمرو بن كلثوم:
فــآبــوا بــالنّهـاب وبـالسَّبـايـا   وأبْنَــا بــالملــوك مُصَفَّــدينـا=

الخُلُق[1]، صنوان لا يفترقان، في تشكيل متلاحمٍ لبناء صرح الفروسية، الخالد بالمعنى الشامل والأعم، في تشابك علاقاته، واجتماع مفاهيمه؛ بصورٍ رائعة تحكي قصة البطولة، وهي تتفانى في الدفاع عن القوم، وإيجاد

= لكن العرب عاملوا الأسرى من باب الالتزام الخُلُقي معاملة المغلوب، بَيْد أنهم لم يقتلوهم في الأعمِّ الأغلب، لاستهجانهم هذه العادة.

وافتخر الشعراءُ العربُ بإطلاقهم الأسرى من باب اتصال الحرب بالخُلُق الرفيع، فمن ذلك قول الخنساء في أخيها صخر:

ورُبـط نعمـى منـك أنعمتهـا ... علـى عنـاة عُلُـقٍ فـي الإسـارِ

وقد يُطلقون الأسرى لشفاعة أحد شعرائهم أمثال علقمة الفحل بن عَبَدَة؛ الذي شَفَع لأخيه شأس بن عَبَدَة؛ الذي أسره الحارث بن أبي شَمِر الغساني مع سبعين رجلاً من بني تميم، فأتاه علقمة، ومَدَحه بقوله:

فـلا تحـرمنـي نـائـلاً عـن جنـايـةٍ ... فـإنـي امـرؤ وسـط القبـابِ غـريـبُ

وفـي كـلِّ حـيٍّ قـد خبطـت بنعمـةٍ ... فحـقٌ لشـأس مـن نـداك ذنـوبُ

والموضوعُ يطولُ لو تتبَّعنا التفاصيل، بَيْد أننا في معرض الاستشهاد لاتصال الحرب بالخُلُق ليس غير.

(١) إنَّ مَنْ ينظر في كتاب «الأصمعيات» للأصمعي، القصيدة الأولى، وفي البيت الثامن منها، يجد أن الشاعر سُحَيْم الرِّياحي يجمعُ بين القدرة على الكرم والقوة الجسدية، وهو يتحدَّى الأخوص والأُبيرد الشابَّيْن اليافعَيْن، وكان سُحَيْم قد بلغ من العمر عتياً، فقال:

فـإنَّ عُـلالتـي وجِـراءَ حـولـي ... لـذو شِـقٍّ علـى الضَّـرَعِ الظَّنُـونِ

وكذلك يقرنُ سَهْمُ بنُ حَنْظَلة الغنوي بين القوة على العدو، وعزَّة قومه، وكرم منصبه، وبلاء عشيرته في الحفاظ، والحرب، وقهر العدو، ومن ذلك قوله:

لايمنـعُ النـاسُ منـي مـا أردتُ ولا ... أعطيهـم مـا أرادوا، حُسْـنَ ذا أدبـا

لا تُخْفَضُ الحربُ للدنيا إذا استعرتْ ... ولاتبـوح إذا كُنّـا لهـا شُهُبـا

حتى تَشُدَّ الأسارى بعدما فَزِعوا ... مـن بيـن مُتكـىء قـد فـاظ أو كـربـا

سـائِلْ بنا حَيَّ علباء فقد شـربـوا ... مِنّا بكـأسٍ فلـم يستمـرئـوا الشُّـزبـا

إنّـا نحسُّهـم بـالمشـرفـيِّ وهـم ... كالهِيْم تُغْشى بأيدي الذّادة الخُشُبا

نلاحظ في الأمثلة: اقتران القوة بالحزم، والكرم بالعزَّة.

طريق النَّجاة لهم، وسط طريقٍ لاحبٍ شاقّ، يتطلَّبُ قوة عنيفة، واقتداراً لا يكلّ.

وفي الحقيقة: إنَّ الفروسية مظهر فتيّ، يتَّصفُ بالقوة، والمغامرة، وروح التجالد، في جرأةٍ مُتفرِّدة، لا تخشى الاقتحام، ولا ترى في الإقدام إلاَّ وفاءً للفروسية(١)، وتأكيداً لأسلوب الحياة التي تعطي صفة البطل لمن خاض المعارك، وحمى الحِمى، وكُتِب له الحديثُ الحميدُ على مَرّ الزمن، فهو لا يروع من الموت ما دام سيلقاه في أيّ وقت(٢).

إنَّ الفارسَ شجاعٌ لا يهابُ الموت، ومغوارٌ يهزأ بالخوف؛ إذ تراه يقدم على منازلة الأبطال، واقتحام المخاطر، في مغامرةٍ تطاردُ المستحيل، وتشير إلى قوة الفارس، وجرأته، وتماسكه.

لذا لا يغيبُ عن بال الفارس الوقوف في اللحظة المناسبة، مُفرِّغاً إرادة

---

(١) ذكر العباس بن مِرْداس أداء قبيلته للحرب حق الأداء، فَفَخَر بالشجاعة والاستبسال؛ إذ كان إقدامُهم في سبيل القيم القائمة آنذاك؛ لأخذ حقهم من أعدائهم الذين ظلموهم، فقتلوا منهم ستَّةً من كبارهم، فكان الرَّد عنيفاً من باب الفروسية، ومُثُلها العليا، يقول:

فَبِتْنا قعوداً في الحديد وأصبحوا ... على الرُّكُبات يَخْرِدون الأنافسا
فلَم أرَ مثلَ الحيِّ حَيّاً مُصَبَّحاً ... ولا مِثْلَنا لما التقينا فوارسا
أكَرَّ وأحْمى للحقيقة منهمُ ... وأضْرَبَ منا بالسيوفِ القوانسا

والحقيقة - هنا - هي ما يحقُّ للمرء أن يحميه، وهل هناك أحقّ من المحافظة على الحياة، ودَفْع الأذى عن النفس والجماعة؟!

(٢) قال عنترة بن شداد:

بكرتْ تخوِّفني الحُتُوفَ كأنني ... أصبحتُ عن غَرَضِ الحُتُوفِ بِمَعْزِلِ
فأجبتُها إنَّ المنيةَ مَنْهَلٌ ... لا بُدَّ أن أُسْقَى بكأسِ المَنْهَلِ
فَأقْني حياءَكِ لا أبالكِ واعلمي ... أنّي امرؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقْتَلِ

فهنا تصميمٌ على الحرب، وتأكيد على الشجاعة والقوة، وما يستلزمُ ذلك من فروسية، تتمثَّلُ فيها فكرة البطولة، وهي تُقدِّم من ذاتها ما يُعظِّم النظرة للبطل المحارب، وهو يشقُّ الصفوف بلا خوفٍ ولا وَجَل، مُقتحماً لجاج المعركة بقلبٍ كالحديد، وقوةٍ لا تُضاهى.

التفجير في إعطاء الواقع حقيقة نفسه، وهو يُبدي من ضروب الشجاعة ما يؤكِّد رؤية مُهِمَّة تسير في الناس سريان النار في الهشيم، وهي أن الفارس مغوار يستجيب للنجدة، وينسابُ في ساحات القتال يغيث الملهوف، ويلبي هتاف كلِّ صارخ[1].

فمن خصائص الصحابي البطل الفارس: إقدامٌ لا يلين، ومغامرة جريئة، وقوَّة عنيدة، في ثلاثيةٍ تؤكِّد الإبداع العملي، وهو يتسربلُ في الموقف الحربي، مُثيراً شعور الرهبة والخوف، رابطاً بين العلاقات النفسية الداخلية وهي في معوقاتٍ كثيرة، تتشكَّل عند الفارس: إقداماً لا يُهادِن، واستجابةً سلوكية تنطوي على الحضور الواعي للمثابرة على القتال، وتفهُّم المواقف حين يُؤْثِر البطلُ الفارسُ الموتَ على الفرار، مُتمثِّلاً حِسَّ المأساوية، والقهر، والتواصل مع الآخرين.

* **بواعث الفروسية:**

قد يتساءل المرءُ: ما بواعث الفروسية؟ وما الدوافع التي تجعل فلاناً فارساً عملاقاً، يتحدَّى الأقران، ويُجندل الخصوم، بقوّة هدَّارة، وعزيمة لا تُضاهى؟

والجواب عن ذلك يتمثَّل في النقاط التالية:

(أ) الطَّبيعة الصَّحراوية:

ارتبط العربيُّ منذ القديم بالبيئة ارتباطاً متيناً؛ بسببٍ من تعلُّقهم الإجباري بها، حين طَغَتْ عليها عِدَّةُ عوامل؛ كالارتحال والظَّعْن المستمرَّيْن، وتغيُّر الطقس بين الليل والنهار، ورحيل القبائل في كلِّ آن؛ ممَّا يُرسِّبُ أحلى الذكريات في نفس الإنسان، ويدفعه إلى التعلُّق بالبيئة تعلُّقاً لا ينفصم[2].

---

(١) عبَّر عنترة بن شداد عن هذا الموقف بقوله:

إن يَلْحَقُوا أَكْرُرْ وإن يَسْتَلحِمُوا ... أَشْدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ

(٢) إنَّ التعلُّق بالبيئة عند الجاهليين يتمثَّل في نقطتين اثنتين، هما:

- الوقوف على الأطلال. =

وشيءٌ آخر نلاحظه: أن الطبيعة الصحرواية فرضتْ نوعاً من القسوة على الإنسان؛ لما يدورُ فيها من سَلْب ونَهْب، وقَتْل، في دأب لا ينقطع، واستمرارية لا تهدأ؛ ممّا يتطلّب صفاتٍ خاصّةً تعملُ على إذكاء سمة القوة، وتمثُّلها فروسيةً حقّة، تدفع عن الحق بكل ما ملكتْ مِنْ وسائل الاستعداد والتهيُّؤ، فثمَّة رسالة واعية يحملها الفارسُ في أعماق نفسه، وفي سلاحه ليُسطِّر من خلال ذلك: مبادئه، وقِيمَه عن الحياة بكل أصعدتها، وتجلّياتها، مُبْرِزاً وفاءه، وإخلاصه في أدق تعبير، وأرشق حركة.

(ب) البيئة الاجتماعية:

ساد الحياة الاجتماعية العربية نظامٌ قبلي، ومِنْ هنا أعطى الفردُ قبيلته كلَّ الولاء، والمناصرة، والمؤازرة، فهو يذودُ عن حِماها، ويدافع عن أرضها

= ـ وتمجيد اللحظة الطللية.

فقد أتى شعراءُ الجاهلية بالوقوف على الأطلال في شعرهم، فمن ذلك قول امرىء القيس:

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللّوى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقول طرفة بن العبد:

لخولةَ أطلالٌ بِبُرْقةِ ثَهْمَدِ ... تلوحَ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم ... يقولون لا تهلكْ أسىً وتجلَّدِ

وقول زهير بن أبي سُلْمى:

وقفتْ بها مِنْ بعد عشرين حِجَّةً ... فَلأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بعد تَوهُّمِ

وقول لبيد بن ربيعة:

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالنا ... صُمّاً خَوالِدَ ما يبينُ كلامُها

وهؤلاء وغيرهم رأوا الديار صُمّاً لا تتكلّم، إلاّ عوف بن عطية القائل:

وقفتْ بها أُصُلاً ما تبينُ ... لسائلها القولَ إلاّ سِرارا

فقد مَنَحَ الرسومَ العافية نفحةً حيويةً فيها نجوى، وبثٌّ روحيٌّ.

كما أن الشعراء الجاهليين مجّدوا اللحظة الطللية، فسألوا الديار، وكلّموها، ووصفوا بقاياها، وخرابها، والحيوان الذي كان يألفها، وحال الشاعر حين الوقوف عليها.

انظر: «شعر الوقوف على الأطلال» للدكتور: عزّة حسن (ص١٧ ـ ٧١).

وناسها، فهو يرى نَفْسَه من خلال قبيلته، وما ترسمُه من مُقوِّمات، ومُثُل.

إن قضية الغزو في النظام القبلي قضية حيوية مُهِمَّة، انبثاقاً من ظاهرة التنافس، والتزاحم على موارد العيش مِنْ: كلأ، ومرعى، وماء، ومِنْ هنا نشأ الحسدُ والبغض، مِمَّا أدَّى إلى تضخُّم نزعة العدوان، وبالتالي قيام التنافر، والحروب.

والذي أراه: أنَّ نزعة الشَّرِّ كانت متفشِّية، وواضحة الملامح، تقوم على قانونٍ جليّ: «البقاء للأقوى» فالضعيف لا حياة له؛ لذا حمل العربيُّ في القديم السلاحَ دفاعاً عن النفس، ودَرْءاً للعدوان، وحماية للأهل، فكان السلاحُ سياجاً يتحصَّنُ من خِلاله ضدَّ التنافس بين القبائل، والتنازع على مقوِّمات العيش؛ ممَّا أشاع فيهم حِسَّ الجوع، فنشأ الكرمُ في المقابل، وتوسَّع مفهومُ الاستغاثة، انطلاقاً من الأخلاق النبيلة التي مجَّدها العربُ آنذاك.

وقد لعبت البيئة الاجتماعية دوراً مُهِمَّاً في نشوء الفروسية، والتمتع بأعلى قدرٍ من القوة والاستطاعة، التحاماً مع الواقع المُعاش، وتفجير الطاقة الحربية في سبيل الجماعة.

(ج) الحـرب:

ساعدتِ الحربُ إلى إفساح المجال أمام المقاتلين كي يتدرَّبوا على حَمْل السِّلاح، وحيازة فنون القتال، وتعويدهم على الجرأة والمصاولة، فكل جماعةٍ لها فرسانها، ورجالاتها، وقوَّتها، وهي تفخر بذلك، وأنَّها تأخذ حقَّها دون الاستعانة بغيرها.

والحرب صعبة المراس، شديدة القسوة، مُتأسِّسة على العداء والتنازع، وقد تنشأ لنصرة قريب، ونجدته، كقول القائل:

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبحْ إبلي ... بنو اللَّقيطة من ذُهْلِ بن شيبانا
إذاً لقام بِنَصْري معشرٌ خُشُنٌ ... عند الحفيظةِ إنْ ذو لَوْثةٍ لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذَيْه لهمْ ... طاروا إليه زرافاتٍ ووِحْدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبُهم في النّائبات على ما قال بُرْهانا
لكنَّ قومي وإنْ كانوا ذَوِي عَدَدٍ ليسوا من الشرّ في شيءٍ وإنْ هانا
كأنَّ ربَّكَ لم يَخْلُقْ لخشيته سِواهم مِنْ جميع النّاس إنسانا
يجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهلِ الظُّلْم مغفرةً ومِنْ إساءة أهلِ السُّوءِ إحسانا
فَلَيْتَ لي بهم قوماً إذا ركبوا شَدُّوا الإغارةَ فرساناً ورُكْبانا

وقد حَفَلَ الشِّعْرُ العربيُّ بالعديد من صُوَرِ القتال، وغارات الأبطال، وهم يُقَدِّمون التَّضحيات في فَنٍّ حربيٍّ فريد، تلتحم فيه الأجسادُ، وتبرقُ السُّيوف، وتصهل الجياد، في تدافعٍ والتحام.

ومِنْ شدَّة تأثير الحرب على العربيّ، نشأت أيامٌ تُدعى بـ «أيام العرب» وهي الحروبُ التي قامتْ بين القبائل العربية، وهذه الأيامُ نعرفُ مِنْ قراءتها معالمَ البطولة، وملامح الفروسية، وحقائق كثيرة عن العرب في فنِّهم الحربيّ.

وتُعتبر «أيّامُ العرب» مَسْرحاً لبطولتهم، وينبوعاً خصْباً لشعرهم الراقي، وتُوضِّح شأنهم في الحماسة، والقتال، وما شجرَ بينهم.

«ثم هي في أسلوبهم القصصي، وبيانهم الفني مرآة صافية لأحوال العرب، وعاداتهم، وأسلوب الحياة الدائرة بينهم، وشأنهم في الحرب والسِّلْم، والاجتماع والفرقة، والفداء والأسر، والنّجعة والاستقرار. وهي أيضاً مرآةٌ صادقةٌ تظهرُ فيها فضائلهم وشِيمهم، كالدفاع عن الحريم، والوفاء بالعهد، والانتصار للعشيرة، وحماية الجار، والصبر في القتال، والصدق عند اللقاء»[1].

*** عناصر الفروسية:**

لا تُذْكَرُ الفروسية إلا تُقْرَنُ مع الخيل والحرب والسيف والرمح والترس... فالفروسية لها عنصران أساسيان هما: السلاح والخيل. وقد

(١) أيام العرب في الجاهلية؛ لأحمد جاد المولى ورفاقه، المقدمة (ص: ط).

وُصِفا وَصْفاً مُذْهلاً ومثيراً، بما يُعطي الملاءمة بين القوة والعدّة، من خلال تجربة الفروسية في روعة تصويرها، ومدى آفاقها، وامتدادها في قوّة الساعد، وصلابة الإرادة.

أ ـ الخيـل:

شَغَل موضوعُ الخيل شطراً واسعاً من تفكير العربي، وحاز مساحةً واسعة من حياته، وما ذاك إلا لخصائصه الفطرية، وتكيُّفه مع الواقع.

فالعربيُّ أبيٌّ بطبعه، مقدام بحكم طبيعة حياته[1]، ومثل هذه الصفات تدفعه لامتلاك أسباب القوة، متمثلة في الفرس مطيّة فعّالة للكر والفر. قال الحُصين بن الحمام السَّهمي في فرسه الضُّبَيْح:

سيمنعنـي مـن أن أُسـامَ دنيَّـةً أبـي وشكيلـي والضُّبيـحُ ومَعْشَـري
وأبيـضُ مصقـولٌ أُجِـدَّ جِـلاؤُهُ ورُكِّـب فـي لَـدْنِ المَهَـزَّةِ أسمـرِ

ثم «إنَّ الخيل الأصيلة نشأت في جزيرة العرب فوق هضاب نجد، ومنطقة عسير واليمن، تلك المناطقَ التي كانت وما زالت من أخصب وأطيب المناطق، وأكثرها ملاءمةً لتربية الجياد، استناداً إلى الأدلة العلمية التي قدَّمتها أحدث الكشوف الأثرية»[2].

وقد أدرك العربيُّ مكانة الفرس، ودوره الكبير في حياته ومصيره، فهو يُصاوِل به الأخطار، ويدفع عنه غائلتها، حتى غدا الفرسُ صنواً للقوة البشرية، فكان العرب «لا يهنِّئون إلا بغلام يُولَد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج»[3].

وقد أَحْسَنَ العربيُّ رعاية الفرسَ، وتغذيته، وإيثاره، فساواه بأبنائه وهم عُدَّتُـه وأحباؤه، يقول زيد الخيل في فرسه الهطّال:

---

(١) شعر الحرب في العصر الجاهلي؛ للدكتور علي الجندي (ص ٢٠).
(٢) وصف الخيل في الشعر الجاهلي؛ للدكتور كامل الدقس (ص ٢٧).
(٣) العمدة؛ لابن رشيق (١/ ٦٥).

أقــرّبُ مــربــطَ الهطّــالِ إنــي أرى حــربــاً تُلَقّــح عــن حِيــالِ
أســوِّيــه بمكنــف إذا شتــونــا وأوثــره علــى جُــلّ العيــالِ [1]

وها هو عنترة بن شدَّاد من أشدِّ المعنيين بالحديث عن أفراسه بإعجابٍ شديد، فحاوره مُدْرِكاً عنه ألحانه المحزنة:

فــازورَّ مِــنْ وَقْــعِ القَنَــا بِلَبَــانِــه وشكَــا إلــيَّ بِعَبْــرَةٍ وتَحَمْحُــمِ
لو كان يَدْرِي ما المحاورةُ اشتكى أَوْ كـان يَـدْرِي مـا جوابُ تَـكَلُّمي

فالفرسُ موضوع حيويّ رئيس، يرتبط بالحياة ارتباط الروح بالجسد، فلا يمكن التخلّي عنه، أو تَرْك شؤونه للآخرين، بل ينبغي إفرادُه بالفَضْل، ومَنْحه قيمة عُلْيا متميزة، تليقُ بما يُقدِّمه من مشاهد مُدْهِشة، وتدبير عجيب.

وجاء الإسلامُ فأبقى على مكانة الخيل، بل بالغ في الحثّ على الاهتمام بها، فهي رَمْزُ القوة، ووسيلة لرفعة الدِّين وأهله؛ فكان من مظاهر ذلك أنْ أقسم بها سُبحانه، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١ ـ ٥].

وقد جَعَل عز وجل الخيلَ مِنْ وسائل الاستعداد للبأس واللقاء، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كما وردتْ أحاديث نبويّة في تكريم الخيل، فمن ذلك:

* عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنِ احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإن شِبَعَه وريَّه، ورَوْثَه، وبَوْلَه، في ميزانه يوم القيامة»[2].

* وعنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة. والخيلُ ثلاثة؛ خيلُ أجر، وخيل وِزْر، وخيل سِتْر؛ فأمّا

---

(١) حلية الفرسان؛ لابن هذيل الأندلسي (ص ١٥٩).
(٢) رواه البخاري (٢٨٥٣) وأحمد (٢/ ٢٧٤) والنسائي (٤٤٠٣).

خيلُ ستر، فمن اتخذها تعفُّفاً، وتكرُّماً، وتجمُّلاً، ولم يَنْسَ حقَّ ظهورها وبطونها في عُسْره ويُسْره، وأما خيلُ الأجر فمن ارتبطها في سبيل الله، فإنها لا تُغَيِّبُ في بطونها شيئاً إلا كان له أَجْر ـ حتى ذَكَرَ أرواثها وأبوالها ـ ولا تعْدُو في وادٍ شوطاً، أو شوطين إلا كان في ميزانه. وأمَّا خيلُ الوِزْر فمن ارتبطها تبذُّخاً على الناس، فإنها لا تُغَيِّبُ في بطونها شيئاً إلا كان وِزْراً عليه ـ حتى ذَكَرَ أرواثها وأبوالها ـ ولا تعْدُو في وادٍ شوطاً أو شوطين إلا كان عليه وزر»(١).

* وعن أبي كبشة، عن النبي ﷺ قال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وأهلُها معانون عليها، والمُنْفِقُ عليها كالباسط يَدَهُ بالصَّدقة»(٢).

* وعن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «البركةُ في نواصي الخيل»(٣).

* وعن أبي ذر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ فرسٍ عربيٍّ إلا يُؤْذَنُ له عند كل سَحَرٍ بكلماتٍ يدعو بهن: اللهم خَوَّلتني مَنْ خَوَّلتني مِنْ بني آدم، وجعلتني له فاجعلْني أحبَّ أهلِه ومالِه إليه، أو: مِنْ أحبِّ أهلِه ومالِه إليه»(٤).

«إنَّ ما وَرَدَ في الأحاديث النبوية المتقدِّمة من تكريم للفرس العتيق، وما خُصَّ به الفرسُ العربي، لم يكن تعصُّباً، بل حِفاظاً على صفات الفرس الأصيل؛ التي عرفها العربيُّ في الماضي، ولَمَسَها المهتمُّون بشؤون الخيل والسباق هذه الأيام. . وهي صفاتٌ بعضها جسميٌّ يتَّصل بتناسقٍ في الأعضاء يمنحُ الفرس مزيداً من القدرة على السَّبْق والانعتاق، وبعضها نفسي يتَّصل

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥).
(٢) رواه الحاكم (٢/ ٩١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٩).
(٣) رواه البخاري (٢٨٥١) ومسلم (١٨٧٤).
(٤) رواه النسائي (٦/ ٢٢٣).

بسلوك الفرس، وصلته بصاحبه، من: الذكاء، والألفة، والوفاء...»[1].

ب ـ الأسلحة:

السلاح: اسمٌ جامعٌ لآلة الحرب. وقد استعمل الفرسان الأسلحة المتنوعة لإبراز بطولاتهم، ومن ذلك:

* **السيف**: وله أنواع كثيرة، منها:

- السيوف اليمانية؛ وهي المنسوبة إلى اليمن. ومما يجدرُ ذِكْرُه أنه قد انكسرت تسعةُ أسياف متنوعة في يد خالد بن الوليد يوم مؤتة، ولم تَبْقَ في يده إلا صفيحة يمانية.
- السيوف المشرفية، وهي المنسوبة إلى مشارف الشام، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف[2].
- السيوف الهندية؛ ويُسمَّى كلٌّ منها: المهنَّد، وهو المصنوعُ بالهند.
- السيف البصروية؛ وهي منسوبة إلى بصرى الشام.
- السيوف القلعية، نسبة إلى القَلَعة ـ حصن بالبادية ـ.
- السيوف السليمانية؛ وسُمِّيت بذلك لما كانت تُسقى به من السم السليماني ليزيد في صلابتها ومضائها.
- السيوف السريجية؛ تُنسب إلى سريج، وهو رجلٌ من بني أسد، كان حدَّاداً يصنع السيوف.

والسيف روحُ الفروسية، والمدافعُ عن حياض الحياة، والذائد عن مضاربها، وهو الطلقةُ الروحية للفرسان، والنزعة المُثلى لتحقيق المبادىء والقيم، وفرْضها على الرافضين.

والسيف يفلقُ الهامات، ويجندل الأبطال، ويبقر البطون، ويقطعُ البنانَ، والكفَّ، والمعصم، وفيه بَثٌّ إذاعي على الموجات العاملة؛ طويلها

---

(١) أسماء خيل العرب؛ للأسود الغندجاني، تحقيق: د. محمد علي سلطاني (ص ٢٣).

(٢) الحرب عند العرب؛ لإبراهيم المحمود (ص ٥٤).

ومتوسطها، وقصيرها، فما يشتهرُ بطلٌ إلا ويكون السيفُ معه.

وقديماً قال عنترة:

ولقـد لقيـتُ المـوتَ يـوم لقيتُـه   مُتسـربـلاً والسيـف لـم يتسـربـلِ

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصباً   شَطْري وأَحْمي سائري بالمُنْصُلِ

* الرمح: هو سلاحٌ قديم، وشاع استعمالهُ عند العرب؛ لفوائده الكثيرة، فكان سلاح الفرسان والمشاة، ويحتاج إلى تعليمٍ، ومرانٍ، ودربة.

ويمكن أن نعرج على حكايةِ الرمح عند عنترة بن شداد باعتباره «ملك الحروب» فنقول:

تمتاز رماح عنترة بأنها تنتقي رئيس الكتيبة، فتطعنه طعنة لا مثيل لها، فإذا به يتهاوى صريعاً لا قوة فيه.

ويشهدُ الأعداء لعنترة أنه يُفَرِّق جموعهم، ويشتّت شملهم، ويقضّ مضاجعهم بطعناته، فيتفرّق الجمع لذلك، يقول:

والْخَيْـلُ تَعْلَـمُ وَالْفَـوَارِسُ أَنَّنِـي   فَـرَّقْـتُ جَمْعَهُـمِ بِطَعْنَـةِ فَيْصَـلِ

ويصف عنترةُ رمحه بأنه طويل، متتابع في استقامةٍ منقطعة النظير. وهو صُلْبٌ، أملس، ويُشبه النار لصفائه وحدَّته، فإذا نُظِر إليه ليلاً أضاء الظلامَ، فكأنّه النار، يقول:

ومُطَّـرِدُ الكُعُـوبِ أَخَـصُّ صَـدْقٌ   تَخَـالُ سِنَـانَـهُ فـي اللَّيْـلِ نَـارَا

وينعتُ رمحه بأنّه ليّنٌ في اضطرابه واهتزازه. وهو في ذاته صلب، شديد الكعوب، مُقوّم ومُسْتوٍ. يقول:

فَظَلْنَـا نُكـرُ المشْـرِفِيَّـةِ فِيْهِـمُ   وَخِرْصَانَ لَدْنَ السَّمْهرِي المُثَقَّفِ

ويبدأ عنترة بالتحدّث عن مواقف قومه معه، وعن مواقفه مع أهله وقبيلته، فيفتخر بأنّ قومه أهل نجدة، يحمون أنفسهم بالرماح، ويحرزون بقيّتهم بها، فلو كان الدهرُ يُبقي باقياً، لبقوا لمنعتهم وقوتهم.

ويتحدّثُ عن قوته وبراعته في فنون القتال، بأنه يطعنُ برمحه طعنة بارعة، نافذة، ثم يعلو خصمه بالسيف الصقيل اللامع، في إجهازٍ على العدو حتى

لا تقوم له قائمة، وهو نشدانٌ للحرية عن طريق حيازة القوة، و تخضيد شوكة الطغاة بقتلهم، وتدمير قواهم، يقول:

فَطَعَنْتُـهُ بـالـرُّمْـحِ ثُـمَّ عَلَـوْتُـهُ   بِمُهَنَّـدٍ صَـافِـي الحَـدِيْـدَةِ مِخْـذَمِ

وحين تشتدُّ المعركة، ويحمى الوطيسُ، وتحمرّ الحُدُق، يتّقي الأبطالُ بعنترة، ويحتمون من خلفه، فيكونُ أقربهم للعدو، فينادونه باسمه أنْ أَقْبِلْ وأَقْدِم، فأنتَ لها يا عنترة.

ويُقْبِلُ الشاعر الفارس مندفعاً، بينما الرماح تنهالُ بغزارة على صدر فرسه الأدهم، يقول:

يَـدْعُـوْنَ عَنْتَـرَ، وَالـرِّمَـاحُ كَـأَنَّهَـا   أَشْطَـانُ بِئْـرٍ فـي لَبَـانِ الأَدْهَـمِ

ويقاتل البطل فيطعن الطعنة الواسعة؛ إذ يعترض القَرْن، فيجعلَ دمه ينزف، وتصفرّ كفه من الهول. يقول:

قَدْ أَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ   تَصْفَـرُّ كَـفُّ أَخِيْهـا وَهْـوَ مَنْـزُوْفُ

ويُكْثِرُ من الافتخار بقومه، بأنّهم يطعنون برماحهم في أنوف الأعداء، لأنهم حاذقون، مهرة، يقول:

نُعْـدِي، فَنَطْعَـنُ فـي أُنُـوْفِهِـم   نَخْتَـارُ بَيْـنَ القَتْـلِ والغُنْـمِ

وطعناتُ عنترة في المعركة، تُنبىءُ عن قوته وشجاعته، يقول:

وَأَطْعَنُ في الهَيْجَا إذا الخَيْلُ صَدَّها   غَـدَاةَ الصَّبَـاحِ السَّمْهَـرِيُّ المُقَصَّـدُ

ويفتخرُ بقومه بأنَّ رماحهم طويلة، مستقيمة، ذات تأثير كبير، ونفاذٍ أكيد، حتى إنَّ هذه الرماح تنغرز في جانبي الفرس، فتحفرُ فيهما خدوداً عريضة، يقول:

كَـأَنَّ رِمَـاحَهُـمْ أَشْطَـانُ بِئْـرٍ   لَهَـا فـي كُـلِّ مَـدْلَجَـةٍ خُـدُوْدُ

ويفخرُ بأنّهُ يطعنُ الفارسَ برمحه طعنة قوية، فيجعله يتردّى على الأرض، يتجرجر في الرمح العريض الطويل، يقول:

وَآخَـرَ مِنْهُـم أَجْـرَرْتُ رُمْحِـي   وَفـي البَجَلِـيِّ مِعْبَلَـةٌ وَقِيْـعُ

ويتحدّثُ عن حالة من حالات قتاله، فيقول معتزاً بأنه ناول خصمَه طعنة

قوية خارقة، من رمحٍ مُقَوم، صلب مستقيم:

جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ القَنَاةِ مُقَوَّمِ

ويُفصِّل الفارسُ البطلُ في تصوير طعنات رمحه تصويراً بديعاً، يدلُّ على طول الممارسة، وصدق الخبرة، والمحبة البديعة للرمح، فهو يعاجِلُ خصمه بطعنةٍ من رمحه الليِّن عند الهزّ، فينفر الدمُ من جانبٍ إلى جانب، أحمر قانياً، متدفقاً، فوّاراً، يقول:

عَجِلَتْ يَدَايَ لَهُ بِمَارِنِ طَعْنَةٍ وَرَشَاشِ نَافِذَةٍ كَلَوْنِ العَنْدَمِ

وإنْ كان عنترة قد نحل جِسْمُه، ورقَّ عظمه، وهُدَّت قواه، فبدا سقيماً، هزيلاً، فيعودُ سببُ ذلك إلى مباشرته الحروب، وتعرُّضه لأسنّة الرماح، يقول:

إمَّا تَرَيْنِي قَدْ نَحَلْتُ، وَمَنْ يَكُنْ غَرَضاً لأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ يَنْحَلِ

وممَّا تقدَّم نلاحظُ أنَّ الرمح استمرّ مع عنترة، يصاحبه في الغزوات، ويماشيه في الندوات، هو الجليس والصَّاحب والمؤنس، وهو المدافع والحامي.

* السهم: السِّهام، والنبال، والنشّاب أسماء لشيء واحد، وأجود الخشب عند القوس والسهم: ما اجتمع فيه الصلابة، والخفة، ورقة البشرة، وصفاء الأديم، وكان طويل العرق، غير رخو، ولا منتفش. وأجود الخشب بالمشرق: عود الشوحط، وبالأندلس: الصنوبر الأحمر الخفيف.

وقد اشتهر العربُ بالمهارة في رمي النبال، فروى البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» (ص١١٨) عن أبي رجاء الفارسي، عن أبيه، عن جدِّه، قال:

حضرتُ وقعة القادسية وأنا مجوسيٌّ، فلما رمتنا العربُ بالنبل، جعلنا نقول: (دوك دوك) يعني: مغازل، فما زالتْ بنا تلك المغازل حتى أزالتْ أمرنا. لقد كان الرجلُ منا يرمي عن القوس (الناوكية) فما يزيد سهمُها من أن يتعلَّق بثوب أحدهم، ولقد كانت النّبلة من نبالهم تهتك الدرع الحصينة، والجوشن المضاعف ممَّا علينا.

وهذا يفيدُ بأنَّ الأسلحة العربية امتازت بالجودة، والقدرة.

*** وجـاء الإسـلام...**

سادت أنماط فكرية منحرفة ومُتشعِّبة، جعلتْ من المشركين أُمّةً ضالَّةً، لا تعي مسؤوليتها في الحياة، ولا تدركُ خصائصَ إنسانيتها، حتى فقدتْ أجلَّ مقوِّماتها، من حريةٍ فكرية، وإرادةٍ مختارة، وتحكيم للعقل في مضمار الإيمان، ورجوع إلى الفطرة السَّليمة.

ومشتِ الجاهليةُ خطواتٍ سريعةً نحو شفير الهاوية، فجاء القرآنُ الكريمُ يُقلِّل من غلواء الجاهلية، ويُطامِنُ من خيلائها، ويحدُّ من انتهاكها للحرمات، فيُعيد البشرَ إلى الأصالة، وإشعارهم بالمسؤولية والإدراك لما يدور حولهم.

وجاء الإسلام نجاةً للناس من الكفر والشرك إلى الصفاء والتوحيد، وكان أمْرُ الله تعالى واضحاً كغرَّة النهار، أو أشدّ من ذلك، وهو يُقرِّرُ الحقيقة المطلقة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وجاءت العقيدةُ فاصلةً بين الكفر والإيمان، فلا مشاركة، ولا قبول، ولا تعامل، بل الحَزْم يقفُ جبّاراً بجانب إحقاق الحق، ومَحْق الباطل، فلكلٍّ وجهةٌ هو مُولِّيها، فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون: ١ ـ ٦].

فالأمرُ واضحٌ، والموقف ثابت، والحقيقةُ يُقرِّرُها التشريعُ الإسلامي، بأنَّ المعركةَ بين الحق والباطل قائمةٌ لا تهدأ، حتى يُحقِّقَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

إنَّ مسألة قتال المشركين، وأسْرهم، لها غايةٌ سامية، وهدفٌ مقصود لذاته، يتضمَّن إصلاح قلوب الناس، وفتح بصائرهم للإيمان، وانبثاق الخير من الصدور.

ويُخاطب اللهُ تعالى نبيَّه محمداً ﷺ آمِراً إيَّاه بجهاد الكفار والمنافقين،

وعدم ملاينتهم، فلا بُدَّ من المواجهة بعنفٍ، وصلابة، وغلظة، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

* **الجهاد ومشروعيته:**

كان الحديث عن الجهاد ـ ولا يزال ـ أهم تُكأة يعتمد عليها محترفو الغزو الفكري في خلط حقّ بباطل، وفي محاولة فتح الثغرات في جوانب صرح هذا الدين الحنيف؛ بغية التشكيك فيه، والنيل منه.

ولن تعجب من الدوافع إلى حصر كلِّ همِّهم في مشروعية (الجهاد) بخصوصه، إذا علمت بأن أخطر ركن من أركان الإسلام في نظر أعدائه يخيفهم ويرعبهم، إنما هو (الجهاد)!. فهم يدركون أن هذا الركن إذا استيقظ في نفوس المسلمين، وأصبح ذا أثر في حياتهم في أي عصر من الزمن فلن تقف أي قوة، بالغة ما بلغت من الأهمية، في وجه الدفع الإسلامي؛ ولذا ينبغي أن يكون البدء في القيام بأي عمل، بغية إيقاف المدّ الإسلامي، من هذه النقطة ذاتها...

وسنوضح في هذه الكلمة أولاً معنى الجهاد وغايته في الإسلام والمراحل التي تدرج فيها، ثم المرحلة التي استقر عندها، ثم نبين المغالطات التي دخلت مفهومه، والتقسيمات المتكلفة التي حُملت عليه مما لا وجه له البتة.

أما معنى الجهاد: فهو بذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامي، وبذلُ الجهاد بالقتال نوع من أنواعه. وأما غايته، فهو إقامةُ المجتمع الإسلامي، وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة.

وأما المراحل التي مرّ بها، فقد كان الجهاد في صدر الإسلام، كما علمنا، مقتصراً على الدعوة السلمية مع الصمود في سبيلها للمحن والشدائد، ثم شرع إلى جانبها ـ مع بدء الهجرة ـ القتال الدفاعي، أي رد كل قوة بمثلها.

ثم شُرع بعد ذلك قتال كل من وقف عقبة في طريق إقامة المجتمع الإسلامي، على ألاّ يقبل من الملاحدة والوثنيين والمشركين إلا الإسلام، وذلك لعدم إمكان الانسجام بين المجتمع الإسلامي الصحيح وما هم عليه من

الإلحاد أو الوثنية، أما أهل الكتاب فيكفي خضوعهم للمجتمع الإسلامي، وانضواؤهم في دولته على أن يدفعوا للدولة ما يسمى (الجزية) مكان ما يدفعه المسلمون من الزكاة.

وعند هذه المرحلة الأخيرة استقر حكم الجهاد في الإسلام. وهذا هو واجب المسلمين في كل عصر إذا توفرت لديهم القوة والعدة اللازمة. وعن هذه المرحلة يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وعنها أيضاً يقول رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»(١).

ومن هنا تعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد في سبيل الله إلى حرب دفاعية وأخرى هجومية؛ إذ مناط شرعة الجهاد ليس الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته، إنما مناطه الحاجة إلى إقامة المجتمع الإسلامي بكل ما يتطلبه من النظم والمبادىء الإسلامية، ولا عبرة بعد ذلك بكونه جاء هجوماً أو دفاعاً.

أما القتال الدفاعي المشروع، كدفاع المسلم عن ماله أو عرضه أو أرضه أو حياته، فذلك نوعٌ آخر من القتال لا علاقة له بالجهاد المصطلح عليه في الفقه الإسلامي، وهو ما يسمى بقتال الصائل، وقد أفرد له الفقهاء باباً مستقلاً في كتب الفقه، وما أكثر ما يخلط الباحثون اليوم بينه وبين الجهاد الذي نتحدث فيه!.

هذه خلاصة معنى الجهاد وغايته في الشريعة الإسلامية.

أما المغالطات والتشويهات التي دُسَّت عليه، فتتمثل في نظريتين متناقضتين في الظاهر، ولكنهما منسجمتان في باطن الأمر وحقيقته، إذ يتكون من كليهما وسيلة واحدة متسعة تهدف إلى إلغاء مشروعية الجهاد من أساسه.

أما النظرية الأولى، فهي تلك التي تنادي بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحدِّ

(١) رواه البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١).

السيف، وأن النبي ﷺ وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه، فكان الفتح الإسلامي على أيديهم فتح قهر وبطش، لا فتح قناعة وفكر[1].

وأما النظرية الثانية، فهي تلك التي تهتف بعكس ذلك تماماً، أي أنه دين سلام ومحبّة، لا يشرع الجهاد فيه إلا لرد العدوان المداهم، ولا يحارب أهلُهُ إلا إذا أرغموا على ذلك وبودئوا به.

وعلى الرغم من أن هاتين النظريتين متناقضتان كما ذكرنا، فإن أرباب الغزو الفكري أرادوا أن يستولدوا منهما غاية معيّنة، هي وحدها المقصودة من كلا هاتين الأطروحتين. وإليك إيضاح ذلك:

لقد أشاعوا وروجوا أولاً إن الإسلام دين بطش وحقد على الآخرين، ثم انتظروا إلى أن آتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وإنكار هذا الظلم في حق الإسلام. . .

وبينما المسلمون يلتمسون الرد على هذا الباطل، قام من أولئك المشككين أنفسهم من اصطنع الدفاع عن الإسلام بعد طول علم وبحث متجردين، وراح يردّ هذه التهمة قائلاً: «إن الإسلام ليس كما قالوا دين سيف ورمح وبطش، بل هو على العكس من ذلك: دين محبة وسلام لا يُشرع فيه الجهاد إلا لضرورة العدوان المداهم، ولا يُرغَّب أهله في الحرب ما وجدوا إلى السلام من سبيل».

فصفَّق بسطاء المسلمين طويلاً لهذا الدفاع (المجيد) في غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول، وصادف ذلك في نفوسهم المتحفزة للرد عليه قبولاً حسناً، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون، ويستخرجون البرهان تلو الآخر على أن الإسلام فعلاً كما قالوا. . . دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا داهموه في عقر داره، وأيقظوه من هدأته وسباته.

وفات أولئك البسطاء أن هذه هي النتيجة المطلوبة، وهذا بعينه هو

---

(١) اقرأ هذه النظرية لفان فلوتن مثلاً في كتاب: «السيادة العربية» من ص (٥) فما بعدها، ط: النهضة المصرية.

الغرض الذي التقى عليه في السر كل من روَّج الشائعة الأولى، ثم أشاع الباطل الثاني.

فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسة مختلفة، تنتهي إلى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين، وإماتة روح الطموح في نفوسهم.

ونحن نسوقُ لك شاهداً على هذا، ما ذكره الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه «آثار الحرب في الفقه الإسلامي»، على لسان المستشرق الإنكليزي المعروف (أندرسن) ولننقل لك عبارته من مبدئها:

«يخاف الغربيون لا سيما الإنكليز من ظهور فكرة الجهاد في أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد، وصدق الله العظيم إذ يقول فيمن لا إيمان لهم: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠] ولقد قابلت المستشرق الإنكليزي «أندرسن» في مساء الجمعة (٣) حزيران (١٩٦٠) فسألته عن رأيه في هذا الموضوع فكان من نصيحته لي أن أقول: إن الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على مثل قاعدة(تتغير الأحكام بتغير الأزمان). إذ أن الجهاد في رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية، ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام، وأوضاع الحرية ورقي العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة»[(١)].

* إرادة القتال في حياة فرسان الرسول ﷺ:

تعني إرادةُ القتال: الرغبة الأكيدة في الصُمود والثَّبات في ميدان القتال؛ من أجل مُثُل عليا، وأهدافٍ سامية، وإيمان لا يتزعزعُ بهذه المثل والأهداف، وثقةٍ بأنَّها أحبّ، وأعزّ، وأغلى مِنْ كُلِّ شيءٍ في الحياة، وتحمُّل أعباء الحرب، بَذْلاً للأموال والأنفس، واستهانةً بالأضرار والشدائد، وصَبْراً في البأساء والضَّرَّاء، وحين البأس؛ حتى يتمَّ تحقيقُ تلك المُثُل العليا،

---

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، تعليق في ص (٥٩).

والأهداف السّامية، مهما طال الأمد، وبَعُدَ الشّوط، وكَثُر العناء، وازدادت المصاعب، وتضاعفت التضحيات[1].

إنَّ مفهوم «إرادة القتال» في الجهاد الإسلامي؛ مادّةٌ وروحٌ، ففيه الدعوةُ إلى الخير والسلام، وفيه الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه الإعراضُ عن الاستغلال والاستعباد.

وقد تمثَّلتْ «إرادة القتال» في حياة الفرسان المسلمين، وتجسَّدت واقعاً عملياً، وإليك ـ عزيزي القارىء ـ بعض الأمثلة على سبيل الاستشهاد، لا الحَصْر والتعداد:

أ ـ في غزوة الحديبية بَعَث ﷺ عثمانَ بن عفان إلى مكة المكرمة، ليبلِّغ رسالةً مفادها: أن المسلمين لم يأتوا للحرب؛ إنما جاؤوا زائرين للبيت الحرام، ومعظِّمين لحرمته.

وقالت قريشٌ لعثمان: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت العتيق فَطُفْ! فقال عثمان: ما كنتُ لأفعل حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ.

واحتبستْ قريشٌ عثمانَ عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين؛ أنَّ عثمانَ بن عفان قد قُتِل، فقال الرسولُ القائد ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجزَ القوم».

ودعا ﷺ الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكانت تلك البيعة على الموت.

قال الصَّحابة الذين شهدوا بيعةَ الرضوان: كُنّا نُبايعُ يومئذ على الموت.

الله أكبر، هذا هي إرادة القتال، وكذا فلتكن وإلا فلا. إنه الإصرارُ على تسخير الطاقات كلها لتكون كلمةُ الله هي العليا، فكانت الصَّوارم لا تهوى ملازمة أغمادها، والسهام تحبُّ الاستقرار في نحور الأعداء، ووراء ذلك هممٌ دانتْ لها هِممُ الآخرين، وعزيمة سبقتْ مرهَفَات السيوف، فَطَلَبَ فرسانُ الرسول ﷺ المعالي والأمجاد تحت ظلال السيوف، وفي سبيل الكبير

---

(١) الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب (ص ٢٤).

المتعال، فأصبحوا رافلين بغلائل المسرّات، ومتنعّمين بلطائف الأُنس عند المليك المقتدر.

ب ـ وفي عصر الخلافة الراشدة كانت معركة اليرموك الغَرّاء، حيث أُصيب عِكْرمة بن أبي جَهْل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فأتوا بماءٍ، وهم صَرْعى في النزع الأخير، ولكنهم تدافعوا، وآثر بعضهم بعضاً، فكلما دُفع الماءُ إلى رجلٍ منهم قال: اسْقِ فلاناً، حتى ماتوا ولم يشربوه!

وهكذا يكون الإيثارُ سامياً في معانيه، مُعبِّراً عن إرادةٍ قوية، وجُودٍ على الرغم من الحاجة الشخصية، وكذا هي الفروسية، وروح الإرادة القتالية.

ج ـ وكان الفارسُ المغوار خالد بن الوليد قائداً عاماً على المسلمين في أرض الشام، فقاد الجيوشَ الإسلامية في معركة «اليرموك» إلى النصر.. وعَزَله الخليفةُ عمر بن الخطاب، وهو في أوج انتصاراته، ولكنّ خالداً لم يتمرَّدْ، ولم يأنفْ، بل قال كلمته المشهورة: «لا أقاتلُ من أجل عمر، بل أقاتلُ من أجل إعلاء كلمة الله تعالى» وانخرط جندياً مُسْتَبْسِلاً تحت إمْرة قيادةٍ جديدة.

وهذه المواقف وغيرُها تدلُّ بوضوحٍ أكيدٍ على العزم النافذ، والإصرار الفذّ، وتمثُّل «إرادة القتال» من أجل الهدف الأسمى، ألا وهو تحقيق مَجْد المسلمين.

* نماذج من الفرسان القادة في عهد النبي ﷺ:

إنَّ عَصْرَ النبوة الوضّاء خرّج أعداداً كبيرة من الفرسان الأشاوس، وكلُّهم صُنِعوا على عين رسول الله ﷺ، فنبعتْ قوّتُهم من طاعة الله ومحبة رسوله، ومن الإمكانات التي امتلكوا ناصيتها، فاستهانوا بمغريات الحياة وزخرفها، وكانوا راسخي العزائم، يُدركون أنّ النَّصرَ من عند الله تعالى، وأنه عزَّ وجلَّ يهبه لمن يشاء عند صدْق النّيّات، قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وسنقف ـ بعون الله ـ في هذه الفقرة عند ثلاثة من القادة العسكريين في عهد النبي ﷺ، مستعرضين بعض مزاياهم، وصفاتهم القيادية:

أولاً: أبـو عبيـدة بـن الجـرَّاح:

مِنْ صفاته القيادية:

أ ـ الشجاعة:

فقد ثَبَتَ يوم «أُحُد» حين انهزم الناسُ عن رسولِ الله ﷺ[1].

ب ـ صحة القرار وعدم التسرُّع فيه:

عن هاشم بن سعد، عن زيد، عن أبيه قال: بلغني أنَّ معاذاً سمع رجلاً يقول: لو كان خالد بن الوليد ما كان بالناس دوك[2]، وذلك في حصار أبي عبيدة دمشق، فقال معاذ: فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة، لا أبالك، والله! إنه لخيرُ مَنْ بقي على الأرض[3].

ويُفهَم من إنكار معاذ ـ رضي الله عنه ـ على مَنْ أخذ على أبو عبيدة تريُّثه قبل إصدار قراراته: أنَّ هذه الصِّفة تُعَدُّ خصلةً في القائد العسكري.

ج ـ الثقة والمحبة المتبادلتان:

كان أبو عبيدة موضع ثقته ﷺ، فقد أرسله إلى أهل نجران يُعلِّمهم السُّنَّة والإسلام.

وكان رضي الله عنه يحبُّ رسوله وقائده ﷺ، فقد قام بِنَزْع الحلقتين اللتين دخلتا في وجنتي الرسول ﷺ حتى سقطت ثنيَّتاه[4].

د ـ بُعْد النظر:

---

(١) مغازي الواقدي (١/ ٢٤٠).
(٢) «الدَّوْك»: دقُّ الشيء، وسَحْقه، وطَحْنه، وتداوكُ القوم: تضايقوا في حربٍ أو شرّ. ويريد القائل بذلك ما حَدَث للمسلمين أثناء حصار دمشق من شدَّة ومعاناة.
(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٠١).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٨). و«ثنيَّتاه»: مثنى ثنية، وهي من الأضراس: أول ما في الفم، وثنايا الإنسان التي في فمه أربع، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.

قال ابنُ الأثير: وولَّى أبو عبيدة على كل كَوْرة[1] فتحها عاملاً، وضمَّ إليه جماعةً، وشحَنَ النواحي المخوفة بالجند[2].

وبهذه التدابير لم يستطع العدوُّ في أيامه استعادة أيِّ موقع فتحَهُ المسلمون.

ثانياً: خالد بن الوليد:

مِنْ صفاته القيادية:

أ ـ الإرادة القوية الثابتة:

ومن ذلك: إقدامه على محاربة جيوش الامبراطورية الرومانية، كما حدث في اليرموك، حيث كان عَدَدُ قوات المسلمين (٤٦) ألفاً، بينما كان عددُ جيش الروم يبلغ (٢٤٠) ألف مقاتل.

ب ـ تحمُّل المسؤولية:

تحلَّى خالدُ بن الوليد بصفة تحمُّل المسؤولية، ومن ذلك: أنه ترك جيشه في العراق بعد انتصاره على الروم وحلفائهم في معركة «الفِراض» ليؤدِّي فريضة الحج، دون أن يأخذَ موافقةَ قائده الأعلى أبي بكر الصديق، فَعَتَبَ عليه في هذه المخالفة الصريحة، وكان عقوبته: أن صَرَفه إلى الشام قائلاً له: «سِرْ حتى تأتي جموعَ المسلمين باليرموك؛ فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوا وإياك أنْ تعودَ لمثل ما فعلت»[3].

وكان عُذْرُ خالد أنه ذَهَب إلى الحج سِرّاً، في وقتٍ لا حَرَج فيه على قوَّات المسلمين.

ج ـ ثبات النفس:

ففي مؤتة سيطر خالدٌ على نَفْسه؛ حين قُتِل قادةُ الجيش الثلاثة، وآلتْ إليه

---

(١) «الكَوْرة»: الصُّقْع، والمدينة.
(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ١٩٢).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٤).

القيادة حيث استطاع أن يُخَلِّص جيشَ المسلمين من الخطر العظيم؛ الذي يُهدِّدهُم؛ ليقودَهم بعد ذلك إلى ساحة النصر في معركة اليرموك[١].

د ـ القابلية البدنية:

كان خالد بن الوليد طويلاً، ضخماً، بعيد ما بين المنكبين، واسع الهيكل، وكان أشبهَ الناسِ بعمر، ولم يُعْرَفْ أنه أُصيب بأمراضٍ تُقْعِده عن أداء عمله، أو تُضْعِف قابليته البدنية[٢].

وممَّا يدلُّ كذلك على تحلِّيه بهذه الصِّفة: رحلتُه من «الفِراض» إلى مكة المكرمة، حيث قطع طريقاً صحراوياً صعباً في فترة يسيرة[٣].

ثالثـاً: عمرو بـن العـاص:

مِنْ صفاته القيادية:

أ ـ القدرة على جَمْع المعلومات:

من ذلك: ما قام به من استكشاف مَقَرّ قائد الروم «أرطبون» حيث اطَّلع على مواطن الضعف في مواضع جيش الروم[٤].

ب ـ الرأي السديد والعقل الراجح:

يُـعَدُّ عمرو بن العاص من دُهاة العرب، قال الثعالبي: «وَوَقَعَ الإجماعُ على أنَّ الدُّهاة أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شُعْبة، وزياد بن أبيه»[٥].

ج ـ الشجاعة:

حَدَث في معركة اليرموك أن اشتدَّ القتالُ بين الروم والمسلمين، حيث

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٤٣٥) وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٣).

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٥/ ٩٤).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٤).

(٤) الكامل لابن الأثير (٢/ ٤٩٩).

(٥) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص ٨٨). «الدهاة»: جمع داهية، وهو البصيرُ بالأمور، والجادّ بالنظر إليها.

أصاب الرومُ أعينَ (٧٠٠) من المسلمين؛ ممَّا اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو بن العاص أنَّ الموقفَ يحتاجُ إلى ثبات، فبقي في مكانه، ومعه أصحابُ الرايات، وقاتلوا الرومَ ببسالةٍ وقوة حتى تمَّ الانتصارُ عليهم[1].

د ـ بُعْدُ النظر:

عن عمرو بن العاص قال: كان فَزَعٌ بالمدينة، فأتيتُ على سالم مولى أبي حذيفة، وهو مُحْتَبٍ[2] بحمائل سيفه، فأخذتُ سيفاً فاحتبيتُ بحمائله، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أيُّها الناس! ألا كان مفزعُكم[3] إلى الله وإلى رسوله». ثم قال: «ألاَ فعلتُم كما فَعَل هذان الرجلان المؤمنان؟!»[4].

إنَّ هؤلاء الفرسان القادة، وغيرهم، اتَّصفوا بشجاعةٍ فائقة، وحكمة لا تُضاهى، فنفَّذوا المهمَّات الموكولة إليهم بجدارة، واقتدار، وإخلاصٍ، وتفانٍ لا يُوصَف.

لقد أتقنوا ألوانَ الفروسية جميعها، من ثباتٍ، وعِلْم، وإقدام، وورع، وفنّ قيادة.. حتى سطعتْ أسماؤهم خالدةً في ثنايا التاريخ، شاهدةً بما قاموا به من بطولات فريدة، وبما امتلكوه من عزائم أكيدة، كان لها أكبر الأثر في إحراز النصر عبر قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام.

*** ضبط النصوص، والتعليق عليها:**

بعون الله عزَّ وجلَّ، وحُسْن توفيقه اتَّبعنا الخطوات التالية في ضبط الكتاب، والتعليق عليه:

---

(١) فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم (ص ٨٣).

(٢) «مُحْتَبٍ»: الاحتباء: أن يضمَّ الإنسانُ رجليه إلى بطنه بثوبٍ يجمعهما به مع ظهره، ويشدُّه عليهما، وقد يكون الاحتباءُ باليدين عوضاً عن الثوب.

(٣) «مفزعكم»: المفزَع: الملجأ.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٠٣) وانظره في مجمع الزوائد (٩/ ٣٠٠) والإصابة (٣/ ٣).

(١) ـ تنظيم مادة النص:

فانصبَّتِ العنايةُ على توزيع الفقرات، ووضع علامات الترقيم المناسبة؛ لتوضيح المعاني، وتنظيم البحث، وتحديد بداية كل فقرة، مع وَضْع الإشارات إلى انتهاء النقل في حال وجوده.

(٢) ـ ضبط النص:

حيث أَضَفْنا الحركات إلى الكلمات، دَفْعاً للَّبس؛ كضَبْط المبني للمجهول، وعين الفعل، والأعلام، والأماكن ونحو ذلك. قال الدكتور بشار **عواد** معروف: «وقد صرتُ أعتقدُ في السُّنيات الأخيرة أنَّ ضَبْط النص بالحركات من أكثر الأمور أهمية في تحقيق النصوص لِمَا يتوخَّى من فوائده الجمة؛ التي منها:

ـ تمييز التحقيق الجيد من الرديء، والتعرُّف على جهود المحقق، ومراجعته، وتحرِّيه، وتدقيقه.

ـ إظهار المعنى الحقيقي، ودَفْع أيِّ إيهام قد يقع فيه القارىء؛ بسبب عَدَم وضوح موقع الكلمة الإعرابي له.

* إنَّ هذه الطريقة تُقوِّم لسانَ القارىء، وتُعوِّده القراءة السليمة، والنُّطق الصحيح، ثم الحفظ القويم، سواء أكان ذلك في اللغة، أم أسماء الأعلام، أم غيرهما، فتغنيه القراءةُ الكثيرة عن كثير من القواعد، وحفظها؛ إذ يصبحُ النُّطق السَّليم عنده عادة، لا يحتاجُ إلى تفكير كثير.

* رَفْع الاشتباه عن الأسماء، والكنى، والألقاب، والأنساب، والألفاظ المؤتلفة الرسم والنقط، المختلفة الحركات، مثل: حَمِيد وحُمَيْد، وسَلِيم وسُلَيْم...»[١].

(٣) التعريف بالأعلام والأماكن:

ولم نتوسَّع في هذا؛ إذ لم نُعَرِّف المشهور، ولم نُعَرِّج عليه؛ لئلا تتضخَّم

---

(١) ضبط النص والتعليق عليه (ص ١٨).

حواشي الكتاب بما لا طائل تحته، فكان الاهتمامُ مُتوجِّهاً إلى التعريف بالمغمور، وتحديد الأماكن في الوقت الحالي ما وسعنا الجهد.

(٤) التخريج:

فأشرنا إلى اسم السورة القرآنية ورقم الآية، مع وَضْع الآيات بالرسم العثماني، وبالنسبة للأحاديث النبوية فقد أشرنا إلى مظانّها الحديثية، وكذلك ذكرنا مصادر النقول، وعزونا إليها مع ذكر رقم الجزء والصفحة.

(٥) نَقْد النُقُول:

أثناء جَمْع المادة العلمية لهذا الكتاب، نَقَلْنا جملةً من النصوص كشواهد مناسبة، سواء أكان ذلك نصاً شعرياً، أم كلاماً عادياً، أم قولاً لأحدهم... فلم نكتفِ بالنقل على أنه عصيٌّ على النقد، بل أشرنا إلى الوهم الذي لاحظناه، وإلى التحريف أو التصحيف الذي وقفنا عليه.

كذلك أومأنا إلى أوهام بعض المحقِّقين التي وقعوا فيها؛ بعد تحقيقهم لطائفةٍ من الكتب التي رجعنا إليها كمصادر لبحثنا.

(٦) شرح الألفاظ:

وقد قمنا بشرط الألفاظ الغريبة، وتبيان معانيها ودلالاتها، وذلك بالرجوع إلى أمّات المعاجم كـ: لسان العرب، وأساس البلاغة، والمعجم الوسيط، والمعجم المدرسي، وغير ذلك. إضافة إلى كلمات القرآن لمحمد حسين مخلوف، والنهاية لابن الأثير.

وقد قمنا بهذه التعليقات من باب المسؤولية التاريخية، والأدبية، والعلمية، والالتزام بأهمية الحواشي، وكونها مفيدة، ونافعة، وشارحة للمتن.

*** منهج الجمع والإعداد لهذا الكتاب:**

أمّا منهج الجمع والإعداد لهذا الكتاب فيتلخَّص في النقاط التالية:

* قمنا بالبحث الطويل، والاستقصاء العميق، في بطون المصادر، وثنايا الصحائف، حتى تكوَّنتْ لدينا حصيلةً كبرى من فرسان الصحابة ـ وكلُّ الصحابة فرسان ـ.

* ثم عمدنا إلى اختيار شخصيات مُنتقاة، لشهرتها، وكبير أثرها، وعميق بصماتها في تاريخ المسلمين، إضافة لشخصيات لم يذكرها غيرُنا في مقام الفروسية، كأبي الدحداح، وعامر بن فُهَيْرة، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن أنيس، وعبيدة بن الحارث، وابن أم مكتوم، وشماس بن عثمان، وبريدة بن الحصيب، وغيرهم.

ولم نشأ أن نترجم للخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ إذ حياةُ كلٍّ منهم تحتاجُ إلى مجلَّدات ضخمة؛ لكثرة أخبارها، واتِّساع أعمالها، ولعلنا نفعلُ ذلك بتوفيق الله تعالى، إن كان في العمر فسحة.

* وما ذكرناه من شخصيات الفرسان ليس إحصاء لهم، ولا جَمْعاً لأعدادهم، وإنَّما عملُنا هذا غيضٌ من فيض، وقطرة من بحر، وإشراقات من أنوار.

* تحدَّثنا في كل ترجمة عن بطاقة الفارس الشخصية، وحياته، وإسلامه، ونبذة عن أهمِّ أعماله، لا سيَّما ما يتعلَّق بالبطولة والشجاعة، وما حوته أخباره من وقائع وأحداث، تمتُّ إلى عصر النبوَّة بوشائج الصِّلة والقُربى.

كما كنتُ من خلال حياتي مع كل فارس أبرز مجالاته العِلْميَّة أيضاً، كرواية الحديث النَّبوي الشَّريف، أو فقهه، لما في ذلك من فائدةٍ تشيرُ إلى ارتباط هذا الفارس بقائده الأعلى محمّد رسول الله ﷺ.

قسَّمنا الكتابَ إلى أربعة أبواب؛

الأول: فرسان مهاجرون.

والثاني: فرسان أنصار.

والثالث: فرسان حلفاء.

والرابع: فارسات صحابيات.

ويمكنني الآن أنْ أقولَ: لقد حاولتُ قَدْرَ المستطاع إبرازَ ملامح الفروسية في العصر النَّبوي من خلال الحياة مع الفرسان المذكورين، ومن خلال شخصياتهم تتكون لدينا فكرة سليمة وضيئة عن الفروسية، وعن أحكامِ الجهاد مروراً بأشياءَ مفيدة منها: صفات القائد العسكرية، وواجباته وحقوقه،

والدُّروس القيادية، وأبرز أعمال القادة والفُرسان، والتَّعريف بألوان الفروسية كالمبارزة والمقارعة بالسّيوف، والتّعريف بأدوات الحرب وأشكالها كالراية واللواء، مع بيان بعض الأحكام الفقهية المهمّة التي تتحدَّث عن الفروسية وأحكام القتال.

هذا؛ ولم نصنع فهرساً للمصادر والمراجع لكثرتها، وهي منشورة في حواشي الكتاب. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّني سأجعل الكتاب القادم بعنوان: «فرسان من عصر التابعين» لتتمَّ سلسلة الأحداث، وتتَّضح صورة الفروسية في ذهن القارىء الكريم.

* دعـــاء:

الحمدُ للهِ الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم أَخرِجنا مِنْ ظلمات الوهم، وأَكْرِمْنا بنور الفَهْم، وافتحْ علينا بمعرفة العلم، وسهِّل أخلاقَنا بالحلم، واجعلْنا مِمَّن يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنَه.

اللهم ارزُقْنا الإخلاصَ لوجهكَ الكريم؛ في كلِّ شؤوننا وأحوالنا، وجَنِّبْنا مُضِلاَّت الفتن والبعد عن الحق، واجْعَلْنا ـ يا ربَّنا ـ من الراشدين، إنك على ما تشاء قدير.

اللهم إنَّا نسألُكَ حُسْنَ القبول، والرِّضا عنَّا، وأن تهبنا على أعمالنا خيراً، وأن تجعلَ مثل ثواب ذلك حسناتٍ في صحائف والدينا؛ الذين كانوا السَّببَ في وجودنا، وفي صحائف زوجاتنا؛ اللواتي تحمَّلن بعض المشقَّات بسبب انصرافنا إلى العمل في هذا الكتاب وغيره.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

دمشق في ٢٦/ رمضــــان/ ١٤١٨هـ

٢٤/ كانون الثاني/ ١٩٩٨م

وكتبه

أحمد خليل جمعة

الباب الأول

فرسان المهاجرين

(١)

حذيفة بن اليمان

- رضي الله عنه -

أرسله النَّبيُّ ﷺ سريةً وحده ليكشفَ له خَبَرَ الأحزاب، وضمنَ له الجنَّة

وأتى حذيفةُ في مَدارع غَيْهَبِ
ألقى على الدنيا حجاباً ضافيا
يتلمَّسُ الأخبارَ: ماذا عندهم؟
أأفاق غاويهم، فيصبح صاحيا؟
جاءَ الرجالَ يَدُسُّ فيهم نَفْسَهُ
والحتفُ يَرْقُبُهُ مخوفاً غاديا
ومضى حذيفةُ بالبشارة يبتغي
عند النَّبيِّ بها المحلَّ العاليا

الفَـارسُ المغوار، والنَّـجيبُ الأَمِيْـنُ:

* مَـنْ هـذا الـذي خيَّـره رسـولُ الله ﷺ بقـولـه: «إنْ شئـتَ كُنْـتَ مِـنَ المهاجرين، وإنْ شئتَ كنتَ من الأنصار»؟!.

* ومَنْ هذا الذي دَعَا له رسولُ الله ﷺ دعوةً جامعة فقال: «اللهمَّ احفظْهُ مِنْ بين يديه ومِنْ خلفِهِ، وعن يمينِه، وعن شمالِه، ومِنْ فوقِه، ومن تحتِه»؟!.

* ومن هذا الذي نال عنوان الشَّرف الوافي، فكانَ أميناً لسرِّ رسول الله ﷺ، وأحد فرسانه الأخيار، وأحد كبَار أصحابه الفضلاء الأبرار؟!.

* ثمَّ مَنْ الذي كان عمرُ بنُ الخطاب ـ وهو العبقري المُلْهَم ـ يستنيرُ برأيه في اختيارِ الولاة، وفي كثيرٍ مِنْ أمورِ الدِّين؟.

* ومَنْ هذا الذي كانَ سبباً في جَمْعِ القُرآنِ الكريم، وجمع المسلمينَ على مصحفٍ واحدٍ، بعد أنْ كادوا يفترقونَ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ؟.

*قال عنه الإمام الذهبيُّ ـ رحمه الله ـ: مِنْ نُجباء أصحابِ محمّد ﷺ، وهو صاحب السِّرِّ، حليفُ الأنصار، منْ أعيان المُهَاجرين.

* وصفه أبو نُعَيم الأصبهانيّ بقوله: كان بالفتن والآفات عارفاً، وعلى العِلْمِ والعبادة عاكفاً، وعنِ التَّمتُّع بالدُّنيا عازفاً[1].

* فَمَنْ يكونُ هذا الفارسُ الذي جَمَعَ وجُمعت فيه هذه الفَضَائل كلّها؟

* هو أبو عبدِ اللهِ حُذيفةُ بنُ اليَمان بن جابر العَبْسِيّ المكّي اليَماني[2].

* ولكنْ لماذا كان حُذيفةُ في المدينة حَليفاً للأنصار؟.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٥٤).

(٢) الاستيعاب (١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨) والمحبّر (ص ٧٣ و ٤١٧) والمستدركُ (٣/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩) والاستبصارُ (ص ١٣٩ و ٢٢٣ و٢٣٣ و٢٣٤ و٢٣٥ و ٣٢١) ومختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٤٨ ـ ٢٦٣) وتهذيبُ الأسماء واللّغات (١/ ١٥٣ ـ ١٥٥) وتاريخُ الإسلام للذّهبيّ (انظر الفهارس) وحياة الصَّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٤٩) وغير ذلك من كتب الحديثِ والسِّيرة والطّبقات.

تقولُ المصادر في ذلك: كان «حِسْل» ـ أو حُسَيْل، وهو اليَمان والد حُذيفة ـ قد قَتَـلَ رجُلاً، فهربَ إلى المدينة، وحالف بني عبد الأشهل، فسمَّاه قومه اليمان، لحلفه اليمانيّة وهم الأنصار[١]، ثمَّ تزوج امرأة هي الرَّباب بنت كعب الأشهليّة، فولدتْ له: حُذيفة، وسَعْداً، وصفوانَ، ومُدلجاً، وليلى، وقد أسلمتِ الرَّبابُ، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ[٢]، وكان لليمان أيضاً ابنتان أخريان هما: فاطمة[٣]، وأمّ سلمة.

رِحْلَـةٌ إلـى الإيمَـانِ الحقيقي:

* أطلَّ الإسلامُ بنورهِ على جزيرةِ العرب، وانتشر بإشعاعه وتألّقه في حنايا النفوس، ورأى الناسُ في الدِّين مثابةً لهم، وملاذاً آمِناً، فأسرعَ اليمانُ ونفرٌ منْ قومهِ إلى مكّةَ، وأعلنوا إسلامهم أمامَ رسول الله ﷺ، وعاد اليمانُ إلى المدينةِ وقد أسلم أهلُه وأولادُه جميعاً، ووجدوا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة في مناحي حياتهم، والبلسم مما كانوا يعانون منه[٤].

* نشأ حُذيفة في بيتٍ مسلم، ثمَّ رحل بصحبةِ والده إلى مكةَ المكرمة، وهنالك التقتْ يمينُ رسولِ الله ﷺ يمينَ حُذيفة، حيثُ أعلنَ إسلامه، وسَرَتْ في نفسه موجةٌ منَ الحبِّ والإكبار لرسولِ الله ﷺ الذي خيَّره بين الهجرة والنُّصرة، فاختار حُذيفةُ النُّصرة، وعاد إلى المدينةِ المنوَّرةِ.

* وعندما هاجر رسولُ الله ﷺ، استطار قلبُ حذيفة فَرحاً بمقدمه، ولزم

---

(١) انظر مثلاً: سير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٦٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٤) والإصابة (١/ ٣١٦) وغيرها.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٢٠).

(٣) اقرأ سيرة فاطمة بنت اليمان في كتابنا «نساءٌ من عَصْر النّبوة» (٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٦) ففي سيرتها فوائد قيمة.

(٤) قال الشاعر:

رسولاً شفى جرحى الشعوب وكلما ... تبدّى الأسى كان الطبيب المداويا
يطل علينا سائلاً أين سنتي؟! ... وأين كتاب الله للناس هاديا؟!
حياتي لكم درسٌ وسَيْري لكم هدى ... وخيرُ الهدى هديي لمنْ جدّ راجيا

Scanned by CamScanner

مجالسه، وتأدَّب بأدبه، فصقلتْ فيه مزايا جميلة، وأصبح قوياً في الحقِّ، حكيماً، يمقتُ النِّفاق والخداع، ويرفضُ الالتواء والمراءاة، وكانت له مع رسول الله ﷺ مجالس رائعة، جعلته من طرازٍ نادرٍ في جميعِ مجالات الفضائل.

وفي مجال الأخوّة آخى رسولُ الله ﷺ بينَ حُذيفة وعمّار بن ياسر ـ رضي الله عنهم ـ ومنَ الملاحظ أنَّ هَذَيْنِ الفارسَيْن يتّفقان في كثيرٍ من الصِّفات الكريمة، وكلاهما نَشَأَ بين أبويْنِ مسلمين[1].

المجَاهِـدُ الفَاضِـلُ علـى الـدوام:

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: شَهِدَ حذيفةُ أُحُداً وما بعدها منَ المشَاهد[2].

* وكانت أوّل[3] مشاهد حذيفة هي غزاة أُحُد، وفي هذه الغزوةِ، قُتِلَ والده اليمان، إذ أخطأ به المسلمون، فجعل حذيفةُ يقول لهم: أبي أبي، فلمْ يفهمُوا حتى قتَلُوه، فقال حذيفة: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. وأعطى رسولُ الله ﷺ حذيفة دِية والده، فتصدّق بديتهِ على المسلمين، فزادهُ ذلك عند رسولِ الله ﷺ خيراً، وبوّأه مكاناً علياً لا يُدانى[4].

---

(١) آخى ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على أساس الحق والمواساة، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات؛ بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية أقوى من أثر قرابة الرحم، وفي هذه قوة للأفراد، وتكاتف للمجتمع، وتحقيق لمعنى الوحدة الجامعة، وقيام مبدأ التعاون، والتناصر، وتقوية أواصر المودة والتآخي الحقيقي.

(٢) صفة الصَّفوة (١/ ٦١٠) وتاريخ الإسلام للذَّهبيّ (المغازي ص ٤٩٣).

(٣) لم يحضر حذيفة غزاة بدر لسبب ذكره هو، فقال: ما منعني أنْ أشهدَ بدراً إلا أنّي خرجتُ أنا وأبي حُسَيْل، فأخَذَنَا كفّارُ قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً.
فقُلنا: ما نريد إلا المدينة.
فأخذوا علينا عَهْد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة، ولا نُقاتل معه، فأتينا النّبيَّ ﷺ فأخبرناه الخبر فقال: «نفي لهم بعهدهم، ونستعينُ بالله عليهم» رواه مسلم برقم (١٧٧٨) وانظر: الفتح الرباني (٢٢/ ٢٢٢).

(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٤٩) والسِّيرة الحلبية (٢/ ٢٥٨) وحياة الصَّحابة =

* بهذا التَّصرف الكريم الحكيم، أكبره الصَّحابة الكرامُ وغيرهم من التَّابعين، حتى إنَّ عروة بنَ الزُّبير التَّابعي الجليل فقيه المدينة، وأحد فقهاء المدينة السَّبعة، شهد لحذيفة بالفَضْل والخير يومها، فقال: فوالله ما زالت في حُذَيفة منها بقية خيرٍ حتى لحقَ بالله عزَّ وجلَّ[(1)].

* وظلَّ حذيفةُ وافداً من روافد الفَضْل والخير، في كلِّ مشهدٍ يشهده مع رسولِ الله ﷺ. وفي غزوةِ الأحزاب، تألَّقَ نجمُ حُذيفة، إذ وقعَ اختيارُ رسولِ الله ﷺ عليه ليكونَ سرية وحدَهُ إلى جموع الأحزاب يستطلعُ أخبارَهم، ويتعرَّفُ أحوالهم، ويعرف ثغراتهم التي يمكن النفاذ منها للتغلُّب عليهم.

* فإلى تلك السَّريةِ مع حُذيفة، نشهد جانباً من جوانب فروسيته وشجاعته.

فُروسيَّةُ حُذَيفَةَ تتحدَّى جُمُوعَ الأَحْزَابِ:

* قصَّةُ حذيفةَ بنِ اليمانِ ـ رضي الله عنهما ـ بين حشود الأحزاب، وتخلّله جموعهم وصفوفهم بأمْرِ رسولِ الله ﷺ يتعرّفُ أخبارهم، ويسبرُ أحوالهم، ويكشفُ عن أسرارهم[(2)]، وما نزَلَ بهم منْ كوارثِ البلاءِ، وفوادحِ المحَنِ،

= (1/519) مع الجمع والتَّصرف اليسيرِ.

(1) فتح الباري حديث رقم (3724).

(2) ذكر الأنصاريُّ ـ رحمه الله ـ أنَّه يجبُ أنْ يتحقَّقَ فيمن يأتي بأخبارِ العدوّ ستة شروط:

١ ـ أنْ يكونَ ممنْ يُوثق بنصيحتهِ وصدقه.

٢ ـ أنْ يكون ذا حدس صائب، وفراسة تامة، لكي يُدرك بوفورِ عقْله، وصائب حدسه، ما كتَمَه العدوُّ حتى يمكنه أنْ يستدلَّ ببعضِ الأمورِ على بعض.

٣ ـ أنْ يكونَ كثيرَ الدَّهاء والحيل والخديعة، حتى يَدخُل بحيلته كلَّ مدخل، ويدرك مقصده من أي طريق أمكنه، ومتى كان قاصراً في هذا الباب ظفر العدو به، أو عاد منه بغير مقصوده وطَلِبته.

٤ ـ أنْ يكونَ له دربة بالأسفارِ ومعرفة البلاد، حتَّى لا يحتاج إلى السؤال عن البلادِ وأهلها.

٥ ـ أنْ يكون عارفاً بلسانِ أهل البلاد التي يتوجَّه إليها، حتى يمكنه أنْ يلتقطَ =

وما تفعله بهم الرِّيح التي أرسلها الله عزَّ وجلَّ عليهم، وقاصفاتِ العَواصفَ، ممّا جعل مقامهم في منازلهم من ميدانِ المعركةِ محالاً، من أشهرِ قَصَصِ الفروسيّة والشَّجاعة، ومنْ أَسْيَرَ قَصَصِ المغازي، وأوسعها تداولاً في المصادر الوثيقةِ الموثوقةِ منْ مصادرَ حديثيّةٍ وتأريخيّةٍ وسيرة وما شَابه ذلك.

* فقد أوردها مسلمٌ في صحيحه، وابنُ إسحاق في السِّيرة، والواقديُّ في المغازي، وابنُ سعدٍ في الطَّبقات، وذكرها الحاكم، والبيهقيُّ، وأبو نُعيم، ثمَّ ابنُ سيِّد النَّاس، وابنُ كثير، وابنُ حَجَر، وابنُ قيِّم الجوزيَّة، والقَسْطلاني مع شارحه الزّرقاني في المواهب، وغيرهم كثير كثير.

* ونحنُ مرسلو القول في استعراضِ قصَّة تلكمُ البطولة التي قام بها حذيفة ابن اليَمان وحده، في تلك اللحظات التي اشتدَّ بها البلاءُ على المسلمين، وزاغتِ الأبصارُ، وبلغتِ القلوبُ الحناجر: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

* روى ابنُ إسحاقَ منْ طريق يزيد بن زياد، عن محمّد بنِ كعب القرظيِّ قال: قالَ رجلٌ من أهلِ الكوفةِ لحذيفةَ: أرأيتم رسولَ الله ﷺ وصحبتموه؟!.

قال: نعم.

قال: فكيف كُنتم تصنعون؟

قال: واللهِ لقد كنّا نجهدُ.

قال: واللهِ! لو أدركناهُ ما تركناهُ يمشي على الأرضِ، ولحملناه على أعناقِنا.

قال حذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ: والله! لقد رأيتني بالخندقِ، وصلَّى النَّبيُّ

= ما يسمعه من أخبار العدوّ الذي يخالطه.

٦ ـ أن يكون صبوراً على ما قد يُصيبه في العقوبة في حالة ظَفَرِ العدوّ به حتى لا يخبر بأحوال مرسله، فيطّلع العدو على ما في العسكر منه، ممّا يكون سبباً في الاستهانة به. (تفريج الكروب في تدبير الحروب ص ١٧، ١٨) بتصرف يسير.

أقول: سنلاحظ كف أثبت حذيفة مهارته وكفاءته وذكاءه وفروسيته في هذه السرية.

ﷺ هوياً منَ الليل، ثمَّ التفتَ إلينا فقال: «مَنْ رجلٌ يقومُ فينظر ما فعل القوم، ثمَّ يرجعُ» يشرطُ له الرجعة «أسألُ الله أنْ يكونَ رفيقي في الجنَّةِ»؟! فما قام رجلٌ مِنْ شدَّةِ الخوفِ، وشدَّة الجوع، وشدّة البرد، فلما لم يُقمْ أحدٌ، دعاني، فلم يكنْ لي بدٌّ منَ القيام[1]، فقال: «يا حذيفةُ! اذهب فادخل في القومِ فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا».

فذهبتُ فدخلتُ فيهم، والرِّيح وجنودُ الله تَفْعلُ بهم ما تفعل، لا تُقِرُّ لهم قِدْراً، ولا ناراً، ولا بناء.

فقال أبو سفيان: لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه، فأخذتُ بيدِ الرَّجل الذي كان جنبي.

فقلتُ: مَنْ أنتَ؟.

فقال: أنا فلانُ بنُ فلان - وفي رواية البيهقي وأبو نُعيم في الدَّلائل: فضربتُ بيدي على يدِ الذي عن يميني، فأخذتُ بيده، فقلتُ: مَنْ أنت؟.

قال: معاوية بنُ أبي سفيان.

ثم ضربتُ بيدي على يدِ الذي عن شمالي، فقلتُ: مَن أنتَ؟.

قال: عمرو بنُ العاص.

فعلتُ ذلك خشيةَ أنْ يُفطَنَ بي، فبدرتُهم بالمسألة[2].

---

(١) لم يجدْ حذيفة بدّاً، إذ سمّاه رسولُ الله ﷺ باسمه، وأمره بالذَّهاب إلى جموعِ الأعداء، وهو في أشدِّ حالات البلاء: جوعٌ شديد، وبردٌ شديد، ورعبٌ شديد. وذهب حُذيفة إلى جموعِ الأحزاب، ودخل بينهم - والظلام شديدٌ يستره - دخول الفدائي الذي يكتنفه الموت منْ جميع أكنافه، ويحتويه من سائر جوانبه، وهو لا يبالي؛ لأنَّ رضا الله ورسوله مُقَدَّم على كلِّ شيء.

(٢) كان حُذيفةُ - رضي الله عنه - حاذقَ الرَّأي، خبيراً بتصرّف الأمورِ إذا تأزَّمَتْ، سريعَ البادرة، ثابتَ اليقين، راسخَ القلب، فَطِنَ الفطرة، ذكي الفؤاد، متماسك الشَّخصية.

وهذه الصِّفاتُ التي يجبُ أنْ تتوافرَ في الأفراد الذين يكونون موضع الثِّقة الخاصة للقيادة عند اشتدادِ الأزمات، واستحكام الأخطار. =

ثمَّ قال أبو سفيان: يا معشر قريش! إنّكم واللهِ ما أصبحتم بدارِ مُقَام، ولقد هلك الخفُّ والكُراع[1]، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا منْ هذه الرِّيح ما ترون، ما يطمئنُّ لنا قِدْرٌ، ولا تقومُ لنا نار، ولا يستمسكُ لنا بناء، فارتحلوا فإنِّي مرتحلٌ، ووثب على جَمَلِه، فما حلَّ عقال يَدِهِ إلا وهو قائم، ولولا عهدُ رسول الله ﷺ إليّ، ألاَّ تحدث شيئاً حتى تأتيني، لو شئت لقتلته بسَهم.

* فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ، وهو قائم يصلِّي في مِرْطٍ[2] لبعضِ نسائه، فلمّا رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركعَ وسجَد، وإنِّي لفيه، فلمّا سلَّم، أخبرته الخبر[3].

= وقد عرفَ حذيفة عن جموع الأحزابِ كلَّ أمرهم، ظاهِرَهُ وخفيَّه؛ لأنّه داخلهم مداخلة لم تتركْ لهم سرّاً إلا كشفته، ولا خبيئاً إلا أعلنته.

ومما يشيرُ إلى ذكاء حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ موقفه وهو يسمع أبا سفيان بن حرب، وقد أحسَّ بعنصرٍ غريب بين جموع الأحزاب: ليعرفْ كلُّ امرىء مَنْ جليسه؟!.

وإذا بحذيفة يبادرُ إلى مَنْ إلى جانبه الأيمن، فإذا معاويةُ بن أبي سفيان، وإلى شماله، فإذا هو عمرو بن العاص، وهما أدهى العرب، وأحضرهم بديهة، فيسبقهما حذيفة ببادرته، ويُسْكتهما عنه، ويخرج عنهما دون أنْ يعرفا عنه شيئاً.

ألم أقل لكم: إنَّ المدرسة المحمّدية تصنعُ فُرسَاناً ورجالاً يصلحون لكل المواقف وينجحون في جميع المجالات؟! وياللإيمان كيف يصنع المعجزات؟!

(١) «الخف والكراع»: الخف للبعير كالحافر للفرس. والكُراع من الغنم والبقر: مُسْتَدَقّ الساق العاري من اللحم.

(٢) «المِرْط»: كساء من صوف، أو خزّ، أو كتّان يُؤْتَزَرُ به.

(٣) السِّيرة النبويّة، ومصادرُ أخرى حديثية وتاريخية، وكذلك كُتُب التَّراجم والطَّبقات والمغازي. وقال محمّد بن الحسن الشَّيبانيّ ـ رحمه الله ـ: ولا بأس بالإمام أنْ يبعثَ الرَّجل الواحد سرية، أو الاثنين أو الثلاثة، إذ كان محتملاً لذلك (شرح السّير الكبير ١/ ٦٩).

وقد أنشد ابن سيّد النّاس ـ رحمه الله ـ في هذه الحادثة:

وحذيفةُ السَّاري إلى الأحزاب يكـ ـشفُ هل لها في كرة من مطمع=

* وبهذا قامُ حُذيفةُ بهذه المهمّة على أكملِ وجه، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

* وظلَّ حذيفةُ بنُ اليمان ـ رضي الله عنه ـ يتابعُ رحلة الجهاد والفروسيّة مع رسول الله ﷺ، لا يتخلّف عن واحدةٍ منها، إلى أنْ توفيَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن حُذيفة؛ لِما أبداه من ضروب الإقدام والشهامة، وألوان الأثرة والحكمة، فكان سعياً دائماً لإعزاز دِين الله، ونَشْره في الآفاق، بدافع الإيمان الحيّ الراسخ كالجبال الشمّ الرواسي.

فُتُوحَاتُــهُ وبُطولاتُــهُ الخارقــة:

* لم يتوقفْ حُذيفةُ ـ رضوان اللهِ عليه ـ عن متابعةِ الجهاد، ومجالدةِ الأعداء والمنافقينَ، وظلَّ من فرسان المُسلمين في الخلافةِ الرَّاشدة، لم يتوقفْ عنِ العطاءِ مُطلقاً، فمسيرة الإيمان عطاء مُتجدِّد لا ينقطع.

* شهد حذيفةُ فَتْح العِراق[1]، والشَّام، وبلاد الجزيرة، ونزل نصيبين، وشهد كذلك فَتْح بلاد فارس، وله فيها أخبار جمّةٌ، وأحاديث كثيرة، تثيرُ الإعجاب بهذا العبقريّ الذّكي؛ الذي ما فتىء يعطي المزيد من الخير، ويسدي المعونة للآخرين، ففطرته طيّبة، ونفسه تهفو للصلاح، والإيمان يُعزِّز جوانب الصواب عنده.

* وشهدَ حذيفةُ معركةَ اليرموك سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وفي السَّنة السَّابعة عشرة، شهد فتح الجزيرة، وأبلى فيها بلاء حسناً.

* كما أنَّ حذيفةَ قد شهدَ معركةَ نهاوند الشَّهيرة، فلما قُتِلَ النُّعمانُ بنُ

= فـأجـابـه مَلَـكٌ ولـم يشعـرْ بـه   أبشـرْ بـأمْـنِ الله غيـر مـروع

(١) قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: شهدَ حُذيفة فتوح العراق وله بها آثار شهيرة. (الإصابة ١/٣١٧).

مُقَرِّن، أخذَ الرَّاية، وكان النُّعمان قد خَطبَ النَّاس فقال: إنْ أُصبتُ فعليكُم حذيفة[1].

وصار فتح همدان والرّي والدّينورَ على يَدِ فارسنا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ وغزا كذلك ما سَبذان، فافتتحها عنوةً، وإلى مدينة همدان تنتهي فتوحات حذيفة ـ رضي الله عنه ـ وهذه الفُتوحات كلّها كانت في سنةِ اثنتين وعشرة من الهجرة الشَّريفة[2].

* هذا وقد ولاه عمر بن الخطاب على المدائن، فلمْ يزل بها حتى مات ـ رضي الله عنه ـ[3].

حُـذَيْـفَـةُ والقُـرآن الكريـم:

* تلقّى حذيفةُ بنُ اليمان ـ رضي الله عنه ـ القُرآن الكريم من رسولِ الله ﷺ، فَسَرَتْ معانيه في كيانه وعروقه، تلتهبُ بالإيمان، وتَشعُّ بالإسلامِ، وأشرقتْ نفسهُ بنور الله عزَّ وجلَّ، وأحبَّ القرآنَ الكريم، وفهِمَ معانيه، وكان سبَّاقاً في ميدان التَّنافس على حِفْظه، وفَهْم معانيه وتفسيره واستيعابه، حتى أضحى مرجعاً في كثيرٍ من أمورِ التَّفسير والفقه[4].

* وقد أوردَ أئمةُ المفسِّرين كثيراً منْ أقوالِ حذيفة في التَّفسير[5]، ومنَ الأمثلة على ذلك ما أورده الإمامان الماورديُّ والقُرطبيُّ ـ رحمهما الله ـ في

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبي (المغازي ص ٢٢٦).

(٢) انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ (١/ ٢٧٧) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٤) وتاريخ الإسلام للذهبيّ (المغازي ص ٣٦٣).

(٣) الإصابة (١/ ٣١٦).

(٤) لقي القرآن الكريم عناية فائقة من المسلمين، فاعتنوا بحفظه في صدورهم، وكتابته؛ زيادة في التوثيق والضبط. . . والقرآنُ كتابُ هداية للناس، وموعظة لهم، فحفظوه، وأتقنوا تفسيره، واشتغلوا بتعلم وتعليم أحكامه، ففازوا بسعادة الدارَيْن. (حق القرآن الكريم على الناس؛ ليوسف بديوي ص ٢٠).

(٥) انظر مثلاً: تفسير الماورديّ (١/ ٢١١) و(٢/ ٤٥١) و(٣/ ٥١١) وتفسير القرطبيّ (١٠/ ٣٠٩) و(١٦/ ٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٣٥) و(٤/ ١١٤) وغيرها كثير.

تفسيريهما لقولِ الله عزّ وجلّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] أنّ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ فسّر هذه الآية فقال: إنّ المقامَ المحمود: الشّفاعة للنّاس يوم القيامة(١).

* وروى ابنُ كثير، وابنُ حجر ـ رحمهما الله ـ في تفسير الآية نفسها عن حذيفةَ قال: يُجمعُ النّاس في صعيدٍ واحدٍ، يسمعهم الدّاعي، وينفذهم البصر، حفاة، عراة، كما خلقوا، قياماً لا تُكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يا محمّد! فيقول: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشّر ليس إليك، والمهدي مَنْ هديتَ، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سبحانك ربّ البيت» فهذا المقام المحمودُ الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ(٢).

* وكان حذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ فارساً من فُرسان القرآنِ؛ الذين فهموا معانيه، فكان ـ رضي الله عنه ـ يُرغّبُ القُرّاء فيه، وبالاقتداءِ والأخذ عمّن كانَ قبلَهم، فقد رُويَ عنه أنّه كان يقولُ: اتقوا الله يا مَعْشرَ القُرّاء! وخُذوا طريقَ مَنْ كان قبلكم، فلعمري لئن اتّبعتُموه، فلقد سَبَقْتُم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً، لقد ضَللتُم ضلالاً بعيداً(٣).

* وظلّ حُذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ شديدَ الاهتمامِ بالقرآنِ الكريم، حتى إنّه كان السّبب في جَمْعِ المسلمين على مصحفٍ واحد، عندما لاحظ أنّ الاختلافَ والفرقةَ قد بدأت تدبُّ بين صفوفِ المسلمين، حينما كان يغزو مع أهلِ العراق في أرمينيةَ وأذربيجان، وذلك في خلافةِ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ فسارعَ حتى قدمَ المدينة، وعرض على عثمانَ وجهةَ نظره، فسارعَ عثمانُ إلى

---

(١) تفسير الماورديّ (٢/ ٤٥١) والقرطبيّ (١٠/ ٣٠٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨) طبعة دار المعرفة، وفتح الباري (٨/ ٣٩٩ و٤٠٠) باب التفسير، طبعة دار المعرفة. ورواه النسائي في السنن الكبرى (١١٢٩٤) وقال ابن حجر: روى النسائي بإسنادٍ صحيح من حديث حذيفة... ثم ذكره (فتح الباري ٨/ ٣٩٩).

(٣) انظر: حلية الأولياء (١/ ٢٨٠) وحياة الصحابة (٣/ ٢٤٦).

ذلك، وجَمَعَ الصَّحابة، فاستقرَّ رأيهم على كتابةِ القرآن الكريم[1]، ثمَّ أرسل منه نسخاً إلى الأمصار، وبذلك جمع النَّاس على مصحفٍ واحد.

* وبهذا التصرّف المحمود قَطَعَ عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف والاختلاف، وحصَّنَ القُرآنَ الكريم من أنْ يتطرّق إليه شيءٌ من التَّحريف، أو الاختلاف على مَرِّ العُصُور، وتعاقب الأزمان.

* وهكذا سجَّل حذيفةُ بنُ اليمان ـ رضي الله عنه ـ أثراً وضيئاً في تاريخ القُرآن الكريم، وسيظلُّ ماثلاً يرشحُ بالعبيرِ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

الصُّحْبـةُ الـزَّاكِيَـةُ وأمانـةُ السِّـرِّ:

* اصطفى رسولُ الله ﷺ حذيفةَ ليكونَ أميناً لسرِّه، فكان صاحب سرِّ الرَّسول ﷺ بهم، لقُربه منهم، وثقته به، وعلوّ منزلته عنده، قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في «أُسدِ الغابة»: حذيفةُ صاحب سرِّ رسولِ الله ﷺ في المُنافقين، لم يعلمهم أحدٌ إلاَّ حذيفة، أَعْلَمه بهم رسولُ الله ﷺ[2].

---

(١) روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ كيفيّة جَمْع القرآن، فذكر: أنَّ حذيفةَ بنَ اليمان ـ رضي الله عنه ـ قَدِمَ على عثمانَ، وكان يغازيَ أهل الشَّام في أرمينيّة وأذربيجان مع أهلِ العراق، فأفزعَ حذيفةُ اختلافهم في القراءةِ، فقال لعثمان: أدركْ هذه الأمّة قبل أنْ يختلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهود والنَّصارى، فأرسل عثمان إلى حفصةَ أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخها في المصاحفِ، ثمَّ نردّها إليك، فأرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمانَ، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت، وعبدَ الله بنَ الزّبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بنَ الحارث بنِ هشام، وقال للرّهطِ القرشيين الثّلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ منَ القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش، فإنّما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصُّحفَ إلى حفصةَ، وأرسلَ إلى كلِّ أُفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمَرَ بما سواه منَ القُرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أنْ يُحرقَ... (التّاج الجامع للأصول ٤/ ٣٣).

(٢) عن عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ حذيفةَ بنَ اليمان ـ رضي الله عنهما ـ حدَّثه عن النّبيّ ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فمنهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتى يلجُ الجمل في سمّ الخياط». أخرجهُ مسلم برقم (٢٧٧٩) ولهذا فقد كان عمر =

هذا؛ وقد كان حذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ يهتدي بهدي رسول الله ﷺ في كلِّ شيء. وكان للصُّحبة النَّبويَّة الزَّاكيةِ كبير الأثر في حياة حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ فقد وعى حديث رسولِ الله ﷺ. له في كُتُبِ الحديث مئتان وخمسة وعشرون حديثاً. وله في الصَّحيحين اثنا عشر حديثاً متَّفقٌ عليهما، وفي البخاريِّ ثمانية أحاديث، وعند مسلم سبعة عشر حديثاً، وحديثه في بقيَّة كُتُب الحديث الأربعة: أبو داود، والنَّسائي، والتِّرمذي، وابن ماجه، وكذلك في المسانيد كمسند أحمد، ومسند أبي يعلى، وغير ذلكَ مِنْ دَوَاوين الحديث.

* روى عن حذيفة جماعةٌ من الصَّحابة منهم: عُمر، عليّ، عثمان، عمّار، وأبو الطُّفيل ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ.

* وروى عنه من التَّابعين خلقٌ كثير منهم: ابنه أبو عُبيدة بن حذيفة، وربعيّ بن خراش، وزيد بن وهب، وزرّ بن حبيش، وغيرهم[(١)].

* وروي في الصَّحيحَيْن عنه أنَّه قال: كان النَّاسُ يسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخيرِ، وكنتُ أسأله عن الشَّر مخافة أنْ يدركَني[(٢)].

* وفي صحيح مسلم عنه: والله! إنِّي لأعلَمُ النَّاسِ بكلِّ فتنةٍ هي كائنة فيما بيني وبين السَّاعة[(٣)].

* هذا ومرويات حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ كثيرة ومشهورة، وقد أوردنا نماذج منها خلال ترجمته.

= ـ رضي الله عنه ـ يسأله عن المنافقين، وكان عمر ينظر إليه عند موت مَنْ مات منهم، فإن لم يشهدْ جنازته حذيفة، لم يشهدها عمر. (الاستيعاب ١/ ٢٧٧).
«سمّ الخياط»: ثقب الإبرة. ومعناه: لا يدخلون الجنة أبداً، كما لا يدخلُ الجملُ في سمّ الإبرة أبداً.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٤) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١) والإصابة (١/ ٣١٦) مع الجمع بينهما.
(٢) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧/ ٥١).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٩١).

حُذَيفةُ منْ فُرسَانِ الحِكْمَةِ والبلاغة:

* لئن كانَ حذيفة جريئاً في مقام السَّيف والسِّنان، لقد كان بليغاً في مقام اللِّسان، وقد أُثِرت عنه كلماتٌ مضيئةٌ وضيئةٌ أَثْرَتْ دُنيا المعرفةِ لما تحملُ منْ حكمةٍ، وموعظة حَسَنة، مُستقاة من معاني القُرآن الكريم، والسُّنَّة المطهّرة؛ لذلك تفوحُ من حكمته عبقاتُ الأنوار؛ التي تصقلُ النُّفوس، وترتسم معانيها في حنايا القلوب، بَلْسماً للأدواء، وملاذاً للطالبين.

* وحذيفةُ ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ من فرسان الحكمةِ النَّابعة منَ الفيوضات الرَّبانية، والفتوحات الرَّحمانية، إذ إنَّ أقواله تسيلُ بالرِّقة والرحمة، والحَنَان، وتفوحُ بما يُعَطِّر المجالس، وتسكنُ في القلوب، لأنَّها ممتزجةٌ برحيقِ الذِّكْر الحكيمِ، ومختلطةٌ بأنفاسِ النبوة الشَّريفة، من ذلك قوله الشَّهير في أصنافِ القلوب:

القلوبُ أربعة: قلبٌ أَغْلفُ[١]، فذلك قلبُ الكافر.

وقلبٌ مصفّحٌ[٢]، فذلك قلبُ المنافق.

وقلبٌ أجردُ في سراج[٣]، فذاك قلبُ المؤمن.

وقلبٌ فيه نفاقٌ وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدُّها ماءٌ طيِّب.

ومثل النِّفاق مثل القرحة، يمدّها قيحٌ ودم، فأيّهما ما غلب عليه غلب[٤].

* ولحذيفة ـ رضي الله عنه ـ أقوالٌ رائعة في تعريف الفتنة، والتَّحذير منها كقوله: ما الخمرُ صرفاً بأذهبَ بعقولِ الرِّجال من الفِتْنَة[٥].

* وسُئلَ ـ رضي الله عنه ـ أيّ الفِتَن أشدّ؟.

---

(١) «قلب أغلف»: لا يعي لعدم فهمه، كأنّه حُجِب عن الفَهْم.

(٢) «قلب مصفح»: هو الذي له وَجْهان، يَلقى أهلَ الكفر بوجهٍ وأهلَ الإيمان بوجهٍ.

(٣) «قلب أجرد في سراج»: أي: ليس فيه غلٌّ ولا غشٌّ، فهو على أصل الفطرة، فنُور الإيمان فيه يَزْهر.

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٧٦).

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٧٤).

قال: أن يُعْرضَ عليك الخير والشرّ، فلا تدري أيّهما تركب[1].

* ولحذيفة حِكَمٌ فريدة في مَجَالِ الأدب، رفعَتْه إلى مصافّ فُرسان البلاغة والبلغاء المرموقين، لما احتوته من معانٍ واسعةٍ في كلماتٍ بسيطة، وتنمُّ عن عقله، وبصيرته النّافذة.

* ولنسمع إلى هذه الموازنة اللطيفة، والأدب الرّائع، والنّصيحة اللّيِّنة في قوله: إنَّ الحقَّ ثقيلٌ، وهو مع ثقله مريءٌ، وإنَّ الباطل خفيفٌ، وهو مع خفّته وبيءٌ، وتَرْكُ الخطيئة أيسرُ وخيرٌ من طلب التوبة؛ وربَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً[2].

* ومن أقواله الخوالد، ما رواهُ الأَعْمَش عن سليم العامري قال: سمعتُ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: بحسبِ المرءِ من العِلْم أنْ يخشى الله عزَّ وجلَّ، وبحسبه من الكذب أنْ يقولَ: أستغفرُ الله، ثمَّ يعود[3].

* وسُئل حذيفة ـ رضي الله عنه ـ عن ميت الأحياءِ فقال: هو الذي لا ينكرُ المنكر بيدهِ، ولا بلسانه، ولا بقلبه[4].

* ومنْ أقواله النَّفيسة التي تهمسُ في أُذُنِ الجوزاء، قوله في النّصيحة وفهم الحياة: ليس خياركم مَنْ تركَ الدُّنيا للآخرة، ولا خياركم مَنْ ترك

---

(1) الاستيعاب (١/٢٧٨).
(2) مختصر تاريخ دمشق (٦/٢٥٩).
«وبيء»: الوباء: كل مرضٍ فاشٍ عامّ.
(3) حلية الأولياء (١/ ٢٨١) ومختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٥٨).
(4) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٦٠) ويلاحظ ـ هنا ـ أن هذه الحكمة مستقاة من الهدي النبوي، فمن لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عاش في سلبيّة قاتلة، وانعزال عن مناصحة الناس، والمسلمُ مطالبٌ بأن يكون فاعلاً في مجتمعه، إن رأى خيراً شكر الله، ومَدَح فاعليه، وإن رأى غير ذلك نَصَح بالمعروف، والحكمة، والموعظة الحَسَنة. وهذه المهمة موكولة بكل مسلم يؤمن بالله عزَّ وجلَّ، فهي مناط التكليف، وفحوى الأمانة التي حملها الإنسان منذ البدء.

الآخرة للدُّنيا، ولكنَّ خياركم مَنْ أَخَذَ من كلٍّ[1].

أَشْـتَهي الجَـنَّـةَ:

* نحن الآنَ في استقبالِ العامِ السَّادس والثَّلاثين من الهجرة النَّبويَّة، وفي وداعِ حذيفة بن اليمان إلى دار الخُلود، وهو في المدائن، بعد أنْ بَلَغه نعي سيِّدنا عثمان، فحزنَ حُزناً شديداً، وبدأت رحلتُه إلى دار النَّعيم، ومرض - رضي الله عنه - مَرَضاً شديداً.

* وعلى الرَّغم من مرضه الشديد، لم يبخل علينا بنفيس حِكَمِه ونصائحه: قال أسدُ بنُ وداعة: لما مرض حذيفةُ مرضه الذي مات فيه، قيل له: ما تشتهي؟

قال: أشتهي الجنَّة.

قالوا: فما تشتكي؟!.

قال: الذَّنوب.

قالوا: أفلا ندعو لك الطَّبيب؟.

قال: الطَّبيبُ أمْرَضني[2].

* ولما حَضَر حذيفةَ الموتُ قال: مرحباً بالموتِ وأهلاً، مرحباً بحبيبٍ جاء على فاقةٍ، لا أَفْلح مَنْ نَدِمَ، اللهم! إنِّي لم أحبَّ الدُّنيا لحفرِ الآبار، ولا لغرسِ الأشجار، ولكن لسهرِ الليل، وظمأ الهواجر، وكثرة الرُّكوع والسُّجود، والذِّكْر لله عزَّ وجلَّ كثيراً، والجهاد في سبيله، ومزاحمة العُلماء بالرُّكب[3].

* وعن صالح بنِ حسان أنَّ حذيفة لما نزل به الموتُ قال: هذه آخرُ ساعةٍ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٦٢).

(٣) المصدر السابق.

من الدُّنيا، اللهم إنَّك تعلم أنِّي أحبُّك، فبارِكْ لي في لقائك. ثمَّ مات[(١)].

* ولحذيفة ـ رضي الله عنه ـ أقوالٌ كثيرة عند مرضه وقبيل وفاته، أوردتها المصادر، وكلُّها تنضحُ بالحكمةِ وفَصْلِ الخطابِ، وقد أوصى فقال: اشتروا لي ثوبَيْن أبيضين، فإنَّهما لن يُتركا عليَّ إلا قليلاً، حتى أبدَّل بهما خيراً منهما، أو أسلبهما سلباً قبيحاً[(٢)].

* ونزلت كوكبةٌ من الملائكة الكرام، وقَبضوا روحَ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ وصَعِدُوا بها إلى بارئها راضية مرضية؛ لتستقرَّ في عليّين، وانتهتْ بوفاتهِ حياة حافلة بالهجرةِ، والجهادِ، والفروسيَّةِ، والفُتوحات، والعِلْم، والزُّهد، والحكمة، والفَضْل، وبحسبِ حذيفة أن يُقرنَ اسمه باسمِ رسول الله ﷺ فيقال: صاحب سرِّ رسولِ الله ﷺ.

* توفي حذيفة سنة ست وثلاثين منَ الهجرة بعد عثمان بأربعينَ يوماً[(٣)].

* وبعد؛ فما أجمل أنْ نختمَ سيرة حذيفة، بما افتتح به أبو نُعيم ترجمته إذ قال: العارفُ بالمِحنِ وأحوالِ القلوب، والمشرفُ على الفِتنِ والآفاتِ والعيوب، سأل عن الشرّ فاتَّقاه، وتحرى الخيرَ فاقتَناه، سكنَ عند الفَاقةِ والعدم، وركنَ إلى الإنابةِ والنَّدم، وسبقَ رتْقَ الأيام والأزمان، أبو عبد الله بن حُذيفة بن اليمان.

* رضي الله عن فارسِ الأحزابِ: حذيفة بن اليمان، وأوسع له في الفراديس مَنْزلاً، ونَفَع المسلمين بسيرَته العطرة، وجَعَلهم يقتدون به في العبادة، وحِفْظ السِّرِّ والجهاد، وطَلَب العلم النافع.

* * *

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٨).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٦٢).

(٢)

حَمْزَةُ بن عَبْدِ المطلب

ـ رضي الله عنه ـ

أَسَدُ اللهِ وأَسَدُ رسوله .

صاحِبُ السَّيْفَيْنِ ماذا صَنَعا؟!
ودَّعَ الصَّفَّيْـنِ والـدُّنيـا معـا
يـا رسـولَ اللهِ هـذا حمـزة
أتـرى عيناك منـه المصرعـا؟!
أَسَـدُ اللهِ رمـاهُ تَغْلَـبٌ
يـالـه مِنْ حـادثٍ مـا أبـدعـا!

أَسَدُ اللهِ:

* هو ذا الإمامُ البطلُ الضّرغام[1]، أسدُ الله، وأسدُ رسولِ الله ﷺ، وعمّه، وأخوه مِنَ الرّضاعة[2]، حمزة بن عبد المطّلب بن هاشم القرشيّ الهاشمي المكّي ثمّ المدني[3]، كنيته أبو عمارة، وأبو يعلى، فارسُ الفُرسان، وعَلَم المجاهدين، وصفيُّ رسول الله ﷺ وناصره، نعيشُ في رحابه لحظات رغيدة، نقتطفُ منْ زَهْر سيرته ما نعطِّرُ به الأَجْواء، ونمتع به الأسماع، وتتحلَّى به الأفواه، فهو القدوة الحسنة لمن اعتبر فاهتدى، ثم اهتدى.

* وحمزةُ هذا منَ الرِّجالِ الذين صَدقُوا ما عاهدوا الله عليه، كان منَ الذين أبلوا بلاءً حَسَناً لنَشْر رايةِ الحقِّ في رحاب الحقِّ، ولقد أحسن كعب بن مالك الأنصاريّ وَصْف حمزة إذ قال:

قَرمٌ تمكّن في ذؤابةِ هاشم ... حيثُ النُّبوّةُ والنّدى والسُّؤددُ[4]
والتّاركُ القرن الكميّ مجدّلاً ... يوم الكريهة والقَنا يتقصّدُ[5]

* كانَ حمزة أَسَنَّ منْ رسولِ الله ﷺ بسنتين، وقيل: بأربع، وكان قريبه منْ أمّه أيضاً؛ لأنَّ أمَّ حمزة هي هالةَ بنت أهيب الزُّهريّة بنت عم آمنةَ بنتِ وهب أمّ رسول الله ﷺ.

---

(١) أرضعتهما ثُويبة مولاة أبي لهب، كما ثبت في الصّحيحين.

(٢) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٨ ـ ١٩) ونسبُ قريش (١٧/ ١٥٢ و٢٠٠) والاستيعابُ (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٦) والمستدرك (٣/ ٢١١ ـ ٢٢٠) والروضُ الأنف (٢/ ٤٩ ـ ٥٠) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٦٨ و١٦٩) ومنحُ المدح (ص ٦٩ ـ ٧١) وتاريخُ الإسلام للذّهبي (المغازي: انظر الفهارس) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٧٢ ـ ١٨٤) وفتح الباري (٧/ ٤٢٤ ـ ٤٣٠) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨) والعِقْد الثّمين (٤/ ٢٢٧) والإصابة (١/ ٣٥٣) وغيرها من المصادر المتنوعة.

(٣) «الضرغام»: الأسد الضاري الشديد . والشجاع.

(٤) «القَرْم»: السيد المعظَّم. «ذؤابة»: هي من كل شيء: أعلاه. وذؤابة القوم: شريفهم المقدَّم عليهم.

(٥) «الكميّ»: الشجاع المقدام الجريء. ولابِس السّلاح.

نشأ حمزة ـ رضوان الله عليه ـ على حبِّ الفروسيَّة، وعشِقَ فنونَ الجلاد، وقد عُرِفَ بين أترابه[1] بشدَّة البأسِ، وقوة الشَّكيمة، واشتهر بين أهل مكةَ بأنَّه أعزّ فتى في قريش، لا يُدانيه في ذلك أحد.

* حُبِّبَ إلى حمزةَ بنِ عبد المطلب الصَّيد والقَنَص[2]، فكان يخرج إلى ممارسة هذه الهِواية في وديان مكةَ، وظلَّ على هذا إلى أنْ تجاوزَ مرحلة الشَّباب.

* وفي أحدِ الأيّام، سمع أنَّ ابنَ أخيه محمَّد بنَ عبد الله قد أوحيَ إليه، وأنه رسول الله ﷺ، فلم يلتفتْ إلى هذا الأمر باديء ذي بدء، وإنّما ظل يلهو بفروسيته، وصيده، وقَنَصه، ولم يفكِّرْ في هذا الدِّين الجديد؛ الذي لا يعترفُ بدين قريش، ولا يأبه لعبادة الأصنام المبثوثة هنا وهناك.

إلى الإسلامِ الحقِّ والـدِّيْن الحَنِيْفِ:

* ها هيَ الأيّام تمضي، والدَّعوة الإسلاميةُ تُشْرِقُ بأنوارها على أمِّ القرى، وتعطِّرُ الدُّنيا برحيقها، ولم يفترِ المشركونَ في تقديم وجَبات سريعة ومتتالية من الأذى، وضرباتٍ منَ الكيد العنيف للإسلام والمسلمين، وكان منْ أشدّهم عداوةً وضراوةً لرسولِ الله ﷺ: أبو جهل بن هشام[3] فرعون الأمّة، الذي راح يفرغُ حِقْده في المسلمين، وراحَ يسخر منَ الدَّعوة، ويسخِّر كلَّ ما يملك في سبيلِ الصَّدِّ عن سبيل الهدى، ويصبُّ جام غضبه على المؤمنين المستضعفين.

* ولكنَّ حمزة ـ رضي الله عنه ـ أَوْقَفَ هذه الاعتداءات الظَّالمة بإيمانه ودخوله الإسلام والدِّينِ الحنيفِ، فقد كان سببُ إسلامِهِ أنَّ أخته صفيَّة بنت

---

(١) «الأتراب»: جمع تِرْب، وهو المماثل في السِّن.

(٢) «القنص»: الصَّيْد.

(٣) للمزيد من أخبار هذا العدوّ اللدود، اقرأ كتابنا «المبشرون بالنار» (١/ ١٥ ـ ٥٣) ستجد فيه مقدار ما بلغ حقد هذا الكافر العنيد، وستجد مدى كمال رسول الله ﷺ الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره بين الأمم ولو كره مَنْ كره.

عبد المطلب، عمَّة رسولِ الله ﷺ، وأمّ الزُّبير بن العوَّام - رضي الله عنه - ومعها جارية لعبد اللهِ بنِ جدعان أخبرتاه - وهو عائدٌ من قَنْصه وصيده - أنَّ أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمّداً ﷺ، وبالغ في تنقيصه وهو جالس عند جبل الصَّفا، فلم يكلِّمه محمَّد ﷺ، ولم يردّ عليه سفاهته، وسلاطة لسانه.

* فاحتملَ الغَضَبُ والحميّةُ حمزة لما أرادَ اللهُ به منَ الكرامة والهداية، ولما أراد لدينه ونبيّه الكريم من الإعزازِ، فخرجَ يشتدُّ مُعِدّاً لأبي جهل الإيقاع به، فلمّا دخل المسجد لم يكلم أحداً على غير دأبه وعادته، ونظر إلى أبي جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسِهِ ضَرَبَه بقوسِه، فشجَّه شجَّة منكرة، وقال له: أتشتمهُ وأنا على دِيْنه؟ أقولُ ما يقول فَرُدَّ عليَّ أن استطعتَ، فحميَ لأبي جهل رجالٌ منْ قومه بني مخزوم لينصروه، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنِّي واللهِ قد سببتُ ابنَ أخيه سبّاً قبيحاً(١).

* وعاد حمزةُ إلى بيتِهِ وهو مُغْضَبٌ، ولما استقرَّ في منزلِهِ، أخذتْ تساورهُ الوساوس الشَّيطانية، والهواجسُ المتلوِّنة، وراحتِ الأفكارِ تداعبُ فِكْره، وتغزو ضميره، وتحرّكُ كوامنَ نفسه، وتساءل: كيف تركت دِيْن الآباء ودِيْن القوم؟ وكيف اتَّبعت دِيْن ابن أخي؟!.

* أدركتْ حمزةَ العنايةُ الرَّبانية، فطلبَ التَّوفيق والسَّدَاد منَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فثبَّته الله سبحانه ببركة دعوة رسول الله ﷺ، واستمراره على الصِّراط المستقيم.

* يحدِّثنا حمزة عمّا اعتراهُ في تلكَ الأوقات من صراعات نفسية، وهواجس داخلية، أقضَّت مضجعه، وحَرَمته النوم، فقال: أدركني النَّدمُ على فراقِ دِيْنِ آبائي وقومي، وبتُّ منَ الشَّكِ في أمر عظيم، لا أكتحلُ بنومٍ، ثمّ

(١) ذكر ابنُ سعد - رحمه الله - في «الطَّبقات» أنَّ حمزةَ قد أعلنَ إسلامه في السَّنة السَّادسة من البعثة، بينما جزمَ ابنُ حجر في «الإصابة» بأنَّ سيّدنا حمزة قد أسلم في السَّنة الثَّانية منَ البعثةِ. وصدر بذلك أبو عمر بن عبد الله في «الاستيعاب» وتبعهما القسطلاني في «المواهب».

أتيتُ الكعبة، وتضرَّعْتُ إلى اللهِ سُبحانه أن يشرحَ صدري للحقِّ، ويُذْهِبَ عنّي الرَّيب، فما استتممتُ دعائي حتى زاحَ عني الباطل، وامتلأ قلبي يقيناً، فغدوتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرتُه بما كان منْ أمْري، فدعا لي بأنْ يثبّتني الله عزَّ وجلَّ[1].

* واستقرَّ في قلب حمزة الإسلام، وسرت نسماتُه تُداعبُ وجدانه، وراحت عبقاتُ الأنوارِ الإيمانية تتوضَّعُ في أغوارِه، وشعر بالطُّمأنينة تغلّفُ قَلْبَه، وبالسكينة تغمرُ روحه، وطافَ في ذهنه زَهْرٌ من ربى الكلامِ العَطِرِ، فأخذ ينشدُ مما جادت به قريحته، ويقول في إسلامه:

حَمـــدتُ الله حيـــنَ هـــدى فـــؤادي
إلـــى الإســـلامِ والـــدِّيْـــنِ الحنيـــفِ
لـــديْـــنٍ جـــاءَ مـــنْ ربٍّ عـــزيـــزٍ
خبيـــرٍ بـــالعبـــادِ بهـــم لطيـــفِ

---

(1) الرّوضُ الأنف بهامش السِّيرة النَّبوية (٢/ ٤٩). ونقلَ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في «البداية والنّهاية» عن ابنِ إسحاق قصّة إسلام حمزة فقال: ثمَّ رجعَ حمزةُ إلى بيته، فأتاهُ الشَّيطان، فقال: أنتَ سيّد قريش، اتّبعتَ هذا الصّابىء، وتركت دِيْنَ آبائك، لَلْمَوْتُ خيرٌ لكَ مما صنعتَ. فأقبل حمزةُ على نفسه وقال: ما صنعتِ؟! ثمَّ دعا فقال: اللهمَّ إنْ كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعلْ لي ممّا وقعتُ فيه مخرجاً.
فباتَ بليلة لم يبتْ بمثلها من وسوسةِ الشَّيطان، حتى أصبحَ، فغدا على رسولِ الله ﷺ فقال: يا بن أخي! إنّي وقعتُ في أمْرٍ، ولا أعرفُ المخرج منه، وإقامة مثلي على مالا أدري ما هو أرشدٌ أم هو غيٌّ شديد؟! فحدثني حديثاً فقد اشتهيتُ يا بن أخي أن تحدثني. فأقبلَ رسولُ الله ﷺ فذكّره، ووعظَه، وخوَّفَه، وبشَّره، فألقى الله عزَّ وجلَّ في قلبه الإيمان بما قال رسولُ الله ﷺ.
فقال حمزةُ: أشهدُ أنّك الصّادق شهادة الصِّدق، فأظهِرْ يا بن أخي دينَك، فوالله ما أحبّ أنّ لي ما أظلته السَّماء ـ وفي رواية: ما ألمعت الشمس ـ، وأنّي على ديني الأوّل، فكان حمزة ممن أعزَّ الله به الدِّين. (البداية والنهاية ٣/ ٣٣) و(المستدرك ٣/ ٣١٣ و٣١٤).

إذا تُلِيَتْ رسـائلُـه علينـا
تحـدَّرَ دمـعُ ذي اللُّـبِ الحصيـفِ
رسـائـلُ جـاءَ أحمـد مـنْ هُـداهـا
بـآيـاتٍ مبينـةِ الحُـروف
وأحمـدُ مصطفـى فِينَـا مُطـاعٌ
فـلا تَغْشَـوه بـالقـولِ العنيـفِ
فـلا واللهِ نُسْلمـهُ لقـومٍ
ولمّـا نَقْـضِ فيهـم بـالسيـوفِ
ونتـركُ منهـم قتلـى بقَـاعٍ
عليهـا الطَّيـرُ كـالـوردِ العكـوفِ
وقـد خُبِّـرتُ مـا صَنَعَـتْ ثقيـفٌ
بـه، فخـزى القبـائـلَ مـنْ ثقيـفِ
إلـهُ النَّـاس شـرَّ جـزاء قـومٍ
ولا أسقـاهـم صـوب الخـريـفِ[1]

* قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: لمَّا أسلم حمزة ـ رضي الله عنه ـ علمت قريش أنَّ رسولَ الله ﷺ قد امتنعَ، وأنَّ حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعضِ ما كانوا ينالُون منه[2].

* ومضى حمزة ـ رضي الله عنه ـ في طريقِ الإيمان، والذَّودِ عن الدَّعوة، حتى بلغَ مقاماً لم يبلغْهُ غيره من المسلمين، فهو سيِّدُ الشُّهداء بشهادةِ سيِّد

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٤٩ و٥٠) ومنح المدح (ص ٧٠ و٧١). ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه القصيدة مصنوعة ومنسوبة إلى حمزة ـ رضوان الله عليه ـ وذلك لوجود بعض الدلائل والقرائن التي تشيرُ إلى أنّها قد قيلتْ بعد العصر النّبويّ، كالبيتِ الثّالث والرابع والخامس والثّامن، وليس هنا مجال لذكرِ ذلك أو مناقشته. وإنَّ المطّلع على جوانب السّيرة النّبوية ليدرك تماماً أنّها مصنوعة، وقد أحببتُ أن أنوه لذلك، وأنْ أوردَ القصيدة كاملة كما وردت في المصادر كي تتوضح صورة ما قلناه.

(٢) السّيرة النّبوية (١/ ٢٩٢).

الخَلْقِ رسول الله ﷺ[1]، وهو أَسَدُ الله، وأسدُ رسوله ﷺ[2]، كان إسلامُه عزّاً للمسلمين، ومنعة وقوّة لرسولِ الله ﷺ، أُخِذَتْ به قريش فأصابها المقيمُ المُقْعد، وشرقتْ بإسلامِه، فكان شَجاً في حلاقيمها، إذ أذلّ كبرياءها، وَقَتل كُبراءَها، وظهرتْ به الدَّعوة بعد استخفائها، وأعلنت بصوته كلمة الحقّ بعد استتارها، وجهر بالتكبير لله تعالى على سَمْع طغاة الشِّرك، فأراهم حَقارةَ عقولهم في دناءة معبوداتهم، وأراهم عزّةَ الحقِّ وانتصاره، فكان إسلامهُ ظفراً، ومنعة، وفتحاً.

حَمْزَةُ وَمُؤَاخَاة كَرِيْمَةٌ:

* لما هاجر المسلمونَ إلى المدينة المنورة، كان حمزة من أوائل المهاجرين، واستقرَّ هناك في المدينة. ولما كانتِ المؤاخاةُ، آخى رسولُ الله ﷺ بين حمزة وزيد بن حارثة[3] ـ رضي الله عنهما ـ.

وأحبُّ أنْ أقفَ وقفةً لطيفةً عند هذه المؤاخاة؛ إذ هي من باب الرِّعاية الخاصّة التي يُضْفيها حمزةُ ـ رضي الله عنه ـ من مظاهر صفوة الودِّ والمحبّةِ والتَّواسي والارتفاق على زيد ـ رضي الله عنه ـ وذلك لما كان عليه زيدٌ منْ رفيع الشَّمائل، وجميلِ المحامد، وكريم الفضائلِ، ودماثة الأخلاق، والتَّفاني في خدمةِ رسول الله ﷺ، وإيثاره البقاء في ظِلِّه «عبداً» على أبيه وأمّه وإخوته وعشيرته حرّاً، مما عقد بينه وبين حمزة ـ وهما من صفوة المودَّةِ من مجرَّدِ أخوة الإيمان، فهي أخوةُ إفضالٍ وتكرّمٍ، وتكريم متفضل، وهي أثرٌ منْ آثارِ فتوّةِ حمزة وبطولته، وللفتوَّة والبطولة مآثر لا تعرفها الحياة إلا لأهل الفتوة، وأبطال الرِّجال.

* هذا وقد وَجدَ هذا الأثر في نَفْسِ زيد ـ رضي الله عنه ـ تجاوباً توثَّقتْ به

---

(1) قال ﷺ: «سيِّد الشهداء عند الله: حمزة بن عبد المطلب». رواه الحاكم (١٩٩/٣).

(2) قال ﷺ: «والذي نفسي بيده! إنه لمكتوب عند الله في السماء السابعة: حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله». رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٩٥١).

(3) اقرأ سيرة زيد بن حارثة في هذا الكتاب ص(١٢٦).

عُرى المودَّة والإخلاص، فكانت أخوة تجمعُ معالم الإخاء ومآثره.

* ولقد بلغتْ هذه المؤاخاةُ الكريمة بين حمزةَ وزيدٍ ـ رضي الله عنهما[١] ـ مبلغاً رفيعاً، حتى أوصى حمزةُ لزيدٍ في غزاةِ أُحُد إنْ نزل به قَدَرُ الله، ورأى أنَّ أحبَّ النَّاس إليه ـ بعد رسول الله ﷺ ـ وأوفاهم بأخوّته، وآثرهم عنده؛ هو الحِبُّ الذي نشأ في حضنِ النّبوّة، وتربى في حجرها، وتأدب بآدابها، الكريم على اللهِ وعلى رسوله ﷺ زيد بن حارثة، فأوصى إليه، مؤثراً له على قراباته وإخوانه المؤمنين، والوصية تشملُ أوّل ما تشمل الأولاد، إذا كانوا صغاراً حيث يحوجهم اليُتم إلى مزيدٍ من الرِّعاية والعطف، وإحْسَان التّربية الرَّحيمة[٢].

بــأَمْـر رَسُـولِ الله ﷺ:

* كانتْ قريش تذهبُ بتجارتها إلى الشَّام كي تبيعَ وتشتري، وكانت طريقهم إلى الشَّام تمرُّ على المدينة، أو قريباً منها، فرأى رسولُ الله ﷺ أنْ يقطع عليهم طريقَهم، ويصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة؛ ليكون في ذلك عقابٌ لهم على إخراجِ المسلمين منْ ديارهم، وما أخذوه من أموالهم، ولهذا فقد

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ٤٩٣).
أقول: لقد تجلّت المؤاخاةُ بين المسلمين حقيقة واقعية، وليست شعاراً يُرفع، إذ تحوّل التحابُبُ إلى سلوكٍ يتداحُ في حيز الواقع، ويضمن أمرين: أولهما: التآخي على الحق والمواساة، وثانيهما: التوارث بعد الممات. إن تلك المؤاخاة قوّت العلاقات بين المسلمين في مجتمعهم الناشىء. وجعلت الحياة ترتكز على التعاون، والتناصر طبق ميزان العدل والمساواة.

(٢) لم يكن زيدُ بنُ حارثة ـ رضي الله عنه ـ ضعيفاً بالمال والعشيرة، وإنّما كان منْ أعلى الأعلياء، وأقوى الأقوياء، لأنّه مولى رسول الله ﷺ، فهو هاشميٌّ بالموالاة، ويزيدُ على ذلك أنّه حِبُّ رسولِ الله ﷺ الذي جعل الله عزَّ وجلَّ له القيام بأمْره كلّه، فالمؤاخاةُ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ليست من باب الأعلى والأدنى، ولا من باب الأقوى والأضعف، لأنَّ علو نسب حمزة وقومه قد أخذ منهما زيد بنصيب وافر، لأنّه مولاهم، ومولى القوم منهم. أقولُ هذا دَفْعاً لوهم المتوهمين، وظنِّ أعداء الدِّين.

أخَذَ رسولُ الله ﷺ يبعثُ بالسَّرايا، وكان يترقَّب أن يؤذن الله له ولأصحابه في القِتَال[١].

* ولذلك، ففي شهر رمضان منَ السَّنة الأُولى للهجرة، بعث رسولُ الله ﷺ عمّه حمزة ـ رضوان الله عليه ـ إلى سيف البحر في ثلاثينَ راكباً من المهاجرين، وأمره أنْ يعترض عيراً لقريش راجعة من الشَّام، فيها أبو جهل ابن هشام، وثلاثمئة من أهل مكة، وسار حمزة ـ رضي الله عنه ـ ممتثلاً أمْرَ رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه، حتّى وصلوا ساحل البحر، فصادف العير هنالك، ولما تصافُّوا للقتال تدخل بينهم مجدي بن عمرو الجُهَنّي، وحجزَ بينهم، فأطاعه الفريقان، ولم يكن بينهم قتال[٢].

* قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ عن سرية حمزة: وبعض النَّاس يقول: كانتْ راية حمزة أوّل راية عَقَدَها رسولُ الله ﷺ لأحدٍ منَ المسلمين، وذلك أنْ بعثَه، وبعثَ عُبيدة بن الحارث[٣]، كانا معاً، فَشُبِّه ذلك على النَّاس، وقد زعموا أنَّ حمزة قد قال في ذلك شعراً يذكر فيه أنَّ رايته أوّل رايةٍ عَقَدها رسول الله ﷺ، فإن كان حمزةُ قد قال ذلك، فقد صدق إنْ شاء الله، فلم يكن يقول إلا حقّاً، فاللهُ أعْلَم أيّ ذلك كان[٤].

* وفي تلك السَّرية الموفَّقَة يقول حمزة ـ رضوان الله عليه ـ مُصوّراً

---

(١) قال ابنُ كثير ـ رضي الله عنه ـ في تفسيره: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصَّلاة والزَّكاة، وكانوا مأمورينَ بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصَّفح والعفو عن المشركين، والصَّبر إلى حين، وكان يتحرقون ويودّون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسبابٍ كثيرة، منها قلّة عددهم إلى كثرة عدد عدوهم. (تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٢٥) طبعة البابي الحلبي بمصر.

(٢) انظر: البداية والنّهاية (٣/ ٢٣٤) بتصرف يسير.

(٣) اقرأ سيرة عُبيدة بن الحارث المطلبيّ في هذا الكتاب ص (٣٩٧) وانظر: الأوائل للعسكريّ (ص٨٤).

(٤) السيرة النّبوية بشرح أبي ذرّ الخشنيّ (١/ ٢٨٢) طبعة مكتبة المنار.

ما حدث بينه وبين المشركين من قصيدة نقتطفُ منها هذه الأبيات:

ألا يـا لَقـومـي للتحلّـمِ والجهـلِ
وللنَّقـصِ مـنْ رأيِ الـرِّجـال وللعقـلِ
وللـراكبيـن بـالمظـالـم لـم نَطـأْ
لهـم حـرمـات مـنْ سُوام ولا أهـل[١]

فمـا بـرحـوا حتـى انتُـدبـتُ لغـارةٍ
لهـم حيثُ حلّـوا أبتغـي راحـةَ الفضـلِ
بـأَمْـرِ رسـول الله أوّل خـافـقٍ
عليـه لـواءٌ لـم يكـنْ لاح مـن قبلـي

لـواءٌ لـديـه النّصـر مـن ذي كـرامـةٍ
إلـهٍ عـزيـزٍ فعلـه أفضـل الفِعـل
عشيـةَ سـاروا حـاشـديـن وكلُّنـا
مَـراجِلُـه مـن غيـظِ أصحـابـه تغلـي[٢]

فلمّـا تـراءينـا أنـاخـوا فعقّلـوا
مطـايـا وعقّلنـا مـدى غـرضِ النَّبـلِ
فقُلنـا لهـم حَبـل الإلـهِ نصيـرنـا
ومـا لكـم إلا الضّـلالـة مـن حَبْـلِ

فثـار أبـو جهـل هنـالـك بـاغيـاً
فخـاب وردّ الله كَيْـدَ أبـي جَهـلِ
ومـا نحـنُ إلا فـي ثـلاثيـن راكبـاً
وهـم مئتـان بعـد واحـدة فضـلِ

---

(١) «السّوام»: الإبل المرسلة إلى المرعى.

(٢) «المراجل»: جمع مرجل؛ القِدْر.

فيـــا للـــؤيّ لا تطيعـــوا غُـــواتكـــم

وفيئـوا إلـى الإسـلام والمنهـجِ السَّهـل[1]

فأجابه أبو جهل بن هشام بقصيدةٍ بلغت (١٥ بيتاً) منها:

عجبـتُ لأسبــابِ الحفيظــةِ والجهــلِ

وللشَّــاغبيـــن بــالخــلاف وبــالبطــلِ

وللتَّـــاركيـــن مـــا وجـــدنـــا جـــدودنـــا

عليـه ذوي الأحْساب والسُّؤدد الجزل[2]

* وتابع حمزة ـ رضي الله عنه ـ مسيرة الفروسيّة والجهاد، فخرجَ معَ رسولِ الله ﷺ في أولى غزواته، وهي غزوة الأبواء، أو ودّان[3]، وكانت في شهر صفر من السَّنة الثَّانية للهجرة، وكان لواء هذه الغزوة في يدِ أسدِ الله وأسدِ رسوله، سيّد الفتيان الشُّجعان حمزة بن عبد المطلب، وكان عدد جنودها خمسين ومئة جندي من أبطال المسلمين السَّابقين الأوّلين.

* وكذلك خرج في غزوةِ العُشَيرة[4]، وكان يومها يحمل اللواء أيضاً، وكُتِبَ له شرف الجهاد في هاتَيْنِ الغَزوتَيْنِ، وحظي بمرضاة اللهِ عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسول الله ﷺ، وقد أبدى كلَّ ما يمتلك من جهد جهاديّ، واستطاعة قيادية، ومعرفة فروسية.

---

(١) انظر: السّيرة النّبوية بشرح أبي ذر الخشنيّ (٢/ ٢٨٢ و٢٨٣). وقال ابنُ هشام ـ رحمه الله ـ: وأكثر أهل العلمِ بالشّعر، ينكر هذا الشعر لحمزة ـ رضي الله عنه ـ: وهو كما قال؛ فالقصيدةُ مصنوعة، ولكنّي أحببتُ أنْ أوردَ أكثر أبيات القصيدة لكي تتوضحَ الصُّورة بشكلٍ أفضل، عِلماً أنَّ أصل القصيدة (١٤ بيتاً).

(٢) السّيرة النبوية (٢/ ٢٨٣) بشرح أبي ذر الخشنيّ. وانظر البداية والنّهاية (٣/ ٢٤٦) قال ابن هشام ـ رحمه الله ـ: وأكثر أهل العلم بالشّعر ينكر هذا الشّعر لأبي جهل. أقول: الحقيقة إنَّ المتمرس بفنون الشعر يجد أنَّ هذه القصيدة مصنوعة ومنسوبة كيما توافق الحادثة.

(٣) «ودّان»: بتشديد الدال، و«الأبواء»: مكانان متقاربان بينهما نحو ستة أميال.

(٤) «العُشيرة»: بالتصغير، مكان ببطن رابغ.

حَمْزَةُ ويَوم بـــدرٍ:

* يومُ بدر، وما أدراكَ ما يوم بدر؟!! يومُ بدر هو يوم الفُرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جَمْع المسلمين الموحِّدين في إيمانهم الرّاسخ، وقوّة يقينهم؛ وجَمْع الفجرة الكفرة في غرورهم المهزول الضّئيل، وكفرهم الغشوم الهزيل.

* يومُ بدر هو يوم الفيصل بين حياة وحياة.

* يومٌ عَلَتْ فيه كلمةُ الله ـ وهي العُليا منذ الأزل ـ.

* ويومٌ تسفَّلتْ فيه كلمة الكفر ـ وهي السفلى منذ القِدَم ـ.

* يومُ بدر يومٌ فَتحَ الله به للحقّ وأهله أبواب الكرامة والعزَّة، فكَرُم الحقُّ على أهله وعزَّ، وكرموا به وعزُّوا؛ لما فيه من نَصْر وظفر.

* يوم بدر؛ يومَ فتحَ الله به للباطل وأهله سراديب الهاوية، فاندحر واندحروا، وارتفع الحقُّ شامخاً، وتسامى إلى الآفاق مضيئاً مشرقاً مُتلألئاً، واندحر الباطل منكوساً يهوي إلى وادي الفناء ذليلاً محسوراً.

* وفي بدر، عبَّأ رسولُ الله ﷺ جيشه للقتال، مادياً ومعنوياً، كيما يواجه أعداءه وهو على أكمل استعداد، وكان حمزة ـ رضي الله عنه ـ يتشوَّقُ إلى القتالِ ليظهر فروسيته أمام الحبيب الأعظم سيدنا محمّد رسول الله ﷺ، فيحظى بالرضا والدعوات النبوية المباركة.

* وتنادتْ نُذُرُ الحربِ، وكان أوّل متعجّل إلى جهنّم الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ، وهو رجلٌ شرس، سيِّىء الخُلُق، غليظُ الطَّبع، مأفونُ العقل، أقسمَ ليشربنَّ منْ حوضِ المسلمين، أو ليهدمنه، أو ليُقْتَلنَّ دونه.

* مشى هذا المشاكسُ الكَفُور إلى الحوضِ، فتبعه أسدُ الرحمن وأسدُ رسوله حمزة، فأدركه قبل أنْ يصلَ إلى الحوضِ، فضربه حمزة فأطَنَّ[1] قدمه بنصف ساقه، فوقعَ الأسودُ المخزوميّ على ظهره تشخبُ رجله دماً، ثم

---

(١) «أطن»: أي: أسرع قطعها فطارت.

اقتحم الحوض يريد أنْ يبرَّ بيمينه، ورمى بنفسه فيه، فلحقه أسدُ الله حمزة، فأجهز عليه، فكان كأمسِ الدَّابر[1].

* هنالك هتفَ المسلمون: الله أكبر، وسَعِدوا بمقتل هذا الفاجر الكفور، والمُبْطِل المغرور، أمّا المشركون، فقد دُهِشُوا لهذه الضَّربة القاصمة من فارس الفتيان وفتى الفُرسان حمزة بن عبد المطلب الأسد الرَّباني المُحمَّديّ، الذي ما فتىء النصر يعانق ساعده المفتول.

* وبعد ذلك بدأتِ الحربُ مبارزةً، فخرج عتبةُ بن ربيعة بين أخيه شيبة ابن رَبيعة وابنه الوليد بن عتبة، وهم يدعون إلى المبارزةِ، وقد تعاورتهم حميَّةُ الجاهلية، ولعبَ بهم الغرورُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال، وبرزَ إلى عتبة وأخيه وابنه ثلاثة من فتيان الأنصار البهاليل[2]، فقال لهم عتبة بعد أن انتسَبُوا لبني النّجار: أكفاء كرام، ما لنا بكم من حاجة، إنّما نريد قومنا.

* ونادى عتبةُ ومَنْ معه مِنْ وقود النَّار: يا محمد! أَخْرِجْ لنا أَكْفَاءنا من قومنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «قم يا عُبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا عليّ»[3].

فقام هؤلاء البهاليل سِرَاعاً، ومشوا إلى القومِ في الحديد ملثّمين حتى دنوا منهم، فقالوا لهم: مَنْ أنتم؟ فتسمَّوا لهم، وأعربوا عن هويّتهم قائلين: حمزة بن عبد المطلب، علّي بن أبي طالب، عُبيدة بن الحارث؛ فقالوا: نعم، أكْفَاءٌ كرام.

* والتحمَ عُبيدة ـ وكان أَسَنَّ الثّلاثة ـ بعتبةَ بنِ ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة.

---

(١) انظر: عيون الأثر لابن سيد الناس (١/ ٣٩٣ و٣٩٤) بتصرف طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٢) «البهاليل»: جمع البهلول، وهو السَّيِّد الجامع لصفات الخير.

(٣) أخرجَ ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ يوم بدر: «يا عليّ! نَادِ لي حمزة» وكان أقربهم إلى المشركين.

فقتل عليٌّ الوليدَ، وقتل حمزةُ شيبةَ، واختلف عُبيدة وعتبة بضربتين، كلاهما أثبتَ[1] صاحبه، فكرَّ حمزةُ وعليٌّ على عتبةَ فأجهزوا عليه.

* ولما انتهتِ المبارزةُ بقَتْلِ أعداء الله ورسوله على يَدِ أبطالِ الإسلام ـ وكان قد سبقهم إلى قليب[2] جهنم الأسود المخزوميّ ـ استعرتِ المعركةُ واشتدَّ أوارها، فإذا بحمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ يبدعُ في ذلك اليوم العظيمِ أيّما إبداع، فقد خاض غمار المعركة، وهو يذكر الله عزَّ وجلَّ، وأخذ يُبدِّدُ شَمْلَ المشركين، وكان يومئذٍ مُعْلَماً بريشة نعامة[3]، وفعل بالمشركين الأفاعيل، وأذاقهم مِنْ حَرِّ سيفه، قبل أنْ يذوقوا حرَّ جهنم.

* ها هي لوائح النَّصر تتنزلُ على المؤمنين، فقد شهد الملائكةُ الكرام غزاةَ بَدْرٍ مع الموحدين البَرَرة، وقد وَرَدَ ذلك في صريحِ القرآن المجيد، والسُّـنَّـة المطهّرة[4].

---

(١) «أثبت»: أصاب وجَرَح.

(٢) «القليب»: البئر قبل أن تُبنى بالحجارة ونحوها.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠).

(٤) لم تختلفْ كلمةُ الأمّة المحمديّة سلفاً عن خَلَفٍ، في أنَّ الملائكة الكرام قد شهدت غزاة بدر مَدداً مِنَ الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمّد ﷺ، وأصحابه الكرام البَرَرة، وهذا صريحُ القرآن الكريم والذِّكْر الحكيم في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] أي: متتابعين، يردفُ بعضهم بعضاً، ويأتي بعضهم في إثْرِ بعض؛ وكذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].
أمّا في السُّنّة المطهرة الغرّاء، فقد جعل الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ عنواناً في صحيحه في كتاب المغازي فقال: باب في شهود الملائكة بدراً. (فتح الباري ٧/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤) الأحاديث رقم (٣٩٩٢ و٣٩٩٣ و٣٩٩٤ و٣٩٩٥) ثم ذكر تحت هذا العنون المبارك الحديث المستفيض فقال: حدثني إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرقيّ، عن أبيه ـ وكان من أهل بدر ـ قال: جاءَ جبريلُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟. قال: «منَ أفضلِ المسلمين» أو كلمة نحوها. =

* وها هي الحربُ قد وضعتْ أوزارها[1] ولمّا تَغِبْ شمسُ ذلك اليوم المجيد، وعندها أخذَ أسدُ الإلهِ حمزة يعطِّر الأسماع بما جادت به قريحته من لطيف الشِّعر الموزون، فأخذ ينشدُ مفتخراً بذلك اليوم الأغرّ، ويشيرُ إلى مصارع المشركين، فيقول في مطلع قصيدته:

ألـم تَـرَ أمْـراً كـان مـنْ أعجـبِ الـدَّهْـرِ
وللحَيْـــن أسبـــابٌ مبينـــة الأَمْـــرِ

ثمّ يتحدث عن مَقْتل جبابرة المشركين فيقول:

ونحــنُ تــركنــا عتبــةَ الغــيِّ ثــاويــاً
وشيبـة فـي قتلـى تجرجـمُ فـي الجفْـرِ[2]
وعمـرو ثـوى فيمـن ثـوى مـن حُمَـاتهـم
فشـقّت جيـوب النّـائحـات على عمرو[3]

= قال: وكذلك مَنْ شهد بدراً من الملائكة. (صحيح البخاري رقم ٣٩٩٢).
وذكر الإمامُ البخاري أيضاً حديثاً آخر في هذا الباب، وهو صريح في أنَّ جبريل عليه السَّلام قد شهدَ بدراً في أهبة الحرب؛ فقد أخرج البخاريُّ بسنده عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه عليه أداة الحرب» (صحيح البخاري رقم ٣٩٩٥).
فالقرآن الكريم، والسُّنّة المطهرة، وإجماع الصَّحابة الكرام، بل إجماع الأمّة، ذكروا بأنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرم رسوله ﷺ وأصحابه البررة الذين شهدوا غزاة بدر بإنزالِ ملائكته مدداً لهم في أوّل وأعظم غزوة قتالية.
قال أبو عبد الله القُرطبيّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: فتظاهرتِ السُّنّة والقُرآن على ما قاله الجمهور، والحمد لله.
هذا؛ وقد بسط المفسّرون ـ رحمهم الله ـ أقوالهم في هذا المجال، فلتراجع في مظَانّها.

(١) «وضعت الحربُ أوزارها»: أي: انقضت، ولم يبق قتالٌ؛ لأن أهلها يضعون أسلحتهم.
(٢) «عتبة وشيبة»: هما ابنا ربيعة، وقد قُتلا في المبارزة. «تجرجم»: تصرع.
(٣) «عمرو»: هو أبو جهل بن هشام فرعون الأمّة، وقد قُتل في غزاة بدر مع سبعين من المشركين.

ويتحدث كذلك عن شهودِ الملائكة غزاة بدر فيقول:

وفينـــا جنـــود الله حيـــن يمـــدّنـــا
بهـم فـي مقـام ثـمَّ مستـوضـح الـذكـر
فشـدَّ بهـم جبـريـل تحـت لـوائنـا
لـدى مـأزقٍ فيـه منـايـاهـم تجـري[1]

أنــا أَسَــدُ الله:

* تركتْ غزاةُ بدرٍ آثاراً غائرةً في نفوس المشركين، فقد كانت نكالاً لهم، ووبالاً عليهم، هُزِمُوا فيها شرَّ هزيمة، استأصلت أشراف جاهليتهم قَتْلاً، وأسراً، وتشريداً، وفراراً في فجاجِ الأرض، حتى بلغَ فلّهم[2] مكة مهزومينَ أذلاّء، يعضّون أيديهم منَ الاندحارِ والحسْرة، وهم في ذهولٍ وحيرة، لا يصدّقون ما يبصرون بأعينهم؛ لأنَّ هذه الهزيمة لم تكن تمرُّ بخيالهم المظلم بظلماتِ الغمّ، والحزن الكظيم.

* وجاءت غزاةُ أحد، واستعدَّ لها المسلمون، وكان حمزة ـ رضي الله عنه ـ مِنَ المتحمِّسين إلى لقاءِ عدوهم خارج المدينة المنوّرة؛ وتوجَّه حمزة إلى رسول الله ﷺ وقال: والذي أنْزَل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طَعَاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة[3].

* وكان المشركون قد خَرجوا من مكةَ بجيشٍ تعداده ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم بعض نسائهم كيما يحرضن الرّجال على الحربِ، وكان في الجيشِ عبد حبشي يقال له: وحشي، وهو غلام لجبير بن مطعم، فقال له جبير: إنَّ قَتَلْتَ حمزة عمّ محمّد بعمّي طعيمة بن عدي ـ وكان قد قتل يوم بدر مشركاً ـ فأنت حرّ.

---

(١) انظر: عيون الأثر (١/٤٣٦ و٤٣٧) والبداية والنّهاية (٣/٣٣٣ و٣٣٤) وعدد الأبيات (١٧ بيتاً). وقال ابن سيد الناس: ومن الناس من ينكرها لحمزة.
(٢) «فلهم» الفَلُّ: المنهزم. يُقال رَجُلٌ فَلٌّ، وقومٌ فَلٌّ، أي: منهزمون.
(٣) السيرة الحلبية (٢/٢٩١).

* وكانت هندُ بنتُ عتبةَ بن ربيعةَ تحرِّضُه هي الأخرى على قَتْلِ حمزة بن عبد المطلب الذي فجعَها بقَتْل الأحبَّةِ من أهلها وذويها في بدر، وكانت تغري وحشياً بالمال والذَّهب والحلي، وتهوِّن عليه قَتْل حمزة غيلة بحربته المسمومة، وكانت كلّما مرّت بوحشي أو مرَّ بها تقول له: ويها أبا دسمة[1]، اشْفِ واستشف.

* وعند سفح جبل أحدٍ بقرب المدينة المنورة، اصطفَّ الفريقان للقتال، وخرج من جيشِ المشركين سِباع بن عبد العزّى الخزاعيّ، وهو يختال بين الصفُوف، فقال: هل من مبارز؟.

فخرج إليه أسدُ الإله حمزة فقال: يا سباع! يابن أمّ أنمار مقطعة البظور[2]، أتحادّ الله ورسوله ﷺ؟! ثمّ شدَّ عليه حمزة فكان كأمسِ الذَّاهب[3].

* التحم الجيشان، وحميَ الوطيسُ، وتعانقتِ السُّيوف، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، وأظهروا منَ البطولات ما أعجز المشركين، وأذهب أحلامهم، وغيَّر تصوُّراتهم الزائفة القائمة على الكِبْر والزَّيْف.

* قاتل فرسانُ الرَّسولِ ﷺ: عليّ، وطلحة، والزبير، وأبو طلحة الأنصاريّ، وأبو دُجانة، وسعد بن أبي وقاص، وفرسان وأبطال غيرهم كثيرون، وقاتل أسدُ الرّحمن حمزة قِتال الأبطال الأشداء.

فكلما حَمَل على صفٍّ من المشركين بدَّد جَمْعَهم، وفرَّق أَمْرَهم، وجَعَلهم يولّون الأدبار، وكان يقاتلُ بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: أنا أسدُ الله[4]، وجَعَل لا يمرُّ به أحد من المشركين إلا وجعله من سكان القبور،

---

(١) «ويها»: كلمة إغراء وتحريض. «أبو دسمة»: كنية وحشي.

(٢) «مقطعة البظور»: أي: ختّانة للنساء؛ قال ابنُ إسحاق: كانت أمّ سباع بمكة تختنُ النّساء، وكانت مولاة لشريق بن عمرو الثقفيّ والد الأخنس، والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذمّ، وإلا قالوا: خاتنة.

(٣) أي: صيره عدماً، وهذا التعبير كناية عن قتله.

(٤) طبقات ابن سعد (١٢/٤).

ولا يقدر أحد أنْ يهويَ إليه أو يقترب منه. وقد قَتَل نفراً من حملة اللواء من بني عبد الدار، وجعلهم كأَمْسِ الدَّابر.

حَمْــزَةُ يَـحْظـى بوســام الشهــادة:

* لقد كانت بطولةُ حمزة يوم أحد منْ أروعِ البطولات في عالَم الفروسية، وكانت بطولته أرفع بطولاتِ الأبطال، فكان ـ رضوان الله عليه ـ يقاتل قتال الليوث المغاوير، ويندفعُ إلى قلْبِ جيشِ المشركين فيبدِّد جموعَهم، وهو يغامرُ مغامرة منقطعة النَّظير، فينكشفُ عنه الأبطال والكُماة الشجعان، ويتطايرون أمامه كما تتطاير أوراق الخريفِ أمام الرِّياح العاتية، وبينما هو على هذه الحال الكريمة المشرقةِ المشرِّفةِ، إذ كَمَنَ له وحشيٌّ حتى تمكّن منه، ثمَّ رماه بحربته غيلة، فأصابت منه مقتلاً أودى بحياته.

* وأمّا كيف كان مصرع أسد الإله، وكيف كان اغتياله، فسنترك وحشياً يحدثنا عن ذلك المشهد المثير المؤلم الحزين ليقول:

كنتُ غلاماً لجُبير بن مطعم، وكان عمّه طعيمة بن عديّ قد أصيب يوم بدر، فلمّا سارتْ قريشٌ إلى أحد قال لي جبير: إن قتلتَ حمزة عمّ محمّد بعمي فأنتَ حر.

فخرجتُ مع النّاس، وكنتُ رجلاً أقذفُ بالحربة قَذْفَ الحبشة، قلّما أخطىءُ بهـا، فلمّا التقى النّـاس، خرجتُ أنـظر حمـزة، وأتبصَّره، حتى رأيتـه في عرض النّاس كأنّـه الجملُ الأوْرَقُ[1]، يهدُّ النّاس بسيفه هدّاً، ما يقومُ له شيءٌ، فوالله إنّي لأتهيأ له أريده، وأستترُ منه بشجرةٍ، أو بحجر ليدنو مني، فلما دنا هززتُ حربتـي، حتى إذا رضيتُ منها دفعتُها عليه، فوقعت في ثنتـه ـ تحت سرتـه ـ حتى خرجتْ من بين رجليه، وذهبَ لينوء نحوي، فغُلِبَ، وتركته وإياها حتى ماتَ، ثمّ أخذتُ حربتي ورجعت، ولم يكـن لـي بغيـره حـاجـة، إنّمـا قتلتُـه لأعتـقَ[2]. ولمـا قـدمـت مكـة

---

(١) «الجمل الأورق»: الذي لونه بين الأبيض والأسود ـ الرمادي ـ.

(٢) البداية والنهاية (١٨/٤) بشيء من الاختصار. وانظر: عيون الأثر (٢/ ١٧ و١٨)=

عُتقت[1].

* انتهتِ المعركةُ، وعَلِم رسولُ الله ﷺ بمصرع أسد الإله عمّه حمزة - رضي الله عنه - وخرجَ ﷺ يتفقّد القتلى، ويتلمس عمّه حمزة، فوجده وقد مُثِّل به[2]، فقال: «لن أُصاب بمثلك أبداً، وما وقفتُ قطُّ موقفاً أَغْيَظ عليَّ من هذا» ثمَّ قال: «ولئن أظهرني الله على قريش في موطنٍ منَ المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم مكانك».

= والسِّيرة النبوية (٢/ ٦٩ - ٧٣) والحديث أخرجه البخاري - رحمه الله - في المغازي برقم (٤٠٧٢) باب: قتل حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - وأحمد (٣/ ٥٠١) والطيالسي (٢٣٤٨).

(١) قال أحمد زيني دحلان - رحمه الله - في سيرته ما مفاده: وجاء وحشيٌّ بعد أنْ ماتَ حمزة، وأخذ حربته، وذهبَ إلى هند بنت عتبة وأخبرها بفعلته التي فَعل، وغَدرته التي غَدَر، فأعطته ثوبها وحليها، ووعدته عشرة دنانير بمكة جزاء وفاقاً على جريمته النكراء.

وجاء في روايةٍ: أنَّ النِّساء خرجْنَ مع هند، وصرن يمثلن بقتلى المسلمين، يجدعن الأذان والآنف، ويتخذن من ذلك قلائد. (السِّيرة النبوية لأحمد زيني دحلان ٢/ ٥٩).

قال ابنُ سيِّد الناس - رحمه الله - في «العيون»: عَلَتْ هندُ بنتُ عتبة على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها، وأنشدت أربعة أبياتٍ من الشعر منها:

شفيتُ نفسي وقضيتُ نَذْرِي ... شفيتَ وحشيُّ غليلَ صدري

فشكرُ وحشي عليَّ عمري ... حتى ترمَّ أعظمي في قبري

(عيون الأثر ٢/ ٢٨).

أقول: وقد أسلمت هند عام الفتح، وحسُن إسلامها، وبايعتِ الرسول ﷺ، وعفا عنها - رضي الله عنها - وكذلك أسلم وحشي بعد معركة الطائف، وقَتَل مسيلمة الكذاب بحربته تلك وقال: قتلت خير الناس - أي: حمزة - وشر الناس - أي: مسيلمة - وشهد اليرموك ضد الرومان.

(٢) يقال: مَثَلْتُ بالقتيل؛ إذ جدعتُ أنفه، أو مذاكيره، أو شيئاً من أطرافه. فأما مثَّل - بالتشديد - فهو للمبالغة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٩٤) ولسان العرب (٣/ ٤٣٨). =

* وقال المسلمون لما رأوا المثلة في قتلاهم، ورأوا حزن رسول الله ﷺ على عمّه حمزةَ: لئن أظفرنا الله بهم يوماً منَ الدَّهر لنمثلن بهم مثْلَة لم يمثلها أحدٌ منَ العرب.

* ولم يلبثِ الأمينُ جبريل أنْ نزلَ حاملاً الدستور الإلهِي بمراعاةِ العَدْلِ في القصاص، وداعياً ومحبِّباً في الصَّبر والعفو، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨].

ويرضى رسولُ الله ﷺ أكمل الرّضا، ويسلم أجمل التّسليم لأمْرِ الله تعالى، ويصبُر على مصابه في عمّه وصفيّه أسد المجتمع المسلم كلّه حمزة ابن عبد المطلب(١).

* وتروي كتب السِّيرة أنَّ صفيةَ بنتَ عبد المطّلب جاءت لتنظَر إلى أخيها حمزة، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ ابنها الزُّبير بن العوام أنْ يصرفَها حتى لا ترى ما بأخيها.

فقالت: ولمَ؟ وقد بلغني أنّه قد مُثّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ، ولأصبرن إنْ شاءَ الله، فأتته فنظرت إليه، ودعت له، واسترجعت، واستغفرت الله لحمزة سيد الشهداء.

* وأمرَ رسولُ الله ﷺ أنْ يُدفن الشُّهداء(٢) بثيابهم ودمائهم، ولم يُغَسّلوا

---

(١) انظر: سيرة أعلام النبلاء (١/ ١٨٢) بشيء من التصرف.
إن حُزنه ﷺ على حمزة دليلٌ على محبة النبي ﷺ لأصحابه، وهذه المحبة المتبادلة بين القائد وجنده صفة أساسية ينبغي أن تتوافر في الجيش؛ كي يُحرز النصر، ويحقق التكاتف والتعاضد، والالتفاف المُخْلِص حول القيادة.

(٢) دعني ـ عزيزي القارىء ـ أحدثكَ عن نَيْلِ الشَّهادة في سبيل الله عزَّ وجلَّ لتعلمَ منزلةَ الشَّهيد عند البارىء العظيم، فإنَّ فوزَ المجاهدِ بنيل الشَّهادة في سبيل الله عزَّ وجلَّ، هو هدفٌ لا يصلُ إليه إلا مَنْ اصطفاهُ اللهُ اصطفاءً، ورضي عنه رضاءً، وجعله في زمرة صفوة عباده منْ سالكي صراطه المستقيم: النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء =

وقال: «أنا شهيدٌ عليكم» وكان يجمع الثَّلاثة في قبرٍ والاثنين، فيسأل: أيّهما أكثر قُرآناً فيقدِّمه في اللحد، وكفَّنَ الرّجلين والثّلاثة في ثوب.

* لقد كان منظر الشّهداء مُريعاً يفتّت الأكباد؛ قال خبّاب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ حمزة لم يُوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جُعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جُعِلَت على قدميه قلصتْ عن رأسه حتى مدّت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر(١).

* ودُفن حمزة مع ابن أخته عبد الله بن جحش في قَبْرٍ واحد، وأشرفَ رسولُ الله ﷺ على الشُّهداء، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنّه ما من جريح

= والصَّالحين، كما قال عزَّ شأنه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء ٦٩].
وإذا كان الشَّهيد ممن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى، فإنَّ منْ أعظمِ أهدافِ المجاهد، أنْ ينالَ هذا الاصطفاء ليفوزَ بالحياة السَّعيدة الأبدية بعد مفارقته للحياة الفانية مباشرة، وهذا ما دعا المؤمنين الصَّادقي الإيمان إلى لقاءِ أعداء الله في ساحِ الوغى راغبينَ في إعلاء كلمةِ الله، وفي لقاء ربّهم سبحانه بدمائهم الطَّرية، وجعل الشَّهيدُ وحده هو الذي يتمنى أنْ يرجعَ إلى الدُّنيا مراراً، لا للبقاء بينَ الأهلِ والأموال مما تتعلقُ به النّفوس قبل لقاء الله عزَّ وجلَّ، بل ليُقْتَل شهيداً في كلِّ مرة، لما رأى وذاقَ من رضوان الله ونعيمه لمنْ اصطفاه شهيداً بين المجاهدين في سبيله، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٢].

«نداولها»: نُصرِّفها بأحوال مختلفة. «ليمحص»: ليصفّي ويطهّر من الذنوب. «يمحق»: يُهْلِك ويستأصل.

(١) رواه الإمام أحمد. وذكر الفقهاء في هذا الموقف أنَّ الشَّهيد يُنزع عنه السّلاح لأنّه كان لبسه لدفع البأس، وقد انقطع ذلك باستشهاده، ولأنَّ دَفْنَ القتلى مع الأسلحة فِعْل أهل الجاهلية، وقد نهي عن التشبه بهم.

يُجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والرِّيحُ ريح مِسْك»[1].

* وعاد رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ المنورة، وسمعَ نساء الأنصار وهنَّ يبكين على قتلاهن، فقال: «لكنَّ حمزةَ لا بواكي له» فجئنَ فبكينَ على حمزةَ عنده، فقال: «مُروهن لا يبكين على هالك بعد اليوم»[2].

حَمْزَةُ في ضَمائِرِ الموحِّدين:

* لم يغبْ حمزة ـ رضوان الله عليه ـ عن أذهان الصَّحابة الكرامِ فرسانِ رسول الله ﷺ، وقد أبدع شعراء الرَّسول الكريم ﷺ في رثاءِ حمزة، وكان منهم كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ الذي رسم بقصائده أجمل الرِّثاء لشخصية حمزة ـ رضي الله عنه ـ ومن أجمل ما قال في هذه القصيدة[3] اللطيفة:

بكتْ عيني وحقّ لها بكاها
فما يُغني البكاء ولا العويلُ
على أسدِ الإلهِ غداةَ قالوا
لحمزة ذاكم الرّجلُ القتيلُ
أُصيب المسلمونَ به جميعاً
هناك وقد أُصيب به الرسولُ
أبا يعلى لكَ الأركانُ هُدّت
وأنتَ الماجدُ البرُّ الوصولُ
عليك سلامُ ربِّك في جنانٍ
يخالطها نعيمٌ لا يزولُ

* ولكعبٍ أيضاً قصيدة جميلة في رثاء حمزة منها:

---

(١) السّير الكبير (١/ ٢٣٢) والبداية والنهاية (٤/ ٤٢).
(٢) السّير الكبير (١/ ١٠٨ و١٠٩) والمستدرك (٣/ ٢١٥) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٧٢ و١٧٣).
(٣) وقيل: إن هذه القصيدة لعبد الله بن رواحة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ.

ولقــد هــددتُ لفقــدِ حمــزة هــدّةً
ظلّــتْ بنــاتُ الجــوفِ منهــا تــرعــدُ
ولــو أنّــه فجعــتْ حــراء بمثلــه
لــرأيــت راســي صخــرهــا يتبــدّدُ
عــمّ النّبــيِّ محمّــدٍ وصفيّــه
وَرَدَ الحِمــام فطــابَ ذاك المــوردُ[1]

وقد شاركت صفيّة بنتُ عبد المطلب في رثاءِ أخيها حمزة فقالت:
أســائلــة أصحــابَ أحــدٍ مخــافــة
بنــات أبــي مــن أعجــم وخبيــرِ
فقــال الخبيــرُ إنّ حمــزة قــد ثــوى
وزيــر رســول الله خيــر وزيــرِ
دعــاء إلــه الحــقّ ذو العــرش دعــوة
إلــى جنّــة يحيــا بهــا وســرورِ
فــذلــك مــا كنّــا نــرجّــي ونــرتجــي
لحمــزةَ يــوم الحشــر خيــر مصيــرِ
فــوالله لا أنســاكَ مــا هبّــتِ الصّبــا
بكــاء وحــزنــاً محضــري ومسيــري

* وتمضي الأيامُ ويبقى حمزة في ضمائرِ الموحّدين، فهذا ابنُ جابر الأندلسي يخلّد ذكرى الصّحابة الكرام في قصيدةٍ دالية رائعة، ويخصُّ بالذِّكْر الخلفاء الرّاشدين ومشاهير الصّحابة، ولما تحدَّث عن ليثِ الله حمزة قال يصوِّر مراحل حياته، ويرسمها بدقة وصِدْق:
ومَــنْ مثــل ليــثِ اللهِ حمــزة ذي النّــدى
مُبيــدِ العــدا مــأوى الغــريــبِ المطــردِ
فكــم حَــزَّ أعنــاقَ العــداةِ بنفســه
وذبَّ عــنِ المختــارِ فــي كــلِّ مشهــدِ

(1) «الحِمام»: قضاء الموت وقدره.

فقـــال رســـولُ اللهِ هـــذا أمـــرتـــه
ولـــي أســـدٌ ضـــارٍ لـــدى كـــلِّ مشهـــدِ
وقـــال أبـــو جهـــل أصبـــتُ محمـــداً
بمـــا ســـاءه فـــاهتـــزّ هـــزّةَ سيِّـــدِ
وأهـــوى لـــه بـــالقـــوسِ مـــا بيـــن قـــومـــه
وقـــال وأُخـــرى بـــالحُســـام المهنـــدِ
وقـــال لـــه إنّـــي علـــى دِينـــه فـــإنْ
أطقـــتَ فعـــرجْ عـــن طـــريقـــي وارْدُدِ
فـــذلّ أبـــو جهـــل وأبـــدى تلطُّفـــاً
ومَـــنْ ينصـــرِ الحـــقّ المبيـــن يـــؤيَّـــدِ
فعـــاد وقـــد نـــال السَّعـــادة واهتـــدى
وأضحـــى لـــديـــن اللهِ أكـــرم مسعـــدِ
وفـــي يـــوم بـــدرٍ حـــثَّ عنـــد سـؤالهـــم
لمـــا شهـــدوا مـــنْ بـــأســـه المتـــوقّـــدِ
لمـــن كـــان إعـــلامٌ بـــريـــشِ نعـــامـــة
يُشـــرِّدنـــا مثـــل النَّعـــام المشـــرّدِ
فـــذاك الـــذي والله قـــد فعلـــت بنـــا
أفـــاعيلـــه فـــي الحـــربِ مـــا لـــم نعـــوَّدِ
وفـــي أحـــدٍ نـــال الشَّهـــادة بعـــدمـــا
أذاقَ سِبـــاعـــاً للـــرّدَى شـــرَّ مـــوردِ
ففـــازَ وأضحـــى سيـــد الشُّهـــداء فـــي
مـــلائكـــة الـــرحمـــن يسعـــى ويفتـــدي[1]

* وهي قصيدة طويلة جميلة يذكر في أبياتها أيضاً بعض مناقبِ حمزة ـ رضي الله عنه ـ فيقول:

---

(١) انظر: نفح الطيب للمقري (٧/ ٣٥٩).

وزاد إلـــى فَضْـــل العمـــومـــةِ أنَّـــه

أخـوه رضـاعـاً هكـذا المجـدُ فـاشهـدِ

مـا زال ذا عــرضٍ مصـونٍ عـن الأذى

ومـــالٍ مهـانٍ فـي العطـايـا مبـدّدِ

كـريـم متـى مـا أوقـد النّـار للقـرى

تَجـدْ خيـرَ نـارٍ عنـدهـا خيـر مـوقـدِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾:

* في رحلةِ حياتي مع القرآنِ الكريم، كانت هناك وقْفَاتٌ مباركةٌ تحت ظلاله العظيمة، وهنالك وجدتُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أثنى على حمزةَ في مواطنَ من الآياتِ الباهراتِ.

* ذكر المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩] قالوا: نزلتْ في حمزةَ بنِ عبد المطلب، وأبي جهل بن هشام[(١)].

* ووصف الله عزَّ وجلَّ حمزة في كتابه العزيز بصفة كريمة هي الأمْرُ بالعدل، فقد ذكر بدر الدّينِ بن جماعة ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦][(٢)] فقال: هما مثلان لكلِّ كافرٍ ومؤمنٍ؛ وقيل: «الأبكم»: أبيَّ بن خلف[(٣)]. وقيل: هاشم بن عمرو بن الحارث بن ربيعة. ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾: حمزة، وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون[(٤)].

* وفي سورة (الحجِّ) أشار القرآنُ الكريمُ إلى حمزة ـ رضوان الله عليه ـ

---

(١) انظر: تفسير القرطبيّ (٣٠٧/٩).

(٢) «أبكم»: أخرس خِلْقة. «كلٌّ»: عِبءٌ وعِيالٌ.

(٣) اقرأ سيرة هذا الفاجر أبيّ بن خلف في كتابنا «المبشّرون بالنّار» (٢/ ٤٥ ـ ٦٨) تجد عظمة رسول الله ﷺ في صبره على هؤلاء الفجرة الكفرة.

(٤) غُرر التّبيان لابن جماعة (ص ٣٠٣).

وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ . . ﴾ [الحج: ١٩] قال المحدِّثُون والمفسّرون: هم ثلاثة مسلمون، وثلاثة مشركون تبارزوا يوم بدر، أمّا المسلمون: فعليّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث. وأمّا المشركون، فعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فقتلهم المسلمون[١].

* ويقول الإمام الواحديّ ـ رحمه الله ـ في كتابه: «أسباب النّزول» أنَّ حمزة هو المقصود بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ . . ﴾ [القصص: ٦١] وقيل: كلّ مؤمن.

* وذكر جمهورُ المفسّرين أيضاً فيما نقلوه عن جمهورِ المحدثين أنَّ حمزة ـ رضوان الله عليه ـ ينضوي تحت قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ . . ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقالوا: منهم: عثمان، وطلحة، وسعيد، وحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النَّضْر، وقوم[٢].

* وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٢٣][٣] هم: حمزة، ومصعب، وأنس، قُتِلوا يومَ أحد شهداء.

* وعند ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في «زَادِ مَسِيْرِه» أنَّ الصِّديقين بضعةُ رجال منهم: حمزة، فقد أوردَ في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد: ١٩] فقال: هم المؤمنون المخلصون عامّة، وقيل هم تسعة رجال: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزُّبير، وسعد، وحمزة، وزيد[٤].

* ويشارك الإمام الرّازي ـ رحمه الله ـ في تفسيره الكبير للآية (٢٢) من سورة الملك: ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا ﴾ أنَّ حمزة ـ رضي الله عنه ـ هو المقصود بذلك. وقيل: إنَّ ذلك عامّ غير مخصوص.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، (٣٩٦٦، ٣٩٦٨، ٣٩٦٩) ومسلم (٣٠٣٣)، وانظر: تفسير القرطبي للآية (١٩) من سورة الحج.
(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ١٥٩).
(٣) «قضى نَحْبَهُ»: وَفَى بنذره، أو: مات شهيداً.
(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٨/ ١٧٠).

* وبعد؛ فهذا هو أسد الله، حمزة، عم[1] رسولِ الله ﷺ، وفارسه، وصفيّه، عاش حميداً، وماتَ شهيداً في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وأرجو أن تكونَ رحلتنا معه شائقة مفيدة فيها العِظَة والعبرةُ والاقتداء.

* رضي الله عن حمزةَ سيّد الشُّهداء، وأعلى مقامه في الفردوس، فقد كان فارساً مغواراً، وقائداً عسكرياً منقطع النظير، مِلْءِ إهابه الإقدام والشجاعة، وأداء أمانة القتال، والإخلاص، والتقوى، والحزم.

* * *

---

(١) من بدائع الفتُوحات اللطيفة، ومن جميلِ الفتح اللّطيف، ما أورده الحافظُ بنُ حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح عن أعمام رسول الله ﷺ قال:
مِنْ عجائبِ الاتفاق، أنَّ الذين أدركهم الإسلام منْ أعمامِ النَّبيِّ ﷺ أربعة لم يُسْلِم منهم اثنان، وأسلم اثنان.
وكان اسمُ مَنْ لم يسلمْ ينافي أسامي المسلمين، وهما: أبو طالب؛ واسمه: عبد مناف. وأبو لهب؛ واسمه: عبد العزى.
بخلاف مَنْ أسلم وهما: حمزة والعبّاس (فتح الباري ٧/ ٢٣٦).

(٣)

خَالِدُ بنُ الوَليدِ

- رضي الله عنه -

سمَّاهُ رسولُ الله ﷺ سيفَ اللهِ، وقال عنه: «إنَّ خالداً سيفٌ سَلَّه اللهُ على المشركين».

يابنَ الوليدِ لكَ الأعنَّةُ كلُّها
فالْقَ المقانبَ وادفعِ الأقواما
سترى المشاهدَ ترجفُ الدنيا لها
وترى الحصون تميدُ والآطاما
بشِّر حُماةَ الشِّرْكِ منكَ بوقعةٍ
تُوهي القوى وتُزلزلُ الأقداما

يـأتـي بـــهِ اللهُ:

* بسمِ اللهِ الرحمنِ الرّحيم: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١][١].

* في تلكَ اللحظةِ التي أشرقتْ فيها أنوارُ اليقينِ بنفس أبي سُليمانَ خالدِ ابنِ الوليد بنِ المغيرة المخزوميّ القرشي المكّي[٢]، تذكّرَ وقْفَاته مع المشركين، تذكّر أنّه شَهِدَ معهم بدراً وأحداً والخندقَ ضد جيشِ المسلمين الموحِّدين.

* كانت تلك اللحظات التي سَرَتْ فيها نسماتُ الإيمانِ فلامستْ فؤاده، وحركت نفسه في وقتٍ ما يزالُ رسولُ الله ﷺ في المدينةِ بين أصحابهِ وأحْبَابهِ، يبني مجتمع العدالة، ويُربِّي النفوس على قيم الحق والفضيلة.

* كان إسلامهُ في شهرِ صفر سنة ثمان منَ الهجرة النّبويّة، ولكنّ بذورَ الإسلامِ قد نُثِرتْ منْ قبلُ، في عُمْرَةِ القَضَاء، عندما دخلَ رسولُ الله ﷺ مكةَ مع أصحابه، وأدّوا العمرة، تغيّبَ يومها خالدُ بنُ الوليد، فسأل عنه رسولُ الله ﷺ أخاه الوليد بن الوليد فقال: «أينَ خالد؟».

فقال الوليد: يأتي بهِ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما مثْلُ خالد يجهلُ الإسلام، ولو كانَ جَعَلَ نكايتَه وجدَّهُ معَ المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقدَّمناهُ على غيره»[٣].

* عند إذْ كَتَبَ الوليدُ إلى أخيه رسالةً جاء فيها: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم:

---

(١) «زهق الباطل»: زال واضمحلّ.

(٢) المسندُ (٤/ ٨٨) وطبقاتُ ابن سعد (٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤) والمحبّرَ (انظر الفهارس ص ٦٠٥) ونسبُ قريش (ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢) والمعارفُ (ص ٢٦٧) والمستدركُ (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٩) ومختصر تاريخ دمشق (٨/ ٥ ـ ٢٧) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٧٢ ـ ١٧٤) والبدايةُ والنّهاية (٧/ ١١٣ ـ ١١٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ١١٦ ـ ٣٨٤) ومجمعُ الزوائد (٩/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠) وتهذيب التهذيب (٣/ ١٤٢) وغير ذلك من مصادر حديثية وسيرة وتراجم ومؤلفات كثيرة عن خالد ـ رضوان الله عليه ـ.

(٣) الطبقات الكبرى؛ لابن سعد (٧/ ٣٩٤).

أمّا بعد، فإنّي لم أرَ أعجبَ منْ ذَهاب رأيك عنِ الإسلام، وعقلُك عَقْلُك، ومثل الإسلام ما يَجْهله أحدٌ! ثمّ ذكر له حديثَ رسولِ الله ﷺ فيه، ثمّ قال: فاستدركْ يا أخي! ما فاتَك منه، فقد فاتَتْكَ مواطنُ صالحة[١].

* وأراد اللهُ عزَّ وجلَّ بخالد بنِ الوليد خيراً، فقذفَ في قلبهِ حبَّ الإسلام، وزادته رسالةُ أخيه نَشَاطاً[٢]، وحرّكتْ أوتارَ قلبه ليستقبل نَسَمات الإسلام؛ التي بدأتْ تهبُّ فتمسحُ ما تبقّى من رواسبِ الجاهليةِ العمياء، والعصبيّة الخرساء، وزاده حُبّاً في استدراكِ ما فاته مقالة رسول الله ﷺ فيه، وثناؤه عليه وعلى شجاعته.

* نامَ خالد هاتيك الليلة التي قرأ رسالة أخيه الوليد بنِ الوليدِ، فإذا به يرى في نومه كأنّه في بلادٍ ضيّقة جديبة، ثمّ خرجَ إلى بلدٍ أخضر واسع لطيف، فقال: إنَّ هذه لرؤيا[٣].

* استيقظَ خالدٌ من نومه، وقد شَعَر براحةٍ لهذه الرُّؤيا، وأجمع الخروجَ إلى رسولِ الله ﷺ، وعرض فكرة الإسلام على صفوانَ بنِ أميّة، وعكْرِمة بن أبي جهل، فرفَضا ذلك رفْضاً شديداً، ولكنَّ خالد بنَ الوليد لم ييأسْ ولم يستسلم، وإنّما أمَر براحلتهِ فهيِّئت له، وطلب له صاحباً يصحبه في هجرته، فلقَي عثمان بن طلحة، فذكر له ما يعتلجُ في صدره، فألفى عند طلحة الرَّغبة في الهجرة، وأسرع الإجابة قائلاً لخالد: لقد غدوتُ اليوم، وأنا أريدُ أنْ أغدوَ، وهذه راحلتي بفخّ ـ وادٍ بمكة ـ فخرجا، حتى إذا سارا توجّها قليلاً تلقاءَ المدينةِ المنوّرة لقيا عمرو بنَ العاص، فقال لهما: مرحَباً بالقوم!.

قالا: ويحكَ يا بن العاص، ما الذي أخرجك؟ وأينَ مسيرُك؟!.

قال: فما الذي أخرجكما؟.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٨/٨) وتهذيب تاريخ لابن عساكر (٥/٩٦).

(٢) قال خالد: فلما أتاني كتابه نشطت للخروج. صفة الصفوة (١/٦٥٣).

(٣) قال خالد ـ رضي الله عنه ـ: لما قدمتُ المدينةَ قلتُ: لأذكرن الرّؤيا على أبي بكر الصّديق، فذكرتها، فقال لي أبو بكر: هو مخرجُك الذي هداكَ اللهُ للإسلام، والضّيق الذي كنتَ فيه.

قالا: الدّخولُ في الإسلام، واتباعُ محمّد رسول الله ﷺ.

قال عمرو: وذاك الذي أقدمني، فإنّي أريدُ كذلك اتباعَ رسولِ الله ﷺ.

* اصطحبَ هؤلاء الثّلاثة، وساروا إلى المدينة، يحدوهم حبُّ النبي ﷺ، وقلبُ كلّ واحد منهم يخفقُ بحبِّ الإسلام؛ إذ استبانَ له طريق الهدى ودِيْن الحقّ الذي ارتضاه الله عزَّ وجلَّ للناس أجمعين.

* يُحدِّثنا خالد عن ذلك اللقاء السَّعيد الفريد الميمون مع الحبيبِ المصطفى ﷺ فيقول: فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينةَ على الرَّسول ﷺ، أوَّل يومٍ منْ صفرَ سنةَ ثمان للهجرة، وأخبرَ بنا رسولُ الله ﷺ، فسُرَّ بنا، فلبستُ منْ صالح ثيابي، ثم عمدتُ إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرعْ فإنَّ رسولَ الله ﷺ قد أُخْبِرَ بك، فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعتُ المشيَ، فلما طلعتُ على رسولِ الله ﷺ، ما زال يبتسمُ إليَّ حتى وقفتُ عليه، فسلَّمْتُ عليه بالنُّبوَّة، فردَّ عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ، فقلتُ: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنّك رسولُ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ الذي هداكَ، قد كنتُ أرى لكَ عَقْلاً، ورجوتُ ألا يسلمك إلاّ إلى خَير».

قلتُ: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنتُ أشهدُ من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقِّ، فادعُ الله يغفرها لي.

فقال رسول الله ﷺ: «الإسلامُ يجبُّ[1] ما كان قبله».

قلت: يا رسول الله! عليَّ ذلك.

فقال: «اللهم اغْفر لخالد بنِ الوليد كلّ ما أَوْضَع فيه مِنْ صدٍّ عن سبيلك».

وتقدّم عمرو بنُ العاص وعثمانُ بنُ طلحة، فبايعا رسولَ الله ﷺ، فواللهِ

(١) «يجبّ»: يقطع، ويستأصل، ويمحو.

ما كان رسولُ الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدلُ بي أحداً منْ أصحابه فيما حَزَبَه[1].

* وهكذا أتى عزَّ وجلَّ بخالدِ بنِ الوليد، وأسلم في هدنة الحديبية طوعاً، فغدا سيف الله تعالى، وفارسَ الإسلام، وليثَ المشاهد، وقائدَ المجاهدين، ذلكم هو السّيّد الإمام الكبير خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وذلكم هو الفارس الميمون النقيبة، أحد الشّجعان، وأحد فرسان الرّسول ﷺ؛ الذي غدا ذِكْره يرتبطُ بالفروسيّة، والشّجاعة، والمروءة، والإقدام، فأكرمْ بخالد! وأنعِمْ بإخلاصه! وما أجمل أن نخوضَ معه بعض مشاهده، نُمتِّع الأسماع برقائقِ سيرته اللطيفة، التي تشحذُ الهمم، وتصقل النُّفوس؛ بل إنَّ سيرته نزهةُ المَجالسِ، وبهجةُ المنتديات، وأُنْس القلوب.

ونقتطف من سيرته زَهْراً وَوَرْداً في رياض مشاهده، وروض مناقبه نُزيِّن بها مجالسنا، ونؤدِّب بها أنفسنا؛ لتكون في قلوبنا ونفوسنا مع أولئك الفُرسان؛ الذين فتحوا الدنيا بكريمِ أخلاقهم، ولطيف مكارمهم، فدخلوا سويداء قلوب العباد؛ قبل أن يدخلوا الأمصار والبلاد.

* إنَّ الحياةَ مع هؤلاء ذات طعْم خاص، يدركه مَنْ عَرَفَ أقدارهم ومكانتهم في عالم الرِّجال، ودنيا الإقدام، فأكرمْ بهم من أبطال فوارس، وفرسان أبطال!.

مَعَـالِمُ ومَـلاَمِـحُ منْ شَخصِيَّـه الفـذَّة:

* لا بدَّ لنا في مَعْرضِ حديثِنا عن فارس معْلَم مشهور من فرسانِ المدرسة المحمّدية، إلاَّ وأنْ نلقيَ الأضواءَ على شخصيّته الفريدة؛ كيما تتوضح صورته أكثر في الأذهانِ، ومن ثمَّ نعرف مكانته في عالَم الفروسيَّة، ومدارج العبقريَّـة العسكريَّـة، والقياديَّة.

---

(1) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٤ و٣٩٥) ومختصر تاريخ دمشق (٨/ ٧ ـ ١٠) ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣٤٣) وصفة الصفوة (١/ ٦٥٣) بتصرف. وانظر: مسند الإمام أحمد (٤/ ١٩٩) والسيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٩) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٥١) وتهذيب تاريخ ابن عساكر (٥/ ٩٧).

* فأبوه؛ الوليدُ بنُ المغيرة، منْ ساداتِ قريش وحُكّامها، كانت تدعوه قريش ريحانتها، وأحياناً عَدْلها[1]. وفي الوليدِ نزلَ القرآنُ الكريمُ فيه ينذره، ويتوعَّده؛ قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[2] إلى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٥].

* وأمّه، لبابة الصُّغرى بنتُ الحارث الهلاليّة، وهي أختُ أمّ الفضل بنت الحارث[3]، زوج العبَّاس بن عبد المطلب، وعلى هذا يكون خالد بن الوليد ابن خالة عبد الله بن عبّاس[4]، وابن أخت أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث[5] زوج رسول الله ﷺ.

* إذاً فخالدُ بنُ الوليد من ذرْوَةِ قريش في المجد والشَّرف، ناهيك بما أُثِر عن شجاعةِ بني مخزوم، وأنّهم تولّوا القُبّةِ والأعنّة[6]، وهذا سَاعدَ خالد بن

---

(١) الكاملُ في التّاريخ لابن الأثير (١/ ٤٩١) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٤٨) والسيرة الحلبية (١/ ٣٤٧) وخالد بن الوليد (ص ١٩) للشيخ محمد صادق عرجون.
وانظر ذلك بتوسع كتابنا «المبشرّون بالنار» (١/ ١٤٣ ـ ١٧١). و«العِدْلُ» بكسر العين وفتحها: يُراد به المثل، والمعنى أنّ الوليدَ بنَ المغيرة كان مماثلاً لقريش، حيثُ كانت قريش مجتمعة تكسو الكعبة سنة، ويكسوها الوليد مِنْ ماله الخاص سنة.

(٢) قال قتادة: هو الوليد بن المغيرة، أخرجه الله من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد، فرزقه الله المال والولد والنماء.
جامع البيان (٣/ ١٥٢) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٢).

(٣) اقرأ سيرة أم الفضل بنت الحارث في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٦) فسيرتها إمتاع للأسماع.

(٤) اقرأ سيرة عبد الله بن عباس في كتابنا: علماء الصحابة.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٤ و٤٧٩) والكامل في التّاريخ (٢/ ٢٦). وللمزيد من أخبار أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث في كتابنا: «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث».

(٦) ذكر ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ في تاريخه قال: من انتهى إليه الشَّرف من قريش، ووصله الإسلام، عشرة نَفَر، من عشر بطون: هاشم، وأمية، ونوفل، وأسدَ، وعبد الدار، وتيم، ومخزوم، وعديّ، وسَهْم، وجُمَح. فكانت القبّة =

الوليد على أنْ يكونَ القائد في الحروبِ، في جميع معاركه في الجاهليّة والإسلام، ولما أسلم خالد ـ رضي الله عنه ـ جَعَل خبراته هذه، وشخصيّته المتميِّزة، وفكره العسكريّ في خدمةِ الفُتُوحات الإسلاميّة[1].

* وفي ظلِّ الإسلام، أخلصَ خالدٌ ـ رضي الله عنه ـ في جهاده، وقد أثنى عليه رسولُ الله ﷺ فقال: «نِعْمَ عبدُ الله وأخو العَشيرة خالد بن الوليد»[2].

* وعن أبي عُبيدة بنِ الجراح ـ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله

= والأعنَّة إلى خالد بنِ الوليد.
فأما الأعنّة: فإنّه كانَ يكون على خيولِ قريش في الجاهلية في الحروب.
وأمّا القُبّة: فإنّهم كانوا يضربونها، ثمّ يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش.
(مختصر تاريخ دمشق ٨/ ١٧).
وقال الزُّبير بنُ بكّار وغيره: كان خالدُ بنُ الوليد هو المقدَّم على خيولِ قريش في الجاهلية، ولم يزل منْ حين أسلم يولِّيه رسولُ الله ﷺ أعنّةَ الخيلِ، فيكون في مقدمتها.

(١) نشأ الفارسُ المقدام خالد بن الوليد نشأةً عسكرية منذ نعومة أظفاره، وساعده على ذلك أمور ثلاثة، هي:
أ ـ عدم اشتغاله بأي مهنةٍ يكتسب منها عيشه، وذلك بسبب غِنى والده، فاستغلَّ هذا الفراغَ فيما يعود بالنفع على قومه؛ الذي كانوا يعتمدون عليه في الحروب.
ب ـ أنه كان عنده الاستعدادالنفسي لممارسة فنون الفروسية.
ج ـ تولى بنو مخزوم القبّة والأعنّة، وقد وُكِلَ هذان المنصبان إلى خالد،نظراً لكفاءته العسكرية، فكان عَمَلُه مُقتصراً على القيام بواجبه العسكري، وهو قيادة الرجال في أيام الحرب، والتدريب على الفروسية، واستعمال السلاح في أيام السِّلم.
وقد تضافرت هذه العوامل جميعها على أن تكون حياته ـ في الجاهلية والإسلام ـ ذات طابع عسكري متميز؛ مما جَعَله في عداد القادة المشهورين.
انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ (ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥) للدكتور عبد الله محمد الرشيد.

(٢) مسند أحمد (١/ ٨). والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٢) والحاكم (٣/ ٢٩٨).

ﷺ، يقول: «خالدٌ سيفٌ من سيوفِ الله عزَّ وجلَّ، ونعم فتى العشيرة»[1].

* يُضَافُ إلى ذلك كلّه أنَّ رسولَ الله ﷺ سمَّاه: سيف الله، وذلك عندما تولَّى جيش مؤتةَ بعد مقتلِ الأمراء الثلاثة وهم: زيدُ بنُ حارثة، وجعفرُ بن أبي طالب، وعبدُ الله بن رواحةَ ـ رضي الله عنهم ـ.

* أمَّا صفته، فقد ذكَرَ أهلُ السِّيَر أنَّه كانَ طويلاً، ضَخْماً، بعيدَ ما بين المنكبين، واسعَ الهيكل، وكان أشْبَه النَّاس خَلْقاً بعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ.

في رِحَابِ الغَـزْوِ وساحـاتِ الفُروسيَّـة:

* ما إنْ أعلنَ خالد ـ رضوان الله عليه ـ إسلامه، حتى سارَ غازياً، فشهد سريَّة مؤتة، وذلك بإمرةِ زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ.

* وفي الشَّام التقى المسلمونَ جيشَ الكفَّار، وكانت معركةً حاميةً، استشهد فيها أمراء رسولِ الله ﷺ، وبقيَ الجيش بلا أمير.

* في تلكم اللحظات الحرجة، تقدَّمَ ثابتُ بنُ أقرم الأنصاري[2] ـ رضي الله عنه ـ فأخذ الرَّاية ودفعها إلى خالد، وتأمّر على المسلمين في الحال، وحَمَل على العدوِّ، فكان النَّصْر الذي ابتكره خالد بنبوغهِ العسكريّ، حيث قاتلَ قتالاً مريراً.

* روى البخاريُّ ـ رحمه الله ـ عن خالد بنِ الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلاّ صفيحة يمانية[3].

* وفي ذلك اليوم سمَّاه رسول الله ﷺ سيف الله، إذْ قال يوم مؤتة ـ مُخْبراً بالوحي قبل أنْ يأتيَ إلى النَّاس الخبر من ساحة القتال ـ: «أخذَ الرَّايةَ زيدٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخذ جعفر فأُصيب، ثمَّ أخذ ابنُ رواحة فأُصيب ـ وعيناه

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٩٠) والبداية والنّهاية (٧/ ١١٤) ويلاحظ هنا أنَّ الثَّناء على خالد لم يزدْهُ إلاّ إخلاصاً في سبيلِ إسلامه.
(٢) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٥٥٦).
(٣) رواه البخاري في صحيحه، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام (٢٧٥٧).

تذرفان ـ حتى أخذ الرَّاية سيفٌ من سيوفِ الله، حتى فتح الله عليهم»[1].

* ولقد امتدحه رسولُ الله ﷺ بقوله: «إنَّ خالداً سيفٌ سَلَّه الله على المشركين»[2].

* وتبدو العبقريّة الحربية، والقِيادة الفنيّة في أُوْلى مغازي خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لذلك عندما رأى أنَّ الخطر يهدِّدُ الجيشَ الإسلاميّ، وأنَّ بقاءه أمام جيش الرُّوم؛ الذي يفوقه بسبعينَ ضعفاً، يعدُّ ضَرباً منَ الانتحار، ونوعاً منَ المجازفةِ غير المحمودة، وشيئاً من التَّهوُّر الذي لا يرضى به رسولُ الله ﷺ، فقرَّر أنْ ينسحبَ بهذا الجيش، ويعودَ به إلى المدينة، إلى القِيادة العُليا الممثَّلة برئيسها رسول الله ﷺ فوضعَ خطّةً رائعةً ذكيّةً لتحقيقِ هذا الهدف[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٦).

(٣) لقد أظهرَ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في يوم مؤتة من فنون العبقريّة العسكرية ما جعله أحَدَ عباقرة التّاريخ في فنِّ القتال، إذ أنقذَ جيشاً بكامله، كانت نهايته محقَّقة لولا خبرتُه القتالية، وفنّه في مضمار القيادة، واتخاذ القرار السَّريع الصَّحيح.

واسمع إلى ما ذكره اللواء الرّكن محمود شيت خطّاب في كتابه عن خالد بن الوليد حيث قال: لقد قاتلَ يومه قِتالاً مريراً، فلمّا أظلمَ الليلُ غيَّر نظام جيشه، فجعل مقدمتَه سَاقة، وساقتَه المعركة، وكذلك فعلَ بالميمنةِ والميسرة، أي: إنّه سَحَبَ جيشه منْ ساحةِ المعركة، وأبقى ساقة تحمي الانسحاب، نشر هذه السَّاقة ليحتلَّ فرسانها مساحةً شاسعة من الأرض، وأمرهم أنْ يُحْدِثُوا أصواتاً مرتفعة بما لديهم منْ أبواق وطبول، وأدوات حربية، وإثارة الغبار بالخَيل تدورُ بسرعةٍ في دوائرَ ضيقة، كلُّ ذلك جَعَل الرُّوم لا يشعرون بانسحاب قوات القسم الأكبر من المسلمين ليلاً، من جهةٍ؛ ويعتقدون أنَّ إمدادات قوية جاءتهم ليلاً، لهذا لم يُقدِمِ الرومُ على مطاردة المسلمين، فسهَّل ذلك على خالد مهمّته في سَحْب رجاله من ساحةِ المعركة بأمان، ودون أنْ ينقلبَ الانسحابُ إلى هزيمة، كما سهل عليه مهمة سَحْب السَّاقة التي سترتْ انسحابَ القسم الأكبر من قوّات المسلمين، وذلك بعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ القسم الأكبر من قوّاته قد وصل إلى مأمنه، ومع ذلك لم يكن سحب السَّاقة سهلاً، =

* وقد أُعجِبَ رسولُ الله ﷺ بهذه الخطَّة العسكريَّة النَّاجحةِ النَّاجعة؛ التي تدلُّ على فروسيَّةِ خالد ـ رضي الله عنه ـ تلك التي أنقذتِ الجيشَ الإسلاميَّ منْ الهلاكِ، وأثنى رسولُ الله ﷺ على جهودِ خالد، فسمَّاه «سيف الله» وسمَّى قتاله «فتحاً»[1].

هذا؛ ويُعتبرُ إيهامُ العدوِّ وخداعه ذا أثرٍ فعَّالٍ في سَيْرِ المعركة ونتائجها، وهذا ما فعله خالد ـ رضي الله عنه ـ في سرية مؤتةَ؛ عندما شعر بالخَطَر الذي يحيطُ بجيشِ المسلمين منْ كلِّ جهةٍ، فانتهزَ فرصة ظلام الليل، وتَوقُّفِ الجيشَيْن عن القتال، فوضعَ خطَّةً حربيَّةً بارعةً تقومُ على إيهام العدو، وعلى خداعه، وأنقذ الجيشَ منْ فناء محقَّق ـ كما مرَّ معنا ـ.

ولمَّا عاد جيشُ مؤتةَ إلى المدينةِ المنوّرة، لقي المقاتلون عَنَتاً ومشقَّةً منْ أهليهم وذويهم، حيثُ استقبلوهم بعبارات التَّشهير، والوخز، والإيلام، والتَّبكيتِ[2] بقولهم: يا فُرَّار، أفررتم في سبيل الله؟!.

= لأنَّها كانت بتماس شديد بالعدوّ من جهة، ولأنَّها كانت تشغل منطقة واسعة منَ الأرض من جهة أخرى. (خالد بن الوليد المخزوميّ ص ٧١ و٧٢) وقادة فتح العراق والجزيرة (ص ٧٩ ـ ٨٠).

(١) ذكر ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري، أنَّ سببَ هذه التَّسمية يرجعُ إلى أحد وجهين:
الأول: أنَّه كانَ هناك قتالٌ بين الجيشين حتى هَزَمَ الله العدوَّ، وأظْهَر المسلمين.
الثَّاني: أنَّ انحيازَ خالد بالمسلمين في حدِّ ذاته يُعدُّ فتحاً حتى رجعوا سالمين من كيدِ أعدائهم.
ثمَّ ذكر ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ وجْهاً حَسَناً في الجَمْع بين هذين الاحتمالين فقال: ويمكنُ الجمع بأنَّ خالداً لما حازَ المسلمين وبات، ثمَّ أصبح وقد غيَّر هيئة العَسْكر، وتوهم العدو أنَّه قد جاء لهم مَدَدٌ، حمل عليهم خالد حينئذ، فولوا، فلم يتبعهم، ورأى الرُّجوع بالمسلمين هي الغنيمةُ الكبرى (فتح الباري ٧/ ٥١٤) طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ.

(٢) «التَّبكيت»: هو التَّعيير، وتقبيح الفعل، مأخوذٌ من قول العرب: بكَّتَ زيدٌ عمْراً تبكيتاً: إذا عيَّره وقبَّح فِعْلَه، وقد يكون التَّبكيت بلفظ الخير، كما في قولِ النبي =

* إلاَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ وَزَنَ هذه المعركة وقائدها خالد الفارس العبقريّ بالميزانِ الصَّحيح؛ الذي ينبغي أنْ تُوزنَ به المعاركُ العسكرية وقادتها، وسمَّاهم: «الكرّارون أو العَكّارون»[1] وبهذا التّصرف الحكيم، أَظْهر رسولُ الله ﷺ كفاءة خالد ـ رضي الله عنه ـ وشَحذَ هممَ الآخرين إلى التفكير المثمر المِعْطَاء؛ الذي يعودُ على جيوشِ المسلمين بالفائدةِ، والعزَّة، والمنعة، والفروسيَّة.

* وبعد أن استقرَّ خالد ـ رضي الله عنه ـ في المدينةِ المنوَّرة، شَهِدَ فَتْح مكةَ مع رسولِ الله ﷺ، وكانَ على الميمنةِ، وقد أمره رسولُ الله ﷺ أنْ يدخلَها منَ اللّيط، كما قاتل ـ رضي الله عنه ـ بعضَ المشركين؛ الذين تجمعوا بالخَنْدمةِ لصدِّ بعض فِرقِ الجيشِ الإسلامي[2].

* وظلَّ خالد ـ رضوان الله عليه ـ قُرْبَ رسولِ الله ﷺ، فقد بعثه إلى بني جُذيمة يدعوهم إلى الإسلام[3].

= إبراهيم عليه السّلام: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فهو إنّما قال ذلك تبكيتاً وتوبيخاً على عبادتهم للأصنام.

(١) انظر مسند الإمام أحمد (٢/ ٧٠) وسنن أبي داود (٢٦٤٧) وسنن الترمذي (١٧١٦) وهنا تعارض ينبغي دفعه، وهوأن العكّارين هم الكرّارون، فكيف جاز إطلاق هذا اللفظ على الفارِّين من المعركة؟ مع أنه معارض للآية الكريمة التي نصّت على تحريم الفرار من الزحف في سبيل الله، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].
والجواب عن ذلك يقال: إن هؤلاء لما كروا إلى نبيّهم ﷺ ـ وهو وليُّ الأمر في ذلك الوقت ـ ليرجعوا إلى ما يأمرهم به، ولينصرفوا فيما يصرفهم إليه، كان ذلك منهم عوداً إلى ما كانوا عليه مِنْ بَذْل أنفسهم لقتال عدوّهم، فاستحقّوا بذلك أن يُطْلق عليهم «العكارين». وأما حُكْمُ الفرار من الزّحف لغير مُتحرّف لقتال، أو مُتحيّز إلى فئة، فهو باقٍ على التحريم إلى يوم القيامة، وبهذا يزول التعارضُ بين الآية والحديث. والله سبحانه وتعالى أعلم. انظر: مشكل الآثار (١/ ٣٨٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٥، ٣٩٦) بتصرف يسير.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٨/ ١٢).

* ثمَّ شارك خالد ـ رضي الله عنه ـ في غَزَاةِ حنين، فكان على مقدمة جيشِ المسلمين، وفي ذلك يقولُ ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ: وكان رسولُ الله ﷺ قد قدَّمَ سُلَيماً منْ يوم خروجه من مكةَ، واستعمل عليهم خالد بن الوليد، فلم يزلْ على مقدمته حتى وَرَدَ الجِعْرانة[١].

* وفي خَمْسٍ خَلَوْنَ من شهر رجبَ سنة تسع من الهجرة، خرج رسولُ الله ﷺ إلى تبوك[٢]، وخرج بصحبته خالد بن الوليد مع جَمْع بلغ عددهم قرابة ثلاثين ألف رجل، معه عشرة آلاف من الخيل، واثنا عشر ألف بعير[٣].

* هذا، وقد بعثَ رسولُ الله ﷺ أثناء مقامه في تبوك خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في أربعمئة وعشرين فارساً سرية إلى أُكَيدر دُومة الجَنْدل، وتمَّ القبضُ على أُكَيدر، وكان عليه قباء من ديباج مُخوَّص[٤] بالذَّهب، فاستلبه خالد، وبعثَ به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، ثمَّ قدم به خالد إلى رسول الله ﷺ، فحقنَ دَمَه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمئة رأس، وأربعمئة رمحٍ[٥].

* وذكر ابنُ هشام ـ رحمه الله ـ في السِّيرة[٦]، والطَّبري ـ رحمه الله ـ في تاريخه[٧] أنَّ رسول الله ﷺ، أرسل خالداً ـ رضي الله عنه ـ على رأسِ سرية في

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠) وانظر السيرة الحلبية (٣/ ٢٠٦).

(٢) «تبوك»: إحدى مدن شمال الحجاز الرئيسية، تقعُ على طريق المدينة إلى الشَّام، على بعد (٧٧٨ كم) وتعدُّ هذه المدينة شبكة مواصلات، فمنها إلى الأردن سكة حديد، وطريق معبدة، وإلى المدينة وإلى حقل غرباً طريق معبدة، وإلى الجوف طريق ترابي، وترتفع عن سطح البحر (٥٥٤٣ قدماً) وفيها كانت غزوة تبوك المشهورة (معجم معالم السيرة ص ٦١ و٦٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٦).

(٤) «مخوّص»: منسوج.

(٥) مغازي الواقدي (٣/ ١٠٢٧) والكامل لابن الأثير (٢/ ٢٨١) والبداية والنِّهاية (٥/ ١٧) مع الجمع والتصرف.

(٦) (٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٦).

(٧) (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٨).

أربعمئة رجل إلى بني الحارث بن كعب بنجرانَ، وذلك حتى يدعوهم إلى الإسلام.

فخرج خالدٌ حتى وصلَ إليهم، وبعثَ الرُّكبان في كلِّ ناحية، يدعون النَّاس إلى الإسلام فكتبَ خالدٌ إلى رسول الله ﷺ يخبره أنَّ القومَ قد أسلموا، وشهدوا شهادةَ الحقِّ، فكتَبَ إليه رسولُ الله ﷺ يأمره أنْ يأتيَ إليه ومعه وَفْدٌ منهم، فقدمَ خالد، ومعه نَفَر من بني الحارث، فأعلنوا إسلامهم أمام رسول الله ﷺ، ثمَّ عادوا إلى بلادهم.

* ولقد تابع خالدُ بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ مهماته في حياة رسولِ الله ﷺ، فقد بعثه لهدمِ العُزَّى بعد فتح مكة، فذهب وهدمها، وكَسَر أنفها بالفأسِ، وجعل يقول:

يـا عُـزُّ كفـرانَـكِ لا سبحـانَـك إنِّـي رأيـتُ الله قـد أهَـانَـك[1]

وبعثه رسولُ الله ﷺ لهدم ودٍّ أيضاً، وكان ودّ صنماً لبني كَلْبٍ بدُومة الجندل، فبعثَ رسولُ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ من غزاةِ تبوك لهدمه، فحالت دونه بنو عبد ودٍّ، وبنو عامر الأجدار، فقاتلهم خالد حتى قَتَلهم، وتمكَّن منْ هَدْمه حتى جَعَلَه جذاذاً[2].

* ولم يتوقفْ خالد ـ رضي الله عنه ـ عن جهادِه، فقد شاركَ في غزوة الطائف، وشهدَ مع رسولِ الله ﷺ يوم حنين، وكان على المقدمة في بني سُليم، فأتاه رسول الله ﷺ في رحْلهِ بعدما هُزمت هوازن ليعرف خبره ويعوده، فنفثَ في جرحه، فانطلق[3].

* ثمَّ بعثه رسولُ الله ﷺ إلى بني المُصْطلق، فوجدهم مستمسكين بالإسلام، وسمع أذانهم وصلاتهم، فأخبر رسولَ الله ﷺ بذلك[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٩) بشيء من التصرف.
(٢) كتاب الأصنام، للكلبي (ص ١، ٥٥، ٥٦) وفتح القدير (٥/ ٣٠٠).
(٣) مختصر تخريج الدلالات السمعية (ص ١٦٨).
(٤) فتح القدير (٥/ ٦٢).

* هذا، وقد وَقَعَ اختيارُ رسولِ الله ﷺ على خالد - رضي الله عنه - حينما بعثه إلى أَهْلِ اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فذهبَ خالدٌ، وأقام بينهم ستة أشهر، وهو يدعوهم، وهم لا يُجيبونه إلى شيء، ثمَّ بعثَ علياً بعد ذلك مكانه[1].

فارس الرواية:

* وكان خالد - رضوان الله عليه - من فُرسان الرِّواية، وحفظ الحديثِ النَّبوِي الشَّريف، رُوِي له عن رسول الله ﷺ ثمانية عشر حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على حديث واحد.

* روى عنه ابن عباس، وجابر بن عبد الله، والمقدام بن معدي كرب، وأبو أمامة بن سهل الصَّحابيون - رضي الله عنهم - وروى عنه من التَّابعين قيس بن أبي حازم، وأبو وائل، وغيرهما[2].

* ومن مروياته ما وَرَدَ في صحيح مسلم بسندٍ إلى أبي أمامة بن سهل، أن عبدَ الله بنَ عباس - رضي الله عنهما - حدثه: أنَّ خالدَ بنَ الوليد الذي كان يُقال له: سيف الله، أخبره أنَّه دخلَ معَ رسولِ الله ﷺ على ميمونةَ زوجِ النَّبيِّ ﷺ - وهي خالته وخالة ابن عبَّاس - فوجد عندها ضبّاً محنوذاً[3]، قدمتْ به أختها حُفيدة بنت الحارث من نَجْدٍ، فقدَّمتِ الضَّبَّ لرسولِ الله ﷺ - وكان قلّما يُقدِّم يده لطعام حتى يُحدَّث به ويُسمَّى له - فأهوى رسولُ الله ﷺ يده إلى الضَّبِّ، فقالت امرأةٌ منَ النِّسوة الحضور: أخبرنَ رسولَ الله ﷺ ما قدمتن له.

---

(1) للحديث أصل في صحيح البخاري برقم (٤٣٤٩، و٤٣٥٠) ومسند أحمد (٥/ ٣٥٩).

(2) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٣) وقال الإمام الذهبي: له في مسند بقي واحد وسبعون حديثاً (سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٤).

(3) «محنوذاً»: مشوياً.

قُلن: هو الضَّبُ يا رسول الله! فرفعَ رسولُ الله ﷺ يده، قال خالد: أحرام هو يا رسول الله؟!.

فقال: «لا، ولكنَّه لم يكن بأرضِ قومي فأجدُني أعافه».

* قال خالد: فاجتررتُه فأكلتُه، ورسولُ الله ﷺ ينظر ولم يَنْهَ[1].

وَمَا زالَ الجِهَادُ مُسْتَمِرّاً:

* انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى، وهو راضٍ عن فرسانه الأشاوس، وعن فارسهِ سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

* وتابع خالد رحلةَ الجهاد في خلافة الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فجاهَدَ المرتدين عن ساحةِ الإسلام في الجزيرة العربيَّة، فبدأ بطُليحة بن خويلد الأسديّ، وقومه، وقضى على فتنتهم، وأعاد الإسلام إلى منطقة بزَّاخة، وإلى بني أسد وغطفان.

* ولم يقفْ خالد عند فتنة المرتدين من بني أَسَد، وإنَّما توجَّه إلى اليمامةِ بأمْر منْ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حيثُ كان يقيمُ بها مُسيلمة بن حبيب الكذَّاب، وقد حَدَثَ قتالٌ بين الطَّرفين، انهزم المسلمون فيه أوّل الأمْر، ثمّ أعادوا الكرة على عدوّهم، حتى تمكَّنوا من دخولِ حديقة الموت[2]، وكان

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في الصَّيد برقم (١٩٤٦) باب: إباحة الضّب.
وأخرجه الإمام مالك في الاستئذان (ص ٥٩٩) باب: ما جاء في أكل الضبّ برقم (١٠) وأحمد في المسند (١/ ٣٣٢) و(٤/ ٨٨ و٨٩).
والبخاري في الأطعمة برقم (٥٣٩١) باب: ما كان النبي ﷺ يأكل. وفي الذبائح رقم (٥٥٣٧) باب: الضّب، وكذلك برقم (٥٤٠٠).
وأخرجه أبو داود في الأطعمة برقم (٣٧٩٤) باب: في أكل الضّب.
والنّسائي في الصيد (٧/ ١٩٨) باب: الضب.
وابن ماجه في الصّيد برقم (٣٢٤١) باب: الضّب.

(٢) «حديقةُ الموت»: بستانٌ لمسيلمة الكذاب، كان بفناء حجر من أرض اليمامةِ، كان يُسمى: حديقة الرحمان، وفيه قُتِلَ مسيلمة، فَسُمّي بحديقةِ الموت، وهو الآن =

بين الفئتين قتالٌ شديد، انتهى بالقَضَاء على مَنْ بالحديقةِ من المشركين، وقُتلَ فيها مسيلمة الكذّاب[1].

* ولما فرغَ خالد ـ رضي الله عنه ـ منَ المرتدين وأعوانهم، أمره أبو بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أنْ يتوجَّه إلى العراقِ، فوصل بجيشه إلى البصرة[2]، وحينئذٍ فرَّ أهلُها، وحَصَل على كثيرٍ من الأموال والسَّبايا[3].

* وراحَ سيفُ الرّحمن خالدُ ـ رضوان الله عليه ـ يواصلُ حركةَ الجهادِ والفتوحات والفروسية، فتمَّ له فتح أكثر من ثلاثين بلداً، منها: المذار، والولجة، والحيرة، والأنبار، وعين التّمر، ودُومة الجندل، وغير ذلك من بلدان العراق.

* ثمَّ نقله أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى بلاد الشَّام، وقام في طرِيقهِ إليها بفَتْحِ بضعة بُلدان: تدمر[4]، حوّارين[5]، مرج راهط، وبصرى[6].

* وفي بدايةٍ واحدة من المعارك التي خاضها خالد على أرض الشّام، سُمِعَ يرتجزُ بهذه الأبيات:

= روضة تقعُ في منخفضٍ من الأرض، وتبعد عن مدينة الرياض عاصمة السّعودية خمسين كيلاً من جهة الشمال. وانظر: معجم اليمامة (١/٣٠٦ و٢/٦٣).

(١) اقرأ بالتفصيل الردة والقضاء عليها في كتابنا «المبشَّرون بالنار» (٢/٦٩ ـ ٨٩) ترجمة مسيلمة، ولاحظ من خلال ذلك التَّضحيات التي قدمها فرسان الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا.

(٢) «البصرةُ»: مدينة مشهورة بالعراق، بُنِيتْ في عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهي في مستقرّ من الأرض لا جبال فيها. (الرّوض المعطار ص ١٠٥).

(٣) انظر الكامل في التاريخ (٢/ ٣٨٤ و٣٨٦ و٣٨٧ و٣٨٤ و٣٩٤ و٣٩٥ و٣٩٦).

(٤) «تدمر»: مدينة قديمة مشهورة تقع إلى الشمال الشرقي من دمشق بنحو ٢٢٠كم. (معجم البلدان ٢/ ١٧) وسورية أرض الحضارة والجمال، للدكتور علي موسى (ص١٤١).

(٥) «حُوّارين»: من قرى حلب، وتعرف باسم القريتين، وهي من تدمر على مرحلتين (معجم البلدان ٢/ ٣١٧).

(٦) انظر: الكامل في التاريخ (٢/٤٠٩).

هبُّوا جميعاً إخوتي أرواحا نحوَ العدوّ نبتغي الكِفاحا
نرجو بذاكَ الفوزَ والنّجاحا إذا بذلْنا دونَه أرواحا
ويرزقُ الله لنا صَلاحا في نصرنا العدوّ والرّواحا

* وبعد أنْ ماتَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ تولى عمر بن الخطاب، فعزلَ خالداً عن منصب القائد العام للجيشِ الإسلامي الفاتح، بيد أنَّ نشاطَ خالد ـ رضي الله عنه ـ لم يتوقفْ، وفروسيته لم تخضعْ للأهواءِ[(١)]، بل شاركَ في حركة الفتُوحات الإسلاميّة لعددٍ من بلاد الشّام ومنها: دمشق[(٢)]، وحمص[(٣)]، ومرعش[(٤)]؛ وقنسرين[(٥)].

* وعندما أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ نَصْره على المسلمين، وهُزِمت جيوشُ الرّوم، جادت قريحةُ خالد، فأنشأ يترنّمُ بهذه الأبيات:

---

(١) عزل عمرُ بن الخطاب خالدَ بن الوليد مرتين:
الأولى: سنة ثلاث عشرة للهجرة غداة تولي عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر؛ عزله عن القيادة العامة وإمارة الأمراء بالشام، وأنزله إلى مرتبة قائد فرقة، فعمل تحت إمرة أبي عبيدة زهاء أربع سنوات.
الثانية: سنة سبع عشرة للهجرة في قنسرين، عزله عن عمله في الجيش كله بعد أن كان قائد كتيبة.
وبقي خالد مثال الجندي المسلم طاعةً وأخلاقاً، ولم يصدرْ منه أكثر من عتابٍ لأمير المؤمنين، فكان جوابُ عمر: والله! يا خالد إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب، ولن تُعاتبني بعد اليوم على شيء.

(٢) الكامل (٢/ ٤٢٧ و٤٢٩ و٤٩١ و٤٩٢ و٤٩٣ و٤٩٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تروي كتب المغازي أنَّ المسلمينَ في قنسرين قد خاضوا معركة طاحنة ضد الروم، فابتدأ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ المعركة يرتجز بهذه الأبيات التي تشير إلى فروسيته وجهاده:

اليوم يومٌ فازَ فيه مَنْ صَدَقْ لاأرهبُ الموتَ إذا الموتُ طَرقْ
لأروينَّ الرمحَ منْ ذوي الحَدَقْ لأهتِكنَّ البيضَ هتكاً والورقْ
عسى أرى غداً مقام مَنْ صَدَقْ في جنّةِ الخلدِ وألقى مَنْ سَبَقْ

لـكَ الحمـدُ مـولانـا علـى كـلِّ نعمَـةٍ
وشكـرٌ لمـا أوليـت مِـن سـابـغِ النِّعـم
مننـتَ علينـا بعـد كُفْـر وظلمـةٍ
وأنقـذتنـا مـن حندس[1] الظُّلْـم والظُّلَـم
فتمـم إلـهَ العـرشِ مـا قـد نـرومـه
وعجـلْ لأهـلِ الشِّـركِ بـالبـؤسِ والنّقـم

* وبعد انتهاء المعارك مع الرّوم، ووضعتِ الحربُ أوزارها في بلاد الشّام، أنشدَ خالد مُعبّراً عن خضوع بلاد الشّام لأيدي المسلمين، فقال:

وإنّـا لقـوم لا تكـلُّ سيـوفُنـا
منَ الضّرب في أعناقِ ورق الكتائب[2]
سيـوفٌ ذخـرنـاهـا لقَتْـلِ عـدوّنـا
وإعـزاز ديـن الله مـن كـلِّ جـانـب
قَتَلنـا بهـا كـلَّ البطـارق[3] عنـوةً
جـلاء لأهـلِ الكُفْـر مـن كـلِّ جـانـب
إلـى أنْ ملكنـا الشّـام قهـراً وغلظـة
وصُلْنـا علـى أعـدائنـا بـالقَـواضـب[4]

خَالِـدُ وألوانٌ منَ الفروسيّـة المتـألِّقـة:

* قبل أنْ نشهدَ لوناً منْ ألوانِ الفروسيّة عند خالد ـ رضي الله عنه ـ ما رأيكم أنْ نستمعَ إلى رأيه في الفروسيّة والجهاد والجلاد؟! إذاً اسمعوا ما قال: ما مِنْ ليلةٍ يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محبٌّ، أحبَّ إليَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد، في سرية أصبِّحُ فيها العدو[5].

---

(١) «حندس»: ظلمة.
(٢) «الروق»: جمع أروق، وهو الفرس الذي يمدُّ الفارس بين أُذنيه الرُّمح.
(٣) «البطارق»: جمع بِطْريق، وهو القائد من قوّاد الروم.
(٤) «القواضب»: جمع قضيب، وهو السيف القَطّاع.
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٥) ومجمع الزوائد (٥/ ١٠٧) و(٩/ ٥٣٠) وقال =

* وقال: ما أدري من أيِّ يومي أفرّ: يوم أراد الله أنْ يهدي لي فيه شهادة، أو يوم أراد الله أنْ يهديَ لي فيه كرامة[1].

* وكتب خالد ـ رضوان الله عليه ـ إلى رستمَ ومهرانَ وملأ فارس يُبيِّن لهم مقدار الشَّجاعة والنُّهى فقال: سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهدى؛ أمّا بعد: فإنّا ندعوكم إلى الإسلام، فإنْ أبيتم، فأعطوا الجزية عن يَدٍ وأنتم صاغرون، وإنْ أبيتم، فإنَّ معي قوماً يحبُّون القَتْل في سبيل الله، كما تحبُّ فارس الخمر والسَّلْم[2].

* وقال قيسُ بن أبي حازم: سمعتُ خالداً يقول: منعني الجهادُ كثيراً من قراءة القرآن، ورأيته أُتي بسُمٍّ، فقال: ما هذا؟ قالوا: سُمٌّ. قال: باسم الله، وشَرِبه!.

* وعلَّق الإمام الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ على هذِهِ الواقعة فقال: هذه والله الكرامة، وهذه الشَّجاعة.

* وأورد هذه الحادثة ابنُ سيِّد الناس ـ رحمه الله ـ في كتابه «المقامات العليّة في الكرامات الجلية»[3] فأنشد:

وابن الوليد حَسَا من السُّمِّ الزُّعا ... فِ كما حَسَا الظَّامي زلال المكرع

وسعى إلى الحربِ العَوان وحربه ... لا تصطلي وصَفَاته لم تُقْرِعِ[4]

* أمّا شجاعة خالد وفروسيته وإقدامه وجرأته فقد كانت في غاية البَراعة، ونهاية البَسالة والإقدام، حيث كان دائماً في مقدمة جيشه، قريباً من مواطن

= الهيثمي بعد أنْ عَزاه لأبي يعلى: رجاله رجال الصّحيح.

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٥).

(٢) المستدرك (٣/ ٣٣٩).

(٣) انظر: المقامات العلية (ص ٨٨).

(٤) «الصَّفَاة»: الحجر الصُّلب.

الخَطر، كيما يرى بعينيه حقيقة الموقف، ويسعى إلى معالجته لحظة وجوده، ومنَ الأمثلة على شجاعتهِ وإقدامه أنَّه بارزَ يومَ الوَلَجَة[١] رجلاً من أهل فارس يعدل ألف رجل في الحربِ، فقتله[٢].

وذكر الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ مثالاً رفيعاً على شجاعة خالد فقال: لم يكن أحدٌ أعدى للعرب من هرمز، ولما فرغ خالدٌ من مسيلمةَ الكذاب، أتى ناحية البصرة، فلقي هرمز بكاظمة، فبارزه[٣] خالد، فقتله، فنفله الصِّدِّيق سَلَبَه، فبلغت قلنسوته مئة ألف درهم، وكانت الفُرسُ إذا شَرفَ فيهم الرَّجلِ جُعلت قلنسونة بمئةِ ألف درهم[٤].

* ولقد كان خالد ـ رضي الله عنه ـ بالإضافة إلى شجاعتهِ يتبرك بآثار النَّبيِّ ﷺ؛ فعن عبد الرحمن بنِ الحارث قال: أخبرني الثِّقة أنَّ النَّاس يوم حَلَقَ رسولُ الله ﷺ ابتدروا شَعْره، فبدرهم خالد إلى ناصيته، فجعلها في قلنسوته[٥].

---

(١) «الولجة»: موضعٌ بأرضِ العراق ممّا يلي كَسْكر، وهو على يَسار القاصد إلى مكّة من القادسية. انظر: معجم البلدان (٥/ ٣٨٣).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٥٤).

(٣) للمبارزة أغراضٌ تتحقَّق في إيجابياتِ المعركة خاصّة إذا برزَ فارسٌ منَ المسلمين يعلم في نفسه الشَّجاعة والإقدام، فيكبح جماح خصمه، والغرضُ من المبارزة تحقيق بضعة أمور منها:
(أ) إظهار المهارة الفردية، والقوة البدنية، وعرض الفنّ الحربي أمام الحشود؛ ليخلع المبارز بفنّه قلوب الأعداء، ويقوي به قلوب الأصحاب، وهكذا فعل خالد ـ رضي الله عنه ـ.
(ب) المبارزة سبيلٌ للتفاهم بين قائدي الجيشَيْن المتحاربَيْن، فقد تكون نتيجة المبارزة سبباً لفضِّ النزاعِ وحَقْنِ الدماء، وإنهاء الحرب بين الطرفين لصالح جانب المبارز المنتصر.

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٤) بتصرف يسير. وانظر: المستدرك على الصَّحيحين (٣/ ٣٣٩).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٧٥)، هذا وقد وَرَدَ أنَّ غير واحد من الصَّحابة الكرام كان يحتفظ بشَعْر النبي ﷺ للتبرك به. وأُشير ـ هنا ـ إلى أنَّ التبرُّك بآثار النبي ﷺ =

* وذكر الحاكمُ في المستدرك أنَّ خالد بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ فَقَد قلنسوة له يوم اليرموك فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، ثمَّ طلبوها فوجدوها، فإذا هي قلنسوة خَلقَة ـ قديمة ـ فقال خالد: اعتمر رسولُ الله ﷺ فحلق رأسه، وابتدر النَّاس جوانبَ شعره، فسبقتُهم إلى ناصيته، فجعلتُها في هذه القلنسوة، فلم أشهدْ قتالاً وهي معي إلاَّ رُزِقْتُ النَّصر (١).

* وأحاديث الشَّجاعة ورحلة الفروسية (٢) طويلة شائقة مع خالد بن الوليد، ووددتُ لو نمضي معها أكثر، إلا أنَّ المقام لا يتَّسع هنا لإيراد ذلك، وقد ذكرنا ما يهمنا في موضوعنا في هذا الكتاب.

مَوْتُـــهُ على فِرَاشِــهِ:

* لما حضرتِ الوفاةُ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ قال قولته المشهورة: لقد شهدتُ مئةَ زَحْفٍ أو نحوها، وما في بدني موضع شِبْرٍ إلا وفيه ضربةٌ، أو طعنةٌ، أو رميةٌ، وها أنا أموتُ على فراشي، فلا نامت أعين الجُبناء، وما لي من عملي أرجى منْ لا إله إلا الله وأنا متترسٌ بها (٣).

* وأجمع علماء السِّيرة والتَّراجم على أنَّ وفاته كانت سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر ـ رضي الله عنهما ـ وكانت وفاتُه في مدينة حمصَ على

= أمرٌ مشروع، وهو دليلٌ على محبَّة رسول الله ﷺ.
ولا يُلتفت إلى مَنْ يقولون بأن أحاديث التبرُّك لا فائدة منها في هذا العصر؛ لأنَّ التشريع باقٍ إلى يوم القيامة ما لم ينسخه كتابٌ أو سُنَّة صحيحة.

(١) انظر: المستدرك على الصَّحيحين (٣/ ٣٣٨ و٣٣٩) وذكره كذلك ابن عبد البر في «الاستيعاب» وابن حجر في «الإصابة» وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٤٩) ونسبه إلى الطبراني وأبي يعلى، وقال: ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) من لطائف ألوانِ الفروسيَّة عند خالد ـ رضي الله عنه ـ أنْ زَرَعَ حبَّ الجهاد في نفوس نسائه ونساء المجاهدين، على ما أورده الإمام محمَّد بن الحسن الشَّيباني في كتابه «السِّير الكبير» أنَّ عبد الله بن قُرط قال: كانت نساء خالد بن الوليد ونساء أصحابه مشمِّرات، ويحملن الماء للمجاهدين يرتجزن، وهو يقاتل الروم.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٣ و١٧٤) وأسد الغابة (٢/ ٩٥).

الصَّحيح، وقبرُه مشهورٌ بها يُزار[١] ومشهده على باب حمصَ عليه جلالة، وأوصى إلى عمر بن الخطاب. قال الذَّهبي: عاش ستينَ سنة، وقتَل جماعة منَ الأبطال، وماتَ على فراشهِ، فلا قرّت أعين الجُبَناء[٢].

* وبلغ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفاة فارس الفُرسان، وسيِّد الشُّجعان، وقاهر المرتدين، وقاصم ظهور المتنبِّين، وكاسح الفرس والرّوم، وممزق جيوش المعاندين خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ فحزنَ عليه حُزْناً شديداً، وكان فَقْده على المسلمين أليماً شديداً أيضاً.

* وكان خالد ـ رضي الله عنه ـ لما حَضَرتْه الوفاة، قد جَعَل فرسه وسلاحه وغلامه في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، فقال عمر: رحم الله أبا سُليمان، كان على ما ظَنَنَّاه به. وثبتَ في الصَّحيحَيْن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ خالداً احتبس أدراعهِ وأعتده في سبيل الله»[٣].

* وقال عمر لما توفي خالد: كان واللهِ سَدّاداً لنحور العدو، ميمون النَّقيبة[٤].

* وقال أيضاً: قد ثُلِمَ في الإسلام ثُلْمَةٌ لا تُرتق[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٤) ومختصر تاريخ دمشق (٨/ ٢٧) وغيرها من المصادر؛ وقيل: إنه توفي بالمدينة.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٧).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٤).

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٥/ ٩٣، ١١٣).

«ميمون النقيبة»: أي: مبارك النفس، مظفر بما يُحاول، كما يُطلق هذا الوصف على مَنْ كان منجح الفعال، مظفر المطالب. انظر: لسان العرب (٣/ ٦٩٨).

(٥) ذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قد أثنى على خالد عند وفاته فقال: رحمَ الله أبا سُليمان، ما عند الله خيرٌ له مما كان فيه، ولقد مات سعيداً، وعاش حميداً (البداية والنّهاية ٧/ ١١٨).

❊ وما أجمل أنْ نختمُ سيرة خالد ـ رضي الله عنه ـ بقولِ أبي بكر فيه: عجزت النّساء أنْ يلدن مثلَ خالد[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٣٨٩) وتاريخ الطبري (٣/ ٣٥٩).

(٤)

الزُبَيْرُ بنُ العَوّام

- رضي الله عنه -

قال عنه النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوارِيّاً، وحواري الزُّبير».

جدّي ابنُ عمة أحمد ووزيرُه
عند البلاء وفارس الشقراءِ
وغداة بدرٍ كان أول فارس
شهد الوغى في اللامة الصفراءِ
نزلتْ بسيماه الملائكُ نصرة
بالحوض يوم تألُّب الأعداءِ

فـارسٌ مغـوار مِنْ طِـرَازٍ فَريــد:

* كانَ إسلامه بعد أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ كان رابعاً أو خامساً في سجلِ السَّابقين الأوَّلين المَيامين.

* أسلمَ في ربيعِ حياته وهو ابن ست عشرة سنة، ولم يتخلَّف عن غزوةٍ غَزَاها رسولُ الله ﷺ، وهاجر إلى الحبشةِ الهجرتين جميعاً، فكان نِعْم المسلم العامل.

* كان حواريَّ رسولِ الله ﷺ، وابن عمته صفية بنت عبد المطّلب[(١)]، وأحدَ العشرة البررة الكرام، المشهود لهم بالجنّة دار السلام، وأحد السّتة أصحاب الشّورى، وهو أوّل مَنْ سلَّ سيفاً في سبيل الله عزَّ وجلَّ لإعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ.

* وهذا الفارسُ، هو صاحبُ السَّيف الصَّارم، والرَّأي الحازم، مُزْهِق أرواح الأبطال، وباذلُ الأموال، في سبيل الله الكبير المتعال، كان شجاعاً مقداماً، منْ أَيْسَر الصَّحابة ـ رضي الله عنه وعنهم ـ.

* هذا الفارسُ المِقْدام، أبو عبد الله الزُّبير بن العَوَّام[(٢)] بن خُويلد القرشيّ الأسديّ، فارسُ الكرماء، وكريمُ الفرسان، وسيّد الشُّجعان يوم الطعان.

* شبَّ الزُّبير منذ نعومةِ أظفاره على حبِّ الفروسيَّة، وركوب الخيل،

---

(١) اقرأ سيرة السَّيدة صفية بنت عبد المطلب في كتابنا «نساء من عصر النبوّة» (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٥٨) تجد متعة وفائدة، وتجد أنها أمّ فارس الشُّجعان ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) مسندُ أحمد (١/ ١٦٤ ـ ١٦٧) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ١٠٠ ـ ١١٣) ونسبُ قريش (ص ٢٠ و٢٢ و١٠٣ و١٠٦) والمعارفُ (ص ٢١٩ و٢٧٧) والمستدركُ (٣/ ٤٠٥ ـ ٤١٥) وحليةُ الأولياء (١/ ٨٩ ـ ٩١) وصفة الصَّفوة (١/ ١٣٢) وجامع الأصول (٩/ ٥ ـ ١٠) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١١ ـ ٢٩) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٩٤ ـ ١٩٦) والبداية والنهاية (٧/ ٢٤٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٤١ ـ ٦٧) ومجمع الزوائد (٩/ ١٥٠ ـ ١٥٣) وتهذيب التّهذيب (٣/ ٣١٩) وتاريخُ الخميس (١/ ١٧٢) وكنز العمال (١٣/ ١٠٤ ـ ٢١٢) وغير ذلك كثير من كتب الحديث والسِّيرة والتَّراجم والتَّاريخ وما شابه ذلك مما لا يُحصى.

والجِلاد، وكان لتربية أمّه صفية ـ رضي الله عنها ـ كبير الأثر في تنميةِ مواهبهِ القتالية، فخرج منَ الفُرسان الأشدَّاء الذين عرفَتْهم ساحات القِتال، وشهدت ببسالتهم وقوتهم، في جولاتٍ لا تُنسى، وصولات حفظتها ذاكرةُ التاريخ.

* حكتِ المصادر أنَّ أمَّه صفية ـ رضي الله عنها ـ كانت تضربُ الزُّبير ضَرْباً شديداً، وهو يتيم، فقيل لها: قَتَلْتِهِ، خَلَعْتِ فؤاده، أهلكتِ هذا الغلام، فقالت: إنّما أضربه لكي يدبّ، ويجرّ الجيش ذا الجلب[(١)].

* وقاتلَ الزُّبير بمكةَ، وهو غلامٌ، رجلاً، فكَسَر الزُّبير يدهَ، وضربه ضرباً شديداً، فمُرَّ بالرجل على صفية وهو يُحمل فقالت: ما شأنه؟ قالوا: قاتَلَ الزُّبير؛ فشعرتْ بالفخر والسُّرور لفعلة ابنها الزبير البطل الصَّغير الضرغام.

* ولا غرابةَ في هذا، فخالُ الزُّبير سيّد الفرسان، وأسَد الرحمن، وقاهر الشُّجعان، وحامي الميدان، الإمام البطل الهمام، أسد الله حمزة بن عبد المطلب القرشيّ الهاشميّ.

* أسلم الزُّبير ـ رضوان الله عليه ـ إسلام العَارفين الذين أضاءت نفوسهم إشراقاتُ الإيمان، فاستسلموا لله العزيزِ الحميدِ استسلام الأبرارِ الأخيار، فكان يرى الأشياء بمنظار الحقّ والفضيلة، ولذلك لما آمن الزّبير بدعوة الحقّ، أخذ عمُّه يعذّبه، ويعلّقه في حصير، ويدخّنُ عليه بالنّار، ويقول: ارجعْ إلى الكُفْر، فيقول الزّبير: لا أكفر أبداً، ولا أرجع إلى الكفر[(٢)].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠١) وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٨٩) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣) مع الجمع والتصرف اليسير.
انظر: المستدرك (٣/ ٤٠٦) ومجمع الزوائد (٩/ ١٥١).
وقد برهن الصحابةُ ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ على صِدْق تمثُّلهم لكلمة التوحيد، فكان الارتباطُ الوثيقُ بين الاعتقاد والسلوك؛ إذ كان الصحابةُ يعانون مرارة الأذى في مكة، ويُقاسون العنت والعذاب، فما الذي دفعهم إلى التغيير والولوج في دِيْن الله؟... إنها العقيدة والإيمان، وكأنَّ لسانَ كلِّ صحابيٍّ قد خاطب ربَّ العزَّة:

لمَّا علمتُ بأنَّ قلبي فارغٌ ... مِمَّن سواكَ ملأتَه بهُداكا
وملأتُ كُلّي منك حتى لم أدَعْ ... منّي مكاناً خالياً لسواكا=

* وتروي المصادرُ أنَّ الزُّبير[1] ـ رضي الله عنه ـ جاء بسيفهِ في بدايةِ الدَّعوة بمكةَ، فقال رسولُ الله ﷺ: ما لك؟!.

قال: أُخبرتُ أنَّك أُخِذتَ.

قال: «فكنتَ صانعاً ماذا؟!».

قال الزّبير: كنتُ أضربُ به مَنْ أخذكَ.

فدعا له ولسيفه؛ وكان أوّل سيف سُلَّ في سبيلِ الله تعالى[2].

* وقد وَرَدَ في صِفَةِ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ أنَّه كان رجلاً طويلاً إذا ركب خطَّت رجلاه الأرض، وكان خفيفَ اللحية والعارضين[3]، وكان قوي البنية والسَّاعد، جَلْداً، صبوراً على الأهوال، وكان على جانبٍ عظيم من الجرأة، والبَسالة، والإقدام، والشجاعة، والقوة.

* ومنْ أمثلةِ جرأته، ما روت كُتُب السِّيرة، أنَّه لما كان مهاجراً في أرضِ الحبشة، نازعَ رجلٌ مِنْ أهل الحبشة النَّجاشي في ملكه، فَسَار إليه النَّجاشي، وبينهما عرض النّيل، لكي يحاربَ هذا الخصم.

فقال أصحابُ رسولِ الله ﷺ: مَنْ يخرج حتى يحضر الوقعة ويخبرنا! وهنا ظهر الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ ليقوم بهذه المهمَّة الفدائية التي تشيرُ إلى

= وأثمرتُ العقيدةُ ثمرتها اليانعة، وحقَّقت ألذَّ مَطْعَم، وأحلى مذاق؛ فَصَبَّر الصحابةُ على لأواء المشركين، وقاوموهم بالكلمة الطيبة، وترديد كلمة التوحيد، والهتاف الرباني: أَحَد، أَحَد. فكان نداءُ كل صحابي يجاوب آفاق الحياة عندما يصرخُ مستعلياً بإيمانه على الجاهلية: بقضّها وقضيضها، بعدَّتها وعَدَدها، غير عابىء بما يُصيبه من الأذى الشديد. (حق الشهادتين؛ ليوسف علي بديوي ص ١٣ ـ ١٤).

(١) وكان عمره (١١) سنة.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٨٩) والمستدرك (٣/ ٤٠٧) ومختصر تاريخ دمشق (٨/ ١٣ و١٤) والأوائل (ص ٤٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥) والاستيعاب وأسد الغابة والإصابة ترجمة الزبير.

(٣) «العارضين»: مثنى عارض، وهو صفحة الخد. وفلان خفيف العارضين؛ أي: خفيف شعرهما.

فروسيته، وقال لهم: أنا أخرج وآتيكم بالخبر اليقين - وكان مِنْ أحْدَثِ القوم سناً -.

وإذ ذاك نفخوا له قِرْبَة، فجعلها في صدره، وسَبَح عليه إلى النَّاحية التي فيها الوقعة، ثم انطلق حتى حضرها، ونصر الله عزَّ وجلَّ النَّجاشي على عدوّه، فعاد الزُّبير إلى أصحابِه وهو يلوِّح بثوبه: ألا أبشروا، فقد ظهر النَّجاشي، وأهلك الله عدوّه؛ ففرحَ المسلمونَ بذلك النَّصر فرحاً ملأ نفوسهم، وأكبروا شجاعة الزُّبير وإقدامه في بلاد الحبشة[١].

* ثمَّ إنَّ الزُّبير عَاد مع مَنْ عَادَ إلى مكةَ ليكون في عدادِ المهاجرين إلى المدينة المنوّرة، ولكنَّه قبل هجرته سجَّلَ خبراً وضيئاً، حيثُ لقي رسول الله ﷺ وهو مهاجرٌ[٢] إلى المدينةِ، فكسا الزُّبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياض.

الزُّبَيْرُ فَارِسُ الغَزَوَاتِ الظَّافرة:

* هاجَر الزُّبير - رضي الله عنه - إلى المدينةِ، ونزل على المنذر بن محمّد ابن عقبة، ثمّ آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمة بنِ سلامة[٣] بن وقش الأوسيّ.

---

(١) عن تاريخ الإسلام للذهبيّ (ص ١٣٣) بشيء من التصرف.

(٢) إن الهجرة نقطة تحوُّل مضيئة في تاريخ الإسلام، وقد سجَّلها الشعراء بما جادت به قرائحهم، ومن ذلك قول الشاعر:

أضحتْ بدايةَ تاريخ يُجدِّدُها ... مرُّ السِّنين ومنها تُؤخَذُ العِبَرُ
مع الهلال ببدء العام طَلْعتُها ... يا غُرة النصرِ أحيا ذكرَكَ القمرُ
فاطلعْ بها يا هلالَ العام مزدهراً ... كلاكُما النورُ في الأجواء ينتشرُ
واقصصْ على الجيل أخبارَ الأُلى هجروا ... ديارَهُمْ وعلى التغريبِ قد صَبروا

(٣) سلمةُ بنُ سلامةَ بنِ وقش بن زغبة: يكنى أبا عوف، منَ الأوس الأنصار، شهد العقبة مع الأنصار، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسولِ الله ﷺ؛ ومات سلمةُ بن سلامة سنةَ خمس وأربعين وهو ابن سبعين سنة، ودفن بالمدينة المنوّرة - رضي الله عنه - (طبقات ابن سعد ٣/ ٣٣٩ و ٣٤٠).

* وفي ربوع المدينة المنورة وُلد للزُّبير ابنه عبد الله بن الزُّبير من زوجه أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ وكان عبدُ الله بنُ الزبير أوَّل مولودٍ وُلِدَ للمهاجرين في المدينة، وفرحَ المسلمونَ بولادتهِ فرحاً شديداً وكبروا تكبيرة ارتجَّتْ لها المدينة؛ لأنَّ اليهود الأخابث كانوا يقولون: قد سحرناهم، فلا يُولد لهم، فأكذبهم الله عزَّ وجلَّ، وحنَّكه رسولُ الله ﷺ بتمرة لاكها، فكان ريقه الشَّريف أوَّل شيءٍ نزلَ في جوفه، وسمّاه: عبد الله؛ وكنَّاه: أبا بكر بكنيةِ جدّه أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه[1] ـ.

* كان عبدُ الله بنُ الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ صوّاماً، قوّاماً، طويل الصَّلاة، وَصُولاً للرحم، عظيم الشَّجاعة، عاقلاً، حازماً، بليغاً، كأبيه الزُّبير وجده الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* أمَّا الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ فقد عاشَ في المدينةِ المنوَّرة جندياً وفارساً منْ فرسانِ الرَّسول ﷺ، وقد كان للزُّبير كريم الآثارِ الوضيئة في غزواتِ رسولِ الله ﷺ، وسنشهدُ معاً بعض آثاره الحِسَان في بعضِ المغازي التي حظيَ فيها بمعيَّة الحبيب المصطفى ﷺ، فكان نِعْمَ الفارس، المقاتل، المطيع، المحبّ لله ورسوله.

الزُّبَيْرُ وغزاةُ بَدْر:

* هو ذا داعي الجهادُ يُنادي للخروج إلى غزاةِ بدر، ويسرعُ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ ممتطياً صهوةَ جوادهِ الأصيل، مُلبّياً لإعلاء كلمةِ الله، وكان في جيش المسلمين فارسان وهما: الزُّبير بن العوام، والمقداد بن الأسود ـ رضي الله عنهما[2] ـ.

---

(١) انظر: الأوائل (ص ١٥٢).

(٢) أخرج الحاكم ـ رحمه الله ـ بسند رفعه إلى عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت أوَّل غزوة في الإسلام بدر، ما كان معنا إلا فَرَسان: فرسٌ للزبير، وفرسٌ للمقداد. (المستدرك ٣/ ٤٠٧). ومن الجدير بالذكر أنَّ فرس الزُّبير يوم بدر كان يُقال له: اليعسوب (الكامل ١/ ٨٢).

* ولما نزلَ رسولُ الله ﷺ قريباً منْ ماءِ بدرٍ، بعث عليّ بن أبي طالب والزُّبير وجماعة يكشفون خبر قريش، فعادوا وقد حزروا القوم.

* في اليوم التَّالي بدأتِ الحربُ بينَ الفريقين، وكان الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ يمتطي جواده، وعليه عمامة صَفْراء، وأخذ يجندلُ صناديدَ فجّار قريش[1]، وجُرِحَ يومها جُرحين غائريْن. وتروي المصادر أنَّ الملائكةَ قد نزلت يوم بدرٍ بعمائم صُفْرٍ[2] إكراماً وتكريماً للزُّبير ـ عليه سحائب الرضوان وشآبيب الرحمة، ومُزْن المغفرة ـ وفي هذا يفتخر ابن حفيده عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير:

جـدّي ابـنُ عمّـة أحمـد ووزيـرُه
عنـد البـلاءِ وفـارسُ الشّقـراءِ
وغـداة بَـدْرٍ كـان أوّل فـارس
شهِدَ الـوغى فـي اللأمـةِ[3] الصَّفـراء
نـزلـتْ بسيمـاهُ الملائـكُ نصـرة
بـالحـوضِ يـوم تَـألُّـبِ الأعـداءِ[4]

الزُّبَيرُ وغَزَاةُ أُحُد:

* استدار العامُ، وخرجَ المسلمون إلى أُحُدٍ، وفي ميدان أُحُد اصطفَّ الفريقان، وخرجَ منَ المشركين طلحة بنُ أبي طلحة العبدريّ، فدعا إلى

---

(١) روتِ المصادرُ أنَّ الزُّبير قد قَتَل يوم بدر: عُبيدة بن سعيد بن العاص، ونوفل بن خُويلد بن أسد.

(٢) أخرجَ ابنَ سعد ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت على الزُّبير رَيطةٌ صفراءُ معتجراً بها يوم بدر، فقال النّبيّ ﷺ: «إنَّ الملائكةَ نزلتْ على سيماء الزُّبير» (طبقات ابن سعد ٣/ ١٠٣).

(٣) «اللامة»: هي اللأمة، وهي أداة الحرب كلها: من رُمْح، وخُوذَة، ومِغْفَر، وسيف، ودِرْع.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦ و٤٧) بشيء من التّصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٣).

البراز، فأحجمَ النَّاس عنه، حتى دعا ثلاثاً، وهو على جملٍ له، فقام إليه الزُّبير، فوثبَ حتى استوى معه على بعيره، ثمَّ عانقه، فاقتتلا فوقَ البعير جميعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «الذي يلي حضيضَ الأرض[١] مقتول» فوقعَ المشركُ، ووقعَ عليه الزُّبير فذبحه بسيفه، ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ قرَّبَ الزُّبير، فأجلسه على فخذه، وأثنى عليه، وقال: «إنَّ لكلِّ نبيٍّ حواريا[٢] والزُّبير حواريَ» وقال: «لو لم يبرزْ إليه لبرزتُ أنا إليه؛ لما رأيتُ منْ إحجام النَّاس عنه»[٣].

* ودار القتالُ بينَ المسلمين والمشركين، وكان الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ منَ الفُرسان الذين ثَبَتوا حولَ الرَّسول ﷺ، وممَّنْ بايعه على الموتِ. وفي غزاة أُحُد هذه، استشهد حمزة خال الزُّبير، وأخو أمّه صفية[٤]، واستشهد كذلك عبد الله بن جحش ابن عمته، وثلّة من أكابر المؤمنين، وفرسانهم.

* انتهتِ المعركةُ، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ منَ المسلمين، وأكرمهم الله عزَّ وجلَّ يوم أُحُد[٥] بالشَّهادة، وثبَّتَ الله رسولَه الكريم، ومعه ثُلَّة من فرسانه منهم

---

(١) «حضيض الأرض»: قرارها، وسافلها.

(٢) «الحواريّ»: النَّاصر المبالغ في النصرة، والوزيرُ، والخليل، أو ناصر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ خاصة.

(٣) البداية والنّهاية (٤/ ٢٠) وتاريخ الإسلام للذهبيّ (المغازي ص ١٧٢ و ١٧٣) مع الجمع والتصرف اليسير.

(٤) أوردت كتب السّيرة أنَّ صفية بنت عبد المطلب ـ رضوان الله عليها ـ أقبلت إلى أحدٍ لتنظر إلى حمزة ـ وهو أخوها لأبويها ـ فقال رسول الله ﷺ لابنها الزُّبير: «القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها». فلقيها الزبير فقال: أي أمَّه، إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أنْ ترجعي.
قالت: ولِمَ؟ فقد بلغني أنَّه مُثّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، فلأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.
فجاء الزُّبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها، قال: «فَخَلِّ سبيلَها» فأتته فنظرت إليه، واسترجعت، واستغفرت له.

(٥) قال جماعةٌ من أكابر العلماء: كان يوم أُحد يوم بلاء وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحقَ به المنافقين ممن كان يظهر إسلامه بلسانه، ويوم أحد أكرم الله فيه=

أسيادنا العظام: أبو بكر، وعليّ، وطلحة، والزُّبير وغيرهم ـ رضوان الله عليهم ـ.

* انصرفَ المشركون من ساحةِ أحد، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما أصابهم، وخافَ رسولُ الله ﷺ أن يرجعَ المشركون، فقال: «مَنْ ينتدبُ لهؤلاءِ في آثارهم حتى يعلموا أنَّ بنا قوَّة؟» فانتدبَ أبو بكر والزُّبير في سبعينَ خرجوا في آثارِ القوم، فسمعوا بهم، وانقلبوا بنعمةٍ منَ اللهِ وفَضْل لم يمسسهم سوءٌ، ولم يلْقَوْا عدوّاً[1].

* وكان أبو بكر والزُّبير منَ الذين استجابوا للهِ والرَّسول منْ بعدِ ما أصابهم القَرْح، وبذلك نَالا رضوان الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسول الله ﷺ، ففازا ببشارة الجنَّةِ كما أخبر بذلك الحبيب المصطفى ﷺ.

الزُّبَيْرُ وغَزَاةُ الأَحْزَابِ وبني قُرَيْظَةَ:

* في غزاةِ الخندق، كانَ للزُّبير ـ رضي الله عنه ـ المقام المحمود، وأبلى يومها بلاء حسناً، فقد جاءتْ جموعُ الأحزابِ، وحاصروا المدينةَ المنوَّرة، واضطربَ المسلمونَ يومها، وزاغتِ الأبصارُ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، وزُلْزِل المؤمنون زلزالاً شديداً، وكان يوماً قاسياً.

* وفي تلك السَّاعات الحرجة العصيبة، قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يأتينا بخبرِ القوم؟».

فقال الزُّبير: أنا. فقال: «إنَّ لكلِّ نبي حوارياً وحواري الزُّبير»[2].

= بالشهادة غير واحد، وكان مما نزل من القرآن في يوم أُحُد؛ ستون آية من سورة آل عمران.

(1) للحديث أصل في الصَّحيحين: في البخاري، كتاب المغازي، باب: الذين استجابوا لله والرسول برقم (٤٠٧٧).
ومسلم في كتاب فضائل الصَّحابة برقم (٢٤١٨) باب: من فضائل طلحةَ والزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ.
وابن ماجه في المقدمة (١٢٤)، وابن سعد (٣/ ١٠٤) والحاكم (٣/ ٤٠٩).

(2) الحديث أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٠٧ و٣١٤ و٣٣٨ و٣٦٥). =

* ويوم الخندق وبني قريظة جَمع رسولُ الله ﷺ للزُّبير أبويه فقال: «ارمِ فداكَ أبي وأمّي»[1].

* أوردتِ المصادرُ الحديثيّةُ أنَّ الزُّبير - رضي الله عنه - كان يقاتل مع رسولِ الله ﷺ يوم الخندق، فقال: «مَنْ يأتي بني قريظة فيقاتلهم؟» فكان الزُّبيرُ يذهبُ إلى بني قريظة ويقاتلهم، وعندما يرجع يقولُ له رسول الله ﷺ: «فداكَ أبي وأمّي».

وهذه شجاعة ما بعدها شجاعة، وثبات جَنان، وقوة شكيمة، ويقين بالله لا يُوصَف[2].

* ويذكر الذَّهبيُّ - رحمه الله - خَبراً لطيفاً عن شجاعةِ وقوةَ الزُّبير - رضي الله عنه - فيقول: ضَرَبَ الزُّبير بن العوام - رضي الله عنه - يومَ الخندق عثمانَ بنَ عبد الله بنِ المغيرة بالسَّيف على مغفره، فقطعه إلى القَرْبوس[3]،

= وأخرجه البخاريّ في فضائل الصَّحابة برقم (٣٧١٩).
ومسلم في الفضائل برقم (٢٤١٥).
والترمذي في المناقب برقم (٣٧٤٥).
وابن ماجه في المقدمة (١٢٢) باب فضائل الزّبير. وغير ذلك من المصادر الموثوقة.
ووردَ في معنى الحواريِّ آراء كثيرة منها: الحواريُّ: الخالص من كلّ شيء.
وقيل: الخليل، وقيل: الناصر. والحواريّ: خاصّة الإنسان وصفيه المختص به، كأنه أخلص ونقي من كل عيب.
وسمي أصحاب النبي عيسى - عليه السلام - بالحواريين؛ لأنهم تابعوه وناصروه.

(1) للحديث أصل في المسند (١/ ١٦٦) وعند البخاري برقم (٣٧٢٠) ومسلم برقم (٢٤١٦) وانظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ١٩٥).

(2) إنَّ شحذ الهمم، وتشجيع العسكريين، يرفعُ من معنوياتهم، ويكون حافزاً لهم على مواصلة العطاء المثمر؛ مِمَّا يعود على الجيش بالعزّة والمنعة.

(3) «القُربوس»: مقدّم السرج ومؤخّره.

فقالوا: ما أَجْوَدَ سيفك! فغضبَ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ من قولهم، يريد أنَّ العملَ ليده لا لسيفه(١).

الـزُّبيـرُ في بـقيّـةَ المشَـاهِــد:

* أخرج الحاكمُ بسندهِ عن عروةَ بنِ الزُّبير عن الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ قال: واللهِ! ما خرجَ رسولُ الله ﷺ مخرجاً في غزوةٍ غزاها ولا سرية إلا كنتُ فيها(٢).

* وقد شهدنا الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ في غزاةِ بَدْرٍ وأحدٍ والأحزاب وقريظة، وسنشهده كذلك في مشاهدَ أُخَر، فقد شهد بيعة الرضوان، وحظي بالرّضوان مِنَ الرّحمن عزَّ وجلَّ، ثمَّ شهد غزاة خيبر، وأبلى يوم إذ بلاء حَسَناً، فبعد أنْ قُتِلَ مرحبُ اليهوديُّ بسيف عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ برزَ ياسر أخو مرحب، وكان من أشدَّاء اليهود، وكانت معه حربة يحوشُ بها المسلمين حوشاً، فبرز له عليّ ـ رضي الله عنه ـ فقال له الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ: أقسمتُ عليك إلا خليتَ بيني وبينه، ففعل عليّ، وأقبلَ ياسرٌ بحربتهِ يسوقُ بها النّاس، فبرزَ له الزُّبير، فقالت صفية أمّه: يا رسول الله! واحدي، ابني يُقتل يا رسول الله؟ فقال: «بل ابنك يقتله» فاقتتلا، فقتله الزُّبير، فقالَ رسول الله ﷺ: «فداك عمٌّ وخالٌ» ولما قُتِلَ مرحب(٣) وياسر، قال رسولُ الله ﷺ: «أبشروا قد ترحّبتْ خيبر وتيسَّرتْ»(٤).

* وتابعَ الزُّبير ـ رضوان الله عليه ـ رحلة الجهاد والفروسية بمعيّة

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥) بتصرف يسير. وانظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (المغازي ص ٣٠١).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٤٠٧).
إن مواصلة الزبير مسيرة الجهاد يدلُّ على عظيم إيمانه، وصلابة موقفه، وطاعته لقائده ﷺ، وتدريبه المستمر، ولياقته العالية، وتحمّله للظروف المختلفة، مهما قست، أو اشتدّ لأواؤها.

(٣) مرحب اليهودي: كان ملك خيبر.

(٤) شرح السّير الكبير (٢/ ٦١٣) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٧).

رسولِ الله ﷺ، فشهدَ فتح مكة، ودخلها يومئذ بلواءين، وكان على مجنبة[1] الجيش اليسرى، وكان المقدادُ بنُ الأسود[2] على المجنبة، فلمّا دخل رسول الله ﷺ مكةَ، وهدأ النّاس، جاء الزُّبير والمقداد بفرسيهما، فقام رسولُ الله ﷺ يمسحُ الغبار عن وجوههما بثوبه وقال: «إنّي جعلتُ للفرسِ سهمين، وللفارس سهماً، فَمَنْ نقصهما نَقَصَه الله»[3].

* ويومَ حنين، وما أدراك ما يوم حنين! أبدع الزُّبير، وأظهر من ألوانِ الفروسيّة، والشّجاعة، والبطولة ما أذهل الأعداء. وقد وصَفَه أصحابُ مالك بن عوف بقولهم: نرى فارساً طويلَ النّجاد، هَوْلَ الفخذ، واضعَ الرّمح.

فقال لهم مالك: هذا الزُّبير بن العوام، وأحلفُ باللهِ ليخالطنكم، فاثبتوا، فلمّا انتهى الزُّبير إلى أسْفَل الثّنية، أبصر القوم، فعمد إليهم، فلم يزلْ يطاعنهم حتى أزالهم عنها[4].

* وفي ظلالِ العصر الراشدي، ظل الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ أحد فرسان المسلمين الأوفياء، فكان معَ فرسان الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ الذين قاتلوا المرتدين، ثمَّ خرج إلى الشّام مُجاهِداً مع جيشِ الفاتحين، فشهد اليرموك، فتشرَّفُوا بحضوره، وكان أفضلَ مَنْ شهدها، وكانت له بها اليد البيضاء، والهمّة العلياء، اخترقَ جيوشَ الرُّوم وصفوفهم مرتين من أوّلهم إلى آخرهم، وكان يخرج منَ الجانب الآخر سالماً، ولكنَّه جُرِحَ في قفاه بضربتَين ـ رضي الله عنه ـ، وهذا دليلُ جُبْن الأعداء، وعدم قدرتهم على الثبات إزاءه وجهاً لوجه.

* ثمَّ إنَّ الزُّبير خرج غازياً نحو مصر، فكتَبَ إليه أمير مصر أنَّ الأرض قد وَقَع بها الطّاعون، فلا تدخلها، فقال: إنما خرجتُ للطّعن والطّاعون؛

---

(١) «المجنبة»: المقصود فيها هنا ميسرة الجيش.
(٢) اقرأ سيرته وفروسيته في هذا الكتاب ص(٣٠٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٤).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٨) بتصرف يسير جداً.

فدخلها[١]، وكان أميراً على خمسمئةٍ من الجند، وحمل راية تدلُّ على فِرقتهِ، فخرج بعسكره، وهو ينشدُ هذا الرَّجَزَ الجميل:

أنا الزُّبير وَلَد العوّام ... ليثٌ شجاعٌ فارس الإسلام

قَرمٌ[٢] همام فارسٌ هجَّام ... أقتل كلَّ فارسٍ ضرغام

وإنَّني يومَ الوغى صدّام ... وناصرٌ في حَانِها الإسلام

* وظلَّ الزُّبير بن العوام واحداً منْ فرسانِ المدرسة المحمدية، ينافح عن الإسلام والمسلمين، ويشري نفسه في سبيل مرضاة الله عزَّ وجلَّ، لكي يفوز بالسَّعادة مع الذين سُعِدوا.

مِنْ أَخْبَارِ الزُّبَيْر وآثاره المضيئة:

* للزُّبير بن العوَّام ـ رضوان الله عليه ـ أخبارٌ كريمة وضيئةٌ في تاريخ الصَّحابة الأعلام، بل في تاريخ الإسلام منذ عصر النُّبوة إلى أنْ يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها، وسيظل ذكره ينضحُ بالرَّحيق وبالعطر كلَّما جرى ذِكْره، وكلّما فُتحتْ صفحاتُ سيرته، وكلّما رُحْنَا نعدد مناقبه وآثاره، فهو القائد الهُمام، والعسكريّ المطيع، والمؤمن التقي، والفارس الشجاع، والجريء المقدام الذي لا يشقّ له غبار.

* ومنْ أخباره الوضيئةِ الباهرةِ، أنَّه كان حواريّ رسول الله ﷺ وكفاه بهذهِ المنزلة فَضْلاً ورفعة، وكان الزُّبير أحد كَتَبَةِ الصَّحابة لرسول الله ﷺ؛ الذين يكتبون بين يديه.

* ومن أخبار الزُّبير أنَّه لما كان بأرضِ الحبشة وهبه النَّجاشي حربةً ذات قيمة، فوهبها الزُّبير رسولَ الله ﷺ، فكانت تُحْمَلُ بين يديه يوم العيد وغيره، وقد وصلت هذه الحربة ليد الخليفة العباسيّ المتوكل على الله، ففرح بها

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥).

(٢) «القرم»: السَّيِّد المعظَّم.

فرحاً شديداً، فأمر المتوكلُ صاحب الشُّرطة أن يحملها بين يديه، كما كانت تُحمل بين يدي رسول الله ﷺ[1].

* ولسيفِ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ أثرٌ كريمٌ في حياةِ الفروسيَّة والجهادِ في العصر النَّبويِّ، وعن هذا السَّيف يقولُ فارسُ الإسلام عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ: إنَّ هذا السَّيف طالما فرَّج الكرب عن وَجْهِ رسولِ الله ﷺ[2].

* هذا السَّيف البتّار قُوِّم في مجلسِ عبد الملك بنِ مروانَ بثلاثة آلاف؛ يروي هذا الخبر عُروة بن الزُّبير قال: قال عبد الملك بن مروان حين قُتِلَ عبدُ الله ابنُ الزُّبير: يا عروة! هل تعرف سيف الزُّبير؟.

قلتُ: نعم.

قال: فما فيه؟.

قلتُ: فَلَّةٌ فُلَّها يوم بدر.

فاستله، فرآها فيه، فقال: بِهِنَّ فلولٌ مِنْ قراعِ الكَتَائب[3].

ثمَّ أغمده، وردّه عليَّ، فأقمناه بيننا بثلاثةِ آلاف، فأخذه بعضنا، ولوددتُ أنّي كنتُ أخذته[4].

وتحكي المصادرُ قصَّةً أخرى لسيفِ الزُّبير البتَّار، وتقول بأنَّه قد صار إلى هارون الرَّشيد ـ رحمه الله ـ وذات مرة أَمَر بأنْ تُضْرب عنق أحد الزَّنادقة،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٣٤٥ و٣٤٦) بشيء من التصرف.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٣٩٧٣) باب: قتل أبي جهل، وفي فضائل الصحابة برقم (٣٧٢١) باب: مناقب الزبير، وفي المغازي برقم (٣٩٧٥) باب: قتل أبي جهل.

(٣) هذا عجز بيت للنابغة الذّبياني، وصدره: ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم؛ والقصيدة مطلعها:

كِليني لهمٍّ يا أميمة ناصبِ   وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

وهذه القصيدة من أشهر وأجمل قصائد النابغة الذبياني الشّاعر الجاهلي المعروف.

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٩١) باختصار.

فسبق السَّيف الدم، فقال النَّاس: إنَّ السيف كان للزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ.

* ونعود الآن إلى الزُّبيرِ نفسهِ، لنشهدَ شيئاً مِنْ مناقبه الحِسَان، وأخباره الوضيئة اللطيفة، وذلك فيما حدثتْ به زوجُه السَّيِّدة أسماء بنت أبي بكر ذات النّطاقين[1] فقالت: مَرَّ الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ بمجلسٍ مِنْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وحسَّان بن ثابت ينشدهم منْ شعره، وهم في غير نشاطٍ لما يسمعونَ مِنْه، فجلسَ معهم الزُّبير، فقال: ما لي أراكم غيرَ آذِنين لما تسمعونَ مِن شعْرِ ابنِ الفريعة ـ أي: حسان ـ فلقد كان يعرض به رسولُ الله ﷺ فيحسنُ استماعه، ويجزلُ عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه بشيءٍ، فقال حسَّان يمدحُ الزُّبير:

أقـامَ علـى عَهْـدِ النَّبـيِّ وهَـديـهِ
حـواريّـه والقـول بـالفعْـل يعـدلُ

أقـامَ علـى منْهَـاجـه وطـريقـه
يـوالـي ولـيَّ الحـقِّ والحـقُّ أعـدلُ

هـو الفـارسُ المشهـورُ والبطـل الـذي
يصـولُ إذا مـا كـانَ يـوم محجّـلُ

وإنَّ امـرأً كـانـتْ صفيّـة أمّـه
ومـنْ أسـدٍ فـي بيتهـا لمـرفـلُ[2]

لـه مـنْ رسـولِ الله قُـربـى قـريبـة
ومـن نصـرة الإسـلام مجـدٌ مـؤثـلُ

فكـم كُـربـة ذبَّ الـزُّبيـر بسيفـه
عـن المصطفـى والله يعطـي فيجـزلُ

---

(١) «النطاقَيْن»: مثنى نِطاق، وهو إزار تلبسه المرأةُ، تشدُّه على وسطها في أثناء العمل.
(٢) «المرفل»: العظيم المبجل.

إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حشّها
بأبيض سبّاق إلى الموت يرقلُ[1]

فما مثله فيهم ولا كان قَبْله
وليس يكون الدَّهر ما دام يذبلُ

ثناؤك خيرٌ مِنْ فعالِ معاشرٍ
وفعلك يابن الهاشميّة أفضلُ[2]

* وهذا الإمام عامر الشَّعبيُّ يسجِّلُ خبراً يرفلُ بالبركةِ، ويشعّ بالنماء للزُّبير - رضي الله عنه - فيقول: أدركتُ خمسمئة أو أكثر من الصَّحابة يقولون: عليّ، وعثمان، وطلحة، والزُّبير، في الجنَّةِ[3].

* وقال الإمامُ سفيان الثَّوريّ - رحمه الله -: هؤلاء الثَّلاثة نجدة الصَّحابة: حمزة بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، والزُّبير بن العوام.

---

(١) يُقال: أرقل القوم إلى الحربِ إرقالاً: أسرعوا، والإرقال: ضربٌ من الخَبَبِ، وهي سرعة سير الإبل، ومنه سُمّي هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بالمرقال لسرعتهِ في الحرب، لأنَّ علياً - رضي الله عنه - أعطاهُ الراية في صفّين، فكان يرقلَ بها، أي: يسرع.
وهاشمُ بنُ عتبة هو ابن أخي سعد بن أبي وقاص، يكنى أبا عمر، أسلم يومَ الفتح، وكان من الفُضَلاء الخيار، وكان من الأبطال الشّجعان ومن ذوي البأس والنَّجدة، فقئت عينه يومَ اليرموك، ثم شهد القادسية، وأبلى فيها بلاء حسناً، ثمّ افتتح جلولاء، ثم شهد مع عليّ الجمل، ثم صفيّن وقطعت رجله يومئذ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك، وقاتل حتى قُتل بها - رحمه الله - (منح المدح ص ٣٢٤).

(٢) انظر: المستدرك (٣/ ٤٠٨ و٤٠٩) وحلية الأولياء (١/ ٩٠) والبداية والنهاية (٥/ ٣٤٥) وسير أعلام النبلاء (١/ ٥٦ و٥٧) ومجمع الزوائد (٨/ ١٢٥) والاستيعاب وأسد الغابة ترجمة الزبير.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٦٢) وعلّق الإمام الذّهبيّ - رحمه الله - على هذا الخبر بقوله: لأنّهم من العشرَة المشهود لهم بالجنّة، منَ البدريين، ومن أهل بيعة الرّضوان، ومنَ السّابقين الأوّلين الذين أخبر تعالى أنّه رضي عنهم ورضوا عنه، ولأنَّ الأربعة قُتلوا، ورزقوا الشّهادة، فنحن مُحِبُّون لهم، باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة.

* بينما نجد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول عنِ الزُّبير: الزُّبير ركنٌ منْ أركان الدِّين[١].

* وعن أسماءَ بنتِ أبي بكر زوجِ الزُّبير ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ قالت: عندي للزّبير ساعدانِ مِنْ ديباج، كانَ النَّبيُّ أعطاهما إياه، يقاتل فيهما.

* وشهدَ فارسُ الشُّجعان عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ للزبير بشدّة البأسِ والشَّجاعة عندما سُئل: مَنْ أشجع النَّاس؟ فقال: ذاكَ الذي يغضب غَضبَ النَّمرِ، ويثبُ وثُوب الأسد، وأشار إلى الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ.

* ومما يشيرُ إلى شجاعةِ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ ما رواه عليُّ بنُ زيد قال: أخبرني مَنْ رأى الزُّبير بن العوام، وفي صَدْرِه أمثال العيون من الطَّعن والرَّمي.

* ولو رُحْنا ـ عزيزي القارىء ـ نحصي مناقب الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ لضاقت بنا الصَّفحات، ولكنّا اكتفينا بذكرِ بعض مناقبه التي تَمُتُّ بصلةٍ إلى الفروسيّة والشَّجاعة وما شابه ذلك.

* ونختمُ هذه الفقرة بأنَّ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ قد روى عن رسولِ الله ﷺ أحاديث يسيرة بلغت (٣٨ حديثاً).

* حدَّث عنه بنوه: عبد الله، ومصعب، وعروة، وجعفر، والأحنف بن قيس، وعبد الله بن عامر بن كريز، وغيرهم.

* اتفق له البخاريُّ ومسلم على حديثين، وانفرد له البخاري بأربعة أحاديث، ومسلم بحديث واحد.

* ومن مروياته الحديث المشهور الذي سمعه عن رسول الله ﷺ إذ يقول:

---

(١) الكامل (٢/ ١٠٥).
وناهيك بهذه الشهادات والأوسمة التي نالها الزبير من كبار المسلمين وعظمائهم، وهي تدلُّ على أياديه البيضاء، وأعماله الجليلة؛ التي سطر بها أروع الصفحات في سجلِّ الخالدين.

«مَنْ كَذَبَ عليَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النّار»[1].

في جَنّاتِ عَـدْنٍ عنـد مليكٍ مقتـدر:

* أشارتِ المصادرُ المتعدِّدة إلى قصَّةِ مَقْتَل الزُّبير غدراً، فأسهبتْ، وتوسَّعَتْ، وأوردتْ روايات كثيرة، مفادها أنَّ الزُّبيرَ - رضي الله عنه - قد قُتِلَ غَدْراً في سَنَةِ ستٍّ وثلاثينَ من الهجرة، وكان - رضي الله عنه - يوم الجمل قد ترك القتال وانصرف، فلحقه جماعة منَ الغُواة منهم: عمرو بن جُرموز التميمي، فقتلوه غدراً بوادي السِّباع بناحيةِ البَصْرة، وقبره هناك، وكان عمره حينئذ أربعاً وستين سنة[2].

* هذا، وقد أوصى الزُّبير ابنهَ عبد الله [3]، بوصيةٍ لطيفةٍ في يوم الجمل ويروي عبدُ الله بنُ الزبير - رضي الله عنهما - خبر هذه الوصية فيقول:

---

(١) هذا الحديث من الأحاديث المتواترة المشهورة، وانظر تخريجه في سير أعلام النبلاء (١/ ٤٣) حيث ورد في الصحيح والسُّنن.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١١٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ٦٤) وغيرها.

(٣) كان للزُّبير بن العوّام - رضي الله عنه - بضعة أولاد نجباء كرام أعلام، وقد سمّاهم بأسماء الصَّحابة الكرام، فقد روى ابنه عروة عنه قال: قال الزُّبير بن العوام: إنَّ طلحةَ بنَ عُبيد الله التّيميَّ، يُسمّي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد عُلِمَ أنْ لا نبي بعد محمّد، وإنّي أسمّي بنيّ بأسماء الشُّهداء لعلّهم أن يستشهدوا: فسمّى عبد الله: بعبد الله بن جحش - رضي الله عنه -.
والمنذرُ: بالمنذر بن عمرو - رضي الله عنه -.
وعُروة: بعروة بن مسعود - رضي الله عنه -.
وحمزة: بحمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه -.
وجعفراً: بجعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه -.
ومصعباً: بمصعب بن عمير - رضي الله عنه -.
وعبيدة: بعبيدة بن الحارث - رضي الله عنه -.
وخالداً: بخالد بن سعيد - رضي الله عنه -.
وعمراً: بعمرو بن سعيد بن العاص - رضي الله عنه - قُتل يوم اليرموك.
(طبقات ابن سعد (٣/ ١٠١).

لما وقفَ الزُّبير يومَ الجمل دعاني، فقمتُ إلى جَنْبِهِ، فقال: يا بُني! إنَّه لا يُقتَلُ اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإنِّي لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوماً، وإنَّ منْ أكبرِ همِّي لَدَيْني، أفترى دَيْنَنا يُبقي مِنْ مالنا شيئاً؟! وجَعَلَ يوصيني بدَيْنِه ويقول: يا بُني! إنْ عجزتَ عن شيء منه، فاستعنْ بمولاي. قال عبد الله ابنُ الزبير: فوالله ما دريتُ ما عنى حتى قُلتُ: يا أبَةَ! مَنْ مولاك؟! قال: الله عزَّ وجلَّ.

قال عبدُ الله: فوالله! ما وقعتُ في كربةٍ من دَيْنِهِ إلا قُلتُ: يا مولى الزُّبير اقضِ عنه، فيقضيه[1].

* ولما وصل خبر مقتل الزُّبير إلى زوجهِ عاتكة بنتِ زيدٍ قالت ترثيه:

غَدَرَ ابنُ جُرموزٍ بفارسِ بُهْمَةٍ
يومَ اللقاء وكان غير معرِّدِ[2]

يا عمرو لو نبَّهتَه لوجدتَه
لا طائشاً رعِشَ الجَنان لا اليدِ[3]

شلَّتْ يمينُك إنْ قَتَلْتَ لمسلماً
حلَّتْ عليك عقوبة المتعمِّدِ[4]

ثكلتك أمّك هل ظفرتَ بمثلهِ
فيمن مضى فيما تروح وتغتدي؟

(١) عن طبقات ابن سعد (١٠٨/٣) بشيء من الاختصار اليسير.
وهذا دليلُ صدق التوكل على الله عزَّ وجلَّ، وشدّة اليقين بأن الصبر مفتاح الفرج، وأن مع العسر يسراً، وأن الله تعالى مع الذين آمنوا، والذين هم متقون.

(٢) «البُهمة»: الشجاع، وقيل: هو الفارس الذي لا يُدرى من أين يؤتى له من شدّة بأسه.
«اللقاء»: الحرب، لأنه تتلاقى فيها الأبطال.
«المعرِّد»: اسم فاعل من عرّد تعريداً، إذا فرّ وهرب.

(٣) «طائشاً»: من طاش يطيش: إذا خف عقله من دهشة وخوف.
«رعش»: أخذته الرعدة.

(٤) «عقوبة المتعمد»: أن يُقتل قصاصاً.

كـم غمـرة قـد خـاضهـا لـم يَثْنِهِ
عنهـا طـرادك يـابـن فَقْـعِ القـرددِ[1]

* هذا وقد رثاه جرير بنُ الخَطَفَى:

إنَّ الـرزيـةَ مَـنْ تضمَّـنَ قبـره
وادي السِّبـاع لكـلِّ جنـبٍ مصـرع
لمـا أتـى خبـرُ الـزُّبيـر تـواضعـتْ
سـورُ المـدينـةِ والجبـالُ الخشَّـع
وبكـى الـزبيـرَ بنـاتُـه فـي مـأتـمٍ
مـاذا يـردّ بكـاء مَـنْ لا يسمـع

* وتروي المصادر أنَّ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ لما انصرف يوم الجمل جَعَلَ يقول:

ولقـد علمـتُ لـو أنَّ علمـي نـافعـي
أنَّ الحيـاةَ مـنَ الممـاتِ قـريـبُ

ثمَّ لم ينشبْ أنْ قتلَه ابن جرموز، وأخذَ ابنُ جرموز هذا رأس الزُّبير وسيفه، وأتى بهما علياً، فأخذه عليٌّ وقال: سيف الله طالما جُلِّيَ به عنْ وَجْهِ رسولِ الله ﷺ الكرب، ولكنِ الحينُ ومصارعُ السُّوء.

* دُفنَ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ بوادي السِّباع، وجلس عليٌّ يبكي عليه هو وأصحابه بعد أنْ قال: بَشِّر قاتلَ ابن صفيّة بالنَّار[2].

* وراحَ الزُّبير ـ رضوان الله عليه ـ إلى جنَّاتِ عَدْن؛ ليكون منَ الذين سبقت لهم الحُسنى منَ الله عزَّ وجلَّ.

* وسنختم حديثنا عنِ الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ بهذا الخبرِ المعْطَار:

عنِ النُّعمان بنِ بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: كُنَّا مع عليّ بنِ أبي طالب

---

(١) «الفِقْع»: نوع أبيض من رديء الكمأة.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥) والأوائل للعسكري (ص ١٤٦) وهذه البشارة فيها منتهى التقريع والتبكيت.

في مسجد الكوفة ـ وكان مُضطجعاً ـ فخُضْنَا في ذِكْرِ عثمانَ وطلحةَ والزُّبير.

فقال: فِيمَ خُضْتُم؟.

فقلنا: خضنا في عثمانَ وطلحةَ والزُّبير ـ رضي الله عنهم ـ وحَسِبْنَا أنَّك نائمٌ.

فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فأنا وعثمان وطلحة والزُّبير.

ثم قال: وأنا من شيعةِ عثمانَ وطلحةَ والزُّبير.

ثم قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قال: ذلك عثمان وطلحة والزُّبير، وأنا مِنْ شيعةِ عثمانَ، وطلحةَ، والزُّبير ـ رضي الله عنهم أجمعين[١] ـ.

* وبعد؛ كنتُ أودُّ أنْ يكونَ الحديثُ طويلاً عن الزُّبير، لا سيما وأنَّ الحياة مع الأبرارِ هي الحياةُ الحقيقيّة، لأنّنا ننتقلُ إلى رحابهم الطَّاهرة، ونسمو فوقَ دنايا الدُّنيا الفَانية.

* رضي الله عن الزُّبير بن العوَّام، وجَعَلَنا في زمرتِهِ ممَّنْ يدخلون الجنَّة بِسَلام؛ فقد كان بحق فارسَ رسولِ الله ﷺ، وحواريَّه، والشجاعَ الكميَّ، والقائد ذا الرأي السديد، والعقل الراجح، والشدة على الأعداء، فرضي اللهُ تعالى عنه وأرضاه.

* * *

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥ و٢٦) بتصرف يسير جداً.

(٥)

زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ

- رضي الله عنه -

قال له ﷺ: «أنتَ أخونا ومولانا».

* إنَّ الله عزَّ وجلَّ، إذا أرادَ بإنسانٍ خيراً هيّأَ له أسباب السَّعادة والصلاح، وأوردَهُ ينابيعَ مودَّةِ الهداية والفلاح، ثمَّ لاحظَتْهُ عيونُ العِناية، فكانَ منَ السُّعداء الأخيار.

* وهذا فارسٌ منْ فرسانِ الرَّسول ﷺ حَظِيَ بدرجة رفيعةٍ في بيتِ النُّبوَّة الكريم، هذه الدَّرجة تَفَرَّدَ بها على مرِّ الأيّام؛ لتكونَ له علامةً كريمة بينَ الأنام كلّهم.

* وبطلُنا واحدٌ مِنْ أسبقِ السُّبَّقِ إلى دوحةِ الإيمانِ الباسقةِ، وساحةِ الهداية السَّامقة، تقلَّبَ على فراشِ الإيمان، ونَهدَ في رحاب أكرمِ المكارم، وحظيَ بحُبِّ أكرمِ المخلوقاتِ وسيّدهم على الإطلاق سيّدنا محمد ﷺ.

* دُعِي إلى الإيمان فأجابَ طائعاً، ونطقَ بالشَّهادة في الوقتِ الذي لم يسبقه أحدٌ منَ الموالي إلى مائدةِ الإنعام الإلهيّ، وإلى نفحاتِ الحقِّ، دِيْنِ الله عزَّ وجلَّ؛ الذي ارتضاهُ لعبادِهِ المؤمنين من الأقوام كافة.

* وهذا البطلُ الفارسُ، وإنَّ كان باديءَ الأمْرِ منَ الموالي، إلا أنَّه كانَ منْ صميمِ العَرب الأحرار، ومنْ عُلْيَا قبائلهم، وممن جَمَعَ الشَّرف منْ جهةِ أبويه. فتعالوا نتعرَّفْ نَسَبَ هذا الفارس النَّجيب، كما أورده الإمامُ الذَّهبيُّ في أعلامِ نُبلائه، فكان منْ نبلاءِ الأعلام.

* قالَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ في مطلعِ ترجمته: زيدَ بنُ حارثةَ بن شراحيل بنِ كعْب ... الأمير الشَّهيدُ النَّبويُّ المسمّى في سورةِ الأحزاب، أبو أسامة الكَلْبي، ثمَّ المحمديّ، سيدُ الموالي، وأسبقهم إلى الإسلام، وحِبُّ رسول الله ﷺ، وأبو حِبِّه، وما أَحَبَّ ﷺ إلا طيّباً، ولم يُسَمِّ اللهُ تعالى في كتابه صحابيّاً باسمهِ إلا زيد بن حارثة وعيسى ابن مريم عليه السَّلام؛ الذي ينزلُ حكماً مقسطاً، ويلتحقُ بهذه الأمّةِ المرحومةِ في صلاته، وصيامه، وحجّه، ونكاحه، وأحكام الدِّيْنِ الحنيف جميعها، فكما أنَّ أبا القاسم سيّدُ الأنبياء وأفضلُهم وخاتمُهم، فكذلك عيسى بعد نزوله أفضل هذه الأمّة

مُطْلقاً، ويكون ختامهم، ولا يجيءُ بعده مَنْ فيه خيرٌ، بل تطلع الشَّمسُ مِنْ مغربها، ويأذنُ الله بدنوِّ السَّاعة[1].

* قَدمَ زيدٌ مكةَ وهو لا يزالُ غلاماً يافِعاً[2] في الثَّامنة من عمره، وكانَ قد وقَعَ في السِّباء، فأتَى به سوق عُكَاظ[3]، فعُرِضَ للبيع، فاشتراه حكيمُ بن حزام لعمته خديجة بنتِ خويلد بأربعمئة درهم.

* أمَّا كيف وَصَلَ زيدٌ إلى بيتِ النُّبوَّة الكريم، وكيف عاشَ فيه سعيداً على الرّغم منْ مجيءِ أهله مكةَ، فذلك ما وَعَتْهُ أذنُ التَّاريخ الواعية، في بطونِ المصَادر الوثيقةِ، وذلك ما سنشهده في السُّطور التَّالية.

في خَيْرِ أُسْرةٍ:

* كانَ زيدُ بنُ حارثة ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ وهو بمكةَ قد بَعَثَ رسالةً شِعْريّةً شفويّة إلى أهلهِ في مضاربهم مفادها: ألاَّ تحزنوا ولا تجزعوا، فإنّي بحمدِ الله في خيرِ أسرة في دُنيا الأُسَر، بل في الدُّنيا كلِّها، هذه الأسرةُ قد وَرِثَتِ

---

(1) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٢٠ ـ ٢٣٠) وانظر: المسند لأحمد (٤/ ١٦١) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ٤٠ ـ ٤٧) والمستدرك (٣/ ٢٣٥ ـ ٢٤١) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٢ ـ ١٣٣) وأسد الغابة (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٢) ترجمة رقم (١٨٢٩) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) والبداية والنّهاية (٤/ ٢٥٤) والعبر (١/ ٩) وتاريخ الإِسلامي للذهبي (المغازي؛ انظر الفهارس) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٧٤ و٢٧٥) والعقد الثّمين (٢/ ٤٥٩ ـ ٤٧٣) وتهذيب التّهذيب (٣/ ٤٠١) وحياة الصّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٥٤) وانظر كذلك كتب الحديث وغيرها من كتب التّراجم والطّبقات، وكذلك كتب التّفسير المتنوّعة، ففيها كثيرٌ من التّفصيلات حول شخصيّة زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، ولا نستطيع أنْ نوردَها كلها هنا.

(2) «غلاماً يافعاً»: يَفَعَ الغلامُ: ترعرع، وناهز البلوغ.

(3) «سوقُ عكاظ»: أشهر أسواق العرب في الجاهلية، وكان يقام في الأشهر الحرم، وكان العرب يبيعون ويشترون منتجاتهم فيه، كما تُقام سوقُ الأدب والشِّعْر، ولقد اشتهر كثيرٌ من الشُّعراء في هذا السُّوق. وعُكاظ: موضع بين نَخْلَة والطائف إلى الجنوب من مكة.

المكارمَ كابِراً عن كابرٍ، بلِ اختصَّها الله عزَّ وجلَّ بالمكارمِ العُلْيا، وبعُليا المكارم من العظمة والجلالة.

* ولانفصال زيدٍ عنْ أهله قصَّة روتها المصادر الوثيقة، فقالت:

خرجتْ سُعدى بنتُ ثعلبةَ أمُّ زيد بن حارثة ـ وهي امرأةٌ منْ طيىء، تزورُ قومها، وزيدٌ معها، فأغارتْ خيلٌ لبني العَيْن بنِ جسر في الجاهلية، فمرُّوا على أبياتِ بني مَعْن رَهْط أمّ زيد، فاحتملوا زَيداً، وهو يومئذٍ غلام يافع، فوافَوْا به سوقَ عُكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراهُ منهم حكيم بن حزام بن خُويلد لعمَّته خديجة بنت خويلد بأربعمئةِ درهم، فلمّا تزوَّجها رسولُ الله ﷺ وَهَبَتْهُ له.

* وقد حزنَ على زيدٍ أبوه حارثةُ بنُ شراحيلَ وقومه حزناً شديداً، جعلهم يضربونَ في مناكبِ الأرض بحثاً عن فقيدهم الأثير الغالي، وكان حارثة ينشدُ الشِّعر في التَّفجُّع على ابنه زيد، ويبكي غيبته المجهولة التي لا يُعْرَفُ لها نهاية، ولا يَعْرفُ لابنه فيها مُسْتقراً أو مقاماً.

* وقد روى ابنُ هشام، وأبو عمر القرطبّي، وابنُ الأثير، وابنُ عساكر وغيرهم، أنَّ منْ أشهرِ شِعْرِ التَّفجُّع على زيدٍ، قصيدةُ حارثةَ اللاميّة يبكي فيها، ويتساءل عن مكانِ زيد، وعن بحثه عنه يقول:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدْرِ ما فَعَلْ ... أحيٌّ يُرجى أمْ أتى دونَه الأَجَلْ؟
فـوالله مـا أدري وإنْ كـنـتُ سـائـلاً ... أغالكَ سَهْلُ الأرضِ أمْ غالكَ الجَبلْ؟
فياليتَ شِعْري هل لكَ الدهرُ رجعة ... فحسبي منَ الدُّنيا رجوعك لي بَجَلْ[(١)]
تـذكّـرينـهِ الشَّـمـسُ عندَ طلـوعهَـا ... وتعرضُ ذكراهُ إذا قاربَ الطَّفلْ[(٢)]
وإنْ هَبَّـتِ الأرواحُ هيَّجْـنَ ذِكْـرَهُ ... فيا طول ما حزُني عليه ويا وَجَلْ[(٣)]

---

(١) «بَجَل»: بمعنى حسب.
(٢) «طفَل»: يُقال طفلتِ الشَّمس للغروب: دَنَتْ منه، واسم تلك السَّاعة: الطَّفل. ويُروى هذا الشَّطر على النحو التالي: وتعرض ذكراه إذا غربها أفل.
(٣) «الأرواحُ»: جمع ريح، على غير الأصل. و«الوجل»: الخوف.

سأعمل نصَّ العيسِ في الأرض جَاهداً ولا أسأمُ التَّطواف أو تسأم الإبلْ(١)
حَيَاتـي أو تـأتـي عَلـيَّ منيَّتـي وكـلُّ امرىء فـانٍ وإنْ غَـرَّهُ الأَمَـلْ
سأوصي به قَيْساً وعَمْراً كِلَيهما وأوصي يزيداً ثمَّ منْ بعدهِ جَبَلْ(٢)

* ولما حضرَ موسمُ الحجِّ قدمَ ناسٌ من قومه من كلْبٍ حُجَّاجاً، فرأوا زيدَ بنَ حارثة، فعرفهم، وعرفوه، فأراد أنْ يكفكِفَ دموعَ أبيه وذويه، ويُخفِّف منْ حَرِّ لَهْفَتِهم عليه، ببَعْثِ الطُّمأنينة إلى قلوبهم، وإعلامهم بحياته، وسلامته، وسعادته، حيثُ يُقيم في كنف خير أسرة، وفي رياض أرغدِ مقام، فقال للقوم الذين عرفوه، وعرفهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإنّي أَعْلَمُ أنَّهم قد جزعوا عَليَّ، فقال:

أَحِـنُّ إلـى قـومـي وإنْ كنْـتُ نـائيـاً
فـإنِّـي قطيـنُ البيـتِ عنـدَ المشَـاعـر
فكفُّوا عـنِ الـوجـدِ الـذي قـد شجـاكـم
ولا تُعْمِلـوا فـي الأرضِ نـصَّ الأبـاعـرِ(٣)

---

(١) «سأعمل نصّ العيس»: أي سأستحثُّ النوق على السَّير في الأرض.

(٢) هذه الأسماء في البيت الأخير: قيس، عمرو، يزيد، جَبَلَة، إخوة لزيد ـ رضي الله عنه ـ.

قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ في «الإصابة»: يعني بقيس وعمرو أخويه، وبيزيد أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، وجَبَلَة ولد حارثة الأكبر، وهو أيضاً أخو زيد، كما صرّح به الحافظ بنُ عبد البر في قوله: جَبَلَةُ بنُ حارثة أخو زيد، وكان أكبر منه.

وذكر الإمام الذَّهبي في «السِّيَر» عن أبي إسحاقَ قال: كان جَبَلَـةُ بنُ حارثة في الحيّ فقالوا له: أنتَ أكبرُ أمْ زيد؟ قال: زيدٌ أكبرُ منّي، وأنا وُلدتُ قبله.

وأخرج التِّرمذي ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي عمرو الشَّيباني قال: أخبرني جَبَلَة بن حارثة قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله! ابعثْ معي أخي زيداً. قال: «هو ذا فإنِ انطلقَ لم أمْنَعه» فقال زيدٌ: لا والله! لا أختار عليك أحداً أبداً. قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي. (رواه التِّرمذي برقم ٣٨١٧).

(٣) «الأباعر»: جمع بعير، وهو ما استكمل أربع سنوات من الإبل.

فـإنِّـي بحمـدِ اللهِ فـي خيـرِ أسـرةٍ
كـرام معـدّ كـابـراً بعـدَ كـابـرِ

* فانطلقَ الكلبيُّون إلى قومهم، فأعْلَموا أباه حارثةَ، ووصفوا له موضعه بمكةَ، وعند مَنْ هو، فخرج أبوهُ حارثة، وعمّه كعب ابنا شراحيل لفدائه، وقدما مكةَ، فسألا عنِ النَّبيِّ ﷺ فقيل لهم: هو في المسجد.

فدخلا عليه وسلَّما، فقالا: يا بن عبد المطلب! يا بن هاشم! يا بن سيّد قومه! أنتم أهل حَرَمِ الله وجيرانه، تفكُّون العَاني[1]، وتطعمون الأسير، جئْنَاكَ في ابننا عندك، فامنُنْ علينا، وأَحْسِنْ إلينا في فدائِه، فإنّا سَنَدفَع لك.

قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ هو؟».

قالا: زيد بن حارثة.

فقال ﷺ لهما: «أوَ غيرَ ذلك؟».

قالا: ما هو؟

قال ﷺ: «أدْعُوه فأُخيِّره، فإنِ اختاركم فهو لكم بغيرِ فداء، وإنِ اختارني فواللهِ ما أنا بالذي أختارُ على مَن اختارني أحَداً».

قالا: أحسنتَ يا بنَ الأكرمين! وزدْتَنا على النَّصف.

فدعاهُ النَّبيُّ ﷺ فقال له: «هل تعرفُ هؤلاء؟».

قال زيد: نعم، هذا أبي زيد، وهذا عمّي كعب.

قال النَّبيُّ ﷺ: «فأَنَا مَنْ قد علمتَ، ورأيتَ صُحبتي لكَ، فاخترني أو اخترهما».

قال زيدُ وأنوارُ اليقين تُعَطِّرُ كلامه، وتُزيِّن مشاعره: ما أنا بالذي أختارُ عليكَ أحداً، أنتَ مني بمكانِ الأب والعمّ.

فقال أبوهُ حارثةُ وعمُّه كعب بشيء منَ الاستغرابِ؛ وهما يظنَّان أنْ سيفرح

(١) «العاني»: الأسير.

زيد بعرضهما: ويحكَ يا زيد! أتختارُ العبودية على الحرية، وعلى أبيك، وعمّك، وأهل بيتك؟!

* ولكنَّ زيداً ـ رضي الله عنه ـ يرى من لطائفِ النَّبيِّ ﷺ ما لا يرى أحدٌ غيره، وعاشَ في ظلالِ الأسرة المحمديّة بأرغدِ عيشة وأحلاها، لا بل إنَّ الطُّمأنينة التي استقرّت في أعماقهِ في البيت المحمدّي تعادل نعيمَ الدنيا بأسرها، وهنا أخذ يقولُ ويقينُ الإيمان لا يفارقُ وَعْيَه: نعم، فإنّي رأيتُ منْ هذا الرَّجلِ شيئاً، ما أنا بالذي أختارُ عليه أحداً أبداً.

* ولما رأى ذلك رسولُ الله ﷺ أخرجه إلى الحِجْر[1] فقال: «يا مَنْ حضر! اشهدوا أنّ زيدّ ابني، يرثُني وأرثه». فلمَّا رأى ذلك أبوه وعمّه طابتْ أنفسهُما، فانصرفا وهما بغايةِ السُّرور، فدُعي زيد بن محمد[2].

* ولما جاءَ اللهُ بالإسلام، زوَّجَهُ رسولُ الله ﷺ ابنةَ عمته زينبَ بنتَ جحش بنِ رِيابِ الأسديّة، وأمُّها: أميمةُ بنت عبد المطلب بن هاشم، فطلَّقها زيدٌ بعد ذلك، فتزوَّجها رسولُ الله ﷺ، فتكلَّم المنافقونَ في ذلك، وطعنُوا وقالوا: محمَّد يحرِّمُ نساءَ الولد، وقد تزوّج امرأةَ ابنه زيد، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠][3] وقال الله أيضاً: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] فدُعي يومئذ زيد بن حارثة، ودعي الأدعياء[4] إلى

---

(١) «الحجر»: حِجْر الكعبة، وهو جانب الكعبة من جهة الغَرْب، وهو ما حواه الحطيم.

(٢) انظر: أسد الغابة (٢/١٢٩ و١٣٠) بشيء من التصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/٤٠ ـ ٤٢) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٤ ـ ١٢٦) والإصابة ترجمة زيد ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) اقرأ ذلك بالتفصيل في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٢٧١ ـ ٣١٤) ترجمة أمّ المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ، ففي ذلك كثير من الفوائد إنْ شاءَ الله تعالى.

(٤) «الأدعياء»: جمع دعيّ، وهو الذي يُدعى ابناً، وليس بابن، وهو التَّبنيّ الذي كان في الجاهلية، وأبطله الإسلامُ. قال في اللسانِ: والدَّعيُّ: المنسوبُ إلى غير أبيه، =

آبائهم(١).

* وأخرج ابنُ سَعْدٍ بسنده عن عبد الله بن عمر أنَّه قال في زيد بن حارثة: ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد حتى نزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥](٢).

= والدِّعوة؛ بكسر الدال: ادعاء الولد الدعي غير أبيه، وقال ابنُ شُميل: الدَّعوة بالفتح في الطَّعام، والدِّعوة: بالكسر في النسب. وقال الشاعر:

دعيُّ القوم ينصرُ مدَّعيه ... ليلحقه بذي النَّسب الصَّميم
أبي الإسلام لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميمِ

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٢ و٤٣) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٦).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٤٣) وللحديث أصل في كتب الصَّحيح والسُّنن.
فقد أخرجه الإمام البخاري في التَّفسير برقم (٤٧٨٢) باب: ادعوهم لآبائهم.
ومسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٢٥) باب: فضائل زيد.
والتِّرمذي في موضعين: في التَّفسير برقم (٣٢٠٧) باب: ومن سورة الأحزاب وقال: حسن صحيح، وفي المناقب برقم (٣٨١٦) باب: مناقب زيد.
وانظر تفسير الماورديّ، والقرطبيّ، والبحر المحيط، وابن كثير، والبغويّ، والآلوسيّ، والقاسميّ، وغيرها من أمَّات كتب التَّفسير للآية (٥) من سورة الأحزاب.
ومنَ التَّعليقات المفيدة هنا: أنْ نوردَ كيفَ أبطَلَ الإسلام بدْعَة التَّبنيّ، تلك التي كانت متفشيّة في الجاهلية، ويتخبَّط بها النَّاس في أوهام باطلة.
فقد كانتْ بدعةُ التَّبنيّ منْ أظهر بدع الجاهلية، وتفشَّتْ هذه البدعة حتى أصبحتْ دِيناً مُتوارثاً، لا يمكن تعطيله أو تبديله؛ لأنَّه بزعمهم دين الآباء والأجداد، وهم على آثارهم مقتدون، فقد كانَ العربي في العَصْر الجاهلي، يتبنَّى الرَّجلُ منهم وَلَدَ غيره، فيقول له: أنتَ ابني أرثك وترثني، فيصبحُ بهذه الجملة ولده، وتجري عليه إذ ذاك أحكام النبوّة كلّها: منْ إرثٍ، ونكاحٍ، وطلاقٍ، ومحرماتِ المُصَاهرة، وغير ذلك مما يتعلّق بأحوالِ الابن الحقيقي.
ولحكمة يريدها الله عزَّ وجلَّ، ألْهَم نبيّه محمَّداً ﷺ - قبل البعثة النَّبوية - أنْ يتبنَّى زيد بن حارثة، وأصبح النَّاس منذ ذلك الحين يدعونه زيد بن محمد، حتى نزلَ القُرآن الكريم بتحريم ذلك، فتخلى رسولُ الله ﷺ عن تبنِّيه، وعادَ إلى نسبه إلى أبيه، فأصبح يدعى: زيد بن حارثة بن شراحيل. وانتهى بذلك حكم التَّبنّي؛ =

حِبُّ الحَبِيبِ الأعظـم:

* لقَد صَدَق زيدٌ حيث قال:

فـإنِّـي بحمـدِ اللهِ فـي خيـرِ أسـرةٍ
كـرام معـدٍّ كـابـراً بَعْـدَ كـابـرِ

* وأستطيعُ أنْ أقولَ: إنَّ فراسة زيد بن حارثة هي نوعٌ منْ وحي الإلهام، وهي نفحةٌ كريمةٌ منَ نَفَحاتِ الإنعام الإلهيِّ عليه؛ إذ اختارَ رسولَ الله ﷺ على أهْلِه وعشيرته الأقربين، ولم يعدلْ به أحداً منْ خَلْقِ الله، لقد فضَّله على أبيه وعمِّه، وعلى إخوته وبني قومه، فحازَ بذلك فَخْرَ الدُّنيا، وعزَّها، وغنم غُنْماً لا يمكن لنا أنْ نساويه بشيءٍ من الأشياء؛ لأنَّه أغلى منَ الأشياء قاطبة.

* ومنْ هذا المنطلق، بَادَلَه الحبيبُ المصطفى ﷺ حُبّاً من نوع فريد، حتى لقد دَعاهُ المسلمون: حِبّ رسول الله ﷺ - أي: محبوبه - وحَسْبُكَ بهذا اللقب شرفاً وتشريفاً، حيثُ رسول الله ﷺ طيّب لا يحبُّ إلا طيباً؛ لا، بل إنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «أنتَ أخونا ومولانا»[1] ومرَّة أخرى قال له: «يا زيد أنتَ مولاي، ومنّي، وإليَّ، وأحبُّ القوم إليَّ»[2].

* أخرجَ الحاكمُ في «المستدركِ» عن قيسِ بن أبي حازم مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلوموني على حُبِّ زيد»[3].

* ونشأ زيدٌ - رضي الله عنه - وترعرع في رعاية الحبيبِ المُصْطَفى ﷺ، ونشأ على التُّقى والإخلاص والطاعة لله ورسوله ﷺ، فلم يكن يرى من رسول الله ﷺ إلا كلّ خير، وكلّ فضيلة، وعَرَفَ معنى الرِّعاية الحقيقية من أمِّنا خديجة بنتِ خويلد - رضي الله عنها[4] - التي أَوْلَتْه الرِّعاية المناسبة إكراماً

= وبطلتْ تلك البدعة بتشريع ربِّ العَالَمينَ.

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٤).

(٣) المستدرك (٣/ ٢٣٨).

(٤) اقرأ سيرة أمنا خديجة بتوسع في كتابنا: «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث»

للحبيبِ المصطفى ﷺ، ومعرفة لقَدْرِه الشَّريف عليه الصَّلاة والسَّلام.

* وهكذا نسجَ الحبُّ المتبادَل، والتَّقدير السَّليم العميق بين رسولِ الله ﷺ وزيد بن حارثة نَسيجاً لا تَبْلى محاسنه، بل يزدادُ رَوْنقاً، وجمالاً، وكمالاً كلّما تقدمتِ الأيامُ. ولكي يبرهن زيد على محبَّته العُظمى لرسولِ الله ﷺ سارعَ إلى الاستجابةِ لرغبةِ النَّبيِّ ﷺ عندما عرض عليه الزَّواج منْ أمّ أيمنَ - رضي الله عنها -، تلك التي كان لها أضوأ الآثار في تاريخ المرأة المسلمة المستسلمة لأوامرِ الله عزَّ وجلَّ، وقد أكرمها اللهُ سبحانه بوليدٍ حبيبٍ، أريبٍ، نجيب، كريم، لطيف، أضحى منْ فرسان الرسول ﷺ، وكانَ يدعى الحِبَّ بن الحِبّ، ولم يكن هذا المحبوب الكريم سوى أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - الذي قاد جيشاً من جنوده كبار الصحابة، وما ذاكَ إلا لفروسيته وذكائه.

* نعم لقد امتدَّ الحبُّ بين حِبِّ النَّبيِّ ﷺ وبينَ مولاه رسول الله ﷺ إلى أبعدِ مدىً، فهنيئاً لزيدٍ وأسامة وأمّ أيمن، بل هنيئاً لِمَنْ أحبَّه رسول الله ﷺ، وهنيئاً لمنْ أحبَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ وسار على دربه باستقامة واستمرار.

* ويبدو أنَّ هذا الحُبَّ العظيم بين سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ وبين زيد وابنه أسامة قد أثار حقْدَ المُرجفين، فقد كان زيد رجلاً أبيضَ منَ اليمن، وامرأته أمّ أيمن منَ الحبشة وكانت سمراء، وابنهما أسامة أسود اللون، فطَعَنَ بعضُ النَّاس في هذا، وتمادوا بذلك قَصْد المغايظة والإيذاء، وتكلّمُوا بكلام كان يسوءُ رسولَ الله ﷺ بسببِ اختلاف اللون، لذلك سُرَّ رسولُ الله ﷺ بقولِ مُجزِّز المُدلجّي القائف[1]: إنَّ هذه الأقدام بعضها منْ بعض؛ وكان ﷺ لا يظهر السّرور إلا بما هو حقٌّ عنده.

* روتْ أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عليها - هذا فقالت: إنَّ رسول الله

= (ص ١١ - ٧١).

(١) «القَائف»: هو الذي يعرف النَّسب بِفراسته ونظرته إلى أعضاء المولود، وقد اشتهر العربُ بهذا.
والقَائف أيضاً: هو الذي يقفو الأثر ويعرف الاستدلال بالخلقة على النَّسب.

ﷺ دَخلَ عليَّ مَسْروراً تبرقُ أساريرُ وجهه، فقال: «ألم تَرَيْ أنْ مُجزِّزاً نظرَ إلى زيدَ بنِ حارثة، وأسامة بنِ زيد فقال: إنَّ هذه الأقدامَ بعضهُما مِنْ بعض»[1].

* وبلغ مِنْ حُبِّ رسولِ الله ﷺ لزيد أنّه كان يُسوّيه بنفسه فيما يهدى إليه؛ فقد أخرج الحاكم في «المُستدرك» بسنده عن جَبَلَةَ بنِ حارثة أخي زيد بن حارثة قال: أُهدي للنّبيِّ ﷺ حُلّتان فأخذَ إحداهما، وأعطى زيداً الأخرى[2].

في رِحَابِ الرِّسَالةِ والدعوة الإسلامية:

* تبسَّمَ فجرُ يومٍ منْ أيام مكةَ، وأشرقتْ أنوارُ الهداية، وأَذِنَ اللهُ سبحانه بأنْ ينزلَ الأمينُ جبريلُ، على الأمينِ محمّد ﷺ، وأشرقت مكةُ بأنوارِ اليقين، وها هي أنفاسُ التّسبيحِ والتّوحيدِ تنبعثُ من قربِ البيت العتيق، من دارِ خديجة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ التي شرَّفها سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ، وأضحتِ الدّارُ المباركةُ الكريمةُ بمَنْ فيها تلهجُ بذكر الله في الغدوِّ والآصَال، وتُعْلِنُ شهادة التّوحيد، وكان زيد أوّل الموالي الذين أضاء

---

(١) هذا الحديث رواه الجماعة بأسانيدَ صحيحةٍ.
فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٨٢ و٢٢٦).
والبخاريُّ في مواضعَ منْ صحيحهِ: في المناقب برقم (٣٥٥٥) باب: صفة النّبيِّ ﷺ. وفي فضائل الصّحابة برقم (٣٧٣١) باب: مناقب زيد بن حارثة. وفي الفرائض برقم (٦٧٧٠ و٦٧٧١) باب: القائف.
وأخرجه مسلم في الرّضاع برقم (١٤٥٩) باب: العمل بإلحاق القائف الولد.
وأبو داود في الطّلاق برقم (٢٢٦٧) باب: في القافة.
والتّرمذي في الولاء والهِبَة برقم (٢١٣٠) باب: ما جاء في القَافة، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيح.
والنّسائي في الطلاق (٦/ ١٨٤ و١٨٥) باب: القافة.
وابن ماجه في الأحكام برقم (٢٣٤٩) باب: القافة.
وانظر: تهذيب الأسماء واللّغات (١/ ١١٥).

(٢) المستدرك: (٣/ ٢٤١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشّيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذّهبي.

الإيمان قلوبهم، وجاورتْ نَفْسه تقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، فغدا منَ الأوائل في مضمار الفَضَائل، والخيرات الحِسَان.

* آمنَ زيدٌ واطمأن قلبُه بذكْرِ الله، وكان يرى رسول الله ﷺ في داره قانتاً آناءَ الليل ساجداً، وقائماً يناجي ربَّه، حاضر القلْب، ماضي العزيمة، مُتوكّلاً على العزيز الرحيم، لا يخافُ في الله لومة لائم.

* وتمضي الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، ورسولُ الله ﷺ يدعو إلى الإسلامِ والدِّيْنِ الحنيفِ، فيُقبل مَنْ يُقبل، ويُعرضُ مَنْ يعرض، إلى أنْ كان العام العاشر منَ البعثة، وفيه تُوفي أبو طالب وخديجة، وأخذَ المشركونَ ينالون مِنْ رسول الله ﷺ، فخرجَ رسول الله ﷺ إلى الطّائف ومعه مولاه زيد بن حارثة، فأقام مدَّةً يدعو بني ثقيف إلى سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، فلمَ يَجِدْ مِن أشرافهم آذاناً صاغية، ولا قلوباً واعية يفقهون بها أو يعقلون.

* ولم يكتفِ هؤلاء بأنْ أعرضوا وعَمُوا وصمّوا عن الحقِّ، والهدى، والخير، وإنّما أَغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونَه، ويرمونه بالحجارةِ حتى دميتْ عقباه، وزيد بن حارثة يدرأ عنه، ويدفعُ حتى أُصيب في وجههِ بجراح، وما زالوا بهما حتى دخلا بُستاناً لعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة وهما فيه، وعندها رجعَ سفهاء بني ثقيف ومَنْ كان يتبعه.

* وجلسَ رسولُ الله ﷺ وزيدُ بنُ حارثة تحتَ ظلِّ شجرةٍ منْ عِنَبٍ، هنالك توجَّه رسولُ الله ﷺ إلى ربِّه يتضرَّع، ويدعو دعاءً يفيضُ إيماناً، ويَسِيْلُ يقيناً، وينضح بالرِّضا بما ناله في الله عزَّ وجلَّ فقال:

«اللهمَّ إليك أشكو ضَعْفَ قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين! أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربّي؛ إلى مَنْ تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؛ أمْ إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْري؟ إنْ لم يكن بكَ عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهك الذي أشرقَتْ به الظُّلمات، وصَلُحَ عليه أمْرُ الدُّنيا والآخرة، مِنْ أنْ تنزلَ بي غضبك، أو يحلّ عليَّ

سخطك، لك العُتبى[(١)] حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله»[(٢)].

* وبعد ذلك عادَ رسولُ الله ﷺ، ومولاه زيد إلى مكةَ المكرمة، إلى أنْ أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا، وهنالك استقرَّ زيدٌ مع المؤمنين الأبرار؛ ليغدو أحد فرسان مدرسة النُّبوة النُّجباء؛ الذين خلدوا مع الخالدين في دنيا الخلود.

الفَارِسُ الأَميرُ الأَمينُ:

* هو ذا زيد بن حارثة ـ رضوان الله عليه ـ في مدينة رسولِ الله ﷺ، وقد كَتَبَ اللهُ له شرف الهجرة، وقبلها: شرف الصُّحبة، بل والانضواء تحت ظلال البيتِ المحمَّديِّ؛ الذي تكتنفه الرِّعاية الرَّبانية، وتحفُّه العناية الإلهية، وتدخل عليه الملائكة، ويتنزَّل فيه الوحي.

* بعد أن أقامَ المؤمنون الموحِّدون مدَّة في المدينةِ، بعثَ رسولُ الله ﷺ فَارِسَه وأمينَه زيدَ بن حارثة إلى مكةَ ليحضر أهل بيته إلى المدينةِ، فذهب زيدٌ، وجاء بفاطمةَ الزهراءِ، وأمّ كلثوم، وسودة أمّ المؤمنينَ، وجاء بزوجه أمّ أيمن[(٣)]، ثمَّ بعد مدة، أرسله ﷺ إلى مكة فأتى بابنته زينب[(٤)] زوج أبي العاص بن الربيع.

* وفي رحلةِ الفروسية أخذ زيد ـ منذ أنْ عرفَ طعم الحياة ـ يتدربُ على القوَّة، فكان منْ أمْهرِ الرُّماة، بل كان من الرُّماة المذكورين منْ أصحاب النَّبيِّ ﷺ[(٥)].

* وشهدَ زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ بَدراً، وأُحُداً، واستخلفه

---

(١) «العتبى»: الاسترضاء.

(٢) رواه ابن إسحاق في السِّيرة. وانظر البداية والنِّهاية (٣/ ١٣٦) وأنساب الأشراف (١/ ١١٣).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٤١).

(٤) اقرأ سيرة زينب بنت رسول الله ﷺ في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٤٥٥ ـ ٥٠٨) طبعة دار اليمامة بدمشق.

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٢).

رسولُ الله ﷺ على المدينة حينَ خرج إلى غزوة المريسيع[1]، وشهد كذلك غزوة الخندق، وشهد الحُديبية، فكان من أهل بيعة الرضوان، وحظيَ برضوانِ الله عزَّ وجلَّ مع الذين بايعوا تحت الشَّجرة، ثمَّ شهد غزاةَ خيبر، وأبلى في هذه الغزواتِ بلاءً محموداً يشهد به الزمان.

ففي غزاةِ بَدْر، خاضَ زيد غمارها بقوة شكيمة لا تُحَدُّ، ولم يفارقُ ساحةَ القتال أبداً، بل كان بالقُرب منْ رسولِ الله ﷺ، ولما تمَّ النَّصْرُ للمسلمين، أرسل رسولُ الله ﷺ مبشّرين يزفّون بشارة النَّصر لأهل المدينة قبل أنْ يرجعَ إليها، فبعث عبد الله بن رواحة الأنصاريّ لأهل العَالية[2]، بينما أرسل زيد بن حارثة لأهل المدينة راكباً العَضْباء[3] ناقة رسول الله ﷺ، فدخلا وهما يرفعان صوتيهما إعلاماً بنصْرِ المؤمنين، والقتلِ والهزيمةِ والأسْرِ للمشركين. هنالك تلقّاهم أهل المدينة منَ الرِّجال والصِّبيان والولائد بالبِشْر والسرور، وطافوا بالمدينة وضواحيها وهم يُهلِّلون ويُكبِّرون الله على هذا النَّصر العظيم[4].

* وكان زيدٌ ـ رضوان الله عليه ـ هو الأمينُ على سلاحِ رسولِ الله ﷺ؛ فعن جَبَلَةَ بن حارثة أخي زيد قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا لم يغْزُ، لم يُعْطِ سلاحه إلا عليّاً، أو زيداً[5].

كَـانَ يُـؤَمِّـرُهُ عَـلَيْـنَـا:

* إذا كانتْ نشأةُ زيد في بيت النّبوة، فلا جرم أنَّه فارسٌ منْ طرازٍ فريد في عالَم الفروسيّة، ورحاب الجهاد والاستجابة إلى الله عزَّ وجلَّ، والرَّسول ﷺ.

---

(١) أنساب الأشراف (١/ ٣٤٢) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٢٨٥).

(٢) «العالية»: قرى ظاهر المدينة المنوّرة، ومنها قباء.

(٣) «العَضْباء»: وهي القصواء، والجدعاء، ابتاعها أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ من نعم بن الحريش، وأخرى معها بثمانمئة درهم، وهي التي هاجر عليها، وكانت حين قدم المدينة رباعية، وهي التي سُبِقَتْ فشقَّ ذلك على المسلمين (تهذيب الكمال ١/ ٢١١).

(٤) انظر: البداية والنّهاية (٣/ ٣٠٣ و٣٠٤).

(٥) المستدرك (٣/ ٢٤٠ و٢٤١) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٨).

* ولقد حَبَا الله عزَّ وجلَّ زيداً مقدرةً على الصَّبْر في مواطنِ القتال، فكان مَثَلاً شَرُوداً في الشَّجاعة والإقدام، وفَهْم فَنِّ الحرب، وحُسْن التَّدبير لذلك، والإيمان الرَّاسخ بالله عزَّ وجلَّ، وبأنَّ النَّصر منْ عندِ الله؛ لذلك أَوْلاه رسولُ الله ﷺ كلَّ عناية، وكان يعتبره منْ أهلِ البيت، ومن فرسانِ البيت المحمديّ، فكان يرسله هنا وهناك أميراً[1] على السَّرايا، فيذهب ممتثلاً الأمر المحمديّ، ويعود بالظَّفر والنَّصْرِ.

* وهذا سيِّدٌ منْ أسيادِ الفُرسان، وممَّنِ اشتهروا بفنونٍ عدَّة في مجالِ الفروسية، يشهد لزيد بن حارثة بالإمارة والفروسيَّة والتَّقوى، هذا السيِّد الفارس هو سَلَمةُ بن الأكوع يقول:

غزوتُ مع رسولِ الله ﷺ، وغزوتُ مع زيد بنِ حارثة، كان يؤمِّره علينا[2].

---

(١) يقول الهرثميُّ صاحب المأمون: ينبغي لصاحب الحرب أنْ يجعلَ رأسَ مالِهِ في حربِهِ تقوى الله وحْدَه، وكثرةَ ذكره، والاستعانةَ به، والتَّوكل عليه، والفزع إليه، ومساءلته التَّأييد والنَّصر، والسَّلامة والظفر، وأنْ يتركَ البغيَ والحقدَ وينوي العفو، ويترك الانتقام عند الظفر، إلا بما كان فيه رضا، وأنْ يستعملَ العَدْلَ، وحُسْنَ السِّيرة، والتفقّد للصَّغير والكبير، بما فيه مصلحة رعيته، وأنْ يعتمدَ في كلِّ ما يعمل في حروبه، طلب ما عند ربّه عزَّ وجلَّ.
أقولُ: وقد كانتْ هذهِ الصِّفاتُ الكريمةُ موجودةً في شخصيَّة زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ الذي نَشَأ في أعظم مدرسةٍ في دنيا الوجود، فكانَ منْ أعظمِ فرسان رسول الله ﷺ الذين خلدوا في دنيا الخلود.
وكان زيد ـ رضي الله عنه ـ من الفُرسانِ النَّابهين الشّجعان المدبّرين الحكماء البُصَراء في الحروب، ولهذا وقعَ اختيار رسول الله ﷺ على زيد بضْعَ مرات كيما يكون أميراً من أمَراء السَّرايا.
(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبي (المغازي ص ٤٩٤) وللحديث أصل في كتب الحديث، فقد أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٢٧٢) باب: بَعْث النَّبيِّ ﷺ أسامة بن زيد إلى الحُرَقَات من جهينة. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥) بلفظ: غزوتُ معَ رسول الله ﷺ سَبْع غزواتٍ، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات، يؤمّره رسول الله ﷺ علينا. وانظر: المعرفة والتَّاريخ (١/ ٢٩٩) والمستدرك (٣/ ٢٤١).

* وأوردَ ابنُ سَعْد بإسنادٍ عن الواقدي قال:

حدثني محمّد بنُ الحَسن بن أسامة عن أبي الحُويرث قال: خرجَ زيدُ بنُ حارثة أميرَ سَبْع سرايا، أوّلها القردة، فاعترضَ للعير فأصابوها، وأفلتَ أبو سفيان بن حَرْب وأعيان القوم، وأُسِرَ فُرات بن حيَّان العجليّ يومئذ، وقدم بالعير على النّبيّ ﷺ، فخمّسها[1].

* وذكرت المصادرُ بأنواعها من كُتُبِ الطَّبقات والسِّيرة والتّاريخ والمغازي وغيرها، أنَّ زيد بن حارثة قد خرجَ أميراً على بضعِ سرايا، وصنّفها ابنُ سعد على النّحو التّالي قال:

قال محمّد بنُ عمر الواقدي: أوّل سرية خرج فيها زيد؛ سريته إلى القردة؛ ثم سريته إلى الجموم؛ ثمّ سريته إلى العِيص؛ ثم سريته إلى الطَّرف، ثم سريته إلى حِسْمى؛ ثم سريته إلى أمّ قِرفةَ، ثمّ عَقَدَ له رسول الله ﷺ على النّاس في غزوةِ مؤتة، وقدَّمه على الأمراء[2].

زيــدٌ وسَريّــةٌ مُوفَّقــة:

* في هذهِ الفِقْرة سنتحدَّثُ عن إحدى سرايا زيد ـ رضي الله عنه ـ وهي سريته إلى أمّ قرفةَ بوادي القرى[3]، سنة ست من الهجرة، وأمّ قرفة هي فاطمة بنت ربيعة بنِ بدر الفزاري[4]، تلك التي جرى فيها المثل فقيل: أَمْنَع

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٦) وانظر: أنساب الأشراف (١/ ٣٧٤ و٣٧٧ و٣٧٨ و٣٨٠) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٣٥٣ و٣٥٤ و٣٥٥ و٤٨٠) والسِّيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (٢/ ١٥٦ ـ ١٦٠ ـ ١٦٢). وانظر كذلك تاريخ هذه السَّرايا في السِّيرة النبوية لابن هشام، وفي عيون الأثر، والسِّيرة الحلبية، وغيرها من المصادر المتنوعة.

(٣) «وادي القرى»: واد بين الشام والمدينة بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة، وبها سُمّي وادي القرى، وهو على سَبْع ليال من المدينة جهة الشّام (معجم البلدان ٥/ ٣٤٥).

(٤) أنساب الأشراف (١/ ٣٧٨) وقِرفة: بكسر القاف، وسكون الراء، وبالفاء، والتاء المربوطة.

منْ أمِّ قرفة، وذلك لأنَّه كان يُعلَّقُ في بيتِها خمسون سيفاً لخمسينَ رجلاً، كلّهم لها محرم، وقد كنيت بابن لها يُسمى قرفة، وكان لها عشرة بنين، وبنتان.

* كانت أمّ قرفة هذه بناحية وادي القرى، وكانت هذه السَّرية في شهر رمضان سنة ستّ من الهجرة النّبوية المباركة.

* وسببُ هذه السَّرية ـ كما وَرَدَ في السِّيرة ـ أنَّ زيدَ بنَ حارثة ـ رضي الله عنه ـ قد خرجَ إلى الشَّام في تجارةٍ له، ومعه بضائع لأصحاب النَّبيِّ ﷺ، فلمّا كان بوادي القرى، لقيه ناسٌ من فزارةَ من بني بَدْر، فضربوه، وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم، وقدم على رسولِ الله ﷺ فأخبره. وفي روايةٍ أخرى: أنَّ زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ، قد أقسم أن يغزو بني فزارة.

* فرجع وأخبرَ رسولَ الله ﷺ، فبعثه إليهم في جيشٍ وقال لهم: «اكمنوا النّهار، وسيروا الليل» فكمن زيدٌ وأصحابه بالنَّهار، وساروا بالليلِ، ومعهم دليلٌ منْ فزارةَ، فعلمت بهم بنو فزارة، فجعلوا لهم ناظوراً، فحينَ يصبحون، يصعدُ على جَبَلٍ مُشْرفٍ فينظر وَجْه الطَّريق الذي يرون أنّهم يُؤْتَوْن منه، فيبصرُ مسافةَ يوم فأكثر فيقول: اسرحوا، اسرحوا، لا بأسَ عليهم؛ فإذا كان العشاء أشرفَ على ذلك الجَبل، فينظر مسيرة ليلة فيقول: ناموا لا بأس عليكم.

* ولما كان الصَّحابة الكرامُ بإمارة زيد على نحو ليلة، أخطأ دليلهم الطَّريق، فسار في طريقٍ آخر حتى أمسوا، وهم على خطأ، فعاينوا الحاضرين من بني فزارة، فحمدوا خطأهم؛ ثمّ صبَّحهم زيدٌ وأصحابه، وكبَّروا وأحاطوا بِمَنْ حضرَ منْ بني فزارة، فقتلوهم، وأخذوا أمّ قرفة وكانت ملكة رئيسة، وكانت ذات شرف في قومها، وأسَر سلمةُ بن الأكوع ابنتَها جارية بنت مالك الفزاريّة، وأُسِرت أمّ قرفة وقُتِلت؛ لأنَّها سبَّتْ رسولَ الله ﷺ، وقيل: لأنّها جهَّزَتْ ثلاثينَ راكباً منْ ولدها وولد ولدها، وقالت: اغزُوا المدينة، واقتلوا محمّداً.

* وقدم زيدُ بنُ حارثة ـ رضي الله عنه ـ من سرية أمّ قرفة فائزاً منصوراً، فقرعَ بابَ رسولِ الله ﷺ ـ وكان في بيتِ أمّنا عائشة ـ فقام وهو يجرُّ ثوبه

الشَّريف حتى اعتنقه وقبَّله، ثمّ سأله، فأخبره بما ظفره الله عزَّ وجلَّ، وبما فتح عليه من هذه السَّرية[١].

* وقد امتدحَ رسولُ الله ﷺ إمرة زيد، فيما أخرجه الحاكم في مستدركه عن جُبير بن مطعم عنه ﷺ قال: «خيرُ أمراء السَّرايا زيد بن حارثة، أقسمهم بالسَّوية، وأعدلهم في الرَّعية»[٢].

* وقال الإمامُ الشَّعبيُ ـ رحمه الله ـ: ما بَعَثَ رسولُ الله ﷺ سرية قطّ وفيهم زيد بن حارثة إلا أمَّره عليهم[٣].

* وتابع زيد ـ رضوان الله عليه ـ مشاهده في صحبة رسولِ الله ﷺ، حتى كانت سريةُ مؤتة، وهنالك لقي الله عزَّ وجلَّ شهيداً، كما سنرى في الفِقْرة التالية.

«دخَل الجَنَّة وهوَ يَسْعَى»:

* في شهرِ جمادى الأولى من السَّنة الثَّامنة للهجرة، جهَّزَ رسولُ الله ﷺ جَيْشاً قوامه ثلاثة آلاف منَ المهاجرين والأنصار، ليخرجوا إلى مؤتة[٤]،

---

(١) عن السِّيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (٢/ ١٦٢ و١٦٣) بشيء من التّصرف. وانظر السِّير الكبير (٤/ ١٤١٨ و١٤١٩) وأنساب الأشراف (١/ ٣٧٨) وعيون الأثر (٢/ ١٥٥ و١٥٦) وغيرها.

(٢) المستدرك (٣/ ٢٣٨) وسكت عنه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: في سنده الواقدي. وانظر السِّير الكبير (١/ ٦٨ و٦٩) وكنز العمال (١١/ ٦٨٣) ودرر السَّحابة (ص ٣٦٤).

(٣) المستدرك (٣/ ٢٣٨) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: هو في البخاري في الثلاثيات، ولفظه: وغزوت مع زيد، وكان يُؤمَّر علينا.

(٤) «مؤتة»: بلدة تقع في الأردنِ الآن، وموقعها بالقرب منَ الكرك، من جهةِ الجنوب، وهي على شِمال السَّائر من معانَ إلى عَمانَ، وقرب مؤتة مكان يُدعى «المزار» وفيه قبر جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وفي هذا الموقع كانت معركة مؤتة، وبها الآن جامعة باسم البلدة.

وقد سجَّل العلامةُ ابن كثير إعجابه بنصر المسلمين في «مؤتة» قائلاً: «هذا عظيم =

وكان فيهم خالد بن الوليد(١)، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ وقال: «إن قُتِلَ زيد، فجعفر، وإنْ قُتِل جعفر، فعبدُ الله بن رواحة»(٢).

ثم عَقَدَ لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم بأنْ يغزو باسمِ الله، ويقاتلوا عدوَّ الله، كما أوصاهم بالرّأفة بالنِّساء والولدان والشُّيوخ، وألا يقطعوا شَجَراً، أو يهدموا بِناءً.

* ومضى الجيشُ ورايةُ رسول الله ﷺ ترفرفُ فوقَ رأسِ بطلنا زيد ـ رضوان الله عليه ـ ودعواتُ المسلمين ترنُّ في أسماعِ الغازين تقول: صحبكم الله، ودفعَ عنكم، وردّكم إلينا سَالمينَ غانمين.

* ومن ثَمَّ سارَ الجيشُ حتى نزلَ أرضَ معان منْ أرضِ الشَّام، وبلغَ المسلمين أنَّ هِرقلَ قد نزل مآبَ في أرضِ الشَّام في مئة ألف من الرُّوم، وانضمَّ إليهم مئة ألف أخرى من متنصِّرة العربِ من: لخم، وجذام، والقين، وبُهْراء، وبَلي.

= جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّين: أحدهما ـ وهو الفئةُ التي تُقاتل في سبيل الله ـ عدَّتها ثلاثة آلاف، وأخرى: كافرة، وعدَّتها مئتا ألف مقاتل: من الروم مئة ألف، ومن نصارى العرب مئة ألف، يتبارزون، ويتصاولون، ثم مع هذا كلّه لا يُقتَل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتِل من المشركين خَلْقٌ كثير... هذا خالدٌ وحده يقول: لقد اندقَّتْ في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية. فماذا ترى قد قَتَل بهذه الأسياف كلها؟! دَعْ غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن. انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).

(١) أودُّ التَّنبيه هنا إلى فكرة مهمّة، وهي عدم تولية رسولِ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ سرية مؤتة، رغم ما عُرِف عنه منَ الشَّجاعة، والخبرة الحربية الواسعة، بينما أسندها إلى زيد بن حارثة ـ رضوان الله عليه ـ. والسَّببُ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ كان في سنة ثمان حديثَ عَهْدٍ بالإسلام، أمّا زيد وصحبه، فقد كانت لهم سابقة وأولية في الإسلام، فهم من ثلة السَّابقين الأوّلين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

(٢) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه، كتاب المغازي برقم (٤٢٦٠ و٤٢٦١) باب: غزوة مؤتة من أرض الشام. وانظر: السير الكبير (٥/ ٢١١١).

* وعقدَ المسلمون بقيادة فارسهم زيد بن حارثة مجلساً للشُّورى، واستقرَّ رأيهم في نهايته بأنْ يقاتلوا هؤلاء الفجّار؛ حيث إنَّهم يقاتلون بهذا الدِّينِ الحنيفِ الذي أكرمهم اللهُ به، وهم إنّما خرجوا يطلبون الشَّهادة، بل إحدى الحُسنَيين: إمّا النّصر، أو الشَّهادة.

* وفي مؤتة التقى الفريقان، وهبَّتْ ريحُ الإيمان، ومسحت وجوهَ المؤمنين، فثبتوا أمام هجماتِ مئتي ألف مقاتل. وأخذَ الرَّاية البيضاءَ زيد بن حارثة حِبُّ الحبيب ﷺ، وجَعَل يقاتلُ بضراوةٍ وبسالةٍ لا يوجد لها نظير في دنيا الفروسية إلا في أمثاله منْ فرسانِ رسولِ الله ﷺ؛ الذين صُنِعوا على عينه، ولم يزلْ يُقاتل ويقاتل حتى شَاطَ في رماح القوم، وخرَّ صريعاً بعد أنْ أصاب مَقْتَله رجلٌ من بَليّ يُدعى مالك بن رافلة[1]، ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر فقُتل، ثمَّ أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قُتل.

* وبلغَ رسولَ الله ﷺ استشهادُ زيدٍ، فدعا له وقال: «استغفروا لأخيكم قد دَخَل الجنَّة وهو يسعى»[2].

* أخرجَ ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بإسنادهِ عن أبي مَيْسرةَ عمرو بن شرحبيل الهمداني قال: لما بلغَ رسولَ الله ﷺ قَتْلُ زيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، قام نبيُّ الله ﷺ، فذكر شأنهم فبدأ بزيدٍ فقال: «اللهم اغفر لزيدٍ، اللهم اغفر لزيدٍ، اللهم اغفر لزيدٍ، اللهم اغفر لجعفر، ولعبد الله ابن رواحة»[3].

* وأتى رسولَ الله ﷺ مصابُ زيدٍ وأصحابه، فأتى منزله بعد ذلك، فلقيته بنت زيد، فأجهشتْ بالبُكاء في وجهه الشَّريف، فلمَّا رآها رسول الله ﷺ بكى

---

(١) انظر: الاشتقاق لابن دريد (ص ٥٥١). وقال أبو هلال العسكريّ: وقتل قطبة بن قتادة مالك بن رافلة وقال:

طعنتُ ابنَ رافلةَ الأراش برمحٍ مضى فيه ثمّ انحطمْ
ضربتُ على جيده ضربةً فمالَ كما مال غصنُ السَّلَمْ

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٢٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٦).

حتى انتحب، فقال له سعد بنُ عبادة الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ: ما هذا يا رسول الله؟!.

فقال: «هذا شوقُ الحبيبِ إلى الحبيبِ»(١).

* قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في «أسدِ الغَابة»: لما أتى رسولَ الله ﷺ خبرُ قَتْلِ جعفر وزيد بكى وقال: «أخواي ومؤنساي ومُحدِّثاي» وشهدَ لهما رسولُ الله ﷺ بالشَّهادة(٢).

* وذكرتْ أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: لو أنَّ زيداً كان حيّاً لاستخلفه رسولُ الله ﷺ(٣).

* وكان زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ ابن خمس وخمسين سنة لما اتَّخذه اللهُ شهيداً.

* وظلَّ زيدٌ وأولادُه وذرّيته رَمْزَ الحبِّ والمحبّة بين المسلمين. ومنَ الجدير بالذِّكر أنْ نشيرَ إلى أنَّ زيداً قد حَدَّثَ عن النَّبيِّ قال: «بشِّر المشائين في الظَّلام إلى المساجد بالنُّور التَّام يومَ القيامة»(٤).

* رضي الله عن زيدٍ، وزاده مِنْ عطائِه وكرمه، فقد كان نِعْم الصحابي الفارس، والجريء المقدام، صاحب المشاهد المرموقة، والآيبة بالظفر والنصر والنجاح.

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٧) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣١) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٢٢٩ و٢٣٠).

(٢) أسد الغابة (٢/ ١٣٢) ترجمة رقم (١٨٢٩).

(٣) سير أعلام النّبلاء (١/ ٢٢٨). والحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٥) وتعقَّبه الذهبي بقوله: قلت: سهل بن عمار العتكي، قال الحاكمُ في تاريخه: كذاب، وهنا يُصحِّح له، فأين الدِّيْن؟!

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٢٣).

(٦)

زَيْدُ بنُ الخطَّاب

ـ رضي الله عنه ـ

قال عنه أخوه عمر: ما هَبَّتِ الصَّبا إلا وأنا أجدُ منها ريح زَيد.

الفارس المُجَاهِدُ التَّقِيُّ:

* أسلمَ فارسُنا منذ أنْ كانَ الإسلام غضّاً طريّاً، وقبل أنْ يفوحَ بأريجهِ العَطِر فيعمَّ الدُّنيا بأسْرها.

* عرفَ الإسلامُ قَلْبَه منْ قبل أنْ يسلمَ أخوه أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ وكان أَسَنَّ منْ عمر، فهو منَ الطَّليعةِ التي تألَّقتْ في سماءِ الأوَّلين، وما أدراكَ ما ثوابُ الأوّلين السَّابقين إلى الحق والهداية؟!.

* وهذا الفارسُ التّقيُّ حَبَاه الله عزَّ وجلَّ بَسْطَةً في الجسمِ، فكان رجلاً طويلاً بائنَ الطُّول، أسمرَ اللون، ذا هيبة وجلال، تعلو وجهه الأسمر علائمُ الحزمِ والعزيمة، والإخلاص، بينما تتوضَّعُ في أعماقهِ علائم الصِّدق والوفاء.

* أظنّكم عرفتم فارسَ بني عدي، وليثَ المجاهد، وعَلمَ الفرسان! إنَّه ليس نكرة في عالَم الفروسيّة، فلقد شهدتْ له ساحاتُ الفروسية بألوانِ الشجاعة والبطولة؛ التي جعلته أحدَ أعلياءِ الأعلام في عالَم الشَّجاعة والبطولة.

* إنَّ بطلنا اليوم هو نفسه الذي شاركَ في القضاءِ على جرثومة الرِّدة الممثلة بزعيمها مُسيلمة الكذَّاب، وحظي يومها بحليةِ الشَّهادة؛ التي طوّقه الله عزَّ وجلَّ بها مع ثلَّةٍ منْ فرسانِ المدرسةِ المحمّدية؛ الذين صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، فحملوا رايات الجهاد بإقدامٍ مُنقطع النظير، وانطلقوا في معارج الدعوة وقتال الضالين، فكان الظفر حليفهم، والنجاح أليفهم.

* إذاً فليكنْ لقاؤُنا السَّعيد الميمون المبارك مع زَيْدِ بنِ الخطاب بنِ نفيل أبي عبد الرّحمن القُرشيّ العَدَويّ السَّيِّد الشَّهيد المجاهد التَّقي[1]

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٣/٣٧٦ ـ ٣٧٨) ونسبُ قريش (ص ٣٤٧ و٣٤٨) وحليةُ الأولياء (١/٣٦٧) والاستيعابُ (١/٥٢٢ ـ ٥٢٥) وتهذيبُ الأسماء واللّغات (١/٢٠٣ و٢٠٤) والبدايةُ والنهاية (٦/٣٣٦) والعبر (١/١٤) وسير أعلام النّبلاء (١/٢٩٧ ـ=

ـ رضي الله عنه ـ.

* وفي رحلاتِ الهجرة إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، صحبَ زيدُ بنُ الخطاب ثلّةً منَ المؤمنين فيهم أخوه سيّدنا عمر بن الخطاب؛ الذي أعْلَنَ هجرته أمام الملأ منْ قريش بعد أنْ طافَ بالبيتِ العتيق سَبْعاً، ثمَّ أتى المقام، فصلّى ركعتين، ثمَّ وَقَفَ على الحِلَقِ واحدةً واحدة، فقال لهم: شاهتِ الوجوهُ، لا يرغم الله إلا هذه المعَاطِس[1]، مَنْ أراد أنْ تثكله أمّه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحدٌ إلا قومٌ منَ المستضعفينَ علّمهم ما أرشدهم إليه، ثمّ مضى لوجهه، وقد صحبه في هجرته بعضُ أهله وقومه، كما صحبه بعضُ المستضعفين ليحتموا به[2].

* وكان في ركب عمر ـ رضي الله عنه ـ نحو من عشرين راكباً: منهم أخوه

= ٢٩٩) والعقدُ الثّمين (٤/ ٤٧٣ ـ ٤٧٦) والإصابة (١/ ٥٤٧ و٥٤٨) وحياة الصَّحابة (انظر: الفهارس ٣/ ٧٥٤) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

(١) «المعاطس»: الأنوف.

(٢) قد يخطر ببال المسلم أن يُقارن بين هجرة عمر بن الخطاب وهجرة النبي ﷺ، ويتساءل: لماذا هاجر عمر علانية، مُتحدّياً المشركين دون أن خوف أو وَجَل، على حين هاجر رسول الله ﷺ مُستخفياً مُحتاطاً لنفسه؟ أيكون عمر بن الخطاب أشدَّ جرأة من النبي ﷺ؟!
والجواب: إنَّ عمر، أو أي مسلم آخر غير رسول الله ﷺ يُعتبر تصرُّفُه تصرُّفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخيّر من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له، وما يتّفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى.
أمّا رسولُ الله ﷺ فهو مُشرِّع، أي: إنَّ جميعَ تصرُّفاته المتعلقة بالدين تُعتبر تشريعاً لنا؛ ولذلك كانت سُنّته هي المصدر الثاني من مصادر التشريع.
فلو أنّه فَعَل كما فَعَل عمر، لحسبَ الناسُ أنَّ هذا هو الواجب، أو أنّه لا يجوز أَخْذ الحيطة، والحذر، والتخفي عند الخوف. . . مع أن الله عز جل أقام شريعته في هذه الدنيا على مُقتضى الأسباب ومُسبّباتها؛ لأجل ذلك استعمل الرّسول الله ﷺ كلَّ الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي إليه العقل البشري في مثل هذا العمل. إذاً كلُّ ما فَعَله الرسولُ الله ﷺ من تلك الاحتياطات وظيفة تشريعية قام بها. انظر: فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ١٤٤ ـ ١٤٥).

زيد، وعيّاش بن أبي ربيعة، وخُنَيس بن حذافة السَّهمّي ـ صهر عمر على ابنته حَفْصَةَ ـ وسعيد بن زيد بن عمرو زوج أخته فاطمة بنت الخطّاب، وبنو البُكَير الأربعة: إياس، وعاقل، وعامر، وخالد، وغيرهم، وانطلقوا إلى المدينة المنورة تصحبهم رعاية الله عزَّ وجلَّ.

* ولما وصل المهاجرين المدينةَ، نزلوا على رِفاعة بن عبد المنذر في قباء، وآخى رسولُ الله ﷺ بين زيد ومَعْن بن عديّ الأنصاريّ العَجْلاني[1]، وقُتِلا جميعاً باليَمامة شهيدَيْن.

أُريـدُ منَ الشَّهـادَةِ ما تُريـدُ:

* لما أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لعبادهِ المؤمنين بالقتالِ، كان زيد منْ أوائلِ الفُرسان الذين استجابوا لداعي الجهاد، وسارعوا إلى مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ يبتغون منْهُ مغفرةً وأجراً عظيماً، مدفوعين بحبِّ العقيدة، وجميل التوكل على الله تعالى.

* ولما كانت غزوةُ بَدْر، كان زيد بن الخطّاب ـ رضوان الله عليه ـ من جُنُود المدرسةِ النَّبويّة؛ الذين خرجوا لتكون كلمةُ اللهِ هي العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى، وانتهتِ المعركةُ بنصرِ المسلمين الموحِّدين، وكُتِبَ زيد بن

---

(١) معنُ بن عديّ بن الجدّ الأنصاريّ، العجلانيّ، العقبيّ، البدريّ. من سَادة الأنصار، كان يكتبُ بالعربية قبل الإسلام، وكانتِ الكتابةُ في العرب قليلة، شهدَ معنٌ بدراً، وأُحُداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسولِ الله ﷺ.
روى ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ معنَ بنَ عدي أحد الرّجلين اللذين لقيا أبا بكر وعمر، وهما يريدان سقيفةَ بني ساعدة، فقالا لأبي بكر وعمر: لا عليكم ألا تقربوهم، واقضوا أمركم.
وقال عروةُ بنُ الزّبير: بلغنا أنَّ النّاس بكوا على رسولِ الله ﷺ وقالوا: ليتنا متنا قبله، نخشى أنْ نُفتنَ بعده. فقال معنٌ: إنّي واللهِ ما أحبُّ أنّي مِتُّ قبله حتى أصدقه ميتاً كما صدقته حياً، استُشْهِد مَعْنٌ يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة ـ رضي الله عنه ـ.
(طبقات ابن سعد ٣/ ٤٦٥) و(سير أعلام النبلاء ١/ ٣٢٠ و٣٢١).

الخطاب في قائمة السُّعداء؛ الذين وَجَبَتْ لهم الجنَّة كما جاء في الصَّحيح من الأحاديث.

* وتدقُّ غزوة أُحُدٍ أبوابها، فيخرج زيد في معيَّة رسولِ الله ﷺ، وكانَ في طليعة الفُرسان الذينَ نظروا إلى الدنيا نظرة احتقارٍ، فما عند الله خيرٌ وأبقى، وهل هناك وسامٌ أعظم وأجلّ منْ وسام الشهادة؟!

* وهنالك قربَ سَفْحِ جبل أُحُد، ذلك الجبل الذي يحبُّ رسولَ الله ﷺ ويحبُّه رسول الله ﷺ، وَقَفَ زيد ليعطي مثلاً شروداً في فدائية التَّضحية، وكمال الشَّجاعة، وجمال الإيثار، لا، بل وقف ليحقِّقَ مرضاة الله تعالى قولاً وعَمَلاً، فقد تقدَّم منه أخوه عمر ـ رضي الله عنه ـ، وهَمَسَ في أذنه همسةً دافئة فيها معاني الأخوَّة، وقال له: يا زيد! خُذْ درعي كيما تقي بها جسمك من ألسنةِ الرِّماح، وأسنَّة البِيْض[1].

* وفي همسةٍ مشحونةٍ برحيق الإيمان، قال زيدٌ ـ وقد علتْ وجهه الأسمر ابتسامة لطيفة ـ: يا عمر! إنّي أريدُ منَ الشَّهادة ما تريد. وتركَ زيد وعمر الدِّرع، ومضيا يخوضان غمارَ المعركة الفاصلة، وكلُّ واحدٍ منهما يبتغي الشَّهادةَ.

* وتابعَ زيد ـ رضي الله عنه ـ حضورَ المشاهدِ، فشهد غزوة الخندق، كما شهد بيعة الرِّضوان بالحديبية، وبايع رسولَ الله ﷺ يومها على الموتِ، وحظي بمرضاةِ الله مع الذين بايعوا تحت الشَّجرة، وشهد بعد ذلك المشاهد كلّها معَ رسولِ الله ﷺ، وفي كلِّ موقعةٍ كان له مقامٌ محمودٌ، وغناء مشكور، وبلاء مبارك، وحظّ وافر من الجرأة والإقدام.

السَّبَّـاق إلـى الحُسْنـى:

* عندما بويعَ أبو بكرالصِّدِّيق ـ عليه سحائب الرضوان ـ بالخلافةِ، اشرأبتْ أعناقُ مَنْ سوَّلَتْ لهم أنفسهُم أمْراً ذميماً، أرادوا بهذا الأمر المذموم أنْ يُلقوا عن عواتقهم سلطانَ المدينةِ ـ كما زعموا ـ وأنْ يعودوا إلى ما كانوا

---

(١) «البيض»: جمع الأبيض، وهو السَّيف.

عليه مِنْ سَفاهةٍ وضَلالةٍ قبل مَبْعَثِ محمّد رسول الله ﷺ؛ لذا فقد ارتدَّ بعضُ العرب في القبائلِ، ونَجَمَ النِّفَاق في الآفاق، وتطاولت اليهودية والنَّصرانيةُ، وكثُرَ أعداء المسلمين، وأصبحَ المسلمون لِفَقْدِ نبيِّهم كالغَنَم الشاردة في الليلة المطيرة الشَّاتية.

* وفي بقاعٍ مختلفة ظهر مدَّعُو النُّبوَّة، وزعموا أنَّهم يُوحى إليهم كما كان يُوحى لمحمد رسول الله ﷺ، فظهر منهم الأسود العنسي ومُسيلمة بن حبيب الكذَّاب وغيرهما، واستغلظَ أمْرُ مُسيلمة، وَعَتَا عتوّاً كبيراً، هنالك وقفَ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ وقفته المشهورة الحازمة، وقرَّر القضاءَ على جرثومةِ الرِّدةِ في مهدها، فلقد استغلظَ أمْر مُسيلمة الكذَّاب باليمامة، ولا بُدَّ منَ التهيُّؤ والتَّضحية للقضاء عليه.

* وسارتِ الجيوشُ المسلمةُ بقيادةِ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمامة، وكان معه في هذا الجيش فارسُ حلقتنا زيدُ بنُ الخطاب، حيث كان على رأسِ المهاجرين يحمل رايتهم بيده.

* وفي اليمامةِ استعرَ القتالُ، واشتدَّ البأس، وحمي وطيسُ المعركة، وسقطَ عددٌ منْ فرسانِ الإسلام شهداءَ بعد أنْ أبلوا بلاءً حسناً، ومنهم ثابتُ بن قيس خطيبُ الأنصار؛ الذي قال يخاطبُ المسلمين: بئسما عوَّدتم أنفسكم يا معشرَ المسلمين! اللهم إنِّي أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء ـ وأشار إلى أهل اليمامة ـ وأبرأُ إليك مما يصنعُ هؤلاء ـ وأشار إلى المسلمين ـ ثمَّ اندفع إلى ساحِ الوطيس يقاتلُ ويجاهدُ، حتى خلصتْ إليه الجراحُ منْ كلِّ جانب فمات وقد رُزقَ الشَّهادة، وكُتِبَ مع الأحياء عند ربِّهم.

* وفي غمرة تلك المعركة، واشتداد أوارها[1]، قام زيد بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ بمهمَّةٍ عظيمة كان لها أعظمَ الأثر وأبقاه في شَلِّ حركاتِ المرتدين، إذْ قُتِلَ الخائنُ المخادع المعروفُ بنَهار الرَّجَّال[2] الذي خَرجَ في

---

(١) «أوارها» لهيبها وحرّها.

(٢) «نهار الرّجّال»: اسمهُ الرَّجّال بن عنفوة، وكان الرَّجّال هذا قد أسلمَ، وقرأ البقرة ثمَّ=

طليعةِ بني حنيفة، فلقيه زيد بن الخطّاب فأرداه قتيلاً، وأزال بقتله منَ الوجود روحَ الإثم والفسوق والعصيان والتمرد على الله ورسوله.

* وفي تلكَ السَّاعاتِ الحاسمةِ، راحَ قومٌ يتحدثون إلى الفارسِ الجريء زيدِ بنِ الخطاب، ويسألونه ما يصنعون وما يفعلون؟ ولكنَّ الفارسَ التَّقيَّ النَّقي كان منَ الذين يوَدُّون الشَّهادة والاستشهاد في سبيلِ الله، فما كان جوابه إلا أن قال: لا والله! لا أتكلّمُ اليومَ حتى نهزمهم. أو ألقى الله عزَّ وجلَّ فأكلمه بحجّتي، غضُّوا أبصاركم، وعضُّوا على أضراسكم أيّها النَّاس! واضربوا في عدوِّكم، وامضوا قُدُماً[1].

= رجع وارتد، فصدّق مسيلمة، وشهدَ له بالرِّسالة، فحصل به فتنةٌ عظيمةٌ، فكانتْ نهايته على يَدِ زيدٍ ـ رضي الله عنه ـ.

هذا؛ وكان نهار الرَّجّال قد هاجرَ إلى رسول الله ﷺ بالمدينةِ، وقرأ القُرآن، وفَقِه الدِّين، وعرفَ تعاليم الإسلام، وكان ذكياً، ذا بصيرة، أرسلهُ رسولُ الله ﷺ مُعلِّماً لأهل اليمامةِ يفقههم في الدِّين، ويردُّ مَن اتبع منهم مُسيلمة الكذّاب، ويشدُّ منْ عزائمِ المسلمين، ويشغب معهم على المتنبىء الكاذب.

ولكنَّ نهاراً ـ قبحه الله ـ كانَ أعظمَ فتنةً على بني حنيفة منْ مُسيلمة نفسه، فهو لم يلبثْ حتى رأى سوادَ النَّاس يتبعه أنْ أقرَّ بنبوته، وأنْ شهد بأنَّ محمّداً ﷺ يقول: إنَّ مسيلمة قد أُشْرِكَ في الرِّسالة معه، وماذا عسى أن يقولَ أهل اليمامةَ عن هذا؟!.

لقد شهدَ شاهدٌ من أهل العِلْم ـ كما زعموا ـ لمسيلمة، وهذا الشَّاهد يتلو عليهم القُرآن الذي تعلّمه في المدينة، ويقصُّ عليهم تعاليمه، ويفقههم في الدِّين، وها هو يشهدُ لمسيلمة بالنبوة! لذلك أقبلَ النَّاس أفواجاً يؤمنون برسالةِ مسيلمة المزعومة، فجعل الله نهايةَ الرَّجَّال على يدِ زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفي هذا دليلٌ من دلائل النبوة، فقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جَلستُ مع رسولِ الله ﷺ في رهْط، ومعنا الرَّجَّال بن عنفوة فقال: «إنَّ فيكم رجلاً ضرسه في النَّار مثل أحد» فهلك القومُ، وبقيتُ أنا والرَّجال، فكنتُ متخوفاً لها، حتى خرج الرَّجَّال مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة، وقُتِل يوم اليمامة، قتله زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ (الاستيعاب ١/ ٥٢٤).

(١) لقد كان شعار زيد: الثبات حتى النصر أو الممات. وهذه الصفة مميزة للصحابي زيد بن الخطاب وغيره من فرسان النبوة، وهو موقف رائع؛ لأنه من الصعب على المرء أن يسيطر على نفسه، ويملك زمامها وقت اشتداد أهوال القتال.

* واندفعَ زيد في صَدْرِ القوم الكافرين يقاتلُ، ويَقْتُل، وجنده منْ ورائه، وهو يحملُ رايةَ المهاجرين، وظلَّ يقاتلُ حتى لقَي الله عزَّ وجلَّ شهيداً، وكُتِبَ في سجلِّ المجاهدينَ الخالدين السَّابقين إلى الحسنى، إلى الجنَّة حيثُ الحياة الحقيقية عند ربّهم يُرزقون، فرحينَ بما آتاهم الله مِنْ فضله، وبذلك فليفرح المؤمنون.

وكان استشهاد زيد بن الخطّاب في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة من الهجرة النبويّة المباركة[١].

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: واستشهد يومئذ ـ يوم اليمامة ـ منْ أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم نحو من ستمئة[٢].

وَمَاذا بَعْـدُ يا زَيْـد؟

* في سيرة زيد بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ وقفَاتٌ نديّة شذية تشيرُ إلى عظمِة هذه الرَّجل ومكانه العالي بين فُرسان الإسلام، ومكانته الأثيرة في نفوسِ المؤمنين وخاصّةً في نَفْسِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

* وقد سجّل لنا تاريخ زيد ومضات لامعة رائعة من مناقبه؛ التي صاحبتْ سيرته حتى بعد أنْ نالَ وِسام الشَّهادة، وسقي رحيق الاستشهاد، فلقد ظلَّ خياله ماثلاً في قَلْبِ عمر الذي حَزِنَ عليه حُزناً شديداً، فكان يقول: سَبَقَني إلى الحُسنَيَيْن: أَسْلَمَ قَبْلي، واستشهد قبلي. وكان يقول: ما هبَّتِ الصَّبا إلا وأنا أجدُ منها رِيْحَ زيد[٣].

* وعمر ـ رضوان الله عليه ـ العبقريُّ الفذُّ، له لقاءٌ طريفٌ مع ابنه عبد الله

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٨).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٤) والإصابة (١/ ٥٤٨).
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٤) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٨).

ابن عمر[١] الذي عاد منَ اليمامة بعد أنْ أبلى هنالك أحسنَ البلاء، فلمّا لقيه أبوه عمر قال له: ما جاءَ بك، وقد هلك زيدٌ، ألا وَارَيْتَ وجهك عني؟!.

فأجاب عبدُ الله إجابةَ العابدِ العالمِ المجاهدِ: قد حرصتُ على ذلك أنْ يكونَ، ولكنَّ نفسي تأخَّرَتْ، فأكرمه اللهُ بالشَّهادة. وفي رواية أنّه قال: سألَ الله الشهادة فأعطيها، وجهدتُ أنْ تُساقَ إليَّ فلم أُعْطها.

* ولم ينْسَ عمر أخاه زيداً، ولم يبرحْ مِنْ خياله يوماً واحداً، وإنَّما كانت ذكراه تروحُ وتغدو عليه كلَّ حين. ومنَ الممتع في سِيَرَ هؤلاء الأعلام تلك المواقف العظيمة التي حفلت بها كُتب المصادر والتّراث تحكي عظمة هؤلاء الرِّجال، وتقصُّ عظمةَ الإسلام الحنيفِ. وعلى الرغم من شدَّة حُزْن عمر على زيد ـ رضي الله عنهما ـ لم يستطعْ عمر أنْ يفعلَ شيئاً، وقد التقى قاتلَ أخاه واسمه: أبو مريم الحنفيّ.

* ذكر ابنُ سعد هذا في طبقاتِهِ بسنده إلى كثير بن عبد الله المُزَنيّ عن أبيه عن جدّه قال: سَمعتُ عمر بنَ الخطاب يقولُ لأبي مريم الحنفي: أَقَتَلْتَ زيد بنَ الخطاب؟.

فقال أبو مريم: أكرمه اللهُ بيدي، ولم يُهِنِّي بيده.

فقال عمر: كم ترى المسلمين قَتلوا منكم يومئذ؟

قال: ألفاً وأربعمئة يزيدون قليلاً.

فقال عمر: بئس القَتْلى!.

قال أبو مريم: الحمد الله الذي أبقاني حتى رجعتُ إلى الدِّيْنِ الذي رضي لنبيه عليه الصَّلاة والسَّلام وللمسلمين.

قال: فَسُرَّ عمر بقوله[٢].

---

(١) اقرأ: سيرة عبد الله بن عمر في كتابنا: «علماء الصحابة».

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٧ و٣٨٨).

وهكذا يفعلُ الإسلامُ بالرجال، يجعلهم ينسون جراحاتهم أمام الإيمان، ويطون

مَا أُحَيْلَى ذِكْرَيَات زَيْد!

ظلَّتْ ذكرى زيد بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ماثلةً في ضميرِ أخيه عمر ـ رضي الله عنه ـ، ولقاء عمر مع مُتَمّم بنِ نُويرة مشهور معلوم، حَفلَتْ به كتبُ الأدب والمصادر التُّراثية، فقد قُتِل مالك بن نويرة في حُروب الرِّدة، وقال متمم بن نُويرة في أخيه مراثي كثيرة، ولا تزال تُعدُّ من عيون الشِّعر العربي وروائعه النفيسة.

* ذكرت كُتُب الأدب وغيرها السَّبب في اتصالِ المعرفة بين عمر ومتمم؛ أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يصلِّي الصُّبح يوماً، فلمّا انفتل من صلاته، إذا هو برجلٍ قصير أعور متنكباً قوساً، وبيده هراوة، فسأل: مَنْ هذا؟ وعرف أنّه متمم بن نويرة، فاستنشده قوله في أخيهِ، فأنشد إحدى قصائده حتى بلغ قوله:

وكنّا كندماني جَذيمة حِقْبة
مِنَ الدَّهْر حتى قيل لَنْ يتصدَّعا
فلمّا تفرقنا كأنّي ومالكاً
لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً مَعا

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: هذا واللهِ التَّأبينُ، ولوددتُ أنّي أُحْسِنُ الشِّعر، فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيتَ به أخاك.

قال متمم: لو أنَّ أخي ماتَ على ما ماتَ عليه أخوك ما رثيتُه.

فقال عمر حينما سمعَ قول متمم: ما عزّاني أحدٌ عنْ أخي بمثلِ ما عزاني به متمم بن نويرة[1].

* ويطيبُ الحديثُ عن الأدبِ، وفي الأدب وقَفَاتٌ تصقلُ النفوس،

= على مُصابهم إزاء الذين قتلوا أقرباءهم، وهكذا تكون الرجولة، ويكون التمسُّكُ بالعقيدة والتوحيد.

(١) انظر: وفيات الأعيان (٦/١٦) بتصرف. وانظر: شرح شواهد المغني للسيوطي (٢/٥٦٨ و٥٦٩).

وتشحذُ الهمم، وتهذِّب الطِّباع، ولا زلنا في الحديث عن زيد بن الخطاب، وعن مكانته في عالَم الأدب، وعن عمر، وعن مكانة أخيه زيد في نفسه.

* قال عمر لمتمم بنِ نويرة: ما أشدَّ ما لقيتَ على أخيك منَ الحزن؟

فقال: كانت عيني هذه قد ذهَبَتْ، وأشار إليها، فبكيتُ بالصَّحيحة، فأكثرتُ البكاء حتى أسعَدتْهَا العينُ الذَّاهبة، وجرتْ بالدَّمع.

فقال عمر: إنَّ هذا الحزن شديد، ما يحزن هكذا أحدٌ على هالكه.

ثمَّ قال عمر: يرحمُ الله زيد بن الخطّاب! إنّي لأحسبُ أنّي لو كنتُ أقدر على أنْ أقولَ الشِّعر لبكيتُه كما بكيتَ أخاكَ[1].

* ويروى أنَّ متمماً رثى زيداً، فلم يُجِدْ، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: لم ترثِ زيداً كما رثيت مالكاً.

فقال: إنَّه واللهِ ليحرِّكني لمالك ما لا يُحرِّكني لزيد[2].

مِنْ نَـفَحَاتِ الأَدَبِ الخالـد:

* إنَّ للأدبِ نفحات ولمسات هامسة ساحرة، تداعبُ حنايا الأضالع، وتحرك خَفايا زوايا النُّفوس، لما تحمله منْ روائع المعاني، وحميد الصِّفات، وعيون الخِلال.

ولعلَّنا ونحنُ في هذه الوقفة مع زيد بنِ الخطاب أنْ نشيرَ إلى أنَّه قد ضربتِ الشُّعراء الأمثالَ بمالكٍ وأخيه متمم في أشعارهم، فمن ذلك قول ابن حَيّوس الشَّاعر:

وفجيعـةٌ بَيْـنٍ مثـل صـرعـةِ مـالـك
ويقبـــحُ بـــي ألاَّ أكـــون متمّمـــا

* ومنه قولُ أبي بكر محمّد بن عيسى الدَّاني المعروف بابن اللبّان في قصيدته التي يرثي بها المعتمد بن عبّاد:

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧٨) ووفيات الأعيان (٦/ ٢٠).
(٢) وفيات الأعيان (٦/ ١٦).

حكيتَ وقد فارقتَ ملكَكَ مالكاً
ومِنْ وَلَهي أحكي عليكَ متمّما

* ومن ذلك قول ابنُ المجاور الدِّمشقي:

أيْ مالكي في القَلْبِ منك نويرة
وإنْسانُ عيني في هَواكَ متمم

* ومنه قول القاضي ابن سناء الملك:

بكيتُ بكلتا مقلتيَّ كأنّني
أتمم ما قد فاتَ عين متمم(1)

* هذا وقصيدةُ رثاء متمّم بن نويرة لأخيه مالك بن نويرة كان يستجيدها عمر ـ رضي الله عنه ـ، وكان عمر إذا لقي متمم بن نويرة استنشده قصيدته في أخيه، فينشده متمم. وهذه القصيدةُ تعتبر من عيون الشِّعر العربي لما فيها من انسياب في الألفاظ، وتوافق في المعاني، ورقَّة في الأسلوب، وصِدْق في العاطفة، ودقّة في اختيار الكلمات المعبرة؛ وأوّلها:

لعَمْري وما عَمْري بتأبينِ هَالكٍ
ولا جزعاً ممّا أصابَ فأوجعا

ومنها الأبيات المشهورة:

وكنّا كندماني جذيمةَ حقْبةً
مِنَ الدَّهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنا
أصابَ المنايا رهْطَ كسرى وتبّعا
فلمّا تفرقنا كأنّي ومالكاً
لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا(2)

---

(1) انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٢٠).

(2) ذكر محمّد بن الحسن الشّيباني ـ رحمه الله ـ أنَّ أمنا عائشة بنت الصّديق ـ رضي الله عنهما ـ، قد تمثلت ببيتي متمم بن نويرة لما مات أخوها عبد الرحمن بن أبي بكر، وزارته في مكة المكرمة (السير الكبير ١/ ٢٣٥ و٢٣٦).

وهي قصيدةٌ طويلة أوردها صاحب المفضليات، وصاحب الأغاني، وغيرهما من كتب التّراث ومُصنَّفات الأدب.

* وبعد، ها قد عشنا يسيراً مع سيرة زيد بن الخطّاب ـ رضوان الله عليه ـ واستمتعنا بشذاها العَبِق، واستنشقنا عبيرها الزكيّ، وكانت رحلتنا طريفة في عالم الأدب، حيث كنا نستجلي الأويقات بذكر محاسن فرسان الرّسول ﷺ، وصفاتهم الجليلة.

* بقي أنْ نعرفَ أنَّ منْ حَسَناتِ ومحاسنِ زيد بن الخطّاب أنّه قد روى عن رسولِ الله ﷺ، وروى عنه ولده عبد الرّحمن بن زيد حديثَيْن، وحدَّث عنه كذلك ابن أخيه عبد الله بن عمر الحديث المشهور بالنّهي عن قَتْلِ عَوامر البيوت؛ الذي وَرَدَ في الصّحيحين، وفي سُنَنِ أبي داود والتّرمذي[1].

* رضي الله عن زيد بن الخطاب، وأعلى مقامه في الجنّات، ونفعنا بِسِيَرِ فُرسان الرَّسول ﷺ جميعهم.

* وما أجمل ـ ونحنُ في وَدَاع فارسنا زيد ـ أنْ نتذكَّر قولَ عمر في زيد، وقد هبَّت عليه ريح زيد: رحمَ الله زيداً أخي، سبقني إلى الحسنيين: أسلمَ قبلي، واستشهد قبلي[2].

* * *

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٤) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٨) والإصابة (١/ ٥٤٨).

(٢) وهكذا تكون الذكرى من أجل أخذ العبرة، واستخلاص الدرس والموعظة، ومن أجل وقفة متأنية مع الماضي، ومقارنته بالحاضر، للاستفادة في المستقبل. ثم إن الأموات ـ رحمهم الله ـ يُذكرون بمحاسن أفعالهم، وجيِّد سلوكهم وصفاتهم. ⇐

(٧)

سَعْدُ بنُ أبي وقّاص

ـ رضي الله عنه ـ

أوّل مَنْ رمى بسهمٍ في سبيلِ الله، ودعا له النّبيُّ ﷺ فقال: «اللهم استجب لسعدٍ» وقال له: «ارمِ فداك أبي وأمّي».

ثلثُ الإسلام:

* هل أتاكَ حديثُ هذا الفارسِ الأمير؟ وهل أتاكَ حديثُ هذا الفتى الذي نشأَ في المَدرسةِ المُحمَّديَّة، شاباً يافعاً، وبطلاً مغواراً، فكانَ منَ النَّابهين فيها، فَقُرِنَ مع العشرةِ المبشَّرينَ بالجنَّة، وأحد السِّتَّة أهل الشُّورى؟!.

* هذا الفارس النَّبيل يقولُ عنْ نفسهِ فيما رواه البُخاري بسنده عنه: لقد رأيتني وأنا ثُلثُ الإسلام[1].

وفي روايةٍ أخرى: ولقد مكثتُ سبعةَ أيام وإني لثلثُ الإسلام[2].

* هذا البطل المِقْدام كان يُقال له: فَارِسُ الإسلام[3].

* وفي مضمارِ الأوائل يلمع اسمه ليسجِّل بأحرفٍ وضيئة: بأنَّه أوَّل مَنْ رمى بسَهْمٍ في سبيلِ الله[4]، وأوّل مَنْ أراقَ دَماً في سبيل الله تعالى[5].

أمّا عن إسلامه فيفسِّرُه قوله بأنّه ثُلثُ الإسلام، أي: منَ السَّابقين الأوَّلين؛ الذين فَتَحَ الله على بصائرهم فغشَّاها نورُ الحق، فاستضاءت قلوبُهم بنور الإيمان، فكانوا من المسارعينَ إلى دوحةِ الإيمان الباسقة؛ التي لا يطالها إلاَّ مؤمن تقيّ.

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٠٤) حديث رقم (٣٧٢٦).
(٢) المصدر السَّابق حديث رقم (٣٧٢٧).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ ص ٢١٣ و٢١٤).
(٤) يؤيِّدُ هذا القول ما وردَ في الصَّحيح عن فارسنا قوله: «إنِّي لأوَّل العرب رمى بسهمٍ في سبيل الله» صحيح البخاري برقم (٣٧٢٨) وكان ذلك في سرية عُبيدة بن الحارث بن المطلب، وكان القتال فيه أوّل حربٍ وقعتْ بين المشركين والمسلمين، وهي أوَّل سرية بعثها رسول الله ﷺ في السَّنة الأولى من الهجرة.
وانظر كذلك (الأوائل للعسكري ص ١٤٧).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٣) والأوائل (ص ١٤٧) وقيل: إنَّ طُليب بن عُمير هو أوَّل مَنْ أراقَ دماً في سبيلِ الله.

* أسلم وهو في ربيعِه السَّابع عشر، وكان الحارس لرسول الله ﷺ في مغازيه، وعنه قالَ رسولُ الله ﷺ: «هذا خالي، فليُرِني امرؤٌ خاله»[1].

* نعم هو مِنْ أخوالِ رسول الله ﷺ؛ لأنَّه من بني زهْرة، ولأنَّ أمَّ رسولِ الله ﷺ زهريّة، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فلذلك قال رسولُ الله ﷺ عنه: «هذا خالي». فهل عرفتم هذا الخَال الكريم، الفارس المقدام؟!.

* هو سعدُ بنُ أبي وقّاص ـ واسم أبي وقاص: مالك ـ بن أُهيب، أبو إسحاق القرشي الزُّهريّ المكّي المدني[2] فارسُ النَّبيِّ ﷺ، وعَلَمُ المجاهدين، وأحدُ الفرسان الذين حقَّقُوا أروع الأعمال في ميادين القتال والجهاد، بكلِّ إخلاصٍ، وتفانٍ، وطواعية.

* إذاً، فلنسعدْ سوياً مع أحد السُّعود أولي النَّجدة والبأْس من فرسانِ الرَّسول ﷺ، ولنصحبه في وقفات مضيئة من رحلة حياته البطولية.

سَعْـدٌ وأُمُّـهُ والإسـلام:

* في سيرةِ سَعد ـ رضوان الله عليه ـ مواقف مُرْضيةٌ، تشيرُ إلى التَّوفيق الذي اختصَّه الله تعالى به، وتشيرُ إلى المكارمِ التي جُمعت في شخصيته، وجعلت منه رجلاً نادراً، صُنِعَ على عينِ رسولِ الله ﷺ، وظلَّ أميراً في المكارمِ إلى آخر نَفَسٍ من حياتِهِ المعطاء بألوان الخير والإيجابية.

---

(١) أخرجه التّرمذي في المناقب برقم (٣٧٥٣).

(٢) مسندُ أحمد (١/ ١٦٨ ـ ١٨٧) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ١٣٧ ـ ١٤٩) وفضائل الصَّحابة للإمام أحمد (٢/ ٧٤٨) ومسندُ أبي يعلى (٢/ ٤٩ ـ ١٤٥) وحليةُ الأولياء (١/ ٩٢ ـ ٩٥) وتاريخُ بغداد (١/ ١٤٤ ـ ١٤٦) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٠ ـ ٢٧٢) وجامعُ الأصول(٩/ ١٠ ـ ١٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٣ و٢١٤) وتاريخ الإسلام للذهبيّ (عهد معاوية ص ٢١٢ ـ ٢٢١) ونكتُ الهِمْيان (ص ١٥٥ ـ ١٥٦) ومجمعُ الزَّوائد (٩/ ١٥٣ ـ ١٦٠) والعقد الثّمين (٤/ ٥٣٧ ـ ٥٤٧) وتهذيب التَّهذيب (٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤) وغيرها كثير جداً.

* وَصَفَه جريرُ بن عبد الله فأجادَ، وأصاب فأحسن، فقالَ أمامَ عمرَ بنِ الخطّاب يصف ولاية سعد: سعدٌ أكرمُ النَّاسِ مقدرة، وأقلُّهم فترة، وهو لهم كالأمِّ البرَّة، ميمون الطَّائر، مرزوقُ الظَّفر، أشدّ النَّاس عند البأسِ، وأحبّ قريش إلى النَّاسِ[1].

* وعن يُمْنِ سعد، يروي سعد نفسه قصّة إسلامه فيقول:

رأيتُ في المنامِ، قبل أنْ أسلمَ بثلاث، كأنّي في ظُلمةٍ لا أبصر شيئاً، إذ أضاء لي قمرٌ فاتبعته، فكأنّي أنظرُ إلى مَنْ سبقني إلى ذلك القمر، فأنظرُ إلى زيد بنِ حارثة، وإلى عليِّ بنِ أبي طالب، وإلى أبي بكر - رضي الله عنهم - وكأنّي أسألهم متى انتهيتم إلى ها هنا؟! قالوا: السَّاعة.

وبلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ يدعو إلى الإسلامِ مستخفياً، فلقيتُه في شِعْبِ أَجْيَاد، وقد صلَّى العصر، فقُلتُ: إلامَ تدعو؟!.

قال: «تشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّي رسولُ الله».

قلت: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّك محمَّدٌ رسول اللهِ، فما تقدمني أحدٌ إلا هم[2].

* ومضى سَعْد سعيداً بإسلامهِ، رغيداً بإيمانه، وعلمتْ أمُّه حَمْنة بنت سفيان بن أمية بن عبد مناف بإسلامه، فأخذها ما قَرُبَ وبَعُدَ، وغَضِبَتْ غَضَباً شديداً، وحلفَتْ بأغلظِ الأَيْمان أنَّها لن تأكلَ، أو تشربَ، أو تستظلَّ بظلٍّ حتى يرجعَ سعدٌ عنِ الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، ولكنَّ الفارسَ الصِّنديدَ سعد، لا تجتذبه العواطفُ هنا، ولن يستجيبَ لهَمْسِ لَوَاطِفِ العَواطف أبداً، فالإيمانُ بالله

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/٢٦٦) باختصار يسير.

(٢) المصدر السابق (٩/٢٥٦).

وهذا البكور في الإسلام دليلٌ على تفتُّح عقلية سعد، ورجاحة فكره، وعدم تيقُّنه بصحة عبادة الأصنام، ومُخلَّفات الجاهلية.

عزَّ وجلَّ أقوى منْ عواصفِ العواطفِ، ما دام ذلك في مرضاةِ الله سبحانه وتعالى(١).

* روى فارسُنا سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ خَبَرَ إسلامه وغضب أمّه، فقال: كنتُ رجلاً برّاً بأمّي، فلمّا أسلمتُ، قالت: يا سعد! ما هذا الدِّينُ الذي قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموتَ، فتُعَيَّرَ بي فيُقال: يا قاتل أمّه.

قلتُ: لا تفعلي يا أمّه! إنّي لا أدعُ دِيْني هذا لشيءٍ.

* فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكلُ، ولا تشربُ، وأصبحتْ وقد جُهِدَتْ، ومكثتْ يوماً آخر وليلة لا تأكل، فأصبحتْ وقد اشتدَّ جهدها، فلمّا رأيتُ ذلك قلتُ: يا أمّه! تعلمينَ واللهِ لو كانتْ لكِ مئةُ نَفْسٍ فخرجت نَفْساً نَفْساً، ما تركتُ دِيْني هذا لشيءٍ، إنْ شئتِ فكُلي، وإنْ شئتِ فلا تأكلي، فلمّا رأتْ ذلك أكلتْ، فنزلت هذه الآية:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨](٢).

---

(١) إنّه للابتلاء في الدِّيْنِ الذي مرَّ بالمؤمنين منْ فرسانِ صحابةِ رسولِ الله ﷺ وهذا صنفٌ منَ النّاس فُتِنَ وابتلي مِنْ قِبَل آبائهم وأمّهاتهم وأقربائهم، يستخدمون معهم سلاحَ العاطفة، وسهامَ المودة، ورماحَ الرّحم والقرابة، ولكن كل حقّ ساقطٌ ـ وإن عَظُم ـ إذا عارض حقَّ الله عزَّ وجلَّ، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ عزَّ وجلَّ.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٦١). وللحديث أصل في كُتُبِ الحديث. فقد أخرجه الإمامُ أحمد في المُسند (١/ ١٨١ و١٨٢) ومسلم في الجهاد برقم (١٧٤٨) وكذلك في الفَضَائل، باب: فضائل سعد بن أبي وقاص. والتّرمذي برقم (٣١٨٨) وكذلك برقم (٣٠٨٠) وأبو داود في الجهاد برقم (٣٧٤٠) وانظر: البداية والنهاية (٧/ ٧٤ و٧٥) وتفسير البغويّ بهامشِ الخازن (٥/ ١٨٨). ويؤخذُ من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ عدم جواز متابعة الأبوين في الكفر، وذلك لأنَّ الإحسان إلى الوالدين وَجَبَ بأمْرِ الله عزَّ وجلَّ، فلو ترك العبد عبادة الله بقول الوالدين لترك طاعة الله عزَّ وجلَّ.

* وكما تلاحظ فإنَّ موقفَ سعد ـ رضي الله عنه ـ يشيرُ إلى تمام فروسيته، وكمال إيمانه، وصِدْق عزيمته، ووفائه لدِيْنه ولرسوله[1]، فلم تلن قناته أمامَ العواطفِ، ولم تهتزَّ شخصيته أمام القرابة، وإنَّما وضعَ أمام عينيه مرضاةَ الله عزَّ وجلَّ، ومرضاةَ رسوله ﷺ.

* هذا الرَّجل الصَّحابي الكريم الذي وَقَفَ أمام رغبة أُمِّه، وصفَتْهُ ابنته عائشة بنت سعد، وحدَّدت معالم شخصيته بقولها: كان أبي رَجُلاً قصيراً،

= ولهذا فإن نفس سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ عزيزة، ودين الله عزَّ وجلَّ عزيز عليه، فلا يمكن له أنْ يفرِّطَ في دِيْنِهِ منْ أدنى كلمةٍ تُقال له من أمّه حَمْنَة؛ لأنَّ سَعداً مستقيم على الطَّريق المستقيمِ والدِّيْن الحنيفِ، ولن ينحرفَ عنه لأي سبب كان.

ولقد أصابَ الإمامُ القرطبيّ ـ رحمه الله ـ في تفسيرهِ حيثُ تحدَّث عمّا ينبغي في الطَّاعة وعمّا لا ينبغي، فقال ما مفاده: طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوبِ كبيرةٍ، ولا صغيرةٍ منَ المعاصي، ولا في تركِ فريضة على الأعيان، كما أنّه في مقابلِ ذلك تلزم طاعتهما في الأمور المباحة شرعاً، ويُستَحسن طاعتهما في تركِ الطَّاعات المندوب إليها، ومنها مثلاً: أمْر الجهاد والكفاية (تفسير القرطبي ١٤/ ٦٤).

وبهذهِ الآيةِ منْ سورة العنكبوت ثَبَتَ سَعد بن أبي وقاص وغيره من المؤمنين، وانتصر الإيمانُ، وبقي الإحسان إلى الوالدين، وبقي عمل سعد وثباته يلوحُ في سماء النَّجاة والأمان، ويلوذ ببيان الله عزَّ وجلَّ وبلاغهِ للنَّاس كافَّة.

إنَّ موقفَ سعد ـ رضوان الله عليه ـ مع أمّه ينفحنا بنموذجٍ مثالي للمؤمن الفارس الصادق؛ الذي لا يُساوم على دينه بعاطفة، ولا يهتز أمام عواصِفِ العَواطف، فلم تؤثِّر فيه ـ على دِيْنه، وثباته، ويقينه ـ عاطفة الأمومة، ولم يضعفْ أمامها، وأعتقدُ أنَّ عاطفةَ الأمومةِ أمْرٌ شاقٌّ وعسيرٌ، يصعب على كثيرين أنْ يقفوا أمامه، ويثبتوا إزاءه، ولكنَّ إيمان سعد، عصف بكل العواطف، ولم يقفْ أمامه شيءٌ، وذلك في سبيل الله وسبيل مرضاته ورضوانه، فنجح في صبره، وكان قدوة في فروسية الرأي والثَّبات على جادّة أنوار اليقين.

(١) من الجدير بالذكر أنَّ رسول الله ﷺ أمر سعداً أنْ يترضىَ، وأنْ يتلطف بأمّه؛ ومع هذه الوصية بالرأفةِ والرحمةِ والإحسان حذّره ألا يطيعها في شركها وكفرها بالله عزَّ وجلَّ، إذ إنَّ هذا أمْرٌ بمعصية الله عزَّ وجلَّ، وأي معصية أعظم منَ الكُفْر بالله التي يَخلد صاحبها في النَّار؟! =

دحداحاً[١]، غليظاً، ذا هامَةٍ، شَثْن الأصابع[٢]، أشعر، يخضب بالسَّواد[٣].

أضواءٌ على فُروسيّة سَعدٍ المتألقة:

* نشأ سَعْدٌ ـ رضي الله عنه ـ نشأةَ الفُرسان المتمرِّسين بفنون القِتال، فقد كان يمارسُ صَنْعةَ النَّبل، فَغَدا منْ أمْهر الرُّماة وأشهرهم في عَصْر الرِّسالة المحمدية، ومنذ أنْ أضاءَ الإيمانُ جوانبَ نفسه، غدا منْ فُرسان الرَّسول ﷺ، ومنَ الذين ينافحونَ عنِ الإسلام مهما تكن الظُّروف قاسية، وقد شجَّ رجلاً مِنَ المشركين في أوّلِ الدَّعوة. فقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ بمكةَ يستخفونَ بصلاتهم، فبينما سعد بن أبي وقاص في شِعْبٍ من شِعَاب مكةَ في نَفَرٍ من الصَّحابة، إذ ظهر عليهم المشركون، فنافروهم، وعابوا عليهم دِينهم حتى قاتلوهم، فضَربَ سعدٌ رجلاً من المشركين بلحي جَمَل فشجّه، فكان أوّل دمٍ أُريق في الإسلام[٤].

* وتابع سعد ـ رضوان الله عليه ـ مسيرةَ الكفاح، فهاجر إلى المدينةِ المنورة، وهنالك أخَذَ مكانته، وبدأت رحلة فروسيته مع فرسانِ المدرسة النَّبويّة، وشارك في عَددٍ من السَّرايا[٥] قبل غزاة بدر، فكان في سريةِ عُبيدة بن

---

(١) «دحداحاً»: أي قصيراً، غليظ البطن.

(٢) «شثن الأصابع»: أي: إنهما يميلان إلى الغِلَظ والقِصَر. وقيل: هو الذي في أنامله غِلَظ بلا قِصَر، ويُحمد ذلك في الرجال؛ لأنه أشدُّ لقبضهم.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٩٧) والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٩٦) وتعقّبه الذهبيُّ بقوله: سنده واهٍ، فيه رشدين.
قال ابن حجر: من العلماء مَن رخَّص في الخضب بالسواد في الجهاد، ومنهم من رخَّص فيه مطلقاً، وأنَّ الأولى كراهته، وجنح النووي إلى أنه كراهة تحريم.
وقد رخَّص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر والحسن والحسين وجرير وغير واحد، واختاره ابن أبي عاصم في كتاب «الخضاب» له. انظر فتح الباري (١٠/ ٣٥٤).

(٤) الإصابة (٢/ ٣١).
«اللحي»: عَظْم الحنك.

(٥) كان سعدٌ في إحداها على رأس سرية عدتها عشرون من المهاجرين وذلك في آخر =

الحارث حين بعثه رسولُ الله ﷺ إلى مكان يدعى رابغ، ويرمها حَمَى سعدٌ المسلمينَ بسهامه، فكان هذا أوّل قتالٍ في الإسلام، وكان سعد أوَّل مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وأنشد في ذلك:

ألا هَـل أتـى رسـولَ الله أنّـي ... حميتُ صَحابتي بصدورِ نبلي
أذودُ بهـا عـدوَّهـم ذِيـاداً ... بكلِّ حزونـةٍ وبكلِّ سَهْلِ
فمـا يعتـدُّ رامٍ مِـنْ معـدٍّ ... بسهمٍ مع رسول الله قبلي[1]

* وشارك سعد أيضاً في سرية نخلةَ، حيث كان أحد أفرادها تحت قيادة الصَّحابي عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ.

سعْدٌ وشَجَاعتُه المتألّقة يومَ بَدْرٍ:

* شهدَ سعد غزاةَ بدر، وأبلى يومَها بلاءً حسناً، فكان يرمي بين يدي رسولِ الله ﷺ فيضع السَّهم في كَبِدِ القوس، ثم يقول: اللهمَّ زلزلْ أقدامهم، وأرعبْ قلوبهم، وافعل بهم، وافعلْ، فيقول النَّبيُّ ﷺ: «اللهم استجبْ لسعدٍ»[2].

* وفي يوم بدر، حارب سعد بسيفه، وخاضَ غمار الحرب، وكان يقاتلُ

= شوال من السَّنة الأولى للهجرة، كما خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة بواط في ربيع الأوّل من السَّنة للهجرة، وكان يحمل اللواء.

(١) عن سير أعلام النّبلاء (١/١٠١) وطبقات ابن سعد (٣/١٤٢) مع الجمع والتّصرف. وقال سعد: أنا أوّل من رمى في الإسلام بسهم، خرجنا مع عُبيدة بن الحارث ستين راكباً سرية (مختصر تاريخ دمشق ٩/٢٥٦).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٦٢) بتصرف يسير. وقد ورد في استجابة دعاء سعد ما ورد عنه أنَّه قال: يا رسول الله! ادع الله أنْ يستجيب دعائي. قال: «يا سعد! إنَّ الله لا يستجيبُ دعاء عبد حتى تطيب طعمته».
قال: يا رسول الله! ادع الله أنْ يطيب! طعمتي، فإنّي لا أقوى إلا بدعائك.
فقال: «اللهم أطبْ طعمة سعد». فإنْ كان سعد ليرى السُّنبلة من القمح في حشيش دوابّه، حين أتي به عليه فيقول لهم: ردّوها منْ حيثُ حصدتموها.
(مختصر تاريخ دمشق ٩/ ٢٦٢).

يومها قِتَالَ الفارس في الرِّجال[1]، وجاء يومها يقودُ أسيرَيْن.

* ذكرَ عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: اشتركت أنا وسعد وعمار يوم بدر فيما أصبنا من الغنيمة، فجاء سعد بأسيرين، ولم أجيء أنا وعمار بشيء[2]. ومن الجدير بالذكر ما ورد عن ابن الحنفية أن النبي ﷺ نفل يوم بدر سعد بن أبي وقاص سيف العاص بن سعيد[3].

* ويوم بدر أبدع سعد في دقة الرمي، فلقد رمى كبيراً من كبراء القوم فأصابه، ولكن ما الحكم في ذلك؟!.

* روى سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: رميتُ يوم بدر سهيل بن عمرو ـ أسلمَ فيما بعد ـ فانقطع نساه ـ عرق الفخذ ـ ثم اتبعت أثر الدم حتى وجدته في يد مالك بن الدُّخشم وقد جزَّ ناصيته، فاختصمنا فيه إلى رسول الله ﷺ، فأخذه رسول الله ﷺ منّا[4].

* أمَّا عمير بن أبي وقَّاص أخو سعد، فقد ضرب مَثَلاً شَرُوداً في عالَم البَسَالة والفروسيَّة على الرَّغم منْ أنَّه كانَ طري العود، لم يبلغْ مَبْلَغ الفُرسان

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٢١٦).

(2) للحديث أصل في السنن؛ فقد أخرجه أبو داود في البيوع برقم (٣٣٨٨) باب: في الشركة على غير رأسمال.
والنسائي (٧/ ٥٧) باب: شركة الأبدان و(٧/ ٣١٩) باب: الشركة بغير مال.
وابن ماجه في التّجارات برقم (٢٢٨٨) باب: الشّركة والمضاربة.
وذكر الإمام محمّد بن الحسن الشيباني أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! أرأيت الرجل يكون حامية القوم، ويدفع عن أصحابه، أيكون نصيبه مثل نصيب غيره؟!
فقال: «ثكلتك أمّك يا بن أمّ سعد! وهل تُنْصَرون وتُرزقون إلا بضعفائكم»؟!!. (السير الكبير (٣/ ١٠١٢).

(3) انظر: السِّير الكبير (٢/ ٦١٢).

(4) السِّير الكبير (٣/ ١٠٣٢ و١٠٣٣) وإنّما أخذه رسولُ الله ﷺ منهما؛ لأنَّ غنائم بدر كانت مخالفة لسائر الغنائم من حيثُ أنَّ الأمر فيها لرسول الله ﷺ، يعطي مَنْ يشاء، ويمنع من شاء.

الأشدّاء بعد، وقد روى سعد ـ رضوان الله عليه ـ شجاعة أخيه عُمير يوم بَدْر، واستشهاده فقال:

رأيتُ أخي عُمير بنَ أبي وقّاص يوم بَدْر يتوارى، فقلتُ: مالك يا أخي؟.

فقال: أخافُ أنْ يراني رسولُ الله ﷺ فيستصغرني فيردّني، وأنا أحبُّ الخروجَ لعلَّ اللهَ يرزقني الشَّهادة.

فعُرض عُمير على رسولِ الله ﷺ فاستصغره، فقال «ارجعْ». فبكى عمير، فأجازه رسولُ الله ﷺ.

قال سعد: فكنتُ أعقدُ له حمائلَ سيفه منْ صغره، فقُتل ببدر وهو ابنُ ست عشرة سنة، قتله عمرو بن عبد ودّ[1].

فَـارِسُ الإسلام يوم أُحُـد:

* شهدَ سَعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ غزوةَ بدر، كما شهد غزاة أحد، وثبتَ يومها مع رسولِ الله ﷺ حين ولّى النَّاس، ثمَّ شهد كذلك غزاة الخندق والحُديبية، وبايع تحت الشَّجرة، ـ فرضي الله عنه، وعنِ المُؤمنين الذين بايعوا تحت الشَّجرة، وأثابهم، وأكرمهم ـ كما شهد غزوة خيبر، وحضر فتح مكة، وكانت معه يومها إحدى رايات المهاجرين الثَّلاث، وشهد المشَاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان منَ الرُّماة المذكورين الذين يُضربُ المثَل بهم في قوَّةِ الرَّمي، وتسديدِ الهدف، ودقّة الرِّماية[2]، وكان يُقال له: فارس الإسلام[3].

* وفي غزوة أحد أبدعَ سعد أيّما إبداع، وترك بَصَمات كريمة في تلك

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٤٩ و١٥٠) وسير أعلام النبلاء (١/ ٩٧) مع الجمع والتصرف.

(٢) وَرَدَ عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: علّموا أولادكم السِّباحة والفروسيّة، ومروهم بالاحتفاء ـ المشي حافياً ـ بين الأغراض.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٤٢) وتاريخ الإسلام (عهد معاوية ص ٢١٤) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٤ و٢٥٥) مع الجمع والتّصرف بينها. =

الغزوة التي ميّز اللهُ فيها الخبيث منَ الطَّيب، وكانت له مواقف أخرى أرهقَ بها المشركين، وأحرقهم بسهامه الصَّائبة، فأصاب منهم مَقْتلاً.

* أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسندهِ عن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال:

كانَ رجلٌ منَ المشركين قد أَحْرَقَ المسلمينَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ارم فداك أبي وأمّي» فنزعتُ بِسَهْمٍ ليس فيه نصل، فأصبتُ جبهته، فوقع وانكشفت عورته، فَضحِكَ رسولُ الله ﷺ حتى بَدَتْ نواجذُه[1]؛ ولذلك كانت ابنتهُ عائشة بنت سعد تقول مفتخرة: أنا ابنةُ المهاجر الذي فَداه رسولُ الله ﷺ يوم أُحُدٍ بالأبوين.

* قال سعيدُ بن المسيّب ـ رحمه الله ـ: كان سعدُ بنُ أبي وقّاص جيد الرّمي. وعن أبي إسحاقَ قال: كان أشدّ الصَّحابة أربعة: عمر، وعلي والزُّبير، وسعد[2].

* وروى سعد أنَّ مَلَكاً كريماً قد ساعده يوم أُحُد، فقال: لقد رأيتني أرمي بالسَّهْم يوم أُحد، فيردّه عليَّ رجلٌ أبيض حَسن الوَجْه لا أعرفه، حتى كان بعد، فظننتُ أنّه مَلَك.

* ورأى كذلك ملكَيْن قُرْبَ رسولِ الله ﷺ فيما رواه البخاريُّ عنه بسنده قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يوم أُحُد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيضٌ كأشدِّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد[3].

---

(١) أخرجه مسلم في الفَضائل برقم (١٤١٢) باب: مناقب سعد، وانظر: الاستيعاب (٢/ ١٩) والإصابة (٢/ ٣١) وفي رواية أنَّ رسول الله ﷺ قال لسعد: «ارم وأنتِ الغُلام الحزور» (البداية والنّهاية ٧/ ٧٣).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٩) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد معاوية ص ٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٠٥٤) وفي اللباس برقم (٥٨٢٦).
وأخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٣٠٦) باب: قتال جبريل وميكائيل عن النّبي ﷺ يوم أحد.
وأخرجه الإمام أحمد (١/ ١٧١ و١٧٧).
وانظر مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥٩) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٠٧) والبداية والنهاية (٧/ ٧٣).

* وذكر محمَّدُ بنُ شهاب الزُّهريّ ـ رحمه الله ـ دَوْرَ سعد في غزوة أُحُد مع ثلَّة مِنْ فرسانِ المسلمين وأبطالهم فقال: خفي خبر رسول الله ﷺ يوم أحد على النَّاس كلّهم إلا على ستة نَفَر: الزبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقّاص، وكعب بن مالك الأنصاريّ، وأبي دُجانة الأنصاريّ، وسهل بن حنيف الأنصاريّ[1].

* ويوم أُحد، حظي سعد بدعوةٍ مستجابة منْ رسولِ الله ﷺ فقال: «اللهم سدِّدْ رميته، وأجبْ دعوته»[2].

* وعن أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لسعد: «اللهم سَدِّدْ سَهْمه، وأجبْ دعوتَه، وحبِّبه إلى عبادِك»[3].

في سَائِرِ المَغَازي:

* شهدتْ ساحاتُ الجهادِ لسعد بن أبي وقّاص بالمقامِ الكريم، وحدَّثتِ الأجيالُ عن فروسيته فوق جنَباتها، وروت للبشريّة شهوده غَزاةَ الخندق، وكيف أبلى بلاء حسناً يوم إذ، ثمَّ حكتْ عن شهوده لغزاة بني قريظة، وتابعتِ الحديثَ عن شهوده بيعة الرِّضوان تحت الشَّجرة، وكيف دكَّ حصونَ خيبر مع فرسانِ المسلمين؛ الذين تخرجُوا في مدرسةِ النّبوّة، وها هو يسيرُ بمعيَّةِ رسولِ الله ﷺ وصحبه كي يدخلوا المسجدَ الحرام وهم آمنون.

* ويوم حنينٍ، وما أدراك ما يوم حنين، كان من المئةِ الصَّابرة؛ الذين تكفَّل اللهُ لهم بأرزاقهم، وأرزاقِ عيالهم في الجنَّة، وظلَّ جندياً أميناً، وفارساً من فرسانِ الرَّسولِ ﷺ إلى آخرِ حياته.

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (9/ 259) والمستدرك للحاكم (3/ 500).
(2) انظر: الاستيعاب (2/ 18) والبداية والنهاية (7/ 76).
(3) انظر المصدرين السَّابقين.

* تلك ملامح رئيسة في مسيرة الفارس سعد، وهو يحملُ راية الجهاد بتفانٍ لا يُحدّ، وإخلاصٍ لا يُوصَف.

أَسَـدُ الفُتُوحَـاتِ الإسلاميـة:

* كان سَعد بن أبي وقاص ـ رضوان الله عليه ـ أهلاً للإمامةِ والإمارة، فقد كان كبيرَ الشَّأن، كريمَ الصِّفاتِ، جريءَ اللسان، قويَّ السِّنان. نشأ في مدرسة النُّبوّة فنبغ فيها بتفوّق، وكان منَ الأوائلِ في مضمار الفَضَائل، وفي مجال الفروسيّة الحقّة.

* قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: كانَ سعد فارساً شجاعاً منْ أمراءِ الرّسول ﷺ، وكانَ أيام الصِّدِّيق معظّماً، جليلَ المقدار، وكذلك أيام عمر[(١)].

* ولقد كان لسعد ـ رضي الله عنه ـ أضوأ الآثار وأجملها في مضمار الفتُوحات الإسلامية، ففي عهد أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، شهدَ مع أسامة بن زيد غزوته إلى أرض البلقاء بالشَّام[(٢)].

* وفي عهد عمر، كادت شوكةُ الفُرْسِ أن تنموَ، فعزم عمر أنْ يغزوهم بنفسهِ، فخرجَ إلى ظاهر المدينة المنوَّرة، ثم عَقَدَ مجلساً لاستشارة الصَّحابة الكرام فيما عقد عليه العزم، ثم استشارهم، فكلُّهم وافقوه على الذَّهابِ إلى العراق للقاء الفُرسِ، إلا عبد الرحمن بن عوف ـ عليه سحابات الرضوان، ودِيمَ المغفرة ـ فإنَّه قال له بكلام يشير إلى أفقِهِ الواسع: يا أمير المؤمنين! إنِّي أخشى إنْ كُسِرتَ أنْ يضعفَ المسلمون في سائرِ أقطارِ الأرض، وإنِّي أرى أن تبعثَ رجلاً وترجعَ أنتَ إلى المدينة المنوّرة. فاستصوب عمر رأيَ عبد الرحمن، وكذلك الصَّحابة الكرام.

* وهنا توجّه عمر إلى عبد الرحمن بن عوف وقال له: يا عبد الرحمن! مَنْ ترى أنْ نبعثَ إلى العِراق لقتال أعداء الله الفرس؟!.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٧٢).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٥).

فقال عبد الرحمن والابتسامة ترتسمُ على وجهه الصَّبوح: قد وجدتُه يا أمير المؤمنين!.

قال عمر في شيءٍ منَ الاستغراب: ومَنْ هو يا أبا محمّد ـ كنية عبد الرحمن ـ؟.

قال عبد الرحمن في شيءٍ من نشوة الظَّفر: يا أمير المؤمنين! هو ذا الأسد في براثنه، فارسُ الإسلام، وصاحبُ الرَّسول ﷺ، السَّيِّدُ المطاع، والرَّجلُ الشّجاع، التَّقيُّ النَّقيُّ، سعد بن مالك الزهري[1].

* حقاً إنَّه الأسدُ في براثنه، والفارسُ المشهور الذي شَهدتْ له الغزوات بالفروسيّة وشدّة البأس، كما شهدتْ له صهواتُ الجِياد بفنونِ الجِلادِ، وعرفه النّاس مقداماً مغواراً فهل يكون أميراً لعمر؟.

* لقد استجادَ عمر رأيَ عبد الرحمن بن عوف وقوله، وأرسل إلى سَعْد ابنِ أبي وقّاص فأمّره على العراق، وأوصاهُ وصيّته التّاريخية التي ملأتْ أسماعَ الدُّنيا، وعطَّرت أسماعَ الفُرسان بما تحمله من مكارِمَ متفرِّدَةٍ فريدة في عالَم الوَصَايا والإرشاد، والنصيحة من القائد العام لأحد قوّاد جيشه.

* قال عمر لسعد ـ رضي الله عنهما ـ:

يا سعد! لا يغرنَّك منَ اللهِ عزَّو جلَّ أن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يمحو السَّيىء بالسَّيىء، ولكنْ يمحو السَّيىء بالحسنِ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلا بطاعته، فالنَّاس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركونَ ما عند الله بالطَّاعة، فانظرِ الأمْرَ الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أنْ فارقَنا عليه فالزَمْهُ، فإنَّه الأمر، هذه عِظَتي إيَّاك، إن تركتها ورغبتَ عنها، حَبِطَ عملك، وكنتَ من الخاسرين[2].

* وبدأت وقعةُ القادسية، وكانت وقعة عظيمة، لم يكن بالعراق أعجب

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٥) بشيء من التصرف دون الخروج عن جوهر النص.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٣٥ و٣٦).

منها، ويومها صلَّى سعد بالناس، ثمّ خطب فوعظهم، وحثّهم، و تلا عليهم آيات الجهاد وسوره، ثمّ كَبَّر سعد أربعاً، وحملوا على الفرس، وكان معهم عدد مِنَ الفيلة، ودام القتال بضعة أيّام، وأباد فُرسان الصَّحابة الفيلة ومَنْ عليها، وقلعُوا عيونها بأسنَّة رماحهم، وأبلى جماعةٌ من فرسان المسلمين بلاءً حسناً يُسَجَّل لهم في ذاكرة الزمن، وثنايا صفحات التاريخ، وقَتل المسلمونُ رستم قائد الفرس، وقتلوا كذلك جالينوس مقدم طلائع القادسيّة، وكَتَبَ اللهُ النَّصر للمسلمين، وانهزمت جموعُ الفرس عن بكرة أبيهم، وغنم المسلمون من وقعة القادسية من الأموال والسِّلاح ما لا يُوصف كثرة[1].

* وكُتِبَ النَّصرُ للمسلمين بقيادةِ فارسِ الإسلام سعدِ بنِ أبي وقّاص؛ الذي كَتَبَ كتاباً مُفَصَّلاً إلى أميرِ المؤمنين عمر يُبشِّره بالنَّصر، ويخبره بخطواتِ المعركة، وكيف أنزل اللهُ نصره، وجاء في كتاب سعد:

بسم الله الرحمن الرحيم.... أما بعد، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ نصرنا على أهلِ فارس، ومنحناهم سُنَنَ مَنْ كان قبلهم مِنْ أهل دِينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدّة لم يرَ الرّاؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله عزَّ وجلَّ بذلك، بل سُلِبُوه، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وصفوف الآجام[2]، وفي الفجاج[3]، وأُصيب من المسلمين سعدُ بنُ عُبيد القارىء، وفلان، وفلان، ورجال مِنَ المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنَّه بهم عالم، كانوا يدوّون بالقرآن إذا جنَّ عليهمُ الليل كدويّ النَّحل، وهم آساد في النَّهار، لا تشبههم الأسود، ولم يفضل مَنْ مضى منهم مَنْ بقي إلا بفضل الشَّهادة إذ لم تُكتب لهم[4].

* وتابع سعد مسيرة الفُتوحات المباركة، فكان فَتْح جلولاء على يديهِ في

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٤٣ و٤٤) بتصرف واختصار. وكانت وقعة القادسية سنة (١٥هـ).

(٢) «الآجام»: جمع أَجَمَة، وهي الشجر الكثير الملتف.

(٣) «الفِجاج»: جمع فَجّ، وهو الطريق الواسع بين جبلَيْن، أو: في الجبل.

(٤) البداية والنهاية (٧/ ٤٦).

ذي القعدة من سنة(١٦هـ) وغنم فيها المسلمون غنائم عظيمة، وسُمِّيت جلولاء فَتْح الفتوح؛ لما نال المسلمون فيها منَ الخيرات، ولما زعزعت منْ جموعِ الفُرس والمجوس[(١)].

* ولفارس الإسلام سعد ـ رضي الله عنه ـ أعمال عظيمة في مجال الفتوحات الإسلامية، وقد عرضْنَا نموذجاً منها كيما تتوضح صورة فارسِ الإسلام، وفاتح البلدان، وقاهرِ الفرس، سعد بنِ أبي وقاص ـ عليه سحائب الرضوان ـ.

* ولما طُعنَ الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ كان سعد من السِّتة أصحاب الشُّورى، وأوصى عمر إن لم يكن سعد هو الخليفة أنْ يستعينَ به الخليفة من بعده، فكان كذلك.

مِنْ بِحَـارِ أَنْـوارِ مَكـارِمِ سَعْـدٍ:

* لو رُحْنَا نستقصي مكارمَ وفضائل سعد بن أبي وقَّاص لغمرتنا مكارمه، ولما وسعتْ لذلك مئات الصَّفحات، ولكنِّي آثرتُ أنْ أبرزَ شذرات منْ فضائله لتكون لنا قدوةً في مسيرة حياتنا إلى الله عزَّو جلَّ، ولكي نَعْمرَ قلوبنا بمحبّةِ هؤلاء الأعلام الكرام؛ الذين خلدوا في تاريخ الخلود، وسطروا أروع آيات الكرامة في دنيا الكرامة، فكما نعلم، فقد كان مقدم الجيوش في فتح العراق، وقد ولاَّه عمر قتالَ الفُرس، وفتح مدائن كسرى، وهو صاحب وقعة القادسية، وما أدراكَ ما وقعة القادسية؟! وكوَّف الكوفة[(٢)]، ونفى عنها الأعاجم، ووليها لعمر وعثمان، وكان سيداً، مهيباً، كريماً، وقد نفع اللهُ به المسلمين، وأذلَّ المشركين في مراحل عمره كلّها.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/١١٨).
وبعد عشرات السنين كان فَتْحُ عمورية في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله محمد بن هارون، وسمّاه أبو تمام: فتح الفتوح، وذلك في قوله:
فتـح الفتـوح تعـالـى أن يُحيـطَ بـه نَظْـمٌ مـن الشِّعْـر أو نَثْـرٌ مـن الخُطَـب
فتأمَّلْ يا رعاكَ الله!

(٢) بنى سعد الكوفة في سنة (١٧ هـ).

* وسعد ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ من فقهاء الصَّحابة الأعْلامِ ممن اشتهروا في عالَم الفِقْه، وعالَم المعرفة الإسلاميّة، بل إنَّ سعداً واحدٌ منْ أعلامِ علماء الصَّحابة؛ الذين وعوا حديثَ رسولِ الله ﷺ وحفظوه، وقد رُوي له عن رسول الله ﷺ مئتان وسبعون حديثاً، منها في الصَّحيحين (٣٨ حديثاً) اتفق البخاري ومسلم منها على خمسة عشر، وانفرد البخاريُّ بخمسة، ومسلم بثمانية عشر، وأحاديثه منثورة في كتب الصَّحيح، وفي المسانيد، وكتب السنن الأربعة(١).

* روى عنه جَمْعٌ من أعلياء علماء الصَّحابة منهم: عبد الله بن عمر(٢)، وعبد الله بن عبّاس(٣)، وعائشة بنت أبي بكر(٤) ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ.

* وحدَّث عنه كذلك بنوه: عامر، عمر، محمّد، مصعب، إبراهيم، وعائشة. وحدَّث عنه عدد من كبار عُلماء التَّابعين وأعليائهم وأعلامهم من

---

(١) أودُّ التَّعريف هنا بأهم كتب الرّواية والمسانيد.
فكُتُب الصّحاح تشمل الكتب السّتة للبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنّسائي، وابن ماجه.
وعبارة «الصّحيحين» تُطلق على كتابي البخاري ومسلم رحمهما الله ـ ويقال في الحديث الذي روياه: «رواه الشّيخان» أو «متّفق عليه». وإنّما سُميت الكُتُب السّتة بالصّحاح على سبيل التّغليب، وإلا فإنَّ كُتُبَ السُّنن الأربعة للترمذي، وأبي داود، والنّسائي، وابن ماجه هي دون الصّحيحين منزلة، وأقل منها دقة وضبطاً. ولكلِّ منْ أصحابِ الكتب السّتة ميزة يُعرف بها.
فَمَن أرادَ التّفقّه فعليه بصحيحِ البخاري.
ومَنْ أرادَ قلّة التّعليقات فعليه بصحيح مسلم.
ومَنْ رغبَ في زيادةِ معلوماته في فنِّ التّحديث، ومعرفة الحديث الحسن، فعليه بجامع الترمذي ـ أي: سُنن الترمذي ـ.
ومَنْ قصد إلى حَصْر أحاديث الأحكام فبغيته لدى أبي داود في سننه.
ومَنْ كان يعنيه حسْن التّبويب في الفقه فابن ماجه يلبّي رغباته في سننه.
أمّا النّسائي فقد توافرت له أكثر هذه المزايا في سننه. والله تعالى أعلم.
(٢ ـ ٣ ـ ٤) اقرأ سير هؤلاء الأعلام العلماء الأعلياء في كتابنا «علماء الصحابة».

مثل: سعيد بن المسيب، والأحنف بن قيس، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعروة بن الزّبير، وآخرون[١]. وقد مرّت نماذج منْ مروياته خلال ترجمته.

* أمّا أخبار سعد في مضمار الشَّجاعة فكثيرة لا تُحصى، ولا تنحصر، وفضائله في اتباع السُّنَّة، والزُّهد، والورع، وإجابة الدَّعوة، والتَّواضع، والصِّدق، والصَّدقة لا يأتي عليها العدُّ. وها نحن مرسلو القول في طَرَفٍ من طُرَفِ سعد لتنجليَ صورته بشكلٍ أضوأ وأجلى، فقد شهد له رسولُ الله ﷺ بالصَّلاح.

* حدثت أمّنا الصِّدِّيقة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: باتَ رسولُ الله ﷺ أرِقاً ذات ليلة ثم قال: «ليتَ رجلاً صَالحاً يحرسني الليلة».

قالت: فسمعنا صوت السّلاح.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ هذا؟».

قال: سعد بن أبي وقاص، أنا أحرسك يا رسول الله!.

قالت: فنامَ رسولُ الله ﷺ حتى سمعتُ غطيطَه[٢].

* وقد شهد رسولُ الله ﷺ لسعد بن أبي وقّاص بالجنّة أمام جَمْعٍ منَ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٣) وسير أعلام النبلاء (١/ ٩٣).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٧٣ و٧٤) وللحديث أصل في الصَّحيحين، فقد أخرجه البخاري في الجهاد برقم (٢٨٨٥) باب: الحراسة في الغزو، وفي التّمني برقم (٧٢٣١) باب: قوله ﷺ: ليت كذا وكذا، وأخرجه مسلم في الفضائل برم (٢٤١٠) باب: فضائل سعد، والتّرمذي في المناقب برقم (٣٧٥٧) باب: مناقب سعد، والمستدرك (٣/ ٥٧٣).

هذا وإن حماية القائد له أهمية كبرى؛ لأن قَتْلَه سبيلٌ إلى هزيمة الجنود؛ لذا نجد أن الإسلام أَوْلَى هذا الجانب عناية فائقة، في معركة بدر، والخندق وغيرهما من معارك الإسلام الفاصلة.

وقد كان لرسول الله ﷺ حرسٌ يقومون بحمايته، حفاظاً على حياة القائد، ومن أولئك الحرس خاله: سعد بن أبي وقاص. =

أصحابه الكرام، إذ قال لهم: «يدخلُ عليكم من ذا الباب رجل منْ أهل الجنَّة» قالها ثلاثاً. فطلَعَ سَعْدٌ.

* ولعلَّ أجمل فضائل سعد، وأكمل سماته النَّبيلة، أنَّه كان صافي السَّريرة، نقي النَّفس، موصولَ القَلْبِ بالله عزَّ وجلَّ؛ على أساسٍ سليم، لا يحمل في نفسه سوءاً لأحدٍ من المسلمين، ولا ينوي شرّاً لمخلوق، بل كان لا ينطقُ إلا بخيرٍ، فبلغ ما بلغ من سُدَّةِ الفَضْل التي اقتعدها، وغُبِطَ عليها من قبل أعلام الصَّحابة، فهي مآثر جليلة، وخِلال كريمة تُحتذى.

* وقد دعا رسولُ الله ﷺ لسعدٍ في حجَّةِ الوداع فقال: «اللهم أذهبْ عنه الباس، إله النَّاس، ملك الناس، أنتَ الشَّافي لا شافي له إلاَّ أنتَ، باسم الله أرقيك من كلّ شيء يؤذيك، من حَسَدٍ وعينٍ، اللهم أصحَّ قلبه وجسمه، واكشف سقمه، وأجبْ دعوته»(١).

* ولقد كان سعد - رضوان الله عليه - مجاب الدّعوة، وقد أوردتِ المصادرُ كثيراً من أخبار ذلك، وفيها دليلٌ من دلائل النّبوّة، إذ دعا له الحبيب المصطفى ﷺ بأن تُستجاب دعوته، فكان ذلك.

* أورد صلاح الدِّين الصَّفدي في «نكْتِ همیانه» قال: أصاب سعد بن أبي وقّاص في حرب القادسية جرحٌ فلم يشهد فتحها، فقال رجل من بجيلة:

ألـم تـر أنَّ الله أَظْهَـرَ دِيْنَـه ... وسعـد ببـابِ القـادسيـة معصم
فـأُبْنـا وقـد آمَتْ نسـاءٌ كثيـرة ... ونسـوةُ سعـدٍ ليـس فيهـن أيِّـم

فقال سعد: اللهم اكفنا يده ولسانه، فجاءه سهم غرب فأصابه، ويبست يده جميعاً(٢).

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٧٥).

(٢) نكت الهميان في نكت العميان (ص ١٥٥ و١٥٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ١١٥) ومجمع الزوائد (٩/ ١٥٤) والبداية والنهاية (٨/ ٧٧).
وهذه القصص كثيرة جداً استوفت المصادر ذكرها، وتكفل ابنُ عساكر وابن كثير والذهبي وغيرهم بنقلها، فلتراجع.

* ومما وَرَدَ عنِ استجابة دعائه: أنَّه دعا على الذي سمعه يسبُّ علياً وطلحةَ والزّبير، فنهاه سعدٌ، فلم يَنْتَهِ، وقال: يتهدَّدني كأنَّما يتهدَّدني نبيٌّ؟!.

فقال سعد: اللهمّ إنْ تعلم أنَّه سَبَّ أقواماً قَدْ سَلَفَتْ لهم منك سابقة، وأسخطك سبّه إياهم، فَأَرِهِ اليوم آية تكون آيةً للعالمين، فخرجت ناقةٌ نادَّة فخبطته حتى مات[1].

* ومن مكارم سعد وفضائله أنِ اعتزلَ اختلافَ النَّاس وخلافهم بعد مَقْتَل عثمان ـ عليه سحائب الرضوان ـ، بل أَمَر أهله بألاَّ يخبروه بشيء من أخبار النّاس حتى تجتمعَ الأمّةُ على إمام، وكان يقول: ما أزعم أنّي بقميصي هذا أحقّ مني بالخلافة، قد جاهدتُ إذ أنا أعرف الجهاد، ولا أبخع نفسي إن كان رجلٌ خيراً منّي، لا أقاتل حتى تأتوني بسيفٍ له عينان ولسان وشفتان، فيقول: هذا مؤمن وهذا كافر[2].

* هذا وقد امتدح عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ سعداً وابن عمر لاعتزالهما الفتنة فقال: لله منزلٌ نَزَله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر، والله لئن كان ذنباً ـ يعني اعتزالهما ـ إنّه لصغير مغفور، ولئن كان حَسَناً، إنّه لعظيمٌ مشكور[3].

* وسَعْدٌ واحدٌ من أعلام الزُّهاد، ومنَ الذين عرفوا معاني القناعة، فعزفوا

---

(١) نكت الهميان في نكت العميان (ص ١٥٥ و١٥٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ١١٥) ومجمع الزوائد (٩/ ١٥٤) والبداية والنهاية (٨/ ٧٧).
وهذه القصص كثيرة جداً استوفت المصادر ذكرها، وتكفل ابنُ عساكر وابن كثير والذهبي وغيرهم بنقلها، فلتراجع.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٩٤) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٢١٩) وقال الذهبي ـ رحمه الله ـ: اعتزل سعد ـ رضي الله عنه ـ الفتنة، فلا حضر الجمل، ولا صفين، ولا التحكيم، ولقد كان أهلاً للإمامة، كبير الشّأن ـ رضي الله عنه ـ (سير أعلام النبلاء ١/ ١٢٢).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٦٧) ومجمع الزوائد (٧/ ٢٤٦).

عن الدُّنيا، اسمعْ إلى كلامِه الجميل الحَسَن الذي أوصى به ابنه مصعباً، فقال له:

يا بني! إذا طلبت شيئاً فاطلبه بالقناعة، فإنَّه مَنْ لا قناعةَ له، لم يغْنِهِ المال[1].

* ولعمري، فإنَّ هذه الحكمةَ مستمدةٌ من عَذْب القرآن الفرات، ومن فيض نور النُّبوة، ومنَ الفصاحة النَّبويَّة، وحِكَمها الطافحة بالبلاغة.

في رِحَـابِ الأَوْلِيـاءِ المتَّقِين:

* كانت حياةُ سعد بن أبي وقَّاص ـ رضوان الله عليه ـ حياةَ عَمَلٍ متواصل في مرضاة اللهِ عزَّ وجلَّ، موصول بنور الله، عاش حميداً رشيداً في ظلالِ الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ وامتدتْ به الحياةُ إلى خلافةِ معاوية ـ رضي الله عنه ـ.

* ففي سَنَة خمسٍ وخمسين من الهجرة النَّبوية، حضرتِ سعداً الوفاةُ، فدعا بجبَّةِ صوفٍ قديمة، فقال: كفِّنوني في هذه، فإنِّي لقيتُ المشركين فيها يوم بدر، وإنَّما خبأتها لهذا اليوم[2].

* روى مصعبُ بن سعد أخبارَ اللحظات الأخيرة منْ حياةِ أبيه سعد فيقول: كان رأس أبي في حجري وهو يقضي فبكيتُ، فقال: ما يبكيك يا بني؟! والله إنَّ الله لا يعذبني أبداً، وإنِّي منْ أهلِ الجنَّة، إنَّ الله يدينُ للمؤمنين بحسناتهم، فاعملوا لله، وأمّا الكفار فيخفِّفُ عنهم بحسناتهم، فإذا نفدتْ قال: ليطلب كلّ عامل ثواب عمله ممّن عَملَ له[3].

* وتوفي سعد سنة خمسة وخمسين بالعقيقِ خارج المدينة، فحُمل إلى

---

(1) البداية والنهاية (٨/ ٧٧).
(2) البداية والنهاية (٨/ ٧٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٢ و١٢٣) ومجمع الزوائد (٣/ ٢٥).
(3) طبقات ابن سعد (٣/ ١٤٧) والبداية والنهاية (٨/ ٧٨).

المدينة على أعناقِ الرِّجال، فصلَّى عليه مروان، وصلى بصلاته أمَّهات المؤمنين الباقيات الصّالحات.

وفي البقيع يثوي جثمان فارسِ الإسلام سعد بن أبي وقاص بعد أنْ جاوز الثّمانين.

* قال عليُّ بنُ المديني ـ رحمه الله ـ: كان سعد آخرَ العشرة وفاةً.

* وقال غيرُه: كان آخر المهاجرين وفاة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* وبعد ـ عزيزي القارىء ـ فقد استمعنا واستمتعنا بسيرة فارس الإسلام سعد بن أبي وقاص، وعشْنا معه أوقاتاً سعيدة.

* رضي الله عن سعدٍ، وجعلنا مع الذين سُعِدوا، وفَهِموا تلكم الوقفات الشامخة، فاعتبروا، وأخذوا الدروس والمواعظ، فحريٌّ بالعاقل أن يترسَّم خطى الأبطال في مختلف الميادين، يبني صروح المجتمع، ويكون عنصراً فاعِلاً مؤثِّراً، باذِلاً كل ما بوسعه لترفرف رايات الحق والنصر المبين في مختلف الأمصار والأصقاع.

* * *

(٨)

سعيد بن زيد

- رضي الله عنه -

أحد العشَرة المبشَّرين بالجنّة.

منْ صِفَةِ الصَّفْوَةِ المباركة:

* صفيٌّ كريمٌ، عرفَتْه الفَضَائل وعرفها منذ أنْ عرفَ معنى الحياة، وأدرك حقيقة الفضيلة فامتثلها في مختلف جوانب حياته، ومراحلها.

* كانت نشأتُه في مكةَ أمِّ القُرى، وكان يرى المتناقضات، ويشاهد الأوهام التي يتخبَّط بها النَّاس خَبْطَ عَشْواء دون هداية، وكان يُبْصِر الأصنام التي تنتشرُ حولَ الكعبة، وفي كلِّ مكان، وهي لا تضرُّ ولا تنفعُ.

* لكنَّ هذا الفتى النَّبيهَ النَّبيلَ عَزَفَ عنْ هذهِ العادات كلِّها، ونفرتْ نفسُه منَ الأوثانِ ومنَ الأصْنام، ولعلّه كان يرى أباه وقد عزفتْ نفسُه هو الآخر عن ترَّهاتِ المشركين، فأحبَّ أنْ يلتمسَ دِيْنَ الحقِّ، فَساحَ هنا وهناك يتطلَّبُ الدِّيْن القيِّم لعلّه يجده، ورأى النَّصارى واليهود فكرهَ دِينهم وقال: اللهم إنِّي على دِيْنِ إبراهيم.

* ولكنَّ هذا الأبَ العاقل لم يظفرْ بشريعةِ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ كما ينبغي، ولم يجدْ مَنْ يوقفه عليها، وهو من أهل النَّجاة، فقد شهدَ له رسولُ الله ﷺ بأنَّه «يُبْعثُ أمّةً وَحْده»[1].

* وهذ الأب هو ابن عمِّ عمر بن الخطّاب، وقد رأى النَّبيَّ ﷺ، ولم يعشْ حتى بُعِثَ، هذا الرَّجل هو زيد بن عمرو بن نفيل.

* أمّا ابنه فارس هذه الصَّفحات وضيفنا ـ بل مَنْ نحنُ في ضيافتِه الكريمة ـ فهو سعيد بنُ زيد بن عمرو بن نفيل، أبو الأعور القرشيّ العَدويّ المكي المدنيّ[2]، ابن ابن عمّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٨٩ و١٩٠) والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٩٦) ومجمع الزوائد (٩/ ٤١١) ونسبه الهيثمي في المجمع إلى الطبراني والبزار باختصار.

(٢) المسند (١/ ١٨٧) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨٥) ونسبُ قريش (ص ٤٣٣) والمعارف (ص ٢٤٥ و٢٤٦) ومسند أبي يعلى (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٦١) والاستيعاب (٢/ ٢ ـ ٨) والمستدرك (٣/ ٤٩٥ ـ ٤٩٨) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٩٨ ـ ٣٠٣) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ٢١٧ و٢١٨) والبدايةُ والنّهاية (٨/ ٥٧) وسيرُ أعلام=

* وقبل أنْ نسعدَ مع سعيد بن زيد في سيرته، سنلقي بعض الضَّوء على سيرةِ والده زيد بن عمرو لكي تتوضَّحَ صورة سعيد بن زيد ـ رضوان الله عليه ـ أكثر فأكثر.

* كان زيد بن عمرو يتعبَّدُ في الفترة قبل النّبوّة على دِيْنِ النبيِّ إبراهيم عليه السَّلام، ويُوحِّدُ الله تعالى، ويعيبُ على قريش ذبائحهم على الأنصاب، ولا يأكل ممّا ذُبح على النُّصُبِ، وكان إذا دخل الكعبةَ قال: لبيك حقاً حقاً، تعبّداً ورقّاً، عذتُ بما عاذ به إبراهيم.

* روت أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ خبراً كريماً عن زيد بنِ عمرو فقالت:

لقد رأيتُ زيدَ بنَ عمرو بنِ نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبةِ يقول: يا معشر قريش! واللهِ ما منكم على دِيْنِ إبراهيم غيري.

وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أنْ يقتلَ ابنته: لا تقتلها! أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعتْ قال لأبيها: إنْ شئتَ دفعتُها إليك، وإن شئتَ كفيتُك مؤنتها[1].

وكان يقول: يا قريش! إياكم والزِّنى، فإنّه يُورثُ الفقر[2]. وفي رواية: إياكم والرّبا فإنّه يُورث الفقر.

* وكان يعيبُ على قريش ويقول: الشّاة خَلَقَها اللهُ، وأنزل لها منَ

= النّبلاء (١/ ١٢٤ ـ ١٤٤) والعقد الثّمين (٤/ ٥٥٩ ـ ٥٦٤) وتهذيبُ التّهذيب (٤/ ٣٤) والإصابة (٢/ ٤٤) وغيرها كثير.

(١) فتح الباري (٧/ ١٧٦) حديث رقم (٣٨٢٨).

(٢) عن تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٥) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٨) مع الجمع. وللحديث أصل في صحيح البخاريّ، إذ رواه تعليقاً في المناقب برقم (٣٨٢٨) باب: حديث زيد بن عمرو بن نفيل. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٠ و٣٨١) والمستدرك (٣/ ٤٩٧) والسّيرة النّبوية لابن هشام (١/ ٢٢٥) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٦) ومجمع الزوائد (٩/ ٤١٨).

السَّماء، وأنْبَتَ لها منَ الأرض، ثمَّ تذبحونها على غيرِ اسم الله[1]!.

* هذا؛ وقد توفي زيدُ بنُ عمرو قبل المبعث، وذكر ابنُ إسحاق أنَّ ورقة ابن نوفل قد رثاه بأبيات، وهي:

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنَّما
تَجَنَّبتَ تنُّوراً منَ النَّار حاميا
بدِيْنِك ربّاً ليس ربّ كمثلهِ
وتركك أوثانَ الطَّواغي كما هيا
وإدراكك الدِّين الذي قد طلبتَه
ولم تكُ عن توحيدِ ربِّك ساهيا
فأصبحتَ في دارِ كريم مقَامُها
تعلل فيها بالكرامةِ لاهيا
وقد تدركُ الإنسان رحمةُ ربِّه
ولو كان تحتَ الأرضِ سبعين وَاديا[2]

* ومن شعرِ زيدِ بنِ عمرو الذي يشيرُ إلى عقيدته وتوحيده:

أربٌّ واحدٌ أمْ ألفُ ربٍّ | أَدِينُ إذا تقسَّمتِ الأمورُ
عزلتُ اللاتَ والعزّى جميعاً | كذلك يفعلُ الجلدُ الصَّبورُ
فلا العزَّى أَدِينُ ولا ابنتيها | ولا صنَمي بني عمرو أديرُ[3]

* روى عامر بن ربيعة[4] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي زيدُ بنُ عمرو بن

---

(١) سير أعلام النبلاء، وأصله في البُخاري في المناقب برقم (٣٨٢٦) باب: حديث زيد بن عمرو بن نفيل، وفي الذّبائح برقم (٥٤٩٩) باب: ما ذبح على النُّصب والأصنام. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٠) والاستيعاب (٢/ ٤).

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية لابن هشام (١/ ٢٣٢) ونسب قريش (ص ٤١٨) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٤ و١٦٥) والبداية والنّهاية (٢/ ٢٣٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٣٥).

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٦٧) وللأبيات بقية فانظرها هناك.

(٤) اقرأ سيرة هذا الفارس الباسل في هذا الكتاب ص(٣٥٩).

نفيل: إنّي خالفتُ قومي، واتبعتُ ملّة إبراهيم وإسماعيل وما كانا يعبدان، وكانا يصلّيان إلى هذه القبلة، وأنا أومنُ به، وأصدِّقه، وأشهد أنّه نبي، وإنْ طالت بك حياة فأقرئهُ منّي السّلام. قال عامر: فلمّا أسلمتُ أعلمتُ النّبيَّ ﷺ بخبره.

قال: فردَّ عليه السّلام، وترحّم عليه، وقال: «ولقد رأيتُه في الجنَّةِ يسحبُ ذيولاً»[1].

سَعِيد وإسْلامُ عُمَر:

* سعيد بنُ زيد ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ منْ فرسانِ الرّسول ﷺ، الذين استجابوا لدعوةِ الإسلامِ منذ أنْ أشرقَ بنوره، على أمِّ القُرى، فكان منَ السّابقين الأوّلين، منَ الذين رضيَ الله عنهم ورضوا عنه.

* كان إسلام سعيد في معيّة الرّعيل الأوّل، فقد أعلنَ إسلامه قبل أنْ يدخلَ رسولُ الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وقبل أنْ يدعو فيها[2]، فكان إسلامُه مبكراً؛ إذ أدركته عنايةُ الله تعالى، وتفتح عقلُه للتوحيد، فنطقَ بالشهادتين.

* كان سعيد ـ رضوان الله عليه ـ متزوّجاً منْ فاطمةَ بنتِ الخطّاب[3] أخت عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقد أسلمت هي وزوجها سعيد قبل أنْ يسلم عمر، وكانا سببَ إسلام عمر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ وذلك عندما سمعَ عمر في بيتِ أخته شيئاً من القُرآن الكريم.

* ولكنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يعذِّبُ أقاربه قبل أنْ يسلمَ، وكثيراً ما كان يشيرُ على صهره سعيد كي يرجعَ عنِ الإسلام.

---

(1) انظر: فتح الباري (٧/ ١٧٧) وقال ابنه سعيد بنُ زيد: سألتُ أنا وعمر رسول الله ﷺ عن زيد فقال: «غفَرَ الله له ورحمه، فإنّه ماتَ على دِيْنِ إبراهيم» (فتح الباري ٧/ ١٧٧).

(2) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٢).

(3) اقرأ سيرة فاطمة بنت الخطاب في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٣٢٣ ـ ٣٣٤).

* روى الإمامُ البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحهِ بسند رفعه إلى قيس بنِ أبي حازم قال: سمعتُ سعيدَ بنَ زيد بنِ عمرو بنِ نفيل في مسجد الكوفة يقول: واللهِ! لقد رأيتُني، وإنَّ عمر لموثقي على الإسلام قبل أنْ يسلم عمر(١).

* كان سعيدٌ وزوجه فاطمة يخفيان إسلامهما بادىء الأَمْر، وكان الصَّحابي الجليل خبّاب بنُ الأرت ـ رضي الله عنه ـ يختلفُ إلى سعيدٍ وزوجه يقرئهما القرآن الكريم، وفي لحظةٍ مِنَ اللحظات المباركة التي أرادَ اللهُ بها الخير لعمر بن الخطاب، كان إسلامه في بيتِ صهره سعيد بنِ زيد.

* وقصَّة إسلام عمر مشهورة جداً، نوجزها فيما يلي كما أوردتها المصادرُ الوثيقة:

* خرجَ عمرُ ذاتَ يومٍ متوشّحاً سيفه يريدُ البطش بمَنْ يلقاهُ من المسلمين، فلقيه نُعيم بنُ عبدِ الله النَّحام ـ وكان يخفي إسلامه ـ فقال لعمر: أينَ تُريد؟

قال: أريدُ محمّداً هذا الصَّابىء الذي فَرّقَ أَمْرَ قريش، وعاب دِيْنَنَا فأقتله!.

فقال له نُعيم: أترى بني عبد مناف تاركيكَ تمشي على الأرضِ وقد قتلتَ محمداً؟ أفلا ترجعُ إلى أهلِ بيتك فتقيم أمرهم؟!.

قال: وأي أهل بيتي؟

قال نُعيم: ابن ابن عمّك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد أسلما.

* رجع عمر إلى صهره سعيد بن زيد وأخته فاطمة، وعندهما خبَّاب بن الأرتّ، وهم يتلونَ صَدْرَ سورة طه، فسمع عمر صوتهم، ودخل فسأل عنِ الصَّوتِ الذي سمعه، فقال له سعيد وفاطمة: ما سمعتَ شيئاً.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢١٤) حديث رقم (٣٨٦٢) وأيضاً ورد برقم (٣٨٦٧ و٦٩٤٢) ومعنى «لموثقي على الإسلام» أي: ربَطَه بسببِ إسلامه إهانةً له، وإلزاماً بالرُّجوعِ عنِ الإسلامِ.

قال: بلى، لقد أُخْبِرتُ أنكما تابعتُما محمّداً على دِينِهِ.

ثم إنَّ عمر بطش بصهرِه سعيد، وبركَ عليه، فقامت فاطمةُ لتكفّه عن سعيدٍ، فضربها فشجَّها حتى سال الدم منها.

* ولما فعلَ عمر ذلك قالا له: نعم يا عمر! لقد أسْلَمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنعْ ما بدا لك؟.

ورأى عمر الدم يجري من وَجْهِ أخته فاطمة، فأدركته الرِّقة، فسكنَتْ جوارحه، وخَشَع قلبه، وطلب الصَّحيفة التي سمعهم يتلونها، فرفَضا حتى اغتسلَ؛ وعند إذ أعطياه الصَّحيفة، فإذا فيها: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١ ـ ١٤].

فقال عمرُ: ما ينبغي لمن يقولُ هذا الكلام، أنْ يُعْبَدَ معه غيره، وما أحسن هذا الكلام وأكرمه!!.

* ثم إنَّ عمر توجَّه إلى دارِ الأرقم عند جبل الصَّفا، وهناك أمامَ رسول الله ﷺ أعلن إسلامه، فكبَّرَ رسولُ الله ﷺ، وكبَّر معه المسلمون تكبيرةً، عَلِمَ منها أهل مكة أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب قد أسلم[1].

* وسُرَّ سعيد بإسلام هذا الفارسِ العبقري عمر؛ الذي انضم إلى ساحةِ الإيمان، وحَمِدَ الله على أنْ هَدَاه إلى الصِّراط السَّويِّ. ولله درّ عبد الله بن مسعود[2] إذ قال فأصاب وأحسن فأجاد: ما زلنا أعزّة منذ أسْلَم عمر[3].

---

(١) السِّيرة النَّبوية لابن هشام (١/٣٤٣ ـ ٣٤٥) وصفةُ الصَّفْوة (١/٢٦٩ ـ ٢٧١) مع الجمع والتصرف. وانظر تفاصيل القصَّة في طبقات ابن سعد (٣/٢٦٧ و٢٦٨) والبداية والنهاية (٣/٧٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (السِّيرة النَّبوية ص ١٧٤ و١٧٥) ونساء من عصر النّبوة (٢/٣٢٧ ـ ٣٣٠).

(٢) اقرأ سيرة عبد الله بن مسعود في كتابنا «علماء الصَّحابة».

(٣) فتح الباري (٧/٢١٥) حديث رقم (٣٨٦٣).

وكان المسلمون لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة، فلما أسلم عمر رضي الله عنه قاتل قريشاً حتى صلّى عندها، وصلى معه المسلمون. وقد قووا بإسلامه وإسلام=

سَعِيْدٌ وسَهمٌ وأَجْرٌ:

* ظلَّ سعيدُ بنُ زيد ـ رضوان الله عليه ـ في مكةَ يلقى الأذى من مشركي قريش، وصبرَ كما صبرَ الكرام منَ الذين آمنوا، وأذن الله لهؤلاء بالهجرة إلى المدينة، فهاجر سعيدٌ مع المهاجرين، وآخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين أُبيّ بن كعب[1] ـ رضي الله عنه ـ.

* ولما بدأتْ رحلةُ الجهادِ، كانَ سعيد بنُ زيد في طليعةِ فرسان المدرسة النَّبويَّة؛ ممن أَبْدعُوا في ساحاتِ الجِلاد والجهاد، وكانَ له أيادٍ بيضاء لا تُمحى.

* ولما كانت غزاةُ بدر، كانَ لسعيد مهمَّة من رسولِ الله ﷺ؛ فقد أوردتِ المصادرُ هذا فقال:

لما تحيَّنَ رسولُ الله ﷺ وصولَ عيرِ قريش منَ الشَّام، بعثَ طلحةَ بنَ عبيد الله وسعيدَ بنَ زيد ـ رضي الله عنهما ـ قبل خروجه منَ المدينةِ بعشر ليال يتحسَّسان خَبرَ العِيْر، فبلغا الحوراء، فلم يزالا مقيمَيْن هناك حتى مرَّتْ بهما العيرُ، وبلغَ رسولُ الله ﷺ الخبر قبل رجوع طلحة وسعيد إليه، فندبَ أصحابه، وخرج يريدُ العير، فتساحلتِ[2] العَيرُ وأسرعتْ، وساروا الليلَ والنَّهار فَرَقاً منَ الطَّلب، وخرجَ طلحةُ وسعيد ـ رضي الله عنهما ـ يريدان المدينة ليخبرا رسولَ الله ﷺ خبرَ العير، ولم يعلما بخروجهِ، فقدما المدينةَ في اليومِ الذي لاقى رسولُ الله ﷺ النَّفير من قريش ببدر، فخرجا منَ المدينة

= حمزة رضي الله عنهما، وجهروا بالقرآن، ولم يكونوا قبل ذلك يقدرون أن يجهروا به. ففشا الإسلام، وكثر المسلمون، ولعمر بن الخطاب دورٌ كبير في إعزاز المسلمين، حتى قال عبد الله بن مسعود: إنَّ إسلام عمر كان فتحاً، وإنَّ هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة.
(ابن سعد ٣/ ٢٧٠) و(الروض الأنف (٢/ ٩٥) و(إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ٢٤ ـ ٢٥).

(١) اقرأ سيرة أبي بن كعب في كتابنا «علماء الصَّحابة».
(٢) «فتساحلت»: ساحَلَ: سار على السَّاحل، أو: أتى السَّاحل.

يعترضانِ رسولَ الله ﷺ، فلقياه منصرفاً منْ بدرٍ، فلم يشهدْ سعيد وطلحة الوقعةَ، فضربَ لهما رسول الله ﷺ بسهمهما وأجورهما في بدر[1]، فكانا كمن شهدها، وعُدَّا في أَهْلِ بدر.

* وقد شهدَ سعيد بن زيد أُحُداً والخندقَ والحُديبية، والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وكان منْ أعلامِ الفرسان في تلك المشاهد[2].

* روى سعيدُ بنُ جبير ـ رحمه الله ـ ما يؤيّد هذا فقال: كان مقامُ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزُّبير، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كانوا أمامَ رسول الله ﷺ في القِتال، وخلفه في الصَّلاة في الصَّف، وليس لأحدٍ منَ المهاجرين والأنصار يقوم مقام أحدٍ منهم غاب أمْ شهد[3].

مَوَاقفُ مَحمُودةُ الورود في تاريخِ فُروسيّةِ سَعِيْدٍ:

* لسعيدِ بنِ زيد ـ رضي الله عنه ـ مواقفُ مأثورةٌ في تاريخ الجهاد في عَصْر النُّبوّة، منها أنَّه شَهدَ غزاةَ قريظة، وكانَ منْ فرسانها الذين حاصروا اليهود خمساً وعشرين ليلة، نزلوا بعدها على حُكْم رسول الله ﷺ، فحكَم فيهم سعد بن معاذ الأنصاريّ الذي وافَق حكمه حكْمَ الله عزَّ وجلَّ مِنْ فوقِ سَبْع سموات.

* وقسم رسولُ الله ﷺ أموالَ بني قريظة، بعدما أخرج الخُمس، وجَعَل للفارسِ ثلاثةَ أسهم: سَهْمَين للفرس، وسهماً لراكبه، أو للراجل. وكانتِ الخيلُ يومئذ: ستاً وثلاثين.

* وبعد ذلك دَعَا رسولُ الله ﷺ سعيدَ بنَ زيد، وأمره أنْ يذهبَ بسبايا منْ

---

(١) انظر: السير الكبير (٣/١٠٠٩).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٢ و٣٨٣) بشيء من التّصرف. وانظر: المستدرك (٣/٤٩٥) والسّيرة النّبوية لابن هشام (١/ ٦٨٣) والاستيعاب (٢/ ٢ و٣) والكامل في التّاريخ (٢/١١٦ و١٣٧) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٩٩) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٣٦ و١٣٧) وكلها بمعان متقاربة.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٣٠١).

بني قريظة إلى نَجْدٍ، ليشتريَ بها خيلاً وسلاحاً، كيما تزيد قوة المسلمين الحربيّة، ففعل سعيد، وامتثل الأمْرِ النّبويَّ، وذهبَ إلى نَجدٍ، فابتاعَ بها خيلاً وسلاحاً، وعاد إلى المدينة، وقد حظِيَ بمرضاةِ اللهِ ومرضاةِ رسوله ﷺ[١].

* وفي العَصْرِ الرَّاشديِّ كان لسعيد مواقفُ محمودة في ساحِ الجهاد، فقد شهد معركةَ اليرموك، وثبتَ يوم إذ، وكان منْ أمراء الجيشِ في اليرموك، حيث كان على قَلْبِ جيشِ المسلمين، فقد قال خالد بن الوليد لأبي عُبيدة ـ رضي الله عنهما ـ أثناء التَّنظيم لمعركة اليرموك: رأيتُ أنْ يجلسَ سعيد بن زيد مجلسَكَ هذا، ويقف من ورائه وبحذائه مئتان أو ثلاثمئة يكونون للنّاس ردءاً[٢].

* وتمَّ تنفيذُ اقتراحِ خالد بن الوليد، وأخذ أبو عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ لما تراءى الجمعان، وتبارزَ الفريقان، يَعِظُ المسلمين ويقول:

عبادَ اللهِ! انصروا الله ينصركم، ويثبِّتْ أقدامكم، يا معشر المسلمين! اصبروا؛ فإنَّ الصَّبْرَ منجاةٌ منَ الكُفْر، ومرضاة للرّب، ومدحضة للعار.

ثم قال: الزموا الصَّمت إلا منْ ذِكْرِ الله في أنفسكم، حتى آمركم إنْ شاءَ الله تعالى[٣].

* وتصدّى سعيد بن زيد بفرقته لقتالِ الرُّوم، وثَبَتَ ثبات الشُّمِّ الرَّواسي، يقول ابنُ عساكر في تاريخه:

لما نظر سعيد بن زيد إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض، وجَثَا على ركبتيه، حتى إذا دنوا منه طعنَ برايته أوّل رجلٍ منَ القوم، ثمَّ ثار في وجوههم، وأخذ يقاتل، وكان منْ أعظمِ النّاس ثباتاً[٤].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/١٢٦) بشيء من التصرف.
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/ ١٦٤).
(٣) البداية والنهاية (٧/٨).
(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/ ١٦٨).
هذا، ويُعَدُّ ثباتُ فارسنا القائد من متطلبات الإيمان، والصفات القيادية العسكرية، فلكي يُؤدِّي المقاتلون مهماتهم لا بُدَّ أن يحتذوا بقائدهم في الإصرار، والتحدي، =

* نَصَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمين، وشَهِدَ سعيد هذا النَّصر العظيم، ثمَّ شهدَ بعد ذلك حِصَار دمشق وفَتْحها، وكان بصحبة أبي عُبيدة، فولَّاه أبو عبيدة عليها، فهو أوَّلُ مَنْ عَمل نيابة دمشق من هذه الأُمَّة.

* ذكر صلاحُ الدِّين الصَّفدي ـ رحمه الله ـ في كتابه «تحفة ذوي الألباب» أنَّ سعيد بن زيد قد ولَّاه أبو عُبيدة دمشق، وذكر ذلك في بيت منَ الشِّعْر من قصيدة فقال:

وقـــد تـــولَّاهـــا سَعيـــدُ العَـــدَوي
وهـــو علـــى الفَضْـــل المبيـــن محتـــوي[1]

* وبعد أنْ ولَّاه أبو عُبيدة دمشق، نَهضَ أبو عُبيدة بمن معه للجهاد في ساحات الوغى، فكَتَبَ إليه سعيدُ بنُ زيد ـ رضي الله عنه ـ: أمَّا بعد:

فإنِّي ما كنتُ لأوثِرَك وأصحابك بالجهادِ على نفسي وعلى ما يدنيني منْ مرضاةِ الله، فإذا جاءَك كتابي فابعثْ إلى عملك مَنْ هو أرغبُ إليه منِّي، فإنِّي قادمٌ عليك وشيكاً إنْ شاء الله، والسَّلام.

* وهكذا لم يركنْ فارسُ المدرسةِ المحمديَّةِ سعيد بن زيد إلى دَعَةِ الولاية، ومغرياتها، وفتنها، وإنَّما أحبَّ أنْ يكونَ في عدادِ المجاهدين بين ظِلال الأسنَّة والرِّماح؛ وكيفَ لا يحبُّ سعيد الجهاد والفروسية وقد أقسم باللهِ قائلاً: واللهِ لمشهدٌ شهده رجلٌ مع رسولِ الله ﷺ يغبرّ فيه وجهه مع رسولِ الله ﷺ أفْضَل مِنْ عَملِ أحدكم ولو عُمِّرَ عُمْرَ نوح[2].

= وعدم الفرار من الزحف. وفي ذلك عصمةٌ للجنود، ورفع لجاهزيتهم القتالية ومعنوياتهم الروحية.

(١) انظر: «تُحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنّواب» لصلاح الدين الصّفدي (١/ ٧٧) تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي، وزهير حميدان الصمام. طبعة وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٩١م.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٠٠).

وهكذا نلاحظ ونلحظ أنَّ سعيد بن زيد ـ رضوان الله عليه ـ لم تُغْرِه الولايةُ، ولم تغيِّره المناصب، وإنَّما ظلَّ زاهداً، موصولَ القلب بالله عزَّ وجلَّ. =

سَعِيدٌ وَدَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ:

* عُرِفَ عن سعيدِ بنِ زيد ـ رضيَ الله عنه ـ بأنَّه كان موصول القَلْب باللهِ على أساسٍ صحيح، وكان زاهداً في الدنيا وما فيها خَلا العبادة، فإنَّه كان يستزيدُ منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لذا فقد عُرِفَ بأنَّه كان مستجابَ الدَّعوة، وهذا دليلٌ على قُربه من الله المولى، وعلى عميق إيمانه، وصِدْق التجائه إلى خالق السموات والأرض.

* وَرَدَتْ في كُتُبِ الحديث والتَّراجم والسِّيرة قصَّة تشيرُ إلى ذلك مفادها: أنَّ أروى بنتَ أُوَيْس ادَّعَتْ أنَّ سعيدَ بنَ زيد أخذ شيئاً منْ أرضها، فخاصمته إلى مروانَ بنِ الحكم، فقال سعيد: أنا كنتُ آخذ منْ أرضها شيئاً بعد الذي سمعتُ مِنْ رسول الله ﷺ سمعته يقول: «مَنْ أخذَ شيئاً مِنَ الأرض طوَّقه إلى سبعِ أرضين»[1]؟!.

قال مروان: لا أسألك بينةً بعد هذا.

فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة، فأعْمِ بَصَرَها، واقتلْها في أرضها. فما

= وما أجمل قول أبي نُعيم إذ وصفَه في مطلع ترجمته بقوله: وأمّا سعيدُ بنُ زيد بن عمرو بن نفيل، فكان بالحقِّ قوّالاً، ولماله بذّالاً، ولِهَوَاه قامعاً وقتّالاً، ولم يكن ممَّنْ يخافُ في الله لومة لائم، وكان مجابَ الدَّعوة، سَبَقَ الإسلام قبل عمر بن الخطاب، شهد بدراً بسَهْمه وأجره، رغبَ عن الولاية، وتشمَّر في الرِّعاية، قَمَع نفسه، وأخفى عن المنافسة في الدُّنيا شخصه، اعتزل الفتنة والشُّرور، المؤدية إلى الضيعة والغرور، عازماً على السَّبق والعبور، المفضي إلى الرفعة والحبور، كان للولايات قالياً، وفي مراتب الدُّنيا وانياً، وفي العُبودية غانياً، وعن مساعدة نفسه فانياً. (حلية الأولياء ١/ ٩٥).

(١) أي: مَنْ أخذ شيئاً من الأرض بغير حقّه يُعَدُّ من أكبر الكبائر على أيِّ وجهٍ كان مِنْ غَصْبٍ، أو سرقة، أو خديعة، قليلاً كان أو كثيراً. ومعنى: طُوِّقه: كُلِّف أن يطيق حَمْلَه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. وقيل: جُعِلَتْ في عنقه كالطوق، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقيل: خُسِف به في مثل الطَّوْق منها، وهو ظاهرُ قوله: «طوّقه إلى سبع أرضين».

ماتت حتى عميت، وبينا هي تمشي في أرضها، إذ وقعت في حفرة فماتت[1].

* وذكر ابنُ سيِّد النَّاس[2] ـ رحمه الله ـ دعوة سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ على أروى بنت أويس، فأنشدَ من قصيدة:

وَدَعَـا علـى أروى سعيـدٌ بـالعمـى
يـا ويـحَ أروى مـنْ دعـاءِ الأَرْوَعِ[3]

* وتشيرُ بعض المصادر إلى أنَّ أروى بنتَ أويس هذه، سألَتْ سعيداً أنْ يدعو لها، وقالت: إنِّي ظلمتُك.

فقال: لاأردُّ على اللهِ شيئاً أعطانيه.

* وكان أهلُ المدينة يدعو بعضهم على بعضٍ فيقول: أعماكَ اللهُ عمى أروى، يريدونها ـ أي: أروى بنت أويس ـ ثمَّ صار أهلُ الجهل يقولون: أعماكَ الله عمى الأروى، يريدونَ الأروى التي بالجبل يظنونها شديدة العمى، ويقولون: إنَّها عمياء، وهذا جهل منهم[4].

* وقد كشفَ اللهُ عزَّ وجلَّ الحقيقة للنّاس، وعرفوا أنَّ سعيداً كان صَادقاً،

---

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ في المساقاة برقم (١١٦٠) باب: تحريم الظّلم وغصب الأرض.
وأخرجه البخاري كذلك في بَدْءِ الخلق برقم (٣١٩٨) وفي المظالم مختصراً برقم (٢٤٥٢).
وأخرجه أحمد في المُسند (١/ ١٨٨ و١٨٩ و١٩٠) وأبو نُعيم في الحلية (١/ ٩٦ و٩٧) بروايات متعددة. وللحديث أصل في السّنن أيضاً، فقد أخرجه النّسائي في تحريم الدم (٧/ ١١٥) باب: من قتل دون ماله، وابن ماجه في الحدود برقم (٢٥٨٠) وأبو داود في السُّنة برقم (٤٧٧٢) والتّرمذي في الدّيات برقم (١٤٢١) وأخرجه أبو يعلى (٢/ ٢٥٠) برقم (٩٥١) وكذلك بالأرقام (٩٢٨ و٩٤٩ و٩٥٠ و٩٥٣).

(٢) انظر: المقامات العلية في الكرامات الجليّة (ص ٥٧).

(٣) «الأروع»: المقصود هنا من التّقوى والورع.

(٤) انظر: الاستيعاب (٢/ ٦) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٣٠١) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٣٣) والإصابة (٢/ ٤٤).

ولم يأخذْ حقَّ أروى أو يظلمها، وكان يقول: اللهم أظْهِرْ منْ حقي نُوراً بينَ المسلمين فإنّي لم أظلمها[1].

* وبينما هم على ذلك، إذ سَالَ وادي العقيق سَيْلاً لم يَسِلْ مثله قطّ، فكشفَ عن الحدِّ الذي كانا يختلفان فيه، فإذا سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ في ذلك قد كان صادقاً، ثمّ لم تلبث أروى يسيراً حتى عميت، وعرف النَّاسُ الحقيقة[2].

سَعِيْدٌ ورواية الحديث النبوي:

* سعيد بن زيد ـ رضوان الله عليه ـ واحدٌ منْ فرسان الصحابة الذين حلَّقُوا في ساحاتِ الجهاد، كما أبدعوا في العِلْم، ورواية الحديث النَّبوي الشَّريف.

* رُوي لسعيد عن رسولِ الله ﷺ ثمانية وأربعون حديثاً، منها حديثان في الصَّحيحين متَّفَقٌ عليهما، وانفرد البخاريُّ له بحديث واحد[3].

* روى عن سعيد عدد من الصَّحابة منهم: عبد الله بن عمر، وأبو الطُّفيل، وعمرو بن حريث ـ رضي الله عنهم ـ.

* كما روى عنه طائفةٌ منَ التَّابعين منهم: زِرُّ بن حُبيش، وعروةُ بنُ الزُّبير، وعبد الله بن ظالم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وطائفة.

* ومن مرويّاته الحديث الشَّهير الذي وَرَدَ في الصَّحيح والسُّنَن، روي عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأةُ من المَنِّ، وماؤها شفاءٌ للعين»[4].

---

(١) الإصابة (٢/ ٤٤) بتصرف يسير جداً. وكان أبو محمّد بن عمرو بن حزم يقول لأروى: لا تؤذي صاحبَ رسولِ الله ﷺ، فما كان ليظلِمَك، ولا يأخذ لك حقاً. (الاستيعاب ٢/ ٧).

(٢) الإصابة (٢/ ٤٤) بتصرف.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٧) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في التّفسير برقم (٤٤٧٨) و(٤٦٣٩) وفي الطّب برقم (٥٧٠٨). =

= ومسلم في الأشربة برقم (٢٠٤٩) باب: فضل الكمأة ومداواة العين بها.
وأخرجه الإمام أحمد (١/ ١٨٧ و١٨٨) والترمذي في الطب برقم (٢٠٦٨) باب: ما جاء في الكمأة والعجوة، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٢٥٤) برقم (٩٦١). وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٢٩٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٥) والمواهب اللدنية (٣/ ٤٧٢) والطّبّ النبوي لعبد اللطيف البغدادي (ص ١٤٥ و١٤٦) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة. وقال ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ في «الزّاد»: اعترفَ فُضَلاء الأطبّاء أنَّ ماءَ الكمأةِ يجلو العين، منهم المسيحي، وابن سينا، وغيرهما.
والكمأة: نباتٌ لا ورق له ولا ساق يُوجد في الأرض من غير زرع. وروى الطبري منْ طريق المنكدر عن جابر قال: كثُرتِ الكمأةُ على عهدِ رسول الله ﷺ، فامتنع قومٌ من أكلها، وقالوا: هو جدريُّ الأرضِ، فبلغه ذلك فقال: «إنَّ الكمأة ليست جدري الأرض، ألا إنَّ الكمأة منَ المنِّ».
قال الخطّابي ما مفاده: إنَّ الكمأةَ شيءٌ ينبعثُ منْ غيرِ تكلّف ببذرٍ ولا سقي، وإنّما اختصَّت الكمأةُ بهذه الفضيلة لأنها منَ الحلالِ المحض؛ الذي ليس في اكتسابه شبهة، ويستنبط منه أنَّ استعمال الحلال المحض يجلو البَصر.
هذا ولقدماء الأطباء أقوالٌ في كيفية استعمال الكمأة للاكتحال بمائها.
من ذلك قول ابن واقد: إذا اكتُحِل بماء الكمأة بميلٍ من ذهب، تبيّن للفاعل لذلك قوة عجيبة، وحدّة في البصر كثيرة.
ونقل الموفّق عبد اللطيف البغدادي عن فائدةِ الكمأة للبصر أنَّ أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أخذتُ ثلاثة أكمئة، أو خمسة، أو سبعة، فعصرتهن، وجعلتُ ماءهن في قارورة، وكحّلت به جارية لي فبرأتْ (الطبّ النبوي تحقيق: يوسف علي بديوي ص ١٤٦).
ولعله من المفيد هنا أنْ نذكر ما جرى للمتوكل على الله الخليفة العباسيِّ من علاجه بالكمأة، حيث قال عليُّ بن الجهم الشّاعر المعروف:
دعاني المتوكل أمير المؤمنين، فقال لي: قد أكثرتُ منَ الأدوية لعيني، وليس تزدادُ إلا رمداً، فَسَلْ أهلَ العلم؛ هل يعرفونَ في ذلك أثراً عنِ النبي ﷺ؟! قال عليّ: فمضيتُ إلى أحمدَ بنِ حنبل فسألتُه عن ذلك فقال: روى لنا شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: «الكمأةُ منَ المنِّ وماؤها شفاء العين».
قال: فرجعت إلى المتوكل فأخبرته، فقال: ادع لنا يُوحنا بن ماسويه ـ وكان طبيباً

* قال ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ في «الزّاد» ما مفاده: إنَّ الكمأةَ خُلقتْ في الأصلِ سليمةً من المضار، والكمأة في الأصل نافعة لما اختصت به من وصفها بأنها من الله.

* ومن مرويات سعيد أيضاً ما رواه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ما تركتُ بعدي في النّاس فتنة أضرَّ على الرِّجالِ من النِّساء»[1].

سَعِيدٌ والمبشَّرونَ بالجنَّــة وأدبُ التُّراث:

* سعيدُ بنُ زيد ـ رضي الله عنه ـ من العشَرة المبشّرين بالجنّة، وهم أفضل قريش، وأفضل السّابقين المهاجرين، وأفضل البدريين، وأفضل أصحاب الشّجرة، وسادة هذه الأمّة في الدنيا والآخرة، وهم فُرسان الأمّة، وأبطال الإسلام؛ وقد وَرَدَ في الحديث الشّريف أنَّ المبشّرين بالجنّة عشرة[2]، وراوي هذا الحديث هو سعيد بن زيد قال: قال رسولُ الله ﷺ:

= ماهراً جمع بين الطّب والأدب ـ فدعوته، فقال له المتوكل: كيف تستخرج ماء الكمأة؟ قال: أنا أستخرج ذلك. فأخذ الكمأة فقشرها، ثم سلَقها بعدما نضجت أدنى النّضج، ثمّ شقّها، واستخرج ماءها بالميل؛ فكحلَ به عين المتوكل، فبرأتْ من الدفعة الثانية، فعجب من ذلك يوحنا وقال: أشهد أنَّ صاحبَكم كان حكيماً ـ يعني: رسول الله ﷺ ـ.

انظر: كتاب (المنهج السّوي والمنهل الرّوي في الطّب النبوي للسّيوطي ص ٣٣٥ و٣٣٦).

(١) مسند أبي يعلى (٢/ ٢٦٠) حديث رقم (٩٧٢). والحديث أخرجه مسلم في الذكر برقم (٢٧٤١)، والترمذي في الأدب برقم (٢٧٨١).

(٢) أودُّ التّنبيه إلى أنَّ هنالك ثُلة من الصّحابة الكرام، قد حظُوا بالبشارة بالجنّة من رسول الله ﷺ، في أحاديث وردت في الصّحيح والسُّنن والآثار المتواترة؛ التي تتوافقُ مع منهج القرآن الكريم.

وكنتُ منذ سنوات خَلَتْ قد قمتُ بتصنيف كتاب عنوانه «رجال مبشرون بالجنة» وكان المفروض أنْ يصدرَ في عشرةِ أجزاء كبيرة، إلا أنَّ الظّروف التي أحاطتْ بي ـ وأنا في الكويت ـ قد حالتْ دونَ ذلك، وصدر الكتاب في جُزأين ليس غير، وقد ذكرتُ فيه أسماء صحابة كرام من غيرِ العشرة مع الدّليل القاطعِ منَ القرآن الكريم =

«عشرةٌ منْ قريش في الجنَّةَ: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزُّبير، وعبد الرّحمن بن عوف، وسعد بن مالك، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو عُبيدة بن الجراح»[1].

* وعن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عشرةٌ في الجنَّةِ: أبو بكر في الجنَّةِ، وعمر في الجنَّةِ، وعُثمان في الجنَّة، وعليّ في الجنَّةِ، وطلحة في الجنَّةِ، والزُّبيرُ في الجنَّة، وعبدُ الرّحمن بن عوف في الجنَّة، وسعدُ بن أبي وقاص في الجنَّةِ، وسعيدُ بن زيد بن عمرو في الجنَّةِ، وأبو عُبيدة بن الجراح في الجنَّةِ»[2].

* هذا وقد أُثْرِيَ تُراثنا المبارك بنفحاتٍ كريمةٍ عبقةٍ، تحكي كرامةَ هؤلاء العشرة وأعمالهم الجليلة، وتحكي آثارهم الوضيئة؛ وقد تبارى العُلماء والشُّعراء والأدباء في إبراز محاسنهم شعراً ونثراً وخطابة، وغير ذلك من فنونِ الكلام وألوان البلاغة العربية.

* ولقد أُغرم كثيرٌ من شعراءِ العُلماء بنظمِ أسماءِ هؤلاء الكرام البررة العشرة، وغيرهم من الصَّحب الكرام الأعلام جميعاً، منْ ذلك قول الشَّاعر في الصَّحابة أجمعين:

همو صحابة خَيْرِ الخَلْقِ أَيَّدهم
رَبُّ السَّماء بتوفيقٍ وإيثارِ

= والسُّنة المطهرة.

هذا؛ وقد قامت دار ابن كثير بدمشق بإصدار تلك السِّلسلة المباركةِ التي كَتَب الله عزَّ وجلَّ لها التّوفيق، وأكرمني الله تعالى بفضله، ومَنَّ عليَّ بأنْ أكرمني ـ أيضاً ـ بالكتابة عن نساءِ مبشرات بالجنّة، وقد صَدر هذا الكتاب في جُزأين أيضاً عن دار ابن كثير بدمشق، وكُتبَ لهذا الكتاب القبول بين أوساط القراء، ولله الحمد.

وأرجو الله العلي الكبير أنْ يلهمنا الصَّواب في أعمالنا، وأنْ يكرمنا ببركةِ هؤلاء الصَّحابة الأبرار الأخيار الأطهار.

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٣).

(٢) مسند أبي يعلى (٢/١٤٨) رقم (٨٣٥) وأخرجه أحمد (١/ ١٩٣) والترمذي في المناقب برقم (٣٨٤٨).

فحبُّهم واجبٌ يشفى السَّقيمُ به
فمَنْ أحبَّهم ينجو من النَّارِ

* وقال آخر فأحسنَ وأجاد:

حبُّ النَّبيِّ على الإنسانِ مفترض
وحبُّ أصحابِهِ نورٌ ببرهانِ
فهم صحابةُ خيرِ الخلقِ خصَّهُم
ربُّ العبادِ بجنَّاتٍ ورضوانِ
فَمَنْ أحبَّهم قد نالَ منزلةً
عندَ الإلهِ وجازاه بإحْسَانِ
عليهم منْ سلامِ اللهِ أطْيبه
ما ناحتِ الوُرْقُ[1] في أوراقِ أغصانِ

* وهذه المنظومات كثيرةٌ جداً، تحتاجُ إلى كتابٍ كبير، ولكنَّ الذي يهمنا هو العشرة الذين وردوا في حديثٍ واحد؛ فقد تبارى العُلماء والشّعراء أيضاً في نَظْم أسمائهم في قصائدَ ومقطعاتٍ جاءت في غايةِ الجمال والرَّونق، وتدلُّ على مكانةِ هؤلاء العشرة الكرام في عالَم الصَّحابةِ الأعلام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ وقد أحببتُ أنْ أوردَ بعضَ تلكم الآداب، في هذا الكتاب، كيما نجدِّدَ النَّشاط في قراءةِ سير أعلام هؤلاء النّبلاء، وكيما نقتدي بهم، وكيما ننتفع بهديهم وسيرتهم وسلوكهم الحسن، الفيَّاض بالخير.

* ولما رحتُ أستقصي في المصادرِ ما أبتغيه في هذا المجال، ألفيتني أمام تراثٍ تليد لا يمكن الإحاطة به، وقد لَفَتَ نظري وأنا أقلِّب الصَّفحات في كُتُب التّراث، بأنَّ هناك بدائع تشيرُ إلى البدائه التي وَهَبَها الله لأولئك الشّعراء منَ العُلماء، والفُضَلاء، والحكماء.

* ولقد لَفَتَ نظري قصيدة رائعة لابنِ جابر الأندلسيّ في كتاب «نَفْح

(١) «الوُرْق»: جمع وَرْقَاء، وهي الحمامة، أو: التي لونها كالرَّماد فيه سواد.

الطِّيب»[1] للمقريّ، وهذه القصيدة آيةٌ في الإبداعِ والفنِّ الشّعريِّ حيث فيها التّورية والتّصريح بسورِ القُرآن الكريم مرتبة حسب ورودها في المصحف الشّريف، وفيها كذلك مَدْح الرّسولِ الكريم ﷺ وأصحابه العشرة الكرام ومطلعها:

فــي كــلِّ فــاتحــةٍ للقَــوْلِ مُعْتَبَــرة
حــقُّ الثّنــاءُ علــى المبعــوثِ بــالبَقَــره

فــي آلِ عِمْــران قِــدْمــاً شــاعَ مبعثــه
رجــالهــم والنِّســاء استــوضحــوا خبــره

ثم يذكرُ بقية سُوَرِ القُرآن الكريم كاملة مرتبة وعددها: (١١٤ سورة) ثمّ يذكر العشرة المبشّرين بالجنَّة، ويخصّهم بمدحه، ويوردُ أسماءهم، فيقول:

أزكــى صــلاتــي علــى الهــادي وعتــرتــه
وصحبــه وخصُــوصــاً منهُــم عشــره

صــديقهــم عمــر الفَــاروق أحــزمهــم
عثمــان ثــمَّ علــيّ مهْلِــك الكَفَــره

سعــد سعيــد زبيــر طلحــة وأبــو عُبيــدة
وابــن عــوف عــاشــر العشــره

* ثمَّ إنَّه خَتَم قصيدته هذه بقوله:

أقسمــتُ لا زلــتُ أهــديهــم شَذَا مــدحــي
الــرّوض ينشــرُ مــن أكمــامــه زهــره

* وقد نظمَ أسماء العشرة كثيرٌ منَ العلماء، فقال بعضهم:

لقــد بُشِّــرتْ بعــد النَّبــيِّ محمَّــد
بجنَّــةِ عَــدْنٍ زمــرةٌ سُعَــداءُ

---

(١) انظر: نفح الطيب (١٠/ ١٨٢ - ١٨٥) طبعة مصر. ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ هذه القصيدة الجميلة الرائعة قد عارضها كثيرٌ من الأدباء والشّعراء، ولكنّهم لم يلحقوا شأوها، ولابن جابر قصيدة دالية طويلة ذكر فيها العشرة المبشرين بالجنّة وبعض الصّحابة الأعلام تدل على ذكائه وفهمه لحياة الصّحابة.

سعيـــدٌ وسعـــد والـــزُّبيـــر وعـــامــر
وطلحـــة والـــزّهـــري والخلفـــاءُ[1]

* ولقد تفنن كثيرٌ منَ العلماءِ في نَظْمِ أسماء هؤلاء العشرة، ومن بينهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ إذ أنشد لنفسه فقال:

لقــد بشَّــر الهــادي مــنَ الصَّحــب زمـرة
بجنّــات عــدنٍ كلّهــم فضلــه اشتهــر
سعيـــد زُبيـــر سعـــد طلحـــة عـــامــر
أبو بكر عثمان ابن عوف علي عمر[2]

* ومن أجملِ ما نظم ابن حجر في المبشّرين هؤلاء قوله من قصيدة:

وجــوهُ أصحــابــه كــالــدُّرِّ مشــرقــةٌ
إذا رأيــتَ امــرأً عــنْ هــديهــم صــرفــا
نــالـــوا السّيـــادةَ فـــي دنيـــا وآخــرة
والسَّبــقَ والفَضْــل والتَّقــديــم والشَّــرفــا
وبــالــرِّضــا خُــصَّ منهــم عشــرة زُهُــرٌ
يــا ويــح مَــنْ فــي مــوالاةِ لهــم وقَفَــا
سعـــد سعيـــد زبيـــر طلحـــة وأبـــو
عُبيـــدة وابـــن عـــوف قبلـــه الخُلَفَـــا
لا تســألــن القــوافــي عــن مــآثــرهــم
إنْ شئــتَ فــاستنطــقِ القــرآنَ والصُّحفــا[3]

* ولأبي الوليد بن الشّحنة بيتان في العشرة يقول فيهما:

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٤٢٦).
(٢) فتح الباري (٧/ ٣٧) وكذلك جمعهم الحافظ بن حجر على النّحو التالي:
لقد بشر الهادي منَ الصَّحب عشرة   بجنّات عـدن كلّهـم قـدرهـم عَلـي
عتيــقٌ سعيـــدٌ عثمـــانُ طلحـــةُ   زبيرُ ابنُ عـوفٍ عـامر عمرُ علـي
(٣) ديوان الحافظ بن حجر (ص ١٤ و١٥).

أســمـــاءُ عشـــرٍ رســـولُ اللهِ بشّـــرهـــم
بجنّـــةِ الخُلـــدِ عمّـــن زانهـــا وعَمَـــر

سعـد سعيـد علـيٍ عثمـان طلحـة أبـو
بكـر ابـن عـوف ابـن جـراح الـزبيـر عُمَر

* وهذا فصل طويل جداً، وبقدرِ ما هو طويل طريف، ولكنّي قد استلهمتُ هذه الهَمَسات الرّقيقة من رياض الأدب الأنيقة، ومن سيرة سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ، ومن بقية الصَّحابة الكرام الذين نحبّهم، ونجلّهم[1].

﴿أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا﴾:

* في ظلالِ الخلافةِ الرَّاشدة عاش سعيد بن زيد، وهو يتابعُ رحلةَ الجهاد بهمّة وعزيمة لا تلين، يرجو بذلك وجْهَ الله تعالى، وثواب الدَّار الآخرة؛ لذلك سعى لها ما وسعه لكي يكون منَ السُّعَداء.

* وفي خلافةِ صهره عمر بن الخطاب، كان مقامه محموداً زاهراً، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يحبّه، ويجلّه، ويحترمه، فهو يعرف سابقته، وأفضليته، وكان يذكر كيف هبّتْ نسمات الإيمان على نفسه في داره بمكة؛ لذلك لما طُعِنَ عمر في صلاة الفجر، وغدر به أبو لؤلؤة المجوسيّ، لم يجعلْ سعيدَ بن زيد في أهلِ الشُّورى لأسباب رآها عمر ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) ذكر الإمام أحمد بن محمّد القسطلاني في المواهب علامة حبّ الصَّحابة الكرام فقال:

ومن محبتهم: وجوب توقيرهم، وبرّهم والقيام بحقوقهم، والاقتداء بهم، بأنْ تمشي على سنّتهم، وآدابهم، وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال، وحسن الثّناء عليهم بأن يذكروا بأوصافهم الجميلة على قصد التّعظيم، فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، ومن أثنى الله عليه فهو واجب الثّناء، والاستغفار لهم. قال سهل بن عبد الله التّستري: لم يؤمن بالرّسول ﷺ مَنْ لم يوقّر أصحابه، ولم يعزّ أوامره. (المواهب اللدنية ٣/ ٣٩٣ و٣٩٤).

* من هذه الأسباب، أنَّ سعيداً لم يكن متأخراً عن رتبة أهل الشُّورى في السَّابقة والجلالة، وإنّما تركه عمر ـ رضي الله عنه ـ لئلا يبقى له فيه شائبة حظّ؛ لأنّه صهره، وابن عمه، فأخرج عمر ـ رضي الله عنه ـ من الشُّورى ولده، وكذلك عصبته، وكذلك فليكنِ العملُ لله عزَّ وجلَّ، ولعمري هذا هو الإخلاص(١).

* ولما ماتَ عمر بكاه سعيد بكاء شديداً ـ وحقَّ له أن يبكيَ ـ فقال له قائل: ما يبكيك؟.

فقال: على الإسلام أبكي، إنَّ موت عمر ـ رضي الله عنه ـ ثَلَمَ الإسلام ثُلمةً لا تُرتقُ إلى يومِ القيامة(٢).

* وامتدتِ الحياة بسعيد إلى خلافةِ معاوية ـ رضي الله عنهما ـ حيثُ توفي في سنة إحدى وخمسين وعمره بضعٌ وسبعون سنة، وكان رجلاً أسمرَ طويلاً ـ رضي الله عنه ـ.

* توفي سعيد في يومِ جُمُعة بعدما ارتفعَ النَّهار، فأتاهُ عبد الله بن عمر بالعقيق، وتركَ الجمعة(٣).

* وعن نافع قال: مات سعيدُ بنُ زيد، فقالت أمُّ سعيد لعبد الله بن عمر: أتحنّطه بالمسْكِ؟.

قال: وأي طيبٍ أطيب منَ المِسْك؟ هلمِّي مسكاً، فناولته إياه(٤).

* قال محمد بن عمر ـ رحمه الله ـ: ماتَ سعيدٌ ـ رضي الله عنه ـ بالعقيقِ، وحُمِلَ فدُفِنَ بالمدينة، وشهدَ سعدُ بنُ أبي وقاص وابنُ عمر وأصحابُ

---

(١) عن سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٨) بتصرف.
(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٧٢).
(٣) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٣٩٩٠) وانظر طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٥) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٣٠٣).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٣٠٣).

رسول الله ﷺ وقومُه وأهلُ بيته وولدُه على ذلك يعرفونَه ويروونه[1]. ونزلَ في قبرِه عبدُ الله بن عمر وسعدُ بن أبي وقاص - رضي الله عنهم جميعاً -.

* رضَي اللهُ عنِ الفَارسِ الزَّاهد سعيدِ بنِ زيد، ونَفَعنا بسيرته، وجَعَلنا نهتدي بسلوكه وهُداه، فأعمالُه قدوة، وأفعاله أسوة.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٥).

(٩)

سلمة بن الأكوع

ـ رضي الله عنه ـ

مدحهُ ﷺ بقوله: «خيرُ رجالتنا سلَمة».

فضَـائلُ كَريمَـة فريـدة في رحـاب المكـارم:

* ما رأيكم لو نشهدُ بطولةَ هذا الفارس الرَّاجل العَدَّاء، والصَّحابي النَّبيل الكريم، الذي رافقَ رسولَ الله ﷺ في سَبْعِ غزوات، وبايعه في يومٍ واحدٍ ثلاث بيعات؟!.

* هذا الفارسُ الرَّاجلُ كان قريباً جدّاً مِنْ مجالسِ رسولِ الله ﷺ، وكان مِنْ صالحي الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ تركَ أهْلَه ومالَه مُهاجراً إلى اللهِ تعالى ورسوله ﷺ.

* أمَّا عنْ مكانتهِ مِنْ رسولِ الله ﷺ، فقد حدَّثَ عن نفسهِ فقال: أردفَني رسولُ الله ﷺ مراراً، ومسحَ على وجهي مراراً، واستغفَرَ لي مراراً، عددَ ما في يديَّ من الأَصَابع[1].

* وهذا الفارسُ الشُّجاعُ كان أَحَدَ حراس رسول الله ﷺ، وأحد الصَّحابة الذين كانوا يُفْتونَ بالمدينةِ، ويحدّثون منذ وفاة سيّدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى أنْ تُوفُّوا.

* فهل عرفتم هذا الصَّحابي الفارس الجريء؟! وهل عرفتم هذا العدَّاء الماهر المتفوّق؟

قال عنه ابنُ عبد البرِّ والنَّووي ـ رحمهما الله ـ: كان شُجاعاً، رامياً، مُحسِناً، سخيّاً، خيّراً، فَاضلاً[2].

* وقال عنه ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: كان من الشُّجعان، ويسبقُ الفرسَ عدواً[3].

* لا شكَّ أنَّ هذا الفارسَ مِنْ نوع فريد في عالَم الشَّجاعةِ، لا سيما وأنَّه قد وَرَدَ في الأخبارِ الوثيقة أنه هَزَمَ جيشاً بمفردهِ شَدّاً على قدميه!!.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٠/٨٩) وسير أعلام النّبلاء (٣/٣٣٠) ومجمع الزّوائد (٩/٣٦٣).

(٢) الاستيعاب (٢/٨٦) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/٢٢٩).

(٣) انظر: الإصابة (٢/٦٥).

* والآن، تعالَوا نتعرَّف هُوِيَّة هذا الصَّحابي الكريم.

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع. واسم الأكوع: سنان بن عبد الله، أبو عامر، وأبو مسلم، ويُقال: أبو إياس الأسلميّ الحجازيّ المدني[1] من أهل بيعة الرِّضوان، وما أدراك ما أهل بيعة الرضوان؟! إنهم صحابة كرام، قدَّموا أرواحهم على راحاتهم صَوْناً للدِّين، وذوداً عن حمى العقيدة.

سَلَمَـةُ وبَـيْـعَـاتٌ ثَـلاث في موقف واحد:

* سلمةُ بنُ الأكوع واحدٌ منْ أعلامِ الفُرسان، الذين شهدوا مغازي رسول الله ﷺ، وأبلوا فيها بلاء حَسَناً.

* أخرجَ البخاريُّ ومسلم وابنُ سعد ـ رحمهم الله ـ من طريق يزيد بن أبي عبيدة عن سلمةَ بنِ الأكوع قال: غزوتُ مع رسول الله ﷺ سبعَ غزوات؛ فذكرَ الحديبية، وخيبر، وحُنيناً، ويوم القرد. قال يزيد: ونسيتُ بقيّتهنَّ.

* وسنشهدُ سلمة بن الأكوع ـ رضوان الله عليه ـ في يومِ الحديبية، إذ بايعَ يومَ إذ رسولَ الله ﷺ على الموت، وذلك لما دَعَا ﷺ أصحابه إلى البيعةِ، فثاروا يبايعونه على ألاَّ يفرُّوا، وبايعته جماعة على الموت، وأوّل مَنْ بايعه: أبو سنانٌ الأسديّ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموتِ ثلاث مرّات.

* روى إياسُ بنُ سلمةَ عن أبيه سلمة بنِ الأكوع كيف بايع بيعة الرّضوان من حديثٍ طويلٍ جاء فيه: . . . ثمّ إنَّ رسولَ الله ﷺ دعا إلى البيعةِ في أصل

---

(1) طبقاتُ ابن سعد (٤/ ٣٠٥ ـ ٣٠٨) والمحبّر (ص ١١٩ و٢٨٩) والمعارفُ (ص ٣٢٣) والمستدركُ (٣/ ٦٤٩) والاستيعابُ (٢/ ٨٥ ـ ٨٧) ومختصرُ تاريخ دمشق (١٠/ ٨٣ ـ ٨٩) وتهذيبُ الأسماء واللّغات (١/ ٢٢٩) وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٣٢٦ ـ ٣٣١) وتاريخُ الإسلام للذّهبيّ (المغازي انظر الفهارس) البدايةُ والنّهاية (٩/ ٦) والإصابة (٢/ ٦٥) ومجمعُ الزّوائد (٩/ ٣٦٣) وتهذيب التّهذيب (٤/ ١٥٠) والفتوحاتُ الرّبانية (٥/ ٦٨ و٦٩) وأهلُ الحديث ينسبونه إلى جَدِّهِ فيقولون: سلمة بن الأكوع.

الشَّجرة، بايعته أوَّل النَّاس، وبايعَ، وبايعَ حتى إذا كان في وسط النَّاس قال: «بايعني يا سلمة!».

فقلتُ: يا رسول الله! قد بايعتك.

قال: «وأيضاً».

ثمَّ بايعَ، حتى إذا كان في آخر النَّاس قال: «ألا تبايع؟».

قلتُ: يا رسول الله! قد بايعتُك في أوَّل النَّاس، وأوسطهم.

قال: «وأيضاً».

فبايعتُ الثَّالثة(١).

* وفي هذه البيعات الثَّلاث لون من ألوان الفَضْل، والتَّشريف، والتَّكريم(٢) لسلمة بنِ الأكوع الذي بايعَ رسولَ الله ﷺ على الموت، وإذ ذاك نزلَ القرآنُ الكريم فيه وفي المُبايعين تحت الشَّجرةِ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ... ﴾ [الفتح: ١٨].

«خَيرُ رجَّالتنَا سَلَمَة»:

* حظَي سلمةُ بنُ الأكوع ـ رضي الله عنه ـ بتشريفٍ منْ رسولِ الله ﷺ، إذ قال عنه بأنَّه خير الرَّجالة الذين بذلوا ما وسِعَهم في غزوةِ ذي قَرَد؛ لما أبداه من شهامةٍ حقَّة، وشجاعة محقت أنصار العدوان.

* وفي الحقيقةِ، فقد أظهر سلمةُ يوم ذي قَرَد ألواناً منَ الفروسيَّة، رفَعَتْه مكاناً عليَّاً في مجالِ البطولة، فقد كانَ سبَّاقاً، سَبَقَ الصَّافنات الجِيَاد على رجليهِ!

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسِّير برقم (١٨٠٧).

(٢) يُلاحظ في قولِ رسولِ الله ﷺ لسلمةَ: «وأيضاً» أنَّه إظهارٌ لفضلِ سلمةَ، وليكون له في ذلك فضيلةٌ، وقد أرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يؤكِّد بيعتَه لسلمةَ، لعِلْمِه بشجاعته، وعنايتهِ بالإسلام، وشهرتهِ في الثَّبات. بدليل ما وقعَ لسلمة ـ رضي الله عنه ـ في غزوة ذي قَرد، إذ تفرَّسَ فيه ﷺ فوجده أهلاً للبيعة الثلاثية المباركة.

* أمّا غزاةُ ذي قرد، فلم يختلفِ الرُّواة، وأصحاب السِّير، أنَّها كانت سنة ستٍّ قبل الحديبية، وإنِ اختلفوا في شهرها.

* بينما نجد أنَّ الإمامَ البخاري ـ رحمه الله ـ قد جَزَم بأنّها كانت قبل خيبر بثلاث ليال على ما ثبتَ عنده منْ أحاديث صحيحة. هذا وقد رجَّح الحافظانِ ابنُ كثير وابنُ حجر ـ رحمهما الله ـ ما ذهبَ إليه البُخاري في الصَّحيح(١).

* وتبدأُ قصَّة هذه الغزوة بأنْ أغارَ عبدُ الرحمن بنُ عيينةَ بنِ حصن الفزاريّ في جماعةٍ من قومه غطفان على لقاح(٢) النّبيِّ ﷺ بالغابة، وعلى اللقاح رجلٌ من غفّار ومعه امرأته، فقتلُوا الرَّجل، واستاقوا اللّقاح، وأخذوا معهم المرأة(٣)، وكان أوّل مَنْ سمع بهم سلمةُ بنُ الأكوع ـ فارس حلقتنا هذه ـ الذي سنتركُ له زمام الحديث؛ كي يخبرنا عمَّا فَعلَ يومذاك.

* قال سلمةُ فيما أخرجه البخاريُّ بسنده عنه:

خرجتُ قبل أنْ يؤذَّنَ بالأولى، وكانت لقاحُ رسولِ الله ﷺ ترعى بذي

---

(١) فتح الباري (٧/٥٢٦) حديث رقم (٤١٩٤) كتاب المغازي، وقال: باب: غزوة ذات قرد، وهي الغزوة التي أغاروا على لقاح النّبي ﷺ قبل خيبر بثلاث.

(٢) «اللقاح»: جمع لِقحة: بكسر اللام وفتحها، وهي الإبل ذوات اللبن.

(٣) وَرَدَ في السّيرة النّبوية ما مفاده أنَّ امرأةَ الغفاري، قد غَافلتِ المشركينَ، وانفلتتْ منهم، وركبتْ ناقة منْ إبلِ رسولِ الله ﷺ، فطلبوها فأعجزتهم، حتى قدمتْ عليها المدينةَ المنورةَ، ونذرتْ إنْ نجّاها الله لتنحرها، وقالتْ لرسولِ الله ﷺ: إنّي نذرتُ أنْ أنحرها، إنَّ نجّاني الله عليها، وآكل من كبدها وسنامها. فتبسّم رسولُ الله ﷺ فقال: «بئس ما جزيتها أنْ حَمَلك الله عليها، ونجّاك بها، ثمّ تنحرينها، إنّه لا نذر فيما لا يملك ابن آدم، إنّما هي ناقة من إبلي، ارجعي على بركةِ الله». وفي رواية: «إنّـه لا نذر في معصية، ولا فيما لا تملكين، وإنّما هي ناقة من إبلي».

وفي هذه القصَّة عبرة للنّاس جميعاً، إذ إنَّ رسولَ الله ﷺ، علّمنا أنْ نقابلَ الإحسان بالإحسان، والجميل بالجميل، والنّعم بالشّكر، لا بالجحود والكفران، وأنَّ الوفاءَ لازمٌ حتى للحيوان، فبعد أنْ بيّنَ رسولُ الله ﷺ للمرأة الغفارية أنَّ عملَها لا يليقُ خُلُقاً، ولا مروءة، فهو لا يجوزُ شرعاً، إذ لا نذر في معصية، ولا فيما لا يملكه الإنسان.

قَرَد، فلقيني غلامٌ لعبدِ الرّحمن بنِ عوف فقال: أُخذتْ لقاحُ رسولِ الله ﷺ.

قلتُ: مَنْ أخَذَهَا؟.

قال: غطفان.

فصرختُ ثلاثَ صَرَخَاتٍ: يا صباحاه! فأسمعتُ ما بين لابتَي[1] المدينة، ثمَّ اندفعتُ على وجهي حتى أدركتُهم، وقد أخذوا يستقون الماء، فجعلتُ أرميهم بنبلي ـ وكنت رامياً ـ وأقول:

أنـــا ابـــنُ الأكـــوع اليـــوم يـــوم الـــرُّضَـــع[2]

---

(١) «اللابَةُ»: الحرّةُ، وهي الأرضُ ذاتُ الحجارة السُّود، وجمعها: لابات، والمدينةُ بين حرّتين عظيمتين، وفي هذ إشعار بأنَّ سلمةَ بن الأكوع كان جهير الصَّوت جدّاً، ويحتمل أنْ يكونَ ذلك من خوارقِ العادات، إذ انتهى صياحه إلى رسولِ الله ﷺ. وفي الحديث جواز العدْو الشّديد في الغزوِ، والإنذار بالصّياح العالي، وتعريف الإنسان نفسه إذا كان شجاعاً ليُرعبَ خصمه.

(٢) «الرّضع»: جَمْع راضِع، وهو اللئيم، ومعناه: اليوم يوم اللئام، أيَ: اليوم يوم هَلاكِ اللئام، والأصل فيه أنَّ شَخصاً كانَ شديدَ البُخل، فكان إذا أراد حَلْب ناقته ارتضعَ من ثديها لئلا يحلبها، فيسمع جيرانه، أو مَنْ يمرُّ به صوت الحليب، فيطلبون منه اللبن.
وقيل: بل صَنَعَ ذلك لئلا يتبدَّد مِنَ اللبن شيءٌ إذ حلبَ في الإناء، أو يبقى في الإناء إذا شربه منه، فقالوا في المثل: ألأم مِنْ راضع.
وقيل: بل معنى المثل؛ ارتضع اللؤم مِنْ بطنِ أمّه، وقيل: كلُّ مَنْ كان يُوصف باللؤمِ يُوصف بالمصِّ والرّضاع.
وقيل: هو الرّاعي الذي لا يستصحبُ محلباً، فإذا جاءه الضّيف اعتذر بأنْ لا محلب معه، وإذا أراد أن يشربَ ارتضع ثديها.
وقيل: معناه؛ اليوم يُعرفُ مَن ارتضعَ كريمة فأنجبَتْه، ولئيمة فهجّنته.
وقيل: معناه: اليوم يُعرف مَنْ أرضعته الحرب من صغره، أو تدرب بها من غيره.
وقال الدّاوديّ: معناه هذا يوم شديد عليكم تفارقُ فيه المرضعة مَنْ أرضعته فلا تجد من ترضعه.
ووصف ابنُ إسحاق سلمة فقال: وكان سلمةُ مثلَ الأسد، فإذا حملتْ عليه الخيلُ فَرّ، ثمّ عارضهم فنضحها عنه بالنَّبل.

وأرتجزُ؛ حتى استنقذتُ اللقاحَ منهم، واستلبتُ منهم ثلاثين بُردة[١].

* وجاء النَّبيُّ ﷺ والنَّاس، فقلتُ: يا نبيَّ الله! قد حميتُ القومَ الماء وهم عطاش، فابعث إليهم السَّاعة، فقال: «يا بن الأكوع! مَلَكْتَ فأسجح»[٢] ثمَّ رَجَعْنَا، ويردفُني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دَخَلْنَا المدينة.

* وبينما كان سلمة ـ رضوان الله عليه ـ راجعاً إلى المدينةِ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ على ناقته العَضْباء، وهو مسرورٌ بما حقَّقَ منْ فروسيَّة متألقة، وبما هزَم القوم، واستنقذ لقاحَ رسول الله ﷺ، وعندما اقتربوا منَ المدينة، كان في المسلمين رجلٌ من الأنصار لا يُسبقُ، جعل ينادي: هل مِنْ مُسَابق؟ ألاَ رجلٌ يُسابقُ إلى المدينةِ؟ فأعادَ ذلك مِراراً وأنا وراءَ رسول الله ﷺ مردفي، فقلتُ له: أما تكرم كريماً، ولا تَهابُ شريفاً؟.

قال: لا، إلا رسول الله ﷺ.

قلت: يا رسول الله! بأبي أنتَ وأمي، خَلِّني فلأسابقَ الرَّجل.

قال: «إنْ شئتَ».

قلت: اذهبْ إليه ـ أي: للرجل ـ.

فطفر[٣] عن راحلته، وثنيتُ رجلي فطفرتُ عن النَّاقة، ثمَّ إنِّي ربطتُ عليه شَرَفاً أو شرفين ـ يعني: استبقيت نفسي ـ ثم إنِّي غدوتُ حتى ألحقه، فأصكُّ بين كتفيه بيدي قلتُ: سبقتُكَ واللهِ! فضَحك، وقال: أنا أظنُّ، فسبقتُه حتَّى قَدمْنَا المدينة[٤].

---

(١) «البردة»: ثوب مُخَطَّط، أو: مُوشًى يُلْتَحَفُ به.
(٢) الإسجاح: حُسْنُ العفو، أي: ملكتَ الأمر عليَّ فأَحسِنِ العفوَ عني. وأصله: السهولة والرِّفق. يُقال: مشيةٌ سُجُع، أي: سهلة. وهذا مَثَلٌ انظره في مجمع الأمثال للميداني (٣/ ٢٧٨) برقم (٣٨٧٩).
(٣) «طفر»: قفز، ونزل عن ناقته.
(٤) للحديث أصل في صحيح مسلم برقم (١٨٠٧) كتاب: الجهاد والسِّير، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٨٠ ـ ٨٤) ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٨٨) والمغازي =

* وفي ذلكَ اليوم أثنى رسولُ الله ﷺ على فروسيَّة سلمة فقال: «خيرُ فرساننا أبو قَتَادة[1]، وخير رجالتنا سلمة» وأعطى سلمة سَهْم الرَّاجل والفارس جميعاً.

* هذا؛ وقد وَرَدَ في الصَّحيح أنَّ للفارسِ ثلاثة أسهم، سهم له، وسهمان لفرسه، وللرَّاجل سهم[2]، وهذا هو الصَّحيح الثَّابت عنه ﷺ[3].

* ومما يشيرُ إلى ألوان فروسية سلمة في مجال السَّبق الذي لا يُجارى، ما وَرَدَ عن سلمة نفسه قال: جاء عَيْنٌ ـ جاسوس ـ منَ المشركين إلى رسولِ الله ﷺ وأصحابه وهم في سَفَر، فأكل معهم، وخَالَطهم، ثمَّ ذَهَبَ، فقال رسول الله ﷺ: «الحقوه فاقْتُلوه» ـ وكان سلمةُ يسبقُ الفرسَ عدواً ـ فلحقه، وأخذ بخطامِ ناقته فقتَله، وأتى رسول الله ﷺ بناقته وسَلَبه، فَنَفَّلَه إياه[4].

= (٢/ ٥٣٩ ـ ٥٤١) وسير أعلام النُّبلاء (٣/ ٣٢٩).

(١) اقرأ سيرته في ثنايا هذا الكتاب ص(٦٨٨).

(٢) قال الفقهاء: إنَّ سببَ تفضيل الفارس على الرَّاجل، هو أنَّ المحارب كان في الماضي يملك الفرسَ التي يخرج بها للجهاد، ويلتزم بمؤونتها.

وثبتَ عن رسول الله ﷺ كما روى ابنُ ماجه أنَّه أَسْهَم يوم حُنين للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان، وللرَّجل سهم. (رواه ابن ماجه بهذا اللفظ) وانظر: (جامع الأصول ٣/ ٢٧٢) والحديث أخرجه كذلك البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد والبيهقيّ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال جمهورُ الفقهاء: المعتبرُ في تحديدِ وصف المستحقِّ للغنيمة، هو مَنْ حَضر المعركة بنية القتال، وإنْ لم يقاتلْ مع الجيشِ، لقول أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّما الغنيمة لمن شهد الوقعة.

قال الماوردي: ولا مخالف لهما من الصحابة.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب: سهم الفرس، ومسلم في الجهاد والسير برقم (١٧٦٢) باب: قسمة الغنيمة بين الحاضرين.

(٤) شرح السِّير الكبير (٢/ ٦١٢ و٦١٣).

صُوَرٌ مضيئة مِنْ مشاهدِهِ الأُخرى:

* لسلمةَ بنِ الأكوع ـ رضي الله عنه ـ وقائعُ حسنة، ومآثر حميدة في ظلالِ عَصْر النُّبوة، يقول سلمةُ بنُ الأكوع عن ذلك: غزوتُ معَ رسولِ الله ﷺ سبعَ غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات يُؤمِّره رسولُ الله ﷺ[1].

* فمِنْ مشاهدهِ مع رسولِ الله ﷺ غزوة خيبر، وقد أبلى يومها بلاءً حَسَناً، وكانَ خلف[2] علي بن أبي طالب يوم فتح خيبر، وأصيبتْ ساقه يوم ذاك، وظلّ أثر ذلك إلى حين وفاته.

* أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ ذلك بسندهِ إلى يزيد بن أبي عُبيد قال: رأيتُ أثر ضربة في ساقِ سلمة.

فقلتُ: يا أبا مسلم! ما هذه الضَّربة؟.

فقال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر.

فقال النَّاس: أُصيب سلمة.

فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ فنفثَ فيه ثلاثَ نَفَثات، فما اشتكيتُ حتى السَّاعة[3].

---

(١) المستدرك عل الصحيحين (٣/ ٦٢٩).

(٢) ذكر سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ ما يتوافقُ مع هذا الخبر فقال: والله لقد رأيتني وإني لأعدو في إثر عليّ ـ رضي الله عنه ـ فما أدركته حتى انتهى إلى الحصْنِ يوم خيبر، فخرجت غادية اليهود ـ الذين يغدون من العمال أو المبارزين ـ ففتحوا بابهم الذي يلي المسلمين، وكانت لهم حصون من ورائها جُدُر ثلاثة، يخافون البيات بالنّطاة ـ حصن لهم ـ عملها أكابر اليهود، ولا تطيقها الخيل، فخرجوا من حصنهم ذلك، وتلك الجدر، حتى أصحروا للمسلمين ـ خرجوا للصّحراء ـ فخرج مرحب وهو يرتجز، ويقول:

قد علمتْ خيبر أنّي مرحب ... شاكي السّلاح بطل مجرّب

أضربُ أحياناً وحيناً أضرب ... أكفي إذا أشهد مَنْ يغيب

فخرج إليه عليّ فقتله (السّير الكبير ١/ ٧٣ و٧٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ٥٤٢) حديث رقم (٤٢٠٦) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٨٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٤٣٣). =

* ورحلةُ المغازي والغزوات والفروسيَّة رحلة رائعة مع سلمة، ففي إحدى غزواته تحت إمرة أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وقعتْ جارية في سهم سلمة، فاستوهبها منه رسولُ الله ﷺ فوهبها سلمة. وَرَدَ هذا الأثر في الصَّحيح والسُّنن بسندٍ عن سلمة بن الأكوع قال:

بعثَ رسولُ الله ﷺ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى بني فزارة، وخرجتُ معه، حتى إذا دَنَوْنَا منَ الماءِ، عرَّسَ بنا أبو بكر، حتى إذا صلينا الصُّبح أمرنا، فَشَنَنَّا الغارة، فورَدْنا الماء، فقتل أبو بكر مَنْ قتل، ونحنُ معه، فرأيتُ عُنقاً[١] من النَّاس فيهم الذَّراري، فخشيتُ أنْ يسبقوني إلى الجبل، فأدركتهم، فرميتُ بسهم بينهم وبين الجبل، فلمَّا رأوا السَّهم قاموا، فإذا امرأة من فزارة عليه قشع[٢] من أدم، معها ابنة منْ أحسَنِ العرب، فجئتُ أسوقهنَّ إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكشفْ لها ثوباً حتى قدمتُ المدينةَ، ثمَّ باتتْ عندي، فلم أكشف لها ثوباً، حتى لقيَني رسولُ الله ﷺ في السُّوق، فقال: «يا سلمة! هَبْ لي المرأة».

قلت: يا رسول الله! لقد أعجبتني، وما كشفتُ لها ثوباً، فسكتَ حتى إذا كان الغد لقيني رسولُ الله ﷺ في السُّوق، ولم أكشفْ لها ثوباً.

فقال: «يا سلمة! هَبْ لي لله أبوك».

قلتُ: هي لكَ يا رسول الله!.

فبعثَ بها رسولُ الله ﷺ إلى أهلِ مكةَ، ففدى بها أسراء منَ المسلمين كانوا في أيدي المشركين[٣].

= «أبو مسلم»: كنية سلمة بن الأكوع. «أصابتها»: أي: أصابت ركبته.
«النفث»: هو فوق النفخ ودون التفل.

(١) «عنقاً»: جماعة من الناس.

(٢) «قشع»: نطع.

(٣) أخرجهُ مسلم في الجهاد والسِّير برقم (١٧٥٥) باب: التَّنفيل وفداء المسلمين بالأسرى. وأحمد في المُسند (٤/ ٤٦) وابن سعد في الطَّبقات (٢/ ١١٨) وأبو داود=

* وفي سريةِ مؤتة بإمرة زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ كان سلمة أحد الجنود في ذلك الجيش الغازي أرض الشَّام[1].

سَلَمَـةُ ومَكَارمُ منْ شخْصيَتِه الفـذَّة:

* في شخصّية سلمةَ بنِ الأكوع ـ رضي الله عنه ـ فضائلُ محبَّبة إلى النَّفس، تشيرُ إلى علوِّ همَّته، ومكانِته في عالمَ الصَّحابةِ، وفي بدايةِ ذلك اقتفاؤه وتحريه أعمالَ رسولِ الله ﷺ في مراحل حياته كلها.

* عُرفَ سلمةُ ـ رضي الله عنه ـ بحبّه للصّدق، وبُعْده عن طريق الكذبِ، فالصّدقُ يهدي إلى البِرّ، والبرُّ يهدي إلى الجنَّةِ؛ قال عنه ابنهُ إياس بن سلمة بعد أنْ ذكَر بعض شمائله: ما كذبَ أبي قط[2]؛ وهذا منْ تمامِ مكارم الأخلاق، إذ إنَّ الكذبَ هو الطّريق الوحيدة التي لا يمكنُ للمسلم أنْ يسلكها، أو يتصفَ بها.

* وقد اتّسمتْ شخصيَّةُ سلمةَ بِسِمَةِ الكرم أيضاً، فما كان يسأله أحدٌ بوجهِ الله إلا أعطاه، وكان يقول: مَنْ لم يُعْطِ بوجهِ الله فبماذا يُعطي[3]؟

* ويبدو أنَّ سلمة كان قد تأثّر بالحياةِ في البادية، فاستأذنَ رسول الله ﷺ في البدو، فأذنَ له إكراماً لبطولاته وفروسيته، ولمعرفةِ رسول الله ﷺ بأقدارِ الرِّجال، وما يصلح لهم في دِينِهم ودُنْياهُم.

* وأقام سلمة حيناً من الدَّهر في الباديةِ، وقدمَ المدينة المنوَّرة، فلقيه بريدة بن الحصيب فقال له: ارتددتَ عن هجرتكَ يا سلمة؟!.

= برقم (٢٦٩٧) وابن ماجه برقم (٢٨٤٦). وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٨٥) والبداية والنهاية (٤/ ٢٢٠ و٢٢١) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ٤٤٦) وغير ذلك من مصادر. وهذا الحديث دليل على أن رسول الله ﷺ أهدى وقبل الهدية ووهب واستوهب.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٨٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٩).

(٢) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٨٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٠٧).

قال سلمة: معاذَ الله يا أبا عبد الله! إنّي في إذنٍ منْ رسول الله ﷺ، إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ابْدوا يا أَسْلَم فتنسَّمُوا الرِّياح، واسكنوا الشِّعاب».

فقالوا: إنَّا نخافُ يا رسول الله! أنْ يضرَّنا ذلك في هجرتنا.

فقال ﷺ: «أنتم مهاجرونَ حيث كنتم»(١).

* روى الإمامُ أحمد في مسندهِ بسندهِ عن سلمةَ بنِ الأكوع أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «أنتم أهل بَدْونا، ونحنُ أهل حضركم»(٢).

منْ وُعَــاةِ الحَديثِ الشريف، وأَوْعيـةِ العِـلْمِ الغزير:

* كانَ لمكانةِ سلمة عندَ رسول الله ﷺ كبير الأَثَر في حياتهِ العِلْمية الحافلة، فقد حَبَاه اللهُ عزَّ وجلَّ حافظةً قويّة، فكان يسمعُ ما يقوله رسولُ الله ﷺ ويعي كلّ ما يقول؛ لذلك كان أَحَدَ الرُّواة، الوُعاة، النَّقَلَة لحديث رسول الله ﷺ.

* روى عن رسولِ الله ﷺ، وعن أبي بكرٍ وعمرَ ـ رضي الله عنهما ـ وغيرهما، ومجموع مروياته سبعة وسبعون حديثاً، اتّفق البخاريُّ ومسلم على ستة عشر منها، وانفرد البخاري بخمسة، ومسلم بتسعة(٣).

* روى عنه: ابنه إياس، ومولاه يزيد بن أبي عُبيد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والحسن بن محمّد ابن الحنفية وآخرون(٤)، وأحاديث سلمة منثورة في الصَّحيح، والسُّنن، والمَسانيد، وغيرها من كُتُب الحديث.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٨٩) بتصرف يسير جداً، والحديث أصله في مسند الإمام أحمد بن حنبل برقم (١٦٥٥٣) طبعة دار الفكر. والبُخاري في الفتن، باب: التغرب في الفتنة، ومسلم برقم (١٨٦٢) والنسائي (٧/ ١٥١ و١٥٢).

(٢) انظر: مسند أحمد برقم (١٦٥٥٤) طبعة دار الفكر بدمشق.

(٣) الفُتوحات الرّبانية على الأذكار النووية (٥/ ٦٨).

(٤) تهذيبُ الأسماءِ واللغات (١/ ٢٢٩) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٦) والإصابة (٢/ ٦٥).

* ومن مروياته ما أخرجه الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ في مسندهِ بسندٍ إلى يزيد بن أبي عُبيد قال: حدثني سلمة بن الأكوع قال: خرج رسولُ الله ﷺ على قومٍ منْ أسلم وهم يتناضلون في السُّوق، فقال: «ارموا يا بني إسماعيل! فإنَّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» ـ لأحدِ الفريقين ـ فأمسكوا أيديهم، فقال: «ارموا».

قال: يا رسول الله! كيف نرمي وأنتَ مع بني فلان؟! قال: «ارموا وأنا معكم كلّكم»(١).

* ومن الأحاديثِ المشهورةِ التي رواها سلمة حديث: تَشْمِيت العاطس، وهذا يشيرُ إلى تمسّك سلمة بالهدي والأدب النّبويِّ، فقد كان مِنْ هدي رسول الله ﷺ في العُطاس ما ذكره أبو داود والتّرمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ كانَ رسولُ الله ﷺ إذا عطسَ، وضعَ يده، أو ثوبه على فِيْهِ، وخَفَض، أو غضَّ به صوته(٢).

* وفي هذا يروي سلمةُ ـ رضي الله عنه ـ بأنّه كان قاعداً عند رسولِ الله ﷺ فعطس رجلٌ، فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله» ثمَّ عطس أخرى ـ وفي رواية: عطسَ الثّانية والثّالثة ـ: فقال رسولُ الله ﷺ: «الرَّجل مزكوم»(٣).

---

(١) المسند برقم (١٦٥٢٨) طبعة دار الفكر.
والحديث أخرجه البخاريُّ أيضاً في مواضع؛ في الجهاد برقم (٢٨٩٩) وفي أحاديث الأنبياء رقم (٣٣٧٣) وفي المناقب، باب: نسبة اليمن إلى إسماعيل برقم (٣٥٠٧).
و«يتناضلون»: يترامون، والتّناضل: التّرامي للسّبَق، ونضلَ فلان فلاناً: إذا غلبه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٥٠٢٩) باب: في العُطاس، والتّرمذي في الأدب برقم (٢٧٤٦) باب: ما جاء في خفض الصّوت وتخمير الوجه عند العُطاس، وأحمد في المسند (٢/ ٤٣٩).

(٣) أخرجه مسلم في الزّهد برقم (٢٩٩٣) باب: تشميت العَاطِس، والتِّرمذيُّ في الأدب برقم (٢٧٤٤) باب: ما جاء في كم يُشَمَّتَ العَاطس، وأبو داود في الأدب برقم (٥٠٣٧) باب: كم مرة يشمت العاطس، وابن ماجه في الأدب برقم (٣٧١٤) باب: تشميت العاطس، وأخرجه أحمد (٤/ ٤٦) وإسناده حسن. وانظر حول تشميت

* هذا، وأحاديثُ سلمة بن الأكوع عديدة، ومنثورةٌ في كُتُبِ الحديث، وقد مرَّ بعض النّماذج معنا من خلال ثنايا البحث.

مِنْ المُعَمَّريــن:

* الصَّحابيُّ الفارسُ سلمةُ بنُ الأكوع ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ من الصَّحابة المُعَمَّرينَ الذين بلغوا التّسعين، وقد قضى عمره في العِلْم، والجِهَاد، والتَّعليم، والرِّواية.

* هذا؛ وقد قضى سلمة شَطْراً من حياتِهِ في المدينة، وكان مع ثلّة من الصَّحابة وهم: ابنُ عبّاس، وأبو هريرة، وجابر، ورافعُ بنُ خديج مع أشباهٍ لهم يُفْتُون بالمدينةِ، ويحدِّثون من لدن توفي عثمان بن عفان إلى أنْ توفّوا[1].

ولما قُتِل عثمان ـ رضي الله عنه ـ خَرَجَ سلمة إلى الرَّبذَة[2]، وأقام فيها، وهناك تزوّج امرأة، فولدت له بضعة أولاد.

* حدَّثَ عبدُ الرحمن بنُ رزَيْن، أنَّه نَزَل الرَّبذة هو وأصحابه يريدون الحجَّ، فقيلَ لهم: ها هنا سلمةُ بن الأكوع صاحب رسول الله ﷺ.

قال عبدُ الرحمن: فأتيناه، فسلَّمْنا عليه، ثمَّ سألناه.

فقال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ بيدي هذه، وأخرج لنا كفّه كفّاً ضَخْمة.

قال عبدُ الرحمن: فَقُمْنَا إليه فقبلنا كفّيه جميعاً.

* هذا وقد ظلَّ سلمة في الرَّبذة، وقبل أنْ يموتَ بليالٍ نزل إلى المدينة، فتوفي بها، ودُفنَ بالبقيعِ، وكانت وفاتُه في سَنة أربعٍ وسبعين وعمره يقتربُ

= العاطس ومشروعيته، وتشميت المزكوم؛ كتاب: حق المسلم على المسلم، ليوسف علي بديوي (ص ١٦٨ ـ ١٨٢).

(١) عن مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٨٩) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٠ و٣٣١) مع الجمع والتصرف.

(٢) «الرَّبَذَة»: قرية قرب المدينة المنوّرة، توفي فيها أبو ذرّ الغفاري.

من التّسعين[1]. وفي رحلتنا مع سلمة وجدنا المنفعة والفائدة، ونرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ يحشرنا في معيَّةِ هؤلاء الأبرار، وأنْ يتولانا برحمته، ويجعلنا من المقتدين بالرعيل الأول من الصحابة الكرام، ومِنَ المقتفين خطاهم في العلم، والجهاد، والسلوك الإيجابي الهادف.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٣٣١/٣) والفُتوحات الرَّبانية على الأذكار النواوية لابن علان الصّديقي (٦٩/٥).

(١٠)

طلحة بن عبيد الله

- رضي الله عنه -

قال عنه ﷺ يوم أُحُد: «أَوْجَبَ طلحة».

فارسُ الأبْـرار الأخْيَـارِ الأطهـار:

* بارٌّ مِنَ الأبرارِ، الذينَ سَبَقوا العالَمين إلى التَّصديق برسولِ الله ﷺ، والإيمان بالهدى ودِيْنِ الحقِّ.

* كان أوّلَ السَّابقين أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وأبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ ذو صفات متفرِّدة في أمّ القُرى، فقد كان أنْسبَ قريش لقريش، وكان محبّباً، سَهْلاً، كريماً، جَواداً، ذا خُلُق كريم محمود، ورفْدٍ وعَطَاء، وصاحب معروف، وكان رجال قومه يأتونَه، ويألَفُونه لهٰذه الخصال والصِّفات التي اكتنفت شخصيته، وعُرِف بها بين الناس.

* كان أبو بكر أوّلَ[1] رجلٍ منَ الأحرار صدَّقَ بالدَّعوة المحمدية، ولكنَّه لم يكتفِ بالمُسَارعةِ إلى الإيمانِ والتَّصديق برسولِ الله ﷺ، وإنّما قام يدعو إلى الإسلامِ سِرّاً، وكان له كبير الفَضْل في إسلام ثلّة منَ الأوّلين الأشرافِ الأخيارِ الأطْهَار؛ الذين كانوا فرسانَ الرَّسول ﷺ، وأحبابَه، وأصفياءه، وحُماة الدِّين الحنيف.

* مِنْ هؤلاء الفُرسان الأبرار الأَغْلياء: عثمان بن عفان، والزُّبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسَعْد بن أبي وقاص، وضيفُ حلقتنا، وفارسُ هٰذه الصَّفحات: طلحةُ بنُ عُبيد الله بنِ عثمان القرشيّ التَّيميّ المكيّ المدنّي أبو محمّد ـ رضي الله عنه ـ[2].

---

(١) هنالك أقوالٌ متعدّدة في أوّلِ مَنْ أسلمَ من النَّاس؛ فقيل: خديجة، وقيل: أبو بكر، وقيل: عليّ، وقيل غير ذلك. ولعلّ أجْمَل الأقوالِ وأكثرها إصابة واستيعاباً ما رُوي عن الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ حيث قال:
الأروع أنْ يُقال: أوّل مَنْ أسلم من الرِّجال الأحْرار أبو بكر، ومنَ الصِّبيان عليّ، ومن النِّساء خديجة، ومنَ الموالي زيد، ومن العبيد بلال.
وهٰذا استنباطٌ حسنٌ، وتوفيق مبارك، أخذَ به كثيرٌ من المحقّقين كابن الصَّلاح، والنَّووي، وغيرهما.

(٢) مسند أحمد (١/ ١٦٠ ـ ١٦٤) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ٢١٤ ـ ٢٢٥) والمعارفُ (ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤) والمستدرك (٣/ ٤١٥ ـ ٤٢٢) وحليةُ الأولياء (١/ ٨٧) والاستيعاب =

* وأمُّ طلحة هي الصَّعْبةُ بنت الحَضْرميّ أخت العَلاء بن الحضرميّ، أسلمتْ، وهاجرتْ[1]، وكُتِبَتْ في زُمْرة السُّعداء العظماء.

* قال ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أسْلَمَتْ أمُّ أبي بكر، وأمُّ عثمان، وأمُّ طلحة، وأمُّ الزُّبير، وأمُّ عبد الرحمن بن عوف، وأمّ عمّار بن ياسر[2].

* وفارسنا طلحة ـ رضوان الله عليه ـ أحد الخمسة الأبْرار الذين أسلموا على يَدِ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ[3].

وطلحةُ أحد السّتة أصحاب الشُّورى؛ الذين تُوفي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

* وهو أحدُ الثّمانية السّابقين إلى ساحةِ الإسلام؛ وأحد العشَرة الذين شَهِدَ لهم رسولُ الله ﷺ بالجنَّةِ[4].

* وطلحة ـ رضي الله عنه ـ أحدُ الذين خَلَعُوا الرَّاحات، وزهدوا في لذيذ الشَّهوات، فدرجوا على منْهَاج المُرسلين، والأولياء من الصِّدِّيقين، ورفضُوا

= (٢/ ٢١٠ ـ ٢١٦) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩١ ـ ٢١٠) وصفةُ الصَّفوة (١/ ٦٣٠) وجامعُ الأصول (٩/ ٣ ـ ٥) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٣) وسيرُ أعلام النبلاء (١/ ٢٣ ـ ٤٥) ومجمع الزوائد (٩/ ١٤٧ ـ ١٥٠) والعقدُ الثمين (٥/ ٦٨ و٦٩) وتهذيبُ التهذيب (٥/ ٢٠) وكنزُ العمال (١٣/ ١٩٨ ـ ٢٠٤) وغيرها من كتب الحديث والسِّيرة والطَّبقات والتأريخ وكتب السّنن والمسانيد وهي لا تحصى في هذا المقام.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٢).

(٢) اقرأ سيرة هؤلاء الصّحابيات الفاضلات في كتابنا: «نساء من عصر النّبوة» في جزأيه، ففي سيرهن إمتاع للأسماع.

(٣) كان أبو بكر داعية للإسلام، بل سيِّد الدعاة إليه، إذ بذل نفسه، وضحّى بالغالي والنفيس لإعلاء كلمة الحق والدين، وهو مُحِبٌّ للناس إذ دعاهم للإيمان، فهو يحب لهم من الخير ما يحبه لنفسه، وها هو يدعو الناس للانتساب إلى الإسلام، ويحثهم عليه، ويُبيِّن لهم محاسنه، وأنه المنجّي الوحيد من ظلمات الشرك والجاهلية.

(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩١) بتصرف يسير.

بإباء الزَّائل الفاني، ورغبوا في الزَّائد الباقي، في جوارِ المنعمِ المفْضَال، عالم الغيب والشَّهادة الكبير المتعال.

صِفَتُهُ الجسدية وقصَّةُ إسْلامِهِ:

* وصفَ موسى بنُ طلحة أباه طلحةَ فقال: كان أبي طلحةُ بنُ عُبيد الله أبيضَ، يضربُ إلى الحُمْرة، مربوعاً، هو إلى القِصَر أقرب، رحْبَ الصَّدر، عريضَ المنكبين، إذا الْتفتَ الْتفتَ جميعاً، ضخمَ القدمين، حَسَنَ الوجه، دقيقَ العِرْنين، إذا مشى أسرع، وكان لا يغيِّرُ شَعْره[1].

* أمَّا قصَّةُ وسببُ إسلامه، ودخوله في سِلْك دُرَرِ السَّابقين الأوَّلين، ليكون من حبَّات العقد الثَّمين، فيرويه طلحة نفسه فيقول: حَضَرْتُ سوقَ بصرى، فإذا راهبٌ في صومعته يقول: سَلُوا أهلَ هذا الموسم، أفيهم أحد منْ أهلِ الحرم؟.

قال طلحة: نعم، أنا.

فقال: هل ظهر أحمد بَعْد؟

قلت: ومَنْ أحمد؟

قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهرهُ الذي يخرجُ فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه منَ الحرمِ، ومهاجره إلى نَخْلٍ، وَحَرَّة[2]، وسباخ[3]، فإياك أنْ تُسبقَ إليه.

قال طلحةُ: فوقعَ ما قال في قلبي، فخرجتُ سريعاً حتى قدمتُ مكةَ، فقلتُ: هل كان منْ حَدَثٍ؟.

قالوا: نعم، محمَّد بن عبد الله الأمين تنبأ، وقد تبعه ابنُ أبي قحافة.

---

(١) المستدرك (٣/ ٤١٧) والإصابة (١/ ٢٢١). «العِرْنين»: الأنف.
(٢) «حَرَّة»: هي الأرض الغليظة ذات الحجارة السُّود النَّخِرات، كأنها أحرقتْ بالنار.
(٣) «سِباخ»: جمع سَبْخَة، وهي أرضٌ ذاتُ نَزٍّ ومِلْح، لا تكاد تُنبتُ.

قال طلحة: فخرجتُ حتى دخلتُ على أبي بكرٍ، وقلتُ: أَتَبِعْتَ هذا الرجل؟

قال: نعم، فانطلقْ إليه، فادخلْ عليه، فاتّبعه، فإنَّه يدعو إلى الحقِّ وإلى الخير - وأخبر طلحةُ أبا بكر بما قال الرَّاهبُ - فخرجَ أبو بكر بطلحة، فدخلَ بهِ على رسولِ الله ﷺ، فأسلم طلحةُ، وأخبرَ رسولَ الله ﷺ بما قال الرَّاهب؛ فسُرَّ رسولُ الله ﷺ.

* فلمَّا أسلم أبو بكر وطلحةُ بن عُبيد الله، أخذهما نَوفَل بن خويلد بن العدويّة، فشدَّها في حَبْلٍ واحد، ولم يمنعهما بنو تَيْم[١]، وكان نوفل يُدعى أسد قريش، فلذلك سُمّي أبو بكر وطلحة: القرينين[٢].

* هذا وقد أوذي طلحة في الله، ولقي أذىً كبيراً منَ المشركين، ومنْ عشيرتهِ الأقربين، وبقي طلحة - رضي الله عنه - صابراً على الأذى والعذاب حتى أذن الله عزَّ وجلَّ بالهجرة[٣].

* ولما ارتحل رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، لقيه طلحة جائياً من الشَّام في عيرٍ، فكسَا رسولَ الله ﷺ وأبا بكر من ثياب الشَّام.

* ثمَّ مضى طلحة إلى مكة حتى فرغَ من حاجته، ثمَّ خرج بعد ذلك بآلِ

---

(١) وَرَدَ في الجُزءِ الحادي عشر منْ مختصر تاريخ دمشق (ص ١٩٣) لفظة (ولم يمنعهما بنو تميم) والصَّواب هو «بنو تَيْم» وبنو تَيْم هم رهط أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه -.
هذا؛ ولم تَنْتَبه محقِّقةُ الجُزء الحادي عشر، ولا المُرَاجع إلى هذا الخطأ، وإنَّما جاء في صَدْرِ ترجمة طلحة «أبو محمّد التَّميمي» وهذا خطأٌ واضح - كما ترى - والصَّواب أنْ يُقال: «أبو محمد التَّيميّ».

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١/ ١٩٣).

(٣) وهكذا يقوم الطغيان الجاهلي بإيذاء ذوي الفكر الحر؛ إذ يُخْفِقُ الطغيان في الحوار والمناقشة، فيلجأ إلى الاعتداء بقصد إسكات صوت الحق، وإزهاق أرواح أحرار الفكر، ولكن أنَّى للطغيان أن يقتل فكر الإنسان؟!

أبي بكر، فهو الذي قدم بهم المدينة، فطلحة من المهاجرين الأوَّلين ـ رضي الله عنهم ـ.

قال ابنُ عَبْد البرِّ ـ رحمه الله ـ: لما قدمَ طلحةُ المدينةَ آخى رسول الله ﷺ بينه وبين كَعْب بن مالك الأنصاريّ[1] حينَ آخى بين المهاجرين والأنصار.

«لَكَ أَجْـرُكَ وسَهْمُـكَ»:

* لم يحضرْ طلحة ـ رضي الله عنه ـ غزاةَ بَدْرٍ، ولكنَّه مع ذلك معدودٌ من أَهْل بَدْر، في البدريِّين، فقد اتّفق أنْ غابَ طلحة عن غزوةِ بدرٍ في تجارةٍ له بالشَّام، فتألَّم لغيبتهِ عن شهودها، وكلَّمَ رسول الله ﷺ في سَهْمِهِ منها، فقال له ﷺ: «لك سهمُك».

قال طلحةُ ـ رضي الله عنه ـ: وأجري يا رسول الله!.

قال: «وأجْرُك»[2].

* وهكذا حظيَ طلحة بمرضاةِ الله عزَّ وجلَّ في خيرِ أهلِ الأرضِ يومئذ، وظلَّ طلحةُ ـ رضي الله عنه ـ ينتظرُ يوماً آخر كيما يشهده في معيَّة رسولِ الله ﷺ، وكيما يبدع في الجِلاد والجهادِ ضدَّ أعداء الله[3]، فهو الفارسُ المِقْدَامُ الذي عرفَتْه مكة قبل الهجرة، وعرفه النَّاس بالبَسالة والشَّجاعة، إلى أنِ استدارَ العام، وجاءت غزوةُ أحد، فكان يوم أحد كلّه لطلحةَ ـ كما قال

---

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب (ص٥١٠) ففيها فوائد إنْ شاء الله تعالى.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٨٣) والسّير الكبير (٣/ ٩٧٩) والمستدرك (٣/ ٤١٦) والاستيعاب (٢/ ٢١١) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩٢) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٢٥) والإصابة (٢/ ٢٢٠).

(٣) ينبغي التَّنبُّه إلى أن التوحيد لا يكفي فيه أن يقول الإنسانُ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، بل لا بد أن يطبّق مع الاعتقاد الراسخ مضمون الإيمان في حياته، وأحواله وأفعاله، فكلُّ شيء ينبغي أن يؤكّد مصداقية ما يقول، ويجعل نصب عينيه الخوف من الله، وأنه مراقبه على الدوام، وعليه أن يحمل راية الجهاد والدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ باقتدار، وبطولة، وبسالة... وهكذا يبدو المؤمن الحق؛ مُوَحِّداً لله، مُنَفِّذ لشرعه سُبحانه في اليقين العميق، والسلوك الحي الإيجابي.

أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ـ ولنشهد غزاةَ أُحُدٍ مع رسول الله ﷺ ومع طلحة، ومع الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

طَلْحَةُ فَارِسُ أُحُدٍ:

❊ كانتْ لطلحة بن عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ مواقفُ وضيئةٌ في يوم أُحُدٍ، ذلك اليوم العظيم، حيثُ احتدمَ القتالُ حول رسولِ الله ﷺ، ولم يكنْ معه إلا تسعة نَفَر؛ وجرى بين المشركين وبين هؤلاء النَّفر التِّسعة من الصَّحابة عراكٌ عنيفٌ، ظهرتْ فيه بوادرُ الحبِّ، والتَّفاني، والبَسالة، والفروسيَّة، والبطولة، والجرأة، والتضحية، والفداء.

❊ روى الإمامُ مسلم في صحيحهِ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ أفرد يوم أُحُد في سبعةٍ من الأنصار، ورجُلَيْن من قريش، فلمَّا رهقوهُ قال: «مَنْ يردّهم عنَّا وله الجنَّة؟ أو هو رفيقي في الجنَّةِ؟».

❊ فتقدَّم رجلٌ من الأنصار فقاتَل حتى قُتِل، ثمَّ رهقوه أيضاً، فلم يزلْ كذلك حتى قُتِل السَّبعة، فقال رسولُ الله ﷺ لصاحبَيْه ـ أي: القُرشيَّيْن ـ: «ما أنصفنا أصحابنا»[1].

❊ وكان آخر هؤلا السَّبعة هو عمارة بن يزيد بن السَّكن، بقي مع رسولِ الله ﷺ، فقاتل حتى أَثْبَتَتْه الجراحة فسقط.

❊ وبعد سقوطِ عمارة بن يزيد بن السَّكن، بقيَ رسولُ الله ﷺ في القرشيَّيْن فقط؛ ففي الصَّحيحين عن أبي عثمان قال: لم يبقَ مع النَّبيِّ ﷺ في بعضِ تلك الأيام التي يُقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسَعْد بن أبي وقاص[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير برقم (١٧٨٩) باب: غزوة أُحُد.
إن دعوته ﷺ إلى الجهاد في سبيل الله؛ إنما كانت لتقرير ألوهية الله في الأرض، ومطاردة المعتدين على ألوهية الله سُبحانه، وحاكميته، وسُلطانه، حتى يفيؤوا إلى حاكمية الله وحده، وعندئذٍ يكونُ الدينُ كلُّه لله، حتى إذا أصابهم الموتُ في هذا الجهاد، كان لهم في الشهادة حياة. انظر: «حق الشهادتين» ليوسف علي بديوي ص (٢٠٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

* ولا شكَّ أنَّ المشركين في يومِ أُحُد ـ عندما دبَّتِ الهزيمةُ في المسلمين ـ كانوا يهدفونَ إلى القضاءِ على رسول الله ﷺ، فخابَ سعيهم، إلا أنَّ القرشيَّيْن طلحة وسعد قد قدما ببطولةٍ، بل ببطولاتٍ نادرة، وقاتلا ببسالةٍ متألِّقة منقطعة النَّظير، حتى لم يتركا ـ وهما اثنان ـ سبيلاً إلى نجاحِ المشركين في هدفهم الذي رسَمُوه، أو طمعوا فيه، وكانا منْ أمْهَرِ الرُّماة في عصرهما، فتناضلا حتى أجهضا كتيبةَ المشركين عن رسول الله ﷺ[1].

أنَا يَا رَسُولَ اللهِ!

* أبلى طلحةُ ـ رضي الله عنه ـ يوم أُحدٍ بلاءً حَسَناً، ووقى رسولَ الله ﷺ بنفسهِ، واتّقى النَّبل عنه، وقاتلَ قِتَالاً شديداً، ووقَفَ بشدّة في وَجْهِ المشركين يدافعُ عنْ رسولِ الله ﷺ، بحيثُ إنَّ الصِّدِّيق أبا بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ كان إذا ذُكِرَ أحدٍ بكى، ثمَّ قال: ذاك يوم كان كلّه يوم طلحة. فقد كان طلحةُ يُقاتل مع رسولِ الله ﷺ ويحميه، ولا يتركُ فرصةً للمشركين منَ الدُّنو منْ رسولِ الله ﷺ[2].

* ولقد وصفَ جابر ـ رضي الله عنه ـ شجاعة طلحة يوم أحد وبسالته فقال: لمّا كان يوم أُحُد، وولّى النّاس، كان رسولُ الله ﷺ في ناحيةٍ، في اثني عشرَ رجلاً من الأنصار، وفيهم طلحةُ بنُ عُبيد الله، فأدركه المشركون، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ فقال: «مَنْ للقومِ؟».

قال طلحةُ: أنا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «كما أَنْتَ».

---

(١) الله أكبر! هكذا فلتكن المحبةُ لرسول الله ﷺ، استبسالاً في مواجهة الموت، ومناصرة له كل المناصرة، وفداءه بالنفس والمال والولد كيما يمتدَّ رواقُ الدِّيْن، وتطهر الأرض من منكرات الجاهلية... مما يجعلنا نلحظ الإخلاص في التوجُّه، والوفاء في المواقف، والإيجابية في السلوك.

(٢) وهذه التضحية من الفارس طلحة تسمو إلى أعلى المراتب، فقد ضحّى بذاته ليحيا دِينُه، ويبقى رسولُ الله ﷺ حياً... وهذا إيثار بالنفس، قال مسلم بن الوليد:

تجودُ بالنفس إذ أنت الضنينُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غاية الجودِ

فقال رجلٌ منَ الأنصار: أنا يا رسول الله!.

فقال: «أنتَ». فقاتل حتى قُتِلَ.

ثمَّ التفتَ فإذا هو بالمشركين، فقال: «مَنْ للقوم؟».

فقال طلحةُ: أنا يا رسول الله!

فقال: «كما أنتَ».

فقال رجلٌ منَ الأنصار: أنا.

فقال: «أنتَ» فقاتل قِتال صاحبه حتى قُتِل.

ثمَّ لم يزلْ يقولُ ذلك: ويخرجُ إليهم رجلٌ منَ الأنصار، ويقاتل قِتال مَنْ قبله، حتى يُقْتَل، وحتى بقيَ رسولُ الله ﷺ، وطلحة بن عُبيد الله.

فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ للقوم؟».

فقال طلحةُ: أنا يا رسول الله!.

فقاتلَ طلحة قِتال الأحد عشر حتى ضُربتْ يده، فقُطعت أصابعه فقال: حَسِّ[1].

فقال رسولُ الله ﷺ: «لو قُلتَ بسمِ الله لرفعتك الملائكة والنَّاس ينظرونَ» ثمَّ ردَّ اللهُ المشركين[2].

* وفي رواية: «لو قلتَ: بسمِ الله لطارتْ بكَ الملائكة والنَّاس ينظرون إليك».

* وفي روايةٍ: «حملتك الملائكة».

---

(١) حسِّ: كلمة تقال عند الألم.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩٥). وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢١٧) والمستدرك (٣/ ٤١٧) وتاريخ الإسلام للذهبيّ (المغازي ص ١٧٦) وللحديث أصلٌ عند النّسائي (٦/ ٢٩ و٣٠) في الجهاد، باب: ما يقول من يطعنه العدو، ورجاله ثقات.

* وفي رواية: «لو قُلتَ بسمِ الله، أو ذكرت الله، لرفعتك الملائكةُ، والنَّاس ينظرونَ حتى تلجَ بكَ في جوِّ السَّماء»(١).

«أَوجَبَ طَلْحَةُ»:

* لا زلنا مع طلحة، ولا زالتِ المعركةُ دائرة على أشدِّها في أُحُدٍ، والمشركون يحيطونَ برسولِ الله ﷺ، وطلحةُ ينافح عنهَ، ويَقِيْه بنفسه، وبيده، حتى أصيبت يده، وشلَّت من أثَرِ ضربةٍ قويَّة منْ أحَدِ المشركين الطُّغاة.

* قال قيس بنُ أبي حازم فيما رواه البُخاري عنه: رأيتُ يَدَ طلحة شلاَّء، وقى بها النَّبيَّ ﷺ يوم أحد(٢).

* هذا وقد حمل طلحةُ رسولَ الله ﷺ على ظهره يوم أُحُد، فقد روى الزُّبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ قد ظَاهَرَ بين درعَيْن يومئذ، فلم يستطعْ أنْ ينهضَ إليها ـ يعني: إلى صَخْرةٍ في الجبل ـ فجلسَ تحته طلحة بن عُبيد الله، فنهضَ رسولُ الله ﷺ حتى استوى عليها، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَوْجَبَ طلحةُ»(٣).

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة برقم (٣٧٢٤) وفي المغازي برقم (٤٠٨٣)، وأحمد في المسند (١/ ١٦١) وابن ماجه في المقدمة (١٢٨) وابن سعد (٣/ ٢١٧) والاستيعاب (١/ ٢١٢) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ١٧٥).
كان طلحةُ قويَّ اليقين، كثير المحبة للدين وللرسول ﷺ، صابراً على المشقات، مُؤْثِراً نبيَّه على نفسه، وهذه حقيقةُ المحبة، وأسمى معارجها، فقد حمى الرسولَ الكريم بجسده، وفداه بأعضائه، رغبةً في طاعة الله، ومحبة لرسول الله ﷺ، فأكرمْ بهذه التضحية!

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب برقم (٣٧٣٩) باب: مناقب طلحة، وفي الجهاد برقم (١٦٩٢) وأحمد في المسند (١/ ١٦٥) وابن سعد (٣/ ٢١٨) والمستدرك (٣/ ٤٢١) والاستيعاب (٢/ ٢١٢) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩٢) والكامل لابن الأثير (٢/ ١٥٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٢) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ١٨٤) والإصابة (٢/ ٢٢١).

* ولقد جُرِحَ طلحة يوم أُحُدٍ جراحات كثيرة، ولا يزال يقفُ بشدّةٍ في وَجْهِ المشركين، يصدّهم عن رسولِ الله ﷺ، ولقد رَوَتْ ابنتا طلحة: عائشة وأمّ إسحاق خَبَرَ جراحاته، فقالتا: جُرِحَ أبونا يوم أحد أربعاً وعشرين جِراحةً، وقعَ منها في رأسه شجّة مربعة، وقُطع نَسَاه ـ يعني: عرق النّسا ـ وشلّتْ إصبعه، وسائر الجراح في سائر جسده، وقد غَلَبَه الغَشْي[1]، ورسولُ الله ﷺ مكسورة رباعيتاه، مشجوج في وجهه، قد علاه الغشي، وطلحة محتمله يرجع به القهقهرى، كلّما أدركه أَحَدٌ منَ المشركين، قاتل دونه حتى أسنده إلى الشّعب[2].

* ويذكر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ جراحات طلحة يوم أُحُد بعد أنْ أَصْلَحَ منْ شأنِ رسولِ الله ﷺ عقب أنْ رفعه طلحة إلى صخرة مشرفة، فقال: ثمّ أتينا طلحة في بعض تلك الحفر، فإذا به بضع وسبعون أو أقلّ، أو أكثر، بين

---

(١) «الغشي»: النّعاس. قال الذهبي: ولقد وقع السّيف من يدي طلحة ـ يوم أحد ـ من النّعاس إمّا مرتين أو ثلاثاً.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٢١٧ و٢١٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٢).

لنتأمّل في وَقْع الموت على أصحاب رسول الله ﷺ، وهم مِنْ حوله يحمونه بأجسادهم مِنْ نبال المشركين وضرباتهم، يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام، وهم في نشوةٍ عارمة، وحرصٍ حريصٍ على حفظ حياة رسول الله ﷺ، لا يُبالون بغير ذلك... فما هو مصدرُ هذه التضحية العجيبة؟

إنه الإيمان بالله ورسوله أولاً، ثم محبة رسول الله ﷺ ثانياً، فهما معاً سَبَبُ هذه التضحية الرائعة العجيبة والمسلم يحتاجُ إليهما معاً.

إن محبة الصحابة للرسول ﷺ هي التي جعلتهم يمدُّون نحورهم دون نحر رسول الله ﷺ، ويعانقون الموت في سبيل حِفْظ حياته ﷺ.

وكم في غزوة أُحُد من المشاهد الرائعة التي تكشف عن أثر هذه المحبة، إذ تغمر قلب صاحبها.

ويوم تمتلىء أفئدة المسلمين في عصرنا بنحوٍ منْ هذه المحبة، فإنهم يصبحون خَلْقاً آخر جديداً، وسينتزعون انتصارهم من بين شدقي الموت، وسيتغلبون على أعدائهم؛ مهما كانت العقبات والسدود. انظر: فقه السيرة النبوية، للدكتور: محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

طعنة، ورمية، وضربة، فإذا قد قُطعتْ أصبعه، فأَصْلحنا منْ شأْنه[1].

* ويصحو طلحة مِنْ جراحاته، ويصدّ أحد المشركين الكُماة[2]، ويقتله؛ يروي طلحة هذا الخبر فيقول:

لما جَالَ المسلمون تلك الجولة ـ في أحد ـ ثمّ تراجعوا، أقبل رجلٌ من بني عامر يجرُّ رمحاً له على فرسٍ كميت أغرّ[3] مدججاً في الحديدِ، يصيحُ: أنا ابن ذات الودع، دلُّوني على محمّد، فأضربُ عرقوبَ فرسه، فَرَمَتْ به، ثم أتناولُ رمحَه، فأضربه به، فوالله ما أخطأتُ به عن حدقَتِهِ، فَخَارَ كما يخورُ الثّور، فما برحتُ واضعاً رجلي على خَدِّه حتى أوردته المنية[4].

* ولهذا قال رسولُ الله ﷺ في طلحة: «مَنْ أرادَ أَنْ ينظرَ إلى شهيدٍ يمشي على رجليه، فلينظر إلى طلحةَ بنِ عبيد الله»[5].

* وفي حديثٍ آخر بمعناه: «مَنْ أحبَّ أنْ ينظرَ إلى رجلٍ يمشي في الدنيا وهو منْ أهل الجنَّةِ، فلينظر إلى طلحةَ بن عبيد الله، طلحة ممن قضى[6]

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (11/ 196).
(2) «الكماة»: جمع كمي، وهو الشجاع المقدام الجريء.
(3) «كميت»: ما كان لونه بين الأسود والأحمر.
«أغرّ»: ذو غُرَّة، وهي بياضٌ في جبهة الفرس.
(4) المصدر السابق (11/ 196) بتصرف يسير.
(5) سير أعلام النبلاء (1/ 25 و26).
(6) عن طلحة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما رجعَ النّبيُّ ﷺ منْ أُحُد، صَعِدَ المنبرَ، فحمدَ الله، وأثنى عليه، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23] فقامَ إليه رجلٌ، فقال: يا رسول الله! مَنْ هؤلاء؟ فأقبلتُ وعليَّ ثوبان أخضران، فقال: «أيها السّائل! هذا منهم».
وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قالوا: حدِّثنا عنْ طلحةَ، قال: ذاكَ امرؤٌ نزلتْ فيه آيةٌ من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ...﴾ [الأحزاب: 23] طلحةُ ممن قضى نَحبه، لا حساب عليه فيما يُستقبل. (حلية الأولياء (1/ 87 و88) و(مختصر تاريخ دمشق 11/ 187).

نحبه»[1].

* هذا وقد زكى القُرآن موقفَ طلحة، ومواقفَ فرسان الصَّحابة الذين صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه، قال تعالى في امتداحهم، وفي الثَّناء عليهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ..﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* قال جُمهور المفسِّرين: ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ...﴾ حمزةُ بن عبد المطلب، ومصعبُ بن عمير، وأنسُ بن النَّضر ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ المقصود: عثمان بن عفان، وطلحة ـ رضي الله عنهما ـ[2].

يَـومُ أُحُـدٍ في شِعْرِ طَلْحَــة وغيرِه:

* كان طلحةُ بنُ عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ يذكرُ غزاة أُحُد كلَّما ذُكرتِ المغازي، وقد سجَّلَ تلك المعركة شِعْراً عَددٌ منَ الصَّحابة، منهم طلحة، وحسَّان، وأبو بكر، وعمر بن الخطَّاب.

* ولنستمع إلى ذلك فيما أورده ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ في تاريخه؛ قال طلحة: لمّا كان يوم أحد ارتجزتُ بهذا الشِّعر:

نحــنُ حمــاةُ غَــالــبٍ ومَــالــك

نَــذُبُّ عــن رســولِنَــا المبــارك

نصــرفُ عنــه القــومَ فــي المعَــارِكِ

صَــرْفَ صفــاحِ الكــومِ فــي المَبَــارِكِ

* وما انصرفَ النَّبيُّ ﷺ يوم أُحُدٍ حتى قال لحسَّانَ: «قُل في طلحةَ»، فقال[3]:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/١٩٦) وللحديث أصل في كتب السُّنن.
(٢) انظر: غرر التبيان (٤١٩).
(٣) لم أجد الأبياتَ في ديوان حسَّان ـ رضي الله عنه ـ ويبدو أنَّ الأبيات مصنوعة ومنسوبة إلى حسان ـ والله أعلم بالصواب ـ.

وطلحـة يـوم الشِّعْـبِ آسـى محمّـداً
على سَاعـةٍ ضـاقـتْ عليـه وشَقَّـتِ
يَقِيْـه بكفّيـهِ الـرِّمـاح وأسْلَمـتْ
أشَـاجعُـه تحـتَ السُّيـوف فَشلّـتِ[1]
وكـانَ إمـام النّـاس إلا محمّـداً
أقـامَ رحـا الإسـلام حتـى استقلّـتِ

وقال أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ[2]:

حمـى نبـيَّ الهـدى والخيـل تَتْبَعـه
حتـى إذا مـا لقـوا حـامـى عـن الـدِّيْـن
صَبْـراً على الطَّعْـن إذا ولّـت جمـاعتهـم
والنّـاسُ مـن بيـن مهـديّ ومفتـون
يـا طلحـة بـن عُبيـد الله قـد وجبـتْ
لـكَ الجِنـان وزوّجـتَ المَهـا العِيْـن

وقال عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ:

حمـى نبـيَّ الهـدى بـالسَّيـف مُنْصَلتـاً
لمـا تـولّـى جميـعُ النّـاسِ وانكشفـوا

قال: فقال النّبيُّ ﷺ: «صدقتَ يا عمر»[3].

مِنْ مآثِر طَلْحَـةَ ومواقفـه المشهودة:

* كان طلحةُ ـ عليه سحابات الرضوان ـ من سادات الفُرسان، ومنْ

---

(1) «الأشاجع»: رؤوس الأصابع.

(2) الذي أعرفه أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ لم يَقُلْ، ولم يكن شاعراً، حيثُ ذكرت أمّنا عائشة أمّ المؤمنين أن أباها الصِّدِّيق لم يَقُلْ شِعراً، وقد توسّعت في هذا الموضوع في شخصيّة عامر بن فُهيرة من هذا الكتاب، فلتراجع.

(3) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/٢٠٣ و٢٠٤) ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه القصة والأبيات مصنوعة ومنسوبة إلى أبي بكر، وعمر، وحسّان، وطلحة ـ رضي الله عنهم ـ.

فُرسانِ السّادات، شهدَ المشَاهد كلَّها معَ رسول الله ﷺ، وكان له أثرٌ محمودٌ في باقي المغازي، فقد شَهد الخندق، وكان منْ أعلامِ فرسانها، ومشاهير أبطالها، وشهدَ بيعةَ الرّضوان، فكان ممّنْ حازَ الرّضوان، وفي يومِ تبوكَ جاءَ بمالٍ كثيرٍ، وجادَ به، وجاهدَ في الله بنفسه وماله.

* وكان طلحةُ ـ رضوان الله عليه ـ أحَدَ بحارِ الجُود في دنيا الجود، وأحد الأخيار الكُرماء الذين ضُرِبَ المثل بكرمهم، وسارتِ الرّكبان بأخبارِ جودهم، وجود أخبارهم، ولقد أطلق عليه رسولُ الله ﷺ طلحة الجود، وطلحة الخير، وطلحة الفياض.

* ذكرتِ المصادرُ نَبأ هذا الخبر المِعْطار فقالت: لمَّا كان يوم أُحُد سمّاه النّبيُّ ﷺ: طلحة الخير، وفي غزوة العُشيرة: طلحة الفياض، ويوم حُنين: طلحة الجود.

* وأمَّا أبو نُعَيْم، فللّه درّه حيثُ بَدأ ترجمة طلحة فأبدع وأجاد، إذ قال: ومنَ الأعلام الشّاهرة، صاحبُ الأحوال الزّاهِرة، الجوادُ بنفسِهِ، الفيّاض بمَالِهِ، طلحةُ بنُ عُبيد الله، قضى نَحْبه، وأقرضَ ربَّه، كان في الشِّدَّة والقِلَّة لنفسِهِ بذولاً، وفي الرّخاء والسَّعَةِ بماله وصولاً[1].

* ولقد حظي طلحة ـ رضوان الله عليه ـ بمكانةٍ متميزة[2] عند رسول الله

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٨٧).

(٢) منَ التّوفيقات اللطيفة لطلحة بنِ عُبيد الله ـ رضي الله عنه ـ أنّه كان سلْفَ النّبيِّ ﷺ، في أربع نساء.
كانت عند النّبي ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصِّديق، وكان أختُها أمّ كلثوم بنت أبي بكر عند طلحة، فولدت له: زكريا، ويُوسف، وعائشة.
وكانت عند النّبي ﷺ زينب بنت جحش، وكانت أختها حمنة بنت جحش عند طلحة، فولدت له محمّداً، وقتل يوم الجمل مع أبيه.
وكانت عند النّبيّ ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت أختها الرّفاعة بنت أبي سفيان عند طلحة.
وكانت عند النّبيّ ﷺ أمّ سلمة بنت أميّة، وكانت أختها قريبة بنت أبي أمية عند

ﷺ، إذ كان يخصُّه بمآثرَ متعددةٍ مباركة، منها ما رواه طلحة ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلتُ على رسولِ الله ﷺ وفي يده سفرجلة، فرمى بها إليَّ وقال: «دونكها يا أبا محمد! فإنَّها تجمُّ الفؤاد»[١].

* وكان الصَّادق المصدوق سيِّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ يدعو طلحة بألْقَاب لطيفة مباركة، ويسأل عنه دائماً في كلّ مجلس، يقول طلحة: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا قَعَدَ سألَ عنّي، وقال: «ما لي لا أرى الصَّبيح، المليح، الفصيح؟!».

* ولطلحة ـ عليه سحائب الرّضوان ـ أخبارٌ وضيئةٌ في الجودِ، وهي منْ علامات سعادته[٢] سجّلتها كُتُب المصادر، ووعَتْها في ذاكرتها. وقد وصفه

= طلحة، فولدت له مريم بنت طلحة (المستدرك ٣/ ٤٢٠) و(الإصابة ٢/ ٢٢١) بتصرف يسير.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٩٢) والمستدرك (٣/ ٤١٨) حيث قال: هذا حديث صحيح الإسناد، وتعقَّبه الذهبي بقوله: قلتُ: ابن حماد، قال أبو حاتم: منكر الحديث.

(٢) قيل: إنَّ مِنْ علاماتِ السَّعادة إحدى عَشْرة خصْلَة ـ وكلّها تجمَّعت في طلحة ـ رضي الله عنه ـ وهي:

١ ـ أن يكونَ زاهداً في الدُّنيا راغباً في الآخرة.

٢ ـ أن تكونَ نهمتُه العِبادة وتلاوة القرآن.

المصدر السابق (١١/ ١٩٦) بتصرف يسير.

٣ ـ قلّةُ القَوْل فيما لا يحتاجُ إليه.

٤ ـ أن يكونَ محافظاً على الصَّلوات الخمس.

٥ ـ أن يكون وَرِعاً فيما قلَّ أو كثُرَ منَ الحرام والشُّبهات.

٦ ـ أن تكونَ صحبته مع الصَّالحين.

٧ ـ أن يكونَ متواضعاً من غير تكبّر.

٨ ـ أن يكونَ سخيّاً كريماً.

٩ ـ أن يكونَ رحيماً بخَلْق اللهِ تعالى.

١٠ ـ أن يكونَ نافعاً للخَلْق.

١١ ـ أن يكونَ ذاكراً للموت كثيراً.

قُبيصة بنُ جابر، وذكر جوده فقال: صحبتُ طلحةَ بنَ عبيدِ الله، فما رأيتُ رجلاً أعطى لجزيل مالٍ منْ غير مسألة منه[1].

* ومن أخبارِ جُوده أنَّه أتاه مالٌ منْ حضرمَوْتَ وقدرُه: سَبْعمئة ألف، فبات ليلته يتملْمَل، وما أنْ أَصْبَح الصَّباح حتى فرَّقَ جميعَ ذلك بين المهاجرين والأنصار. وكان لا يدعُ أَحَداً من بني تَيْم فقيراً إلا كَفَاه مؤنتهِ ومؤنة عياله، وزوَّج أياماهم، وقضى ديونَهم؛ وقد وَرَدَ أنَّه قضى عن صُبيحة التَّيميّ ثلاثين ألف درهم، وكانت غلَّته كلَّ يوم ألف وَافٍ[2].

* وكان طلحة ـ رضوان الله عليه ـ من حُلماء قريش. ومن فرائد أقواله، ودُرَر جواهر كلامه قوله: إنَّ أقلَّ عيب الرَّجُل جلوسه في بيته[3].

= (تنبيه الغافلين للإمام السمرقندي، تحقيق: يوسف علي بديوي ص ١٩٣ و١٩٤).
ولعلّه من المفيد أيضاً أنْ نشيرَ إلى علامة الشّقي، وهي أيضاً إحدى عشرة خصلة:
١ ـ أن يكونَ حريصاً على جَمْع المال.
٢ ـ أنْ يكونَ نهمتُه في الشَّهوات واللذات في الدّنيا.
٣ ـ أنْ يكونَ فحّاشاً في القَوْل مكثاراً.
٤ ـ أنْ يكون متهاوناً في الصَّلوات.
٥ ـ أن يكونَ أكله منَ الحرام والشُّبهات وصحبته مع الفجّار.
٦ ـ أن يكون سيّءَ الخُلق.
٧ ـ أن يكونَ مختالاً متكبراً فخوراً.
٨ ـ أن يمنعَ منفعته عنِ النّاس.
٩ ـ أن يكونَ قليل الرحمة للمسلمين.
١٠ ـ أن يكونَ بخيلاً.
١١ ـ أن يكون ناسياً للموت.

(١) حلية الأولياء (١/ ٨٨) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٠٠).
(٢) «الوَافي»: درهمٌ وأربعةُ دوانيق. (لسان العرب مادة وفى).
(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٠٣). ويقصد طلحة ـ رضي الله عنه ـ أن يتفقَّدَ الإنسان شؤونَ النَّاس، ويجود عليهم، ويكرمهم، ويخالطهم، فالعزلة بُعْدٌ عن الاهتمام الاجتماعي بالمسلمين، ومَنْ لم يهتم بالمسلمين، ويعرف حوائجهم فيقضيها، فليس منهم.

* ومما حُفِظ عنه قوله: الكسوةُ تظهرُ النِّعمة، والدهن يُذهب البؤس، والإحسان إلى الخادم يكبتُ الأعداء.

* ولطلحة ـ رضي الله عنه ـ آراء ثاقبةٌ وصحيحة في النَّاس، فكان لا يشاور بخيلاً في صِلة، ولا جباناً في حرب، ولا شاباً في جارية[١].

* ومن أجلِّ مناقب طلحة ـ رضي الله عنه ـ روايته للحديث النّبويّ الشَّريف، فقد روى عنِ الرَّسول ﷺ (٣٨ حديثاً).

* له حديثان متّفق عليهما، وانفردَ له البخاري بحديثينِ، ومسلم بثلاثةِ أحاديث[٢].

* حَدَّثَ عنه بنوه: يحيى، وموسى، وعيسى[٣]، كما حدَّثَ عنه جلّةٌ منْ علماءِ التَّابعين منهم: السَّائب بن يزيد، وقيس بن أبي حازم، والأحنف بن قيس، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وآخرون[٤].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٠٣) ويلاحظ هنا دقة رأي طلحة، إذ إنَّ البخيل يكرهُ الجود، والجبانَ يفرُّ من الحرب، ومن سماع ذكر الفروسية، والشَّاب تكون نظرته إلى الجارية غير سليمة.

(٢) وقد مرّ بعضها من خلال سيرته كما لاحظتَ.

(٣) كان لطلحة عَشر بنين وأربع بنات، فأمّا بنوه وهم: محمّد وبه يُكنى، وموسى، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وزكريا، ويحيى، وصالح، وعمران، وأمّا البنات فهن: أمّ إسحاق، وعائشة، ومريم، والصَّعبة.
قال الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: ولطلحة أولادٌ نجباءُ أفضلهم محمّد السَّجّاد، كان شاباً خيراً، عابداً، قانتاً لله، وُلِد في حياةِ النّبيِّ ﷺ، فقُتل يوم الجمل، فحزنَ عليه عليٌّ، وقال: صرعه برّه بأبيه.
وقال الحاكم في «المستدرك»: كان محمّد بنُ طلحة من الزُّهاد المجتهدين في العبادة، وكان أصحاب رسولِ الله ﷺ يتبرّكُون به وبدعائه، وهو أوّل مَنْ لُقّب بالسّجّاد، وولد في حياة النّبيِّ ﷺ وأتوه به، فقال: «ما سميتموه؟» فقالوا: محمّداً. فقال: «هذا اسمي وكنيته أبو القاسم» وأمّ محمد السجاد: حمنة بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٢) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٤).

مِنَ الذينَ سَبَقَتْ لَهُمُ الحُسْنَى:

* عاش طلحة ـ رضي الله عنه ـ حميداً، سخياً، شريفاً، وتابعَ رحلة جهاده وجِلاده في ظلِّ الخلفاء الرَّاشدين، يعملُ لنصرة الإسلام والمسلمين، وكان له شأنٌ ومكانةٌ في خلافة أبي بكر وعمر ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ.

* وفي بداية خلافة عليّ ـ رضوان الله عليه ـ خرجَ طلحة مع مَنْ خرجَ في يومِ الجمل، فقتِلَ؛ أصَابَه سَهْمٌ في ركبتِهِ، فجعل الدم يسيلُ، فإذا أمسكوه استمسكَ، وإذا تركوه سَالَ، فقال طلحة: دعوه؛ فإنَّما هو سَهْم أرسله الله، فماتَ، فدفنوه على شطٍّ في البصرة بأرض العراق.

* وبعد بضع وثلاثين سنة رآهُ بعض أهله[1] في المنام يقول: ألا تريحوني مِنْ هذا الماء؟ فإنَّ النَّزَّ قد قد آذاني! فذهبوا ونَبَشوا قَبْرَه، ونزفوا عنه الماء، ثمَّ استخرجوه، ولم يتغيرْ منه إلا شُعَيرات في إحدى شِقَّي لحيته، فاشتروا داراً منْ دُورِ آل أبي بكْرة، فدفنوه فيها[2].

* وكان قَتْلُ طلحةَ في سَنَة ستٍّ وثلاثين من الهجرة، في جمادى الآخرة، وهو ابنُ ثنتين وستينَ سنة[3] أو نحوها، وقبره بظاهر البصرة.

* وظلّتْ آثار طلحة ـ رضي الله عنه ـ تعطِّر المَجالِسَ، وتُبهجُها وتؤنسُها، منَ ذلك ما وَرَدَ عنِ النُّعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ وكان ممن يَسْمَر مع عليّ ـ أنَّ علياً خرجَ فتَلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قال: أنا منهم، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، فما زال يتلو حتى دخَل في الصَّلاةِ.

---

(١) قيل: إنَّ الذي رآه في النَّوم: ابنته عائشة بنت طلحة، وللمزيد من أخبار عائشة هذه راجع كتابنا «نساء من عصر التابعين» (١/ ١٣ ـ ٣٠)، ففي أخبارها كثير من الفوائد إنْ شاءَ الله.

(٢) عن مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٠٩ و٢١٠) وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٠) مع الجمع والتصرف.

(٣) وقيل: كان عمره أربعاً وستين سنة (الإصابة ٢/ ٢٢٢).

* وسمع سيّد فتيان الفُرسان عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً ينشد:

فتىً كان يُدْنيهِ الغِنَى منْ صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفَقْرُ
كأنَّ الثُّريا عُلِّقتْ في جبينهِ ... وفي خدّه الشِّعْرى وفي الآخر البَدْرُ

فقال: ذاك أبو محمّد طلحة بن عُبيد الله يرحمه الله. قال: وكان طلحة حَسنَ الوَجْه، جَوَاداً.

* وهكذا لَحِقَ طلحة بالشُّهداء والصَّالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً، وستظل سيرة طلحة فارس رسول الله ﷺ وفارس أُحُد، سيرةً لطيفة نافعة، تُعطِّر بها الأسماع، وتتناقلها الأجيال، فهل تكون سيرته قدوة للصَّالحين؟!.

* رضي الله عن طلحة، وجعله في سدر مخضود، وطَلْحٍ منضود، وظلٍّ ممدود.

والمأمولُ من المسلمين أن يقتدوا بطلحة في فروسيته، ومروءته، وجُوده، فحياتُه كلُّها قدوة صالحة لمن ألقى السمع وهو شهيد، واتبع السَّادة الأطهار في أقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم. فطُوبى لمن اعتبر، وعلى البلاء صَبَر.

* * *

(١١)

عبد الرحمن بن عوف

- رضي الله عنه -

مِنَ السَّابقين من أهل الجنَّةِ، ومن أصحاب الهجرتين، شهدَ له ﷺ بالصَّبر، والصِّدق.

الفَارِسُ البَـرُّ الخَيِّر:

* قال الشَّاعر:

أولئــك قَــومٌ أتلَفُــوا مُهَجَـاتِهـم
لإحيـاءِ دِيْـنِ اللهِ بـالطَّعْـنِ والضَّـرب
غيـوثٌ إذا أعطَـوْا لُيـوثٌ إذا التقَـوا
مُعَـانـون منصُـورون بـالـرَّهـب والـرَّعب

* ونحنُ إذا ذكرنا فُرسانَ الرَّسول ﷺ وليوثَ الميدان ممَّنْ بشَّرهم ﷺ بالجنَّةِ، فلا بدَّ لنا وأنْ نُشيرَ إلى الفارس الكريم، والشّجاع الجَواد، أبي محمّد عبد الرَّحمن بن عوف بن عبد عوف القرشيّ الزّهري[(١)]، أحد العشرة المشهود لهم بالجنَّةِ، وأحد الثّمانية الذين سَبَقُوا إلى الإسلام، وأحد السّتة أصحاب الشُّورى، وأحد السَّابقين البدريِّين، وأحد الذين تُوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم. فأكْرِمْ بهذه المناقب الجمَّة!.

* وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل: عبد الكعبة، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبدَ الرَّحمن. قال عبد الرَّحمن بن عوف: كان اسمي عبد عمرو، فَسَمَّاني رسولُ الله ﷺ عبدَ الرَّحمن[(٢)].

---

(١) مسندُ أحمد (١/ ١٩٠ ـ ١٩٥) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ١٢٤ ـ ١٣٧) ونسبُ قريش (ص ٢٦٥) والمعارف (ص ٢٣٥ ـ ٢٤٠) والمستدركُ (٣/ ٣٤٥ ـ ٣٥٣) وحلية الأولياء (١/ ٩٨ ـ ١٠٠) والاستيعاب (٢/ ٣٨٥ ـ ٣٩٠) وجامع الأصول (٩/ ١٩ ـ ٢٠) ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٤٢ـ ٣٦٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد الخلفاء الرّاشدين ص ٣٩٠ ـ ٣٩٦) والعِقْد الثّمين (٥/ ٣٩٦ ـ ٣٩٨) والإصابة (٢/ ٤٠٨ ـ ٤١٠) وتاريخ الخميس (٢/ ٢٥٧) وكنزُ العمّال (١٣/ ٢٢٠ ـ ٢٣٠) بالإضافة إلى كثير من كُتب الحديث والسّيرة والتّاريخ مما لا يُستقصى.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٤) والمستدرك (٣/ ٣٤٦) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠٠) ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٤٢ و٣٤٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٣٩١).

* وُلِدَ عبد الرَّحمن بن عوف بعد عام الفيل بعشرِ سنين؛ وأمّه: الشِّفَاء بنت عوف بن عبد الحارث الزّهرية[1].

* كان عبد الرَّحمن رجُلاً طويلاً، حَسَنَ الوجْهِ، رقيقَ البشرة، أبيضَ مشرّبَ حمرة، لا يغيّر شَعْره، أعْيَنَ، أهدبَ الأشفار، أقنى، له جمةٌ أسفلَ أذنيه، ضخمَ الكفَّين، غليظَ الأصابع، أَعْسَرَ، أعرج[2].

* نشأَ عبد الرَّحمن ـ رضي الله عنه ـ نشأةً صافيةً، وكان رشيداً، عاقلاً، سديدَ الرَّأي، لا يأْبَهُ بأعمالِ الجاهلية وعاداتها، فكان ممَّنْ حرَّم الخمر في الجاهلية، ويُروى أنّه قال في ذمِّ الخمرة بيتاً من الشِّعر:

رأيـــتُ الخمـــرَ شَـــارِبهـــا مُعَنَّـــى
بـــرجـــعِ القـــولِ أو فَصْـــلِ الخطـــابِ

أَجَبْتُ مُنَـادِيَ الله:

* استجابَ عبد الرَّحمن بنُ عوف لنداء الإيمان، وأنداءِ نَسَمات الحقِّ، منذ أن لاحتْ تباشيرُ الإسلام في أيّامهِ الأولى، حيثُ أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دارَ الأرقم المخزوميّ، وكان إسلامه على يَدِ فارسِ شيوخ الصَّحابة أبي بكر الصِّدِّيق ـ عليه سحائب الرضوان ـ.

* ولإسلامه قصَّة طريفةٌ، تستحقُّ التَّسجيل، يرويها عبد الرَّحمن نفسه فيقول:

سافرتُ إلى اليمنِ قبل مَبْعَث رسولِ الله ﷺ بسنةٍ ونحوها، فنزلتُ على عَسْكَلانَ بنِ عَوَاكن الحِمْيريّ، وكان شيخاً كبيراً مُعَمَّراً، فكان ينشدُ، ويقولُ منْ أبيات:

إذا مـا الشيـخُ صُـمَّ فَلَـمْ يُكَلّـم
وأودى سمعـــه إلا بَـــدايَـــا

---

(١) اقرأ سيرة الشفاء بنت عوف في كتابنا: «نساء من عصر النبوة» (٢/ ١١٥ ـ ١٢١) فسيرتها شفاء للنفوس.

(٢) الاستيعاب (٢/ ٣٩٦) وصفة الصفوة (١/ ٣٥٠) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٣٣) والإصابة (٢/ ٤١٧) والمستدرك (٣/ ٣٠٨).

فـذاكَ الـدَّاءُ ليـس لـه دَوَاءٌ   سوى المـوتِ المنطّـق بـالـرَّزايـا

وكنتُ لا أزالُ إذا قدمتُ اليمنَ نزلتُ عليه، فيسائلني عن مكةَ والكعبةِ وزمزمَ، فيقول: هل ظهر فيكم رجلٌ له نَبَه؟ له ذِكْر؟ هل خالفَ أحَدٌ منكم عليكم في دِيْنكم؟

فأقولُ: لا، فأُسمّي له منْ قريش، وذوي الشَّرف، حتى قدمتُ القَدْمةَ التي بُعِثَ فيها رسولُ الله ﷺ بعقبها، فوافيته وقد ضَعُفَ، وثَقُلَ سمعه، فنزلتُ عليه، فقال لي: انتسب يا أخا قُريش!

فقلتُ: أنا عبد الرَّحمن بنُ عوف بنِ عبد عوف بنِ الحارث بنِ زهرة.

قال: حسبُك يا أخا زهرة! ألا أبشرّك ببشارة، وهي خيرٌ لك منَ التّجارة؟!

قلتُ: بلى.

قال: أنبئك بالمعجبةِ، وأبشِّرك بالمرغبةِ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد بَعَثَ في الشَّهر الأوَّل منْ قومك نبيّاً، ارتضاه صفيّاً، وأنزل عليه كتاباً، وجَعَل له ثواباً، ينهى عنِ الأصنام، ويدعو إلى الإسلام، يأْمُر بالحق ويفعله، وينهى عن الباطلِ ويبطله.

فقلتُ: ممّنْ هو؟

قال: هو من بني هاشم، وأنتم أخوالهُ. يا عبد الرَّحمن! عَجِّل الرَّجعةَ، ثمّ امْضِ ووازِرْهُ، وصدِّقْه. ثم حَمَّلَهُ بِضْعَةَ أبياتٍ ينشدها أمامَ رسول الله ﷺ.

* قال عبد الرَّحمن: فقضيتُ حوائجي، ثمّ قدمتُ مكةَ، فلقيتُ أبا بكر - رضوان الله عليه - وكان لي صَاحباً، فأخبرته الخبر ممّا سمعتُ من الحِميريّ، فقال: هذا محمّد بن عبد الله، قد بَعَثَهُ اللهُ رسولاً إلى خَلْقِهِ، فائتِهِ.

* قال عبدُ الرَّحمن: فأتيتُه وهو في بيتِ خديجةَ - رضي الله عنهما - فلمَّا رآني ضَحِكَ وقال: «أرى وجهاً خليقاً أرجو له خيراً» فأسلمتُ وشهدتُ أنْ لا إله إلا الله، وأنشدتُه شِعْر الحميريّ، وأخبرتُه بقولِهِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ربَّ مؤمنٍ بي ولم يَرني، ومصدّق لي وما شَهدني، أولئك إخواني حقّاً».

* قال عبدُ الرَّحمن: ـ بعد أنْ روى قصَّة إسلامه ـ وأنا الذي أقول في إسلامي:

أَجَبْـــتُ مُنَـــادِي اللهِ لمَّـــا سمعتُـــه
يُنـادي إلـى الـدِّيْـنِ الحنيـفِ المكـرَّمِ

فقلـــتُ لـــه بـــالبعـــدِ لبيـــك داعيـــاً
إليـــك مَتَـــابـــي بـــك إليـــك تيمُّمـــي

ألا إنَّ خَيْـــرَ النَّـــاس فـــي الأرض كلِّهـــم
نبـــيٌّ جَـــلا عنَّـــا شكـــوك التَّـــرجُّـــمِ(١)

فـــأقشـــعَ بـــالنُّـــورالمضـــيء ظـــلامـــة
وســـاعـــده فـــي أمْـــره كـــلُّ مُسْلـــمِ

وخـــالَفَـــه الأشْقَـــون مـــنْ كـــلِّ فـــرقـــةٍ
فسُحقـــاً لهـــم فـــي قَعْـــر مهـــوى جهنَّـــمِ(٢)

* ولقي عبد الرَّحمن منَ العذاب في سبيل الله ما لقيه السَّابقون الأوَّلون، فصَبَر، واحتسب، وثَبَتَ، وصدق ما عاهد الله عليه.

* وظلَّ عبد الرَّحمن يصبرُ ويُصَابر، حتى ذَهَبَ مهاجراً إلى أرضِ الحبشة الهجرتين جميعاً(٣)، ثم عاد إلى أمّ القرى، ومن بعدها هاجر إلى المدينة المنوّرة، وهنالك نَزَلَ على سعد بنِ الرَّبيع الخزرجيّ، فآخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين عبد الرَّحمن، وكان لهذه المؤاخاة نصيبٌ وافرٌ في تاريخِ الصَّحابة الكرام.

عَبدُ الرَّحمن وسَعْدٌ ومُؤَاخَــاةٌ فَرِيْــدَةٌ:

* ذكر جمهور المفسِّرين والمحدِّثين، وعُلَماء السِّيرة النَّبوية أنَّ المتآخين

---

(١) «الترجم»: رَجَم الرجلُ: قال في الأمر بالظن والحَدْس. ومنه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] أي: ظناً من غير دليل ولا برهان.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٤٤ ـ ٣٤٧) بتصرف.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٥).

منَ المهاجرينَ والأنصارِ، كانوا يتوارثُون بالمؤاخاة، دون ذوي الأرحام، وقرابة النَّسب، حتى كانت وقعةُ بدر، فنزلتْ آية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فنسختْ ما كان من توارثٍ بالمؤاخاة[(١)].

* والمعروفُ أنَّ المؤاخاةَ بين المهاجرين والأنصار، كانت منْ أسبقِ الأعمالِ التي قامَ بها رسولُ الله ﷺ في المدينة المنوّرة.

* ولعلَّ المؤاخاة التي عَقَدَها رسولُ الله ﷺ بين عبد الرَّحمن وسعد بن الرَّبيع، منْ أشهرِ قَصَصِ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[(٢)].

* روى البُخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عبد الرَّحمن بن عوف أنَّ رسولَ الله ﷺ آخى بينه وبين سعد بن الرَّبيع الأنصاريّ، فجاء سعد فعرضَ عليه أنْ يقاسمه مَالَه وقال له: انظر أي زوجتي أحبّ إليك أتنازل لك عنها، حتى إذا ما انتهتْ عدّتها تزوَّجْتَها؛ فأبى عبد الرَّحمن وقال له: باركَ اللهُ لكَ في أهلكَ ومالك، ولكنْ دُلّني على السُّوق، فدلَّه على السُّوق، فباعَ وابتاعَ حتى صار له مَالٌ، وتزوَّجَ امرأةً منَ الأنصار بوزنِ نواة منْ ذَهَب، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أولم ولو بشاة»[(٣)].

---

(١) راجعْ في هذا الموضوع تفسير الطبريّ والقرطبيّ والرّازي وابن كثير والقاسمي وغيرهم من أئمة المفسرين لآخر سورة الأنفال.

(٢) إنَّ المتأملَ فيما قامَ به الأنصارُ تجاه إخوانهم منَ المهاجرين، ليتعجَّبُ مما فعله هؤلاء القوم، ولعلَّ مَردَّ ذلك إلى فَضْل اللهِ عزَّ وجلَّ، وإلى رحمته التي غزَتِ القلوبَ، فألّفَت بينها. قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].
هذا؛ وقد فتح الأنصارُ قلوبهم للمهاجرين قبل أن يفتحوا بيوتهم ووسعوهم بصدورهم قبل أنْ يسعوهم بأموالهم، وتسابقوا إلى لقائهم وإكرامهم، وضربوا في باب الإيثار، وسخاءِ النفس وكرمِ الطبع، مُثُلاً عُليا لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة بالإكبار والإعظام.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع برقم (٢٠٤٨) وفي مناقب الأنصار برقم (٣٧٨٠) وأخرجه أيضاً في مواضعَ من صحيحه بالأرقام (٣٧٨١ و٢٠٤٩ و٢٢٩٢ و٣٩٣٧ و٥٠٧٢ و٥١٤٨ و٥١٥٣ و٥١٥٥ و٥١٦٧ و٦٠٧٢ و٦٣٨٦) وأخرجه كذلك ابن =

مآثِرُهُ في المغَازي:

* شهدَ عبد الرَّحمن بن عوف ـ رضوان الله عليه ـ بدراً وأُحُداً والخَنْدَقَ والمشاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، وثَبَتَ يوم أُحُدٍ مع رسولِ الله ﷺ حين ولَّى النَّاس[1].

* وكان لعبد الرَّحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ موقفٌ ساخرٌ آسرٌ يوم بدر، وهذا الموقفُ يجمعُ الطَّرافة إلى جانبِ العِظَة، وشموخ الإيمان؛ فقد جاء غزاةُ بَدْرٍ تلك؛ التي أعزَّ اللهُ بها الإسلام وجنده، وأذلَّ بنصرها الشِّرك وأهله، تعبَّـأ لها المشركون وفجّار قريش بالرِّجال والسِّلاح، والمال والعدَّة والعَدَد، والتقى المسلمون المشركين في بدر، فما كانت إلا جولات حتى أخذَهم المسلمون: قتلاً لكبار أشرافهم، وأعلامِ شركهم، وأَسْراً لطَواغيتهم وفرسانهم، وتشريداً لغوغائِهم وأحلافهم.

* كان عبد الرَّحمن ـ رضي الله عنه ـ ممَّن شَهِدَ تلك الغزوة، وأبدع فيها، وكان قد غَنِم بعض أَدْرَاع وأشياء منَ المشركين، وبينما هو في وسْطِ المعركة، إذا بَصُرَ بصديقِه في الجاهلية: أميّة بن خَلف الجُمحيّ، وكان معه ابنه عليّ بن أمية، فطلبَ منه أميّة أنْ يتركَ الأَدْرَاع، ويأخذه أسيراً مع ابنه عليّ، ففعل عبد الرَّحمن، وطرح الأدراع، وأخذهما يمشي بهما.

* وبينما كان يقودهما، إذ لمح بلالُ بن رباح ـ رضي الله عنه ـ طاغيةَ الفَجورِ، ورأسَ الكُفْر أميّة بن خلف يقودهُ عبد الرَّحمن بن عوف، فتتواثبُ إلى رأسِ بلال، وتتراءى لعينيه صور العذاب؛ الذي كان يصبُّه عليه أميّة بن خلف[2]، وتذكَّر تلك الأعمال الشَّائنة التي كان يرتكبها بحقِّه وحقِّ المؤمنين

= ماجه مختصراً في النكاح برقم (١٩٠٧) وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٥٣) والبداية والنهاية. ونلاحظ أن سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ قد ضرب مثلاً فريداً في الإيثار، وضرب عبد الرحمن بن عوف مثلاً عالياً لعزة النفس، والرغبة في العمل والاكتساب.

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٨).

(٢) اقرأ سيرة هذا الفاجر وأعماله العدوانية الظالمة في كتابنا: «المبشرون بالنار» =

المستضعفين بمكَّةَ، فلم يملك بلال نفسه، وصرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأس الكفر، أميّة بن خلف، لا نجوتُ إنْ نَجا.

* ويستجيبُ فتيةٌ منْ بهاليلِ[1] الأنصار إلى صرخة بلال، ويحتوشونَ أميّة بن خَلف وولده عليّاً بسيوفهم، ويحاولُ عبد الرَّحمن بن عوف أنْ يدفعَ عنه - وقد اتَّخذه وولده أسيرَيْن - فلا يبالي أنصارُ اللهِ بذلك، ومضوا في سبيلهم للقضاءِ عليه، فهبَّروه[2] بسيوفهم، وطهَّروا الأرضَ منْ رجْسهِ، وأصاب بعضهُم رِجْلَ عبد الرَّحمن بن عوف بسيفه، فكان عبدُ الرَّحمن بن عوف يُري النَّاس ذلك الأثَر في قدمِه، وكان عبد الرَّحمن بن عوف - رضي الله عنه - يقول: يرحمُ الله بلالاً، ذَهَبَتْ أدراعي، وفجعني بأسيري[3].

* وتقولُ بعضُ روايات أصحاب السِّيرة النَّبوية، وبعض كُتب المغازي والأدب: إنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق - عليه سحائبُ الرضوان - قد هَنَّأ بِلالاً على قَتْلِه رأسِ الكُفْر، وطاغية الفجور أمية بن خلف الذي كان يسومه سوءَ العذابِ بمكةَ، فيخرجه إلى الرَّمضاء، فيلقي عليه الصَّخرة العظيمة ليفارق دِيْنَ الإسلام، فيعصمه اللهُ من ذلك؛ فقال:

هَنيئـــاً زادكَ الـــرَّحمـــن خَيْـــراً
فقـــد أدركـــتَ ثـــأركَ يـــا بـــلالُ
فـــلا نِكْســـاً وُجـــدتَ ولا جبـــانـــاً
غـــداة تنـــوشُـــك الأُسْـــلُ الطِّـــوالُ[4]
إذ هـــابَ الـــرِّجـــال ثَبَـــتَّ حتَّـــى
تخـــالِـــط أنـــتَ مـــا هـــابَ الـــرِّجـــالُ

= (١/٥٥ـ٨٦).

(١) «بهاليل»: جمع بهلول، وهو السَّيِّد الجامع لصفات الخير.
(٢) «هبروه»: هَبَر اللحمَ: قَطَعَه قِطعاً كِباراً.
(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٥٩ و٦٠) بشيء من التصرف.
(٤) «النكس»: الرَّذل. «الأسل»: الرماح.

على مَضَضِ الكُلُوم[1] بمشرفيٍّ[2]
جَلا أطرافَ مَتْنَيْهِ الصَّقالُ[3]

* لا زِلْنَا في غزاةِ بَدْر، ولا زلنا مع عبد الرَّحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ الذي شَهِدَ مَقْتَل فِرعَون الأمَّة أبي جهل بن هشام. وعند عبد الرَّحمن الخبر اليقين عن مقتل أبي جهل.

* روى عبد الرَّحمن بن عوف هذا الخبر الشَّائق اللطيف فيقول:

إنِّي لواقفٌ يومَ بدر في الصَّف، نظرتُ عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين حديثة أسنانهما منَ الأنصار، فتمنيتُ أنْ أكونَ بين أَضْلَعَ منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عمّ هل تعرف أبا جهل؟!

قلتُ: نعم، وما حاجتك إليه يا بن أخي؟!.

قال: إنِّي أُخْبِرتُ أنه يَسُبُّ رسولَ الله ﷺ، والذي نفسي بيده! لو رأيتُه لا يفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا. فتعجبتُ منْ ذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها؛ فلم أنشب أنْ نظرتُ إلى أبي جهل يجول في النَّاس، فقلتُ لهما: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه. فابتدراه فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه.

ثمَّ انصرفا إلى رسولِ الله ﷺ فأخبراه فقال: «أيّكما قتله؟».

قال كلّ واحد منهما: أنا قتلته.

قال: «هل مسحتما سيفيكما؟».

قالا: لا.

---

(١) «الكُلُوم»: الجروح.
(٢) «المشرفيّ»: السَّيف.
(٣) انظر: زهر الآداب للحصريّ (١/ ٤٠). هذا؛ وقد نوّهْتُ في أكثرَ من موضعٍ إلى أنَّه لم يُعْرَفْ منْ طريقٍ صحيحٍ أنَّ أبا بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ كان يقرض الشِّعر، أو يقول القصيد، ولعلَّ بعض الشُّعراء قد نسب هذه الأبيات إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ والله أعلم.

فنظر في السَّيفين فقضى بسَلَبِه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، واسم الآخر معاذ بن عفراء[1].

* واستدارَ العامُ، وجاءت غزوةُ أحد، وخاضَ عبد الرَّحمن بن عوف غمارها بشدَّةٍ واقتدار، وثبتَ حولَ الرَّسول الكريم ﷺ فيمن ثبت من المهاجرين والأنصار، وجُرِحَ يومئذ عشرونَ جراحة أو أكثر بعضها في رِجْلِه فَعَرج، وأُصيب فَمه يومئذ فَهُتِمَ وسَقَطت ثنيّتاه[2]. ثم يشهد غزوةَ الخندق وبيعة الرِّضوان وسائر المشاهد معَ رسولِ الله ﷺ.

* وفي غزوةِ تبوكَ جاهد عبد الرَّحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ بماله ونفسه، ففي تلك الغَزاة، أَمَرَ رسولُ الله ﷺ المسلمين بالصَّدقة والنَّفقة في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فأنفقوا احتساباً، وأنفقَ رجالٌ غير محتسبين، وأفضل ما تصدَّقَ به يومئذٍ أَحَد عبد الرَّحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ تصدَّقَ بمئتي

---

(١) انظر: السِّير الكبير (٢/٥٩٩) وسير أعلام النّبلاء (١/٢٥٠) وللحديث أصلٌ في الصَّحيحين.
فقد أخرجه البخاري في مواضعَ؛ في فرض الخمس برقم (٣١٤١) وفي المغازي برقم (٣٩٦٤) وبرقم (٣٩٨٨) وأخرجه مسلم في الجهاد برقم (١٧٥٢) وأبو يعلى في مسنده (٢/ ١٧٠) برقم (٨٦٦).
ومعنى قوله: «لا يفارقُ سوادي سواده» أي: لا يفارق شخصي شخصه.
و«حتى يموت الأعجل منّا»: أي: الأقرب أجلاً. «لم أنشبْ»: لم ألبث، أي: لم يمضِ زمنٌ طويلٌ على سؤاليهما لي.
وفي الحديثِ فوائد عديدة منها: المبادرةُ إلى الخيراتِ، والاستباقُ إلى الفضائل، وفيه الغضبُ للهِ ولرسوله، وفيه أنَّه ينبغي ألا يحتقر أحد، فقد يكون بعض مَنْ يستصغر عن القيام بأمرٍ أكبر مما في النُّفوس، وأحقّ بذلك الأمر كما جرى لهذين الغُلامين.
(٢) انظر: البداية والنّهاية (٤/٣٥).
«هتم»: هَتَم فمه: ألقى مُقَدَّم أسنانه. وهَتَم ثنيته: كَسَرها من أصلها. «والثنية»: واحدةُ الأربع التي في مُقَدَّم الفم، ثِنتانِ من فوق، وثنتان من أسفل.

أوقية مِنْ ذَهَب، وقد قال رسولُ الله ﷺ يومها لعبد الرَّحمن: «هل تركتَ لأَهْلِكَ شيئاً؟».

قال: نعم، أكثر مما أنفقتُ وأطيب.

قال: «كم؟».

قال: ما وعد الله ورسوله من الرِّزق والخير[1].

فروسية عَبْدُ الرَّحمنِ وسَرِيَّـةُ موفَّـقَـةٌ:

* ذكر ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد بعثَ عبد الرَّحمن بن عوف على رأسِ سرية إلى دُوْمةِ الجندل[2]، وعمَّمه[3] بيده الشَّرِيفة، وكانت هذه السَّرية في شعبانَ سنة سِتٍّ من الهجرة[4].

ويروي لنا خبر هذه السَّرية أبو الفتح ابن سيِّد النَّاس في كتابه «العُيون» فيقول:

دعا رسولُ الله ﷺ عبدَ الرَّحمن بن عوف، فأَقْعده بين يديه، وعممه[5]

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٦٢٨) بتصرف يسير. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٥٠).

(٢) السيرة النَّبوية لابن هشام (٢/ ٦٣٤ و٦٣٥) وانظر طبقات ابن سعد (٣/ ١٢٩) والمغازي (٢/ ٥٦٢).

(٣) قال الإمام محمّد بن الحسن الشَّيباني في كتابه «السِّير الكبير»: ولبس العمائم في الحرب وغيرها حَسَنٌ منْ أمْرِ المسلمين، فإنَّ العمائم تيجانُ العرب. وقال ﷺ: «تعمّموا تزدادوا حلماً».

وقال السَّرخسي شارح السِّير: ودخل رسولُ الله ﷺ يوم الفَتْح، وعليه عمامة سوداء، فعرفنا أنَّ ذلك حسن.

(٤) كانَ رسولُ الله ﷺ قد قال لعبدِ الرحمن بنِ عوف: «إنْ أطاعوا فتزوَّج ابنة ملكهم» فأسلم الأصبغ، وتزوّج عبد الرحمن ابنته.

(٥) نَقَضَ رسولُ الله ﷺ عمامةَ عبد الرحمن بيديه الشَّريفتين، ثمّ عمّمه بعمامة سوداء، وأرخى بين كتفيه شيئاً منها ثم قال: «هكذا فاعتم يابن عوف!» وإنما فعل ذلك ﷺ إكراماً له، خصَّه بهذه الكرامة من بين الصَّحابة ـ رضيَ الله عنهم ـ. (السير الكبير ١/ ٩١).

بيدِهِ وقال: «اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل مَنْ كَفَر بالله ولا تغُلّ، ولا تَغْدر، ولا تقتلْ وليداً» وبَعَثَه إلى كلْب ـ قبيلة ـ بدومةِ الجَنْدل، فمكثَ ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأَصْبَغُ بنُ عمرو الكَلْبي، وكان نَصْرانياً، وكان رأسهم، وأسلمَ معه ناس كثيرٌ من قومه، وأقام مَنْ أقام على إعطاءِ الجزية، وتزوَّج عبدُ الرَّحمن تماضرَ بنْت الأصبغ، وقدم بها إلى المدينةِ، وهي أمّ أبي سلمةَ بن عبد الرحمن[1].

* وهكذا عاد عبد الرَّحمن بن عوف ـ رضوان الله عليه ـ ترفرفُ على رأسه رايةُ رسولِ الله ﷺ، وقد نجحَ في سريته نجاحاً مُوفَّقاً.

عَبْـدُ الرَّحمنِ ومَنْـقَبَـةٌ فَرِيْــدَةٌ:

* منْ مناقبِ عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ التي لا تُوجد لغيره من النَّاس؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد صلّى وراءه في غزوةِ تبوك حين أدركه، وقد صلى بالنَّاس ركعة، وشعَر عبد الرَّحمن برسول الله ﷺ، فأومأ إليه أنْ مكانَك، فصلَّى، وصلَّى رسول الله ﷺ بصلاةِ عبد الرَّحمن.

* ولنستمعْ إلى تلك المنقبةِ الفريدةِ بشيءٍ من التَّفْصيل، وذلك من كُتُب الصَّحيح، والسُّنن، والمَسَانيد، وغيرها.

* عن عمرو بنِ وهب الثَّقفيّ قال: كُنَّا عند المغيرة بنِ شعبة، فسُئِل: هل أمَّ النَّبيَّ ﷺ أحدٌ منْ هذه الأمّة غيرُ أبي بكر؟

قال: نعم، كُنَّا معَ رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ، فلمَّا كان منَ السَّحر، ضَرَبَ عُنُقَ راحلتي، فظننْتُ أنَّ له حاجةً، فعدلتُ معه، فانطلقنا حتى تبرزْنَا عنِ النَّاس، فنزلَ عن راحلته، ثمَّ انطلق، فتغيَّبَ عني حتى ما أراه، فمكثَ طويلاً، ثمَّ جاء فقال: «حاجتك يا مغيرة؟».

قلتُ: ما لي حاجة.

---

(1) عيون الأثر (٢/ ١٥٥) وانظر: البداية والنهاية (٤/ ١٧٩) والاستيعاب (٢/ ٣٨٥) وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف هو المحدّث، الثقة، الفقيه، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من المدنيين.

قال: «فهل معكَ ماء؟»[1].

قلتُ: نعم.

فقمتُ إلى قِربةٍ، فأتيتُه بها، فصببْتُ عليه، فَغَسَل يديه، فأحسنَ غسلهما، ثمَّ غَسل وجهه، ثمَّ ذهب يحسرُ عن يديه، وعليه جبَّة شامية ضيقةُ الكُم، فضاقت، فأخرجَ يديه منْ تحتها إخراجاً، فَغَسل وجهه ويديه، ثمَّ مَسَحَ بناصيته، ومسح على العمامة، ومسحَ على الخُفَّين، ثمّ ركبنا، فأدركنا النَّاس وقد أُقيمتِ الصَّلاةُ، فتقدمهم عبدُ الرَّحمن بن عوف، وقد صلَّى ركعة، وهم في الثَّانية، فذهبتُ أوذِنَه فنهاني، فصلينا الرَّكعة التي أدركتنا وقَضينا التي سبقتنا[2]. وهذه ـ كما ترى ـ منقبة عظيمة لا تُبارى.

همَسَاتٌ ونَفَحَاتٌ منْ مَنَــاقِبِهِ:

* لعبدِ الرَّحمنِ بنِ عوف ـ رضي الله عنه ـ مناقبُ عديدة، لا تُحصر في هذه الصَّفحات، ولكنَّا نكتفي بالإشارة إلى بعضها، فمنْ فرائد مناقبه أنَّه كان وَاعياً لأحاديثِ رسولِ الله ﷺ، حافظاً لها، رُوي له عن رسول الله ﷺ خمسةٌ

---

(١) قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ: كان هذا في غزوة تبوك، وكان المغيرةُ يحمل وضوءَ رسولِ الله ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٩١ و١٩٢) و(٤/ ٢٤٨ و٢٤٩ و٥٥٠ و٥٥١).

وأخرجه البخاري مختصراً في مواضع من صحيحه بروايات مختلفة بالأرقام التالية (١٨٢ و٢٠٣ و٢٠٦ و٣٦٣ و٣٨٨ و٢٩١٨ و٤٤٢١ و٥٧٩٨ و٥٧٩٩) وهو مختصر في هذه المواضع كلها.

وأخرجه مسلم في الطّهارة برقم (٢٧٤).

وأخرجه النّسائي في الطّهارة (١/ ٧٧) وأبو داود (١٥١) وابن ماجه في الطّهارة برقم (٥٤٥) وفي الإقامة برقم (١٢٣٦) والتّرمذي في الطّهارة (٩٧) وذكره ابن حجر في المطالب العالية برقم (٤١٥).

وانظر: مُسند أبي يعلى (٢/ ١٦١) رقم (٨٥٣) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٢٨ و١٢٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠١) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٧٩) والاستيعاب (٢/ ٣٨٧) ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٤٨) والإصابة (٢/ ٤٠٩) وغيرها كثير.

وستون حديثاً، اتَّفق البخاريّ ومسلم على حديثَيْنِ، وانفرد له البخاري بخمسة أحاديث.

* وقد روى عنه جلَّة منْ أكابرِ الصَّحابة منهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عبّاس، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وجُبير بن مطعم، والمِسْوَر بن مخرمة، وعبد الله بن عامر بن ربيعة.

* وروى عنه خلائق منَ التَّابعين منهم: بنوه؛ إبراهيم، وحُميد، وأبو سلمةَ، وعمرو، ومُصعب بنو عبد الرحمن؛ وكذلك مالك بن أوس بن الجدعان، وابن ابنه المِسْور بن إبراهيم وآخرون[1]. وقد مرَّت نماذج من مروياته من خلال ترجمته، وكان عبد الرحمن ممن يُفتي على عهد رسول الله ﷺ، وعلى عَهْد أبي بكر وعمر بما سمع من رسول الله ﷺ.

* وأوردَ الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ جملة منْ مناقبه قال:

ومن مناقبه أنَّ النَّبيَّ ﷺ شَهدَ له بالجنَّة، وأنَّه من أهل بَدْر الذين قيل لهم: «اعملوا ما شئتم فقد وَجَبَتْ لكم الجنَّة» ومن أهلِ هذه الآية: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] وقد صلَّى رسول الله ﷺ وراءه[2].

* وقد شهدَ الله عزَّ وجلَّ لعبدِ الرحمن بنِ عوف وأمثاله بالإيمانِ، وسمَّاهم مؤمنين، فقد وَرَدَ عن قَتَادَةَ ـ رحمه الله ـ في قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٧٩].

قال: تصدَّق عبد الرحمن بنُ عوف بشَطْر ماله أربعة آلاف دينار، فقال أناسٌ منَ المنافقين: إنَّ عبد الرحمن لعظيم الرِّياء؛ فقال الله تعالى:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١) وسير أعلام النبلاء (١/٦٨ و٦٩) والإصابة (٢/٤٠٨) مع الجمع بينهما.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/٧٨).

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٧٩][1].

* وكان عبد الرحمن ـ رضوان الله عليه ـ منْ كُرماء الصَّحابة وأجوادهم، اشتهر بالسَّخاء والجود، ومن أمثلة جوده ما حكاه الإمام الزُّهريّ ـ رحمه الله ـ قال: تصدَّق عبدُ الله بن عوف ـ رضي الله عنه ـ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ بِشَطْر مالِه أربعة آلاف، ثمّ تصدَّق بأربعينَ ألف دينار، ثمّ حمل على خمسمئة فرس في سبيل الله، ثمّ حمل على ألف وخمسمئة راحلة في سبيلِ الله، وكان عامّةُ ماله من التّجارة[2].

* ولقد أثنى القُرآن الكريم على عبد الرحمن بن عوف وكرماء الصَّحابة وأجوادهم، ففي أسباب النُّزول ذكر الواحديُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال: عثمانُ بن عفان، وعبدُ الرحمن بن عوف، ثم عمَّتْ.

* ولقد نوَّهَ القرآنُ الكريم في غيرِ موضع إلى جُود عبد الرحمن، ففي سورةِ التَّوبة يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٧٩] فقد قَصَدَ منَ المطوعين[3] عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ.

* وذكر الإمام فخر الدِّين الرَّازي ـ رحمه الله ـ في تفسيره نَقْلاً عنِ ابنِ عباس ـ رضي لله عنهما ـ قال:

إنَّ رسولَ الله ﷺ خطبهم ذات يوم، وحثَّ على أنْ يجمعوا الصَّدقات، فجاءَ عبدُ الرحمن بن عوف بأربعةِ آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٥١) وسير أعلام النبلاء (١/ ٨٠) وانظر: تفسيري الطبري والقرطبي للآية (٧٩) من سورة التوبة.

(٢) حليةُ الأولياء (١/ ٩٩) ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٥١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠١ و٣٠٢) وسير أعلام النبلاء (١/ ٨١) والإصابة (٢/ ٤٠٨).

(٣) غرر التّبيان لابن جماعة (ص٢٧٥) والمطوّعون والمتطوعون، والتّطوع: التّنفل، وهو الطّاعة لله عزَّ وجلَّ بما ليس واجب.

درهم، فأمسكتُ لنفسي وعيالي أربعة، وهذه الأربعة أقرضتها ربِّي عزَّ وجلَّ. فقال ﷺ: «باركَ اللهُ لكَ فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ» وكذلك فعلَ عثمان، وغيره من فرسان الصَّحابة مثلما فعل عبد الرحمن، فقال المنافقون على وَجْهِ الطَّعن بهؤلاء الأعلام الأبرار الأخيار: ما جاؤوا بصدقاتهم إلا رياء وسمعة، فأنزل الله هذه الآية[1].

* وقد بالغَ عبد الرحمن بنُ عوف ـ رضي الله عنه ـ في الجودِ فأحسن، حيثُ باعَ أرضاً له منْ عثمانَ ـ رضي الله عنهما ـ بأربعين ألف دينار، فقسمه في فقراءِ بني زهرة، وفي المهاجرين، وأمَّهات المؤمنين؛ ولما جيء عائشة أمّ المؤمنين بنصيبها قالت: مَنْ أرسل هذا؟.

فقيل: عبد الرحمن بن عوف.

قالت: أما إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يحنو عليكن بعدي إلا الصَّابرون، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنّة»[2].

* وروت أمُّنا عائشة ابنة الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ منقبة أخرى لعبد الرحمن فقالت: جَمَعَ رسول الله ﷺ نساءه في مرضِه فقال: «سيحفظني فيكُنَّ الصَّابرون الصَّادقون»[3].

* وكان عبد الرحمن ـ رضوان الله عليه ـ ممن عَنَاه رسول الله ﷺ بهذه الصِّفات الكريمة: الصَّبر والصِّدق، يؤكِّد هذا ما ورد عن أبي نجيح أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الذي يحافظُ على أزواجي منْ بعدي هو الصَّادق البارُّ».

قال: فكان عبد الرحمن بن عوف يخرج بهنَّ، ويحجُّ معهنَّ، ويجعل على هوادجهن الطَّيالسة، وينزل بهنَّ في الشِّعْبِ الذي ليس له مَنْفَذ[4].

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٦/ ٢٧٥) بتصرف يسير.
(٢) الترمذي (٣٧٥٠) والمستدرك (٣/ ٣٥١).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٩٨ و٩٩) ومختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٥٧).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٥٧).

* ومنْ مناقب عبد الرحمن الكريمة ما وردَ من أنَّ أهلَ المدينة كانوا عيالاً عليه: ثلثٌ يقرضهم ماله، وثلثٌ يقضي دَيْنَه، وثلثٌ يصلهم[1].

* وتروي المصادرُ الوثيقة أخباراً وضيئة منْ مناقبِ عبد الرحمن، ومن أحلى تلك الأخبار ما ذكره الزُّهريّ ـ رحمه الله ـ من أنَّ عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قد أوصى للبدريين، فوجِدُوا مئة، فأعطى كلّ واحد منهم أربعمئة دينار، فكان منهم عثمان بن عفان، فأخذها.

* وذكر عروةُ بنُ الزبير أنَّ عبد الله أوصى بخمسين ألف دينار في سبيلِ الله، فكان الرَّجل يُعطى منها ألف دينار.

* وعبد الرحمن بن عوف ـ رضوان الله عليه ـ أَفْضَل النَّاس في رأي عثمان، فقد كان عثمان وجَمْعٌ منَ النَّاس يسيرون في طريق مكة، إذ رأى عبد الرحمن بن عوف، فقال عثمان: ما يستطيع أحدٌ أنْ يعتدَّ على هذا الشَّيخ فَضْلاً في الهجرتين جميعا[2].

* وعلى الرغم من كلِّ هذا الثَّراء، فقد كان عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ شديدَ التَّواضع. فقد أوردَ ابنُ الجوزيّ ـ رحمه الله ـ خبراً وضيئاً عن تواضعه فقال: كان عبدُ الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده[3].

* هذا؛ ولو رحتُ أستقصي لك مناقب عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ لما وسعتْ مئاتُ الصَّفحات، ولكنّي اكتفيتُ بذكر شذرات منها كيما تتوضح صورة الفارس الجَواد في عالم فرسان الرَّسول ﷺ، فالجودُ والكرمُ من خلائق الفُرسان، وعبد الرحمن من عناوين السَّخاء في عوالم الجود، بل من الينابيع الثَّرَّة لكل ناهِل ووارد.

* ولله درُّ أبي نُعيم الأصبهاني إذ أجمل صفات عبد الرحمن في مفتتحِ

---

(١) المصدر السابق (١٤/ ٣٥٩) بشيء من التصرف.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٣٩٢).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٣٥٥). وهذا دليل تواضعه، وكرمه، وقوة إيمانه، وعظمة نفسه، وتمسُّكه بالسنة النبوية الشريفة.

ترجمته له فقال: وأمّا عبد الرحمن بن عوف، فكان حاله فيما بسط له حال الأُمناء والخُزَّان، يفرِّقه في سبيلِ المنعم المنَّان، يستجيرُ بالله من التَّفتين فيه والطُّغيان. كثير الأموال، متين الحال، تجودُ يدهُ بالعَطيّات، وعينه وقلبه بالعبرات، وهو قدوةُ ذي الثّروة والجدّات، في الإنفاقِ على المتقشِّفين من ذوي الفَاقات[1].

أبو بـكر وعَبْدُ الرَّحمن وعُمَر:

* كان عبدُ الرحمن بنُ عوف ذا مكانة جليلةٍ عند أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ولذا فقد كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يحترمه ويجلّه، ويعرفُ مكانته من رسول الله ﷺ. ولذلك لما ثقُل أبو بكر ومرض، دعا إليه عبد الرحمن بن عوف، وأحبَّ أنْ يسأله عن رأيه في عُمَر.

فقال له: يا عبد الرحمن! أخبرني عن عمر.

فقال عبد الرحمن: ما يسألني عن أمْرٍ إلا وأنتَ أعلم به منِّي.

قال أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ: وإنْ يا عبد الرحمن!.

قال عبد الرحمن: هو والله أَفْضَل منْ رأيك فيه[2].

* وصارتِ الخلافةُ إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وظلَّ عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ يحظى بالمكانةِ نفسها، وظلت مكارمه رفيعة المستوى عند عمر، وظلَّ معه في فتوحاتِهِ وجهاده، وقدم الجابية بالشَّام مع عمر، وشهد في كتاب صلح أهلِ بيت المقدس، وكان على ميمنة عمر في تلك الخرجة، وعلى ميسرته في خرجته الثَّانية إلى الشَّام التي رَجَعَ عمر فيها مِنْ سَرْغ[3] بحديثه. وسمَّاه عمر: العدل الرَّضي.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٨٨).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص١١٦) بشيء من التصرف. وانظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٤٢٥).

(٣) «سرغ»: هو أول الحجاز وآخر الشام. وهناك لقي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مَنْ أخبره بطاعون الشام، فرجع إلى المدينة المنورة.

* ولما طُعِنَ عمر ـ رضي الله عنه ـ كانَ في صلاة الصُّبح، وكان عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ يصلّي خلفه، فَحُمِلَ عمر إلى أهله، وكادتِ الشَّمس أنْ تطلعَ، هنالك صلّى عبد الرحمن بن عوف بالنّاس بأقصر سورتين.

ثمَّ إنَّ عمر جَعَل الخلافة شُورى في ستةٍ من فرسان المدرسة المحمَّدية الذين بشَّرهم رسول الله ﷺ بالجنَّة، ورضي عنهم وهم: عثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب، وطلحة بن عُبيد الله، والزّبير بن العوّام، وعبد الرّحمن بن عوف، وسَعْد بن أبي وقّاص، وأَمَرَ صُهيباً أنْ يصلي بالنّاس، وأجّلَ هؤلاء السّتة ثلاثة أيام كي يتشاوروا فيما بينهم[1].

* ودُفن عمر ـ رضي الله عنه ـ في أوَّل المحرم سنة أربع وعشرين من الهجرة، ثم جلسَ النَّفر الذين ولأهم عمر للشُّورى، فاجتمعوا وتشاوروا، فقال لهم عبد الرحمن: لستُ بالذي أنافِسكُم هذا الأمر، ولكنْ إنْ شئتم اخترتُ لكم منكم: فرضوا، وجعلوا ذلك إلى عبدِ الرحمن.

* هذا وقد رُوي أنَّ عبد الرحمن قال لعثمان خلوة: إنْ لم أبايعكَ فمَنْ تشيرُ عليَّ؟.

فقال عثمان: عليّ بن أبي طالب.

وقال عبد الرحمن لعليّ خلوة: إنْ لم أبايعك فمن تشيرُ عليَّ؟

قال عليّ: عثمان بن عفّان.

ثمَّ عاد عبد الرحمن الزُّبير بن العوّام فقال: إن لم أبايعك فمن تشير عليَّ؟!.

قال: عليّ أو عثمان!.

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٢٧٨) بشيء من التصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٤٤) والمستدرك (٣/ ٩٨) والاستيعاب (٢/ ٣٨٦ و٣٨٧) ومجمع الزوائد (٩/ ٧٧) وغيرها كثير.

ثمَّ إنَّ عبد الرحمن دعا سعد بن أبي وقاص وقال له: مَنْ تشير عليّ، فأما أنا وأنت فلا نريدها؟

فقال: عثمان.

* ثمّ استشار عبد الرحمن الأعيان، فرأى هوى أكثرهم في عثمان ـ رضي الله عنه ـ فبايعه، وبايعه المسلمون ورضوا بما رضي به عبد الرحمن ابن عوف[1].

﴿ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾:

* في خلافةِ عثمان ـ رضوان الله عليه ـ بدأتْ رحلةُ الخلودِ مع عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ وقد غزَت الأمراضُ جسمه، ولزمته الأوجاع، وهو في المدينة المنوّرة، فبات يعاني شدَّة المرض.

* ولقد شهدَ ابنه إبراهيم الأيّام الأخيرة منْ حياة أبيه عبد الرحمن، وقد حدَّثنا إبراهيم بن عبد الرحمن عن تلكَ الأيام، وعن سعادة أبيه ورضوان الله عليه، فقال: غُشي على عبد الرحمن بن عوف في وجعه، حتى ظنّوا أنّه قد فاضتْ نفسه فيها، حتى قاموا منْ عنده، وجلّلوه ثوباً، فلبثوا ساعة، وهو في غشيته، ثمّ أفاق، فكان أوّل ما تكلمّ به أنْ كبّر، فكبّر أهلُ البيت ومَنْ يليهم، ثمّ قال لهم: غُشي عليَّ آنفاً؟.

قالوا: نعم.

قال: صدقتم، كأنّه انطلقَ بي في غشيتي رجلان، أجدُ فيهما شدَّة وغلْظة وفظَاظة، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيزِ الأمين. فانطلقا بي، حتى لقِيَا رجلاً فقال: أين تذهبان بهذا؟.

قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين.

فقال: ارجعا، فإنّه مِنَ الذين كَتَبَ الله لهم السّعادة والمغفرة وهم في

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٣٠٤ و٣٠٥) بتصرف يسير.

بطونِ أمّهاتهم، وإنَّه سيمتَّع به بنوه إلى ما شاء الله.

قال إبراهيم بن عبد الرحمن: فعاشَ بعد ذلك شهراً ثم توفي - رضي الله عنه[(١)] -.

* ولما توفي عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قال عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه -: اذهبْ يا بنَ عوف! فقد أدركتَ صفوها، وسَبَقْتَ رنقها[(٢)].

* كانت وفاةُ عبد الرحمن في خلافةِ عثمان سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وله خمسٌ وسبعون سَنَة، وصلَّى عليه عثمان، ودُفِنَ في البقيعِ، وشيَّعه ثلةٌ من أكابر الصَّحابة والأعلام، وكان معهم سعد بن أبي وقاص، فكان يقول: واجَبَلاه!.

* وفي البقيعِ يثوي جثمان عبد الرحمن بن عوف إلى جانب السَّلف الصَّالح منَ الصحابة الكرام؛ وتبقى ذِكْرَاه تعطِّرُ الأسماعَ على مرِّ الأيام والأعوام.

* رضي الله عن عبدِ الرحمن، وأسكنه أعالي الجِنَان؛ لما قدَّمه من ثبات الجَنَان، والجود والإحسان، فرحمةُ الله عليه من العزيز المنَّان.

* * *

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٤/ ٣٦٠ و٣٦١) والمعرفة والتاريخ (١/ ٣٦٧) مع الجمع والتصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٣٤ و١٣٥) والمستدرك للحاكم (٣/ ٣٤٧ و٣٤٨).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٠٠) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٣٥ و١٣٦) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٠٢) والمستدرك (٣/ ٣٤٦).
و«الرنق»: الكَدِر، يقال: ماء رنق: أي: ماء كدر.

(١٢)

عكاشة بن محصن

- رضي الله عنه -

قال عنه ﷺ: «منّا خيرُ فارسٍ في العرب».

فارِسٌ مغوار منْ أهْلِ الجَنَّةِ:

* الصَّحابةُ الكرامُ هم خيار الصَّدْر الأوَّل، وهمُ القدوةُ الحسنةُ، لمن أرادَ أنْ يقتديَ أو يهتدي، إذ إنَّهم قومٌ اختارهمُ الله عزَّ وجلَّ لصحبةِ رسولهِ ﷺ، ونُصْرة دِيْنه، وهم أبرُّ هذه الأمّة قُلوباً، وأعمقها عِلْماً، وأقلّها تكلُّفاً، وأكثرها زُهْداً، وأعظمها أمانة، وفَضْلاً، وخيراً، وفروسية، وطاعة لله ولرسوله.

* قال عبدُ اللهِ بنُ مسعود[1] ـ رضي الله عنه ـ عن أصحاب رسولِ الله ﷺ بعد أنْ سَرَدَ فَضَائلهم: فاعرفوا لهم قَدْرَهم، واقتدوا بهم، فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم.

* وسنعيشُ في هذهِ الصَّفحاتِ مع واحدٍ من خيارِ الصَّحابة، ومنْ فرسانِ الرَّسول ﷺ الشُّجعان، ومنَ السَّابقين الأوَّلين البدريِّين أهل الجنَّة، إذْ بشَّره رسولُ الله ﷺ بأنَّه يدخلُ الجنَّة بغيرِ حسَاب، وممَّنْ يفوزُ بالنَّعيمِ المقيم، في جوارِ الكبير المُتَعال، مع أصحاب الجنَّة منَ الأبرارِ الأبطال.

* وأصحابُ الجنَّة همُ الفائزون، وهم في روضاتِ الجنَّة يتقلّبون، وعلى أسرّتهم يجلسون، وعلى فُرشٍ بطائنها منْ إستبرقٍ يتكئون، وبأنواع الثّمار يتفكَّهون: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ٢٤][2].

ما أجمل أنْ نعيشَ مع أهلِ الجنَّة هؤلاء، وما أُحَيْلى الأُوَيْقَات والسُّوَيْعَاتِ التي نقضيها ونحياها مع فرسان الرَّسول ﷺ!!.

---

(١) اقرأ سيرة عبد الله بن مسعود في كتابنا: «علماء الصحابة».

(٢) «ولدان مخلدون»: مُبَقَّوْن على هيئة الولدان في البهاء. «بأكواب»: أقداح لا عُرَى لها ولا خراطيم. «أباريق»: أوانٍ لها عُرَى وخراطيم. «كأسٍ»: خمرٍ، أو: قدح فيه خمر. «مِنْ معين»: خَمْرٍ جاريةٍ من العيون. «لا يُصدَّعون عنها»: لا يُصيبهم صُداعٌ بِشُرْبها. «لا يُنْزِفُون»: لا تذهب عقولُهم بسببها. «حور عين»: نساءٌ بيضٌ واسعاتُ الأعين، حِسانها. «اللؤلؤ المكنون»: المصون في أصدافه مِمَّا يُغَيِّره.

* وفارسُنا اليوم هو عُكَّاشةُ بنُ مِحْصَن بن حُرْثَان، أبو محصن الأسدي[1] حليف قريش، السَّعيد الشَّهيد، وأحد أهل السَّبْقَ إلى ساحةِ الإسلام، ودوحةِ الإيمان، وظلال السَّعادة الحقيقيَّة، أولئك السَّابقون جزاؤهم مغفرة من ربِّهم، وجنَّات تجري منْ تحتها الأنهارُ خالدين فيها.

* كان عُكَّاشة بنُ محصن ـ رضوان الله عليه ـ من الثُّلة التي استجابتْ لدعوةِ الحقِّ في مكةَ المكرمةِ، وكان منْ ذوي النُّفوس الصَّافيةِ؛ التي تألفُ الخير ويألفها، فأكرمْ بهذه النّفوس! وأكرم بهذا الفارس الصَّافي الكريم!!

* ومنذ نشأة عُكَّاشة عُرِفَ بين النَّاس بكمالِ طلعته، وجمالِ مُحيَّاه، وقوَّةِ جسمه، وَصَفَهُ الإمام الحاكمُ ـ رحمه الله ـ بقوله: كان منْ أجملِ النَّاس[2] ـ رضي الله عنه ـ.

* وعندما أخذتْ نسماتُ الإيمانِ تهبُّ على أمِّ القرى، كان عُكَّاشة في مقتبل العمر، وشَرْخ الصبا، فاستنشقَ عبيرها، وسَرَتْ في حناياه عبقاتُ أنوارِ الإسلام، فآمَنَ وصدَّق بدعوة الحبيبِ الأعظم محمّد رسول الله ﷺ، ولم يكن إذ ذاك يتجاوز العِقْد الثَّاني من عمره[3]، وآمنَ معه كذلك أخوه أبو سِنَان

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٩٢و٩٣) والمعارفُ (ص٢٧٣ و٢٧٤) وأنسابُ الأشراف (١/ ٣٠١ و٣٠٨ و٣٧٢ و٣٧٦) ودلائلُ النبوة للبيهقي (٣/ ٢١ و٩٨ و٩٩) و(٤/ ٨٣ و١٨٧ و١٨٨) و(٥/ ٤٦٥ و٤٦٧) و(٦/ ٣٥٣) والمستدرك على الصحيحين (٣/ ٢٥٣ و٢٥٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧ و٣٠٨) وحياة الصَّحابة (٣/ ٥١ و٦٥٨ و٦٩٤) وغيرها كثير جداً من المصادر.

(٢) انظر: المستدرك على الصَّحيحين للحاكم النيسابوري (٣/ ٢٥٣).

(٣) يتسم الشبابُ بالفكر الحر، والتقبّل للجديد، أمّا المتقدّمون في العمر ـ إلا مَنْ رحم ربي ـ فإنهم يتشبثون بآرائهم وأفكارهم؛ لذلك توجّه ﷺ بدعوته للناس جميعاً، لكنه اعتنى بالشباب لجودة فكرهم، ونظافته من ترسُّبات الماضي وعفن الجاهلية، وموروثها المهترىء.

ابنُ محصن[١]، وابن أخيه سِنان بن أبي سنان[٢]، وكذلك آمنت أخته أم قيس بنت محصن[٣]؛ فَنَشَأَ في أسرة يُعطِّر جوَّها الإيمانُ، ويملأ حياتها التَّوحيدُ والإخلاص، ولكنَّ حياة هذه الأسرة المؤمنة لم تسلمْ منْ أذى المشركين، وشرّ قريش، فتحملت ذلك في سبيل الله؛ رجاء الثواب والفضل الإلهي الذي لا ينفد.

* صَبَرَ عُكَّاشة ـ رضي الله عنه ـ صبراً جميلاً، إلى أنْ أذن الله عزَّ وجلَّ بالهجرة، فخرجَ عُكَّاشة وأهله جميعاً، رجالهم ونساؤهم، وهاجروا جميعاً إلى المدينة، وغُلِّقَتْ دورهم بمكةَ، وأضحتْ خلاءً منْ أهلها، تعبثُ بها الرِّياح، وتصفقُ أبوابها[٤].

---

(١) أبو سِنان بنُ محصن بنِ حرثان الأسديّ حليف قريش، من الصحَابة الكرام، ومن المهاجرين إلى المدينة المنوَّرة، شهد بدراً وأحداً والخندق، وتوفي في حياة النَّبيِّ ﷺ في حصار بني قُريظة، سنة خمس من الهجرة، ودُفن في مقبرة بني قريظة، وعمره أربعون سنة، وهو أسنُّ من أخيه عكّاشة بسنتين ـ رضي الله عنهما ـ (طبقات ابن سعد ٣/ ٩٣).

(٢) سِنَان بنُ أبي سنان بن محصن الأسديّ، كان بينه وبين أبيه في السِّنِ عشرونَ سنة، شهد سِنان بدراً وأحداً والخندق والحديبية، وهو أوّل مَنْ بايعَ النَّبي ﷺ بيعة الرّضوان، وتوفي سنان في سنةِ اثنتين وثلاثين من الهجرة، في خلافة عثمان ـ رضي الله عنهما ـ (طبقات ابن سعد ٣/ ٩٤).

(٣) اقرأ سيرة أمّ قيس بنت محصن في كتابنا: «نساء من عصر النبوة» (١/ ١٣٩ ـ ١٤٧) ففي سيرتها كريم الأثر، وجليل الفائدة بإذن الله.

(٤) إن المسلمين ـ بإذن رسول الله ـ هرعوا من مكة وغيرها إلى المدينة المنوّرة، يحدوهم اليقين، وترفع رؤوسهم الثقة.
إن الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ في مكة، وقبسوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحق والصبر؛ فإنهم نفروا خِفافاً ساعة قيل لهم: هاجِرُوا إلى حيث تعزّون الإسلام، وتؤمنون مستقبله.
ونظر المشركون فإذا ديارٌ بمكة كانت عامرةً بأهلها قد أقفرت، ومحالّ مؤنسة قد أمحلت. انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي (ص١٥٥ ـ ١٥٦).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ :

* بعد أنْ تكاملَ وصول المهاجرين إلى المدنية المنوَّرة، عاشوا في كَنَفِ رسولِ الله ﷺ، وهم يَسْعَون لكي يحقِّقوا السَّعادةَ في دِيْنهم ودُنياهم.

* كان عُكَّاشة ـ رضي الله عنه ـ أَحَدَ الفُرسان الأوفياء في المدرسة المحمَّدية، ولذا فقد كان أحدَ أفرادِ سَرِيّة[١] نخلةَ بقيادةِ أميرها عبد الله ابن جحش ـ رضي الله عنه ـ وقد أدَّتْ هذه السَّرية واجبها على النَّحو الذي ارتضاه الله عزَّ وجلَّ، وأنزلَ بذلك قرآناً يُتلى إلى ما شاء الله، وكان لعُكَّاشة في هذا السَّرية كبير الأثر، وأثنى الله عزَّ وجلَّ عليه وعلى أصحابه أفراد السَّرية الموفقة؛ لما بذلوا من جهد، وقدَّموا من تضحيات.

* أمَّا سرية نخلة، فكانت في شَهْر رجبَ من السَّنَةِ الثَّانيةِ للهجرة النَّبويّة، حيثُ بعثَ رسولُ الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسديّ إلى نخلةَ في سريةٍ قوامها ثمانية[٢] أبطال، منهم: عُكَّاشة بن محصن ـ رضوان الله عليه ـ

* كان رسولُ الله ﷺ قد كَتَبَ لعبد الله بن جحش كتاباً، وأمرهُ ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثمَّ ينظر فيه، فسار عبدُ الله، ثمَّ قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا، فامضِ حتى تنزلَ نَخْلَةَ بين مكةَ والطَّائف، فترصَّد بها عيرَ قريش، وتعلم لنا مِنْ أخبارهم». فقال عبدُ الله: سمعاً وطاعة، وأخبرَ بذلك أصحابه، وأنَّه لا يستكرههم، فمَنْ أَحَبَّ الشَّهادة فلينهضْ، ومَنْ كرهَ الموت فليرجعْ، فنهضوا جميعهم، وساروا حتى نزلوا نخلةَ.

---

(١) «سرية»: جمعها سرايا، والسَّرِيَّة: هي الطَّائفة من الجيش، يبلغ أقصاها أربعمئة رجل، تُبعثُ إلى العدو، وسُمّوا بهذه التَّسمية لأنَّهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم. من السَّري: النَّفيس. وقيل: سمّوا بذلك لأنَّهم ينفذون سرّاً، وخفية، وليس بالوجه. ومن الجدير بالذكر أنَّ مغازي رسول الله ﷺ وسراياه: ثلاث وأربعون، كما ذكر ذلك الإمام أحمد.

(٢) الأبطال هم: عكاشة بن محصن، أبو حذيفة بن عتبة، سعد بن أبي وقاص، عتبةُ بن غزوان، عامرُ بن ربيعة، واقدُ بن عبد الله، خالدُ بن البكير، وسهيل بن بيضاء ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* وهناك مرّتْ عيرٌ لقريش تحملُ زبيباً، وأدماً، وتجارة، وفيها أربعة منْ قريش، وهم: عبدُ الله بنُ الحضرميّ، وعثمانُ ونوفلُ ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بنُ كيسان، فتشاور المسلمون وقالوا: نحنُ في آخر يوم من رجبَ، الشَّهر الحرام، فإنْ قاتلناهم انتهكنا الشَّهرَ الحرام، وإنْ تركناهم الليلة دخلوا الحرم.

* أمّا النَّفر الأربعةُ، فقد هابوا أفراد السَّرية، وأنكروا أمرهم، وأوجسوا خيفةً في أنفسهم، وإذ ذاك قال عبدُ الله بن جحش لما رأى حالهم: إنَّ القومَ قد فزعوا منكم، فاحْلقُوا رأسَ رجلٍ منكم، فليتعرَّضْ لهم، فإذا رأوْه محلوقاً أمنوا، وقالوا: قوم عُمَّار لا بأس عليكم.

* وحَلَقَ عُكَّاشة رأسه، وأطلَّ عليهم، وتراءى لهم، فلمَّا رأوه أمنوا وقالوا: عُمّار لا بأس عليكم منهم، ثمّ إنَّهم أمنوا في أنفسهم، وقيّدوا ركابهم، وسرَّحوها، واصطنعوا طعاماً.

* رأى أفراد السَّرية المؤمنة ذلك، فأجمعوا على قتالهم، وأَخْذِ ما معهم، وإذ ذاك رمى أحدهم عمروَ بنَ الحضرميّ بسهمٍ فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثمّ قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة، وقد عَزلوا من ذلك الخمس، وهو أولّ خمس كان في الإسلام، وأوّل قتيلٍ في الإسلام، وأوّل أسيرَيْن في الإسلام.

* قدمتِ السَّريةُ على رسولِ الله ﷺ، فأنكر ما فعلوه وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» ووقف التصرف في العير وفي الأسيرَيْنِ.

* وفي تلكم الأثناء، وَجَدَ المشركون والمرجفون فيما حدثَ فرصة لاتهامِ المسلمين بأنَّهم قد أحلُّوا ما حرّم اللهُ عزَّ وجلَّ، وكثر بذلك القيلُ والقال.

* وفي هذه الغمرة من الأسى والأسف، والتَّثريب(1) والعتاب والإرجاف، نزلَ الوحيُ حاسماً هذه الأقاويل، وأنَّ ما عليه المشركون

---

(1) «التثريب»: اللوم والتأنيب، قال عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

المجرمون أكبرُ وأعظمُ ممّا فعله المسلمون، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧ ـ ٢١٨][١].

* وهكذا حَسَمَ القرآنُ الكريم أقوالَ المتقولين، وزكَّى عمل السَّرية، وفرَّج عن المسلمين، وبعد ذلك أطلق رسولُ الله ﷺ سراح الأسيرَيْنِ بفديةٍ، فأمّا أحدهما وهو: الحكم بنُ كَيْسَان فقد أسلم، وحَسُن إسلامه، وأقام بالمدينةِ حتى قُتِل يوم بئر معونة شهيداً، وأمّا الآخر وهو: عثمان بن عبد الله ابن المغيرة فلحق بمكةَ، ومات بها كافراً[٢].

«قَاتِـلْ بِهَـذَا يا عُكَّـاشَـةُ!»:

* ما إن أطلَّتْ غزاةُ بَدْر بعبيرِ شَذَاها على المسلمين، حتى كان عُكَّاشة ـ رضوان الله عليه ـ في عدادِ الجيش الغازي بقيادةِ رئيسهِ رسول الله ﷺ.

* وفي ساحةِ بَدْرٍ، وفوقَ رمالها، كان عُكَّاشة ـ رضي الله عنه ـ فيمن أبلى بلاءً حسناً، وأعْمَلَ سَيْفَه في المشركين، وجَنْدَل أحد فرسانهم، ويُدعى: معاوية بن عبد قيس حليف بني عامر[٣].

---

(١) «كبير»: مُستكبر، عظيمٌ وِزْراً.
«الفتنة»: الشرك، والكفر بالله تعالى.
«حبطت»: فَسَدَت، وبطلت.

(٢) انظر: تفسير الماورديّ «النكت والعيون» (١/ ٢٢٧) وتفسير القرطبيّ «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٥٠) والسّيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٦١ ـ ٦٠٥) مع الجمع والتصرف في سير الأحداث. وانظر كذلك: دلائل النّبوة للبيهقيّ (٣/ ٢١) وأنساب الأشراف للبلاذريّ (١/ ٣٧٢) وغيرها من مصادر حديثية، وكتب تفسير، وسيرة.

(٣) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٣٠١).

* وبينما كان عُكَّاشة يصولُ ويجولُ في صفوفِ المشركين، إذِ انكسرَ سيفه، فأضحى أعْزَلَ دون سلاح، فأتى رئيسه الأعلى رسول الله ﷺ، فأعطاه جذْلاً[١] من حَطَبٍ، وقال له: «قَاتِلْ بهذا يا عُكَّاشة» فأخذه عُكَّاشة فهزَّهُ، فصَارَ سيفاً طويلاً في يده، شديدَ المتن، أبيضَ الحديدة، فقَاتَلَ بِهِ حتى فتَح الله على المسلمين، وكان ذلك السَّيف يُسمَّى: «العَوْن».

* روى عُكَّاشة قصَّة ذلك السَّيف فقال:

انقطع سيفي في يوم بدر، فأعطاني رسولُ الله ﷺ عُوداً، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلتُ به حتى هزمَ الله المشركين[٢].

* وبقي السَّيفُ عند عُكَّاشة يشهدُ بهِ المغازي مع رسول الله ﷺ، ثمَّ بعد استشهاده ظلَّ متوارثاً عند آل عُكَّاشة[٣].

* وكان رسولُ الله ﷺ يشيدُ بشجاعةِ عُكَّاشة، وشهد له بالفروسيّة، بل منْ خير الفرسان، فقال: «منّا خير فارس في العرب».

قالوا: ومَنْ هو يا رسول الله؟.

قال: «عُكَّاشةُ بنُ مِحْصَن».

فقال ضِرارُ بن الأزور الأسديّ: ذاك رجلٌ مِنّا يا رسول الله!

---

(١) «الجذْل»: ما عظم من أصول الشّجر المقطع، وقيل: هو من العيدان ما كان على مثال شماريخ النخل، وهو المراد.

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٢٩١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٨). وانظر كذلك «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٩٨و٩٩) وفي الدلائل أن اسم السيف «القوي» بدلاً من «العون».

(٣) السيرة الحلبية (٢/ ٤٢٩). وأورد الواقديّ في «المغازي» والبيهقي في «الدلائل» وابن كثير في «البداية والنهاية» أنَّ رسول الله ﷺ قد أعطى غير عُكَّاشة قضيباً فعاد سيفاً، فقد انكسر سيفُ سلمة بن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاهُ رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده في عراجين ابن طاب ـ نخل بالمدينة رطبها جيد ـ فقال: «اضربْ به» فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد بن مسعود الثقفي.

فقال: «ليس منكم، ولكنّه منا للحلْف»[1].

* وبحسب عُكَّاشة شرفاً هذا التَّقدير الكريم، والتَّشريف العظيم، وبحسبه مكرمة تلك المعجزة النَّبوية انقلاب الجَذْل في يده[2]، فعاد سيفاً بتَّاراً ميموناً، ظل يخوضُ به المشَاهد إلى أنْ لقيَ الله شهيداً.

عُكَّاشَـةُ الفارس وَطَعْنَـةٌ نَـافِـذَةٌ نـادرةٌ:

* تظهرُ فروسيّة الرِّجال في أشياء، منها: ركوب الخيل، والمُسَابقة عليها، ورمي النَّشاب، واللعب بالرُّمح.

* قال ابنُ قيِّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ ما مفاده:

لمَّا كان الجلادُ بالسَّيف والسِّنان، والجدال بالحجَّة والبرهان، كالأخَوَيْن الشَّقيقين، والقرينين المُتَصاحِبَيْن، وكانت أحكام كلِّ واحدٍ منهما شبيهة بأحكامِ الآخر، ومستفادة منه.

فالإصابةُ في الرَّمي والنِّضال، كالإصابةِ في الحجّة والمقال.

والفروسيّة فروسيتان: فروسية العِلْم والبيان، وفروسية الرَّمي والطِّعان.

ولمَّا كان أصحابُ النَّبيِّ ﷺ أكمل الخَلْقَ في الفروسيّتين، فتحوا القلوبَ بالحجّة والبرهان؛ والبلاد بالسَّيف والسِّنان.. ومن هنا عُلِمَ أنَّ الجدالَ

---

(1) انظر: الرّوض الأنف.

(2) في غزاة أحد، كانت هناك معجزة لرسول الله ﷺ مع عُكَّاشة ـ رضي الله عنه ـ فقد ثبت عُكَّاشة مع رسول الله ﷺ، وتناول قوس رسول الله ﷺ وأصلحه، حيث إنَّ رسول الله ﷺ باشَرَ القتال بنفسه، ورمى بقوسه حتى تقطع وتره، وبقيت في يده الشرّيفة منه قطعة تكون شبراً في طرف القوس، فأخذ القوس عكّاشة ليصلح وتره، فقال: يا رسول الله! لا يبلغ الوتر، فقال رسول الله ﷺ: «مدّه يبلغ» قال عكاشة: فو الذي بعثه بالحق! لمددته حتى بلغ وطويت منه لَيّتين أو ثلاثاً على طرف القوس (السيرة الحلبية ٢/٥٠٦).

والجلادَ منْ أهمِّ العلوم، وأنفعها للعباد في المعاشِ والمعَادِ، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشُّهداء[1].

* هذا عُكَّاشة ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ منَ الفُرسَانِ الشُّجعان الذين تخرَّجُوا في مدرسةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ، وكان ماهراً بجميع فنون الفروسية وألوان القتال، من ضربٍ بالسَّيف، وطعن بالرُّمح، ورمايةٍ وما شابه ذلك، وقد اشتهر بالمهارة في الطِّعان؛ وفي غزوة الغابة أو «ذات قرد» طعن رجُلَيْن طعنةً واحدة، فأنفذهما.

* حَدَثَ هذا في سنةٍ ستٍّ منَ الهجرة، حينما أغار عيينةُ بنُ حصن الفزاريّ على سرح المدينة بناحيةِ الغابة، وكان فيها إبل رسول الله ﷺ، وهنالك علم بالأمر سلمة بن الأكوع الأسلمي[2]، فَصَعِدَ ثنية وصرخ: واصباحاه! فبلغ صياحه رسولَ الله ﷺ، فُنودي في المسلمين: يا خيلَ الله اركبي!.

* وسارعَ الفُرسان البهاليل، فكان في المقدمةِ المقداد[3] بن الأسود، ثم تلاه بطلنا عُكَّاشة بن محصن، واستطاع سلمة بنُ الأكوع أنْ يَشْغَلَ الأعداء، ويرميهم بالنَّبْلِ؛ حتى أدركهم فرسانُ المسلمين.

* كان عُكَّاشة ـ رضي الله عنه ـ في المقدمة، فأدركَ عمرو بن أوثار ووالده، وكانا رديفَيْنِ على فرسٍ، فانتظمهما بالرُّمح فقتلهما جميعاً[4].

وهذا لعمري منتهى الشَّجاعة والإقدام، وكمال الفروسيَّة، والجرأة، والبَسَالة، والقُوَّة، منْ فارسنا عُكَّاشة بن محصَن ـ رضي الله عنه ـ. وتُذكِّرني هذه الواقعة بقول الشَّاعر بَكْر بن النَّطاح حيثُ يقول:

---

(١) انظر: كتاب الفروسية لابن قيم الجوزية (ص ٧٠ و٧١) بشيء من الاختصار والتصرف.

(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٢٠٥).

(٣) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٣٠٠).

(٤) دلائل النبوة (٤/ ١٨٧) وعيون الأثر (٢/ ١٠٦) مع الجمع والتصرف.

قـالـوا أَينظِـمُ فـارسَيْـن بطعنـةٍ   وقَـتَ النِّـزالِ ولا أراه قليـلا
لا تعجبـوا لـو كـانَ مَـدُّ قنـاتِـهِ   مِيْـلاً إذاً نَظَـم الفـوارسَ ميـلا[(١)]

* هذا؛ وقد أثنى المسلمونَ على شجاعةِ عُكَّاشة، وعجبوا من شدّةِ بأسه، وكان رسولُ الله ﷺ قد لحقَ أصحابه في نحوِ خمسمئة منَ الفُرسان، واجتمعوا بذي قَرَد، ولكنَّ القومَ فاتوهم، ولحقوا بمنازل غطفان، فلم يتبعهم المسلمون، وعاد رسولُ الله ﷺ ومعه أصحابه إلى المدينة، وهم يذكرونَ الله تعالى على حُسْنِ صنيعه.

مِنْ أُمَـرَاءِ السَّرَايَـا الكـرام:

* قال ابنُ سَعْد ـ رحمه الله ـ: شهد عُكَّاشة بدراً، وأحداً، والخندق، والمشاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، وبعثه رسولُ الله ﷺ إلى الغمر[(٢)]، في سرية قوامها أربعون رجلاً[(٣)].

* ففي شهر ربيع الأول من السَّنة السَّادسة من الهجرة، وقع اختيارُ رسولِ الله ﷺ على عُكَّاشة ليكون أميراً[(٤)] على سرية إلى بني أسدٍ لتأديبهم،

---

(١) انظر كتاب: ألف باء للبلوي (١/ ٥٤٢ و٥٤٣) والمستطرف للأبشيهي (١/ ٢٢٥).
وهذا الشّعر قاله بكْر بنُ النَّطّاح في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وكان فارساً بَطلاً مغواراً شاعراً، وقد شهدَ له الفُرسانُ بالشَّجاعة ومنهم: بكر بن النّطاح، وكان بكر بطلاً، شجاعاً، فارساً، فاتِكاً، وله أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.
رُوي أنَّه لقي أكراداً قد قطعوا الطَّريق في عمله، وقد ارتدف منهم فارسٌ رفيقاً له، فطعنهما جميعاً، فانتظمهما بطعنةٍ نفذت من ظهريها، لذلك قال بكرُ بنُ النطاح:
لا تعجبـوا لـو كـان مـدُّ قنـاتـه   ميـلاً إذاً نَظَـمَ الفـوارسَ ميـلا
وقيل: حمل أبو دلف برمحه أربعة رجال، وهذا يشيرُ إلى قوته، وشدة بأسه.
(٢) «الغَمر»: ماء لبني أسد على طريق نجد، ويُسمَّى غمر مرزوق، وكان بنو أسد هؤلاء، يقطعون طريق المسافرين، ويعيثون في الأرض الفساد، فأرسل لهم رسول الله ﷺ هذه السّرية لتأديبهم، وكف أيديهم عن المسافرين.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٩٢).
(٤) إنَّ إمارة السَّرية، أو القيادة العسكرية تتطلبُ صفات مِنْ أهمها: =

وكان بنو أسدٍ في مكان يُسمّى الغَمْر، فأغذَّ السَّيْر، ونَذِرَ القومَ بهم، فهربوا فنزل على مياههم، وبعثَ الطّلائع، فأصابوا مَنْ دلّهم على بعضِ ماشيتهم، فوجدوا مئتي بعير، فساقوها إلى المدينة(١).

* وفي السَّنَةِ التَّاسعةِ من الهجرة، بعثه رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل مع جماعة منَ المسلمين إلى أرض قضاعة وبليّ، فأخضعهم، وعاد إلى رسولِ الله ﷺ فائزاً، منصوراً، ناجحاً في إمارته.

* وظل عُكّاشة أحد أوفياء الفُرسان، وأحد الفُرسان الأوفياء في المدرسةِ المحمدية، لم يتخلّفْ عن غزاةٍ واحدةٍ، مع رسول الله ﷺ، وكان لعُكّاشة ولإخوته مواقفُ وضيئةٌ في المغازي النّبويّة، ويكفيهم فخراً أنّهم كانوا أوّلَ المبايِعين تحت الشّجرة في بيعة الرّضوان.

= ١ ـ السَّبق للإسلام والتَّضحية له؛ وعكاشة له سابقة وتضحية من أجلِ رفع الإسلام وإعزازه.

٢ ـ التّجربة والخبرة الحربية؛ وكان عكاشة له رأيٌ، وعقل، ونجدة، وبَصَرٌ بالحرب، ومكابدة العدو، عارفاً بمواضع الفرص من العدو، وقد استدلّ الفقهاء لذلك بقولِ رسول الله ﷺ: «إنّي لأؤمِّر الرجلَ على القومِ فيهم مَنْ هو خير منه لأنّه أيقظ عيناً، وأبصر بالحرب» (دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٤٠٠). وقد أمّر رسول الله ﷺ عمروَ بنَ العاص في «ذاتِ السّلاسل» وفي الجيشِ أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

٣ ـ الشّجاعة والتّقوى؛ إذ هما من الوسائل لنَيلِ النّصر والمدد من السّماء.

٤ ـ الحزمُ والقدرة على البتّ في الأمور الشّرعية.

٥ ـ السّخاء؛ لكي يحصل التكاتف والتّعاون بين القائدِ وجنده، ويذكرُ العزُّ بنُ عبد السّلام ـ رحمه الله ـ مسوغات تعيين القادة بصورةٍ مجملة فيقول في كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام): لا يُقدَّم في ولاية الحرب إلا أشجع النّاس، وأعرفهم بمكايد الحروب والقتال، مع النّجدة، والشّجاعة، وحسن السّيرة، والاتباع.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٨٣).

«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»:

* إنَّ الأحوالَ الشَّريفة، والصِّفات اللطيفة التي تحلَّى بها عُكَّاشة ـ رضوان الله عليه ـ جَعَلَتْهُ مِنَ الأصفياء الأتقياء الذين امتدحهم الله ورسولهُ، ولقد أهَّلَتْه هذه الصِّفات الكريمة كي يكون من أصحاب اليمين، وأهل الجنَّة، ولكي يكون من السَّابقين الفائزين في مضمار السَّعادة، أولئك الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب.

* وصفاتِ هؤلاء الأبرار صفاتٌ كريمة، فهم موحِّدون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكلون، وإنَّ تركهم الاسترقاء والتَّطير هو من تمام التَّوكل على الله عزَّ وجلَّ، كما جاء في الحديث الشَّريف: «الطِّيَرة شِرْكٌ»[1].

* روى الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بِشَارة عُكَّاشة بالجنة، بسندٍ إلى ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «عُرِضتْ عليَّ الأممُ، فأخذَ النَّبيُّ يَمُرُّ معه الأمَّة، والنَّبيّ يمرُّ معه النَّفر، والنَّبيُّ يمرُّ معه العشرة، والنَّبيُّ يمرُّ معه الخمسة، والنَّبيُّ يمرُّ وحده، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قلت: يا جبريل! هؤلاء أمَّتي؟

قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق؛ فنظرتُ، فإذا سواد كثير.

قال: هؤلاء أمَّتك؛ وهؤلاء سبعونَ ألفاً قدَّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب.

قلتُ: ولِمَ؟

---

(١) رواه أبو داود في الطِّب برقم (٣٩١٠) باب: في الطِّيرة، والتِّرمذي في السِّير برقم (١٦١٤) باب: ما جاء في الطِّيرة، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح، وابن ماجه في الطِّب برقم (٣٥٣٨) باب: من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٩).

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: وما منا إلا من تطيَّر، ولكنَّ الله يذهبه بالتَّوكل.

قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون[1]، ولا يتطيرون، وعلى ربّهم يتوكلون[2].

---

(١) إنَّ رقية العين إحسان من الرّاقي، وقد رقى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأذن له في الرقى وقال: «لا بأس بها ما لم يكن فيها شرك» رواه مسلم برقم (٢٢٠٠) وأبو داود برقم (٣٨٨٦).

واستأذنوه فيها فقال: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه» رواه مسلم برقم (٢١٩٩) وأحمد (٣/٣٠٢).

وهذا يدلُّ على أنّها نفع وإحسان، وذلك مستحب مطلوب لله ورسوله، فالراقي محسنٌ، والمسترقي سائل راجٍ نفع الغير، والتوكل ينافي ذلك.

هذا وقد ثبت في الصحيح أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟.

فقال: «نعم».

فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك. رواه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢) وابن ماجه (٣٥٢٣) وأحمد في المسند (٣/٢٨) والنَّسائي في عمل اليوم والليلة برقم (١٠٠٥).

فإن قيل: إنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ قد رقت رسول الله ﷺ، وجبريل قد رقاه؛ قيل: أجل، ولكن هو لم يسترق، وهو ﷺ لم يقل: لا يرقيهم راقٍ، وإنما قال: لا يطلبون من أحد أن يرقيهم.

(٢) أشكل على كثير من الناس فهم حقيقة التوكل، وظنوا أنه يتنافى مع العمل والسعي. وخَيْرُ ما نسوقه في هذا بعض ما قاله الإمام ابن الجوزي في كتابه: «تلبيس إبليس» قال:

لبس على قوم يدّعون التوكل، فخرجوا بلا زادٍ، وظنوا أن هذا هو التوكل، وهم غاية الخطأ.

قال رجل للإمام أحمد: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل من غير زاد، فقال له أحمد: فاخرج في غير القافلة، قال: لا، إلا معهم. قال: فعلى جراب الناس توكلتَ؟

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، وترك ناقته بباب المسجد، فسأله رسولُ الله ﷺ عنها، فقال: أطلقتها، وتوكلت على الله. قال: «اعقلها وتوكل». =

فقام إليه عُكَّاشة بن محصن فقال: ادع الله أنْ يجعَلني منهم.

قال: «اللهمّ اجْعَلْه منهم».

ثمّ قام إليه رجل آخر فقال: ادعُ الله أنْ يجعلني منهم.

قال: «سبقك بها عُكَّاشة»[1].

* وهكذا؛ كان عُكَّاشة بنُ محصن ـ رضي الله عنه ـ سَبَّاقاً سابقاً، وفاز بالنَّعيم، وأصبح هذا الحديث الشَّريف مَثَلاً شروداً على مرّ الأيام: «سَبَقَكَ بها عُكَّاشة».

الشَّهِيْدُ السَّعِيْدُ الأديب الأريب:

* بعد أنْ بشَّر رسولُ الله ﷺ عُكَّاشة بالجنَّةِ، عُرِفَ بين الصَّحْبِ الكرام بهذه البِشَارة التي رفعته مكاناً علياً في مقام الصَّفاء والنَّقاء، وراح يرجو الشَّهادة كي ينالَ عليين، وتوفيَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن عُكَّاشة.

* وبعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ ظهرت حركةُ الرِّدة، وظهر المرتدون، وانتفش

= قال ابن الجوزي: ولو عرفوا ماهية التوكل؛ لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضادّ، وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب، ولا ادخار المال.

واعلمْ أنَّ الذي أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر، قال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

انظر كتاب: التوكل على الله، لابن أبي الدنيا، تحقيق: ياسين السواس ويوسف بديوي (ص٥ ـ ٦).

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٤١٣) حديث رقم (٦٥٤١) وأخرجه البخاري كذلك في مواضع عديدة من صحيحه أيضاً.

وأخرجه مسلم في الإيمان برقم (٢٢٠) باب: الدليل على دخول طوائف المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٣٥٣) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٠٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٨) وحلية الأولياء (٢/ ١٣).

وفي امتناعه ﷺ أن يدعو للرجل الثاني سدّ لباب الطلب، فإنه لو دعا لكل من سأله، فربما طلبه من ليس من أهله؛ والله أعلم.

الباطل، وخيَّم بسواده على مناطق كثيرة، وانبعثَ طليحةُ بنُ خويلد الأسديّ يظهرُ نبوءته، وكان قد تنبأ العَهْد الأخير من حياةِ رسولِ الله ﷺ، شأنه بذلك شأنِ الأسود العنسيّ، ومُسيلمة بن حبيب الكذاب[١]، وظهر أمْر طُليحة، وَعَظُمَ، وكان عُيينة بنُ حصين الفزاريّ يقول: نبيٌّ مِنْ الحليفين ـ يعني: أسَداً وغطفان ـ أحبّ إلينا من نبيٍّ من قريش، وقد ماتَ محمَّد وطليحةُ حيٌّ.

اشتدَّتْ شوكةُ المرتدين، وعظُمت آثارها، واجتمعت جموعهم في بزَّاخة، وتهيَّأ فارسُ الصَّحابة، وشيخهم، وسيِّدهم، وأميرهم أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه سحائب الرضوان ـ لقمع هذه الحركات بشدّة، فَعَقَدَ الألوية لقتالهم[٢]، وكان سيفُ الله خالد بن الوليد وفارس الفرسان هو الموكَّل بطليحة الأسديّ المتنبىء المزعوم.

* أصرَّ طُليحة على مقاومةِ المسلمين، وكان بجانبه عيينة بن حصن الفزاريّ على رأس سبعمئة مرتد مِنْ فزارةَ، فعيينة هو من أشدّ الناس حنقاً على

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر الأفّاك في كتابنا: «المبشَّرون بالنار» (٢/ ٦٩ ـ ٨٩) ولاحظ من خلالها عظمة النبي ﷺ.

(٢) عَقَد أبوبكر الصديق أحد عشر لواءً لأحد عشر قائداً.
أ ـ خالد بن الوليد، ووجّهه إلى طليحة بن خويلد الأسدي، فإذا فرغ منه قَصَد مالك بن نويرة بالبطاح.
ب ـ عِكرمة بن أبي جهل، ووجّهه إلى مسيلمة باليمامة.
ج ـ شُرَحبيل بنُ حَسَنة، ووجَّهه في أثر عِكرمة.
د ـ المهاجر بن أبي أمية، ووجّهه إلى جنود العنسي ومعاونة الأبناء (قوم من الفرس سكنوا اليمن) ثم يمضي إلى كندة.
هـ ـ حذيفة بن محصن الغَلْفاني، ووجّهه إلى أهل دبا.
و ـ عَرْفَجة بن هَرْثَمة، ووجَّهه إلى أهل مهرة.
ز ـ سُوَيْد بن مُقَرِّن، ووجَّهه إلى تهامة اليمن.
ح ـ العَلاء بن الحَضْرَميّ، ووجّهه إلى البحرين.
ط ـ طُرَيفة بنُ حاجز، ووجّهه إلى بني سليم، ومَنْ معهم من هوازن.
ي ـ عمرو بن العاص، ووجّهه إلى قضاعة.
ك ـ خالد بن سعيد بن العاص، ووجّهه إلى مشارف الشام.

أبي بكر، وحرصاً على توهين سلطان المدينة المنوَّرة، وعيينة هذا كان على رأسِ فزارة في غزوة الأحزابِ، وكان صاحب كتيبة منَ الكتائب الثَّلاث التي حاولت مهاجمة المدينة بعد اتفاق الأحزاب مع بني قريظة، ثمَّ إنَّه هو الذي أراد الإغارة على المدينةِ في غزاة ذي قرد ـ كما مرَّ معنا ـ وقد رفعَ الآن راية العصيان مع طليحة.

* وآنَ لسيفِ الرَّحمن خالد بن الوليد أنْ يتحرَّكَ بأمْرِ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ لقتال هؤلاء المرتدين، فخرجَ وبصحبته سادة المهاجرين والأنصار، وكان معه عُكَّاشة بن محصن، وثلّة من المؤمنين السَّابقين، فلمَّا دنا خالد من طُليحة وأصحابه، أرسل عُكَّاشةَ بن محصن، وثابتَ بنَ أقرم الأنصاري[1] طليعة أمامه يأتيانه بالخبر، وكانا مِنْ سادات العرب وأبطالها ذوي الرَّأي والشَّوْكة، وكانا فارسَيْنِ، فلقيا طُليحة وأخاه سلمة، فانفرد طُليحة بعُكَّاشة، وسلمة بثابت، فلم يلبثْ سلمة أنْ قتل ثابت بن أقرم، وثبتَ عُكَّاشة لطُليحة، فاستعان بأخيه سلمة، وقتلا عُكَّاشة، ثمَّ رجعا أدراجهما، وأخبرا عُيينة بن حصن بما فعلا، فسُرَّ عُيينة لذلك، وكانَ قد خلَّفه على عسكره[2].

---

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٥٥٦).

(٢) كان عيينة بن حصن الفزاريّ هو الذي يقود المعركة في جانب طُليحة بن خويلد الأسديّ، في حين كان طليحة يقيمُ في بيتٍ من الشّعر ملتفاً في كساء له يتنبأ للنّاس، فلمَّا حميَ وَطيسُ الحرب، ورأى عيينة قوة خالد بن الوليد والمسلمين، كرَّ على طُليحة يسأله: هل جاءك جبريل بعد؟! قال: لا ؛ فرجعَ عُيينةَ فقاتل، حتى إذا ازدادَ وطيسُ المعركة ضراماً، كرَّ راجعاً إلى طليحة يقول: لا أبا لك! أجاءك جبريل بعد؟ قال: لا والله، قال عيينة: حتى متى! والله لقد بلَغَ منّا.
ثم إنَّ عُيينة رجع إلى الوطيس، فرأى خيل خالد تكاد تحيطُ به وبأصحابه، فرجع إلى طليحة فزعاً يكرور: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال طليحة: إنّه قال لي: إنّ لك رَحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه. ولم يتمالك عُيينةُ حين سمع الهذر أنْ صاحَ: قد علم الله أن سيكون حدث لا تنساه،
ثمَّ إنَّ عيينة بنُ حصن نادى في قومه: انصرفوا يا بني فزارة! فإنَّ طليحة كذَّاب، وانصرف النَّاس يولّون الأدبار، ومرَّ قومٌ بطليحة ينادونه: ماذا تأمرنا؟
وكان طُليحة بن خويلد قد أعدَّ فرسه عنده، وهيّأ بعيراً لامرأته النّوار، فلمّا بَصرُ =

جزعوا، فلمَّا رأوا صاحبَيْهم قتيلَيْن بالنَّاس، وأقبل خالدُ بنُ الوليد

* وعظُم ذلك عليهم، فأمَرَ خالد أصحابه، فحفروا لهما، ثم دفنوهما بدمائهما وثيابهما، ولما واروهما التُّراب وجدوا بعكَّاشة جراحات منكرة تشير إلى غيظِ وحقدِ القاتِلين (١).

* وهكذا حظي عكاشة بالشَّهادة، وصَعِدَتْ روُحه إلى ربِّها راضية مرضيةً، لتستقرَّ في علّيين، في الجنَّة، في دار المتقين، ولنعم دار المتقين الجنَّة يتبوأ منها عُكَّاشة حيث يشاء، فقد كان من المهاجرين الأوَّلين، وشهد المشاهد الوضَّاءة مع رسول الله ﷺ، وبُشِّر بالجنَّة، فنعمت داراً ومستقراً.

* * *

= بالنَّاس يغشونه، وينادونه، قامَ فوثبَ على فرسهِ، ثم حملَ امرأته، ونجا بها، وهو يقول: من استطاعَ أنْ يفعلَ منكم مثلَ ما فعلتُ، وينجو بأهله فليفعل.
ثم إنَّ طُليحة ـ بعد هذا كلّه ـ هَدَاه الله عزَّ وجلَّ للإسلام، وأبلى بلاء حسناً.

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٩٣) والمستدرك (٣/ ٢٥٤) بتصرف يسير.

(١٣)

عمرو بن العاص

- رضي الله عنه -

قال عنه ﷺ: «إنَّ عمرو بنَ العاص من صالحي قريش».

الفَارِسُ البَطَلُ الحَازِمُ الأبيّ:

* كانَ منْ فرسانِ قريش، وأبطالهم، ورؤسائهم في الجاهليَّة، مذكوراً بذلك فيهم، وكانَ شاعراً حَسَنَ الشِّعْرِ، حُفِظَ عنه مِنْ شِعْرِه الكثير في مشاهدَ شتَّى.

* هذا الفارسُ العبقريُّ النَّجيبُ، كانَ منْ أحسن رجالِ قريش رأياً، ودهاءً، وحَزْماً، وكفاءةً، وبَصَراً بالحروبِ، ومنْ أشرافِ ملوكِ العربِ، ومن أعيانِ المهاجرين، وقد تأمر على مثلِ أبي بكر وعُمرَ بأمْرِ رسولِ الله ﷺ لبَصَره بالأمور، ودهائه، ولقد شهدَ له رسولُ الله ﷺ بحُسْنِ الإيمان، وناهيكَ بها مِنْ شهادة!

* وصَفَ قُبيصة بنُ جابر - رحمه الله - بطلَنا فقال:

قد صحبتُه في ثنايا التاريخ، وبطونِ الكتب، فما رأيتُ رجلاً أبْيَنَ، أو أنْصَعَ رأياً، ولا أكرم جليساً منه، ولا أشْبَه سريرَةً بعلانيةٍ منه، ولا أقرأ لكتابِ الله منه، ولا أفْقَه، ولا أحْسَن مداراة منه.

* وبطلُنا المِقْدام هذا، رآه العبقريُّ الذَّكيُّ عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - يمشي فقال: ما ينبغي له أنْ يمشيَ على الأرضِ إلا أميراً؛ قال عنه مرَّةً وقد أُعجِبَ بذكائهِ وحُسْنِ تخلُّصِهِ: لله دَرُّه!

* كانَ فارسُنا منْ أفرادِ الدَّهر جلادةً، ورأياً، وفصاحةً، وذكاءً، وحضورَ بديهة، وثباتَ قَلْب، وحُسْن عَقْل، وسَعَةَ أفُق، وكمال تدبير؛ ولا عجبَ في هذا، فقد كان أحد أمراء الإسلام الموثوقين، وكان أحدَ فُرسانَ الرَّسُول ﷺ المعروفين المشهورين، فنِعْمَ الرَّجلُ هو!

* قال عنه الحافظ ابنُ كثير - رحمه الله -:

كان معدوداً منْ دهاةِ العَرب، وشجعانهم، وذوي آرائهم، وله أمثالٌ حَسَنَةٌ، وأشْعَار جيدة[1].

---

(١) البداية والنّهاية (٨/ ٢٦).

* أمّا الآن، فقد شاقَك أنْ تعرفَ فارسَ هذه الصَّفَحات، وأَسَدَ هذه المكرمات، إذ آنَ أوان لذلك.

* وأجدني الآن أمام الإمام شَمس الدِّين الذَّهبي ـ رحمه الله ـ الذي أبرزَ بطاقة فارسنا، فقال:

عمرو بنُ العاص بن وائل، الإمام أبو عبد الله السَّهميُّ، داهية قريش، ورجل العالَم، ومَنْ يُضرب به المثل في الفِطْنة، والدَّهاء، والحزم[(١)].

* هاجر عمرو بنُ العاص إلى رسولِ الله ﷺ مسلماً في أوائلِ سنةِ ثمان من الهجرة، وأسلم طوعاً في الهدنة، وكان مرافقاً في هجرته خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله، وغرَّة الفرسان البواسل، وعلَم المجاهدين، وكذلك حاجب الكعبة والبيت العتيق عثمان بن طلحة العبدري[(٢)]، ففرح رسول الله

---

(١) المصادر التي تحدثت عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ تجاوزتِ المئات، وسنوردُ طائفةً منها، فانظر: المغازي (انظر الفهارس ٣/١٢١٦) ومسند أحمد (٤/٢٠٢) وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٤) و(٧/ ٤٩٣) ونسب قريش (ص ٤٠٩ وما بعدها) والمحبّر (ص ٧٧ و١٢١ و١٧٧) والمعارف (ص ٢٨٥) والمستدرك (٣/ ٥١٢ ـ ٥١٥) والمعرفة والتّاريخ (١/ ٣٢٣) ومختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٢٣٢ ـ ٢٥٤) وجامع الأصول (٩/ ١٠٣) والبداية والنّهاية (٨/ ٢٤ ـ ٢٧) وتهذيبُ الأسماء واللّغات (٢/ ٣٠ و٣١) ـ وفيه عمرو بن العاصي بدلاً من العاص ـ وتاريخ الإسلام للذهبيّ (عهد معاوية ص ٨٩ ـ ٩٨) وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٥٤ ـ ٧٧) وتهذيبُ التّهذيب (٨/ ٥٦ ـ ٥٧) والإصابة (٣/ ٢ و٣) والعقد الثّمين (٦/ ٣٩٨) والنّجوم الزّاهرة(١/ ١١٣) وحسن المحاضرة (١/ ٢٢٤) وغيرها كثيراً جداً من المصادر.

(٢) عثمانُ بن طلحةَ بن أبي طلحة العبدري الحجبيّ، أسلم هو وخالد بن الوليد وعمرو ابن العاص في أوّل سنة ثمان قبل الفتح، وهو الذي أخذَ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة عام الفتح، ثم ردّه إليه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النّساء: ٥٨] وقال: «خُذْهَا يا عثمان خالدةً تالدةً، لا ينتزعها منكم إلا ظالم». نزلَ المدينة حياةَ رسولِ الله ﷺ، فلمّا مات ﷺ نزل بمكة، فلم يزلْ بها حتى مات في أوّلِ خلافة معاوية سنة (٤١هـ) ـ رضي الله عنه ـ (البداية والنّهاية ٨/ ٢٣) بتصرف.

ﷺ بقدومهم وإسلامهم، وقال: «ألقتْ إليكم مكة أفلاذَ كبدها» يعني: أنهم وجوه أهل مكة(١).

كَيْفَ كَـانَ إِسْلامُـه؟

* قُلْنَا: إنَّ عمروَ بنَ العاص ـ رضي الله عنه ـ أسلم في صفرَ سنة ثمان من الهجرة، وقد أسلم هو وخالد بن الوليد وعثمانُ بن طلحة في وقتٍ واحد(٢)، ومعنى ذلك أنَّ عمرو بنَ العاص قد وقفَ في طريق العناد قرابةَ عشرين سنة، وهو يسعى لكي يصدَّ عن الصِّراط السَّويِّ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرمه، ونعَّمَه بنعمةِ الإيمان ونفحة الإسلام، فأضحى من فرسانِ المدرسة المحمَّدية، وخَلَدَ مع الخالدين في نعيمِ الخُلُود، وتلك هي الخاتمة الحسنى.

* ولقد سُئِل عمرو ـ رضي الله عنه ـ عن سببِ تأخير إسلامه إلى هذا الوقت، بعد أنْ أسلمَ جلَّة قومه وأقربائه؛ حتى لقد أسلم ابنه عبد الله

---

(١) قد يتساءل المرء: لماذا تأخَّر هؤلاء الفرسان المغاوير في إسلامهم، على الرغم من حنكتهم وذكائهم؟!
والجواب: أن هؤلاء وغيرهم أدركوا تمام الإدراك أن الإيمان ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، وليس مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر معتادة، وليس مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان، إنما الإيمان: تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن، والذي ينبثق منه الجهادُ بالمال والنفس في سبيل الله.
ولا بُدَّ من إيمان يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من: إدراك، وإرادة، ووجدان، مع الانقياد الإرادي، المتمثِّل في الخضوع والطاعة لحكم مَنْ آمن به مع الرضا والتسليم.
ولا بُدَّ أن يتبعَ تلك المعرفة، وهذا الإذعان: حرارة وجدانية قلبية، تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية، والسلوكية، والجهاد...
فالإيمان: أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون من الكفرة والمنافقين.
فَمِنْ أجل هذه المعرفة الحقة، وإدراك معنى الإيمان الحق، تأخَّر أولئك القوم، حتى فهموا مقوِّمات الإيمان، واستطاعوا تمثُّلها في حياتهم بطواعية، واقتدار.
(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة لابن حجر (٣/ ٢).

ابن عمرو[1]، فأجابَ عمر ـ رضوان الله عليه ـ: إنَّا كنَّا مع قوم لهم علينا تقدمٌ وسِنٌّ، توازي حلومهم الجبال، ما سلكوا فجّاً فتبعناهم إلا وجدناه سَهْلاً، فلمّا أنكروا على النَّبيِّ ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكرْ في أمْرنا، وقلَّدناهم، فلمَّا ذهبوا، وصار الأَمْرُ إلينا، نظرنا في أمْرِ النَّبيِّ ﷺ، فإذا الأمْرُ بيِّنٌ، فوقعَ في قلبي الإسلام[2].

* في صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ وردتْ قصَّة إسلامِ عمرو بن العاص، وشدّة حيائه منْ رسولِ الله ﷺ، يروي هذه القصَّة بطلنا عمرو نفسه فيقول:

. . . لقد رأيتُني وما أحد أشدّ بغضاً لرسولِ الله ﷺ منِّي، ولا أحبّ أنْ أكون قد استمكنتُ منه فقتلته . . . . فلمَّا جَعَلَ اللهُ الإسلام في قلبي أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقلتُ: ابسطْ يمينك فلأبايعك، فبسطَ يمينه، فقبضتُ يدي، قال: «ما لك يا عمرو؟».

قلتُ: أردتُ أنْ أشترطَ.

قال: «تشترطُ بماذا؟».

قلتُ: أنْ يُغْفَر لي.

قال: «أما علمتَ أن الإسلام يهدمُ ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدمُ ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهدمُ ما كان قبله؟!».

وما كان أحد أحبّ إليّ منْ رسولِ الله ﷺ، ولا أجلّ في عينيَّ منه، وما كنتُ أطيق أنْ أملأَ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصِفَه ما أطقتُ، لأنّي لم أكنْ أملأ عينيَّ منه[3]. . .

* لهذا كان لعمرو بنِ العاص ـ رضي الله عنه ـ مكانة كبرى بين فرسان

---

(١) اقرأ سيرته في كتابنا «علماء الصَّحابة».
(٢) انظر: نسب قريش (ص ٤١٠) والإصابة (٣/٢).
(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٢١) باب: كون الإسلام يهدم ما كان قبله، وكذا في الهجرة والحج. وانظر: طبقات ابن سعد (٤/٢٥٩) والبداية والنّهاية (٤/٢٣٨).

الصَّحابة، وأعلامهم، وأعيانهم؛ ولذا فإنَّ رسولَ الله ﷺ أحلَّه مكاناً مرموقاً، ومنزلة سامقة متطاولة في معارج السُّؤدد، ومدارج الفضائل. روى عمرو نفسه هذه المنزلة المتطاولة فقال:

ما عدل بي رسولُ الله ﷺ وبخالد بنِ الوليد أحداً منذ أسلمنا في حربه[1].

* وهذا كلامٌ صحيحٌ سليمٌ، إذ توافرتِ الصِّفَاتُ القياديةُ، ومَلَكَات فنِّ القضاء والحربِ لعمرو من قبل، فهو من بني سَهم[2] القرشيين الذين انتهى إليهم الشّرف في الجاهلية، حيث كان لهم السِّيادة والسُّلطان في مكةَ.

* أمَّا والد عمرو؛ فهو العاص بن وائل السَّهميّ، وقد كان منْ أشرافِ قريش، وذوي الجاه فيهم، كما كان العاصُ هذا أحد زعماء قريش الذين أعرضوا عن الدعوة المحمديَّة، وعرضوا كلَّ المغريات على رسول الله ﷺ ليكفَّ عنْ دعوتهِ الرَّبانية؛ وكان أحد ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦ ـ ٩٧] وكان يقول عن الحبيبِ المصطفى ﷺ: أبتر، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ سورة الكوثر[3].

* كان أنَّ عمرو بنَ العاص نفسه، كان من ذوي الشَّرَفِ في الجاهلية، وممنْ عُرفوا بسَداد الرَّأي والحزم، فقد كان ذا نسب شريفٍ، ونشأَ في بيتِ شريف، في بلدٍ شريف، حظيَ بالتَّشريف، هو مكة أمّ القرى.

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقيّ (٤/ ٣٤٣).

(٢) اختصّ بنو سَهم ـ منْ بينِ بطونِ قريش الأخرى ـ بأنَّهم كانوا أصحابِ الحكومة، وهي أشبه ما تكون بالقضاء، وفضِّ المنازعات في المسائل الدَّقيقة.
فقد كان القرشيون وغيرهم منَ العرب يحتكمونَ إلى زعماءِ بني سَهْم؛ الذين اشتهروا بسَداد الرَّأي، والحلم، والحزم، والدَّهاء.
كما كان لبني سهم أيضاً في الجاهلية الرئاسة على الأموال؛ التي تخصُّ آلهتهم، حيث يتصرف رئيس هذه الوظيفة بالأموالِ وفْق أنظمةٍ ابتدعوها لأوثانهم، ومعبوداتهم.

(٣) اقرأ هذا بالتَّفصيل في كتابنا «المبشّرون بالنّار» (١/ ١١٩ ـ ١٤٢) وانظر موقفَ رسول الله ﷺ منْ هؤلاء المستهزئين، ونهاية كلّ واحد منهم، ستجد عظمة الرسول ﷺ.

أمام هذا وذاك، وأمام شَرَفِهِ العظيم، وموروثه التّليد، وقفَ أمام رسول الله ﷺ؛ ليُعْلِنَ حُبَّه للإسلامِ الحنيف، وليكون أحد فرسانه الميامين الأعلام في دُنيا اليُمْنِ والخير. وها نحنُ أولاءِ مع عمرو بن العاص الفارس، الأمير، الفَطِن، الحكيم، في أولى سراياه بعد أنْ أسلمَ، وقُلِّد بعِقْدِ الإيمان.

أَمِيْـرُ ذَاتِ السَّلاسِلِ وَخِبْـرَةٌ حَرْبِيَّـة:

* لم يمضِ على إسلام عمرو بن العاص بضعة شهور حتى ولاّه النّبيُّ ﷺ على جيشِ ذات السَّلاسل[1]، وفيهم أبو بكر وعمر وسَرَاة الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

كانت سرية ذات السَّلاسل في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة، وسببها أنَّ جماعة من قُضَاعة كانت تريدُ أنْ تغيرَ على أطرافِ المدينة المنوَّرة، فعلم بذلك رسولُ الله ﷺ، فقامَ بتجهيزِ جيش للقَضَاء على هؤلاءِ المُعْتَدين، وأَسْنَدَ قيادته إلى عمرو بن العاص[2] ـ رضوان الله عليه ـ وعَقَد له لواء أبيض، وجَعَل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمئةٍ منْ سَرَاةِ المهاجرين الأنصار،

---

(1) «ذات السَّلاسل» ضبطها ابنُ الأثير في «النّهاية» بضم السّين الأولى، وكَسْر الثّانية، بينما ضبطها الفيروز أبادي في «القاموس» بفتح السّين الأولى، سمِّيت باسم ماء بأرض جذام يقال له: السَّلسل؛ وقيل: لأنَّ المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أنْ يفرّوا. وذكر ابنُ سعد أنّها وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام. انظر: (طبقات ابن سعد ٢/ ١٣١) و(سيرة ابن هشام ٢/ ٦٢٣) و(شرح المواهب اللّدنية ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٨٠).

(2) ذكر عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ كيف دعاه رسول الله ﷺ ليسلمه إمرة ذات السّلاسل فقال: بعث إليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «خُذْ عليك ثيابك وسلاحك، ثمَّ ائتني» فأتيتهُ وهو يتوضأ، فصعَّدَ فيَّ النَّظر، ثمَ طأطأ، فقال: «إنّي أريدُ أنْ أبعثَكَ على جيشٍ فيسلمك الله ويغنمك، وأرغبُ لكَ منَ المال رغبة صالحة» قلتُ: يا رسول الله! ما أسلمتُ منْ أجْلِ المال، ولكنّي أسلمتُ رغبةً في الإسلام، وأنْ أكونَ مع رسولِ الله ﷺ فقال: «يا عمرو نِعْم المال الصَّالح للرجلِ الصَّالح». رواه أحمد (٤/ ١٩٧ و٢٠٢) وانظر (مجمع الزّوائد ٩/ ٣٥٣) و(مختصر تاريخ دمشق ١٩/ ٢٣٦).

ومعهم ثلاثون فَرَسَاً؛ فسار عمرو إلى حيثُ أَمَرهُ رسولُ الله ﷺ، فكان يسير في الليلِ، ويكمنُ في النَّهار[١].

* ولما وصل عمرو إلى مكان تجمُّع الأعداء بَلَغَه أنَّ لهم جُموعاً كثيرة، فتخوَّفَ منْ ذلكَ، فبعثَ إلى النَّبيِّ ﷺ «رافع بن مكيث» يطلبُ منه مدداً، فأرسلَ إليه أبا عُبيدة بن الجَّراح ومعه مئتا مقاتل، فقال عمرو: أنا أميرُكُم.

فقال أبو عُبيدة: أنتَ أمير مَنْ معكَ، وأنا أميرُ مَنْ معي.

فقال عمرو: إنّما أنتم مددي، فأنا أميرُكم.

فقال له أبو عبيدة: تعلم يا عمرو أنَّ رسولَ الله ﷺ عَهد إليَّ فقال: «إذا قدمتَ على عمرو فتطاوعَا ولا تختلِفَا» فإن خالفتني أطَعْتُك.

فقال: إنِّي أخالِفُك. فسلَّمْ له أبو عُبيدة، وصلَّى خلفه.

وفي روايةٍ قال أبو عُبيدة: إنَّ رسولَ الله ﷺ أمرنا أنْ نَتطاوع، فأنَا أُطيعُ رسول الله ﷺ وإنْ عَصَاه عمرو[٢].

* وفي تلكم السَّرية أراد جماعة منْ قريش أنْ يُوقدوا ناراً للتدفئةِ فمنعهم عمرو من ذلك، ولما انهزمَ الأعداء، أرادَ المسلمون أنْ يتبعوا فلولهم، فمنعهم قائدهم وفارس سريتهم عمرو من ذلك. وقد حَمِدَ رسولُ الله ﷺ لعمرو هذين الموقفَيْن اللذين يُشيران إلى عبقريته العسكريَّة، وإلى معرفتهِ وخبرته الحربيَّة عَصْرَ إذ.

* روى عمرو ـ رضي الله عنه ـ ذلك وذكرَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَه في غزوةِ ذاتِ السَّلاسل، فسأله أصحابه أنْ يُوقدوا ناراً، فمنعَهم، فكلَّموا

---

(١) قَصَد عمرو بن العاص من سلوك هذه الخطة تحقيق أمرين مهمَّين:
الأول: إخفاء تحركاته عن عدوه، وبذلك يضمن سلامة قواته، وأَمْنها.
الثاني: حماية الجند من شدَّة الحر، وحتى يبقى لهم نشاطهم، فيصلون إلى مكان المواجهة، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٩/٢٣٦) ومجمع الزوائد (٩/٢٠٦) مع الجمع والتصرف.

أبا بكر، فكلَّمه فقال: لا يُوقد أحَدٌ منهم ناراً إلا قذفْتُه فيها.

قال: فَلَقُوا العدوَّ فهزموهم، فأرادوا أنْ يتبعوهم، فمنعهم، فلمَّا انْصَرَفَ ذلك الجيش ذكروا ذلك للنَّبيِّ ﷺ وشكَوْهُ إليه، فقال: يا رسول الله ﷺ! إنِّي كرهتُ أنْ آذنَ لهم أنْ يُوقدوا ناراً فيرى عدوهم قِلَّتهم، وكرهت أنْ يتبعوهم فيكون لهم مَدَدٌ فيعطفوا عليهم، فحَمِدَ رسولُ الله ﷺ أمْرَهُ[1].

* بهذهِ العبقريّة الحربيّة، وبتلكَ الخبرة في فَنِّ الفروسيّة، استطاعَ عمرو ابن العاص ـ رضي الله عنه ـ أنْ يكونَ ناجحاً موفقاً في هذه السَّرية، وأنْ يثبتَ معالم فروسيّته وشجاعته وذكائه أمام جمهرة فرسان المدرسة المحمديّة؛ الذين سبقوه إلى دَوْحَة الإيمان[2].

يَهْدِمُ صَنَمَ سُوَاعٍ بِأَمْرٍ نَبَوِيٍّ حازم:

* لازمَ عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ رسولَ الله ﷺ، فها هو يشهد معه فَتْح مكة، وها هو رسول الله ﷺ يوم الفَتْح يحمدُ الله عزَّ وجلَّ، ويدعو بما شاء أن يدعوَ، ولكنَّ الأصنامَ ما زالتْ في مكةَ وحول الكعبة وداخلها، فأمَرَ ﷺ بإخراجها.

* روى عبد الله بن عبَّاس[3] ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ، لما قدم مكةَ أبى أنْ يدخلَ البيتَ، وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرِجَت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما منَ الأزلام[4]، فقال: «قاتلهم الله لقد علموا

---

(١) انظر: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (ص ٤٠٠) والمستدرك (٣/ ٤٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣١) والبداية والنّهاية (٤/ ٢٧٤) وتاريخ الخميس (٢/ ٧٥) وغيرها من كتب المصادر.

(٣) اقرأ سيرته ومكانته العلميّة في كتابنا: «علماء الصَّحابة».

(٤) «الأزلام»: مفرده: الزّلم؛ يُطلقُ في اللغة على القدح الذي لا ريش عليه، ويجمع على أزلام. والأزلام في الاصطلاح الشّرعيّ: أقداح كان يستقي بها العرب في الجاهلية، وكانت على ثلاثةِ أنواع:
أحدها: مكتوب عليه: افعل. والثاني: مكتوب عليه: لا تفعل. والثّالث: مهمل. وكانوا يجعلون هذه الثّلاثة في خريطةٍ ـ وهي متشابهة ـ فإذا أرادَ الواحدُ فِعْل شيء =

ما استقسما بها قطّ» ثمّ دخلَ البيت، فكَبَّرَ في نواحي البيت، وخرج ولم يُصَلِّ فيه»[1].

* هذا؛ ولم يقتصرْ رسولُ الله ﷺ على إزالةِ الأصنام التي كانت حولَ البيتِ العتيقِ فحسب، وإنَّما بَعَثَ عَدَداً منَ الصَّحابة لهدمِ الأصنام التي كانت بمكة المكرمة، منْ أجْلِ استئصال هذا الوباء الخبيث الَّذي ينافي التَّوحيد، فبعثَ خالد بن الوليد المخزوميَّ ـ رضي الله عنه ـ إلى نخلة[2] لهدم العُزَّى[3] وبعث سعد بن زيد الأشهليَّ لهدم مَنَاة[4]، ثمَّ بعثَ عمرو بن العاص إلى سواع[5] في شَهْرِ رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

= أدخل يديه، فإذا خرجَ له أحدها ائتمر أو انتهى بحسب ما يخرج له، وإذا خرج الذي لا شيء عليه أعاد الضَّرب مرة أخرى. انظر: (تفسير القرطبيّ ٦/٥٨) و(زاد المسير ٢/٢٨٤) و(فتح القدير ٢/١٠).

(١) بهذا اللفظ رواه البخاري في كتاب: المغازي برقم (٤٢٨٨) باب: أين ركز النَّبيُّ ﷺ الرَّاية يوم الفتح؟! وأخرجه كذلك في كتاب: الأنبياء برقم (٣٣٥٢) باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

(٢) «نخلة»: نخلة الشَّامية، وواديان لهذيل على بعد (٣٤ كيلاً) من مكةَ شمالاً شرقاً يجتمعان ببطن مرّ وسبوحة، وهو واد يَصب من الغُمير، ويُعد أحد رافدي مرّ الظَّهران. انظر (معجم معالم الحجاز ٩/٤١ و٤٢).

(٣) «العزّى»: صنم لقريش، وهو أحدث منَ اللات ومنَاة، وكان الذي اتخذها ظالم بن أسعد، وكانت قريش تعظّمها، وتزورها، وتهدي لها، وتتقرب عندها الذَّبائح، وقد وَرَدَ ذكرها في القرآن الكريم في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ...﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣] وكانتِ العربُ تسمّي «عبد العزى» انظر: (كتاب الأصنام ص ١٧ و١٨).

(٤) «مَنَاة»: صنم كانت العرب جميعاً تعظّمه، وتذبحُ حوله، ولم يكن أحد أشدّ إعظاماً له من الأوسِ والخزرج، وقد بلغ من تعظيم العرب له، أنّهم كانوا يسمّون أبناءهم «عبد مناة» و«زيد مناة» وقد وَرَدَ ذِكْره في القرآن الكريم في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠] وكانت مناة لهذيل وخزاعة. انظر (كتاب الأصنام ص ١٣ ـ ١٥).

(٥) «سُواع»: اسم صنم لهذيل بنِ مدركة، وسدنته منْ بني لحيان، كان برهاط منْ أرضِ =

* قالوا: بعثَ النَّبيُّ ﷺ حينَ فتح مكة عمرو بن العاص إلى سواع ـ صنم لهذيل ـ ليهدمه؛ قال عمرو: فانتهيتُ إليه وعنده السَّادن[1] فقال: ما تريد؟

قلتُ: أمرني رسول الله ﷺ أنْ أهْدِمَه.

قال: لا تقدر على ذلك.

قلتُ: لِمَ؟

قال: تُمنع.

قلتُ: حتى الآن أنتَ في الباطل! ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوتُ منه، فكسرته، وأمرتُ أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً.

ثمّ قلتُ للسَّادن: كيف رأيتَ؟

قال: أسلمتُ[2].

* وبهذا ظهرتْ فروسية وحكمة عمرو في هذا الموقفِ، وحزمه، وبذلك قضى رسولُ الله ﷺ على معاقل الشِّركِ في داخل مكةَ وخارجها.

رِسَالَـةٌ وَدَعْوَةٌ إلى الإِسْلاَمِ الحنيف:

* حالفَ التَّوفيق عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عندما أرسله النَّبيُّ ﷺ بكتابٍ إلى مَلِك عُمان[3] يدعوه فيه للإسلام.

= يَنْبُع، وهو من أصنام قوم نوح، كما أخبر القرآنُ عنه. انظر: المصدر السابق (ص ٩ و١٠) ومعجم البلدان (٣/ ٢٧٦).

(١) «السَّادن»: جمعها سدنة: وهم حجّابُ البيت وقَوَمَةُ الأصنام في الجاهلية، والمراد بالسَّدنة هنا: القائمون على أمْرِ الأصنام.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٤٦) والأصنام (ص ٩ و١٠) وتاريخ الطبري (٣/ ٦٦).

(٣) «عُمَان»: اسم للمنطقة التي تقع في الجهة الجنوبية الشرقية لجزيرة العرب، وعاصمتها: مسقط. انظر معجم البلدان (٤/ ١٥٠) ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (ص ٢١٦).

* فقد كَتَبَ رسولُ الله ﷺ كتاباً إلى ملك عمان - جيفر وأخيه عبد ابني الجلندي - ونصّه:

«بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ، منْ محمّد بنِ عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلامٌ على مَنِ اتّبع الهُدى، أمّا بعد: فإنّي أدعوكما بدعايةِ الإسلام، أسلما تسلما، فإنّي رسولُ الله ﷺ إلى النّاس كافّة، لأنذر مَنْ كان حيّاً ويحقّ القَوْلُ على الكافرين، فإنّكما إنْ أقررتما بالإسلام ولّيتكما، وإنْ أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإنّ ملككما زائل، وخيل تحلُّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على ملككما».

* وقد اختار رسولُ الله ﷺ لحملِ هذا الكتاب عمرو بن العاص - رضي الله عنه - الذي أدّى مهمتَّه أَحْسَن أَدَاء، ويروي عمرو ذلك فيقول:

فخرجتُ، حتى انتهيتُ إلى عُمانَ، فلمّا قدمتها عمدتُ إلى عَبْد- وكان أحلم الرَّجُلين، وأسهلهما خلقاً - فقلت: إنّي رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك.

فقال: أخي المقدم علي السّنِّ والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك.

ثمّ قال: وما تدعو إليه؟

قلتُ: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبِدَ من دونه، وتشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

قال: يا عمرو! إنّك ابن سيّد قومك، فكيف صَنَعَ أبوك، فإن لنا فيه قدوة؟

قلتُ: ماتَ ولم يؤمن بمحمّد ﷺ، وودِدت أنّه كان أسلم وصدق به، وقد كنتُ أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

* وبعد حوار ناجح مع عمرو استطاع أنْ يدعو جيفر وعبد إلى الإسلام، فأسلما، وصدّقا بالنّبيِّ ﷺ، وخليا بين عمرو وبين الصَّدقة، والحكم فيما بين

قومهم، وكانا له عوناً على مَنْ خالَفَه[1].

الفَارِسُ الفَاتِحُ المُجَاهِدُ المغوار:

* أثرى عمرو بنُ العاص ساحات الجهاد بعظيم بطولاته، وفروسيته، كما أثرى التَّاريخ بمواقِفِهِ العطرة فيما يخدم جيوش الإسلام.

* ولمَّا كانت بدايةُ الخلافة الرَّاشدة بإمْرَةِ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ كان لعمرو مآثر محمودة هنا وهناك وفي مجالات شتّى، فقد خرج إلى قُضَاعة لحربها حينما ارتدت عنِ الإسلام[2].

* ثمَّ خرج عمرو ليشهد معركة اليرموك بالشَّام، وقد أدّى دَوْرَه بأفضلِ أداء ممكن، وكان على ميمنة الجيش المجاهد، وكانَ لمشاركته أثر كبير في تحقيقِ النَّصرْ للمسلمين[3]، كما شارك في حركةِ الفَتْح الإسلاميّ في بلاد الشَّام، إذ قام بالمشاركة مع شرحبيل بن حسنةَ في فَتْح بضعةِ بلدان منها: بَيْسَان، وطبرية؛ كما قام ـ رضي الله عنه ـ بفتح بلدان أخرى في بلاد الشَّام ـ وهيَ الآن في فلسطين ـ منها: غزَّة، ونابلس[4]، واللد، وعمواس، ويافا[5]، ورَفَح[6]، وبيت المقدس، وغيرها.

* ولما كانت حركة الفُتوحات في مصرَ، سار عمرو بن العاص بأمْرِ مَنَ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٦٢) وجوامع السيرة لابن حزم (ص ٢٤ ـ ٢٩) بشيء من الاختصار.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٤٦) وتاريخ الطبري (٣/ ٢٤٩ و٣٠٥).

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/ ١٥٦) وتاريخ الطبري (٢/ ٥٩٣).

(٤) «نابلس»: مدينة مشهورة في فلسطين تقع بين جَبَلين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ، وتقع الآن تحت نير الاحتلال الإسرائيلي. (معجم البلدان ٥/ ٢٤٨).

(٥) «يافا»: مدينة في فلسطين أيضاً، تقع على ساحل بحر الشَّام بين قيسارية وعكا. (معجم البلدان ٥/ ٤٢٦).

(٦) «رفح»: مدينة في طريق مصر، بعد الداروم، بينها وبين عسقلان يومان لقاصد مصر، وبينها وبين غزة ثمانية عشر يوماً، وأهلها مِنْ لخم وجذام (معجم البلدان ٣/ ٥٤).

الخليفةِ عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فوصل إلى العريش، ففتحها، ثمّ فتح بضعة بلاد أخرى منها: الفرما[١]، والفسطاط[٢]، وعين شمس[٣]، والفيوم، وبوصير، والإسكندرية، وغيرها كثير أوردها الحمويُّ في معجمه.

* وأعتقدُ أنَّ فتوحات عمرو ـ رضي الله عنه ـ كانت نابعة من حُبِّه وإخلاصه لدِيْنه وللإسلام والمسلمين، ولكي يُظْهر عبقريته العسكرية؛ التي تنفعُ المسلمين، والتي يستطيع وحده هو أنْ يتولَّاها، إذ كان ـ رضي الله عنه ـ ذا خبرة عسكرية واسعة، بصيراً بشؤونِ الحرب، يحسن تدبيرها إذا ما حَدَثَ حَدَثٌ، فكان يستخدم عقله وخبرته في مكابدة العدو، وقد روى له التَّاريخ كثيراً منَ المواقفِ العطرة، التي تدلُّ على حُسْنِ تخلّصه من المآزق[٤]. وعلى تمام خبرته وممارسته للحرب، ناهيك بشجاعته، وحَزْمِهِ، وسخائه، وقوة شخصيته، وجمال بيانه في الحديث[٥] والمحادثة، ويكفينا ويكفي تاريخنا

---

(١) «الفَرَما»: أوّل مدينة في مصرَ من جهة الشّمال، وتقع على السَّاحل، بينها وبين البحر الأخضر ـ البحر المتوسط ـ ثلاثة أميال، وليس بها زرع ولا ماء يُشرب إلا ماء المطر (معجم البلدان ٤/ ٢٥٥).

(٢) «الفسطاط»: مدينة كبير بمصر بناها عمرو بن العَاص ـ رضي الله عنه ـ بعد رجوعه من فَتْح الإسكندرية، وبنى بها مسجداً عُرِفَ باسمه فيما بعد، يأتيها نهر النِّيل منْ أعلى أراضيها، فيجتاز بها من ناحية جنوبها، وينعطف مع غربها. (الرَّوض المعطار ص ٤٤٢).

(٣) «عينُ شَمْس»: اسم لمدينة فرعون موسى مصر، بينا وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وتقع في شمال شرق القاهرة. (معجم البلدان ٤/ ١٨٧).

(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٩/ ٢٤٣) والبداية والنّهاية والكامل لابن الأثير في مواضع متعددة. هذا؛ وقد حفلت المصادر المتنوعة بذكر نبذ وأخبار عن ذكاء عمرو بن العاص، وحضور بديهيته في المآزق.

(٥) دعني أذكرك ـ عزيزي القارىء ـ بأنَّ عمراً كان بارزاً في الجاهلية، وجيهاً عند القوم، اختارته قريش للسّفارة بينها وبين النّجاشي ملك الحبشة، وهنالك أخذ عمرو يقرِّب ويبعِّد للنَّجاشي، ويحدِّثه عن المؤمنين الهاربين الذي شقُّوا عَصَا الطَّاعة، وفرَّقوا بين الأب وابنه بهذا الدِّيْن الذي اتبعوه، إلا أنَّ النَّجاشي كان عاقلاً عادلاً حيث جمعَ بين الطَّرفين، وسمع صدراً من سورةِ مريم فقال لعمرو وصاحبه: =

النَّاصع أنَّ عَمْراً قد جاهد في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ وفي عَهْدِ الخلافة الرَّاشدة، وكان منْ ثمراتِ أعماله وفروسيته فتح فلسطين ومصر وجزء من بلادِ المغرب.

الثَّنَـــاءُ العَطِر عَلى عَمْرو بن العاص:

* شهدَ رسولُ الله ﷺ لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بالإيمانِ فقال: «ابنا العاص مؤمنان: هشام وعمرو»[(١)].

كما عدَّه ﷺ منْ صَالحي قريش فقال: «إنَّ عمرو بنَ العاص من صَالحي قُرَيش»[(٢)].

كما شهد له بالصِّدْقِ والخيرية فقال: «صدق عمرو، إنَّ له عند اللهِ خيراً كثيراً»[(٣)].

وهذا الأقوال الشَّريفة ترفعُ من مكانةِ عمر، وتزيدُ في رصيده الكريم في مجالِ معالي المكارم ومكارم المعالي، وفي مجال الفَضَائل الكريمة، والمناقب الجليلة.

* أمّا في مجالِ الفروسيّة، فقد كان لعمرو ـ رضي الله عنه ـ مكانة متفرِّدة عند رسول الله ﷺ إذ لم يعدلْ به أحداً في الحرب، قال عمرو ـ رضي الله عنه ـ: ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد منذ أسلمنا أحداً منْ أصحابه في حربه.

* وكانَ رسولُ الله ﷺ يحبُّه، حَدَّثَ الحسَنُ البصريُّ فقال: قال رجلٌ

= انطلقا والله لا أسلمهم إليكما، ولما صَقَلَ الإسلام موهبتَه هذه، كان ذا أثرٍ عظيم في خدمة المسلمين ومصالحهم في شتى المجالات، وكان له دور كبير في خلافة عليّ ـ رضي الله عنه ـ وقد بسطت كتب الأدب والتّاريخ ذلك، ولا مجال لذكر شيء هنا؛ لأنّه خارج عن هدف البحث.

(١) رواهُ أحمد (٢/ ٣٠٤ و٣٢٧ و٣٥٣) والحاكم (٣/ ٢٤٠ و٤٥٢ ـ ٤٥٣) وانظر: طبقات ابن سعد (١/ ١٩١) ومختصر تاريخ دمشق (١٩/ ٢٣٣) ومنح المدح (ص ١٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٤٥) وأحمد (١/ ١٦١ و٤/ ١٥٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٥).

لعمرو بن العاص: أرأيتَ رجُلاً ماتَ رسولُ الله ﷺ وهو يحبُّه أليس رجلاً صَالحاً؟!.

قال: بلى.

قال: قد ماتَ رسولُ الله ﷺ وهو يحبّك وقد استعملك[1].

* وقد حظيَ عمرو بثناء أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضي الله عنهم - كما أثنى عليه كثير من أكابر العُلَماء، وأكابر أهل الرَّأي، والحلم، والشَّجاعة، ولو رحت أستقصي ذلك لما وسعت هذه الصفحات لذلك، وقد مرَّ مَعَنا في بدايةِ ترجمته ثناءات عديدة لبعض العُظَماء.

قَلائـدُ فريـدة منْ جُمَـان أَقْـوَالِـهِ الحكيمة:

* إنَّ سيرةَ واحد كعمرو بن العاص - رضي الله عنه - لا تُحْصَرُ في بِضْعِ صَفَحات، أو عـددٍ منَ الوُريقات، ولكنَّـه يحتاجُ إلى مجلدات كثيرة لِتَفِيَ جُزءاً من حقِّهِ، ولكنِّي هنا أنوِّهُ إلى بعض المآثر الحِسَان في شخصية هذا العبقريِّ الفَارِسِ الفريدِ في عالَمِ الفروسيَّة الحقة، والشجاعة العملاقة.

* ولما كنتُ أطالعُ سيرتَه استوقفني بعض الأقوال العظيمة؛ التي تشيرُ إلى بيانه النَّاصع المتدفّق، والمنبعث منْ أَدَب النُّبوَّة العظيم؛ اسمع إليه يقول عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ليس الأبُ البَرُّ بولده، بأبَرَّ منْ عمرَ بنِ الخطَّاب برعيته.

* ومنْ بدائع وروائع أقواله في فَنِّ معاشرة النَّاس قوله: أربعةٌ لا أملّهم أبداً: جليسي ما فَهِمَ عنِّي، وثوبي ما سَتَرني، ودابَّتي ما حَمَلَتني، وامرأتي ما أحْسَنَتْ عشرَتي.

* واسمع لجميلِ حكمتهِ في تَعْريفِ البَلاغَة، والصَّبْر، والسَّخاءِ، والشجاعة، في الخبر التَّالي: قال معاوية لعمروٍ - رضي الله عنهما -: ما البلاغة؟.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٦٨).

قال: مَنْ تَرَكَ الفضول، واقتصر على الإيجاز.

قال معاوية: فَمَنْ أَصْبَرُ النَّاس؟

قال عمرو: مَن كان في رأيه رَدّاً لهواه.

قال: فمن أسخى النَّاس؟.

قال: مَنْ بَذَلَ دنياه في صَلاحِ دِيْنِه.

قال: فمن أشجع النَّاس؟

قال: مَنْ ردَّ جهله بحلمه[1].

* وقد سجَّلتْ كُتُبُ المصادر كثيراً منْ فرائد الحكم، ودرر الكَلام لعمرو ابن العاص ـ رضي الله عنه ـ مِنْ ذلك قوله: ليس العاقلُ الذي يعرفُ الخير منَ الشرّ، ولكنَّه الذي يعرفُ خير الشَّريْنِ؛ وليس الواصلُ الذي يَصِلُ مَنْ وَصَلَهُ ولكنَّه الذي يَصِلُ مَنْ قَطَعَه[2].

* ومنْ نفيسِ أقواله هذه الدُّرة: عجبتُ مِنْ الرَّجُل يفرُّ منَ القَدَرِ، وهو مُواقعه. ومنَ الرَّجُل يرى القَذَاة في عَيْنِ أخيه ويدع الجذعَ في عينه. ومن الرَّجل يُخرج الضّغن من نفسي أخيه، ويدع الضّغن في نفسه. وما تقدمتُ على أمْرٍ فَلُمْتُ نفسي على تقدُّمي عليه، وما وضعتُ سِرِّي عند أحد فلُمته على أن أفشاه، وكيف ألومه وقد ضِقْتُ به!!.

* وكان عمرو ـ رضوان الله عليه ـ بالإضافةِ إلى حكمته النَّثرية، كانَ يصوغُ الحكمةَ شِعْراً؛ قال عنه ابنُ سيّد النَّاس ـ رحمه الله ـ: كان عمرو بن العاص من فرسان قريش، وأبطالهم في الجاهلية، وكان شاعراً مُحْسِناً[3]، من شعره قوله:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٩/ ٢٥١ و٢٥٢).
(٢) المصدر السابق.
(٣) منح المدح (ص ٢٠١).

إذا المـرءُ لـم يتـركْ طَعَـامـاً يحبُّـه
ولـم يَعْـصِ قَلْباً غـاويـاً حيثُ يمَّما

قضـى وَطَـراً منـه يَسيـراً وأصبحـتْ
إذا ذكـرتْ أمثـالهـا تمـلأُ الفَمَـا[1]

* وشِعْرُ عمرو كثير متناثرٌ في بطونِ كُتُبِ السِّيرةِ والتُّراث، من ذلك ما أورده ابن سيِّد النَّاس - رحمه الله - من أنَّ رسولَ الله ﷺ ولّاه عُمان، فلم يزلْ عليها حتى قُبضَ ﷺ، ومنْ شعرِ عمرو بن العاص يخاطب قُرَّة بن هُبيرة القشيريّ عند رجوعه منْ عند جيفر وعبد ابني الجلندي بعد موت النَّبيِّ ﷺ، وقد أشارَ عليه أنْ يسمحَ للعربِ في ترك الزَّكاة:

يَـا قُـرُّ إنَّـكَ لا محـالـةَ ميـتٌ
يـومـاً وإنَّـك بعـد مَـوْتٍ راجـع[2]

ليـسَ الخليفـةُ تـاركـاً صـدقـاتكـم
مـا دام سَلْـعٌ والبنـاء وفَـارع[3]

إنْ كـان أودى بـالنَّبـيِّ محمَّـد
صلـى الإلـه عليـه دهـرٌ فـاجـعُ

فـالله حـيٌّ لا يمـوت وديننـا
ديـن النَّبـيِّ وللجنـوب مصـارعُ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٩/ ٢٥٢) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٥٨) وقد أورد له ابن عساكر بعضاً من شعره.

(٢) «يا قرّ»: قر: ترخيم قرّة.

(٣) «سلع»: اسم جبل بالمدينة مشهور.

«فارع»: اسم حصن بالمدينة المنورة، وقد ذكرت محققة كتاب «منح المدح» أن سلع والبناء وفارع: أسماء جبال، والصَّحيح أنَّ «فارع» هو حِصنٌ لحسان بنِ ثابت - رضي الله عنه - وهو مشهور، وقد ذكره حسَّان في شعره فقال:

أرقـتُ لتـو مـاضِ البروق اللوامـع ... ونحـنُ نشـاوى بيـن سلـع وفـارع

(ديوان حسان ص ٢٧٨) وانظر مادة فرع في معجم البلدان.

إنَّ التـي منَّتْـك نفسـك خـالبـاً

مما تـؤملـه سَـرَاب لامـع[1]

* ومن بدائع شعره قوله يتحسّر، وقد توفيَ رسولُ الله ﷺ وهو بعيدٌ لم يره:

يـا ليتنـي أبصـرتُ وجْـه محمّـد

قَبْـلَ الممـاتِ وشلّـتِ الكفّـانِ

أو ليتنـي لـم أبـقَ بعـد وفـاتـه

ذهـب القضـاء بمنيـةِ الإنسـانِ

إنْ كـان قـد مـاتَ النَّبـيُّ فـدينُنـا

دِيـن النَّبـيِّ ومـا هـداه هـداني

كـانَ النَّبـيُّ أمـانـةً مضمـونـةً

فِينَـا إلـى أجَـلٍ وحَـدَّ أوانِ

فـارتـدّهـا مَـنْ كـان يملـكُ ردّهـا

هـذا لعمـر أبيـك فـي الفُـرقـان[2]

* ومن أقواله التي ذهبتْ مَثَلاً ما وَرَدَ عنه أنَّه قال لابنهِ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: يا بُنيَّ! سُلطانٌ عَادِلٌ خيرٌ منْ مطرٍ وابل، وأسدٌ خَطومٌ خيرٌ من سُلطان ظلوم، وسلطانٌ غشوم ظلومٌ خيرٌ منْ فِتْنَةٍ تدوم؛ يا بنيَّ! الرّجل عظْمٌ يجبر، وزلّة اللسان لا تبقي ولا تذر؛ يا بني! استراح مَنْ لا عَقْل له. فأرسلها مثلاً.

* ولنختمْ هذه الفِقْرة بهذه الحكمة النَّفيسة، والدرة المتألقة: قالَ الأصمعيُّ: قالَ عمرو بن العاص لمعاويةَ بنِ أبي سُفْيان ـ رضي الله عنهما ـ يا أمير المؤمنين! لا تكونن لشيء منْ أمْرِ رعيتك أشدّ تعهداً منك لخصاصة

(١) انظر: منح المدح (ص٢٠١ و٢٠٢) و«خالباً» من خلب: بمعنى خدع، وكذب.

(٢) انظر: منح المدح لابن سيد الناس (ص ٢٠٢).

الكريم حتى تعمل في سَدِّها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قَمْعِهِ، واستوحش منَ الكريم الجائع، ومن اللئيم الشَّبعان، فإنَّ الكريمَ يصولُ إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع.

خَالِدٌ مَعَ الخَالِدين:

* ونحنُ في رِحْلةٍ شَائقةٍ معَ الخالدينَ، ومع عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ نتذكر أنَّه بالإضافة إلى فروسيَّة وجهاد عمرو، كانَ مِنْ حُفَّاظِ الحديث النَّبويِ الشَّريف.

* رُوي له عنْ رسولِ الله ﷺ سبعة وثلاثون حديثاً؛ اتَّفق البخاري ومسلم على ثلاثة أحاديث منها، وانفرد البخاريُّ بحديث، ومُسْلِم بحديثين[١].

* روى عنه: ابنه عبد الله، وقَيس بن أبي حازم، وعروة بن الزُّبير، والحسن البصريّ، وغيرهم كثيرون[٢].

* أمّا رحلته إلى الله عزَّ وجلَّ، فكانت بمصرَ في سَنَةِ (٤٣ هـ). قال يحيى بن بُكير: توفي عمرو بن العاص بمصرَ سنة ثلاث وأربعين، ودُفِنَ يوم الفِطْر، وصلَّى عليه ابنه عبد الله[٣].

* توفي عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ عن بضعٍ وثمانين سنة[٤]، كانت حافلة بالفُتوحات، والانتصارات، والفروسيَّة، والعلم.

* وفي أخبارِ وفاته رُوِيَتْ أقوالٌ كثيرة، وكلّها أجمعتْ أنَّه توفي وهو يقول: لا إله إلا أنتَ، لا إله إلا أنْتَ[٥].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣١) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٥٥).
(٢) المصدران السابقان.
(٣) انظر: مجمع الزّوائد للبيهقيّ.
(٤) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٧٧).
(٥) انظر مثلاً: تهذيب الأسماء واللغات للنّوويّ (٢/ ٣٠) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٧٦) وغيرهما من المصادر المتعددة.

❋ رضي الله عنْ عمرو بنِ العاص، وأدخله برحمتهِ في عبادهِ الصَّالحين، فقد كان بطلاً فارساً، وعبقرياً حازماً، حَسَنَ الإيمان، بصيراً بالحرب، وأخباره حافلة بالفتوحات الواسعة.

❋ ❋ ❋

(١٤)

المقداد بن عمرو

ـ رضي الله عنه ـ

دعا ﷺ للمقداد فقال: «اللهم! أَغْنِ المقدادَ من فضلك».

مِنَ السابقين الأَوَائِــلِ:

* التَّسابقُ في مَيْدان الفَضَائل شيءٌ محمودٌ، فكيفَ إذا سَجَّل الإنسانُ فضيلةً في سجلِّ الأَوَّليَّات؟!.

* إنَّ فارسنا اليوم، واحدٌ ممنْ سجَّلُوا أَوَّليات ميمونة على صفحاتِ التَّاريخ الأغر الأزهر.

* وَرَدَ أنّه كان مِنْ أَوَّلِ الذين أظهروا إسلامهم بمكةَ المكرمة، وكانوا سبعة نَفَر: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمّه سميَّة، وصُهيب، وبلال، وضيفنا اليوم المقداد بن عمرو بن ثعلبة القُضاعيّ الكندي البهراني[(١)] المشهور بالمقداد بنِ الأسود؛ لأنَّه رُبِّيَ في حجرِ الأسود بن عبد يغوث الزُّهريّ، ويقال: لأنَّه حَالَف الأسود الزُّهري.

* وذكر أنَّ المقدادَ كان أَوَّل مَنْ عَدَا بِهِ فرسه في سبيلِ الله تعالى.

* وقالوا: أوَّل مَنْ قاتل على ظهرِ فرسه المقداد بن الأسود.

* وقالوا: أوّل مَنِ استجابَ لداعي غزوة ذي قَرَد المقداد بن الأسود.

* وما دمنا في ذكْرِ الأوائل، فلنستمعْ إلى ما قيل في هذا المجال الكريم المبارك، قالوا:

أوّلُ مَنْ أفشى القرآن بمكةَ في زمنِ النَّبيِّ ﷺ عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

وأوّل مَنْ بنى مسجداً يُصلّى فيه عمّارُ بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ.

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ١٦١ ـ ١٦٣) وتاريخُ خليفة (ص ٦١ و٦٧ و١٦٨) والمعارفُ (ص ٢٦٣) والمستدرك (٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٣) وحلية الأولياء (١/ ١٧٢ ـ ١٧٦) والاستيعاب (٣/ ٤٥١ ـ ٤٥٥) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٠٧ ـ ٢٢٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ١١١ و١١٢) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩) والعقد الثمين (٧/ ٢٦٨ ـ ٢٧٢) وتهذيب التهذيب (١٠/ ٢٨٥) والإصابة (٣/ ٤٣٣ و٤٣٤) والفتوحات الربّانية على الأذكار النّواوية (٥/ ٢٥٢ و٢٥٣) وغير ذلك من المصادر الحديثيّة، والتّاريخية، والأدبية.

وأوَّلُ مَنْ غزا في سبيلِ الله عزَّ وجل المقداد بنُ عمرو ـ رضي الله عنه ـ.

وأوَّلُ مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله عزَّ وجلَّ سعدُ بنُ أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

وأوَّلُ مَنْ قُتِلَ منَ المسلمين مِهْجَعُ مولى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وأوَّلُ مَنْ بايعَ تحت الشجرة بيعة الرضوان أبو سنان بن وهب ـ رضي الله عنه ـ.

وأوَّلُ مَنْ رفعَتْ له راية الإسلام عبدُ الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ(١).

* والمقداد ـ رضي الله عنه ـ قديم الإسلام والصُّحبة، ومنَ السَّابقين إلى ساحةِ الإسلام، ومنَ المهاجرين الأوّلين، وممن هاجر الهجرتين: الهجرة الثَّانية إلى الحبشة، وإلى المدينة المنوَّرة.

* وَصَفَهُ ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ في «الاستيعاب» فقال:

كان المقدادُ ـ رضي الله عنه ـ منَ الفضلاء النُّجباء الكبار الخيار منْ أصحاب النَّبيِّ ﷺ.

* وأَجْمَلَ الرُّواة صِفتَه نَقْلاً عن ابنته كريمة بنتِ المقداد التي قالت: كان أبي المقداد أسمرَ، طويلاً، ذا بطن، كثيرَ شَعْرِ الرَّأس، أعينَ، مقرونَ الحاجبين، أقنى، وكان يصفِّرُ لحيته، وهي حَسَنَة، ليست بالعظيمة ولا بالخفيفة، وكان مهيباً جليلاً ـ رضي الله عنه ـ(٢).

* وكان المقداد بنُ عمرو ـ رضي الله عنه ـ أحدَ وُعَاة العلْم، وحفظة المعرفة، فهو واحدٌ منْ حَفَظَة حديث رسول الله ﷺ، رُوي له (٤٢ حديثاً)

---

(١) هذا مجال طويل، وبحث مستفيض، ولكنِّي أحببتُ أنْ أشيرَ إلى بعضِ الأوّليات في عصر النُّبوّة.

(٢) انظر: المستدرك (٣/ ٣٩٢) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٠٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٦) مع الجمع. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٦٣) والإصابة (٣/ ٤٣٤).

وأحاديثه منثورةٌ في كُتُبِ الحديث السّنة: في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وفي كتب السُّنَن الأربعة: النَّسائي، والتِّرمذي، وأبي داود، وابن ماجه، وكذلك في مُسند الإمام أحمد، ومسند أبي يعلى المَوْصلي، وغير ذلك.

* له حديث واحد في الصَّحيحين[1]، بينما انفردَ له الإمام مسلم بثلاثةِ أحاديث[2]. روى عنه من الصَّحابة: عليّ بن أبي طالب، وعبدُ الله ابن مسعود، وعبدُ الله بن عبّاس، والسَّائب بن يزيد، وسعيد بن العاص وغيرهم. وروى عنه خلائق من التَّابعين منهم: عُبيد الله بن عديّ، وعبد الله ابن أبي ليلى، وجُبير بن نفير، وغيرهم[3].

الفَارِسُ المُجَاهِدُ وحُبُّه للجِهَاد في سبيل الله:

* قبل أنْ نقفَ وقفةً عطرة مع المقداد في مغازيه مع سيِّدنا رسول الله ﷺ، لا بُدَّ وأنْ نعرفَ رأيه في موضوعِ الجهاد، ورأيه في المجاهدين.

فقد كان المقداد بن عمرو ـ رضوان الله عليه ـ يرى أنَّ الجهادَ فرضَ عينٍ على أي حال، وفي جميع الأزمان، وكان كذلك عدد من الصَّحابة الكرام، ومنْ فرسانِ الرَّسُول ﷺ يَرَوْنَ أنَّ الجهادَ فرض عين[4]، ويستدلُّون بقولِ الله

---

(1) أورده الإمام البخاريّ في المغازي برقم (٤٠١٩) باب: (١٢). والإمام مسلم في الإيمان برقم (٩٥) باب: تحريم قتل الكافر بعد أنْ قال لا إله إلا الله.
(2) أخرجها الإمام مسلم في الأشربة برقم (٢٠٥٥) باب: إكرام الضَّيف وفضل إيثاره. وفي الجنَّة برقم (٢٨٦٤) باب: في صفة يوم القيامة. وفي الزُّهد من طريقين مع اختلاف بعض الألفاظ برقم (٣٠٠٢) باب النَّهي عن المدح.
(3) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١١٢) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٦).
(4) الجهادُ في الإسلام منَ الفُروض الكفائية، وذلك عند جُمهور أهلِ العلم والفُقهاء مِنَ السَّلف والخلف، ومعنى هذا أنّه إذا قام به مَنْ يكفي في دَفعِ غائلة الأعداء، ونَصر الإسلام، سَقَطَ عنِ الباقين، ولا يكونون آثمين، وإنْ لم يَقُم به مَنْ يكفي، أثمتِ الأمّة كلُّها، ولا يرتفعُ هذا الإثم إلا بخروجِ مَنْ فيهم الكفاية، ولو أدّى ذلك إلى تجنيدِ الجميع. والدَّليل على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في محكمِ التَّنزيل: ﴿ ۞ وَمَا=

عزَّ وجلَّ على ذلك: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١][1] أي: انفرُوا شباباً، وشيباً، ورجالاً، ورُكْباناً، وأغنياءَ، وفقراءَ، وأقوياءَ، وضعفاءَ، وكان يرى هذا الرأي: السَّادة الأخيار، الأطهار الأبرار، الفرسان الشُّجعان: المقداد بن عمرو، وأبو أيُّوب الأنصاري، وأبو طلحة الأنصاريّ.

* هذا؛ وقد لازمتْ رغبةُ الجهادَ المقداد بن عمرو ـ رضوان الله عليه ـ إلى أنْ طَعَنَ في السِّنِّ، واشتعل رأسُه شيباً، إلا أنَّ همَّتَه ظلَّتْ تشتعلُ حماسةً، وحُبّاً للفروسيَّةِ والجهاد، وقد وَرَدَ عن المقداد أنَّه كان كثيراً ما ينشد:

أنـا الفـارسُ المشهـورُ فـي كـلِّ مـوطـنٍ
ونــاصــرُ ديْــنِ للنَّبــيِّ مُحمَّــدِ

* روى ابنُ جرير الطبريّ ـ رحمه الله ـ عن أبي راشد أنَّه رأى المقدادَ بن الأسود فارسَ رسولِ الله ﷺ بحمصَ يريدُ الغزو ـ وكان شَيخاً كبيراً هِمّاً، قد سَقَطَ حاجِبَاه على عينيه ـ فقال له: لقد أَعْذَرَ الله تعالى إليك، فقال: أبتْ علينا سورة البُعُوث[2]. يريد هذه الآية: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ من سورة التَّوبة[3].

= ﴿ كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ويعني هذا أنَّ المؤمنين ما كانوا لينفروا إلى الجهاد جميعاً، بل لتنفرَ طائفة، ولتقمْ طائفةٌ معَ رسولِ الله ﷺ ليتفقَّهوا في الدِّيْنِ، ويتلوا القرآن الكريم، حتى إذا عادَ النافرونَ، أعلمهم المقيمون ما تعلَّموه منْ أحكام الشَّرع، وما تجدد نزوله على رسول الله ﷺ من القرآن، وما سمعوه من الحديث.

(١) «خِفافاً وثقالاً»: على أية حال كنتم.

(٢) وقد وَرَدَ في بعضِ المصادر: سورة البحوث؛ بدلاً مِنَ البعوث. وسورة البحوث هي «التوبة» سُمِّيت بذلك لما فيها من البحثِ عن المنافقين، وكَشْفِ أسرارهم.

(٣) منْ لطائفِ الأخبارِ المفيدة أنْ نشيرَ إلى أنَّ سعيد بنَ المسيب ـ وهو منْ علماء التَّابعين، وأسيادِ العُلماء، ومنْ فقهاء الزُّهاد، وأعلام المجاهدين في عصر التَّابعين ـ كان يرى رأي المقداد نفسه في فَرْضيَّةِ الجهاد؛ فقد ذكر ابنُ كثير والبغوي =

Scanned by CamScanner

* ولقد كان المقداد ـ رضوان الله عليه ـ وسادات فرسان الصَّحابة يدركون الثَّوابَ الكريمَ؛ الذي أعـدَّهُ الله عزَّ وجلَّ للمجاهدين في جميع خطواتهم، وتحرّكاتهم.

* فحركاتُ المجاهدينَ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وسَكَناتهم، ورجوعُهم، وظمَؤُهُمْ، وتعبُهم، ونفقاتُهم صَغُرت أمْ كَبُرت، وإغاظتهُم الكفّار بأيِّ نوع منْ أنواعِ الأذى المشروعِ الذي يلحقونه بهم، كلّ ذلك يكتبه الله لهم عَملاً صالحاً، ويجزيهم أحْسَنَ ما كان يعملون.

* وكان المقداد وأقرانه يعرفونَ تمامَ المعرفة أنَّ الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ هو التِّجارة الرَّابحة الميمونة، وهذه التِّجارة هي التي يتمناها أولياء الله المجاهدين؛ لتوصلهم إلى رضا ربِّهم، ورأسمالها الإيمان بالله عزَّ وجلَّ ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وربحها غفران الله سبحانه، ودخول الجنَّات التي تجري من تحتِها الأنهارُ، فهل هناك تجارة أكثر رِبحاً[1] منَ التِّجارة التي تكونُ مع الله عزَّ وجلَّ؟!

لذلك نجد المقداد بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قد عَقَدَ العَزْمَ على سلوكِ هذه السَّبيل منذُ اللحظات الإيمانيَّة الأولى في حياته، وسنرى ـ بإذن الله ـ بعضَ

= ـ رحمهما الله ـ في تفسيريهما نقلاً عن الإمام الزُّهريِّ ـ رحمه الله ـ قال: خرجَ سعيدُ بنُ المسيّب إلى الغزوِ، وقد ذهبتْ إحدى عينيه، فقيل له: إنّك عليلٌ، صاحب ضُرٍّ!
فقال: استَنْفَرَ الله الخفيفَ والثَّقيل، فإنْ لم يمكنِّي الحربَ، كَثَّرْتُ السَّواد، وحفظتُ المتاع.

(١) المجاهدون في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ فائزونَ على كلِّ حالٍ منَ الأحوال، إنِ انتصروا على عدوِّهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، نالوا أجْرَ قتالهم، وعزّوا، وذلّ الكفّار، فكانت حسنى لهم، وإن كانت الأخرى، فقتلوهم في سبيل الله عزَّ وجلَّ، نالوا وسام الشَّهادة التي لا يعطيها الله عزَّ وجلَّ إلا من اصطفاه من عباده، فكانت أعظم الحسنيين.
فإذا كان الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل هذه حاله فوز على كل حال، فأي فَضل يوازي هذا الفضل؟! وأي خير يوازي هذا الخير المبارك؟!

مواقفِهِ العطرة؛ التي تغمرها فيوضات الإيمان باللهِ عزَّ وجلَّ، وتعززها دعائمُ حبِّ الشَّهادة والاستشهاد في سبيل الله تعالى.

تَألُّقُ الفارس المقْدَاد يومَ بَــدْرٍ:

* للمقداد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ موقفٌ متألِّقٌ منيرٌ في يومِ بدر، حيثُ خرجَ رسولُ الله ﷺ ومعه ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، من بينهم المقداد حيثُ كان يمتطي صهوةَ جواده من بين جميع أهلِ بدر. ولقد شهدَ أحدُ الفُرسان الأبرار الأخيار للمقداد بذلك؛ قال عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ:

ما كان فينا يوم بَدْر فارسٌ غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلِّي ويبكي حتى أصبح(١).

* كان المقدادُ يركبُ فرساً له يُقال لها سَبْحة(٢)، وكان مع المشركين يوم بدر مئة فرس.

* وقبل بدايةِ المعركة أخذَ رسولُ الله ﷺ في استشارةِ أصحابه الكرام، فالشُّورى قاعدةٌ سليمةٌ يرتكزُ عليها نجاح القائد وجنوده في مهمَّتهم، وقد أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها رسوله في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قد طبَّقَ رسولُ الله ﷺ هذه القَاعدة العظيمة عَمَليّاً مع أصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ في مواقفَ متعددةٍ، ومنها يوم بدر، حيثُ استشار أصحابه في أمورِ المعركة وقتال المشركين.

* وعندئذ قام شيخُ الصَّحابة أبو بكرالصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فقالَ وأَحْسَنَ الكلامَ، ثمَّ قام عمر الفاروق، فقالَ وأَحْسَنَ الكلام، وبعد ذلك قام المقدادُ بنُ عمرو ـ رضي الله عنه ـ وأعربَ عن رأيهِ بكلمتهِ المشهورة التي ملأتْ أذنَ التَّاريخ، بل أذن الدُّنيا، وعطَّرَتْ صحائف السِّيَر، وكتب التُّراث،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢١٢).

(٢) قيل: كان مع المسلمين يوم بدر ثلاثة أفراس: فرسٌ عليه المقداد، وفرسٌ عليه مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وفرسٌ عليه الزُّبير بن العوام.

والمصادر الحديثيّة بشذاها، وزيّنَتِ المجالسَ بصدقها وعمقها، تقدَّمَ المقدادُ منْ رسولِ الله ﷺ وقال:

يا رسول الله! امْضِ لما أراكَ الله، فنحنُ معك، والله! لا نقولُ لكَ كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنّا نقول: اذهب أنتَ وربّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون[١].

* وفي روايةِ البُخاري في صحيحه: ولكنْ نقاتلُ عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلْفك، فوالذي بعثك بالحقِّ! لو سرتَ إلى بَرْكِ الغِمَاد[٢] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

وأشرقَ وجْهُ رسولِ الله ﷺ وسُرَّ[٣] لذلك وأعجبته مقالة المِقْداد، فقال له

---

(١) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٢٣٩).

(٢) «بَرْك الغماد»: «بَرك» بفتح الباء، و«الغِماد» بكسر الغين، موضع على خَمْس ليال من مكة في طريق اليمن.

(٣) وكيف لا يُسرُّ رسولُ الله ﷺ بهذه المواقفِ المشرقةِ المشرِّفة الوضيئة الصَّادقة؛ التي مبعثها الإيمانُ السَّليم؛ الذي لا يَعْرِفُ الضَّعفَ، ولا يعرف الاستخذاء، والذي ظهرتْ ثمراتهُ اليانعةُ في كلماتٍ طيبةٍ مؤمنةٍ مباركةٍ، تلك التي كشَفَتْ عن معدنِ العربِ الأصيل، هؤلاء العرب الأقحاح؛ الذين استجابوا لله والرَّسول، ثمّ إنَّ تلك المواقفَ العطرةَ أبانت الفرقَ الشَّاسع ما بين موقفِ اليهود في نبيهم موسى عليه السَّلام، وموقف العرب المسلمين من نبيهم محمَّد ﷺ، فأمَّا المؤمنون فكانوا صَادقين في هذا الموقف الدقيق، وظهر بذلك نَفَاسة معدنهم الثَّمين الكريم الطَّيب؛ وأمَّا اليهود فقد ظهر معدنهم الخبيث، وبَدَتْ نذالتُهم أمام نبيهم موسى عليه السَّلام حسبما ذكرَ القُرآن الكريم، وحسبما قصَّ علينا أحْسَنَ القَصصَ في ذلك كما وَرَدَ في العديد من سُوَرِهِ الكريمة.

ويمكننا أنْ نقولَ الآن:

إنَّ تلك الاستشارة النّبوية للصَّحابة الكرام، إنّما هي اختبارٌ لإيمان المسلمين، ومقدار استعدادهم للقتالِ والجلاد والفروسيَّة، والتَّضحية في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وفي سبيلِ الإسلام الحنيف.

هذا؛ وقد أسْفَرَ هذا الامتحانُ المبارك الميمونُ عن نجاحٍ باهرٍ يفوحُ بأطيبِ الطِّيبِ، ودلَّل المقدادُ بنُ عمرو والصَّحابةُ الكرام - عليهم سحائب الرضوان - على أنّهم أهْلٌ =

رسولُ الله ﷺ خيراً، وَدَعَا له[1].

* وكانَ لهذهِ الاستشارة منْ رسولِ الله ﷺ، وهذه العواطف النّبيلة، والحماسة الملتهبة منْ أصحابهِ الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ آثارها العظيمة في سَيْرِ معركة بَدْر بعد ذلك؛ إذ خاضَ المسلمون غمارها، وأبلوا بلاء كريماً، حتى أنزل الله عزَّ وجلَّ نَصْره على رسوله وعلى جنوده؛ وقد رأينا أنَّ المقدادَ ـ رضي الله عنه ـ قد أدلى دَلْوَه في المشاورة، فعُدّ منْ أصحاب العِلْم والدِّرايةِ في فنِّ الجلاد؛ لتخليص العباد من الظلمات إلى النور.

* قال ابنُ قدامة ـ رحمه الله ـ في «المغني»: ويكثر المشاورة لذي الرّأي منْ أصحابه، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2].

* وقال الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ: وكانتِ الأئمةُ ـ رحمهم الله ـ بعد النّبيِّ ﷺ يستشيرون الأُمَناء منْ أهلِ العلم[3].

«اللهُمَّ أَغْنِ المِقْدَادَ مِنْ فَضلكَ»:

* حلَّقَ المقدادُ بنُ عمرو في غزاةِ بدرٍ عالياً، وأظهر منْ ألوانِ الفروسيّة ما جعله منَ الذين شهدت لهم الفُرسان بالبراعةِ والإبداع، حيث استطاع أنْ يأسرَ النَّضْر بنَ الحارث[4] العبدريَّ أعدى أعداء رسول الله ﷺ، وأشدّ أعداء

= لحملِ الأمانة التي عرضها الله عزَّ وجلَّ على السّموات والأرض والجبال فأبين أنْ يحملنها، وحملها هؤلاء الأبرار الأخيار، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده في سبيل تبليغها للناس كافة، فأكرم بها وبجهادهم!

(1) رواه البخاري. وانظر طبقات ابن سعد (٣/ ١٦٢) وأنساب الأشراف (١/ ٢٩٣) والاستيعاب (٣/ ٤٥٣) والمستدرك (٣/ ٣٩٢) والبداية والنّهاية (٣/ ٢٦٢ و٢٦٣).

(2) المغني (٩/ ٢١٥).

(3) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنّة، باب قوله الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فتح الباري (١٣/ ٣٣٩).

(4) اقرأ سيرة هذا المجرم الفاجر في كتابنا «المبشّرون بالنار» (٢/ ١٨٩ ـ ٢١١) لكي تعرف مدى صَبْر رسول الله ﷺ على أذى هؤلاء الأشرار الفجار، ولكي تدرك عظمة دين الله عزَّ وجلَّ.

المسلمين نكاية بهم.

* لقد وقَعَ النَّضْرُ أسيراً بيَدِ المقداد، كما أُسِرَ معه زعيم الشَّرّ والأَشْرار عُقْبة بن أبي مُعَيْط[1]، وكان هذان الخبيثان من شرّ عَبادِ الله تعالى، وأكثرهم كُفْراً وعناداً؛ ولذلك أمرَ رسولُ الله ﷺ بإعدام هذَيْنِ الأسيرَيْن المجرمَيْن، وقتلهما بالسَّيف جزاءً وفاقاً.

* كان النَّضْرُ بنُ الحارث أسيرَ المقداد، وكان المقدادُ - رضي الله عنه - يطمعُ أنْ ينالَ في فدائهِ مَالاً كثيراً، فلمَّا همُّوا بقتله صاح المقداد: النَّضْرُ أسيري! فقالَ رسولُ الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: «اضربْ عُنُقَه». ثمَّ إنَّ رسولَ الله ﷺ دعا للمقداد فقال: «اللهم أغْنِ المقدادَ من فضلك»[2].

* واستجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعاء رسول الله ﷺ في المقدادِ، وأغناه مِنْ فَضْله، فيما روته زوجه ضباعة بنتُ الزُّبير[3] - رضي الله عنها - قالت: خرجَ المقدادُ بنُ عمرو - رضي الله عنه - ذاتَ يوم حتى أتى بقيعَ الغَرْقَد، فدخل خربة لحاجته، فبينما هو جالسٌ، إذ أخرج جُرذٌ من جُحر ديناراً، فلم يزلْ يخرجُ ديناراً ديناراً حتى أخرج سبعة عشرة ديناراً، ثم أخرج الجرذ خِرقةً حَمراءَ!

قال المقدادُ: فقمتُ فأخذتها، فوجدتُ فيها ديناراً، فتمّتْ ثمانيةَ عشرَ ديناراً، فأخذتُها، فخرجتُ بها حتى جئتُ بها رسولَ الله ﷺ، فأخبرتهُ خبرَها، فقال: «هل أتْبَعْتَ يدكَ الجُحْرَ؟».

---

(1) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشّرون بالنّار» (١/ ١٧٣ - ١٩٦) ولاحظْ مدى إغراقه في العناد والسخرية، ولاحظ كذلك عظمة رسول الله ﷺ في صبره أمام هؤلاء الأشرار المفسدين.

(2) انظر: أنساب الأشراف (١/ ١٤٣) بشيء من التصرف.

(3) اقرأ سيرة ضُباعة بنت الزُّبير في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/ ١٤٣ - ١٥٣) وهي ابنة عمّ رسول الله ﷺ، وقد زوَّجها رسول الله ﷺ المقداد، وكان بها من الجمال والعقل التام مع قرابتها من رسول الله ﷺ، وكان زواجاً ميموناً مقروناً بالسعادة، وهل أجمل من اختيار رسول الله ﷺ؟!

قال المقداد: لا، والذي بعثَك بالحقِّ!

فقال ﷺ: «لا صدقة فيها، بارك الله لك فيها».

قالت ضُباعة بنت الزُّبير ـ رضي الله عنها ـ: فما فني آخرها حتى رأيتُ غَرائرَ الفضَّة في بيتِ المقداد ـ رضي الله عنه ـ[1].

مِنْ مآثِرِ المِقْدادِ وفَضَائِله الجمَّة:

* المقدادُ ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ مِنْ فرسانِ الرَّسولِ ﷺ، فقد شهدَ بدراً، وأُحُداً، والخندق، والمشَاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ[2]، وكان مِنَ المُسارعين إلى مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ، ومرضاةِ رسولِه ﷺ. فقد كان له موقفٌ مُشرِّف يوم غزوة الغابة[3]، ويوم المسير إلى فتحِ مكة[4]. فلمَّا فتحَ رسولُ الله ﷺ مكةَ، كان الزُّبير بن العوَّام على المجنبةِ اليُسرى، وكان المقداد بن الأسود على المجنبةِ اليُمنى، فلمَّا دخلَ رسولُ الله ﷺ مكةَ، وهدأ النَّاس جاءا بفرسيهما، فقامَ رسولُ الله ﷺ يمسحُ الغبار عن وجههما بثوبه ثمَّ قال: «إنِّي جعلتُ للفرسِ سَهْمَيْن، وللفارسِ سَهْماً، فمَنْ نقصهما نقصه الله»[5].

* هذا وكان المقدادُ ـ رضوان الله عليه ـ أحدَ الرُّماة المذكورين المشهورين منْ أصحاب رسولِ الله ﷺ، ومنَ الجدير بالذكر أنَّ بضعةَ فرسان من الصَّحابة الكرام اشتهروا بالرِّماية، فقد كانَ الرُّماة المذكورون منْ أصحابِ رسول الله ﷺ أيضاً: سعدَ بن أبي وقاص، والسَّائبَ بنَ عثمان بن مظعون، وزيدَ بن حارثة، وحاطبَ بنَ أبي بلتعة، وعُتبةَ بن غزوان، وخراش بنَ

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢١٩) بشيء من التصرف. وانظر: دلائل النبوّة للأصبهانيّ (٢/ ٥٩٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٦٢).
(٣) يراجع ذلك في السيرة النبوية لابن هشام وكذلك في كتب الصَّحيح، وستجد تفصيل ذلك بين ثنايا هذا الكتاب.
(٤) يراجع ذلك في السيرة النبوية لابن هشام وكذلك في كتب الصَّحيح، وستجد تفصيل ذلك بين ثنايا هذا الكتاب.
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢١٤).

الصِّمَّة، وأبا طلحة الأنصاريّ، وقُطبةَ بنِ عامر، وبِشرَ بنَ البراء بن معرور، وأبا نائلة سلكانَ بنَ سلامة، وعاصمَ بن ثابت بن أبي الأقلح، وقتادةَ بنَ النُّعمان الظَّفري[(١)].

* ومن فضائلِ المقداد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قد أمّرهُ على سريةٍ، ولكنَّ المقداد لم يرغبْ في الإمارة، فقد أخرجَ أبو نُعيم ـ رحمه الله ـ في الحليةِ عنِ المقداد ـ رضي الله عنه ـ قال: استعملني رسولُ الله ﷺ على عَمَلٍ، فلمَّا رجعتُ قال: «كيف وجدتَ الإمارة؟».

قلتُ: يا رسول الله! ما ظننتُ إلا أنَّ النَّاس كلَّهم خَوَلٌ لي، واللهِ لا أَلِي على عَمَلٍ ما دُمْتُ حيّاً[(٢)].

* ومناقبُ المقداد ـ رضي الله عنه ـ كثيرة جدّاً، لا تُحصر ولا تُحصى، ومنْ جليلِ مآثره أنَّه شَهِدَ معركة اليرموك، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان القارىء يوم اليرموك المقداد نفسه، ومن السُّنَّة التي سَنَّ رسولُ الله ﷺ بعد بدر أنْ تُقْرأ سورةُ الجِهاد[(٣)] عند اللقاء ـ وهي سورة الأنفال ـ ولم يزلِ النَّاسُ بعد على ذلك.

* وشهدَ المقدادُ كذلك الجابيةَ مع عمر بن الخطاب، وحظيَ بدعوةٍ مباركةٍ منْ رسولِ الله ﷺ وهي: «اللهم أطعمْ مَنْ أطعمني، وأَسْقِ مَنْ أسْقاني»[(٤)].

---

(١) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٣٢٣).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٧٤) وانظر: المستدرك (٣/ ٣٩٣) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢١٤).

«خول»: أتباع، وخَدَم، وعبيد.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٨).

(٤) رواه مسلم في الأشربة برقم (٢٠٥٥) باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره، واقرأ قصة الحديث كاملة في صحيح مسلم في رقم الحديث السابق، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٠٨ و٢٠٩).

* هذا؛ وقد شَهِدَ المِقْدادُ بنُ عمرو ـ رضي الله عنه ـ فَتْح مصر[1]، وله هنالك المقامات المشهودة، والبلاءُ المحمود، وفي بداية إحدى المعارك أراد المسلمون أنْ ينهضوا إلى العدوِّ، فأخذ المقداد يترنَّمُ بهذه الأبيات التي تبعثُ الحماسةَ في النُّفوس، وتشيرُ إلى فروسيته فقال:

أَنَـا المِقْـدادُ فـي يـومِ النّـزَالِ أبيـدُ الضِّـدَّ بـالسُّمـر العـوَالـي

وسيفـي فـي الـوغـى أبـداً صَقِيْـلٌ طَليـقَ الحَـدِّ فـي أَهْـلِ الضَّـلالِ

معـي مِـنْ آلِ كنـدةَ كـلّ قَـرْمٍ[2] يجيـدُ الطَّعـنَ فـي يـومِ النِّـزالِ

فيـاويـل العِـدَا والـرُّوم منّـا إذا التحـمَ الفَـوارِسُ فـي القتـال

وهـم صـرعـى كـأعجازِ لنَخْـلِ يبقّعهـا[3] الفَـوارسُ بـالنِّصـالِ

* وغزا المقدادُ إفريقية مع عبد اللهِ بنِ سَعْد[4] سنة سبع وعشرين من الهجرة النَّبويَّة[5].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١١٢).
(٢) «قَرْم»: هو السَّيِّد المعظَّم.
(٣) «يبقعها»: يُصيبها.
(٤) عبدُ الله بنُ سعد بنِ أبي سرح القرشيّ العامريّ: أحد المجاهدين الذين غزوا الشَّام ومصر، ولما ولي عبدُ الله بنُ سعد مصرَ والمغرب، استأذن عثمان بن عفان في غزو وفتح إفريقية، فكان ذلك، وكان أميراً محموداً. رُوي أنّه بنى بمصرَ قَصْراً كبيراً يُعرفُ بقصرِ الجنِّ في أيام عثمان، وقد أَمَر ببنائه حين خرج إلى المغرب لغزو إفريقية، وحين عاد منْ إفريقية، قال عبدُ الله بن سعد للمقداد بن الأسود الكنديّ: كيف ترى بنيان هذه الدار؟
فقال له المقداد ـ رضي الله عنه ـ: إنْ كنت بنيتها مِنْ مالك فقد أسرفتَ، وإنْ كنتَ بنيتها من مالِ الله فقد أفسدتَ.
فقال عبد الله: لولا أن يقولَ قائلٌ: أفسدَ مرتَيْن لهدمتُها.
ويذكر التاريخ لعبدِ الله بنِ سعد فتحه بلاد تونس، وشرقي الجزائر ـ إفريقية ـ وقبرس، والنوبة ونشره الإسلام في ربوعها، ويذكره التَاريخ تماماً في معركة ذات الصَواري الشّهيرة.
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٠٩).

* وتروي المصادرُ خَبَراً لطيفاً يشيرُ إلى مكرمةِ المقداد، وإلى فَضْلِهِ فتقول:

كان المقداد بن الأسود في سرية، فحصرهم العدو، فعزم الأمير ألاَّ يَحْسُرَ أحدٌ دابَّته، فَحَسَرَ رجلٌ دابته، لم تبلغهُ العزيمة، فضربَه، فرجع الرَّجل وهو يقول: ما رأيتُ كما لقيتُ اليوم قطُّ! فمرَّ على المقدادِ فقال: ما شأنُكَ؟ فذكر الرَّجل له قصَّته؛ فتقلَّدَ المقدادُ السَّيْفَ، وانطلقَ معه حتى انتهى إلى الأميرِ فقال له: أَقِدْهُ من نفسك فأقاده الأمير، فعفا الرَّجلُ، فرجعَ المقدادُ وهو يقول: لأموتنّ والإسلام عزيز[1].

* ولله دَرُّ أبي نُعَيْم إذ أَحْسَنَ وصْفَه، فقال:

السَّابقُ إلى الإسلامِ، والفارسُ يوم الحرب والإقدام، ظهرتْ له الدَّلائل والأعلام، حين عزم على إسقاء الرَّسول عليه السَّلام والإطعام، أعرضَ عن العَمالات، وآثرَ الجهاد والعبادات، معتصماً بالله تعالى منَ الفِتَن والبليّات[2].

* وقال محمّد بن عِلاَّن الصِّدِّيقيّ الشَّافعيّ - رحمه الله -:

كان منْ أجلاء الصَّحابة وفضلائهم وخيارهم، وهو أحد السّتة؛ الذين أظهروا إسلامهم، وأحد الأربعة عشر النُّجباء الوزراء؛ الذين أُعْطيهم النَّبيّ ﷺ كالأنبياء قبله.

* ومن محاسن فَضَائل المقداد وأخباره الوضيئة الفوّاحة بأريج البركاتِ أنْ أثنى عليه الله عزَّ وجلَّ في القُرآن الكريم في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧][3] فقد قيل: إنّه صُهيب بن سنان[4] الرُّومي، وقيل: الزُّبير

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٧٦) ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢١٧).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٧٢).

(٣) «يَشْري نَفْسَه»: يبيعها يبذلها في طاعة الله.

(٤) اقرأ سيرة صُهيب بن سنان في كتابنا: «رجال مبشرون بالجنّة» (١/ ٣١٧ - ٣٤٢)، =

والمقداد[1] ـ رضي الله عنهم ـ.

وَفَــاةُ الفَــارِسِ وَذِكْــرَاهُ:

* عاش المقداد بنُ عمرو ـ رضي الله عنه ـ في ظلالِ الخلافةِ الرَّاشدةِ، يجاهدُ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ويشارك في فتوحِ البُلدان، وشعاره دائماً قول العزيز الرَّحمن: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١][2].

* وفي خلافةِ عثمان ـ رضي الله عليه ـ أدركت المقدادَ الوفاةُ، وكانت وفاتهُ سنة (٣٣ هـ)، وعمرهُ إذ ذاك سبعون سنة[3]، وصلَّى عليه عثمان، وأوصى إلى الزُّبير ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* روتْ ابنته كريمة أنَّ أباه المقداد ـ رضي الله عنه ـ قد أوصى للحَسن والحُسين ـ رضي الله عنهما ـ بستةٍ وثلاثين ألفاً، ولأُمَّهات المؤمنين الطَّاهرات لكلِّ واحدة منهنَّ بسبعة آلاف درهم[4].

* وقيل في سَببِ موته: إنَّه شربَ دُهْنَ الخروع، فمات.

قال ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ: شربَ المقدادُ بنُ الأسود دُهْنَ الخروع فمات؛ ولما مات بكى عليه عثمان بعد موته، فقال الزُّبير بن العوام:

لا ألفينَّــكَ بَعْــدَ المــوتِ تَنْــدبني
وفــي حَيَــاتــي مــا زوَّدتَنــي زَادي[5]

= فقد توسعت هناك في سيرته حول هذه الآية الكريمة.

(١) انظر: التَّعريف والإعلام للسُّهيلي (ص ١٦) وقد أورد ابن الجوزي هذا القول عن ابن عباس، والضحاك.

(٢) «خفافاً وثقالاً»: على أية حالة كنتم.

(٣) قال ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ: كانت وفاةُ المقدادِ ـ رضي الله عنه ـ بالجُرفِ ـ على ثلاثة أميال من المدينة ـ فحُمِل على رقاب الرِّجال حتى دُفن بالبقيع، وصلَّى عليه عثمانُ بنُ عفان سنة ثلاث وثلاثين، وعمره سبعون سنة أو نحوها. (مختصر تاريخ دمشق ٢٥/ ٢٢٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٩) والفُتوحات الرَّبانية (٥/ ٢٥٣).

(٥) هذا البيت لعَبيدِ بنِ الأبرص من قصيدةٍ له، وهو في ديوانه، وهو من الأمثال: =

* ويبقى المقداد في ذاكرةِ الفُرسان والمجاهدين، وفي قلب التَّاريخ، وفي قلوبِ المحبِّين من المُوحِّدين. فرضيَ اللهُ عن المقداد، وأَحْسَنَ نُزُلَه؛ فقد كان من الصحابة الفضلاء، النجباء، الكبار، الخيار.

* * *

----

* يُضرب فيمن يضيع حقّ أخيه في حياته، ثمَّ يبكيه بعد موته.

(١٥)

الأرقم بن أبي الأرقم

ـ رضي الله عنه ـ

كانت داره تُسمّى دار الإسلام، وفيها دعَا رسولُ الله ﷺ للإسلام.

همسات الإيمان الأولى:

* سرى الهمسُ في «أمِّ القرى» بأنَّ النبي محمَّد بنَ عبدِ الله بن عبد المطلب الهاشميّ القُرشيّ، يدعو إلى توحيد الله العزيز الحميد وإفراده بالوحدانية، وبلغتِ الهمساتُ الدَّافئة كثيراً منْ دُوْرِ قريش في مكة المكرمة، وانتشر أريجُ الهمساتِ الإيمانية حتى اخترقَ أعماق دور بني مخزوم بأجمعها، تلك الدُّور التي كانت تطلُّ على الحرم المكيّ من فوق جَبَل الصَّفَا.

* لامستْ نسماتُ الهَمَسات المباركات سَمْعَ فتىً منْ فتيانِ بني مخزوم، فوجدتْ عنده قلباً واعياً. وأذناً صاغيةً لنداءِ الإيمان، فتجاوبتْ نفسهُ مع كلمةِ التّوحيد، ونداء الحق، فنطقَ بالشَّهادتين: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسولُ الله، فأصبح في عِداد المسلمين السابقين.

* كان ذلك الفتى الألمعيّ هو الأرقم بنُ أبي الأرقم المخزوميّ القرشي[1]، الذي استجابَ لله عزَّ وجلَّ، وأيقن باليوم الآخر، ولبَّى هتافَ الحق والصدق لما يُحييه في الدَّارَيْن، فكُتِبَ له الخلود عبر صفحات التاريخ، وكان منَ الذين اختصَّهم رسولُ الله ﷺ بالثِّقةِ، إذِ اتَّخذ داره عند جَبَل الصَّفا، لتكون المدرسة الأولى لتربية الفُرسان والمجاهدين، والمعهد العلمي والعملي لتخريج دفعات المقاتلين والدعاة، وصقل النُّفوس والعقول والأرواح، والدَّعوة إلى الحبِّ والسَّلام.

* أسلمَ الأرقمُ وفي بني مخزوم كبَارُ الفُجَّار الكفار، وكُبَّارُ الأشرارِ، كأبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، وغيرهما ممن كان يصدُّ عن

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤) والمحبّر (ص ٧٣) والمستدرك (٣/ ٥٧٤ ـ ٥٧٦) والاستيعاب (١/ ٩٧ ـ ١٠٣) وسيرُ أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٦ و٤٨٠) وشفاءُ الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ١٣ و٣٣ و٣٤ و١٢٢ و٤٤٠) والإصابة (١/ ٤٢ و٤٣) وشذرات الذَّهب (١/ ٦١) وحياة الصَّحابة (١/ ٦٨ و٢٨١ و٣٠١) و(٣/ ٣٧) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

سبيلِ الله بكلِّ سبيلٍ يستطيعُ سلوكه، ويبذل قصارى جهده لمحاربة الدعوة الإسلامية.

* لكنَّ الأرقمَ لما عَرَفَ الإيمانُ طريقه إلى قلبه وعقله هانَ في عينيه كلّ سلطان إلا سلطان الله عزَّ وجلَّ، ولم يَعُدْ يخشى ردود بني المغيرة، ولا بني مخزوم.

لقد بَذَر رسولُ الله ﷺ بذرة الإيمان واليقينِ في كلِّ بيتٍ من بيوتِ قريش، واستجابَ للإسلام الخُلَّص من الناس، وصفةُ الصَّفوةِ من فتيانِ مكةَ، بَيْدَ أنَّ الإسلامَ في دعوته السّرّية لا يزال سرّاً في صدورِ المؤمنين به، فأين يمارسون العبادة؟! وأين يلتقون رسولَهم ليأخذ بأيدهم إلى طريق النُّور والنجاة، ويأخذ بنفوسهم الخيِّرة ليسلك بهم سبيل الجنَّات؟! إنَّ ذلك كائنٌ في بيتِ الأرقم، فتعالَوا نَسْعَد بحياةِ الإيمان والعبادة، وندخل دار الأرقم.

دارُ الأرقَمَ دَار الإسْلام:

* قبل أنْ ندخلَ دارُ الأرقم بن أبي الأرقم السابق للإسلام، لا بدَّ أن نعرفَ شيئاً منْ شمائل هذا الداعية المخلص، الصَّحابي المعطاء، والفارس النّبيل، والشَّهم الكريم.

* وصفه الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ بقوله: كان مِنْ عُقَلاء قريش[(١)]. وقال عنه أيضاً: صاحب النّبي ﷺ مِنَ السَّابقين الأوّلين[(٢)].

* وذكر الحاكمُ في المستدركِ أنّه أسْلم سابع سبعة[(٣)]، أسلم هو وأبو عُبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون في وقتٍ واحد، وكان الأرقمُ منْ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٤٧٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المستدرك على الصَّحيحين للحاكم (٣/ ٥٧٤) طبعة دار الكتب العلمية. وفيه: قال عثمان بن الأرقم: أسلم أبي سابع سبعة.

آخر أهل بدرٍ وفاة، ويكنى الأرقم أبا عبد الله، واسم أبي الأرقم عبد مناف[1].

* وتقصُّ علينا أخبار الأرقم - رضي الله عنه - بأنّه كان حازماً، عاقلاً، لبيباً، يحبُّ العبادة لله تعالى والجهاد لإعلاء كلمة الحق، ويسعى لكي يكونَ في المقدمة، في كلّ ما يُوصل إلى الخيراتِ.

* لهذه الصِّفات الجليلة الجميلة، وقع اختيارُ رسول الله ﷺ على الأرقم لتكون داره هي دار الإسلام[2]؛ التي ينطلقُ منها صوتُ الحقِّ، والتي يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً، آناء الليل وأطراف النهار.

* وعندما أخذ المشركون بمكةَ يكيدون لكفِّ الدَّعوة المحمّديّة بعد ظهورها في بداية السَّنَةِ الرَّابعة من النُّبُوَّة، وأخذوا يحاربون الإسلام بكل ما أوتوا من وسائل، ويؤذون أهله، ويعذّبون مَنْ دَخَل فيه العذاب الشديد، ويتعرضون لهم بألوانٍ منَ الإيلام والنَّكال الذي لا يُحتمل، ظهرتْ بطولاتٌ فريدة منَ الصَّبْرِ والمُصابرة من المؤمنين الأبطال، وقائمة المُعَذَّبين في اللهِ عزَّ وجلَّ طويلةٌ ومؤلمة جداً، فما من أحد علموا إسلامه إلا وتصدّوا له وآذوه أشدّ الأذى ليردّوه وليفتنوه عن دينه.

* هنالك دَخَل رسولُ الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ، الفتى المؤمن، والصَّاحب القديم، والشَّاب النَّبيل، والبطل الجريء، وكانت داره على جَبَل الصَّفا، تطلُّ على الحرم المكي، وعلى دار النَّدوة، وتكشف حركات وتحرّكات قريش، وتفضح أعمال فجّارهم، وكلّ ما يجري من حول الكعبة المشرَّفة من تدابير، وكانت كذلك بمعزلٍ عن أعين الطُّغاة أعداء الإسلام ومجالسهم الفاجرة الآثمة.

* كان منَ الحكمةِ التي تقتضيها الدَّعوة المحمديّة تلقاء هذه الاضطهادات والمؤامرات، أنْ يجتمعَ رسولُ الله ﷺ بأصحابه سرّاً بعيداً عن أعين الرقباء؛

---

(1) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٢).
(2) كما في المستدرك للحاكم (٣/ ٥٧٤).

لأنّه إذا اجتمعَ بهم علانية فربما يفضي ذلك إلى مصادمة[1] الفريقين؛ ومعلوم أنَّ ذلك لو حَدَث لأفضى إلى تلاشي المسلمين، وضَعْف قوّتهم، فكان منَ الحكمةِ الاختفاءُ ولو لفترة، فكان الصَّحابة يخفون عبادتهم واجتماعهم، أمّا رسولُ الله ﷺ فكان يجهرُ بالدَّعوة الإسلامية والعبادة الربانية على عينِ وسَمْعِ قريش، ولكنّه كان يجتمعُ مع الموحِّدين المؤمنين سِرّاً.

وكانتِ الدَّارُ المباركةُ؛ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ـ رضي الله عنه ـ التي اتَّخذها ﷺ مركزاً لدعوته الإسلامية، ولاجتماعه بالمسلمين الأوائل من السَّنةِ الخامسة من النّبوّة.

* في دار سيّدنا الأرقم، كان المسلمون يُصلُّون، ويتفقَّهُون في أمور الدِّين، وكان الرّاغبونَ في الإسلام يَغدُونَ ويروحون إلى رسولِ الله ﷺ، يُلقُون إليه أسماعهم، فتنشرحُ صدورهم للإسلام، ويتّبعون النّبيَّ الأُمّيّ الذي أرسله الله عزّ وجلّ بالهدى والخير، ودين الحقِّ القويم، ليظهره على الدِّين كُلِّهِ، ولو كره المشركون.

وأودُّ ـ باديء ذي بدء ـ أنْ أشيرَ إلى أنّه لم يكنِ الاستخفاءُ بالدَّعوة المحمدية، واستسرارها موقفاً سلبياً لا حركة فيه، بل كان أبلغ موقف إيجابيٍّ في دوافعهِ وآثاره، لأنّه كان موقف التأسيس والإعداد لانطلاق الدعوة، والتّربية النِّضالية للمؤمنين، والكفاح الصَّبور على الأذى والعنت، ليتخرّج في المدرسة المحمدية فرسانٌ وأعلامٌ ينشرون النُّور في الحياة الدُّنيا، ويعلنون العَدْلَ في أرجاءِ الأرض قاطبة.

إذاً، فلتكن دار الأرقم أول معهد لتعليم المسلمين أمور دِيْنهم كي يفهموا دنياهم، ويشيدوا قلاع الحضارة الإسلامية، ولتكن دار الأرقم أوّل مدرسة

---

(١) لقد وقعتِ المصادمةُ فعلاً في السَّنةِ الرَّابعة من النّبوّة، حيث كان أصحابُ النّبيِّ ﷺ يجتمعون في شعاب مكّة، فيصلّون فيها سرّاً، فرآهم مرة نفرٌ من كفّار قريش، فسبّوهم وقاتلوهم، فضرب سعدُ بن أبي وقاص رجلاً منهم، فسال دمَه، وكان أول دمٍ أهريق في الإسلام. (السيرة النبوية ١/ ٢٦٣).

لتحفيظِ القرآن الكريم الذي كان يتنزل نديّاً على الحبيب المصطفى سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ.

وقفات نديّة معَ الدّارِ المباركةِ:

* ما زلنا في دار الإسلام والسّلام، والأَمْن والأمان، دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ـ رضي الله عنه ـ ولا زلنا نتابعُ مراحل الاستسرار بالدّعوة المحمدية، ونحنُ نرقبُ باهتمامٍ بالغ سَدَادِ حكمة الاستسرار بالدّعوة، تلك التي جَذَبَتْ في أولى خطواتها المباركة إلى ساحةِ الإيمان أشجع رجلين كانا في قريش، بهما أعزّ الله دِيْنَه الحنيف، وأعلى كلمته على الملأ، وأيّد نبيّه باستمرارٍ لا ينقطع، وقوّى جانبه على الدوام.

* جذبتِ الدّعوةُ إلى ساحتها الفوّاحة بأعطرِ العطر العقيديّ، أعزَّ فتى في قريشٍ، أَسَدَ الله تعالى، وأسدَ رسوله ﷺ، سيّد الشُّهداء كلهم، ورافعَ راية الإسلام والتّوحيد في الآفاق، الفَارسَ المُعْلَم حمزةَ بنَ عبد المطّلب[1] ـ رضي الله عنه ـ عمّ النّبيِّ ﷺ، وأخاه منَ الرَّضاع، وابن خالته نَسَباً ومنزلة، فأمُّه: هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، ابنة عمّ آمنة بنت وهب بن عبد مناف، أمّ سيدنا رسول الله ﷺ.

* ثمَّ جذبتْ سياسةُ الاستسرار بالدّعوة ـ في دارِ الأرقم ـ في مطلع شمسها الدافئة، ثاني العظيمين، وأحد العُمرين، فاروق الإسلام وكوكبه المنير، وعزّ المسلمين، وعبقريّ الدّنيا، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

* وقصّة إسلام عمر مشهورة كالشّمس في رابعة النّهار، لقد دخل دار الأرقم غاضباً يريدُ قتل رسول الله ﷺ، وطرقَ البابَ بعنفٍ متوشّحاً سيفه، فدخل وقد أخذ حمزة والزُّبير بضبعيهِ[2] حتى أوقفاهُ بين يَدَيِ رسولِ الله ﷺ،

---

(١) اقرأ سيرة حمزة في هذا الكتاب ص (٥٥) تجد ما يشرح الصدر، ويثلج النفس، ويمتع الأسماع.

(٢) «بضبعيه»: مثنى ضَبْع، وهو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها، وهما ضَبْعان. يُقال: أخذ بضَبعَيْه، أي: أمْسَكَ بِعَضُدَيْه.

فأخذ ﷺ بحجزته[١]، ثمَّ جَبَذَه جَبْذَةً شديدة ـ نترهُ بها نترةً شديدة ـ فما تمالك نفسه عمر أنْ وَقَعَ على ركبتيه، وارتعدت فرائصهُ من هيبةِ رسولِ الله ﷺ وقال له: «ما جاءك بك يا بن الخطّاب؟ فوالله ما أرى أنْ تنتهيَ حتى يُنزلَ الله بك قارعة!».

فقال عمر: يا رسول الله! جئتُ لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عَرَفَ منها أهل البيت مِنْ أصحابِ رسول الله ﷺ أنَّ عمرَ قد أسلمَ، فكبّروا جميعاً تكبيرةً واحدة سُمِعَتْ أصداؤها بطرقِ مكة المكرمة.

* أخرج ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن عثمانَ بنِ الأرقم قال: أنا ابنُ سبعةٍ في الإسلام، أسلم أبي سابع سبعة، وكانت داره بمكةَ على الصَّفا، وهي الدَّار التي كان النَّبيُّ ﷺ يكون فيها في أوَّل الإسلام، وفيها دعا النَّاس إلى الإسلام، وأسلم فيها قومٌ كثيرون، وقال ليلة الإثنين فيها: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحبِّ الرَّجلين إليك؛ عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام»[٢] فجاء عمر بنُ الخطاب من الغَدِ بكرة، فأسلم في دار الأرقم، وخرجوا منها فكبروا، وطافوا البيت ظاهرين، ودُعيب دار الأرقم: دار الإسلام[٣].

---

(١) «بحجزته»: الحُجْزَة من الإزار ونحوه: موضع شَدِّه من الوسط.

(٢) أودُّ التَّنبيه هنا إلى ملاحظةٍ مهمَّةٍ جداً، وهي أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يعرفُ شجاعة عمر بن الخطاب، وشهامته، وعبقريته، واستقامة طبعه، فكان يحبُّ أنْ يهديه الله عزَّ وجلَّ إلى الإسلام، ليكون له ناصراً، وللدعوة مؤيِّداً، يدرأ بإيمانه عن المسلمين المستضعفين أذى المشركين، فيقول فيما أخرجه ابن ماجه، ورواه الحاكم وابن حبّان عن عائشة وابن عبّاس ـ رضي الله عنهم ـ: «اللهم أعزَّ الإسلام ـ أو أيد الإسلام ـ بعمرَ بنِ الخطاب خاصة».

وروى ابن أبي خيثمة من حديث عمر بن الخطاب قال: لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون رجلاً، فكملتهم أربعين، فأظهر اللهُ دينه، وأعزَّ الإسلام. انظر: فتح الباري (٧/ ٤٨).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٢ و٢٤٣).

* ألا ما أحلى الحديث، وأطيبه عنِ الأرقم وعن داره المباركة[1]! تلك الدَّار[2] التي انطلق منها صوتُ الحقِّ ليعمَّ الدنيا بأسرها، ويملأ الأسماع، ومنها وفيها تخرَّج فرسان الحقّ الأبطال، وبُناةُ الأجيالُ الحقيقيون، وصانعو التَّاريخ الإسلامي، وأسياج الدنيا البواسل.

أخبارٌ طيبة وفروسيَّة وضيئة:

* لم يكن الأرقم بن أبي الأرقم ليجعل داره تحت تصرُّف النَّبيِّ الكريم ﷺ فحسب، وإنَّما وهبَ نفسه لله عزَّ وجلَّ وللرَّسولِ ﷺ، ولقيَ العذابَ والمشقة مِنَ المشركين، وصَبرَ عل اللأواء والشدة، وعندما كانتِ الهجرةُ إلى المدينة المنورة، هاجر مع المهاجرين، وأقطعه رسول الله ﷺ داراً بالمدينة في محلَّة بني زريق الأنصار، وكانت تُسمَّى دار الأرقم أيضاً.

---

(١) أورد الإمام الفاسيُّ ـ رحمه الله ـ أسماء الدُّور المباركة بمكةَ، فذكر من الدُّور المباركة: دار أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ ودار خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) لا بدَّ لنا ونحنُ في معرضِ الحديث عن دار الأرقم ـ رضي الله عنه ـ أنْ نصفها بما وقع تحت أيدينا من المصادر الوثيقة؛ فقد ذكر الأزرقيُّ والفاسيُّ: أنَّ موضعَ دار الأرقم من أفضل الأماكن بمكةَ بعد دار خديجة بنت خويلد، لكثرة مكث النَّبيِّ ﷺ فيها يدعو النَّاس للإسلام مستخفياً، وإقامته ﷺ بهذا الموضع دون إقامته بدار خديجة، ولذلك كانت من أفضل المواضع؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان مختبئاً فيها، وفيها أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.
ويصفُ الإمام الفاسيّ موضع دار الأرقم الذي غدا أحد مساجد مكة فيقول:
وطول هذا المسجد ثمانية أذرع إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث، الجميع بذراع الحديد، حُرر ذلك بحضوري، وفيه مكتوب: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾[النور: ٣٦] هذا مختبأ رسول الله ﷺ، وفيه مبتدأ الإسلام. (شفاء الغرام ١/ ٤٤٠).
ثم إن دار الأرقم صارت فيما بعد للخيزران أمّ الهادي والرشيد، فحسّنتها، وبنتها، وعرفت بها. (المستدرك ٣/ ٥٧٥).

* وفي المدينةِ المنورة أخذ الأرقم مكانه، وتصدَّر مكانته بين الأنصار، ولما كانتِ المؤاخاةُ الإسلامية، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاريّ(١).

* ويظهر أنَّ المؤاخاةَ بين هذين الفارسَين المسلمين الكريمين، آتت أكُلها اليانعة في مدرسة النبوّة المعطاء، فكلاهما ممن شهدت له ساحاتُ الجهادِ بالفروسيّة والإقدام والجرأة، وكلاهما شهد بدراً وأُحُداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسولِ الله ﷺ(٢)، وأدى واجبه بأريحيةٍ وتفانٍ لا يوصَف.

* ومنَ الأخبار الوضيئة التي تُعلي مقامَ الأرقم: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أعطاه يوم بَدْرٍ سيفاً، وكان السَّيفُ ذا شأن.

* أخرجَ الحاكمُ - رحمه الله - بسندٍ رفعه إلى الأرقم - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ يوم بدر: «ضعوا ما كان معكم منَ الأنْفال» فرفع أبو أسيْد السَّاعدي(٣) سيف ابن عائذ المرزبان، فعرفه الأرقم بن أبي الأرقم فقال: هَبْهُ لي يا رسول الله! فأعطاه إياه(٤).

* وتتحدثُ المصادرُ عن الأرقم بأنّه كان يأتمرُ بأمْرِ رسول الله ﷺ، ويقتدي بهديه الكريم، طَلباً لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله ﷺ، وحبّاً في أداءِ العِبَادة على أكملِ وجْهٍ، وأتمّ مظهر ومخبر.

* وردَ عن الأرقم - رضي الله عنه - أنّه أرادَ الخروج إلى بيتِ المقدس،

---

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٦٧١).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٤ و٥٠٤).

(٣) أبو أسيد السَّاعدي، واسمه: مالكُ بن ربيعة بن البَدَن من كبراء الأنصار، شهد بدراً، والمشاهد، له أحاديث، وكانت معه راية بني ساعدة يوم الفتح، عاش (٧٨ سنة) وتوفي سنة (٤٠ هـ) وقيل سنة (٦٠ هـ) رضي الله عنه (سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٣٨ و٥٣٩).

(٤) المستدرك (٣/ ٥٧٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وانظر: شرح السِّير الكبير للشيباني (٢/ ٦١٣).

وتجهَّزَ لذلك، فلمّا فرغَ من جهازه، جاء إلى رسول ﷺ يُودِّعه، فقال: «أين تريد؟».

قال الأرقم: بيت المقدس.

قال: «ما يخرجك إليه؟ أفي تجارة؟».

قال: لا، ولكنْ أردتُ الصَّلاة في بيت المقدس يا رسول الله!.

فقال رسول الله ﷺ: «الصَّلاة في مسجدي خيرٌ من ألفِ صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام»، فجلس الأرقم، ولم يخرج[1].

* وكان الأرقم - رضي الله عنه - أميناً، وفياً، استعمله رسولُ الله ﷺ على الصَّدقة، فقام بعمله خيرَ قيام، وأداه على أفضل ما يُرام، وظل الأرقم - رضي الله عنه - يحظى بالتَّكريم والحفاوة حتى توفي رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنه.

* ومن مكارمِ الأرقم الكثيرة أنّه روى عنِ النَّبيِّ ﷺ، ومن مروياته: «إنَّ الذي يتخطَّى رقابَ النّاسِ يوم الجمعة ويفرّقُ بينهم كالجارِّ قصبه في النّار»[2].

وفـاةُ الأَرقَـم ووصيّتـه الأخيرة:

عاش الأرقم بن أبي الأرقم - رضي الله عنه - حياةَ عطاءٍ، في مكةَ المكرمة وفي المدينة المنورة، وفي العهد الرّاشدي، وكان محل احترام لا يُوصف من الخلفاء الرّاشدين، والصَّحابة الكرام أجمعين، كلٌّ يجلُّ الأرقم، ويعرف مكانته وصدارته، وإيثاره وآثاره الحِسَان في الميادين الإيجابية، وخصوصاً ميدان الجهاد بالفكر واللسان، والمواجهة والسِّنان.

* وفي عهد الخليفة معاوية - رضوان الله تعالى عليه - جاءتِ الأرقمَ سكرةُ الموتِ بالحقِ، وشعر بقربِ اللقاء مع الله عزَّ وجلَّ. يروي حفيده عبد الله بن

---

(1) سيرة أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٩ و٤٨٠) بتصرف يسير، وانظر المستدرك (٣/ ٥٧٦) وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(2) مسند الإمام أحمد (٣/ ٤١٧) والمستدرك (٣/ ٥٧٦) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: هشام بن زياد واهٍ.

عثمان بن الأرقم حوادثَ السَّاعات الأخيرة من حياةِ جَدِّه، ويذكر وصيته فيقول: حضرتِ الأرقم بن أبي الأرقم الوفاة، فأوصى أنْ يصلّي عليه[1] سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وكان مروانُ بنُ الحكم والياً لمعاوية على المدينةِ المنورة، وكانَ سعدٌ في قصره بالعقيق، ومات الأرقمُ، فاحتبس عليهم سعد ـ رضي الله عنه ـ فقال مروان: أَيُحْبَسُ صاحب رسول الله ﷺ لرجلٍ غائبٍ أراد الصَّلاة عليه؟!.

فأبى عبد الله بن الأرقم ذلك على مروان، وقامت معه بنو مخزوم ووقع بينهم كلام، ثمَّ جاء سعد ـ رضي الله عنه ـ فصلّى عليه[2].

* واجتمع عددٌ كبير من الصَّحابة الكرام، ومن جلَّة التَّابعين، ونادى منادٍ في المدينة: أن توفي الأرقم صاحب دار الإسلام، فوافى البقيعَ عددٌ كبير من الصَّحابة والتَّابعين والعلماء والفقهاء، وشيَّعوا الجنازةَ إلى المثوى الأخير؛ لتكون في جوارالعليم الخبير.

---

(١) اتفق الفقهاء على أنَّ الصَّلاة على الميتِ فرض كفاية، لأَمْرِ رسول الله ﷺ، ولمحافظة المسلمين عليها. روى الشَّيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّين، فيسأل: «هل ترك لدينه فضلاً؟» فإن حُدِّث أنَّه ترك وفاء صلى، وإلا قال للمسلمين: «صلّوا على أخيكم».
أمّا كيفية الصَّلاة على الجنازة، فهي أنْ يقفَ المصلي بعد استكمال شروط الصَّلاة، ناوياً على مَنْ حضر من الموتى، رافعاً يديه مع تكبيرة الإحرام، ثم يضع يده اليمنى على اليسرى، ويشرع في قراءة الفاتحة، ثم يكبّر ويصلي على النبي، ثم يكبّر ويدعو للميت. ثم يكبّر ويدعو، ثم يسلم.
ويُستحب أنْ يصفَّ المسلمون على الجنازة ثلاثة صفوف، وأن تكون مستوية، ويستحب تكثير جماعة الجنازة.
(٢) طبقات ابن سعد(٣/ ٢٤٤) والمستدرك (٣/ ٥٧٥).

* توفي الأرقم في خلافةِ معاوية سنة ثلاث وخمسين[١] من الهجرة، وله ثلاثٌ وثمانون سنة[٢].

* ذلكم الأرقم بن أبي الأرقم، الصَّاحب، الفارس، السَّابق، الكريم، فرضي الله عنه وأرضاه، وأجزل له المثوبة يوم ينفعُ الصادقين صدقُهم.

* * *

(١) في المستدرك للحاكم: سنة خمس وخمسين.

(٢) في المستدرك: وهو ابن بضع وثمانين سنة.

(١٦)

حاطب بن أبي بلتعة

- رضي الله عنه -

* كان ممن يعرفُ الكتابة، وكان الرَّسولَ إلى المقوقس ملكِ مصرَ والإسكندرية.

مِنْ نَسَمَاتِ الصِّدْقِ ونَفَحَاتِ الفُرُوسيَّة:

* مع الثُّلَّةِ الأُولى الذين استجابوا لنداءِ الحقِّ الأبلج، وأنداءِ نسيم العطْرِ المضمَّخ بأريجِ النُّبوَّة، شَهِدَ فارسنا شهادةَ التَّوحيد، وآمَنَ بنبوَّةِ محمَّد رسول الله ﷺ، وطَفِقَ يتغذَّى برحيقِ الإيمان؛ ينتعشُ بروحهِ وريحانه؛ الذي يثلجُ الصُّدور، ويجلو القلوب، ويزيل الرانَ عن النفوس، كلما تجدَّد الإيمان، وتعمَّق في أبعاد المشاعر، وقيعان الضمير.

* وكانَ ممَّنْ فَتَح الله عزَّ وجلَّ على بصيرته، فآمَنَ إيمانَ الأبرار، وراحَ يسعى ليل نهار لينالَ ما أعدّه الله عزَّ وجلَّ لعبادهِ المتَّقين منْ نعيمٍ، وعدهم إيَّاه في جنَّةٍ عرضها السموات والأرض أُعدَّتْ للمتقين الأخيار.

* وفي حياةِ مكةَ الاجتماعية، عُرِفَ هذا الفَارس بسبقه إلى الدَّوحة الباسقةِ التي تعلوها شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فأخذ ينال نصيبه منَ الأذى مع مَنْ آمَن، وكان عذاباً قاسياً واسعاً أليماً.

* هنالك كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يُغذِّي أرواحَ أصحابه برغائبِ الإيمان، ويُزكي نفوسهم بتعليمِ القرآن وما نزل من الحقِّ، ويُربِّيهم تربيةً ربّانية، ويحدو بنفوسِهم إلى منازلِ سمو الرُّوح، ونقاء القلب، والنُّزوع إلى ربِّ السَّموات والأرض وما بينهما الرحمن، ويذكي جمرة قلوبهم، ويخرجهم منَ الظُّلمات إلى النُّور، ويأخذهم بالصَّبر على تحمّل الأذى، وعلى الصَّفح الجميل، وقهر النَّفْس في سبيل مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فازداد هؤلاء الأعلام رسوخاً في الدِّيْن الحنيف القويم، وعزوفاً عنِ الشَّهوات، وغلبةً على العواطفِ، نزولاً عندَ ما يتوصَّل به الأبرار إلى الجنة.

* وهذا واحدٌ منْ أعلامِ فُرسان مدرسة الرَّسول ﷺ، ممن ملأَ ساحات الحروب بفروسيته، وفنِّ رمايته، وأخلاقه الحربية، وممَّنْ أفعم صفحات التَّاريخ الإسلاميّ بكريمِ أعماله، ولطيفِ أخباره، لا بل إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد شَهِدَ له بالإيمان، كما شهد له رسولُ الله ﷺ بالصِّدق، والإخلاص، والوفاء، والمروءة، وشهد له مَنْ عَرفه بالحكمة وفَصْل الخطاب.

* حاطبُ بنُ أبي بلتعة عمرو بن عمير اللخميّ المكّيّ، أبو محمّد، حليف بني أسد[١]، هو صاحب تلكم النَّفحات والمواهب، وهو الفارس الذي نعيشُ في ظلالِ سيرته، نستروح أفياءها الوارفة، وأنداءها البليلة.

* كان حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ ـ رضوان الله عليه ـ منَ التُّجار المرموقين في أهل مكةَ، وكان تاجراً ماهراً في الطَّعام، وله بضعة عبيد يقومون على مصالحه، وتجارته، وأعماله[٢].

* ولم يكن حاطب ـ رضي الله عنه ـ يجيدُ فنَّ التّجارة وكسب المال فحسب، وإنّما كان منَ الرُّماة الموصوفين من فُرسان الرَّسول ﷺ، وقد برعَ في فنِّ الرِّماية، حتى صنَّفه الكُتَّاب في أوائل الرُّماة المهرة منَ الصَّحابة الكرام[٣]؛ كما كان له خبرةٌ بفنونِ الفروسية، وركوب الخيل، واستعمال السَّيف، والطَّعْنِ بالرُّمح، وضروب القتال عامة.

* جاء في وصف هذا الفارس بأنّه كان حَسَن الجسم، خفيفَ اللحية، أحنى الأنف، أقربَ إلى القصر، غليظَ الأصابع، وكان أحد الصَّحابة الذين يعرفون الكتابة[٤].

---

(١) السِّير الكبير (١/ ٣٠٥) وطبقات ابن سعد (٣/ ١١٤) والمعارف (ص ٣١٧ و٣١٨) وفضائل الصحابة للنَّسائي (ص ٥٧) والمعجم الكبير للطبرانيّ (٣/ ٢٠٥) والمُسْتَدرك (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٤١) والاستيعاب (١/ ٣٤٧ ـ ٣٥٠) وأنساب الأشراف وانظر الفهارس ١/ ٦٣٠) وجامع الأصول (٩/ ٩٧) وأُسدُ الغابة (١/ ٤٣١ ـ ٤٣٣) ترجمة رقم (١٠١١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥١ و ١٥٢) وزاد المعاد (انظر الفهارس (٦/ ٣٠٠ و٣٠١) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣ ـ ٤٥) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٠٣) والبداية والنّهاية (٧/ ١٥٦) والإصابة (١/ ٢٩٦ ـ ٣٠٠) وتهذيبُ التّهذيب (٢/ ١٦٨) وحياة الصَّحابة (١/ ١٢٧ و١٤٠ و١٤١ و٣٤٧ و٤٢٤) وغيرها كثير من عشرات المصادر المتنوعة.

(٢) المستدرك (٣/ ٣٤٠) وسير أعلام النُّبلاء (٢/ ٤٣).

(٣) انظر مثلاً: المغازي (١/ ٢٤٣) والمستدرك (٣/ ٣٤٠).

(٤) انظر: المستدرك (٣/ ٣٤٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٢).

* ويعدُّ حاطب ـ رضي الله عنه ـ منْ مشاهيرِ المهاجرين إلى المدينة، حيثُ هاجر وبصحبته مولاه سَعْد، ونزلا على المنذر بن محمّد بن عقبة بن أحيحة بن الجُلاح، وآخى رسولُ الله ﷺ بينَ حاطب وعُويم بن ساعدة الأنصاريّ الأوسيّ، أحد الصَّحابة الأعلام، الذين شهدوا المشاهد كلّها معَ رسولِ الله ﷺ[1].

حَاطِبٌ وَرِحْلَـةُ مَغَـازِيـه:

* أجمعتِ المصادرُ بأنَّ حاطِبَ بنَ أبي بلعتة ـ رضي الله عنه ـ قد شهد بدراً والمشَاهد كلَّها معَ رسولِ الله ﷺ، لم يغادرْ واحدة منها، وكان له مواقف مُشرِّفة في كلِّ غزاةٍ غَزَاها.

* ففي أُولى الغَزَوات الشَّهيرة في دُنيا المغازي، حَضرَ حاطب غزاةَ بدرٍ مع خير أهلِ الأرض يومها، وأبدى من ضروب الشَّجاعة ما جعله أحد الفرسان الشُّجعان، واقتاد الحُويرث بن عَبّاد أسيراً[2]، وقُرِنَ في الأصفاد مَعَ مَنْ أُسِرِ منَ المشركين؛ الذين بلغَ عددُهم السَّبعين.

* وفي غزوةِ أحد، تجلَّتْ شجاعةُ حاطب، حيثُ ثَبَتَ معَ المسلمين ثباتَ الرَّواسي، ولما نزلتِ الهزيمةُ بالمسلمينَ في غزوةِ أحد، واختلطَ الأمْرُ، ظهرتْ هنالك بطولاتٌ نادرة من فُرسان المسلمين كأبي دجانة الأنصاريّ، وأبي طلحة، وسَهْل بن حُنيف، وعبد الرّحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وحاطب بن أبي بلتعة؛ الذي تبع عتبة بن أبي وقّاص ـ الذي كَسَرَ رباعية الرّسول الشّريفة: فضربه بالسَّيْفِ حتى طرح رأسه، ثمَّ أخذَ فرسه وسيفه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال له: «رضيَ اللهُ عنك، رَضي اللهُ عنك».

وكانَ سعدُ بنُ أبي وقاص شديدَ الحرص على قَتْلِ أخيه عتبة هذا المجرم،

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥٩) والسيرة النبوية (١/ ٥٠٦) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٣٠٢).

إلا إنّـه لم يظفرْ به، بل ظفرَ به حاطب، وأرداه قتيلاً[1].

* هذا؛ ولم يترك شاعر الإسلام حسَّان بن ثابت - رضي الله عنه - هذه الحادثة تمرُّ دونَ أنْ يسجِّلَها شعراً، ويرسمَها بالكلماتِ، فقال:

إذا اللهُ أعطـى مَعْشـراً بِفَعَـالهـم
ونَصـرَهـم الـرحمـنَ ربّ المشـارقِ

فـأخـزاكَ ربِّـي يـا عُتَيْـبَ بـن مـالـك
ولقَّـاكَ قبـل المـوتِ إحـدى الصَّـواعقِ[2]

بسطـتَ يمينـاً للنَّبـيِّ تَعَمُّـداً
فـأدميـتَ فَـاهُ قُطِّعَـتْ بِـالبَـوَارِقِ[3]

* وشهد حاطب الخندق والحُديبية، وبايع بيعةَ الرضوان، وشَهِد بقيّة المشاهد بمعيّة الرَّسول ﷺ، وكُتِبَ في سجلِّ فُرسان مدرسة النُّبوَّة؛ الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وسجَّلوا أروع الصفحات في تاريخ الفروسية، والشجاعة، والإقدام.

أنْتَ حَكِيمٌ جاء من عند حكيم:

* انتزعَ حاطبٌ عبارةَ (أنت حكيم) منْ أكابرِ ملُوكِ الدّنيا في عَصْرِه، وشهد له بالحكمةِ المنبثقةِ من نور النُّبوّة الخالد.

* والحقيقةُ، فقد كان حاطب - رضي الله عنه - أحد فُصَحاء الصَّحابة، وأحد فُرسان البيان، وأمراء الشِّعر والخَطَابة.

نَقَلَ ابنُ حجر - رحمه الله - في «الإصابةِ» عن المرزباني قوله: كان حاطب أحدَ فُرسان قريش في الجاهلية وشُعرائها[4]. كما كان حاطب واحداً ممن

---

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٣٤٠) بتصرف. وانظر: السيرة الحلبية (٣/ ٥١٣) وانظر: ترجمة عتبة بن أبي وقاص هذا في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٢٠).

(٢) «عتيب»: هو عتبة. «ابن مالك»: اسم أبي وقاص؛ مالك.

(٣) ديوان حسان بن ثابت (ص ١٥٨) طبعة دار المعارف بمصر.
«البوارق»: جمع بارقة، وهو السيف.

(٤) الإصابة (١/ ٣٠٠).

يعرف الكتَابة في عصر النّبوّة[1].

* ولهذا فقد كان حاطب - رضي الله عنه - أحد فرسان المدرسة المحمّدية؛ الذين حملوا رسائل النُّور إلى ملوك الدنيا وأُمراء العَالَم، وكان نصيبه ملك مصر والإسكندرية.

* فقد كَتَب رسولُ الله ﷺ إلى جُريج بنِ مينا، الملقب المقوقس ملك مصر والإسكندرية الكتاب التّالي:

«بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم، منْ محمّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيمِ القبْط، سلامٌ على مَنِ اتّبعَ الهُدى، أمّا بعد: فإنّي أدعوك بدعايةِ الإسلام، أسلم تَسلم، وأسلم يُؤْتِكَ اللهُ أجرك مرّتين، فإنْ توليتَ فإنّما عليكَ إثم القبْط: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤][2].

* اختارَ رسولُ الله ﷺ لحملِ هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة، بعد أنْ تبرّعَ حاطب بالذّهَاب إلى مصرَ، حيثُ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيُّها النّاس! أيّكم ينطلقُ بكتابي هذا إلى صاحبِ مصرَ، وأجرُهُ على الله؟!».

فقام الفارسُ الفدائي حاطب - رضي الله عنه - وقال: أنا يا سول الله أنطلق به.

فقال ﷺ: «باركَ اللهُ فيك يا حاطب».

فأخذَ حاطب الكتاب، وودّعَ رسولَ الله ﷺ، وسار إلى منزله، وشدَّ على راحلته، ويمّم تلقاءَ مصر[3].

* وصَلَ حاطب مصرَ، فلمّا دخل على المقوقس قال له: إنّه كان قبلك رجلٌ يزعم أنّه الرّبُّ الأعلى، فأخذه الله نكَال الآخرة والأولى، فانتقمَ به، ثمّ

(١) رجال مبشرون بالجنة (٢/ ٢٣٣).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٩١).
(٣) انظر السيرة الحلبية (٣/ ٢٩٥) بتصرف.

انتقم منه، فاعتبِرْ بغيرِك، ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إنَّ لنا دِيناً لن نَدَعَه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب بلسانِ الحكمة المرفودِ بأدب النُّبوَّة والبلاغة المحمَّدية: ندعوكَ إلى دِيْنِ الله، وهو الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إنَّ هذا النَّبيَّ دعا النَّاس فكان أشدّهم عليه قُريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النَّصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمَّد، وما دعاؤنا إياك إلى القُرآن، إلا كدعائك أهل التَّوراة إلى الإنجيل، وكلُّ نبي أدرك قوماً فهم أمّته، فالحقُّ عليهم أنْ يطيعوه، وأنتَ ممن أدركه هذا النَّبيُّ، ولسنا ننهاك عن دِيْنِ المسيح، ولكنَّا نأمرك به(١).

* وفي اعتقادي أنَّ هذه الكلمات الآسِرة الهَامسة المتينة؛ التي سداها الحقُّ، ولحمتها الإيمان، قد أَسَرتْ قَلْبَ المقوقس، وحرَّكت كوامنَ الإعجاب في نفسه، فاستضافَ حاطباً في منزله بضعة أيام(٢)، ثمَّ بعث إليه وقد جَمع بطارقته(٣) حوله، وقال لحاطب ـ رضي الله عنه ـ: يا هذا! إنِّي سأكلمك بكلام أحبّ أنْ تفهمه منِّي.

قال حاطب: هلمّ ما عندك أيّها الملك!.

قال المقوقس: أخبرني عنْ صاحبك، أليس هو نبيٌّ؟.

قال: بلى هو رسول الله ﷺ إلى النَّاس كافّة.

قال المقوقس: فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيثُ أخرجوه منْ بلدته إلى غيرها؟!.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٩١ و٦٩٢) وشرح المواهب اللدنية (٣/ ٣٤٨).

(٢) أكرمَ المقوقسُ حاطباً، وأحسَنَ نزله. وعن إكرام المقوقس لحاطب حدَّث حاطب فقال: كان لي مكرماً في الضِّيافة، وقلَّة اللبث ببابه، وما أقمتُ عنده إلا خمسة أيام. (طبقات ابن سعد ١/ ٢٦١).

(٣) «البطارقة»: جمع بِطْريق، وهو الحاذقُ بالحرب وأمورها، وهو ذو منصبٍ وتقدّم عندهم.

فأجابه حاطب بكلامٍ يشيرُ إلى فنّ فروسيته في مَصايد الكلام ومواقعه منَ النُّفوس، فقال: فعيسى ابنُ مريم أتشهد أنَّه رسول الله؟ فما له حيثُ أخذه قومه فأرادوا صلبه ألاَّ يكون دعا عليهم بأنْ يهلكهم الله حتى رفَعه الله إليه في سماءِ الله؟!.

فقال المقوقس وعبارات الاستحسان تتواردُ على لسانه: أحسنتَ، أنتَ حكيمٌ جاءَ منْ عندِ حكيم، وهذه هدايا أبعثُ بها معك إلى محمّد، وأرسل معك مَنْ يبلغك مأمَنك[1].

* ولم يكتفِ المقوقسُ بإظهار إعجابه بحاطب فحسب، وإنَّما اعترفَ بمكانةِ سيدنا محمد ﷺ، وصرّح بهذا لحاطب أمام بطارقته وجَمْعه فقال له: إنّي قد نظَرتُ في أمْرِ هذا النّبيِّ، فوجدتُه لا يأمرُ بمزهودٍ فيه، ولا ينهى عن مرغوبٍ فيه، ولم أجده بالسّاحر الضّال، ولا الكاهن الكَاذب، ووجدتُ معه آيةَ النُّبوّة، بإخراج الخبْء[2] والإخبار بالنّجوى، وسأنظر.

* ثمَّ إنَّ المقوقس أخذ كتاب النّبيِّ ﷺ، فجعله في حقٍّ عاج، وختم عليه، ومن ثمّ دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتبَ إلى رسول الله ﷺ:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلامٌ عليك، أمّا بعد فقد قرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليه، وقد علمتُ أنَّ نبيّاً بقي، وكنتُ أظنُّ أنه يخرج منَ الشّام، وقد أكرمتُ رسولكَ، وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوةٍ، وأهديتُ إليك بغلة لتركبها، والسّلام عليك[3].

* ولم يزدِ المقوقسُ على هذا، ولم يسلمْ أو يُعْلِن إسلامه، وأمّا الجاريتان

---

(١) الاستيعاب (١/ ٣٥٠) والبداية والنّهاية (٤/ ٢٧٢) مع الجمع والتصرف اليسير. وانظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥١) وأسد الغابة (١/ ٤٣٢ و٤٣٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٥١٢).

(٢) «الخبء»: هو الغائب المستور. يشير إلى إخباره بالمغيبات التي أطلعه اللهُ تعالى عليها.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٦٠).

فهما مارية وسيرين[1]، كما كان في الهدية بغلة بيضاء تدعى دُلْدُل.

* وقد اتَّخذ رسول الله ﷺ مارية القبطية[2] سُرِّية له، وهي التي ولدت له إبراهيم؛ وأمّا سيرين، فقد أعطاها لحسَّان بن ثابت الأنصاريّ - رضي الله عنه -[3].

* وهكذا نجحَ حاطب بن أبي بلتعةَ - رضي الله عنه - في سفارته الموفَّقة هذه إلى مصر، وأدّى مهمته أفضَل أداء وأكمله، فكان بذلك من سادة السُّفراء في هذا المجال، حتى في عَصْر الخلفاء الرّاشدين، وفي عهد الخليفة الأوّل أبي بكر الصِّديق - رضي الله عنه -[4].

«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»:

* عندما قرَّر رسولُ الله ﷺ السَّيْرَ لفتح مكةَ المكرمة، كتم هذا الأَمْر، كي لا يصل الخبر إلى قريش، فتُعدَّ العُدَّة لمجابهته، وتصدّه قَبْل أنْ يبدأ في تنفيذ هدفه، وكانت قريش قد نَقَضَتْ عهدها مع النبيِّ ﷺ، ففكّر في الاستعداد لفتح مكةَ لتخليصها منْ مظاهر الشِّرك والوثنية، حتى ينعم النَّاس بالأَمْن والأمان والطُّمأنينة والسلام في ظلال البيتِ الحرام؛ الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ

---

(١) أشار ابنُ سعد - رحمه الله - إلى أنَّ حاطبَ بنَ أبي بلتعة - رضي الله عنه - قد أسلمت مارية وأختها على يديه وهو عائدٌ منْ مصرَ، فقال: عَرَضَ حاطبُ بنُ أبي بلتعة على مارية الإسلام، ورغَّبها فيه، فأسلمتْ. وأسلمت أختها. (طبقات ابن سعد ٨/ ٢١٢).

(٢) اقرأ سيرة السَّيدة مارية القبطية في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والسُّنَّة» ترجمة: مارية القبطية (ص ٤٢١ - ٤٤٣) طبعة دار اليمامة بدمشق، الطبعة الثانية.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥١ و١٥٢) وأسد الغابة (١/ ٤٣٣).

(٤) عندما تولّى أبو بكر الصِّدِّيق - عليه سحائب الرضوان - الخلافة، بعثَ حاطب بن أبي بلتعة ثانية إلى مصر، وليكون سفيره إلى ملكها المقوقس كيما يجدد الدَّعوة إلى الإسلام، وإلى المُسالمة، ذكر هذا ابن عبد البر فقال: بعثَ أبو بكر الصِّديق - رضي الله عنه - حاطبَ بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، فصالحهم، فلم يزالوا كذلك حتى دخل عمرو بن العاص، فنقضوا الصّلح، وقاتلهم، وافتتح مصر، وذلك سنة عشرين في خلافة عمر - رضي الله عنه - (الاستيعاب ١/ ٣٤٩).

في القُرآن العزيز بقوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥][1].

* هذا، وقد سَلَكَ رسولُ الله ﷺ في سبيلِ التكتم على نيّاتِهِ الحقيقية للفَتْح عدّة طُرُق، منها: أنَّه كتم أمْرَه عن أقربِ النَّاس إليه زوجه الطَّاهرة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ وبعثَ سرية إلى بَطْنِ إضم بقيادةِ أبي قَتادة الأنصاري، كما أنّه بثَّ العيون داخل المدينة وخارجها حتى لا تتسرب أخباره إلى قريش.

* إلا أنَّه كان لحاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ قصَّة في هذا الفَتْح الأعظم، وقد سجَّل القُرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة هذه القصَّة، وشهد لحاطب بالإيمان، على الرغم منْ أنَّ حاطباً قد اجتهد، وكان اجتهادهُ في غيرِ موضعه. وسنعيشُ أحداث القصَّة كاملة كما أوردتها المصادر الحديثية وغيرها من كتب التفسير والمصادر الأخرى.

* عندما أكملَ رسولُ الله ﷺ استعداده للسَّيْرِ إلى فتح مكة، كتب حاطبُ بنُ أبي بلتعة كتاباً[2] إلى أهلِ مكةَ يخبرهم فيه نبأ تحرّكِ النَّبيِّ ﷺ إليهم، ثمّ أعطاه امرأةً، وجعل لها جُعلاً[3] على أنْ تبلغه قريشاً، فجعلته في قرونِ رأسها، ثمَّ خرجتْ به.

* ولكنَ الله عزَّ وجلَّ قد أَطْلَعَ نبيّه ﷺ عن طريقِ الوحي بما صَنَعَ حاطب، فقضى الحبيبُ المصطفى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مَهْدها، فأرسل بضعةً من خيار فرسانه كي يحيطوا بمضمون الرسالة.

* عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني رسول الله ﷺ

---

(١) «مثابة للناس»: مرجعاً، أو ملجأ، أو مَجْمَعاً، أو موضع ثوابٍ لهم.

(٢) إن كلماتِ الرِّسالة التي أرسلها حاطب لتشير إلى صِدْقه، وعميق إيمانه، إلا أنَّ بعض لحظات الضَّعف البشري قد استحكمت فيه، فكتبَ ما كتبَ، وإليك نصّ الرسالة: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد توجَّه إليكم بجيشٍ كالليل، يسير كالسَّيل، وأقسمُ بالله لو سارَ إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم، فإنَّه منجزٌ له، ما وعده فيكم، فإنَّ الله تعالى ناصره ووليه. (السِّيرة الحلبية ٣/ ١١).

(٣) «الجُعْل»: ما يُعْطَى على العمل من الأجر.

وأبا مَرْثَد والزُّبير، وكلّنا فارس قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خَاخ[1]، فإنَّ بها امرأة منَ المشركين معها كتاب منْ حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين» فأدركناها تسيرُ على بعيرٍ لها حيثُ قال رسولُ الله ﷺ.

فقلنا: الكتاب.

فقالت: ما معنا كتاب.

فأنخناها، فالتمسنا، فلم نَرَ كتاباً، فقلنا: ما كذبَ رسولُ الله ﷺ، لتخرجنَّ الكتاب أو لنجرِّدنَّك، فلمّا رَأتِ الجدَّ، أهوتْ إلى حُجْزَتها[2] وهي محتجزة بكساء، فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ.

فقال عمر: يا رسول الله! قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه[3].

فقال رسولُ الله ﷺ لحاطب: «ما حملك على ما صنعتَ؟».

قال حاطب: والله ما بي ألاّ أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردتُ أنْ تكون لي عند القوم يد[4]، يدفعُ الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد منْ أصحابك

---

(١) «روضة خاخ»: وادٍ يصبُّ في النَّقيع من الشَّرق، بين رواوة والغضن، بقرب حمراء الأسد من المدينة، وهي روضة طيبةُ المرعى، وقد أكثر الشُّعراء الأقدمون وصفها، وهذا الموضع يعدُّ من أحماء المدينة التي حَماها النَّبي ﷺ والخلفاء الرَّاشدون بعده. (معجم معالم الحجاز ٣/ ٩١).

(٢) «الحجزة»: هي موضع شدِّ الإزار في الوسْطِ، ثم قيل للإزار حجزة للمجاورة، ويقال: احتجز الرجل الإزار: إذا شدّه على وسطه.

(٣) في رواية مسلم (٢٤٩٤): «دعني يا رسول الله أضربْ عُنُقَ هذا المنافق». وإنما أطلق عليه اسم النفاق؛ لأنَّ ما صدر منه يُشبه فِعْل المنافقين؛ لأنه والى كفّار قريش وباطنَهم، وهمَّ بأنْ يُطلعهم على ما عزم عليه ﷺ من غزوهم. لكنَّ حاطباً لم يُنافق في قلبه، ولا ارتدّ عن دينه، وإنما تأوَّل فيما فعل فأخطأ، ولَطَف اللهُ به، ونجّاه لِما علم من صحة إيمانه، وصِدْقه.

(٤) «اليد»: في اللغة: تُطلق ويراد بها معان متعدِّدة؛ والمعنى المراد هنا: أن يكونَ هذا الكتاب إحساناً ومنّة من حاطب لكفار قريش؛ حتى يقوموا بحماية أهله في مكة.

إلا له هناك في عشيرته مَنْ يدفع الله به عن أهله وماله.

فقال النَّبيّ ﷺ: «صَدَقَ، ولا تقولوا له إلا خيراً».

فقال عمرُ: إنَّه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه.

فقال: «أليس منْ أهل بَدْرٍ؟! لعلَّ الله اطلعَ على أهلِ بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنَّة، أو قد غفرتُ لكم» فدمعتْ عينا عمر، وقال: اللهُ ورسولهُ أعلم(١).

* وفي حاطب نزلت هذه السُّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري ـ رحمه الله ـ بهذا اللفظ في كتاب المغازي برقم (٣٩٨٣) باب: فضل مَنْ شهد بدراً.

وأخرجه في كتاب الجهاد بنحو هذا اللفظ برقم (٣٠٠٧) باب: الجاسوس.

وأخرجه كذلك برقم (٣٠٨١) في باب: إذا اضطر الرجل إلى النَّظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصَيْن الله وتجريدهن.

وأخرجه في كتاب التفسير برقم (٤٨٩٠) باب: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

وأخرجه في كتاب الاستئذان برقم (٦٢٥٩) باب: من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمْره.

وأخرجه في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم برقم (٦٩٣٩) باب: ما جاء في المتأولين.

كما أخرجه مسلم ـ رحمه الله ـ في فضائل الصحابة برقم (٢٤٩٤) باب: من فضائل أهل بدر ـ رضي الله عنهم ـ وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

وأخرجه أبو داود في الجهاد برقم (٢٦٥٠) باب: في الجاسوس.

وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير برقم (٣٣٠٢) تفسير سورة الممتحنة.

وأحمد (١/ ٨٠ و١٠٥).

وانظر: المستدرك (٣/ ٣٤١) وأسد الغابة (١/ ٤٣٢) والاستيعاب (١/ ٣٤٨) والإصابة (١/ ٢٩٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥١) والبداية والنّهاية (٤/ ٢٨٣ و٢٨٤) وأسباب النّزول للواحدي (ص ٣٤٦ و٣٤٧) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٠٣ و٣٠٤) والسِّيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٩٨ و٣٩٩) وزاد المعاد (٣/ ٣٩٨ و٣٩٩). وانظر: كذلك تفسير الطَّبري والماورديّ والقرطبيّ والرازي وأبي حيانَ والنَّسفي والبغوي والشَّوكاني والقاسمي وغيرها لصدر سورة الممتحنة.

أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

* وهكذا نلاحظ أنَّ حاطباً قد زكّاهُ رسولُ الله ﷺ، وزكّاه القرآن الكريم بشهادةِ الإيمان، ولكن في النَّفسِ الإنسانية جوانب ضَعْفٍ قد تَطغى في بعضِ الأحايين ـ كما حدث لحاطب ـ إلا أنَّ الحبيبَ المُصطفى ﷺ قد رحمه، ودافع عنه ليخرج ممّا وقع فيه، فسوابقُ حاطب الإيمانية[1] تشهدُ له بالبراءة، لا بل إنَّ رسولَ الله ﷺ قَدْ شهد لحاطب بأنَّه لن يدخلَ النَّار فيما رواه الإمام مسلم بسندهِ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء عبدٌ لحاطب بن أبي بلتعةَ ـ رضي الله عنه ـ أحد بني أسد ـ يشتكي سيِّده فقال: يا رسول الله! ليدخلن حاطب النَّار.

فقال له رسول الله ﷺ: «كذبتَ، لا يدخلها، إنَّه قد شَهِدَ بدراً والحُديبية»[2].

رَحيلُ الفَارِس المغوار:

* حاطب ـ رضوانُ الله عليه ـ واحدٌ من الصَّحابة الذين حلَّقُوا في ميادينِ الفروسيَّة، وتركوا آثاراً وضيئة في العَصْر النَّبوّي، ومما يُضاف إلى سيرته أنَّه كان ممن روى الحديث عن رسول الله ﷺ، روى عنه ولده الفقيه يحيى، وعُروة بن الزبير وغيرهما.

* ومن مروياته عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ اغتسلَ يوم الجُمعة، ولبسَ

---

(١) إنَّ محوَ السَّيئات بالحسَنات في الذِّكر الحكيم ثابت في الأصول لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤] وقوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] وقوله ﷺ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنة تمحها» رواه الترمذي برقم (١٩٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢١٩٥) باب: من فضائل أهل بدر.
والتِّرمذي في المناقب برقم (٣٣٦٣) باب: في مَنْ سبَّ أصحاب النبي ﷺ.
وانظر: شرح السير الكبير (١/ ٣٠٥) وفضائل الصَّحابة للنَّسائي (ص ٥٧) والمستدرك (٣/ ٣٤٠) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٢) والاستيعاب (١/ ٣٤٨) والإصابة (١/ ٣٠٠) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٠٤).

أَحْسَنَ ثيابه، وبكَّرَ وَدَنَا، كانت كفَّارته إلى الجُمعة الأُخْرى»[1].

* وروى حاطب أيضاً عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ رآني بعد موتي، فكأنَّما رآني في حياتي، ومَنْ ماتَ في أَحَدِ الحرمَيْن بُعِثَ في الآمنين يومَ القيامة»[2].

«وامتدتِ الحياةُ بحاطب إلى أواسط خلافةِ عثمان ـ رضي الله عنهما ـ حيثُ توفي سنة ثلاثين للهجرة بالمدينة المنوّرة، وصلى عليه عثمان، وكان عمره خَمْساً وستين سنة»[3].

* وبرحيلِ الفارس حاطب تُطوى صفحة واحدٍ منْ فُرسان مدرسة النّبوّة، ولكنَّ أعماله ستظلُّ تزين جِيْد الدَّهر، وتمتع الأسماع على مرورِ الأيام.

رضي الله عن حاطب، وأدْخَله برحمته، وأكرمه بمغفرتهِ، ورضي الله عن الصَّحابة أجمعين، وأكرمنا بالحشْرِ في معيّتهم، إنَّه عفو كريمٌ سميعٌ مجيب.

* * *

---

(١) أسد الغابة (١/ ٤٣٣).
(٢) الاستيعاب (١/ ٣٤٩).
(٣) أسد الغابة (١/ ٤٣٣) والبداية والنهاية (٧/ ١٥٦) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٢) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥) وغيرها.

(١٧)

سلمة بن هشام

ـ رضي الله عنه ـ

* دعا له رسولُ الله ﷺ فقال: «اللهم أَنجِ سلمة بن هشام».

نداءُ الحَقِّ وَهَمْسُ الإسلام والسَّلام:

* شَهد تاريخُ الإسلام رجالاً كانوا منْ عمالقة دُعاة الحقِّ المبين، والصَّبر في وجْهِ الطُّغيان الغاشم، وكانوا منَ المسارعين إلى الاستجابةِ لنداء الحقِّ وهمسِ الإسلام والسَّلام؛ ذلك الذي دعا إليه سيِّدنا محمَّد رسولُ الله ﷺ النَّاسَ قاطبةً.

* من هؤلاءِ العمالقة الفرسان سلمة بن هشام بن المغيرة المخزوميّ القرشيّ[1]، وهو أخو أبي جهل عمرو بن هشام، وابن عمّ خالد بن الوليد المخزوميّ، ويكنى أبا هاشم.

* كان سلمةُ بنُ هشام قديم الإسلام بمكةَ، أسلم قديماً مع الرَّعيل الأوَّل، وكانَ من فُضَلاء الصَّحابة، بينما كان أبو جهل ـ أخوه ـ يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ، يسمعُ منه القرآن، ثم يذهبُ عنه، فلا يؤمن، ولا يطيع، ولا يتأدَّب، ولا يخشى، ويؤذي رسولَ الله ﷺ بالقول، ويصدُّ عن سبيل الله بكلِّ سبيل، ثم إنَّه يذهبُ مختالاً بما يفعل، فخوراً بما ارتكب من الشَّر، واقترف من سوء الفعل وقُبح الأحدوثة، كأنَّما فَعلَ شيئاً يذكر، ولم يكن أبو جهل ليفيق من غيّه العنيد، بل ازدادَ شقاوة وإجراماً، حتى أضحى من أصحاب السَّعير وبئس المصير.

* كان أبو جهلٍ إذا سمعَ برجلٍ قد أسلم له شرفٌ ومنعة أنَّبهُ، وأخزاه، ووبَّخه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحةِ في المالِ والجاه، وإنْ كان ضعيفاً ضَرَبَه، وأغرى به السفهاء[2].

* ولمَّا علم أبو جهل بأنَّ أخاه الشَّريف الحسيب النَّسيب سلمةَ بنَ هشام

---

(1) طبقـاتُ ابـن سعـد (٤/ ١٣٠ و١٣١) والاستيعـابُ (٢/ ٨٣ و٨٤) والمستـدرك (٣/ ٢٨١) وأنساب الأشراف (١/ ١٩٧ و٢٠٨ و٢١٠ و٤٦٠) ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٩٤ ـ ٩٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (الخلفاء الرَّاشدون ص ٨٣ و٩٣ و١٣٢) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ٢٣٠) والإصابة (٢/ ٦٧) وغيرها كثير.

(2) السِّيرة النبوية (١/ ٣٢٠).

قد أسلم، أرغى وأزبد[1]، وطفقَ يعذِّبه، ولا يرعى حُرمةً ولا قرابةً، فقد كان منْ أكابرِ المجرمين، ومن ألدِّ أعداءِ الحقِّ والحقيقةِ، والدَّعوة المحمّدية.

* في قائمةِ المهاجرين إلى الحبشةِ كان سلمةُ بنُ هشام، وعددٌ منْ أقربائه منَ الذين هاجروا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ إنَّه عاد إلى مكةَ بعد حينٍ منَ الدَّهر ظنّاً منه أنَّ أحوال قريش قد تحسَّنَت، وأنَّهُم استجابوا لنداء الحقِّ، ولكنَّ قريشاً لم تكن كما ظنّوا، بل هاجمَ المشركون هؤلاء المؤمنين هجوماً عنيفاً، وضيَّقوا عليهم، وحَبَسُوهم في الأغلالِ. وقد احتُبس سلمة بمكةَ، حَبَسه أبو جهل، وأجاعه، وأعطشه، وعُذِّب في الله عزَّ وجلَّ، ومنعه الكفَّار من الهجرة إلى المدينة المنورةِ مع المهاجرين[2].

«اللهمَّ أَنجِ سَلَمَةَ بنَ هِشَام»:

* ظلَّ سلمة بنُ هشام ـ رضي الله عنه ـ في حَبْسِ الفَجرة الظَّالمين حيناً منَ الدَّهر، ودامت محنتُه سنواتٍ وسنوات، ولكنَّ سلمةَ ضربَ مَثَلاً شروداً في تحدِّي رغبات الفجرة الكفرة، وصَبَرَ على سَفَهِ عشيرته الأقربين، وعلى أذاهم، وحاولوا بكلِّ وسيلة أنْ يفتنوه عن دِينه، فلمْ يُفلحوا، وما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وربَّما أَغرَوْه ورغَّبوه في أشياءَ وأشياء، فأبى سلمة، واستعصم بالله العزيز الحميد.

* وصَلَ خبرُ صَبْرِ سلمة رسولَ الله ﷺ فأخذ يدعو له ولمنْ معه مِنْ المستضعفين؛ وقد ثَبَتَ في الصَّحيحَيْنِ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يدعو في قنوته في الصَّلاة له ولغيره من المُستضعَفين، ويُسمِّيهم.

* عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قَنتَ في صلاةِ العتمة شهراً، يقولُ في قنوته: «اللهم أَنْجِ الوليد بن الوليد، اللهم أَنْجِ سلمة بن هشام، اللهم أَنْجِ عياش بن أبي ربيعة، اللهم أَنْجِ المستضعفين من المؤمنين،

---

(1) «أرغى وأزبد»: أي: ضجَّ غضباً، وتوعَّد، وتهدَّد.
(2) أنساب الأشراف (١/ ٢٠٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٣٠) مع الجمع والتصرف اليسير.

اللهمَّ اشددُ وطأتَك على مضر، اللهمّ اجْعَلْهَا عليهم سنين كسنيّ يوسفَ».

قال أبو هريرة:

وأصبحَ ذاتَ يومٍ فلمْ يَدْعُ لهم، فذكرتُ ذلك له، فقال:

«أو ما تراهم قدموا؟!»[1].

متى هَاجَر سَلمة؟

❊ يُعدُّ سلمة ـ رضيَ الله عنه ـ منَ المهاجرين إلى اللهِ ورسولهِ، فقد كانت هجرتُه إلى المدينةِ بعد غزوة الخندق، وكانَ قد أفلتَ مِنْ إساره مع عيَّاش بنِ أبي ربيعة، وقدم بهما الوليدُ بنُ الوليدِ بنِ المغيرة، وجاء الخبر قريشاً بأنَّ هؤلاء قد أفلتوا وهربوا، فخرجَ خالدُ بنُ الوليد معه نفَرٌ منْ قومه، حتى بلغوا

---

(1) هذا الحديث أخرجه أصحاب الكتب السّتة في دواوينهم، فقد أخرجه الإمام البخاري:
في الاستسقاء؛ باب: دعاء النبيّ ﷺ: اجعلها عليهم سنين كسني يوسفَ.
وفي الجهاد؛ باب: الدُّعاء على المشركين بالهزيمة والزَّلزلة.
وفي الأنبياءِ؛ باب: قول اللهِ تعالى: ﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.
وفي التَّفسير: تفسير سورة آل عمران، باب: ليس لكَ منَ الأمر شيء، وتفسير سورة النِّساء، باب: قوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾.
وفي الأدب، باب: تسمية الوليد.
وفي الدعوات، باب: الدُّعاء على المشركين.
وأخرجه مسلم في المسَاجد برقم (٦٧٥) باب: استحباب القنوت في جميعِ الصَّلاة.
وأخرجه أبو داود في الصَّلاة برقم (١٤٤٢) باب: القنوت في الصَّلوات.
وأخرجه النَّسائي في الافتتاح (٢/ ٢٠١) باب: القنوت في صلاة الصُّبح.
وأخرجه ابنُ ماجه في الإقامة برقم (١٢٤٤) باب: ما جاء في القنوت في صلاة الفجرِ.
وانظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٣٠) ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٩٥) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٣٠).

عُسفان(١)، فلم يصيبوا لهم أثراً، ولا عرفوا خبراً عنهم. وكان القوم قد خرجوا على الطَّريق التي سلكها النَّبيُّ حينَ هاجرَ إلى المدينةِ المنوّرة.

* ولما علمتْ أمُّ سلمة بنت هشام بإفلاته وهجرته، أنشأت ترتجزُ، وتقول:

اللهمَّ ربَّ الكَعْبَةِ المُسَلَّمَهْ ... أظهِرْ على كلِّ عدوٍّ سَلَمَهْ
لـه يَـدَان فـي الأُمورِ المُبْهَمه ... كَفٌّ بها يعطي وكفٌّ مُنْعِمه(٢)

* واستقبل الصَّحابة في المدينةِ أخاهم سلمةَ بنَ هشام المخزوميّ، وراحَ سلمةُ يعوِّضُ ما فاته، فأخذ يتعلَّم، ويتفقَّه، إلى أنْ غدا مُقْتَعِداً سدَّة الفَضْل مع غيره من فُضَلاء الصَّحابة، وأخذ يشارِكُ المسلمين بأعمالهم، وغزواتهم، وعباداتهم، وما شابه ذلك.

* ولقد أثنى القرآنُ الكريم على سلمةَ بن هشام ومَنْ صبر مِنَ الصَّحابة معه في محنته، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] فقد ذكر الطَّبريُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيرِهِ لهذه الآية، أنَّ مِنْ هؤلاء المهاجرين الصَّابرين سلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ.

* هذا، وقد ذكر الله عزَّ وجل سلمةَ في موضع آخر فقال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] فقيل: هؤلاء هم: سلمة بن هشام، والوليد بن الوليد، وعيّاش بن أبي ربيعة، خرجوا من مكةَ مهاجرين، فردهم المشركون، وآذوهم، ثم خرجوا، فقاتلوهم، فقُتل بعض، وسَلِم بعض(٣).

---

(١) «عُسفان»: قرية جامعة بين مكة والمدينة.
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ١٣١) والاستيعاب (٢/ ٨٤) ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٩٦) والمستدرك (٣/ ٢٨١)، وأم سلمة بنت هشام هي: ضباعة بنت عامر بن قرط القشيرية.
(٣) انظر: تفسير البغويّ معالم التنزيل (٥/ ١٥٥) ولقد خَلَعَ القرآنُ الكريم رداء الإيمان=

مِنَ الكُرَّار في سَبيْلِ الله:

* في جمادى الأولى منْ عام ثمانٍ للهجرة، خرجَ جيشُ المسلمين من المدينةَ بإمارةِ زيد بن حارثة[١] ـ رضي الله عنه ـ إلى مؤتة، وكان من عداد الجيش الغازي ـ وعدَّته ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار ـ سلمةَ بن هشام، وودعهم المسلمون قائلين: صَحِبَكُم الله، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا سالمين غانمين.

* هذا؛ وقد شيَّعَ هذا الجيشَ رسولُ الله ﷺ بوصيةٍ[٢] كريمة فيها

= على سلمة بن هشام، وشهد اللهُ عزَّ وجلَّ له ولأقرانه بالإيمان، بل ذكرهم بأنَّهم مؤمنون فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥] قال المفسّرون: الرِّجال المؤمنون هم: المستضعفون بمكة المكرمة من المؤمنين كسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، وأبي جندل، وأبي بصير ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

(١) اقرأ سيرةَ هذا البطل الحِبّ المحبوب زيد بن حارثة في ثنايا هذا الكتاب ص (١٢٦).

(٢) كانت وصيةُ رسولِ الله ﷺ تحملُ الخلائقَ الكريمةَ الرَّحيمةَ الودودة، وقد ورد نصّ هذه الوصية في الصَّحيح والسُّنن، وها ذا أنا ذا أوردُ نصَّ الوصية كما جاءت في مسند أبي يعلى ـ رحمه الله ـ فيما أخرجه بسنده عن بُريدة بن الحصيب عن النَّبيّ ﷺ أنَّه كان إذا بعثَ سرية، أو جيشاً، أوصى صاحبها بتقوى الله في خاصة نفسه، وأوصاه بِمَنْ معه مِنَ المسلمين خيراً ثمّ قال:
«اغزوا باسم الله، قاتِلوا مَنْ كَفَرَ بالله، لا تغلُوا، ولا تَغْدِروا، ولا تمثلُوا، ولا تقتلُوا وليداً، فإذا لقيتُم عدوّكم مِنَ المشركينَ، فادعُوهم إلى الإسلامِ، فإنْ أسلمُوا فاقبلُوا منهم وكُفُّوا عنهم، ثمّ ادعُوهم إلى التَّحولِ منْ دارهم إلى دارِ المسلمين، فإنْ فَعلُوا فاقبلوا منهم وإلا فأخبروهم أنَّهم كأعرابِ المسلمين يجري عليهم حُكْمُ اللهِ الذي يجري على المسلمين، وليس لهم في الفيء ولا في الغنيمةِ نصيبٌ، فإنْ أبوا ذلك فادعوهم إلى إعطاءِ الجزية، فإنْ فعلوا فاقبلوا منهم، وكفُّوا عنهم، فإذا حاصرتم حصناً أو مدينة، فإنْ أرادوكم أنْ تُنزلوهم على حكمِ الله، فلا تنزلوهم، فإنكم لا تدرونَ ما حكمُ الله، ولكنْ أنزلُوهم على حكمكم، ثمّ احكموا فيهم ما رأيتم، وإذا حاصرتم قصراً فلا تعطوهم ذمّة الله، ولا ذمّة رسوله، ولكنْ أعطوهم ذممكم وذمم آبائكم، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم أهون». (مسند أبي يعلى =

كلّ معاني الإنسانية.

* بلغَ المسلمونَ مؤتةَ، وقاتلوا، وقُتِلَ قادةُ الجيش كلُّهم: زيدُ بن حارثة، وجعفرُ بن أبي طالب، وعَبد الله بن رواحة، وأبلى المسلمونَ يومَها بلاءً كريماً لا يُنسى، كما أبلى يومذاك الفارسُ البطل الكميُّ خالد بن الوليد[1] بلاءً محموداً مشهوراً مشهوداً له في تاريخ الفروسيّة، واستطاعَ بقيادتهِ العسكرية الميمونةِ أنْ يحافظَ على سلامةِ الجيْش المسلمِ أمام جيش العدّو الذي يبلغُ عدده قرابة مئتي ألف مقاتل، وبعبقريةِ خالد الحربية انسحبَ بجيشهِ، وهم موفورو العدد، محفوظو الكرامة، بعد أنِ اتَّخذَ اللهُ بضْعَة شهداء قيل: إنَّهم اثنا عشر شهيداً[2].

* عاد الجيشُ الغازي نحو المدينة المنوّرة، وخرجَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون للقاءِ الجيش، فجعل النَّاس يحثون التُّراب على الجيشِ، ويقولون لهم: يا فرار! فررتم في سبيلِ الله؟!.

= ٣/٦ و٧)

(١) اقرأ سيرة خالد بن الوليد ـ رضوان الله عليه ـ من هذا الكتاب ص(٨٢).

(٢) لقد سجّل العلامةُ الحافظُ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ إعجابه بهذا النَّصرِ الذي حدثَ للمسلمين في مؤتةَ فقال: هذا عظيمٌ جداً أنْ يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّينِ.
أحدهما: وهو الفئةُ التي تقاتل في سبيل الله، عدتها ثلاثة آلاف.
وأخرى: كافرة وعدتها مئتا ألف مقاتل؛ منَ الروم مِئة ألف، ومن نصارى العرب مئة ألف، يتبارزون، ويتصاولون، ثمَّ مع هذا كلّه لا يُقتلُ مِنَ المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتل منَ المشركين خَلْقٌ كثير.
هذا خالد وحده يقول: لقد اندقتْ في يدي يوم مؤتةَ تسعة أسيافٍ، فما بقيَ في يدي إلا صفيحة يمانية. فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلّها؟!
ومعه غيره من الأبطال والشُّجعان مِنْ حملةِ القرآن، وقد تحكَّمُوا في عبدة الصُّلبان ـ عليهم لعائن الرحمن ـ في ذلك الزَّمان وفي كلّ أوان.
وهذا ممّا يدخل في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣] (البداية والنّهاية ٤/٢٥٩) وانظر: صحيح البخاري حديث رقم (٤٢٦٥ و٤٢٦٦).

* لكنَّ الحبيبَ المصطفى رسول الله ﷺ الرؤوف بالمؤمنين، الرَّحيمَ بالفرسانِ المجاهدين. قد أطْلَعه اللهُ عزَّ وجلَّ على بواطنِ الأمور، وما قُدِّر للجيش الغازي في سبيل الله وقال لهم: «ليسوا بالفرارِ، ولكنّهم الكُرّار إنْ شاء الله».

* واعتزل سلمة بن هشام النّاس في بيتهِ، وذلك استحياء مِنْ سماع تلك الكلمة الثّقيلة التي تجثم بكَلْكَلِها على نفسه وعلى سمعه ـ وهو الفارس الشُّجاع ـ أنْ يُقالَ له ولغيره: «يا فُرّار» على الرَّغم من منافحةِ وثناءِ رسول الله ﷺ عليه وعلى أصحابه.

* وَرَدَ في المصادر الوثيقة أنَّ امرأةَ سلمة بن هشام، قد دخلت على أمِّ سلمةَ زوجِ النَّبيِّ ﷺ، فقالت أمُّ سلمة: ما لي لا أرى سلمة بن هشام يحضر الصَّلاة مع رسول الله ﷺ! أيشتكي مَرَضاً؟!.

قال امرأته: لا واللهِ! ولكنَّه لا يستطيع الخروج؛ إذا خرجَ صاحوا به وبأصحابه: يا فُرّار أفررتم في سبيلِ الله؟! حتى قَعَدَ في بيتهِ ما يخرج.

فذكرتْ ذلك أمُّ سلمة لرسول الله ﷺ فقال: «بل همُ الكرّار في سبيلِ الله، فليخرجْ» فخرج[1].

* إنَّ هذا لدليلٌ على عظمةِ ما بلغَ إليه الخلقُ الإسلاميُّ آنئذٍ من حبِّ البطولةِ، وإيثار الشَّهادة في سبيلِ الله على الفرار، والاستحياء من المثالبِ والمساوىء، وتقديرِ للقيمِ الخلقية، والمعاني الأدبيّة، وبهذا نستدلُّ على مكانةِ سلمة وأخلاقه الكريمة في عالَم الصَّحابة الأبرار ـ رضوان الله عليه ـ.

* وظلَّ سلمةُ ـ رضوان الله عليه ـ منَ الفرسانِ الذين لزموا مجالسَ رسولِ الله ﷺ، ومشاهده، حتى لحقَ النَّبيُّ ﷺ بالرَّفيقِ الأعلى وهو راضٍ عن سلمة؛ لِما عَرَف فيه من شرائط العلم، ومعالم التقى، وألوان الفروسية الحقَّة.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٠/ ٩٥) والإصابة (٢/ ٦٧) مع الجمع والتصرف اليسير.

ظَفَرُهُ بالشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ تعالى:

* ذَهَبَ اللجاجُ، وبُويع الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فأخَذَ أبو بكر يجهزُ الجيوشَ لجهادِ الرُّوم، وكان سلمة بن هشام ـ رضي الله عنه ـ في عدادِ الجيوشِ المؤمنةِ. وفي فريقِ الفرسانِ الذين انطلقوا إلى بلاد الشَّام لإعلاءِ كلمةِ الله عزَّ وجلَّ، مخلصاً في توجُّهه، مطيعاً لوليِّ أمره.

* خرجَ سلمة إلى الشَّام مجاهداً، وهو يرجو أنْ يظفرَ بالشَّهادة، والتقى الرُّومَ في بعضِ المواقع؛ ولما كانتْ موقعةُ مَرْج الصُّفْرِ، قاتل سلمة قِتالاً شديداً، وصَدَقَ الله عزَّ وجلَّ ما عاهده عليه، حتى ظفر بالشَّهادة مع الشُّهداء يوم إذ، فحقَّق أمنيته، وكأنَّ لسان حاله يقول:

سأحملُ روحي على راحتي ... وأُلْقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرُّ الصديق ... وإمَّا مماتٌ يغيظ العدا
ونفسُ الشهيد لها غايتان ... بلوغُ الأماني ونيلُ المنى

* كان استشهاد سلمة في شهرِ المحرَّم سنة أربع عشرة[1] من الهجرة في أوَّل خلافةِ عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ ويضمُّ ثرى الشَّام واحداً من فرسان رسولِ الله ﷺ الذين رووا الأرض بدمائهم الطاهرة، وهم يرجونَ رحمة الله عزَّ وجلَّ ويبتغون فضله. فرضيَ اللهُ عن سلمةَ بنِ هشام وجَعَله مع الذينَ أنعم عليهم، وحشرنا في زمرتهم، إنَّه كريمٌ حليم.

ونسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ شهادةً في سبيله، ونجاة يوم العرض عليه؛ إنه نِعْم المولى، ونِعْم النصير.

* * *

---

(١) المستدرك (٣/ ٢٨١).

(١٨)

شماس بن عثمان

ـ رضي الله عنه ـ

وصفَ ﷺ شجاعته فقال: «ما وجدتُ لشمّاس بن عثمان شبيهاً إلا الجُنَّـة».

سيرةٌ زاكيةٌ وضيئة:

* نشأ ونشأ معه نصيبٌ منَ الجمالِ والصَّباحة؛ إذ عرفته مكة بأنَّه منْ أجملِ النَّاسِ وجهاً، حتى لقد نسَوْا، أو تناسَوْا اسمَه الحقيقيَّ، فدعَوْه شمَّاساً، أمّا اسمه فهو عثمانُ بنُ عثمان بنِ الشَّريد القرشيّ المخزوميّ[1].

* قال ابنُ سعدٍ ـ رحمه الله ـ: كان اسمُ شمّاس: عثمان، وإنَّما سُمّي شماساً[2] لوضاءته، فغَلَب على اسمه.

* وأمُّ شمّاس هي: صفيةُ بنتُ ربيعة بن عبد شمس أخت عتبة بن ربيعة العبشمّي، فشماس إذاً ابن أخت عتبة بن ربيعة[3]، أحد زعماء المُشركين بمكةَ.

* أمّا زوجُ شمّاس فهي: أمُّ حبيب بنت سعيد المخزوميّة، وله من الولد ابنه: عبد الله بن شمّاس بن عثمان.

* في مكةَ أمِّ القُرى كانت حياةُ شمّاس، وفي بني مخزوم دَرَج، وترعرع، حيثُ المال والجاه.. حيثُ عرفَ حياة النَّعيم والرَّخاء. وكان شمّاس أيضاً

---

(1) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٥ و٢٤٦) ومغازي الواقديّ (١/ ١٥٥ و٢٥٧ و٣٠٠ و٣١٢) والسِّيرةُ النبويةُ (٢/ ١٢٢ و١٦٧ و١٦٨) والمحبّر (ص ٧٣ و٤٣٣) والاستيعابُ (٢/ ١٥٣ ـ ١٥٥) وأنسابُ الأشراف (١/ ٢٠٧ و٣٢٨ و٣٣٦) وتاريخُ الإسلام للذهبي (المغازي ص٢٠٠ و٢٠١) والإصابة (٢/ ١٥٢) وغيرها من المصادر.

(2) ذكر ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ نقلاً عن ابن هشام قال: اسم شمّاس: عثمان، وإنّما سُمّي شماساً، لأنَّ شماساً من الشَّمامسة، قدمَ مكةَ في الجاهليةِ، وكان جميلاً، فعجبَ النَّاس من جمَالهِ، فقال عتبةُ بنُ ربيعة ـ وكان خال شمّاس ـ: أنا آتيكم بشمّاس أحسنَ منه؛ فأتى بابن أخته عثمان بن عثمان، فسمّي شمّاساً من يومئذ، وغلب ذلك عليه (الاستيعاب ٣/ ٨٩).

(3) عتبةُ بنُ ربيعةَ بن عبد شمس القرشيّ: أحد المبارزين في معركة بَدْر، جَرَحَهُ عُبيدة بن الحارث المطلبيّ، وذفف عليه حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب، هذا؛ وقد توسعتُ في سيرة عتبة في كتابي: «المبشّرون بالنار» الجزء الثاني.

يُعرفُ بابن ساقي العَسَل، فقد كان أحد أجداده ـ ويدعى: هرمي بن عامر المخزوميّ ـ يسقي النَّاس العَسَل بمكةَ المكرمةِ[1].

* ولكنَّ هذه الأشياء، والمظاهر كلّها لمْ تفعلْ شيئاً مع شمّاس عندما استضاء قلبُه بنورِ الإيمان، وأنوار اليقين، إذ دخل في الإسلام مُبكّراً، وهو لا يزالُ فتى في ريعان الشَّباب، وبداية زَهْر العمر، فتألّق في عالمِ مشرقٍ جديدٍ.

* ويبدو أنَّ ملاحته قد أضْفَتْ عليه صفاءً روحيّاً، إذ عُرِفَ بنقائهِ، وسلوكه طريقَ الاستقامة، كما اشتهر بفضائل المكارم، ومكارم الفضائل، وحميد الفِعال، من سخاءٍ، وكرم، وعطْفٍ على المَساكين، كما عُرِفَ بجودةِ الرَّأي، وحُسْنِ الحديث، وغيرها من الشمائل اللطيفة؛ التي توحي باندراجه في معارج العلياء.

* وقد أراد اللهُ عزَّ وجلَّ بشماسٍ خيراً؛ ليكون من فرسان الرَّسول ﷺ، ولتكونَ سيرته عطرة تَصِلُ الحاضرَ بالماضي، وترفدُ النُّفوس بأريجٍ معطار نديٍّ، يظلُّ فواحاً بأعطرِ الطِّيب على مرِّ الأَزْمانِ، وتكرار العصور والأوان.

انخراطه في سِلْكِ المؤمنين المُهَاجِرينَ:

* عندما بدأَتْ أفواجُ المؤمنين المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الثَّانية، كان شمَّاس بن عثمان منَ الذين سجَّلُوا هجرتهم إليها، تصحبه بذلك زوجه أمّ حبيب بنت سعيد المخزوميّة، وبعد أنْ مكَثَ مدَّة في الحبشةِ رجع إلى مكَّةَ، ومن ثمَّ هاجرَ إلى المدينةِ، فكان وزوجه من أصحاب الهجرتين.

* ترك شمَّاس مراتع صباه، وغادر الأهل والأقربين بمكةَ، وهاجر في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ ليكونَ له أَجْر المجاهدين المهاجرين، وناهيك بذلك من أجرٍ جزيل.

* وفي المدينةِ المنوَّرة استقبله أحد أجوادِ الأنْصار، وكرمائهم، وهو

---

(1) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٢٠٧).

مبشّر بن عبد المنذر[1]، وأنزله ضيفاً عنده، وآثره على نفسه، وأحسن مثواه؛ هذا؛ وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين شمَّاس وبين غسيل الملائكة[2] حنظلة بن أبي عامر الأنصاري، وكلاهما فارسٌ مغوار.

* ومن عجائبِ الموافقاتِ أنَّ هذين الفارسَيْن المؤمنَيْن الكريمَيْن؛ اللذين آخى بينهما النَّبيُّ ﷺ في اللهِ عزَّ وجلَّ، قد تآخيا أيضاً في ساحةِ الجهاد ورحابِ الفروسيّة، بل ولزمتهما المؤاخاة، وثبتا على المؤاخاة في الشَّهادة والاستشهاد، إذ لقيا ربّهما عزَّ وجلَّ في غزاةٍ واحدة، هي غزوةُ أحد، فأكرمْ بهما من فارسَيْن شهمَيْن؛ وأكرمْ بها من شهادة!.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾:

* دعا داعي الجهاد إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات والأرض، فهبَّ شمَّاسُ - رضي الله عنه - يسعى ليكونَ من أبطالِ رسولِ الله ﷺ وفرسانه، الذين ادَّخرهم ليومٍ من أيامِ الله، إنَّه يوم بَدْرٍ الذي شهده شمَّاس، وكُتِبَ من أهل بدر الذين كانوا يومها خيرَ أهلِ الأرضِ، ونال من شرفها وثوابها ما جعله في قائمة السُّعداء الأخيار، والصَّحابة الصالحين الأبرار.

* وفي بدرٍ قُتل خالاه عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وكذلك ابنُ خاله الوليد بن عتبة، فلم يتأثَّر لأنَّهم ماتوا على الشِّرك، بل كان يُكْبِرُ ابنَ خاله المؤمن

---

(١) مبشّر بن عبد المنذر بن رفاعة الأنصاريّ الأوسيّ: أحد الأنصار الأخيار، كان منزله نُزُلاً كريماً للمهاجرين من مكة كشماس بن عثمان وغيره من الصحابة الكرام. شهد مبشّر غزاة بدر، وقُتِل يومئذ شهيداً، قتله أبو ثور، وقد أسهم له رسول الله ﷺ من غنائم بدر. (طبقات ابن سعد ٣/ ٤٥٦) بتصرف.

(٢) «غسيلُ الملائكة»: حنظلةُ بنُ أبي عامر الرَّاهب، التقى هو وأبو سفيان بن حرب، فلمّا استعلاه حنظلة رآه شدّاد بنُ الأسود، فضرب حنظلة بالسيف فقتله، وذُكِرَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ صاحبكم لتغسله الملائكة يعني حنظلة - فَسَلُوا أهله ما شأنه؟» فسُئلت زوجته فقالت: خرج وهو جنبٌ حين سمع داعيَ الجهاد، فقال النَّبي ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة» ومن هنا دُعي غسيل الملائكة - رضي الله عنه -.

أبا حذيفة بن عُتبة[1] الذي وَقَفَ كئيباً ينظر إلى مَقْتِلِ أبيه عتبة، فرآهُ رسولُ الله ﷺ متغيّراً حزيناً، فقال له: «لعلّك قد دخلك منْ شأنِ أبيك شيء؟» قال: لا واللهِ! ما شككتُ في أبي، ولا في مصرعه، ولكنّي كنتُ أعرفُ له رأياً وحلماً، فكنتُ أرجو أنْ يسلمَ، فلمّا رأيتُ ما أصابه، ومات عليه، أحزنني ذلك، فدعا له النَّبيُّ، وقال له خيراً[2].

* وجاءت غزاةُ أحدٍ، فانطلق شمَّاس مع المجاهدين لإعلاء كلمةِ الله تعالى، ولما حميَ الوطيسُ، واحمرّ البأسُ، انخرط في صفوفِ المشركين يجاهدُ بقوة، ويقاتلُ بشراسة، وقد أبلى بلاءً حسَناً، ولما اقتربَ المشركينَ منْ رسولِ الله ﷺ، وقف شمَّاس - رضي الله عنه - قُرْبَ رسولِ الله ﷺ يقيه بجسمه، ويفديه بنفسه، حتى شبَّهَه بالتُّرس الذي يحمي صاحبه فقال: «ما وجدتُ لشمَّاسٍ بنِ عثمان شبيهاً إلاَّ الجُنَّة»[3] يعني مما يقاتل عن رسولِ الله ﷺ يوم أحد، وجعل شمَّاس يدافعُ بسيفه، وجعل جسمه ترساً حولَ رسولِ الله ﷺ كي يفديه بنفسه، وهو صامتٌ[4]

---

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٤٢٤).

(٢) تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص٦٣).

(٣) روى ابنُ الأثير في «أسد الغابة» والسَّخاوي في «التّحفة اللطيفة» أنَّ رسول الله ﷺ قال عن شمّاس بن عثمان «ما شبهتُ بعثمانَ إلا الحيّة» أي: لمهارته في القتال دفاعاً عنْ رسول الله ﷺ.

(٤) من شروط القتال النّاجح: الصّمتُ في ميدان المعركة، لأنَّ رفع الأصوات، ومناداة الشّخصيات البارزة، أو الإشارة إلى أماكنهم في ميدان المعركة من الأمور المحظورة التي ينبغي على الفارس تجنّبها لما يحدثه ذلك منْ أثرٍ سيّئ.
ومنَ الأمثلةِ على ذلك ما رواه كعبُ بن مالك الأنصاريّ - رضي الله عنه - قال: لما كان يوم أحد، وصرنا إلى الشّعْب، كنتُ أوّلَ مَنْ عرفته - أي: النّبيّ ﷺ - فقلتُ: هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ بيده، أن اسكت. (مجمع الزّوائد ٦/١٢٢).
والرسولُ ﷺ معصومٌ منَ النّاس، ولكنَّ في ذلك إرشاد للمؤمنين، وتعليم للمجاهدين من بعده إلى كتمان الأصوات التي قد تؤدي إلى إلحاق الضّرر بالمسلمين.
هذا؛ وقد اقتدى الصّحابة الكرام - رضي الله عنهم - بالرسول ﷺ في هذا الشّأن، =

لا يرفعُ صوته، ولا ينادي أحداً.

* كانَ رسولُ الله ﷺ لا يرمي ببصرهِ يميناً ولا شمالاً إلا ورأى شمَّاساً في ذلك الوجه يذبُّ بسيفه حتى غُشيَ رسولُ الله ﷺ، فترَّسَ بنفسه دونه حتى قُتل، وكان الذي قتله أُبيُّ بنُ خَلفَ الجُمَحيّ؛ أحد الأشقياء المبشَّرين بالنار(١).

* وحُمِلَ شمَّاسُ إلى المدينة وبه رَمَقٌ، فأُدْخِلَ على عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ فقالت أمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: ابنُ عمّي يُدخَل على غيري؟! فقال رسول الله ﷺ: «احملوه إلى أمّ سلمة» فحُمِلَ إليها، وظلَّ يوماً وليلة لم يذقْ شيئاً، فماتَ عندها، وصَعِدَتْ روحهُ إلى ربِّها راضية لتقتعد مع المتقينَ في جنَّاتٍ ونَهَرٍ، عند المليك المقتدر، فهنيئاً له الشَّهادة!

* وبلغَ رسول الله ﷺ وفاة الفارس الشَّهم الشَّاب شمَّاس بن عثمان ـ رضي الله عنه ـ فأمر أنْ يُردَّ إلى أُحُد، ليثويَ مع الشَّهداء الذين قَضَوْا نَحْبَهم هناك، بعد أنْ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانوا فرسان المدرسة المحمّدية ـ رضي الله عنه ـ والمدافعون عن بيضة الدِّيْن الحنيف.

* ودُفنَ شمَّاس مع شهداء أحدٍ بثيابه التي استشهد فيها، ولم يُصَلِّ عليه رسول الله ﷺ، ولم يغسله، بل ظلَّ بدمائه التي سيأتي بها يوم القيامة، اللون لون الدَّم، والرِّيح ريحُ المسك.

* كانَ عُمُر شمَّاس يوم أنْ نالَ الشَّهادة أربعاً وثلاثين سنة، فهو شابٌّ نشأ في طاعة الله، وجاهد في سبيل الله حقّ الجهاد، ونال شرف الشّهادة، والشُّهداء أحياءٌ عند ربِّهم يرزقون.

شَمَّاس حيٌّ في ذَاكِرَةِ التَّاريخ:

* كُتِبَ شمَّاس بن عثمان ـ رضي الله عنه ـ في قائمة الشُّهداء، وظلَّ

= فكانوا يكرهون رفع الأصوات في ميدان القتال، كما روى أبو داود ذلك في السُّنن في كتاب: الجهاد.

(١) اقرأ سيرة هذا الشقي الضَّال في كتابنا «المبشّرون بالنار» (٢/ ٤٥ ـ ٦٨).

التَّاريخ يحتفظُ بالوفاء له، كما كان أهله وذووه يحتفظون بذكراه، فقد رثته زوجه أمّ حبيب بنت سعيد ـ وسمّاها ابن إسحاق: «نُعْم» ـ فقالت: تبكيه:

يـا عيـنُ جـودي بفيـضٍ غيـر إبسـاسِ
علـى كـريـمٍ مـنَ الفتيـان أبَّـاسِ[1]

صعْـبِ البـديهـةِ ميمـونٍ نقيبتُـه
حمّـالِ ألـويـةٍ ركّـاب أفـراس[2]

أقـولُ لمـا أتـى النّـاعـي لـه جَـزَعـاً
أودى الجَواد وأودى المطعِم الكاسي[3]

وقلـتُ لـه لمَّـا خَلـتْ منـه مجـالسـه
لا يبعـدُ الله عنَّـا قُـرب شمـاس

* فعزَّاها حسَّان بن ثابت[4]، وقيل: أخوها أبو الحكم بن سعيد بزوجها شمَّاس، وذكَّرها بسيِّد الشُّهداء حمزة بن عبد المطَّلب أسد الله، فقال:

اقني حياءَكِ في سترٍ وفي كرمٍ ... فإنَّما كانَ شمَّاسٌ منَ النَّاسِ[5]

لا تقتلي النَّفسَ إذْ حانتْ منيَّتُه ... في طاعةِ اللهِ يوم الرَّوع والباسِ[6]

قد كان حمزةُ ليثَ الله فاصطبري ... فذاق يومئذٍ منْ كأسِ شمَّاس[7]

---

(١) «الإبساس»: أن تمسح ضرع الناقة لتدر، وتقول لها: بس، بس. وقد استعارت هذا المعنى للدمع الفائض بغير تكلّف.
و«أبّاس»: الشديد الذي يغلب غيره، وورد في بعض المصادر: لبّاس: وهو صيغة مبالغة للذي يلبس أداة الحرب.

(٢) «البديهة»: أول الأمر والرأي. و«ميمون النقيبة»: مسعود الفعال.
و«الألوية»: جمع لواء، وهو العَلَم.

(٣) «أودى»: هلك. و«المطعم الكاسي»: الجواد الذي يطعم الناس ويكسوهم.

(٤) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص٣٩٠).

(٥) «اقني حياءك»: الزمي حياءك.

(٦) «يوم الروع»: يوم الفزع، وهو يوم الناس والقتال.

(٧) انظر: السيرة النبوية (١٦٨/٢).

* والآن، وداعاً شمَّاس بن عثمان، رضي الله عنك، وسلامٌ عليك في الشُّهداء والصَّالحين، فلقد كنت زين الشباب المجاهدين؛ الذين حملوا راية الكفاح لتعلو كلمة التوحيد خفّاقة في سماء الإسلام.

* * *

(١٩)

عامر بن ربيعة

ـ رضي الله عنه ـ

هاجرَ إلى الحبشَة الهجرتين جميعاً، ثمّ إلى المدينة، وشهد المشاهد كلّها بمعيّةِ الرّسولُ ﷺ.

بُـذُورُ الإيمـان الأولى:

* كان من العربِ في الجاهلية مَنْ يَدينُ بشريعةِ سيّدنا إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسلام ـ في الألوهيّة والتّوحيد، والإيمان بالبعثِ، واليوم الآخر، وأنَّ رسولاً سيبعثُ في آخر الزّمان، ويُخرجُ اللهُ به النّاس منَ الظُّلمات إلى النُّور، وهم الحنيفيون(١)، واشتهر منهم: قسُّ بنُ ساعدةَ الإياديّ، وورقةُ بنُ نوفل، وزيدُ بنُ عمرو بنِ نفيل، وغيرهم.

* كان زيدُ بنُ عمرو بن نفيل يعيبُ على قريش ذبائحهم، ويقول: الشّاة خلقها اللهُ، وأنزل لها منَ السّماء، وأنْبَتَ لها منَ الأرض، ثمَّ تذبحونها على غير اسمِ الله؟!.

* روى الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ تعليقاً(٢) عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيتُ زيدَ بنَ عمرو بن نفيل قائماً مُسْنِداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش! واللهِ ما منكم على دِيْنِ إبراهيم غيري؛ وكان يُحيي الموءودة، ويقول للرّجل إذا أراد أنْ يقتلَ ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعتْ قال لأبيها: إنْ شئتَ دفعتُها إليك، وإن شئتَ كفيتُك مؤنتها(٣).

وروى ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ أنَّ زيدَ بنَ عمرو بنَ نفيل كانَ يقول: اللهمّ لو أنّي أعلمْ أحبَّ الوجوه إليكَ لعبدتك به، ولكنّي لا أعلمه؛ ثم يسجدُ على راحته.

* وصادف أن التقى زيد بن عمرو هذا أحد فتيان مكة عند الحرمِ المكّي،

---

(١) «الحنيفيون»: سُمّوا بهذا الاسم من الفعلِ حَنَفَ عن الشّيء، أي: مال عنه إلى غيره، وهؤلاء مالوا عن الدّين الباطل إلى الدّين الحقّ، سواء أكانوا على دين إبراهيم، أمْ على دين المسيح الحقّ، وإنْ كانتِ الكلمة تُطلقُ على الأولين غالباً، وجاء في القرآن الكريم قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

(٢) «المعلق»: هو ما حُذف من مبتدأ إسناده راوٍ أو أكثر، وقد يُحذف السّند كله.

(٣) انظر: صحيح البخاري، باب: زيد بن عمرو بن نفيل.

فقال له: إنّي خالفتُ قومي، واتّبعتُ ملّة إبراهيم وإسماعيل، وما كانا يعبدان، وكانا يصليان إلى هذه القبلة، وأنا أنتظرُ نبيّاً من بني إسماعيل يُبعث، ولا أراني أدركه، وأنا أومنُ به وأصدقه، وأشهد أنّه نبيّ، وإنْ طالت بك حياة، فأقرئه منّي السّلام.

* وَقَرَتْ هذه الكلمات في صدر هذا الفتى الناشىء، واستقرّ في نفسه أنّ قريشاً على باطلٍ، وبُذرت في نفسه بذور إيمانية بالتّوحيد، لذلك عندما انبلج نورُ الإيمان وشعَّ مضيئاً، وأشرقَ على مكةَ، كانَ في عداد السّابقين الأوّلين إلى الاستجابةِ لنور الله عزّ وجلّ.

* ولعلك ـ عزيزي القارىء ـ في شوقٍ شديد لمعرفة هذا الفتى النّبيل الكريم؛ الذي غدا من سادات الصّحابة الكرام فيما بعد؟!.

سأقدّمُ لكَ بطاقةَ هذا الفارس الشّهم، فهو عامر بنُ ربيعة بن كعب العَنْزيّ[١]، من حلفاء آل عمر بن الخطاب العدويّ، حليف بني عدي بن كعب.

* يُعدُّ عامر بن ربيعة مِنَ السّابقين الأوّلين، إذ أسلم قديماً قبل عمر بن الخطّاب، وقبل أنْ يدخل رسولُ الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي[٢]، وقبل أنْ يدعوَ فيها.

* وعندما فَتَحَ الله عزّ وجلّ على عامر بن ربيعة بالإسلام، راحتِ الذكرياتُ العطرةُ تعودُ به إلى الوراء، وتذكّره زيد بن عمرو بن نفيل ـ والد سعيد بن زيد[٣] أحد العشرة المبشّرين بالجنّة ـ تذكّره بأنّه قد حمّلَهُ رسالةً إلى النّبيِّ المنتظر، وها هو النّبيّ محمّد ﷺ قد ظهر، وآمن به عامر، فعليه أن

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٦ و٣٨٧) والمعارف (ص ٨٧) والمستدرك (٣/ ٤٠٣ و٤٠٤) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٠١) وتهذيب التّهذيب (٥/ ٦٢ و٦٣) والإصابة (٢/ ٢٤٠) وحياة الصّحابة (١/ ٣٥٦ و٣٦٣) وغيرها كثير من المصادر.

(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس في ثنايا هذا الكتاب ص(٣١٦).

(٣) اقرأ سيرة هذا الفارس في ثنايا هذا الكتاب ص(١٨٢).

يؤدي السَّلام من زيدٍ إلى رسولِ الله ﷺ.

* حدَّثَ عامر ـ رضي الله عنه ـ عن ذلك فقال: فلمّا أسلمتُ أعلمتُ النّبيَّ ﷺ بخبره، فردّ عليه السَّلام، وترحَّم عليه وقال: «لقد رأيتُه في الجنَّة يسحبُ ذيولاً».

ملامحُ منْ شَخْصيّةِ عَامِر المتكـاملة:

* عامرُ بنُ ربيعة ـ رضوان الله عليه ـ أحد فرسان مدرسة النّبوّة الذين تخرجوا في معهدِ رسولِ الله ﷺ للجهاد والفروسية، وكان لهم شَأْنٌ عظيمٌ في تاريخ الإسلام والمسلمين.

* في الجاهليةِ حالف عامر: الخطَّابَ والد عمر، فلمّا حالفه عامر تبنّاه الخطَّابُ، وادّعاه إليه، فكان يُقال له في الملأ: عامر بنُ الخطاب، حتى نَزَلَ القرآنُ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] فرجع عامر إلى نسبِه، وأُلحق بأبيهِ، فقيل: عامر بن ربيعة، وهو صحيح النَّسَبِ في وائل.

* وقيل: إنَّ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥][1] نزلتْ في عامر بنِ الخطاب، وزيد بنِ حارثة، وسالم مولى أبي حذيفة، والمقداد بن عمرو، فعُرِف آباؤهم غير سالم، فإنَّه لم يُعرف أبوه، فثبتَ على ولاء أبي حذيفة[2].

* بَيْدَ أنَّ عامر بنَ ربيعة ـ رضي الله عنه ـ كان ولاؤه عظيماً للإسلام، وكان متزوّجاً من ليلى بنتِ أبي حثمة[3] العدويّة، إحدى نساءِ الإسلام الكريمات؛ اللواتي لهنَّ في تاريخِ الإسلام نصيبٌ كبير، وممن تركْنَ أنْصَعَ الآثارِ في دنيا النِّساء المسلمات في مجال السلوك الحسن، والطهارة، والنقاء.

---

(١) «أقسط»: أعدل.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٤٧).

(٣) للمزيد من أخبار ليلى هذه، راجع كتابنا (نساء من عصر النبوة) (١/ ٣٢٧ ـ ٣٣٥) ففي سيرتها شفاء للعليل.

* وكان لهذين الزَّوجين الكريمين؛ أجمل الصَّفحات في تاريخ العظماء، ويبدو أنَّ ليلى بنت أبي حَثْمةَ كانت ذات إحساس وشفافية ملحوظة، فقد استطاعت أنْ تقدِّرَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب سيُسْلم، ويدخل في دِيْنِ الله، في الوقتِ الذي كان زوجها عامر يستبعد ذلك، وذلك لصدق فراستها. ونفاذ بصيرتها.

عَـامِر والهجْـرَة وإسْـلامُ عُمَر:

* قال ابنُ سعدٍ ـ رحمه الله ـ: هاجر عامر بن ربيعة إلى أرضِ الحبشة الهجرتين جميعاً، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة العدوّية ـ رضي الله عنها وعنه ـ.

* أخذ عامرُ بنُ ربيعة ـ رضي الله عنه ـ يتجهَّزُ كيما يتوجّه إلى الحبشةِ ـ وقد اتَّعد مع أحد عشر رجلاً ـ ليعبدوا الله عزَّ وجلَّ بعد أنْ لَقَوْا ما لَقَوْا منْ أذى قريش، وأخذ عامر طريقه إلى الحبشة، إذ كان عددُ المهاجرين إليها في أوّل هجرة: اثنا عشر رجلاً، وأربع نساء[(١)]، رئيسهم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وكانت أوّل هجرةٍ في الإسلام[(٢)].

* وبينما كان عامر يتجهَّزُ للهجرة، ظهرتْ بوادرُ عبقة لإسلامِ عمر بن

(١) وهنَّ: رقية بنت رسول الله ﷺ، وأم سلمة أم المؤمنين، وسهلة بنت سهيل، وليلى بنت أبي حثمة ـ رضي الله عنهن ـ.

(٢) إزاء حَدَثِ الهجرة نشير إلى نقطتين اثنتين هما:

أ ـ إن العقيدة أساس حفظ الوطن، فعلى الدعاة إلى الله عز وجل أن يجعلوا الوطنَ وسيلة لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا اقتضى الأمرُ الهجرة بَذَل الدعاةُ كلَّ إمكانياتهم لتحقيق ذلك، لا سيما إذا اشتدَّ الأذى، وخُشِي على المسلمين من الفتنة في الدين، فتكونُ الهجرة إلى مكانٍ آخر تُقام فيه الشعائر التعبدية الدالة على الإسلام.

ب ـ إنَّ هجرة المسلمين إلى الحبشة، يجعلهم يدخلون في حماية غير المسلمين، وهذا جائز بشرط عدم الإضرار بالدعوة، أو تغيير أحكام الدين، أو السكوت على اقتراف شيء من المحرمات.

الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ فقد روتِ المصادرُ قصّةً تشيرُ إلى مُبشّرات هامسة لطيفة تقول: إنَّ عمر يفكّرُ في الإسلام.

* روى ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ في السِّيرة: عن ليلى وهي أمُّ عبد الله بنت أبي حثمة، زوج الصَّحابيِ الجليل عامر بن ربيعة أنّها قالت:

إنَّا لنترحلُ إلى أرضِ الحبشة، وقد ذهبَ عامر بنُ ربيعة في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطّاب حتى وقفَ عليَّ ـ وهو لا يزال على شِرْكِه بعد ـ وكنّا نلقى منه البلاء؛ أذى لنا، وشدّة علينا.

فقال لي بنبرة هامسةٍ شاحبة حزينة: إنّه للانطلاق يا أمّ عبد الله؟!

فقلتُ له: نعم يا عمر! واللهِ لنخرجنَّ في أرضِ الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعلَ الله لنا فرجاً ومخرجاً.

فقال عمر في هَمْسٍ هادىءٍ، ونبرةٍ لطيفةٍ: صحبكم الله، يا أمَّ عبد الله.

قالت: ورأيتُ لعمرَ بنِ الخطاب يومها رقَّة[1] لم أكن أراها من قبلُ، ثمّ انصرفَ، وصوته الهادىء لا يزال يتردد في صدى نفسي: صحبكم الله... صحبكم الله يا أمّ عبد الله.

وابتعد عمر، وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا ورحيلنا إلى أرض الحبشة.

قالت ليلى: فجاء عامر بنُ ربيعة زوجي، فقلتُ له: يا أبا عبد الله! لو رأيتَ عمرَ بن الخطاب، وقد مرَّ آنفاً، ورأيتَ رقَّتَه، وحزنَه علينا، لرأيتَ عجباً.

قال عامر في نبرةٍ تعجُّب: أَطَمِعْتِ في إسلامه يا أمّ عبد الله؟!!.

قالت: إي والله يا أبا عبد الله!

---

(١) تميَّز عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بأنه كان شديداً في الحق، قويَّ الشكيمة، ذا هيبة ووقار، لكنه يحمل قلباً يفيضُ بمشاعر الرحمة، والرأفة والحنان، فهو إنسان نموذج في هذا المضمار، فقد كان يتصابى لأولاده، ويداعبهم، ويتحمَّل غَضَب النساء عليه، ويزجر مَنْ لا يرحم أولاده، أو يشقُّ على المسلمين. فرحم الله عمر بن الخطاب؛ فهو القدوة الحسنة لمن اقتدى، والأسوة الصالحة لمن اعتبر واهتدى.

فقال عامر: أصلحكِ الله، ورعاكِ، فلا يُسْلِمُ الذي رأيتِ حتى يسلم حمارُ الخطاب!! وذلك لما يرى من غلظته، وقسوته، وشدّته على المؤمنين[١].

* وهاجر الزَّوجان المؤمنان من أرضِ الله إلى أرضِ الله، وهنالك طارت الأنباء بأنَّ عمر قد أصبح من فرسانِ الرَّسول ﷺ، وبذلك تحقَّقتْ فراسةُ أمِّ عبد الله زوج عامر، فلم تكن قسوةُ عمر صُلْبة كما توقّع عامر، وإنّما كانت تكمنُ وراءها ينابيعُ منَ المودَّةِ، وبحارٌ من الأنوار، وفيوضاتٌ من الرّحمة، والعدلِ، والعطف، فبعد أن سمعَ آياتٍ من الذِّكرِ الحكيم[٢]، انقشعت تلك الغلظة، واستكان لكلامِ العزيزِ الحميد الذي له ملكُ السَّموات والأرض. ألا ما أجملَ الحياة في زَهْرِ رياض القرآن، يجتني منها الإنسان سعادته في الدَّارين؛ فيفوز بالأجر الجزيل، والثواب العظيم.

عَامِر في عَرينِ الصَّحابة الأنْصَار الأبرار:

* أمضى عامر بنُ ربيعة مدّة في الحبشةِ، إذ هاجر إليها الهجرتين، ثمّ قدم

---

(١) انظر: السّيرة النبوية (١/ ٣٤٢ و٣٤٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (السّيرة النبوة ص ١٨١) مع الجمع والتصرف، ودون الخروج عن جوهر النص.

(٢) دعني ـ عزيزي القارىء ـ أستطردُ معك قليلاً كيما أجني وتجني ثماراً دانية القطوف في رياض القرآن الكريم في حياة الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ؛ فقد كانَ للقرآنِ الكريم، ولإعجازه، وأسلوبه، وحسن تأليفه، وإحكام معانيه، أكبر الأثر في إسلام عمر. وعمر ـ كما نعلم ـ أميرٌ منْ أمراء البيان، فهو في ذوقِهِ الأدبيّ، وعلمه بروحِ المعاني، وأسرار اللغة، وأساليبها وتذوقه الممتاز للجيّد من الكلام، ممن تأسره بلاغةُ القرآن الكريم، وأسرار إعجازه.
ويتبيَّنُ لنا مصداق ما قلناه، ما رواه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسندهِ عن عمرَ؛ وابن كثير، والبغوي في تفسيريهما لسورة الحاقة؛ قال عمر: خرجتُ أتعرّضُ رسولَ الله ﷺ، قبل أنْ أسلمَ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمتُ خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلتُ أتعجب من تأليف القرآن! فقلتُ: هو شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ و٤١] فقلتُ: كاهنٌ علم ما في نفسي. فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢] إلى آخر السورة. قال عمر: فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع.

مكة، ومكثَ حيناً من الدَّهر، حتى أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالهجرةِ إلى المدينة، فكان ثاني اثنين في ثلّةِ المهاجرين إليها بعد أبي سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ[1].

* روت أمّنا عائشة ـ رضوان الله عليها ـ قصَّة الهجرة العظيمة، وفيها شهادة بالسَّبْق لعامر؛ فقالت:

لما صدر السَّبعون ـ الأنصار ـ مِنْ عندِ رسولِ الله ﷺ طابت نفسه، وقد جَعَلَ الله مَنَعة، وقوماً أهلَ حرب، وعدّة، ونجدة، وجعل البلاءُ يشتدُّ على المسلمين منَ المشركين لما يعلمون منَ الخروج، فضيّقوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتْمِ والأذى، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله ﷺ إلى نبيّهم، واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أُخْبِرتُ بدارِ هجرتكم، وهي يثرب، فَمَنْ أرادَ الخروج فليخرجْ إليها».

فجعل القومُ يتجهَّزون، ويترافقون، ويتواسَوْن، ويخرجون، ويخفونَ ذلك، فكان أوّل من قدمَ المدينة مِنْ أصحابِ رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، فهي أوّل ظعينة[2] قدمتِ المدينةَ، ثمَّ قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً[3]، فنزلوا على الأنصارِ في دورهم، فآووهم، ونصروهم، وآسوهم[4].

* إنَّ هؤلاء الذين هاجروا هم صفوة النَّاس. ذكر ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في قولهِ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: همُ الذينَ هاجروا مع رسولِ الله ﷺ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ[5].

* وفي المدينةِ المنورة، آخى[6] رسولُ الله ﷺ بين عامر بن ربيعة،

---

(١) اقرأ سيرة هذا البطل الفارس في هذا الكتاب ص(٤٣٥).
(٢) «ظعينة»: هي المرأة في الهَوْدَج.
(٣) «أرسالاً»: جماعات مُتتابعة.
(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ١٤٧) بتصرف يسير.
(٥) المصدر السَّابق (١١/ ١٤٨).
(٦) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٣٨٧).

ويزيد بن المنذر بن سرح الأنصاري(١).

مِنْ فُرسَان الرَّسول ﷺ الأشدَّاء:

* أجمع كلُّ مَنْ ترجم لعامر بأنَّه هاجر الهجرتين، وممن شهدَ بدراً، وأُحُداً، والخندق، والمشاهد كلَّها مع سيّدنا رسول الله ﷺ.

* هذا؛ وقد كان عامر بنُ ربيعة ـ رضي الله عنه ـ منْ أبطالِ السَّرايا التي كان يبعثُها رسولُ الله ﷺ؛ ففي شهر رجبَ منَ السَّنَةِ الثانيةِ للهجرة، وقبل موقعة بَدْر، أرسل النَّبيُّ ﷺ رهْطاً(٢) من المهاجرين ثمانيةً(٣)، وأمَّر عليهم عبد الله بن جحش، وكانتِ السَّريةُ موفَّقة، وقد نزلَ القرآنُ الكريم يؤيّدُ حُسْنَ عَمَلِهم فيما قاموا فيه(٤).

* وفي سريةٍ(٥) ذات السَّلاسل في جمادى الآخرة سنة (٨ هـ) كان

---

(١) يزيدُ بنُ المنذر بن سرح الأنصاريّ، شهدَ العقبةَ مع السَّبعين من الأنصار، وشهد يزيد بن المنذر، بدراً، وأحداً، وتوفي وليس له عقب ـ رضي الله عنه ـ (طبقات ابن سعد ٣/ ٥٧٥).

(٢) «رَهْطاً»: ما دون العَشَرة من الرجال.

(٣) أفراد السَّرية الثَّمانية هم: أبو حُذيفة بن عتبة، عكّاشة بن محصن، عتبة بن غزوان، سعد بن أبي وقاص، عامر بن ربيعة، واقد بن عبد الله، خالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء ـ رضي الله عنهم ـ (تفسير القرطبي ٣/ ٤١).

(٤) انظر: تفسير القرطبيّ (٣/ ٥٢) وتفسير الماورديّ (١/ ٢٢٧) ورجال مبشرون بالجنة (٢/ ١٦٠ ـ ١٦٧).

(٥) كان فرسانُ رسولِ الله ﷺ وأصحابه الكرام يلقون الشِّدَّة في سراياهم وهم صابرون شاكرون، يرجون فَضْلاً من الله ورضواناً. ذكر صورة عن هذا الصَّبر عبد الله بن عامر بن ربيعة، حيث حدثه أبوه عامر ـ رضي الله عنه ـ فقال:
إنْ كانَ رسولُ الله ﷺ ليبعثنا في السَّرية، ما لنا زاد إلا السَّلف ـ يعني: الجراب من التَّمر ـ فيقسمه صاحبه بيننا قبضة قبضة، حتى يصير إلى تمرة.
قال عبد الله بن عامر لأبيه: وما كان يبلغ من التمرة؟
قال عامر: لا تقل ذلك يا بني! ولبعد أن فقدناها، فاختلطنا إليها (حلية الأولياء ١/ ١٧٩) بتصرف يسير.

عامر بن ربيعة واحداً من أبطالها، وقد أصيب يومئذ ذراعه بسهمٍ، وكان أمير هذه السَّرية عمرو بن العاص[١] ـ رضي الله عنه ـ.

* وبعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، ظلَّ عامر بن ربيعة من فرسان المدرسة المحمّدية، وصحب عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى دمشقَ، وقدم الجابية[٢]، وكان معه لواء عمر يومذاك[٣]. هذا وقد استخلفه عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ على المدينة لما حجّ[٤]. وتابع عامر مسيرة المضيِّ في سبيلِ الله، إلى أن لقي الله عزَّ وجلَّ راجياً رحمته، ونَيْل ثوابه، ودخول جنَّته.

فَضَائلُ مضيئة وآثارٌ حِسَان:

* لم يكن عامر ـ رضي الله عنه ـ من الفُرسان الذين يجيدون الطِّعان فحسب، وإنّما كان من فرسان الحديث النّبوي الشّريف، إذ إنَّ له أحاديث رواها عن النّبيِّ ﷺ، وعن أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

* حدَّث عنه ابنه عبد الله بن عامر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزُّبير، وأبو أمامة بن سهل وغيرهم.

* وقد وردت مروياتُ عامر في الصَّحيحين، وفي السُّنن، والمسَانيد، وروى عبد الله بن عمر بن الخطاب عن عامر حديثين اتفق الشَّيخان على أحدهما.

* وممّا أخرجه البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسندِه عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن عامر بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيِّ ﷺ قال: «إذا رأى

---

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٢٧٩).
(٢) «الجابية»: قرية في الشّام من ناحية الجولان، قرب مرج الصّفر، في شمالي حوران، إذا وقف الإنسان في الصّنمين، واستقبل الشّمال، ظهرت له، وتظهر من نوى أيضاً، وفيها خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خطبته المشهورة لما قدم الشّام. وباب الجابية الذي بدمشق منسوب إليها، وهو معروف بدمشق الآن.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٧) والمستدرك (٣/ ٤٠٣) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٤٦٤).
(٤) الإصابة (٢/ ٢٤٠).

أحدكم جنازةً، فإنْ لم يكن ماشياً معها فليقُم حتى يُخلِّفَها، أو تُخلِّفَهُ، أو توضع من قبل أن تُخلِّفه»[1].

* وممّا أخرجه له أبو نُعيم في حليته: أنَّ رجلاً عَطَسَ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ في الصَّلاة، فقال: الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربّنا عزَّ وجلَّ، وبعد الرِّضا، والحمدُ لله على كلِّ حال.

فلمّا سلَّم النَّبيُّ ﷺ قال: «مَنْ صاحب الكَلمات؟».

قال: أنا يا رسول الله! وما أردتُ بها إلا خيراً.

قال: «لقد رأيتُ اثني عشر ملكاً يبتدرونَها أيّهم يكتبها»[2].

* ومن الآثار الحِسَان التي وردتْ عن عامر ـ رضي الله عنه ـ أنَّه نزل به رجلٌ مِنَ العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلّم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرَّجل فقال: إنِّي استقطعتُ[3] رسول الله ﷺ وادياً، ما في العرب وَادٍ أفضل منه، وقد أردتُ أنْ أقطعَ لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك.

قال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدُّنيا: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١][4].

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢١٢) حديث رقم (١٣٠٨).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٨٠).

(٣) «استقطعتُ»: أي: سأله أنْ يقطعه، أي: يجعل له أقطاعاً يتملكه.

(٤) انظر: حلية الأولياء (١/ ١٧٩) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٤٨). أورد القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره «الجامع» قصة لطيفة تُشْبه قصة عامر ـ رضي الله عنه ـ فقال: روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخر في يوم نزول هذه السّورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزول: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] فنفض يده من البنيان، وقال: والله! لا بنيت أبداً وقد اقترب الحساب. (تفسير القرطبي ١١/ ٢٦٦).

وَفَاتُهُ وَدعَاؤُه:

* إنَّ وفاةَ عامر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ كانت في المدينةِ المنوّرة في سنةِ خمس وثلاثينَ من الهجرة، قَبْل مقتل الخليفة عثمان بيسير(1).

* ذكر ابنهُ عبد الله بن عامر بن ربيعة وفاة أبيه فقال:

قام أبي يصلّي من الليل، وذلك حين نَشِبَ النّاس في الطّعن على عثمانَ، فصلّى من الليل، ثمّ نام، فأُتي في المنام فقيل له: قُمْ فاسأل الله أنْ يعيذَكَ مِنَ الفتنةِ(2) التي أعاذ منها صالح عباده، فقام، فصلّى، ودعا، وقال: اللهم قِني من الفتنة بما وقيت به الصّالحين من عبادك، فما أُخْرِجَ ولا أصبح إلا بجنازته(3).

* وقد أحسن أبو نُعيم الأصبهاني ـ رحمه الله ـ إذ قال في ترجمة عامر: أبو عبد الله عامر بن ربيعة، الزّاهد في العطايا والقطيعة، شهد بدراً والمشاهد، وعَمّر بالذّكر البقاعَ والمساجد، تحرّزَ بما أُيّدَ بهِ منَ الفطنة عن الوقوع فيما امتحن به غيرهُ من الفتنة، عاش كريماً، ومضى سليماً(4).

---

(1) ذكر ابن سعد والحاكم أن عامر بن ربيعة قد توفي بعدما قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكان قد لزم بيته، فلم يشعر الناسُ إلا بجنازته قد أخرجت.

(2) ذكر أبو نعيم الأصبهاني ـ رحمه اللهِ ـ عن طاووس قال: لما وقعت فتنة عثمان، قال رجل لأهله: أوثقوني بالحديد فإني مجنون. فلمّا قتل عثمان قال: خلّوا عنّي، الحمد لله الذي شفاني من الجنون، وعافاني من قتل عثمان. قال: وسمّى الرّجل عامر بن ربيعة (حلية الأولياء ١/ ١٧٩).

(3) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٣٨٧) والمستدرك (٣/ ٤٠٣) وحلية الأولياء (١/ ١٧٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٣٥) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٠١) مع الجمع والتصرف اليسير.

(4) حلية الأولياء (١/ ١٧٨) وقال الأصبهاني عن عامر:
والذي حداه على الزّهد والفقر، ودعاه إلى إدمان الذّكر، ما أخبره به النّبيّ ﷺ، وما كان يعانيه في بدنه من الشّدة في البعوث، والسّرايا.

* ومعَ وَدَاعِ سيرة عامر بن ربيعة، تعالَوا ندعو الله عزَّ وجل بما دعا به عامر: اللهم قِنَا مِنَ الفتنةِ بما وقيتَ به الصَّالحين من عبادك[1].

* * *

(1) حذَّر ﷺ من الفتن؛ لأنَّ بأسَ الأمة متى انتقل من أعدائها إلى أنفسها؛ ساءت حالُها، وفَسَد نِظامُها، وصارت إلى الفوضى أقرب منها إلى الإصلاح.
(إتمام الوفاء للخضري، تحقيق: يوسف علي بديوي وزميله، ص ٢٣٣).

(٢٠)

عامر بن فهيرة

ـ رضي الله عنه ـ

قال عنه ﷺ: «إنَّ الملائكةَ وارتْ جثته، وأُنْزِل عِلِّيين».

ضيفٌ عزيزٌ منْ علِّيِّين:

* يُسعدنا أنْ نستضيفَ اليوم أَحَدَ الأعلام الشُّجعان؛ الذين سجّلوا أجملَ الصَّفحاتِ في تاريخِ الفروسيّة في العصرِ النّبويِّ المبارك، وكان لهم بصماتٌ عميقة ومؤثِّرة في عالَم الأحداث على مختلف أزمانها وأمكنتها.

* كان هذا الفارسُ العَلَمُ على هامشِ التَّاريخ، لا يأْبَه له أحدٌ ممَّنْ حوله، فلا تتعدى مكانته مكانةَ الأرقَّاء والعبيد، ولما أضاء الإيمانُ جوانبَ نفسه، وملأ حنايا قلبه، أضحى في مصافِّ السَّادة الأعلام، سادتنا الكرام من أصحابِ رسول الله ﷺ، وممن حظوا بالشَّهادة، وأُسكنوا عليّين، وما أدراكَ ما عليُّون؟! إنه مقام كريم، في جنّات ونهر، عند مليك مقتدر.

* إنَّه واحد منَ المعذَّبين في الله عزَّ وجلَّ عامر بن فُهيرة[1]، مولى أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ.

* كان رقم عامر بن فُهيرة يلمع في قائمةِ الأوائل من سجلِّ المؤمنين السابقين، حيثُ أسلمَ مبكّراً قبل أنْ يدخل رسولُ الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ، وقبل أنْ يدعوَ فيها.

* كان عامر بنُ فهيرة مولداً منَ الأَزْدِ، وكان مملوكاً للطُّفيل بن عبد الله ابن سخبرة، وكان الطُّفيل أخا عائشة بنت أبي بكر لأمّها أمّ رومان؛ ذكرتْ أمُّ المؤمنين عائشة هذا فقالت: كان عامر بن فُهيرة للطُّفيلِ أخي لأمّي، فأسلم فاشتراه أبو بكرٍ وأعتقه، وكان يرعى عليه منيحة غنم له[2].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣٠ و٢٣١) والمحبّر (ص ٧٣ و١١٨ و١٨٣ و١٨٤ و٢٨٨) وأنسابُ الأشراف (١/ ١٥٦ و١٥٨ و١٨٥ و١٩٣ و١٩٤ و١٩٧ و٢٦٠ و٢٦٢ و٣٧٥) وحلية الأولياء (١/ ١٠٩) وفتح الباري (٧/ ٤٥٠) والإصابة (٢/ ٢٤٧) وحياة الصَّحابة (١/ ٣٣٨ و٥٢٧) و(٢/ ٥٩٥ و٥٩٦) وغيرها من المصادر المتنوعة.

و«فهيرة»: اسم أمه، وإليها ينسب، وأما كنية عامر فهي: أبو عامر.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣٠) وأنساب الأشراف (١/ ٩٤).

«المنيحة»: الناقة أو الشاة تعطيها غيرك يحتلبها، ثم يردُّها عليك.

مِنَ الذينَ صَبَروا وصَابَروا:

* في رحلةِ الصَّبر، والإسلامِ، والاستسلام لعلاَّم الغيوب، ضربَ عامر بنُ فهيرة مثلاً شروداً في الصَّبْرِ والمُصَابرة، إذ كان مِنَ الذين استضعفوا في الأرضِ مِنَ المؤمنين، وكان مِنَ الذين يعذَّبون بمكةَ كي يرجعَ عن دِيْنه، ولكنْ هيهات لأساطين الفجور أنْ ينالوا منه، أو يؤثِّروا في إسلامه، على الرغم من أنَّه مملوكٌ ضعيفٌ، ليس له مِنْ قبيلة تحميه، أو عشيرة تؤويه[1].

* ضجر الفجرةُ الكفرةُ الأشرار مِنْ هذا الذي حطَّم كبرياءهم، وظلَّ راسخ الإيمان رسوخ الجبال الرَّواسي، وجاء محرِّرُ العبيد، وواهبُ الحرِّيات، أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه هطائل الرِّضوان ـ فاشتراه وأعتقه[2] لوجهِ الله عزَّ وجلَّ، كما اشترى بلال بن رباح مُؤَذِّن رسول الله ﷺ وغيرهما؛ ممن أضحوا أسياد الدنيا، ولعلَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قد لقيَ بعض العتاب مِنْ والده الذي قال له ذات يوم: يا بُني! إنِّي أراكِ تعتقُ رقاباً ضعافاً، فلو أنَّك إذْ فعلت فأعتقتَ رجالاً جُلْداً، يمنعونَك، ويقومون دونك!

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يا أبت! إنِّي أريدُ ما أريد لله عزَّ وجلَّ.

* لقد أراد أبو بكر الصِّدِّيق وَجْه ذي الجلال والإكرام وكفى[3]، فلا

---

(١) إذا استحكمت الأزمات، وتعقَّدت حبالها، وترادفت الضوائق، وطالها ليلُها، فالصبرُ وحده هو الذي يشعّ للمسلم النورَ العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط.

والصبر فضيلة يحتاجُ إليها المسلم في دينه ودنياه، ولا بد أن يبني عليها أعماله وآماله، وإلا كان هازلاً. . .

يجب أن يوطن نفسَه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلبٍ لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة. . . يجب أن يظلَّ موفور الثقة، بادي الثبات، لا يرتاع لغيمةٍ تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقِناً بأن بوادر الصفو لابد آتية، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين. انظر: خُلُق المسلم، لمحمد الغزالي ص (١٣٧).

(٢) انظر: المحبر لابن حبيب (ص ١٨٣).

(٣) إن صلاح النية، وإخلاص الفؤاد لرب العالمين، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي =

عجبَ إذاً، إنْ أنزلَ ذو الجلال والإكرام في حقِّ الصِّدِّيق العتيق آياتٍ تُتلى في المحاريب إلى ما شاء الله تعالى، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٢١][1].

* راح عامر بن فُهيرة ـ رضي الله عنه ـ يغدو إلى مجالس رسول الله ﷺ، ومعه ثلّة من أصحابهِ المستضعفين: عمّار بن ياسر، وخبّاب بن الأرت، وصُهيب بن سنان، وبلال بن رباح، وأبو فكيهة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم، ويقولُ بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما تَرَوْن، قد مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۝ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٣، ٥٤][2].

* كان هؤلاء الضُّعفاء قوماً لا عشائر لهم، ولا منعة، فكانت قريش تعذِّبهم في الرَّمضاء أنصافَ النَّهار؛ ليرجعوا عن دينهم، ولكنَّ محاولات الأشرار الفجرة لم تثمرْ، بل إنَّ الله عزَّ وجلَّ أوصى بهؤلاء رسول الله ﷺ، وفيهم نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ

= البحث، فيجعلانه عبادة متقبّلة.
قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى لا يقبلُ من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتُغي به وَجْهُه» رواه النسائي (٦/ ٢٥).
(١) انظر: تفسير القرطبي وابن كثير والبغوي وغيرهم لسورة الليل.
(٢) «فتنا»: ابتلينا وامتحنّا، ونحن أعلم بهم. «كتب ربكم»: قضى وأوجب تفضّلاً.

مِّنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢][١].

* هكذا ظلَّ عامرُ بن فهيرة - رضوان الله عليه - لا يأبه لأحدٍ من صناديد كفَّار قريش وفجَّارهم، وعندما أذنَ اللهُ بالهجرة إلى المدينةِ المنوَّرة كان لعامر بن فهيرة شأنٌ كريم في مجريات أمورِ الهجرة، احتفظت بها أذن التَّاريخ الواعية، ورسمت خطواته وأعماله بأحرف من نور؛ لتحكي بطولة هذا الفارس الكريم الذي تخرَّجَ من مدرسةِ النُّبوَّة الكريمة، وغدا من كُتَّاب[٢] رسولِ الله ﷺ.

---

(١) «بالغداة والعشي»: في أول النهار وآخره، أي: دَوَاماً.

(٢) من الفوائد المهمَّة أنْ نشيرَ إلى كتَّابِ النَّبيِّ ﷺ وهم: أبو بكر، عمرُ، عثمان، عليٌّ، الزُّبير، عامرُ بن فهيرة، عمرو بنُ العاص، أُبَي بن كعب، عبدُ الله بن الأرقم، ثابتُ بن قيس بن شمّاس، حنظلةُ بن الربيع الأسيدي، المغيرةُ بن شعبة، عبد الله بنُ رواحة، خالدُ بن الوليد، خالدُ بن سعيد بن العاص، وقيل: إنَّه أول من كتب له، معاويةُ بن أبي سفيان، وزيدُ بن ثابت - رضي الله عنهم -.

وكان زيدُ بنُ ثابت ألزمهم لهذا الشَّأن، وأخصّهم به، وكان زيدٌ حافظاً، لبيباً، عالماً، غافلاً، ثَبَتَ عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ أمره أنْ يتعلَّم كتاب يهود ليقرأه على النَّبيِّ ﷺ إذا كتبوا إليه، فتعلَّمه في خمسة عشر يوماً، وقد كان ممن جَمَعَ القرآنَ على عهدِ رسول الله ﷺ منَ القُرَّاء كما ثبت في الصَّحيحين عن أنس. وقد كَتَبَ الوحي بين يدي رسول الله ﷺ في غير ما موطن.

وقد شهد زيدٌ معركةَ اليمامة، وأصابه سَهْم فلم يضره، وهو الذي أَمَرَه أبو بكر الصِّديق - رضي الله عنه - بعد هذا بأنْ يتتبَّع القرآن فيجمعه. وقال له: إنَّك شابٌّ عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتبُ الوحي لرسولِ الله ﷺ، فَتَتَبَّع القرآنَ فاجمعه، ففعل ما أمره به الصِّدِّيق، فكان في ذلك خير كثيرٍ، وقد استنابه عمر بن الخطاب مرتين على المدينة المنورة، واستنابه لما خرج إلى الشَّام، وكذلك كان عثمان يستنيبه على المدينة أيضاً، وكان عليّ بنُ أبي طالب يحبّه. وكان زيد يعظِّم عليًّا، ويعرفُ له قدره، ولم يشهدْ معه شيئاً من حروبه، وتأخَّر بعده حتى توفي سنة خمس وأربعين من الهجرة، وهو ممن كان يكتب المصاحف الأئمة - التي نفذ بها عثمان بن عفَّان إلى سائر الآفاق؛ اللاتي وقع على التِّلاوة طبقَ رسمهن الإجماعُ والاتفاق -.

عَامرٌ وأَحْـدَاثٌ منَ الهجْـرَةِ النبويـة المباركـة:

* نستطيعُ أنْ نقول: لقد كان للبيتِ البكريّ تضحياتٌ عديدةٌ، ومفاخرُ خالدة في سبيل الهجرة - وفي كلّ السُّبُل - فكلّنا يعرف تضحية أسماء بنت أبي بكر ذات النّطاقين، ناهيك بتضحيات أبي بكر نفسه في مجريات الهجرة إلى المدينة المنوَّرة، وفي مكثِ النّبيّ ﷺ وأبي بكر في الغَار.

* أمّا دور عامر بن فُهيرة في الهجرة، فلا يخفى على أحد، حيث كانْ يصبحُ مع الرُّعاة في مراعيها، ويروح معهم، ويبطىء في المشي، حتَّى إذا أظلم الليل انصرف عامر بغنمه إلى النّبيِّ الكريم ﷺ وإلى أبي بكر، فتظنّ الرُّعاة أنّه معهم[1].

* وإليك ما رواه البخاريّ في هذا الشَّأن بسندهِ إلى أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنهما - إذ قالت:

* . . . ثمّ لحقَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبلِ ثور، فمكثَا فيه ثلاث ليال، يبيتُ عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شابٌ ثَقِف[2]، لَقِن[3]، فيدلج[4] من عندهما بِسَحر، فيصبحُ مع قريش بمكةَ كبائت، فلا يسمعُ أمراً يُكتادان[5] به إلا وَعَاه، حتّى يأتيهما بخبرِ ذلك حين يختلط

---

(١) استعمل الرسولُ الله ﷺ كلَّ الأساليبَ والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقلُ البشري، حتى لم يترك وسيلة من تلك الوسائل إلا اعتدَّ بها، واستعملها؛ ليوضِّح بذلك أنَّ الإيمان بالله عزَّ وجلَّ لا ينافي استعمال الأسباب المادية؛ التي أراد اللهُ بعظيم حكمته أن يجعلها أسباباً.
وكل ما فَعَله ﷺ من تلك الاحتياطات: وظيفة تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها عاد قلبُه مرتبطاً بالله عزَّ وجلَّ، معتمداً على حمايته وتوفيقه. انظر: فقه السيرة النبوية؛ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٢) «ثَقِف»: حاذق.

(٣) «لَقِن»: سريع الفهم، جيد الوعي.

(٤) «يُدْلج»: أي: يخرج بغَلَس، وهو سبر الليل، يقال: أدلج - بالتخفيف -: إذا سار من أول الليل، وادّلج: بالتشديد -: إذا سار من آخره.

(٥) «يُكتَادان»: من الكيد، بضم الياء مبنياً.

الظَّلام، ويرعى عليهما عامر بنُ فُهيرة مولى أبي بكر منحة[1] من غنم، فيريحها عليهما، حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما[2] - حتى ينعِق[3] بها عامر بن فُهيرة بغلس، يفعل ذلك كلّ ليلةٍ من تلكَ الليالي الثّلاث[4].

* وبذلك كان عامرُ بنُ فُهيرة - رضي الله عنه - يعفِّي[5] على آثار عبد الله ابن أبي بكر، فلا يتفطن إليه أحدٌ، ولا يستدلُّ بآثاره على المهاجرَيْن الكريمَيْن.

* وهكذا حظيَ عامر بنُ فُهيرة - رضي الله عنه - بخدمة هَذيْنِ المهاجريْن العظيمَيْن، فنال شرفَ المشاركة في أعظم رحلة عرفتها الإنسانية، واتخذتْها تاريخاً لها.

كُـلُّ امـرىءٍ مُجَـاهدٌ بطَوْقـهِ:

* في يومِ الهجرة استقبل أهلُ المدينة الرَّاكب المهاجر بالبِشْر والتَّرحاب، والسُّرور والمحبة، فقد أضاء منَ المدينة كلُّ شيء، وأشرق عليها النّور بقدومِ رسولِ الله ﷺ، واستقرّ عامر - رضيَ الله عنه - بالمدينة، ونزلَ على سعد بن خيثمة الأنصاري، وآخى[6] رسولُ الله ﷺ بينه وبين الحارث بن أوس بن معاذ[7].

---

(1) «منحة»: غنم فيها لبن.

(2) «رضيف»: هو اللبن المرضوف، أي: الذي وضعت فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّمس، أو النَّار لينعقد، وتزول رخاوته.

(3) «ينعق»: والنعيق هنا: صوت الراعي إذا زجر الغنم.

(4) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٧٢ و٢٧٣) حديث (رقم ٣٩٠٥).

(5) «يعفِّي»: يخفي الآثار، وهو ما يشبه عمليات التمويه في عصرنا الحاضر.

(6) انظر: المحبر (ص ٧٣).

(7) الحارثُ بن أوس بن معاذ الأشهليّ الأوسيّ، يُكنى أبا أوس، وأمّه هند بنت سماك الأشهليّة، وهي عمّة أسيد بن حُضير الأوسيّ الصّحابي الشّهير، وكانت من المبايعات؛ شهدَ الحارث بن أوس بدراً، وكان فيمن قَتل كعب بن الأشرف اليهوديّ، وشهد بعد ذلك غزاة أحد، وقتل يومئذ شهيداً، وكان يوم قتل ابن ثمان=

* ولما قدمَ عامر والمهاجرين المكيُّون المدينةَ، استوخموا هواءها، ولم يوافقْ ذلك أمزجتَهم، فقد كانتِ المدينةُ معروفةً بالوباءِ، فأُصيب بعضُ الصَّحابة بالحمَّى والأسقام، وكان ممَّن أصابهم الحمى: أبو بكر الصِّدِّيق، وعامرُ بنُ فُهيرة، وبلالُ بن رباح ـ رضي الله عنهم ـ فكان أبو بكر إذا اشتدَّتْ بِهِ الحمَّى يقول:

كـلُّ امـرىءٍ مصبَّـح فـي أهْلـه والمـوتُ أدنى مـن شَـرَاك نعلـه[1]

= وعشرين سنة ـ رضي الله عنه ـ (طبقات ابن سعد (٣/ ٣٤٧).

(١) أودُّ التَّنبيهَ هنا إلى ناحيةٍ مهمّة جداً، وهي قول الشّعر عند أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حيث إنّ كثيراً من كُتُب المصادر وكُتُب التّراث تعزو هذا البيت ـ أو الرجز: كلّ امرىءٍ مصبح. . . إلخ ـ إلى أبي بكر الصّديق ـ عليه سحابات الرضوان ـ.

والحقيقة: إنَّ هذا الرجز ليس منْ قوله، وإنّما أنشده متمثلاً به كما جاء في العِقْد الفريد (٥/ ١٨٥) وهو لحُكَيم النَّهشلي؛ وقد عزاه ابنُ حبيب إلى الحَكَم من بني نهشل، وكان قد شهد يوم الوقيظ فقتل به ـ وهو حرب بين تميم وبكر ـ كما وَرَدَ في العِقْد الفريد (٥/ ١٨٢ ـ ١٨٥) ولما أثخنته الجراح أنشد هذا البيت مُفْرداً، وكذا ذكره أبو عُبيدة في كتاب «أيّام العرب» وسمّاه حُكيماً، وأنَّ أباه رثاه بأبيات أوّلها:

حُكَيْـم فـدائـي لـكَ يـومَ الـوقيـظِ إذ حَضَـر المـوتُ خـالٌ وعـمُّ

وقال فيه عُمير بن عُمارة التّيميّ من قصيدة، يذكر فيه الوقعة، كما جاء في «معجم الشُّعراء» للمرزباني:

وغـادَرْنـا حُكيمـاً فـي مَجـالٍ صَـريعـاً قـد سَلبنـاه الإزارا

قال الحكيمُ التّرمذي في «نوادر الأصول» بسندٍ رفعه إلى عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما قال أبو بكر ولا عثمان بيت شعر في الجاهلية، ولا في الإسلام، ولا شَرِبا خمراً في جاهلية ولا إسلام.

وقال أيضاً فيما أخرجه عن عائشة: أنّها كانت تدعو على مَنْ يقول: إن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قال هذه القصيدة:

تحيـا بـالسَّـلامـة أمّ بكـر وهـل لـي بعـد قـولـي مـن سَـلام

ثمّ تقولُ عائشة: والله ما قال أبو بكر بيت شعر في الجاهلية ولا في الإسلام، ولقد ترك أبو بكر وعمر وعثمان شرب الخمر في الجاهلية، وما ارتابَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ منذ أسلم، ولكن كان تزوَّجَ امرأةً من بني كنانة، فلمّا هاجر أبو بكر طلّقها، فتزوجها ابن عمها هذا الشّاعر، فقال هذا القصيدة يرثي بها كفار قريش الذين قُتلوا =

وكان عامرُ بنُ فُهيرة - رضي الله عنه - يقول:

لقد وجدتُ الموتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ ... إنَّ الجبانَ حتفُه من فوقِه
كلُّ امرئٍ مجاهدٌ بطوقِه ... كالثّور يحمي جلْدَه بِرَوْقِه[1]

* وكان بلالٌ - رضي الله عنه - يقول مُتشوّقاً إلى مكّة المكرّمة:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بوادٍ وحَولي إذخر وجليل[2]
وهل أردنْ يوماً مياه مجنَّة ... وهل يبدونْ لي شامة وطفيل[3]

فأخبرتْ عائشة النّبيَّ ﷺ بما رأتْ وما سمعتْ فَدعَا قائلاً: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ، وصحّحها، وباركْ لنا في صاعها ومدِّها، وانقل حمّاها فاجْعَلْها بالجحفة»[4].

مَشَاهِدُهُ الكثيرة واستشهَادُه رضي الله عنه:

* عامرُ بنُ فُهيرة واحدٌ من فرسان الرّسولِ ﷺ؛ الذين كُتِبَ لهم شرف الجهاد في معيّته ﷺ، فقد شهد عامر غَزَاة بدر، وأبلى فيها بلاء حسناً، وكُتِبَ منْ أهل بَدْر، عند مليك مقتدر، وشهد كذلك غزاة أحد، وكان له فيها البلاء المحمود المشكور.

* وفي شهر صفر من السّنة الرّابعة من الهجرة النّبوية، بعث رسولُ الله ﷺ سريّة في سبعينَ - وقيل: أربعين - رجلاً من خيار المسلمين، وكانوا يُعْرفونَ بالقُرّاء[5]، وفيهم بطلنا عامر بنُ فُهيرة - رضي الله عنه - وحرام بن ملحان - خال أنس بن مالك - والحارث بن الصِّمَّة وغيرهم، فساروا حتى نزلوا بئرَ

= ببدر، فنحلها الناس أبا بكر، وإنما هو بكر بن شعوب الكناني.

(١) «الرّوق»: القرن.

(٢) «إذخر وجليل»: نباتان من نبات البادية.

(٣) «شامة وطفيل»: جبلان بمكة.

(٤) رواه البخاري، انظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٨) حديث رقم (٣٩٢٦).

(٥) «القُراء»: هم جماعة من حَفَظِة القُرآن الكريم، كانوا يحتطبون بالنّهار، ويتدارسون القرآن، ويصلّون بالليل، ويطعمون أهل الصُّفة، وإذا دعوا إلى الجهاد لبُّوا سراعاً (فتح الباري ٧/ ١٤٧) بتصرف يسير.

معونة، فخرجتْ عليهم جموعٌ مِنْ أحياء رِعْل، وذكْوان، وعُصية، يقودهم الفاسقُ عامر بن الطُّفيل[١]، وأعْمَلُوا فيهم السَّيف، وراحوا يقتلونهم بغدرٍ وخيانة، ورأى هؤلاء القُرّاء الأبرار غدر أولئك الفجّار، قالوا: ربّنا أخبرْ عنّا إخواننا بما رضينا عنك ورضيتَ عنا.

* واستشهد القُرّاء أجمعون، وكان ممن نال الشَّهادة عامر بن فُهيرة، طَعَنَه رجلٌ ـ يُدعى: جبّار بن سلمى الكلابي[٢] ـ طعنةً بالرُّمح فأنفذه، فقال عامرٌ ـ رضي الله عنه ـ: فزتُ واللهِ! وكان عمره إذ ذاك أربعينَ سنة.

* وبعد فترة، سأل جبَّار بن سلمى: ما قول عامر: فزتُ والله! قالوا: الجنّة، فأسلم جبّارٍ لما رأى من جودة تصوُّف عامر بن فُهيرة وإيمانه العميق، وحُسْن إسلامه[٣].

* أمّا رسولُ الله ﷺ فقد دَعَا على هؤلاء المجرمين ثلاثين صباحاً، دعا على رِعْل، وذكوان، وبني لحيان، وعُصية؛ الذين عصوا الله تعالى ورسوله ﷺ.

* وأمّا عامرُ بنُ فُهيرة ـ رضي الله عنه ـ فلم توجدْ جثته بين القتلى، فقد وَرَدَ عنْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: رُفع عامر بن فهيرة إلى السماء، فلم توجد جثته، يَرَوْنَ أنَّ الملائكة دفنته[٤].

* وقال رسولُ الله ﷺ عن عامر: «إنَّ الملائكة وارت جثّته، وأُنزلَ علِّيين»[٥].

* وذكره أبو نُعيم في حليته فقال: المنزوع حسده، المرفوع جسده، عامرُ ابن فُهيرة، سبقَ إلى الدَّعوة، وخدم الرَّسول ﷺ، وصحبه في الهجرة.

---

(١) اقرأ سيرة هذا المجرم الضَّالّ في كتابنا: «المبشرون بالنار» (٢/ ٩٢ ـ ١٣٧).

(٢) المحبر «ص ١١٨».

(٣) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٢٣١) بتصرف يسير، وانظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٥٣) والمحبر (ص ١٨٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣١).

(٥) المصدر السَّابق (٣/ ٢٣١) والبداية والنهاية (٥/ ٣٤٩).

* وقد أخذ هذه المعاني كلّها ابنُ سيِّد النَّاس[1] ـ رحمه الله ـ فنظمها في قوله:

وقضـــى كـــذلـــك عـــامـــر ثـــمّ ارتقـــى
نحـو السَّمـاء ومـا لـه مـن شـرجـع[2]

* وفي سجلّ فرسان الصَّحابة، ومجاهديهم[3]، يظلُّ اسم عامر بن فهيرةُ في الخالدين، ويبقى دفين الملائكة كما روتِ السِّيرة العطرة، فرضي الله عن عامر، وأرضاه؛ فقد كان أميناً على الإسلام، مُحِباً للرسول الله ﷺ، متفانياً في سبيل الله عزَّ وجلَّ، باذلاً قصارى جهده لتبقى كلمة الله هي العليا، ويرتفع صوت الحق مجلجلاً في الآفاق.

* * *

---

(١) انظر: المقامات العلية لابن سيد الناس (ص ٦٦).

(٢) «الشرجع»: الجنازة أو النّعش.

(٣) عن قتادة ـ رحمه الله ـ قال: إنَّ الله تعالى أعطى المجاهدين ثلاثة خصال:
منَ قُتِل منهم صار حياً مرزوقاً.
ومن غُلب أعطاه الله أجراً عظيماً.
ومن عاش يرزقه الله رزقاً حسناً. (تنبيه الغافلين للسمرقندي، تحقيق: يوسف علي بديوي ص ٤٩٧).

(٢١)

عَبْدُ الله بنُ حُذَافَةَ

ـ رضي الله عنه ـ

* قبَّلَ عمرُ بنُ الخطابِ رأسَه وقال: حقٌّ على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُقبِّل رأسَ عبد اللهِ بن حُذافة.

Scanned by CamScanner

سابقٌ مِنَ الرَّعِيلِ الأوَّلِ:

* مؤمنٌ منَ الرَّعيل الأوَّل، عَرفَ الإيمانُ سبيله إلى قلبهِ منذ أنْ لاحَ نوره منْ مشرقِ شمسه، دخل في دِيْن الله راغباً مُحِباً، وتركَ دِيْنَ الآباء الذين وجدهم عليه عاكفين، فسارَ في طريقِ المهتدين، وأذعنَ لربِّ العَالمين.

* في ركْبِ القُدماء، وفي ركْب السَّابقينَ، سَلَكَ فارسنا طريقَ الهدى والصلاح؛ ليغدوَ أحدَ مشَاهير الإسلام في عالَم الفروسيّة، والبسَالة، والجُرأة، والإقدام.

* وفي لوحةِ الشُّجعان يظهر هذا البطل أمام أعظم ملوك الدُّنيا، يؤدي واجبه في مجالِ الجهاد، والطَّاعة، والعِبَادة، وكَمال اليقين، وجلال الورع.

* مَنْ كان يظنُّ أنَّ هذا الرَّجل الذي عاشَ في مكةَ سيقفُ أمام كسرى وقيصر؟! تلكم الوقْفَة التي ظلَّتْ ناصعة في جَبينِ الدَّهر، وفي عقد الفروسية النفيس، فسجَّلها التاريخُ بأحرفٍ من نور مُتألِّق.

* وعندما رحْتُ أطالعُ سيرةَ بطلنا، وأبحرُ في بحارِ أنواره، استوقفتني تلك الأعمال العَامرة بنورِ الإيمان، والتي خطَّها هذا الفارس المجاهد في عَصْرِ النّبوّة، وفي العَصْر الرَّاشدي.

لذلك أحببتُ أنْ أجددَ نَشْرَ تلكم المواقف لتفوح بأريجها في سِجلِّ الفروسيّة، وفي دُنيا التَّاريخ، وتاريخ الدّنيا، وها نحنُ أولاء في رحابِ الفَارس البطل عبد الله بن حذافة بن قيس السَّهميّ[1] أحد السَّابقين، يُكنى

---

(۱) مسندُ أحمد (۳/ ٤٥٠) وطبقاتُ ابن سعد (٤/ ۱۸۹ و۱۹۰) ومغازي الواقدي (۲/ ٦٠٣) و(۳/ ۹۸۳ و۱۱۰۹) والمعارفُ (ص ۱۳٥) والمعرفة والتّاريخ (۱/ ۲٥۲) والمستدرك (۳/ ۷۳۰ و۷۳۱) والأسماء المبهمةُ في الأنباء المحكمة (۱٦۷ ـ ۱۷۱) والاستيعابُ (۲/ ۲۷٤ ـ ۲۷۷) ومختصر تاريخ دمشق (۱۲/ ۱۰۳ ـ ۱۰٦) ومنح المدح (ص ۱٦۹ و ۱۷۰) والبداية والنّهاية (۷/ ۲۲۰) وسير أعلام النُّبلاء (۲/ ۱۱-۱٦) والإصابة (۲/ ۲۸۷ و۲۸۸) وحياة الصَّحابة (انظر الفهارس ۳/ ۷٦٤) وغيرها من المصادر.

أبا حُذافة، وهو أخو خُنيس[١] بن حذافة السَّهميّ؛ الذي كان زَوجاً لحفصةَ بنتِ عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي الله عنهما ـ.

* وأَجْمَع كتَّاب الطَّبقاتِ والسِّيرة والتَّاريخ وغيرهم أنَّ عبد الله بن حذافة السَّهميَّ قد صَحِبَ رسول الله ﷺ، وأسلم قديماً. ولمّا اشتدَّت أذيَّة الكفَرة للمؤمنين، هاجرَ إلى الحبشةِ الهجرة الثَّانية، حيثُ كانَ رسولُ الله ﷺ قد أشارَ على أصحابهِ بقوله: «لو خرجتم إلى أرضِ الحبشةِ، فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلَمُ عنده أَحَد، وهي أرضُ صدقٍ، حتى يجعلَ الله لكم مخرجاً ممَّا أنتم فيه».

* وتدلُّ أخبارُ عبد الله بن حذافة السَّهميّ إلى أنَّه عادَ إلى مكةَ، ومنْ هناك هاجرَ ثانيةً إلى المدينة المنوَّرة؛ لينطلقَ منها إلى دُنيا الجهاد والفروسيَّة، وليكونَ أحد فرسان مدرسة النّبوة الأبرار، الأخيار، الأطهار.

الفـارِسُ المِمْـرَاحُ:

* قبل أنْ نتعرَّف شخصيَّة عبد الله بن حذافة المرحةَ، لا بُدَّ وأنْ نعرفَ أنَّه قد شَهد المشَاهد معَ رسولِ الله ﷺ، فقد شهدَ أُحُداً والخندق، وبيعة الرِّضوان، كما شَهِدَ حجَّة الوَدَاع، وسائر المشاهد بقوَّةٍ وبسالة واقتدار، واختُلِفَ فيه أكان من أهل بَدْر أمْ لا؟ إلا أنَّ بعض الأخبار تشيرُ إلى أنَّه من أهل بدر.

* وتشيرُ أخبار عبد الله بن حذافة ـ رضوان الله عليه ـ إلى أنَّه كان رضيَّ النَّفس، مطمئنَ القلب، خفيفَ الظِّلِّ، فيه دعابة ومَرح خفيفَيْن.

* عن أبي سعيد الخُدريّ ـ رضي الله عنه ـ قال: أمَّرَ رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن حذافة السَّهميَّ على سريةٍ ـ وكان من أصحاب بَدْر ـ وفي رواية: ـ كان من

---

(١) خُنيس بن حذافة السَّهميّ، من السَّابقين الأوَّلين إلى دَوْحةِ الإيمان، هاجر إلى الحبشة، ثمَّ رجع إلى مكة، ومنْ ثمَّ هاجرَ إلى المدينة المنوّرة، وشهدَ غزاةَ بدرٍ، ثم شهد أحداً، وأصابته جراحة يومئذ، فماتَ منها، وكان زوجاً لحفصة بنتِ عمر رضي الله عنهما، ولما مات خُنيس تزوجها رسول الله ﷺ، فأضحت من أمّهات المؤمنين، راجع ذلك بتوسع في كتابنا: «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ١٦٩ ـ ٢٠٥) ترجمة حفصة.

أصحاب رسول الله ﷺ - وأنا في ذلك الجيش، وكانت في عبد الله دُعَابة، فنزلنا بعض الطَّريق، فأوقدوا ناراً وقال لهم: أليس لي عليكم السَّمع والطَّاعة؟

قالوا: بلى.

قال: فلستُ آمركم بشيءٍ إلا فعلتموه؟

قالوا: نعم.

قال: فإنِّي أعزمُ عليكم بحقِّي وطاعتي إلا تواثبتم في هذه النَّار.

فقام ناسٌ فتهيّؤوا، حتى إذا ظَنَّ أنَّهم واقعونَ فيها قال: اجلسوا فإنَّما كنتُ أضحكُ معكم.

فلمَّا قدموا على رسولِ الله ﷺ ذكروا ذلك له فقال: «مَنْ أمركم بمعصيةٍ فلا تطيعوه» وفي رواية: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنَّما الطَّاعة في المعروف»[1].

---

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٠٤) بتصرف يسير. وانظر طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٣) والسِّيرة النَّبويّة (٢/ ٦٤٠) وشرح المواهب اللدنية (٣/ ٤٩ و٥٠) والأسماء المُبهمة (ص ١٧١). وللقصّة أصل في كتب الحديث:
فقد أخرجه الإمام أحمد في المُسند (٣/ ٦٧) وابن ماجه في الجهاد برقم (٢٨٦٣) باب: لا طاعة في معصية الله. وذكره الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي (٨/ ٤٧) باب: سرية عبد الله بن حذافة وعلقمة بن مجزز المدلجي، وأخرجه كذلك في كتاب: التّفسير؛ ومسلم في الإمارة برقم (١٨٣٤) باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وأبو داود برقم (٢٦٢٤) والترمذي برقم (١٦٧٢) والنّسائي (٧/ ١٥٤ و١٥٥).
وفي الحديث الشّريف فوائد جليلة منها:
أنَّ الحكم في حال الغضب ينفّذ منه ما لا يخالف الشّرع.
وأنَّ الأمْر لا يعمُّ الأحوال، لأنَّه ﷺ أمَرهم أنْ يُطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال، حتى في حال الغضب، وفي حال الأمر بمعصية، فبيّنَ لهم ﷺ أنَّ الأمر بطاعته مقصورٌ على ما كان منه في غير معصيته.

* وقد علَّقَ ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ على هذا الحديث تعليقاً حَسَناً مفيداً، أحببتُ أنْ أوردَه لما فيه من فوائدَ فقال: فإنْ قيل: فلو دخلوها؛ دخلوها طاعة للهِ ورسوله في ظنّهم، فكانوا متأوّلين مخطئين، فكيف يخلدون فيها؟

* قيل: لما كان إلقاء نفوسهم في النّار معصية يكونون بها قاتلي أنفسهم، فهمُّوا بالمبادرةِ إليها من غير اجتهادٍ منهم، هل هو طاعة وقربة، أو معصية؟ كانوا مقدمين على ما هو محرَّم عليهم، ولا تسوغ طاعة وليّ الأمْر فيه، لأنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، فكانت طاعة مَنْ أمرهم بدخول النّار معصية للهِ ورسوله، فكانت هذه الطّاعة هي سبب العقوبة لأنّها نفس المعصية، فلو دخلوها لكانوا عُصَاة لله ورسوله، وإن كانوا مطيعين لولي الأمْر، فلم تدفع طاعتهم لولي الأمْر معصيتهم لله ورسوله، لأنّهم قد علموا أنَّ مَنْ قَتَل نفسه فهو مستحقٌّ للوعيد، والله قد نهاهم عن قتل أنفسهم، فليس لهم أنْ يُقدموا على هذا النّهي طاعة لمن لا تجب طاعته إلا في المعروف[1].

* ويبدو أنَّ عبد الله بن حذافة ـ رضي الله عنه ـ قد عرفه الصَّحابة بالدَّعابة، وكانوا يتقبّلُون ذلك منه بروحٍ طيّبة، حتى داعبَ ذات يومٍ رسول الله ﷺ؛ إذ حلَّ حزامَ راحلة النّبيّ في بعْضِ أسفاره حتى كاد يقع، وذلك ليضحك[2] النّبيَّ الكريم ﷺ بذلك ولينشطَ ركْبَ المسلمين بدعابته

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٦٩).

(٢) هذا هو المزحُ المقبول، والضّحك الذي تسمح به الشّريعة الغرّاء، أمّا الضّحكُ الذي يُميتُ القلبَ، والذي نهى عنه رسول الله ﷺ، فكان الصّحابة الكرام في غايةِ الأدب والاحترام، أمام حضرةِ رسول الله ﷺ.

هذا؛ وقد وَرَدَ في الآثار ما يتوافقُ مع ما قلناه؛ روى مالك بن دينار، عن الأحنفِ بنِ قيس أنّه قال: قال لي عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ: يا أحنف! مَنْ كثر ضحكه قلّتْ هيبته، ومَنْ مَزَحَ استخفّ به، ومَنْ أكثرَ من ذكر شيء عُرِفَ به، ومن كثر كلامه كثُر سقطه، ومَنْ كثُر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومَنْ قلَّ ورعه مات قلبه، ومَنْ مات قلبه كانت النّار أولى به.

وقال أبو الليث السّمرقنديّ ـ رحمه الله ـ: إياك وضحك القهقهة، فإنَّ فيها ثمانياً مِنَ=

اللطيفة[1]. وكان عبد الله بن حذافة يحبُّ الله ورسوله، وكان رسولُ الله ﷺ يعرفُ ذلك من عبد الله، ولذلك فقد شُكِيَ عبد الله بن حذافة مرّةً إلى رسولِ الله ﷺ أنّه صاحب مزاحٍ وباطل، فقال لهم: «اتركوه فإنَّ له بطانة؛ يحبُّ الله ورسوله».

عَبْدُ اللهِ وتَوجيْهَاتٌ نَبَوِيَّـةٌ إرشاديـة:

* كانَ عبدُ الله بنُ حُذافة ـ رضي الله عنه ـ واحداً منَ الصَّحابة الكرام الذين اقتبسوا كثيراً منَ الشَّمائل المحمّديّة، ونهجوا نَهْجَ رسول الله ﷺ، وسلكوا السَّبيلَ السَّويَّ الذي أمرهم به، فعاشوا سُعَداء يرجون مغفرةَ الله عزَّ وجلَّ، ويبتغون رضوانه.

* وخلال حياة الصَّحابة مع نبيِّهم ﷺ، كانوا يستلهمون منه الصَّواب في أقوالهم وأفعالهم، وذلك بفضل التَّوجيهات النَّبويّة الهادفة؛ التي شعَّت ألقاً في نفوسهم، فتمثّلوها فكراً نيِّراً، وشعوراً غامراً، وسلوكاً منداحاً بالخير، والحق، والهداية

* منْ ذلكَ ما أخرجه ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن الزُّهريِّ عن

= الآفات:
أولاها: أنْ يذمّك العُلماء والعُقلاء.
والثّانية: أنْ يجترىءَ عليك السُّفهاء والجهال.
والثّالثة: أنّك لو كنتَ جاهلاً ازداد جهلك؛ وإنْ كنتَ عالماً نقص علمك، لأنّه رُوي في الخبر: «إنَّ العالمَ إذا ضحك ضحكة مجَّ منْ العلم مجّة» يعني رمى مِنَ العِلْمِ بعضه.
والرّابعة: أنَّ فيه نسيان الذّنوب الماضية.
والخامسة: فيه جراءة على الذنوب في المستقبل، لأنّكَ إذا ضحكتَ يقسو قلبك.
والسّادسة: أنَّ فيه نسيان الموت وما بعده من أمر الآخرة.
والسّابعة: أنَّ عليك وِزْرَ مَنْ ضحك بضحكك.
والثّامنة: أنّه يجزىء بالضّحك القليل بكاءً كثيراً في الآخرة. قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢].

(١) حياة الصحابة (٢/٣٢١).

أبي سلمةَ أنَّ عبدَ الله بنَ حذافة قام يُصلِّي، فجهرَ بالقراءة، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «لا يا أبا حذافة! لا تسمِّعني وسمِّع الله»(١).

يَحمِلُ رِسَالةَ نبويةَ إلى كِسْرَى عظيم الفرس:

* عَقِبَ صُلْح الحديبية، هدأتِ الأحوالُ نوعاً ما في المدينة المنوّرة وما حولها، بل وفي الجزيرةِ العربيةِ، وإذ ذاك وجَدتِ الدَّعوة الإسلاميةُ متنفَّساً ومجالاً للتقدُّم والتَّوسع، عندها بعثَ رسولُ الله ﷺ كُتباً إلى أمراء العرب، وملوكِ العالَم يدعوهم فيه إلى الإسلامِ، وكانت دعوتُه لهؤلاء إلى سبيلِ الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ واختار رسولُ الله ﷺ لكلِّ واحد منَ الملوكِ رسولاً يليقُ به، ويعرف لغته(٢) وبلاده.

* هذا وقد وقعَ اختيارُ رسولِ الله ﷺ على عبد الله بن حذافة ليكون رسوله إلى كسرى أبرويز، ذلك الذي بلغتْ في عهدهِ المملكة السَّاسانية إلى ما لم تبلغ إليه في عَهْدٍ منْ عهودها الماضية من الأبَّهة، والرُّقي، والمظهر الذي يستولي على العقول.

* ولكي تتضح الصُّورة لدينا عن كسرى، بل عن عظَمة رسول الله ﷺ وعن الإسلام، فهلمّ نجلس إلى مائدة الإمام الطَّبريِّ التَّاريخية ليجلو لنا جلوة عن صورة من صور كسرى الذي أذلّه اللهُ عزَّ وجلَّ في عَصْرِ النّبوّة فيقول:

كانَ منْ أشدِّ ملوكهم بَطْشاً، وأنفذهم رأياً، وأبعدهم غوراً، وبلغ فيما ذكر منَ البأس، والنَّجدة، والنَّصْر، والظَّفْر، وجمع الأموال، والكنوز، ومساعدة

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٩٠) ومختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٠٤).

(٢) تحدَّثَ ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في «طبقاته»، والسُّيوطي ـ رحمه الله ـ في «الخصائص الكبرى» إلى أنَّ ذلك كانَ على سبيلِ المعجزة، فجاء ما ذكَرَاه من روايتهما قولهما: فأصبحَ كلُّ واحد يتكلّم لغةَ البلادِ التي أرسل إليها.
هذا؛ وليس بمستبعد أنْ يكونَ بعض الصَّحابة يعرف بعض اللغات نتيجة الاحتكاك التِّجاري مع الأمم التي تَفِدُ إلى أمّ القرى مكة أو إلى المدينة، أو إلى الأسواقِ الشَّهيرة في الحجاز أو إلى رحلات التجار إلى مشارق الأرض ومغاربها.

القَدَر، ومساعدة الدَّهر إيَّاه ما لم يتهيأ لملكٍ أكثر منه، ولذلك سمّي «أبرويز» وتفسيره بالعربية: المظفر[1].

* وقد تأنّق كسرى هذا تأنُّقاً عظيماً في مظاهر التّرف والمدنية، وأبدعَ في أنواع الأطعمة، والأشربة، وبلغَ في الألطافِ والأدهان والعُطور شأواً بعيداً، وقد نَشأَ في عهده ذوقٌ دقيقٌ للأطعمةِ اللذيذة، والعطور اللطيفة، وكانت عنده نهامة بجمعِ الأموال، واكتناز الكنوز، وجمع الطُّرف والنُّفائس وما شابه ذلك.

* أمّا نصّ كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز، فها هو كما أوردته المصادر المتعدِّدة، وذكره الطَّبري في تاريخه:

«بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، مِنْ محمّد رسولِ الله إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على مَنِ اتّبع الهدى، وآمنَ باللهِ ورسوله، وشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّي رسولُ الله إلى النّاس كافّة، لينذر مَنْ كان حيّاً؛ أسلمْ تسلم، فإنْ أبيتَ فعليك إثم المجوس»[2].

* انطلق عبد الله بن حذافة ـ رضوان الله عليه ـ نحو بلاد فارس حاملاً رسالة النّبيّ ﷺ إلى كسرى، يدعوه فيها إلى الإسلام[3].

* يقول عبدِ الله بن حُذافة ـ رضي الله عنه ـ: فدفعتُ إليه كتابَ رسولِ الله ﷺ، فقُرِىءَ عليه، ثمّ أخذه فمزّقه، وقال: يكتبُ إلي هذا وهو عبدي!! فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزَّقَ اللهُ مُلْكه».

---

(١) انظر: تاريخ الطبري المجلد الأول والثاني من مواطن متفرقة عن كسرى.

(٢) وانظر كذلك: الكامل لابن الأثير (٢/ ٨١) ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة؛ لمحمد حميد الله (ص ١٤٠).

(٣) إن مكاتباته ﷺ للملوك دليلٌ على أنَّ الإسلام دين عالمي، وأن الرسالة الإسلامية جاءت للإنسانية جمعاء.
ثم إن تبليغ الدعوة واجب على الأنبياء، والصالحين، لتحقيق معاني الهداية والرشاد في نفوس الناس، وإخراجهم من ظلمات الشك والشرك، إلى نور اليقين والإيمان.

* وكتبَ كسرى إلى باذان عامله على اليمن، أنِ ابعثْ مِنْ عندك رجُلَيْن جَلْدَيْن إلى هذا الرَّجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره، فبعثَ باذان قهرمانه[١] ورجلاً آخر، وكَتَب معهما كتاباً، فقدما المدينة المنوّرة، فدفعا كتاب باذان إلى النَّبيِّ ﷺ فتبسَّم رسول الله ﷺ، ودعاهما إلى الإسلام، وفرائصهما تُرعَد، وقال لهما: «ارجعا عنِّي يومكما هذا، حتى تأتياني في الغد، فأخبركما بما أُريد».

* ولما كان الغد جاءاه، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أنَّ ربِّي قد قَتَل ربَّه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها». وهي ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد سلَّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله.

* ورجعَ الرَّجُلان إلى باذان فأخبراه بما سمعا منْ رسولِ الله ﷺ، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن[٢].

* هذا؛ وقد تحقَّقَ ما أنبأ به رسولُ الله ﷺ بكلِّ دقَّة، فقد تمزَّقَ مُلْكُ كسرى بعد وفاته، وأصبحَ لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يَعِش ابنه شيرويه إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه في مدَّة أربعة أعوام عشرة ملوك آخرهم كسرى يزدجرد الذي داسته أرجل فُرسان رسول الله ﷺ في العَصْر الرَّاشديِّ، واختفتْ منْ على الوجود الدَّولة الكسروية، وتحقَّقت نبوءة الرَّسول ﷺ عندما قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده»[٣].

* وفي تلك الرّحلة البعيدة إلى بلادِ فارس، قال عبد الله بن حُذافة قصيدةً يصوِّر فيها ذلك:

أبى اللهُ إلا أنَّ كسرى فريسةٌ ... لأوَّلِ دَاعٍ بالعراقِ مُحمَّدا
يُقاذِفُ في فُحشِ الجَواب مُصَعِّراً ... لأمر الفريق الخائضين له الرَّدى

(١) «القهرمان»: هو كالخازن، والوكيل الحافظ لما تحت يده، والقائم بأمور الرجل.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٠٥) بشيء من التصرف.
(٣) رواه مسلم.

فقلــت لــه أوردْ فــإنّــك داخــلٌ مِنَ اليوم في بلوى ومُنْتَهب غَدا
فـأقبـلْ وأدبرْ حيـثُ شئـتَ فـإنّنـا لنا الملك فابسطْ للمسالمةِ يدا
وإلا فـأمسـكْ قـارعـاً سِـنَّ نـادمٍ أقرَّ بذلِّ الجُرح أو مُتْ مُوحّدا[1]

* لقد كان عبد الله بن حذافة السَّهميُّ موضعَ ثقة رسول الله ﷺ، وحبّه وتقديره، وظلَّ هذا الاحترام كامناً لعبدِ اللهِ إلى أنِ انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى وهو راضٍ عنه؛ لما اتصف به من فروسية كاملة، ومقدرة كبيرة، ولما تمتع به من إمكانات عظيمة، ولما أبداه من سلوك ناجح في شتى المجالات.

عَبْدُ اللهِ أَمَامَ قَيْصَرِ الـرُّومِ:

* لم تتوقفْ رحلةُ الجهادِ والفروسية عند عبد الله بن حذافة ـ رضي الله عنه ـ وإنَّما أخذ يشقُّ طريقَ البَسالةِ في الشَّرق والغرب مع الجُيوش الغازية، ويُسَجِّلُ المواقفَ الوضيئة تلوَ المواقفِ، حتى لقد أُعجب قيصر الرُّوم بموقفِه الصُّلْب؛ ولشدّة إعجاب القيصر به أطلقَ له جميع أسرى المسلمين، وذلك أنَّ عبد الله خرجَ إلى الشَّام مُجاهداً، فأسرته الرُّوم على قيسارية، وحُمِلَ إلى الطَّاغية، ففتنه عن دِينه فلم يُفتن فأطلقه.

* هذا؛ وقد زيَّنتِ المصادر جِيْدَها بهذه الواقعة الطَّريفة التي تدلُّ على فروسيةِ عبد الله بن حُذافة وهو يقفُ أمام أعظمِ ملوكِ الدنيا، يقول كلمة الحقِّ، ولا يخشى إلا الله عزَّ وجلَّ. . . وإليكم القصّة:

* وجَّهَ عمر بنُ الخطاب ـ عليه سحائب الرضوان ـ جيشاً إلى الرُّوم، وفيهم عبد الله بن حذافة، فأسره الروم، فذهبوا به إلى مَلِكهم، فقالوا له: إنَّ هذا منْ أصحابِ محمّد. فقال له الطَّاغية[2] ملك الرُّوم: هل لك أنْ تنصَّر، وأشركك في ملكي وسُلطاني؟!.

---

(1) انظر: منح المدح (ص ١٦٩ و١٧٠) و«موحداً»: منفرداً.
(2) «الطاغية»: لقب ملوك الروم، وربما أطلقه العرب على غيرهم، وهو مَنْ طغى في الكفر، وجاوز في الشر.

فقال له عبد الله بإباءٍ، وشهامة، وازدراء: لو أعطيتني ما تملك وجميع ما ملكَتْه العرب على أنْ أرجعَ عن دِيْن محمّد ﷺ طرفةَ عَيْنٍ ما فعلتُ.

قال الطَّاغية: إذاً أقتلكَ ولا أبالي.

فقال عبدُ الله بن حذافة في حَزْم: أنتَ وذَاكَ.

* عند ذلك دعا الطَّاغية زبانيته[1]، وأمرهم أنْ يصلبوه، وقال للرُّماة: ارموه قريباً منْ يديه، قريباً من رجليه، وهو يعرض عليه النَّصرانية، وعبد الله ابن حذافة يأبى إباءً شديداً.

ولما أعياه أَمْرُه أمرَ به فأنزل، ومنْ ثمَّ دعا بِقِدْرٍ فصُبَّ فيها ماءٌ حتى احترقتْ، ثمَّ دعا بأسيريْنِ منَ المسلمين، فأمَرَ بأحدهما فألقي فيها، وهو يعرضُ عليه النَّصرانيةَ، وهو يأبى، ثمَّ أمر به أنْ يُلقى فيها، فلمّا ذُهِبَ به بكى، فقيل للطاغية الظَّلوم: إنَّه قد بكى، فظنَّ الطَّاغية أنَّه جزع، وداخله الخوف والرَّهبة، فقال لهم: ردّوهُ عَليَّ، فعرضَ عليه النَّصرانية، فأبى أكثر منَ المرّات الأُوْلى.

* فتعجَّبَ الطَّاغيةُ من عبدِ الله وقال له: فما أبكاكَ إذاً؟! قال عبد الله ونورُ الإيمان، وأنوارُ اليقين تنبعث منْ كلماتِهِ الإيمانية الخالدة: أبكاني أنّي قُلْتُ في نفسي: تُلقى السَّاعة في هذه القِدْر فتذهبُ، فكنتُ أشتهي أنْ يكون بعددِ كلِّ شعرةٍ في جسدي نَفْس تُلقى في سبيل اللهِ عزَّ وجلَّ.

فقال له الطَّاغية وعلامات الإعجاب ترتسمُ على وجهه: هل لك أنْ تقبِّل رأسي، وأخلِّي عَنْك؟

* ولكنَّ عبد الله بنَ حذافة ـ رضي الله عنه ـ لم يرضَ أنْ ينجوَ بنفسه منْ طغيانِ هذا الطَّاغية، بل تذكّر إخوانه فرسان المسلمين الذين وقعوا في الأَسْر، فقال له: وعن جميعِ أسارى المسلمين[2]؟!

---

(1) «زبانيته»: شرطته.

(2) وهذا الفكر والتوجُّه تطبيق عملي لحديث رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

قال الطَّاغية: وعن جميعِ أسارى المسلمين.

* يُحدِّثنا عبد الله بن حذافة - رضي الله عنه - عن تلك اللحظات الحرجة، وعمّا اعتمل في نفسه منْ صراعاتٍ وأفكار فيقول: فقلتُ في نفسي: عدوٌّ منْ أعداءِ الله، أُقَبِّلُ رأسه يخلِّي عنِّي وعن أسارى المسلمين ولا أبالي.

* وعند ذلك دنَا عبد الله بن حذافة منَ الطَّاغية، وقبّل رأسه، فدفعَ إليه الأسارى، فَقَدِمَ بهم على عمرَ بنِ الخطَّاب - رضي الله عنه - وأُخبِرَ عمر بخبره، وما حدث له مع طاغية الروم، فقال عمرُ: - رضي الله عنه - وقد عظّم من شأنِ عبد الله بن حذافة: حقٌّ على كلِّ مسلم أنْ يقبِّل رأسَ عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ؛ فقام عمر فقبَّل رأسه، فكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يمازحونَ عبد الله، ويداعبونه، فيقولون له: يا عبد الله! قبَّلْتَ رأسَ عِلْجٍ؟!! فيقول لهم باسماً: أطلقَ الله عزَّ وجلَّ بتلك القبلة ثمانين منَ المسلمين[1].

* وأوردَ الذَّهبيُّ - رحمه الله - قصَّة أخرى عن فروسيّة عبد الله بن حذافة في حسن ثباته على الحقِّ، فقال:

إنَّ أهلَ قيسارية أسروا عبد الله بنَ حذافة، فأَمَر به ملكهم، فجُرِّبَ بأشياء صَبرَ عليها، ثمَّ جعلوا له في بيتٍ معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، فاطّلعوا عليه، فقالوا للملك: قد انثنى عنقه، فإنْ أخرجته وإلا ماتَ، فأخرَجَهُ الملكُ وقال له: ما منعك أنْ تأكلَ وتشربَ؟! قال عبدُ الله - رضي الله عنه -: أما إنَّ الضَّرورة كانت قد أحلتها لي، ولكنْ كرهتُ أنْ أشمتَك بالإسلام. قال: فقبِّل رأسي، وأخلي معك مئةَ أسير. قال عبد الله: أمّا هذا فنعم، فقبل رأسه، وخلى له مئة أسير، وخلى سبيله، وأجازه[2].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ١٠٥ و١٠٦) بشيء من التصرف.
وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤) والإصابة (٢/ ٢٨٨) وحياة الصحابة (١/ ٣٠١ و٣٠٢).

(٢) سير أعلام النّبلاء (٢/ ١٥) بتصرف يسير جداً. وقد علّق الإمامُ الذَّهبي - رحمه الله - على هذا الخبر بقوله:
ولعلَّ هذا الملك قَد أسلمَ سِرّاً، ويدلُّ على ذلك مبالغته في إكرامِ ابن حذافة، وكذا=

جِهَادُهُ في مِصْرَ ورحلتُهُ الأخيرةُ:

* بعد أن أدّى عبد الله بن حذافة ـ رضي الله عنه ـ واجبَه في الجهادِ ببلاد الشَّام، توجَّه إلى مصرَ، وشهدَ هنالك مع عمرو بن العَاص[1] فَتْح مصر، ولما فَتَح عمرو حصن الفسطاط ـ بابليون ـ وجّه عبد الله بن حُذافة إلى عينِ شَمْس، فغلب على أرضها، وصالح أهل قُراها على مثل صلْح الفسطاط.

* ويُحدِّثنا البلاذريّ ـ رحمه الله ـ بأنّه بعد فَتْح مدينة الإسكندرية استخلف عمرو بن العاص عليها عبد الله بن حذافة في جماعةٍ من المسلمين، وانصرفَ عمرو إلى الفسطاط، فكتبَ الرُّوم إلى قسطنطينَ بنِ هرقل الذي كان مَلِكَ الرُّوم حينذاك يخبرونه بقلّةِ عددِ المسلمين في الإسكندرية، فبعثَ ملك الرُّوم أحد قادته على رأسِ قوةٍ مشحونة في ثلاثمئةِ مَرْكَب فدخل الإسكندرية، ولكنَّ المسلمين أعادوا فَتْح الإسكندرية مرة ثانية[2].

* هذا؛ وقد ظلَّ عبد الله بن حذافة في مصرَ يُعْلِي رايةَ الحقِّ إلى أنْ توفي في خلافةِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ وكانت وفاتُه في مصرَ، ودُفِنَ في مقبرتها[3].

* ونحنُ في وَدَاع سيرة فارسٍ من فرسانِ رسول الله ﷺ، نتذكر أنَّ عبد الله ابن حذافة أحد الفرسان الصَّابرين الذين ضربوا أروعَ الأمثلة في ساحاتِ الجهاد، وفي الفتوحاتِ الإسلامية في مختلف البُلدان، كما سجّلوا أروع

= القول في هرقْل إذ عرضَ على قومهِ الدُّخول في الدِّيْنِ، فلمّا خافهم، قال: إنّما كنتُ أختبرُ شدتكم في دينكم. فَمَنْ أسلم في باطنه هكذا، فيرجى له الخلاص من خلودِ النَّار، إذ قد حصَّل في باطنه إيماناً ما، وإنّما يُخاف أنْ يكون قد خَضَع للإسلام وللرّسول، واعتقدَ أنهما حقّ مع كون أنّه على دينٍ صحيح، فتُراهُ يُعظّم للدينين، كما قد فعله كثيرٌ من المسلمانية الدواوين، فهذا لا ينفعه الإسلام حتى يبرأ من الشّرك.

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس العظيم في هذا الكتاب ص(٢٧٩).

(٢) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٦٠).

(٣) منح المدح (ص ١٧٠).

الأمثلة في قوّة الإرادة أمام الشّدائد، وذلك في سبيلِ مرضاة الله عزّ وجلَّ.

* رضي الله عن الفارسِ الفاتحِ الصّابرالكريمِ المرحِ عبدِ الله بنِ حذافة، وجعلنا منَ الذين يستمعون القَولَ فيتّبعون أحْسنَه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو ـ سُبحانه ـ نِعْمَ المولى، ونِعْم النصير.

* * *

(٢٢)

عُبَيْدَةُ بنُ الحَارِث

ـ رضي الله عنه ـ

* شهدَ له النَّبيُّ بالشَّهادة فقال: «أشهدُ أنَّكَ شهيد».

مَنْزِلةٌ كُبْرى ومقام كريم:

* تروي كُتُب السِّيرةِ والتَّراجم قَصَصَ السَّابقين الأوَّلين إلى الاستجابة إلى اللهِ ورسوله، وتذكر قبائلهم وعشائرهم، كما تشيرُ إلى صفاتهم وأوصافهم؛ بكل فخر واعتزاز.

* وقد وصفتِ المصادرُ ضيفَ حلقتنا، وفارس هذه الصَّفحات، فقالت: كان أحد السَّابقين الأوَّلين، وهو أسنُّ مِنْ رسول الله ﷺ بعشر سنين، وكان رَبْعَة منَ الرِّجال، مليحاً، كبير المنزلة عند رسول الله ﷺ.

* فَمَنْ كبيرُ المنزلةِ والقَدْر هذا؟!

إنَّه عُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشيّ المطلبي[١]، وأمّه: سخيلة بنت خزاعي من ثقيف.

* كان لعبيدة بضعة أولاد، وهم: معاوية وبه يكنى، وعون، ومنقذ، والحارث، ومحمّد، وإبراهيم. وله أربع بنات، وهن: ريطة، وخديجة، وسخيلة، وصفية. وكان عبيدة مربوع[٢] القامة، أسمرَ اللون، حَسَنَ الوجه، مليحاً[٣].

* أسلم عُبيدة عندما داعبتْ نسماتُ الإيمان قلبه، فَخَفَقَ وخفَّ لاحتضانِ هذا الدِّينِ بين حناياه، وكان إذ ذاك يقتربُ من الخمسين عاماً، انطلق هو وأبو سلمة بن عبد الأسد[٤]، وعثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ، وأعلنوا إسلامهم في وقتٍ واحد، وكُتِبُوا في عدادِ السَّابقين إلى هذه المكرمة، حيثُ

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٠ ـ ٥٢) ونسب قريش (ص ٩٣ و٩٤) والمحبّر (ص ٧١ و٨٣ و١١٦ و٤٣٧ و٤٥٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣١٧ و٣١٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٢٥٦) والإصابة (٢/ ٤٤٢) وغيرها كثير من المصادر.

(٢) «المربوع»: كالربعة، المتوسط القامة بين الطول والقصر.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٠) بشيء من التصرف.

(٤) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٤٣٥).

أسلموا قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وقبل أنْ يدعوَ فيها[(١)].

* ولم يكن عُبيدة بن الحارث المطلبيّ وحده منَ الذين فازوا بالسَّبْقِ إلى دوحةِ الإيمان الباسقة، وإنّما أسلم أخواه الطُّفيل والحُصَيْن ابنا الحارث بن المطّلب أيضاً، وسَعِدا بنعيم الإسلام، وعبير الإيمان.

* كان الطُّفيل بن الحارث بن المطّلب واحداً من فرسان رسولِ الله ﷺ، ممن كُتِبوا في قائمة الأبرار الأخيار، فقد شهد الطُّفيل بَدْراً، وأُحُداً، والخندق، والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وأبلى فيها بلاء حسناً، مباركاً. وتوفي في خلافة عثمان سنة (٣٢هـ) وعمره (٧٠ سنة) ـ رضي الله عنه ـ[(٢)].

أمَّا أخوه الحُصين بن الحارث بن المطَّلب فهو منْ فرسانِ مدرسة النُّبوّة المحمّدية أيضاً، وأحد شجعان الصَّحابة الأخيار، وأحد الذين صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه، شَهِدَ بدراً وأُحُداً والمشاهد كلّها مع رسولِ الله ﷺ، وكُتِب اسمهُ في صحيفةِ الصَّحابة المجاهدين، وتوفي في خلافة عثمان سنة (٣٢ هـ) بعد أخيه الطّفيل بأشهرٍ ـ رضي الله عنه ـ[(٣)].

* كان هؤلاء الإخوة الأعلام مِنَ المجاهدين البررة في مدرسةِ النّبوّة، برئاسةِ محمّد رسول الله ﷺ، إذ علَّمهم، وربّاهم، فكانوا عظماء في كل شيء، وتخرَّجوا كواكب دُرِّية تملأ الآفاق، وأزهار متفتحة، تتضوَّع منها روائح الجنة، ونفوساً أبيّة تسمو إلى قمم المجد، وتبلغ شأوها من الخلود.

* مكثَ عُبيدة بنُ الحارث في مكةَ يتابعُ تطوُّرَ الدَّعْوةِ المحمّدية، ويرقُبُ الأحداث التي تدورُ في أمّ القرى، ويرى ما يرى مِنْ سفاهة المشركين؛ الذين يصدُّون عن سبيلِ الله، ويركبون العناد، ويريدون أنْ يطفئوا نورَ الله بأفواههم،

---

(١) كان عبيد بن الحارث من الذين تحرروا من ربقة عبادة الأصنام، ومتابعة تقليد الآباء للفكر الجاهلي بعفنه وتحجره، فانطلقتْ نَفْسُه من إسار عبودية الجاهلية إلى رحاب أفقٍ يتسم بالانطلاق وتحرير الفكر.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٢) بتصرف.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٣) بتصرف يسير.

ولكنَّ الله متمُّ نوره، ولو كرهَ المشركون.

* وظلَّ عُبيدة مع النبيّ ﷺ بمكة المكرمة، إلى أنْ جاءَ الإذنُ بالهجرة إلى المدينة المنورة، وهناك بدأت رحلةٌ جديدة مع حياة الفروسية(١).

الهِجْـرَةُ إلـى اللهِ:

* استعدَّ بنو الحارث بن المطلب كي يكونوا معَ المهاجرين إلى المدينة المنوَّرة، وهاجر عُبيدة مع أخويه الطُّفيل والحُصين، وصحِبَهم في هذه الهجرة مِسْطَحُ بنُ أثاثة بن عباد بن المطَّلب، فقدموا المدينة المنوَّرة، ونزلوا على عبدِ الرحمن بن سلمةَ العجلانيّ في قباء.

* كانَ عُبيدة عندما هاجر قد تجاوز السِّتين عاماً، إلا أنَّ السِّنين لم تَنَلْ من همّته وشجاعته، وإنّما كانت همّته في نشاطٍ وثورة.

* وحينما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، وكانتِ المؤاخاة، آخى بين عُبيدة وعُمير بن الحمام الأنصاري، أحد فرسان الأنصار الشّجعان، وكلاهما قُتِل شهيداً في بدر ـ فقد قُتل عُمير في غزاةِ بدرٍ شهيداً، قَتَله خالد بن الأعلم، وكان عُمير بن الحمام منَ الذين باعوا أنفسهم لله، فقد خرجَ رسولُ الله ﷺ يوم بدر إلى النّاس فحرّضهم، ونَفَّل كلَّ امرىء منهم ما أصاب وقال: «والذي نفسُ محمّد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجلٌ، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنّة».

فقال عُمير بن الحمام ـ وفي يده تمرات يأكلهن ـ: بَخٍ، بَخٍ، فما بيني وبين أنْ أدخلَ الجنّة إلا أنْ يقتلني هؤلاء.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟!».

قال: لا واللهِ يا رسولِ الله! إلا رجاء أنْ أكونَ منْ أهلها. قال: «فإنّك منْ أهلها».

---

(١) إنَّ الهجرة انطلاقٌ إلى عالمٍ جديد لتكوين مجتمع الإسلام، وتحقيقه واقعاً ملموساً، يخضع لحاكمية الله عزَّ وجل، بعيداً عن أدناس الجاهلية، وتعفُّن فكرها، واتباعها للهوى، والنفس، والشهوات.

Scanned by CamScanner

فقذفَ عُمير التَّمر من يده، ثمَّ قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنَّها لحياةٌ طويلة، وأخذ السَّيف، فقاتل القومَ حتى قُتل شهيداً، وهو يقول:

رَكْضاً إلى اللهِ بغيرِ زَادِ ... إلا التُّقى وعَمَلَ المعَادِ
والصَّبرَ في اللهِ على الجهادِ ... وكلّ زادٍ عرضةُ النَّفَادِ
غيرَ التُّقى والبرّ والرَّشادِ[(١)]

* وفازَ عُمير بنُ الحمام بتحقيقِ المرجوِّ، ووجد ما وعده الله ورسوله حقاً، وألقى رحاله في ربضِ الجنَّة يتبوأ منها حيث يشاء[(٢)].

الفارسُ عُبَيدة وسَرِيةُ الإسلامِ الأُولى:

* وردَ عن عروةَ بنِ الزُّبير - رحمه الله - أنَّه قال: قَدمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، فكان أوَّل رايةٍ عقدها رايةَ عُبيدة بن الحارث[(٣)].

* ففي شوال من السَّنة الأولى للهجرة، أرسل النَّبيُّ ﷺ عُبيدة بن الحارث ابن المطّلب في ستّينَ راكباً من المهاجرين، ليس فيهم أنصاريّ، وعَقَدَ له

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/٥٦٥) والاستيعاب (٢/٤٧٦) وللحديث أصل في الصَّحيح، إذ أخرجه مسلم في كتاب الإمارة برقم (١٨٩٩) باب: ثبوت الجنة للشهيد.

(٢) إنَّ أوَّلَ ما يلفتُ النَّظر في موقف عمير هذا قوة الإيمان عنده، وصدق إخلاصه في الجهاد؛ لتكون كلمةُ اللهِ هي العليا، فهو رجلٌ مؤمن، خالطت بشاشةُ الإيمان شغافَ قلبه، ونشأ بهذا الإيمان في المؤاخاة القائمة على الحبِّ لله، وكان إخاؤه معقوداً بناصية رجلٍ من أبطال الرعيل الأوّل منَ المهاجرين، الذين شروا أنفسهم في مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ذاك الفرعُ الأشمُّ من دوحة النّبوّة، عُبيدة بن الحارث المطلبي. وها هو عبيدة يُصاب فيستشهد في أوّلِ جولةٍ من جولات المعركة البدريّة، فيشهده أخوه الإيماني عُمير بن الحمام الأنصاري مودّعاً إلى الجنة، تشيعه شهادة رسول الله ﷺ بقوله: «أشهد أنّك شهيد».
ويغمر الشّوقُ عميراً، ويُبرِّح به الوجد ليلقى أخاه عُبيدة بن الحارث في رياضِ الجنة، ففعل ما فعل، فإذا هو شهيد يمضي ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التُّقى والصَّبر في الجهاد، فرضي الله عنه وأرضاه.

(٣) انظر: المحبر لابن حبيب (ص ١١٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٤١).

لواء[1] أبيض، وأمرهم أنْ يعترضوا عِيْراً لقريش، فوافوا العير ببطنِ رابغ قُرب العيص، وكان على العير أبو سفيان بن حرب في مئتي رجلٍ من قريش، وقد ترامى الفريقان بالنَّبل، ولم يقعْ قتالٌ، ولم يَسُلّوا سيفاً، ولم يَدْنُ بعضهم من بعض.

* وفي هذه السَّرية، انضمَّ رجلان منْ جيشِ مكةَ إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو[2] المشهور بالمقدادِ بنِ الأسود البهراني، وعتبة بن غزوان المازنيّ، وكانا قد أسلما قديماً، فانتهزا الفرصة، ولحقا بالمسلمين يومئذٍ، حيث وجدا السَّبيل لذلك.

* وفي هذه السَّرية الميمونة، أُطْلِقَ أوّل[3] سَهْمٍ في الإسلام، وكان الذي أطلقه سعد بن أبي وقاص[4] ـ رضي الله عنه ـ.

* وبهذا نجح عُبيدة بن الحارث ـ رضوان الله عليه ـ في هذه السَّرية، وعاد مع أصحابِه إلى المدينة، واللواء يرفرفُ فوق رؤوسهم، وهم يهتفون: الله أكبر، وبشائر النصر تحفّهم من كل جانب؛ فما أجمل الظفر بعد الصبر!

«قُمْ يا عُبيدة بنُ الحارث»:

* هي ذا غزاةٍ بدرٍ، وها هو عُبيدة أحد أعيانها، حيث كان له فيها غَنَاءٌ عظيم، ومشهدٌ كريم، وكان أَسَنَّ المسلمين يومئذ، وعددهم ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، حيث بلغ من العمر ثلاثاً وستينَ سنة.

---

(١) «اللواء»: هو الرَّاية، أو العلم، قد يحمله أميرُ الجيش بنفسه، وقد يكل حمله إلى سواه، ويمشي به في مقدمة الجيش، ـ وحمل اللواء يومذاك مع عبيدة مسطح بن أثاثة ـ ويقال: إن أول من عقد الألوية هو إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ.

(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس الصِّنديد في هذا الكتاب ص(٣٠٠).

(٣) ويؤيد هذا ما أخرجه ابن سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن سعد بن أبي وقاص نفسه قال: أنا أول مَنْ رمى في الإسلام بسهم، خرجنا مع عبيدة بن الحارث ستين راكباً سرية.

وقال سعد أيضاً: إنّي لأوّل رجلٍ منَ العرب رمى بسهمٍ في سبيل الله.

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٥١) والاستيعاب (٢/ ٤٣٧).

* كان مع المسلمين يوم بدر سبعون بعيراً، وكانوا يتعاقبون عليها، وكان البعيرُ بين الرَّجلين والثَّلاثة والأربعة، وكان عُبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ قد اشترى بعيراً من أبي داود الأنصاريّ، وكان يركبه هو، وأخوه الطُّفيل، ثمّ أخوه الحصين[1]، ومسطح بن أثاثة، حتى وصلوا أرض بدر.

* وفي بدر، بدأتِ الحربُ بالمبارزة، وخرج من صفوف المشركين ثلاثة من أفجر المجرمين، وهم: عُتْبة بنُ ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم فتية ثلاثة من الأنصار[2] البهاليل، آمنوا بربّهم، وزادهم هدى.

فقالوا: مَنْ أنتم؟

قالوا: نحنُ رهْطٌ مِنَ الأنصار.

فقالوا: أكْفاءٌ كرام، ما لنا بكم منْ حاجة، ولكنْ أخْرِجُوا إلينا أكْفاءنا من بني عمِّنا، فعاد الأنصارُ إلى أماكنهم.

* ثمّ إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «قُمْ يا عُبيدة بن الحارث، وقُمْ يا حمزة، وقُمْ يا عليّ».

* واستجابَ الأبطالُ الصَّناديد الثَّلاثة، فلمّا قاموا ودنوا منَ المبارزين، قالوا لهم: من أنتم؟

قال الأول: أنا عُبيدة بنُ الحارث المطلبي[3]؛ من فرسانِ رسول الله ﷺ.

---

(1) انظر: أنساب الأشراف (١/ ٢٨٩) ويلاحظ أنَّ عبيدة والطُّفيل والحصين إخوة ثلاثة قد شهدوا بدراً، فرضي الله عنهم.

(2) هم عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة؛ وقيل: هم ثلاثة إخوة أشقاء وهم: معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء. هذا وقد ذكر الحافظ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في «البداية والنّهاية» (٣/ ٢٧٣) أنَّ النّفر من الأنصار لما خرجوا كره رسول الله ﷺ ذلك؛ لأنّه أول موقف واجه فيه رسول الله ﷺ أعداءه، فأحبَّ أن يكون أولئك من أهله، وذوي قرباه، فأمَرَ الأنصار بالرجوع. ورجع الأنصار إلى مصافهم، وقال لهم رسول الله ﷺ خيراً.

(3) «بنو هاشم وبنو المطلب سواء في الجاهلية والإسلام» كما قال ﷺ.

وقال الثاني: أنا حمزةُ بن عبد المطلب؛ أسد الرّحمن؛ وأسد رسول الله ﷺ.

وقال الثّالث: أنا عليٌّ بن أبي طالب؛ فارسُ رسول الله ﷺ وابنُ عمّه.

* مدَّ الجيشان الأبصار، وقد حُبِسَتِ الأنفاسُ، وكلُّ واحد منَ الفريقين يراقبُ أصحابه، وأخذ المؤمنون يلهجون بالدُّعاء إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ ينزِّل نَصْرَهُ على أصحابهم، فقد كانت هذه هي الجولة الأولى بين ساداتِ عبد شمس، وفرسان بني هاشم.

* بعد لحظاتٍ، ظهرَ الموقفَ جَليّاً، وها هو حمزة بن عبد المُطّلب ينادي: الله أكبر، فقد قَتَلَ خَصْمَه شيبة، وجعله كأمسِ الدَّابر، وإذا عليّ يهتفُ: الله أكبر، وقد قتل خصمه الوليد وألحقه بعمّه شيبة، فندّت من شفاهِ المسلمين هتافات تُنادي: الله أكبر، الله أكبر.

* أمّا عُبيدة بن الحارث وخصْمه عُتبة بن ربيعة، فقد اختلفا بينهما بضربتين، كلاهما أصاب الآخر، وأثبتَ صاحبه، وقد وقعتْ ضربةُ عتبة على ركبةِ عُبيدة، وكرَّ حمزة وعلي ـ رضي الله عنهما ـ على عتبة، وأجهزا عليه، واحتملا عبيدة، وجاءا به إلى رسول الله ﷺ، فأفرشه قدمه، فوضع خدَّه عليها، وقد طاب نفساً بذلك، ثمَّ قال: يا رسولَ الله! وددتُ والله أنَّ أبا طالب كان حيّاً؛ ليعلم أنّا أحقّ منه بقوله:

ونُسْلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حولَه ... ونَذهلُ عن أبنائنا والحلائلِ[1]

* وفي شأنِ هذين الفريقين المتبارزين نزل قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩].

روى البخاريُّ في صحيحه بسنده عن قيس بن عباد عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنّه كان يقسم فيها قسماً: إنَّ هذه الآية: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى

---

(١) هذا البيت من قصيدة أبي طالب اللامية المشهورة، التي يقسم فيها ألا يسلم لقريش رسول الله ﷺ أبداً، حتى يموت دونه. و«الحلائل»: الزوجات.

﴿رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزةَ وصاحبيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا في يوم بدر[1].

* هذا، ولقد أحسنَ العَّلامة ابنُ جابر الأندلسيّ ـ رحمه الله ـ حيث رسمَ قصَّة بدرٍ شعراً، وذكر قصة المبارزة والمبارزين السِّتة في بعضِ أشعاره اللطيفة فقال:

بَدا يومَ بدرٍ وهو كالبَدْرِ حوله ... كواكب في أفْقِ المواكبِ تنجلي[2]

وجبريل في جنْدِ الملائك دونه ... فلم تغْنِ أعداد العدوّ المخذّلِ

رمى بالحصى في أوجِه القوم رميةً ... فشرّدهم مثل النَّعام بمجهلِ

وجاد لهم بالمشرفيّ فسلّموا ... فجادله بالنَّفس كلّ مجندلِ

عُبيدة سَلْ عنهم وحمزة واستمع ... حديثهم في ذلك اليوم منْ علي[3]

هموا عَتَبوا بالسَّيف عتبة إذ غدا ... فذاقَ الوليدُ الموت ليس له ولي

وشيبة لما شاب خوفاً تبادرت ... إلى العوالي بالخضاب المعجل

* ثمَّ يقول:

أَلَمْ يعلموا عِلْم اليقين بصدقه ... ولكنَّهم لا يرجعون لمعقلِ[4]

«أشهَدُ أنَّك شَهِيدٌ»:

* ذكر ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ في السِّيرة أنَّ عُبيدة بنَ الحارث قال في يوم بدر، وفي قَطْعِ رجله حين أُصيب:

---

(1) فتح الباري (٧/ ٢٩٧) حديث رقم (٤٧٤٣). ومسلم (٣٠٣٣) وابن ماجه (٢٨٣٥) وانظر تفسير الرازي للآية (١٩) من سورة الحج، وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٥٧ و٢٥٨).
وانظر كذلك شرح السّير الكبير للشيباني (١/ ١٧٣ و١٧٤).
ومن الجدير بالذكر أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أعطى يومها كلّ قاتل سلب قتيله، فأخذ عبيدة سلب قتيله فدفعه إلى ورثته. (شرح السّير الكبير (٢/ ٥٩٨ و٥٩٩).

(2) «بدا» أي: رسول الله ﷺ. و«كواكب»: الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ.

(3) «علي»: أي: علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(4) انظر: السّيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (١/ ٣٩٤).

سَتَبلُغُ عنّا أهلَ مكةَ وقعةٌ يهبُّ لها مَنْ كان عَنْ ذاكَ نائيا(١)
بعتبةَ إذْ ولّى وشيبةَ بعده وما كان فيها بِكْرُ عُتبة راضيا(٢)
فإنْ تقطعوا رجلي فإنّي مسلمٌ أرجّي بها عيشاً مِنَ اللهِ دانيا
مع الحورِ أمثال التّماثيل أخْلصتْ مع الجنّةِ العُليا لمن كان عاليا(٣)
وبعتُ بها عيشاً تعرّقتُ صَفْوَهُ وعالجتُه حتى فقدتُ الأدانيا(٤)
فأكرمني الرحمنُ مِنْ فَضْلِ مَنِّهِ بثوب من الإسلام غطّى المساويا
وما كان مكروهاً إليَّ قتالهم غداة دعا الأكْفَاء مَنْ كانَ داعيا
ولم يَبْغِ إذْ النّبي سواءنا ثلاثتنا حتى حَضَرنا المناديا
لقيناهمُ كالأُسْد تخطُر بالقنا نقاتل في الرّحمن مَنْ كان عاصيا
فما برحت أقدامنا مِنْ مقامنا ثلاثتنا حتى أُزيروا المنائيا(٥)

* كان عُبيدة بين الحياةِ والموت وهو يضعُ خَدَّه على قَدَمِ رسول الله ﷺ، وقال له: ألستُ شهيداً يا رسولَ الله!.

فقال رسولُ الله ﷺ: «أشهد أنّك شهيد».

* ولما وضعتِ الحربُ أوزارها، حَملَ المسلمون الفارسَ الجريح، والبطل المؤمن، ذلك الذي عُمِّر فؤادهُ بأنوارِ اليقين، وأسلم أمره إلى الله العليّ الكبير، وفي طريق عودتهم إلى المدينة، أسلم عُبيدة الرُّوح إلى بارئها،

---

(١) «يهبّ»: يستيقظ. «نائياً»: بعيداً.
(٢) «بكر عتبة»: ولده الأول.
(٣) «التماثيل»: جمع تمثال، وهي الصورة تُصنع أحسن ما يقدر عليه. «أخلصت»: أحكم صنعها وأتقن. هذا إذا كان مرجع الضمير إلى التماثيل، وإذا رجع الضمير إلى الحور، فمعناه: خصّ بها. قال أبو ذر الخشني: وهو أحسن.
(٤) «تعرقت»: مزجت.
(٥) السّيرة النّبوية لابن هشام (٢/٢٣ و٢٤) وقال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لعبيدة.
أقول: هذه القصيدة ـ وإن كانت منحولة ـ فإنها تصور مراحل المبارزة التي جرت على أرض بدر، وقد أوردتها كاملة كي نستأنس بها، وكيما تتوضح الصورة للمعركة أكثر.

وصَعِدَتْ إلى ربِّها راضيةً مرضيةً، ترجو جنَّته التي وَعد، ورضوانه الذي كتب.

* توفي عُبيدة بن الحارث في مكانٍ يُقال له الصَّفراء[1]، وكانت وفاته في العَشْر الأخير من رمضانَ سنة اثنتين من الهجرة النّبوية، فرضي الله عنه وأرضاه.

* وفي وادي الصَّفراء، دُفِنَ عُبيدة بن الحارث البدريّ الشَّهيد، وأكَّدَ رسولُ الله ﷺ بأنَّ عُبيدة من الشُّهداء، إذ قال له: «أشهدُ أنَّك شهيد»[2] فنعمت الشَّهادة! ونِعْم الشهيد!

* ظلَّتْ منزلةُ عُبيدة كبيرة عند الحبيب المصطفى ﷺ، يثني عليه كلّما ذكَره أصحابه، أو كلّما سنحت مناسبة.

* جاء في المصادر الوثيقة أنَّ رسولَ الله ﷺ لما نزل بأصحابه بالتَّارين ـ قُرب الصَّفراء ـ قال له أصحابه وقد عجبوا: يا رسولَ الله! إنا نجدُ ريح مسك.

فقال ﷺ: «وما يمنعكم وها هنا قبر أبي معاوية؟!»[3] يعني: عُبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ.

* ولم تتوقفْ عناية رسول الله ﷺ بعبيدة بن الحارث عند هذا الحدِّ

---

(1) «الصَّفراء»: قرية كثيرة النخل والمزارع، وماؤها عيون، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة، وماؤها يجري إلى ينبع.

(2) من الجدير بالذكر ـ ها هنا ـ أنْ نشيرَ إلى أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أسهم لمن استشهد ببدر، وأعطى ذلك لورثتهم، وكانوا أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين، ومنهم عبيدة؛ وثمانية من الأنصار.
إنَّ ما فعله رسول الله ﷺ مع أُسر الشّهداء لهو غاية السُّموّ الأخلاقي، والعدل، والإنصاف، أليس ذلك التصرف الكريم هو نواة تكريم أسر الشهداء للناس جميعاً في جميع العصور؟! باعتبار أن الشهداء أكرم من في الدنيا، وأنبل بني البشر.

(3) الاستيعاب (٢/ ٤٣٧).

فحسب، بل ضمَّ إليه أهله وزَوْجَه زينت بنت خزيمة التي غدت أمّاً للمؤمنين[1].

* وبقيت ذكرى عُبيدة بن الحارث تفوحُ بالأريج بين الصَّحابة الكرام، فهذا كعب بنُ مالك[2] الأنصاريّ يرثيه باكياً فيقول:

أيـا عيـن جُـودي ولا تبخلـي ... بـدمعـك حقّـاً ولا تنـزُري[3]
علـى سيِّـد هـدّنـا هُلْكُـه ... كـريـم المشـاهـد والعنصـر
عُبيـدة أمسـى ولا نـرتجيـه ... لعـرفٍ عـرانـا ولا منكـر
وقـد كـان يحمـي غـداة القتـا ... ل حـاميـة الجيـش بـالمِنْتَرِ[4]

* وشاركت هند بنت أُثاثة المطّلبيّة في رثاءِ عُبيدة أيضاً، فقالت ترثيه من قصيدة:

لقد ضُمِّن الصَّفراء مَجداً وسؤددا ... وحلماً أصيلاً وافر اللبِّ والعَقْلِ[5]
عُبيـدة فـابكيـه لأضيـافِ غـربـةٍ ... وأرملة تهوي لأشعث كالجِذلِ[6]

---

(١) تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية التي يقال لها: أمّ المساكين لكثرة صدقاتها عليهم، وبرّها إياهم، وإحسانها إليهم، وكانت قبله عند الطّفيل بن الحارث، ثم خَلفَ عليها أخوه عبيدة بن الحارث الشّهيد ببدر، وبقيت زينب عند رسول الله ﷺ بضعة أشهر، ثم توفيت ودفنها بالبقيع ـ رضي الله عنها ـ.
ويدلُّ هذا الزّواج من زينب على ذلك التكريم للتضحية والاستشهاد في شخص زوجها الذي مات عنها شهيداً، هذا إلى ما كانت تمتاز به من حبّ المساكين والبرّ لهم، فما أجدرها أن تكون في كفالة النبي ﷺ! (أنساب الأشراف ١/ ٤٢٩) بتصرف.

(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس البطل في هذا الكتاب ص(٥١٠).

(٣) «لا تنزري»: أي: لا تقلّلي من الدمع.

(٤) «المبتر»: السيف. اسم آلة من: البتر، وهو القطع.
والأبيات في سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤ و٢٥).

(٥) «الصفراء»: موضع بين مكة والمدينة.

(٦) «الأشعث»: المتغير. «الجذل»: أصل الشجرة وغيرها. تصفه بالثبات والقوة، والبيتان في السيرة النبوية (٢/ ٤١).

* وبعد، فهذا عُبيدة بن الحارث المطّلبي، أحد فرسان رسول الله ﷺ، وأحد الذين هم أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون، فسلامٌ عليه في الخالدين، ورضي الله عنه لما أبداه من ضروب الشجاعة، وهو السابقُ إلى الإسلام، والمهاجر في سبيل الله، وصاحب أول راية عُقِدت في الإسلام.

* * *

(٢٣)

عمرو بن أمِّ مكتوم

ـ رضي الله عنه ـ

* كان ﷺ يقول له: «مرحباً بِمَنْ عاتَبني فيه ربِّي» ويقول: «هل منْ حاجة؟».

* صَاحبُ رسولِ الله ﷺ هذا، يعرفُه المحدِّثون والفقهاء، ويعرفهُ القُرّاء والعُلماء، وتعرِفهُ سَاحاتُ الجهاد، ومع هذا كلِّه، فهناك أخبارٌ كثيرة لا نعرفُها عنْ هذا البطل الفريد في عالَم الفُرسان. فَمَنْ بطل حلقتنا اليوم؟!.

* هل كان منْ فُرسانِ قريش وأبطالِ العرب؛ الذين خاضُوا المعاركَ، وحقَّقُوا الانتصاراتِ؟!

* أمْ هل كان من شُعراء العرب المطبوعين المشهُورين؟!

* أم كانَ من علْيَة القوم ورؤسائهم، ومن ذوي النُّفوذِ فيهم؟!

* أم كان ممَّنْ جَمَع ماله وعدَّده؟

* لم يكن بطلنا واحداً ممّن ذكرنا؛ وإنّما كان رجلاً منْ رجالات مكةَ، لا يُعيره أحدٌ أيَّ اهتمام، حتى إنَّ هناك خلافاً في اسمه، فأهلُ العِراق سموه عَمْراً، بينما أطلقَ عليه أهلُ المدينة اسم عبد الله؛ أمّا أبوه فهو قيس بن زائدة ابن الأصم القرشيّ العَامري؛ وأمُّه عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة المخزوميّة، فبطلنا إذن هو: ابن أمّ مكتوم[1] من السَّابقين المهاجرين، فهل أتاكَ حديثه؟!

* نشأ عمرو[2] بن أمّ مكتوم في مكةَ المكرّمة، وفقَدَ بَصَرَهُ

---

(1) طبقاتُ ابن سعد (٢/ ٣١ و٣٩ و٤٩ و٦٦ و٧٤ و٧٩ و٨٠ و٩٥ و١٣٥ و١٤١) و(٤/ ٢٠٥) والمعارف (ص ٢٩٠) والمستدرك (٣/ ٧٣٥ ـ ٧٣٧) وحلية الأولياء (٢/ ٤) والاستيعاب (٢/ ٢٥٠) وأيضاً (٢/ ٤٩٤ و٤٩٥) وأنساب الأشراف (انظر الفهارس ١/ ٥٩٩) وصفة الصفوة (١/ ٥٨٢ ـ ٥٨٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٩٥ و٢٩٦) ونكت الهميان (ص ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٢١) وزاد المعاد (انظر الفهارس ٦/ ٣٤٦) والبداية والنّهاية (٧/ ٤٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٥) والإصابة (٢/ ٥١٦ و٥١٧) وغيرها من مصادر.

(2) قال ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ: اسمه عمرو وهو الأكثر عند أهل الحديث (الاستيعاب ٢/ ٤٩٤). وقال النوويُّ ـ رحمه الله ـ: وقد ثَبَتَ في صحيح مسلم أنَّ رسولَ الله ﷺ سمّاه عمراً، فقال لفاطمةَ بنتِ قيس في حديثها في قصّة طلاق =

صغيراً[١]، فعوّضه الله عزَّ وجلَّ بصيرةً نافذةً وقّادة، فكان يعي كلَّ ما يصلُ إلى أذنيه.

وسَمِعَ بدعوةِ الإسلام، فإذا هي تصافحُ سَمْعَه، وتغزو قلبه، فتأسر جوارحه تلك الآيات التي تعطّرُ الأسماع، فإذا ببصيرته تستقبل آيات الله، وما نزل منَ الحكمة، وسرعانَ ما التقتْ يمينُه يمينَ رسولِ الله ﷺ مبايعاً على الإسلام، وإذا به يُنْظَمُ في عِقْدِ السَّابقينَ الأوّلين إلى الإيمان بالله وبرسوله.

* ولم يكنْ هذا هو اللقاء الأوّل بينَ رسولِ الله ﷺ وعمرو بن أم مكتوم، فقد كانت تربطه برسولِ الله ﷺ صلة رحمٍ وقرابة، فابن أمّ مكتوم هو ابنُ خال أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ، إذ إنَّ أمّ خديجة هي أختُ قيس بن زائدة[٢].

* سَطَع نجم ابنِ أمّ مكتوم، واحتلّ مكانَ الصَّدارة بين صفوف الصَّحابة، وأصبح من رجال الإسلام؛ الذين سطروا أجمل آيات التّضحية في دنيا الإسلام، فقد كان صحابياً قارئاً، فاضِلاً، مُؤذِّناً، فارساً خاض الحرب، وقُتِل شهيداً، وياله من فارس لا يُجارى في سلاح الوغى!

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؟!

* هذا الرَّجل الكريم أحبَّ الإسلام حُبّاً مَلَكَ عليه قَلْبَه، وعلى الرغم منْ

= زوجها: «اعتدي في بيتِ ابن عمك عمرو بن أمّ مكتوم» (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٩٥).

(١) حدَّث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ جبريل ـ عليه السَّلام ـ أتى رسولَ الله ﷺ وعنده ابن أم مكتوم، فقال: متى ذهب بصرك؟ فقال: وأنا غلام. فقال: «قال الله تعالى: إذا أخذت كريمةَ عبدي لم أجدْ له جزاء إلا الجنّة».
انظر: (طبقات ابن سعد ٤/ ٢٠٦) والتّرمذي في: الزهد برقم (٢٤٠٢).
وقد ورد في الصَّحيح ما يتوافق مع هذا، حيث روي عن أنس بن مالك قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصَبَرَ عوَّضته منهما الجنّة» رواه البخاري برقم (٥٣٢٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٢) والإصابة (٢/ ٥١٦).

عَمَاه؛ لم يَسْلَمْ منْ أذى المشركين؛ ولم يرحمه الفجرة، فقد صَبَرَ واحتسب، وأقبل على رسولِ الله ﷺ إقبالَ الظَّامىء على موردِ الماء، فكان يعبُّ من العِلْمِ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[1].

* كان عمرو بن أمّ مكتوم ـ رضي الله عنه ـ منْ أولئك الأعلام الذين أُشربت قلوبهم حبّ آيات الله وكلماته، فراحَ يقطعُ نهاره وليله في حفظهِ، وفي التّفقُّهِ بأحكامه، والسُّؤال عن إعجازه ومعانيه.

* هذا؛ وقد أنْعَم اللهُ عزَّ وجلَّ على ابن أمّ مكتوم بنعمةِ جمالِ الصَّوت وعذوبته، فكان يتلو ما يتنزَّلُ منَ القرآن الكريم، وينعم في روضِ الآيات الكريمة، ويستمدُّ قوّته منْ طاعته لله عزَّ ودجلَّ، ومحبته لسيدنا محمّد ﷺ.

* ولقد مَلَكَ القُرآن لبَّ ابن أمّ مكتوم ـ رضي الله عنه ـ وأسرتْ معانيه الرَّائعة الرّائقة قلبه، وتفاعلَ مع القُرآن حتى أضحى شغله الشّاغل[2]، فكان

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] أي: فليرغب الراغبون، وليتبادر المتبادرون.
وقد دعا كتابُ الله الحكيم دعوة قوية إلى التحلّي بفضيلة المبادرة إلى انتهاز الفرص في عمل الخير، لا سيما بعد الانتقال من دنيا الجاهلية إلى عالم الإسلام والتوحيد.
فالذي يزدان بفضيلة العلم والمسابقة إلى الخيرات يكون على الدوام عاملاً من عوامل الصلاح والإصلاح، فلسانُه يُسارعُ إلى كلمة الحق والخير يقولها، ويده تسارع إلى المعونة الطيبة تقدّمها، وعينه تسارع إلى صفحات العلم النافع تطالعها، وقلبه يسارع إلى مشاعر الخير ينفعل بها، وهكذا... انظر: موسوعة أخلاق القرآن؛ للدكتور أحمد الشرباصي (٢/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) كان للقرآنِ الكريم تأثيرٌ عظيم في النفوسِ، فقد كان كبراء قريش، وساداتهم، وأولو البلاغة، وأصحاب النّباهة والبيان منهم يسترقون السّمع منْ وراء وراء عندما كانَ سيّدنا رسول الله ﷺ يتلو القُرآن في صلاته، فيروعهم ما ينطوي عليه هذا القُرآن العظيم من دقّةِ المعنى، ورقّةَ الألفاظ، وسَعَة الإحاطة، وحلاوة الأسلوب والنَّظم، ويروقهم ما ينطوي عليه هذا الدِّيْن من مبادىء رائعة تحمل العدل، والإحسان، والرحمة، والبرّ، ولكنَّهم أعرضوا تكبّراً، وعتواً.

يأتي رسولَ الله ﷺ، ويسأله عن القرآن، ويطلب منه أنْ يعلِّمه ممَّا علَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ.

* وذاتَ يومٍ كان رسولُ الله ﷺ يدعو سادةَ قريش، وبعض الكُبراء إلى الإسلام، فيأتي ابن أمّ مكتوم كعادته يبتغي مزيداً منَ المعرفةِ، ويستقرىء رسولَ الله ﷺ، وكان ﷺ يناجي عتبة بنَ ربيعة، وأبا جهل بن هشام، وعبّاس بن عبد المطلب، وأميّة وأُبيّاً ابني خَلَف، ويدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم.

فقام ابنُ أمّ مكتوم وقال: يا رسول الله! علِّمني ممَّا علَّمك الله، وجعل يناديه، ويُكرِّر النِّداء، ولا يدري أنَّه منشغلٌ مُقبلٌ على غيره، حتى ظهرتِ الكراهيةُ في وَجْهِ رسولِ الله ﷺ لقَطْعِ ابن أمِّ مكتوم كلامه.

* وكانَ رسولُ الله ﷺ يتمنى أنْ يتريَّثَ ابن أمّ مكتوم بعضَ الوقتِ ليتمكَّنَ منَ القيام بمهمته؛ لأنَّه بإسلام هؤلاء النَّفَر، يؤمن خَلْقٌ كثير، فأعْرضَ عنه ﷺ وأقبل على الآخرين يكلِّمهم، فلمّا قضى حديثه معهم، وأخذ ينقلبُ إلى أهله، أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١ ـ ١٦][(١)].

* ولما نزلت هذه الآيات الشَّريفة في ابنِ أمّ مكتوم، أكرمه رسولُ الله ﷺ، وأحسنَ مثواه. قال الثَّوريُّ ـ رحمه الله ـ: فكانَ النَّبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابنَ أمّ مكتوم يبسطُ له رداءه ويقول: «مرحباً بِمَنْ عاتبني فيه ربِّي» ويقول: «هل منْ حاجة؟»[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢١١ ـ ٢١٤) وفتح الباري (٨/ ٦٩٢) طبعة بيروت. وانظر كذلك تفسير الرازي وأبي حيان والبغوي والخازن والقاسمي وغيرها من التفاسير لسورة عبس. وانظر البداية والنهاية (٣/ ٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٣) وأسباب النزول للواحدي (ص ٣٦٥) وصفة الصفوة (١/ ٥٨٣).

هجرتُهُ المباركة وَمَكَانَتُهُ المرموقة :

* كان عمرو بنُ أمّ مكتوم ـ رضوان الله عليه ـ منَ الرَّعيل الأوَّل في سلْكِ دُرَرِ المُهاجرين إلى الله عزَّ وجلَّ، حيث يلمعُ اسمُه في الأرقامِ الأولى بين قائمةِ المُهاجرين إلى المدينة المنوَّرة.

* وقد شهدَ البراءُ بنُ عازب ـ رضي الله عنه ـ لعمرو بن أمّ مكتوم بالسَّبْقِ في مضمار الهجرة، وأنَّه ثاني اثنين منَ المهاجرين، فقال: أوّل مَنْ قَدم علينا مصعب بن عُمير، ثمّ أتانا بعده عمرو بن أمّ مكتوم، فقالوا له: ما فَعَل مَنْ وراءك؟! قال: هم أولاء على أثَري[1].

* وهكذا هاجر ابنُ أمّ مكتوم بدينه تاركاً مسْقَط رأسه، ولكنَّه حَمَلَ معه القُرآن الكريم، فاعتبره أعظمَ مغنم، وقد لاحظنا مدى تأثره بالقُرآن حينما أجابَ الأنصار بقوله: ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ إذ إنَّ هذه آيةٌ منْ سورة طه: ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤].

وفي المدينةِ المنوَّرة أخذَ عمرو بن أمّ مكتوم مكانَته العِلْميّة اللائقة، حيثُ راحَ يُعلِّمُ الأنصار آياتٍ منَ الذِّكْر الحكيم، ويقرأ بينهم ما حفظه منَ القرآن الكريم؛ قال البراءُ بنُ عازب[2] ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦١).
إن الهجرة: إكراهُ رجلٍ آمنٍ في سربه، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه، وتضحية أمواله، والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره ـ وهو يُصفّي مركزه ـ بأنه مستباح منهوب، قد يهلَك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغادرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طيّاش، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟! وكيف وهو بذلك رضيّ الضمير، وضاء الوجه؟!
إنه الإيمان الذي يزنُ الجبالَ ولا يطيش! وإيمانٌ بمنْ؟ بالله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير.
انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي (ص ١٥٥).
(٢) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٤٦٤).

أوّل مَنْ قدم علينا مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم، فجعلا يُقرئان النّاس القرآن[1].

* ولما حلَّ رسولُ الله ﷺ مهاجراً بالمدينة المنوَّرة حظي ابن أمّ مكتوم بمنزلةٍ رفيعةٍ بين يدي رسول الله ﷺ، حيث كان يأمره بالأذان للصَّلاة إذا ما غاب بلال بن رباح ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* قالت أمُّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنتُ الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ:

كان ابن أمّ مكتوم مُؤذِّناً لرسولِ الله ﷺ وهو أعمى[2].

* وقد كان لعمرو بن أمّ مكتوم كبير الأثر في نفوس المسلمين في شهر الصِّيام، حيثُ كان بلال بن رباح ـ رضي الله عنه ـ يؤذِّنُ في رمضان، فلا يمسك النَّاس على الطَّعام والشَّراب، فأذانه كان منْ أجلِ إيقاظ النَّائمين، أمّا إذا أذَّنَ ابن أمّ مكتوم، فمعناه الإمساك والامتناع عنِ الطَّعام.

* وَرَدَ في الصَّحيح عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ بلالاً يؤذِّنُ بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أمّ مكتوم» وكان أعمى لا يُنادي حتى يُقال له: أَصْبحت، أَصْبَحتَ[3].

* وقال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ:

كان يؤذِّن لرسولِ الله ﷺ بلال بن رباح وابن أمّ مكتوم، فكان بلال يؤذِّن ويُوقظ النَّاس، وكان ابنُ أمّ مكتوم يتوخَّى الفجرَ فلا يخطئه[4].

---

(١) المستدرك (٣/ ٧٣٥) وصفة الصفوة (١/ ٥٨٢) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٦١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٢).

(٣) الحديثُ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٢٣). وأخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، في الأذان برقم (٦١٧) باب: أذان الأعمى إذا كان له منْ يخبره، وأيضاً برقم (٦٢٠) باب: الأذان بعد الفجر. وانظر الأحاديث رقم (١٩١٨ و٢٦٥٦ و٧٢٤٨) وأخرجه مسلم في الصِّيام برقم (١٠٩٢) باب: بيان أن الدخول في الصَّوم يحصل بطلوع الفجر. وانظر طبقات ابن سعد (٤/ ٢٠٧) وقال أبو عمر القرطبيّ: كان ابن أمّ مكتوم يؤذن لرسول الله ﷺ مع بلال. (الاستيعاب ٢/ ٢٥١).

(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٠٧).

* ومنَ الجدير بالذكر أنَّ مؤذِّني رسولِ الله ﷺ أربعة، وهم: بلال بن رباح، وعمرو بن أمّ مكتوم بالمدينة. وسَعْد القرظ[1] مولى عمار بن ياسر بقباء، وأبو محذورة بمكة[2].

مَنْ مَكَـارِمِـه العظيمـة وَمَنَـاقِبِـه المحمـودة:

* هذا الفارسُ واحدٌ ممَّنْ درجوا على الإخلاصِ في المدرسةِ النَّبويَّة، وأبدعوا فيها، فكانَ له مكانة عندَ رسولِ الله ﷺ، إذ كانَ يستخلفه على المدينة المنوَّرة عند خروجه إلى عامَّة غزواته؛ فيصلي ببقايا الناس يجمِّع بهم، ويخطبُ أيضاً.

* أورد الإمام النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ في تهذيبه أنَّ رسولَ الله ﷺ استخلفَ عمرو بن أمّ مكتوم ثلاثَ عشرة مرَّة في غزواتِه على المدينة[3].

---

(1) «سَعْد القرظ»: هو سعدُ بنُ عائذ المؤذِّن مولى عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ. أضيف إلى القرظ الذي يتّجر فيه؛ لأنَّه كان كلّما اتجر في شيء خَسِرَ فيه، فاتجر في القَرَظ، فربحَ فيه. وقصّة ذلك أنَّه اشتكى إلى النَّبيِّ ﷺ قلّة ذات يده، فأمره بالتّجارة، فخرج إلى السُّوق فاشترى شيئاً منْ قرظٍ فباعه، فربحَ فيه، فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فأمره بلزوم ذلك، ولزم التجارة فيه، فأضيف إليه، وجعله النبيّ ﷺ مؤذناً بقُباء، ولما وَلِيَ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ الخلافةَ، وتركَ بلال الأذان، نقله إلى مسجد الرَّسول ﷺ ليؤذن فيه، فلم يزل يُؤذِّن فيه حتى مات في أيام الحجاج بنِ يُوسف، وتوارثَ عنه بنوه الأذان (الإصابة ٢/ ٢٧).

(2) انظر: السِّيرة الحلبية (٣/ ٤٢٦).

(3) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٩٥ و٢٩٦) والبداية والنّهاية (٧/ ٤٩) والإصابة (٢/ ٥١٦).

إنَّ رسولَ الله ﷺ أقدر الناس على معرفة الرجال، وذلك لمعرفته لما يملكون من إمكانيات، وما يتصفون من أخلاق ومزايا، ويأتي على أساسها: التقوى.

ويرى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن كلمة «التقوى» لا تُفسَّرها بالتحديد والتعيين إلا كلمة «الخلق الثابت» وأن خيرَ الأمم هي التي توطد دعائم مجتمعها بهذا الخُلُق الثابت، فإنَّ مرجع التقوى في مظاهرها الاجتماعية إلى شيئين:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما المبدأ والغاية لكل قوانين الآداب والاجتماع، ثم مرجعها في حقيقة نفسها إلى شيء واحد، وهو الإيمان بالله.

* وذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في الطَّبقات هذا فقال: استخلفَ رسولُ الله ﷺ ابن أمّ مكتوم حين خرجَ في غزوة قرقرة الكُدْر إلى بني سُلَيم وغطفانَ، وكان يُجمِّع بهم، ويخطبُ إلى جنبِ المنبر، يجعل المنبر على يساره. واستخلفه أيضاً حين خرجَ في غزوة بني سُلَيم ببحران ناحية الفُرع. واستخلفه حين خرج إلى غزوة أُحُد، وحينَ خرج إلى حمراء الأسد، وإلى بني النَّضير، وإلى الخندقِ، وإلى بني قريظةَ، وفي غزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وفي غزوة ذي قَرَد، وفي عمرة الحُديبية[1].

* أمّا حبُّ عمرو بن أمّ مكتوم لرسولِ الله ﷺ فلا يُوصفَ، وقد قَتَلَ امرأة نالتْ من شَخْصِ النَّبيِّ ﷺ فيما ذكره الذَّهبيُّ وغيره، فقال: نزلَ ابنُ أمِّ مكتوم على يهودية بالمدينة كانت ترفقُه وتؤذيه في النَّبيِّ ﷺ، فتناولها، فضربها، فقتلها، فُرفعَ ذلك إلى النَّبيِّ ﷺ فقال هو: أمَا واللهِ إنْ كانت لترفقني، ولكنْ آذتني في اللهِ ورسوله، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أبْعَدَهَا اللهُ، وقد أبطلتُ دَمَهَا»[2].

حُبّــه للجِهَــادِ فــي سبيل الله:

* عُرِفَ عمرو بن أمّ مكتوم ـ رضي الله عنه ـ بكثرة الصَّلاة، والعبادة، والاهتمام بشؤونِ الدِّيْنِ، وما يقربه إلى الله عزَّ وجلَّ من قول أو عَمَل، ويسعى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولكن اللهَ عزَّ وجلَّ أنزلَ على نبيِّه قرآناً يَرْفَعُ منْ شأنِ المجاهدين فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٩) وانظر: أنساب الأشراف في مواطن متفرقة وزاد المعاد في مواطن متفرقة أيضاً. وتشيرُ أخبار عمرو بن أم مكتوم إلى أنّه قد شهدَ فتح مكةَ، فقد ذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ قال: لما كان يوم فتح رسول الله ﷺ مكةَ، كان ابن أمّ مكتوم بين يديه وبين الصَّفا والمروة وهو يقول:

يــا حبــذا مكــة مــنْ وادي ... أرضٌ بهــا أهلــي وعــوّادي
أرضٌ بهــا أمشــي بــلا هــادي ... أرض بهــا تــرســخ أوتــادي

(طبقات ابن سعد ٢/١٤١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/٣٦٢) وللحديث أصل عند أبي داود في الحدود برقم (٤٣٦٢).

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥](١).

* ولعلَّ عمرو بن أمّ مكتوم سَمِعَ مِنْ رسولِ الله ﷺ في فَضْل الجهاد قوله: «إن في الجنَّةِ مئة درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كلّ درجتين كما بين السَّماء والأرض»(٢).

* ويبدو أنَّ عمرو بن أمّ مكتوم قد تأثَّر حينما عَلِمَ فضيلة الجهاد في القرآن والسُّنَّة، وحَزِنَ لعدمِ مقدرته على المشاركة في الجهاد، إذِ القُرآن الكريم يقول: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ [النساء: ٩٥](٣).

* تقدَّم عمرو بن أمّ مكتوم ـ رضي الله عنه ـ مِنْ رسولِ الله ﷺ حين سمعَ

---

(١) «أولي الضرر»: أرباب العُذْر المانع من الجهاد.
(٢) رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري.
(٣) لقد نفى الله تعالى أن يستوي في القرب منه والحظوة عنده القاعدون، والمجاهدون، واستثنى من القاعدين أولي الضرر، فجعلهم في عداد المجاهدين، إذ إن أولي الضرر يستوون هم والمجاهدون في حصول أصل الثواب والمضاعفة. ورأى بعضُ العلماء أنهم يستوون في الأصل، ويزيد المباشرون للجهاد ـ وغيره من الطاعات ـ بمضاعفة الثواب، واحتج أهل الرأي الأول بأمرين:
الأول: إن المعذورين ما منعهم إلا عجزهم، ولو لم يكن بهم عذر لكانوا مع المجاهدين، وفَضْل الله واسع، وقد استثناهم هو سبحانه من القاعدون الذين نفى المساواة بينهم وبين المجاهدين، فالقاعدون بعذر مستثنون من نفي المساواة.
الثاني: ما ورد في صحيح السنة مؤكداً هذا المعنى كقوله عليه الصلاة والسلام: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم حبسهم المرض».
قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: إن صاحب العذر يُعطى أجر الغازي، فقيل: يحتمل أن يكون أجره مساوياً، وفي فَضْل الله متسع، وثوابه فَضْل لا استحقاق، فيثيب على النية الصادقة ما لا يثيب على الفضل (تفسير القرطبي ٥/ ٣٤٢).

ما سَمِعَ مِنَ القرآن الكريم؛ الذي يخصُّ المجاهدينَ بالرِّفْعَة فقال: يا رسول الله! إنّي أحبُّ الجهادَ في سبيلِ الله، ولكن بي من الزَّمانة[1] ما ترى، ذَهَبَ بصري[2] . . ثمَّ إنَّه توجَّه بقلبه وجوارحه إلى الله عزَّ وجلَّ وقال: أي ربِّ أنزل عذري[3].

* واستجابَ الله عزَّ وجلَّ دعاء ابن أمّ مكتوم، وأكرمه بأنْ أنزلَ في شأنه قُرآناً يتلى في المحاريب إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرض ومَنْ عليها، وكَتَبَ له أجْرَ المجاهدين.

* ولنتركِ الحديثَ الآن لزيد بن ثابت كاتب رسولِ الله ﷺ إذ يحدثنا عن هذه القصة العظيمة فيقول:

إنّي قاعدٌ إلى جَنْب النَّبيِّ ﷺ إذ أوحيَ إليه وغشيته السَّكينة، فلا والله! ما وجدتُ شيئاً قطّ أثقل منْ فخِذِ رسولِ الله ﷺ، ثمّ سري عنه فقال: «اكتبْ يا زيد» فأخذتُ كتفاً فقال: «اكتب: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ . .﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فكتبتُ ذلك في كَتِف؛ فقام حين سمعها ابنُ أمّ مكتوم، وكان رجُلاً أعمى، فقال حين سَمِعَ فضيلة المجاهدين: يا رسول الله! وكيف بمَنْ لا يستطيع الجهاد وهو أعمى، وأشباه ذلك؟

قال زيد: فوالله! ما قضي كلامه ـ أو ما هو إلا أن قضي كلامه ـ غَشِيَتِ النَّبيَّ ﷺ السَّكينة، فوقعت فخذُه على فخذي، فوجدتُ من ثقلها كما وجدتُ في المرة الأولى، ثم سُرِّي عنه فقال: «اقرأ» فقرأتُ عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ . . .﴾ فقال النَّبيُّ ﷺ: «غير أولي الضَّرر»

---

(١) فتح الباري (٨/ ٢٩١) طبعة بيروت.
(٢) «الزَّمانة»: مرض يدوم، وتعطيل القوى، والعاهة.
(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٥٨٤).

قال زيد: فألحقتها، فوالله! كأنّي أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف[١].

* لقد أنزل عزَّ وجلَّ في محكم التَّنزيل قرآناً يتلى في المحاريب، بيَّنَ فيه فضائل وفَضْل المجاهدين والجهاد، كما أنزل كذلك رخصة[٢] لعمرو بن أمّ مكتوم وأمثاله، ولكنْ هل قَعَد ابنُ أمّ مكتوم مع القَاعدين؟! إنَّ نفسه الكبيرة أبتْ عليه ذلك. . . نعم. . أبتْ عليه ذلك. . .

وإذا كانــتِ النُّفــوسَ كبَــاراً تعبــتْ فــي مــرادهــا الأجســامُ

* لذلك كانَ قَلْبُ عمرو بن أمّ مكتوم مع المجاهدين في غزواتهم وحروبهم، وقد عبَّر رسولُ الله ﷺ عنْ عواطف هؤلاء ذوي الأعذار المبيحة، وعن مدى صدقهم وحبّهم للجهاد فقال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم منْ

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٤٨ و١٤٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٥٣) طبعة بيروت. وفتح الباري (٨/ ٢٥٩ و٢٦٠ و٢٦١) طبعة بيروت. وللمزيد من هذا الموضوع تراجع كتب التفسير للآية (٩٥) من سورة النساء.

(٢) لم يكلفِ الله عزَّ وجلَّ النَّاس هذا الدِّين الحنيف لإنزال الحرج بهم، أو تحميلهم ما لا يطيقون منَ الأعمال، بل كلَّفهم سبحانه هذا الدين لإتمامِ نعمته عليهم، وإخراجهم منَ الظُّلمات إلى النُّور.

والجهاد معناه: بذل الجهد والطَّاقة والوسع، فما لم يكن داخلاً في جَهْدِ الإنسان وطاقته ووسعه لا يكلفه الله عزَّ وجلَّ إياه.

ومما عذر الله عزَّ وجلَّ به عبده المؤمن عن الخروج للجهاد في سبيلِ الله فَقْده القُدرة على ذلك بسبب ضَعْفٍ في بدنه: منْ مرضٍ، وعمىً، وعرجٍ، وشللٍ، وقطع يَدٍ، أو رِجْلٍ، وشيخوخة، ونحوها مما لا يقدرُ معه على مباشرة الجهاد.

قال في «المهذَّب»: ولا يجبُ ـ الجهاد ـ على الأعمى لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧] ولا يختلفُ أهل التَّفسير أنَّها في سورة الفتح أنزلت في الجهاد، ولأنّه لا يصلح للقتال فلم يجبْ عليه، ولا يجب على الأعرج الذي يعجز عن الركوب والمشي؛ لأنَّه لا يقدر على القتال، ولا يجب على الأقطع، والأشلّ؛ لأنّه يحتاج في القتال إلى يَدٍ يضرب بها، ويد يتَّقي بها، ولا يجب على المريضِ الثقيل للآية، ولأنّه لا يقدر على القتال. . . (المجموع ١٨/ ٥٣).

مسيرٍ، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه».

قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله!

قال: «نعم، حبسهم العذر»[1].

الأَعْمَى الفارس الشَّهِيدُ:

* هو ذا عمرو بن أمِّ مكتوم لا يركنُ إلى الرَّاحةِ، أو القعودِ عن الجهاد، بل طلبَ منْ إخوانه المجاهدين منْ فُرسان مدرسة النّبوّة أنْ يصحَبَهم في معاركهم؛ لينالَ أجْرَ المجاهدين ـ الحسنى ـ وهي الجنّة، والجزاء الجزيل.

واستجاب الصَّحابة الكرام لرغبةِ ابنِ أمّ مكتوم، وها هم يصحبونه معهم إلى ساحاتِ الجهاد لينال الأجر، وليفوزَ بالرضوان من الله عزَّ وجلَّ.

* وهنا يتبادر إلى الذّهْنِ سؤالٌ طريفٌ؛ كيف كان ابن أمّ مكتوم يقاتل العدوّ؟!

* في الحقيقة، لقد حدَّدَ هذا المجاهد مهمّته القتالية بنفسه... كان يحمل لواء المسلمين في المعركة.

* وعندما سار المسلمون إلى القادسية لقتالِ الفُرْسِ، كان عمرو بن أمِّ مكتوم ـ رضوان الله عليه ـ في صُحبة ذلك الجيش الغازي، وقد لَبِسَ درعاً سابغة[2] حصينة. وقد شهد بذلك شاهد عيان، وهو أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حيثُ رآه في تلك المعركة قد أخذ أهبة القتال، واستعدّ أيّما استعداد

---

(1) الحديث صحيح رواه الإمام البخاري برقم (٢٨٣٩) وانظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٤٢).

ومن لطائف الأدب الهامس، وهَمْس الأدب الرّفيع، ما قاله أحد الشُّعراء في معنى هذا الحديث النّبوي الشّريف اللطيف:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتُم جُسوماً وسرنا نحنُ أرواحا

إنّا أقمنا على عذرٍ وعن قَدَرٍ ... ومَنْ أقام على عذرٍ فقد راحا

(2) «سابغة»: واسعة، تامة، طويلة.

فقال: إنَّ ابنَ أمّ مكتوم يوم القادسية كانت معه رايةٌ له سوداء، وعليه درعٌ له[1].

* وقبل أنْ يلتقيَ المسلمون الفُرْسَ، نادى عمرو بن أمّ مكتوم أصحابه من فرسان الصَّحابة بأعلى صوته، وقال لهم: ادفعوا إليَّ اللواء، فإنِّي أعمى لا أستطيع أنْ أفرَّ، وأقيموني بين الصَّفين[2].

* وخاض المسلمون غِمارَ هذه المعركة الفاصلة، وكان ابن أمّ مكتوم منْ بينِ المقاتلين والمجاهدين. قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: كان يقاتل يوم القادسية، وعليه درعٌ له حصينة سابغة[3].

* وكتب الله عزَّ وجلَّ النَّصر في القادسية للمسلمين، وكان عمرو بن أمّ مكتوم ـ رضي الله عنه ـ واحداً ممن حظي بالشَّهادة[4] في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وكُتِبَ في ديوان الشُّهداء الأبرار.

* وهكذا لقي الله عزَّ وجلَّ، واستشهد وهو يحملُ لواء المجاهدين وقد تحقَّق ما كان يصبو إليه، فلقد صَدَقَ ما عاهد الله عليه، فرضي الله عنه، وأحسن إليه؛ فقد كان أحد السابقين، المهاجرين، الفضلاء، والمقرئين القرآن للناس.

* * *

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٢١٢) وصفة الصفوة (١/ ٥٨٤) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢١٢) وصفة الصفوة (١/ ٥٨٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦٥).
(٤) نكت الهميان (ص ٢٢١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٩٦) والبداية والنهاية (٧/ ٤٩)، والإصابة (٢/ ٥١٦).

(٢٤)

أبو حذيفة

ـ رضي الله عنه ـ

مِنَ السَّابقين، ومنْ مُهاجرِي الهجرتَيْن، ودعا له رسولُ الله ﷺ في غزوة بدر بالخيرِ.

مَكَانَةٌ عُلْيَا ومقام كريم:

* هذا فارسٌ مِنْ فرسانِ الرَّسول ﷺ، جمعَ الله له الشَّرفَ، والفَضْل، والخير. كان مِنْ فُضلاءِ الصَّحابة الأبرار الأخيار، ومنَ المهاجرين الأوّلين، صلَّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعاً، كانَ إسلامُه مبكِّراً قَبْلَ دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم للدَّعوة فيها إلى الهدى، ودينِ الحقِّ، والسَّلام، والإسلام، والأمن، والأمان، والإيمان.

* هذا الصَّحابي الكريم هو: أبو حُذيفة بن شيخِ الجاهلية عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس القرشيّ العبشميّ[1].

* وصفه علماءُ السِّيرة بقولهم: كانَ رجُلاً طويلاً، حَسنَ الوجْهِ ـ رضي الله عنه ـ.

* هاجر أبو حُذيفة إلى الحبشة الهجرتين جميعاً، وفي صحبته زوجه الصَّحابية سهلة بنت سُهيل بن عمرو العامريّة[2]، وولدت له هناك محمّد بن أبي حُذيفة[3]، ثمَّ قدم على رسولِ الله ﷺ وهو بمكةَ، فأقام بها حتى هاجَرَ إلى المدينةِ وهو راضي النَّفْس، رضيّ القلب، قد سلَّمَ الأمْرَ لمنْ له المُلْك، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، ولم يكن يريدُ من هذه الدُّنيا سوى مرضاة عالم الغيب والشَّهادة، فالإخلاص هدفٌ وغاية.

وأبو حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ واحد من أبناء ذروة الشَّرف والمكانة الرَّفيعة المرموقة في قريش، دلفَ إلى الإسلام في مشرقِ فجره، مُتعزِّزاً بمكانتهِ من

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٨٤ و٨٥) والمعارفُ (ص ٢٧٢) والمحبّر (ص ٧٢ و٢٨٣ و٣٠٣ و٤٠٠) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٢١٢) والعبر (١/ ١٤) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٦٤ ـ ١٦٧) والإصابة (٤/ ٤٣) وحياة الصَّحابة (١/ ٢٥٤) و(٢/ ٣١٣ و٣١٤ و٣٦٤ و٣٦٥) واختلف في اسمه فقيل: مهشم، أو هشيم، أو هاشم.

(٢) اقرأ سيرة الصحابية سهلة بنت سُهيل في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٩٥ ـ ١٠٥) فسيرتها سهلة لطيفة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٨٤) والاستيعاب (٤/ ٤٠).

هذا الشَّرف الجاهلي، لم تدفَعْه إلى الإيمان رغبةٌ من رغائبِ الدُّنيا؛ التي لم تكن الجماعة الحاقَّة برسولِ الله ﷺ تملكُ منها شيئاً يجذب إليها مَنْ يريدها، بل الإيمان هو الدافع، والحق الساطع، والبرهان القاطع.

* إنَّ تلكم القلَّة القليلة بعددها، والكثرة الكاثرة بإيمانها، من طلائع أولئك السَّابقين إلى ساحةِ الإيمان الرحبة، السُّبَّاق إلى أنوارِ اليقين المتألق، كانت تعيشُ في حرمانٍ مدقع، وبلاء مُضْنٍ، تُطارَدُ مِنْ داخل بيوتها، وتضطهدُ في خارجها، وتؤذى أينما كانت من أرض مكةَ، تتوقَّع البلاءَ في كلِّ لحظة يأتيها من كلِّ مكان، ليس له معتصم إلا الصَّبر، والتحمُّل، والتوكل على الله تعالى.

* كذلك كان أبو حُذيفة في إيمانه. وقد أسلمَ ـ رضي الله عنه ـ قبل أنْ يدخل النَّبيُّ ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم مستسرّاً بدعوتهِ، متخفياً بِمَنْ معه ممن اتَّبع هداه، ليقيهم بعض ما يمكن توقِّيه منَ الجماعةِ الفاجرة، الذين كان في طليعتهم عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة، يحفُّ به إخوة أبي حذيفة، وعمومته، وشراذم عشيرته من بني عبد شمس، فيوقِعُون الأذى بالطائفة المؤمنة، ذلك الأذى الكبير، والعذاب القاسي، والحرمان الممضّ، والبغض الشديد.

أَبـو حُـذَيفَـة وأبـوهُ عتبـة:

* لا بُدَّ لنا ونحنُ في معرضِ الحديث عن أبي حذُيفة إلا وأنْ نشيرَ إلى والده عتبة بن ربيعة؛ لأنَّ في ذلك توضيحاً لشخصيَّة أبي حُذيفة الإيمانية.

* كان عُتبة بن ربيعة(١) أحد حملة لواء المعارضة لدعوة رسولِ الله ﷺ، ولكنَّه ـ مع ذلك ـ كان أحد عقلاء الجاهلية، ومساند الشِّرك، ودعائم الوثنية، ومصدِّري الكفر. لم تكن له سفاهة أبي جهل بن هشام(٢)، ولؤم فجوره، ولم

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنار».
(٢) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنار».

يكن له انحطاط عقبة بن أبي معيط[١]، ووضاعة نفسه، ودناءة طبعه، ولم يكن له فجور أبيّ بن خلف[٢] ووقاحته وعناده، وإنّما كان يتنبّلُ في قومه، ويتعاقل في معارضتهِ للدَّعوة المحمَّدية، وكان عتبة بتعاقله هذا، سفير قريش النَّاطق بلسانِ ملئها في محاورة النَّبيِّ ﷺ، كيما يثنيه عنْ دعوتهِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وذلك بالتَّرغيب في مفاخر قريش، ومكارمها.

* لكنَّ رسولَ الله ﷺ سَمِعَ من عتبةَ بن ربيعة وأسمعه، وأرجعه إلى الملأ القرشيِّ بوجهٍ غير وجهه الذي أتى به منْ عندهم؛ لقد أتى النَّبيَّ ﷺ بوجهِ المفتونِ بغروره، المتنبِّل باستكبارهِ وتعاقله، وعرض عليه رغائب عقول قريش وغرائبها المنفوشة المترنِّحةِ المتهاوية؛ التي تنتظرُ يومها الموعود لتتلاشى، وتنمحي مِنَ الوجود.

* هنالك كان ردُّ النَّبيِّ ﷺعلى غرور عتبةَ، ومداركه الخاوية، ومكره الفارغ، أنْ تلا عليه آيات من نورِ الحقِّ المبين، والمنزَّلة من عند أحكم الحاكمين، والتي أنزلها ربُّ العالمين لتخرج البشريةَ كلَّها من ظلمات الجهلِ الجاهلي، وغياهب الحياة الفاسدة، إلى نورِ الحياة الفاضلة، وشاطىء الأمان، ولكنْ لا حياة لمن تنادي، فقد صُمَّت مدارك الجاهليين عن سماع كلمة الحق، وهتاف الهدى.

* في هذا الجوِّ المتلوِّنِ المتموِّج بين أدران الشِّرك، وفي هذا الجوِّ الخانق الذي يصولُ فيه عتبة ويجول، ظل أبو حذيفة بن عتبة راسخَ الإيمان، قويَّ العزيمة، مطهَّر العقيدة، نقي السَّريرة، على الرَّغم من شدائد الأزمات، وقسوتها، وبلائها، وويلاتها، وعلى الرغم منْ سيادة أبيه عتبة، فقد ترك أبو حذيفة: عتبة، وعمّه شيبة، وأهله، وعشيرته الأقربين، وهاجر إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة مع العائدين، وأقام مع النَّبيِّ ﷺ ملازماً له على شظف العيش، وقسوة الحياة، حتى هاجر إلى المدينة المنوَّرة فيمن هاجر من المؤمنين إليها، صَوْناً لدينهم، وإقامةً للمجتمع المسلم في مكانٍ أمن.

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنار».
(٢) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنار».

* وفي المدينة المنوَّرة كان نصيبهُ في المؤاخاةِ[1] مع واحد من فرسان الأنصار وأبطالهم، وهو عبّاد بن بِشْر الأنصاريِ الأشهليّ الأوسي[2] ـ رضي الله عنهما ـ.

* أخذ أبو حذيفة مكانته بين جنود المدرسة النَّبويَّة، فكان أحد فرسانها الأشاوس، ولما بَعثَ النَّبيُّ ﷺ سرية نَخْلة، المؤلَّفة من ثمانيةِ أبطال، كان أبو حذيفة أحد أفراد هذه السَّرية الموفَّقة، ثمّ شهد مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها، لم يتخلفْ عن واحدةٍ منها، وإنّما كان من السَّابقين إلى ساحات الجهاد والنِّضال دفاعاً عن الدِّين، ومناصرة للمسلمين، وطاعة لله ورسوله.

* وفي أوَّلِ غزاةٍ مع المشركين، وهي غزوة بدر، كان أبو حذيفة أحد جنودها الأبرار، وكان له موقف إيمانيّ باهر، فهلُمَّ نشهد مع أبي حُذيفة موقفه الإيماني الفريد، ووقفته الباسلة يوم التقى الجمعان.

الإيمَــانُ أم العَــاطِـفَــة؟

* إذا أردنا أنْ نعرفَ مكانة أبي حُذيفة في عالم الأبْرار، فما علينا إلا أنْ نَعرفَ موقفه يوم بدر، ذلك الموقف الذي أظهر أبا حذيفة بالقوة، والنَّقاء، والصَّفاء، وتغلّبَ على العاطفة ليحلَّ محلها الإيمان العظيم بالله عزَّ وجلَّ.

* ففي غزاة بدر[3] ـ وكانت أوَّل وأعظم مشاهده ـ كان جندياً من جنود الرَّحمن؛ الذين عُمرت قلوبهم بالإيمان، والذين كَتَبتْ لهم فيها العناية الإلهية سجلاً من النُّور، مزّقوا به حُجُبَ مواريث الجاهلية، ورضوا بالإسلام دِيناً، وبالصَّبر على المحنِ معتصماً، حتى أدال الله عزَّ وجل لهم من طواغيتِ الشِّرك، فنصرهم في أوَّلِ معركة بين الحقِّ وأهله، قُتِل فيها أشراف الملأ، وصناديدهم، وأُسِر فيها مَنْ نجا مَنَ القَتْلِ منهم، وكان عتبةُ بنُ ربيعة والد

(١) انظر: المحبر (ص ٧٢) وسير أعلام النبلاء (١ / ٣٣٨).
(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس الكريم في هذا الكتاب ص(٥٩٨).
(٣) في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفتْ بينهم المبادئ، ففصلتْ بينهم السيوف. انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي (ص ٢٣١).

أبي حذيفة من أوّل قتلى المشركين، وقُتِلَ معه أخوه شيبة، وابنه الوليد بن عتبة، في تلك المبارزة التي جند لهم فيها فرسان جند الله: حمزة[1] وعبيدة بن الحارث[2]، وعلي بن أبي طالب الهاشميون.

* وانتهتِ المعركةِ بنصرٍ مؤزَّر للمؤمنين، وقُضِيَ الأمْر، ورأى أبو حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ أباه عتبة يُسحبُ إلى القليبِ مع من أُلقي في هاويته من قتلى المشركين، وكبَّارهم، وفجَّارهم، فتجاذبه إيمانه برسوخه، وقوّة يقينه، وعاطفة البُنوّة، بحنانها وذكرياتها، فوَقَر الإيمانُ في قلبهِ لا يحول ولا يتحوّل، ومشتِ العاطفةُ بحنانها وذكرياته تثيرها قوة جامحة، ورغبة عاصفة، وتمثَّل له أباه عتبة في فضلهِ، وفي شرفه بين قريش، حتى امتلأتْ نفسه بهذهِ الذِّكريات، ممتزجة بما كان يرجوه لأبيهِ من الهداية إلى الإسلام، ولكنّه رأى أباه تَغلِبُ عليه العصبيَّةُ الجاهلية الحمقاء، فتباعدُ بينه وبينَ الإسلام وهدايته، فيُقْتَل كافراً، ثمّ هو ذا يُسحبُ إلى القليب، فكُسي وجْه أبي حذيفة بحزنٍ معبّر عن مشاعره التي اعتلجت في مداخلِ نفسه، ومساربها.

* ورآهُ رسولُ الله ﷺ حزيناً مكتئباً، مُتغيِّر اللونِ والسِّمة، فيشفقُ عليه، ويقول له كي يردَّه إلى شَفافية الإيمان وإشراق نوره: «يا أبا حذيفة! لعلّك قد دخلك منْ شأنِ أبيك شيءٌ؟».

فقال أبو حذيفة ـ رضي الله عنه ـ في نبرةٍ تنضحُ برحيقِ الإيمان: لا والله يا رسول الله! ما شككتُ في أبي، ولا في مصرعه، ولكني كنتُ أعرفُ من أبي رأياً، وحلماً، وسَداداً، وفضلاً، فكنتُ أرجو أنْ يهديَهُ ذلك إلى الإسلام، فلمَّا رأيتُ ما أصابه، وذكرتُ ما مات عليه من الكفرِ بعد الذي كنتُ أرجو له، أحزنني ذلك؛ فدعا له رسولُ الله ﷺ بخيرٍ، وقال له خيراً[3].

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٥٦).
(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٣٩٧).
(٣) انظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٢٤٩) والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٩٤) وسيرة ابن هشام (٢/ ٧٥). مع الجمع والتصرف.

* وهكذا عاد أبو حُذيفة - رضي الله عنه - إلى إشراقةِ الإيمان[١] هادئاً وادعاً، بعد هذا الحديث الرَّحيم، وأجاب عن تساؤل النَّبيِّ ﷺ بأنَّ ما ظهر عليه منَ الحُزنِ والاكتئاب، لم يمسَّ إيمانه، ورسوخ يقينه من قريبٍ أو بعيد، ولكنَّه كان حزيناً مكتئباً على فوات ما كان يرجوه لأبيه في شرفه بين قومه، وفَضْلهِ في عقله من الدُّخول في الإسلام، فلمّا رأى مصيره في نهايته التي لا سبيل إلى تلافيها أحزنه ذلك، فدعا له النَّبيُّ ﷺ بخير، وقال له خيراً، وبهذا سيطرتْ مشاعر الإيمان على نوازعِ العاطفة في أبي حذيفة، وتلك مزية كريمة يمتحن الله بها خواصَّ عباده المؤمنين.

أبـو حُـذَيفـةَ وأحـداثٌ مِنْ بَـدْرِ الكبـرى:

* ذكر ابنُ سعدٍ في «الطَّبقات» وابنُ عبد البرِّ في «الاستيعاب» وابنُ الأثير في «أسد الغابة» والذَّهبيُّ في «تاريخه وَسيرَه» وغيرهم؛ أنَّ أبا حُذيفة بن عتبة - رضي الله عنه - قد دعا أباه إلى البِراز[٢]، فمنعه النَّبيُّ ﷺ منْ ذلك، فهَجَنَهُ

---

(١) كما تلاحظ - عزيزي القارىء - فإنَّ إيمانَ أبي حذيفة - رضوان الله عليه - إيمان لا تهزّه زلازل الأحداث، فهو إذ يرى أباه يُقتل في أشرافِ قريش كافراً، ويُلقى معهم في قليب بدر، يأخذه أسف العاطفة البشريّة وفاء لهذا الأب، ويظلُّ أبو حذيفة مزملاً بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشَّامخات، فلا يزيدُ على أنْ يعروه الاكتئابُ على ما فات أباه من خيرٍ كان يرجوه له بالهداية إلى الإسلام.
وفي الحقيقة فلقد كان اكتئاب أبي حذيفة - رضي الله عنه - أثراً من آثار إيمانه، تمثّل في حبِّ أبي حذيفة - رضي الله عنه - لدينه المشرق، وعقيدته الوضيئة، وفي رغبته في أن تسري رسالة الهدى التي آمن بها؛ إلى القلوب لتنيرها بإشراقها، وأحقّ القلوب وأحبها أنْ تتبوأه رسالة الإيمان والهدى، هو قلب والد كان له من فضائل الإنسانية قسط، جعل ابنه المؤمن الصَّادق، يرجو له أن يكونَ متبوأ لها، ولكنَّ سوابقَ الأقدارِ، وما غَبَر في علمِ الله عزَّ وجلَّ لا يخضعُ لرجاء الرَّاجين، أليس الله عزَّ وجلَّ قد قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]؟!

(٢) قسَّم الفقهاء المبارزة من حيث حكمها إلى ثلاثةِ أقسام:
الأوّل: المستحبّة؛ وهي ما إذا خرج عِلْج يطلبُ البراز، فإنّه يستحبُّ لمن يعلم في =

أخته هند بنت عتبة ببيتين من الشِّعر لم تصدق فيها الوَصْف، فقالت:

الأَحْولُ الأثعلُ المذمومُ طائرهُ أبو حُذيفة شرُّ النّاسِ في الدِّينِ[1]

أمَا شكَرْتَ أباً ربَّاكَ مِنْ صغرٍ حتى شَبَبْتَ شَباباً غير محجونِ[2]

* وكما تلاحظ فإنَّ هند بنتَ عتبة لم تصدقِ الوصفَ في هذين البيتين، وقد هداها الله عزَّ وجلَّ للإسلام، فأسلمتْ، وكانت منَ المبايعات[3] - رضي الله عنها - وختم لها بالسَّعادة، فكانت من فريقِ الأبرار الأخيار؛ الذين حَازوا مرضاة العزيزِ الجبَّار، وقد فرِحَ أخوها أبو حُذيفة بإسلامها كثيراً، وهدايتها[4]، وحمد الله عزَّ وجلَّ إذ جعلها منَ الذين أنْعَمَ عليهم بنعمةِ الإيمان، وفتحَ على قلبها وبصيرتها في يوم الفتحِ الأعظم فتح مكة المكرمة - حماها الله -.

* هذا؛ ولأبي حُذيفة - رضي الله عنه - موقفٌ آخر في أحداث غزاة بدر، وهو يختلفُ في ظاهره عن هذا الموقف، بما كان فيه للعاطفة من جموحٍ

= نفسه القوّة والشجاعة أنْ يبارزه؛ لأنَّ في ذلك منافحة عن المسلمين، وإظهاراً لقوتهم.

الثاني: المباحة؛ وهي أنْ يبتدىء الرّجل الشُّجاع بطلبها، فتباح في هذه الحالة، ولا تُستحبُ لأنّه لا حاجة إليها، ولا يأمن أنْ يغلب فيكسر قلوب المسلمين، إلا أنّه طالما كان شجاعاً واثقاً من نفسه أمام خصمه، أُبيح له أنْ يبارزَ، لأنّه بحكم الظّاهر غالباً.

الثّالث: المكروهة؛ وهي أنْ يبرزَ الضّعيف الذي لايثقُ في نفسه، فتكره له المبارزة لما فيها من كسر قلوب المسلمين بقتله.

(1) «الأثعل»: مرادف الأسنان، وعلّق ابن عبد البر - رحمه الله - بقوله: بل كان خير النّاس في الدِّين، وكانت هي إذ قالت هذا الشِّعر من شرّ النّاس في الدين.

(2) «محجون»: المحجن: العصا المعوجة.

(3) اقرأ سيرة الصّحابية هند بنت عتبة في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/ ٣٣٣ - ٣٥٤).

(4) أخرجه الحاكم - رحمه الله - في المستدرك عن فاطمة بنت عتبة بن ربيعة - رضي الله عنها - أن أبا حذيفة بن عتبة - رضي الله عنه - أتى بها وبهند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ تبايعه.

تداركه الإيمانُ بالنَّدم الصَّادق؛ الذي جَعَلَ كفَّارة هذا الجموح العاطفيِّ شهادة في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، لا يكفِّرها غير ذلك.

* ظهر هذا الموقفُ لمَّا حرَّض النَّبيُّ ﷺ المؤمنين على القتال، واستحثَّ عزائمهم، لم يَنْسَ وصيته بأناسٍ خرجوا مكرهين إلى القتال بحكم العصبيَّة الجاهلية، وكانتْ لهم مواقفُ مشكورة في مَنْعِ النَّبيِّ ﷺ وحمايته، أو مَسَاعٍ حميدة في ردِّ الظلم والطُّغيان، فقال لأصحابه يومئذ: «إنِّي قد عرفتُ رجالاً مِنْ بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا مكرهين، لا حاجة لهم بقتالنا، فَمَنْ لقي منكم أحداً مِنْ بني هاشم فلا يقتله، ومَنْ لقيَ أبا البختري بنَ هشام بنِ الحارث بنِ أَسَد فلا يقتله، ومن لقيَ العبَّاس بن عبد المطلب عمَّ رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنَّه إنَّما خرجَ مستكرهاً».

* ولا يحسبنَّ القارىء الكريم أنَّ رسولَ الله ﷺ بهذه الوصاة أرادَ أنْ يُحَابي أهله، وذوي قرباه، فقد كانت نفسُه الشَّريفة أسمى من ذلك، وأرفع، وإنَّما ذكَرَ لبني هاشم مَنْعَهم له ثلاثة عشر عاماً، وانحيازهم لأجله في الشِّعْب ثلاثة أعوام حتى جهدوا، وأكلوا ورق الشَّجر، وغير ذلك من حَسَنَاتٍ لا ينساها الإسلام قطُّ، مع العلم أنَّ أبا البختري ليس من بني هاشم، وإنَّما كان له ضلع كبير في نقض الصَّحيفة الظَّالمة.

* وفي ثورةٍ من الحميّة، وجموح العاطفة قال أبو حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العبّاس؟ والله لئن لقيته لألجمنّه[1] بالسَّيف[2].

* فبلغ قول أبي حذيفة رسول الله ﷺ فقال لعمر: «يا أبا حفص؟».

---

(١) وفي رواية لألحمنّه: أي: لأضربنه بالسَّيف، أو لأطعنن لحمه بالسيف، ولأخَالِطَنَّه به.

(٢) إنَّ أبا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ لم يَقُلْ ما قال ردّاً لأمْرٍ من أوامر رسول الله ﷺ، ولا مخالفة لنهي مِنْ نواهي رسول الله ﷺ، وإنَّما قال أبو حذيفة ما قال حمية عاطفية في لحظة ثورة نفسية، وهذا أمرٌ طبيعي، قابله ﷺ بالتفهُّم، والصبر، والعفو.

قال عمر: واللهِ إنَّه لأوَّل يوم كنَّاني فيه بأبي حفص «أيضربُ وَجْه عمِّ رسول الله بالسيف»؟!

فقال عمر: يا رسول الله! دعني فلأضرب عنقه بالسَّيف، فوالله لقد نافقَ.

ولكنَّ رسولَ الله ﷺ أبى، وغَفَرَ له ما بَدَرَ بحسنِ نيّة، وصدقٍ وإيمان.

* لقد بقيتِ الكلمةُ التي قالها أبو حُذيفة شبحاً مخيفاً يتراءى له أمام عينيه، ويقلق عليه راحته النَّفْسيّة، وطمأنينة قلبه كلَّما ذكرها أو تذكَّرها، وإنَّه بعد أنْ هدأتْ عاطفته، ألقى بنفسهِ بين أحضان النَّدم على كلمته التي قالها، ورأى أنَّها في صورتها التي صَدَرَتْ عنه لا تستقيم مع درجة ميزانه الإيماني؛ الذي امتاز به السَّابقون من طلائع المؤمنين، وأنَّ هذه الكلمة لا يكفِّرها عنه إلا شهادة في سبيلِ الله، يبذلُ فيها نفسه فداء لإيمانه وعقيدته، فكان يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قُلْتُها يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عني الشَّهادة.

* هذا؛ وقد أناله الله عزَّ وجلَّ كفَّارته التي تمنَّاها، وعاش حميداً، موفورَ الكرامة بين الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومات شهيداً يوم اليمامة ـ رضي الله تعالى عنه ـ[1].

وَيَحظَــى بالشَّهَــادَةِ:

* عاش أبو حُذيفة بن عتبة ـ رضي الله عنه ـ بعد بدر، وقد شهد أُحُداً، والخندق، والمشَاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، وهو يرجو الشَّهادة في سبيل الله عزَّ وجلَّ. وكان أبو حُذيفة خلال ذلك تالياً للقرآن الكريم، حافظاً لحدودِ الله، له مكانته بين صفوف الفُرسان والمجاهدين المسلمين.

* وتوفي رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن أبي حذيفة، وتابع أبو حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ مسيرة العطاء في بداية خلافة أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ إلى أنْ كانَ يوم اليمامة، حيثُ خرج مجاهداً، ومعه مولاه سالم، وهما

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٤/٥) والمستدرك (٣/٢٤٧ و٢٤٨) والبداية والنّهاية (٣/٢٨٤) مع الجمع والتصرف اليسير.

تحت راية سيّد الأمراء، وأمير الأسياد، ورأس الشُّجعان الصَّناديد، أبي سُليمان خالد بن الوليد، ذلك الذي قال عنه الحبيبُ المصطفى ﷺ: «نِعْمَ عَبدُ اللهِ أخو العشيرة خالد بن الوليد، سيفٌ من سيوف الله سلّه الله على الكفّار والمنافقين»(١).

* خرج أبو حذيفة إلى اليمامة لقتالِ بني حنيفة؛ الذين ارتدّوا عن الإسلام بقيادةِ كاذبهم ومفتريهم مسيلمة الكذاب ـ أخزاه الله ـ وهنالك حمي وطيسُ المعركة، وتنادى الفرسان المسلمون فيما بينهم: أنْ قاتلوا أعداء الله، وأعداء رسوله.

* وجعل الصَّحابة الكرام يتواصَوْنَ بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة! بطل السّحر اليوم. وسُمِعَ صوتُ أبي حذيفة ـ رضي الله عنه ـ وهو ينادي أصحابه: يا أهل القرآن! زيّنوا القرآنَ بالفعَال.

وحمل فيهم حتى أبعدهم، وأُصيب ـ رضي الله عنه ـ ومات شهيداً، ومعه مولاه سالم. وقيل: إنَّ سالماً وُجد هو ومولاه أبو حُذيفة رأس أحدهما عند رجلي الآخر صريعين ـ رضي الله عنهما ـ.

* استشهد أبو حُذيفة سنة اثنتي عشرة للهجرة، بعد أنْ عاش ثلاثاً وخمسين سنة، قضاها في مرضاة الله عزَّ وجلَّ، وفي ساحاتِ الجهاد والفروسية.

* رضي الله عن أبي حُذيفة، وأرضاه، وتغمَّده برحمته، وجعلنا نترسَّم خطاه في محبة الله والرسول، والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ حتى نلقى الله وهو عنَّا راضٍ، فيدخلنا جنَّته مع الدَّاخلين.

* * *

---

(١) رواه أحمد (١/٨) والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٢) والحاكم (٣/٢٩٨) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٤٨).

(٢٥)

أبو سلمة

ـ رضي الله عنه ـ

* ابن عمَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وأخوه من الرَّضاعة، وأوَّل مَنْ هاجر إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة.

في ركبِ الأوّلين السابقين:

* عندما نبدأ في ذكرِ الأوائلِ الذين شهدوا شهادةَ الحقّ، يطلعُ في أوّلِ الرِّجال، سيّدُ المهاجرين، وشيخُ الصَّحابة، الصِّدِّيق أبو بكر، وهو الصَّديق الحميمُ لرسول الله ﷺ، والمحبَّبُ إلى النَّاس، السَّهْل الكريم، العليمُ بنسب قريش وخفاياها، صاحب الأخلاق الفاضلة، والسيرة المتألِّقة.

* لم يكتفِ أبو بكر - رضوان الله عليه - بالمسارعةِ إلى الإيمان والتَّصديقِ بالنَّبيِّ محمّد ﷺ، بل كان له كبيرُ الفَضْل في إسلام كثيرٍ من أشرافِ قريش وفضلائهم، ومنهم: عثمان بنُ عفان، الزُّبير بن العوام، عبد الرحمن ابنُ عوف، سعد بنُ أبي وقّاص، طلحة بن عُبيد الله، أبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون . . . وهكذا عشر أنفس.

* ثم يأتي بعد ذلك أحدُ فرسانِ قريش ليكون إسلامه بعد عشر أنفس، وهو: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال القرشيّ المخزومي[1]؛ وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ، أمّه برّة بنت عبد المطّلب.

* قال ابنُ إسحاق - رحمه الله - أسلمَ أبو سلمة بعد عشرة أنفس، فكان الحادي عشر منَ المسلمين.

* إنَّ أبا سلمة هذا اسمه: عبد الله، وهو ممَّن غلبتْ عليه كنيته، وكان أخا رسول الله ﷺ وأخا حمزة بن عبد المطلب منَ الرَّضَاعة، أرضعتهما ثُوَيْبَة[2]

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٢٣٩ - ٢٤٢) ودلائل النبوة للبيهقيّ (٣/ ٣١٩ - ٣٢٢) والاستيعاب (٢/ ٣٣٠ و٣٣١) والأوائل للعسكريّ (ص ١٤٩) وتفسير القرطبيّ (١٨/ ٢٧٠) وتفسير البغويّ (٥/ ١٧١) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ٤٧ و٩٢ و١٢٤ و١٢٧ و٢٥٥ و٤٤١ و٤٤٥ و٤٥٦) والإصابة (٤/ ٣٢٦ و٣٢٧) وحياة الصَّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٥٧) وغيرها كثير.

(٢) «ثُويبة»: مُرضعة النّبيّ ﷺ بلبنِ ابنها مسروح بضعة أيام قبل أن تأتي حليمة السّعدية، وكان ثُوَيبة مولاة لأبي لهب، وكان رسولُ الله ﷺ يَصِلُها وهو بمكة، وكانت أمّ المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - تكرمها وهي على مُلك أبي لهب، وسألته أنْ يبيعَها لها فامتنع، فلمّا هاجر النّبيّ ﷺ أعتقها أبو لهب، وكان النّبيُّ ﷺ =

مولاة أبي لهب، أرضعت ثُويبة حمزة، ثم أرضعتْ رسول الله ﷺ، ثمّ أرضعت أبا سلمة[1] ـ رضي الله عنه ـ.

في مَوْكب النُّـور والتقـى:

* ها هو أبو سلمة قد بلغَ أشدّه واستوى، وتزوَّج إحدى عقيلات قريش، وسيِّدات بني مخزوم: هند بنت أبي أمية؛ التي كان يُقال لأبيها: زاد الرَّاكب[2]، أحد أجْوَاد العرب المعدودين، وقد اشتهرت هند فيما بعد بكنيتها أمّ سلمة، وقد ولدت له: سلمة، عمر، درّة، وزينب، وأولادها في عداد الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

* كان أبو سلمة ينظرُ إلى ابنِ خاله محمّدٍ ﷺ نظرةَ إكبار واحترام، فهو يدركُ تماماً تلكم الشَّمائل العظيمة التي نشأ عليها، ويعرفُ مكانه ومكانته من قريش، بل ومنَ العرب قاطبة.

* وأُمِرَ رسولُ الله ﷺ بتبليغِ الدَّعوة، فراحَ يتحدَّثُ عنِ الإسلام، ونُمي إلى أبي سلمة أنَّ محمَّداً ﷺ يدعو إلى الإسلام، فسارع إليه، فإذا به يسمعُ ما لم يسمَعْه منْ قبل عن عظمة هذا الدِّين، وإذا بكلامه ﷺ ينفذُ إلى قلبِ أبي سلمة، وإذا بأنوارٍ تشرقُ، وتضيءُ نفسه، وإذا به يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، وأسلمتْ زوجه أمّ سلمة معه، فكان من السَّابقاتِ الأُوَلِ إلى دَوْحَةِ الإيمان، وظلال اليقين.

* وآمن عددٌ من أغْلياء قريش وذويهم، ودخل رسولُ الله ﷺ دار الأرقم

= يبعثُ إليها بصلةٍ وكسوة، حتى جاءه موتها سنة سبع عندما رجع من خيبر فقال: «ما فعل ابنها مسروح؟» قالوا: مات قبلها. قال أبو نعيم: لا أعلمُ أحداً أثبتَ إسلامها. (تاريخ الإسلام ـ المغازي ص ٤٤٥) بتصرف.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٤٤٥) والإصابة (٤/ ٢٥٠).

(٢) جاء في لسان العرب: أنَّ أزواد الركب من قريش: أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية عم عقبة. كانوا إذا سافروا، فخرج معهم الناس، فلم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا، يكْفُونهم، ويُغْنُوهم.

ابن أبي الأرقم المخزوميّ، وكانت على جبل الصَّفا، تطلُّ على الحرم ودار النَّدوة، وتكشف تحركات قريش، وكلَّ ما يجري في الكعبة.

* وجاء الأمرُ الإلهيُّ بالجهر بالدَّعْوة(١)، فصدعَ رسولُ الله ﷺ لِما أُمِرَ به، فكادت صدورُ كفَّار قريش تميَّزُ منَ الغيظِ، وتنفجر منَ الغضب لهذا الدِّين الجديد؛ الذي نعى عليهم طريقتهم، وطريقة آبائهم وأجدادهم، فاشمأزوا، ونفروا، وغضبوا، وسخروا منَ الدَّعوةِ، ومن المسلمين(٢).

* أخذَ المشركون يركبون كلَّ طريق ليخفوا الحقَّ، ويدثروا الحقيقة، إلا أنَّ مساعيهم كانت تبوءُ بالخسرانِ المبين، وكان زعيم فجَّار الكفَّار أبو جهل ابن هشام من أشدِّ النَّاس عداوةً لله، وللرسول، وللمؤمنين.

* علم أبو جهل أنَّ أبا سلمة المخزومي وزوجه أمّ سلمة قد دخلا في دين محمّد ﷺ، فاستبدَّ به الغضب، ولعبَ برأسه الجنون، وأخذته العصبيّة الحمقاء ذات اليمين، وذات الشِّمال، فما كان يحسبُ أنَّ الفِتْنَة - بزعمه - ستدخلُ دورَ بني مخزوم. إنَّه يعمل، وإنَّه يسعى ليكتم صوت الحقِّ، لكنَّ مساعيه كانت تذهبُ هباءً منثوراً.

* وراحَ أبو جهل ينفِّسُ عن حقدِهِ لرسول الله ﷺ بتعذيب كلِّ مَنْ آمنَ وصدَّق بالحقِّ، لم يدعْ رجلاً ولاامرأة إلا صبَّ عليه غضبه، وعذّبه؛ واشتدَّ البلاء بأصحابِ رسول الله ﷺ، فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشةِ، فانطلق أبو سلمة وأمّ سلمة فكانا في طليعة المهاجرين(٣).

---

(١) قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

(٢) كانت معالجةُ الإسلام للعقيدة في نفوس الكفار؛ لكشف اعتقادهم الزائف، وتوجيه نفوسهم بالآداب المرعية، والأخلاق الفاضلة، كما تبرزُ المناقشة القرآنية للمشركين في الفكر المتحجِّر، والتصوُّر الخاطىء؛ نظراً لتجاهلهم الحقيقة الماثلة في عبودية الله، والتوحيد الخالص، وكانت عبودية المشركين تتَّجه نحو الوثنية بمختلف ضروبها، وتعدُّد أنواعها من: أحجار مصنوعة، وثمار موضوعة، ونحوت مصفوفة.

(٣) قال مصعب الزبيري: أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبوسلمة بن عبد الأسد (الاستيعاب ٢/ ٣٣٠).

* مضى أبو سلمةَ، وتركَ كلَّ ما يملك محتسباً ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، طالباً مرضاته وجنَّته؛ التي وَعَدَ عباده المتَّقين.

مكثَ أبو سلمة وزوجه والمؤمنون في الحبشَة، وهم يَلْقَوْن فيها إكرامَ النَّجاشيّ، وعلى الرّغم منْ لطفِ النَّجاشي وحمايته لهم، فإنَّ الحنينَ إلى رسولِ الله ﷺ وإلى مكة يسيطرُ على مشاعره.

* وطارتِ الأخبارُ منْ مكةَ إلى المهاجرين في أرضِ الحبشة بأنَّ حمزةَ بنَ عبد المطلب، وعمر بن الخطاب قد أسلما، ودخلا في سِلْكِ دُرَرِ المؤمنين، وأنَّ أهلَ مكةَ قد كفُّوا بعضَ الأذى عن المسلمين، فعزمَ أبو سلمة وزوجه على العودةِ مع فريق من المهاجرين، ورجعا فكانا مع طلائع العائدين، لكنَّهم سرعانَ ما اكتشفوا أنَّ قريشاً قد ضاعفتْ من وجَبَات تعذيبها للمؤمنين، وعندئذ دخل مَنْ دخل منهم مكة بجوارٍ أو مُسْتَخْفٍ، ومنهم مَنْ عادَ من حيثُ أتى.

في جوَارِ أبي طَالِب:

* دخل أبو سلمة بن عبد الأسد ـ رضي الله عنه ـ في جوار خاله أبي طالب ابن عبد المطلب، فسعى إليه جماعةٌ منْ بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب!

= ولم تكن الهجرة تخلُّصاً من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاوناً عامّاً على إقامة مجتمع جديدٍ في بلدٍ آمن.
وأصبحَ فرضاً على كل مسلم قادر على أن يسهمَ في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهدَه في تحصينه، ورفع شأنه.
أمّا الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ في مكة، وقبسوا منه أنوارَ الهدى، وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا خِفافاً ساعة قيل لهم: هاجِروا إلى حيث تعزّون الإسلام، وتؤمنون مستقبله.
وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحداناً، حتى كادت مكةُ تخلو من المسلمين. وشعرت قريش بأنَّ الإسلام أضحتْ له داراً يأرز إليها، وحصن يُحتمى به.
انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي (ص ١٥٤ ـ ١٥٧).

لقد مَنَعْتَ ابن أخيك محمّداً، فما لَكَ ولصاحبنا تمنعه منّا؟!

فقال: إنّه استجارَ بي، وهو ابنُ أختي، وإنْ أنا لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي.

* وهكذا منع أبو طالب أبا سلمة، ولكنَّ قريشاً لا زالت تذيقُ المسلمين ألوانَ البلاء، ولا زال العذاب يُصَبُّ عليهم، فخرج إذ ذاك بضعة وثمانون رجلاً مهاجرين إلى الحبشةِ، وثماني عشرة امرأة، وكان أبو سلمة وزوجه في مقدمةِ المهاجرين أيضاً، ومنَ الجدير بالذِّكر أنَّ أمَّ سلمة[1] هي راوية حديث الهجرة الشّائق اللطيف المعروف المشهور في مسندِ الإمام أحمد، وفي كُتُب السِّيرة، وغيرها.

* قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ: وكان أبو سلمة من مهاجرةِ الحبشة في الهجرتين جميعاً، ومعه امرأته أمّ سلمة بنت أبي أمية، مُجْمَعٌ على ذلك في الروايات[2].

* مكث أبو سلمة وزوجه في الحبشة، وسَعَتْ قريش إلى النَّجاشي لِيرُدَّ إليها المهاجرين ولكنَّ الله ـ عز وجلَّ ـ ردَّ كيدهم إلى نحورهم، وقال النَّجاشي لرسُوْلَي قريش[3]: انطلقا فواللهِ لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

* فخرجا منْ عنده مقبوحَيْن، مذمومَيْنِ، مدحورَيْنِ، وأقام المسلمون عند النَّجاشي[4] بخيرِ دارٍ، مع خيرِ جار، حتى قدم منهم مَنْ قدمَ على

---

(١) اقرأ سيرة أم سلمة أم المؤمنين في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص٢٢١ ـ ٢٧٠) نشر دار اليمامة بدمشق، الطبعة الثانية.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣٩).

(٣) رسولا قريش هما: عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وقد أسلما فيما بعد، والحمد لله.

(٤) ممّا يحسنُ ذِكْره، ويُستحلى سماعه، أنَّ النجاشي ملك الحبشة قد أسلم، وصدّق نبوّة رسول الله ﷺ، وإنْ كان قد أخفى إيمانه عن قومه، حينما عرف ثباتهم على الباطل، وولعهم بما ورثوه من عقائدَ باطلة عن آبائهم.

هذا وقد روي في الصَّحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ =

رسول الله ﷺ بمكةَ بعد، وكان أبو سلمة وزوجه ونفرٌ مِنَ المسلمين قد عادوا إلى رحاب نبيّهم وحبيبهم محمّد ﷺ قبل هجرته إلى المدينة، وبقي مَنْ بقيَ حتى قدموا المدينة عقب غزاة خيبر سنة سبع من الهجرة النّبوية.

في رحَـابِ الهِجْرَيــةِ:

* عرّفَ الإمام الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أبا سلمة في مطلع ترجمته له فقال: السّيِّدُ الكبيرُ، أخو رسول الله ﷺ منَ الرّضاعة، وابن عمّته برّة بنت عبد المطلب، وأحد السّابقين الأوّلين، هاجر إلى الحبشة، ثمّ هاجرَ إلى المدينة[1].

وسنعيشُ بضع لحظات مع أوّلِ[2] المهاجرين إلى المدينة المنوّرة، فَمَنْ هو أوّل المهاجرين؟.

* كان في صَدْرِ الأباة الشُّجعان المهاجرين أبو سلمة، الفارس الذي أبتْ عليه شجاعته ورسوخ إسلامه أنْ يُسِرَّ هجرته، ويستخفي بها، بل هاجر مستعلناً تحت سَمْعِ وبَصَر قومه بني مخزوم؛ الذين كانوا ينالون منه ويؤذونه، ويمنعه إسلامه أنْ يردَّ عليهم عدوانهم عليه، لأنَّ السّابقين إلى الإسلام كانوا مأمورين بالصّبْرِ والعفوِ والاحتمال السّمح المتكرّم، وقد كانت هجرة

= نعى النجاشيَّ في اليومِ الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى، فصفَّ بهم، وكبَّر أربع تكبيرات.

وقد رُوي أيضاً أنَّ النّجاشي لقبٌ له، واسمه هو «أصحمة» فقد روى البخاري عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجلٌ صالح، فقوموا فصلّوا على أخيكم أصحمة».

ومن هنا استدلّ الفقهاء بجواز الصّلاة على الغائب، وذلك بما صحّ من صلاة النّبيّ ﷺ والمسلمين على النّجاشي، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء من السّلف والخلف، وصار ذلك شرعاً متبعاً إلى يوم القيامة.

(١) سير أعلام النّبلاء (١/ ١٥٠).

(٢) انظر: الأوائل لأبي هلال العسكري (ص١٤٩) طبعة دار الكتب العلمية.

أبي سلمة إلى المدينة المنوَّرة قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة، وكان أول مهاجر إلى المدينة.

* ومن هنا كانت قصّة هجرة أبي سَلمة - رضي الله عنه - وهجرة زوجه أمّ سلمة مثلاً مضروباً، ونموذجاً يُحتذى، وأسوة تؤتسى في مواقف الشَّجاعة، وقوّة العقيدة، والوفاء.

* جاء في السِّيرة النَّبوية أنَّ أبا سلمة قد خرج بزوجه أمّ سلمة، ومعهما ابنهما سلمة، فخرج يقودُ بهما بعيره، فلمّا رأته رجالٌ من بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم - وهم عشيرة زوجه وابنة عمه أمّ سلمة - قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك قد غَلَبْتَنا عليها، أرأيتَ صاحبتك هذه، عَلامَ نتركك تسيرُ بها في البلاد؟!

فنزعوا خطامَ البعيرِ من يده، وانتزعوها منه، فغضبَ عند ذلك بنو عبد الأسد - رهْط أبي سلمة - فقالوا: والله! لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها منْ صاحبنا، فتجاذبوا سَلَمة فيما بينهم حتى خُلِعَتْ يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وأمّا أمّ سلمة فقد حَبَسَها بنو المغيرة عندهم، وفرّقوا بينها وبين زوجها وولدها، ومع هذا كلّه، انطلقَ أبو سلمة إلى الله مهاجراً[1] لا يلوي على أهلٍ، ولا ولدٍ، ولا مالٍ، ولا متاعٍ، حتى وصل قُبَاء، ونزل على مبشّر بن عبد المنذر[2]، فأقام حتى وصلتْ زوجه بعد عام من هجرته، هذا وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبي سلمة وسعد بن خيثمة[3].

في رِحَـابِ الجِهَـادِ والفُروسيَّـة الحقّـة:

* في شهرِ جمادى الأولى من السَّنة الثَّانية من الهجرة بلغَ رسولَ الله ﷺ خروجُ قريش بأعظم عيرٍ لها، وقد جمعوا أموالهم فيها، وكان يرأسها

(١) نقل البلاذريّ - رحمه الله - أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ و٤٢] نزلت في أبي سلمة ابن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وكان أوّل من قدم المدينة المنورة، (أنساب الأشراف ١/ ١٥٨ و١٥٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤٠).

(٣) المصدر السابق.

أبو سفيان بن حرب، ومعه بضعة وعشرون رجلاً من قريش، فخرج إليها رسولُ الله ﷺ، بعد أنِ استخلفَ على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ، وحمل لواءه عمّه حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وسار حتى بلغ العُشَيرة[1]، فوجد العيرَ قد أفلتتْ، فأقام هناك أياماً، وعند عودته وَادعَ بني مُدْلج، وفي هذا تقويةٌ للمسلمين، وإضعافٌ لقريش، إذ قطعَ عليهم رسولُ الله ﷺ بهذا الحلف وغيره من الأحلاف أنْ يستجيروا بقبيلةٍ من هذه القبائل، ويجتمعوا بها، هي سياسةٌ حكيمة، وعبقرية حربية أريبة[2].

* ولما كانت غزاة بدرٍ شهدها أبو سلمة، وكُتِبَ في عداد أهلها الذين اطّلعَ الله عليهم فقال: «اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنَّة، أو: فقد غفرت لكم»[3].

* وجاءت غزاة أحد، فخاضَ غمارها وشرى وباع، وأبلى بلاء حسناً، وأصيب يومئذ بجراحٍ كثيرة، وكان الذي جرحه أبو أسامة الجُشمي، رماه بمَعْبَلَة[4] في عضده، فمكث شهراً يداوي جِراحه، فبرأ ممّا يُرى وقد اندمل على آثار مسمومة وهو لا يَعْرِف.

* أهلَّ هلالُ المحرَّم من السَّنة الرَّابعة اللهجرة، فسوّلت لبني أسد أنفسهم أن يقوموا بمباغتة ضدَّ المسلمين، ويسعوا إلى حربهم، ونُمِي إلى رسولِ الله

---

(١) «العُشَيرة»: بالتّصغير، بلفظ تصغير العشرة، يُضاف إليه ذو، فيقال: ذو العشيرة، وهي من ناحية ينبع بين مكة والمدينة؛ وفي صحيح البخاري أنّها: العُشَيرة، أو العُشَيراء. وقيل: العُسَيرة، والعُسَيراء بالسّيّن المهملة بدلاً من الشين؛ والصحيح أنّه العشيرة. قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: هو من أرض بني مدلج.
وفي هذه الغزوة دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب بقوله: «يا أبا تراب!» وقصّة ذلك أنّ علياً وعمّار بن ياسر، كانا ينظران إلى بني مدلج وهم يعملون في عين لهم، فأخذهما النوم، ولم يستيقظا إلا على صوت رسول الله ﷺ، فجلسا، ويومئذ قال لعلي: «يا أبا تراب!»؛ لما عليه من التراب.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٤٧) بشيء من التصرف.

(٣) من حديث رواه البخاري برقم (٣٧٦٢).

(٤) «المعبلة»: نصل طويل عريض.

ﷺ أنَّ طلحةَ وسَلَمة ابني خويلد، قد سارا في قومهما فيمن أطاعهما بدعوتهما إلى حربِ رسول الله ﷺ، وهم يريدون أنْ يدنوا للمدينة، وقالوا: نسيرُ إلى محمّد في عقرِ داره، ونصيب من أطرافه، فإنَّ لهم سرحاً[1] يرعى جوانب المدينة، ونخرج على متون الخيل، فقد أربعنا خيلنا، ونخرج على النّجائب المخبورة[2]، فإنَّ أصبنا نَهْباً لم نُدْرَك، وإنْ لاقينا جمعهم كنّا قد أخذنا للحرب عدَّتها، معنا خَيْلٌ ولا خيلَ معهم، ومعنا نجائب أمثال الخيل، والقوم منكوبون، قد أوقعت بهم قريش حديثاً، فهم لا يستقبلون دهراً ولا يثوب لهم جمع.

فقام فيهم رجل منهم يُقال له: قيس بن الحارث بن عُمير فقال: يا قوم! والله ما هذا برأي! ما لَنا قبلهم وتْر[3]، وما هم نُهْبَة لمنتهبٍ، وإنَّ دارنا لبعيدة من يثربَ، وما لنا جَمْعٌ كجمع قريش، مكثتْ قريش دهراً تسيرُ في العرب تستنصرها، ولهم وترٌ يطلبونه؛ ثمَّ ساروا وقد امتطوا الإبل، وقادوا الخيل، وحملوا السّلاح مع العددِ الكثير - ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم - وإنّما جهدكم أنْ تخرجوا في ثلاثمئة رجلٍ إنْ كَمُلوا، فتغرون بأنفسكم، وتخرجون من بلدكم، ولا آمَن أنْ تكون الدّائرة[4] عليكم، فكادَ ذلك أنْ يشكّكهم في المسير، وهم على ما هو عليه بعد؛ فوصَلَ الخبر إلى رسولِ الله ﷺ بما بيّنَه هؤلاء الغادرون فسارع ﷺ إلى بَعْثِ سريّة قوامها مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم: أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأمَّرِ عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد، وعَقَدَ له لواء، فساروا حتى وصلوا أرضهم، وهنالك جعلهم ثلاث فرق:

فرقةٌ أقامت معه، وفرقتان أغارتا في ناحيتين مختلفتين، وأوعز إليهما ألا يمعنوا في طلب، وألاّ يبيتوا إلا عنده إن سلموا، وأمرهم ألاَّ يفترقوا،

---

(١) «سرحاً»: السَّرح: الماشية في المرعى.
(٢) أي: المعروف خبرها على الحقيقة.
(٣) أي: عداوة.
(٤) «الدائرة»: الهزيمة.

واستعمل على كلٍّ فرقة عاملاً منهم، فآبوا إليه جميعاً سالمين، وأصابوا أموالهم، وإبلهم، وأنعامهم، فأخذوها غنيمة، وخمّست، فأبقوا الخمس للنبي ﷺ يصرفه كما أراده الله تعالى.

* وعادوا إلى المدينة المنوّرة ظاهرين، سالمين، غانمين، تحفُّهم العناية الإلهية، وقد أعادوا هيبة المسلمين، إلى الذين لعبتْ بهم الأهواءُ، وسوّلت لهم نفوسهم النَّيْلَ من المسلمين.

* ثمَّ لم يلبثِ الصَّحابي الفارسُ المظفّر أبو سلمة أن نَغَر عليه الجرح، وانتفضَ فاشتكى منه، ثمَّ مات لثلاث ليالٍ مضينَ من جمادى الآخرة، وقد حضره[1] النَّبيُّ ﷺ، وبَسطَ كفَّيه الشَّريفتين على عينيه فأغمضهما، ثم غُسِّلَ، ودُفِنَ في المدينة بالبقيعِ، ودعا له رسولُ الله ﷺ فقال: «اللهمَّ افسحْ له في

---

(١) من الفوائد المهمّة أنْ نذكر هنا ما يُستحبُ في حالةِ الاحتضار، حيث يُستحبُ للمحتضر - وهو مَنْ حضره الموت ولم يمت، أي: في حالة النّزع -. وعلامة الاحتضار: استرخاء القدمين، واعوجاج المنخر، وانخساف الصُّدغِ، وعند ذلك يُستحب ما يلي:
١ - إضجاع الميت على جنبه الأيمن إلى القبلة؛ اتباعاً للسُّنّة لقوله ﷺ عن البيت الحرام: «قبلتكم أحياءً وأمواتاً» رواه أبو داود.
٢ - تلقينه الشَّهادة: لقوله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» أخرجه الجماعة إلا البخاري.
٣ - قراءة القرآن عند المحتضر: ويُندبُ قراءة سورة «يس» لحديث: «اقرؤوا على موتاكم يس» رواه أبو داود وابن ماجه والنسائي وإسناده ضعيف.
٤ - إغماض عينيه، وشدّ لحييه - الفك السُّفلي - بعصابة في أسفلهما، وتربط فوق رأسه، تحسيناً له، ويقول: «بسم الله، وعلى ملّةِ رسول الله، اللهم يسِّر عليه أمره، وسهِّل عليه ما بعده، وأسعده بلقائك، واجعل ما خرج إليه خيراً مما خرج منه».
٥ - النَّعي: وهو إعلام النّاس بموتِ إنسانٍ للصَّلاة عليه، لما روى الشَّيخان أنه ﷺ نعى لأصحابه النّجاشي في اليومِ الذي مات فيه، ونعى جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة.
٦ - الإسراع بالتجهيز: وهو المسارعة بدفن الميت، وقضاء ديونه، وتفريق وصيته.
هذا وقد بسط العلماء والفقهاء هذه الأمور والمسائل في كتبهم، فلتراجع.

قبره، وأضيء له فيه، وعظِّمْ نوره، واغفرْ ذنبه، اللهم ارفعْ درجتَه في المهديين، واخلفه في تركته في الغابرين، واغفر لنا وله يا ربَّ العالمين»[١].

* ولما انقضتْ عدّة زوجهِ أمّ سلمة، تزوَّجها النَّبيُّ ﷺ، وروت عن زوجها أبي سلمة القولَ عند المصيبة[٢]، وكانت تقول: مَنْ خيرٌ مِنْ أبي سلمة؟! وما ظنَّت أنَّ الله عزَّ وجلَّ يخلفها في مصابها به، فلمّا فُتحَ عليها بسيِّد البشرَ اغتبطت أيّما اغتباط[٣]، وصارت أمّاً للمؤمنين، وصار النَّبيُّ ﷺ ربيب أولادها: سلمة، وعمر، وزينب، ودرّة[٤].

في رحَـابِ الأوَائِـل:

* لأبي سلمة ـ رضي الله عنه ـ أوّليّات عطرة في مضمارِ الأوائل في مجال الفضائل:

فهو أوّل مَنْ هاجر إلى أرض الحبشة.

وهو أول مَنْ عاد مِنَ الحبشة إلى مكة.

وهو أوّل مَنْ قدم مِنْ مكة إلى المدينة مهاجراً[٥].

وهو أوّل مَنْ أعلنَ هجرته، فسار مهاجراً إلى المدينة أمام قومه.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٢٢).

(٢) روى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في مسنده عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررتُ به. قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم آجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله، وأخلف له خيراً منها» وهذا هو الدعاء عند المصيبة.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥٠).

(٤) ذكر الصالحي الشامي في «أزواج النبي ﷺ» (ص١٤٨) أربعة أولاد لأم سلمة، وهم المذكورون أعلاه، لكن لأم سلمة بنتاً خامسة هي: أم كلثوم؛ روت حديث هديته ﷺ لأم سلمة.
انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٩٥).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣٩) والمستدرك (٢/ ١٨٨) وأسد الغابة (٧/ ٣٨٥). والاستيعاب (٢/ ٣٣٠).

* روى ابن أبي عاصم في «الأوائل» من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

أوّلُ مَنْ يُعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد، وأوّل مَنْ يُعطى كتابه بشماله أخوه سفيان بن عبد الأسد[1].

* وذكر الضَّحاك ومقاتل أنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ...﴾ [الحاقة: ١٩] نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ، والآية التي تليها: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ...﴾ [الحاقة: ٢٥] نزلت في أخيه الأسود بن عبد الأسد، وهذا قول ابن عبّاس والضَّحاك أيضاً[2]. فيكون الرجل وأخوه سبب نزول هذه الآيات.

* قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في جامعه: ويعمُّ المعنى جميع أهل الشَّقاوة، وأهل السَّعادة[3].

* ذلكم أبو سلمة بن عبد الأسد، أحد فرسان رسول الله ﷺ، عاش حميداً، ومات شهيداً، وحظي بدعوة رسول الله، والصلاة عليه.

* وبعد، فهل نترك سيرة هذا الفارس الشُّجاع قبل أنْ ندعوَ له بما دعا له رسول الله ﷺ: «اللهم اغفرْ لنا وله يا ربّ العالمين»؟! فهو الصحابيُّ الشجاع، والفارسُ المغوار، والسابق إلى الإسلام، والمهاجر في سبيل الله، وفوق هذا وذاك حظي بدعوةٍ نبوية بالمغفرة، فرضي اللهُ تعالى عنه وأرضاه.

* * *

---

(١) انظر: الإصابة (٢/٣٢٦) وأعتقدُ أنَّ الاسم «الأسود» بدلاً من سفيان.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٠) وذكر البغويّ ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] قيل: إن الرجلين هما: الأسود، وأبو سلمة عبد الله، ابنا عبد الأسد المخزومي. (تفسير البغوي ٥/ ١٧١).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٠) وما بعدها.

(٢٦)

أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ

- رضي الله عنه -

* قال عنه ﷺ: «نِعْمَ الرَّجلُ أبو عُبيدة بن الجراح».

ثناءٌ عطِرٌ شَذِيٌّ نديّ:

كبيرٌ مِنْ كُبراءِ الصَّحابة الأنصار، يثني ثناءً عطراً على كبيرٍ من كبراء المُهَاجرين الأخيار فيقول: والله! ما أزعم أنّي رأيتُ مِنْ عبادِ الله عبداً قطّ أقلّ غمزاً، ولا أبرَّ صدراً، ولا أبْعَدَ غائلة، ولا أشدَّ حبّاً للعاقبة، ولا أنصحَ للعامّةِ منه. . . كنتَ واللهِ ما علمتُ من الذَّاكرين الله كثيراً، ومن الذين يمشونَ على الأرضِ هَوناً، وإذا خاطبهمُ الجاهلونَ قالوا سَلاماً، ومنَ الذين إذا أنفقُوا لم يسرفُوا، ولم يقتروا، وكان بين ذلك قَواماً، وكنتَ واللهِ! من المخبتين[1] المُتواضعين؛ الذين يرحمون اليتيم، والمساكين، ويبغضون الخائنين المتكبّرين[2].

أتدرون من قائل هذه العبارات؟

إنّه معاذ بن جبل[3] أحد الفقهاء السّتة من الصَّحابة. وهل تعرفون فيمن قال هذا الثّناء؟ ومَنْ كان يقصد به؟

* لقد قَصَد معاذ بن جبل بذلك أحد السَّابقين الأوّلين[4]، ومَنْ شهد له رسولُ الله ﷺ بأنه من أهل الجنّة، وممن يَرِثُون الفِردوس، وسمَّاه: أمين الأمّة[5]، أبو عُبيدة؛ عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال القرشيّ الفهريّ

---

(١) «المخبت»: المتواضع الخاشع المذعن لله عز وجل.

(٢) المستدرك على الصّحيحين (٣/٢٩٦).

(٣) اقرأ سيرة معاذ بن جبل في كتابنا: «علماء الصحابة».

(٤) يُعَدُّ أبو عبيدة بن الجرّاح من السابقين إلى الانضمام تحت راية هذا الدين، وفي ذلك يقول ابنُ سعد:
«انطلق عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله ﷺ، فَعَرَض عليهم الإسلام، وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جميعاً في ساعةٍ واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم؛ وقبل أن يدعو فيها». انظر الطبقات الكبرى (٣/٣٩٣).

(٥) المسندُ (١/١٩٥ و١٩٦) وطبقاتُ ابن سعد (٣/٤٠٩ ـ ٤١٥) ونسبُ قريش =

المكّي[1]، أحد الفرسان الأبرار، الأَخْيار، الأطهار، الصَّالحين، والزَّاهدين، العارفين، العالمين.

* وكان أبو عُبيدة - رضوان الله عليه - ممن جاهرَ إلى أرض الحبشةِ الهجرة الثَّانية[2]. ولكنَّ الإمام الذَّهبيُّ - رحمه الله - يعلِّقُ على هذا الخبر فيقول: إن كان هاجر إليها، فإنَّه لم يُطِلْ بها اللبث[3]، ولما هاجر أبو عبيدة من مكةَ إلى المدينةِ نزل على كُلثوم بن الهدم، وآخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين محمّد بن مسلمة الأنصاري[4].

مِنْ نَفَحاتِ مَشَاهِدِه الخالدة:

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ - رحمه الله -: غَزَا أبو عُبيدة غزوات مشهودة[5].
هذا؛ وقد كان أبو عُبيدة منَ الفُرسان الشُّجعان[6]، المشهود لهم في مقام الشَّجاعة. وقد شهد أبو عُبيدة - رضي الله عنه - بدراً، وأبلى يومها أحسن

= (ص٤٤٥) والمعارف (ص٢٤٧ و٢٤٨) والمستدرك (٣/ ٢٩٤ - ٣٠١) وحلية الأولياء (١/ ١٠٠ - ١٠٢) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٦٤ - ٢٧٤) وصفة الصَّفوة (١/ ١٤٢) وجامعُ الأصول(٩/ ٥ - ١٨) والكامل في التّاريخ (٢/ ٣٢٥ - ٣٣٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٢٥٩) والرّياض النّضرة (٢/ ٣٠٧) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٥ - ٢٣) والعقدُ الثّمين (٥/ ٨٤) وتهذيبُ التهذيب (٥/ ٧٣) وكنزُ العمال (١٣/ ٢١٤ - ٢١٩) وغير ذلك كثير من المصادر التي لا تحصى.

(١) الحديث رواه البخاري في المغازي (٤٣٨٠، ٤٣٨١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٠) ولفظه: «هذا أمين هذه الأمة».
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٠) والسيرة النبوية (١/ ٣٢٩) والمستدرك (٣/ ٢٩٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٨).
(٤) اقرأ سيرة محمّد بن مسلمة الأنصاري في هذا الكتاب ص(٥٣٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ٦).
(٦) يُعَدُّ أبو عبيدة - رضي الله عنه - من شجعان قريش الذين لا يُشَقُّ لهم غبار، وكان يقصد بجهاده الحصول على رضاء الله سُبحانه وتعالى، والإخلاص في طاعته، فتوافرت له بذلك الشجاعة الأدبية، فكان لا يخشى مخلوقاً. وهو أيضاً يتصف بالقوة الجسدية؛ ولهذا فقد كان لا يخاف ما تحمله الحروبُ من أخطار. انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ؛ للدكتور عبد الله الرشيد (ص٥٦٣).

بلاء، وضرب يوم إذا أعلى المُثُل الإيمانيّة الرّائعة، إذ التقى أباه المشرك عبد الله بن الجراح، وكان الأب يتصدَّى لابنه أبي عُبيدة يريد قتله، ويُسدِّد نحوه الحربة كي يرميه بها، وجَعَل أبو عُبيدة يحيدُ عنه، رعايةً لحقِّ الأبوة، ولكنَّ الأبَ الظّالم نفسه، ما فتىء يتصدَّى لابنه يريد أنْ يقتلَه، فلمّا أكثر ذلك، قَصَده أبو عبيدة، ورحيق الإيمان وأنوار اليقين تنبعثُ من سيفه، فقتله.

* هنالك أعْظَم الموحِّدون هذا الموقف الذي تفوحُ منه عبقات الأنوار الرّحمانية، وتنزلت آياتٌ ندية كريمة تشيدُ بأبي عُبيدة، وتشيرُ إلى صدقه في محبّة الله ورسوله. قال الله عزَّ وجلَّ في محكم التّنزيل يثني على موقف أبي عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢][1].

* وقد ذكر أئمةُ المفسِّرين وأعلام العلماء، أنَّ هذه الآية الكريمة قد أُنزلت في أبي عُبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ حين قَتَل أباه في يوم بدر.

* وقد فصَّل مفسِّرون آخرون في هذه الآية، وأبانوا بعض زوايا الخفايا فقالوا:

---

(١) تشيرُ هذه الآية الكريمة إلى أنَّ البشرية تنقسمُ إلى حزبين اثنين:
أ ـ حزب الله عزَّ وجلَّ، وراية الحقّ العليا.
ب ـ وحزب الشّيطان، وراية الباطل السّفلى.
وهذان الصِّنفان متميزان تماماً... فلا نسب، ولا صهر، ولا أهل، ولا قرابة، إذا كان ذلك يخالف أمْر الله عزَّ وجلَّ.
فالإيمانُ بالله عزَّ وجلَّ يرفع الإنسان إلى القمم العُليا، ونلاحظ هنا كيف ارتقى أبو عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ إلى قمّة الفضل، وسدَّة الإيمان بعمقِ يقينه، وحسن ظنِّه بالله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾[1] نزلت في أبي عُبيدة قَتل أباه يوم بدر.

وقوله: ﴿ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ في أبي بكر الصِّديق هَمَّ بقتلِ ابنه عبد الرحمن.

وقوله: ﴿ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ ﴾ في مصعب بن عُمير قتل أخاه عبيد بن عُمير يومئذ.

وقوله: ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ في عمر بن الخطاب قَتَل خالَه العاص بن هشام بن المغيرة يومئذ أيضاً. وفي حمزة بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، وعُبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ.

* وهذا التَّفصيل أشمل، وقد ناسب كلَّ كلمة حَدَث، وفي وقت واحد، فصحَّ أنْ يكونَ كذلك، والله تعالى أعلم[2].

* استدار العام فجاءت غزاة أحد، فكان أبو عُبيدة من فرسانها، ومن شجعانها، وأبلى يوم أُحُد بلاءً حسناً محموداً مشكوراً، وثبتَ مع مَنْ ثبتَ مع رسولِ الله ﷺ.

* ولما رُمي رسولُ الله ﷺ يوم أُحد في وجهه الشَّريف، دخلت في وجنته الشَّريفة حلقتان من المغْفَر[3] من ضربةٍ أصابته، فإذا بأبي عُبيدة ـ لما رأى ذلك ـ يطيرُ طيراناً نحو القائد الأعلى الحبيب المصطفى ﷺ، فعالجَ إخراج حلقَتَي المغفر من وجههِ الشَّريف، وكرهَ تناولهما بيدهِ فيؤذي رسول الله ﷺ، فأخذ أبو عُبيدة بثنيةٍ على إحدى الحلقتين فاستخرجَها، وقد سقطت ثنيَّة

---

(١) يقول الإمام الصَّاوي ـ رحمه الله ـ في حاشيته اللطيفة على الجلالين في هذا المقام: وقدّم أولاً الآباء لأنَّهم تجبُ طاعتهم، ثمّ الأبناء لأنّهم أعْلَق بالقَلب، ثمّ الإخوان لأنَّهم النَّاصرون للشَّخص بمنزلةِ العضد من الذِّراع، ثمّ بالعشيرة، لأنَّ بها يُستغاث، وعليها يُعتمد (الصَّاوي على الجلالين ٤/ ١٨٥) طبعة دار إحياء التّراث العربي.

(٢) انظر: تفسير البغوي على الخازن (٧/ ٥٤) وانظر كذلك تفسير ابن كثير للآية (٢٢) من سورة المجادلة، وكذلك أسباب النزول للواحدي للآية نفسها.

(٣) «المِغْفَر»: زَرَدٌ يُنْسَجُ من الدُّروع على قَدْر الرأس، يُلْبَسُ تحت القلنسوة.

معها، ثمَّ أخذ الحلقة الأخرى بثنيّتِهِ الأخرى فاستخرجها، وبذلك انقلعت ثنيّتاه، فحسُنَ ثغره بذهابهما، حتى قيل: ما رُؤي هتمٌ قطُّ أحسن من هتْم أبي عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ[(١)].

* ثمَّ شهد أبو عُبيدة الخندق والمشاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، وكان من علْيَةِ أصحابه، وبعثه إلى ذي القصَّة سرية في أربعينَ رجلاً، وذلك عندما أجمعَ بنو محارب وثعلبة، وأغاروا على مواشي المدينةِ وهي ترعى بهيفاء[(٢)]، وإذ ذاكَ بعثَ رسولُ الله ﷺ أبا عبيدة في أربعينَ رجلاً، فساروا حتى وصلوا إلى ذي القصّة[(٣)]، فأغاروا على أولئك القوم، وأخذ أبو عُبيدة ما لديهم منَ النَّعمِ، ثمَّ عادوا إلى المدينة[(٤)].

* وعندما كان الفتحُ الأعظم فتح مكة ـ حفظها الله ـ كلَّفَ رسولُ الله ﷺ أبا عبيدة أنْ يدخلَ بفرقته من النَّاحيةِ الشَّمالية الغربية.

* وتابع أبو عُبيدة مهماته وغزواته وفروسيته مع رسول الله ﷺ، ثمَّ مع أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ الذي عزمَ على تولية أبي عُبيدة.

* ولكنَّ أبا عُبيدة خُلِقَ للجهاد ولممارسة الفروسيَّة، فلقد تابع سلوك سبيل الرَّشاد في الغَزَوات، ففي عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كان أبو عُبيدة أميراً على حمص[(٥)]، وعندما خرج خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لقتال

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٠) والمستدرك (٣/ ٢٩٨) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٦٦ و٢٦٧) مع الجمع والتَّصرف. و«الهتم»: كسر الثنايا من أصولها.

(٢) «هيفاء»: موضعٌ على بعد أربعة أميال منَ المدينة، وهي حرّة فيها بئرٌ، ويُعرف هذا أيضاً بقناة معاوية.

(٣) «ذو القصة»: اسم موضع على بعد أربعة وعشرين ميلاً في المدينة، وهو ماء لبني طريف في أجا، وأهله موصوفون بالملاحة. انظر: (المغانم المطابة في معالم طابة ص٣٤٧).

(٤) عيون الأثر في فنون المغازي والسِّير (٢/ ١٠٥).

(٥) انظر: الكامل في التَّاريخ لابن الأثير (٢/ ٤٠٥).

الرُّوم في اليرموك جَعَل أبا عُبيدة على القلب[1].

* أمّا في خلافةِ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقد قام أبو عُبيدة بفتح بلاد كثيرة في الشَّام، فقد فتح حوالي ثمانية وعشرين بلداً منها: دمشق[2]، بعلبك[3]، حمص[4]، حماة[5]، شيزر[6]، اللاذقية[7]، حلب[8]، أنطاكية، سَرْمين[9]، الجزيرة[10] حرّان[11]، والرُّها وغير ذلك كثير جداً، وفي كلِّ

---

(١) المصدر السَّابق (٢/ ٤١١).

(٢) معجم البلدان (٣/ ٢٣٧). ودمشق: قاعدة الشَّام، سمّيت بذلك لأنّهم دمشقوا في بنيانها، أي: أسرعوا. وقال أهل السير: سُميت بدمشق بن قاني بن مالك بن آرفخشد بن سام بن نوح عليه السَّلام، وهي عاصمة سورية اليوم.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ١٢٧) وبعلبك: مدينة قديمة بالشام فيها أبنية عجيبة، وآثار عظيمة، بينها وبين دمشق من جهة الشرق مرحلتان، وبعلبك اليوم تابعة للبنان.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ١٢٧).

(٥) الكامل في التَّاريخ (٢/ ٤٩٢) وحماة: مدينة كبيرة، وبها نهر العاصي، وهي الآن من مدن سورية.

(٦) «شيزر»: قلعة قديمة بالشَّام، تقع قرب معرة النّعمان، بينها وبين حماة يوم واحد، وفي وسطها نهر الأردن، وعليه قنطرة في وسْط هذه القلعة، وهي تعد في كورة حمص. (معجم البلدان ٣/ ٣٨٣).

(٧) الكاملُ في التّاريخ (٢/ ٤٩٢) واللاذقية من مدن سورية اليوم.

(٨) الكاملُ في التّاريخ (٢/ ٤٩٥).

(٩) الكاملُ في التّاريخ (٢/ ٤٩٥) وسَرْمين: بلدة من أعمال حلب، قيل: سُميت بسرمين بنِ اليفر بن سام بن نوح عليه السَّلام (معجم البلدان ٣/ ٢١٥).

(١٠) الكاملُ في التّاريخ (٢/ ٤٩٧). والجزيرة: هي الجزيرة الفراتية، وتطلق على الجزء الشّمالي من الأرض التي يكتنفها نهر دجلة والفرات، وبها مدن وحصون وقلاع كثيرة منها: حرّان، والرُّها، والرّقة، ورأس العين، ونصيبين، والخابور، وماردين. ومن أهم أعلامها: جبل سنجار، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر (١٤٥٣ متراً) وجبل عبد العزيز، ويرتفع (٩٢٠ متراً) عن سطح البحر. (معجم المعالم الجغرافية في السيّرة النبوية ص ٨٢).

(١١) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ١٣٩). وحرّان: بلدة مشهورة بالشَّام، بينها وبين الرُّها =

مدينة من بلاد الشَّام له أثر مِعْطاء، وبصمات لا تُنْسَى - رضوان الله عليه -.

مِنْ جَوَاهِرِ مَنَاقِبِه:

* ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أبا عُبيدة بن الجَراح - رضي الله عنه - واحدٌ ممن ملؤوا دواوين الإسلام بفضائل المكارم، ومكارم الفضائل، قَلَّد جِيْدَ الدَّهر بقلائد الجواهر التي تحكي حسْنَ أعماله، ومحاسن أقواله، وجلال شخصيته، وصفاته القيادية الممتازة.

* وممَّا لا شك فيه أيضاً أنَّ الباحثَ لا يستطيعُ أنْ يحصَر مناقب هذا الفارس الكريم في صفحاتٍ كثيرة، ولكنَّا نستنيرُ ببعضها كيما تكون نبراساً لنا في هذه الحياة الدنيا.

* ولكي نتصوَّر شخصية أبا عبيدة، وما علينا إلا أنْ نستمعَ إلى مَنْ وصفَه لنا حيث قال: كان أبو عُبيدة رجلاً نحيفاً، معروقَ الوجه، خفيفَ اللحية، طويلاً، أحنى، أثرمَ الثَّنيَّتين[(١)]، وكان يخضبُ بالحنَّاء والكُتم[(٢)]، وكان موصوفاً بحسنِ الخُلق، وبالحلمِ الزَّائد، والتَّواضع، وكان معدوداً فيمن جَمَع القرآن العظيم[(٣)].

* إذاً فأبو عُبيدة قد آتاه الله بسطةً في العلم والجسم، وآتاه حظّاً وافراً من كمال الطَّلعة وجليل الحياء، وحلاوة الوجه وملاحة البهاء، يشهدُ بهذا ما شهد به عبد الله بن عمرو بن العاص حيثُ قال: ثلاثةٌ من قريش؛ أحسن قريش أخلاقاً، وأصبحها وجوهاً، وأشدّها حياء، إنْ حَدَّثوا لم يكذبوا، وإن حدّثتهم بحقٍّ أو بباطلٍ لم يُكذِّبوك: أبو بكر الصِّدِّيق، وعثمان بن عفان،

= يوم، وبين الرقة يومان، وهي مجمع الصابئة، وقد ذكر المفسِّرون، أنَّها المرادة في قول إبراهيم - عليه السَّلام - في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] وهي المقصودة كذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] (معجم البلدان ٢/ ٢٣٥).

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٦٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ٧).

(٢) «الكُتم»: نبت فيه حمرة، يُخلط بالوسمة، ويختضب به للسواد.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٨).

وأبو عُبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنهم ـ[1].

* أمّا عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقد اصطفى من الصَّفوة الصَّافية هؤلا الأصفياء، وفيهم فارسنا، فقال: أخلائي من أصحاب رسول الله ﷺ ثلاثة: أبو بكر، وعمر، وأبو عُبيدة ـ رضي الله عنهم ـ[2].

* ولقد امتدحَ الحبيبُ المصطفى ﷺ أبا عبيدة، وأثنى عليه في مقام الصَّفاء فقال: «نِعم الرَّجل أبو عُبيدة بن الجراح»[3]. لا؛ بل إنَّ رسولَ الله ﷺ قد خلع عليه قلادة من شرف اللقب، وسمَّاه تسميةً رفعته مكاناً عليّاً في مقام الأمانة ـ وناهيك بالأمانة ـ في هذه الأمّة المحمَّدية الكريمة، إذ دعاه بأمين هذه الأمة.

* روى ذلك حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ فيما ورد في الصَّحيح وغيره فقال: جاء العاقب والسَّيِّد[4] ـ صاحبا نَجْران ـ[5] إلى رسولِ الله ﷺ يريدان أنْ يُلاعناه[6].

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (11/ 270 و271) وتهذيب تاريخ ابن عساكر (7/ 161).
(2) سير أعلام النبلاء (1/ 14).
(3) رواه الترمذي (3761) وانظر: طبقات ابن سعد (3/ 412).
(4) «العاقب» و«السيد»: هما من رؤساء أهل نجران، وأصحاب مراتبهم، والعاقب يتلو السيد.
و«السيد»: اسمه «الأيهم»، وكان صاحب رحالهم ومجتمعهم ورئيسهم في ذلك، وأما «العاقب» فاسمه «عبد المسيح»، وكان صاحب مشهورتهم.
(5) «نجران»: مدينةٌ قديمة بالحجاز تقعُ بنواحي اليمن، سُمِّيت بنجران بن زيد بن يشجب ابنِ يعرب، وهو أوّل مَنْ بناها، وتتألف من مجموعةِ مدن صغيرة في وادٍ واحد كبير، كثير المياه والزَّرع، يسيلُ من السَّراة شرقاً حتى يصبَّ في الربع الخالي، وتقعُ على الطريق بين صعدة وأبها على قرابة (910) كيلاً جنوب شرقي مكة في الجهة الشَّرقية من السَّراة، وفيها آثار أشهرها: مدينة الأخدود، ويوجد بها حالياً مطار.
(معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص 314).
(6) «يلاعناه»: المُلاعنة: صيغة مفاعلة، ولا تكون إلا بين اثنين فَصاعداً، وهي

قال: فقال أحدهما لصَاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنَنا، لا نفلحُ نحنُ ولا عقبنا من بعدنا.

قالا: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعثْ معنا رجُلاً أميناً، ولا تبعث إلا أميناً.

فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين».

فاستشرف[1] له أصحابُ رسول الله ﷺ فقال: «قمْ يا أبا عبيدة بن الجراح» فلمّا قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمينُ هذه الأُمّة»[2].

* ولقد أَنْصفَه الحافظُ أبو نُعيم ـ رحمه الله ـ في الحلية، إذ وصفه بكلام تتحلى به الأسماع فقال: الأمينُ الرَّشيدُ، والعامل الزهيد، أمين الأمّة، أبو عبيدة، كان للأجانب منَ المؤمنين وديداً، وعلى الأقارب منَ المشركين شديداً، فيه نزلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢][3].

* هل ننسى أنَّ أبا عبيدة هو أحد العشَرة المبشرين بالجنّة[4]؟! بل لا ننسى أنّه كان منْ أحبِّ الصَّحابة إلى رسولِ الله ﷺ[5].

* وهل يمكن لنا أنْ ننسى أنَّ أبا عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ من الفُرسان المجاهدين المجدِّين الذين يبتغونَ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ولا يبغون عنها

= المباهلة؛ وصفتُها: أن يجتمعُ القومُ إذا اختلفوا في شيءٍ ويقولوا: لعنةُ الله على الظَّالم مِنّا.

(١) «استشرف»: المعنى: تطلَّعوا إلى هذه الولاية، ورغبوا فيها حرصاً على أن يكونَ هو الأمين الموعود في هذا الحديث، لا حرصاً على الولاية من حيثُ هي.

(٢) أخرجه البخاريّ في المغازي برقم (٤٣٨٠) و(٤٣٨١) وأخرجه في المناقب برقم (٣٧٤٥) باب: مناقب أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ. وأخرجه كذلك برقم (٧٢٥٤). وأخرجه مسلم برقم (٢٤٢٠) والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٩٩) والترمذي برقم (٣٧٥٩) .

(٣) سنن الترمذي (٣٧٤٨) ومسند أحمد (٣/ ١٣٦) وحلية الأولياء (١/ ١٠١).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٣٧٤٨) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٦٧).

(٥) انظر: الترمذي (٣٧٦٠) وابن ماجه (١٠٢).

حِوَلاً؟! لقد عرفنا منْ مواقفهِ في الغزَوات ما يشهدُ له بالشَّجاعة الجسديةِ والأدبيَّة، وخاصة ثباته يوم أحد، حينما فرّ مَنْ فرّ عنْ رسول الله ﷺ، لهولِ الفاجعة التي نزلت بهم، وفوجئوا بها(١).

* ومنْ جواهر المناقب التي يجبُ علينا أنْ نذكرها هنا لأبي عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ أنْ نقول: كان أحدَ وعاة ورواة الحديث النَّبوي الشَّريف، وقد وردت أحاديثه في الصَّحيح والسُّنن والمسَانيد، وحدث عنه العِرباض بن سارية، وجابر بن عبد الله، وأبو أمامةَ الباهليّ، وسمرة بن جندب، وأسلم مولى عمر، وعبد الرحمن بن غنم وآخرون(٢).

أبـو عُبَيـدة وعُمرُ ومـواقـفُ آسِرة:

* تعالوا نزَيِّن مجلسنا هذا، وجلْسَتنا هذه، بذكْرِ هذَين الفارسَين الزَّاهدين العبقريَيْن؛ أبي عبيدة، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ونمتع الأسماعَ بذكر بعض المشَاهد والقَصَصِ اللطيفة؛ التي حدثَتْ مع هذين العلَمْينِ الكريمَيْن؛ فهلمّوا نبدأ اللقاء الأوَّل ـ هنا ـ بين هذين السَّيدين.

* حدَّثَ تميمُ بنُ سلمة أنَّ عمر لقي أبا عبيدة، فصافحه، وقبَّل يده، وتنحيا يبكيان(٣).

* هذا عمر يُقبِّلُ يَدَ أمين الأمّة؛ لأنه يعرفُ ويدركُ مقامه ومكانته في قلْبِ رسول الله ﷺ، وها هو عمر يقول في يومٍ من الأيّام لجلسائه: تمنّوا، فتمنّوا، فقال عمر: لكنّي أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عُبيدة بن الجراح(٤).

* وتروي المصادرُ الوثيقة هذا اللقاء العَطِر الآسر بين عمر وأبي عبيدة فتقول: قدم عمر الشَّام، فتلقّاه الأمراء والعظماء.

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٤٠) وقادة فتح الشام ومصر (ص ٧٧ و٧٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥).
(٤) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٧٤٠) والحاكم (٣/ ٢٢٧) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٢).

فقال: أين أخي أبو عُبيدة؟

قالوا: يأتيك الآن.

فجاء على ناقةٍ مخطومة[1] بحبلٍ، فسلَّم عليه، ثمّ قال للنَّاس: انصرفوا عنا.

فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه، فلم يرَ في بيتِه إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: لو اتخذتَ متاعاً!

فقال: يا أمير المؤمنين! إنَّ هذا سيبلغُنا المقيل[2].

* ويبدو أبو عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ وهو أميرٌ على الشَّام أمير الزَّاهدين، وأمير العَارفين، فقد حدَّث ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ عمرَ قدم الشَّام، وقال لأبي عُبيدة: اذهب بنا إلى منزلك.

قال: وما تصنع عندي؟! ما تريد إلا أنْ تُعَصِّرَ عينيك عَليَّ؛ فدخل، فلم يَرَ شيئاً.

فقال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لِبْداً أو صفحة وشنّاً[3]، وأنتَ أميرٌ، أعندك طعام؟!

فقام أبو عبيدة إلى جَوْنَةٍ[4]، فأخذ منها كُسَيرات، فبكى عمر.

فقال له أبو عُبيدة: قد قلتُ لك: إنّك ستعصرُ عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين! يكفيك ما يبلغك المقيل.

---

(١) «مخطومة»: خَطَمه بالخِطام: جعَله على أنفه. والخِطامُ: الزِّمامُ يُقاد به. والزِّمام: ما يُشَدُّ به.

(٢) الزّهد للإمام أحمد بنِ حنبل (ص ١٨٤) وحلية الأولياء (١/ ١٠١ و١٠٢) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٧١ و٢٧٢).

(٣) «لبداً»: ما يُجْعَل تحت السَّرْج على ظَهْر الفرس. «شنّاً»: الشَّنُّ: القِرْبة الخَلَق الصغيرة.

(٤) «جونة»: هي الخابية المطليّة بالقار.

قال عمر: غيَّرتنا الدنيا كلّنا غيرك يا أبا عُبيدة[1]!

* ألم أقل لكم: إنَّ أبا عُبيدة منْ فرسانِ الفضائل في كلِّ ميدان؟! هذا ولقاءات عمر وأبي عُبيدة كلّها لقاءات مثمرة، دانية القطوف، ولو رحنا نتتبَّعُ تلك الوِقْفَات لما وسعتنا هذه الصَّفحات، ويكفي أبا عُبيدة فخراً ما قاله عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو أدركتُ أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته، فسألني عنه ربِّي لقلتُ: سمعتُ نبيك يقول: «هو أمين هذه الأمّة»[2].

نَـفَـائِسُ منْ عُيـونِ أقْـوالِـهِ:

* أبو عُبيدة واحدٌ ممَّنْ حَفِظَ القُرآن الكريم، ووعى الحديث الشَّريف، ولذلك أثِرتْ عنه كلماتٌ مضيئات، تعتبرُ من أجملِ آثار الأقوال وأنصعها في تاريخِ البلاغة، والفَصاحة، بل ومعاني الأدب، ومجاني الآداب.

* ولنستمع إليه عندما كان يسيرُ في العَسْكر فيقول: ألاَ رُبَّ مُبيِّضٍ لثيابه، مُدنِّس لدِيْنه؟ ألا ربَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين؟ بادروا السَّيئات القديمات بالحَسَنات الحديثات، فلو أنَّ أحدكم عمل من السَّيئات ما بينه وبين السَّماء، ثمَّ عمل حسنة لعَلَتْ فوق سيئاته حتى تقهرهن[3].

* هذه الحكمة النَّفيسة كأنَّها مقتبسة من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وكذلك لها صدى في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٢٧٢) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٧) وقد علَّقَ الإمام الذّهبي ـ رحمه الله ـ على هذه القصّة بقوله: وهذا والله هو الزّهد الخالص، لا زهد مَنْ كانَ فقيراً معدماً.

قلتُ: إن الزاهدين ـ وفق زهد أبي عبيدة ـ قليلون، فرحم الله الزاهدين، وجَعَلنا نقتدي بهم، ونسأله عزَّ وجلَّ ألا يجعل حب الدنيا في قلوبنا، فإنه إذا استولى أسَر، أعاذنا الله من فتنة الدنيا، ومن المفتونين بمتاعها الزائل.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٣).

(٣) المعرفة والتاريخ (٢/ ٤٢٧ و٤٢٨) وحلية الأولياء (١/ ١٠٢).

المَحَاسِنُ المتجـدِّدَةُ علـى الـدوام:

* ظلَّ أبو عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ فارساً لمحاسنِ المكارم في جميعِ أطوار حياته، وظلَّتْ أحاديثُ رسولِ الله ﷺ في وجدانه يرويها للنَّاس، حتى وهو في أشدِّ حالات المرض والمعاناة، فقد دخل عليه أصحابه يعودونه، ولما سألوه عنْ حالهِ، عرَّفهم أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أنفقَ نفقةً في سبيلِ الله فبسبعمئة، ومن أنفقَ على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً، أو ما زادَ فالحسنةُ بعشْرِ أمثالها، والصَّومُ جُنَّة ما لم يخرقها، ومنِ ابتلاهُ الله ببلاءٍ في جَسده فهو له حِطَّة»[1].

* هذا؛ وفي سنةِ ثماني عشرة من الهجرة أُصيب أبو عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ بالطَّاعون ـ طاعونِ عمواس[2] ـ وشعر باقتراب اللِّقاء معَ الله عزَّ وجلَّ، وأحسَّ بالرِّحلة الأخيرة إلى الأحبَّة: محمد ﷺ وصحبه، وصبر على الاقتصار على القليل، إلى أن حان منه النقلة والرحيل.

* وحَضَرَهُ ثلَّةٌ منَ المسلمين، فألقى عليهم وصيَّةً كريمةً لطيفة تشيرُ إلى منابعِ الخير والصَّلاح في شخصيته، فاسمع إلى وصيَّته التي تجمعُ أطرافَ الخيرِ والفَضْل فيقول: إنِّي موصيكم بوصية، إنْ قبلتموها لن تزالوا بخيرٍ، أقيموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدَّقوا، وحجُّوا، واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشّوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإنَّ امرأً لو عُمِّر ألف حول، ما كان له بدٌّ من أنْ يصيرَ إلى مصرعي هذا الذي تَروْن؛ إنَّ الله كَتَبَ الموتَ على بني آدم فهم ميِّتون، وأكْيَسهم أطوعهم لربِّه، وأعملهم ليوم معادِه، والسَّلام عليكم ورحمة الله، يا معاذ بن جبل! صَلِّ بالنَّاس. ومات.

---

(١) المستدرك على الصَّحيحين (٣/ ٢٩٧) وأحمد (١/ ١٩٥).
«الصوم جُنَّة»: أي: وقاية من الشهوات.

(٢) «عمواس»: قرية بالشام بين الرملة وبيت المقدس، ونُسب الطاعون إليها لأنه بدأ منها، وقيل: لأنه عمَّ الناس وتواسوا فيه.

فقام معاذُ ـ رضي الله عنه ـ في النَّاس فقال: يا أيُّها النَّاس! توبُوا إلى اللهِ مِنْ ذنوبكم توبةً نصوُحاً، فإنَّ عبداً لا يلقى الله تائباً منْ ذَنْبِه إلا كان حَقّاً على الله أنْ يغفرَ له، ومَنْ كان عليه دَيْن فليقضه، فإنَّ العبدَ مرتهن بدَيْنِهِ، ومَنْ أصبحَ منكم مهاجراً أخاه فليأته فليصالحه، ولا ينبغي لمسلم أنْ يهجرَ أخاه أكثر منْ ثلاثٍ، وهو الذَّنب العظيم.. ثم قال: ترحَّموا عليه، واحضروا الصَّلاة عليه، وكانت وفاةُ أبي عُبيدة في سنة ثماني عشرة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة. هذا؛ وقد شيَّعه عدد من كبار الصحابة يومذاك، وصلى عليه معاذ بن جبل، ونزل في قبره هو وعمرو بن العاص؛ والضحاك بن قيس. وختم الله عزَّ وجلَّ لأبي عبيدة بالشَّهادة، فإنّه توفي بالطَّاعون، وهو شهادة لكلِّ مُسْلم.

قال النَّوويُّ[1] ـ رحمه الله ـ: وقبرُ أبي عُبيدة بغورِ بيسَان ـ بالأردن ـ عند قرية تُسمى «عَمتا».

* وبعد؛ فهذه شذراتٌ ذهبيّة، وأخبارٌ وضيئة، منْ سيرةِ أبي عُبيدة بن الجرّاح أحد فرسان الرَّسول ﷺ، أولئك الذين كانوا زهرةَ الأنام، وبهجةَ الأيَّام، وسموا منَ المعالي إلى أعلى مقام، وبنُوا منْ جميلِ الذِّكرِ ما خلدته في الصُّحف الأقلام، على مرِّ الدُّهور وتكرار الأيام، فهم كما قال أبو العلاء المعريّ:

جمال ذي الأرضِ كانوا في الحياةِ وهم ... بعدَ الممات جمال الكتبِ والسِّيَرِ

ورحم الله مَنْ قال:

قومٌ محاسنُ جودِهم مبثوثةٌ ... يبلى الزَّمان وذِكْرها يتجدَّد

* رضي الله عن أبي عُبيدة الأمين، وجعله في مقامٍ أمين، فقد كان نِعم الرجل في فروسيته، وزهده، وحِكَمه، وحياته الأنموذج الأكمل لمن اعتبر، وسار وفق خطوات الصراط المستقيم.

* * *

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٢٥٩).

الباب الثاني

فرسان الأنصار

(١)

البَرَاءُ بنُ عَازِبٍ

ـ رضي الله عنه ـ

* شهدَ مع النَّبيِّ ﷺ خمْسَ عشرة غزوة؛ أوّلها غزاة الخندق، وبايع بيعةَ الرضوان.

Scanned by CamScanner

فارسٌ عَالِمٌ وفَقِيهٌ فَاتحٌ:

* دَرَجَ في مدرسةِ الإيمان العامرة منذ نعومةِ أظفاره، وفتحَ عينيه على حبِّ قراءة القُرآن الكريم والعمل بأحكامه، فاهتدى إلى صراطِ العزيز الحميدِ، وهو لا يزالُ طفلاً غضَّ الإهاب طريَّ العُود، أسلم وأحبَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ، مِنْ قبل أنْ يَرَاه، وعكفَ بدأب وجِدّ على حفْظ سُوَرَ من القُرآن الكريم، ولمّا تكتحلْ عيناهُ برؤيةِ رسولِ الله ﷺ في بلدهِ المدينة المنورة عرين الأنصار، وبلد الأطهار.

* يروي لنا هذا الفارسُ المغوار ذكرياته العَطِرة الآسِرة عن حفْظِهِ لبعضِ سُوَر القُرآن فيقول: ما قَدِمَ علينا رسولُ الله ﷺ حتى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُوَر من المفصَّل[1].

* منْ بينِ فرسان الأنصار قاطبة يبدو لنا هذا الفتى الشهم؛ الذي غدا أحدَ فرسان الرَّسول ﷺ الأشاوس؛ الذين فتحوا البلاد، ودعوا إلى الإسلام العباد، وشهدوا مَجْدَ الإسلام، وتغلغله في النفوس في الشرق والغرب.

* والآن ما رأيكم أنْ ندخلَ رحابَ هذا الفارسِ العَالِم الفقيه الفاتح؟!

إنَّه البَراء بنُ عازب بنِ الحارث[2] أبو عمارة الحارثي الأنصاريّ المدنيّ، الفقيه الكبير، نزيل الكوفة، من أعيان الصَّحابة الكرام وفرسانهم الشجعان وعلمائهم الجهابذة، وهو صحابي بنُ صحابي، وأحد التُّجار الأَبْرار[3]

---

(1) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٨).

(2) طبقاتُ ابن سعد (٤/ ٣٦٤ ـ ٣٦٨) والمحبّر (ص ٢٩٨ و٤١٢) والمعارفُ (ص ٣٢٦) والاستيعابُ (١/ ٤٣ ـ ٤٥) وتاريخُ بغداد (١/ ١٧٧) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٣٢) والعبر (١/ ٧٩) وسيرُ أعلام النبلاء (٣/ ١٩٤ ـ ١٩٦) والبدايةُ والنهاية (٨/ ٣٢٨) ومجمعُ الزوائد (٩/ ٣٨١) وتهذيبُ التهذيب (١/ ٤٢٥) والإصابةُ (١/ ١٤٦ و١٤٧) وغيرها من المصادر.

(3) أشارت كتبُ الحديث إلى أنَّ البراء بن عازب، كانَ يعملُ في تجارةِ الصَّرف، فكان صيرفياً صاحبَ نَقْد؛ والصَّرف: هو بيعُ الذَّهب بالفضة، يدلُّ على ذلك ما وَرَدَ في صحيح البخاري عن أبي المنهال قال: سألتُ البراءَ بن عازب وزيدَ بنَ أرقم عن =

منَ الصَّحابة الكرام.

طَرائفُ مِنْ غَزَاةِ أُحُد:

* كانَ البَراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ لا يزالُ في عمر الوَرْد، وميعة الصبا؛ عندما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مُهاجراً إلى المدينة المنورة، وجاءت غزاةُ بَدْرٍ الكبرى، وسارعَ البراء ليشهدها مع الأبطال المجاهدين، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ لم يسمحْ له بشهودها حيثُ استصغرَ سِنَّه، فردَّهُ مع ثُلَّةٍ منْ فتيانٍ صغارٍ حرصوا على ابتغاءِ مرضاةِ الله ورضوانه، وفي هذا قال البراء: استصغرني رسولُ الله ﷺ أنا وابن عمر، فردَّنا يوم بدر.

* ومضى عامٌ، وجاءت غزاةُ أحد، ولكنَّ عودَ البَراءِ بنِ عازب لم يشتدَّ بعد، ولم يَقْوَ ساعدُه، وعلى الرّغم مِنْ هذا، فإنَّه خرج مع جنودِ الرحمن المغاوير بقيادة رسولِ الله ﷺ إلى ساحة أُحُد ليشهد الغزو والفروسيّة والجهاد.

* وصلَ رسولُ الله ﷺ مشارفَ أُحُد، ومعه أصحابه المخلصين الذين خرجوا ابتغاء إحدى الحُسْنَيَيْن، وتراءى الجمعان، وأخذَ رسولُ الله ﷺ في تعبئة المسلمين وتسويةِ صفوفهم القتالية، وهنالك رأى في الجيشِ عدداً من الشَّباب الذين لم يبلغوا سِنَّ الفروسيّة والجهاد، والصَّبر على عضِّ السّيوف، وطعنِ الرِّماح، ورمي النَّبل.

* وردَّ النَّبيُّ ﷺ سبعة عشر شاباً كانوا في حدودِ الرَّابعة عشرة سنة رحمةً بهم، وإشفاقاً عليهم، فلمّا استدار بهمُ الزَّمان أجازهم في العام المقبل، وكان هؤلاء الشَّباب في جمهرتهم نخبة ممتازة مختارة ممّن حَمَلوا في مستقبل حياتهم لواء العِلْم، وراية الفروسية لإعلاء كلمةِ الله تعالى، وكتابةِ الوحي ورسائلِ رسول الله ﷺ إلى الملوكِ والأمراء، والرِّواية كذلك عن النَّبيِّ ﷺ،

= الصَّرف فقالا: كنّا تاجرَيْن على عَهْد رسولِ الله ﷺ، فسألنا رسول الله ﷺ عن الصَّرف، فقال: «إنْ كان يداً بيَدٍ فلا بأس، وإن كان نسيئاً فلا يصلح». رواه البخاري (٢٠٦٠ و٢٠٦١) في كتاب البيوعِ، باب: التجارة في البَرِّ.

وعن أكابرِ أصحابه، خدمة للدِّيْن، وصَوْناً للسنة، وإبلاغاً للعلم.

* كان في مقدمةِ هؤلاء الأشبال الفرسان الشُّجعان الطَّامعين في الجهاد، والطامحين للاستشهاد في سبيل الله، ثلّة من خُلّصِ الصَّحابة الكرام وأولادهم الفتيان منهم: عرابةُ بنُ أوس[1] وأسامةُ بن زيد الحِبُّ بن الحِبِّ، وعبدُ الله ابن عمر، وزيدُ بن ثابت، وفارسنا المقدام البراءُ بن عازب، وزيدُ بنُ أرقم، ورافعُ بن خديج، وأوسُ بنُ ثابت الأنصاريّ، وسمرةُ بن جندب، وغيرهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ.

* ومِنَ الطَّريف والشَّائق في قصَّةِ هؤلاء الفرسان الأشبال، أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أجازَ رافعَ بنَ خديج بعد أنْ رَدَّ أقرانه المساوين له، أو القريبين من سِنِّهِ؛ إذ قيل له ﷺ: إنَّ رافعاً يُحْسِنُ الرَّمْي.

وبلغَ ذلك الفارس الشّبل سمرة بن جندب، فراحَ إلى زوج أمّه مرّيّ بنِ سنان بنِ ثعلبة ـ عمّ أبي سعيد الخدريّ، وهو الذي ربّى سمرة في حجره ـ يبكي، وقال له:

يا أبتِ أجازَ رسولُ الله ﷺ رافعاً، وردَّني، وأنا أصرعُ رافعاً! ورَفَع زوج أمِّهِ ذلك إلى القائد الأعلى للجيش الإسلامي سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ إلى رافع وسمرة، وأمرهما أنْ يتصارعا، وصَرَع سمرةُ رافعاً[2]، وعندئذ أجازَ رافعاً، وجعلهما مِنْ جنده وفرسانه وعَسْكَرِ كَتَائبه،

---

(1) هو عرابةُ بنُ أوس بنِ قيظي الحارثي، كان مِنَ الشّباب الذين استصغرهم ﷺ يوم أُحُد، حيث كان عمره أربع عشرة سنة وخمسة أشهر. وكان عرابة مِنَ الكرماء المشهورين، وهو الذي مدحه الشّماخ بن ضرار الشّاعر المشهور ـ وكان قدم المدينة ـ فأوقر راحلته تمراً، فقال:

رأيتُ عرابةَ الأوسي ينمي ... إلى الخيراتِ منقطع القرين
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ ... تلقّاها عرابةُ باليمين

(2) إن هذا الإقدام على حب الجهاد من قبل شبابٍ صغار، يومىء إلى الإيمان العظيم الذي تحلّى به المسلمون الأوائل، فاستحوذ على قلوبهم، فحيثما ظهر الإيمان وُجد الجهاد، وبدا نجم الإقدام والاستبسال وقّاداً متوهّجاً، وحيثما ضعف الإيمان انقلب=

ولكلٍ منهما مجاله واختصاصه الذي أبدعَ فيه، والذي لا تستغني عنه وقائع الحرب، ومتطلّبات القِتَال والفروسية[1].

غَزَوَاتُ البَراءِ الكثيرة وفروسيّتُه النادرة:

* شهِدَ البراءُ بنُ عازب ـ رضوان الله عليه ـ عَدَداً من الغزواتِ والمشاهد في معيَّةِ رسولِ الله ﷺ، فقد أخرجَ ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده إلى البراء بن عازب أنّه قال: غزوتُ مع رسولِ الله ﷺ خمس عشرة غزوة[2].

* وسنشهدُ مع البَراء بن عازب أُوْلى غزواته، وهي غزاة الخندق، إذ أُجيز

= الإقدامُ إحجاماً، والاستبسالُ كسلاً وتقاعساً وتثاقلاً إلى الأرض.

(١) يُلاحظ منْ تصرّف رسولِ الله ﷺ هنا جانباً طريفاً في تربية الشّباب والنّاشئة، حيثُ أجاز ﷺ رافعاً دون أقرانه في السّنّ، وذلك لامتيازٍ حربيّ امتازَ به على غيره منهم، وإنّما رَدَّ ﷺ مَنْ ردَّهم خشية ألا يكون لهم صَبْرٌ أو جلد على عَضّ السّيوف إذا حمي الوطيسُ، أو على وقع السّهام، ووخز الأسنّة والرّماح، فيفروا منَ المعركة إذا مسّهم لفح أوارها، وعند إذ يُحدِثُ فرارهم خلخلةً في صفوفِ المسلمين، فلمّا قيل لرسول الله ﷺ: إنَّ رافعاً يُحسنُ الرّمي ـ والرمي هو رأسُ القوّة في الحرب، وبه فسّرَ رسولُ الله ﷺ القوة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقال وهو على المنبر: «إلا إنَّ القوة الرمي» ثلاث مرات ـ قبل رافعاً وأجازه؛ لأنّه بإحسانه الرمي يؤدي للجيش منَ الأعمال الحربية ما لايستطيع أنْ يؤدّيه ذوو الأسنان العالية؛ لأنَّ الرّمي لا يتطلب علواً في السّنّ، لكنّه يتطلبُ علماً، ومعرفةً، ودربةً، وسواعدَ قوية.

بيْد أنَّ حميةَ الشّباب، والغَيْرة على مواقفِ البطولة والفروسيّة في ظل الإيمان، بعثتْ في نفس سمرة بن جندب حماسةً عارمةً، فَرُفِع أمره إلى رسولِ الله ﷺ بأنّه أوفى قوّة بدنية، ودربةً في المصارعة يستطيع بها أنْ يصرعَ رافعاً، وهذا امتياز تتطلبه الحرب، لا ينزلُ في ميدان المعارك عن مستوى إحسان رافع للرمي.

وأرادَ رسولُ الله ﷺ وهو القائدُ الأعظمُ، وهو المعلّم المربي، أنْ يُريَ أصحابه وفرسانه درساً عملياً في تربية الشّباب؛ ليكون منهجاً لهم في تربية أولادهم لينهضوا في حياتهم أقوياء، ويفيدوا المجتمع فيما يعود به إلى النّجاح والفلاح.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٨) وسير أعلام النُّبلاء (٣/ ١٩٥) والإصابة (١/ ١٤٧) وصحيح البخاري حديث رقم (٤٤٧٢).

يومها ليكونَ منْ فرسانِ الرَّسول ﷺ ممن كُتبت لهُم السَّعادة في سفرِ الخلود.

* ففي غَزَاةِ الخندق[1]، خرجَ المسلمون وهم يُعْلِنون بالتَّحميد والتكبير، على الرغمِ مِنْ أنَّ حَفْرَ الخندق اقترنَ بصعوباتٍ جمّة، فقد أشارتِ المصادرُ الحديثية، وكُتُب السِّيرة والتَّراجم، أنَّ الجوَّ كان بارداً؛ والطَّقس مضطرباً، والرِّيح شديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوفِ من قدوم الأحزاب التي قدمتْ من كلِّ حدبٍ وصوب، تريدُ أنْ تقتحمَ المدينة المنورة.

* أخذَ المسلمونَ يحفرونَ الخندق، وأخذَ رسولُ الله ﷺ يُعَطِّرُ ذلك الجوَّ الذي يملؤه الرُّعب والمشقّة بشيءٍ من المَرحِ البريء.

* يروي لنا جانباً منْ وقائع حَفْر الخندق البراء بن عازب، ومشاركة رسول الله ﷺ أصحابه في ذلك فيقول: لمّا كان يومُ الأحزاب، وخَندقَ رسولُ الله ﷺ، رأيته ينقل منْ تراب الخندق حتى وارى عنّي التّراب جِلْدَة بطنه، وكان كثيرَ الشَّعر[2].

* ويتابعُ البراء نَقْلَ صورة العمل في الخندق فيقول: سمعتُه ـ ﷺ ـ يرتجزُ بكلماتِ ابن رواحة[3] وهو ينقلُ منَ التُّراب، يقول:

اللهم لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا

---

(1) وتُسمَّى: غزوة الأحزاب، وقد كانت في شوال سنة خمس على ما جزم به جمهورُ علماء السيرة.
وهي أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يُحفر فيها خنادق.

(2) رواه البخاري في المغازي برقم (٤١٠٦) ومسلم في الجهاد والسير برقم (١٨٠٣).
وإن مشاركته ﷺ المسلمين في حفر الخندق ليشير إلى أن العدالة والمساواة بين المسلمين ليس شعاراً يُرفع، ولا إطاراً لامعاً يبرق، لكنه أساس واقعي تنبثق منه القيم والمبادىء الإسلامية.
فانخراطُه ﷺ في العمل تعني المساواة بين الحاكم والمحكوم، انطلاقاً من العبودية لله تعالى، فلا امتيازات في الإسلام لأحد دون أحد؛ لأن صفة العبودية تلغي كلَّ ذلك من الاعتبار، وتزيله نهائياً.

(3) هو عبد الله بن رواحة الأنصاري، أحد شعراء الرسول ﷺ.

إنَّ الألى هم قد بَغَوا علينا وإنْ أرادوا فتنةً أبينا

قال: ثم يمدُّ صوته بآخرها[١].

* وتابعَ المسلمون، وفرسانُ الصَّحابة حَفْرَ الخندقِ، فاعترضتهم صخرة شديدة القسوة، لا تعمل فيها المعاول، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ فتَّتَ تلك الصَّخرة.

* روى البَراء بنُ عازب ـ رضي الله عنه ـ خبر ذلك فقال: أَمَرَنَا رسول الله ﷺ أنْ نحفرَ الخندقَ، فعرضَ لنا حجرٌ لا يأخذ فيه المعول، فاشتكينا ذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فألقى ثوبه، وأخذَ المعول، وقال: «باسم الله» فضربَ ضربةً فكسرَ ثلثَ الصَّخرة، فقال: «الله أكبر، أُعطيتُ مفتاح الشَّام، والله إنِّي لأبصرُ قصورها الحُمْرَ الآن مكاني هذا» ثمَّ ضرب أخرى وقال: «باسم الله» وكسر ثلثاً آخر وقال: «باسم الله» فقطع الحجر، وقال: «اللهُ أكبر أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن، والله! إنِّي لأبصر باب صنعاء»[٢].

* قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: وأقبل فوارسُ منْ قريش تضيقُ بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندقِ، فلمَّا رأوه قالوا: واللهِ! إن هذه مكيدة ما كانتِ العربُ تكيدها.

* وكان سلمان الفارسيّ قد أشار على رسولِ الله ﷺ بحفره، وبهذا يكونُ الرَّسول ﷺ أوّل مَنْ ضربَ الخندق في الإسلامِ على المدينة[٣].

* ثمَّ إنَّ الله عزَّ وجلَّ هزمَ الأحزاب وحده، وردَّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وعادوا إلى المدينةِ يُهلِّلون، ويحمدون اللهَ على النَّصر المبين.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤١٠٦) ومسلم برقم (١٨٠٣).
(٢) انظر: مختصر تخريج الدلالات السمعية (ص ٢٢٨) والحديث أخرجه النسائي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ.
(٣) مختصر تخريج الدلالات السمعية (ص ٢٢٩).

البَراءُ يبايع تَحتَ الشَّجَرَة:

* في بيعةِ الرِّضوان كان البراء بنُ عازب ـ رضوان الله عليه ـ فيمن شمله رضوان الله، حيثُ دعا رسول الله ﷺ إلى البيعةِ، فكانت بيعة الرِّضوان[1] تحت الشَّجرة[2].

* قال الإمامُ البخاريّ ـ رحمه الله ـ مبيناً سببَ هذه البيعة من حديثٍ نقتطف منه هذه الفِقْرة الكاشفة: . . . وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهبَ عثمان إلى مكةَ، فقال النَّبيُّ ﷺ بيده اليمنى: «هذه يدُ عثمان» فضربَ بها على يدهِ فقال: «هذه لعثمان، اذهبْ بهذا الآن معك»[3].

* ونزل قول الله عزَّ وجلَّ مباركاً هذه البيعة المباركة فقال:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ولمَّا علمتْ قُريش بنبأ هذه البيعة العظيمة، أطلقتْ عثمان ـ وكانت قد حَبَسَتْه ـ فعادَ إلى رسولِ الله ﷺ.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ١٣٥).

(٢) الشَّجرة المذكورة هنا مكانها في الحديبية، وكانت سَمُرة، وهي على ستة أميال من المدينة، وكان رسولُ الله ﷺ، إذا خرج إلى مكةَ ينزلُ عندها، ويحرم منها، وقد بلغ سيّدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّاس يكثرونَ قصدها وزيارتها، فخشي أن تعبد كما عُبدت اللات والعزَّى، فأمر بقطعها، فأصبح النَّاس، فلم يروا لها أثراً (معجم البلدان ٣/ ٣٢٥).

(٣) الحديثُ أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المغازي برقم (٤٠٦٦) باب: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وأخرجه في كتاب فرض الخمس برقم (٣١٣٠) وأخرجه في كتاب فضائل الصَّحابة برقم (٣٦٩٨) وفي كتاب التّفسير برقم (٤٥١٥) وكذلك برقم (٤٦٥٠) وفي كتاب الفتن برقم (٧٠٩٥). وأخرجه التّرمذي كذلك في كتاب المناقب برقم (٣٧٠٧).

وأودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى أنَّ سيدنا عثمان يُعدُّ منْ أهل بيعةِ الرِّضوان، ويستوي مع أصحاب الشَّجرة في الخيرية، إذ لم يُقصد تفضيل بعضهم على بعض.

وداخَلَ الرُّعبُ قريشاً حينما رأوا سرعة مبايعة الصَّحابة الكرام لقائدهم الأعلى نبيِّهم رسول الله ﷺ على الحرب، والصَّبر على عضِّ السُّيوف، بل على الموتِ في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ هنالك دعوا إلى الموادعةِ والصُّلح، وكان البراء ـ رضي الله عنه ـ ممن شهد يوم الحديبية، ونقل لنا صورة المفاوضة بين الطَّرفين، وقصَّ علينا القَصَصَ في شَأْنِ الصُّلح يوم إذ.

* أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال: لمّا صَالحَ رسولُ الله ﷺ أهل الحديبية، كَتَبَ عليُّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ بينهم كتاباً، فكتبَ محمَّد رسول الله. فقال المشركون: لا تكتب محمّد رسول الله ﷺ، لو كنتَ رسولاً لم نقاتلك.

فقال لعليّ: «امْحُه».

فقال عليّ: ما أنا بالذي أمحوه.

فمحاه رسولُ الله ﷺ بيده، وصالحهم على أنْ يدخلَ هو وأصحابه ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجُلُبَّان[1] السِّلاح. فسألوه: ما جلبان السِّلاح؟

قال: «القراب بما فيه»[2].

* ولما فرغَ رسول الله ﷺ من أمْرِ كتابة الصُّلح رجع إلى المدينة المنوّرة، ورجع معه أصحابه، وبينهم البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ ونزلت سورة الفتح، وكان صلح الحديبية ـ في الحقيقة ـ هو فتحُ الفتوح كما أبانَ ذلك البراء ـ رضي الله عنه ـ فيما أخرجه البخاريُّ بسنده عنه قال: تعدُّون أنتمُ

---

(١) «الجُلبان»: شبه الجراب، يُتَّخذ من الجلد، يوضع فيه السَّيف مغموداً، ويطرحُ فيه الراكب سوطه، وأداته، ويعلقه في آخر الكور أو واسطته، وهو مشتقٌ منَ الجلبة، وهي الجلدة التي تجعل على القتب (لسان العرب).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصّلح برقم (٢٦٩٨) ومسلم في الجهاد والسِّير برقم (١٧٨٣). وزاد مسلم في روايته لهذا الكتاب شرطاً آخر فقال: . . . فاشترطوا على النَّبيِّ ﷺ أنَّ مَنْ جاءَ منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منّا رددتموه علينا، فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: «نعم إنَّه مَنْ ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومَنْ جاءنا منهم سيجعل له فرجاً ومخرجاً» انظر: صحيح ومسلم برقم (١٧٨٤).

الفَتْح، فتح مكة، وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً، ونحنُ نعدُّ الفَتْح بيعة الرّضوان يوم الحديبية[1].

* وما أجمل ما وَرَدَ في هذا المجالِ عن أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - حيث قال: ما كان فتح في الإسلام أعظم منْ فَتْح الحُديبية، ولكنَّ النّاس قَصُرَ رأيهم عمّا كان بين محمّد وربّه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلةِ العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

* وقد ذكر ابنُ إسحاق في المغازي عن الزُّهري قال:

لم يكنْ في الإسلام فتحٌ قبل فَتْح الحديبية أعظم منه، إنّما كان الكفر حيثُ القتال، فلمّا أَمِنَ النّاس كلّهم، كلّم بعضهم بعضاً، وتفاوضوا في الحديثِ والمنازعة، ولم يكن أَحَدٌ في الإسلام يعقلُ شيئاً إلا بَادَر إلى الدُّخول فيه، فلقد دَخَلَ في تلك السَّنتين مثل مَنْ كان دَخَلَ في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

* قال ابنُ هشام: ويدلُّ عليه أنَّه ﷺ خرج من الحديبية في ألف وأربعمئة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتحِ مكةَ في عشرة آلاف.

* وبهذا الفَتْح، حَظِيَ الشَّجريون - رضي الله عنهم - بثناءٍ عطر من

---

(1) فتح الباري (٥٠٥/٧) حديث رقم (٤١٥٠) والمراد بقوله: نعدُّ الفتحَ بيعة الرّضوان، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] فالمرادُ هنا بالفتح: الحديبية لأنّها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصُّلح الذي وقع منه الأمن، ورفع الحرب، وتمكن مَنْ يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة مِنْ ذلك، كما وقع لخالدِ بنِ الوليد وعمرو بنِ العاص وغيرهما، ثمَّ تبعتِ الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح، كذلك مِنَ الحِكَم الجليلة في صلح الحديبية: إبرازُ الفرق بين وحي النبوة وتدبير الفكر البشري، وفي ذلك دليلٌ على نبوته ﷺ، فقد تضايق المسلمون من شروط الصلح، ثم ظهر لهم بَعْدُ خيرَه وعمق تفكيره ﷺ، فصحا الصحابة على مزيدٍ من الإيمان بالحكمة الإلهية ونبوة محمد ﷺ.

رسولِ الله ﷺ بقوله: «أنتم خير أهل الأرض»[1] فكان البراء مِنَ الخيِّرين الأخيار.

البَـراءُ ومشَـاهدُ فروسيـة أُخـرَى:

* تابعَ البراءُ بنُ عازب ـ رضوان الله عليه ـ رحلةَ الفروسيَّة في معيَّة رسولِ الله ﷺ، فقد حَضَر المشاهد كلَّها بعد أُحُد، وشهدَ فتح مكةَ وغزاةَ حنين، ثمَّ نَدَبَهُ رسولُ الله ﷺ ليكون داعياً إلى اللهِ تعالى، فأرسله مع خالد بن الوليد[2] ـ رضي الله عنه ـ إلى اليَمنِ لِيدعو إلى الإسلام، فأقامَ بينهم ستة أشهر، وهو يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وهم لايجيبونه إلى شيءٍ، ثمَّ بعثَ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ مكانه، وأقامَ مع سيِّدنا عليّ ـ رضي الله عنهما ـ وحَصَل على مَغْنَم.

* حدَّث البراء ـ رضي الله عنه ـ عن هذه البعثةِ الكريمة فيما أخرجه البخاريُّ بسنده عنه فقال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمنِ، ثمَّ بعثَ علياً بعد ذلك مكانه، فقال: «مُرْ أصحابَ خالد مَنْ شاء منهم أنْ يُعَقِّب معك فليعقِّبْ، ومَنْ شاء فَلْيُقْبِل» فكنتُ فيمن عقَّب معه، فغنمتُ أواقيَّ ذوات عدد[3].

* أقام البراء مع سيِّدنا عليّ ـ رضي الله عنهما ـ حِيناً من الدَّهر، وأسلمتْ همدانُ جميعاً، فكَتَب عليٌّ إلى رسولِ الله ﷺ بإسلامهم، فلمَّا قرأ الكتاب خرَّ ساجداً، ثمَّ رفع رأسه، وقال: «السَّلام على همدان».

* انتهت مهمَّة البَراء بن عازب والدُّعاة ـ رضوان الله عليهم ـ فقدموا منَ

---

(1) فتح الباري (٧/ ٥٠٧) حديث رقم (٤١٥٤).
(2) اقرأ سيرة سيدنا خالد في فرسان هذا الكتاب ص (٨٢) ففيه جليل الفائدة إن شاء الله.
(3) فتح الباري (٧/ ٦٦٣) حديث رقم (٤٣٤٩).
«يعقِّب»: يرجع. قال ابن حجر: وأصل التعقيب: أن الخليفة يرسل العسكر إلى جهةٍ مُدَّةً، فإذا أنهضت رجعوا، وأرسل غيرهم، فمن شاء أن يرجع من العسكر الأول إلى العسكر الثاني، سُمِّي رجُوعه تعقيباً.

اليمن، فصادفوا رسولَ الله ﷺ خارجاً إلى حجَّة الوَداع، فساروا في ركابه الكريم، وحظوا بمعيَّته الشَّريفة في أداءِ فريضة الحج، وظلَّ البراء من فرسان رسولِ الله ﷺ الأبرار الذين كان راضياً عنهم.

البَراءُ وقُطُوفٌ عِلْمِيَّةٌ دانيـة:

* الصحابّي البراءُ بنُ عازب ـ رضوان الله عليه ـ واحدٌ منَ الفُرسان العُلماء الذين أفادوا عِلماً كثيراً طيِّباً مباركاً منْ ثمار الصُّحبة النَّبويَّة الزَّاكية، فقد روى له عنْ رسولِ الله ﷺ حديثاً كثيراً، وهو أحدُ الذين بلغتْ مروياتهم المئات، حيثُ رُوي له عن النَّبيِّ ﷺ (٣١٥ حديثاً) اتّفق البخاري ومسلم على اثنين وعشرين منها، وانفرد البخاريّ بخمسة عشر، ومسلم بستة[(١)].

* حدّثَ عن البراء طائفةٌ من الأكابر منهم: عبدُ الله بن يزيد الخطمي، وأبو جُحيفة السُّوائي الصَّحابيان. ومنَ التَّابعين: الشَّعبيّ، وعدي بن ثابت، وابن أبي ليلى، وأبو إسحاق السَّبيعيّ، وطائفة سواهم[(٢)].

البَـراءُ وَرِحلـةُ الفُـتُوحَاتِ الإسلاميـة المَيْـمُونَـةِ:

* عاشَ البراءُ ـ رضي الله عنه ـ في ظلالِ الخلافةِ الرَّاشدة، وهو يحظى باحترامِ الصَّحابة الكرام، وباهتمامِ الخلفاء الرَّاشدين الأكارم ـ رضي الله عنهم ـ.

* هذا؛ وقد تابعَ البراءُ تسجيلَ العَظَائم[(٣)] في سجلِّ المكرمات، ففي خلافة ذي النُّورين[(٤)] عثمان ـ رضي الله عنه ـ فَتَح البراء مدينة الرَّي[(٥)]، وذلك

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٢).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٢) وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥) والإصابة (١/ ١٤٧).

(٣) «العظائم»: جمع العَظيمة، وهي الأمر المهمّ.

(٤) سُمّي عثمان بن عفان بذي النورين لأنه تزوج بابنتي رسول الله ﷺ: رقية وأم كلثوم.

(٥) قال ياقوتُ الحموي ـ رحمه الله ـ: الرّي مدينة مشهورة من أمّات البلاد وأعلام المدن.
وقال النّووي ـ رحمه الله ـ في تهذيبه: هي مدينة كبيرةٌ منْ مدنِ الجبال، ويُنسب =

في السَّنة الرَّابعة والعشرين من الهجرة صلحاً أو عَنوة[1].

* ولما كان البَراء والياً على الرَّي، سارَ مِنْ هنالك إلى بلدة أَبْهر[2]، وافتتحها، وتقع أَبْهر غربي قزوين، ثمَّ رحل عن أبهر إلى قزوين[3]، وافتتحها أيضاً، واعتنق أهلها دِيْن الإسلام حينما رأوا سماحة هؤلاء الفَاتحين وقائدهم البراء بن عازب؛ الذي تخلَّق بأخلاقِ الرَّسول العظيم ﷺ، فَنِعْمَ الخُلق ذاك!!.

* وبعد ذلك غزا البَراء الدَّيلم حتى أدّوا إليه الإتاوة[4]، وغزا جيلان والببر والطَّيلسان، ثمَّ انتقل إلى مدينة زَنْجَانَ فافتتحها عَنوة[5]، وكُتِبَ له النَّصر في سجلِّ الفاتحين من فرسانِ الرَّسول ﷺ.

* عُرِفَ البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ في جهاده بتحمُّل المصَاعب والمتاعب، والصَّبر على المكاره والشدائد، وكان هدفه إعلاء كلمة الله تعالى خفاقة في الأمصار والأصقاع، وتأديب أعداء الله مِنْ شراذم الأمم الأخرى التي استحكم العداء في قلوبها، لذلك كان يُسارع إلى ساحات الجهاد إذا ما دعا داعي الجهاد، ولا يسأل أوقعَ على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليه[6]،

= إليها رازي، وهو من شواذ النَّسب.

(١) انظر: مختصر تخريج الدلالات السمعية (ص ٣٢٩).

(٢) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص٣٩٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «الإتاوة»: الجِزْية.

(٥) فتوح البلدان (ص٣٣٥).

(٦) مما يشير إلى شجاعةِ البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ وإقدامه وبيعه نفسه في سبيل الفوز بمرضاة الله عزَّ وجلَّ، وفقهه، وحسن فهمه للقرآن الكريم، ما أورده الإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ رحمه الله ـ في كتابه «السير الكبير» من أن رجلاً سأل البراءَ بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن التَّهلكة أهو الرجل إذا ما التقى الجمعان حمل فقاتل حتى يُقتل، فقال: لا، ولكنَّه الرجل يُذنب ثمَّ لا يتوب، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. =

كيما يفوز بمرضاة الله عزَّ وجلَّ. وفي البراء يقولُ أحد فرسان المجاهدين الأبرار:

قـد عَلِـم الـديلـم إذ تحـارب لما أتـى فـي جيشِـه ابـن عـازب
بـأنَّ ظـنَّ المشـركيـن كـاذب فكـم قَطَعنـا فـي دجـى الغيـاهـب
من جَبَل وعرٍ ومنْ سَباسب[1]

وشهدَ البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ معركة تُسْتُر، وهي إحدى المدن بخوزستانَ، وكان قائد الجيش في تلك المعركة عمّار بن ياسر ـ رضوان الله عليه ـ.

* وتشيرُ أخبار البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ إلى أنَّه كان مع عليّ بن أبي طالب في معركة الجملِ وصفّين، ومعركة النَّهروان[2]، وشاركه أخوه عُبيد بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ وكلاهما حارب بَشَرفٍ وشجاعة واستبسال، ذوداً عن حِمى الحق والنهج السَّديد.

الجنَّـة نِعْـمَ المَسْكَن لمـنْ أحسـن:

* امتدتِ الحياةُ بالبَراء ـ رضي الله عنه ـ فهو أحد المعمَّرين من فرسانِ الصَّحابة، فقد أشارتِ المصادرُ إلى وفاته فقالت: توفي البراء بن عازب سنة اثنتين وسبعين من الهجرة عن بضْعٍ وثمانين سنةً[3].

= فوقع عند السائل أنْ مَنْ حمل على جماعة من الأعداء يكون ملقياً نفسه في التهلكة، فبيّن له البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن الملقي نفسه في التهلكة من يذنب ثم لا يتوب، فإنه يصير مرتهناً بصنيعه، فأما مَنْ حمل على العدو، فهو يسعى في إعزاز الدين، ويتعرض للشهادة التي يستفيد بها الحياة الأبدية، كيف يكون ملقياً نفسه في التهلكة. (شرح السير الكبير ٢/ ١٦٣).

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (ص ٣٩٥).
«الغياهب»: جمع الغيهب، وهو الظلمة الشديدة.
«سباسب»: جمع السَّبْسَب، وهو القَفْر، والمَفَازة، والأرض المستوية البعيدة.

(٢) انظر: مختصر تخريج الدلالات السمعية (ص ٣٢٩).

(٣) انظر مثلاً: الوافي بالوفيات (١٠/ ١٠٤) وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٥) والعبر (١/ ٧٩) وغيرها.

* ذلكم هو البراء بن عازب، البطل، الفارس، العَالمُ، العابدُ، الفقيهُ، الذي قضى عمره في الحياة الدنيا يرجو رضوان الله، ويطلب مرضاته؛ وماتَ في المدينة المنورة[1]، وهنالك في البقيعِ يثوي جثمان الفارس الكريم المحسن البراء بن عازبٍ، ويرقد في جوارِ الكرام، ونِعْم المسكنُ لمن أحسن.

* رضي الله عن البراء بن عازب وأرضاه، ونفعنا بسيرتهِ، وحشرنا في زمرته، وزمرة الذين سُعِدُوا، إنه حليمٌ غفور، وهو سُبحانه على كل شيءٍ قدير.

* * *

(١) قيل: إن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قد نزل الكوفة ومات بها في ولاية مصعب بن الزبير على العراق، والله أعلم. (البداية والنهاية ٨/ ٣٢٨).

(٢)

البَرَاءُ بنُ مَالِك

- رضي الله عنه -

* قال ﷺ فيه: «كم منْ أشعث أغْبر ذي طمرين لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأبرَّه».

فـي رِحَـابِ الفُروسيّـةِ الوهَّـاجـة:

* سنعيشُ اليومَ في رحابِ فارسٍ مغوار من فرسانِ الرّسول ﷺ، ومنْ أعلام الفُرسان الأبرار الأخيار الأطهار، ومن جملةِ كبارِ صحابةِ رسول الله ﷺ في الزُّهد الحقيقي.

* هذا الفارس أَحَدُ نبلاءِ الفُرسان الأبطال الذين سجَّلوا أعظمَ الآثار، وأعمق البصمات في ساحاتِ المعارك في عَصْر النُّبوة الخالد.

* كان أَحَدَ الأبطالِ الأفراد الذين يُضربُ بهم المثل الحيّ في الفروسيّة وشدّة البأس، وكان من فُضَلاء الصحابة الأنصار، وأحد السّادة الأبرار. قَتَلَ مِنَ المشركين والكفّار مئة رجلٍ مبارزة[1]، وكانَ يركب الفَرَسَ وهي تُسَاق فيستوي على ظهرها بيسرٍ وسهولة.

* وهو البطل الكرّار، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، وأخو خادمِ رسول الله ﷺ أَنَس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ.

* إذاً، فبطل حلقتنا هذه، وفارس اليوم هو البَراءُ بنُ مالك بن النَّضْر الأنصاريّ النّجاري المدني[2].

* وعلى الرغم من شجاعةِ البراء المتألقة، وفروسيته الوضيئة، فقد كان

---

(١) عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء وهو مستلقٍ، واضعاً إحدى رجلَيْه على الأخرى يتغنّى، فنهاه، فقال: أترهب أن أموت على فراشي وقد تفرَّدت بقتل مئة من الكفار سوى مَنْ شركني فيه الناس. قال الحاكم في المستدرك: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وسيرد هذا الخبر بعد عدة صفحات.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٦ و١٧) والمعارف (ص ٣٠٨) والاستبصار (ص ٣٤ ـ ٣٦) وحليـةُ الأوليـاء (١/ ٣٥٠ و٣٥١) والمستـدركُ (٣/ ٣٣٠ و٣٣١) والاستيعـابُ (١/ ١٤١ ـ ١٤٣) وأسدُ الغابة (١/ ٢٠٦ و٢٠٧) ترجمة رقم (٣٩١) وتاريخ الإسلام للذّهبي (عهد الخلفاء الرّاشدين ص ٢٠٩ و٢١٠) وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٩٥ - ١٩٨) والبدايةُ والنّهاية (٦/ ٢٦٨ و٣٢٥) و(٧/ ٨٦) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٢٤) والإصابةُ (١/ ١٤٧ و١٤٨) وكنزُ العمال (١٣/ ٢٩٤) وحياة الصّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٤٣) وغيرها من المصادر المتعددة.

طيِّب القلب، يميلُ إلى السَّماع المباح، ويستلذُّ التَّرنُّم[1]، بما يحلو منَ الرَّجَزِ والشِّعر الخفيف الذي يحكي مَعَالم الفروسيّة ويسرد قصصَ النَّجدة.

* أسلم البراء مع المبكّرين منَ الأنصار، ويبدو أنّه كان أكبر[2] سِنّاً منْ أخيهِ أنس؛ لأنَّه شهدَ غَزَاة أُحُدٍ.

* وتزعمُ بعضُ المصادر أنَّ البراءَ بنَ مالك أخو أنس بن مالك لأبيه وأمّه[3].

* نَشَأَ في رعاية ربيبه أبي طلحة الأنصاريّ زوج أمّ سُلَيم بنت ملحان؛ ومنذ أنْ أعلن إسلامه أخذ يعدُّ نفسه الإعداد الأمثل ليكون من فرسان المدرسة المحمّدية، إذ عرف في نفسه الشّجاعة النادرة، وعرف ألوان الفروسيّة وأدرك أبعادها، وخَبِرَ الفرسان الأشاوس، ووعى كيف يفوزُ ويغلِبَ غيره في ساحاتِ الجهاد، على الرغم من أن الذي يراه يَجد أمامه رجلاً أشعث أغبر يرتدي ثوباً قديماً، إلا أنّه يحمل بين جنبيه نفساً لا كالنفوس[4]، وقد حباه الله عزَّ وجلَّ بقوّةٍ خارقة، وعزيمةٍ صادقةٍ، سخّرها في خدمةِ رسول الله ﷺ وخدمةِ المسلمين؛ لتكون كلمةُ الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلى، ولم يخضْ معركةً إلا وسجّل فيها أضوأ الآثار، وأجمل آيات الفروسيّة، خصوصاً في غزواته ضد الفُرسِ.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٥٠).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٢٦٨).

(٣) ذكر هذا ابنُ الأثير في «أسد الغابة» وابن قدامة في «الاستبصار» والحاكم في «المستدرك» وغيرهم بأنَّ البراء أخو أنس لأبويه، ولكنَّ ابنَ الأثير وغيره قد ذكر في مكانٍ آخر ما يدلُّ على أنَّ البراءَ بن مالك كان أخا أنس لأبيه فقط؛ فقد ذكر ابنُ الأثير في ترجمة شريك بن السَّحماء: وهو أخو البراء بن مالك لأمه. وقد أكّد هذا القول أنس بن مالك نفسه في حديث الملاعنة الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه قال: إن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن السحماء، وكان أخا البراء بن مالك لأمه.

(٤) قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنّما الغنيِ غِنى النفس».

مشاهدُ البَراءِ كلها عطاء:

* إنَّ المصادرَ التي تحدَّثَتْ عن البَراءِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ لتشير إلى السِّمَةِ البارزة في شخصيّته، ألاَ وهي الجرأة والفروسيّة والإقدام.

فأخبار البراء ـ رضوان الله عليه ـ تدورُ حول الفروسية والشَّجاعة والفدائيّة الحقّة، فهو مِنْ أكابرِ فرسانِ الأنصار الميامين المشهورين بالشِّدة والبأس، فحياةُ البراءِ ـ رضي الله عنه ـ كفاحٌ في كفاحٍ في كفاح؛ وجهادٌ في جهادٍ في جهاد.

* كانت غزوةُ أُحد أوَّل مشاهد البَراء في صُحبة رسولِ الله ﷺ، وقد تابعَ حضور الغزوات، فحضر الخندقَ، وأبلى فيها بلاء حسناً يشهد بشدّته وقوّته.

* ولما سارَ رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية، سار البراء في معيّته، وعندما أخذَ المسلمون يبايعون رسولَ الله ﷺ بيعة الرّضوان تحت الشَّجرة، التقت يمينُه يمينَ الرّسول الكريم ﷺ، وبايعه على الموتِ، ونزل قول الله عزَّ وجلَّ من فوق سبعةِ أرقعة مزكّياً هذه البيعة، وراضياً عنِ المُبايعين فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ...﴾ [الفتح: ١٨].

* وبعد تلكم البيعة المباركة، الدالَّة على عمق الإيمان في نفوس الصحابة، تابع البراء ـ رضوان الله عليه ـ مسيرةَ الجهاد، والذود عن حياض الدِّيْن، فحضر غزوة الفَتْح، وغزوة حنين، وغيرها منَ المشاهد في معيّة رسولِ الله ﷺ، إلى أنْ انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى، وهو يبارك فروسيَّة البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وبطولته الخارقة.

ولكنْ هل توقَّفَتْ مسيرة الفروسيّة في حياةِ الفارس المِقْدام البراء بن مالك؟.

* لا، إنَّ الطريقَ لا يزالُ طويلاً أمام البراء، وهو ما يزال في ريعان الشَّباب، ومقتبل العمر، يتأجَّجُ حماسةً للقتالِ ولقاء الأعداء، فإذا ما اشتعل فتيلُ المعركة، يثور البراء ليدمّر أمامه كلّ ما يجده من قوى الشرّ والطغيان، فلا يأبهُ للفرسانِ ولا للحصون، ولا للرّماح والسّيوف، وإنَّما يجرف كلَّ

ما يلقاه في طريقه بقوه الإيمان، وعميق الإخلاص، والتفاني في الإقدام، وشدّة الساعد، ومَنْع قوى الشر أن تشرئبَّ أو تتطاول؛ وسنشهد موقفاً منْ مواقفه هذه، في معركة اليمامة.

شَجَاعَةُ البَـراءِ يـومَ اليَـمَامَـةِ وتضحيتـه:

* بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، ظهر أمْر مُسيلمة الكذَّاب في اليمامةِ، وظهرت حركةُ الرِّدة عن الإسلام في بعضِ نواحي الجزيرة العربية، وهنا تصدى لهذه الرّدة سيّد الصَّحابة، وشيخ المهاجرين، وخليفة رسولِ الله ﷺ أبو بكر الصِّدِّيق وبعزيمة، وحزم لا يلين ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* واستغلظ أمْرُ مسيلمة بن حبيب الكذَّاب في اليمامةِ، واستشرى شَرُّه وبغيه، فأرسل أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ جيشاً منَ المهاجرين والأنصار ممن شهدوا الحربَ وذاقوا طعم الجهاد مع رسول الله ﷺ، فشهدتْ لهم الحروبُ بالبسالة والمهارة، وكان بطلنا البراء بنُ مالك وثابت بنُ قيس[(١)] على رأس الصحابة الأنصار، بينما كان زيد بن الخطاب[(٢)] وأبو حُذيفة ابن عتبة[(٣)] على رأسِ الصحابة المهاجرين، وكل هؤلاء تحتَ قيادة سيفِ الله المسلول خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

* لقد وقفَ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ موقفاً صُلْباً يدلُّ على قوَّةِ يقينه وعلى شجاعته[(٤)] المتفرِّدة في مجابهةِ حروب الرِّدة؛ كما تظهر لنا خبرة

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٥٦٥).
(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(١٤٧).
(٣) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٤٢٤).
(٤) كان أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ أشجعَ الخليقةِ بعد رسولِ الله ﷺ، وأمضاهم عزيمة، وأنفذهم قريحة، وأنورَهم بصيرة، وأصدقهم فِراسة، وأصحّهم رأياً، وأثبتهم جَأْشاً، وأصفاهم إيماناً، وأشرحهم صدراً، وأسلمهم قلباً. والدليل على ظهور ذلك المقام في مقامات ستّة نلخصها فيما يلي:
١ ـ المقامُ الأوّل: لما ماتَ رسولُ الله ﷺ، اضطربَ الصَّحابة الكرام، بينما جاء أبو بكر، فصَعِدَ المنبر ثمّ قال: مَنْ كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات، ومن=

أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ في اختيار أرباب القيادة العسكرية، ممن اشتهروا في الحرب، وعُرفوا بالفروسيّة وبالبطولة، وفي خوض المعامع[1]، ليقفوا في وجهِ مُسيلمة وأتباعه الضالين، فإذا لم يَرْمِهم بالفُرسان الخِيرَة

= كان يعبدُ الله فإنَّ الله حَيٌّ لا يموت.

٢ ـ المقامُ الثّاني: لما توفي رسولُ الله ﷺ، اختلف النّاس أين يُدفن، فحسَمَ الصِّدِّيق الموقف وقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مادُفِنَ قطّ نبيّ إلا حيثُ يموت».

٣ ـ المقامُ الثّالث: لما توفيّ رسول الله ﷺ أرسلت فاطِمة الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ تطالبه بميراثها من أبيها، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا نُورِّثُ ما تركناه صدقة» فتذكّر ذلك جميعُ الصَّحابة، وعَلِمَه عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة، وسعد وسعيد، وأقرّ به عليّ والعباس ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

٤ ـ المقامُ الرَّابع: لما ماتَ رسولُ الله ﷺ ارتد العرب، وتصدّع الإسلام، وتزلزلتِ الأفئدةُ، وماج النّاس، فارتاعَ الصَّحابة، فقال عمر وغيره لأبي بكر: خذ منهم الصَّلاة، ودعِ الزَّكاة حتى يتمكن الدِّين، ويسكن جأشّ المسلمين، فقال أبو بكر: واللهِ لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة، واللهِ لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسولِ الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

٥ ـ المقامُ الخامس: قالت له الصَّحابة بأنْ أبْقِ جيشَ أسامة بن زيد في المدينة لحمايتها ولظهور الرِّدة. فقال: واللهِ لو لعبتْ الكلابُ بخلاخيل نساء أهل المدينة ما رددتُ جيشاً أنفذه رسول الله ﷺ، فقالوا: فمع مَنْ نقاتلهم؟ قال ـ رضوان الله عليه ـ: وحدي حتى تنفرد سالفتي.

٦ ـ المقام السادس: وهو ضَنْك الحال ومأزق الاختلال، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لما توفي اضطرب الأمْرُ، وماج النَّاس، واختلط قولهم، فحسَم الصِّديق الموقفَ بين المهاجرين والأنصار بقولِ رسولِ الله ﷺ: «الأئمةُ منْ قريش إلى أنْ تقوم السَّاعة» وأثبتَ أحقيّةَ المهاجرين بالخلافةِ بالدلائل البينات، فانقادَ الأنصار للحقِّ، والتزموا حُكْمَه، وبُويع أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وصار الحقّ في نصابهِ، ودخل الدِّين مِنْ بابه. (أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٨٦٧ ـ ٨٦٩) باختصار.

(١) «المعامع»: جمع المعمعة، وهي شدَّة الحرب والقتال.

والشُّجعان البَرَرة، تعرَّضَتْ سياسته في قتالِ أهل الرِّدة جميعاً للفَساد والتَّلاشي، وأبو بكر - رضوان الله عليه - أَحْصَفُ وأَعْلى رأياً، وأَبْعَدُ نظراً، وأقوى إيماناً، منْ أنْ يعرضَ الإسلام النَّاشيء للهلاكِ، ولكنَّ عزمَه وإيمانه، وتوكّله على الله عزَّ وجلَّ، وحزمه وشجاعته، كلّ هذا دعاه لكي يقضيَ على مُسيلمة الكذَّاب وشراذم المرتدين الأشرار.

* وفي اليَمامة، التقى الجيشان: المسلمون بقيادةِ داهية الحرب وعبقريّها خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومعه جنود الرَّحمن يحبّونَ الموتَ والاستشهاد في سبيل الله، ومنهم بطلُنا البَراء بن مالك - رضي الله عنه - أمّا المرتدون[1] فكانوا تحت قيادة الكذّاب الأفّاك المفتري مسيلمة بن حبيب.

* وراحَ المسلمون يخوضونَ هذه المعركة الضَّارية، ويقفون في جفن الردى، فَسَما الإيمانُ بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة، وتجلَّى الاستشهاد أمامهم باسماً مضيئاً، يفتح لهم أبواب الجنَّة خالدين فيها، وأظلتهم نسمة منْ روحِ الله أرتهم الحياة الدنيا لهواً ولعباً وغروراً وباطلاً، فأخذوا يطلبون النَّصر لإعلاء كلمة الله، أو الشَّهادة للفوز بالجنة.

* وارتفع صوتُ ثابت بن قيس عالياً - بعد أنْ رأى اضطراب المسلمين - يقول: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين! اللهم إنّي أبرأ إليك مما يعبدُ هؤلاء - وأشار إلى أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنعُ هؤلاء - وأشار إلى المسلمين - ثمّ اندفع إلى الوطيس يُقاتِل ويقتل، وظلَّ يجاهدُ حتى رُزِقَ الشَّهادة.

* أمّا فارسنا البراء بن مالك، البطلُ الصّنديد، الذي لا يعرفه الفرار البتة، فعندما رأى اضطراب الناس، وتخلخل صفوفهم، وثَبَ بقوة ونادى بأعلى صوته: أين يا معشر المسلمين! أنا البراءُ بنُ مالك، هلمَّ إليّ[2].

---

(١) كان جيش مسيلمة يبلغ أربعين ألف مقاتل! وقيل: مئة ألف!

(٢) رويَ أنَّ البراء في يوم اليمامة كان على خيلِ المسلمين، فعزله خالد بن الوليد، وولّى مكانه أسامة بن زيد، فلمَّا هزم النَّاس، وتفرقتِ الخيلُ، قيل لخالد: وَلِّ البراء بن مالك الأنصاريّ. =

* وسمعه فرسانُ المسلمين، وكلّهم يعرفُ بأْسه، ففاء إليهِ منهم فئة قاتلتِ المرتدين، وقَتَلَتْ منهم الكثير الكثير، حتى أَجْلَتْهم عن مواقعهم، فولّوا الأدبار.

* كانت جيوشُ مُسيلمة(١) تقاتل عن عقيدةٍ مريضة هشّة متلاشية، وثبتت أوّل الأمْر بسبب الكثرة، واجتماع الرعاع، وانتفاش الباطل، بينما لاحظ عبقريّ الحرب خالد أنّ الموقف يُحْسَمُ بقَتْلِ مُسيلمة، لذلك خَرجَ على رأسِ رجاله، وقال لحُماتِهِ: لا أُوتينّ منْ خلفي، ثمَّ صاحَ صيحةَ المعركة:

= فقال خالد: يا براء كُنْ على الخيل.

قال البراء: عزلتني ثم توليني والخيل مشتتة؟!.

فقال خالد: أيها الرجل! ليس هذا حين عتاب، كُنْ على الخيل.

فركبَ البراءُ بن مالك، وألاحَ إلى الخيل فقال: يا خيلاه؟! أنا البراء، فتكاملت إليه الخيل، وأقبل بهم، فدفعوا المشركين حين ألجؤوهم إلى الحديقة، فدخلوها وفيها مُسيلمة فقَتَلَ الله مسيلمة (الاستبصار ص ٣٥) مختصراً.

(١) كان مسيلمةُ بن حبيب الكذّاب ـ قبحه الله وأخزاه ـ قد اخترعَ في مصنع كذبِهِ لقومه ولسفهاء النّاس سجعاً زعم أنّه يوحى إليه منَ القُرآن، فكانَ يهذي يقول: سَمع الله لمن سَمِع، وأطمعه بالخير إذا طمع، ولا يزالُ أمْره في كلِّ ما يسرّ مجتمع، رآكم ربّكم فحياكم، ومِنْ وحشته أخلاكم، ويوم دِينهِ أنجاكم فأحياكم، علينا منْ صلوات معْشَر أبرار، لا أشقياء ولا فجّار، يقومونَ الليلَ ويصومونَ النّهار، لربّكم الكبار، ربّ الغيوم والأمطار.

وقال أيضاً: لما رأيتُ وجوههم حَسُنَتْ، وأبشارهم صَفَتْ، وأيديهم طفلت، قلتُ لهم: لا النّساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر أبرار تصومون، فسبحانَ الله إذا جاءتِ الحياة كيف تحيَوْن، وإلى ملك السَّماء كيف ترقون، فلو أنّها حبّة خردلة، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصُّدور، ولأكثر النّاس فيها الثبور.

هذا وقد شرعَ مُسيلمة ـ لعنه الله ـ لأتباعه شرائعَ على هواه من أنّه: وضَعَ عن قومه صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة، وزعم أنَّ هذا شيئاً مِنْ صَدَاق زوجه سجَاح التي تنبّأتْ معه أيضاً. واستشرى خطره، فقام أبو بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ لإيقاف هذا التّزيف الذي حلَّ بالجزيرة، فرماه بأمرْ عيدانه وأصلبها خالد، ومَنْ معه منَ المهاجرين والأنصار حتى قضوا عليه وعلى نبوّته المزعومة الهزيلة المهزولة.

يا محمّداه! ثمَّ داوَرَ برجالِهِ حتى كان حياله، ثمَّ جعل يستدرجه ليخرجَ إليه، وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجونَ إلى لقاءِ خالد، فيلقاهم الموتُ من سيفه قبلَ أنْ يبلغوه، وكثُر في هؤلاء القَتْل، فشعر مُسيلمة بالخزي، وولّى هارباً، وهو يقول: قاتلوا عن أحسابكم[1].

* ورأى محكّم بن الطّفيل[2] فرارَ القوم، ورأى أنَّ المسلمين يلاحقونهم بقوة واندفاع، فصاحَ بهم: يا بني حنيفة! الحديقة! وكانتِ الحديقةُ لمسيلمة، وتُدعى حديقة الرحمان، وكانت فسيحةَ الأرجاءِ، منيعةَ الجدران كأنَّها الحِصْن.

* تحصّنَ مسيلمةُ وقومه بالحديقةِ، وهنا ظهر الفدائي البطل البراء بن مالك الذي قال له خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ: قُم يا براء! فقامَ وركبَ فرسه، فحمدَ الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: يا أهل المدينة! لا مدينة لكم اليوم، وإنَّما هو الله وَحْدَه والجنَّة.

* ثم حَملَ، وحَمَل النَّاس معه حملة رَجُلٍ واحد، فانهزم أهل اليمامة، ودخلوا الحديقة وتحصنوا بها، وهنا أخذَ البراءُ يقول: يا معشر المسلمين! ألقوني عليهم في الحديقةِ، ورفعه المسلمون[3] حتى إذا أشرفَ على الجِدار، فألقى بنفسه على بني حنيفة أمام بابِ الحديقة، فوقعَ وقامَ وقاتل المشركين عليه، وقتل مَنْ وجده يمنَةً ويسرةً حتى فتحه للمسلمين، ودخلَ المسلمون

---

(١) هكذا يبدو المتطاول عن غير عقيدة، ينتفش أول أمره، ويغطّي دعوته بألوان التزييف والدّجل، فإن انكشف أمره، وبانت حقيقته، تحوّل مهزولاً مدحوراً، يقاتل عن دنيا باطلة، فينسى دعوته بعد ظهور عَوَرها، فيدعو إلى القتال دفاعاً عن الحسب والنسب. . . وذا تاريخ من يقاتل دون عقيدة صحيحة.

(٢) هو قائدُ جيشِ مسيلمة، قيل: رمَاه عبد الرحمن بن أبي بكر بسهمٍ في عنقهِ فقتله وهو يخطبُ في بني حنيفة.

(٣) أخرجه البيهقي ـ رحمه الله ـ عنِ التّابعين الجليل محمّد بن سيرين: أنَّ المسلمين انتهوا إلى حائط قد أُغلِق بابه، فيه رجالٌ منَ المشركين، فجلسَ البَراءُ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ على ترسٍ فقال: ارفعوني برماحكم، فألقوني إليهم، فرفعوه برماحهم، فألقوه مِنْ وراء الحائط، فأدركوه قد قتل منهم عشرة.

زُمَراً، والتحموا بأعدائهم، وقَتَل الله عزَّ وجلَّ مُسيلمة، ولقيَ البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ محكّم اليمامة، فضربه البراءُ وصرعه، فأخذ سيف محكّم اليمامة فضربَ به حتى انقطع.

* وروى البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيتُ يومَ مسيلمة رجلاً يُقال له: حمار اليمامة، رجلاً جسيماً بيده السَّيف أبيض، فضربتُ رجليه، فكأنّما أخطأتُه وانقعر[1]، فوقعَ على قفاه، فأخذتُ سيفه، وأغمدتُ سيفي، فما ضربتُ به ضربةً حتى انقطع[2].

* وجُرِحَ البراء يومَها بضعاً وثمانينَ جراحة، ما بينَ رميةٍ وضربةٍ، فأقام عليه خالدُ بنُ الوليد شهراً حتى بَرأ مِنْ جراحه.

* وهذا تقديرٌ من سيفِ الله خالد، لبطولة البراء بن مالك وفروسيته، شهادة له بذلك، ولا عجب في هذا، فلا يعرف الفَضْل لأَهْلِ الفَضْل إلا أهلُ الفَضْل وذووه[3].

* لقد قُضِيَ على وباء المرتدين بفضل الله عزَّ وجلَّ، وبوجود فرسان المدرسة المحمديّة الذين صدقوا ما عاهدوا عليه، فذادوا عن عقيدتهم ببسالةٍ سجّلها لهم التاريخُ بأحرف لا تُمحى، من مثل: البراء بن مالك، وخالد بن الوليد، وزيد بن الخطاب، وثابت بن قيس، وأبو حذيفة بن عتبة، ومولاه سالم وغيرهم ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

---

(١) «انقعر»: قطع من أسفله.

(٢) الإصابة (١/ ١٤٨).

(٣) أسد الغابة (١/ ٢٠٦) والاستيعاب (١/ ١٤٢ و١٤٣) مع الجمع والتَّصرف؛ وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٠٦) وحياة الصَّحابة (١/ ٥٦٥) والإصابة (١/ ١٤٧ و١٤٨) وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين ص ٢١٠) والبداية والنهاية (٦/ ٢٦٨) وكان عدد بني حنيفة مئة ألف أو يزيدون، وكان المسلمون بضعة عشر ألفاً.
ثم إن إشراف القائد على مرؤوسيه، لا سيما بعد إصابتهم في ساح الوغى، يُعزّز الروح القتالية، ويرفع معنوياتهم؛ ليعودوا إلى ميدان القتال أكثر صلابة، وأقوى عزيمة، وأشدّ مضاء.

البَراءُ ينقِذُ أَخَاه أَنَسـاً:

* إنَّ هَذَينِ الفَارسَيْنِ الصَّاحبَيْنِ لرسول الله ﷺ البراء وأنس ابني مالك قد أبدعا في الجهاد أيمّا إبداع، وحلَّقَا في ميادينِ الفروسيّة، فحازا على قصب السبق وقدحه المعلى، حتى غدا كلُّ واحد منهما عَلَماً مِنْ أعْلامِ المجاهدين، الذين يُشار إليهم بالبنان.

* لقد اشترك هذان السَّيِّدان المؤمنان الكريمان في الجهادِ ضدَّ أعداء الله عزَّ وجلَّ، وفي إحدى المغازي ظهرتْ بطولةٌ خارقة للبراء حيثُ ذهبَ لحم يده وتساقط، حتى بَدَا العظم، كيما ينقذَ أخاه أَنَساً مِنْ موتٍ محقّقٍ[1].

* كانَ ذلك عندما كان أنس وأخوه البراء عند حصْنٍ من حصونِ العدوّ، وقد استخدمَ العدوّ كلاليبَ في سلاسلَ محمّاةٍ بالنَّار، فتعلق هذه الكلاليب بالإنسان، فيرفعونه إليهم.

* وحَدَثَ أنْ عَلِقَ بعض تلك الكلاليب بأنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فرفعوه حتى أقلّوهُ منَ الأرضِ، فأتى الخبر أخاه البراء فارس الفرسان وسيّد الشُّجعان، وزعيم الفداء والفدائيين، وقيل له: يا براء! أدرك أخاك أنساً، فقد عَلِقَ في كلاليب العدوّ المحمّاة.

* وأقبلَ البراءُ يسعى، حتى وَثَبَ وثبةً شديدةً على الجدار، ورأى أخاه تسحبه الكلاليبُ، فقبضَ بيديهِ على السِّلسلة وهي تُدار، فما برح يجرهم ويداه تدخِّنَان حتى قَطَع الحبل، ثمَّ إنَّه نظرَ إلى يديه، فإذا عظامه تلوح، وقد ذهبَ ما عليها من اللحم، ولكنَّ هذا لا يهم البراء، إذ إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أنجى أخاه أَنَساً بذاك، وهل يُعْدلُ بنجاة أخيه شيء؟! فأنس هو الإمام المفتي، المقرىءُ، المحدِّثُ، راوية الإسلام، وخادمُ الرّسول الحبيب ﷺ

---

(١) الإصابة (١/١٤٨) بشيء من التصرف، ويبدو أن البراء قد عاد إلى فترة علاج أخرى لكي ينبت اللحم من جديد في يديه، ومثل بطولة البراء فلتكن الفروسية والفرسان. ولنتصور مقدار شدة الألم التي تحمَّلها هذا المغوار، وهو يضحّي بلحم جسده لينقذ المؤمنين فيما وقعوا فيه من ضيق وشدائد.

وتلميذه، ثم هو أحد فرسانه الذين تخرجوا في مدرستهِ العظيمة التي أنجبتْ بُنَاةَ الأَجْيال الحقيقيين، وهؤلاء هم صانعو التَّاريخ الخالد، وصائغو الحضارة المتألقة.. والله درُّ مَنْ قَال:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعَتْنا يا جريرُ المجامع

مِنْ أَعْلام المُبارِزين:

* استطاع البراء أنْ يقتلَ في معركةٍ واحدةٍ مئةً من فُرسان المشركين الأشدّاء[١]. ولعلَّ أشهر مبارزة سجّلها التّاريخ للبراء؛ مبارزته لمرزبان[٢] الزّارة[٣]، إذ طَعَنَهُ، فصرعَه، وأخذَ سَلَبَه، فبلغ سَلَبَه ثلاثين ألفاً، فبلغ ذلك عمر فقال لأبي طلحة: إنَّا كُنّا لا نخمّس السَّلبَ، وإنَّ سَلَبَ البراء قد بلغَ مالاً، ولا أُراني إلا خَامِسه[٤]، وفي رواية: إنا كُنّا لا نخمّسُ السَّلَبَ، وإنَّ

(١) الاستبصار (ص ٣٤) وقال الذهبي في السير: وقد اشتهر أنَّ البراء قتل في حروبه مئة نفس من الشُّجعان مبارزة.

(٢) «المرزُبان»: بضم الزاي: هو أحد مرازبة الفُرس، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم، دون الملك.

(٣) «الزَّارة»: قال ياقوت: بلفظ المرّة منَ الزّار، وعينُ الزّارة بالبحرين معروفة، والزّارة قرية كبيرة بها، ومنها مرزبان الزّارة، وله ذِكْرٌ في الفتوح. وقد فُتِحتِ الزّارة سنة (١٢ هـ) في أيام أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنه ـ وصُولح أهلها. (معجم البلدان ٣/١٢٦) وانظر كتب التّاريخ: الطّبري والكامل والبداية والنّهاية لأحداث سنة ١٢ هـ.

(٤) المصنَّف لعبد الرزّاق (٥/٢٣٣). والرّاجح في أقوالِ العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث أنَّ سلَبَ القتيل لا يُخمَّس لسببين:
الأول: إنَّ رسولَ الله ﷺ لم يخمّسْ سلبَ القتيل، وكذلك أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ ونقل ابنُ قدامة ـ رحمه الله ـ في المغني للجوزجاني قوله: لا أظنّه يجوزُ لأحدٍ في شيءٍ سَبَقَ فيه مِنَ الرّسول ﷺ شيء إلا اتباعه، ولا حجّة في قول أحد مع رسول الله ﷺ. (المغني ٩/٢٣٧).
الثّاني: إنَّ في إعطاءِ جميع سَلَب قتيله مصلحةٌ ظاهرةٌ، وهي الحضّ على قتالِ الأعداء وكَسْرِ شوكتهم، وهذا يتفق مع نصوصِ الكتّاب والسُّنَّة الواردة في هذا الشّأن.

سَلَبَ البراء قد بلغَ مالاً كثيراً، فما أرانا إلا خامسيه[1].

* والحقيقة أنَّ البراء ـ رضي الله عنه ـ كان جريئاً مقداماً، لا يهابُ نوائب الأيام، ولا نوازل الحروب، ولذلك قيل: إنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد كَتَبَ إلى أمراءِ الجيش: لا تستعملوا البراءَ على جيشٍ، فإنَّه مهلكة مِنَ المهالك يَقْدُمُ بهم[2].

ذو الصَّوْتِ الجَمِيْلِ:

* كان البَراء ـ رضوان الله عليه ـ قد رَزَقَه الله عزَّ وجلَّ صَوتاً جميلاً، فكان إذا ما خلا بنفسهِ يتغنّى ويترنّم؛ ويظهر أنَّ أنساً كان ينهاه عن ذلك، فقد وَرَدَ أنّه دخل على البراء وهو مُسْتَلْقٍ واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، وهو يتغنّى بالشِّعر، فقال له: يا أخي! تتغنّى[3] بالشِّعر وقد

= ولعلَّ سائلاً يسأل: لم خمَّس عمر بن الخطَّاب سَلَب البراء إذاً؟!
فنقول: هو اجتهادٌ مِنْ عمر ـ رضي الله عنه ـ لمصلحةٍ رآها تنفعُ المسلمين، وأدرك هو تلك المصلحة ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ. وكم لعمر من مواقف اجتهادية عادت بالخير على المسلمين!

(1) انظر: السِّير الكبير (٢/ ٦٠٤) ومجمع الزَّوائد (٥/ ٣٣١).

(2) طبقاتُ ابن سعد (٧/ ١٦) والمستدرك (٣/ ٣٣٠) والاستيعاب (١/ ١٤٢) وأسد الغابة (١/ ٢٠٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٩٦) وتاريخ الإسلام للذَّهبيِّ (عهد الخلفاء الرَّاشدين ص ٢١٠) والسِّير الكبير (١/ ٦٢).

(3) قال السَّرخسي في شرح السِّير الكبير: في هذا دليلٌ على أنّه لابأس للإنسان أنْ يتغنّى إذا كان وحده، ليدفعَ به الوحشة عن نفسه، فإنَّ البراءَ بنَ مالك ـ رضي الله عنه ـ كان من زهّادِ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ. قال فيه رسول الله ﷺ: «لو أقسمَ على الله لأبرّه».
ثمَّ كان يتغنّى في مرضهِ حين بقيَ وَحْدَه، واستبعد ذلك منه أنس، فبيّن أنّه لا يفعل هذا تلهياً، ولكنْ يدفع الوسواس عن نفسه، فإنّه كان يطمعُ في الشّهادة، وخشي أنْ يموتَ في مرضهِ، فاستوحشَ من ذلكَ وجعل يتغنّى، فعرفنا أنَّ هذا القدْرِ لا بأس به، إنّما المكروه ما يكون على سبيل اللهو، على ما قال ﷺ: «أنهاكم عن صَوْتَيْن أحمقين فاجرين: صوت الغناء فإنّه مزمار الشيطان، وخمش الوجوه وشقّ الجيوب رنة الشيطان» يعني: رفع الصّوت عند المصيبة. =

أبدلك الله به ما هو خيرٌ منه، وهو القُرآن؟!

قال البراء: أتخافُ عليَّ أنْ أموت على فراشي، وقد تفرَّدْتُ بقَتْلِ مئة، سوى منْ شاركتُ فيه؟! إنّي لأرجو ألا يفعلَ الله ذلك بي [(١)].

* ولنعد قليلاً إلى حياةِ البراءِ مع رسول الله ﷺ، إذا كان أحد الحُداة أمامه، فقد أوردتِ المصادر بسندٍ وثيقٍ إلى أنَّ البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ كان رجلاً حَسَنَ الصَّوت، يحدو بالنَّبي ﷺ، ويرجز له في بعضِ أسفاره، فكان البراء هو حادي الرِّجال، وأنجشة حادي النِّساء.

* وتقولُ المصادر: بينما كان البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يرجزُ لرسولِ الله ﷺ في بعض أسفاره، إذ قارب النِّساء، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إيّاك والقوارير» [(٢)] قال: فأمْسك.

* قال محمّد بنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ:

كَرِهَ رسولُ الله ﷺ أنْ تَسْمَعَ النِّساء صوته، أو أن تسمعَ حداءه [(٣)].

= ثمّ صحّ أنَّ البراء ـ رضي الله عنه ـ برأ من مرضه، ثم استشهد كما كان يطمع. (شرح السِّير الكبير ١/ ١٠٠ و١٠١).

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٣٣٠) والاستيعاب (١/ ١٤٢) مع الجمع بينهما.

(٢) «رفقاً بالقوارير»: قال الإمام النّووي ـ رحمه الله ـ: في شرحه للقوارير؛ يعني: ضعفة النّساء. قال العُلماء: سمي النِّساء قوارير لضعف عزائمهن تشبيهاً بقارورةِ الزّجاج لضعفها، وإسراع الانكسار إليها، والمرادُ به: الرفق في السَّير لأنَّ الإبل إذا سمعتِ الحُداء، أسرعتْ في المشي، واستلذته، فأزعجتِ الراكبَ وأتعبته، فنهاه عن ذلك لأنَّ النساء يضعفن عند شدة الحركة، ويخاف ضررهن وسقوطهن.

هذا وقد رجح أحد العلماء أنَّ مقصودَ النّبيّ ﷺ أنْ يقعَ في قلوبهن حداؤه، فأمر بالكفِّ عن ذلك حتى لا يفتنهن.

وللعلماء آراء كثيرة في هذا الموضوعِ، وقد بُسِطَتْ في كُتُبِ الفقه على اختلاف أنواعها، فلتراجع.

(٣) أودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ الحُداء هو منْ أقدمِ أنواع الغناء عند العرب، يُغَنّى به في الأسفار خاصة، ولا زال على مكانته ومقامه في البادية حتى اليوم، ويُتغنى به في المناسبات المُحزنة أيضاً لملاءمة نغمته مع الحزن. وكان البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ =

دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وشَهَادَةٌ فِي سبيلِ الله:

* لئن كانَ البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فارساً لا يُشقُّ له غبار، لقد كان تقياً نقيَ القلب، صافي السَّريرة، لا تُردُّ له دعوة عند الله عزَّ وجلَّ.

* ولقد كانت أمنيته الكبرى أنْ يلقى الله عزَّ وجلَّ شهيداً، وذلك لما يعلم ما أعدَّ الله تعالى للشُّهداء، ويبدو أنَّه كان يردِّدُ كثيراً قول الله عزَّ وجل عن الشُّهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] إذاً، فما أجمل الحياة عند المليك المقتدر؟! وما أعلاها من مرتبة لا تُقدَّر!

* وها هو البراء بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ يسيرُ مجاهداً غازياً، ليس معه إلا فرسه وسلاحه، وقد جَعَل همّه أنْ ينالَ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، لا سيما وأنَّ رسولَ الله ﷺ قال عنه: «كم منْ أشعثَ أغبر ذي طمرين لا يُؤْبَه له لو أقْسَم على اللهِ لأبرّه، منهم البراء بن مالك»(١).

= حادي رسولِ الله ﷺ وكان حداءً للرجال. وكان لرسولِ الله ﷺ حدّاءَ آخر يُقال له: أنجشة، وكان جميلَ الصَّوت، أسود، وكان يحدو للنِّساء، نساء النَّبي ﷺ، وكان غُلاماً لرسول الله ﷺ.

وكان عامر بنُ الأكوع الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ رجلاً شاعراً وراجزاً، وكان يحسنُ الحداء، فطلب منه أصحاب رسول الله ﷺ أثناء سيرهم إلى خيبرَ أنْ يحدو بهم، فسمعَ رسول الله ﷺ حداءه.

وهناك أخبارٌ تدلُّ على أنَّ العربَ كانت تجعل معهم عند سفرهم حادياً، أو جملة حداة يحدون بهم في السَّفر. فالحداء إذاً: ضربٌ مخصوص من الغناء، ويكون بالرجز غالباً، لأنَّ طبيعة الرجز تلائم هذا النوع من الغناء. ويذكر المسعودي في مروجه أنَّ الحداء كان في العرب قبل الغناء.

(١) الحديث أخرجه التِّرمذي في المناقب برقم (٣٨٥٣) باب: مناقب البراء بن مالك وقال: هذا حديث حسن صحيح.

و«الأشعث»: متفرِّق شعر الرأس، وبعيد العهد بالدهن والغسل والتسريح.

«أغبر»: مغبرّ البدن.

«الطِّمر»: الثوب الخلق القديم.

«لا يُؤبه له»: لا يُبالى به، ولا يعرف ولا يُعلم به لقلة شأنه. =

* ويبدو أنَّ البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قد ادّخر هذا القَسَمَ ليستعمله في المكانِ المناسب، كيما يُحقّق أعزَّ أمنيةٍ له في حياتهِ.

* ففي حصار مدينة تُسْتُر[١]، كان البَراء تحت إمْرة أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ وهنالك قالَ أبو موسى للبراءِ: لقد دُلِلْنا على سربٍ يخرجُ إلى وسْطِ المدينة، فانظر نَفَراً يدخلون معك فيه.

فقال البراء لمجزأة بنِ ثور[٢]: انظر رجلاً من قومك طريفاً جَلْداً، فَسَمّه لي.

قال مجزأةُ: ولِمَ يا براء؟

قال البراءُ: لحاجةٍ.

قال مجزأة: فإنّي أنا ذلك الرَّجل.

قال البراء: لقد دُللنا على سرب، وأردنا أنْ ندخله.

قال مجزأةُ: فأنا معك.

فدخل مجزأة أوّل مَنْ دخل، فلمّا خرجَ من السَّرب، شدَخوه بصخرة، ثمّ خرج النّاسِ من السّرب، فخرج البراء ـ رضي الله عنه ـ فقاتلهم في جوفِ المدينة، وقُتِلَ شهيداً، وفَتَحَ الله على المسلمين[٣].

* وروى ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في أُسْدِ غَابتهِ خَبَرَ استشهاد البراء فيقول:

= «لأبرّه»: لأمضاه على الصّدق وجعله باراً غير حانث بقسمه.

(١) «تُستر»: أعظم مدينة بخوزستان، فيها قبر البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ كانت مشهورة بصناعة الثّياب والعمائم، وعندما فُتحت جعلها عمر من أرض البصرة لقربها منها، وقد حاصرها المسلمون قبل فتحها (١٨ شهراً).

(٢) مجزأةُ بنُ ثور السّدوسي: أحد الشّجعان الأشدّاء، أثبته البخاري في الصّحابة، قتل مجزأة يوم فتح تُستر مئة رجل، وقد قتله الهرمزان وقتل معه البراء بن مالك، وفيه قيل هذا البيت المشهور:

وكـــذاك مجـــزأة بـــن ثـــور ... كـــان أشجـــع مـــن أســـامـــة

(٣) سير أعلام النبلاء (١/١٩٦ و١٩٧) بتصرف يسير.

لمّا كان يوم تُستر منْ بلاد فارس انكشفَ النَّاس[1]، فقال له المسلمون: يا براء أقسم على ربّك فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيّك، وحَمَل وحَمَل النَّاس معه، فانهزم الفُرسُ، وقُتِلَ البراء، قتله الهرمزان، وذلك في سنِة عشرين منَ الهجرة[2].

* وفي تلك الحادثة يقولُ ابن سيّد النَّاس من قصيدة:

وَدَعَا البَراءُ على العدوّ وأنْ يُرى ... مستشهداً بيـن الـرِّمـاح الشُّرَّع[3]

* وسيقَ الهرمزان إلى المدينة المنوّرة أسيراً يجرّرُ أذيالَ الخيبةِ والهزيمة، حتى قدموا به إلى المدينة المنوّرة، فسألوا عن سيدنا عمر، فقيل: إنَّه نائم في المسجد.

فدخلوا المسجدَ ومعهم الهرمزان، وإذا عمر متوسّدٌ وحده في المسجدِ ومعه الدّرة، وليس معه أحد.

فقال الهرمزان: أينَ عُمر؟

فقالوا: هُوَذا. وجَعَلَ المسلمون يخفضون أصواتهم لئلا ينتبه عمر، وجعل الهرمزان يقول: وأين حجّابه؟ وأين حرسه؟.

فقالوا: ليس له حُجَّاب، ولا حرس، ولا كاتب، ولا ديوان.

---

(١) يروي أنس بن مالك أنَّ النَّاسَ لم يصلّوا الصُّبْحَ يوم فتح تُسْتُر لانشغالِ النَّاس بالفَتْحِ. فقد روى البخاري ـ رحمه الله ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: شهدتُ فَتْحَ تُستَر، وذلك عند صلاة الفجر، فاشتغل النَّاس بالفتح، فما صلّوا الصُّبح إلا بعد طلوع الشمس، فما أحبّ أن لي بتلك الصَّلاة حمر النعم.

(٢) أسد الغابة (١/٢٠٦) ترجمة رقم (٣٩١) وانظر: الاستبصار (ص ٣٥ و٣٦) والمقامات العلية (ص ٧٥ و٧٦) والبداية والنّهاية (٧/٨٦) وسير أعلام النبلاء (١/١٩٨).
قال أبو عمران موسى بن هارون: إن البراء استشهد يوم تستر، وهي من فارس، وإنما استشهد البراء بن مالك سنة إحدى وعشرين من الهجرة، انظر: المستدرك للحاكم.

(٣) المقامات العلية (ص ٧٥).

فقال: ينبغي أنْ يكونَ نبيّاً!

فقالوا: بل يعمل عَمَل الأنبياء.

وكثر الكلام، فاستيقظ عمر بالجلبة، فاستوى جالساً، ثُمَّ نظر إلى الهرمزان وقال: الهرمزان؟!.

قالوا: نَعَمْ.

فقال: الحمدُ لله الذي أذلَّ بالإسلام هذا وأشياعه.

* ثم إنَّ عمر تذكَّر بطلَ الأنصار البراء بن مالك، وكاد يقتل الهرمزان وقال: كيف أستبقي وأؤمّن مَنْ قتل البراء ومجزأة بن ثور؟!

ثم إنَّ الهرمزان أسلم، وفرض له عمر، وأقام بالمدينة(١).

* وهكذا ظلَّ البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حديث المجالس في المدينة المنوّرة، وستظلّ سيرته حديث الأجيال إلى ما شاء الله تعالى.

* رضي الله عن البراء، وأدخله الجنّة يتبوأ منها حيثُ يشاء، ونِعْم أجر العاملين.

* * *

(١) عن البداية والنّهاية (٧/ ٨٧ و٨٨) بشيء من التّصرف. وانظر: تاريخ خليفة (ص ١٤٦ و١٤٧) وفتوح البلدان (ص ٤٦٨ و٤٦٩) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد الخلفاء الراشدين ص ٢٠٠).

(٣)

عُبَادَةُ بنُ الصَّامتِ

ـ رضيَ الله عنه ـ

كان يُعدُّ بألف مُقاتل، وهو بدريٌّ، أحديٌّ، شَجريٌّ، شَهِدَ المشَاهد كلّها، وأثنى عليه القُرآن الكريم.

جَمَّاع الفَضَائِل والمكارم الجلائل:

* جَمَعَ هذا الفارس من كلِّ فضيلةٍ بطرف، وقطف من كل المكارم والمحامد، فكانت تجتمعُ في شخصيّته عدَّةُ صِفَات فاضلة، جَعلَت منه فارساً من فُرسانِ مدرسةِ رسولِ الله ﷺ؛ الذين عطَّروا تاريخ الدُّنيا بتضافر الفكر والعمل.

* وهذا الفارس الكريم النَّبيل، صَحِبَ رسولَ الله ﷺ، وكان مِنْ أولئك القلّة المؤمنة؛ الذين غيَّروا وَجْهَ الحياة، بل زيَّنُوا وَجْه الدُّنيا بجليل الأعمال الصالحة، والأحدوثة الأمثل، فكان نقيباً مِنْ سَادات الصَّحابة، وكان فقيهاً، عالِماً، قاضياً[(١)]، فاضِلاً، محدِّثاً، ورعاً، مُستغفراً، أوَّاباً، قارئاً للقُرآن، وكانَ والياً، وقائداً مُحارباً، وناشِراً مبادىء الإسلام، عاملاً لما يحييه في الدُّنيا والآخرة، وكان أَحَد أصحاب الفتيا وتعليم الناس ما يجبُ عليهم أن يعرفوه من الأحكام.

* إنَّ فارسَنَا الذي تجمَّعت له هذه الخِصال، كان يُعَدُّ بألفِ مقاتلٍ في سَاحات القِتال، وكان مهيباً، ضخماً، زاده اللهُ بسْطةً في العِلْم والجسم، فكان من فُرسانِ الرّسول ﷺ، الذين أثروا التَّاريخ بفضائلِ الأعمال، وقلَّدوا جِيْدَ الدَّهْر قلائدَ منْ جُمان المكارم الحِسَان؛ التي ما تزالُ آثارها قائمة إلى الآن، ما تعاقب الجديدان، ودار النَّيِّران.

* يُضاف إلى تلكم المكارم كلّها، أنَّ فارسنا وبطلنا كان من أمْهرِ الرُّماة، ومشاهيرهم في الحروب، وكان أحد النُّقباء ليلة العقبة، ومِنْ أعيان البدريين، فهل عرفتموه؟!

* إذاً تعالوا نقرأ بطاقته؛ فهو الإمامُ القدوةُ عبادةُ بنُ الصَّامتِ بن قيس أبو الوليد الأنصاريّ الخزرجي[(٢)]. أسلم عبادةُ في السَّابقين منَ الأنصار،

---

(١) قال عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ: كان أول من ولي قضاء فلسطين. (الإصابة ٢/ ٢٦٠).

(٢) السِّير الكبير (٢/ ٥٩٣) ومسند أحمد (٥/ ١٠٤) وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٥٦) =

وشهد العقَبات الثّلاث، وكان أحدَ النُّقباء في العقبة الأخيرة[1]، وآخى رسول الله ﷺ بين عبادة وبين أبي مرثد الغنوي[2].

* أسلم فارسنا عبادة ـ رضي الله عنه ـ وهو في رَيْعَانِ شبابه، وميعة الصِّبا[3]، وبايع رسولَ الله ﷺ في بيعة العقبةِ الأولى، كما ذكر عبادة نفسه فقال:

بايعناه على ألا نشركَ بالله تعالى، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نأتي ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نقتل أولادنا، ولا نعصيه في معروفٍ، فمن وفَّى فَلَهُ الجنَّة، ومَنْ غشي شيئاً من ذلك فأمْره إلى الله عزَّ وجلَّ إنْ شاء عذَّبه، وإنْ شاء غفَر له.

* وفي حديث آخر قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمْع والطَّاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، ولا ننازع الأمْر أهله، نقول في الحقِّ حيثما كُنّا، لا نخاف لومةَ لائم ما لم نَرَ كفراً بواحاً[4].

البَطَلُ المُجاهِدُ والفارِسُ الغازي في سبيل الله:

* كان عبادة بنُ الصَّامت ـ رضوان الله عليه ـ نقيباً[5] عقبياً أنصارياً، بايعَ

= و٦٢١) والمعارف (ص ٢٥٥ و٣٢٧) والمعرفة والتاريخ (١/٣١٦) والمستدرك (٣/٣٩٨ ـ ٤٠٣) والاستبصار (ص ٤٠ و٥٤ و٥٦ و٦٨ و١٨٨ و١٨٩ و١٩٠ و١٩٥) والاستيعاب (٢/٤٤١ ـ ٤٤٣) ومختصر تاريخ دمشق (١١/٣٠١ ـ ٣١٠) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/٢٥٦ و٢٥٧) وسير أعلام النّبلاء (٢/٥ ـ ١١) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٢٠) وتهذيب التّهذيب (٥/ ١١١ و١١٢) والإصابة (٢/ ٢٦٠ و٢٦١) وكنز العمال (١٣/ ٥٥٤) وغيرها كثير من المصادر.

(١) الاستبصار (ص ١٨٨).

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/ ٢٥٧).

(٣) أكرمْ بالشباب المؤمن، الموحِّد، ففيه مخايلُ الخير، وعلائم الصلاح، وحُسْن التقبُّل، وقوَّة الساعد، وصلابة الموقف، وشجاعة الإقدام، وبسالة الاقتحام.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٠٤).

(٥) عبادة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ أحد النّقباء الاثني عشر ليلة العقبة؛ فمَنْ هؤلاء النّقباء؟ وما قصتّهم؟ وما معنى كلمة نقيب في السِّيرة النّبوية؟! قال رسولُ الله ﷺ: =

رسولَ الله ﷺ على ألاّ تأخذه في اللهِ لومة لائم، وظلتْ هذه البيعة نبراسه المضيء إلى آخر نَفَسٍ من حياته الفاضلة.

* ففي غزاةِ بدر، كان عبادةُ أحدُ أبطالها، وغزاة بدر كما نعلم ـ غيَّرت مجرى التَّاريخ ـ وأعزَّتِ الإسلامَ، وأذلَّتِ الكُفْرِ بقتلِ صناديد قريش، وأكابر مجرميهم، وأسْرِ كبرائهم، مع قِلَّة عددِ المُسلمين يومها، وكثرة عدوهم، وقد سُمّي كلّ مَنْ شهدها مِنَ المسلمين بدرياً، وكانوا يعتزّون بهذه التَّسمية، ويفخرون بها، وما أدراك ما أهل بدر(1)؟!

وعندما كانت موقعةُ أحد، شهدها عبادة فكان أحدياً، كُتِبَ له ثوابُ المؤمنين الصَّابرين؛ الذين استجابوا لله والرسول ﷺ.

* وفي غزوة الخندقِ كان عبادة أحدَ الفُرسان البارزين ممن دافعوا عن المدينةِ في الليل والنَّهار، حتى كانتْ عاقبةُ المشركين الخسران والبوار.

* أمَّا في بيعةِ الرضوان، فقد شهدها عبادة، وكانت ـ كما نعلم ـ في السَّنة السَّادسة من الهجرة في شهر ذي القعدة قُبيل صلح الحُديبية، وكانت البيعة

= «إنَّ موسى أخذ منْ بني إسرائيل اثني عشر نقيباً، فلا يجدن منكم أحدٌ في نفسه أنْ يُؤخذ غيره، فإنَّما يختار لي جبريل» فلمّا تخيرهم قال للنُّقباء: «أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريّين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي». قالوا: نعم. (البداية والنهاية ٣/ ١٦١).
وهؤلاء النُّقباء ـ أي: العُرفاء والأسياد ـ هم تسعةٌ منَ الخزرجِ؛ وثلاثة من الأوس.
أمّا نقباء الخزرج فهم سادتنا: أسعد بن زرارة، سعد بن الرَّبيع، عبد الله بن رواحة، رافع بن مالك، البراء بن معرور، عبد الله بن عمرو بن حرام، عبادة بن الصَّامت، سعدُ بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خنيس.
وأمَّا نقباء الأوس فهم سادتنا: أسيد بن حُضير، سعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

(1) لأهل بدرٍ مكانة عظمى وكريمة في جميع المعالم المباركة، وقد وَرَدَ في الأخبار الصَّحيحة مكانة أهل بدر، ومنها: جاء جبريل إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال للنَّبيِّ ﷺ: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ قال: «منْ أفضل المسلمين». قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة (جامع الأصول ١٠/ ١١٢).

المباركة تحت الشَّجرة على عدم الفرار والثَّبات أمامَ المشركين، وكان يُقال لمن حضرها: شَجَرِيّ؛ كما كان يُقال لمن حَضَر بدراً: بدريّ؛ وكان المؤمنون يفخرون بهاتين الكلمتين بَدريّ، وشَجريّ، وقد امتدح الله عزَّ وجلَّ وأثنى على أهل بيعةِ الرضوان، وعلى البيعةِ نفسها، وما فيها منَ الخير، ورضي عن المؤمنين الرّاسخين في الإيمان، الكاملين في الإخلاص، وشديدي الولاء لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ، فرضي الله عنهم بالفتح المبين، والتَّوفيق الرَّشيد السَّديد، ناهيك بالثَّواب الجزيل، والمغانم الكثيرة في الدُّنيا من المغازي، وكان أوّلها وعقب البيعة: زروع وثمار خيبر.

* قال الله عزَّ وجلَّ عن البيعةِ المباركةِ الخالدة: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢٠][(١)].

ثناءُ القرآنِ الكريم على إيمانِ الفارسِ المغوار:

* شَهِدَ عُبادة بنُ الصَّامت ـ رضوان الله عليه ـ المشاهد كلَّها معَ رسولِ الله ﷺ[(٢)]، وكان له جليلَ الأثرِ في كلِّ غزوةٍ يغزوها، كما كان له بعض المواقف العَطِرة التي تشيرُ إلى رسوخ يقينه، وإيمانه الصَّادق، حتى لقد أيَّدَ القُرآن الكريم مَوقفهَ، وزكَّاه، وأثنى عليه، ودليل ذلك ما وردَ في المصادرِ الحديثية، والتَّاريخية، وكُتُب التَّفسير، والسِّيرة، والمغازي، والتَّراجم، وغيرها، حيثُ تحدَّثَتْ عن عمق إيمانه، وعظامة فروسيته في تحديدِ موقفه من اليهودِ، فقالت:

لمَّا حاربَ يهودُ بني قينقاع سيّدنا رسول الله ﷺ، تشبَّثَ بأمرهم عبدُ اللهِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري والقرطبي والشوكاني والقاسمي لهذه الآيات من سورة الفتح.

(٢) المستدرك (٣/ ٣٩٨). وقال سُفيان بن عُيينة ـ رحمه الله ـ: عبادةُ بن الصَّامت، بدريٌّ، أحديٌّ، عقبيٌّ، شجريٌّ، وهو نقيبٌ.

ابنِ أُبيّ ابن سلول[١] المنافق، وقام دونهم، فمشى عبادة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ إلى رسولِ الله ﷺ، وكان أحدَ بني عوف بنِ الخزرج، لهم منْ حلفهم مثل الذين لهم منْ حلْفِ عبد الله بن أبي، فَخَلَعَهُم إلى رسولِ الله ﷺ، وتبرَّأ إلى اللهِ وإلى رسوله منْ حلفهم فقال: يا رسول الله! أبرأ إلى اللهِ وإلى رسوله منْ حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأُ منْ حلفِ الكُفّار وولايتهم، فَفِيْهِ وفي عبد الله بنِ أُبيّ نزلت الآياتُ في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني عبد الله بن أُبيّ؛ لأنَّه قال: إنِّي أخشى الدَّوائر: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ حتى بلغَ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لقول عبادة: أتولّى الله ورسوله والذين آمنوا، وتبرئه مِنْ بني قينقاع وحلْفِهم وولايتهم إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦][٢].

الأَمَانـةُ العظيمـة والفَـارِسُ الأمِيـنُ:

* كان عبادةُ بن الصامتِ ـ رضي الله عنه ـ موضع ثقةِ النَّبيِّ ﷺ لصِفَاته الكريمة، ولفروسيَّته، ولأخلاقه العظيمة، فقد كان عَاملاً على جباية الصَّدقات في العَصْر النَّبويّ، وقد استعمله رسولُ الله ﷺ وبعثه على الصَّدقة، وقال له: «اتقِ الله يا أبا الوليد! اتقِ الله، لا تأتي يومَ القيامة ببعيرٍ تحمله له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة لها ثؤاج»[٣].

---

(١) اقرأ سيرة هذا المنافق الفاجر الأفّاك في كتابنا: «المبشَّرون بالنّار» (٢/ ١٥٣ ـ ١٨٨) ولاحظ كيف عامل الرّسول الأعظم ﷺ هذا المُنافق وأمثاله؛ مما يدلُّ على عظمة الدعوة الإسلامية وكمال أخلاق النبي ﷺ.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٠٥) وانظر: لباب النّقول للسيوطي للآيات (٥١ ـ ٥٥) من سورة المائدة. وانظر: تفسير الطّبري والماوردي والقرطبي وابن كثير والبغويّ والشّوكاني والقاسمي وغيرها من التفاسير للآيات (٥١ ـ ٥٥) من سورة المائدة. وانظر الإصابة (٢/ ٢٦٠) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٠٨ و٢٠٩) والبداية والنهاية (٤/ ٤) وطبقات ابن سعد (٢/ ٢٩).

(٣) «الثؤاج»: صياح الغنم.

فقال: يا رسول الله! إنَّ ذلك كذلك.

قال: «إي والذي نفسي بيده! إنَّ ذلك لكذلك، إلا مَنْ رحمَ اللهُ عزَّ وجلَّ».

قال: فو الذي بعثك بالحقِّ! لا أعمل على اثنينِ أبداً(١).

البَطَلُ الفَاتِحُ والقَـائِـدُ النَّـاجِحُ:

* إذا أردنا أنْ نلخِّص حياةَ عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ نقول: كانت حياتُه جهاداً في جهادٍ في جهادٍ، وفروسيةً في فروسية، في فداء وإقدام.

* فلقد بدأ حياته الإيمانيَّة بألاَّ يخاف في اللهِ لومة لائم، وشهد المشَاهد العسكرية والحربية جميعها مع الحبيبِ المصطفى ﷺ، وكان مثال الجنديِّ الشُّجاع، والفارس المقْدَام، المطيع لأوامر قائده.

* وفي عَصْر الخُلفاء الرَّاشدين الأكارم، تابعَ المهمَّة الحربية نفسها، فكان فارس الفُتوحات، وكان من أبرزِ فُرسان الفُتوح في بلاد الشَّام، وكذلك في أرضِ مصْرَ، ولقد شهد له عمر الفاروق العبقري الذَّكي الزَّكي بأنَّه يعدلُ ألفَ رجل! لما حَبَاه الله عزَّ وجل منْ قدرةٍ متميزةٍ على القِتَال والإقدام، ولما أُكرِمه بالشَّجاعة النَّادرة في ميدان المعارك، ولأفْقِه الواسع في تقدير مجريات أمورِ المعارك، وفَهْمِ خفايا العدوّ وأسراره، ناهيك بمعرفتهِ نفسيَّات العدوِ، وزرع الرَّهبة في نفوسِ الأعداء، ومقدرته على القتال في جميع الجبهات(٢).

* ففي تاريخ الغزو والفروسيَّة صَحِبَ عُبادةُ معاويةَ ـ رضي الله عنهما ـ إلى غزوِ الرُّوم، واشتركَ في فَتْحِ اللاذقية، وجبلة، وأنطرطوس، وقبرص.

* وشهد فَتْحَ مصرَ في سنةِ (٢٠هـ)، وكان قائد فتح الإسكندرية سنة

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٠٥ و٣٠٦) وطبقات ابن سعد (٧/ ٣٨٧).

(٢) وهكذا المسلمُ قويٌّ في كل مجال، وبطل في كل شيء، فالقوة تكون بالجسم، والنفس، والفكر، والسلوك... أما الضعف فتكاسل وتقاعس، أعاذنا الله من شرور التكاسل، ومُخَلَّفات التقاعس.

(٢٥هـ)[١]، وله أخبارٌ حَسَنَةٌ في الفتوح تدلُّ على فروسيته الفذَّة، وشجاعته النادرة، منها ما ذكره ابن قُدامة في «الاستبصار» عندما كانَ المسلمون يحاصرون حصنَ بابليون بمصرَ فقال: انفردَ عبادةُ بن الصَّامت من عسكر المسلمين، فقام يصلِّي وفرسه معه، فرآه أهلُ الحصن الذي يحصره المسلمون خالياً، فنزلَ جماعةٌ منهم ليقتلوه، فلمَّا دنوا منه، ركبَ فرسه، وحملَ عليهم فهربوا، فاتبعهم فقتلَ واحداً، ثمّ آخر، وسبقَ سائرهم، فدخلوا حصنهم، وصَعِدُوا على سُوْرِهِ ينظرون ما يصنع، فرجعَ ولم يعرضْ لأسلاب القَتلى، ولا لدوابهم، حتَّى صار إلى مكانه الذي كان به، فنزلَ عن فرسه، وقام يصلِّي مثل ما كان[٢]. وأخبار عُبادة في الفُتوحات لا يمكن حَصْرها في هذا المقام، وقد تكفَّلت كُتُبُ التَّاريخ بذكرها وإيرادها لأهميتها، واستفاضتها، وشهرتها.

مِنْ مَكَارِمِ الفارس عُبَادة:

* أخبارُ عبادة بن الصامتِ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ كثيرة منثورة في بطونِ المصادر، وكلُّها تشيرُ إلى مكانتِهِ في عالَم الفروسيَّة، وفي مصافّ العُلماء، وأُولي الفَضَائل والنُّهى.

---

(١) انظر: الكامل (٢/ ٥٦٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢١) والاستبصار (ص ١٨٨). وقال ابن عبد الحكم: لما أبطأ على عمرو بنِ العاص فَتْح الإسكندرية، استلقى على ظهره، ثمَّ جلس فقال: إنِّي فكرتُ في هذا الأمرِ، فإنَّه لا يصلح آخره إلا مَنْ أصلح أوّله ـ يريد: الأنصار ـ فدعا عبادة بن الصَّامت فَعَقَدَ له، ففتح الله على يديه الإسكندرية منْ يومهم ذلك. (حُسْنُ المُحاضرة ١/ ١٢٠).

(٢) الاستبصار (ص ١٨٨) وانظر النُّجوم الزَّاهرة (١/ ٩).
وقد كان عُبادة ـ رضي الله عنه ـ له همّ وشغلٍ في الجهادِ فقط، وليس له في عَرَض الدُّنيا شيء. وقد جاء في المُسند حديثاً رواه عُبادة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ غزا في سبيل اللهِ وهو لا ينوي في غزاتِهِ إلا عقالاً فله ما نوى» (المُسند ٥/ ٣١٥)؛ ولذلك كانت نيّة عُبادة الجهاد فحسب، ويبدو لي من خلال الخبر مدى ثبات عبادة وشدّة بأسه، وعدم اكتراثه بشرذمة الأعداء، وانصرافه مطمئناً إلى الله عزَّ وجلَّ يصلي ويدعو، ألا فلتكن الشَّجاعة مثل هذه، ومثل عبادة فليكن الفرسان والمغاوير.

* فعُبادة أحدُ رواةِ الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة، رُوي له عن رسولِ الله ﷺ مئة وواحد وثمانون حديثاً، اتَّفق البخاريُّ ومسلم منها على ستةٍ، وانفرد البخاريُّ بحديثين، ومسلم بآخر.

* روى عنه نَفَرٌ من الصَّحابة: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبو أمامة الباهليّ، وفضَالة بن عُبيد، ورفاعة بن رافع، وغيرهم.

* وروى عنه من التَّابعين: بنوه: الوليد، وعُبيد الله، وداود، وأبو سلمة ابن عبد الرحمن، وآخرون[1].

* ومنْ شريفِ أخبار عبادة أنَّه كان يُعلِّم القُرآن الكريم، وكان أحد كُتَّاب الوحي الأبرار من الأنصار، كما أنَّه كان ممَّنْ جَمع القُرآن على عَهْدِ رسول الله ﷺ.

* روى البخاريُّ وابنُ سعد في ترجمته منْ طريق محمّد بن كعب القرظيّ أنّه ممَّنْ جَمَعَ القُرآن في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ[2].

* وقالتِ المصادرُ: كانَ الذين جَمَعُوا القُرآن في زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ خمسةٌ منَ الأنصار: معاذ بن جَبَل، وعبادة بن الصَّامت، وأُبيّ بن كعب، وأبو أيُّوب، وأبو الدَّرداء[3].

* وفي العَصْر النَّبويّ تولّى عُبادة تعليم القُرآن الكريم، فقد كان يعلِّم أهلَ الصُّفَّةِ[4] القُرآن الكريم، حسبةً، ونشراً للعلم، وخدمة للدِّين الحنيف.

* ولما فتح المسلمون الشَّام، أرسل عمرُ عُبادة، ومعاذ بن جبل، وأبا الدَّرداء؛ ليعلِّموا النَّاس القُرآن بالشَّام، ويفهموهم معانيه، فأقام عبادةُ

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٤٤٢ و٤٤٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥) والإصابة (٢/ ٢٦٠).
(٢) الإصابة (٢/ ٢٦٠).
(٣) انظر مثلاً: الطبقات الكبرى (٢/ ٣٥٦) وأسد الغابة، ترجمة عبادة.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧).

بحمص، ثمَّ صار إلى فلسطينَ، فماتَ بها، وأقام أبو الدَّرداء بدمشقَ، ومعاذ بفلسطين، وماتَ بها[1].

* وخلال إقامة عُبادة بدمشق، أنكر على معاوية شيئاً، فقال له: لا أساكنك بأرضٍ، فرحلَ إلى المدينةِ، فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ما أقدمك؟ فأخبره بفعل معاوية.

فقال له عمرو: ارحلْ إلى مكانك، فقبَّحَ اللهُ أرضاً لستَ فيها وأمثالك، فلا إمرةَ له عليك[2].

* قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ في «الإصابة»: ولعبادة قَصَصٌ متعدِّدةٌ مع معاويةَ، وإنكاره عليه أشياء، وفي بعضها رجوع معاوية له، وفي بعضها شكوه إلى عثمانَ منه، تدلُّ على قوَّتِهِ في دِيْنِ اللهِ، وقيامه في الأمْرِ بالمعروف[3].

* وقد أثنى عليه عظماء الصَّحابة، ووصفه كبارُ العلماءِ بأجمل الصِّفات؛ قال النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ: كان فَاضِلاً، خيِّراً، جميلاً، طويلاً، جسيماً ـ رضي الله عنه ـ[4].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧) والإصابة (٢/ ٢٦٠) مع الجمع والتصرف. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٠٦).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٠٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٧) وكان عبادة قد أنكرَ بيع النَّاس كِسَر الذَّهب بالدنانير، وكان عُبادة قد سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول: «لا تبتاعوا الذَّهبَ بالذهب إلا مثلاً بمثل، لا زيادة بينهما ولا نظِرة» ـ أي: لأجلٍ في المستقبل ـ.
فقال له معاويةُ: يا أبا الوليد! لا أرى الرِّبا في هذا إلا ما كان منْ نظرة.
فقال عُبادة: أحدِّثك عن رسولِ الله ﷺ وتحدثني عن رأيك؟
لهذا خرجَ عُبادة إلى المدينة، فردَّه عمرُ، وقال لمعاوية: لا إمرةَ لكَ عليه، واحملِ النَّاسَ على ما قال، فإنَّه هو الأمْرُ (الاستيعاب (٢/ ٤٢٢) بتصرف.

(٣) الإصابة (٢/ ٢٦٠) واقرأ هذه القصص في ترجمته في مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٠١ ـ ٣١٠) وغيرها من المصادر الموثوقة.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧).

وَفَـاةُ الفَـارِسِ المغـوار وَوَصِيَّـه الخَـالدة:

* قضى عبادة بن الصَّامت - رضوان الله عليه - حياةً حافلةً بألوانِ الفضائلِ، والأعمال الجلائل، وها هو يقضي أواخر أيَّامه في بلاد الشَّام، وهاهو العام الرَّابع والثَّلاثون منَ الهجرةِ يحطُّ رحاله على الدُّنيا، فإذا بعبادة يشعر بقربِ اللقاء مع الأحبَّة، مع محمَّد ﷺ وصحبه، وكان على استعدادٍ دائمٍ للقاء الله[1] عزَّ وجلَّ، فقد كان نِعْمَ الرجل المؤمن.

* ففي أحد أيَّام سنة (٣٤هـ) صَعِدتْ روحُ عبادة إلى ربِّها راضيةً مرضيةً، وله اثنتان وسبعون سنة، ودُفِنَ بالرَّمْلة من أرض الشَّام[2].

وقيل: إنَّه توفي في بيتِ المقدس في خلافة عثمان - رضي الله عنهما -[3].

* وفي تاريخ الوصايا النَّفيسة الخالدة، الماثلة للعيان، تلمعُ وصية عبادة؛ التي جمعتْ فنونَ الفضائل المزدانة بالأدبِ النَّبويِّ الرَّفيع المرفود بالقُرآن العظيم. وسنشهد هذه الوصية الكريمة في وَدَاعِ عُبادة - رضي الله عنه - وفي السَّاعات الأخيرة من حياته المِعْطاءِ المِعْطار.

* ذكر ابنُ عساكر - رحمه الله - وغيره قالوا: لما حضرتْ عُبادةَ - رضي الله

---

(١) من علامات الفَضْل والسَّعادة في المرء المؤمن أنْ تكون فيه خمسُ خصال:
١ - أن يكونَ على عبادةِ ربه مُقبلاً.
٢ - أن يكونَ نَفْعه للخلقِ ظاهراً.
٣ - أن يكونَ النَّاس مِنْ شرِّه آمنين.
٤ - أن يكون عمَّا في أيدي النَّاس آيساً.
٥ - أن يكون للموتِ مستعدّاً.
وقد لاحظنا في سيرة عُبادة - رضي الله عنه - أنَّه جمع هذه الخصال كلَّها.

(٢) الاستيعاب (٢/ ٤٤٢) والاستبصار (ص ١٩٠) ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣١٠) والإصابة (٢/ ٢٦٠).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣١٠) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ١١) ولعل هذا هو الصحيح، والله تعالى أعلم.

عنه ـ الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصَّحْنِ ـ يعني: الدار ـ ثمَّ قال: اجمعوا لي مواليَّ، وخدمي، وجيراني، ومَنْ كان يدخلُ عليَّ، فجُمِعُوا له، فقال: إنَّ يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليَّ منَ الدُّنيا، وأوّل ليلةٍ من الآخرة، وإنِّي لا أدري لعلَّه قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيءٌ، وهو ـ والذي نفس عبادة بيده ـ القصَّاص يوم القيامة، وأحرِّج على أحدٍ منكم في نفسه شيءٌ منْ ذلك إلا اقتصَّ منِّي قبل أنْ تخرجَ نفسي.

فقالوا: بل كنتَ والداً، وكنتَ مُؤدِّباً ـ وما قال عبادة لخادمٍ سوءاً قطُّ ـ.

فقال: أغفرتُم لي ما كان منْ ذلك؟!

قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد.

ثمَّ قال: فاحفظوا وصيَّتي: أُحرِّج على إنسانٍ منكم يبكي عليَّ، فإذا خرجت نفسي فتوضؤوا، وأحسنوا الوضوء، ثمَّ ليدخل كلُّ إنسانٍ منكم مسجداً، فيصلي، ثمَّ يستغفر لعبادة ولنفسه، فإنَّ الله تَبارك وتعالى قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ثمَّ أسرعوا بي إلى حُفرتي، ولا تُتْبِعُنِّي ناراً، ولا تضعوا تحتي أرجواناً(١).

* ألا ما أروعَ هذه الوصية التي صَدَرت عن عُبادة الفارس الكريم! عبادة الصَّحابي العالم، غني النَّفس بالإيمان والتَّقوى واليقين بالقَضَاء والقدر، وحسن الظَّنِّ بالله عزَّ وجل وبوعده وفضله. . . وقبل أنْ نلتقيَ فارساً آخر تعالوا نقرأ حديثاً رواه عن النَّبيِّ ﷺ وهو على فراشِ الموتِ حيثُ قال: «من شهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حُرِم على النَّار»(٢).

* وبعد، لقد كان حديثنا عن عبادة بن الصَّامت ممتعاً وشائقاً، وأعتقد أنَّ مئات الصَّفَحات، لا يمكن أنْ تغطي حياة هذا الفَارس، المجاهد، القائد،

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣١٠) و«الأرجوان»: شجر له ورد، أو الصبغ الأحمر، أو الثياب الحمر.
(٢) مسند أحمد (٥/ ٣١٨) وللحديث أصل في الصحيحين وعند الترمذي.

الفاتح، الأمين، المحدِّث، المفسِّر، الفقيه، القاضي، إلا أنَّني استطعت ـ بفضل الله، وحُسْن توفيقه ـ أنْ أجمعَ طاقاتٍ عبقةٍ من زَهْرِ رياض سيرته، ومن كريم وفضائل صفاته، ومنَ ألوانِ جهاده وفروسيّته، وأرجو الله عزَّ وجلَّ أن يحشرنا مع هؤلاء الأبرار الأخيار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، فإنَّا نحبّهم، والمرءُ من مَنْ أحبَّ. اللهم آمين آمين.

* * *

(٤)

كَعْبُ بن مَالِك

ـ رضي الله عنه ـ

* خاطبه ﷺ بقوله: «إنَّ المؤمنَ يجاهد بسيفهِ ولسانه».

فَارِسُ البَيَـانِ والسِّنَـان:

* عَلَمٌ منَ الأعلام، حَلَّق عالياً في سماءِ الكلام، فكان منْ فُرسان البَيان، وأعلام الصَّحابة الشُّجعَان.

* عَلَمٌ مِنْ صَدْرِ الإسلام، ومِنْ أمراءِ البَيان في الأُمَّة المحمدية، رفَع كلمتها، وأخرسَ أعداءها، بما أُوتي منْ شاعرية، وبما حَبَاه الله عزَّ وجلَّ منْ بيانٍ رائع، وكلمةٍ نافذة في نفوسِ مَنْ سوَّلتْ لهم أنفسُهم أنْ يفكِّرُوا في الاعتداءِ على الدَّعوةِ الإسلاميَّة، أو ينالوا من معتنقيها.

* لقد جَمَعَ فارسنُا بين فصاحةِ اللسانِ، وقوة السِّنَان، وجَمَعَ بين غزارةِ الإيمانِ، ورقَّة الوجدان، فخلد مع جَمْهرة الفُرسان الذين صُنِعُوا على عَيْنِ رسولِ الله ﷺ في المدرسة المُحمَّدية؛ التي جهَّزت الأبطال، وأعطتهم ساحات الوغى أجمل الأوسمة وأكاليل الغار.

* كان في طليعة شعراء الصَّحابة الأخيار؛ الذين حَملُوا عِبءَ الدِّفاع بشعرهم عن الإسلام، ورَدّ سهام أعدائه إلى نحورهم، كما كان في طليعةِ فُرسان الصَّحابة، الذين جاهَدوا بسيوفهم، وجادوا بنفوسهم في سبيل الله تعالى، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

* وفارسنُا اليوم أحد أولئك الأنصار الأجواد؛ الذين نصروا رسولَ الله ﷺ، وذادوا عن دِيْنه بالغالي والرَّخيص، ولكنَّه فاق غيره، إذ كان يجاهدُ ببيانِهِ ولسانه، ذلكم هو كعبُ بنُ مالك بن أبي كعب الأنصاريّ الخزرجي العقَبِيّ الأُحديّ[1].

---

(١) وجدتني وأنا أعدُّ لدراسةِ كعب بن مالك أمام عشرات المصادر المتنوعة، وسأورد بعضاً منها انظر: مسند أحمد (٣/ ٤٥٤) و(٦/ ٣٨٦) ومغازي الواقدي (انظر فهارس الأعـلام ٣/ ١٢٢٦) والمحبَّر (ص ٧٢ و٢٧١ و٢٧٢ و٢٨٨ و٢٩٨) والأغـانـي للأصبهاني (١٦/ ٢٢٦ ـ ٢٤٠) والاستبصار (ص ١٠٨ و١٣٨ و١٤٢ و١٥٣ و١٦٠ و١٦١ و٢١٤) والاستيعاب (٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧٤) ومختصر تاريخ دمشق (٢١/ ١٨٨ ـ ٢٠٣) ومنح المدح (٢٧٠ ـ ٢٧٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٩) والبداية =

* أسلم كعب بن مالك مبكّراً، فكان منْ أوائِل الأنصار؛ الذين شَهدوا شهادة الحق، وأضاء الإسلامُ جوانبَ نفوسهم. ولما كانتِ العقبةُ الثَّانيةُ، توجَّه كعبُ بنُ مالك ـ مع اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين، ممن كانوا طلائعَ الإسلامِ الأوَّل في المدينةِ ـ إلى مكةَ حيثُ وافوا رسولَ الله ﷺ في العقبةِ، وبايعوه على الإسلام، والإيواء، والنُّصْرة.

* ومنَ الجدير بالذِّكْر أنَّ المصادر الوثيقة قد روت قصَّة بيعة العقبة عن طريق كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حيثُ فصَّلَها بأسلوبٍ قَصَصيٍّ أخّاذ، ومن خلالها تظهرُ معالم شخصيته، وفروسيته، ودوره في خدمةِ الإسلام[1]. وفي هذه المناسبة يقول كعب مفتخراً:

ألا أيهذا السَّائلي عن عشيرتي ... هلمّ إلى أهلِ المكارم والفَخْرِ
أنا ابنُ مباري الرِّيح عمرو بن عامر ... نمتُّ إلى قحطان في سالف الدَّهْرِ
نصرنا رسولَ الله إذ حلَّ وسطنا ... ببيضِ اليماني المثقَّفة السُّمْرِ

الفَارِسُ الشَّاعِرُ:

* عندما أطلَّ العام الهجريّ الثَّاني، وجاء شهر رمضان، خرجَ المسلمون بقيادة رسولِ الله ﷺ إلى بَدْر، وتخلَّفَ عنه بعض أعلام الصَّحابة ظنّاً منهم أنْ لن يلقى حرباً أو كيداً، ويدلُّ على ذلك ما وَرَدَ في الصَّحيح عن عبد الله ابن كعب قال: سمعتُ كعبَ بنَ مالك يقول: . . . إنَّما خرجَ رسولُ الله ﷺ يريدُ عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[2].

* وفي بَدْر انتصر المسلمون، وعادوا يحملون رايات النَّصر، فتلقاه

= والنّهاية (٨/٤٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ١٠٦ ـ ١٠٨) ونكت الهميان (ص ٢٣١ و٢٣٢) وتهذيب التّهذيب (٨/ ٤٤٠ و٤٤١) والإصابة (٣/ ٢٨٥ و٢٨٦) وكنز العمّال (١٣/٥٨١) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

(١) انظر مثلاً قصة العقبة: في البداية والنّهاية (٣/١٥٨ ـ ١٦٢).

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في الصحيح في كتاب المغازي؛ باب: قصّة بدر. انظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٥). وأخرجه مسلم في كتاب التوبة برقم (٢٧٦٩) باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

الصَّحابة يهنئونه بنصرِ الله، وكان مِنْ بينهم فارسنا كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فهو وإنْ غابَ عن غزاة بَدْر بشخصه، فإنَّ شعرَه لم يغبْ عَنْ تلكَ الموقعة، وإنّما شاركَ ببيانه الرَّائع بعدَّةِ قصائد منها قوله:

عجبتُ لأَمْـــرِ اللهِ واللهُ قـــادرٌ ... علــى مــا أراد ليــس للهِ قــاهــرُ
قضى يوم بدر أن نلاقي معشراً ... بغوا وسبيل البغي بالناس جائرُ
فلمّا لقينــاهــم وكــلّ مجاهــد ... لأصحابه مستبسـل النَّفس صابرُ
فكُبَّ أبو جهلٍ صريعاً لوجهه ... وعتبـة قـد غـادرتـه وهـو عـاثـرُ
وشيبةُ والتَّيمي غادرت في الوغى ... ومـا منهـم إلا بـذي العـرش كـافـرُ
فأمسوا وقود النَّار في مستقرها ... وكـلّ كفـور فـي جهنـم صـائـرُ

وقال أيضاً قصيدة أخرى نقتطف بعضاً من أبياتها:

لعمــر أبيكمــا يــا بنــي لــؤي ... علــى زهــوٍ لــديكــم وانتخــاء
لمــا حــامــت فــوارسكــم ببــدرٍ ... ولا صبــروا بــه عنــد اللقــاء
وردنـــاه ونـــور الله يجلـــو ... دجــى الظَّلمــاء عنّــا والغطــاء

وَيَومَ أُحُـدٍ يُقَـاتـل بسِنَـانِـهِ ولسَـانِـهِ:

* أجمعتِ المصادرُ على اختلافِ مشاربها أنَّ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قد شهد العقبة مع السَّبعين من الأنصار، وشهد أحداً والخندقَ وبيعة الرِّضوان وخيبر والمشاهد كلّها ما خلا غزاة تبوك، فإنّه كان أحد الثَّلاثة الذين تخلَّفوا عن رسولِ الله ﷺ.

* وها هو يوم أحد يدقُّ الأبواب، فإذا بكعب في مقدمةِ المجاهدين ممن خرجوا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء الشَّهادة، وقبل أنْ يشرعَ في إبرازِ سيفه وسنانه، أبرز لسانه، فقد وَرَدَ أنَّ أبا سفيان أقبل يوم أحد، فقال: يا معشر الأنصار! خلّوا بيننا وبين إخواننا من قريش، فإنكم إنْ فعلتم رحَلنا عنكم، فكادَ ذلك يكسرُ في أذرع القوم، فقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يحرِّضُ الأنصار، وبعثَ إلَى أبي سفيان قصيدة تشيرُ إلى شدَّةِ بأس الأنصار، ومطلعها:

أبلـغْ أبا سفيـان أنْ قـد أَضَا لنـا ... بأحمدَ نورٌ منْ هدى اللهِ ساطع[1]

فلا ترغبنْ في حربنا أنْ تكيدنا ... وألّبْ وجمّعْ كلّ ما أنتَ جامعُ

ودونك فاعلم أنَّ نقض عهودنا ... أباه المـلا منّـا الـذيـن تبـايعوا[2]

* استعدَّ الفريقان، هنالك دعا رسولُ الله ﷺ كعب بن مالك، وكانت عليه درع صَفْراء، فأخذها رسولُ الله ﷺ ولبسها، ونزعَ رسولُ الله ﷺ درعه، فلبسها كعب[3].

* وبدأ القتالُ بين الفريقين، وكانت الدَّائرةُ عل المشركين في بدايةِ الأمْر، ولكنَّ الرُّماة الذينَ وضعهم رسولُ الله ﷺ بأعلى الجبل خالفوا الأمْر، فانقلبت كفَّة المعركة، واندفع المشركون نحو رسولِ الله ﷺ يريدون قَتْله، منهم ابن قمئة، فتلقَّاه مصعب بن عمير، فقتله ابن قمئة ظنّاً أنّه رسولُ الله ﷺ، وصاحَ صائحٌ: ألا إنَّ محمّداً قد قُتِلَ؛ هنالك ذُهِلَ بعضُ المسلمين عن أنفسهم، فمنهم مَنْ ولَّى هارباً، ومنهم مَنْ انطلق صَاعداً فوق الجبل، وألقى سلاحه مِنْ هول الفاجعة، ثمَّ لم يلبثوا أنْ فاؤوا إلى الرَّسولِ ﷺ وإلى القتال، ومنهم مَنْ قاتل دفاعاً عنِ دينهم، وحماية لأنفسهم وهم كثير منهم: كعب بن مالك، وقتادة بن النُّعمان[4]، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، وغيرهم.

* وثَبَتَ رسولُ الله ﷺ يدافع ويجالد جموعَ المشركين، وهو يقول: «إليَّ عباد الله! إليَّ عباد الله!» ففَاءَ إليه كثيرون ممّن أذهلتهم شائعة أنّه قُتِلَ، وكان أوّل مَنْ عَرَفَ رسولَ الله ﷺ كعب بن مالك، فإنّه رأى عينيه الشّريفتين تزهران

---

(١) «أضا لنا»: أضاء لنا، وخففت من أجل ضرورة الشعر.
(٢) «الملا»: أي: الملأ، وهم النّقباء في ليلة العقبة، وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة منَ الخزرج، وثلاثة من الأوس.
(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٩٢/٢١) بتصرف يسير.
(٤) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٦٢٧).

منْ تحتِ المغْفَرِ، فنادى: يا معشر المسلمين! أبشروا هذا رسول الله، فأشار إليه الرَّسولُ ﷺ أن أنْصِت[1].

* قال كعب ـ رضي الله عنه ـ: لما انكشفَ النَّاسُ يومَ أحد، كنتُ أوَّلَ مَنْ عَرَفَ رسولَ الله ﷺ، وبشَّرْتُ به المؤمنين حيّاً سَوياً[2].

* وقد خرجَ كعب ـ رضوان الله عليه ـ من غزوة أحد وهو يحمل سبعة عشر جرحاً في بدنه، حيثُ قاتل يومها قِتالاً شديداً، وظلَّ قريباً من رسولِ الله ﷺ يتابع أخباره، وكان أحد ستة فُرسان عندهم خبر الرَّسول ﷺ يوم إذ.

* عن ابنِ شهاب الزّهريّ ـ رحمه الله ـ قال: خَفِيَ خبرُ رسول الله ﷺ يوم أحد على النَّاس كلِّهم إلا على ستة نَفَر: الزُّبير بن العوَّام، وطلحة بن عُبيد الله، وسَعْد بن أبي وقاص، وكعب بن مالك، وأبي دُجَانة، وسَهْل بن حنيف[3].

* ولم تكنْ غزوةُ أحد؛ لتمضي دون أنْ يذكرها كعب في شعره، فقد سجَّلَ ذلك في بضْعِ قصائد، صوَّرَ فيها المعركة، ورثى شهداء أحد، وفي مقدمتهم حمزة بن عبد المطَّلب؛ فمما قاله يوم أحد:

سَائِلْ قُرَيشاً غداة السَّفْحِ منْ أحدٍ
ماذا لقينا وما لاقوا منَ الهربِ
كنّا الأسود وكنّا النّمر إذ زحفوا
ما إن تراقب ما آلٍ ولا نسبِ
فكم تركنا بها من سيّد بطلٍ
حامي الذمام كريم الجدّ والحسبِ

* وشارك كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في رثاء سيِّد الشُّهداء حمزة بن

---

(1) إنَّ إشارةَ رسولِ الله ﷺ على كعب بنِ مالك بأن ينصتَ فيها من الحكمةِ البالغة ما لايخفى على كل لبيب، حيث إنَّ شائعةَ قَتْل رسول الله ﷺ كان من شأنها أن يخفف المشركون الوطأة على المسلمين، فإذا علموا أنَّه لا يزال حيّاً، عاودوا الكرة.

(2) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ١٩٢).

(3) المصدر السابق.

عبد المطلب بأكثرَ منْ قصيدة، منها هذه القصيدة الدَّالية التي تبلغ واحداً وعشرين بيتاً نقتطف منها قوله:

ولقــد هــددتُ لفقــد حمــزة هــدّة
ظلّــتْ بنــاتُ الجــوفِ منهــا تــرعــدُ

قــرمٌ تمكّــن فــي ذؤابــةِ هــاشــم
حيــثُ النّبــوّة والنّــدى والسُّــؤددُ

* ويقول من قصيدة لاميّةٍ طويلة تبلغ (١٦ بيتاً) منها:

بكــتْ عيني وحــقَّ لها بكــاهــا   ومــا يغنــي البكــاءُ ولا العــويــلُ
علــى أسـدِ الإلــه غــداةَ قــالــوا   أحمــزة ذاكــم الــرّجــل القتيــلُ؟!

شِعْرُهُ وَجِهَادُهُ فِي سَائِرِ الغَزَوَاتِ:

* قال صلاحُ الدِّينِ الصَّفديّ ـ رحمه الله ـ كان كعبٌ أحَدَ شعراء النّبيِّ ﷺ الذين يردُّون الأذى عنه. كان مجوداً مطبوعاً، قد غلبَ عليه في الجاهلية أمْر الشِّعر، وعرف به(١).

* ففي غزاة بني النّضير، شارك كعب بسنانه ولسانه، حيث جاهر يهود بني النّضير ـ بعد غزاة أحد ـ بالعداوة والغدر، وأخذوا يتّصلُون بالمنافقين وبالمشركين منْ أهلِ مكةَ سِرّاً، ويعملون لصالحهم ضدَّ المسلمين، وازدادتْ عداوتهم بعد وَقْعَةِ الرَّجيع وبئر معونة، فقاموا بمؤامرة تهدفُ القضاء على رسولِ الله ﷺ، واغتياله(٢)، عند ذلك أجلاهم رسولُ الله ﷺ، وقبض سلاحهم، واستولى على أرضهم، وديارهم، وأموالهم، فوجد مِنَ السِّلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمئة وأربعين سيفاً.

* وقد كانت غزوة بني النّضير في ربيع الأوّل سنة أربع من الهجرة، وأنزل الله عزَّ وجلَّ في هذه الغزوة سورة الحَشْر بأكملها، وفيها وصف طرد اليهود،

---

(١) انظر: نكت الهميان (ص ٢٣٢).
(٢) يراجع ذلك في البداية والنّهاية (٤/ ٧٤ ـ ٨٠) وتفسير سورة الحشر في تفسير الطبريّ والقرطبيّ والرازيّ وابن كثير وغيرها.

وفَضَح مَسْلك المنافقين، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وكان ابنُ عبّاس ـ رضي الله عنه ـ يقول عن سورة الحَشْر: قُل سورة النَّضير[1].

* أمّا كعب بن مالك فقد قال قصيدة طويلة ذكر فيها إجلاء بني النَّضير وقتل كعب بن الأشرف اليهوديّ، ومطلعها:

لقد خزيتْ بغدرتها الحبور
كذاك الدّهر ذو صرف يدور[2]
وذلك أنّهم كفروا بربٍّ
عظيمٍ أمره أمرٌ كبير

وفيها يذكر غدرهم وكفرهم، ويذكر مقتل كعب بن الأشرف:

فلمّا أشربوا غدراً وكفراً ... وجدَّ بهم عن الحقّ النُّفور
أرى الله النّبيَّ برأي صدق ... وكان اللهُ يحكم لا يجور
فأيَّده وسلَّطه عليهم ... وكان نصيره نعم النَّصير
فغُودر منهم كعب صريعاً ... فذلّت بعد مصرعه النَّضير[3]

* ولما كانت غزوة الأحزاب، أخذَ المسلمون يحفرون الخندق، فشارك كعب مع مَنْ شارك في هذ العمل العظيم، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ هَزَمَ الأحزاب وَحْدَه، وألقى في قلوبهم الرُّعب والخوف، وردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، وقد ألقى كعب في هذه المناسبة عدداً منَ القصائد يذكر فيها وقعة الأحزاب، ومنها هذه القصيدة:

لقد علمَ الأحزابُ حينَ تألّبوا
علينا وراموا دِيننا ما نوادعُ
يذودوننا عن دِيننا ونذودهم
عن الكُفْر والرّحمن راءٍ وسامعُ

---

(1) انظر: السّيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٢).
(2) «الحبور»: جمع حبر، وهم علماء اليهود.
(3) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٧).

إذا غـــايظـــونـــا فـــي مقـــامٍ أعـــانـنـــا
علـــى غيظهـــم نَصْـــر مـــن الله واسـعُ

وذلـــك حفْـــظ الله فينـــا وفضلـــه
علينـــا ومـــن لـــم يحفـــظِ الله ضـائـعُ

هـــدانـــا لـــديـــن الحـقّ واختـــاره لنـــا
ولله فـــوق الصَّـــانعيـــن صنـــائـــع[1]

* كما حضر كعب بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ غزوة خيبر، وغزوة الطَّائف، وشارك فيهما بسيفه ولسانه.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾:

* نحنُ الآن في رحاب غزوة تبوك، غزوة العسرة، تلك الغزوة العظيمة التي كان لكعب بن مالك فيها قصَّة، وأي قصة؟! فقد تخلَّف عن المسير مع رسولِ الله ﷺ إلى تبوك ومعه نفر قليل من خُلَّصِ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ بغير عذر، ولم يُعرفُ عنهم قطّ غميزة في دِيْنهم وإخلاصهم، وحبِّهم لله ورسوله.

* كانوا ثلاثةً من خيارِ الصَّحابة، تخلَّفوا عنِ الغَزْوة، وقد ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابهِ الكريم قصَّة الثَّلاثة الفضلاء الذين تخلَّفوا عن تبوكَ بغيرِ عذرٍ، ثمّ خُلِّفوا عنِ التَّوبة عليهم، فعاشوا في شدائدِ الأزمات خمسين يوماً مهاجرين لا يُكلِّمون، ولا يُكلَّمون، ولا يعاملون؛ وهم: كعب بن مالك السُّلمي الأنصاريّ، ومرارة بن الرَّبيع العمريّ الأنصاريّ، وهلال بن أمية الواقفيّ الأنصاريّ.

* نعم لقد ذكرهم الله عزَّ وجلَّ في أسلوب تصويري مبدع الإعجاز، رائع البيان، نديّ النَّغمات، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٣٥).

إنَّ هذا التَّصوير المجسَّد للموقف، النَّاطق بإعجازه، وروعة إيجازه، يحمل في طياته صورة مجسّدة للمعنى الذي تقصد إليه الآية الكريمة، فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ ينادي بتخصيصهم العدديّ، وإفرادهم بالذِّكْرِ مع إبهام أشخاصهم المعيّنة لهم كما تعين الأسماء مسمياتها بالعتْبِ المتلطف، كأنَّه قيل لهم: أنتم في سُموِّ منزلتكم الإيمانية لم تكونوا ممن ينبغي أنْ يصدرَ منه ما صدر منكم منَ التّخلُّفِ منْ أعظم الشَّرف، وهكذا جمع التَّعبير المؤلف من اسمٍ وحرفٍ ثناءً رمزياً، وعتباً إشارياً، والثناء والعَتْب طرفان بينهما حبٌّ نديٌّ، يأخذ من كلّ طرف حظّه.

* ومن دقَّة فَهْم الصَّحابة الكرام لمناهج رسالة الإسلام، أنَّهم يخرجون من مواقعة الهفوات إلى الدّخول في ساحاتِ الطَّاعات بنفس ما كان سبباً للهفوات.

* ولعلَّ موقف كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ منْ أروعِ النَّماذج الحيَّة للإيمان الصَّادق، فقد ذكر كعب في حديثه حاله وموقفه في تفصيل مُسْهَب حتى تاب الله عزَّ وجلَّ عليه.

* وهذا الحديثُ روته جمهرة كُتُب الحديث، والسِّيرة، والتَّراجم، والطَّبقات، والتَّفاسير، وغير ذلك من المصادر، وهو قطعة أدبية نادرة، لما حوى منْ جمال التَّصوير، وصدق العاطفة الإيمانية، وروعة البيان السَّاحر، إلى ما هنالك من تصويرٍ للعواطف التي تعتلجُ في نفوس خُلَّصِ المؤمنين حينما يطلبون الفرج من الله عزَّ وجلَّ.

* وها نحنُ نقتطف فِقْرات كاشفة منْ حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ لما فيه من صدقِ الإخلاص، وإخلاص الصِّدق.

* أخرج الشَّيخان حديث الثّلاثة الذين خلّفوا برواية كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وأسلوبه منْ طريق ابن شهاب الزُّهريِّ، عن عبد الرحمن ابن عبد الله ـ حفيد كعب بن مالك ـ عن أبيه عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان عبد الله قائد أبيه من بين بنيه حين عمي كعب ـ:

* قال عبدُ الله: سمعتُ كعبَ بنَ مالك يُحدِّثُ حين تخلَّف عن غزوةِ تبوك، فقال:

لم أتخلفْ عنْ رسولِ الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطّ إلا في غزوةِ تبوك، غير أني كنتُ تخلفتُ في غزوة بدر، ولم يعاتبْ رسولُ الله ﷺ أحداً تخلَّف عنها، إنَّما خرجَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون يريدون عِير[1] قريش، حتى جَمَعَ الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

* ولقد شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أنَّ لي بها مشهد بدر، وإنْ كانت بدر أذكَر في النَّاس منها.

* وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسولِ الله ﷺ في غزوة تبوك، أنِّي لم أكنْ قطُّ أقوى ولا أيسر منِّي حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، واللهِ ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة.

* ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى تلك الغزوة، غزاها رسولُ الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سَفَراً بعيداً، ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلَّى للمسلمين أمرهم، ليتأهَّبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون معَ رسولِ الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - أي: ديوان - فقلَّ رجلٌ يريد أنْ يتغيَّبَ إلا ظنَّ أنَّ ذلك سيخفى له، ما لم ينزلْ فيه منَ الله تعالى.

* وغَزَا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوة حين طابتِ الثّمار والظّلال، فأنا إليها أصْعَرُ[2]، فتجهَّزَ إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجع، ولم أقْضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ عليه إذا أردته، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو[3]، فهممتُ أنْ أرتحلَ فأدركهم، فياليتني فعلتُ، ثمَّ لم يُقَدَّر لي ذلك.

---

(١) «العِيْر»: الإبل التي عليها أحمالُها.

(٢) «أصعر»: أميل.

(٣) «تفارط الغزو»: أي: تقدَّم الغزاة.

* فطفقتُ إذا خرجتُ في النّاس بعد خروج رسولِ الله ﷺ يحزنني أنْ لا أرى لي أسوة[1] إلا رجُلاً مغموصاً[2] عليه في النِّفاق، أو رجلاً ممّن عَذَر الله مِنَ الضُّعفاء، ولم يذكرني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟».

فقال رجلٌ من بني سَلِمَة: يا رسول الله! حَبَسَهُ بُرْداه والنَّظر في عطفيه.

فقال معاذ بن جبل[3]: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما عَلِمْنَا عليه إلا خيراً[4]؛ فسكتَ رسولُ الله ﷺ.

* قال كعب بنُ مالك: فلمَّا بلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ قد توجَّه قافلاً مِنْ تبوكَ حضرني همِّي، فطفقتُ أتذكر الكذبَ، وأقول: بِمَ أخرج مِنْ سخطِهِ غداً، وأستعين على ذلك كلّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمّا قيل لي: إنَّ رسول الله ﷺ قد أطلَّ قادماً زاحَ عني الباطل، حتى عرفتُ أنّي لن أنجوَ منه بشيءٍ أبداً، فأجمعتُ صِدْقَهُ، وصبح رسولُ الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سَفَرٍ، بدأ بالمسجِد، فركع فيه ركعتين، ثمَّ جلس للنَّاسِ.

* فلمَّا فعلَ ذلك، جاء المتخلِّفون، فطفقوا يعتذرونَ إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم،

---

(١) «أسوة»: قدوة.

(٢) «مغموصاً»: مُتَّهماً.

(٣) اقرأ سيرته في كتابنا: «علماء الصحابة».

(٤) «حبسه برداه ....» البُردان: يعني به: الرداء والإزار، والرداء والقميص. وسمَّاهما بُرْدَيْن؛ لأنَّ القميصَ والإزار قد يكونانَ من بُرود. والبُرود: ثياب من اليمن فيها خطوط. والعِطْفُ: الجانب وكأنَّ هذا القائل كان في نفسه حِقْدٌ، ولعلَّه كان منافِقاً، فَنَسَبَ كعباً إلى الزهو والكبر، وكانت نسبةً باطلةً، بدليل شهادة العدل الفاضل معاذ بن جبل؛ إذ قال: بِئْسَ ما قلتُ. والله! يا رسول الله! ما عَلِمنا عليه إلا خيراً.
وفي هذا جواز الذم والتقبيح للمتكلم في حق المسلم بالعيب والقبيح، ونصرة المسلم في حال غَيْبته، والرَّدّ عن عِرْضه.

واستغفر لهم، ووكَلَ سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمَّا سلمتُ، تبسّم تبسُّم المغضَبِ، ثمَّ قال: «تعال».

فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ أَلَمْ تكن قد ابتعتَ ظهرك؟»[(١)].

فقلتُ: بلى، إنّي والله يا رسول الله! لو جلستُ عند غيرك مِنْ أَهْل الدُّنيا، لرأيت أنّي سأخرجُ من سخطه بعذرٍ، واللهِ لقد أُعطيتُ جدلاً[(٢)]، ولكنّي واللهِ! لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عنّي ليوشكنَّ الله أنْ يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صِدْق تَجِد فيه عليَّ، إنّي لأرجو فيه عَفْوَ الله، لا والله ما كان لي من عذْرٍ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صَدَق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمتُ.

*وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: واللهِ ما علمناك أذنبتَ ذنباً قبل هذا، لقد عجزتَ في ألاَّ تكون اعتذرتَ إلى رسولِ الله ﷺ بما اعتذر به إليه المتخلِّفون؟ فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.. ثمَّ قُلْتُ لهم: هل لقي هذا معي منْ أحد؟

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قُلْتَ.

قلتُ: مَنْ هُما؟.

قالوا: مرارة بن الرّبيع العامري[(٣)]، وهلال بن أميّة الواقفيّ.

فذكروا رجلين صالحَيْن، قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي، ونهى رسولُ الله عن كلامنا أيُّها الثّلاثة[(٤)] مِنْ بين مَنْ تخلَّف

---

(١) «ظهرك»: ـ هنا ـ الإبل التي يُحمل على ظهورها.

(٢) «الجدل»: الخصومة المحكمة.

(٣) كذا نسبه مسلم، والصواب: العَمْري.

(٤) «أيها الثلاثة»: أي: نحن المتخصصين بذلك دون بقية الناس. وهذا دليلٌ على وجوب هجران مَنْ ظهرتْ معصيتُه، فلا يُسَلَّم عليه إلا أن يُقْلِعَ، وتظهرَ توبتُه.

عنه، فاجتَنَبنا النَّاس، وتغيروا لنا، حتى تنكَّرت[1] لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرضِ التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

* فأمَّا صاحباي، فقد استكانا[2]، وقَعَدوا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا فقد كنتُ أشبَّ القومِ[3]، وأجلدهم[4]، فكنتُ أخرج، فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ، فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصَّلاة، فأقولُ في نفسي: هل حرَّكَ شفتيه بردِّ السَّلام أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً مِنه، وأسارقه النَّظر[5]، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرضَ عنِّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ منْ جفوةِ المسلمين، مشيتُ حتى تسوّرتُ حائط[6] أبي قتادة[7] - وهو ابن عمِّي وأحبَّ النَّاس إليَّ - فسلمتُ عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السَّلام، فقلتُ له: يا أبا قتادة! أنشدكَ الله[8]، هل تعلمنَّ أنِّي أحبَّ الله ورسوله؟ فسكتَ، فعدتُ فناشدته، فسكتَ، فعدتُ فناشدته، فقال: اللهُ ورسوله أعلم.

ففاضتْ عيناي، وتوليتُ حتى تسوَّرت الجدار، فبينا أنا أمشي في سُوق المدينة، إذا نبطيٌّ[9] منَ نَبَطِ أهل الشَّام ممن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بنِ مالك؟ فطفقَ النَّاس يشيرون له إليَّ حتى جاءني، فدفع إليَّ كتاباً من مَلِكِ غسَّان، فكنت كاتباً، فقرأتُه، فإذا فيه: أمَّا بعد، فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاكِ ولم يجعلك بدارِ هوان،

---

(1) «تنكرت»: تغيرت.
(2) «استكانا»: سكنا، أي: خضعا وذلاً.
(3) «أشبَّ القوم»: أصغرهم.
(4) «أجلدهم»: أقواهم.
(5) «أسارقه النظر»: أي: أنظر إليه بطَرْفٍ خفيٍّ.
(6) «تسورتُ حائط»: علوتُ جدار.
(7) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص (؟؟؟).
(8) «أنشدك الله»: أي: أسألك بالله.
(9) «نبطي»: واحد النَّبط، وهم العامرون لتلك الأراضي، وسمُّوا بذلك لأنهم ينبطون المياه؛ أي: يستخرجونها.

لا مَضيعة[1]، فالْحَقْ بنا نُواسِكَ؛ فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً مِنَ البلاء، فتيممت[2] بها التَّنُّور، فسجرته بها[3].

* حتى إذا مضتْ أربعونَ مِنَ الخمسين، واستلبث الوحيُ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرك أنْ تعتزلَ امرأتك.

فقلتُ: أُطلِّقها أمْ ماذا أفعل؟.

قال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنها.

فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمْرِ.

* فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثمَّ صليتُ صلاةَ الفجر صباح خمسين ليلة على ظهرِ بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكَرَ الله منا، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقتْ عليَّ الأرض بما رحُبت[4]، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى[5] على سَلْعٍ[6] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبْشِرْ، فخررْتُ ساجداً[7]، وعرفْتُ أن قد جاء فرج.

* وآذنَ رسولُ الله ﷺ بتوبةِ الله علينا حين صلَّى صلاةَ الفجر، فذهب النَّاسُ يبشروننا، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني، نزعتُ له ثوبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملكُ غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبَيْنِ فلبستهما.

---

(١) «مَضيعة»: ضَياع، وهو الإهمال، وترك المبالاة به حتى يضيع.

(٢) «فتيممت»: فقصدت.

(٣) «فسجرته»: أي: رميته وأحرقته.

(٤) «بما رحبت»: أي: برُحْبها، والرُّحب: السعة.

(٥) «أوفى»: أطلَّ، وأشرف.

(٦) «سلع»: جبل بالمدينة.

(٧) «فخررتُ ساجداً»: هذه سجدة الشكر. وظاهِرُ هذا أنها كانت معلومة عندهم، معمولاً بها فيما بينهم.

* قال كعب: وانطلقتُ إلى رسولِ الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً[1] يهنئوني بالتَّوبة، يقولون: لِتَهْنِكَ توبةُ اللهِ عليك، حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله النَّاس، فقام إليَّ طلحة بن عُبيد الله[2] يهرولُ حتى صافحني وهنَّأني، فلا أنساها لطلحة[3]، فلمَّا سلمتُ على رسولِ الله ﷺ، قال رسولُ الله وهو يبرق وجهه من السُّرور: «أَبْشِرْ بخيرِ يومٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمّك».

فقلتُ: أَمِنْ عندك يا رسول الله، أمْ مِنْ عندِ الله؟.

قال: «لا، بل منَ عندِ الله».

* وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنَّه قطعةُ قمر، وكنَّا نعرفُ ذلك منه. فلمَّا جلستُ بين يديه قلتُ: يا رسول الله! إنَّ مِنْ توبةِ الله عليَّ أنْ أنخلعَ مِنْ مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.

فقال رسولُ الله ﷺ: «أمسكْ عليك بعض مالك، فهو خير لك».

فقلتُ: إنّي أمسك سَهْمي الذي بخيبر.

وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدقِ، وإنَّ من توبتي[4] أنْ لا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما علمت أحداً منَ المسلمين أبلاه[5] الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدتُ كذبةً منذ قلتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنِّي لأرجو أنْ يحفظني الله فيما بقيتُ، وأنزلَ الله عزَّ وجلَّ على

---

(١) «فوجاً فوجاً»: أي: زمرة زمرة، وجماعة بعد جماعة.

(٢) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٢٢٠).

(٣) «فلا أنساها لطلحة»: أي: تلك القومة، والبشاشة التي صدرتْ له منه. ومعناه: أن تلك الفعلة أكّدت في قلبه محبّته، وألزمته حُرْمته، حتى عدَّها من الأيدي الجسيمة، والمنن العظيمة.

(٤) «إن من توبتي»: أي: من علامات صدق توبتي، أو: من شُكر توبتي.

(٥) «أبلاه»: أنعم عليه. وأصله: من الابتلاء، وهو الامتحان، والاختبار.

رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩][(١)].

* ثمَّ قال كعبُ بنُ مالك في حديثه: فوالله ما أنعم الله عليَّ منْ نعمة قطّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي منْ صدق رسول الله ﷺ إلا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إنَّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦][(٢)].

* قال كعب: كنَّا خُلِّفنا أيها الثَّلاثة عن أمْرِ أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضي الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلّفنا تخلفنا عن الغزو، وإنّما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حَلَفَ له واعتذر إليه فقبل منه[(٣)].

---

(١) «العسرة»: الشدة، وسوء الحال. «تزيغ»: تميل وتذهب.

(٢) «رجس»: هو المستقذر، المستخبث، المذموم.

(٣) انظر: فتح الباري (٧/٧١٧ ـ ٧١٩) باختصار يسير برقم (٤٤١٨)، وأخرجه البخاري في مواضع كثيرة من صحيحه؛ انظر الأحاديث ذات الأرقام: (٢٧٥٧ و٢٩٤٧ و٢٩٤٨ و٢٩٤٩ و٢٩٥٠ و٣٠٨٨ و٣٥٥٦ و٣٨٨٩ و٣٩٥١ و٤٦٧٣ و٤٦٧٦ و٤٦٧٧ و٤٦٧٨ و٦٢٥٥ و٦٦٩٠ و٧٢٢٥).
وأخرجه مسلم في التوبة برقم (٢٧٦٩) باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه. ،أحمد (٦/٣٨٦) وأبو داود (٢٢٠٢) والنسائي (٢/٥٣).
وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٥٣١) ومختصر تاريخ دمشق (٢١/١٩٧ ـ =

* وهكذا عشنا تلكم اللحظات مع حديثِ التَّوبة، تلك التَّوبة التي أشرقتْ بها قلوبُ الثَّلاثة الأصفياء، وتحاتَّت عنهم هفواتهم، كما تتحات أوراق الأشجار، واستضاءتْ بها أرواحهم بنور التَّطهُّرِ، وكان من توبتهم أنَّهم طرحوا غرور الدُّنيا، وتصدَّقُوا بأموالهم، وانخلعوا عن كلِّ ما كان سبباً في تخلُّفهم عن الجهادِ مع رسولِ الله ﷺ في غزوة تبوك.

* وحسب هؤلاء التَّوابين ما هنأ به رسولُ الله ﷺ كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فقال له: «أبشر بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك» وهذه التَّهنئة تحمل في طياتها أنَّهم أحسنوا التَّوبة فأَحْسَن الله إليهم رضاءه عنهم، وأدخلهم في منازل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] حيث بوأهم فيها أشرف مراتعها، وآتاهم الله من فضله أنْ جعل توبتهم قرآناً يتعبّد به إلى يوم الدِّيْن.

منْ نَـفَحَاتِ فَارِسِ الشُّـعَراء المسلمين:

إنَّ فارِسَنا كعبَ بنَ مالك، فارسُ الغزوات، وفارسُ التَّوبة النَّصوح، وفارس الشِّعر والبيان، وشاعر الفروسيَّة والسِّنان، وهو أحد الذين حَمَلُوا راية العلم، فقد روي لكعب ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ﷺ ثمانون حديثاً، اتفقا على ثلاثة منها، وانفرد البخاريّ بحديث ومسلم بحديثين[١].

* روى عنه أولاده: عبد الله، وعُبيد الله، وعبد الرحمن، ومحمد ومعبد بنو كعب، وجابر وابن عبّاس، وأبو أمامة الباهليّ، وحفيده عبد الرحمن بن عبد الله، وآخرون[٢].

* ولقد سَمِعْنَا واستمتعنا بروايته في الحديث الفائتِ الذي وَرَدَ في

= ٢٠٢) والبداية والنهاية (٥/ ٢٣ ـ ٢٦) وانظر عشرات التفاسير للآيات (١١٨ ـ ١٢٠) من سورة التوبة.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٩) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٢٣) ومن الجدير بالذكر أنَّ حديث كعب بن مالك مروي في السُّنن الأربعة: فقد روى له أبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابن ماجه.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٢٣).

الصَّحيحين. ومنْ مروياته ما وَرَدَ عنه أنّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ ليجاري به العلماء، أو يماري به السُّفهاء، أو يصرف به وجوه النَّاس إليه، أدخله الله النَّار»(١).

وعن كعب أيضاً، عن النَّبيِّ أنَّه قال: «أرواحُ الشُّهداء في طير خُضْرٍ تعلق منْ ثَمَر، أو شجر الجنَّة»(٢).

* وكان كعب بالإضافة إلى صحبتهِ رسول الله ﷺ فقد كان شاعره والمنافح عنه بلسانهِ مع أقرانه، وكان شاعراً مجوداً، مطبوعاً، قد عرفَ بذلك. قال محمّد بنُ سيرين ـ رحمه الله ـ: كان شعراء أصحاب رسول الله ﷺ: حسّان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك(٣). وهؤلاء الشُّعراء الثّلاثة من جِلَّة الأنْصار وأكابرهم، وممن كان له ماضٍ عطر في تاريخ الكلمة الشِّعرية في المدينة المنوّرة، وممن عُرف بالبلاغة والبيان، وكان لكلِّ واحدٍ منهم تأثير في جوانب معينة من صفحات الجهاد باللسان والبيان.

* فقد كان كعب ـ رضوان الله عليه ـ يخوِّف المشركين بالحربِ، فكان يذكر الحرب يقول: فعلنا، ونفعل، ويتهددهم.

* أمّا حسّان ـ رضي الله عنه ـ فكان يقبل على أنسابهم فكان يذكر عيوبهم وأنسابهم ويذكِّرهم بها في شعره.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ١٨٩) وللحديث أصل في جامع التّرمذي، في العلم برقم (٢٦٥٦).

(٢) الحديث أخرجه التّرمذي برقم (١٦٤١) والنّسائي (٤/ ١٠٨) وابن ماجه برقم (٤٢٧١).

(٣) سير أعلام النّبلاء (٢/ ٥٢٥).
وقال صلاح الدِّين الصَّفدي ـ رحمه الله ـ: وشُعراء المشركين: عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزِّبعرى، وأبو سُفيان بن الحارث، وضرار بن الخطاب. (نكت الهميان ص ٢٣٢).
أقول: وقد مَنَّ الله عزَّ وجلَّ على هؤلاء الأربعة، وفَتح على قلوبهم، فأشرقت نفوسهم بأنوار اليقين، وأضحوا من فرسان الإسلام، وفرسان المدرسة المحمديّة، واشتهروا في عالم الإسلام، وفي عالم الصَّحابة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* وأمَّا عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ فكان يُعيِّرهم بالكفر، ويذكر قبح سفاهة عقيدتهم المريضة، فيذكرها بشعره.

* وقد امتدحَ رسولُ الله ﷺ كعباً، وأثنى على شعره، فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لكعب بنِ مالك: «ما نسي ربُّك لكَ ـ وما كان ربّك نسياً ـ بيتاً قلتَه».

قال: ما هو؟.

قال: «أنشده يا أبا بكر!».

فقال:

زعمــتْ سخينــــة أنْ ستغلـــب ربّهـــا
وليُغلبـــنَّ مُغَـــالـــبُ الغـــلاب[1]

* وكان كعب ـ رضي الله عنه ـ يخشى أنْ يكونَ لشعره أي أثر لا يرضي الله أو يرضي رسوله، فقد جاء أن كعباً ـ رضي الله عنه ـ حين أنزل الله عزَّ وجلَّ في الشِّعْر ما أنزل، أتى رسول الله ﷺ فقال له: إنَّ الله قد أنزل في الشِّعر ما قد علمتْ فكيف ترى فيه؟.

فقال ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يجاهد بسيفهِ ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنَّما تنظمونهم بالنَّبل»[2].

* وكان تأثير شعر كعب في نفوس المشركين عظيماً، وفي تقديري أنَّه نوعٌ منْ أنواعِ الحربِ النَّفسية ليدبَّ الوهنُ في قلوبِ الأعداء، وقد وَرَدَ عن محمّد بن سيرين ـ رحمه الله ـ ما يتوافق مع ما قلناه، فقال: أسلمتْ دوس فَرَقاً من بيتٍ قاله كعبُ بنُ مالك:

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ١٩٤) والاستبصار (ص ١٦١) ونكت الهميان (ص ٢٣٢) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥٢ و٥٢٦) وكنز العمال (١٣/ ٥٨١).
و«السخينة»: نوع من الطعام يؤكل في الجدب، وكانت قريش تكثر من أكلها.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ١٩٥) والاستبصار (ص ١٦١).

نخيّرها ولو نطقتْ لقالتْ قواطعهن دوسَاً أو ثقيفا[1]

فقالت دوس: خُذوا لأنفسكم قبل أنْ ينزلَ بكم ما نزلَ بثقيف[2].

* وشِعْرُ كعب يتوزّع بين الفخرِ بالمعاني الإسلامية، والمديح، والهجاء، والنّقائض معَ شعراءِ المشركين والردّ عليهم لإعزازِ الإسلام والمسلمين، والرثاء الذي أخذ مساحة كبيرة من شعره، ومن أجودِ مراثيه قصائده في رثاء رسول الله ﷺ وحمزة، ورثاؤه أمراء مؤتة، وغير ذلك، فمن جيّد رثائه لرسول الله ﷺ قصيدة رائعة جميلة، ومنها:

وباكية حرّاء تحزنُ بالبُكا
وتلطم خَديْها معاً والمقلدا
على هالك بعد النّبي محمّد
ولو علمتْ لم تبكِ إلا محمّدا

كما أنَّ رائقاتِ شعره وروائعاته غطّت مساحاتٍ من بعض نفحاتِ الحكمة، من ذلك قوله:

إنْ يَسلَمِ المرءُ مِنْ قَتْلٍ ومنْ مَرَضٍ ومُلّيَ العيش أبلاه الجديدان[3]

* هذا وقد عاش كعب بن مالك ـ رضوان الله عليه ـ قرابة سبع وسبعين سنة، وتوفي سنةِ خمسين من الهجرة في خلافةِ معاوية ـ رضي الله عنهما ـ[4].

* وكانت وفاته في المدينة المنوّرة، وكان قد فَقَدَ بَصَرَه في أواخر عمره[5]، كما ذكر ذلك صلاح الدِّيْن الصَّفدي في كتابه «نُكت الهِمْيَان»، وأعتقدُ أنَّ كعباً أحبَّ أنْ يبقى في المدينة بعد أنْ فَقَدَ بصره، كيما يظلّ مجاوراً رسول الله ﷺ، وكيما يتذكر نعمة التّوبة التي تِيْبَ بها عليه في المدينة.

---

(١) السّيرة النبوية لابن هشام (٤/٤٧٩ و٤٨٠) والإصابة (٣/٢٨٦).
(٢) الاستبصار (ص ١٦١) ونكت الهميان (ص ٢٣٢).
(٣) «الجديدان»: الليل والنّهار. و«مُلّي العيش»: استمتع به.
(٤) الاستبصار (ص ١٦١) وسير أعلام النبلاء (٢/٥٢٦).
(٥) نكت الهميان (ص ٢٣٢).

* رضي الله عن كعب بن مالك، وأدخله برحمته في زمرة عباده الصَّالحين، وأكرمنا بمعيةِ هؤلاء الفُرسان الأخيار الأبرار، إنَّه سميعٌ مجيب.

* لقد حلَّق كعب في مقامٍ لا يُدانى في عالم البيان واللسان والسنان، وكان من أمراء البيان في عصر الصحابة الكرام. وكان شاعر الفرسان، وفارس الشعراء على مرِّ الأيام وتكرار الدهور والأعوام.

* * *

(٥)

مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ

- رضي الله عنه -

* من نُجباء الصَّحابة، قال عنه ﷺ: «لا تضرُّهُ الفِتْـنَـةُ».

الفارس النَّجيبُ الوَقُورُ:

* ما إن استقرَّت كلمةُ التَّوحيد في قَلْبِه، حتى صَنَعَتْ منه فارساً من فُرسان رسولِ الله ﷺ، وعَلَماً منْ أعلام الصَّحابة الشُّجعان البَواسلِ.

* غمرتْ نفسه أنوارُ اليقين عندما سمعَ القُرآن الكريم يُتلى نديّاً من مقرىءِ المدينةِ، وسفيرِ الإسلام مصعب بن عُمير العبدريّ - رضي الله عنه -.

* استطاعَ مصعب بن عُمير - رضوان الله عليه - أنْ يستقطبَ هذا الفارس - بفضلِ الله تعالى - قبل أنْ يدخلَ ساحةَ الإيمان زعيم الأوس ورئيسهم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - وما أدراك ما سعد بن معاذ؟!

* أسلم فارسنا مع السَّابقين منْ أسود الأنصار، قبل أنْ يهاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرةِ؛ الهجرة التي غيَّرتْ مجرى التاريخ.

* داعبتْ نسماتُ الإيمان قلبه، فأوجدتْ منه رجُلاً يعتزُّ به الإسلام، ويفتخرُ به الأنصار، بل المسلمون جميعاً، على مرِّ الزَّمان والأَعْوام.

* عرفَ فارسُنا الحقَّ منذ أنْ صافحتْ سمعَه شهادةُ التَّوحيد، ومنذ أنْ خرجَتْ منْ قلبهِ شهادة الإيمان، فأصبحتْ مسيرتهُ في الحياة واضحة كالشمس في رابعة النَّهارِ، وأضحى مشهوراً بنقاء السِّيرة، وصفاء السَّريرة، حتى لقد قال عنه رسول الله ﷺ: «لا تضرُّه الفِتْنة».

وصفه الرُّواة فقالوا: كان رجُلاً طويلاً، معتدلاً، أسمرَ، أَصْلع، وقوراً، ذا هيئة وجثَّة، وكان من نُجباءِ الصَّحابة - رضي الله عنهم جميعاً -.

* وهذا الفارس النَّجيبُ الوقورُ منْ أعلامِ المدرسة المحمديَّة، وممن خَبِرَ الحروب، وخبرته الحروب، وكان ممن لا تخفى عليه خافية منَ المشاهد، والمغازي، والسَّرايا النَّبوية؛ إذ لم يتخلفْ عن مشهدٍ قطُّ.

* وكان فارسنا يحدِّثُ أبناءه وذويه عن ذلكَ فيقول:

يا بني! سَلُوني عن مشاهدِ النَّبيِّ ﷺ ومواطنه، فإنِّي لم أتخلفْ عنه في

غزوةٍ قطّ؛ إلا واحدة في تبوك، خلّفني على المدينة[1]، وسلُوني عن سراياه ﷺ، فإنَّه ليس منها سرية تخفى عليَّ، إما أنْ أكونَ فيها، أو أن أعلمها حينَ خرجت[2].

* هذا العارف الخبير بالمغازي: محمّد بن مسلمة بن سَلمة بن خالد الأنصاري الأوسي[3]، كنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمن.

وصفه ابن كثير ـ رحمه الله ـ بقوله: كان من ساداتِ الصَّحابة، وله وقائعُ عظيمة؛ وصيانة، وأمانة بليغة[4]، آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين أمين الأمّة أبي عُبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ.

صُـورٌ عزيـزة وَأَحْـداثٌ مثـيرة:

* إنَّ محمّد بنَ مسلمة ـ رضي الله عنه ـ واحدٌ منْ فرسانِ الصَّحابة؛ الذين حلّقُوا عالياً في سَمَاء الفروسيّة والشَّجاعة، وممن تَركوا آثاراً وضيئة في سجلات الجهاد، وميادين الفروسية الغرّاء.

---

(١) هذا هو المشهور، لكن ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ يرى أنَّ علي بن أبي طالب هو الذي كان أميراً على المدينة عندما خرج النبيُّ ﷺ إلى غزوة تبوك، فقال ـ رحمه الله ـ: وخرج رسولُ الله ﷺ، وضرب عسكره على باب المدينة، واستعمل عليها محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وقيل: بل خلف علي بن أبي طالب، وهو الأثبت. انظر: الدررفي اختصار المغازي والسِّير (ص ٢٣٩).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٤٤).

(٣) السِّيـر الكبيـر (١/ ١١١ و٢٧٠ و٢٧٤ و٢٧٦ و٢٨١ و٢٩٣) والمغـازي (انظـر الفهـارس ٣/ ١٢٣٤) ومسنـد أحمـد (٣/ ٤٩٣) و(٤/ ٢٢٥) وطبقـات ابـن سعـد (٤/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥) والمعرفة والتّاريخ (١/ ٣٠٧) والمستدرك (٣/ ٤٩٠ ـ ٤٩٤) والاستبصار (ص ٢٢٠ و٢٢٥ و٢٣٨ و٢٤١ و٢٤٢ و٢٤٣) ومختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢١٢ ـ ٢٢٤) والكامل في التّاريخ (انظر الفهارس ١٣/ ٣٢٩) والبداية والنّهاية (٨/ ٢٧) وتاريخ الإسلام للذّهبي (عهد معاوية ص ١١٢ ـ ١١٥) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣١٩) وتهذيب التّهذيب (٩/ ٤٥٤ و٤٥٥) والإصابة (٣/ ٣٦٣ و٣٦٤) وغيرها كثير جداً من المصادر.

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٧).

* شهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، وبيعة الرضوان، والمشاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ. وفي كلِّ غزوة منَ المغازي كان له أضوأ الآثار، وكان قريباً جداً منْ رسولِ الله ﷺ، حتى عرف بلقب حارس[1] رسول الله ﷺ، وأحياناً: فارس رسول الله ﷺ، فأكرمْ بهذا اللقب!

دَورهُ الكبير في غَزْوةِ أُحُد:

* شهد محمَّد بن مسلمة ـ رضوان الله عليه ـ غزوةَ بدرٍ، وأبلى فيها بلاء حَسَناً، ومن ثَمَّ خاضَ غزوةَ أُحُد، وكان له فيها غناء مشكور، وسعي محمود، فقد استعمله رسولُ الله ﷺ على الحرسِ في خمسين رجلاً.

* وعندما حلَّتِ الهزيمةُ بالمسلمينَ في غزوةِ أُحُد كان محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ ممَّن ثبتَ حولَ رسولِ الله ﷺ، وممن بايعه على الموتِ، وعند انتهاءِ المعركةِ ذهب وأحضر ماءً عذباً، فشربَ رسولُ الله ﷺ، ودعا له بخير[2].

---

(١) من الفوائد المهمّة أن نشيرَ إلى حرسه ﷺ؛ فمنهم:
سعد بنُ معاذ الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ حرسه يوم بَدْر حين نام في العريش.
وفارسنا اليوم محمّد بن مسلمة الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ حرسه يوم أُحُد.
والزّبير بن العوام القرشيّ ـ رضي الله عنه ـ حرسه يوم الخندق.
وعبّاد بن بشر الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وهو الذي كان على حرسه ﷺ.
هذا؛ وقد حرسه ﷺ جماعةٌ آخرون غير هؤلاء، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] خرجَ على النّاس فأخبرهم بها، وصرفَ الحرس.
وقد وَرَدَ في السُّنَن ما يتوافق مع ما ذكرناه، إذ أخرج الإمام التّرمذي ـ رحمه الله ـ في التّفسير عن أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان النّبيُّ ﷺ يُحرسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبّة فقال لهم: «أيها النّاس! انصرفوا فقد عصمني الله» رواه التّرمذي برقم (٣٠٤٩).

(٢) المغازي (١/ ٢٥٠).

* ومحمَّد بن مسلمة هو الذي أتى رسولَ الله ﷺ بخبرِ سعد بن الربيع[1] في أُحُدٍ، فخرج فوجده في اللحظات الأخيرة، فأوصاه سعد أن يقرىء رسول الله ﷺ السَّلام، وقال له:

ما لكم عذر عند الله إنْ خُلِصَ إلى نبيِّكم، وفيكم عين تَطْرف، ثم صَعِدَتْ روحه إلى بارئها راضيةً مرضية، لتقتعد في مقعدِ صِدقٍ عند مليكٍ مقتدر، مع رعيلِ الشُّهداء في صدر الزمان الأغرّ.

* قال محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ:

فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرته، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ استقبلَ القبلة رافعاً يديه يقول: «اللهم الْقَ سعد بن الرَّبيع وأنتَ عنه راضٍ»[2].

* ولما غدر يهودُ بني النَّضير برسولِ الله ﷺ، ونقضوا العهود والمواثيق، بعثَ رسولُ الله ﷺ إلى محمَّد بنِ مسلمة فجاء، وقال: «اذهبْ إلى يهود بني النَّضير فقُلْ لهم: إنَّ رسولَ الله ﷺ أرسلني إليكم أنِ اخْرُجوا منْ بلده». فذهبَ وبلَّغَ الرِّسَالة، فرفضوا، وحاصرهم رسولُ الله ﷺ خمسة عشر يوماً، ثم أجلاهم مِنَ المدينةِ، وولَّى إخراجهم محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ فقبض أموالهم، وأخذ سلاحَهم، وكشفهم عن المدينة[3].

---

(١) سعدُ بن الرَّبيع بن عمرو الأنصاريّ الخزرجيّ الأنصاريّ. شَهِد العقبة الأولى والثانية، وكان نقيباً، ثمَّ شهد غزاة بدرٍ وغزاة أُحُدٍ، وكان سعد يكتبُ في الجاهلية ـ وكانتِ الكتابةُ في العربِ قليلةٌ ـ قُتِلَ سعد يوم أُحُد شهيداً، ودُفِنَ مع خارجةَ بنِ زهير في قبرٍ واحد، وكان رسولُ الله ﷺ قد آخى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف. (طبقات ابن سعد ٣/ ٥٢٢ ـ ٥٢٤) والاستبصار (ص ١١٤).

(٢) المغازي (١/ ٢٩٣) بتصرف.

(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٧٥) بتصرف. وكان محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ قد تولى من قبل، وبعد غزوة بدر، إجلاء يهود بني قينقاع عن المدينةِ المنورة، وقبض أموالَهم لمَا خانوا، ونقضوا العهد أيضاً. فقد حارب يهود بني قينقاع رسول الله ﷺ بعد غزاة بدرٍ، وشرقوا بوقعةِ بدر، وأظهروا البغي والفسَاد والحسَد، فسارتُ إليهم جنودُ اللهِ يقدمهم رسولُ الله ﷺ يوم السَّبت، للنّصف منْ شهرِ شوال، على رأسِ عشرين شهراً منَ الهجرة، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، وهم أول مَنْ حاربَ من=

مواقف نفيسة في غَزَاةِ الخَنْدقِ وَبني قُريظَةَ:

* لمحمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ مواقفُ نفيسةٌ في غزوةِ الخندق، ومن ثمَّ غزوة بني قُريظة، فقد كان ممن شارك في حَفْرِ الخَنْدقِ، وكان ممن ساهم في حراسةِ المدينة في الليلِ والنَّهار، حيث كان المؤمنون يخافون غَدْرَ بني قريظة، ولا يأمنونهم على الذَّراري والنِّساء، فكان يسمعُ تكبيرَ المسلمين في المدينةِ منَ المساء حتى يصبحوا خوفاً، واحتراساً، إلى أنْ ردَّ الله عزَّ وجلَّ المشركين بغيظهم منْ خَلْفِ الخندقِ، لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القِتَال، والحرب، والنِّزال، والخسائر.

* ويصوِّر لنا محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ تلك اللحظات الحرجة، التي قَضَاها المسلمون في غزاةِ الخندق، فيقول: كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرَّجه الله عزَّ وجلَّ[1].

* ويؤيدُ مقالةَ محمَّد بن مسلمة ما وَرَدَ عن جابر بنِ عبدِ اللهِ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان خوفُنا على الذَّراري بالمدينةِ من بني قريظة أشدَّ منْ خوفنا منْ قريش، حتى فرَّجَ اللهُ ذلك[2].

* وفي حراسةِ المدينة المنورة كان محمَّد بنُ مسلمة متيقظاً، حَذِراً حَذَراً شديداً منْ غَدرات المشركين، ولقد استطاع مع ثُلَّة من فُرسان المسلمين أنْ ينضحُ بالنَّبْلِ فرقةً منَ المشركين برئاسةِ خالدِ بنِ الوليد ـ قبل أن يسلم ـ وأنْ يعيدها إلى حديث أتتْ، ويردَّها خائبة.

* وأنزل الله عزَّ وجلَّ نَصْرهُ على عباده المؤمنين، وهزم الأحزاب،

= اليهودِ، فقذفَ الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم الرُّعْبَ، ونزلوا على حكمِ رسول الله ﷺ، فأمرهم أنْ يخرجوا منَ المدينة، فخرجوا إلى أذرعات بالشَّام، وتركوا أموالهم، وكان الذي تولّى جمع الغنائم محمّد بن مسلمة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ. (السيرة النّبوية لابن هشام ٢/ ٤٧ ـ ٥٠) بتصرف.

(١) انظر المغازي (٢/ ٤٦٨).

(٢) المصدر السابق.

وانطلقَ المسلمون بقيادةِ رسولِ الله ﷺ إلى بني قريظة؛ الذين نقضوا العَهْدَ مع المسلمين، وخانوا اللهَ ورسوله، وكان في مقدمةِ المسلمين حارس رسول الله ﷺ محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ الذي خَبِرَ خيانة هؤلاء اليهود، وعرفَ مكرهم، وخبثهم، وغدرهم. وعند حصون بني قريظة ضربَ المسلمون الحصار عليهم، وقدَّم رسول الله ﷺ الرُّماة، وعبّأ أصحابه، فأحاطوا بحصونهم من كلِّ ناحية، وجعل المسلمون يرامونهم بالنَّبْلِ، ويردّ اليهود من حصونهم أيضاً بالنَّبْلِ والحجارة، ولكنَّ يهودَ بني قريظة أيقنوا بالهلاكِ لما رأوا شدَّة حصار المسلمين لهم.

* وعن تلكم السَّاعات الحرجة[1] يحدثنا بطلنا محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ فيقول:

حصرناهم أشدَّ الحِصَار، فلقد رأيتنا يومَ غدونا عليهم قبل الفجر، فجعلنا ندعو منَ الحصن، ونرميهم من كَثَب، ولزِمْنَا حصونهم، فلم نفارقْها حتى

---

(١) بينما كان المسلمون الموحِّدون يواجهون الشَّدائد أيام الخَنْدقِ على جبهةِ المعركة، وقد بلغتِ القلوبُ الحناجر، كانت أفاعي الدَّس والتآمر تتقلّبُ في جحورها، تريد إيصال السُّمِّ داخل أجسادهم، واستطاع زعيم اليهود وكبير مجرميهم حُيي بن أخطب أن يقنعَ بني قريظة وسيِّدهم كعب بن أسد أنْ ينقضوا العهد، وقاموا بعمليات حربية ضدَّ المسلمين، وهم في أحرج اللحظات أمام حشودِ الأحزاب.
ولما علمَ رسولُ الله ﷺ خبر نَقْض قريظة العهد، وتأكد من خياناتهم، ازداد موقفُ المسلمين حرجاً، إذ خافوا أنْ تأتيهم ضربة غادرة منْ خلفهم من بني قريظة، هنالك اتجه المسلمون المجاهدون إلى اللهِ بقلوبهم يدعونه تضرعاً يقولون: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، ودعا رسولُ الله ﷺ على الأحزاب ـ كما ورد في صحيح البخاري ـ فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزِمِ الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».
ولقد سمع الله عزَّ وجلَّ دعاءَ رسوله والذين معه منْ فوقِ سبعة أرقعة، إذ يجيب دعوة الدَّاعي إذا دعاه، فردَّ عدوهم، لم ينالوا خيراً، وأعزَّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.
وفي اليومِ الذي رجعَ فيه رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السَّلام يأمره بالمسير إلى بني قريظة، فسار ﷺ، حتى أهلك الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الخائنين.

أمسينا، وحضَّنا رسولُ الله ﷺ على الجهاد والصَّبْرِ، ثمَّ بتْنا على حصونهم، ما رجعنا إلى معسكرنا حتى تركوا قتالنا، وأمسكوا عنه وقالوا: نكلِّمُك؛ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فأنزلوا نبَّاشَ بنَ قيس، فكلَّم رسول الله ﷺ وقال: يا محمّد! ننزلُ على ما نزل عليه بنو النضير، ونخرج من بلادكم بالنِّساء والذَّراري، ولنا ما حملتِ الإبلُ إلا السِّلاح.

* فأبى رسولُ الله ﷺ وقال: «لا، إلا أنْ تنزلوا على حكمي» فرجع نبَّاش منْ حيثُ أتى[1].

* وجهد الحصارُ بني قريظة، فنزلوا على حُكْمِ رسولِ الله ﷺ، فأمر بهم، فكتّفوا رباطاً، وجعل على كتافهم حارسه الأمين الوفي محمَّد بن مسلمة الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ. وحكم في بني قريظة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فجاء حكمه موافقاً لحكمِ الله عزَّ وجلَّ، ونُفِّذَ الحكم ببني قريظة، فكانوا كأمْسِ الدَّابر، وذلك جزاء وفاقاً على خيانتهم العظيمة في غزاةِ الخندق، وعلى نقضهم العهدَ والمواثيق.

* وتابع محمَّد بنُ مسلمة ـ رضوان الله عليه ـ حضورَ المغازي والمشاهد، فشهد الحُديبية، وخيبر، ثمّ غزوة الفتح؛ وفي غزوةِ تبوك حمل ماله وجاء به إلى الرَّسولِ ﷺ، فشكره، ودعا له، ولمن جاهدَ في سبيلِ الله بمالهِ ونفسه.

نُبَـذٌ جليلـة وشَـذَراتٌ حِسَـانٌ مِنْ مَنَـاقِبِـهِ:

* لمحمد بنِ مسلمة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مناقب جليلة في مختلف المجالات، ومن مناقبه الحِسَان أنَّ إسلام ثمامة بن أثال الحنفيّ كان بسببه، حيثُ أرسله رسول الله ﷺ في المحرّم سنة ست من الهجرة على رأسِ سرية قوامها ثلاثين فارساً إلى نجد لشَنِّ الغارة على بني بكر بن كلاب.

* فسار إليهم محمَّد بن مسلمة حتى دهموهم على غِرّة، فقتلوا منهم عشرة، وفرَّ الباقون، واستاقوا الإبل والشَّاء، وقفلوا راجعين إلى المدينةِ، فلقيهم ثمامة بن أثال الحنفيّ سيِّد بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلمّا

---

(1) المغازي (٢/ ٥٠١) بتصرف.

قدموا على النَّبيِّ ﷺ عرفه، وأحسنَ معاملته، وأطلقَ سراحه بعد أنْ عَرضَ عليه الإسلام فلم يسلمْ، فما كان منْ ثمامةَ إلا أنْ عادَ وأسلم، وصار من خيار المسلمين ـ رضي الله عنه ـ[1].

* ومن مناقب محمَّد بن مسلمة أنَّه كان أحد كتبةِ النَّبيِّ ﷺ[2]، وكان منَ الأُمَناء، فقد قيل: إنَّ النبيَّ ﷺ استخلفه مرَّة على المدينةِ المنوّرة[3]، وكان فيمن شارك في قَتْلِ كعب بن الأشرف اليهودي[4].

* وتابع محمَّد بن مسلمة رحلة الفروسية والجهاد في أرضِ الله عزَّ وجلَّ، وسار في ركْبِ المجاهدين الفاتحين شرقاً وغرباً في العصر الرّاشدي؛ فقد شهد فتح مصر، وكان فيمن طلعَ للحصنِ مع الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ ورجعَ إلى المدينةِ، ثم قدم مصر مرة أخرى رسولاً منْ عمر بنِ الخطاب إلى عمرو بنِ العاص في المقاسمة لما قَاسمَ عمر العمال ما في أيديهم. وقد شهد محمّد بن مسلمة الجابية بالشَّام مع عمر ـ رضي الله عنهما ـ وكان على مقدمته يومئذ.

* ومن جليلِ مناقب محمّد بن مسلمة أنَّه رأى جبريل ـ عليه السَّلام ـ روى ذلك فقال: مررتُ فإذا رسول الله ﷺ واضعاً خدَّه على خدِّ رجُلٍ، فذهبتُ إليه، فقال: «يا محمّد ما منعك أنْ تُسَلِّم؟» فقلتُ: يا رسول الله! رأيتك فعلتَ بهذا الرّجلِ شيئاً لم تفعله مع أحدٍ من النَّاس، فكرهتُ أنْ أقطعَ عليك حديثَك، فمن كان يا رسول الله؟

قال: «كان جبريلُ، وقد قال لي: هذا محمّد بن مسلمة لم يُسلِّمْ، أمَا إنَّه لو سلَّمَ لرددنا عليه السَّلام».

قال: فما قال لك يا رسول الله؟

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٣٥٠) بشيء من التصرف.
(٢) البداية والنهاية (٥/ ٣٥٣ و٣٥٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٩).
(٤) انظر صحيح البخاري (٤٠٣٧) وفتح الباري (٧/ ٣٣٦).

قال: «لم يزلُ يوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنَّه يأمرني فأورِّثه»[1].

* وهذا عَلَمٌ منَ الأعلامِ يشهد لفارسنا بالخيريّة والصَّلاح، فعن أبي حدرد الأسلميّ قال:

قدمتُ المدينةَ في خلافةِ عمر بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأردتُ الحجَّ، فلما أتيتُ مَلَل[2] قُلتُ: اللهم قيِّض لي رجلاً منْ أصحابِ نبيِّك ﷺ صالحاً كان نبيُّك يحبُّه، وكان يحبُّ نبيك ﷺ، فإذا أنا بغلامٍ أسود على حمار يقود ناقة خلفها على حمارة، فقلتُ للأسود: يا غلام! مَنْ هذا الشَّيخ؟ قال: محمّد بن مسلمة الأنصاريّ صاحب رسول الله ﷺ، فرافقت خيرَ رفيقٍ، ونازلت خيرَ نزيل[3].

* ولعلَّ منْ أمتع الأخبار التي وصلتنا عن محمّد بن مسلمة أنّه كان مهتدياً بهدي رسولِ الله ﷺ، حتى بعد وفاة الرَّسول ﷺ. فقد كان ـ رضي الله عنه ـ ممن اعتزلَ الفتنة[4]، ولم يحضر الجمل، ولا صفّين، بل اتَّخذ سيفاً منْ خشبٍ، وتحوَّل إلى الرَّبذة[5]، فأقام بها مُديدة.

* عن أبي بردة قال: مررنا بالرَّبذة، فإذا فسطاط محمّد بن مسلمة فقلتُ: لو خرجتَ إلى النَّاس، فأمرتَ ونهيتَ!

فقال: قال النَّبيُّ ﷺ: «يا محمدُ بن مسلمة! ستكون فرقةٌ وفتنةٌ واختلاف، فاكْسِر سيفَك، واقطع وَتَرَكَ، واجلس في بيتك» ففعلتُ الذي أمرني به النَّبيُّ ﷺ[6].

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢١٤).
(2) «ملَل»: موضع في طريق مكة بين الحرمين.
(3) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٢٠).
(4) من الجدير بالذكر أن الذين قعدوا عن الفتنة: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.
(5) «الربذة»: من قرى المدينة على ثلاثة أيام.
(6) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢١٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧١). وقد أورد ابن سعد ـ رحمه الله ـ هذا الخبر بسنده عن محمد بن مسلمة قال: =

* ولقد شهد لمحمّد بن مسلمة باعتزاله الفتنة وسلوكه نصيحة رسول الله ﷺ، علم من أعلام الصَّحابة، وهو حذيفةُ بن اليمان[1] ـ رضي الله عنه ـ حيثُ قال: إنِّي لأعرفُ رجلاً لا تضرّه الفتنة. ـ وقصد بذلك محمّد بن مسلمة ـ.

محمّـدُ بـنُ مَسْـلَمَـة وعُـمَر ـ رضـي الله عنهمـا ـ:

* كان عمر الفَاروق ـ رضي الله عنه ـ يكْبِر محمّد بن مسلمة، ويعرف حقَّه وفَضْلَه، فقد استعمله على زكاة جُهينة، فأدّى عمله كأدقِّ ما يكون.

* وكان عمر إذا شُكِي إليه عامل نَفَذَ محمّد بن مسلمة إليه ليكشف أمْره، ويجلو أخباره. فقد بلغ عمر أنَّ سعد بن أبي وقاص[2] ـ رضي الله عنه ـ قد اتَّخذ قَصْراً بالكوفةِ، وقال: انقطع الصُّويت، فأرسل عمر محمّد بن مسلمة ـ وكان عمر إذا أحبَّ أنْ يُوتى بالأمْر كما يريد بعثه ـ فأتى الكوفةَ، فلمّا أتى باب سعد أخرج زنده، فاستورى ناراً، ثمَّ أحرق الباب، فجاء سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ فقال محمّد بن مسلمة: إنَّه قد بلغ عمر أنَّك قلت: انقطع الصُّويت، فحلف سعد أنَّه لم يقُلْه[3].

* وكان لمحمّد بن مسلمة وقفاتٌ كريمةٌ مع عمر بن الخطاب، فقد وَرَدَ أنَّ عمر أتى مشربة[4] بني حارثة، فوجد محمّد بن مسلمة، فقال: يا محمّد،

= أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً فقال: «يا محمد بن مسلمة! جاهدْ بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره، ثم كفَّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية، أو يد خاطئة».

فلما قُتِل عثمان، وكان من أمر الناس ما كان، خرج إلى صخرة في فنائه، فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره. (طبقات ابن سعد ٣/ ٤٤٥).

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٣٨).

(٢) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(١٦٠).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٢١) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٢) مع الجمع والتصرف: وانظر الإصابة (٣/ ٣٦٤).

(٤) «المشربة»: أرض لينة لا يزال فيها نبت أخضر ريّان.

قال: أراكَ كما أحبُّ، وكما يحبُّ مَنْ يحبُّ لكَ الخير، قوياً على جمع المال، عفيفاً عنه، عدلاً في قسمه، ولو مِلْتَ عدَّلناك كما يُعدَّل السهم في الثقاف.

قال: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا مِلْتُ عدَّلوني[1].

وَدَاعَاً حَارِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

* قضى محمّد بنُ مسلمة الأنصاريُّ ـ رضي الله عنه ـ حياتَه في ظلالِ الحياة الرَّاشدة، وكان من فُضَلاء الصَّحابة وشجعانهم، وكان له في تاريخ الفروسية صفحات رائعات، كلها نور في نور في نور.

* أمَّا في تاريخ الحديث، فقد حلَّقَ أيضاً في مجالِ الرِّواية، إذ روى عَدَداً منَ الأحاديث الشَّريفة، وروى عنه: المِسْوَر بن مخرمة، وسهل بن أبي حثمة، وقُبيصة بن ذؤيب، وعروةُ بن الزُّبير وغيرهم.

* ولمحمّد بن مسلمة بضعةُ أولاد ذكور وإناث، قالوا: خلَّفَ منَ الولدِ عشرة بنين، وست بنات؛ وقد صحب محمّد بن مسلمة رسولَ الله ﷺ وأولاده: عبد الله وجعفر وسعد وعبد الرحمن وعمر[2].

* وبعد رحلةٍ طويلة في تاريخِ الفروسية آنَ للفارسِ أنْ يستقرَّ، وجاءتِ الرِّحلة... رحلة الخلود، والرُّجوع إلى الله عزَّ وجلَّ، ففي شهر صفر منْ سنةِ ثلاثٍ وأربعين من الهجرة ماتَ محمّد بن مسلمة الأنصاري، وهو يومئذ ابن سبعٍ وسبعينَ سنة، وصلى عليه مروان بن الحكم، ودُفِنَ في البقيع[3].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٢) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) الإصابة (٣/ ٣٦٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٤٥) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٣) ومجمع الزوائد (٩/ ٣١٩ و٣٢٠) والإصابة (٣/ ٣٦٤). قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: مات بالمدينة ولم يستوطن غيرها، وكانت وفاته بها في صفر سنة ثلاث وأربعين (الاستيعاب ٣/ ٣١٦).

بالمدينة المنوَّرة.

* رضي الله عن حارسِ النَّبيِّ محمّد بن مسلمة، وأدخله الجنَّة مع أصحابِ المرحمة؛ فقد كان من نجباء الصَّحابة الكرام، ومن ساداتها، وله وقائع عظيمة، وصيانة وأمانة بليغة.

* * *

(٦)

بَشِيرُ بنُ سَعْدٍ

- رضي الله عنه -

* منْ أمراءِ السَّرايا، ومنْ رُواة الحديث الشَّريف.

فـي بَـيْـعَـةِ العَـقَـبَـةِ:

* أرسلَ النَّبيُّ ﷺ الصَّحابيَّ الجليلَ الوسيمَ الذَّكي مصعبَ بنَ عُمير إلى أهلِ المدينة المنوّرة، وأمره أنْ يقرئهم القرآن الكريم، وأن يعلمَهم الإسلام، ويفقّههم في الدِّين، ويؤمّهم في الصَّلاة، فكان المعلِّم والسفير والفقيه، حتى إنه كان يُسمَّى: مقرىء المدينة.

* ونجح الفقيهُ الكريمُ مُصعب في سفارته الميمونة، وأسلم كثيرون منْ أهلِ المدينة، ويكفيه فضلاً أنْ أسلم على يديه أُسَيد بن الحضير وسعد بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ.

* وعاد مصعب بن عمير إلى مكةَ بعد أن أدَّى مهمَّته أَحْسَنَ أداء، لا يبتغي بذلك إلا رضوان الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسولِ الله ﷺ[١].

* وخرجَ منْ أهلِ المدينة المنورة مَنْ خرج مِنَ الأنصار إلى موسمِ الحجِّ حتى قدموا مكةَ، فوعدوا رسولَ الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التَّشريق حين أراد الله بهم ما أرادَ مِنْ كرامتهِ، ونصر نبيّه، وإعزاز الإسلام وأهله.

* ولما كان الموعدُ مع رسول الله ﷺ في الشِّعب عند العقبة، خرجَ الأنصارُ، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعهم امرأتان من نسائهم وهما: نسيبة بنت كعب أمّ عمارة، وأسماءُ بنت عمرو أمّ منيع[٢].

* قال الحافظُ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وجملتهم على ما قال ابن إسحاق

---

(١) إنَّ مهمة الدعوة إلى الإسلام ليست وَقفاً على الأنبياء، بل هي مهمة كل مسلم نطق بالشهادتين؛ لأن الدعوة إلى الله تعالى جزء من حقيقة الإسلام ذاته، وحقيقة الدعوة تتمثل في دعوة الآخرين للدخول في رياض الدين، وها هو مصعب بن عمير يُلبّي أمر رسول الله ﷺ، فغدا يدعو أهلَ المدينة إلى الإسلام. وكم من رجل دَخل إلى مجلس مصعب وفي يده سيف أو حربة يريد أن يقضي بها على مصعب، فما إن يسمع منه، ويُنصت لنداء الحق، حتى يغادر المجلس وهو يُردِّد شهادة التوحيد!

(٢) اقرأ سيرة هذه الصحابية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» الجزء الأول، ففي سيرتها فوائد إن شاء الله.

ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان[١]. فمن الأوس أحد عشر رجلاً؛ ومن الخزرج اثنان وستون رجلاً.

* ومن بين صفوف الخزرج يبرزُ أحد الأبطال الكرام ممن غدا أحد فرسان مدرسة النّبوّة العظام، وأحد زعماء الأنصار الذين اشتهروا بطولِ القامة، وجمالِ الجسم، وكان إذ ركب الفرس خطَّتْ إبهاماه في الأرض[٢]. وهو أحد الذين لهم في تاريخ الإسلام نصيبٌ وافر. ولمع نجمه في بيعةِ العقبة عندما التقت يمينُه يمينَ رسولِ الله ﷺ مبايعاً[٣] معاهداً على نُصرْته. هذا الرَّجل الكريم هو بشير بن سعد بن ثعلبة أبو النُّعمان الأنصاريّ، الخزرجي، المدنيّ، الصّحابي، الفاضل، الصَّالح[٤].

قال ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ في تاريخهِ عن بشير بن سعد: له صحبة ورواية عن النّبيِّ ﷺ[٥].

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ١٦٦).

(٢) المحبَّر لابن حبيب (ص ٢٣٣).

(٣) قال عبادةُ بنُ الصَّامت الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ عن بيعةِ العقبة هذه: بايَعْنا رسولَ الله ﷺ على السَّمْع والطَّاعة في عُسْرنا ويُسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأَمْر أهلَه، وأنْ نقولَ بالحق أينما كنّا لا نخافُ في الله لومةَ لائم (السّيرة النبويّة ١/ ٤٤٢).

(٤) المغازي (١/ ٥ و٦ و١٦٥) و(٢/ ٤٤٠ و٤٧٦ و٧٢٣ و٧٢٤ و٧٢٧ و٧٢٨ و٧٣٣ و٧٣٤) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ٥٣١ و٥٣٢) وتاريخُ خليفة بن خَياط (ص ٤٦ و٤٧) والاستيعاب (١/ ١٥٥ و١٥٦) وأنسابُ الأشراف (١/ ٢٤٤ و٣٧٩ و٥٨٠ و٥٨٢ و٥٨٤) والاستبصارُ (ص ١٢١ و١٢٢) والكامل لابن الأثير (٢/ ٢٢٦ و٢٢٧ و٣٣٠ و٣٣١ و٣٩٥) ومختصرُ تاريخ دمشق (٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٤) والبدايةِ والنّهاية (٦/ ٣٥٣) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٣٤) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد الخلفاء الراشدين ص ٧٨ و١٤٨ و٥١٣) والإصابة (١/ ١٦٢ و١٦٣) وغيرها كثير.
ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ النُّعمان بن بشير الأنصاريّ، هو أوّل مولود وُلدَ منَ الأنصار بعد الهجرة النّبوية (الأوائل ص ١٥٤).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٢١).

* ومن مروياته ما وَرَدَ عن أبي سعيد الأنصاري أنّه قال: أتانا رسولُ الله ﷺ ونحنُ في مجلسِ سعدِ بن عُبادة، فقال له بشير بن سعد: أَمَرَنا الله عزَّ وجلَّ أنْ نُصلِّي عليك، فكيفَ نُصلِّي عليك؟ قال: فسكتَ رسولُ الله ﷺ حتى تمنَّينا أنّه لم يسأله، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صليتَ على إبراهيم، وباركْ على محمدٍ وعلى آلِ محمد، كما باركتَ على إبراهيم، في العالمين إنَّك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»[(١)].

* هذا؛ وقد كانت نشأةُ بشير بن سعد ـ رضوان الله عليه ـ نشأةً علمية خالصة، حيثُ تعلّم الكتابة منذ نعومةِ أظفاره، فكان يكتبُ بالعربية في الجاهلية، وكانتِ الكتابةُ[(٢)] في العرب قليلاً إذ ذاك[(٣)]، وكان الذي يكتبُ بالعربية وقتذاك يتمتع بمكانةٍ كبيرة في قومه.

مَشَاهدُهُ في عَصْرِ النُّبوّة:

* في رحلةِ الفروسية والجهاد، كان بشير بن سعد ـ رضوان الله عليه ـ ممن شهدَ العقبة الثّانية، ثمّ شهد بدراً وأحداً والخندق والمَشاهد بعدها مع رسولِ الله ﷺ.

---

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٢٣) وللحديث أصل ثابت في الصحيح.

(٢) كانتِ الكتابةُ العربيةُ قليلةً في الأوسِ والخزرج، وذكر أهلُ الأخبار مِنْ أهل يثرب مِنَ الأوسِ والخزرج، كانوا يكتبون ويقرؤون عند ظهور الإسلام، ذكروا فيهم: أسعد بن زرارة، والمنذر بن عمرو، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت وكان يكتب بالكتابين: العربية والعبرية، أو السّريانية، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي البلويّ، وأوس بن خولي، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن أُبيّ، وبشير بن سعد.
صبح الأعشى (٣/ ١٥).
وقال البلاذري ـ رحمه الله ـ: كان الكتابُ في الأوسِ والخزرج قليلاً. وقد تعلمه الصّبيان بالمدينة في الزّمن الأوّل، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون (فتوح البلدان ص ٥٨٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٣٢) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٢٢).

* وفي غزاةِ الخندق كان للصحابي بشير وزوجه عَمْرة بنت رواحة[1] وابنته موقف متألّق مع رسولِ الله ﷺ، حيثُ باركَ الله لهم في طعامهم يومها. وبهذه المناسبة، فقد وَقَعَ في حَفْرِ الخندق آياتٌ من أعلام النّبوّة رُويت في الكُتُب الحديثيّة وكُتُب السِّيرة والتَّراجم والطَّبقات والتَّاريخ وغيرها. ومنْ بينِ ذلك ما حدث مع ابنة بشير بن سعد من طرح البركة في التّمر الذي بعثته أمّها معها.

* روى الواقدي ـ رحمه الله ـ في مغازيه ما مفاده فقال: كان المسلمون في غزاةِ الخندقِ وهم يحفرونه قَدْ أصابتهم مجاعةٌ شديدةٌ، فكان أهلوهم يبعثونَ إليهم بما قدروا عليه مِنْ طعامٍ. وذات يوم أرسلتْ عمرةُ بنتُ رواحة زوج بشير بن سعد ابنتها بحفنةٍ تمر عجوة في طَرَفِ ثوبها، وقالت لها: يا بُنية! اذهبي إلى أبيك بشيرِ بنِ سعد، وإلى خالك عبد الله بنِ رواحة بغدائهما.

فانطلقت ابنة بشير بنِ سعد ـ وكانت جارية صغيرة ـ حتى تأتي الخندق، وهنالك تجدُ رسولَ الله ﷺ جالِساً بين أصحابه الكرام، فأخذتِ الجاريةُ تلتمسُ والدَها وخالَها، فرآها رسولُ الله ﷺ فقال لها: «تعالي يا بُنية! ما هذا معك...؟».

قالت: بعثتني أمّي إلى أبي بشيرِ بنِ سعد، وخالي عبد الله بن رواحة بغدائهما.

قال رسولُ الله ﷺ: «هاتيه».

---

(1) عمرةُ بنتُ رواحة أخت عبد الله بن رواحة الأنصاريّ: هي زوج بشير بن سعد، وأمّ النُّعمان بن بشير، وابنها النّعمان أوّل مولودٍ يُولد للأنصار في المدينة المنوّرة بعد الهجرة.
قال ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ: لما ولدت النّعمان بن بشير حملته إلى رسول الله ﷺ فدعا بتمرةٍ فمضغها، ثمّ ألقاها في فيه، فحنّكه بها، فقالت: يا رسول الله! ادع الله أنْ يكثرَ ماله وولده، فقال ﷺ: «أما ترضين أنْ يعيشَ كما عاش خاله حميداً؟!» ولعمرة هذه أخبار كثيرة عنيت بها كتب الأدب وغيرها.

فأعطته التَّمر، فأخذهُ ﷺ في كفيه، ثمَّ أمر بثوبٍ، فبُسِطَ له في أرضِ الخندق، وجاء بالتَّمر، فنثرهُ بيده الشَّريفة فوق الثَّوب، ثمَّ قال لجعال بن سراقة الغفاريّ: «نَادِ بأهلِ الخندق أن هلمَّ إلى الغداء».

فتوافد أهلُ الخندقِ جميعاً، وأتوا رسولَ الله ﷺ يأكلون التَّمر منْ على الثَّوب، حتى صدروا، وإنَّه ليفيضُ من أطراف الثَّوب[(١)]. وهذا من دلائل نبوته ﷺ.

* ولقد ظهرتِ البركةُ في كثير من المواضع في غزاةِ الخندقِ وجلُّها قد وَرَدَ في الصَّحيح المتواتر؛ ومنَ الجدير بالذِّكرِ أنَّ الإمام البيهقيَّ - رحمه الله - قد عَقَدَ في دلائله فَصْلاً عنوانه: باب: ما ظهر في الطَّعام الذي دعا إليه رسول الله ﷺ أيام الخندق منَ البركة وآثار النّبوّة[(٢)].

بشيرٌ منْ أمراء الرَّسُولِ ﷺ:

* عندما كانَ رسولُ الله ﷺ يوزِّعُ سراياه إلى أطراف الجزيرة العربية، كان يختارُ مِنْ أصحابه رجالاً لهم خبرة بفنون الفروسيّة، وطُرق النِّزال، وقد وقع اختيارُ رسولِ الله ﷺ على الصحابي بشير أكثر من مرّة، وبعثه أميراً على سرية.

* ففي شهر شعبانَ من السَّنةَ السَّابعة للهجرة، بعثَ رسولُ الله ﷺ بشيرَ ابنَ سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مُرَّة بِفَدَك[(٣)]. فخرجَ بشيرٌ ممتثلاً أمْرَ رسولِ الله ﷺ حتى وصَلَ فَدَكَ، فلقيَ رِعَاءَ الشَّاءِ[(٤)] هناك، فسألهم: أين النَّاس؟.

فقالوا: هم في بَواديهم أو في نَواديهم.

---

(١) المغازي (٢/ ٤٧٦) بشيء من التصرف. وانظر: دلائل النبوة (٣/ ٤٢٧).
(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٢٢ - ٤٢٧).
(٣) «فدك»: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان.
(٤) «رعاء الشّاء»: رعاة الشّاة، وقد وَرَدَ في القرآن الكريم لفظ ﴿رعاء﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وكان الوقتُ يومها في الشّتاء، والنَّاس يومئذ لا يحضرون الماء، فاستاقَ بشيرٌ ومَنْ معه الشَّاء والنَّعم، وعاد منحدراً إلى المدينة المنورة، وخرج الصَّريخ إلى أهلِ فدك فأخبرهم، فأدركه العددُ الكثير مِنَ المقاتلين عند هبوط الليل، فتراموا بالنَّبل، حتى فنيتْ نَبْلُ أصحاب بشير ـ رضي الله عنه ـ وأصبحوا، وحَمَلَ بنو مرّة عليهم، فأصابوا أصحاب بشير، وولّى منهم مَنْ ولّى، وقاتل بشير بن سعد قِتالاً شديداً، وصبرَ صبراً جميلاً، وثبتَ ثباتَ الرّواسي وهو يجالد أعداء الله، حتى أُصيب في كعبه، ووقع، فقيل: قد مات.

* ثم إنَّ المُرّيّين رجعوا بأنعامهم وشائهم، وأُمْهِل بشير بن سعد وهو في القتلى ظنّاً منهم أنّه ميّتٌ، فلمَّا أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك، فأقام بها عند رجلٍ أياماً، حتى برىءَ مِنَ الجراحِ، ومن ثمَّ رجعَ إلى المدينة المنوّرة، وفرح رسولُ الله ﷺ والمسلمون بقدوم بشير سالماً[1].

* ولكنَّ مهمّة بشير ـ رضي الله عنه ـ لم تنتهِ بعد، وها هو رسولُ الله ﷺ يبلغه خبرٌ منْ غطفان بأنّهم قد جمعوا النَّاس بالجَناب[2] كيما يزحفوا نحوَ المدينةِ، ليقضوا ـ بزعمهم ـ على رسولِ الله ﷺ أو يُجهضوا الإسلام والمسلمين.

* وعندها عَقَدَ رسولُ الله ﷺ مجلسَ شُوراه، ودعا أبا بكر الصِّدِّيق وعمر الفاروق ـ رضوان الله عليهما ـ وذكر لهما خَبَرَ غطفان وما أجمعوا عليه من مهاجمةِ المدينة، فقالا جميعاً: يا رسول الله! ابعث بشير بن سعد إليهم!.

* هنالك دعا رسولُ الله ﷺ بشيراً، ثمَّ عقد له لواء، وبعثَ معه ثلاثمئة رجل، وأمرهم أنْ يسيروا الليلَ، وأنْ يكمنوا بالنّهار لكيلا تشعر بهم غطفان،

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٦٦) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٢٢) مع الجمع والتصرف. وانظر المغازي (٢/ ٧٢٣) وأنساب الأشراف (١/ ٣٧٩) ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٦٤) والبداية والنهاية (٤/ ٢٢١ و٢٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٤٦).

(٢) «الجناب»: منطقة من أرض غطفان.

Scanned by CamScanner

فسارَ بشير ومَنْ معه الليل، وكمنوا النَّهار حتى أتوا أَسْفَل خيبر، فنزلوا بموضع يقال له سَلاح، ثم إنَّهم خرجوا من سَلاح حتى دنوا من القوم، فأغاروا على النَّعم، وأصابوا منها شيئاً كثيراً، ولقي بشير ناساً من غطفان ففضَّ جَمْعَهم، وظفر بهم، وقَتَلَ، وسبى، وغَنِمَ، وهرب عُيينة بن حصن وأصحابه وتفرّقُوا في كلِّ وَجْهٍ، ثم قَدِمَ بشير المدينة غانماً منصوراً بما فتحَ الله عليهم، وكانت هذه السَّرية في شهرِ شوّال سنة سَبْعٍ من الهجرة[1].

* وظلَّ بشير بن سعد ـ رضي الله عنه ـ موضع ثقة رسولِ الله ﷺ، فلمّا خرج ﷺ إلى عمرة القضيّة في ذي القعدة سنة سَبْع من الهجرة قَدَّمَ السِّلاح، واستعمل عليه بشير بن سعد ـ رضي الله عنه ـ[2].

* وتابع بشير رحلة الجهاد والفروسيّة في معية الرسول الكريم ﷺ إلى أنْ توفيَ رسول الله ﷺ وهو راضٍ عن بشير لِما بذله من جهد كبير في تلبية الأوامر الملقاة على عاتقه، وتنفيذها بكل سرعةٍ ودقة وإخلاص.

بَشِيرٌ وخِلافَةُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق:

* كان لبشير بن سعد الأنصاري أثرٌ كريمٌ في صَدْرِ خلافةِ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ عندما كان المسلمون مجتمعين في سَقيفةِ بني ساعدة يتشاورون فيمن يكون الخليفة لرسولِ الله ﷺ.

* وبعد حوارٍ طويل بينَ المهاجرين والأنصار، حَسم الأَمْر أبو عبيدة ابن الجراح ـ رضوان الله عليه ـ وقال مخاطباً أَهْل المدينة: يا معشر الأنصار! إنكم أوَّل مَنْ نَصر، فلا تكونوا أوَّل مَنْ بَدَّل وغَيَّر.

* وكان بشيرُ بنُ سعد ـ وهو من زعماء الخزرج كما أسلفنا ـ في جَمْعِ الأنصار، فانتهز هذه الكلمةَ الحكيمة الأليفةَ اللطيفة الخفيفةَ من أبي عُبيدة،

---

(١) انظر: المغازي (٢/ ٧٢٧ و٧٢٨) وطبقات ابن سعد (٢/ ١٤٨) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٢٢٣) مع الجمع والتصرف. وانظر: تاريخ خليفة بن خياط (ص ٤٧) ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣٠١ و٣٠٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٣٢).

فقام بين قومه وقال: يا معشر الأنصار! إنَّا والله وإنْ كُنَّا أولي فضيلة في جهادِ المشركين، وسابقة في الدِّيْنِ، ما أردنا به إلا رضا ربّنا، وطاعة نبيّنا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أَنْ نستطيلَ على النَّاس بذلك، ولا نبتغي به الدنيا، ألا إنَّ محمداً ﷺ من قريش، وقومه أَوْلى به، وايمُ الله، لا يراني الله أنازعهم هذا الأَمْر، فاتّقوا الله ولا تخالفوهم[1].

* وأجال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في الأنصار، ليرى ما تركت مقالة بشير بن سعد منَ الأثر فيهم، فألفى أكثرهم قد اقتنع بمقالةِ بشير ـ رضي الله عنه ـ وإذ ذاك أدركَ أنَّ الأَمْرَ يجبُ أنْ يُحسم فقال: هذا عمر وأبو عبيدة، فإن شئتم فبايعوا.

فقال عمر وأبو عبيدة: والله لا نتولى هذا الأَمْر عليك، وأنتَ أفضل المهاجرين، وخليفة رسول الله ﷺ في الصَّلاة، وهي أفضل دِيْنِ المسلمين ابسط يَدَكَ نبايعك. فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما بشيرُ بنُ سعد فبايعه[2]، فكان أوّل مَنْ بايعَ أبا بكر[3]، وبهذا كانت خلافة أبي بكر بُشْرى على أمّةِ الإسلام، إذ استبشر المسلمون جميعاً بها، وتقدمهم بشير بن سعد ليبشّر ويسعد الأمّة بهذه البيعةِ المباركةِ التي وطّدت دعائم الإسلام في الدّنيا، وقضَتْ على فلولِ

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٣٣٠). وأعتقد ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ هذا الكلام من بشير بن سعد الأنصاريّ يُعتبرُ من تمام فروسية الصَّحابي بشير الذي ركن إلى الحقِّ ليكونَ في نصابه، ولتكون الخلافة في قريش. وكان للفارس بشير آراء ثاقبة مباركة في خلافة أبي بكر، وانظر ذلك في كامل ابن الأثير (٢/ ٣٣١).
وكان بشيرا قوّالاً بالحقّ، لا يخاف في الله لومة لائم، رُوي أنَّ عمر بن الخطاب قد قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخّصتُ في بعض الأمور، ما كنتم فاعلين؟! فسكتوا ـ فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ـ فقال بشير بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدْح. فقال عمر: أنتم إذاً أنتم. (مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٢٢٤).

(٢) انظر: الكامل في التّاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٣٠).

(٣) قال الشيخ محمد الخضري في كتابه «إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء» (ص ٣٥) تحقيق يوسف بديوي وزميله: وأول من بايعه عمر بن الخطاب.

المرتدين، ومَنْ أراد بالعرب والمسلمين شرّاً.

الشُّـهَـداءُ الخَـالِدونَ:

* صحب بشيرُ بنُ سعد سيفَ الله المسلول خالدَ بنَ الوليدِ في مغازيه، وها هو يسيرُ في صحبةِ خالد في اليمامة ليقارعَ المرتدين، ويدفع شر المبطلين، ثمَّ تابع خالد ـ رضي الله عنه ـ مسيرةَ الجهاد وبصحبتهِ بشير بن سعد ـ رضي الله عنه ـ ووصل خالد بجيشه جنوب العراق إلى عينِ التَّمر[1]، وكان عليهم مِهران[2] بن بَهرام، وحول عين التَّمر عددٌ مِنَ القبائل التي قالت لمهرانَ برئاسةِ زعيمهم عقَّة بن أبي عقَّة: العربُ أدرى بحربِ بعضها، فاتركهم يحاربوا المسلمين، وبذلك نَصْرٌ للفرسِ، فإنْ غلبتِ القبائلُ انتهى الأَمْرُ، وإنِ انتصرَ المسلمون يخرجُ إليهم مهران ـ وقد أعياهم التَّعب ـ ويحمل عليهم.

* إلا أنَّ سيفَ الرَّحمن خالداً ـ رضوان الله عليه ـ ومَنْ معه مِنْ فُرسان المهاجرين والأنصار لم يمهلوا القبائل برئاسة عقّة، وحملَ خالد بنفسه على عقة، وهو يُقيمُ صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيراً، وانهزم عسكره من غيرِ قتالٍ، فأسِرَ أكثرهم.

* ولما سمعَ مِهرانُ بنُ بهرام ذلك سُقِطَ في يده، وهربَ تاركاً الحِصنْ، واستسلم الحصنُ لخالد، وهنالك حظي بشير بن سعد بالشَّهادة[3]، فَدُفِنَ في عينِ التَّمر، ليبقى في ذاكرة التَّاريخ إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها.

وبعد، فهذا بشير بن سعد الأنصاريّ أحد فرسان مدرسة النّبوّة الكرام، وأحد الشّهداء الخالدين، أرجو الله عزَّ وجلَّ أن أكون قد وُفّقت في رسْمِ صورته الجهادية بشكل جيّد.

---

(١) «عين التمر»: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.

(٢) كذا في تاريخ الطبري (٣/ ٣٧٦) والكامل لابن الأثير (٢/ ٣٩٤) أما ابن خلدون (٢/ ٥١٢) فقد أثبته: بهرام وهو خطأ.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٣٩٥) بشيء من التصرف والاختصار.

* رضي الله عن الصحابي بشير، وحشرنا جميعاً في زمرة البَشير ﷺ، يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وأعمالٍ صالحة، وأخلاق حميدة.

اللهم اجعلنا هداةً مهتدين، ولا تجعلنا ضالّين ولا مُضِلّين.

* * *

(٧)

ثابت بن أقْرَم

- رضي الله عنه -

* قُتل شهيداً مع عُكَّاشةَ بنِ محصَن في حروب الرِّدة.

بطلٌ مِنَ الأَنْصار:

* هلْ أتاكَ حديثُ ثابت بنِ أقرم؟!.

وهل سمعتمْ بأَخبار هذا الفارس الصَّحابيّ الكريم؛ الذي ملأَ ذكره الأسماع، وكان ملءَ السمع والبصر؟!.

* إنَّه واحدٌ منْ فرسانِ مدرسة الرَّسولِ ﷺ؛ الذين تخرَّجُوا في هذه الكليّة المحمّدية الميمونة التي أثْرتِ الدُّنيا بأعلام الرِّجال، وأبطالِ الإسلام، وفرسان الجهاد.

* وثابتُ بنُ أقرمِ بنِ ثعلبةَ العجلاني البَلَوي[1]، حليف الأنصار، وواحدٌ منْ أولئكَ الفرسانِ الكِبار الذين شهدتْ لهم ساحاتُ الجهادِ بوفور العزيمة، والشَّجاعة، والفَضْلِ، والإقدام، والجرأة.

* شهدَ ثابت شهادة التَّوحيد منذ إشراقتها الأولى بينَ الصحابة والأنصار، وآمَنَ بدعوةِ رسولِ الله ﷺ قبل أنْ يراه، وعرفَ أصحابه الكرام الذين هاجروا منْ مكة إلى المدينةِ قبل أنْ يعرفه.

* عرف ثابت سفيرَ رسولِ الله ﷺ مصعب بن عمير وهو يدعو إلى دِيْنِ الله في المدينة، وعلمَ بإسلام أكابر الأنصار، علم إسلامَ أُسيد بن الحَضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وغيرهم من سادةِ الأنصار، فما كان منه إلا أن أصغى لصوت الحق، ونداء الهداية، ففتح قلبه للإيمان، وتعلّقت مشاعرُه بهتاف السماء، فنطق بالشهادة، وانخرط في سلك المؤمنين.

* كان ثابت ينتظر قدومَ رسولِ الله ﷺ مهاجراً، كيما يفديه بنفسهِ، وأهلهِ، ومالِهِ، ولما كانتِ الهجرةُ، كان ثابتُ بنُ أقرمَ ممّنْ نَذَر نفسه لله

---

(1) المغازي (ص ١٤٢ و١٦٠ و٤٩٨ و٥٥٠ و٧٦٠ و٧٦٣ و٧٦٤ و١٠٤٧) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) والاستيعابُ (١/ ١٩٢) والاستبصارُ (ص ٣٠٠) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣٣) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/ ١٣٩) والإصابة (١/ ١٩٢) وحياة الصّحابة (٣/ ٢٢ و٦٩٢ و٦٩٤) وغيرها كثير من كتب السِّيرة والتّراجم والطّبقات والتأريخ.

والرّسول، وقدَّم الغالي والرخيص ذَوْداً عن حياض الدِّيْن، وصوناً لكلمة الحق واليقين.

مَغَـازِيْـهِ وَغَـزَوَاتـهِ:

* هذا الفارسُ المقْدامُ منْ أهلِ بدرٍ الذين غُفِرَ لهم، وقد شهدَ مع رسولِ الله ﷺ غزاة بدر، وأُحُد، والخندق، والمشاهد كلّها، وكان له فيها آثارٌ بيض، وبلاءٌ محمود، وبسالةٌ منقطعة النظير.

* فقد خاضَ غزوةَ بدرٍ، وأبلى فيها بلاء حَسَناً، وأَسَرَ أحدَ فرسانِ المشركين، ويُدعى فروة بن خُنيس السَّهميّ، وقدم في فدائه عمرو بن قيس، افتداه بأربعةِ آلاف درهم.

* وفي غزوةِ بني قريظة كان ثابتُ بنُ أقرم ـ رضيَ الله عنه ـ منَ المسارعينَ إلى تلبيةِ أمْرِ رسول الله ﷺ بحصار بني قريظة، حتى فتح الله عزَّ وجلَّ على المسلمين ونصرهم على يهودِ بني قريظة.

* وفي شهر ربيع الأوّل سنة ستٍّ من الهجرة، كانت سريةُ الغَمْر التي بعثَها رسولُ الله ﷺ بإمرة عكّاشة بن محصن(١) في أربعينَ رجلاً منهم ثابتُ بنُ أقرم(٢)، فخرجتِ السَّرية، ونفَّذتِ الأوَامر المحمدية، وعادت سالمة غانمة، وقدمتْ على رسولِ الله ﷺ، ولم يُصَبْ أحدٌ من أفرادها، ولم يلقَوْا كيداً(٣) غير ثابت بن أقرمَ حيثُ أُصيبَ إصابة طفيفةً، ورجع مع أصحابه إلى المدينة(٤).

* وتابع ثابت مغازيه في معيّةِ رسولِ الله ﷺ إلى أنْ كانت سريةُ مؤتَة، فشهدها، وكان له موقفٌ مبارك، فهلمّوا نشهد ذلك الموقف؛ لنقف على

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص (؟؟؟؟).
(٢) وقيل: إنَّ ثابت بنَ أقرم ـ رضي الله عنه ـ هو الذي كان الأمير على هذه السّرية. انظر: السّيرة الحلبية (٣/ ١٧٤) وغيرها.
(٣) المغازي (٢/ ٥٥٠ و٥٥١) بشيء من الاختصار.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٣٢) وعيون الأثر لابن سيّد الناس (٢/ ٣٧).

حقيقة فروسية ثابت، هذا الرجل الفارس المقدام.

ثـابت فـي مُؤتـةَ:

* كانت وقعةُ مؤتة في جمادى الأولى سنة (٨هـ) وأمَّرَ رسولُ الله ﷺ على هذه السَّرية زيد بن حارثة وقال: «إنْ قُتل زيدٌ، فجعفر، وإنْ قُتل جعفر، فعبد الله بن رواحة»[١] ثم عَقَدَ لأصحابه لواءً أبيضَ، ودفعه إلى زيدِ بن حارثة.

* وخرج ثابتُ بنُ أقرم ـ رضوان الله عليه ـ مع هذا الجيش المسلم، وخرجَ رسولُ الله ﷺ مشيّعاً لهم حتى بلغَ ثنيَّةَ الوَدَاع، فوقف وودعهم[٢].

وهنالكَ في مؤتةَ التقى الجمعان، وبدأ القتالُ المريرُ. كان جيشُ المسلمين ثلاثة آلاف رجلٍ، يواجهون هجمات مئتي ألف مقاتل بعتادهم الثقيل.

* كانت معركة عجيبة تشاهدُها الدّنيا بالدَّهْشَةِ والإعجاب معاً، ولكن إذا هبَّت ريحُ الإيمان صنعت العجائبَ، فالمؤمنون لم يُنصروا بالكثرة، كما عبَّر عن ذلك ثابت بن أقرم نفسه، وإنما بقوة الإيمان، والصبر، والتكاتف.

* روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: شهدتُ مؤتةَ، فلمّا رأينا المشركين، رأينا ما لا قِبَلَ لنا به من العدد، والسِّلاح، والكُراع[٣]، والدِّيباج، والحرير، والذَّهب، فبرِقَ بصري، فقال لي ثابت بنُ أقرم: يا أبا هريرة! ما لك؟ كأنّكَ ترى جموعاً كثيرة؟.

قلت: نعم.

قال: لم تشهدنا ببَدْرٍ، إنّا لم نُنْصَر بالكثرة[٤].

---

(١) صحيح البخاري، باب: غزوة مؤتة من أرض الشّام.

(٢) السّيرة النّبوية (٢/ ٣٧٣ و٣٧٤).

(٣) «الكراع»: كناية عن الخيل.

(٤) المغازي (٢/ ٧٦٠) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٣١) والبداية والنهاية (٤/ ٢٤٤) والإصابة (١/ ١٩٠).

* وقُتِل زيد بن حارثة شهيداً، ثمّ تلاه جعفر بن أبي طالب فحمل اللواء فقتل شهيداً، ثم حمله عبد الله بن رواحة، وقاتل حتى قتل شهيداً أيضاً.

* ولما قُتل ابن رواحة اضطرب أمْرُ المسلمين، وتراجعوا قليلاً، فأقبل ثابتُ بنُ أقرم الأنصاريّ بطلنا، فأخذ اللواء، وجعل يصيحُ بالأنصار، فجعل النّاس يتواثبون إليه من كلٍّ وجه وهم قليلٌ، وهو يقول: إليّ أيّها النّاس! فاجتمعوا إليه، فنظر ثابتٌ إلى خالد بنِ الوليد فقال: خُذِ اللواء يا أبا سليمان.

* فقال خالد: لا آخذه أنت أحقّ به، أنتَ رجلٌ لك سِنٌّ، وقد شهدتَ بدراً.

* قال ثابت: خذه أيّها الرجل! فوالله ما أخذتُه إلاّ لك.

* فأخذه خالد، فحمله ساعة، وجَعَل المشركون يحملون عليه، فثبتَ حتى تكركَر المشركون، وحَمَلَ أصحابه، ففضَّ جَمْعاً من جمعهم، ثمّ ذهب منهم بَشَرٌ كثير، وكان قد اندقت في يده تسعة أسياف، ولم يبقَ في يدِه إلا صفيحة يمانية[1].

* استعمل خالد بن الوليد خبرته الحربيّة، حتى انحاز بالجيش، وأنقذه من هزيمةٍ منكرة كادت تقع لولا عناية الله التي تداركت المسلمين؛ وكان الليل قد أقبل، وانتهز خالد هذه الفرصة، وغيّر نظام الجيش، وصفّ صفاً طويلاً وراء الجيش، فلمّا أصبح الصَّباح، أنكر الأعداءُ حال المسلمين، وسمعوا من الجَلَبَة، وقعقعة السّلاح، ما قد ظنّوا أنّهم جاءهم مَدَدٌ، فرعبوا، وانكشفوا، وما زال خالد يحاورهم ويداورهم، والمسلمون يقاتلونهم في أثناء انسحابهم بضعة أيام حتى خافَ الرُّوم أن يكونَ هذا استدراجاً لهم إلى الصَّحراء، فتحاجز الفريقان، وانقطعَ القتال.

* وعاد الجيشُ من مؤتة، وفيهم ثابت بن أقرم وغيره من كبراءِ الصَّحابة، وعندما وصلَ الجيشُ إلى المدينةِ، تلقاهم أهلها بالتّبكيت والتّعنيف، وجعل

---

(١) عن مختصر تاريخ دمشق (٣٣١/٥) وفتح الباري (٥١٣/٧ و٥١٤) مع الجمع والتصرف.

النَّاس يحثونَ في وجوههم التُّراب ويقولون: يا فرار! أفررتم في سبيلِ الله؟! فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بفرّار، ولكنّهم كُرّار إنْ شاء الله»[١].

* رويَ عن عبد الله بنِ عمر ـ رضيَ الله عنهما ـ ما يشبه ذلك قال: كنتُ في سرية من سرايا رسولِ الله ﷺ، فحاص النّاسُ[٢] حيصةً، وكنتُ فيمن حاصَ، فقلنا: كيف نصنعُ وقد فررنا من الزَّحف، وبُؤْنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة؛ ثم قُلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإنْ كانت لنا توبة وإلا ذهبنا. فأتيناه قبل صلاة الغَداة، فخرج فقال: «من القوم؟».

قال: فقلنا: نحن فرّارون.

قال: «لا، بل أنتم العكّارون[٣]، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين».

قال: فأتيناه حتى قبَّلْنا يده[٤].

---

(١) المغازي (٢/ ٧٦٥).

(٢) «حَاصَ النّاس»: أي: مالوا، والمعنى: جال الناس جولة يطلبون الفرار. والمحيص: المهرب والمحيد. وفي الذكر الحكيم: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

(٣) «العكّارون»: جَمْعٌ، مفرده: عكّار، وهو الذي يولّي في الحرب، ثم يكر راجعاً إليها، يقال: عكرتُ عليه، إذا حملتُ، وعكر يعكرُ عَكْراً: إذا عطفَ، والمعنى هنا: أنتم الكرارون إلى الحربِ، والعطّافون نحوها؛ وهنا تعارض ينبغي دفعه، وهو أنَّ العكارين في لغةِ العربِ هم الكرارون، فكيف جاز إطلاق هذا اللفظ على الفارّين من المعركةِ؟ مع أنّه معارضٌ للآية الكريمة التي نصَّتْ على تحريم الفرار من الزَّحف في سبيل الله وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ و١٦].
والجوابُ عن ذلك أنْ يُقال: إنَّ هؤلاء القوم لما كروا إلى نبيهم ﷺ ـ وهو وليّ الأمْر في ذلك الوقت ـ ليرجعوا إلى ما يأمرهم به، ولينصرفوا فيما يصرفهم إليه، كان ذلك منهم عوداً إلى ما كانوا عليه من بذل أنفسهم لقتال عدوهم، فاستحقوا بذلك أن يطلق عليهم «العكّارين» وأما حكم الفرار من الزحف لغير متحرف لقتال، أو متحيز إلى فئة فهو باق على التحريم إلى يوم القيامة، وبهذا يزول التعارض بين الآية والحديث، والله سبحانه وتعالى أعلم. (مشكل الآثار للطحاوي ١/ ٣٨٧).

(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد بهذا اللفظ في المسند (٢/ ٧٠) وبنحوه في (٢/ ٨٦=

ثـابت ورحيقُ الشَّهـادةِ:

* مكثَ ثابت بنُ أقرم ـ رضوان الله عنه ـ بعد عودته منْ مؤتة، يتابعُ الأحداث، ويغزو بمعيَّة رسولِ الله ﷺ، وبعد أن انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى، نَجَمَ فريقُ المرتدينَ، وظهرتْ حركاتُ المتنبِّئينَ، فخرج ثابتُ بنُ أقرم مع سيف الرحمن خالدِ بن الوليد أبي سليمان، إلى حربِ أهلِ الرِّدة، وحلفاء الشَّيطان، وذلك في خلافةِ أبي بكر ـ عليه سحائب الرِّضوان وشآبيب المغفرة ـ. وهناك في بزَّاخة[1] نال ثابت ـ رضي الله عنه ـ حلية الشَّهادة في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، ورُفع إلى عليين ليكونَ مع الذين هم أحياءٌ عند الله، و ممن يُسْقَون من رحيقٍ مختوم، ختامه مسك.

* روتِ المصادرُ الوثيقة قصّة استشهادِ ثابت بن أقرم في معاركِ الرِّدة قالت: خرجَ سيفُ الله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ على النَّاس يعترضهم في الرِّدة، فكان كلّما سَمِعَ أذاناً للوقتِ كفَّ عنهم، وإذا لم يسمعْ أذاناً أغار عليهم، فلمّا دنا خالد من بزَّاخة ـ وكان بها طُليحة الأسديّ وأصحابه ـ بَعَثَ عكّاشة بنِ محْصن، وثابت بنُ أقرم ـ رضي الله عنهما ـ طليعة أمامه يأتيانه بالخبر، وكانا فارسَيْن، عكّاشة بن محصن على فرسٍ له يُسمى «الرِّزام»، وثابت بن أقرمَ على فرسٍ له يُسمى «المُحبَّر»، فلقيا طُليحة[2] بن خويلد،

= و١١١). وأخرجه أبو داود في الجهاد برقم (٢٦٤٧) باب: في التولي يوم الزَّحف. وأخرج بعضه أيضاً في الأدب برقم (٥٢٢٣) باب: في قُبلة اليد. وأخرجه الترمذي في الجهاد برقم (١٧١٦) بابِ: ما جاء في الفرار من الزَّحف. وأخرجه ابن ماجه مُختصراً في كتاب الأدب برقم (٣٧٠٤) باب: الرَّجل يقبِّل يَدَ الرجل. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٩٧٢) في باب: تقبيل اليد.

(١) «بزاخة»: ماء لطيء بأرض نجد، فيه وقعةُ المسلمين مع طُليحة الأسديّ الذي ارتدَّ وتنبأ، فهزمه خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ في بزاخةَ، ثم إنَّ طليحة وَفَدَ على عمر بن الخطّاب وبايعه، وحَسُنَ بلاؤه في الفُتوح.

(٢) طليحة بنُ خُويلد بن نوفل الأسديُّ، كان منْ أشجع العرب، وكان يعدُّ بألف فارس، قَدِمَ على رسولِ الله ﷺ في وفْدِ أسد خُزيمة سنةَ تسع وأسلموا، فلما رجعوا ارتدَّ طليحة، وادعى النَّبوة، فأرسل إليه النَّبيّ ﷺ ضرارَ بنَ الأزور ليقاتله فيمن أطاعه، =

وأخاه سلمةَ بن خويلد طليعة لمن وراءهما من النّاس، فانفرد طليحة بعكاشةَ، وسلمة بثابتٍ، فلمْ يلبثْ سلمةُ بن خويلد أنْ قَتَلَ ثابت بن أقرم، وصرخَ طُليحة بسلمةَ: أعِنّي على الرَّجل فإنّه قاتلي؛ فكرَّ سلمةُ على عكّاشة فقتلاه جميعاً، فسُرَّ عُيينةُ بن حصن، وكان مع طليحة، وكان قد خلّفه على عسكره، وقال: هذا الظَّفر.

* وأقبل خالد بنُ الوليد مع المسلمون، فلم يرعْهم إلا ثابت بن أقرم قتيلاً تطؤه المطيّ، فعظم ذلك على المسلمين، ثمّ لم يسيروا إلا يسيراً حتى وطئوا عكّاشة قتيلاً.

* وحزنَ خالدُ بن الوليد والمسلمون على هَذَيْنِ الفارسَيْنِ، وقالوا: سيّدان منْ ساداتِ المسلمين، وفارسان منْ فرسانهم يستشهدان؟! ثمّ أمر خالدُ أصحابه فحفروا لهما، ودفنوهما بدمائهما وثيابهما.

* ذكر ابنُ هشام في السّيرة[1]، أنَّ طُليحة[2] أنْشَدَ يوم أن قتل عكّاشة

= ثمّ توفي رسول الله ﷺ فقويت شوكةُ طُليحة، وأطاعته أسد وغطفان، فأرسل إليه أبو بكر الصّدّيق ـ عليه سحائب الرّضوان ـ خالد بن الوليد سيف الله، فقاتله بنواحي سُمَيْراء وبزّاخة، وأرسل إليه خالد بن الوليد عكّاشة بن محصن وثابت بن أقرم ـ رضي الله عنهما ـ فقتل طليحة أحدهما، ثمّ أخوه الآخر، ثم هَزَمَ الله طُليحة، وفرّقَ شمل تُبّاعِهِ، وظهر عليهم المسلمون، فلحقَ طليحة بالشّام، فأقام عند بني حنيفة حتى توفي أبو بكر، ثمّ أسلم طليحة، وحَسُنَ إسلامه، وحجّ في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ وله آثاراً جليلة في قتال الفرس في القادسية بالعراق زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكتب عمرُ إلى النّعمان بن مقرن: أن استعنْ في حربك بطليحة وعمرو بن معد يكرب، واستشرهما. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٥٤ و٢٥٥). فتأمّلْ كيف يُغيِّر الإيمانُ النفوس؛ حين يتغلغل في ثناياها، فيُعانق الجهادُ مطايا الفروسية، ويندغم الإقدام في مسيرة الحق، فإذا بالظفر ينداح في آفاق الهدى، فينشرح الصدر، ويحظى ببرد اليقين.

(١) السّيرة النّبوية (١/ ٦٣٧) والبداية والنّهاية (٦/ ٣١٧).

(٢) روي أنّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وذلك بعد أنْ تابَ طُليحة وعاد إلى جادة الصّراط السّويّ وإلى الإسلام ـ قال لطليحة: كيف أحبّك وقد قتلتَ الصّالحَيْن: =

وثابت - رضي الله عنهما -:

فما ظنُّكُم بالقومِ إذ تقتلونَهم ... أليسوا وإنْ لم يُسْلموا برجالِ

نصبتُ لهم صَدْرَ الحِمالةِ إنّها ... معاودةٌ قيلَ الكماةِ نزالِ

عشيةَ غادرتُ ابنَ أقرمَ ثاوياً ... وعكّاشةَ الغنميّ عند حجالِ[1]

* كان استشهاد ثابتِ بنِ أقرم - رضي الله عنه - في سنة اثنتي[2] عشرة من الهجرة النّبويّة. وبذلك طُويت صفحة فارسٍ من فرسانِ الرّسول ﷺ، ولكنّ سيرته ستظلُّ ملء الأسماع إلى أنْ يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها، وستبقى سجلاتُه الخالدة تحكي قصة الجهاد الإسلامي في بقاع الأرض، وأعمال التاريخ، لتكون مثالاً يُحتذى من جديد، وقدوةً صالحة يقتدي بها المؤمنون لإعلاء كلمة التوحيد، وجَعْلها تنسابُ بحنوٍّ واستمرار في قيعان النفوس، وتخفق رايات الحق عالية تُبشِّر بتباشير النصر المبين.

* * *

= عكّاشة بن محصن، وثابت بن أقرم؟ فقال طليحة: أكرمهما الله بيدي، ولم يهني بأيديهما. (رجال مبشرون بالجنة ٢/ ١٨٠).

(١) «حجال»: اسم فرس طليحة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ٣٣٣) والبداية والنهاية (٦/ ٣٢٩) وحياة الصحابة (٣/ ٦٩١ و٦٩٢) ورجال مبشرون بالجنة (٢/ ١٨٢).

(٨)

ثابِتُ بنُ قَيْس

- رضي الله عنه -

* قال عنه ﷺ: «نِعْمَ الرَّجلُ ثابتُ بنُ قيس».

خطِيبُ رسول الله ﷺ:

* إذا كان حسّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ شاعرَ الرّسول ﷺ، فإنَّ ثابتَ ابنَ قيس بن شمَّاس بن زهير الأنصاريّ الخزرجي[1] صاحب وخطيب رسول الله ﷺ وخطيب الأنصار، وأحد نُجباء أصحاب مُحمّد ﷺ، وأحد المتخرّجينَ المتفوّقين في مدرسة النبوّة العامرة بالإيمان.

* كانَ ثابتٌ جهيرَ الصّوتِ، خَطيباً، شَاعراً، كاتباً، مُفوّهاً، فَصيحاً، عَليماً بمقاماتِ الكَلام، قوّاماً بالكلمةِ الفَاضلة، حَبَاه اللهُ عزَّ وجلَّ لساناً قؤولاً، وقلباً عقولاً، ولساناً بليغاً، يدركُ ما يقول في مواقفِ الكلام، ويعرفُ مكانَ المقاتل في ضَربِ الحُسَام، فلقد خاضَ عدداً منَ المعارك في الجاهلية، التي كانت دائرة بين قومه الخزرج وبين الأوس، وكان آخرها يوم بُعاث، حيثُ شارك بلسانه وسنانه في تلكم المعارك، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أكرم الأوس والخزرج، ووحّدهم تحت كلمة الأنصار، فكانوا أنْصاراً لرسولِ الله ﷺ، ومؤيّدين خُلّص، ومؤمنين أكارم.

* أسلم ثابتُ بنُ قيس مع ثُلّة الأوّلين منَ الأنصار، واستجاب لنداء الحقّ المبين، وشهد بالرّسالة المحمّدية الغرّاء، فأضحى كلامه كأنداء النّسيم العطر الفوّاح، إذا مسَّ زَهْر رياض الجنّات، فإذا به يَنشرُ الأريج والشّذا في الدّنيا كلها.

* عُرِفَ ثابت بين الأنصار، بثباتِ القَلْب، والجرأة في حومة الميدان، كما عُرف في حكمتهِ، وبراعته في الكَلام، وامتلاكه لناصية البيان والتبيين.

* وعندما قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ مهاجراً، خطبَ ثابتُ بنُ قيس مَقْدم

---

(١) المغازي انظر الفهارس (٣/١١٤٦ و١١٤٧) وفضائل الصّحابة للنسائي (ص ٣٧) والمستدرك (٣/٢٥٩ ـ ٢٦١) والاستيعاب (١/ ١٩٣ ـ ١٩٧) وأسد الغابة (١/ ٢٧٥ و٢٧٦) وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٣٩ و١٤٠) والبداية والنهاية (٦/ ٣٢٣) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٨ ـ ٣١٤) والعبر (١/ ١٤) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٢١ ـ ٣٢٢) وتهذيب التهذيب (٢/ ١٢) والإصابة (١/ ١٩٠) وغيرها من مصادر.

الرَّسول ﷺ فقال: نمنعك ممّا نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟.

فقال ﷺ: «الجنَّة».

فقال الأنصار بصوتٍ واحد: رضينا يا رسول الله[1].

* ومنذ تلك اللحظة، وضعَ ثابت بن قيس الجنَّة نصبَ عينيه، وأخذ يعملُ ويسعى لكي يكونَ منْ أهلها، فكان دأبه الجهاد باللسان والسِّنان، والإخلاص في توجُّهه من خلال القول والفعل والعمل.

مَشَاهِدهُ الوضيئة:

* تقولُ المصادرُ: شَهدَ ثابت ـ رضي الله عنه ـ المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ إلا غزاة بدر؛ فقد شَهِدَ غزوة أُحُدٍ، وكانت أوّل مشاهده بمعيّة رسولِ الله ﷺ، ثمّ شهد بقية المشاهد، وكانَ له دورٌ بارزٌ في غزوةِ بني النَّضير.

* شهد ثابت بعد إذ غزاة الأحزاب، وأدرك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد هزمَ الأحزابَ وحده، وفي هذه الغزاة نقضَ بنو قريظة، وأخابث اليهود، العَهْد معَ اللهِ ورسوله، فأذِنَ الله بحربهم. وسارَ رسولُ الله ﷺ إليهم وبصحبته فرسانه المَيامين يكبِّرون ويهللون، وحاصرهم رسولُ الله ﷺ خَمْساً وعشرينَ ليلة[2] فلمَّا اشتدَّ عليهم الحصار قيل لهم: انزلوا على حُكْمِ رسولِ الله ﷺ، فنزلوا على حُكْمِ سَعْدِ بنِ معاذ الأنصاريّ الأشهليّ ـ رضي الله عنه ـ فحكم فيهم بأنْ تقتل الرِّجال، وتُقْسَم الأموال، وتُسْبَى الذَّراري والنِّساء، فقال رسولُ الله ﷺ لسعد: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله منْ فوقِ سبعة أرقعة»[3] فاستنزلوا من حُصُونهم، وحبسهم رسولُ الله ﷺ في دار ابنة الحارث النّجارية، وكانوا ستمئة أو سبعمئة، فَضُرِبت أعناقهم في خنادقَ حُفِرَتْ في المدينة.

* ويوم قُريظة كان لثابتِ بنِ قيس ـ رضي الله عنه ـ قصَّة طريفة مع أَحَدِ

(١) عن سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٩) والإصابة (١/ ١٩٧) مع الجمع والتصرف.
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٩٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٣١١).
(٣) تاريخ الطبري (٢/ ١٠١) بتصرف يسير.

اليهود الذين وقعوا في الأَسْر، وحُكم عليهم بالإعدام، وهو الزَّبير بنُ باطا اليهوديّ، وكان الزَّبير قد منَّ على ثابتِ بن قيس بن شمّاس في الجاهلية في يوم بُعاث، أخذه فجزَّ ناصيته، ثمَّ خلّى سبيله، فجاءه ثابت يوم قريظة، وهو شيخ كبيرٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن! ـ كنية الزَّبير ـ هل تعرفني؟

قال الزَّبير: وهل يجهل مثلي مثلك؟.

قال ثابت: إنّي قد أردتُ أنْ أجزيك بيدك عندي يوم بعاث.

قال: إنَّ الكريمَ يجزي الكريم يا أبا محمّد ـ كنية ثابت ـ.

* ثمَّ إنَّ ثابت بن قيس أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله! هَبْ لي الزَّبير، فإنَّ له عليَّ مِنَّة، وأحببتُ أنْ أجزيه بها، فقال رسولُ الله ﷺ: «هو لكَ»، فأتى ثابت الزَّبير وقال له: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد وهبَ لي دَمَكَ فهو لك.

قال: شيخٌ كبيرٌ لا أهل له ولا وَلَد، فما يصنعُ بالحياة!.

فأتى ثابتُ رسولَ الله ﷺ فاستوهبه أهله وولده فقال ﷺ لثابت: «هم لك».

فأتاه فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك.

قال الزَّبير: أهل بيت الحجاز لا مالَ لهم، فما بقاؤهم؟!.

فأتى ثابت ـ رضي الله عنه ـ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله ماله!.

قال ﷺ: «هو لك».

فأتاه ثابت فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك.

قال الزَّبير بنُ باطا اليهوديّ: أي ثابت! ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحيّ كعب بن أسد ـ ملك اليهود ـ؟.

قال ثابت: قُتِل معَ مَنْ قُتل.

قال: فما فعل سيِّد الحاضر والبادي؛ حُيي بن أَخْطَبَ[1]؟

قال ثابت: قُتِل.

قال: فما فعل مقدّمتنا إذا شُددنا، وحاميتنا إذا كررنا، عزّال بن شمويل؟.

قال: قُتِل.

فقال: فما فعل المجلسان ـ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة ـ؟.

قال ثابت ـ رضي الله عنه ـ: ذهبوا، وقُتلوا، وفُرِغَ منهم، ولعلَّ الله عزَّ وجلَّ أنْ يهديَك.

قال الزّبير: أسألك باللهِ وبيدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتني بالقوم؛ فواللهِ ما في العيش بعد هؤلاء منْ خيرٍ، فما أنا بصابرٍ لله فتلة دلو نضح حتى ألقى الأحبّة.

فذكر ثابت ـ رضي الله عنه ـ لرسولِ الله ﷺ مقالة الزَّبير بن باطا، فأَمَر به، فقدّمه ثابت فَضَرب عنقه.

* فلمّا بلغ أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ قول الزَّبير: ألقى الأحبّة، قال ـ رضي الله عنه ـ: يلقاهم واللهِ في نارِ جهنّم خالداً فيه مخلداً أبداً[2].

وهنا أنشد ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ في تلك الحادثة، يذكر الزَّبير ابن باطا اليهوديّ فقال:

وفتْ ذمّتي أنّي كريمٌ وأنّني ... صبورٌ إذا ما القومُ حادوا عن الصَّبر
وكان زبيرٌ أعظم النّاس مِنّةً ... عليَّ فلمَّا شُدَّ كوعاه بالأسرِ

---

(1) اقرأ سيرة هذا الفاجر الخبيث في كتابنا «المبشّرون بالنار» (٢/ ٢١٣ ـ ٢٥٧) ولاحظ غدر هذا الخبيث ومدى حقده، ولاحظ كذلك عظمة رسول الله ﷺ في معاملته هؤلاء الأشرار.

(2) تاريخ الطبري (٢/ ١٠٢) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٣١٦) مع الجمع والتصرف.

أتيـتُ رسـولَ الله كيمـا أفكَّـه　　وكان رسولُ الله بحراً لنا يجري[1]

* وشهدَ ثابت بن قيس غزوة بني المصطلق، وبعد أنْ نصرَ اللهُ عزَّ وجلَّ المؤمنينَ على المصطلقيين، وانتهتِ المعركةُ، قُسِّمتِ الغَنائم، ووُزِّعتِ الأسرى والسَّبايا والذَّراري بين المجاهدين، وفُرسان مدرسة النَّبوّة، فوقعتِ السَّيِّدة جُويرية بنت الحارث[2] في سَهْم ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ فكاتبها على تسع أواقٍ من الذَّهب، فجاءت وشكتْ حالها لسيد المرسلين، وإذ ذاك لاحظتها عيونُ العِناية الإلهيّة فأضحتْ من أمّهات المؤمنين، حيثُ تزوّجها رسولُ الله ﷺ، بعد أنْ قالَ له ثابت: هيَ لكَ يا رسول الله! بأبي وأمّي.

خَطِيبُ البُلَغَاء وَبَلِيغُ الخُطَبَاءِ:

* في عالم الخطابة والفَصاحة يعلو اسم ثابت بن قيس ـ رضوان الله عليه ـ ليحقق أعظم النَّصْر في سَماءِ الفَصَاحة والبيان. . . فعندما كان عام الوفود، قدم وفدُ بني تميم، ومعهم خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة، قام التَّميميون، وقالوا لرسولِ الله ﷺ: يا محمد! جئناكَ نفاخرك، فائذنْ لخطيبنا وشاعرنا، فقال ﷺ: «قد أذنتُ لخطيبكم فليقل».

فقام عطارد بنُ حاجب بنِ زرارةَ فقال: الحمدُ للهِ الذي له علينا الفَضْل، وهو أهله، الذي جَعَلَنا مُلوكاً، ووهبَ لنا أَمْوَالاً عِظَاماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّةَ أهل المشرق، وأكثره عَدَداً، وأيسره عدّة، فمَنْ مثلنا في النَّاس؟! ألَسْنا برؤوس النَّاس، وأولي فضلهم؟! فَمَنْ فاخرنا فَلْيَعْدُد مثل ما عددنا، وإنّا لو نشأ لأكثرنا الكَلام، ولكنّا نخشى منَ الإكثار فيما أعطانا، وإنّا نُعرف بذلك. أقول هذا لأنَّ تأتوا بمثل قولنا، وأمْر أفضل من أمرنا.

* فقال رسولُ الله ﷺ لخطيبه وفارسه ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/١٠٢).

(٢) اقرأ سيرة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٣١٥ـ٣٣٨) طبعة دار اليمامة بدمشق.

«قُمْ يا ثابت فأجبِ الرَّجل في خطبته».

فقام ثابتُ وأجابَ عُطارد بقوله: الحمدُ لله الذي السَّموات والأرض من خلقه، قضى فيهن أمْره، وسعَ كرسيه علْمه، لم يكن شيءٌ قطُّ إلا مِنْ فَضْله، ثمّ كان من قدرته أنْ جعَلنا ملوكاً، واصطفى منْ خيرته رسولاً، أكرمه نَسَباً، وأفضله حَسَباً، فأنزل عليه كتاباً، وائتمنه على خَلْقِهِ، فكان خيرة الله منَ العالمين، ثمَّ دعا النَّاس إلى الإيمان به، فآمنَ برسول الله ﷺ المهاجرون منْ قومه، وذوي رحمه، أكرم النَّاس أحساباً، وأحسن النَّاس وجوهاً، وخير النَّاس فعالاً.

* ثمَّ كان أوّل النَّاس إجابةً، واستجابة لله حين دَعا رسول الله ﷺ؛ فنحنُ أنصار الله، ووزراء رسوله، فقاتلَ النَّاس حتى يؤمنوا، فمن آمنَ باللهِ ورسوله مَنَعَ ماله ودمه، ومَنْ كفر جاهدناه في اللهِ أبداً، وكان قَتْله علينا يسيراً، أقولُ هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسَّلام عليكم[1].

* بهذه الحكمة الأسلوبيّة، والبراعة اللسانية، والسياسة الجوابية، ردَّ ثابتُ بنُ قيس ـ رضي الله عنه ـ على خطيبِ بني تميم، وكأنّه يقرأُ صحائف من

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٥/ ٤٢) نقلاً عن ابن هشام (٢/ ٥٦٢) وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٦٧٥ ـ ٦٧٧).
وفي تفسير «البحر المحيط» لأبي حيّان نصّ لخطبة ثابت ـ رضي الله عنه ـ يختلف في مبناه عن النّص الذي أوردهُ ابن إسحاق، ونقله عنه ابن كثير في «البداية والنّهاية» وغيره ومن تابعه في روايته للقصة وأحاديثها وأحداثها؛ ونغترف هذا النص من بحر أبي حيّان لنحيط به علماً، ونعرف مدى بلاغة ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال ثابت: الحمدُ لله، أحمدهُ وأستعينه، وأومنُ به، وأتوكلُ عليه، وأشهد أنْ لا إله إلا الله، و أشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمّه، أحسن النّاس وجوهاً، وأعظمهم أحلاماً فأجابوه. والحمدُ لله الذي جَعَلنا أنصار دِينه، ووزراء رسوله، وعزّاً لدينه، فنحنُ نقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، فمَنْ قالها منع نفسه وماله، ومَنْ أباها قتلناه، وكان رغمه علينا هيناً. أقولُ قولي هذا، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات. (البحر المحيط ٨/ ١٠٦) طبعة دار الكتب العلمية.

نور الهداية البالغة في منازلها منَ النُّفوس الواعية[1].

* ثم أذن رسولُ الله ﷺ لشاعرِ القوم، فقام الزّبرقان بن بدر فأنشد قصيدة رائعة فقام حسان فقال قصيدة عارضَ فيها قصيدةَ الزّبرقان، وافتخر عليهم بمعاني الإسلام فأسكت القوم.

فقال الأقرع بنُ حابس التّميمي: والله ما أدري ما هذا الأمر؟ تكلَّم خطيبنا، فكان خطيبُهم أحسن قولاً، وتكلَّم شاعرنا، فكان شاعرهم أشعر وأحْسَن قولاً. ثمَّ دنا الأقرع بن حابس التَّميمي ـ وكان شريفاً ـ منْ رسولِ الله ﷺ وقال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنّك رسولُ الله. فقال النّبيُّ ﷺ: «ما يضرّك ما كان قبلِ هذا» ثمّ أعطاهم وكساهم استئلافاً لهم، ولم يكن ذلك من قبيل الجوائز.

وكان ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ يشهد وفودَ القبائل على رسول الله ﷺ، وكان قريباً منه، يخطبُ حينَ يأمره بذلك، وقد أمره مرّة بالردّ على مسيلمة الكذّاب.

* عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم مسيلمةُ الكذَّاب على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ المدينة، فجعلَ يقولُ: إنْ جَعَلَ لي محمَّد الأمْرَ منْ بعدهِ اتبعتُه. وقدمها في بَشَرٍ كثير من قومه، فأقبل النّبيُّ ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمّاس، وفي يَدِ النّبيِّ ﷺ قطعة جريد، حتى وقَفَ على مسيلمة في أصحابِهِ، فقال: «إنْ سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدوَ أمْرَ الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله، وإنّي أراكَ الذي أُرِيتُ فيه ما رأيْتُ، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني» ثمّ انصرف.

قال ابنُ عباس: فسألتُ عن قولِ النّبيِّ ﷺ: «إنَّكَ الذي أُريت فيه ما أُريتُ» فأخبرني أبو هريرة أن النَّبيَّ ﷺ قال: «بينا أنا نائمٌ رأيتُ في يدي

---

(1) عن الزُّهري ـ رحمه الله ـ أنَّ وَفْدَ تميم قدموا، وافتخر خطيبهم بأمور، فقال النّبيّ ﷺ لثابت بن قيس: «قُمْ فأجب خطيبهم» فقام، فحمد الله، وأبلغ، وسُرّ رسول الله ﷺ والمسلمون بمقامه. (سير أعلام النبلاء ١/ ٣١٢).

سِوارَيْن مِنْ ذَهَب فأهمَّني شأنهما، فأوحي إليَّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فَطَارا، فأوّلتهما كذابَيْن يخرجان مِنْ بعدي».

قال: فهذا أحدهما العنسي صاحب صنعاء. والآخر: مسيلمة صاحب اليمامة(١).

ثَـابِتٌ ونَـفَحَـاتُ القُـرْآنِ:

* لثابت بن قيس ـ رضوان الله عليه ـ وقفاتٌ كريمةٌ مع القرآن الكريم، إذِ القُرآن له نفحات تثلجُ الصُّدور، وتنيرُ العقول، وتسرّ النفس. فقد كان ثابت واحد مِنْ فُصَحاء الصَّحابة، وواحداً مِنَ الذين تفاعلوا معَ معاني القُرآن وفهموا إعجازه، حيثُ كان عليماً بأساليبِ الكلام، لذلك كان يلجأُ إلى معلمه الأوّل رسول الله ﷺ كيما يجلو ما اعتراهُ مِنْ أشياءَ وَقَفَ عندها أمام آي الذِّكْر الحكيم، كما كان واحداً من كُتَّاب رسولِ الله ﷺ الثّلاثة والعشرين(٢).

وفي إحدى تلك الوقَفاتِ الرّائعات مع القُرآن الكريم، لجأ ثابت إلى رسولِ الله ﷺ، فرأى ﷺ نفسية ثابت، وخَبِرَ مدى عمق إيمانه، ولاحظَ صلتَه القويّة بخالقه، فبشَّره أنْ سيعيش حميداً، ويموت شهيداً، وأنّه من أهل الجنّة.

* روت المصادرُ أنَّ ثابتاً ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله! إنِّي أخشى أنْ أكونَ قد هلكتُ، ينهانا الله أنْ نحبَّ أنْ نُحْمَدَ بما لا نفعل، وأجدني أحبُّ الحمدَ، وينهانا الله عنِ الخُيلاء، وإنِّي امرؤٌ أحبُّ الجمال، وينهانا الله أنْ نرفعَ أصواتنا فوقَ صوتك، وأنا رجلٌ جَهِيرُ الصَّوت؛ فقال: «ياثابت! أما ترضى أنْ

---

(١) أخرجهُ البُخاري في المناقب، باب: علامات النُّبوة في الإسلام؛ وفي المغازي باب: قصّة الأسود العنسي؛ وفي التعبير باب: النفخ في المنام.
وأخرجه مسلم في الرؤيا برقم (٢٢٧٣ و٢٢٧٤).
والترمذي في الرؤيا برقم (٢٣٩٤) باب: ما جاء في رؤيا النّبي ﷺ في الميزان والدلو.
وأحمد في المسند (٢/٣١٩).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٩).

تعيشَ حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنّة!» قال: بلى يا رسول الله! فعاش حميداً، وقُتل شهيداً يوم مسيلمة الكذّاب[1].

* وذكر الطبريُّ وابنُ كثير ـ رحمهما الله ـ في تفسيريهما؛ أنَّه عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النِّساء: ٦٦] افتخرَ ثابتُ بنُ قيس ورجل منَ اليهود، فقال اليهوديُّ: والله لقد كَتَبَ الله علينا أن اقتلوا أنفسكم فقتلنا أنفسنا.

فقال ثابتُ: والله! لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا، فأنزل الله في هذا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] وبلغ ذلك رسول الله فقال: «إنَّ منْ أمّتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم منَ الجبال الرَّواسي».

وهذه الشهادة النبوية تؤكِّد صدْقَ موقف ثابت، وجَلال ما فُطِر عليه من الإيمان العميق، والصفات الحميدة التي تمتع بها، فجرَتْ سلوكاً فيّاضاً بالخير، منداحاً في مسارب الإسلام العظيم.

أبو بكـر وَوَصِيَّةُ ثَـابِت:

* شاركَ ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ في حروب الرِّدة، وفي قتال مُسيلمة الكذّاب، وفي يومِ اليمامة، خرج مع خالد بن الوليد وهو يحملُ لواء الأنصار، وكان قد تحنّط، ولبس ثَوبين أبيضين تكفَّنَ فيهما، فلمّا التقوا[2]،

---

(١) المستدرك (٣/ ٢٦٠) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣١٠) مع الجمع والتصرف.
وانظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٢١ و٣٢٢) والاستيعاب (١/ ١٩٥ و١٩٦) والاستبصار (ص ١١٧ و١١٨) ومنح المدح (ص ٥٦ و٥٧) وتفسير القرطبي (١٦/ ٣٠٤) وفضائل الصحابة للنسائي (ص ٣٧) والبداية والنّهاية (٦/ ٣٢٥).

(٢) قد يسألُ سائلٌ: كيف كانتْ تبدأ المعاركُ في السّابق بين الفرسان، والجواب على ذلك نقول:
كانَ القتالُ يبدأ بطريقةِ المبارزة، وذلك بأنْ يخرجَ منْ أحدِ الفريقين فارسٌ مشهور، يطلب أنْ يخرجَ لمبارزته فارسٌ آخر في مثل مركزه، وقد يطلب أحد الفريقين الصِّراع أو الطعان أو المسابقة. =

وانكشفَ المسلمون بادىء المعركة؛ قال ثابتٌ وسالمُ مولى أبي حذيفة[1] ـ رضي الله عنهم ـ: ما هكذا كنّا نقاتلُ معَ رسولِ الله ﷺ! ثم حَفَر كلُّ واحد منهما حفرةً، فثبتا، وقاتلا، فقال ثابت: اللهم أبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء ـ يعني الكفّار ـ وأعتذر إليك مما يصنعُ هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ ثمّ قال: بئس ما عودتكم أنفسكم، وبئس ما عوّدتم أقرانكم منذ اليوم، خلُّوا بيننا وبينهم ساعة. ثمَّ إنَّ ثابتاً قال يخاطب البراء بن مالك[2] الأنصاريَ ـ رضي الله عنه ـ وينشد مرتجزاً، ويقول:

لَيسَ فراري يا بَراءُ مُخلَّدي ... والموت في عنقي به رهنُ يدي
إنْ لا يجيء اليوم يأتي في غدي ... آمنتُ باللهِ العليّ الأمجدِ
وبالنّبيِّ عبده محمَّدِ ... هادٍ إلى سبلِ الهدى ومهتدي
قد كانت الأنصار في اليوم البدي ... آسادَ غابٍ لا ضباب فدفد[3]
فأصبحوا مثل النّعام الشُّرَّد

ثمّ قاتل، وضارب بسيفه حتى قُتِل شهيداً ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ[4].

= وقد تحدُثُ المبارزة بعد بدءِ القتال، فإذا انتهى النّزال تراشقوا بالنّبال، حتى إذا تقاربوا من بعضهم سلُّوا السّيوف، وإذا تباعدوا تضاربوا بالرِّماح، واستعمال الرّماح يكون عادة بالنّسبة للمشاة، واستعمال السُّيوف يكون بالنسبة للفرسان.
وقد تقفُ جماعة منَ المقاتلين في المؤخرة لتحمي ظهور المحاربين، وتكون هذه الجماعة عادة من الرُّماة، كما يُعْهَدُ إليها مهمة رشْقِ الخيل بالنّبل، لأنَّ الخيل لا تقدم على النّبل، وكان للفرسان عادة شعار يتعارفون به، وكلمة يتنادون بها في المعركة. كما أنَّ هناك أساليب أخرى للقتال وردت في المصادر.

(1) اقرأ سيرة هذا الفارس أبا حذيفة بن عتبة بين ثنايا هذا الكتاب ص(٤٢٤).
(2) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٤٧٩).
(3) «الفدفد»: الأرض الواسعة لا شيء فيها.
(4) عن أسد الغابة (١/ ٢٧٥) والاستبصار (ص ١١٨) ومنح المدح (ص ٥٧ و٥٨) مع الجمع والتصرف.
وقد حقّق الفارسُ ثابتٌ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٥] إذْ ثبت في المعمعة، وواجه الموت كِفاحاً، ففاز بمرتبة الشهادة، ويا لها من مرتبة!.

* وكان على ثابت درع نفيسة، فمرَّ به رجلٌ فأخذها، فبينما رجل منَ المسلمين نائم أتاه ثابتٌ في منامه، فقال له: إنِّي أوصيكَ بوصيةٍ، فإياكَ أنْ تقولَ: هذا حُلْمٌ فتضيعه، إنِّي لما قُتِلْتُ أمس، مرَّ بي رجلٌ منَ المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى النَّاس، وعند خبائه فرسٌ يَسْتَنُّ[1] في طِوَلِه[2] وقد كفأ الدِّرع برمَةٍ[3]، وفوق البرمة رحْل، فائتِ خالداً[4]، فمره فليبعث فليأخذها، فإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني: أبا بكر الصِّديق - فقُل له: إنَّ عليَّ مِنَ الدَّيْنِ كذا وكذا، وفلان منْ رقيقي عتيق، وفلان.

فاستيقظ الرَّجل، فأتى خالداً، فأخبره، فبعثَ إلى الدِّرع، فأتى بها على ما وَصَفَ، وحدَّثَ أبا بكر - رضي الله عنه - برؤياه، فأجاز وصيَّته، ولا يُعلَمُ أحدٌ أجيزتْ وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس - رضي الله عنه -[5].

* ذلكم هو ثابتُ بن قيس الأنصاريّ؛ الذي أثنى عليه رسولُ الله ﷺ بقوله: «نِعْمَ الرَّجل ثابت بن قيس بن شمّاس»[6] فرضي الله عنه وأرضاه، وأعلى في الجنة مستقرَّه ومأواه، وجعَله مع النبيين والصِّدِّيقين وحَسُن أولئك رفيقاً.

* * *

---

(١) «يستنّ»: يعدو مرحاً.

(٢) «الطول»: الحبل المرخى للفرس.

(٣) «البرمة»: قدر من حجر.

(٤) أي: خالد بن الوليد - رضي الله عنه -.

(٥) أسد الغابة (١/ ٢٧٥ و٢٧٦) والمستدرك (٣/ ٢٦٠ و٢٦١) والاستبصار (ص ١١٨ و١١٩).

(٦) انظر: أسد الغابة (١/ ٢٧٥) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٩) وللحديث أصل عند الترمذي في المناقب برقم (٣٧٩٧) والمستدرك (٣/ ٢٥٩).

(٩)

حارِثَةُ بنُ النُّعمانِ

- رضي الله عنه -

* اشتهر في برّه لأمّه؛ فبشّره ﷺ بالجنّة.

منْ أكَـابِرِ الكُـرَمَـاءِ المسلمين:

* سجيَّةُ الكرمِ منْ سجايا فارسنا اليوم، فما رأيكَ - عزيزي القارىء - أنْ نبحرَ في بحار أنوار الجودِ، نستخرج منْ حليِّها ما نزيِّنُ به وَجْه هذه الصَّفحات؟! بل لنزيِّن أعمالنا بجميلِ أعماله، وجليل صفاته.

* إنَّه واحدٌ منْ جنودِ الرَّحمن ممن كانوا يتسابقون إلى بذْلِ أموالهم[1] - كبذلِ أنفسهم في سبيلِ الله - فكان هذا الفارس ممَّنْ سجَّلَ أعظمَ المواقِف في سجلِّ الجودِ، وهل يعدل الجود شيء منَ الفضائل؟!

* لقد بذلَ نفسه في سبيلِ مرضاة اللهِ عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله ﷺ، وقدَّمَ كثيراً للأسرةِ المحمَّدية، وكثيراً ما كانَ يتركُ بيته، وينزلُ عنه لرسولِ الله ﷺ، حتى لقد استحيا منه ﷺ وأشاد بكرمه في أكثر من موقف.

* ولكنَّ هذا الفارسَ الكريمَ استقى كرمه وجُوده من سيِّد الكُرماء الأجواد، وسيِّد الشُّجعان، وإمام المتَّقين سيِّدنا وحبيبنا محمَّد رسول الله ﷺ؛ الذي كان أَحْسَنَ النَّاس، وأشجعَ النَّاس، وأجْوَدَ النَّاس - كما روى أنس رضي الله عنه - ولله درُّ مَنْ قال:

وعلـى تَفَنُّـنِ واصفيـه بحسنِـه ... يفنى الزَّمان وفيه ما لم يُوصف

* والجودُ والسَّخاءُ منَ الصِّفات الإنسانية الكريمة؛ التي تَجعلُ المتَّصِفَ بها مُحبَّباً إلى قلوبِ النَّاس، فكيف إذا كانَ السَّخاءُ سَجِيَّة متأصِّلةً مولودةً مع الإنسان؟!

* إنَّ بطلَ قصَّتنا اليوم، ممَّنْ جَمَعَ الفروسية والسَّخاء، كما كان ممَّنْ

---

(١) حَبَّب الإسلامُ البذل والإنفاق، ودعا الناس إلى أن تكون نفوسُهم سخيَّة، وأكفهم نديّة، وأوصاهم بالمبادرة إلى الإحسان والبرّ، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].
وقال ﷺ: «يا بنَ آدم! إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شرّ لك، ولا تُلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السُّفلى». رواه مسلم.

جُمِعَتْ في شخصيته فضائل عديدة، منها: البِرّ، والخيرية، والدِّين، والتُّقى.

* وهو بالإضافة إلى تلكم الفضائل الحِسَان ممّنْ حظِي برؤيةِ جبريل أكثر مِنْ مرة في حياته، فهل آن لنا أنْ ندخلَ رحابَ هذا الفارس الكريم لنكونَ ضُيوفاً عليه؟!.

إذاً تعالوا إلى مائدةِ الكرم والكرماء، نلتقي الصَّحابي الكريم النَّبيل، والفارس الشَّهم الجريء حارثة بن النُّعمان بن نفع - أو نفيع - بن زيد الأنصاريّ الخزرجيّ النّجاري[1]، يكنى أبا عبد الله، أحد الأنصار الأجواد؛ ممن سطّر صفحات نقياتٍ في تاريخ الجود؛ ونجح في إزاحة عوائق البخل، فلم يعد يخشى إقلالاً ولا ضياعاً، فهو يفعل الخير بأريحية، واندفاع وإخلاص.

* ففي سيرة فاطمة الزَّهراء[2] - رضوان الله عليها - يلمع اسم حارثة بن النّعمان في قائمة الكُرماء والأسخياء، لِيَهَبَ الزّهراء وزوجها علياً بيتاً من بيوته، طلباً لمرضاة الله ورسوله.

* ذكر ابنُ سعد - رحمه الله - هذا فقال: لما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، وتزوَّجَ عليٌّ فاطمةَ - رضي الله عنهما - وأرادَ أنْ يبنيَ بها، قال له رسولُ الله ﷺ: «اطلبْ مَنْزِلاً» فطلبَ عليٌّ منزلاً، فأصابه مُسْتأخراً عن النَّبيِّ ﷺ قليلاً، فبنى بها فيه؛ فجاءَ النَّبيُّ ﷺ إليها فقال لها: «إنِّي أريدُ أنْ أحوِّلك إليَّ» فقالتْ فاطمةُ - رضي الله عنها - لأبيها رسول الله ﷺ: فكلِّمْ حارثة بن النعمان أنْ

---

(1) المغازي (انظر الفهارس ٣/١١٥٥) ومسند أحمد (٥/٣٣) وفضائل الصَّحابة للنسائي (ص ٣٨) وطبقات ابن سعد (٣/٨٧) والمستدرك (٣/٢٢٩ و٢٣٠) والاستبصار (ص ٥٩ و٦٠) والاستيعاب (١/٢٨٢ - ٢٨٤) وأسد الغابة (١/٤٢٩ و٤٣٠) والبداية والنّهاية (٨/٥٦ و٥٧) وسير أعلام النبلاء (٢/٣٧٨ - ٣٨٠) ومجمع الزّوائد (٩/٣١٣) والإصابة (١/٢٩٨ و٢٩٩) وحياة الصَّحابة (٢/١٧٥ و٦٦٣) وغيرها كثيراً جداً من المصادر العديدة المتنوعة في ألوان المعارف.

(2) اقرأ سيرة فاطمة الزهراء في كتابنا: «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٥٣١ - ٦٠٤) ففي سيرتها الوقفات المفيدة إن شاء الله.

يتحوَّلَ لي عن منزلِهِ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييتُ».

* وبلغَ حارثةُ بنُ النُّعمان ذلك الحوار بين رسولِ الله ﷺ، وبين سيِّدة نساء العالَمين، وأطهر الطَّاهرات فاطمة الزَّهراء - عليها سحائب الرضوان - فسارع بعد أنْ تحول عن منزِله، وجاء يسعى إلى رسولِ الله ﷺ وهو يقول: يا رسول الله! إنَّه قد بلغني أنَّك تريدُ أنْ تُحوِّل فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أسقبُ - أقرب - بيوت بني النّجار بك، وإنَّما أنا ومالي للهِ ولرسوله، والله يا رسول الله! للذي تأخذ مني أحب إليَّ من الذي تدع[1].

فقال رسولُ الله ﷺ لحارثةَ: «صدقتَ، وبارك الله عليك». ثمَّ إنَّ رسولَ الله ﷺ حوَّل الزَّهراء - رضي الله عنها - إلى بيتِ حارثة لتكون في جواره الشَّريف[2].

* وبهذا حظي حارثة بهذهِ المكرمةِ، ثم تلاها بمكرماتٍ أُخَر في المجالِ نفسه، في الجودِ، إذ الجُودُ مِنْ فروعِ الفروسيّة، وكلاهما ينبت من أصلٍ واحد.

* ولما تزوَّج رسولُ الله ﷺ صفية بنت حُيّي أمّ المؤمنين، أنزلها في بيتٍ منْ منازِل حارثةَ بنِ النُّعمان، بعد أنْ تحول حارثةُ عنه[3].

* وكان لمارية القبطية نصيبٌ في بيوتِ حارثة عندما قَدِمَتْ من مصرَ؛ ليتخذها رسولُ الله ﷺ سُرِّية له[4].

* وفي هذا نقل ابنُ سعد عن الواقديِّ قوله: كانت لحارثة بن النُّعمان منازل قربَ منازل النَّبيِّ ﷺ، فكان كلّما أحدث رسولُ الله ﷺ أهلاً تحوَّل له

---

(١) بمثل هذا المحبة، وتلك الأفعال الكريمة، استطاع الصحابة بناء صرح الإسلام، فكانوا من خير الناس، ونالوا رضا ربِّهم، وكان إدراكُهم كبيراً لحقيقة الدنيا، وأنَّ متاعها زائل، فلا غَرْوَ أن جعلوا سعيهم جوداً وسخاء إرضاءً لله ورسوله.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١٦٦) بشيء من التصرف.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢١٢).

(٤) المصدر السابق.

حارثة عن منزلٍ، حتى قال ﷺ: «لقد استحييتُ منْ حارثةَ، ممّا يتحوّل لنا عنْ منازله»[1].

* هذا حارثةُ بنُ النُّعمان الرَّجل الكريم، فهل أتاك نبأ شجاعته؟! في الصَّفحات التَّالية سنشهد جانباً من فروسيته في المغازي النَّبويَّة، وفي معيَّة رسولِ الله ﷺ لنعرفَ مقامه في عالَم الشُّجعان.

مِنْ أهْلِ بَدْرٍ وَالمَشَاهِد التالِيَة:

*اتفقَ علماءُ السِّيرة على أنَّ حارثة بن النُّعمان ـ رضوان الله عليه ـ قد شَهِدَ بدراً، وكُتِبَ مِنَ الذين اطَّلع اللهُ عليهم، وقال لهم: «اعملوا ما شئتم فإنِّي غافرٌ لكم».

* ففي هذه الغزوة، خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى صفوفِ المسلمين، يُحرِّضهم على القتال، ويَعدهم بالخلودِ في جنَّات النَّعيم، ويقول: «والذي نَفْسُ محمَّد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجلٌ، فيقتل صابراً مُحتَسباً، مُقبلاً غير مُدبرٍ، إلاَّ أدخله الله الجنَّة، ومَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَه سَلَبه» وقال: «قوموا إلى جَنَّةٍ عرضها السَّموات الأرض».

* والتحم الجيشان، وتعانقتِ السُّيوف، ونطقتِ الأَسِنَّة بدلَ الألسِنَةِ، فصرتَ تسمعُ صياحَ الأبطالِ، وتكبير أهل الحقِّ، وأظهر المسلمون بطولاتٍ فائقة رائقة، وهم ينادون بشعارهم: أَحَدٌ، أَحَدٌ. وما هي إلا ساعة وبعض السَّاعة حتى انجلتِ المعركةُ عن نَصْرٍ حاسم للمسلمين[2]، وهزيمة منكرة لأهل الشِّرك، فقُتِلَ سبعون منْ صناديدهم وأكابر مجرميهم، وأُسِر سبعون، وكان حارثة بن النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ ممَّن أبدعَ في ذلك اليوم، وأَسَر

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٨) بتصرف يسير جداً.
(٢) كانت غزوة بدر أول تجربة للمسلمين في التضحية والفداء، على ما كانوا عليه من الضعف والقلّة، وفيها نزل نصرُ الله تعالى، وثبَّتَ سُبحانه قلوب المؤمنين، وطمأن نفوسهم بالخوارق الدالة على النصر المؤزَّر.

عُثمان بن عبد شمس ابن أخي عتبة بن غزوان، وقرنه في الأصفاد مع زملائه السَّبعين.

* ولم تطق قريش الصَّبرعلى التَّمهل في فداء الأسرى، وإنَّما سارعتْ إلى الفداء، وانسلّوا واحداً تلو الآخر. ومنَ الطَّريف أنَّ أوَّلَ مَنْ أشار بعدم الإسراع في طلب الفداء، كان أوّلَ مَنْ نَقَضَ القول، وسارعَ في الفِداء.

* تروي كُتُب السِّيرة أنّه كان في الأسارى أبو وداعة بن ضُبيرة السَّهمي، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ له بمكةَ ابناً كيّساً تاجراً ذا مال، وكأنَّكم به قد جاءكم في طَلَب فداء أبيه».

فلمَّا قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسراكم، قال المُطلب بن أبي وَدَاعة: صدقتم لا تعجلوا، وكان هو أوّلَ مَنْ نَقَضَ هذا، فانسل منَ الليل كالقطا[١]، وقدم المدينة المنوّرة، وفدى أباه بأربعةِ آلاف درهم عدداً[٢]، وكان أوّل أسير

(١) «القطا»: الواحدة قَطاة. جنس طير، أنواعه عديدة، قريبة الشَّبه من الحَمَام، وهي سريعة الطيران، تطير مسافاتٍ شاسعةً في طلبِ القُوت والماء، وتألف الصَّحارى، وتعيش أسراباً كبيرة، ويُضرب المثلُ بالقطا في الاهتداء، فيُقال: أهْدَى من القَطاة.

(٢) كانت قيمةُ الفداء يومئذ ما بين الأربعمئة والأربعة آلاف درهم، كما رواه أبو داود في سُننه، ومنهم مَنْ أخِذَ منه أربعون أوقية منْ ذهب عن نفسه كالعبّاس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - ومَنْ لم يكن له مَالٌ، ويعرف القراءة والكتَابة، أعطوه عشرةً منْ غلمان المدينة يعلّمهم القراءة والكتابة.

روى الإمامُ أحمد - رحمه الله - بسندهِ عن ابنِ عبَّاس - رضي الله عنهما - قال: كانَ ناسٌ منَ الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداءٌ؛ فجعلَ رسولُ الله ﷺ أنْ يعلّموا أولادَ الأنصارِ الكتابة، فجاء غلامٌ يبكي إلى أمّه، فقالت: ما شأنُك؟ فقال: ضربني معلّمي، فقالت: الخبيثُ يطلبُ بدخل بدر، والله لا تأتيه أبداً. (البداية والنهاية ٣/٣٢٨).

ومَنْ لم يكن يعرفُ القراءة والكتابة منّوا عليه، كأبي عزّة الشّاعر، والمطّلب بن حنطب المخزوميّ أسَره بعض بني الحارث بن الخزرج، فترك في أيديهم حتى خلّوا سبيله، فلحقَ بقومه.

هذا؛ وقبول رسولِ الله ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في هذا الوقت الذي كانوا فيه بأشدّ الحاجة إلى المالِ، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة،

فُدي، ثمّ بَعَثَتْ قريش في فداء أسراهم.

* وأمَّا عثمان بن عبد شمس الذي وقع أسيراً بيدِ حارثة، فقد بَعَثَ في افتدائه جُبير بن مُطْعِم.

* وجاءت غزاةُ أحد، فخاضَ حارثة غمارها، وشَرى وباع، ثمَّ خاض غزاة الأحزاب، وفي غزوةِ بني قريظة كان منْ أوائلِ الفُرسان الذين استجابوا لله والرَّسولِ، ويومها رأى جبريلَ عليه السَّلام. ثمَّ شَهدَ سائر المشاهد، فشهد بيعة الرّضوان، وفتح مكة، وحُنين، إذ حلَّق يوم إذ في أجواء الفروسية، وثبت حولَ النَّبيِّ ﷺ في ساعة العُسرة في نَفَر من فرسان الصَّحابة، وأعليائهم منهم: أبو بكر وعمر وعليّ وأسامة بن زيد، وبطلنا حارثة. وكان حارثة - رضي الله عنه - أحد المئة الصَّابرة يومذاك، وكان بالقرب منَ الحبيبِ المصطفى ﷺ، فالتفتَ إليه ﷺ وقال له: «كم ترى الذين ثبتوا؟».

فقال حارثةُ - رضي الله عنه -: فما التفتُّ ورائي تحرّجاً - تأثماً - فنظرتُ عن يميني وشمالي، فحزرتهم بالذكر أنَّ ثُلثي المئة الصَّابرة يومئذ كانوا من الأنصار، والثُّلث من المهاجرين[1]، وفي هذه الغزاة رأى حارثة جبريلَ عليه السَّلام مرة أخرى.

* روى حارثة - رضي الله عنه - هذا فقال: رأيتُ جبريلَ من الدهر مرتين، يوم الصَّورين حين خرجَ رسول الله ﷺ إلى بني قُريظة، مرَّ بنا في صورة دحية الكلبيّ، فأمرنا بلبس السّلاح، ويوم موضع الجنائز حين رجعنا من حُنين،

= وإزالة الأميّة، وليس هذا بعجيبٍ، أليس الله عزَّ وجلَّ أنزل أوّل ما أنزل في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديهِ ولا منْ خلفه قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

ولقد استفاضتْ نصوصُ القُرآن الكريم، والسُّنّة المطهرة في التّرغيب وبيان منزلة العُلماء، وبهذا العمل الكريم، فالرّسول ﷺ هو أوّل مَنْ دعا إلى محو الأميّة، وإشاعة القراءة والكتابة، فأكرمْ بهذا السَّبق!.

(١) انظر: المغازي (٣/ ٩٠٠) بشيء من التصرف اليسير.

مررتُ وهو يكلِّم النَّبيَّ ﷺ فلم أُسَلِّمْ، فقال جبريل: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: «حارثة بن النُّعمان». فقال: أما إنَّه من المئةِ الصَّابرين يوم حنين؛ الذين تكفَّل اللهُ بأرزاقهم في الجنَّة، ولو سَلَّم لرددنا عليه[1].

رِحْـلَةُ الأَبْـرار الأخـيار:

كان حارثة بن النُّعمان ـ رضوان الله عليه ـ واحداً ممَّنْ خالطَ الإيمانُ نفوسهم، فعمل على مرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بكلِّ سبيل، فكان شديد الرَّأفة بأمِّه جعدة بنت عُبيد الأنصارية[2]؛ تلك الصَّحابية ذات المكانة المرموقة في البيتِ النَّبويِّ الشريف.

* وصفَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ حارثة بقوله: كان ديِّناً خيِّراً برّاً بأمِّهِ[3].

* وقال عنه ابنُ قدامة ـ رحمه الله ـ: كان من فُضَلاء الصَّحابة[4].

* إنَّ هذا البرَّ، وهذا الفَضْل جَعَلَه منْ أهل الجنَّة، وذلك فيما أخبر به رسول الله ﷺ إذ يقول: «دخلتُ الجنَّة فسمعتُ قراءةً، فقلتُ: مَنْ هذا؟ قيل: حارثة». فقال النبي ﷺ: «كذاكم البرُّ». وكان برّاً بأمِّه ـ رضي الله عنه ـ[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٩) والمسند (٥/ ٤٣٣) والمغازي (٢/ ٤٩٩) وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٨) ومجمع الزوائد (٩/ ٣١٣) والاستبصار (ص ٥٩ و٦٠).

(٢) اقرأ سيرة هذه الصحابية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٥) فسيرتها تهذيب للنفوس، وإمتاع للأسماع.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٨).

(٤) الاستبصار (ص ٥٩). وانظر: أسد الغابة (١/ ٤٢٩).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠) والمستدرك (٣/ ٢٣٠) والاستبصار (ص ٦٠) وأسد الغابة (١/ ٤٢٩) والاستيعاب (١/ ٢٨٣) والإصابة (١/ ٢٩٨) والبداية والنهاية (٨/ ٥٦) وغيرها.

هذا وقد لفتَ نظري ما وَرَدَ في المستدرك (٣/ ٢٢٩ و٢٣٠) في كتاب: معرفة الصَّحابة، ترجمة حارثة بن النُّعمان أن الحاكم قال: شهد بدراً فاستشهد ـ رضي الله عنه ـ.

كما أخرجَ الحاكمُ بسنده عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلقَ حارثةُ ابن عمتي =

* وكان لحارثة بضعة أولاد، كانوا منْ أعلامِ الصَّحابة، منهم: عبد الله ابن حارثة؛ وابنته أمّ هشام بنت حارثة[1]؛ التي بايعت بيعةَ الرضوان.

كما كان له بضعة أولاد وهم: عبد الرّحمن، وسَوْدة، وعمرة، وأمّ كلثوم؛ ومن ذريّته المحدّث المشهور أبو الرّجال محمّد بن عبد الرّحمن ابن عبد الله بن حارثة بن النعمان الأنصاريّ، وولد عمرة بنت عبد الرحمن الفقيهة[2]، التي اشتهرتْ بالمدينةِ بين نساء عَصْر التّابعين بالفِقْه والرّواية حيثُ روى حديثها أصحاب الكُتب السّتة.

* وامتدتِ الحياة بحارثة إلى أواسط خلافة معاوية ـ رضي الله عنهما ـ وكان قد ذَهَبَ بصره في أواخرِ عمره[3] وكان له مواقف محمودة كريمة؛ في عَصْر الخلفاء الراشدين.

= نظّاراً يوم بدر، وما انطلق لقتال، فأصابه سَهْم فقتله، فجاءت عمّتي إلى رسولِ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! ابني حارثة إنْ يكن في الجنّة أَصْبِر وأحتسب، وإلا فترى ما أصنع، فقال: «يا أمّ حارثة! إنّها جنَان كثيرة، وإنَّ حارثةَ في الفردوس الأعلى».
وفي هذا وَهمٌ، ويبدو أنّ محقّقَ المستدرك لم ينتبه إلى هذا الإشكال! فالتي جاءتْ رسولَ الله ﷺ هي الرُّبيّع بنت النَّضر، وتكنى أمّ حارثة؛ أمّا حارثة فهو حارثة بن سُراقة بن الحارث النجاريّ، وليس حارثة بن النّعمان.
فحارثةُ بنُ سراقة كان قد خرجَ، وهو غلام، نظّاراً في غزوة بَدْرٍ، فرمي بسهْم وهو يشرب من الحوض فُقتل، فجاءت أمّه الرُّبيع بنت النّضر عمّة أنس بن مالك، وسألت رسولَ الله ﷺ عن مصير ابنها فأخبرها أنّه في الفردَوس الأعلى.
لهذا فقد أحببتُ التّنويه هنا، لكي يُدفعَ الإشكال. نرجو الله سبحانه أنْ يلهمنا الصواب.
قلتُ: ثم وجدتُ في إحدى نسخ المستدرك: وفي الصحاح: الذي استشهد ببدر هو حارثة بن الربيع، لا حارثة بن النعمان. فتأمّل.

(1) اقرأ سيرة الصَّحابية أمّ هشام بنت حارثة في كتابنا «نساء مبشّرات بالجنّة» (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٤٩) ففي سيرتها إشراقات لطيفة.
(2) اقرأ سيرة التّابعية عمرة بنت عبد الرحمن في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» (١/ ١٠٥ ـ ١١٥) ففي سيرتها لمحات دالة مضيئة.
(3) لم يذكر ذلك صلاح الدين الصَّفدي في كتابه: نكت الهميان في نكت العميان.

* ذكر ابنُ قدامة وغيره قال: كان حارثةُ بن النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ قد ذَهَبَ بصره، فاتخذ خيطاً منْ مصلاَّه إلى بابِ حجرته، ووضع عنده مكتلاً فيه تَمْر، كان إذا جاء المسكين يسأل، أخذ من ذلك المكتل، ثمَّ أخذ بطرفِ الخيطِ حتى يناوله؛ وكان أهله يقولون له: نحنُ نكفيك؛ فيقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مناولةُ المسكين تقي ميتة السُّوء»[1].

هذا وقد حدد ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ وفاة حارثة بن النُّعمان في سنة إحدى وخمسين من الهجرة.

* ويبدو لي أنَّ وفاةَ حارثة كانت بالمدينة المنوَّرة[2]، والله أعلم.

* رضي الله عن الصحابي حارثة، وجَمَعَنا معه في الجنَّـة في مستقر رحمته، إنه وليُّ الرحمة، وواهب النِّعمة، وهو سبحانه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

* * *

---

(١) الاستبصار (ص ٦٠) وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٨) ومعجم الطَّبراني الكبير (٣/ ٢٥٨) ومجمع الزَّوائد (٣/ ١١٢) وأسد الغابة (١/ ٤٢٩ و٤٣٠) والاستيعاب (١/ ٢٨٣ و٢٨٤) والإصابة (١/ ٢٩٩).
قال الذَّهبي ـ رحمه الله ـ عن الصحابي حارثة: ولا نعلم له رواية (سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٧٨) بينما أخرج له الإمام أحمد حديثين في مسنده، حديث رؤية جبريل؛ وحديث عن الصَّلاة. ونصّه كما في المسند عن حارثةَ بنِ النّعمان قال: قال: رسولُ الله ﷺ: «يتخذ أحدكم السَّائمة، فيشهد الصَّلاة في جماعة، فتتعذر عليه سائمته فيقول: لو طلبتُ لسائمتي مكاناً هو أكلأ من هذا، فيتحول، ولا يشهد إلا الجمعة، فيتعذر عليه سائمته، فيقول: لو طلبتُ لسائمتي مكاناً هو أكلأ من هذا، فيتحول فلا يشهد الجمعة، ولا الجماعة، فيُطبع على قلبه» (المسند ٥/ ٤٣٣ و٤٣٤).
(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٥٦).

(١٠)

خزَيْمَةُ بنُ ثَابت

ـ رضي الله عنه ـ

قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ شهدَ له خُزيمة فحسبه».

ذو الشَّهَـادَتَـيْـنِ:

* يظهرُ مِنْ بين صفوف الأَنْصَار، ومن وسط فرسانهم، رجلٌ كريمٌ، أُجيزَتْ شهادته بشهادتين، فقد خَلَع عليه رسولُ الله ﷺ ثوبَ التكريم، فخصَّه بالإخلاص، وبنوعٍ من التفضيل حيثُ قال: «مَنْ شَهِدَ له خُزيمة فحسبه».

* فمَنْ خُزيمة هذا؟ وما قصَّة هذه الشَّهادة؟!.

إنَّه خُزيمة بنُ ثابت بنِ الفاكه، أبو عمارة الأَنْصاري الخَطْميّ المدني[1]، مِنَ السَّابقين الأوَّلين إلى الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، أسلم مُبكِّراً، معَ الأنصار الذين لامستِ الدَّعوة المحمديّة أفئدتهم، فهاموا في الإخلاص لها، فكانوا منَ الذين رضيَ الله عنهم، ومن شملَتْهُم عنايةُ الله عزَّ وجلَّ.

* وقبل قدوم رسولِ الله ﷺ المدينةَ المنورة أخذ خزيمة يَعْبَث بأصنام بني خَطْمة قومه، وراح يكسرها كلّما سَنَحَتْ له الفرصة المواتية، ليمحوها منْ دورِ الأَنْصار.

* ولما قدمَ رسولُ الله ﷺ مُهاجراً إلى المدينة، كان خزيمة واحداً مِنَ الفُرسان الذين حلَّقوا عالياً في سماءِ الفروسية، ونبغُوا في المدرسة المحمديّة في جميع المجالات، لا سيما في ميداني: حُسْن الشهادة والجهاد.

* أمَّا قصَّةُ شهادةِ خُزيمة بشهادتَيْنِ، أو بشهادة رجلَيْن، فترويها المصادرُ بأحرفٍ منْ نورٍ ساطع، تشهدُ لصاحب الشَّهادتين بالفَضْل، وصدق الإيمان، وكمالِ المعرفةِ الحقيقية، لسيِّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ.

* ذكرت المصادرُ المتنوِّعة الموثوقةُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ ابتاعَ فَرَساً مِنْ رجلٍ مِنَ

---

(١) مسندُ أحمد (٥/ ٢١٣) وطبقاتُ ابن سعد (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٨١) والمعارفُ (ص ١٤٩) والمعرفةُ والتاريخ (١/ ٣٨٠) والمستدركُ (٣/ ٤٤٨ و٤٤٩) والاستبصارُ (ص ٢٦٧ و٢٦٨) والاستيعابُ (١/ ٤١٦ و٤١٧) ومختصر تاريخ دمشق (٨/ ٤٤ ـ ٤٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧) وتهذيب التّهذيب (٢/ ١٤٠ و١٤١) والإصابة (١/ ٤٢٤ و٤٢٥) وكنز العمال (١٣/ ٣٧٩) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٢٠) وغير ذلك من مصادر.

الأَعْرَاب، فاستَتْبَعَه رسولُ الله ﷺ ليعطيه ثَمنَ فرسه، فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابيُّ قَليلاً في سَيره، فطفقَ رجالٌ يلْقَوْن الأعرابيَّ يساومونه الفرسَ، ولا يشعرون أنَّ رسولَ الله ﷺ قد ابتاعه، حتى زادَ بعضُهم الأعرابيَّ في السّوم على ثمنِ الفرس الذي ابتاعه رسول الله ﷺ، فلمَّا زاده، نادى الأعرابيُّ رسول الله ﷺ فقال: إنْ كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتَعْه وإلا بعته.

* فقامَ رسولُ الله ﷺ حينَ سمعَ قولَ الأعرابي حتى أتاه فقال له: «أَلَسْتُ قد ابتعته منك؟».

قال الأعرابيُّ: لا، واللهِ! ما بعتكه.

فقال رسول الله ﷺ: «بلى قد ابتعتُه منك».

* فطفقَ النَّاس يلوذون بالنَّبيِّ ﷺ، وبالأعرابي وهما يتراجَعان، فطفقَ الأعرابيُّ يقول: هلمَّ شهيداً يشهدُ أنِّي بعتُك، فَمَنْ جاءَ منَ المسلمين قال للأعرابي: ويلك إنَّ رسولَ الله ﷺ لم يكنْ ليقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة ابنُ ثابت، فاستمعَ تراجعَ رسول الله ﷺ وتراجع الأعرابي، وطفقَ الأعرابيُّ يقول: هلُمَّ شهيداً يشهد أنِّي بايعتُك.

فقال خزيمةُ: أنا أشهدُ أنَّك قد بايعته، فأقبل رسولُ الله ﷺ على خزيمةَ بنِ ثابت فقال: «بِمَ تشهد؟» فقال خزيمة: بتصديقِكَ يا رسولَ الله! فَجَعلَ رسولُ الله ﷺ شهادةَ خزيمة شهادة رجلين.

* وفي روايةٍ، قال رسولُ الله ﷺ: «يا خزيمة بِمَ تشهد ولم تكنْ معنا؟».

قال: يا رسول الله! أنا أصدِّقك بخبر السَّماء، ولا أصدِّقك بما تقول؟ فجعل رسولُ الله ﷺ شهادته شهادة رجلين[1].

(١) عن طبقات ابن سعد (٤/ ٣٧٨ و٣٧٩) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٤٧) مع الجمع والتصرف اليسير. وانظر: الاستبصار (ص ٢٦٧ و٢٦٨) والحديث أخرجه أبو داود في الأقضية برقم (٣٦٠٧).
قال الإمام الخطابي: هذا حديثٌ يضعه كثيرٌ من الناس غير موضعه، وقد تذرَّع به قومٌ من أهل البدع إلى استحلال الشهادة لمن عرف عنده بالصدق على كلِّ شيء =

* هنيئاً لك خزيمة، فلقد ظلَّ وسيظلُّ هذه التَّشريف الشَّريف، واللقب الكريم، علامة بارزة لك إلى الأبد، تُساقُ مع سيرتك، ومع سير أعلام نُبلاء الفُرسان، الذين صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه، وفازوا بالصُّحبة النَّبويَّة.

خُزَيْـمَة وَطريْـقُ الفُروسيّة المضيئـة:

* سلكَ خُزيمة سبيلَ الفروسية منذ أنْ لامستْ نسماتُ الإيمان قلبه، وداعبتْ كلماتُ الإسلام نفسه، فراح يتشوَّق إلى خوضِ معركة ضدَّ أحلاس[1] الكُفرِ، وأعلام الشِّقاق والفجور.

* جاءتْ غزوةُ بدر، فكان خزيمة ممَّنْ شهدها[2]، وأبلى فيها بلاءً حَسَناً، ثم شهد خُزيمة غزوة أحد والخندق وسائر المشاهد معَ رسولِ الله ﷺ.

* وفي غزوة الفَتْح كان خزيمةُ واحداً منْ فرسانِ رسول الله ﷺ الذين شهدوها، فَفَتْحُ مكة كان الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله عزَّ وجلَّ به دِيْنَه، ونَصَر رسوله وجنده وحزبه الأمين، وحمى بيته العتيق من أيدي المشركين، وجعله هدىً للعالمين، وقِبْلة الموحِّدين، وبهذا الفتح الأعظم، فتح الله القلوب، فدخل النَّاس في دِيْن الله أفواجاً، وسرتْ معالم الإيمان على وَجْه الأرض؛ لتضيء رحاب العالم، وتنقذه من براثن الجاهلية، وأوحال الشرك الأثيم.

* كان خزيمة ـ رضي الله عنه ـ مع الجيشِ النَّبوي الفاتح، وكان يحملُ رايةَ بني خَطْمة الأنصار، ودخل مع رسول الله ﷺ ومع فرسانه المسجد الحرام، وأقبلَ النَّبيُّ ﷺ إلى الحجر الأسودِ فاستلمه، ثمَّ طافَ بالبيت، وفي

= ادَّعاه، وإنما وجه الحديث ومعناه: أنَّ النبيَّ ﷺ إنما حكم على الأعرابي بعلمه؛ إذ كان النبيُّ ﷺ صادقاً باراً في قوله، وجَرَت شهادةُ خزيمة في ذلك مجرى التوكيد لقوله، والاستظهار بها على خصمه، فصارت في التقدير شهادته له، وتصديقه إياه على قوله كشهادة رجلَيْن في سائر القضايا.

(١) «أحلاس»: جمع حِلْس، وهو كِساءٌ يُلقى على ظَهْر الدابة، ويكون تحت الرَّحْل أو السَّرْج.

(٢) تشير بعض الروايات إلى أنَّ خزيمة لم يشهدْ بدراً، ولكنَّ الإمام ابن عبد البر في «الاستيعاب» والنَّووي في «تهذيبه» قالا: إنَّه شهد بدراً مع رسول الله ﷺ.

بده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمئة وستون صنماً، فجعل ﷺ يطعنها بالقوس ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١][١] ويقول: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها إلى غير رجعة.

* وهنالك شهد خزيمة أكبر عَفْو وصَفْح في تاريخ الإنسانية، بل في تاريخ الدُّنيا عندما وقف رسولُ الله ﷺ فقال: «يا معشر قريش! ما ترون أنِّي فاعل بكم؟».

قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخي كريم.

قال: «فإنِّي أقولُ لكم كما قال يُوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطُّلقاء»[٢].

* ولما تمَّ فتح مكة على رسول الله ﷺ ـ وهي بلده وفيها مولده ـ خافَ خزيمة والأنصار مِنْ بقائه فيها، وقالوا فيما بينهم: أَتروْنَ رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أنْ يقيمَ بها؟!.

* ولما علمَ الحبيبُ المصطفى ﷺ بمقالتهم قال: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم»[٣].

* وأقامَ رسولُ الله ﷺ ـ ومعه فرسانه ـ بمكةَ تسعة عشر يوماً يرشد النَّاس إلى الهدى ودِيْنِ الحقِّ الساطع، إلى التُّقى ومعالم الإسلام الحنيف، ونادى مناديه بمكةَ: مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر، فلا يدعْ في بيتهِ صَنَماً إلا كَسَره.

* وعاد الرَّكبُ الميمون، وفرسانُ الرَّسولِ ﷺ إلى المدينة المنوّرة عرين الأنصار، ومعقل الإيمان، وعاد خزيمةُ مع الصَّحابة العائدينَ بعد أنْ شهدَ فَتْح الفتوحِ، ونال شرف الجهاد بمعيَّة رسول الله ﷺ.

---

(١) «زهق الباطل»: زال واضمحلّ.

(٢) «الطلقاء»: مفرده: طليق. فعيل بمعنى مفعول. وهو الأسير إذا أُطْلِق سَبيلُهُ.

(٣) هذا دليلُ الوفاء من رسول الله ﷺ للصحابة الكرام.

* وتدلُّ أخبار خُزيمة إلى أنَّه قدم الشَّام، وحضر معركةَ مؤتة، وعن شهودهِ مؤتةَ يقولُ خزيمة: حضرتُ مؤتةَ، فبارزتُ رجُلاً يومئذ فأصبتُه، وعليه بيضة له[1]، فيها ياقوتة، فلم يكن همّي إلا الياقوتة، أخذتُها، فلمّا انكشفنا وانهزمنا، رجعتُ بها إلى المدينة، فأتيتُ بها رسولَ الله ﷺ فَنَفَّلَنِيهَا، فبعتُها زمنَ عمر بن الخطاب بمئة دينار، فاشتريتُ حديقة نَخْل بني خَطمة[2].

* وتابع خزيمةُ مسيرة الفروسيّة والجهاد في معيَّةِ رسول الله ﷺ إلى أنْ توفيَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنه؛ لما تمتَّع به من جليل السَّجايا، وحميد الصِّفات، ولما أبداه من ضروب البسالة، وألوان الشجَاعة.

ذُو الشَّهَـادَتَـيْـنِ والقُـرآن الكريـم:

* لذي الشَّهادتين خزيمةِ بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أثرٌ كريمٌ في جَمْع القُرآن الكريم، فقد كان يحفظُ كثيراً منْ آياتِ الذِّكْر الحكيم، فقد كان يحفظ آخر سورة التَّوبة، حيثُ أخبر الصَّحابة أنَّه يحفظها ويعيها كما سمعها مِنْ رسولِ الله ﷺ.

* وقصَّةُ ذلك الحِفْظِ، ترويها المصادرُ، وكُتُب التَّفسير، ومصادر الحديثِ وغيرها فتقول: أرادَ عُمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنْ يجمعَ القرآن[3]،

---

(١) «بيضة»: خُوذة. وهي من آلات الحرب.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٤٥) وانظر: مغازي الواقدي (٢/ ٧٦٩) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٦).

(٣) ثبتَ أنَّ زيدَ بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال:
أرسلَ إليَّ أبو بكر الصدّيق بعد مَقْتل أهلِ اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال: إنَّ القتال قد استحرَّ ـ اشتدَّ ـ بقرّاءِ القُرآن يوم اليمامة، وإنّي أخشى أنْ يستحرَّ القَتْل بالقراء في المواطنِ كلِّها، فيذهبَ قرآن كثير، وإنِّي أرى أنْ تجمعَ القرآن.
قال أبو بكر لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعَلْه رسول الله ﷺ؟
قال عمر: هو واللهِ خير.
فلم يزلْ يراجعني في ذلك حتى شرحَ الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيتُ فيه الذي رأى.

فقام في النَّاس فقال: مَنْ كانَ تلقَّى مِنْ رسول الله ﷺ شيئاً مِنَ القرآن فليأتنا به.

* وكانوا كتبُوا ذلك في الصُّحف والألواح والعُسُب[1]، وكان لا يقبل مِنْ أحدٍ شيئاً حتى يشهد شهيدان، فقُتِل وهو يجمع ذلك.

* فقامَ عثمانُ بنُ عفان - رضي الله عنه - فقال: مَنْ كان عنده من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ شيءٌ فليأتنا به، وكان لا يقبلُ من ذلك شيئاً حتى يشهد عليه شهيدان.

* فجاء خُزيمة بن ثابت - رضي الله عنه - فقال: إنِّي قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما!.

قال: وما هما؟.

قال: تلقيتُ منْ رسولِ الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩][2].

قال عثمانُ: وأنا أشهد أنَّهما مِنْ عند الله، فأينَ تريد أنْ تجعلهما؟.

قال: اختمْ بهما آخر ما نزلَ منَ القرآن؛ فخُتمتُ بهما براءة.

= قال زيدٌ: قال أبو بكر: إنَّكَ شابٌّ عاقلٌ لا نتهمك، قد كُنت تكتبُ الوحي لرسولِ الله ﷺ، فتتبَّع القُرآن.

قال: فواللهِ لو كلَّفوني نَقْل جَبَلٍ من الجبال ما كانَ أثقل عليَّ من ذلك.

قلتُ: كيف تفعلونَ شيئاً لم يفعَلْهُ رسول الله ﷺ؟.

قال أبو بكر: هو واللهِ خير.

فلم يزل يُراجعني في ذلك أبو بكر: حتى شرحَ الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والعُسب، فوجدت آخر براءة مع خزيمة بنِ ثابت (أحكام القرآن ٢/ ١٠٣٥).

(١) «العُسُب»: جمع عَسِيب، وهو قضيبٌ من النَّخل نُزِع عنه ورقُه.

(٢) «عزيز عليه»: صَعْب وشاقّ عليه. «ماعنتم»: عَنَتكم ومَشَقَّتُكم.

Scanned by CamScanner

* وبهذا سجّل خُزيمة فَضْلاً في هذا المضمار الميمون، ويُسجِّل زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فَضْلاً آخر لخزيمة في مضمار جَمْع القرآن الكريم وحفْظِه فيقول: لمَّا كَتَبْنَا المصاحف، فَقَدْتُ آيةً كنتُ أسمعها مِنْ رسول الله ﷺ فوجدتُها عند خزيمة بن ثابت: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣][(١)]. وكان خزيمة يُدعى: ذا الشَّهادتين فقد أجاز رسول الله ﷺ شهادته بشهادةِ رجلين[(٢)].

تَـنَـافُسٌ مَحْمُـودٌ ومنـاقبُ جَليلَـةٌ:

* أصبحَ خزيمة بن ثابت الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ مَحَلَّ فخرٍ لقومه الأوس، فكانوا إذا تنافسوا في ذِكْر المحامِد وحاملي الصفات الجليلة، ذكروا خزيمة الذي بنى لهم قَصْراً، بل قصوراً منَ المحامدِ والفضائل، ظلّوا يفتخرون بها في مجالسهم، وندواتهم، وأحاديثهم على مرِّ الأيام، وكرِّ العصور.

* من ذلك ما وردَ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: افتخر الحيّانِ من الأنصار: الأوس والخزرج.

فقالتِ الأوسُ: منّا غسيل الملائكة: حنظلة بن الرّاهب. ومنّا من اهتزَّ له عرش الرّحمن: سعد بن معاذ. ومنّا مَنْ حمته الدَّبْرُ[(٣)]: عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح. ومنّا من أُجيزت شهادته بشهادة رجلين، خزيمة بن ثابت.

وقال الخزرجيّون: منّا أربعة جَمَعُوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم

---

(١) «قضى نَحْبَه»: وَفَى بِنَذْره، أو: مات شهيداً.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف برقم (٢٠٤١٦) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٤٥) والإصابة (١/ ٤٢٥) وكتب التفسير للآية (٢٣) من سورة الأحزاب.

(٣) «الدّبر»: النّحل والزّنابير، إذ أنّ عاصماً ـ رضي الله عنه ـ أُصيب، فمنعتِ النّحل الكفار منه، وذلك أنّ المشركين لما قتلوه أرادوا أنْ يمثلوا به، فسلّط الله عز وجل الزنابير الكبار، فارتدعوا وخافوا.

يجمعه غيرهم، زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأُبَي بن كعب، ومعاذ بن جبل[1].

ولعمري فهذا هو التَّنافس المحمود: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

* ومنْ مناقبِ خزيمة ـ رضي الله عنه ـ ما رواه عن نفسه قال: رأيتُ في المنام كأنِّي أسجدُ على جَبْهةِ النَّبيِّ ﷺ فأخبرته بذلك فقال: «إنَّ الروح لا تلقى الروح» فاضطجعُ له النَّبيّ ﷺ حتى سَجَدَ على جبهته[2].

* ومناقبُ خزيمة غزيرة جليلة، ولئن أبدعَ في مجالِ الفروسيَّة، لقد حلَّقَ علياً في سماءِ الرِّواية، فقد روي له عن رسول الله ﷺ (٣٨ حديثاً) توزَّعت في الصِّحاح والسُّنن.

روى عنه: ابنه عمارة بن خزيمة، وأبو عبد الله الجدلي، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، وآخرون[3].

* وكان خزيمة أحد الشُّعراء الذين خَضَعَتْ لهم ناصية البيان، وكان من فُرسانِ الفَصَاحة، ومن فحول البلاغة الذين أدلوا دلاءهم في بحر الشعر، وتشيرُ أشعاره إلى فروسيته، وإلى ولائه العظيم، ومحبَّته العظمى لعليِّ بن أبي طالب ـ عليه سحائب الرِّضوان ـ.

* ولعلَّ منْ أجملِ ما قال خزيمة في عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ما أخرجه الحاكم في «المستدرك» بسندٍ عند الأسود بنِ يزيد النَّخَعِيّ قال: لما بُويع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على منبر رسول الله ﷺ، قال خزيمة بن ثابت وهو واقفٌ بين يدي المنبر:

إذا نحنُ بايعنا علياً فحسبُنا ... أبو حسنٍ ممَّا نخافُ منَ الفِتَنِ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٤٧) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٧) والإصابة (١/ ٤٢٥).

(٢) عن طبقات ابن سعد (٤/ ٣٨٠ و٣٨١) والمستدرك (٣/ ٤٤٨) مع الجمع والتصرف بينهما.

(٣) انظر: الاستبصار (ص ٢٦٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٨٥).

وجدناه أولى النَّاس بالنَّاس أنَّه   أطبّ قريشاً بالكتاب وبالسُّننِ
وإنَّ قريشاً ما تشقُّ غباره   إذا ما جرى يوماً على الضّمر البُدْنِ
وفيه الذي فيهم منَ الخير كلّه   وما فيهم كلّ الذي فيه من حسنِ[1]

* ولخزيمة ـ رضوان الله عليه ـ أشعارٌ كثيرة في عليّ بن أبي طالب، وفي ابنه محمّد ابن الحنفية، تولت كُتُبُ المصادر إيرادها.

استشْهَادُهُ يَومَ صِفِّينَ:

* قضى خزيمة ـ رضي الله عنه ـ حياته في ظلِّ الخلافة الرَّاشدة، وعندما تولّى عليّ ـ رضي الله عنه ـ الخلافة، كان خزيمة من أنصاره، وكان معه في حروبه، فقد كان منْ كبار جيشِ عليّ بن أبي طالب، وشهد معه يومَ صِفّين سنة سبعٍ وثلاثين، وكان حامل راية بني خطْمة، واستشهد يوم صفّين.

* هذا وقد شهد خزيمة بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمل، وهو لا يَسُلُّ، ولا يقاتلُ أحداً، ولمَّا شهدَ صفّين قال: أنا لا أَقْتُل أحداً حتى يُقْتَل عمَّار بن ياسر، فأنظر مَن يَقتله، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تقتل عماراً الفئةُ الباغية».

فلما قُتِل عمَّار ـ رضي الله عنه ـ تقدَّم خُزيمة، فَسَلَّ سيفه[2]، ثمّ اقترب منَ المعركةِ، فقاتل حتى سَقَط شهيداً، وذلك في سنةِ سبعٍ وثلاثين من الهجرة[3]، في خلافةِ عليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) المستدرك (٣/ ١٢٤).
(٢) ذكر نصر بنَ مزاحم في كتابه «وقعة صفين» أنَّ خزيمة حمل على خصومه، وسلّ سيفه، وأخذ يرتجز، ويقول:

قد مرّ يومان وهذا الثّالثُ   هذا الذي يلهثُ فيه اللاهثُ
هذا الذي يبحثُ فيه الباحثُ   كم ذا يرجّى أنْ يعيشَ الماكثُ
النّاسُ موروثٌ ومنهم وارثُ   هذا عليّ مَنْ عصاه ناكثُ

فقُتل ـ رضي الله عنه ـ. (وقعة صفين ص ٣٩٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٨١) والمستدرك (٣/ ٤٤٩) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ٤٧ و٤٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٧٦).

* هذا، وقد رَثَتْهُ ابنته ضَبيعة بنت خزيمة بأبياتٍ منها:

عين جودي على خزيمةَ بالدَّمـ ـع قتيـل الأحـزاب يـوم الفـراتِ
قتلـوا ذا الشَّهــادتيــن عتــواً أدركَ الله منهــم بـــالتِّـــراتِ
نصـروا السَّيـد المـوفَّـق ذا العـد ل ودانـوا بـذاك حتـى الممـاتِ[1]

* وبهذا تُطوى صفحةُ فارسٍ من فرسانِ الرَّسول ﷺ، ولكنَّ محاسنَ ذي الشَّهادتين ستظل منشورة منثورة بين الورى إلى ما شاء الله.

* ودعونا نتذكَّر ـ ونحن في نهاية المطاف ـ قولَ رسول الله ﷺ في ذي الشَّهادتين: «مَنْ شهدَ له خزيمة فحسبه». وحَسْبنا هذه التزكية النبوية الخالدة، وهذا المديح الشامخ عبر الزمن، فكلُّه متعةٌ شائقة، تشعُّ بعبير الفضائل، وكريم الشمائل، ورحيق الصفات النبيلة، ورضي الله عزَّ وجلَّ عن خزيمة، فقد كان البطل الكميّ، وسيبقى المثل الحي ما تعاقب الجديدان.

* * *

---

(١) أعلام النساء (٢/٣٥٦).

(١١)

عبّاد بن بِشر

- رضي الله عنه -

دعا له النَّبيُّ ﷺ فقال: «اللهم اغفر له».

مِنْ أَصْحَابِ الفَضْلِ والإحسان:

* قالت أُمُّنا عائشة بنتُ الصِّدِّيق - رضي الله عنهما -: ثلاثةٌ مِنَ الأنصارِ لم يَكُنْ أحدٌ يعتدُّ عليهم فَضْلاً، كلُّهم من بني عبد الأشْهَل: سعد بن معاذ، وأُسَيد بن حُضَير، وعَبَّادُ بنُ بِشْر[1].

* ومع أحدِ الفُضَلاء هؤلاء، نعيشُ أرغدَ اللحظات، نسرِّحُ الطَّرفَ في سيرته، ونمتِّع الأسماعَ بقراءةِ أخباره، ومعرفة شجاعته، وجرأته، وفروسيته التي اشتهر بها.

* تطالعنا المصادر باسمه وكُنيته فتقول: عبَّاد بن بشر بنِ وقْش، الإمام أبو الرَّبيع الأنصاريّ الأشْهليّ، أحد البدريين، وكان مِنْ سَادةِ الأوس[2].

* أسلمَ قديماً بالمدينة على يَدِ سفير الإسلام: مصعب بن عمير، واهتدى بهدي الإسلام، وامتثل أوامره ونواهيه، وقَطَعَ حِبَال الجاهلية؛ لتشييد حبال الإسلام والسَّلام، وهو لا يزال في ريعان الشَّباب، وشَرْخ الصِّبا، أسلم في طليعةِ المؤمنين مِنَ الأنصار، وكان إسلامه قَبْلَ إسلام أسيد بن حُضير، وسعد بن معاذ - رضي الله عنهما -[3].

* هذا؛ وقد خَالطَ حبُّ القرآنِ الكريم نفسَ عبَّاد بن بشر، فأضحى زادَ مَسِيْره، وربيعَ قَلْبه، وأُنْسَ رُوحه، وروحَ أُنسه، ونور بصره وبصيرته، فهو

---

(١) المستدرك (٣/ ٢٥٥) والاستبصار (ص ٢٢١) وفتح الباري (٧/ ١٥٦) والإصابة (١/ ٢٥٥).

(٢) السِّير الكبير (١/ ٢٧٠) والمغازي (انظر الفهارس ٣/ ١١٩٢) وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٤٠ و٤٤١) وتاريخ خليفة (ص ١١٣) والمستدرك (٣/ ٢٥٤ و٢٥٥) ودلائل النّبوة للبيهقي (٣/ ١٨٧ ـ ٢٠٠) والاستبصار (ص ٢٠٥ و٢١٤ و٢٢٠ و٢٢١ و٢٢٢ و٢٣٨) والاستيعاب (٢/ ٤٤٤ ـ ٤٤٨) والبداية والنّهاية (٦/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ١٢٤ و١٦٣ و٢٦٤ و٣٣٤ و٤٤٢) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٣٣٧ ـ ٣٤٠) والعبر (١/ ١٥) وحياة الصَّحابة (٤/ ٣٨٤ و٤٨١ و٤٢٢ و٥٣٦) و(٣/ ٦١١) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٤٠).

واحدٌ من مُحبّي آيات الله عزَّ وجلَّ، وما ينزلُ منَ الكتاب والحكمة. وما أجمل قول عبد الله بن مسعود في صفَةِ حملة القرآن: ينبغي لحاملِ القرآن أنْ يُعْرَفَ بليله إذِ النّاسُ نائمون، وبنهاره يصومُ إذِ النّاس مُفْطِرون، وبحزنه إذ النّاس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبخشوعه إذ النّاس يختالون.

* نعم لقد كان عبّاد بنُ بشرٍ باكياً، حزيناً، حليماً، سكيناً، ليناً، قارئاً، محسناً، مجوِّداً. وقد حَبَاه اللهُ عزَّ وجلَّ صوتاً جميلاً، آسراً، ساحراً، يؤثِّر بنفوسِ سامعيه، ويدلُّ عليه، ويأسر الألباب، ويأخذ بمجامع النفوس، فلقد كان معروفاً مشهوراً بهذه الخاصيّة الكريمة، حتى لقد حظِي بدعوةِ مغفرةٍ منْ رسولِ الله ﷺ.

* روتْ أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ قالت: تهجَّدَ رسولُ الله ﷺ في بيتي، فسمعَ صوت عبّاد بن بشر فقال: «يا عائشة! صوتُ عبّاد بن بشر هذا؟».

قلتُ: نعم.

قال: «اللهم اغفرْ له»(١).

* وما دمنا في رحاب الفَضْل، ورياض الذِّكْر، وجنّات الإيمان، فقد كانَ عَبّاد ـ رضي الله عنه ـ من فضلاء الصَّحابة، وكانَ كبيرَ القَدْر، اختصَّه رسولُ الله ﷺ بمنقبةٍ فريدةٍ، رفعته مكاناً عليّاً، وبلّغته شأواً لا يُدانى.

* روى أنسُ بنُ مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: كانَ عبّاد بنُ بشر ورجل آخر من الأنصار عند النّبيِّ ﷺ، يتحدثان في ليلة ظلماء حنْدَس، فخرجا من عنده، فأضاءت عصا عبّاد بن بشر حتى انتهى عبّاد، وذهب، وأضاءت عصا الآخر. قال أبو عمر(٢): الآخر أُسيد بن حضير(٣).

---

(١) الاستيعاب (٢/٤٤٧) والاستبصار (ص ٢٢١) والبداية والنهاية (٦/٣٣٨) وللحديث أصل في صحيح البخاري إذ أخرجه معلقاً برقم (٢٦٥٥).

(٢) أي: أبو عمر بن عبد البر القرطبي في كتابه الاستيعاب (٢/ ٤٤٥).

(٣) الاستيعاب (٢/٤٤٥) والاستبصار (ص ٢٢٠ و٢٢١) والحديث أخرجه الإمام =

* وفي هذه القصّة أنشدَ ابن سيّد النّاس في كتابه: «المقامات العليّة في الكرامات الجليّة»[(١)]:

ولنُـورِ عبّـاد بـنِ بشـر آيـة　　وابن الحضير[(٢)] بمثلها لم يُسْمَع

* وفي سجلِّ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، كان عباد أخاً لأبي حُذيفة بن عتبة[(٣)] الفارس المشهور، والبطل المذكور - رضي الله عنه - كما كان بيته في المدينة المنورّة مثوى للمهاجرين؛ حيث نزلَ ضيفاً عليه عتبة بن غزوان - رضي الله عنه -.

في رِحَـابِ شَجَـاعَـةِ عَبّـاد:

* أوجزَ الإمامُ الذّهبيُّ - رحمه الله - مَعَالمَ وملامحَ الإقدام والبَسالة في عبّاد بن بشر - رضي الله عنه - فقال: كان أحد الشّجعان الموصوفين[(٤)].

* والحقيقة، إنَّ ساحاتِ القتال لتخبرنا عن شجاعةِ هذا الفارس النّبيل؛ الذي خطَّ آثاراً وضيئةً في تاريخ الفروسيَّة، والجهاد، والفداء، تركت بصماتها في ذاكرة الأيام، وسجلات التاريخ.

* شهد عبّادُ بنُ بشر بدراً، وأُحُداً، والخندق، والحديبية، وحُنين، وتبوك، وسائر المشاهد مع رسولِ الله ﷺ، فكان بطلاً في كل مشهد.

* وفي كلِّ غزوة من المغازي النّبويّة، كان عَبّاد - رضوان الله عليه - من

= البخاري في: مناقب الأنصار برقم (٣٨٠٥) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٦) طبعة دار الكتب العلمية.

(١) انظر: المقامات العلية لابن سيد الناس (ص ٦٨).

(٢) «ابنُ الحضير»: هو أسيد بن حضير الأنصاريّ الأشهليّ. هذا وقد وَرَدَ في البيتِ ابن الحسين بدلاً من ابن الحُضير، ولم تنتبه محقِّقةُ الكتاب إلى هذا، فأحببتُ التّنويه لذلك. وهذا الكتاب فيه أخطاء مطبعية كثيرة، لا تكاد تخلو منه صفحة!! ومنذ سنوات أهديتُ الدار الناشرة تصحيحات الكتاب، ووُعِدِ بتصحيحها في الطبعة الثانية، وما يزال الوعدُ قائماً!

(٣) اقرأ سيرة هذا الفارس المقدام في هذا الكتاب ص(٤٢٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٣٧).

السوابق على مُتُون الجياد إلى ساحَاتِ الجلاد، وكان ـ رضي الله عنه ـ موصوفاً بشدَّة البأس، وعظيم الشَّجاعة، حتى لقد قال عمر لرسولِ الله ﷺ في غزوة بني المصطلق: مُرْ عبَّاد بن بشر فليضربْ عنقَ المنافق عبد الله بن أُبَيّ بن سلول.

* في غزوةِ تبوكَ جعلَ رسولُ الله ﷺ عبَّادَ بنَ بشر على حَرَسِهِ، وأَوْكَلَ إليه مهمَّة الحراسة، ويا لها مِنْ مهمَّة!

* هذا؛ وقد عُرِفَ عبَّاد بأمانته، ورعايته شؤونَ المسلمين، فقد كان أحد أمناء فرسان الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقد استعمله رسولُ الله ﷺ على صدقاتِ مُزَيْنة، وبني سُلَيم، فأدَّى مهمته أدقَّ أداء وأوفاه.

* أمَّا فروسية عبَّاد وفدائيته، فكانت شيئاً، آخر له أهميته وعظمته، عبقت به دنيا المغازي، وأوردت شجاعتَه كتبُ المصادر على اختلافِ مشاربها وأنواعها، ومن أعلامِ أعماله الفروسية أنَّه شارك في قَتْل كعب بن الأشرف اليهوديّ[1]، فهل أتاكَ حديثُ ذلك؟! وكيف كفى الله عزَّ وجلَّ رسول الله ﷺ والمسلمين شرَّ هذا الفاجر الأفاك اللئيم، المحارب لله ورسوله؟!.

عبَّاد وقَتْل كَعْب بن الأشْـرَف:

* نقل ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح عن ابنِ إسحاق قال: كان كعب بن الأشرف عربياً مِنْ بني نبهان، وهم بطنٌ من طيىء، وكان أبوه أصاب دَماً في الجاهلية، فأتى المدينةَ، فحالفَ بني النَّضير، فَشَرُفَ فيهم، وتزوَّجَ عَقيلة بنت أبي الحُقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً، جسيماً، ذا بطن وهامة، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر، وخرجَ إلى مكةَ فنزل على ابن وداعة السَّهميّ والد المطَّلب، فهجاهُ حسَّان وهجا امرأته عاتكةَ بنت أسيد بن أبي العيص بن أميّة، فطردته، فرجع إلى المدينة، وتشبَّب بنساءِ المسلمين حتى آذاهم.

* روى أبو داود والتِّرمذي من طريق الزّهري عن عبد الرحمن بن عبد الله

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر الأفاك اللئيم في كتابنا «المبشرون بالنار» (١/ ٢١٣ ـ ٢٣٦).

ابن كعب بن مالك عن أبيه: أنَّ كعبَ بنَ الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو رسولَ الله ﷺ، ويحرضُ عليه كُفَّار قريش، وكان النَّبيُّ ﷺ قَدِمَ المدينة وأهلها أخلاط، فأراد رسولُ الله ﷺ استصلاحهم، وكان اليهودُ والمشركون يؤذون المسلمين أشدَّ الأذى، فأَمَر الله رسوله والمسلمين بالصَّبر، فلمَّا أبى كعب أن ينزع عن أذاه لرسول الله ﷺ، أَمَر سعد بن معاذ أنْ يبعثَ رهْطاً ليقتلوه[1].

* نعم، لقد قَتَلَ هذا الفاجر الخبيث كعب بن الأشرف نَفْسَه، فها هو ذا ينطلق إلى مكةَ، وينزلُ على المطَّلب بن أبي وداعة، ثمَّ جعل يبكي على قتلى المشركين من قريش، ولم يكتفِ بإرسال الدَّمع المُصْطَنع الكاذب، وإنما أخذَ يحرضُ على معاداة رسولِ الله ﷺ وعلى المسلمين، ويقول القصائد العديدة التي تُحرِّكُ كوامنَ الأحقادِ في نفوسِ المشركين، ونفوس قريش الذين تحركهم قوافي الشِّعر، ولسعات الكلام، وتشيرُ قصيدته العينيةُ إلى مدى حِقْدِهِ الدَّفين على رسولِ الله ﷺ وعلى المسلمين، تلك القصيدة التي يبكي ويرثي فيها قتلى بَدْرٍ، فيقول[2]:

طَحَنَتْ رحى بدرٍ لمهلكِ أهلها ... ولمثلِ بدر تَسْتَهِلُ وتدمع[3]
قُتِلَتْ سراةُ النَّاس حولَ حياضهم ... لا تَبْعَدوا إنَّ الملوكَ تُصرَّع[4]
كم قد أُصيب بها مِن أبيضَ ماجدٍ ... ذي بهجةٍ يأوي إليه الضُيَّع[5]
طَلْقُ اليدين إذا الكواكبُ أخلفتْ ... حمّال أثقال يسودُ ويربع[6]

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٩١) طبعة المكتبة السلفية بمصر.
(٢) مغازي الواقدي (١/ ١٨٥ و١٨٦).
(٣) «رحى الحرب»: مجتمع القتال. «تستهل»: تسيل بالدمع.
(٤) «سَراة النَّاس»: خيارهم.
(٥) «الضّيع»: جمع ضائع، وهو الفقير.
(٦) «طلق اليدين»: كثير المعروف كريم. «أخلفت»: لم يكن معها مطر. «يربع»: يأخذ الربع من أموالهم، وكان رئيس القوم في الجاهلية يأخذ الربع مما كانوا يغنمون.

ويقـول أقـوام أسَـرُّ بسخطهـم / إنَّ ابنَ الأشرف ظلَّ كعباً يجزع[1]
صَدقُوا فليتَ الأرضَ ساعةَ قُتِلوا / ظلَّتْ تسوخُ بـأهلهـا وتصـدَّع[2]
صـار الـذي أثر الحـديث بطعنةٍ / أو عاش أعمى مُرعشاً لا يسمع[3]
نُبئتُ أنَّ الحارثَ بـنَ هشـامهـم / في النَّاس يبني الصَّالحات ويجمع[4]
ليـزورَ يثـربَ بـالجمـوع وإنّمـا / يحمي على الحَسَبِ الكريم الأروع[5]
نبئـتُ أنَّ بنـي كنـانـة كلّهـم / خشعوا لقتلِ أبي الوليد وجدَّعوا[6]

* ويبدو أنَّ قريشاً قد أنعمتْ على كعب بنِ الأشرف بألوان الثَّناء، والامتداح، والإطراء على هذه المشاركة الوجدانية، ووصلت قصيدة كعب بن الأشرف عرينَ الأنصار في المدينةِ المنوّرة، ولامست سَمْع حسان بن ثابت شاعرالرّسول ﷺ وفارس الكلام، وسيِّد شعراء عصر النّبوّة، وأشهرهم، فقال يردُّ على كعب بن الأشرف:

لا زالَ كعـبٌ يستهـلُّ دمـوعَـه / للهـالكيـن مجـدَّعـاً لا يسمـعُ
فلقـد رأيـتُ ببطـن بـدرٍ منهـم / قتلـى تسـحُّ لهـا العيـونُ وتـدمع
فَبْكِ فقـد أبكيـتَ عَبـداً راضعـاً / شبـه الكُليـب إلـى الكُليبـة ينـزعُ
ولقـد شفـى الـرحمـن منّـا سيّـداً / وأهـان قـومـاً قـاتلـوه وصـرّعـوا
ونجـا وأفلـتَ منهـم متسـرعـاً / فـلٌّ قليـلٌ هـاربٌ يتمـزع[7]

* وآذى كعبُ بنُ الأشرف ـ قبّحه الله وأخزاه ـ رسولَ الله ﷺ بالهجاء،

---

(١) «إنَّ ابن الأشرف ظل كعباً يجزع»: في هذا الشطر تقديم وتأخير، أراد: إنَّ ابن الأشرف كعباً ظل يجزع.
(٢) «تسوخُ»: تغورُ. «تصدّع»: تنشقق.
(٣) «أثر الحديث»: حدَّث به، ونقله وأشاعه في النَّاس.
(٤) «الحارث بنُ هشام»: هو أخو أبي جهل، وقد أسلم الحارث فيما بعد وحسن إسلامه ـ رضي الله عنه ـ.
(٥) «الأروعُ»: الذي يروع بحسنه وجماله.
(٦) «أبو الوليد»: عُتبة بن ربيعة، وقد قتل في بداية المعركة مبارزة.
«جدعوا»: قطعت آنافهم، والمراد به: ذهاب عزّهم.
(٧) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص ١٥٥ و١٥٦) والمغازي (١/ ١٨٦).

وأخذ يساندُ قُريشاً بشعره، واستغواهم على رسول الله ﷺ، ومالأهم عليه وسخَّر لسانه لهم ـ وضنَّ بماله كعادةِ اليهود ـ حتى لقد قال أبو سفيان ـ وكان لا يزالُ على الشِّرك ـ: أناشدُكَ الله يا بن الأشرف! أدِيْنُنا أحبّ إلى الله أمْ دِيْن محمّد وأصحابه؟ وأيّنا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحقّ؟ فإنّا نطعمُ الجزور الكوماء، ونسقي اللبنَ على الماء، ونطعم ما هبّتِ الشّمال. فقال ابنُ الأشرف والزّهو يملأ سَحْره، والشّيطان يلعبُ بأنفه، وينفث بصدره: أنتم أهدى منهم سبيلاً[1].

* وعادَ ابنُ الأشرف كعب من مكّةَ إلى المدينةِ تصاحبه لعنات المؤمنين؛ الذين وصلْتهم قصيدته، بل قصائده في التحريض، والكفْر، والجَهْرِ بالعداوةِ والبغضاء. ولم يتوقّفْ كعبٌ في المدينة عن قولِ الشّعر، بل راح يُشبّبُ بفاضلات النّساء منْ كبريّات نساء الصّحابة الكريمات حتى آذاهنَّ، وحتى مسَّ بذلك أمّ الفَضْل بنت الحارث[2] زوج العباس بن عبد المطلب، وامرأة عمّ رسول الله ﷺ، وراح يقول:

راحـلٌ أنـتَ لـم تـرحـلْ بمنقبةٍ ... وتـاركٌ أنـتَ أمّ الفَضْـل بـالحـرمِ
صفراء رادعة لو تُعصر اعتصرتْ ... مـن ذي القـواريـر والحنّاء والكتـمِ
إحدى بني عامر جُنّ الفؤاد بها ... ولـو تشاءُ شَفَـتْ كعبـاً مـنَ السّقـمِ
لـم أرَ شَمْسـاً بليـلٍ قبلهـا طلعـتْ ... حتى تجلّتْ لنا في ليلةِ الظُّلمِ[3]

* وأخذ هذا الطّاغية الكفور يعلنُ عداوتَه لرسولِ الله ﷺ، ولم يتركْ سبيلاً من سُبُل الأذية إلا وسَلَكه، أو ساعد على سلوكه؛ هنالك دعا رسولُ الله ﷺ ربّه فقال: «اللهمّ اكفني ابنَ الأشرف بما شئت»[4].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٩٠ و١٩١) بشيء من التصرف اليسير.
(٢) اقرأ سيرة الصحابية الفاضلة أم الفضل بنت الحارث في كتابنا: «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٦) فسيرتها إمتاع للأسماع.
(٣) اقرأ الأبيات كاملة في تاريخ الطبري (٣/ ٥٣) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت. وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٩٤).
(٤) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٩١).

* ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لكعبِ بنِ الأشرف؟ فقد آذانا بالشِّعر، وقوَّى المشركينَ علينا»(١).

* وهنا هبَّ فتيةٌ منْ بني عبد الأشهل الأنصار البهاليل، يقدمهم محمَّد بن مسلمة الأنصاريُّ؛ لينفذوا إعدامَ هذا الطَّاغية؛ الذي أخذ يعيثُ فساداً في الأرض.

* واجتمع في قَتْلِ كعبِ بنِ الأشرف خمسةٌ من فرسانِ الرَّسول ﷺ، وهم: محمَّد بن مسلمة، وسِلكان بن سلامة، وعبَّاد بن بشر، وأبو عبس بن جبر(٢)، والحارث بن أوس، وكلُّهم من الأنصار من الأوس، وانطلقوا، ومشى معهم رسولُ الله ﷺ إلى بقيعِ الغرقد، ثم وجَّهَهُم، وقال: «انطلقوا على اسمِ الله، اللهم أعِنْهم».

* وأخذ هؤلاء البهاليل طريقهم إلى حِصْنِ كعب بنِ الأشرف، وقدَّموا سِلْكان بن سلامة إلى كعب، فجاءه، ثمَّ استنزله منْ حِصْنِه متوشحاً سيفَه، متعطراً، وتحدَّثُوا معه ساعةً، وتناشدوا الأشعار، وأخذ كعب ينشدهم أبياتاً يفخرُ بها بقومه اليهود، وقد أورد هذه الأبيات السُّهيلي في «الرَّوض الأنف»، ومنها:

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ١٦٠).
وهذا القولُ النبويّ دليلٌ على جواز قَتْل المشرك بغير دَعْوةٍ إذا كانت الدعوة العامة قد بلغته.

(٢) أبو عبس بن جَبر بن عمر الأوسيّ الأنصاري: اسمه عبد الرحمن، بدريّ كبير، كان يكتبُ بالعربية، وكان هو وأبو بردة بن نيار يكسران أصنام بني حارثة، آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين خُنيس بن حذافة السَّهميّ، شَهِدَ بدراً والمشاهد، وكان فيمن قَتَلَ كعب بن الأشرف، وكان عمرُ وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ يبعثانه لأخذ صَدَقَات النَّعم.
حدَّثَ عنه ابنه زيد، وحفيده أبو عبس بن محمد بن أبي عبس، وعباية بن رافع؛ مات بالمدينة سنة أربع وثلاثين، وصلى عليه عثمان، وعاش سبعين سنة، وقبره بالبقيع. (سير أعلام النبلاء ١/ ١٨٨ و١٨٩).

فهمْ أهلُ سماحٍ وقِرىً وحفاظ لم يعانوا بصَلَفْ(1)
سكنوا من يثرب كلّ رُبى وسهول حيث حلّوا في أنفْ
وهم أهلُ مشاريب بها وحصون ونخيل وغرفْ

* ثمَّ إنَّهم مشوا معه بعيداً عن حِصْنه، فلمَّا استمكنوا منه قتلوه بالليلِ، وأصابوا عبَّاد بن بشر في وجهه، أو في رجله، وهم لا يشعرون، ثمّ أتوا النّبيَّ ﷺ فأخبروه(2).

* وبهذا تخلَّصَ السلمون مِنْ جرثومةِ اليهوديِ هذا، وقضوا بالقَضَاء عليه، على واحدٍ منْ أكابرِ المجرمين، بينما أخذ عبّاد بن بشر يسيلُ الشِّعرُ على لسانه يصوِّرُ به مَقْتَلَ هذا المجرم الطَّاغية بقصيدة جميلة، وهي:

صَرَخْتُ له فلمْ يعرضْ لصوتي وَوَافى طالعاً مِنْ رأس جَذْرِ
فعُدتُ له فقال مَن المُنادي فقلتُ أخوك عبَّاد بنُ بشرِ
فقالَ محمدٌ أسرعْ إلينا فقد جِئْنَا لتشكرنا وتَقْري
وترفدنا فقد جئنا سِغَاباً بنصف الوسق من حبٍّ وتمرِ(3)
وهذي درعنا رَهْناً فخُذْهَا لشهرٍ إنْ وفى أو نصفِ شهرِ
فقال معاشر سغبوا وجاعوا وما عدموا الغِنى من غير فقْرِ
فأقبل نحونا يهوي سَريعاً وقال لنا لقد جئتم لأمْرِ

---

(1) «قِرى»: ما يُقدَّم للضيف «حِفاظ»: محافظة وذَبّ عن المحارم. والوفاء بالعهد.
«صَلَف»: تكبّر، وتفاخر، وتمدّح بما ليس فيه، وتِيْه، وقلّة خير.

(2) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص١٦٠ و١٦١) بشيء من التصرف. وللحديث أصل في صحيح البخاري من كتاب المغازي برقم (٤٠٣٧) ومسلم في الجهاد والسير برقم (١٩٩) وأبو داود في الجهاد برقم (٢٧٦٨) وانظر السير الكبير (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٧) ومغازي الواقدي (١/ ١٨٤) وطبقات ابن سعد (٢/ ٣١) والمحبر (ص٢٨٢) والسيرة النبوية (٢/ ٤٣٠) والبداية والنهاية (٤/ ٥) ونهاية الأرب للنويري (١٧ ـ ٧٢) وغيرها من المصادر.

(3) «سغاباً»: جمع سَغِب، وهو الجائع مع تعَب.
«الوسق»: ستون صاعاً، أو حمل بعير.

وفـي أيمـانـنـا بِيـضٌ جِـدادٌ ... مـدرّبـة بهـا الكفّـار نفـري[1]
فعـانقـه ابـن مسلمـة المـرديّ ... بهـا الكفّـار كـالليـثِ الهـزبـرِ[2]
وشـدّ بسيفـه صَلتـاً عليـه ... فقطـره أبـو عبـس بـن جبـرِ[3]
وصلتُ وصـاحبـاي فكـان لمّـا ... قتلنـاه الخبيـث كـذبـحِ عِتْـرِ[4]
وجـاء بـرأسـهِ نَفَـرٌ كـرام ... هـم نـاهيـك مـن صـدق وبـرِّ
فكـان الله سـادسنـا فـأبْنَـا ... بـأنعـمِ نعمـةٍ وأعـزّ نصـرِ[5]

فُروسيَّةٌ في الصَّلاةِ:

* كانَ عبّاد بنُ بشر ـ رضي الله عنه ـ موصولَ القلب بالله عزَّ وجلَّ على أساسٍ صحيح، فكان إذا ما انصرفَ إلى صَلاته، صرفَ كلَّ رغائب الدُّنيا عن نفسه، ونسيَ الوجودَ من حولهِ إلا ذكر الله عزَّ وجلَّ وصلاته، ولا يمكن لأحدٍ أنْ يقطعَ عليه صِلتَه باللهِ وصلاته إلى الله، ما دام يقفُ بين يدي الله سبحانه، وهذه حقيقة الخشوع في الصَّلاة.

* ولكن مرة واحدة في حياته، وبعد أنْ أدّى دوره في الجهادِ، أُصيب ببضعةِ سِهَام وهو في صلاته، اضطرته إلى ما لا يرغب.

* حدَّث جابرُ بن عبد الله[6] ـ رضي الله عنهما ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرجنا معَ رسولِ الله ﷺ في غزوة ذات الرِّقاع من نَخْل[7]، فأصاب رجلٌ منّا امرأةَ رجلٍ منَ المشركين، فلمّا انصرفَ رسولُ الله ﷺ قافلاً، أتى زوجها ـ وكان غائباً ـ فلمّا أُخبِرَ الخبر، حَلَفَ لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب

---

(١) «بِيْض»: سيوف. «نفري»: نشقّ ونقطع.
(٢) «الهِزَبْر»: الأسد الضخم الشديد.
(٣) «صلتاً»: الصَّلْت من السيوف: الصَّقيل الماضي. وأصلت السيفَ: جرّده من غمده.
(٤) «العِتْر»: العتيرة: وهي شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم.
(٥) المغازي (١/ ١٩٠ و١٩١) والمستدرك (٣/ ٢٥٥) والاستيعاب (٢/ ٤٤٦ و٤٤٧).
(٦) اقرأ سيرة جابر بن عبد الله في كتابنا «علماء الصحابة».
(٧) «نخل»: اسم مكان.

محمّدٍ دَماً، فخرج يتبعُ أثَر رسولِ الله ﷺ، فنزلَ رسولُ الله ﷺ منزلاً، فقال: «مَنْ رجل يكلؤنا[1] ليلتنا؟» فانتدب رجلٌ من المهاجرين ورجلٌ منَ الأنصار، فقالا: نحنُ يا رسول الله! قال: «فكُونَا بفم الشِّعْب منَ الواديِ» وهما: عمّار بن ياسر، وعبّاد بن بشر.

فلمَّا خرجا إلى فَمِ الشِّعب قال الأنصاريّ للمهاجريّ: أيَ الليل تحبُ أنْ أكفيكه، أوّله أمْ آخره؟.

قال: اكفني أوّله.

فاضطجعَ المهاجريُّ، فَنَام، وقام الأنصاري يصلي؛ قال: وأتى الرَّجلُ، فلمّا رأى شَخْص الرَّجل عرَفَ أنَّه ربيئة[2] القوم، فرمى بسهْمٍ، فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه، وثَبَتَ قائماً، قال: ثم رمى بسهمٍ آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبتَ قائماً، قال: ثمَّ عاد له بالثَّالث فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثمَّ ركع وسجد، ثم أهبَّ صاحبه، فقال: اجلسْ فقد أُثْبِتُّ.

قال: فوثبَ الرَّجل، فلمّا رآهما عرف أنَّه قد نذرا به، فهرب.

قال: ولما رأى المهاجريُّ ما بالأنصاري مِنَ الدِّماء قال: سبحان الله! أفلا أهببتني أوَّل ما رماك؟!

قال: كنتُ في سورةٍ أقرؤها، فلم أحبّ أنْ أقطَعها حتى أنفذها، فلمَّا تابع عليَّ الرمي ركعتُ فآذنتك، وايم الله! لولا أنْ أضيعَ ثَغْراً أمرني رسولُ الله ﷺ بحفظه، لقَطْعُ نفسي أحبّ إليّ قبل أنْ أقطعها، أو أنفذها[3].

عبّاد طليعة استكشاف:

لمَّا أراد ﷺ أن يخرج إلى مكة؛ قدَّم بين يديه طليعة استكشاف مكوَّنة من عشرين رجلاً. وفي ذلك يقول الواقدي: «دعا رسولُ الله ﷺ عَبّاد بن بشر،

(١) «يكلؤنا»: يحرسنا.
(٢) «الربيئة»: العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو.
(٣) مغازي الواقدي (٢/ ٩٧٤).

فقدَّمه أمامه طليعةً في خيل المسلمين عشرين فارساً، وكان فيهم رجال من المهاجرين والأنصار»(١).

وكان هدفه ﷺ من ذلك: الاستعداد للطوارىء التي يمكن أن يُفاجأ بها، وأيضاً فقد كانت مهمةُ هذه الطليعة: استكشاف خَبَر العدو(٢).

وهذا من باب الحذر والحيطة، ومشروعية اتخاذ التدابير تحسُّباً لطوارىء الحدثان.

من شُهَـدَاءِ اليَمَـامَـةِ:

* عاشَ عبَّاد بن بشر ـ رضي الله عنه ـ للجهاد وللفروسيّة منْ أوَّل يوم عرفَ فيه الإيمان إلى آخر يوم، بل لحظة، من حياتهِ المعطاء بالخير والصلاح.

* وها هو يسيرُ إلى اليمامة مع جيشِ الرحمن بقيادةِ خالد بن الوليد، سيف الله، وسيف الرَّسول ﷺ، لتصفيةِ حساباته مع المتنبىء المزعُوم، والأفَّاك الكذُوب: مسيلمة بن حبيب، وللقضاء على ذاك المفتري الظالم.

* وبدأت معركةُ اليمامة، وكانت حاميةَ الوطيسِ، طار فيها قلبُ الجبان، وغنَّى سيفُ الشُّجاع، وجاهدَ عبَّاد يومَ إذْ جهاداً في جموع المرتدين منْ بني حَنيفةَ، وكان له غَنَاء وبلاء، لم يُرْوَ لأحدٍ مثله، يُقال: إنَّه قَتَل يومئذ أكثر منْ عشرينَ نَفْساً، وبعثَ بهم إلى جهنَّم وَفْداً، وإنَّه كان يضربُ بسيفهِ حتى ينحني

(١) صلح الحديبية؛ لمحمد أحمد باشميل؛ (ص ٣٠٩).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٨٥) وذكره البيهقيُّ في الدَّلائل وقال فيه: فَنَام عمَّار بن ياسر، وقام عبَّاد بن بشر ـ رضي الله عنهما وقال: كنتُ أصلِّي بسورة وهي الكَهْف، فلم أحبّ أنْ أقطعها.
وهكذا تقترن العبادةُ بالجهاد، فالمسلم يقتنصُ وقته ليجعله كلّه في سبيل الله، مريداً الإخلاص، وحُسْن التوجُّه، وربط القلب بالخالق المولى في كل آن.

فيصير مثل المِنْجَل، فيقوّمه على ركبته، ومنْ ثَمَّ يبدأ فيضرب به وجوهَ المرتدين[1].

* وهذا شاهدٌ منْ فرسانِ المدرسة المحمدية يشهدُ لفارسنا اليوم عبّاد بن بشر بالشَّجاعة، والإقدام، والجرأة في خَوضِ المعارك، ودكّ وزلزلة صفوف المشركين. وهذا الشَّاهد من أهل الشَّجاعة أيضاً، وهو رافع بن خديج[2]؛ الذي يقول:

رأيتُ عبّاداً يوم اليمامة، وتقدَّم إليه رجلٌ من بني حنيفة كأنَّه جَمَل، فقال: إليَّ يا أخا الأنصار! أتحسبُ أنَّا كمَنْ لاقيتم منْ بلدانِ الحجاز؟! فتقدَّم إليه عبَّاد وهو على ذلك مجروح كثيرَ الجراح، فاختلفا ضربتين، فضربه عبَّاد ضربة قطعتَ رجليه من السَّاقين، ثمَّ تجاوزه وغادره ينوءُ على ركبتيه، فناداه الحنفيُّ: أجهزْ على قتيلك يا بن الأكارم! فرجعَ إليه فقتله.

ثمَّ برزَ له آخر فضربه عبّاد بالسَّيف على عاتقهِ مستمكناً ضربة أبدى سَحْره[3]، ثمَّ تجاوزه يفري في بني حنيفة، فلمَّا رأتْ ذلك حنيفة، حنقتْ عليه، فحملوا عليه فضربوه بأسيافهم حتى قَتَلُوه ـ رضي الله عنه ـ.

*قال رافع: وإنَّ حنيفةَ لتذكره، فكان إذا كان بالرَّجل منهم جراحة يقول: هذا ضربني[4].

---

(١) انظر: الاستبصار (ص٢٢١) بشيء من التصرف.

(٢) رافعُ بنُ خديج بن رافع: يُكنى أبا عبد الله؛ استصغره رسولُ الله ﷺ يوم بَدْر فردّه، وأجازه يوم أُحُدٍ فشهدها، وشهد أكثر مشاهد رسولِ الله ﷺ، وأصابه سَهْمٌ يوم أُحُد؛ فقال له رسولُ الله ﷺ: «أنا أشهد لك يوم القيامة». فانتقضتْ جراحته زمن عبد الملك بن مروان، فمات قبل ابن عمر بيسير، وذلك في سنة أربع وسبعين من الهجرة، وهو ابن ست وثمانين سنة ـ رضي الله عنه ـ. روى عنه ابن عمر، ومحمود بن لبيد، وأسيد بن ظهير، وغيرهم (الاستبصار ص ٢٤٠).

(٣) «السَّحْر»: الرئة: يعني: بلغت الضربة أعماق صدره فبانت رئتاه.

(٤) الاستبصار (ص ٢٢١ و٢٢٢).

* ويشهدُ أبو سعيد الخدري[1] لعبّاد بالشَّجاعة أيضاً يوم اليمامة، وينقل لنا صوته يومئذ وهو يصيحُ بالأنصار: احطموا جفون السُّيوف[2]، وتميَّزوا من النَّاس، وجعل يقولُ: أخلصونا[3]، أخلصونا، فأخلصوا أربعمئة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد، يقدمهم عبَّاد بن بشْر، وأبو دجانة[4] والبَرَاء بن مالك[5] - رضي الله عنهم - حتى انتهوا إلى بابِ الحديقة[6]، فقاتلوا أشدَّ القتال، وقُتِل عبَّاد بن بشر - رحمه الله - فرأيتُ بوجههِ ضرباً كثيراً، ما عرفته إلا بعلامة كانت في جَسَده[7].

* وظلَّ عباد بن بشر - رضي الله عنه - في ضميرِ المسلمين، فهذا أحد أبناء الصَّحابة، وهو عبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير يقسمُ فيقول: ما سمَّاني أبي عبَّاداً إلا به، أي: بعبَّاد بنِ بشر الأشهلي[8].

* هذا؛ ولعبَّادِ بنِ بشر - رضي الله عنه - حديثٌ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يا معشر الأنصار! أنتم الشعار، والناس الدّثار، فلا أُوتين منْ قبلكم»[9].

---

(١) اقرأ سيرته في كتابنا: «علماء الصحابة».

(٢) «احطموا جفون السيوف»: اكسروا أغمادها حتى لا ترجع إليها.

(٣) «أخلصونا»: أي: انفصلوا يا معشر الأنصار عن بقية المقاتلين؛ وإنما أراد - رضي الله عنه - أن تظهر بطولة متميزة تعيد للمسلمين الثقة بأنفسهم.

(٤) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٦٥٨).

(٥) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٤٧٩).

(٦) «الحديقة»: بستان لمسيلمة الكذاب.

(٧) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٤١) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٣٨) وحياة الصحابة (١/ ٣٥٦).

(٨) المستدرك (٣/ ٢٥٥) والاستبصار (ص ٢٢١) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٣٩). وهكذا تكون تسمية الأبناء بالصالحين والعلماء؛ تفاؤلاً أن يكونوا مثلهم، ويقتدوا بهديهم، وتصاحب الشخصية النموذج الذهنَ والنفس، فإذا بالمجتمع يعجُّ بالأفراد الصالحين، المريدين له الخير، والصواب، والهدى.

(٩) الاستيعاب (٢/ ٤٤٨) ومجمع الزوائد (١٠/ ٣١) والحديث أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٣٣٠). ومسلم في الزكاة برقم (١٠٦١).

* استشهد عبَّاد بن بشر بعد أنْ عاش خمساً وأربعين سنة[1]، قضاها وهو يرجو مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ويرجو الشَّهادة في سبيله، وعمل لها حتى نالها.

* رضيَ الله عن عبَّاد بن بشر، وحشرنا جميعاً تحت لواء سيِّدنا محمَّد ﷺ يومَ الحشْرِ، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

* * *

= وانظر الاستبصار (ص ٢٢٢) وقال علي بن المديني ـ رحمه الله ـ: لا أحفظ لعبَّاد سواه.

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٤١) والمستدرك (٣/ ٢٥٥) والبداية والنهاية (٦/ ٣٣٨).

(١٢)

عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ الله ابن أبي ابن سلول

- رضي الله عنه -

* وخَتَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ له بالشَّهادة يوم اليمامةِ.

مِنْ رَوَائِعِ الإيمَانِ المتألّق:

* استجابَ لنداء الإيمانِ العميق، وأنداءِ هَمَساتِ الحقّ الساطع، منذ أنْ بدأ رذاذُ الإيمان يتناثرُ، فيصيب الأفئدة المتعطّشة لرحيق الإسلام، فَيَنْظِمُها في عقْدٍ نفيس فريد لا يُضاهى.

* كان مؤمناً خالصَ الإيمان، أحبَّ الإسلام حُبّاً عظيماً، خالطَ لحمه، وعظمه، ودمَه، وبلغ حبُّه للإيمان، أنْ وقَفَ أمامَ العواطفِ، وأمام عواصِفِ الأحداث كيما يكون وجه الله عزَّ وجلَّ هو مبتغاه، ولم تؤثّر فيه لواطفُ العواطفِ، ولم تزحزحه عن طريقِ الإيمان، وإنّما تداركه الله تعالى بلطفهِ، وثبّته بالقولِ الثّابت، وجعله من أصحابِ اليقين من المؤمنين الموحّدين، فكان نسيج وحده.

* وضيفُنا واحدٌ من فرسانِ الرّسول ﷺ الذين صُنِعُوا على عَيْنِه، ونهلوا منْ معينِ فُراتهِ الصّافي، فغدوا سادة الدنيا، وفرسان الزمان الأغرّ.

* إنَّ فارسَنا اليوم قد حقّقَ في حياتهِ أروعَ صُور الإيمان الحقيقي؛ التي تنبعثُ منْ صِدْقه، ووفائه، وإخلاصه، فكانت صورُ إيمانه المشرقة تتخلّلُ القَلْبَ، وتهزُّه إعجاباً بثباتهِ العظيم أمام الأحداث الكبيرة؛ التي لا يقفُ أمامها إلا كبار الأبطال، وعظماء الفرسان الأشاوس.

* وبطلُنا اليوم واحدٌ منْ كبارِ وكُبَراء فُرسان المدرسة المحمديّة، الذين قدّموا صوراً باهرةً، تمثّلُ حقائقَ كريمةَ في سجلّ الإيمان العميق، وتتجلّى من وراءِ ذلك طبيعة نفسه الوضيئة التي استضاءتْ بنورِ الإيمان الحيّ، فَغَدَتْ تَزِنُ الأمورَ بميزانِ الكرامة الإسلامية، وتتخطّى الرّغائب البشريّة.

* كان أبوه رأسَ المَنافقين ورئيسهم، وممَّنْ سَعى في زرع بذور النّفاق بالمدينة؛ ليشوشَ على الرّسولِ ﷺ، وعلى المسلمين، ولكنَّ ابنه كان مؤمناً، متواضعاً، خاشعاً لله عزَّ وجلَّ، وهذا الخاشعُ الأوّابُ المخبتُ، هو فارسُنا

اليوم، وهو عبدُ الله بنُ عبدالله بنِ أُبيّ ابن سلول[1]، وعبدُ الله بن أُبَي ابن سَلُول هو ذلك الرَّجل المُنافق المشهور في عالَم المنافقين ودنيا النِّفاق، وله سجلّ أسود حافل بكل الموبقات والشرور.

* كان عبدُ الله بنُ عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ من سَادة الصَّحابة الكرام، ومنْ أخيارهم، وفُضَلائهم، وعقلائهم، وكان اسمه الحُبَاب، وبه كان أبوه يكنـى، فغيَّـره رسـول الله ﷺ، وسمَّـاه عبـد الله، وقـال: «إنَّ الحبـابَ شَيْطانٌ»[2].

* كان عبدُ اللهِ بنُ عبد الله يُغمّه أمْر أبيه ونفاقه، ويثقل عليه لزوم المنافقين إياه، وكان عبدُ الله بن أُبيّ منْ أشرافِ الخزرج في المدينة المنوّرة، وكان رئيساً مُطاعاً، وكانتِ الخزرجُ قد اجتمعتْ على أنْ يُتوّجوه عليهم، ويسندوا أمرهم إليه قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ، فلما جاء الله عزَّ وجلَّ بالإسلام، نَفَسَ على رسولِ الله ﷺ النُّبوَّة، وأخذته العزَّة بالإثم، وأضمر النِّفاق حَسَداً وبغياً، إذ انحلَّ أمْرُهُ، واضمحلَّ شأنه، فلا حصَّلَ دُنيا ولا آخرة، وأحلَّ نفسه وأتباعه دار البوار، نسأل الله العافية والسَّلامة في الدِّيْن والدُّنيا، وأن يجيرنا من مضلاَّت الفتن.

المُجَاهِدُ الصَّادِقُ الصَّابِرُ البَرُّ:

* في الجيش المنطلق إلى بدرٍ، كان عبد الله بن عبد الله ـ رضوان الله عليه ـ أَحَد أفراده، خرجَ لتكون كلمةُ الله هي العُليا، بينما مكثَ أبوه مع ثُلَّةٍ منَ المنافقين، وقد تطاولت ألسنتُهم على رسولِ الله ﷺ وعلى أصحابه، وكان

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٣/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢) والمغازي (ص ١٦٦ و٣١٧ و٣٧٠ و٤٢٠ و٤٢١ و٤٩٨ و٩٠٥ و١٠٩٥) والمستـدركُ (٣/ ٦٧٨ و٦٧٩) والاستبصـارُ (ص ١٨٤ و١٨٥) والاستيعاب (٢/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩) والبداية والنِّهاية (٦/ ٣٣٨) وتهذيبُ الأسماء واللّغات (١/ ٢٧٦) ومجمعُ الزَّوائد (٩/ ٣١٧ و٣١٨) والإصابة (١/ ٣٢٧ و٣٢٨) وحياة الصَّحابة (٢/ ٣١٢ و٣١٣) وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٤١) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٣٢٢) مع الجمع بينهما، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سمع الاسم القبيح غيّره، وهذا ثابت مشهور.

عبدُ الله بن أُبيّ ـ أخزاه الله ـ يؤلمه أنْ خرجَ ابنه عبد الله إلى ساحةِ الجهاد وربما حاول أنْ يثنيه عن عزمه، وأن يحدّ من عزيمته، ولكنَّ محاولاته ذهبتْ أدراجَ الرِّياح دون جدوى.

* كان عبدُ الله بنُ عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ قد خرجَ ليصدق الله عزَّ وجلَّ فيما بايع رسوله عليه، فالإيمانُ تصديقُ القَلْبِ بالله وبرسوله، التَّصديق الذي لا يَرِدُ عليه شكٌّ ولا ارتياب، التَّصديق المُطمئنُّ الثَّابتُ المستيقن؛ الذي لا يتزعزعُ ولا يضطرب، ولا تهجسُ فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشُّعور، والذي ينبثقُ منه الجهاد بالنَّفس والمال في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

* إنَّ القَلْبَ متى تذوَّق حلاوة الإيمان، واطمأنَّ إليه، وثبتَ عليه، لا بُدَّ وأن يحقِّقَ صدق ذلك في خارجِ القلب، وفي واقع الحياة، وفي دنيا النَّاس، ومن هنا أرادَ عبدُ الله بنُ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أنْ ينطلقَ إلى الجهاد بعزيمةِ الصَّادقين، لا يردعه قول ذي رحم، وإن كان والده، ما دام ذلك يخالفُ أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، وتعاليم رسول الله ﷺ.

* وفي بَدْرٍ، قامَ عبد الله بواجِبِهِ، وجاهدَ وقاتلَ حتى أنزل الله نَصْره على المؤمنين، وعادَ مع المسلمين إلى المدينةِ المنوَّرة، ورايات النَّصر ترفرفُ فوقَ رؤوسهم، وقد سَبَقَتْهم بشائرُ النَّصر إلى المدينةِ، فغصَّتْ بذلك حلاقيمُ المُنافقين، وكان النصرُ شوكةً تُنغِّص عليهم حياتهم، وتقضّ مضاجعهم.

الذي صَنَعَ اللهُ خيرٌ:

* استدارَ العامُ، وجاءتْ غزوة أُحُدٍ، وخاضَ عبدُ الله بن عبد اللهِ غمارَ المعركةِ، وصَبَرَ صَبْرَ الأبطالِ، وجُرِحَ يوم إذ جراحات بليغة في جسمه، وعاد إلى المدينةِ بعد أنْ أصيب عددٌ منَ المسلمينَ، واتَّخذ الله منهم شهداء فجعل ابن أُبيّ ابن سلول والمنافقون معه يشمتون، ويُسرُّون بما أصابهم، ويظهرون أقْبح القَوْل.

* رجع عبدُ الله بنُ عبدِ الله ـ رضوان الله عليه ـ وهو جريحٌ مقروح، فباتَ يكوي الجراحة بالنَّار حتى ذهبَ الليلُ، وجَعَل أبوه يقول: ما كان خروجك

معه إلى هذا الوجْه برأي! عَصَاني محمّد وأطاع الولدان، واللهِ لكأنّي كنتُ أنظرُ هذا[1]!

* وهنا قال عبدُ الله بنُ عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ كلمات تنضحُ بعبيرِ رحيقِ الإيمان، وصدْقِ أنوار اليقين، وحُسْن الاستسلام لله عزَّ وجلَّ: الذي صَنَعَ اللهُ لرسوله وللمسلمين خير.

---

(١) في غزوةِ أحدٍ، أظهر الله عزَّ وجلَّ الخبيثَ منَ الطيِّب، وبانَتْ حقيقةُ المنافقين، وحقيقةُ زعيمهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وجَعَلَ المنافقون يقولون لأصحاب رسولِ الله ﷺ: لو كانَ مَنْ قُتِلَ منكم عندنا ما قُتِل. وسَمِعَ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ذلك، فمشى إلى رسولِ الله ﷺ ليستأذنه في قَتْل منْ سمع ذلك منه منَ اليهود، والمنافقين، فقال ﷺ: «يا عمر! إنَّ الله مُظهر دِينَه، ومعزّ نبيه، ولليهود ذِمّة فلا أقتلهم».
قال عمر: فهؤلاء المنافقون يا رسول الله!.
فقال رسولُ الله ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله؟!».
قال: بلى يا رسول الله، وإنّما يفعلون ذلك تعوّذاً من السَّيف، فقد بانَ لهم أمرهم، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة.
فقال رسولُ الله ﷺ: «نُهيت عَنْ قَتْلِ مَنْ قال لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً رسول الله، يا بن الخطاب! إنَّ قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الرّكن».
وكان لعبدِ الله بن أبي ابن سلول مقامٌ يقومه كلّ جُمُعة شَرفاً له لا يُريدُ تَرْكَه، فلمّا رجعَ رسولُ الله ﷺ من أُحُدٍ إلى المدينة، جلسَ على المنبر يوم جمعة، فقام ابن أبيّ ابنَ سلول فقال:
هذا رسولُ الله بينَ أظهركم، قد أكرمكم الله به، انصروه وأطيعوه. فلمّا صَنَع بأُحُدٍ ما صَنَع قام ليفعل ذلك، فقام إليه المسلمون فقالوا:
اجلسْ يا عدوّ الله! وقام إليه أبو أيوب الأنصاريّ، وعبادة بن الصَّامت، فجعل أبو أيوب يأخذ بلحيته، وعبادةُ يدفعُ في رقبته، يقولان له: لَسْتَ لهذا المقام بأهلٍ، فخرج يتخطّى رقاب النّاس وهو يقول: كأنّما قلتُ هجراً ـ كلاماً قبيحاً ـ وكان ابنه عبد الله بن عبد الله جالساً في النّاس ما يرفع طرفه إلى أبيه (المغازي ٣١٨/١ و٣١٩) بتصرف.

خليفةٌ على المدينة المنوَّرة:

* حظي عبدُ الله بنُ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ بمكانةٍ كبيرةٍ عند رسولِ الله ﷺ فاستعمله على المدينة، كان ذلك في شعبانَ من السَّنة الرَّابعة للهجرة، إذ خرجَ رسولُ الله ﷺ وأصحابه لبدر، لميعاد أبي سفيان بن حرب عام أُحُد، واستعملَ على المدينة عبد الله بن عبد الله[1] ـ رضي الله عنه ـ وسارَ في ألفٍ وخمسمئة منْ أصحابه، وكانت بدر محلَّ سوق تُعقَد كلّ عام للتّجارة في شعبانَ، يقيمَ فيه التُّجار ثمانية أيام، يتبادلون فيها التِّجارة.

* إلا أنَّ أبا سفيان قد خرجَ في أهلِ مكةَ، حتى بلغَ عُسْفَان، ثمّ أُلقي الرُّعب في قلبهِ، فبدا له أنْ يرجعَ، فقال: يا معشر قريش! إنَّ هذا العام عام جَدْبٍ، ولا يصلحكم إلا عام خَصْب، ترعون فيه الشَّجر، وتشربون فيه اللبن، وإنّي راجعٌ فارجعوا، فرجعوا، فسمَّاهم أهلُ مكةَ جيشَ السُّويق[2]، يريدون أنّهم خرجوا لشرب السُّويق لا للحرب والقتال.

* وأمّا المسلمون فأقاموا ببدرٍ ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم منَ التِّجارة، فربحوا بدرهم درهمين، ثمّ رجعوا إلى المدينةِ وقد توطدت هيبتهم في النُّفوس، وفي كلِّ مَنْ سوّلتْ له نفسه أنْ ينالَ المدينةَ بسوءٍ.

* هذا؛ وتُعْرفُ هذه الغزوة ببضعةِ أسماء: تعرفُ ببدر الموعد، وبدر الثَّانية، وبدر الآخرة، وبدر الصُّغرى[3].

* وأنشدَ كعب بنُ مالك[4] ـ رضي الله عنه ـ في أحداث هذه الغزوة قصيدة رائعة، يسخر فيها منَ المشركين، ويُظهرُ قوّةَ المُسلمين، وطاعتهم رسولَ الله ﷺ، فقال:

وعَدْنا أبا سُفيان بَدْراً فلم نَجِدْ   لمـوعـدِهِ صِـدْقـاً ومـا كـانَ وَافيـا

---

(١) ويقال: استخلف على المدينة عبد الله بن رواحة الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) «السُّويق»: شراب يُصنع من القمح أو الشَّعير.
(٣) انظر تفصيل هذه الغزاة في السِّيرة النَّبوية لابن هشام (٢/ ٢٠٩ و٢١٠).
(٤) اقرأ سيرة هذا الفارس الشَّاعر في هذا الكتاب ص(٥١٠).

فــأقْسِــمُ لَــو وافيتَنَــا فلقيتنــا رَجَعْتَ ذميماً وافتقدتَ المواليا[1]
تــركْنَــا بهــا أوصــالَ عُتبـة وابنـه وعَمْـراً أبـا جهـل تـركنـاهُ ثَـاويـا
عَصَيْتُـم رسـولَ الله أفٌّ لِـدِينِكـم وأمركم السيء الذي كان غَاويا
وإنِّــي وإنْ عنفتمــونــي لقــائــلٌ فــدىً لـرسـولِ الله أهلـي ومـاليـا
أطعنــا فلــم نعــدلْ ســواهُ بغيــرِهِ شهاباً لنا في ظلمةِ الليل هَاديا

عبـدُ اللهِ ومَثَــلٌ أعْـلَى للإيْمَــانِ المتــألِّق:

تقولُ المصادرُ: شَهِدَ عبدُ الله بنُ عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ بَدْراً، وأُحُداً، والخندق، وقريظةَ، والمشاهد كلَّها معَ رسولِ الله ﷺ. وفي كلِّ غزوةٍ كان له موقفٌ ينمُّ عن صِدْق إيمانه، ولعلَّ أروعَ وِقْفَاته الإيمانية في غزوةِ بني المصطلق، تلك التي عبَّر عنها عبد الله بأنَّه المؤمنُ الذي لا تأخذه في اللهِ لومة لائم، مهما تكالبت المتاعب والمشقات.

* ففي غزاةِ بني المصطلق، كادت تُحْدثُ فتنةٌ على مياه السِّقاية بين أجير لعمر، وبين سنان بن وَبْر الجُهَنِّي حليف الخزرجيين، وأحبَّ عبد الله بن أُبَي ابن سلول رأس النِّفاق أن يُوقظ الفِتْنَة، وأنْ يُذكِّي لهبَها؛ فقال: أمَا واللهِ! لئن رجَعْنا إلى المدينةِ ليخرجن الأعزّ منها الأذلَّ، ثمَّ أقبل على الحاضرين منْ قومهِ فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أمَا واللهِ لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غيرِ بلادكُم.

* وبلغَ هذا الخبرُ رسولَ الله ﷺ، فجاءَ عبدُ الله بن أبي ابن سلول وحلف[2] بأنّه لم يتكلَّمْ بشيءٍ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ حسمَ الأمْر، وأنزلَ سورة

---

(١) «افتقدت»: تعني هنا: فقدت. و«الموالي»: القرابة.
(٢) لا يبالي المنافقونَ بالحَلْف كذباً، ويصدُّون عن الدُّخول في الإسلام، فقد اتخذوا بقيادةِ عبد الله بن أبي إيمانهم وقاية وستراً من النَّاس، يتقون بها تطبيق أحكام الكفرة عليهم منَ القَتْل، والسَّبي، واغتنام الأموال، فاغْتَرَّ النَّاس بهم، وظنُّوا أنَّهم مسلمون، فأدى صنعهم هذا إلى صدِّ النَّاس من اليهود والمشركين عنِ الدُّخول في الإسلام، ومنعهم منَ الجهاد بسبب تخلّفهم، واقتداء غيرهم بهم، فبئست أعمالاً أعمالهم الخبيثة منْ نفاقهم وأيمانهم الكاذبة، وصدهم عن سبيل الله.

كاملة هي «المنافقون» وفيها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧ ـ ٨][(١)].

* وبلغ عبدُ الله بنُ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ما كان منْ أمرِ أبيه، ونفاقه، وموقفه الخبيث المتعفّن، وبلغه أيضاً أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد أشارَ على رسولِ الله ﷺ أنْ يأمر محمَّد بن مسلمة بأنْ يَضْربَ عنق والده المنافق، هنالك أتى عبدُ الله بن عبد الله رسولَ الله ﷺفقال: يا رسولَ الله! إنَّه قد بلغني أنَّك تريدُ قَتْل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإنْ كُنْتَ لا بدَّ فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله! لقد عَلِمتِ الخزرج ما كان لها مِنْ رجلٍ أبرّ بوالده مني، وإني لأخشى أنْ تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في النّاس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النّار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفّقُ به، ونُحْسِنُ صحبته ما بقي معنا»[(٢)].

* ولما انصرف عبدُ الله بنُ عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ منْ عند النّبيِّ ﷺ، وعرف أنَّ رسولَ الله ﷺ قد تركه ولم يأمر بقتله، أنشدَ قائلاً قصيدة منها:

إلا إنَّما الدُّنيا حوادثُ تُنتظر
ومنَ أعجبِ الأحداثِ ما قالهُ عُمر

---

(١) «حتى ينفضوا»: كي يتفرّقوا عنه ﷺ. «ليخرجن الأعز»: الأشد والأقوى، يعنون: أنفسهم. «الأذل»: الأضعف والأهون، يعنون: الرسول والمؤمنين. «ولله العزة»: الغلبة، والقهر. هذا؛ ويؤدي النّفاق إلى القَلَقِ وإلى التّردد، والضّعف، والهزيمة، والجُبن، والهلع، والجزع، لذا كان المنافقون جُبناء يستترون وراء ألسنتهم؛ التي يسيلُ منها الحَلْف الكاذب، ولذا فإنَّ المنافقين أعداء المؤمنين، فينبغي الحذر منْ أقوالهم والميل لكلامهم، كي تبقى الأمّة متماسكة، ولذلك وبَّخهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

(٢) وهذا مِنْ حُسْن أخلاقه ﷺ، وعفوه، وسماحة نفسه، ورحمته بالناس. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

يشير على مَنْ عنده الوحي هكذا
ولم يستشره بالتي تحلقُ الشَّعَر

غداة يقول ابعثْ إليه محمّداً
ليقتله بئس لعمرك ما أَمَر[1]

فقلتُ رسولَ الله إنْ كنتَ فاعلاً
كفيتك عبدَ الله لَمْحَكَ بالبصر[2]

تساعدني كفٌّ ونفسٌ سخية
وقلبٌ على البلوى أشدّ مِنَ الحجر

فقال ألا لا يقتل المرء طائعاً
أباه وقد كادت تطيرُ بها مضر

* ألا ترى معي ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ في هذه الحادثة من مواقف البطولة والفروسية ما يعجز عنه عظماء الرجال؟!

* لقد تجلّى في هذا المجال موقف عبد الله بن عبد الله البطوليّ الإيماني الكريم، ذلك الذي سما عنِ الرحم والعاطفة، ليكون في دُنيا الإيمان أروع الأمثلة العملية في طلب مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله الكريم ﷺ.

* وذكر عِكْرمةُ وابن زيد وغيرهما، أنَّ النَّاس لما قفلوا راجعين إلى المدينةِ، وقفَ عبدُ الله بن عبد الله بن أُبيّ على باب المدينةِ، واستلَّ سَيْفَه، فجعل النَّاسُ يمرُّونَ عليه، فلمّا جاء أبوه عبد الله بن أُبَيّ، قال له ابنه: وراءك! فقال: ما لك؟ ويلك!

فقال: والله! لا تجوزُ منْ ها هنا حتى يأذن لكَ رسولُ الله ﷺ، فإنَّه العزيزُ، وأنتَ الذَّليل!

---

(١) «محمداً»: أي: محمد بن مسلمة الأنصاري، وكان عمر قد قال لرسول الله ﷺ مُرْ محمد بن مسلمة يأتك برأسه.

(٢) «كفيتك عبد الله»: أي: والده المنافق.

فلمَّا جاءَ رسولُ الله ﷺ، وكان إنَّما يسيرُ سَاقةَ[1]، فشكا إليه عبدُ الله بن أبيّ ابنه، فقال ابنه عبد الله: واللهِ يا رسولَ الله! لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ.

فقال: أمّا إذ أذن لكَ رسول الله ﷺ فَجُزِ الآن[2].

* وجَعَلَ بعد ذلك إذا أحدثَ عبدُ الله بن أبيّ الحَدَثَ، كان قومه همُ الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه، فقالَ رسولُ الله ﷺ لعُمَر بن الخطاب حين بلغه ذلك منْ شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي: اقْتُله لأرعدتْ له آنُف لو أمرتها اليوم أن تقتله لقتلته».

قال عمر: قد واللهِ علمتُ لأَمْرُ رسول الله ﷺ أعظم منْ أمْري.

* هكذا كانت تجري الأحداثُ ـ كي يرسمها الله تعالى ـ لحكمتها ولغايتها، للتَّربية، والعِبْرة، وبناء الأخلاق والآداب، ولتظهر فيه معادنُ الفُرسان في نعمةِ الإيمان. وقد أثبتَ عبد الله بن عبد الله[3] ـ رضي الله عنه ـ

---

(1) «السَّاقة»: يعني يسير في مؤخرة الجيش، ينظر المتخلِّف، والضَّال، والمحتاج إلى المعونة.

(2) عن البداية والنِّهاية (٤/ ١٥٨) والاستبصار (ص ١٨٤ و١٨٥) مع الجمع والتصرف.
وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٩) وانظر أيضاً تفسير الرازي وابن كثير والقاسمي والكشاف وغيرها لسورة «المنافقون».

(3) إنَّ عبدَ الله بن عبد الله ـ رضوان الله عليه ـ لهو نموذجٌ رفيعٌ للمسلم المتجرد الطَّائع، يشقى بأبيه المنافق، ويضيقُ بأفاعيله، ويخجلُ منْ مواقفه، ولكنَّه يكنُّ له ما يكنه الولد البارّ العطوف، ويسمع أنَّ رسولَ الله ﷺ يريدُ أنْ يقتل أباه، فيختلجُ قلبه بعواطفَ ومشاعرَ متباينة، يواجهها هو في صراحةٍ، وفي قوّة، وفي نَصَاعة، إنَّه يحبُّ الله عزَّ وجلَّ، ويحبُّ الإسلام، ويحبُّ طاعةَ رسولِ الله ﷺ، ويحبُّ أنْ يُنَفِّذَ أمْرَه ولو في أبيهِ، ولكنَّه لا يطيقُ أنْ يتقدَّم أحدٌ فيضرب عُنُقَ أبيه، ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه.
إذاً فليجأ إلى القائدِ الأعلى سيِّدنا رسول الله ﷺ ليجلو ما نزل بنفسه من خلجات، فالرَّسولُ ﷺ يرى هذه النَّفس المؤمنة المُحْرجَة، فيمسحُ عنها الحرجَ في سماحةٍ وكرامة: «بل نترفق به، ونحسنُ صحبته ما بقي معنا». =

بأنَّه منْ صفةِ صَفْوة المؤمنين؛ الذين أخلصُوا لله ورسوله أحوالهمَ، وأفعالهم، ونيَّاتهم.

مِـنْ وقْـفَـاتِ البـرِّ والآبَـاءِ، ولكـن!:

* في سنةِ تسع منَ الهجرة توفي المنافقُ ابن أبي، فكانَ لابنه عبد الله ـ رضي الله عنه ـ موقفٌ لطيف منْ حيثُ برّه بأبيه، بعد أن استأذنَ رسولَ الله ﷺ.

* أخرجَ هذا الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحه بسنده إلى نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قال: لما تُوفي عبد الله بن أُبي ابن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسولِ الله ﷺ، فسأله أنْ يعطيه قميصه ليكفِّنَ فيه أباه، فأعطاهُ، ثمَّ سأله أنْ يصلِّي عليه؛ فقامَ رسولُ الله ﷺ ليصلِّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! أتصلي عليه، وقد نهاك الله أنْ تصلي عليه؟.

فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما خيَّرني اللهُ فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيدُ على السَّبعين».

قال: إنَّه منافقٌ.

فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤][1].

= هنالك عملت هذه العبارة الرَّقيقة المتدفِّقة عَملها في نفسِ عبد الله بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ وها نحن أولاء نشهده يقفُ أمام مدخل المدينة المنوَّرة، وقد شهر سيفه، فلا يدع أباه يدخل، تصديقاً لما قال أبوه نفسه: ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، ليعلم أنَّ رسول الله ﷺ هو الأعزّ، وأنّه هو الأذلّ، ويظلّ يقفه حتى يأتيَ رسول الله ﷺ فيأذن له، فيدخلها بإذنه، ويتقرر بالتَّجربة الواقعة مَنْ هو الأعزّ ومَنْ هو الأذل... ألا ما أجمل تلك النُّفوس البشرية التي رفعت أولئك الرِّجال إلى قمم الإيمان السَّامقة!.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٠٠) باب: من فضائل عمر. =

مِنْ أعْـلامِ الشُّـهَـداءِ الأخيـار:

* كان رسولُ الله ﷺ يثني على عبد الله بن عبد الله، ويُكرمه، ويقدِّر له مواقفه العطرة في ساحاتِ الفروسيَّة، وفي محبته الصَّادقة لله ولرسوله؛ وماتَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنه.

* وها هو أبو بكر الصِّديق ـ رضوان الله عليه ـ يدعو لجهادِ المرتدين، فيكون عبد الله بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ في طليعة الفُرسان الذين استجابوا لهتاف الحقِّ، وداعي إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، وها هو عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يسير نحو أرض اليمامة معَ سيفِ الله خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ

= وللحديث أصل في صحيح البخاري، وفي الجنائز برقم (١٢٦٩) باب: الكفن في القميص. وأخرجه كذلك بالأرقام (٤٦٧٠ و٤٦٧٢ و٥٧٩٦) وأخرجه النسائي في الجنائز (٤/ ٣٦) باب: القميص في الكفن، والترمذي في التفسير برقم (٣٠٩٧) باب: من سورة التوبة، وابن ماجه في الجنائز برقم (١٥٢٣) باب: الصلاة عل أهل القبلة.

وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٤٢ و٥٤٣) والاستبصار (ص ١٨٥) والاستيعاب (٢/ ٣٢٨) والإصابة (٢/ ٣٢٧) وأسباب النّزول لعبد الفتاح القاضي (ص ١٢٢) وغير ذلك من التَّفاسير للآية (٨٤) من سورة التوبة.

هذا؛ وإنَّما صلى عليه رسولُ الله ﷺ إجراء له على حكم الظَّاهر؛ وهو الإسلام، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله ـ وكان من خيار الصَّحابة وفضلائهم ـ ولما فيه منْ مصلحة شرعية، وهو استئذان قومه ومتابعيه، فقد كان يدينُ له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ منَ المنافقين. فعسى أن يرعووا عنْ نفاقهم ويعتبروا، ويخلصوا لله ولرسوله، ولو لم يجبْ رسول الله ﷺ ابنه عبد الله، وتركْ الصَّلاة عليه قبل ورود النهي الصَّريح، لكان سبَّة وعاراً على ابنه وقومه، فالرَّسولُ الكريم ﷺ اتبع أحْسَن الأمرين في السِّياسة إلى أنْ نُهي فانتهى.

وهو ﷺ لم يفعلْ ذلك لاعتقاده أنَّه يُغْفَر له لما روي عن قَتَادة أنَّهم ذكروا القميص بعد نزول الآية؛ فقال ﷺ: «ما يغني عنه قميصي، إنِّي لأرجو أنْ يسلم أكثر منْ ألف من بني الخزرج» أي: يتخلصوا من نفاقهم، وينقادوا ظاهراً وباطناً لله ولرسوله، وأما إعطاؤه القميص فلأن الضَّنَّ به يخلّ بالكرم، وقد كان من خُلُق رسول الله ﷺ ألاَّ يردَّ طالب حاجة قطُّ.

وهنالك على أرضِ اليمامة يحظى بوسام الأحياء عند الله، وسام الشَّهادة، وحلية الاستشهاد في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* قال ابنُ قدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ في «الاستبصار» عن عبد الله بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: فرزقه الله الإيمان، والجهاد، وختم له بالشَّهادة[1].

فنعمت الخاتمة، ونِعْم المختوم له!. رضيَ الله عن عبد الله بن عبد الله، وأدخلنا الجنَّة وإياه، فقد كان نِعْمَ المجاهد، البارّ بأبيه، وله المواقف الجليلة المحمودة، في عصر النبي ﷺ، وعصر الخلفاء الراشدين.

* * *

(١) الاستبصار (ص ١٨٥).

(١٣)

قَتادةُ بنُ النُّعمانِ

- رضي الله عنه -

قال ﷺ: «اللهم! إنَّ قتادة قد أَوْجَه نبيِّك بوجهه، فاجعلْها أحسنَ عينيه، وأحدَّهما نظراً».

الفـارس المُجَاهِــدُ النَّـجْيبُ البَـارُّ:

* نجيبٌ منْ نُجباء الصَّحابة الأبرار الأطهار، صُنِعَ على عَيْنِ رسولِ الله ﷺ، وفي مدرسة النبوة التجهيزية؛ ليغدوَ أحد الفُرسَان الأبطالِ؛ الذين سطَّرُوا أروعَ آيات البَسالة في طروس العزِّ، وسجلات الفَخَار، وميادين الجهاد.

* كان هذا الفارسُ منَ الرُّماة المذكورينَ المعدودين منْ أصحاب رسولِ الله ﷺ، ومنْ أكابرِ الصَّحابة، وخيارهم، وفُضَلائهم، وهو أخو أبي سعيد الخدريّ لأمِّه.

* في «تهذيبِهِ» أوردَ الإمام النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ نَسَبه فقال: قَتادةُ بن النُّعمان بن زيد الأنصاريّ، الأوسيّ، الظَّفْريّ، المدنيّ، أبو عمر الصَّحابي ـ رضي الله عنه ـ[(١)].

* وصفه الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ بقوله: الأميرُ المجاهدُ، أبو عمر الأنصاريّ، الظَّفْريّ، البَدْريُّ، منْ نُجَباء الصَّحابة[(٢)].

* أسلم قَتادة مع السَّابقين منَ الأنصار؛ ونَعِمَ بنعيمِ القُرآن الكريم، وأخذ يُكثر منْ تلاوتِهِ آناءَ الليل وأطرافَ النهار.

* رُوِي عن حفيده عاصم[(٣)] بن عمر بن قتادة: أنَّ قتادةَ قدِمَ

---

(١) تهذيبُ الأسماء واللغات (٢/ ٥٨) وانظر: المسند (٤/ ١٥) و(٦/ ٣٨٤) وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٥٢ و٤٥٣) والمستدرك (٣/ ٣٣٤) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٣) والاستبصار (ص ١٢٨ و٢٣٨ و٢٥٤ و٢٥٦ و٢٦٠ و٢٦١) والاستيعاب (٣/ ٢٣٨ ـ ٢٤١) ومختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٦٧ ـ ٧٣) والبداية والنّهاية (٣/ ٢٩١) و(٤/ ٣٤) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٣) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣١٨) وتهذيبُ التّهذيب (٨/ ٣٥٧ و٣٥٨) والإصابة (٣/ ٢١٧ و٢١٨) وحياة الصّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٧٦) وغيرها كثير.

(٢) انظر: سير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٣١ و٣٣٢).

(٣) عاصمُ بنُ عمر بن قتادة بن النُّعمان الأنصاري، محدث، نسّابة، كان أبو عمر ابن قتادة قد روى المغازي والأخبار عن أبيه، ورواها عن عمر ابنه عاصم.
=

بـ: «كهيعص» بعد قدومِ رافعِ بن مالك بسورة يُوسُف، فكان يكثر أنْ يقرأها في الدَّار، فكانوا يستهزئون به، وكان أهلُ المجلس إذا رأوْه طالعاً قالوا: هذا زكريا، قد جاءكم. لكثرة ما فيها من زكريا[1].

عَيْنُ قَتَادَةَ ومعْجِزَةٌ نَبَوِيَّةٌ خالِدة:

※ في رحلةِ المغازي النَّبوية، كان لقتَادة بنِ النُّعمان ـ رضي الله عليه ـ مآثر حميدة محمودة، ومواقف شهيرة مشهودة، ووقائع عظيمة مشهورة، فقد شهد بدراً، وكُتِب في عداد البدريِّين، وما أدراكَ ما أهل بدر؟!

※ وشهد كذلكَ غزوة أحد، ويومها أظهر منَ البطولة، والشَّجاعة، والفدائية ما جعله منْ فرسان تلك الغزوة المشهورين، بل كان له يومها موقفٌ مشهور أمامَ رسولِ الله ﷺ بمعجزة نبوية صاحبته إلى وفاته، وورثها عند بنوه إلى أمدٍ بعيد، ونحنُ نقرؤها في سيرِ الصَّحابة الكرام.

※ ففي يوم أُحُد أبلى قتادة، ورُميت عينه، فسالت حدقته على وَجْنَتِهِ، فأتى رسولَ الله ﷺ، فرأى حاله، فردَّها بيده الشَّريفة، فاستوَتْ ورجعَتْ، وكانتْ أقوى عينيه، وأصحَّهما.

※ حدَّثَ قَتادة ـ رضي الله عنه ـ عنْ تلكَ الواقعةِ، فقال: أُهديَ إلى رسولِ الله ﷺ قوسٌ، فدفعَها إليَّ رسولُ الله ﷺ يوم أُحُدٍ، فَرَمَيْتُ بها بين يدي رسول الله ﷺ حتى اندقَّتْ سِيَتُها[2]، ولم أزلْ على مقامي نصْبَ وجهَ رسولِ الله ﷺ، مَيَّلْتُ رأسي لأقي وَجْهَ رسول الله ﷺ بلا رمي أرميه، فكان

= قال فيه ابن سعد ـ رحمه الله ـ: كانَ مِنَ العُلماء بالسِّيَر، وكان راويةً للعلم، وله علمٌ بالمغازي والسِّير، أمَرَهُ عمر بن عبد العزيز أنْ يجلسَ في مسجدِ دمشق، ويحدِّث النَّاس بالمغازي، ومناقب الصَّحابة؛ ففعل. وكان عاصم بن عمر بن قتادة مِنَ المصادر المهمّة التي اعتمد عليها ابن إسحاق، والواقدي، توفي سنة عشرين ومئة.

(١) انظر: الاستبصار (ص ٢٥٤ و٢٥٥).

(٢) «سِيَة القوس»: طرفها المنحني، يُقال لسيتها العليا: يدها؛ ولسيتها السُّفلى: رجلها.

آخرها سَهْمٌ نَدرتْ منها حدقتي بكفّي، فسعيتُ بها في كفّي إلى رسولِ الله ﷺ، فلمّا رآها رسول الله ﷺ في كفّي دَمَعَتْ عيناه، فقال: «اللهم إنَّ قتادة قد أَوْجَهَ نبيّك بوجهه فاجعلها أَحْسَنَ عينيه وأحدَّهما نظراً» فكانت أحسنَ عينيه، وأحدَّهما نظراً[1].

* أخرج البيهقيُّ - رحمه الله - عنْ أبي سعيدٍ الخدريّ عن قَتادةَ بنِ النُّعمان - وكان أخاه لأمّه - أنَّ عينَه ذهبتْ يوم أُحد، فجاءَ بها إلى النَّبيِّ ﷺ فردَّها، فاستقامت[2].

* وظلَّت قصَّة عين قَتادة متوارثة إلى أنْ أضحَتْ مجالاً للفخر والتَّفاخر في المجالس السَّنية، والمواقف المحمودة أمام الخلفاء، وبين العلماء، والأدباء، والشُّعراء.

* روى الأصمعيُّ[3] - رحمه الله - عنْ أبي معشرٍ المدنيّ المعروف بالسّندي قال: قدم على عمرَ بنِ عبد العزيز رجلٌ منْ وَلَدِ قَتادة بنِ النُّعمان، فلمّا قَدِمَ عليه قال: له: مَنْ أنتَ؟

فأجابه مرتجلاً:

---

(1) الحديث أخرجه الطَّبراني، وقال عنه الهيثمي: وفيه مَنْ لم أعرفه؛ انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١١٣). وأخرجه الحاكم بنحو من هذا اللفظ في المستدرك (٣/ ٣٣٤)، انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥٣) والاستبصار (ص ٢٥٥) ومختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٧١) والاستيعاب (٣/ ٢٣٨) والإصابة (٣/ ٢١٧) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٨) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٥١) والبداية والنّهاية (٤/ ٣٣ و٣٤) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٣٢) والسّيرة النّبوية لابن هشام (٢/ ٨٢) وحياة الصّحابة (٣/ ٥٥٥) وغيرها كثير من المصادر.

(2) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٥٣).

(3) الأصمعيُّ: عبد الملك بن قريب الباهلي، منْ باهلةَ إحدى قبائل العرب، كان من رواة الشِّعر المشهورين، والباحثين عن غرائبهِ وكلماتهِ، قيل: إنّه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة، وأخباره كثيرة جداً مشهورة متواترة في كُتُب الأدبِ والمسامرات وما شابهها، مات بالبصرة سنة (٢١٣ هـ) وعمره يربو عن التسعين.

أنا ابنُ الذي سَالتْ على الخدِّ عينُه
فَـرُدَّتْ بكـفِّ المصطفى أَحْسَـنَ الـرَّدِّ
فعـادتْ كمـا كـانـتْ لأوَّلِ أمْـرِهـا
فيـا حُسْنَهـا عينـاً ويـا حُسْـنَ مـا خَـدِّ!

فقال عمرُ بنُ عبد العزيز عند ذلك متمثِّلاً بَيْتَ شعر لأميّة بن أبي الصَّلْت:

تلـك المكـارمُ لا قعْبَـان مِـنْ لَبَـنٍ
شِيْبَـا بمـاءٍ فَعَـادا بَعْـدُ أَبْـوالا[١]

* وصدقَ عمرُ بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فيما تمثَّل به، فتلك هي المفاخر الباقية حقّاً، ولهذا نجد أنَّ عمَر بنَ عبد العزيز قد وَصَلَ ذلك الرَّجل، وأحْسن جائزته[٢].

* وإلى هذه الحادثة أشار البُوصيريّ ـ رحمه الله ـ في همزيته اللطيفة إلى وَصْف راحةِ النَّبي ﷺ الشَّريفة، وكيفية ردّ عين قتادة إلى موضعها، فقال:

وأعـــادتْ علـــى قتـــادةَ عينـــاً
فهـــي حتـــى ممـــاتـــه النّجـــلاء[٣]

* وتابع قَتادة مشاهده مع رسولِ الله ﷺ، فشهد غزوة الخندق، وسائر المشَاهد، ولمّا كان يوم فتح مكة، كانت معه راية بني ظفر قومه[٤].

* ولم يتوقف قَتادة عن متابعةِ الجهاد حتى آخر يوم من حياته، وقدم البلقاء منْ أعمالِ دِمشقَ غازياً مع أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ حين وجَّههُ النّبيُّ ﷺ قبل موتِهِ، كما كان على مقدمةِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

---

(١) «قعبان»: مثنى قَعْب، وهو وعاء للبن. و«شِيبا»: خُلطا.
(٢) انظر: البداية والنّهاية (٤/ ٣٤) بشيء من التّصرّف. وانظر: الاستبصار (ص ٢٥٥ و٢٥٦) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٥٨ و٥٩) والاستيعاب (٣/ ٢٣٩) والإصابة (٢/ ٢١٧) والسِّيرة الحلبية (٢/ ٥٤٣) وغير ذلك من مصادر.
(٣) أي: وأعادت تلك الرّاحة الشّريفة على قتادة بن النّعمان عيناً له ذَهَبت، فهي إلى مماته الواسعة، أي: كثيرة النظر.
(٤) الاستيعاب (٣/ ٢٤٠) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٩).

Scanned by CamScanner

ـ رضي الله عنه ـ لما سار إلى الشَّام[١].

* أمَّا في مجالِ العِلْم فقد كان لقَتادة ـ رضي الله عنه ـ أثر مشكور، قال النَّووي ـ رحمه الله ـ: كان قتادة من فُضَلاء الصَّحابة، رُوِي له عن رسولِ الله ﷺ سبعة أحاديث، روى البخاري أحدها، وروى عنه أخوه أبو سعيد الخدريّ، وابنه عمر، ومحمود بن لبيد وغيرهم[٢].

* ومن مروياته عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ عَبْداً حَماهُ الدُّنيا، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء»[٣].

كَـرَامَـةٌ لقَـتَـادَةَ:

* عُرِفَ قتادة بنُ النُّعمان بحبِّه الشَّديد لرسولِ الله ﷺ[٤]، كما عُرِفَ باقتدائه بأعمال النَّبيِّ ﷺ، والصَّلاة معه في جوف الليلِ، وذات يوم حظي بكرامة رفعته مقاماً علياً بين فرسان الصَّحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٦٧) بتصرف يسير.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٥٩) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٣٢).

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٧١) والحديث أخرجه الترمذي في الطب برقم (٢٠٣٧).

(٤) قال سفيان الثوري: المحبة: اتّباع الرسول ﷺ. وقال بعضُهم: محبّة الرسول: اعتقادُ نصرته، والذّبُّ عن سُنّته، والانقياد، وهيبة مخالفته.
وحقيقة محبّته ﷺ تتلخَّصُ في وجوب طاعته. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فقرن تعالى بين طاعته وطاعة رسوله، ووَعَد على ذلك الثواب الجزيل، وأوعد المخالف بالعقاب الأليم.
وينبغي وجوبُ اتباعه، وامتثال سُنّته، والاقتداء بهديه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. قال الترمذي: الأسوة في الرسول: الاقتداء به، والاتّباع لِسُنَّته، وترك مخالفته في قولٍ أو فِعْلٍ.
فمحبّةُ رسول الله ﷺ تتمثَّلُ في اتّباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه؛ ليفوز المؤمن برضا الله ـ عز وجل ـ وينال جنّته بسلامٍ يوم القيامة.
انظر: حق الشهادتين؛ ليوسف بديوي (ص٢٣٦ـ٢٣٧).

* إذن، فلنتعرَّفْ هذهِ الكرامة، والتي يحدثنا عنها قَتادة نفسه فيقول: خرجتُ ليلةً منَ الليالي مظلمة، فقلتُ: لو أتيتُ رسولَ الله ﷺ، وشهدتُ معه الصَّلاة، وآسيتهُ بنفسي؛ ففعلتُ. فلمَّا دخلتُ المسجدَ، برقتِ السَّماءُ، فرآني رسولُ الله ﷺ فقال: «يا قتادة! ما هاجَ عليك؟» أو قال: «ما السُّرى يا قتادة؟»[1].

فقلتُ: أردتُ - بأبي وأمّي أنتَ - أنْ أؤنسكَ، وعلمتُ يا رسول الله! أنَّ شاهد الصَّلاة قليل، فأحببتُ أنْ أشهدَها.

قال ﷺ: «فإذا صليتَ فاثبتْ حتى أمرَّ بك».

فلمَّا انصرفَ أعطاني العُرجان - عَصًا - وقال: «خُذْ هذا العُرجونَ فتخصَّر[2] به، فإنَّك إذا خرجتَ أضاءَ لكَ عشراً أمامك، وعشراً خلفك» ثمّ قال: «إذا دخلتَ بيتك فاضربْ به مثلَ الحجر الأخشن في أستار البيت، فإنَّ ذلك الشَّيطان». فخرجتُ، فأضاء لي، ثمَّ ضربت مثل الحجر الأخشن، حتى خرجَ منْ بيتي[3].

الفارس الورعُ الجَوَادُ:

* ليستِ الفروسيَّةُ مقصورةً في مَيدان الجهاد والجلاد، أو على متون الصَّافنات الجياد، وإنَّما الفروسيَّةُ متسعة الأرجاء، لا تحدّها حدود، أو تحجزها فواصل، أوتقيِّدها قيود.

* فالتَّبحّر في الإيثار والورع[4] نوعٌ مِنْ أنواعِ فروسية النَّفس على العطاء،

---

(١) «السُّرى»: أي: ما سيرك في هذا الليل المظلم.

(٢) «تخصَّر به»: أي: اتكىء عليه في مشيك.

(٣) عن مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٧٢و٧٣) وحياة الصحابة (٣/ ٦١٠) مع الجمع والتَّصرف اليسير. انظر: مجمع الزوائد (٢/ ١٦٧) والاستبصار (ص٢٥٦) والاستيعاب (٣/ ٢٤٠).

(٤) مما يُستحلى في هذه السُّطور، ويُستجلى بين ثنايا هذه الكلمات، كلمةٌ حلوةٌ، جامعةٌ للفضل، ذكرها فُضيل بنُ عياض - رحمه الله - فقال: خمسٌ منْ علاماتِ السَّعادة: اليقينُ في القلب؛ والورعُ في الدِّين؛ والزُّهد في =

وعلى الجُود بما تملكه النُّفوس، ولعلَّ من أعلى أنواعِ الفروسية أنْ يجودَ المرءُ بمالِه، وأنْ يتورَّعَ عمَّا أعطاه في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* وقَتادة بنُ النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ أحدُ الأنصار الذين امتدحهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]

وقد ضَرَبَ قَتادة أروعَ الأمثلة في الجودِ والورعِ، فيما ذكر ابنه عمر بن قَتادة فقال:

لما احمرَ الرُّطب، انطلق قَتادة، فَصَنعَ لحائطهِ مفتاحاً ـ وكان له قبل ذلك مفتاح ـ فجاءَ به إلى أخيه المهاجريّ، فقال له: إنَّ الرطبَ قد احمرَّ، وهذا المفتاح لك، ومعي مفتاح.

قال: وكان قَتادة إذا خرج اتبعَتْه بُنيّة له، فإذا فَتح الباب لاذتْ منه حتى تدخل، فتجمع، فإذا رآها تَجمَعُ نهاها نهياً كأنّه ليست منه، ثمَّ انطلقَ إلى المهاجري، فقال له: إنَّ بُنيّة لي ربّما دَخَلَتْ، فجمعتْ، أتحلل لنا ذلك؟

قال المهاجري: نعم[1].

= الدُّنيا؛ والحياءُ في العينين؛ والخشية في البدن.

وخمسٌ من علامات الشّقاوة: القسوةُ في القلب؛ والجمودُ في العينين؛ وقلّةُ الحياء؛ والرغبةُ في الدُّنيا؛ وطولُ الأمل.

ونلاحظ أنَّ قتادةَ بنَ النّعمان الأنصاريَّ ـ رضي الله عنه ـ قد أبدعَ في كمال الورع في الدِّين، وجَمَعَ من كلِّ فضيلة بطرف؛ ويؤيد ما قلناه ما كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: كنّا ندعُ تسعة أعشار من الحلال مخافة أن نقع في الشُّبهة أو في الحرام.

ومن أقوال أبي موسى الأشعريّ ـ رضوان الله عليه ـ في هذا المجال أيضاً أنّه قال: لكلِّ شيء حدٌّ، وحدودُ الإسلام: الورع، والتّواضع، والشّكر، والصبر. فالورع ملاك الأمور؛ والتّواضع براءة من الكبر، والصّبر النّجاة من النّار، والشّكر الفوز بالجنة.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٧٣).

وهكذا نلاحظ أن الشجاعة والكرم والورع فضائل تتفق في المعاني والغايات، وأنَّ الشّجاعة والكرم فيهما صلاح المسلمين؛ وبالشَّجاعة والكرم في سبيل الله عزَّ وجلَّ =

قَتَادَةُ وآياتٌ مِنَ القُرآنِ الكريم:

* لفارسنا قَتادة بن النُّعمان ـ رضوان الله عليه ـ في قصَّة نزول قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [النساء: ١٠٧] في بني أُبيرق منَ الأنصار فضيلةٌ كبيرةٌ، وحديثه بذلك مشهور مُتعالم في السِّيَر، وفي كُتُب تفسير القرآن[١].

* وملخَّصُ ذلك كما روى قَتادة قال: كان أهل بيت مِنّا يُقال لهم: بنو أُبيرق؛ بَشير، وبُشير، ومبشّر، وكان بُشَير رجلاً مُنافقاً، وكان يقول الشِّعر يهجو به أصحابَ رسولِ الله ﷺ، ويَنْحله[٢] بعض العرب، وكان المسلمون يقولون: واللهِ ما يقول هذا الشِّعر إلا الخبيثُ، فمنه قوله:

أَو كلَّما قالَ الرِّجال قصيدة
نُحِلَتْ وقالوا ابن الأُبَيرق قالها

وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الإسلام، فحدث أنْ نقبوا مَشْربة في الليلِ لرفاعة بن زيد ـ عمّ قَتادة ـ وسرقوا أدرعاً له وطعاماً، فلمَّا أصبح الصَّباح جاء عمّي وقال: لقد عُديَ علينا في ليلتنا هذه، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا. فسألْنا، فقيل لنا: قد رأينا بني الأُبيرق استوقدوا في هذهِ الليلة، ولا نرى فيما نراه إلا على بعضِ طعامكم، وكان بنو الأُبيرق قد قالوا ونحنُ نسأل في الدَّار: واللهِ ما نرى صاحبكم إلا لَبيد بن سهل[٣] ـ رجلٌ منّا له صَلاحٌ وإسلام ـ فأشار عمّي أنْ أذكرَ ذلك لرسولِ الله ﷺ فأتيته، وذكرتُ له ذلك، وما كان منْ بني أبيرق.

* فلمَّا سمعَ ذلك بنو أُبيرق، أتوا رجلاً منهم يُقال له: أسير بن عروة،

= فضل السَّابقين فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠].

(١) انظر: الاستيعاب (٣/ ٢٤١).
(٢) «نَحَله»: نسبه إليه، وقد نحل الشاعر قصيدة: إذا نُسبت إليه، وهي من قِبل غيره.
(٣) انظر: ترجمة لبيد بن سهل في الإصابة (٣/ ٣٠٩).

فكلَّموه في ذلك، واجتمعَ إليه ناس منْ أهلِ الدَّار، فأتوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إنَّ قتادةَ بن النُّعمان وعمَّه رفَاعة، قد عمدوا إلى أهلِ بيتٍ منَّا أهل إسلامٍ وصلاحٍ يرمونهم بالسَّرقة، عن غير بيِّنة ولا ثَبت. فقالَ رسولُ الله ﷺ لي: «عمدتَ إلى أهلِ بيت ذُكر منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسَّرقة على غيرِ ثبت ولا بينة!».

* قال: فرجعتُ ولوددتُ أنِّي خرجتُ من بعضِ مالي، ولم أكلِّمْ رسولَ الله ﷺ في ذلكَ، فأتاني عمِّي رفاعة فقصصتُ عليه ما حَدَثَ مع رسولِ الله ﷺ فقال: الله المُستعان، فلم نلبثْ أنْ نزلَ القرآنُ الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٤].

فلمَّا نزلَ القرآنُ الكريمُ أُتي رسول الله ﷺ بالسِّلاح فردَّه إلى رفاعة بن زيد.

* قال قتادة: فلمَّا أتيتُ عمِّي بالسِّلاح ـ وكان شيخاً قد كبر في الجاهلية ـ وكنتُ أرى إسلامه مَدْخُولاً، فلمَّا أتيته بالسِّلاح قال: يا بن أخي! هو في سبيلِ الله؛ فعرفتُ أنَّ إسلامه كان صحيحاً.

* فلمَّا نزلَ القُرآن لحقَ بُشير بالمشركين، فنزلَ على سلافة بنتِ سعد بن شهيد، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٥ ـ ١١٦] فلمَّا نزل بُشير على سلافةَ، رماها حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ بأبياتٍ مِنَ الشِّعر منها:

ظننتُم بأنْ يخفى الذي قد صنعتمُو
وفينا نبيٌّ عنده الوحي واضعه

* فلمَّا بلغها ذلك، أخذتْ رحْلَه فوضعته على رأسها، ثمَّ خرجت به فرمَتْه في الأبطحِ، ثمَّ قالت: أهديتَ إليَّ شِعْرحسَّان! ما كنت تأتيني بخيرٍ،

فهربَ إلى خيبر، وارتد، ثمَّ إنَّه نقَبَ بَيتاً ذات ليلةٍ ليسرق فسقط الحائطُ عليه، فمات مرتداً[١].

* وبهذا أيَّد الله عزَّ وجلَّ قَتادة بن النُّعمان - رضوان الله عليه - وأنزل في حقِّهِ قرآناً يُتلى إلى أنْ يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

سَلامٌ عَلى الفَارِسِ الشجاع:

* قَتادة واحدٌ منْ فرسان المدرسة المحمديّة البررة؛ الذي ظلَّ يحظى بنفيسِ المكانة في العهد البكريّ والعُمريّ، ويرتشفُ منْ رحيقِ الخلافة الرَّاشدة الاحترامَ والهيبةَ. وقد امتدتْ حياتُه إلى نهايةِ خلافةِ عمر، وحتى بلغ خَمْساً وستينَ سنة، كلها خير، وصلاح، وتقى.

* قال الذَّهبيُّ - رحمه الله -: توفي قتادةُ في سَنَةِ ثلاث وعشرين من الهجرة بالمدينةِ المنوَّرة[٢]؛ وصلَّى عليه عمر - رضي الله عنه - ونزلَ في قبره أخوه أبو سعيد الخدري، ومحمَّد بن مسلمة، والحارث بن خَزمة[٣].

* وفي أرضِ البقيع بالمدينة يثوي جثمان قَتادة بن النُّعمان مع ثلّة من الأوَّلين منْ فرسانِ مدرسة النُّبوة، الذي خَلدوا في دنيا التَّاريخ. فرضي الله عنْ هؤلاءِ الفرسان المجاهدين؛ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وسلامٌ على قَتادة، سلامٌ على الفارسِ النَّجيب في الخالدين، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يحشرنا في معية هؤلاء الأطهار الأخيار، وأنْ يجمعنا معهم تحتَ لواءِ النَّبي

---

(١) عن تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٥-٣٨٦) وأسباب النزول عن الصَّحابة والمفسِّرين لعبد الفتاح القاضي (ص٨٠ و٨١) مع الجمع والتَّصرف.
وانظر: تفسير الماوردي (١/ ٤٢٢و٤٢٣) وتفسير الطبري والرَّازي وابن كثير للآيات (١٠٥ - ١١٦) من سورة النِّساء. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢١/ ٦٨ - ٧٠) وأسباب النّزول للواحدي (ص١٥٢ و١٥٣) والاستبصار (ص٢٥٦و٢٥٧) وللحديث أصل عند الترمذي والحاكم.

(٢) انظر: سير أعلام النّبلاء (٢/ ٣٣٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥٣).

محمّد رسول الله ﷺ، في يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم.

هذا هو قتادة، الأمير، الفارس، المجاهد، البدري، من نجباء الصحابة، وأعلامه، فرضي الله عنه وأرضاه.

* * *

(١٤)

أبو أيُّوب الأنصاري

- رضي الله عنه -

* نزلَ عليهِ رسولُ الله ﷺ لمَّا هاجرَ إلى المدينةِ.

نعْـمَتِ الـدَّارُ:

* لئن كانتْ دارُ الأرقم بنِ أبي الأرقم المخزومي هي نواة الدَّعوة الإسلامية في مكةَ المكرمةِ، لقد أصبحت دارُ فارسنا في هذه الصَّفحات هي الدَّار التي انطلقتْ منها نفحات الإيمان في المدينة المنوَّرة، فنعمتِ الدَّارُ، ونِعْم ساكنُها.

* إنَّ مَن يقرأ السِّيرة النَّبويّة، ويُعرِّج على أحداث الهجرة، لا بدّ وأنْ يقرأ سيرة صاحب الدّار الذي خصَّه رسولُ الله ﷺ بالنُّزول عنده، وقد تشرَّفتْ دارهُ بمقدمِ النَّبيِّ ﷺ.

* وقبل أنْ نكونَ ضُيوفاً على فارسِ الكرم والميدان، وصاحب رسولِ الله ﷺ، لا بُدَّ وأنْ نعرفَ كيفَ استقبلَ الأنصارُ سيِّدنا رسول الله ﷺ، ونعرف كيف أشرقتِ المدينةُ المنوّرةُ بحلولهِ ﷺ في ربوعها الميمونة[1].

* أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ من حديثِ البَراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءَ النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة في الهجرة، فما رأيتُ أشدَّ فَرحاً منهم بشيءٍ منَ النَّبيِّ ﷺ، حتى سمعتُ النِّساء والصِّبيان والإماءَ يقولون: هذا رسولُ الله قد جاء، قد جاء.

* وبعد أنْ مكثَ رسولُ الله ﷺ في قباءَ بضعة أيام، ركب وسار نحو المدينةِ، فوصل إلى منازل بني سالم بن عوف، حيث أدركته الجُمعة، فنزلَ وصلاَّها في مسجدهم، وخطبَ أوّل خطبة جمعةٍ في الإسلام بعد النُّبوَّة.

---

(١) ترسم لنا الصورة التي استُقْبِل بها ﷺ في المدينة المنورة؛ عن مدى المحبة الغامرة والشديدة؛ التي فاضت بها قلوبُ الأنصار، فقد كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة، تحت حرِّ الشمس، ينتظرون وصولَهُ ﷺ إليهم. فلما طَلَعَ الرسولُ ﷺ، فرحوا كثيراً، واعتملتْ صدورُهم بشتّى العواطف الجيَّاشة بالمحبة والودِّ والاحترام، وانطلقتْ ألسنتهم تهتف بالأهازيج؛ دليلَ البهجة والسرور لمقدم رسول الله ﷺ، حتى إنه جَعَل ينظرُ إلى ولائد بني النجَّار من حوله، وهن ينشدن ويتغنين بمقدمه ﷺ، قائلاً: «أتحبينني؟! والله! إنَّ قلبي ليحبّكن».
وهذا يدلُّ على أن المحبة أساسُ الاتباع؛ المحبة النابعة من القلب بصدق وإخلاص.

* ثمَّ ركبَ من بني سالم بن عوف، وسار إلى المدينةِ، بعد أنْ تضرَّعَ إليه بنو سالم، وهم آخذون بزمام ناقته أنْ يبقى بينهم، حيث العَدَدُ، والعدَّة، والمنعة، والثّروة، فدعا لهم رسولُ الله ﷺ، ثمَّ قال لهم: «خلُّوا سبيلها فإنَّها مأمورة» فخلّوا سبيلها، فانطلقت، ورسولُ الله ﷺ مُرخٍ لها زمامها لا يثنيها، ولا يكفّها، وكلما مرَّ مرَّتْ بدارٍ منْ دورِ الأنصار، نهضَ أشرافُها، ورؤساؤها، وأعلياؤها لاستقبالِ رسولِ الله ﷺ، وسؤاله عن ضراعةِ الحُبِّ الهامس، والفداء الحقيقي أنْ ينزل فيهم، فيدعو لهم بخير، ويقول لهم مثل ما قال لإخوانهم الذين سبقوهم بهذا الرّجاء، وبتلك الرغبةِ الملحّة الصّادقة، حتى بلغتِ النّاقة دار بني مالك بن النجّار، حيث المكان المطهّر الذي اختاره الله عزَّ وجلَّ، ليكون مسجداً تشعُّ منه أنوارُ الهدايةِ على الدُّنيا بأسرها عِلْماً وعملاً، وحيثُ المكان الأطهر الذي اختاره الله سبحانه مستقراً ومقاماً لرسولهِ في حياته، ومثوىً لجسده الشّريف بعد انتقاله إلى الرَّفيقِ الأعلى، وكان هذا المكان مربداً مملوكاً لغلامين يتيمينِ منْ بني النجّار[١].

* قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: وقد كان في المدينةِ دورٌ كثيرة تبلغ تسعاً، كلّ دار محلة مستقلة بمساكنها، ونخيلها، وزروعها، وأهلها، كلّ قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلّتِهم، وهي كالقُرى المتلاصقة، فاختار اللهُ لرسولِهِ ﷺ دارَ مالك بن النجّار[٢].

* ولما بركتْ ناقته ﷺ في مكان مسجده الشّريف، وألقت جرانها[٣]، ورَزَمت[٤]، ولم تنهض منه بعد عودها إليه، نزل عنها رسولُ الله ﷺ، وعَلِمَ أنَّ هذا منزله الذي أنزله الله، واختاره لمستقرِّه ومثواه.

* وهنالك سألَ رسولُ الله ﷺ الأنصار قائلاً: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» وهنا برزَ فارس حلقتنا ليفوز بهذا الشّرف العظيم أَبدَ الدَّهر، فكان أبو أيوب

---

(١) البداية والنّهاية (٣/ ١٩٩).
(٢) البداية والنّهاية (٣/ ٢٠٣).
(٣) «الجران»: ما يصيب الأرض منْ باطنِ عنقها.
(٤) «زمزمت»: أقامت من الكلال.

الأنصاريّ، واسمه خالد بن كُليب الخزرجيّ النجّاري[1] فقال: أنا يا رسول الله! هذه داري، وهذا بابي، ونَقَل رَحْلَ رسولِ الله ﷺ إلى منزله، ثمَّ قال له رسولُ الله ﷺ: «فانطلق فهيِّئ لنا مقيلاً» فذهبَ فهيَّأ المقيل، ثمَّ جاء فقال: قد هيأتُ مقيلاً، قوما[2] على بركةِ الله فقِيْلا.

* إذاً، فعبير الشَّذا، وشذا العبير نشمُّه منْ زهْرِ رياض سيرةِ هذا الصَّحابي الفارس أبي أيوب الأنصاريّ الخزرجيّ النجّاريّ البدريّ، السَّيد الكبير، الذي خصَّه رسولُ الله ﷺ بالنّزولِ عليه في بني النَّجار، فكان مضيف سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، وصاحبه، وفارسه، وناهيك بها من صفاتٍ فوّاحةٍ بأريجِ العِطْر، إذ كان منْ أكبر الشَّرفِ له أنْ يشرِّفَ رسولُ الله ﷺ بيته بالنُّزول عليه، ولله درُّ الإمام السُّبكي إذ أحسن، فأجادَ، فقال:

نَزَلْتَ على قومٍ بأَيْمَنِ طَائرٍ ... لأَنَّكَ ميمونُ السَّنَا والنَّقيبةِ
فيا لبني النَّجار من شرفٍ به ... يجرُّون أذيالَ المعالي الشَّريفةِ

* إنَّ نزولَ رسولِ الله ﷺ في دار أبي أيوب بأمْرِ الله عزَّ وجلَّ منقبة عظيمة لأبي أيّوب الأنصاريّ النّجاريّ، تُضاف إلى مناقبِ الأنصار عامّة، وإلى مفاخر بني النَّجار خاصةً، وبمثلِ هذا فليتفاخر النّاسُ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وعن ترحيبِ الأنصار برسولِ الله ﷺ وإكرام الله عزَّ وجلَّ إياهم برسوله، يقولُ كَعْبُ بنُ مالك الأنصاريّ - رضي الله عنه - من قصيدة:

---

(١) المسندُ (٥/ ١١٣) وطبقاتُ ابن سعد (٣/ ٤٨٤ و٤٨٥) والمعارفُ (ص٢٧٤) والمستدركُ (٣/ ٥١٨ - ٥٢٣) والاستبصارُ (ص٦٩ - ٧١) والاستيعابُ (١/ ٤٠٢ - ٤٠٤) ومختصرُ تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٦ - ٣٤٣) وتهذيبُ الأسماء واللغات (٢/ ١٧٧) والبدايةُ والنهايةُ (٨/ ٥٨و٥٩) وأنسابُ الأشراف (١/ ٢٤٢ و٢٦٦ و٢٦٧ و٢٧١ و٢٨٣ و٣٠٤ و٤٤٣ و٥٢٥ و٥٣٥) والعبر (١/ ٥٦) وسيرُ أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٢ - ٤١٣) ومجمعُ الزوائد (٩/ ٣٢٣) وتهذيبُ التهذيب (٣/ ٩٠ و٩١) والإصابةُ (١/ ٤٠٤ و٤٠٥) وكنز العمال (١٣/ ٦١٤) وغيرها كثير من كتب الحديث والتاريخ والطبقات والسيرة.

(٢) «قوما»: الخطاب هنا موجه إلى رسول الله ﷺ وأبي بكر الصدّيق - رضي الله عنه -.

اللهُ أكــرمَنَــا بنصْــرِ نبيِّنَــا وبنَــا أقــامَ دعــائــم الإســلام

وبنــا أعــزَّ نبيَّــه ووليَّــه وأعــزَّنــا بــالنَّصــر والإقــدامِ

فــي كــلِّ معتــركٍ تطــرُ سيــوفنــا تلــكَ الجمــاجــم عــن فــراخِ الهــامِ

نحــنُ الخيــار مــنَ البــريــة كلِّهــا ونظــامهــا وزمــام كــلِّ زمــامِ

الخــائضــو غمــرات كــلِّ منيّــة والضَّــامنــون حــوادث الأيــامِ

يتــابنــا جبــريــلُ فــي آبــائنــا بفــرائــضِ الإســلام والأحكــامِ

* وقال أبو قيس صرمة بن أبي أنس يذكرُ النّبيّ ﷺ من قصيدة:

ثــوى فــي قــريــش بضْــعَ عشــرة حجَّــةً
يــذكّــر لــو يلقــى صــديقــاً مــواتيــا

ويعــرضُ فــي أهــلِ المــواســمِ نفســه
فلــم يــرَ مَــنْ يــؤوي ولــم يَــرَ داعيــا

فلمَّــا أتــانــا أظهــر الله دِيْنَــه
فــأصبــح مســروراً بطيبــةَ راضيــا[1]

لَطَائِفُ هَامِسَةٌ وأَدَبٌ فَرِيدٌ:

* نَشأَ الصَّحابةُ الكرامُ في كَنَفِ المدرسةِ المحمديةِ التي تخرَّجوا فيها، فكانوا سادةَ الدُّنيا في دُنيا المكارم، وحازوا مكارم الدنيا، وحميد الصفات، ورائع الأخلاق، فكانت لهم لطائف منَ الأدبِ التَّربوي مع رسولِ الله ﷺ رفعتهم مكاناً علياً في سَماء الرِّجال الفُضَلاء الأماثل.

* ومن بين هؤلاء الصَّحابة الأَعلام أبو أيوب الأنصاريّ؛ الذي غَبَطَه الأنصار على نزولِ رسول الله ﷺ في بيتهِ؛ فمن لطائف همس الوداد، وصُور الحبّ الصَّافي لرسولِ الله ﷺ، ما رُوي عن أبي أيّوب ـ رضوان الله عليه ـ إذ يصوِّر ما وقعَ له ولأهل بيته في غمرة الحبِّ، ولهفة الرَّغبة المباركة في الفوزِ برسولِ الله ﷺ ونزوله عنده في داره ضَيْفاً مُكرَّماً فقال:

(1) أنساب الأشراف (١/ ٢٦٧ و٢٦٨) وانظر البداية والنهاية (٣/ ٢٠٤).

لما نزلَ عليَّ رسولُ الله في بيتي نزل في السُّفْل، وأنا وأمّ أيّوب[1] في العلو، فقلتُ له: بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله! إنِّي أكره وأعظم أنْ أكون فوقك وتكون تحتي، فاظْهرْ أنتَ، فكُنْ في العلوِ، وننزلُ نحن فنكون في السُّفْل.

فقال ﷺ: «يا أبا أيوب! إنَّ أرفق بنا، وبمَنْ يغشانا أنْ أكون في أسْفلِ البيت»[2].

فكان رسولُ الله ﷺ في سُفْل البيت، وكُنَّا فوقه في المسكن، فلمّا خلوتُ إلى أمّ أيوبَ قلتُ لها: رسول الله ﷺ أحقّ بالعلوّ منّا، تنزلُ عليه الملائكة، وينزلُ عليه الوحي، فما بتُّ تلك الليلة لا أنا ولا أمّ أيّوب.

* وفي بعض الرّوايات عند البيهقي ـ رحمه الله ـ في «الدلائل» من طريق أفلحَ مولى أبي أيّوب، أنَّ أبا أيوب تنبّه ليلاً، فقال: نمشي فوق رسول الله ﷺ، فتحوّلَ فباتوا في جانب.

قال أبو أيوب: فلمّا أصبحتُ قلتُ: يا رسول الله ﷺ! ما بتُّ لا أنا ولا أمّ أيوبَ.

قال رسول الله ﷺ: «لِمَ يا أبا أيوب؟!».

قال: كنتَ أحقَّ بالعلوِّ منّا، تنزلُ عليك الملائكة، وينزلُ عليك الوحي، لا، ولا الذي بعثك بالحقِّ! لا أعلو سقيفة أنتَ تحتها أبداً، فلم يزلْ

---

(١) اقرأ سيرة الصحابية أم أيوب الأنصارية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٣٧ ـ ٤٨) فسيرتها رمز من رموز الكرم والصفاء والنقاء ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) قوله ﷺ: «إن أرفق بنا...» يعني بذلك من جهة الصعود إلى العلو، وبما يحلق في تكرار ذلك من المشقة، ومع ذلك تجشّمها النبيُّ ﷺ لمّا رأى صِدْقَ أبي أيوب في احترامه، وعزمه على ألاّ يسكن العلوَّ. انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٣٢٩).
وأقول: إنّ الجوارَ الذي كان بين أبي أيوب ورسول الله ﷺ يُعتبر نموذجاً يُحتذى لكل جارين في هذه الحياة.

أبو أيوب يتضرّع إلى رسولِ الله ﷺ حتى تحوّلَ إلى العلوِ، ونزل أبو أيوب وأهله في السُّفل.

* ويتابع أبو أيوب في تصوير أدب الحبِّ الهامس، وهمس الأدب المنبعث من فيض نور النُّبوَّة، وتقديسها، وتبيان التَّربية الكريمة؛ التي تعلَّمها منَ المدرسة المحمديّة فيقول: فلقد انكسر لنا حُبٌّ[1] لنا فيه ماء، فقمتُ أنا وأمّ أيوب لقطيفةٍ لنا[2]، ما لنا لحافٌ غيرها، ننشّفُ بها الماء، تخوُّفاً أنْ يقطَر على رسولِ الله ﷺ منه شيءٌ فيؤذيه[3].

---

(١) «حُبّ»: وعاء.

(٢) «قطيفة»: دِثار مخْمَل.

(٣) عن الاستيعاب (١/٤٠٣) بتصرف.

ويحلو التّعليق هنا - عزيزي القارىء - كيما تقرّ الأعين بما نقرأ من سير هؤلاء الفُرسان الأعلام فنقول: إنَّ تلكم اللطائف الخفيفة، الهامسة، السّاحرة، الآسرة، الكريمة، الموفَّقة، تُصوّر مدى التّوقير، ومدى الحبِّ والاحترام، ومدى القداسة الموقّقة التي تكنّها قلوب الصّحابة الكرام لرسول الله ﷺ، إذ إنَّ حبّه ﷺ جوهرُ الإيمانِ برسالته الربانية، وتوقيره هو عنوان اليقين ونبراس الاستسلام لأوامر الله عز وجل.

إنَّ وشائجَ الإيمان إذا قامت على الحبِّ، كانت صورة للنفس الإنسانية في أصفى صفائها، وأنقى نقائها، تعجز كبرى الأحداث عن فَصْمِ عُراها، أو حَلِّ وشائجها، وهكذا كان إيمان الأنصار حبّاً مؤمناً، فاستحقوا بذلك - من دونِ سائرِ النّاس - الاستئثار برسول الله ﷺ حياته ومثواه.

والذي يبدو من سيرةِ أبي أيوب - رضي الله عنه - أنْ أخذَ رَحْل النبي الكريم ﷺ إلى منزله، وهو جذلانَ يقطر السّرور من أركانِ نفسه، بما منَّ الله عليه بهذا الإكرام، وبما امتنَّ عليه منَ نَفَحات الإنعام بنزول رسول الله ﷺ عنده، فَسَهَا أبو أيوب وهو في تلكم الغمرة اللطيفة الآسرة في الفرحةِ العامرة العارمةِ أنْ ينظر في كونهِ وأهله في العلو منَ البيتِ، ورسول الله ﷺ في السّفل منَ الدّار.

ولكنَّ رذاذ الإيمان أصابَ نفسه الصّافية، فتنبّهتْ لأوّل لحظةٍ، شعر فيها بالاطمئنان، إذا تحققت لهفته في الفوزِ بنزولِ رسول الله ﷺ عَليهِ في داره، إلى ما كان منه في سهوة تجافي كمال التوقير، وإذ ذاك أسرع وأبدى لرسول الله ﷺ كراهيته لهذا الوضع، وجَعَلَ يتضرَّعُ في أدب الحبِّ الهامسِ كيما يُغيِّرَ رسول الله ﷺ هذا=

* لا زلنا نغترفُ منْ عَذْبِ فيضِ حبِّ أبي أيوب لرسولِ الله ﷺ، ولا زلنا نستروحُ تلك النَّسمات الهامسةِ بعبير التَّفاني، فقد حدثتنا المصادرُ الوثيقة أنَّ أبا أيوب كان يتحيَّن آثار رسولِ الله ﷺ التماساً للبركة[1].

* ذكرَ الحاكمُ في «المستدركِ» وابن حجر في «الإصابة» وغيرهما أنَّ أبا أيوب قال: كنّا نصنعُ لرسولِ الله ﷺ العشَاء، ثم نبعثُ به إليه، فإذا ردَّ علينا فَضْلَه، تيممتُ أنا وأمّ أيوب مَوْضعَ يده نبتغي البركةَ بذلك، حتى بَعثْنَا إليهِ بعشائه، وقد جَعَلْنَا فيه بَصَلاً أو ثوماً، فردَّه، ولم أرَ ليده فيه أثراً، فجئتُهُ فَزِعاً، فقلتُ: بأبي أنتَ وأمّي! رددت عشاءك، ولم أرَ فيه موضعَ يدك؟ فقال: «إنِّي وجدتُ فيه ريحَ هذه الشجرة، وأنا رجلٌ أُناجى، فأمَّا أنتم فكُلوه»[2].

* وأقام رسولُ الله ﷺ في دارِ[3] أبي أيوب قرابة سبعة أشهر، وهو يلقى الإكرام حتى تمَّ بناء مسجده الشَّريف في المكان الذي بركتْ فيه ناقته، فانتقلَ إلى الحجرات التي أُقيمت حولَ المسجد ولأزواجه؛ وغدا أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ أقرب النَّاس جواراً لرسولِ الله ﷺ، فغُبِط مرةً أُخرى من الأنصار بهذه الخصوصية الكريمة.

= الوضع، وعندها أجابه رسول الله ﷺ فتحوَّلَ إلى العلو، ونزل أبو أيوب وأهله إلى السّفل، فاغتبطَ بذلك أبو أيوب أيما اغتباط، واستقرت الطُّمأنينة بين حنايا أضالعه، وحمد الله عزَّ وجلَّ أن استجابَ رسول الله ﷺ لرغبته تلك.

(١) إنَّ التأملَ في تبرُّك أبي أيوب الأنصاري وزوجه؛ بآثار أصابع النبي ﷺ في قصعة الطعام، حين كان ﷺ يردُّ عليهما فَضْلَ طعامه... إن كل ذلك يدلُّ على أنَّ التبرُّك بآثاره ﷺ أمرٌ مشروع لاغبارَ عليه، وإن عاند المعاندون.

(٢) المستدرك (٣/ ٥٢١) والإصابة (١/ ٤٠٥) وسيرة ابن هشام (١/ ٤٧٩). وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٨) وللحديث أصل عند مسلم برقم (٢٠٥٣).

(٣) إنَّ دار أبي أيوب ـ رضوان الله عليه ـ التي حظيت بهذا الشَّرف الرفيع، قد صارتْ فيما بعد إلى مولاه أفلح بعد وفاته، فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار، وأصلح ما وهنَ مِنْ بنيانها، ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة المنورة. (البداية والنهاية ٣/ ٢٠٣).

* وظلَّ أبو أيوب ـ رضوان الله عليه ـ منْ كُرَماء الأنصار، والمخلصين في أعمالهم، والمتفانين في محبته ﷺ، حيث كان يدخر لرسولِ الله ﷺ كلّ يوم طعاماً، فإذا أبطأ ولم يأتِ إليه في حينه، أطعمه لأهلِهِ.

* وقد أضافَ أبو أيوب مرّة رسولَ الله ﷺ وأبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وكان الوقتُ ظُهراً، والحرّ شديداً، فوضع لهم التّمر[1]، والرُّطب والبُسْر[2] ثمَّ ذبحَ لهم، وشوى، وطبخ، وفي اليوم التّالي أنعمَ رسولُ الله ﷺ على أبي أيوبَ بجارية، وأوصاه بها، فأعتقها، وكان موفَّقاً في ذلك[3].

رَدٌّ جَمِيلٌ:

* في سيرةِ أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ مواقف عطرة لا تُنسى، وهل يُنسى الجميل عند أهلِ الفَضْل؟!.

* لقد دارتِ الأيّامُ دورتها، وجاء العصر الرّاشدي، فقدم أبو أيوب البصرةَ بالعراقِ، وكان عليها يومئذ عبد الله بن عبّاس[4] ـ رضي الله عنهما ـ والياً من قِبَل عليّ بن أبي طالب ـ عليه سحائب الرضوان وغمائم المغفرة ـ

---

(١) إنَّ تناولَ التّمرِ والبلح يفيد الإنسان فائدة عظيمة، فقد ثبتَ حديثاً بالتّحليل العلميّ أنَّ البلح يحوي مادة تخفضُ ضَغْطَ الدم عندَ الحوامل، ويؤثر تأثيراً كبيراً في مساعدةِ الحوامل على سهولةِ الولادة، والتّمر غنيٌّ بالمواد الغذائية، وهو يمدُّ الجسم بالحرارةِ وبالفيتامين المساعد على النّمو، والمقوي للأعصاب، والمضادّ لآفات الكبد واليرقان، ويعطي غذاء صالحاً لخلايا المخ، ويعطي الحديد اللازم للدم، والفوسفور المهم للتفكير إلى جانب ما حواه من السُّكر.
(فضل علماء الإسلام على الحضارة الأوربية ص١٩ و٢٠).
أضفْ إلى ذلك: أن التمر من أهم العلاجات ضد التسمُّم؛ لذا فإنَّ تناول التمر صباحاً قبل الفطور، يتمّ امتصاص سكرها بسرعة، ويختزنُ قسمٌ منه في الكبد؛ مما يُساعد في تخريب السموم، وتعديلها. انظر: العقاقير النبوية والعلم الحديث؛ لمحمد النابلسي (ص٨٥).

(٢) «البُسر»: التمر الذي يكتمل نضجه.

(٣) انظر: نساء من عصر النبوة (٢/ ٤٤ ـ ٤٦) بتصرف واختصار.

(٤) اقرأ سيرته في كتابنا: «علماء الصحابة».

فنزلَ عليه أبي أيوب، وهنالك وَجَدَ ابن عباس أنَّ الفرصة سانحة كيما يردّ جميل أبي أيوب، عندما أضافَ رسول الله ﷺ، فسارعَ ابنُ عباس، وفرغ له بيته، وقال له: لأصنعنَّ بك كما صنعتَ برسولِ الله ﷺ.

* ثمَّ إنَّ ابنَ عباس قال لأبي أيوب: كم عليك منَ الدَّيْنِ! قال: عشرون ألفاً؛ فأعطاه ابن عباس أربعين ألفاً، وعشرين مملوكاً، وقال له: لك ما في البيت كلّه[1].

* فلله درّك يا بن عبّاس ! والله درّك يا أبا أيوب! فلقد ضرب كلّ واحد منكما أروعَ الأمثلة، بل أطيب مثلٍ في الإيثار، وردَّ الجميل، ومقابلة الإحسان بالإحسان.

أَبُـو أيّـوب وحِرْصُـهُ على الجِهَــاد:

* عَرَفْنَا في الصَّفحات السَّابقة جانباً من حياة الصَّحابي الكريم المضياف أبي أيوب الأنصاريّ - رضي الله عنه - وشهدنا جوانبَ الإشراقِ في أدبه وحبِّه لرسولِ الله ﷺ، وتفانيه في طاعته بإخلاصٍ ووفاء نادرَيْن؛ ولكنَّ أبا أيوب - رضي الله عنه - كان منْ فرسانِ المدرسة المحمَّدية؛ الذين لا يُشقُّ لهم غبار في ساحات الندى والإقدام، ولقد شهدت له المغازي النّبويّة بكمالِ الفروسية، وجلال الشَّجاعة، وثبات الموقف عندما يحمرُّ البأس، ويحمى الوطيسُ، فهلمّ - عزيزي القارىء - نعش تحت ظلال السُّيوف في سيرة فارسٍ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٤١) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٢٣) مع الجمع والتّصرف. وانظر المستدرك (٣/ ٥٢٢) والبداية والنّهاية (٣/ ٢٠٢ و٢٠٣).
هذا وما كان أبو أيوب الأنصاريّ - رضوان الله عليه - ليرجو على ما صَنَعَ من صنيعٍ كريم جزاءً مِنْ أحد، فما كان يرجو إلا رضوان الله ومرضاته، ولكنّه الأدبُ الكريمُ، أدب الإسلام؛ ردّ المعروف بمثله، أو بخيرٍ منه - إنْ أمكن - وأحقّ مَنْ رعى هذا الأدب رسول الله ﷺ، وكذلك آل بيته الأطهار الأخيار الكرام؛ فكانَ ابنُ عباس - رضي الله عنهما - مَعْلَماً من معالم الخير، وكيف لا؟ وقد قال الرسول الكريم ﷺ: «مَنْ أسدى إليكم معروفاً فكافئوه عليه، فإنْ لم تقدروا فادعوا له بخير» رواه أبو داود والنسائي.

الكرماء، وكريمِ الفُرسان، أبي أيوب الأنصاريّ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* ومع دخولنا رحاب الجهاد والجلاد، ووقوفنا بين قامات الأسنَّة وظلال السُّيوف في سيرة أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مارأيكم لو نعرف رأيه في الجهاد؟ .

* تقولُ أخبار فارسنا أبي أيّوب ـ رضوان الله عليه ـ: إنَّ أبا أيوب كان يرى أنَّ الجهادَ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ واجبٌ لازم في مختلف الأحوال، وفي جميعِ الأزمان، وكان يقرأ قولَ الله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التَّوبة: ٤١][1].

فقد كان أبو أيوب ـ رضي الله عنه يرى أنَّ الاشتغالَ بالمالِ والأهل، والتقاعس عن الجهاد، إنَّما هو منْ باب إلقاء النَّفْس إلى التَّهلكة، مستدلاً بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥][2] وكان شعاره دائماً قول الله عزَّ وجل: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وكان يقول: لا أجدُني إلا خفيفاً أو ثقيلاً[3].

* لقد كان أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ يعلم أنَّ الجنَّة تحتَ ظلالِ السُّيوف[4]، كما أخبر بذلك الرسولُ الكريم ﷺ؛ فأي فَضْل أكبر مِنْ هذا الفَضْل؟ يَصُولُ المجاهد ويجولُ في ساحة الجهاد، وهو يعلم أنَّه يتجوّل في عَرَصاتِ[5] الجنَّة تحت ظلِّ سيفه، وسيف عدوه، وما إن يسقط فوقَ الأرض شهيداً حتى يرى مقعده في الجنَّة، وتظلّه الملائكة، ويالها من حياة كريمة!.

* ومنْ هنا لزمَ أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ حياةَ الجهاد منذ أنْ أَذِنَ الله عزَّ وجلَّ بالقتال، ومحاربة المعتدين، ومنذ أنْ بدأتِ المغازي النَّبويّة، فلقد شهد

---

(١) «خفافاً وثقالاً»: على أيِّ حالٍ كنتم.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير للآية (١٩٥) من سورة البقرة.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٨٥).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٠٢٤).

(٥) «عَرَصات»: جمع عَرْصة، وهي البُقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

المشاهد كلَّها معَ رسولِ الله ﷺ، لم يفته شرفُ المشاركة في واحدٍ منها قطّ.

* شهد أبو أيوب غزاةَ بدر، وها هو يروي لنا كيفَ عبأَ رسولُ الله ﷺ جيشه للقتال مادياً ومعنوياً كيما يواجه أعداءه، وهو على أتمِّ استعداد، إذ نظَّم ﷺ جيشَه صفوفاً متراصَّة، وعبَّأهم أحسنَ تعبئة؛ قال أبو أيوب: صففنا يوم بدر، فندرتْ منَّا نادرة، وفي رواية: ـ بدرت منَّا بادرة ـ أما الصَّف، فنظر رسولُ الله ﷺ فقال: «معي معي»[1].

* هذا، وقد شهد أبو أيوب المشاهدَ بعد غزاة بَدْر، فشهد أُحُداً، والخندق، وغزوة بني المُصطلق، وكان له ولزوجه أمّ أيوب موقفٌ عَطِرٌ يقطر بالإيمان الصَّادق، ويشعُّ بأنوار اليقين؛ الذي استقرَّ في أعماقِ هذَيْن الزَّوجين، وخالط مشاعرهما الفيَّاضة بكل خير وتوجُّه سليم.

* ففي غزاةِ بني المصطلق كانت حادثة الإفك التي تولَّى كِبْرها زعيمُ المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول[2] وخاض فيها النَّاس، وتحدثوا، وقالوا وتقوّلُوا، هنالك قال أبو أيوب وزوجه: هذا إفكٌ مبين.

* رُوي أنَّه لما قال أهلُ الإفْك ما قالوا، قالت أمُّ أيوب لأبي أيوب: أَلَمْ تسمعْ ما يقول النَّاس؟ فقال: أكنتِ تَفْعلين ذلك يا أمَّ أيوب؟.

قالت: معاذ الله!

قال: فأهْلُ رسولِ الله ﷺ خيرٌ منك، هذا إفكٌ مبين، فنزلَ قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢][3].

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٢٠)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٧١) ثم قال: تفرد به أحمد، وهذا إسناد حسن.

(٢) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنّار» (٢/ ١٥٣ ـ ١٨٨) ستجد عظمة رسول الله ﷺ وصبره حيال مكر هؤلاء الفجار.

(٣) الاستيصار (ص٧٠) ونساء من عصر النبوة (٢/ ٤٦ و٤٧) مع الجمع والتصرف. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٩) والبداية والنهاية (٨/ ٥٨). «إفك»: هو أقبح الكذب وأفحشه.

* وفي غزاةِ خيبرَ خرجَ أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ وجاهد في الله حقَّ جهاده، وخربتْ خيبر، وأنزل الله نَصْرَه على المؤمنين رحمةً وفَضْلاً، وعادَ الرَّسولُ ﷺ، فائزاً مَنْصُوراً، ترفرفُ فوقَ رأسه رايات النَّصْر المبين، وتصاحبه العناية الرَّبانية، وسبى صفيّة بنت حُيي[1]؛ التي اتّخذها زوجاً له، وهنالك كان لأبي أيّوب أروع الأمثلة في تاريخ الوفاء والفروسيَّة، وكلها تومىء بعظمة هذا المقدام الكريم.

* ذكر ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ هذا فقال: لما أرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يخرجَ إلى خيبرَ قال القوم: الآن نعلم، أَسُرِّية صفية أم امرأة؟ فإنْ كانت امرأة، فإنَّه سيحجبها، وإلا فهي سُرِّية، فلمَّا خرج أَمَر بستر فَسَتَر دونها، فعرف النَّاس أنّها امراة، فلمّا أرادت أنْ تركبَ، أدنى فخذه منها لتركب عليها، فأتتْ ووضعت ركبتها على فخذه، ثمَّ حملها؛ فلمَّا كان الليلُ نَزَلَ فدخل الفِسْطاط، ودخلتْ معه، وجاء أبو أيوب فباتَ عند الفِسْطاط معه السَّيْف، واضعٌ رأسه على الفسْطاط. فلمَّا أصبحَ رسولُ الله ﷺ سَمِعَ الحركة فقال: «مَنْ هذا؟».

فقال: أبو أيوب.

فقال: «ما شأنك؟».

قال: يا رسول الله! جارية شابّة، حديثة عَهْد بعرس، وقد صَنعتَ بزوجها ما صنعتَ فلم آمنها، قلتُ: إنْ تحرّكتْ كنتُ قريباً منك[2].

فقال رسولُ الله ﷺ: «رحمكَ الله أبا أيوب! رحمك الله أبا أيوب!»[3].

---

(١) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص٣٣٩ ـ ٣٦٧) ففي سيرتها مواقف كريمة لا تُنسى.

(٢) وذلك أن صفية عندما بنى بها ﷺ، ما كان أحدٌ من الناس أكره إليها منه، إذ قتل أباها في قريظة، وزوجها وقومها في خيبر، وأخبرها أنَّ قومها غدروا حتى حاق بهم سوءُ أعمالهم. . . فما زال كذلك حتى أذهب الله الكُره من نفسها.

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٨). واقرأ بالتفصيل هذه الواقعة في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» ترجمة أم المؤمنين صفية ـ رضي الله عنها ـ.

* وظلَّ أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ يحضرُ المشاهد في حياةِ رسول الله ﷺ، وقد كان له في كلِّ غزوةٍ مآثر محمودة، وحظي بمكرمةٍ منْ رسولِ الله ﷺ ظلَّتْ تصاحبه إلى آخر نَفَس منْ حياته، فعن سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ أنَّ أبا أيوب أَخَذَ من لحية النَّبيِّ ﷺ شيئاً فقال: «لا يصيبكَ السُّوء يا أبا أيوب!»[1].

* وبعد أن انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعْلى، ظلَّ الفارس النَّشيط يمتطي صَهَوات الجيادِ كيما يجاهد في سبيل الله هنا وهناك، وغرَّب وشرَّق، فقد قدم دمشق في زمنِ معاوية ـ رضي الله عنه ـ وغزا أرض الرُّوم سنة خمسين، ومات هنالك. وبفضل هذا الجهاد قامت الدولة، وتغلغل الإيمان في نفوس النَّاس بعد أن ثابوا إلى رشدهم، وأيقنوا أن الإسلام هو طريق نجاتهم في الدُّنيا والآخرة.

جهَادُهُ في أرضِ الرُّوْمِ:

* سَطَّر أبو أيوب الأنصاريّ ـ رضوان الله عليه ـ صفحاتٍ مشرقةً منْ ألوانِ الفروسية في عديدٍ منْ بقاع الأرض، ولمَّا بلغ منَ الكبر عتياً، ظلَّ يصاحبُ سيفه وحصانه في مغازيهِ، وها هو يغزو في أرض الرُّوم، وها هو يصحِّحُ بعضَ المفاهيم لبعضِ أصحابه هنالك، حيث أرشدهم إلى المعرفةِ الحقيقة لفَهْم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

* حدَّثَ عن هذا أحد مَنْ شهد ذلك وهو: أسلم أبو عمران مولى لكندة، فقال: كنَّا بمدينةِ الرُّوم، فأخرجوا إلينا جَمْعاً عظيماً منَ الرُّوم، وخرج إليهم مثله أو أكثر، وعلى أهل مصرَ عقبة بن عامر[2] صاحب رسولِ الله ﷺ، فحمل رجلٌ منَ المسلمين على صفِّ الرُّوم حتى دخل فيهم، فصاحَ به النَّاس وقالوا: سبحانَ الله! يُلقي بيده إلى التَّهلكة.

فقام أبو أيوب الأنصاريّ صاحب رسول الله ﷺ فقال: أيّها النَّاس! إنكم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٨).

(٢) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٧٤٠).

يُؤوِّلون هذه الآية على هذا التأويل، وإنّما نزلت هذه الآية فينا معاشرَ الأنصار، إنّا لما أعزَّ الله الإسلامَ، وكثّر ناصريه، قال بعضنا لبعض سِرّاً من رسول الله ﷺ: إنَّ أمْوالَنا قد ضاعت، وإنَّ الله قد أعزَّ الإسلامَ، وكثّر ناصريه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاعَ منها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيّه ﷺ يردّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فكانت التهلكة الإقامة في أموالنا وإصلاحها، وتركنا الغزو.

قال: وما زال أبو أيّوب شاخصاً في سبيل اللهِ حتى دُفِنَ بأرضِ الرُّوم[١].

* وفي أرضِ الرُّوم يتحفنا أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ بهذه القصّة الكريمة فيقول: غزونا حتى انتهينا إلى المدينةِ، مدينة قسطنطينية، فإذا قاصٌّ يقول: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً منْ أوّلِ النّهار، عُرِضَ على معارفه إذا أمسى منْ أهل الآخرة، ومَنْ عَمِلَ عَمَلاً مِنْ آخرِ النّهار عُرِضَ على معارفه إذا أصبح منْ أهل الآخرة.

فقال له أبو أيّوب: انظر ما تقول.

قال: واللهِ! إنَّ ذلك لكذلك.

فقال أبو أيوب: اللهمّ لا تفضحني عند عُبادة بن الصّامت، ولا عند سعد بن عُبادة فيما عملت بعدهما.

قال القاصُّ: واللهِ! ما كَتَبَ الله ولايته لعبدٍ، إلا ستر عليه عورته، وأثنى عليه بأحسنْ عمله[٢].

هَمسَاتٌ حانيـة ونَسَمـاتٌ مباركـة قَبْـل الـوَدَاعِ:

* ترك أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ ميراثاً مباركاً من جليلِ الأعمال الصالحة وكريم المحامد الفاضلة، فمن فرائدِ أقواله ما أُثِر عنه هذه الحكمة: مَنْ أرادَ أن يكثر علْمه، وأنْ يعظم حلْمه، فليجالس غير عشيرته[٣].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٤١).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٣٤٠).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٤٠).

* ومِنْ هَمَساتِ النَّسماتِ العطرة في سيرةِ فارسنا أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه أحد رواة الحديث النَّبويِّ الشَّريف؛ رُوي له عن رسولِ الله ﷺ مئة وخمسون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على سبعة منها، وانفردَ البُخاريُّ بحديثٍ، ومسلم بخمسةِ أحاديث.

* حدَّث عنه منَ الصَّحابة: البراء بن عازب[(١)]، وجابر بن سمُرة، والمقدام بن معدي كرب، وأبو أمامة الباهليّ، وزيد بن خالد الجُهنيّ، وابن عبّاس، وعبد الله بن يزيد الخطمي ـ رضي الله عنهم ـ. وحدَّث عنه من التَّابعين: سعيد بن المسيّب، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعروة بن الزّبير، وأفلح مولاه، وأبو سلمة بن عبد الرَّحمن، وعطاء بن يزيد الليثيّ، وخلائق سواهم[(٢)].

* ومن مرويّاته قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ ماتَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخل الجنَّة»[(٣)].

* وينقل لنا دعاء الاستخارة عند الزَّواج ممَّا علَّمه ذلك رسولُ الله ﷺ، فذكر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال له: «اكتم الخِطبة، ثمّ توضَّأ، فأَحْسِنْ وضوءَك، ثم صَلِّ ما كتب الله لك، ثمّ احمد ربّك ومجّده، ثم قُلْ: اللهم تَقْدِر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنتَ علّام الغيوب، فإنْ رأيتَ لي في فلانة ـ تسمِّيها باسمها ـ خيراً في دِيْنِي ودنياي وآخرتي، فأمْضِ لي، أو قال: اقْدرها لي»[(٤)].

* ومن مرويَّاته ما وَرَدَ في الصَّحيحين بسندٍ عن عطاء بن يزيد، عن أبي أيّوب الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لمسلم

---

(١) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٤٦٤).
(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٧٧) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤) وانظر تخريج الحديث فيه.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٦) وانظر: المستدرك (٥/ ٤٢٣).

أنْ يهجرَ أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان، فيعرضُ هذا بوجههِ، وهذا بوجههِ، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام»[١].

* وتبدأ رحلةُ الوَدَاع الآن مع أبي أيوب، ففي الأيَّام الأخيرة من حياته غَزا أرض الرُّوم، فمرضَ، فلمّا حُضِرَ قال لأصحابه: إذا أنا متُّ فاحملوني، فإذا صافقتم العدو، فادفنوني تحت أقدامكم[٢].

* ذكر ثقات الكُتَّاب والمؤرخين أنَّ أبا أيوب ـ رضي الله عنه ـ لما حضره

---

(١) رواه البخاريّ في الاستئذان برقم (٦٢٣٧) باب: السَّلام للمعرفة وغير المعرفة.
ومسلم في البرّ والصِّلة والآداب، برقم (٢٥٦٠) باب: تحريم الهجر فوقَ ثلاثٍ بلا عذر شرعيّ، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣٦).
ومن بدائع الرَّقائق، ورقائق الحقائق، وجمال الكلام، ما يُساق في هذا المقام عن هذا الحديث، ما رُوي عن بعض الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنَّه قال: مَنْ عجز عن سبعة، فعليه بسبعة أخرى لينال فضلها:
أوّلها: من أراد فضل صلاة الليل وهو نائم؛ فلا يعصي بالنَّهار.
والثَّاني: مَنْ أراد فَضْل صيامِ التَّطوع وهو مفطر؛ فليلحظ لسانه.
والثَّالث: مَنْ أرادَ فَضْل العُلماء؛ فعليه بالتفكير.
والرَّابع: مَنْ أرادَ فَضْل المجاهدين والغزاة وهو قاعد في بيته؛ فليجاهد الشَّيطان.
والخامس: مَنْ أراد فَضْل الصَّدقة وهو عاجز، فليعلِّم النَّاس ما سَمِعَ مِنَ العلم.
والسَّادس: مَنْ أرادَ فَضْل الحجِّ وهو عاجزٌ، فليلزمِ الجمعة ـ أو الجماعة ـ.
والسَّابع: مَنْ أرادَ فَضْل العابدين؛ فليصلح بينَ النَّاس، ولا يوقع بينهم العداوة والبغضاء.
ومنْ أقوال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في هذا المجال: إنَّ من موجبات المغفرة: إدخال السُّرور على أخيك المسلم.
وانظرْ ـ إن شئت ـ كتاب: «حق المسلم على المسلم» ليوسف علي بديوي؛ تجدْ شرحاً صافياً لفضل السلام، وأنه من الحقوق الإسلامية المشروعة.

(٢) هذا الطَّلب منْ أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ ليس منَ الواجب، ولكنّه شيء أحبَّه، إمّا ليكون أقرب في نحرِ العدوّ، فينال ثوابَ مَنْ مات مرابطاً، أو ليكون أبعد عن الشّهرة بكثرة الزيارة، فقد قال ﷺ: «لا تتخذوا قبري يعدي معبداً» وقال: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» (السِّير الكبير ١/ ٣٣٥).

الموت، ودعا الصَّحابة والنَّاس فقال: إذا قُبضت، فلْتَركبِ الخيل، ثمَّ سيروا حتى تلقوا العدوَّ، فيردوكم حتى لا تجدوا متقدّماً، فاحفروا لي، وادفنوني، ثمَّ سوّوه، فلتطأ الخيل والرِّجال عليه حتى لا يُعرف مكانه، فإذا رجعتم فأخبروا النَّاس أنَّ رسولَ الله ﷺ أخبرني «أنَّه لا يدخل النَّار أحد يقول: لا إله إلا الله».

* قال أبو عمران: لم يزلْ أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دُفِنَ بالقسطنطينية[١].

* ولما توفي دُفِن جانب سور المدينة وبُني عليه، فلمَّا أصبحوا أشرف عليهم الرُّوم فقالوا: يا معشر العرب! قد كان لكم الليلة شَأْن، فقالوا: ماتَ رجلٌ منْ أكابر أصحاب نبيّنا ﷺ[٢]، وأقدمهم إسلاماً، فقالوا: ليزيد بن معاوية[٣] ومَنْ هو: ننبشه غداً.

قال يزيد: هذا صاحب نبيّنا ﷺ، أوصى بهذا لئلا يكون أحد من المجاهدين ومَنْ ماتَ في سبيل الله أقرب إليكم منه، ووالله لئن فعلتم ذلك لأنزلن كلّ حبيش بأرض العرب، ولأهدمنَّ كلَّ كنيسة، قالوا: إنَّما أردنا أنْ نعرفَ مكانه منكم، لنكرمه لصحبته ومكانه[٤].

* وبنى الرُّوم عليه قُبَّةً بيضاء، وأسرجوا عليه قنديلاً، ويقال: إنَّ الرُّوم يتعاهدنَ قبره، ويستسقون به إذا قحطوا[٥].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٤٥) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٢) مع الجمع بينهما، وانظر الاستيعاب (١/ ٤٠٤) والبداية والنهاية (٨/ ٥٩).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٤٢).

(٣) كان قائد الجيوش في تلك المعركة.

(٤) عن مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٤٢ و٣٤٣) بشيء من التَّصرف، وانظر: الاستبصار (ص٧١).

(٥) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٥٩) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٢ و٤١٣).
وأوردَ الإمام محمَّد بنُ الحسن الشَّيباني في كتابه النَّفيس «السِّير الكبير» ما يشبه هذا فقال: ذكر عن محمَّد بن سيرين - رحمه الله - قال: استُعْمِل يزيد بن معاوية على=

* كانت وفاةُ أبي أيوب الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ في سنة خمسين[1] من الهجرة النَّبوية، وعمره يقترب من حدود الثَّمانين.

* رضي الله عن أبي أيوبَ، الذي آثر أنْ يلقى الله عزَّ وجلَّ وهو يغزو في سبيله؛ ليفوز بجنَّات النَّعيم، وينال رضا الله تعالى، ومحبة رسول الله ﷺ.

* * *

= جيش، فكره أبو أيوب الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ الخروج معه، ثمّ نَدِمَ ندامةً شديدةً، فغَزا معه بعد ذلك، فحُضِرَ ـ أشرف على الموت ـ فأتاه يزيدُ بنُ معاوية يعوده فقال: ألكَ حاجة؟.
قال: نعم: إذا أنا متُّ فاغسلوني، وكفّنوني، ثمّ احملوني حتى تأتوا بلاد العدو، ما لم يَشُقّ على المسلمين، ثمّ تأمرهم فيدفنوني. (السّير الكبير ١/ ٢٣٥).

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٧٧).

(١٥)

أبو دجانة الأنصاري

- رضي الله عنه -

كان يُعْلم بعصابةٍ حمراء، وأخذ السَّيف بحقِّه يومَ أحد، وفَلَق به هام المشركين.

منْ مَظَاهر الشَّجَاعةِ ومعَالم البطولـة:

* لو قُدِّرَ لنَا أنْ نحصيَ أسماء فرسان الأنصار الشُّجعان، لكان بطلنا اليوم في سجلِّ الفرسان ذوي الشجاعة، والبَسالة، والنَّجدة، والثبات، والإرادة القوية، والعزيمة الراشدة، والمضاء المستمر لإعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ.

* ولقد شهدَ لهذا الفارسِ البطلِ بالفروسيةِ، والجرأةِ، والإقدام، أقرانه الشّجعان، ويكفيه فخراً وقَدْراً أنَّ الزُّبير بنَ العوام - وهو من أشجعِ فرسان الصَّحابة، وأشدّهم، وأقواهم جَناناً - قد شهد لبطلنا بكمالِ الفَروسية، وجلال البطولة، وشدَّة البأس، وإحكام المراس.

* وعندما رحتُ أعيشُ مع أخبار هذا الفارس المِقْدام، ألفيتُ أنَّ الذين تحدَّثوا عنه خلعوا عليه أرفع أوسمةِ الشَّجاعة، وشهدوا له بالبسالةِ والجرأة النادرتين.

* وممن شهدَ له بالشَّجاعة ابن قدامة المقدسيّ - رحمه الله - في بداية ترجمته له فقال: كان بطلاً شُجاعاً، بُهْمة[1] منَ البُهُم، له المقامات المحمودة في مغازي رسول الله ﷺ، وكان يمشي بين الصَّفين، يختالُ في مشيته سجيّة[2].

* وقال الإمام النَّوويُّ في «تهذيبه» عن فارسِ اليوم: كان من الأبطالِ الشُّجعان المعروفين[3].

* وذكرهُ أبو الفتح ابن سيّد النَّاس فقال: مِنْ كبار الأَنْصارِ، وكان أحد

---

(1) «البُهمة»: البطل الشُّجاع، وقيل: البُهْمة: هو الفارس الذي لا يُدرى من أينَ يؤتى له من شدة بأسه، وهي صفة مدح. قالت عاتكة بنت زيد زوج الزّبير بن العوام ترثيه من قصيدة:

غَدرَ ابنُ جُرمُوز بِفارس بُهْمة ... يومَ اللّقاءِ وكانَ غير معرّدِ

(2) الاستبصار في نسب الصّحابة من الأنصار لابن قدامة المقدسي المتوفى سنة (٦٢٠هـ) (ص ١٠١).

(3) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٢٧).

الشّجعان ـ رضي الله عنه ـ له مقامات محمودة في مغازي رسول الله ﷺ[1].

* وقال ابنُ كثير في «تاريخه» عن فارسنا اليوم: شهدَ بدراً، وأبلى يوم أُحدٍ، وقاتلَ قتالاً شديداً، وأعطاهُ رسولُ الله ﷺ يومئذ سيفاً فأعطاه حقَّه، وكان يتبختر عند الحرب[2].

* هذا الفارس الكرار كان يُعْلم[3] في الحرب بعصابةٍ حمراء شعاراً له بالشَّجاعة، وقد شهدَ له رسولُ الله ﷺ بالصِّدق في مضاربة الأعداء.

* أظنّكم عرفتم هذا الفارس المُعْلَم؟ هذا الذي اشتهر بكنيته أكثر من اسمه، وأعتقدُ أنَّ كثيرين قد يخفى عليهم اسمه، إنّه أبو دجانة سِماك بن خرشة بن لَوْذان الأنصاريّ الخزرجيّ السّاعدي[4] من رَهْطِ سعد بن عبادة الخزرجي.

* قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في الطّبقات[5]: آخى رسول الله ﷺ بين أبي دجانة، وعتبة بن غزوان[6].

---

(١) انظر: منح المدح لابن سيد الناس (ص ١٢١).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٧).

(٣) «يُعلم»: يجعل نفسه ظاهراً ومعلوماً، بِشَارةٍ يضعها عليه.

(٤) المغازي للواقدي (انظر الفهارس ٣/ ١١٦٥) وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٥٦ و٥٥٧) والمعارف لابن قتيبة (ص ٢٧١) والمستدرك (٣/ ٢٥٥ و٢٥٦) والاستبصار (ص ١٠١ و١٠٣) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٢٢٧ و٢٢٨) والبداية والنّهاية (٦/ ٣٣٧) والعبر (١/ ١٤) وسير أعلام النّبلاء (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥) ومنح المدح لابن سيّد النّاس (ص ١٢١ و١٢٢) وكنز العمال (١٣/ ٢٦٠) وحياة الصّحابة (١/ ٤٢٣ و٥٣٦ و٥٤٢ و٥٥٦ و٥٥٧ و٥٥٨ و٥٥٩) و(٢/ ٤٣٠).

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٥٦).

(٦) عتبةُ بنُ غزوان بن جابر المازني أبو عبد الله، السّيد الأمير المجاهد، أسلم سابع سبعة في الإسلام، وهاجر إلى الحبشةِ، ثم شهد بدراً والمشاهد، وكان أحد الرّماة المذكورين، ومن أمراء الغزاة، وهو الذي اختط البصرة، وأنشأها.
استعمله عمر على البصرة، فهو الذي مصَّر البصرة، وبنى المسجد بقصب. عاش عتبة سبعاً وخمسين سنة، ومات بطريق البصرة سنة (١٧هـ) ـ رضي الله عنه ـ له =

ذُو العِصَابةِ الحَمْرَاء:

* في حياة الصَّحابة الفُرسان ملامحُ طريفة من نوادرِ البسالة، والفروسيّة، والإقدام؛ هذه الملامح تلتصقُ بشخصيّة صاحبها حيثُ يُعْرَفُ بها بين أقرانه، وتبقى خالدة على مرِّ الأيام والأزمان، ماثلةً للعيان عبر تتالي الدهور والأعوام.

* وأبو دجانة واحدٌ من أولئك الأبطال الذي عرفوا بالشَّجاعة، وخاصَّة إذا وضع شَارَةَ الحربِ على رأسه.

* وتشيرُ الأخبارُ التي وصلتنا عن أبي دجانة أنّه كان رجلاً قصيراً، نحيفاً[1] ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ قد آتاهُ منْ قوّةِ الجنان ما جعله منْ أعلام الشُّجعان، وممن يُشار إليه بالبنان، وهذا ما حدثَ فعلاً في غزاةِ بدر، إذ سأل أميّة بن خلف ـ وكان أسيراً ـ عبد الرحمن بن عوف[2] ـ رضي الله عنه ـ، عن أبي دجانة مشيراً إليه وقال: مَنْ ذاكَ دَحْداحٌ، قصيرٌ، مُعْلَمٌ بعصابةٍ حمراء؟!.

قال عبد الرحمن: ذاك رجلٌ مِنَ الأنْصار يُقال له: سماك بن خرشة[3].

* وكان أربعةٌ منْ أصحاب رسول الله ﷺ يُعْلمون في الزُّخرف: أحدهم أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ وكان يعصب رأسه بعصابة حمراء، وكان قومه يعلمون إنّه إذا اعتصبَ بها أحسن القتال.

وكان عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يُعلم بصوفة بيضاء.

وكان الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ يُعلم بعصابة صفراء[4]. وكان

= حديث في صحيح مسلم، (سير أعلام النّبلاء ١/ ٣٠٤ـ٣٠٦) بتصرف واختصار.

(١) وما أجمل قول الشّاعر في هذا إذ قال:
ترى الرَّجل النَّحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور

(٢) اقرأ سيرة هذا الفارس في كتابنا هذا ص(٢٤٠).

(٣) انظر: المغازي (١/ ٨٣).

(٤) كان الزّبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ يحدث يقول: إنَّ الملائكة نزلت يوم بدرٍ على خيل بلق، عليها عمائم صفر؛ فكان على الزّبير يومئذ عصابة صفراء.

حمزةُ بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ يُعلم بريش نعامة.

أَنا آخـذُه بِحقّـهِ يا رسول الله!

* كان رسولُ الله ﷺ أعلم النّاس بأصحابه في تربيته لهم، وآثار تلك التّربية في اختلافِ مظاهر شجاعتهم ومعرفتهم بألوان الفروسية، وخوض غمار الحروب.

* لذا فقد كان ﷺ يعطيهم من هذا العِلْم الذي عنده بأحوالهم، بما يتناسب مع مقدار معرفتهم بخوضِ غمرات الحياة، كيما يكونوا أقوياء أصحاء لا تعجزهم العقبات عن اقتحامها، ولا المشقّات عن احتمالها ومواجهتها.

* وأبو دجانة ممن خَاضَ معركة بَدْر، وأبلى فيه بلاء كريماً، وكان مِنْ أعلامها، وعرفَ رسولُ الله ﷺ ما عليه أبا دجانة من الإقدام والشّجاعة، لذلك كان لأبي دجانة موقفٌ رائعٌ كريم يوم أحدٍ، وقد عَهد إليه رسولُ الله ﷺ بسيف مبارك، له كبير الأثر في غزوة أحد، كما كان له كبير الأثر أيضاً في شحن نفسية أبي دجانة بألوان من التّكريم لشجاعتهِ.

* أخرج الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحهِ، والإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في مسنده، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ والطّبراني عن قتادة بن النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ وابن راهويه والبزّار عن الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ قالوا: عرضَ رسولُ الله ﷺ سيفاً يوم أحد فأخذه رجالٌ فجعلوا ينظرون إليه، ويبسطون أيديهم رغبةً في أخذه، فقال ﷺ: «مَنْ يأخذه بحقّه؟» فأحجَم القومُ، ثمّ قام إليه رجال، فيهم أبو بكر، وعمر، وعليّ، والزُّبير، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة فقال: وما حقّه يا رسول الله؟! فقال رسول الله ﷺ: «أنْ تضربَ به في وجه العدو حتى ينحني، ولا تَقْتُلَ به مُسْلماً، ولا تفرَّ به عن كافر». فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقّه يا رسول الله! فأعطاه له[1].

---

(١) يُلاحظ أن هذا الحوار المستطلع لخفايا النّفوس، يمثّل لوناً من ألوان الفِراسات النّبوية الصّادقة، لإظهار أسرار الرجال في مجال المعارك، ومعرفة قدراتهم في خوض غمار الحروب.

* كان أبو دجانة - رضي الله عنه - رجلاً شجاعاً حربياً، لا يهابُ الموتَ، وكان إلى جانب ذلك، ميمون النَّقيبة في الحرب، إذا خاضها مشى في حومتها متخايلاً تياهاً يتبختر في مشيته، فرآه رسولُ الله ﷺ وهو يتخايل فقال: «إنّها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[1].

أبو دُجَانَـةَ وسيف النَّـبِيِّ ﷺ:

* أخذَ أبو دجانة - رضوان الله عليه - سيفَ رسولِ الله ﷺ بحقّه، وغَدا به يختالُ كيما يحقّق العهد الذي قطعَه رسول الله ﷺ عليه.

* وكان الزُّبير بن العوّام - رضي الله عنه - وهو من صناديد الإسلام وفرسانهم يريد أنْ ينظرَ إلى أبي دجانةَ، وإلى فعله بالسَّيف، وأخذ يرصد بطولة أبي دجانة التي يرويها لنا.

* قال الزُّبير - رضي الله عنه -: لقد وجدتُ[2] في نفسي حين سألتُ رسولَ الله ﷺ السَّيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته، وقد قمتُ إليه وسألته إيّاه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني ؟! فقلتُ: والله لأنظرنّ ما يصنعُ أبو دجانة! فاتبعته، فأخذ أبو دجانة عصابة له حمراء؛ فعصب بها رأسه؛ فقالت الأنصارُ: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّبَ بها، فخرج لا يلقى أحداً منَ المشركين إلا قتله[3].

---

(١) السيرة النبوية (٢/ ٦٦ و٦٧) وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٥٦) والاستبصار (ص ١٠٢).

(٢) «وجدتُ في نفسي»: أي تأثرت في شيء من الغضب الحزين.

(٣) كان أبو دجانة - رضوان الله عليه - ينشدُ، وهو جذلان يقول:

أنـا الـذي عَـاهَـدنـي خليلـي ... ونحـنُ بـالسّفـح لـدى النَّخيـلِ
أن لا أقـومَ الـدَّهـر فـي الكيـول ... أضـرب بسيـفِ الله والـرَّسـول

و«الكيول»: مؤخر الصُّفوف في الحرب. ويروى أيضاً: الكبول: جمع كبل: وهو القيد.

ويلاحظ أنَّ أبا دجانة كان يتغنى بهذا الرجز مشيراً إلى شجاعته، وتمكنه من ناصية الفروسية والشجاعة، وهذا شيء محمود في مثل هذه المواقف.

وفي رواية مسلم من حديث أنس: ففلق أبو دجانة هام المشركين[١].

* وكان في المشركين رجلٌ لا يدعُ لنا جريحاً إلا دفَّفَ عليه، فلقيه أبو دجانة، فجعل كلّ واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ الله أن يجمعَ بينهما، والتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة بدرقته، فعضت بسيفه؛ وضربه أبو دجانة فقتله[٢].

* قال الزُّبير: ثمَّ رأيتُ السَّيف على رأس هند بنت عتبة، ثمَّ عدل السَّيف عنها، وكانت تحمّس النَّاس حَمْساً شديداً، تحرضهم على القتال، وتغريهم بإشعال نار الثّأر لقتلى بدر، فلمَّا حمل عليها أبو دجانة ولولتْ مستغيثة، قال أبو دجانة: فأكرمتُ سيفَ رسول الله ﷺ أنْ أضربَ به امرأة[٣].

* تعال ـ عزيزي القارىء ـ نسرح قليلاً في رياض هذه الرِّواية، نقتطف شيئاً من زَهْرها، ونأنس بعبق أريجها، ونستفيد من معالم دروسها، كي نصلَ إلى المعاني المُستفادة التي أرادها رسول الله ﷺ لأبي دجانة الأنصاريّ ـ رضي

---

(١) «ففلق أبو دجانة هامَ المشركين»: المعنى: أنه شقَّ به رؤوسهم، ويُراد بذلك: القتل، والإبادة.

(٢) انظر: البداية والنّهاية (٤/ ١٦ و١٧).

«دفف عليه»: أجهز عليه. «درقته»: هي الترسُ من جِلْد ليس فيه خشب.

(٣) قال الزُّبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ في رواية أخرى: خرجَ أبو دجانة بعدما أخذ السَّيف من رسولِ الله ﷺ، واتبعته، فجعل لا يمرُّ بشيءٍ إلا أفراه، وهتكه، وفلق به هام المشركين حتى أتى نسوة في سفحِ الجبل، ومعهن هند بنت عتبة، وهي تغني تحرض المشركين وتقول:

نحـــنُ بنـــات طـــارق ... نمشـــي علـــى النَّمـــارق
والمســـكُ فـــي المفـــارق ... إنْ تقبلـــوا نعـــانـــق
أو تـــدبـــروا نفـــارق ... فـــراق غيـــر وامـــق

فحمل عليها فنادت: يا لصَخر! فلم يجبها أحد، فانصرف عنها، فقلتُ له: كلُّ سيفك أعجبني غير أنك لم تقتل المرأة؟ قال: كرهت أنْ أضربَ بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها. (المستدرك ٣/ ٢٥٦) و(حياة الصحابة ١/ ٥٥٦ و٥٥٧) بتصرف يسير.

الله عنه ـ والتي عرفها في شخصية هذا الفارس المقدام، فلقد كان أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ ذا شجاعة نفسية وبدنية منسوجة بخيوطٍ منَ الجراءةِ العارمة، وقد عُرف بهذه الشّجاعة في قومه الأنصار، بل عند المسلمين جميعاً القاصي منهم والدّاني.

* وهذه الشجاعة الجميلة كانت تزينها النّخوة والمروءة، فلم يكن أبو دجانة ليصبّ نيرانها على ضعيفٍ ليس له من قوّة ولا ناصر، ولا سيما إذا كان سلاحه في هذه الشّجاعة مُشَرّفاً مباركاً ميموناً، خُصَّ به دون سائر الأبطال، وفرسان الإسلام وشجعانه، ولذا فقد أبتْ عليه نخوته البطوليّة، ومروءته الوافية أن يقتلَ بسيفِ رسول الله ﷺ امرأة صاحت تطلب الصّريخ، وتستصرخ مستغيثة إذ رفع السّيف على رأسها تطلب النّصراء، فلا تجدُ نصيراً ولا ولياً، إلا إنَّ فارسَ المروءات، وبطل الفُرسان فَلَقَ به هامات الأبطال المشركين، فكان لا يلقى جمعاً إلا فَضّه، ولا يعرض له بطل من أبطالهم إلا جعله كأمسِ الذّاهب، وحصده مِنْ على وجه الأرض ليصير من سكان القبور، وبئس المصير.

* لهذا كلّه، كان رسولُ الله ﷺ يقدّر هذه الصّفات البطولية الكريمة في أبي دجانة فارس الأنصار، ويعرف له حقّه فيها، حيث لم تكدِ الحربُ في يوم أحد تزأر بالأبطال، ويتنادى أُسُدُها باللقاء حتى عرض رسول الله ﷺ سيفاً كان في يده، فيطلبه فرسانٌ من مدرسة النُّبوّة فيهم أبو بكر وعمر وعليّ ـ رضوان الله عليهم ـ فإذا بأبي دجانة يسأل رسول الله ﷺ عن حقّ هذا السّيف الموشّى بالبركاتِ، والمغلّف بالأسرار، فيكون جوابُ رسول الله ﷺ: «حقّه أنْ تضربَ به العدوّ حتى ينحني».

* وكان أبو دجانةَ قد أدّى حقَّ السّيف الذي خصّه به رسولُ الله ﷺ، دون أكابر أصحابه وأبطالهم، وهذه الميزة لا تعني تفضيله عليهم، وإنّما تدلُّ على فَضْله، وتشيرُ إلى شجاعته في معامعِ الوغى، وساحات الحروب.

* ولقد ثبتَ[1] أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ يوم أحد، وترّس بنفسه على رسولِ الله ﷺ، فحنى ظهره عليه، والنَّبل يقعُ فيه، حتى كثرت به الجراح، ولم تتوقفْ غزوة أحد حتى جَنْدَلَ بسيفه بضعة رجال من أبطال المشركين[2]. وسأروي لك ـ عزيزي القارىء ـ كيف قتل رجلاً يوم أحد، فشقّه نصفين.

* قال كعبُ بنُ مالك[3] الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ: كنتُ فيمن خرج من المسلمين، فلمّا رأيتُ مُثَلَ[4] المشركين بقتلى المسلمين، قمت فتجاوزتُ، فإذا رجلٌ مِنَ المشركين جَمَعَ اللأمة[5] يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم[6]. قال: وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيتُ حتى كنتُ مِنْ ورائه، ثم قمتُ أقدر المسلم والكافر ببصري[7]، فإذا الكافر أفضلهما هيئة وعدّة، فلم أزلْ أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر على حَبْلِ عاتقه ضربة بالسَّيف فبلغت وِرْكه، وتفرّق فرقتين، ثم كشَفَ المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة[8].

* لقد أحسنَ أبو دجانة القتّال والجهاد في سبيل الله؛ حتى لقد شهد له رسول الله ﷺ بذلك.

* روي أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ جاء بسيفه يوم أحد ملطخاً

---

(١) قال ابنُ سعد نقلاً عن الواقدي رحمهما الله ـ: شهد أبو دجانة أحداً وثبتَ مع رسول الله ﷺ، وبايعه على الموت. (طبقات ابن سعد ٣/ ٥٥٦).
(٢) المغازي (١/ ٨٦ و٢٥٣ و٤٢٠) بشيء من التصرف. وانظر: الاستبصار (ص ١٠٢).
(٣) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذا الكتاب ص(٥١٠).
(٤) «مُثَل»: جمع مثلة.
(٥) «اللأمة»: المقصود بها ـ هنا ـ السّلاح.
(٦) أي: استجمعوا وانضموا كما تجتمع الجزر للذبح. والجزر: واحدها جزرة: الشاة.
(٧) أي: أنظر وأرى مَنْ يغلب الآخر.
(٨) المغازي (١/ ٢٦١) والبداية النهاية (٤/ ١٧).

بالدم، فدفعه إلى فاطمة الزَّهراء - رضوان الله عليها - وقال لها: خذي هذا السَّيف، فاغسليه غير ذميم، وأنشأ يقول:

أفاطم هـاك السَّيف غير ذميم فلسـتُ بـرعـديـد ولا بمليـم
لعمري لقد أبليتُ في نَصْر أحمد ومـرضـاة ربّ بـالعبـاد عليـم

* فقال رسول الله ﷺ لعلي - رضي الله عنه -: «لئن كنتَ أحسنتَ القتال لقد أحسنه سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة»(١).

مشَاهِدُه ومغَازيـهِ الأُخْـرى:

* شهدَ أبو دجانة الأنصاري - رضي الله عنه - المغازي النّبويّة جميعها، وفي شهرِ ربيع الأوّل من السَّنة الرَّابعة للهجرة، أمر رسول الله ﷺ بالتّهيؤ لحرب يهود بني النّضير وقتالهم، فسار أبو دجانة لقتالهم، فاعتصموا بحصونهم، فحاصرهم المسلمون، وملأ الرّعبُ قلوبَ بني النّضير، واشتدَّ الحصار عليهم، وأيقنوا أنَّ حصونَهم لا تمنعهم منْ سوءِ المصير، وعند ذلك صالَحهم رسولُ الله ﷺ على الجلاء، فخرجوا، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال، وسلاح، وعقار، ودُور...

* هذا؛ ولمّا كان المسلمون قد أخذوها صُلحاً دون حرب أو قتال، كانت فيئاً من حقِّ رسولِ الله ﷺ، يتصرّف فيها كيف يشاء، وقد قَسمَها على المهاجرين دون الأنصار، وبذلك أغنى الله عزَّ وجلَّ المهاجرين، وأزال حاجتَهم وفاقتَهم، ولم يأخذْ منَ الفيء منَ الأنصار إلا أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصِّمة، فقد شكوا فقْراً، عند ذلك أعطاهم رسول الله ﷺ(٢).

* وفي غزاةِ خيبر أبلى أبو دجانة - رضي الله عنه - أحْسَن البلاء، فقد خرج

---

(١) الاستبصار (ص ١٠٢) والبداية والنهاية (٤/ ٤٧) وحياة الصحابة (١/ ٥٤١ و٥٤٢) مع الجمع والتصرف.

(٢) المغازي (١/ ٣٧٩) والسير الكبير (٢/ ٦٠٩) والبداية والنهاية، مع الجمع والتصرف اليسير.

أحدُ فرسان اليهود، ويدعى «غزال»، فدعا إلى البرازِ، فبرزَ له الحباب بن المنذر، فقطع يده اليمنى، ثم أجهز عليه، وخرج يهودي آخر فصاح: مَنْ يُبارز؟ فبرز إليه رجلٌ من المسلمين، فقتله اليهودي، وقام مكانه يدعو إلى البراز، ويبرزُ له فارس الأنصار أبو دجانة، وقد عَصَبَ رأسه بعصابةٍ حمراء فوقَ المِغْفَر، يختالُ في مشيته، فضربهُ أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ودرعه وسيفه، فجاءَ به إلى رسول الله ﷺ فنفله ذلك.

* وأحجم اليهودُ إذ ذاك عن البرازِ، عند ذلك كبَّر المسلمون، ثمَّ تحاملوا على الحصن فدخلوا وأمامهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثاً، ومَتَاعاً، وغَنَماً، وطعاماً، وهرب مَن كان فيه مِنَ المقاتلين.

* يوم حنين، كان لأبي دجانة مواقف لا تنسى، فقد كان رجلٌ من بني هوازن يركبُ على جملٍ أحمر، ومعه رمح طويل قد أكثر في المسلمين القتل، فثبت له أبو دجانة، وعرقب جمله، وجاء فارس الإسلام والمسلمين عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقطع يدَ المشرك، وقطع أبو دجانة يده الأخرى، ثمَّ قتلاه، وصيَّراه عدماً كأمسِ الدَّابر[1].

* وظلّ أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ من فرسان مدرسة النّبوة، يجاهدُ بسيفهِ، حتى سجَّل أضوأ الآثار في تاريخ الفروسيّة في عصر النّبوّة، وفي المغازي النّبويّة أمام رسول الله ﷺ.

مَكْرُمَـةٌ وصِفَـةٌ جَميلـةٌ لأبـي دجَـانةَ:

* من أبرزِ المكرماتِ التي خُصَّ بها فارسنا: أن استعمله رسولُ الله ﷺ على المدينة المنوّرة، عندما خرج لحجّة الوداع[2]؛ وفي هذا إشارة لمكانة أبي دجانة ـ رضي الله عنه ـ في عالمِ الصَّحابة الكرام، أولئك الذين استعملهم رسول الله ﷺ على المدينة عندما كانَ يخرج للغزو.

* ولعلّ منْ أبرزِ صفات أبي دجانة أنّه كان سليم القلب، زكي النّفس،

---

(١) انظر: المغازي (٣/ ٩٠٢) بشيء من التصرف.
(٢) انظر: البداية والنّهاية (٥/ ١١٠).

لا يضمر السُّوء أو الكراهية لأحدٍ من المسلمين، وكان وجهه ينطق بسمات النّور والصَّلاح، والتقى، والورع.

* أخرج ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في الطَّبقات بسنده عن زيد بن أسلم قال: دُخِلَ على أبي دجانة ـ رضي الله عنه ـ وهو مريض، وكان وجهه يتهللُ، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟!.

فقال: ما من عملي شيء أوثق من اثنتين: أما إحداهما؛ فكنتُ لا أتكلم فيما لا يعنيني(١) وأما الأخرى؛ فكان قلبي للمسلمين سليماً(٢).

في مَوَاكِبِ الشُّـهَـدَاءِ:

* بعد أنِ انتقلَ رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى، ظهرت حركة الرِّدة، فجهّز أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ جيوشه لمحاربة هؤلاء الأشقياء؛

---

(١) منْ رقائق الكلام، ومن نفحات الرقائق، ما ورد في حِفْظ اللسان، وعدم الكلام فيما لا يعني، ما روي عن الرّبيع بن خُثيم ـ رحمه الله ـ أنّه كان إذا أصبح وضع قرطاساً وقلماً، ولا يتكلم بشيء إلا كتبه وحفظه، ثمّ يحاسب نفسه عند المساء.
قال أبو الليث السّمرقندي ـ رحمه الله ـ: هكذا كان عمل الزُّهاد، أنّهم كانوا يتكلّفون لحفظ اللسان، ويحاسبون أنفسهم في الدنيا، وهكذا ينبغي للمسلم أنْ يحاسبَ نفسه في الدنيا قبل أنْ يحاسب في الآخرة، لأنَّ حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة، وحفظ اللسان في الدنيا أيسر من ندامة الآخرة.
وقال بعضُ الحكماء: في الصَّمت سبعة آلاف خير، وقد اجتمع ذلك كله في سبع كلمات، في كل كلمة منها ألف.
أولها: أنَّ الصَّمتَ عبادةٌ من غير عناء. والثَّانية: زينة من غير حلي. والثَّالثة: هيبةٌ من غير سلطان. والرَّابعة: حصنٌ من غير حائط. والخامسة: الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد. والسّادسة: راحة الكرام الكاتبين. والسابعة: ستر لعيوبه.
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٥٧) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٤٣) وحياة الصحابة (٢/ ٤٣٠).
ورحم اللهُ الشاعرَ إذ يقول:
لما عفوتُ ولم أحقدْ على أحدٍ ... أرحتُ نفسي من غَمِّ العداواتِ

وسار أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمامة لمحاربةِ مسيلمة الكذاب، وذلك في سنة (١٢هـ).

* وفي أرضِ بني حنيفة وفوقها، شهدَ أبو دجانة اليمامة، وأبلى فيها أحسن بلاء وأكرمه، وجعل يضربُ المرتدين بسيفه عن يمينه، وعن شماله، ومن بين يديه، ويعانقُ الرجل فيصرعه، وما يتكلم بكلمة حتى أفرجوا عنه وعند ذلك نادى المسلمين: إليّ عباد الله! فكرّوا عليه، فدفعوا بني حنيفة حتى ألجؤوهم إلى الحديقة، فدخلوا فيها؛ فقال أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ: احملوني، فألقوني عليهم حتى أشغلهم عنكم؛ فألقوه عليهم، وقد انكسرت رجله، فضاربَهُم حتى فتح الباب للمسلمين، فدخلوا عليه، ولم يزل يقاتل حتى قُتِلَ شهيداً يومئذ، وقد شارك في قَتْلِ مسيلمة الكذّاب مع وحشي بن حرب الذي رماه بالحربة، وقد علاه أبو دجانة بالسَّيف، قال وحشي: فربُّك يعلم أيّنا قتله.

* وهنالك في اليمامة يثوي جثمان الشَّهيد في ركب الشُّهداء[1]، هنالك يقيم أبو دجانة مع الشهداء الأبرار الذين رووا الأرض بدمائهم لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفلى.

* فسلامٌ على أبي دجانة في الخالدين، وسلامٌ عليه في مواكب الشُّهداء، فقد كان نِعْم الفارس المقاتل، الوفيّ، والمخلص، الورع.

* * *

---

(١) قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: استشهد يوم اليمامة من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم نحو من ستمئة منهم: أبو حذيفة بن عتبة العبشميّ، ومولاه سالم أحد القراء، وأبو مَرْثد كناز بن الحصين الغنويّ، وثابتُ بن قيس بن شماس، وعبدُ الله ابن سهيل بن عمرو القرشي العامريّ، وعباد بن بشر الأشهليّ، الذي أضاءت له عصاه، ومعن بن عدي بن الجدّ بن العجلان الأنصاريّ أخو عاصم، وأبو النّعمان بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي، وأبو دجانة سماك بن خرشة السّاعدي الأنصاريّ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول الأنصاري، وعشرتهم بدريون. ويقال: إنَّ أبا دجانة هو الذي قتل يومئذ مسيلمة الكذاب. (سير أعلام النّبلاء (١/٢٩٨ و٢٩٩).

(١٦)

أبو طلحة الأنصاري

ـ رضي الله عنه ـ

كانت شجاعته مثلاً شروداً، قَتَلَ يوم حُنين عشرين رجلاً منَ المشركين.

مِنْ أَلْـوانِ الشَّجَاعَـةِ النَـادرة:

* جَمَعَ مِنْ أَلوان الفروسيّة ما جَعَله أحد فُرسان الرَّسول ﷺ؛ الذين كان يَعْتَمِدُ عليهم في شدائدِ المِحَن، ومهمَّات الأمُور، وعظائم المُلمّات؛ لِدَفْع الخطر عن الأمة، وحماية بيضة الدِّين.

* كانَ بطَلاً، فارساً، رامَياً، شجاعاً، صَيِّتاً، مربوعاً، آدمَ، وكانَ حافظاً، راوياً للحديثِ، كريماً، جَوَاداً، قد جَمَعَ من كلِّ فضيلةٍ بطرفٍ واسع.

* وفي عرين الصحابة يظهرُ هذا الأسدُ الهصور، ليحلِّقَ في ميدان مغازي رسولِ الله ﷺ، فقد أبدعَ يومَ أُحُد، ويوم حُنين على وجْه الخصوص.

* أثنى ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ على بطلنا في «أُسْدِ غابته» فقالَ: كانَ من الشُّجعان المذكورين في الصَّحابة، ومنَ الرُّماة المشهورين، وله يوم أُحُدٍ مقام مشهود، كان يَقِي النَّبيَّ ﷺ بنفسه، ويرمي بين يديهِ، ويتطاول بصدرِهِ ليقيَ رسولَ الله ﷺ، ويقول: نحري دونَ نحركَ، ونفسي دونَ نفسِك.

* وهذا الفارسُ منَ الفرسانِ الذين خَالَطَ حبّ الجهاد نفوسهم مُذْ عَرَفُوا الإسلام، ومُذْ صافحتْ نسماتُ الإيمان شغاف قلوبهم، فقد كان شعاره قول ربِّنا سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١][1].

ولقد جَادَ فارسنا بنفسهِ وبمالهِ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فهل رَبحَ في تجارته؟!.

نَعَمْ، لقد كانت نِعْمَ التِّجارة، ونِعْمَ الطريقَ التي سَلَكَ، فكانَ منَ الفائزين، فأكرِمْ به! وأكرِمْ بطريقه!.

* والآن، هل ندخل ميدانَ هذا الفارس النَّبيل كيما نعرفه عن كَثَب؟!.

أجمعتِ المصادرُ على اسمه وكنيته، فهو أبو طلحة زيد[2] بن سَهْل بن

---

(١) «خفافاً وثقالاً»: على أية حالةٍ كنتم.

(٢) قال رجلٌ من ولد أبي طلحة: كان اسم أبي طلحة زيداً، وهو الذي يقول: =

الأسود الأنصاريّ النَّجاريّ الخزرجي المدني، صاحب رسول الله ﷺ، ومن بني أخواله، وأحد أعيان البدريين[1].

أَبُو طلحَةَ واعتناقـه الإسْـلام:

* لإسلامِ أبي طلحة الأنصاريِّ قصَّةٌ لطيفة مفادها: أنَّ أمَّ سُلَيم بنتَ مِلْحان ـ وهي زوج أبي طلحة ـ كانت متزوِّجة من مالك والد أنس ـ رضي الله عنه ـ؛ فقال لامرأته: أرى هذا الرَّجل ـ أي: رسول الله ﷺ ـ يحرِّم الخمر! فانطلق حتى أتى الشَّام، فهلكَ هناك مُشْركاً.

* وعلم أبو طلحة الأنصاريّ بذلك، فجاء يخطبُ أمّ سُليم، وكانت قد سبقته إلى ساحةِ الإيمان الفيحاء، وكانتِ السَّبب المباشر في إسلامه أيضاً، فقالت له: ما مثلك يُردُّ، ولكنَّك امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مُسْلِمةٌ.

قال أبو طلحة: فَمَنْ لي بذلك؟.

قالت: النَّبي ﷺ، فانطلقَ أبو طلحة يريده.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «جاءكم أبو طلحة وغرَّةُ الإسلامِ بينَ عينيه».

* وأعلنَ أبو طلحة إسلامه، فكانَ صَداقَ أمّ سُلَيم الإسلام[2]. قال ثابتُ

= أنـا أبـو طلحـة واسمـي زيـد ... وكـلَّ يـوم فـي سـلاحـي صيـد
(طبقات ابن سعد ٣/ ٥٠٤).

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٨) وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٠٤ ـ ٥٠٧) والمعارف (١٦٦ و٣٠٨) والمعرفة والتَّاريخ (١/ ٣٠٠) والمستدرك (٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٨) والاستبصار (ص ٤٩ و٥٠) والاستيعابُ (١/ ٥٣٠ و٥٣١) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٤ ـ ١٤١) وجامع الأصول (٩/ ٧٣ ـ ٧٧) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/ ٢٤٥ و٢٤٦) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٢٧ ـ ٣٤) وفَتْح الباري (٧/ ١٦٠) ومجمع الزَّوائد (٩/ ٣١٢) وتهذيب التَّهذيب (٣/ ٤١٤ و٤١٥) والإصابة (١/ ٥٤٩ و٥٥٠) وغيرها كثير.

(٢) للحديث أصل في الصَّحيح، فقد أورده مُسْلمٌ برقم (٢١٤٤) والنسائي (٦/ ١١٤) في النكاح؛ وأخرجه ابن سعد (٨/ ٤٢٦ و٤٢٧) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٥) والإصابة (٢/ ٥٤٩). قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: أسلمتْ أمُّ سُليم قبل أبي طلحة فخطبها، فقالت: إنِّي قد أسلمتُ فإنْ أسلمتَ، نكحتك، فأسلمَ، فكان=

ابنُ أسلم البناني ـ رحمه الله ـ: فما سمعنا بمهرٍ قطّ كان أكرم منْ مَهْرِ أمّ سليم: الإسلام، وكان لهما مواقف رائعة في تاريخ الإيمان والاستسلام لأوامر العزيزِ الحميد[1].

* ومنذ ذلك اليوم الذي أسلم فيه أبو طلحة، غدا منْ فرسانِ مدرسة النُّبوّة، بقيادة الحبيبِ الأعظم محمّد ﷺ.

بُطُولَـةُ أبـي طَلْحَـةَ المستمرَّة:

* أبو طلحة الأنصاريّ ـ رضوان الله عليه ـ واحدٌ مِنْ فرسانِ الرّسول ﷺ؛ الذين شهدوا بَدْراً وأُحُداً والخندقَ وبيعةَ الرِّضوان والمشاهد التالية، معَ رسولِ الله ﷺ، وأبدعَ في هذه المشاهد أيّما إبداع، وبَذَلَ ما بوسعه، وإذا ما ذُكِرَ فُرسان بني النَّجار جاءَ أبو طلحة في أوائلهم، وإذا ما ذُكر الرُّماة المشهورون المشهودُ لهم بالبراعةِ منَ الصَّحابة كان أبو طلحة في مقدمتهم.

* ولعلَّ منْ أجملِ مواقف أبي طلحة: شجاعته وصبره على البلاءِ بين يدي رسولِ الله ﷺ في يوم أُحُد، إذ أظهر مِنْ ألوانِ الشَّجاعة الجامعة لفضائل الرُّجولية ما أدهشَ الأعداء، فقد جَمَعَ منْ خصائصِ البطولة الإيمانية، إلى جانب الشَّجاعة النَّفسيّة التي تزكّيها القوَّةُ البدنيّة، ما جعله أَحَدَ الفُرسان الأشدَّاء على القتال، الصَّابرين في حومةِ النِّضال، الثَّابتين أمامَ هَجَماتِ الفُرسان دونَ خوفٍ أو وَجَلٍ.

* نجد هذه الخصائص المتميِّزة في شخصيَّةِ أبي طلحة قد ظهرتْ في يوم أُحُد، عندما انهزمَ المسلمون المجاهدون، وولّوا عنْ رسولِ الله ﷺ، إثْرَ إخلاءِ جُمهور الرُّماة لمواقفهم مِنْ علَى الجَبل، ومن ثمَّ نزولهم للغنائم. وقد صَرَفَ الله وجوههم عن ثباتهم، والتبسوا بالمشركينَ والمسلمين، حتى صار المُسلم يضربُ المسلم وهو لا يشعر، وكان الشَّيطان قد أرجفَ بقتلِ رسولِ الله ﷺ، وأحاطَ المشركون برسولِ الله ﷺ، وتوالتَ عليه ضرباتُهم

= صَداقَ ما بينهما.

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٥).

وطعناتهم، وهو ﷺ ثابتٌ في موقِفِه لا يزولُ عنه شبراً.

* وكان ﷺ يردُّ على المشركين ضرباتهم وطعناتهم، ويرميهم بقوسِهِ حتى تشظّتْ في يدِهِ الشّريفة[١]، ولم يكن معه في هذا الموقف الحرج سوى بطلنا الفدائي الفارس الشُّجاع أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاريّ يتلقى عنه الضّربات، ويسوِّر عليه بنفسِهِ ليقيه سِهَام الأعداء، وهي تتساقط وابلاً لا تنقطع.

* روى الإمامُ أحمد - رحمه الله - في مسندِهِ عن أنسٍ - رضي الله عنه - أنَّ أبا طلحة كان يرمي بين يديِ رسولِ الله ﷺ يومَ أُحد، والنَّبيُّ ﷺ خَلْفَه وهو مترسٌ عليه، وكان أبو طلحة رامياً، وكان إذا رمى رفَعَ رسولُ الله ﷺ صَدْرَه، ويقول لرسولِ الله: بأبي أنتَ وأُمّي يا رسول الله! لا يصيبك سَهْم، نحري دون نحرك؛ وكان أبو طلحة يسوِّرُ على رسولِ الله ﷺ نفسه، ويقول له: إنّي جَلْدٌ يا رسول الله! فوجِّهني في حوائجك، ومُرْني بما شئتَ[٢].

* وروى البخاريُّ - رحمه الله - في صحيحه عن أنس بنِ مالكٍ - رضي الله عنه - ما يشيرُ إلى شجاعة وصَبْر أبي طلحة فقال: لمَّا كان يوم أُحُد انهزم النَّاس عن النَّبيِّ ﷺ، وأبو طلحة بين يدي رسولِ الله ﷺ مجوّبٌ عليه بجُحْفَةٍ له، وكان أبو طلحة رجُلاً رامياً شديد النَّزع، كَسرَ يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرَّجل يمرُّ به معه الجعبة من النَّبْل، فيقول رسول الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة». ويشرفُ النَّبيُّ ﷺ ينظرُ إلى القومِ، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت

---

(١) ثَبَتَ ﷺ في غزوة أُحُد ثباتاً عنيداً، على الرغم من تعرُّضه للكثير من الآلام النفسية والبدنية، فَثَبَتَ أمام ضربات السيوف، وطعنات الرماح، وتناثر الأشلاء والدماء. وهذا ما جَعَلَ المسلمين يجمِّعون قواهم من جديد، ويقفون في وجه الأعداء المشركين.
إنَّ ثباته ﷺ قد أعطى القدوة الحسنة للجند الأشاوس يوم أُحُد، حتى استطاع ﷺ أن ينقذَ تسعة أعشار جيشه من موتٍ زؤام كاد أن يستأصل شأفتهم.

(٢) المسند (٣/ ٢٨٦ و٢٨٧). وأخرجه ابن سعد في الطبقات أيضاً (٣/ ٥٠٦) ومختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٦ و١٣٧) والاستبصار (ص ٥٠) والبداية والنّهاية (٤/ ٢٧).

وأمّي! لا تشرف يصيبك سَهْم منْ سهامِ القوم، نحري دون نحرك. ولقد رأيتُ عائشة بنت أبي بكر، وأمّ سُليم وإنّهما لمشمرتان، أرى خَدَمَ سوقهما، تنقزان القُرب على مُتونهما، تفرغانه في أفواه القومِ، ولقد وقع السَّيفُ من يدي أبي طلحة إمّا مرتين، وإمّا ثلاثاً(١).

* نستطيع أنْ نفهمَ منْ هذا الخبر بأنَّه قد غشى النّعاس أبا طلحة، والحرب مشتعلة قائمة على قدم وسَاق، وقد سَقَطَ سيفه منْ يده أكثر من مرة.

* ونستشفُ بأنَّ سقوط السَّيف من يدي أبي طلحة، وهو في غمراتِ الوغى، مَعْلَمٌ من معالمِ شجاعته، واطمئنانه، وثبات قلبه، وقد تحدَّثَ أبو طلحة عنْ نفسهِ بذلك كما رواه البخاريُّ وابنُ سعد وغيرهما فقال: كنتُ فيمن تغشّاه النُّعاس يوم أحد حتى سَقَطَ سيفي من يدي مراراً، يسقط فآخذه، ويسقط فآخذه(٢).

* وأعتقدُ أنَّ حديثَ أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ عن نفسه بهذا من بابِ التّحدُّثِ بنعمةِ الله عزَّ وجلَّ، وشكراً لله تعالى على امتنانه بهذه المِنَّة العظمة في تثبيتِ قلوب المؤمنين وهم يخوضون معركة فاصلة؛ لتكون كلمة الله هي العُليا، ويشهد له قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤](٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٠٦٤) فتح الباري (٧/٤١٨) وبرقم (٣٨١١) و«مجوباً»: مترساً عليه. و«الجحفة»: الترس.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٦٨) و(٤٥٦٢).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٧ و٢٨).
«أمنة»: أمْناً وعَدَم خوف. «نُعاساً»: سُكوناً وهدوءاً. أو مقاربة للنوم.
«يغشى»: يُلابس كالغشاء. «البرز»: لخرج. «مضاجعهم»: مصارعهم المقدَّرة لهم=

* فالنُّعاس في الحرب إذاً شجاعةٌ واطمئنانٌ، وصَبرٌ وثباتٌ، وإيمانٌ راسخٌ، ويقينٌ لا يداخله جزع، ولا يهزّه هَلَع[1].

* نَقَلَ ابنُ حجر عن ابنِ إسحاق ـ رحمهما الله ـ قال: أنزلَ الله النُّعاس أَمَنَةً لأهْلِ اليقين، فهم نيام لا يخافون، والذين أهمَّتهم أنفسهم أهل النِّفاق في غاية الخوفِ والذُّعر[2].

* وفي أوارِ[3] المعركة يظلُّ أبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ، يَلْحَظُ المعركةَ منْ كلِّ جوانبها، ويخاف أنْ يُصابَ رسولُ الله ﷺ بأدنى أذى، فثبت مدافعاً عن صوت الحق والهداية، وحمى نبيَّ هذه الأمة، فرضي الله عنه وأرضاه.

* عن أنس بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يقول: «صوتُ أبي طلحةَ في الجيش خيرٌ منْ فئة». وكان إذا بقيَ مع النَّبيِّ ﷺ جثا بين يديه وقال: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء[4].

* وكان في كنانته خمسون سَهْماً، فنثرها بين يديِ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ جعل يصيحُ: يا رسول الله! نفسي دون نفسك، فلم يزل يرمي بها سهماً سهماً ـ وكان رسولُ الله ﷺ يطلعُ رأسه من خَلْفِ أبي طلحة بين رأسه ومنكبه، ينظرُ إلى مواقع النَّبْل ـ حتى فَنِيَتْ نُبّاله، وهو يقول: نحري دون نحرك، جعلني الله

= أزلاً. «ليبتلي»: ليختبر وليمتحن. «ليمحِّص»: ليخلِّص ويزيل. أو ليكشف ويُميِّز.

(1) قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: وحصول النّعاس حال التحام الحرب، دليلٌ على طمأنينةِ القلوب بنصرِ الله وتأييده، وتمام توكّلها على خالقها وبارئها. وقال ابن مسعود وغيره من السَّلف: النُّعاس في الحربِ من الإيمان، والنّعاس في الصَّلاة من النِّفاق.

(2) فتح الباري (٧/ ٤٢٢).

(3) «أوار»: لهيب وحرّ.

(4) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٧) وفي رواية أخرى للحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لصوتُ أبي طلحةَ في الجيش خيرٌ من ألفِ رجل».

فداك، فإنْ كانَ رسولُ الله ﷺ ليأخذَ العُود مِنَ الأرض فيقول: «ارمِ أبا طلحة» فيرمي به سَهماً جيداً[١].

أبو طلحة ورِحلَةُ الفُروسيّة الدائمة:

* خاضَ أبو طلحةَ الأنصاريّ - رضي الله عنه - المغازي النَّبوية كلّها بمعيّة الرَّسول ﷺ، وفي كلِّ غزاة كان يتألَّق، ويظهر نَجْمُه في سَمَوات الفروسيّة، وخاصَّة في الأُويقات العصيبة، إذا ما حميَ الوطيسُ، واحمرَّتِ الحدقُ، وتطاير الشَّررُ من صليل السُّيوف، وبلغتِ القلوب الحناجر.

* ففي يوم حُنين، حلَّقَ أبو طلحة في أجواء البسَالة، تصحبه زوجه أمّ سليم بنت ملحان - رضي الله عنه -، وثبتَ يومها ثباتَ الرَّواسي، وسمع يومها رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَتَل كافراً فَلَه سَلَبُه»[٢] فقَتَلَ أبو طلحة يومئذ عشرين رجُلاً، وأخذ أسلابهم[٣].

* ولم تكن زوجه أم سليم بأقلّ شجاعة منه، فقد وَرَدَ في الصَّحيح أنَّ أبا طلحة لقي أمَّ سليم ومعها خنجر، فقال: يا أمَّ سليم! ما هذا الذي معك؟! قال: أردت والله! إنْ دنا مني بعضهم أبعج به بَطْنَه، فأخبرَ بذلك أبو طلحة رسولَ الله ﷺ[٤].

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٧).

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الجهاد برقم (٢٧١٨) باب: من السَّلَب يُعطى للقاتل؛ وابن سعد في الطَّبقات (٣/ ٥٠٥) والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٩٧) وانظر: تاريخ الإسلام للذهبيّ (المغازي ص ٥٨٥).

(٣) «أسلابهم»: جمع سَلَب: وهو سلاحُ المقتول، وثيابه وفرسه وآلته، وماعليه ومعه من قماش ومال، ويجوز لقائد الجيش أنْ يفعلَ هذا أثناء المعركة تحريضاً على القتال، ورَفْعاً لمعنويات الجنود.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم (١٨٠٩) باب: غزو النساء مع الرجال. وهذه إحدى حالتين يجب فيهما الجهادُ على المرأة، عندما يُعتدى عليها، فإنه يجبُ عليها أن تدافع عن نفسها. والحالة الثالثة: إذا هاجم العدوُّ ديارَ المسلمين، فإنه يتعيَّن على جميع المسلمين دَفْعُه عنهم، ومِمَّن يجبُ عليه ذلك المرأة.

* وتابع أبو طلحة رحلة الفروسيّة والمشاهد النّبويّة، واستمرَّ في هذه الرّحلة المباركة مع الخلفاءِ الرّاشدين، وخاصّةً طيلة عَهْدِ أبي بكر وعُمر - رضي الله عنهما -، حتى لَقد قال له بَنُوه:

لقد غزوتَ مع رسولِ الله ﷺ ومعَ أبي بكر وعُمر، فنحنُ نغزو عنك، ولكنَّ الفارسَ الشَّهمَ الأَبيَّ أبى ذلك وقرأ قوله تعالى:

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التّوبة: ٤١] وقال: أرى ربّي يستنفرني شاباً وشيخاً، وظلَّ يجاهدُ إلى آخر نَفَسٍ مِنْ حياته المِعْطَاء بالفروسية، والشجاعة، ومحبة الله، وطاعة الرسول ﷺ.

فَرَسُ أبـي طَـلْحَــة ومكرمــةٌ نبويــة:

* وكانَ رسولُ الله ﷺ يكرمُ أصحابهَ، ويخصُّهم ببعْضِ المكرمات التي ترفعُ مِنْ أقدارهم، وتزيدُ مِنْ رصيدهم في مختلفِ مجالات الفَضَائل المتنوِّعةِ.

* فقد وَرَدَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد ركبَ فَرَساً لأبي طلحة، فأصبح طويلَ النَّفس في العَدْوِ، واسعَ الجري، لا يُجارى، وكان أول أمْرِهِ ليس كذلك، فصار ببركةِ ركوبِ حبيبنا رسول الله ﷺ من أفضل الجياد وأسرعها.

* جاء في الصحيح عن أنس بنِ مالك - رضي الله عنه - قال: كان النّبيُّ ﷺ أَحْسَنَ النّاس، وأشجع النّاس، ولقد فزعَ أهلُ المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصَّوت، فاستقبلهم النّبيُّ ﷺ، وهو على فرسٍ لأبي طلحةَ عُرْيٍ[١]، وفي عنقه السَّيف وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا» ثم قال: «وجدناه بحراً» أو قال: «إنه لبحر»[٢].

---

(١) «عُرْي»: يقال: عري الفرس، يعرى عرياً فهو عريٍ. وهو الذي لا سرج عليه.
(٢) الحديثُ صحيحٌ أخرجه البخاريُّ في مواضع منْ صحيحه.
فقد أخرجه بهذا اللفظ في كتاب الجهاد برقم (٢٩٠٨) باب: الحمائل وتعليق السَّيف بالعنق. =

* وهذا الحديث يدلُّ على شجاعةِ رسولِ الله ﷺ، والتي تظهر في شدَّةِ مسارعته في الخروج إلى العدوِّ قبل النَّاس كلِّهم، بحيث كَشَفَ الحال عن مصدر الصَّوت، ورجع قبل وصول النَّاس[1]، كما يدلُّ على خصوصية لأبي طلحة أنْ ركبَ رسولُ الله ﷺ فرسَه، فأصبح نَشِطاً يسبقُ الخيل.

السخيُّ الكَرِيـمُ وأَخْبَـارٌ وَضِيئَـةٌ متـألقـة:

* لأبي طلحةَ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أخبارٌ كريمةٌ مضيئة في مجالِ الجود والكرم، فكما كان أبو طلحة محلِّقاً في سماءِ الشَّجاعة، حَلَّق أيضاً في سماء الجود، ورسم مواقف رائعة تشيرُ إلى فضلِهِ، وتمسُّكه بمحاسن الفضائل، والفَضائل الحِسان، فقد جمع بين أطراف المروءة والرجولة، وما أروع اجتماع التضحية بالنفس، والتضحية بالمال!

* ومنْ أخبار جوده وكرمه ما وَرَدَ عن أنس بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريّ مالاً من نَخْلٍ، وكانَ أحبَّ أمواله إليه بَيْرحا[2]،

= وأخرجه في باب: الشَّجاعة في الحرب والجُبْن برقم (٢٨٢٠).
وأخرجه في باب: الفَرس القطوف برقم (٢٨٦٧).
وأخرجه في باب: إذا فزعوا بالليل برقم (٣٠٤٠).
وأخرجه في كتاب الأدب برقم (٦٠٣٣) باب: حسن الخلق والسَّخاء، وما يُكره من البخل.
وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل برقم (٢٣٠٧) باب: في شجاعة النَّبي ﷺ وتقدّمه للحرب.
وأخرجه التِّرمذيُّ في كتاب الجهاد برقم (١٦٨٥) باب: ما جاء في الخروج عند الفزع.
وأخرجه ابنُ ماجه في كتاب الجهاد برقم (٢٧٧٢) باب: الخروج والنَّفير.

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ؛ للدكتور عبد الله الرشيد (ص ٣١٩).
(٢) «بيرحا»: وتكتب بالمقصورة «بيرحى» وتكتب «بيرحاء» وجاء في ضبط هذا الاسم أوْجه كثيرة، وهي ليستْ ببئرٍ، وقيل: هي أرض لأبي طلحة؛ وقيل: هو موضع بقرب المسجد بالمدينة يُعرف بقصر بني جديلة.

وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسولُ الله ﷺ يدخلها، ويشربُ منْ ماءٍ فيها طيِّب.

* فلما أنزلَ الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] قامَ أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرحا؛ فإنَّها صدقة لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فَضَعْها يا رسول الله! حيث أراكَ الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: «بخٍ، بخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قُلتَ، وإنِّي أرى أنَّ تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه[1].

* وروى أنس - رضي الله عنه - صورة أخرى عنْ جُودِ أبي طلحة فقال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قال أبي طلحة: يا رسول الله! إنَّ ربَّنا يسألنا منْ أموالنا، فإنِّي أشهدكَ أنِّي قد جعلتُ أرضي التي ببَيرحَا لله عزَّ وجلَّ، فقالَ رسول الله ﷺ: «اجعلها في

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/١٣٨ و١٣٩) ولهذا الحديث أصل في كُتُب الصَّحيح.
فقد أخرجه الإمام مالك في الموطأ في الصَّدقة (٢/ ٩٩٥ و٩٩٦) باب: التَّرغيب في الصدقة.
وأخرجه البخاري في مواضع من صحيحه: في الزَّكاة، باب: الزَّكاة على الأقارب.
وفي الوكالة، باب: إذا قال الرجل لوكيله ضَعْهُ حيثُ أراكَ الله.
وفي الوصايا، باب: إذا وقف أو أوصى لأقاربه، وباب: إذا وقف أرضاً ولم يبين الحدود فهو جائز. وفي تفسير آل عمران، باب: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾
وفي الأشربة، وباب: استعذاب الماء.
وأخرجه مسلم في الزَّكاة برقم (٩٩٨) باب: فَضْل النفقة والصَّدقة على الأقربين والزّوج. وأبو داود برقم (١٦٨٩). والترمذي برقم (٣٠٠٠). والنسائي (٦/ ٢٣١ و٢٣٢).

قرابتك» قال: فقسمها بين أُبي بن كعب وحسَّان بن ثابت[1].

* وبلغَ جودُ طلحة الأنصاريّ - رضي الله عنه - مبلغاً طيِّباً، جَعَلَ الله البركة في طعامه؛ حتى عمَّ ذلك جميع الضَّيوف الذين كان يدعوهم.

فقد كان أبو طلحة - رضوان الله عليه - يتفقَّد أحوال رسولِ الله ﷺ كيما يسارع إلى نَيْل مرضاة الله عزَّ وجلَّ بذلك. وذات مرّة شعر بأنَّ رسول الله ﷺ قد أثَّر فيهِ الجوعُ، فدعاه إلى الطَّعام، ولكنْ كانت هنالك مفاجأة؟ ترى ما هذه المفاجأة؟!.

* الصحابي الجليل أنس بن مالك - رضي الله عنه - يروي لنا خبرها فيما رواه الإمام مسلم - رحمه الله: قال: قال أبو طلحة لأمِّ سُلَيم: قد سمعتُ صوتَ رسولِ الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندكِ من شيء؟.

قال: نعم، فأخرجتْ أقراصاً منْ شعير، ثمَّ أخذت خماراً لها، فلفَّتِ الخُبزَ ببعضه، ثمَّ دسّته تحت ثوبي، وردتني ببعضه، ثمَّ أرسلتني إلى رسولِ الله ﷺ، فذهبتُ به، فوجدتُ رسولَ الله جالساً في المسجد، ومعه النَّاس، فقمتُ عليهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أأرسَلَك أبو طلحة؟».

فقلت: نعم.

فقال: «أَلِطَّعام؟».

فقلتُ: نعم.

فقالَ رسولُ الله ﷺ لمن معه: «قُوموا».

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/١٣٩) وفي هذا الحديث النّبويّ الشّريف منَ الفوائد:
أنَّ الصَّدقة على الأقارب أفضلُ منَ الأجانب إذا كانوا محتاجين.
وفيه أنَّ القرابةَ يراعى حقُّها في صِلَةِ الرّحم، وإنْ لم يجتمعوا إلا في أبٍ بعيد؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ أمَر أبا طلحة أنْ يجعلَ صدقته في الأقربين، فجعلها في أُبَيّ بن كعب وحسّان بن ثابت، وإنّما يجتمعان معه في الجدِّ السَّابع.

فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم حتى جِئْتُ أبا طلحة فأخبرتُه.

فقال أبو طلحة: يا أمَّ سُليم! قد جاءَ رسولُ الله ﷺ بالنَّاس وليس عندنا ما نطعمهم!

فقالت: اللهُ ورسولهُ أعْلم.

فانطلقَ أبو طلحة حتى لقيَ رسول الله ﷺ، فأقبل رسولُ الله ﷺ معه حتى دَخَلا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «هلمِّي ما عندكِ يا أمَّ سُليم!».

فأَتَتْ بذلك الخبز، فأمر به رسولُ الله ﷺ فَفُتَّ، وعَصَرتْ عليه أمُّ سُليم عكَّة[1] لها فأدمته[2]، ثمَّ قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أنْ يقولَ، ثمَّ قال: «ائذن لعشرة» فأذِنَ لهم فأكلُوا حتى شبعوا، ثمَّ خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذِنَ لهم فأكلُوا حتى شبعوا، ثمَّ خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» حتى أكلَ القوم كلُّهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون[3].

* وزاد أنس في روايةٍ أخرى: وأكل رسولُ الله ﷺ وأبو طلحة، وأم سليم، وأنا حتى شبعنا، وفضلتْ فضلة أُهديت لجيرانٍ لنا[4].

* وجود أبي طلحة ممزوجٌ بالورع، فقد تصدَّق مرَّةً ببستانٍ له، حيث سَهَا في صلاته؛ ذُكِرَ أنَّ أبا طلحة ـ رضي الله عنه ـ كان يُصلِّي في حائطٍ له، فطار دُبْسيٌّ[5]، فطفق يتردَّدُ يلتمسُ مخرجاً، فلم يَجِدْ لالتفافِ النَّخلِ، فأعجبه

---

(١) «العكة»: وعاء من جلد مستدير يختص بالسمن والعسل، وهو بالسمن أخص.

(٢) «أدمته» ـ بالمد والقصر لغتان، فيقال: آدمته، أو أدمته، أي: جعلت إداماً.

(٣) رواه مسلم. وللحديثِ رواية أيضاً عند البخاريّ، وانظر: البداية والنّهاية، فقد أوردَ ابنُ كثير عدداً من الرّوايات في ذكر ضيافة أبي طلحة الأنصاري رسولَ الله ﷺ، وما ظهر في ذلك اليوم من دلالات النّبوّة في تكثير الطّعام النّزرِ، حتى عمَّ من هنالك من الضّيفان، وأهل المنزل والجيران. (البداية والنّهاية ٦/١٠٥ ـ ١٠٩).

(٤) رواه مسلم.

(٥) «دُبْسيّ»: طائر أدكنَ يقرقر، والأدبسُ من الطَّير: الذي لونه بين السَّواد والحمرة.

ذلك، فأتبعه بصره ساعة ثمَّ رجع، فإذا هو لا يدري كم صلَّى، فقال: لقد أصابتني في مَالي هذا فتنة؛ فأتى النَّبيَّ ﷺ فذكرَ ذلك له، وقال: يا رسول الله! هو صدقة[1]، فَضَعْه حيثُ أراكَ الله عزَّ وجلَّ[2].

* هذا؛ وقد أورد جمهورٌ منَ المفسِّرين، وعددٌ منَ المحدِّثين أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خَصَّ أبا طلحة الأنصاريَّ - رضي الله عنه - بآيةٍ منَ القُرآن الكريم إذ

---

(١) قال أبو الليث السَّمرقندي - رحمه الله - في كتابه اللَّطيف «تنبيه الغافلين» عن فوائد الصَّدقة وفضلها: عليكَ بالصَّدقةِ بما قَلَّ أو كَثُر، فإنَّ في الصَّدقة عشر خصال محمودة، خمْس في الدُّنيا، وخمْسٌ في الآخرة.

فأمّا الخمس التي في الدُّنيا:

فأوّلها: أنَّ فيها تطهيراً للمال كما قال النَّبي ﷺ: «ألا إنَّ البيع يحضرهُ اللغو والحلفُ والكذب فشوبوه بالصَّدقة» رواه أبو داود برقم (٣٣٢٦).

والثَّاني: أنَّ فيها تطهير البدن من الذُّنوب كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والثَّالث: أنَّ فيها دفع البلاء والأمراض، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «داووا مرضاكم بالصَّدقة».

والرَّابع: أنَّ فيها إدخال السُّرور على المساكين، وأفضل الأعمال إدخال السُّرور على المؤمنين.

والخامس: أنَّ فيها بركة في المال، وسعة في الرزق كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

وأمَّا الخمس التي في الآخرة:

فأولها: أن تكون الصَّدقة ظلاً لصاحبها في شدَّة الحرّ.

والثَّاني: أنَّ فيها خفَّة الحِسَاب.

والثَّالث: أنها تثقل الميزان.

والرَّابع: جوازٌ على الصِّراط.

والخامس: زيادة الدَّرجات في الجنَّة.

ولو لم يكن في الصَّدقة فضيلة سوى دعاء المَساكين؛ لكانَ الواجبُ على العاقل أنْ يرغبَ فيها، فكيف وفيها رضا الله تعالى، وفيها الاقتداءُ بالصَّالحين، لأنَّ الصَّالحين كانت نهمتهم في الصَّدقة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٩) وللحديث أصل في موطأ الإمام مالك.

أنزل بسببه قوله الكريم في الأنصار: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩][١].

رِحْلَـةٌ مـعَ مآثِـرِ أبـي طَلحـةَ:

* لأبي طلحة الأنصاريّ ـ رضوان الله عليه ـ منْ فوائدِ المآثر ما تزدانُ به الصَّفحات، وما تُصْقَلُ به النُّفوس، ويكون الأسوة الصالحة لكل مُعتبر؛ إذ خلَّفَتْ لنا سيرته العطرة كثيراً منَ المكارم، والفضائل، والسَّجايا؛ التي تمتعُ الأسماعَ بحسنها، وتؤنسُ القلوبَ بكمالها وجلالها.

* فمن مآثره الحِسَان، أنَّه أَحَدُ الفُرسان الحُفَّاظ من الصَّحابة الكرام؛ الذين رووا حديثَ النَّبيِّ ﷺ، وله عن رسولِ الله ﷺ اثنان وتسعون حديثاً، اتَّفق البخاري ومسلم على حديثَيْن، وانفرد البخاريُّ بحديث ومسلم بآخر. روى عنه جماعة من الصَّحابة منهم: ابن عبَّاس، وأنس بن مالك وآخرون، وجماعات من التَّابعين[٢].

* ومن مروياته أنَّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تدخل الملائكةُ بيتاً فيه كلب ولا صورة»[٣].

ومن مآثر أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ أنه عاشَ بعد رسولِ الله ﷺ يسردُ الصَّوم، لا يفطرُ إلا يوم فِطر، أو أضحى، قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: عاش بعدَ رسولِ الله ﷺ نيفاً وعشرين سنة يسردُ الصَّوم[٤].

---

(١) انظر في ذلك تفسير ابن كثير للآية (٩) من سورة الحشر.
«خصاصة»: فقر واحتياج.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٤٥).

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٤) وللحديث أصل في الصَّحيحين؛ أخرجه البخاري (١٠/ ٣٢٠) ومسلم برقم (٢١٠٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩) وقال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ كانَ أبو طلحةَ ـ رضي الله عنه ـ يأتي أهْلَه فيدعو بغدائه فيقُال: لم يُصبح عندنا غداء، فيقول: إنّي صائمٌ.
وقال أنسٌ أيضاً: كان أبو طلحة لا يكثر الصَّوم على عَهْدِ رسول الله ﷺ مِنْ أجلِ =

وحَسْبُ أبي طلحة مفخرة وفضلاً أنِ اخْتَصَّه رسولُ الله ﷺ بشَطْرِ شَعْرِه، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال:

رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النَّحر، ثمَّ انصرف، ونَحر البُدْن، ثمَّ جاء والحلاّقُ جالس، فجلسَ، ثمَّ أخذ شقّ شعره الأيمن بيده، فقال للحلاق: «احلقْ» فحلقَ ذلك الشِّقّ، ثمّ قسمه من يليه من النّاس الشَّعْرة والشَّعرتَيْنِ؛ ثمَّ أخذ الشِّقَّ الآخر فقال للحلاق: «احلقْ» فحلَقَ ثمَّ قال: «ها هنا أبو طلحة» فقامَ أبو طلحة فدفعه إليه[1].

* وكان أبو طلحة ـ رضوانُ الله عليه ـ يلحدُ القبورَ لموتى المسلمين في المدينة المنوَّرة، وهو الذي لَحدَ لرسولِ الله ﷺ لما توفي، كما روى ذلك ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ[2].

وامتدتِ الحياةُ بأبي طلحة طويلاً حتى بلغ السَّبْعين، ففي سَنَةِ أربع وثلاثين من الهجرة النَّبويَّة، جاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقِّ، وَلَحِقَ أبو طلحةَ بالرَّفيقِ الأعلى، وصلَّى عليه عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ، ودُفِنَ في البقيعِ بالمدينة المنوَّرة على أصحّ الأقوال[3].

* والآن، فهل انتهى الحديثُ عن أبي طلحة الأنصاريّ؟ إنَّ ما كتبناه عنه، إنْ هو إلا طاقة منْ زَهْرِ رياضه اليَانِعَةِ، هل يستطيع كاتبٌ أنْ يستوعبَ سيرة فارسٍ من فرسان الرَّسول ﷺ في كتاب؟!!.

* إذاً، فقد كانت رحلتنا مع أبي طلحة رحلة عرفنا فيها بعضَ الفَضَائل عن

= الغزو، فلمّا قُبِضَ النّبيُّ ﷺ لم أره مُفْطِراً، إلا يوم الأضحى، ويوم الفطر. (مختصر تاريخ دمشق ٩/ ١٤٠).

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٩/ ١٣٨) وللحديث أصل عند مسلم في الحجّ برقم (١٣٠٥) باب: بيان أنَّ السُّنَّة يوم النّحر. والتّرمذي برقم (٩١٢).

(٢) انظر: البداية والنّهاية (٥/ ٢٦٦ و٢٦٧).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨) وفي وفاته أقوال كثيرة لا داعي لذكرها.

حياةِ هذا الفارس الصَّحابي النَّبيل النَّجيب، فرضيَ الله عنه وأرضاه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد الذي أَتحَفَ الدُّنيا بمثلِ هؤلاء الأعلام، فحقَّقوا الخير، ونشروا لواء الحق عالياً خفَّاقاً، فكان لهم شرف الريادة، والصحبة، والسلوك المُقْتَدَى به، فرضي الله عنهم، وأثابهم من نِعمه، وفَضْله، وإحسانه.

* * *

(١٧)

أبو قتادة الأنصاري

ـ رضي الله عنه ـ

عَرَفَه التَّاريخُ بلقب: فَارس رسولِ الله ﷺ، وجاء في الحديث: «خيرُ فرساننا أبو قَتَادة».

فـارسُ رَسُـولِ الله ﷺ:

* ليس مِنَ السَّهْلِ أنْ يحظى رجلٌ مِنْ رجالِ الصحابة الأنصار، على لقب فارسِ رسولِ الله ﷺ، دون أنْ يكونَ مِنْ أوْحَدِ الفُرسان قاطبة، وأشدِّهم شكيمةً، وأعلاهم همَّةً، وأعرفهم بمواطنِ الطَّعْنِ والضَّربِ.

* وفارسُ رسولِ الله تشريفٌ وتكريمٌ وشهادةٌ عُظمى لهذا الإنسان، الذي رسمَ أروعَ الصَّفحاتِ في تاريخِ ساحاتِ المغازي النَّبويَّة، وساحات التاريخ الإسلامي، منذ أنْ أذن الله للذين يُقاتَلون بأنَّهم ظُلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، إلى أنْ لقيَ الله عزَّ وجلَّ بوجهٍ نضرٍ مُشْرقٍ بأنوارِ اليقينِ، مصحوباً بدعوةٍ مباركةٍ كريمةٍ مستجابةٍ من رسول الله ﷺ، فكان من السَّادة النُّجب الأطهار.

* وسيرةُ هذا الفارس من السِّيَر الحُلوة التي تأخذُ بمجامع النُّفوس، لما فيها من عِظَمات بالغة، ووقَفات موفَّقة في تاريخِ الفروسية الحقَّة، والجهاد الإسلامي، وحسبك أنْ تعلمَ أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وهو أشجع الصَّحابة وأبصرهم بالرجال ـ قد سمَّى بطلنا أسَداً مِنْ أُسُد الله عزَّ وجلَّ.

* نعم، فبطلُنا اليوم سيِّد الفُرسان وخيرُ الشُّجعان، ومن فُضَلاء الصَّحابة الأخيار الأبرار، أثنى رسول الله ﷺ على شجاعته وفروسيته وقوَّته فقال: «خيرُ فرساننا أبو قتادة»[1]، إذاً فرحلةُ الفروسيةِ اليوم ستكون مع أبي قتادة، واسمه: الحارث بن ربعيّ بن بَلْدَمة الأنصاريّ الخزرجي السُّلَميّ[2].

---

(1) أخرجه مسلم برقم (١٨٠٧).
وقدّمه ﷺ لأبي قتادة لشدّة غَنائه في غزوة ذي قرد.

(2) مسندُ أحمد (٤/ ٣٨٣) و(٥/ ٢٩٥) وطبقاتُ ابن سعد (٦/ ١٥) وتاريخ خليفة (ص ٩٩ و١٠٥ و٢٠١ و٢٢٣) والمستدرك (٣/ ٥٤٦ و٥٤٧) والاستبصارُ (ص ١٤٦ ـ ١٤٨) والاستيعابُ (٤/ ١٦١ و١٦٢) وجامعُ الأصول (٩/ ٧٧ و٧٨) والبداية والنّهاية (٨/ ٦٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢) والعبر (١/ ٦٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٩ ـ ٤٥٦) وتهذيب التهذيب (١٢/ ٢٠٤ و٢٠٥) والإصابة (٤/ ١٥٧ و١٥٨) والفتوحات =

* وأبو قتادة هذا مشهورٌ بكنيته التي تفرَّدَ بها بين الصَّحابة الأخيار، قال ابنُ علَّان الصِّدِّيقي ـ رحمه الله ـ: ولا يُعلم أحدٌ في الصَّحابة يُكنى بهذه الكنيةِ غيره[1]، ووصفه بقوله: الصَّحابي الجليل فارسُ رسولِ الله ﷺ[2].

وحُقَّ له ذلك، لِما أبلاه من ضروب الجهاد، وصنوف الفروسية التي أدهشت الصديق، وحيَّرت العدو.

الفَـارِسُ الحَـافِظُ للسُّـنَّـة النبويـة:

* منذ أنْ حَلَّ رسولُ الله ﷺ المدينةَ المنوَّرة، راحَ أبو قتادة يحضرُ ما وسعه أنْ يحضرَ منَ المجالسِ النَّبويةِ، يطلب العلم، ويَغْتَرِفُ منْ معينِ رسولِ الله ﷺ العلميّ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً، وما وسعه الجهد، ولقد حَبَاهُ الله عزَّ وجلَّ حافظةً قويةً، بالإضافةِ إلى فروسيته النَّادرة، فكان مِنْ السادة الأعلام الذين حَفظوا حديثَ رسولِ الله ﷺ، وبلّغوه، فحظوا بالنضارة التي بشَّر بها النبيُّ ﷺ في قوله: «نضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فأدّاها، فربَّ مبلّغ أوعى من سامع».

* روي له عن رسولِ الله ﷺ مئة وسبعون حديثاً، اتفق الشَّيخان على أحد عشرَ حديثاً، وانفرد البخاريُّ بحديثين، ومسلم بثمانية أحاديث[3].

حَدَّث عنه أنس بن مالك، وهو من الصَّحابة، كما حدَّث عنه عددٌ كبير من أعْلام عُلماء التَّابعين منهم: سعيد بن المسيِّب، وعطاء بن يسار، وعليّ بن رَبَاح، وعبد الله بن رباح الأنصاريّ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وابنه عبد الله بن أبي قتادة، وآخرون[4].

= الربّانية على الأذكار النّواوية (٣/ ١٨٩ و١٩٠) وحياة الصَّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٧٦) وغيرها من كتب الحديث والتّاريخ والسّير والمغازي.

(١) انظر الفُتوحات الرّبانية (٣/ ١٨٩ و١٩٠).

(٢) انظر الفُتوحات الرّبانية (٣/ ١٨٩ و١٩٠).

(٣) الفتوحات الربانية (٣/ ١٨٩ و١٩٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٩).

* ومن محفوظاتِ فارسِ رسول الله ﷺ في مجال الجهاد، وما أورده الإمام محمّد بن الحَسَن الشَّيبانيّ في كتابه «السّير الكبير» عن أبي قتادةَ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ يخطبُ النَّاس، فحمدَ الله، وأثنى عليه، ثمَّ ذكرَ الجهاد، فلم يدعْ شيئاً أفضل منَ الجهادِ إلا الفرائض[1]، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله! أرأيتَ مَن قُتِلَ في سبيل الله هل ذاك مُكفِّر عنه خطاياه؟ قال: فسكتَ ساعةً حتى ظننَّا أنَّه قد أُوحيَ إليه، ثمَّ قال: «نعم إذا قُتِلَ محتسباً صابراً مقبلاً غير مدبر، إلا الدَّين فإنَّه مأخوذٌ به كما زعم جبريل عليه السلام»[2].

الفَارِسُ المُجِدُّ المُجَاهِدُ الجريء:

* يبدو أبو قتادة الأنصاريّ ـ رضوان الله عليه ـ وهو يحملُ لقبَ فارس رسولِ الله ﷺ يحتلُّ الصَّفَّ الأوَّلَ في مقامِ الفروسيّة، ولعمري فالمُجِدُّ المُجاهدُ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ يتَّسمُ بصفاتٍ كريمةٍ يتّصف بها سائر المؤمنين؛ إلا أنَّ فرسانَ المجاهدين يفضُلون غيرهم كما ذكر الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

* وأعتقد أنَّ أبا قتادة ـ وهو الحافظُ العالم ـ كان يسمعُ هذه الآيات الكريمة وغيرها، فكان حُبُّ الفروسيةِ ينمو في نفسهِ الخصْبَة يوماً بعد يوم، ويعانقُ مشاعره الفيّاضة بالإيمان وحبّ الإسلام، فيسعى في سَاحِ الحرب ليبدعَ في فنونِ القتال لتكون كلمةُ الله هي العليا، ويسارع إلى الاستجابةِ لداعي الجهاد إنْ أمرٌ ألَمَّ.

---

(١) يريدُ به الفرائض التي يثبتُ فرضها عَيْناً، وهي الأركانُ الخمسة، والجهادُ فرضٌ أيضاً، لكنّه فرضُ كفاية، والثّواب بحسبِ وَكَاده الفريضة. فما يكون فرضاً عيناً فهو أقوى، فلهذا استثنى الفرائض منْ جملةِ ما فضَّلَ رسول الله ﷺ الجهاد عليه.

(٢) انظر: شرح السّير الكبير (١/ ٢٣ و٢٤).

* وفي ميدان مغازي رسولِ الله ﷺ كان لأبي قتادة سعيٌ مشكورٌ، فقد شهدَ غزاةَ أحد، والحديبية، وكان منْ أهلِ بيعة الرضوان الذين حظوا بمرضاةِ الرحمن، كما حضَرَ سائر المشاهد، وكان له بها أثر كريم ميمون، وبصمة لا تُنْسَى، إذ كان اسمه لامعاً، وسلوكه منداحاً، وأفعاله تشهد على جلال صُنْعه.

* وفي طريق الفداء والفدائية، شارك أبو قتادة في قَتْلِ سلام بن أبي الحُقيق اليهوديّ، حيثُ كان سلاَّم ـ وكنيته أبو رافع ـ مِنْ أكابر مجرمي اليهود الذين حزَّبُوا الأحزابَ ضِدَّ المسلمين، وأعانهم بالمُؤَنِ والأموال الكثيرة، وكان يؤذي رسولَ الله ﷺ، فاستأذنَ فرسانٌ مِنَ الأنصار مِنْ بني الخزرج رسولَ الله ﷺ في قَتْله، حيثُ كانَ فرسانٌ منَ الأوسِ، قد قضُوا على كَعْبِ بنِ الأشْرف[1] اليهوديّ من قبلُ، فرغبتِ الخزرجُ في إحرازِ فضيلةٍ مثل فضيلتهم، فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

* أذنَ رسولُ الله ﷺ في قَتْله، فخرجتْ سريةٌ قوامها خمسة فرسان من بني سَلَمة منَ الخزرج، وهم: عبد الله بن عتيك وهو أمر السَّرية، ومسعودُ بن سنَان، وعبد الله بن أُنَيس، وخزاعيُّ بن أسود، وفارسُ رسول الله أبو قتادة الأنصاريّ ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ وأوصاهم ألاَّ يقتلوا وليداً ولا امرأة.

ونفذَّتِ السَّرية مهمّتها بأكملِ وَجْه، وعادوا إلى رسولِ الله ﷺ فلمّا رآهم قال: «أفلحتِ الوجوهُ» فحدَّثوه بما كان مِنْ قَتْلِ عدو الله سلام بن أبي الحُقيق، فظهر السُّرور على وجهه الشَّريف، وكانَ قَتْلُ أبي رافع ـ كما أشار ابنُ سعد ـ في رمضانَ سنة ستّ منَ الهجرة، بينما ذكرت بعض المصادر أنَّ مقتله كان في ذي الحجّة سنة خمس من الهجرة[2].

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر الخبيث في كتابنا «المبشّرون بالنار» (١/ ٢١٣ ـ ٢٣٦) ستجد عظمة رسول الله ﷺ، وصبره على أذية هذا الخبيث، وستقف على عاقبة الظالمين كما صورها القرآن الكريم.

(٢) انظر خبر هذه السرية بالتفصيل في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: قتل أبي رافع.

* وفي غزوة الغابةِ ـ أو غزوة ذي قرد ـ كان لأبي قتادة وقفة عطرة، حظيَ يومها بلقب شريف؛ وتشريف منْ رسولِ الله ﷺ ظلَّ يصاحبه إلى أن لقيَ الله عزَّ وجلَّ، وسيظلُّ إلى ما يشاء الله.

* وغزاةُ الغابةِ، هي أوَّل غزاةٍ غزاها رسولُ الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل غزاة خيبر.

* ذكر الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه أنَّها كانتْ قبل خيبر بثلاث؛ وروى ذلك الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ مسنداً من حديثِ سلمةَ بنِ الأكوع[1] ـ رضي الله عنه ـ.

* وذكر الجمهور من أهل المغازي والسِّيَر، أنَّ غزوة الغابة كانت قبل الحُديبية، وأعتقد جازِماً أنَّ ما وردِ في الصَّحيح هو الصَّحيح[2] إنْ شاء الله.

* وخلاصةُ تلكم الرِّوايات التي يرويها بطلُ الفرسان وسيِّد العدَّائين سلمة بن الأكوع، أنَّ بني فزارة قد أغاروا على سَرْح المدينة بقيادة عبد الرحمن بن عُيينة الفزاريّ، فنادى سلمةُ بنُ الأكوع مُنْذِراً أهلَ المدينة، واستطاع أنْ يناوشَ القوم، ويرميهم بنباله الصَّائبة، ويقذفهم بالحجارةِ، حتى جاءت فوارسُ رسولِ الله ﷺ، وفيهم أبو قتادة والمقداد بن الأسود وعكّاشة بن محصنَ وآخرون، ثمَّ أدركهم رسولُ الله ﷺ بخمسمئة من أصحابه، وحمل أبو قتادة على عبد الله بنِ عيينة فطعنه طعنةً فقتله، وولّى القومُ مُدْبرينَ، وعاد المسلمونَ إلى المدينة المنوّرة، بعد أنْ لقَّنُوا بني فزارة درساً لن ينسوه، ويومها قالَ رسولُ الله ﷺ: «خيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخيرُ رجالتنا سلمة»[3].

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس الرّاجل العداء الكريم في هذا الكتاب ص(٢٠٥).

(٢) انظر في هذا: صحيح البخاري، باب: غزوة ذات قرد. وصحيح مسلم: باب غزوة ذي قرد وغيرها. وانظر: تعليق الحافظ ابن حجر في الفتح على ذلك، وانظر كذلك: زاد المعاد لابن قيم الجوزية، حيث أفاض في هذا الموضوع، وانظر: البداية والنّهاية (٤/ ١٥١).

(٣) انظر: الاستبصار (ص ١٤٦ و١٤٧) ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٢ و١١٣) =

* حقاً لقد كان أبو قتادة يومها فارسَ غزاةِ الغابة وأَسَد الغابة، فقد سجَّلَ أثراً وضيئاً في تاريخ المغازي، ويومها أيضاً حَظِيَ بدعوةٍ مستجابةٍ مباركةٍ مِنْ رسولِ الله ﷺ، نظراً لجرأته، وسرعة تلبيته، وجهاده الدائم لإعلاء كلمة الحق والدِّين.

* يقول أبو قتادة: لمَّا أدركني رسولُ الله ﷺ يومئذ، ونظر إليَّ قال: «اللهم بارِكْ له في شَعْرِهِ وبَشَرِه» وقال: «أَفْلَحَ وجهُكَ»[1].

فقلتُ: ووجهك يا رسول الله!.

قال: «فما هذا الذي بوجهك؟».

قلت: سَهْمٌ رُميتُ به يا رسول الله!.

قال: «فادنُ منّي».

فدنوتُ منه، فبصقَ عليه، فما ضرب عليَّ ولا قاح[2].

وقد سَجَّلَ شُعراء رسول الله ﷺ غزاةَ ذي قَرَدٍ في أشعارهم، ومنهم

= والبداية والنهاية (٤/ ١٥٣) وللحديث أصل في صحيح الإمام مسلم برقم (١٨٠٧) وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٥٢ و٥٣).

(١) ذكر صاحبُ السِّيرة الحلبية أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأبي قَتادة: «أفلحَ وجهكَ يا أبا قتادة» قال أبو قتادة: ووجهك يا رسول الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «أبو قتادة سيِّد الفرسان، بارك الله فيك يا أبا قتادة! وفي ولدِكَ ووَلَدِ ولدك».
(السيرة الحلبية ٢/ ٦٨٤).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٤٤ و٥٤٥) والمستدرك (٣/ ٥٤٦) والاستيعاب (٤/ ١٦١) ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٣) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥٠).
هذا وذكر ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ خبراً آخر في هذا المجالِ، حيث أوردَ خبراً عن أبي قتادة أنَّه قال للنَّبيِّ ﷺ: إنِّي جيِّدُ السِّلاح، وجَيِّدُ القلب، وفرسي قويٌّ، فأرسلني يا نبيَّ الله يمْنةً ويسرةً.
فقال: «إنِّي أشفقُ عليك يا أبا قتادة!».
قال: ثمَّ وقع في عينه سَهْم، فأخرجه النَّبيُّ ﷺ، وتَفَل في عينِهِ (مختصر تاريخ دمشق ٢٩/ ١١٢).

حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومما قاله كعب بن مالك يمدحُ فرسان المسلمين يومئذ:

أيحســـــب أولاد اللقيطــــــة أنّنـــــا
على الخيـلِ لَسْنَـا مثلهـم فـي الفـوارسِ
وإنّـــا أنــــاسٌ لا نــــرى القَتْـــل سبَّــةً
ولا ننثنــي عنــد الـرِّمـاحِ المـداعــسِ
وإنّـا لَنَقْـري الضَّيْـف مـن قَمَـعِ الـذُّرا
ونضــــرب رأسَ الأَبْلـــخ المُتَشــــاوسِ
نـــردُّ كمــــاةَ المُعْلَميــــن إذا انتخـــوا
بضــــربٍ يُسَلِّــي نَخْــوةَ المتقـــاعـــسِ
بكــلِّ فتــىً حــامــي الحقيقــة مـاجـد
كــريــم كسِـرْحــان الغَضَــاة مُخـالــسِ
يَـذُودونَ علــى أحســابهــم وتِــلادِهِــم
بِبِيـضٍ تَقُـدُّ الهـامَ تحـت القَـوانِـسِ[(١)]

أَبـو قَـتَـادة وسَريتــهُ إلــى غَـطَفـــانَ:

* ذكرَ أصحابُ المغازي والسِّير والطَّبقات أنَّ رسولَ الله ﷺ قد جَعَلَ أبا قتادة أَحَدَ أمراء السَّرايا، فقد أرسله على رأسِ سريةٍ إلى غطفانَ أرض محارب، وهي بنَجْدٍ.

* ففي شهرِ شعبانَ سنة ثمانٍ من الهجرة النّبوية، بعثَ رسولُ الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً إلى غطفانَ، وأمره أنْ يَشُنَّ عليهم الغارة، فسَار

---

(١) البداية والنّهاية (٤/ ١٥٥).
«المداعس»: المطاعن. «القمع»: جمع قمعة وهي أعلى سنام البعير. «الذرا»: الأسنمة. «الأبلخ»: المتكبر. «المتشاوس»: الذي ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر. «انتخوا»: تكبروا. «المتقاعس»: الذي لا يلين ولا ينقاد. «السرحان»: الذئب. «الغضاة»: شجرة. «يذودون»: يمنعون ويدفعون. «التِلاد»: المال القديم. «القوانس»: أعالي بيض الحديد.

الليل، وكمنَ النَّهار، حتى هجمَ على حاضرٍ منهم عظيم، فأحاط به[(١)].

فَصرخَ رجلٌ منهم: يا خضرة[(٢)]؛ وقاتل منهم رجالٌ، فَقَتَلوا مَنْ ظهر لهم، واستاقوا الأنعامَ، فكانتِ الإبلُ مئتي بعير، والغنم ألفي شاة، وسبوا سبايا كثيرة، وجمعوا الغنائم، فأخرجوا الخُمُس فعزلوه، فأصاب كلَّ رجلٍ منهم اثني عشر بعيراً، فَعُدِلَ البعيرُ بعشْرٍ منَ الغَنَم، وصارتْ في سَهْم أبي قتادة جارية حسناء وضيئة، فاستوهبها منه رسول الله ﷺ فوهبها له، فوهبها رسولُ الله ﷺ لمحميَّة بن جَزْء، وغابوا في هذه السَّرية خمس عشرة ليلة[(٣)].

* ولما همَّ رسولُ الله ﷺ بغزوِ أهل مكةَ، بعثَ أبا قتادة ـ رضي الله عنه ـ في ثمانية نفر سرية إلى بَطْنِ إِضم[(٤)]، وبينها وبين المدينة ثلاثة بُرد[(٥)]، ليظنَّ ظانٌّ أنَّ رسولَ الله ﷺ توجَّهَ إلى تلك النَّاحية، ولكن تنتشرَ بذلك الأخبارُ،

---

(١) أورد أحدُ شهودِ عيان حُسْنَ تدبيرِ أبي قتادة في هذه السَّرية فقال: لما هجمنا على حاضرٍ منهم عظيم ليلاً ـ أي: حَيٌّ ـ خَطَبَنَا أبو قتادة وأوصانا فقال: إذا كبّرت فكبّروا، وإذا حَملتُ فاحملوا، ولا تمعِنُوا في الطَّلبِ ـ أي: لا تبعدوا في الذَّهاب في الغنيمة ـ وألَّفَ بين كلِّ رجلين وقال: لا يفارق رجل زميله حتى يُقتل أو يرجع إليَّ فيخبر في خبره، ولا يأتيني رجل فأسأله عن صاحبه فيقول: لا علم لي به. (شرح السِّير الكبير ١/ ٧٩).

(٢) «خُضرة»: ضَبَطها بعضهم بضمِ الخاء وسكون الضَّاد «خُضْرة» بينما وردت في مختصر تاريخ دمشق بفتح الخاء وكسر الضَّاد «خَضِرة» بينما ضبطها محققُ الجزء الثاني من سيرِ أعلامِ النُّبلاء بكسر الخاء وسكون الضَّاد «خِضْرة». وخضرة: أرض بنجد، وقد سُمِّيت السرية باسمها.

(٣) عيون الأثر (٢/ ٢١٩) والسِّيرة الحلبية (٣/ ٢٠٤) مع الجمع والتَّصرف اليسير. وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٢ و١٣٣) ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٤ و١١٥) وأنساب الأشراف (١/ ٣٨١) وغيرها.

(٤) «إضم»: مكان بين مكة واليمامة.

(٥) «بُرد»: جمع بريد، ويساوي أربعة فراسخ، أي: حوالي (٢٤ كم)، فالمسافة بين بطن إضم والمدينة: (٧٢كم).

فمضوا ولم يلقوا كيداً أو جمعاً، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خشب[1]. فبلغهم أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه إلى مكةَ، فأخذوا على بَيْن[2]، حتى لقوا رسولَ الله ﷺ بالسُّقيا[3]، فساروا في ركابه حتى دخلوا المسجدَ الحرام آمنين محلِّقينَ رؤوسهم ومقصرينَ، لا يخافون أحداً إلا الله عزَّ وجلَّ[4].

مِنْ أُسْـدِ الله تعالـى:

* شيءٌ جميل أنْ يعرفَ الفرسانُ أقدارَ بعضهم، فلا يَعرِف الفَضْل لأهل الفضل، إلا أهلُ الفضل؛ ومنْ أهلِ الفَضْل والإفضال هنا أبو بكر الصديق ـ عليه سحائب الرِّضوان ومُزْن المغفرة ـ فقد عَرَفَ مكانة أبي قتادة في عالَم الفروسيّة، وعلم أنَّ أبا قتادة قد اقتعد مكانةً عُليا في سُدَّة الفضل في هذا المجالِ، لذلك سمّاه يوم حُنين أسداً منْ أُسودِ الله، وهو الجديُر بهذا اللقب.

* وها نحنْ أولاءِ مرسلو القَوْل في ذلك، فيما وَرَدَ في موطأ الإمام مالك، وكذلك ما وَرَدَ في الصَّحيح والسنن عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

* ففي يوم حُنين، خاضَ أبو قتاة غمارَ المعركة، وثبتَ مع رسولِ الله ﷺ ثباتَ الشُّمِّ الرَّواسي، وكانَ من المئةِ الصَّابرة، ويومها قَتَلَ رجلاً من المشركين، فأعطاهُ رسول الله ﷺ سَلَبَه، وشهد له بالصِّدْقِ.

---

(1) «ذو خشب»: موضعٌ على مرحلةٍ منَ المدينة إلى الشَّام قبل وقعة الحرّة، وتوجد الآن أنقاضُ خشب على بعد (٣٥كيلاً) من المدينة المنوّرة على ضفةِ وادي الحمض الشَّرقية، وتوجد بوابة عالية من الآجر الأحمر على أنقاض قلعة في ذلك الموضع. (كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ص ٦٥١) لأبي إسحاق الحربي.

(2) «بَيْن»: وادٍ به عينٌ من أعراض المدينة على مسافة بريد منها.

(3) «السُّقيا»: موضع يُعرف بسقيا يزيد، وسقي الجزل، للتفريق بينها وبين سقيا غفار، وتقع في وادي القرى، (وادي العلا) وتعرف الآن باسم: أمّ البرك، الواقعة في وادي القاحة على بعد (٨٢ كم) شمال شرقي مستورة و(٥٣ كم) غرب الفرع. انظر (معجم معالم الحجاز ٤/ ٢١٠ و٢١١).

(4) عن السّيرة الحلبية (٣/ ٢٠٦ و٢٠٧) بتصرف. وانظر مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٥)، وعيون الأثر (٢/ ٢٢٠).

* أخرجَ الإمامُ مالك ـ رحمه الله ـ في «الموطأ» في كتاب الجهاد، باب: ما جاء في السَّلَب في النفْلِ، بسنده عن يحيى بن سعيد، عن عمر بن كثير بن أملح، عن أبي محمّد مولى أبي قتادة، عن أبي قتادة بن ربعي أنَّه قال: ـ خَرَجْنَا معَ رسولِ الله ﷺ عام حنين؛ فلمّا التقينا، كانتْ للمسلمين جولةٌ، فرأيتُ رجُلاً منَ المشركين قد عَلا رجُلاً منَ المسلمين، فاستدرتُ له، حتى أتيته منْ ورائِه، فضربته بالسَّيفِ على حَبْلِ عاتقه، فأقبلَ عليَّ، فضمّني ضمَّة، وجدتُ منها ريح الموت؛ ثمَّ أدركه الموتُ، فأرسلني، فلقيتُ عمرَ بنَ الخطاب، فقلتُ: ما بالُ النّاس؟.

فقال: أَمْرُ اللهِ.

ثمَّ إنَّ النّاس رجعوا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً له عليه بيّنة، فَلَهُ سَلَبُه».

فقمتُ، ثمّ قلتُ: مَنْ يشهدُ لي؟.

ثمَّ جلستُ؛ ثم قال: «مَنْ قَتَلَ قتيلاً له عليه بيّنة، فله سَلَبه».

فقمتُ، ثمّ قلتُ: من يشهد لي؟.

ثمَّ جلستُ، ثم قال ذلك الثّالثة.

فقمتُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما لَكَ أبا قتادة؟».

فاقتصَصْتُ عليه القِصّة.

فقال رجلٌ منَ القومِ: صَدَقَ يا رسول الله، وسَلَبُ ذلك القتيل عندي، فأَرْضِهِ عنه يا رسول الله!.

فقال أبو بكر: لاهاءَ الله، إذاً لا تَعْمِدُ إلى أَسَدٍ منْ أُسْد الله، يقاتلُ عن الله ورسوله، فيعطيك سَلَبَه!.

فقال رسولُ الله ﷺ: «صَدَق، فأَعْطِهِ إياه».

فأعطانيه، فبعتُ الدِّرعَ، فاشتريتُ به مخرفاً في بني سَلمة، فإنّه لأوّل مَالٍ تأثلته في الإسلام[1].

---

(١) الحديثُ أخرجه الإمام مالك بهذا اللفظ في كتاب الجهاد، باب: ما جاء في السَّلب في النَّفل حديث رقم (١٨) الموطأ (٢/ ٥٤).
وأخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس برقم (٢١٤٢) باب: مَنْ لم يخمس الأسلابَ، ومَن قَتَلَ قتيلاً فله سَلَبه من غير أنْ يخمسَ وحكم الإمام فيه.
وأخرجه في كتاب البيوع برقم (٢١٠٠) باب: بيع السّلاح في الفتنة وغيرها، وكره عمران بن حُصين بيعه في الفتنة.
وأخرجه في كتاب المغازي برقم (٤٣٢١) و(٤٣٢٢).
وأخرجه في كتاب الأحكام برقم (٧١٧٠) باب الشّهادة تكون للحاكم في ولاية القضاء، أو قبل ذلك للخصم.
وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير برقم (١٧٥١) باب: استحقاق القاتل سَلَب قتيله.
وأخرجه أبو داود في كتاب برقم (٢٧١٧) باب: في السّلب يُعطى القاتل.
وأخرجه التّرمذي برقم (١٥٦٢). وأخرجه كذلك ابن ماجه في سننه.
وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٩٠ و٢٧٩).
وانظر: شرح السِّير الكبير (٢٠/ ٦٠١و٦٠٢) والاستبصار (ص١٤٧) والبداية والنهاية (٤/ ٣٢٨و٣٢٩) وغيرها.
و«جولة»: أي: حركة فيها اختلاط وتقدم وتأخر.
«قد علا رجلاً من المسلمين» أي: ظهر عليه، وأشرف على قتله، وصرعه، وجَلَسَ عليه ليقتله.
«على حَبْل عاتقه»: عِرْقٌ أو عصب عند موضع الرِّداء منَ العنق، بين العنق والمنكب.
«ريح الموت»: أي: شدّة كشدته.
«سَلَبه»: ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره.
«لاهاء الله إذاً»: الهاء هنا للتّنبيه، وقد يُقْسَمُ بها فيقال: لاها الله ما فعلتُ كذا، ولا يكون ذلك إلا مع الله، فلم يسمع لاها الرحمن، أو غيره منْ أسماءِ الله تعالى، ومعنى العبارة: لا والله، هذا ما أقسم به.
وذكر المَازريُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ لاهاء الله إذاً؛ خطأ، والصَّواب: لاهاالله ذا (عمدة =

* وهكذا أكرمَ الله عزَّ وجلَّ أبا قتادة، وأصبحَ صاحب زروعٍ وبساتين ببركةِ الجهاد والدِّفاع عنِ اللهِ ورسوله، وعنِ الحقِّ، وأهل الحقِّ.

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنَّ قولَ رسولِ الله ﷺ «مَنْ قَتَلَ قَتيلاً له عليه بينة فَلَه سلبه» يُعَدُّ فتوى منه ﷺ، وإخباراً عن الحكم الشَّرعي، فلا يتوقف على قول أحد، ولأنَّ السَّلَبَ مأخوذٌ منَ الغنيمة بغيرِ اجتهاد الإمام، فلا يفتقر إلى شرطه[1].

قُطُوفٌ دانيـةٌ مِنْ سِيـرَةِ أبـي قَتـادةَ الوضيئـة:

* في ظلالِ سيرة أبي قَتادة ـ رضوان الله عليه ـ أفياء تنضحُ بالعطر الفوَّاح، يستحسنُ الوقوف تحتها، كي نقتطفَ العبرة والعِظَة، ونعرف القدوة والأسوة الطَّيِّبة، وكل مواقف أبي قتادة دروسٌ نموذجية في السلوك الجيِّد.

* من ذلك أنَّه حَرَسَ رسول الله ﷺ. روى أبو قتادة ذلك فقال: كُنَّا معَ رسولِ الله ﷺ في بعض أسفاره، إذ تأخر عن الرَّاحلة، فدعمتُه بيدي، حتى استيقظ فقال: «اللهم احفظْ أبا قتادة كما حفظني منذُ الليلة، ما أرانا إلا قد شققنا عليك» أو قال: «حفظَكَ الله كما حفظتَ رسوله»[2].

* وعلى الرغم منْ أنَّ أبا قتادة كان منْ وُعَاة الحديثِ النَّبويّ، فإنَّه كان لا يكثر الحديثَ خيفةَ أنْ يقعَ في النِّسيان، قال أبو أَسِيْد: قلتُ لأبي قتادة:

= القاري في شرح صحيح البخاري (١٧/ ٣٠٠).
«لا يعمد»: لا يقصد.
«إلى أسد»: أي إلى رجل كأنَّه أسد في الشَّجاعة والفروسية.
«مَخرفاً»: أي بستاناً، سمّي بذلك لأنَّه يخترف منه التَّمر، أي: يجتنى.
«تأثلته»: أي اقتنيته وتأصّلته، وأثلة كل شيء: أصله، ويُقال: تأثّل مالاً. أي: أصّله. وتأثل مالاً: أي اكتسبه واتخذه وثمره.

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٢٣٧).

(٢) انظر: البداية والنّهاية (٦/ ٩٩) ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١١) والإصابة (٤/ ١٥٨) وللحديث أصل في الصَّحيح، فقد أخرجه مسلم في المساجد مطولاً برقم (٦٨١) باب: قضاء الصَّلاة الفائتة، وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٠٢).

ما لكَ لا تحدِّثُ عن رسول الله ﷺ كما يحدِّثُ عنه النَّاس!.

فقال أبو قتادة: سمعتُ رسولَ الله قال: «مَنْ كذَبَ عليَّ فليسهل لجنبه مضجعاً من النَّار» وجَعَل رسولُ الله ﷺ يقول ذلك ويمسح الأرض بيده[1].

* وفي حديث غيره أنَّ أبا قتادة قال: إنِّي أخشى أنْ يزلَّ لساني بشيء لم يقُلْهُ رسول الله ﷺ، إنِّي سمعته يقول: «مَنْ كذَبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده منَ النَّار»[2].

* وكان أبو قتادة - رضي الله عنه - منْ فُرسان الفُتُوحات الإسلاميَّة، ومن الصَّناديد الذين كان يَعتمِدُ عليهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -. فقد وَرَدَ أنَّ عمرَ قد بَعَثَ أبا قتادة - رضي الله عنه - فَقَتَل ملكَ فارس بيده، وعليه مِنْطقة قيمتها خمسة عشر ألفاً، فَنَفَلها إياه عمر[3].

* وظَلَّ أبو قتادة - رضي الله عنه - يحظى باحترامِ وُلاَة المدينة المنوَّرة، فلمَّا كان مروان بن الحكم والياً على المدينة، أرسل إلى أبي قتادة، وطلب منه أنْ يريه مواقفَ النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، فانطلقَ معَ مروان حتى قضى حاجته[4].

* وتروي المصادرُ التَّاريخية وغيرها أنَّ أبا قتادة كان منْ أنصارِ عليِّ بنِ أبي طالب - رضي الله عنه - فكان معه يوم الجَمَل[5]، وقاتل معه الخوارج[6]، وكان له مقام رفيعٌ عند علي - رضي الله عنه - حيثُ شَهِدَ معه مشاهده كلَّها.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥١ و٤٥٢).
(٢) هذا الحديث من الأحاديث المتواترة المشهورة، رواه أكثر من سبعينَ صحابياً عن رسولِ الله ﷺ.
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٢) والإصابة (٤/ ١٥٨) ومن الجدير بالذكر أن أبا قتادة قد شارك في قتال المرتدين في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -.
(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٧) بتصرف يسير.
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٢٣٣ و٢٣٤).
(٦) البداية والنهاية (٧/ ٢٨٨ و٢٨٩).

* ولعلَّ أجملَ ما رُوي عن أبي قتادةَ هذه الحادثة التي نتفيأ في ظلالها، ونستروح أفياءها، والتي تثيرُ الإعجاب بهذا الفارس الشَّهم الذي كان يتمثّل قولَ رسولِ الله ﷺ في حياته العَمَليّة، دقيقها وجليلها.

* روي أنَّ أبا قتادة - رضي الله عنه - كان له على رجُلٍ دَيْنٌ، فكان يأتيه يتقاضاه، فيختبىءُ منه، فجاءَ ذاتَ يوم، وثَمَّ صبي، فسأل عنه فقال: نعم هو في البيتِ يأكل خزيرة[1]. فناداه: يا فلان! اخرجْ إليَّ فإنِّي قد أُخْبِرتُ أنَّكَ هاهنا؛ فخرجَ إليه، فقال: ما يُغَيِّبك عني؟.

فقال: إنِّي مُعْسِرٌ، وليس عندي شيء.

قال أبو قتادة: آلله، إنك مُعْسر؟.

قال الرَّجل: نعم.

فبكى أبو قتادة وقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ تركَ لغريمه، أو مَحَا عنْ غريمِهِ، كان في ظلِّ العرشِ يوم القيامة»[2].

وَدَاعاً خَيْرَ الفُرسَان الأخيار:

* تشير المصادر إلى أنَّ أبا قتادة الأنصاريَّ - رضي الله عنه - قد عاشَ سبعينَ سنة، وهو نَضِرُ الوَجْه كأنَّه ابن خمس عشرة سنة؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ قد دَعا له بذلك. وأوردَ الإمامُ الذَّهبيُّ - رحمه الله - أنَّ أبا قتادة - رضي الله عنه - له عدّة أولاد وهم: عبد الله، وعبد الرحمن، وثابت، وعُبيد، وأمّ البنين، وأمّ أبان. وفي سنةِ أربع وخمسين توفي فارسُ رسولِ الله ﷺ في المدينة المنوّرة، ودُفنَ في البقيع[3].

---

(١) «الخزيرة»: مرقة، وهي أن تصفّى من بلالة النخالة ثمّ تطبخ.
(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ١١٥ و١١٦).
هذا، وإن تمثُّلَ أبي قتادة للوصايا النبوية؛ ليوحي بإيمانه العميق، وحُسْن تَتَبُّعه للسُّنن، واستلهامه للأخلاق النبيلة من أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله، وحياته العملية الخيِّرة.
(٣) المستدرك (٣/ ٥٤٧) وانظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٢ و١٦٣) والفتوحات الربانية (٣/ ١٩٠).

* قال أبو عبد الله الحاكم: أبو قتادة بن ربعي أحد بني سَلمة، توفي بالمدينة سنة أربع وخمسين، وهو ابنُ سبعين(١).

* نعم، ماتَ خيرُ فرسانِ رسولِ الله ﷺ، ولكنَّ سيرته ستظلُّ فوّاحة بأطيبِ الطِّيب على مرِّ الأيّام، فرضي الله عنه وأرضاه، وبَعَثَ في الأمة من يقتدي به، ويترسَّم خطاه في الخُلُق الحميد، والسلوك الفاضل، والجهاد الدائم.

* * *

(١) المستدرك (٣/ ٥٤٧) وانظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٢ و١٦٣) والفتوحات الرّبانية (٣/ ١٩٠).

الباب الثالث

فرسان حلفاء

(١)

بُرَيْدَة بن الحُصَيْبِ

- رضي الله عنه -

قال له ﷺ: «أنتَ نورٌ لأهلِ المشرق».

«مَـنَ أنـتَ؟»:

* عَلَمٌ مِنَ الأعْلام، ميمون النَّقيبة[1]، ساقَتْهُ العِنَايةُ الإلهيّة إلى حياضِ الخيرِ والهدى، ليكونَ في طليعةِ الأخيار ممن سعدوا في نعيمِ الإيمان.

* هذا الرَّجل بَرَزَ إلى عالم الشُّهرة في يومِ الهجرة المبارك، ذلك اليوم الذي أضحى غرّة التَّاريخ الإسلاميّ، وتاجَه المتألق، ومنه بدأتِ الأمّة المحمّدية تأريخ حوادثها، وأحداثها، ووقائعها، ومهامّ أمورها.

* سطع نجمُ فارسنا في يومِ الهجرةِ العظيم، وأسلم عام الهجرة، إذْ مَرَّ بهِ رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة المنورة.

* وهذا الرَّجل لم يكُنْ نكِرة في قومهِ، وإنّما كان رئيسهم المشار إليه، وكلّهم له تَبَعٌ ومطيع، خرجَ في طلبِ رسول الله ﷺ، وأبي بكر، رجاءَ أنْ يفوزَ بالمكافأةِ الكبيرةِ التي أعْلَنَتْ عنها قريش، ولمّا واجه رسول الله ﷺ وكلّمه أسلم مع قومه، وتلاشت روحُ المغامرةِ منه تماماً، وترك قريشاً ونسيَ جائزتها الكبيرة.

* والآن... دعونا نكشف السِّتار عن هذا الصَّحابيّ السَّيِّدِ الفارسِ الشَّهْمِ النَّبيل.

* الإمامُ شمسُ الدِّين الذَّهبيّ - رحمه الله - يلقي الضَّوء على هذا الصَّحابي من خلالِ أعْلامِ نُبلائه فيقول: بُريدة بنُ الحصيب بنِ عبد الله الأسلميّ أبو عبد الله[2].

* إذاً، فلنشهد لقاءَ الإيمان اللمّاح، ولنلمح نفحاته العطرة الزكية، بين يدي رسول الله ﷺ.

---

(١) «ميمون النقيبة»: أي مبارك النَّفْس، مُظَفَّرٌ فيما يحاول، مَحْمودُ المُخْتَبَر.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٤٦٩ - ٤٧١) وانظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٢٤١ - ٢٤٣) والاستيعاب (١/ ١٧٧ - ١٧٩) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٧٧ - ١٨١) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/ ١٣٣) والإصابة (١/ ١٥٠) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٩٨) وغيرها.

أخرجَ البيهقي ـ رحمه الله ـ عن بُريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما جعلتْ قريش مئةَ ناقة من الإبل لمن يردّ النّبيّ ﷺ، حَمَلَني الطَّمع، فركبتُ في سبعينَ من بني سهم، فلقيتُه.

فقال: «مَنْ أنتَ؟».

فقلتُ: بُريدة.

فالتفتَ النّبيُّ ﷺ إلى أبي بكر فقال: «بَرَدَ أمْرُنا وصَلَح».

ثمّ قال: «ممن أنتَ؟».

قلتُ: منْ أسلم.

قال: «سَلِمنا»[1].

ثمّ قال: «ممَّن؟».

قلتُ: من بنِي سَهْم.

قال: «خرجَ سَهْمُك يا أبا بكر».

فقال بُريدة للنّبيّ ﷺ: مَنْ أنتَ؟.

---

(١) كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ الفألَ الحَسن، فما في قصّة بُريدة في قوله ﷺ: «سَلِمنا» وقوله: «بَرَدَ أمْرُنا وصَلَح» فهو من هذا القبيل الذي جرى فيه ﷺ على عادته الشّريفة.

ومنه ما رواه أبو نعيم ـ رحمه الله ـ بسنده عن إياس بن مالك بن الأوس الأسلميّ عن أبيهِ قال: لما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ مروّا بإبلٍ لنا بالجُحفة، فقال رسول الله ﷺ: «لمن هذه الإبل؟» فقالوا: لرجلٍ منْ أسلمَ، فالتفتَ إلى أبي بكر فقال: «سلمتَ إنْ شاءَ الله» فقال: «ما اسمك؟» قال: مسعود، فالتفت إلى أبي بكر فقال: «سعدتَ إنْ شاء الله» قال: فأتاه أبي فحمله على جَمَل يقال له: ابن الرّداء.

وحدّث بُريدة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ أنّ النّبيّ ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعثَ عاملاً سأل عن اسمه، فإن أعجبه فرح بذلك، ورُئي بشْرُ ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رُئي كراهية ذلك في وجهه.

فقال ﷺ: «أنا محمّد بنُ عبدِ الله رسول الله».

فأسلمَ بُريدة، وأسلمَ مَنْ كان معه جميعاً.

قال بُريدة: الحمدُ لله الذي أسْلَم بنو سَهْم طائعينَ غير مكرهين.

فَلمَّا أصبح قال بُريدة: يا رسولَ الله! لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء؛ فَحلَّ عمامته، ثم شدَّها في رمحٍ، ثمَّ مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة.

عُيُـونُ السَّعَـادةِ تُـلاحِـظُ بُـريـــدة:

* لعلَّ السَّعادة قد حلَّتْ على بُريدة بنِ الحُصيب من أوّل يومٍ التقى فيه رسولَ الله ﷺ، وحازَ بذلك فَضْلاً كبيراً بإسلامه. ومنْ تمامِ سعادته، أنّه أسلمَ هو ومَنْ معه، وكانوا زهاء ثمانين بيتاً، وهنالك في الصَّحراء المترامية الأطراف، صلّى رسول الله ﷺ العشاء فصلُّوا خلفه[1].

* وأعتقدُ أنَّ بُريدة ـ رضي الله عنه ـ قد وَجَدَ حلاوةَ الإيمان في نفسه منذ اللحظاتِ الأولى لإسلامه، وأقبل على رسولِ الله ﷺ بكلّ جوارحه كيما يتعلّم شيئاً عن الإسلامِ الحنيف، وبعض أركان الإيمان الأساسية، وها هو رسولُ الله ﷺ يُعلّم بريدة ليلتئذ صَدْراً من سورةِ مريم، ودعا له ولقومه بالبركة[2].

* قال أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ ممتدحاً بُريدة بن الحُصيب وإسلامه وبركته على قومه: يا رسول الله! نِعْمَ الرَّجل بُريدة لقومه، عظيم

---

(١) من بدائعَ نفحاتِ الفوائد، ومنْ رشحاتِ البدائع هنا، أنْ نشيرَ إلى أنَّ تلك الصَّلاة التي صلاها بريدة وقومه: وهي صلاة العشاء، غرستْ في نفسِ بُريدة حبّ الصَّلوات، وكان لتلك الصَّلاة كبير الأثر في نفسه، حيث عَرَفَ طعم الحياة الحقيقيّة بالصِّلة مع الله عزَّ وجل، يُضاف إلى ذلك أنَّ بريدة هو راوي الحديث الشَّريف التّالي عن النّبي ﷺ: «بشّرِ المشّائينَ في ظُلمِ الليل إلى المساجد بالنّور التام يوم القيامة» رواه أبو داود في الصلاة برقم (٥٦١) والتّرمذي في الصّلاة برقم (٢٢٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٤٢) وأنساب الأشراف (١/٢٦٦) مع الجمع والتصرف اليسير.

البركة عليهم، مررنا به ليلةَ مَرَرْنا ونحنُ مهاجرون إلى المدينة، فأسْلَمَ معه مِنْ قومه مَنْ أَسْلَمَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «نِعْم الرَّجلُ بُريدة لقومه وعزَّ قومه إنَّ خيرَ القومِ مَنْ كان مدافعاً عن قومه ما لم يأثم، فإنَّ الإثم لا خير فيه»[1].

* ثم إنَّ بُريدة ـ رضي الله عنه ـ قد رجَعَ بعد ذلك إلى بلاد قومه، وقد تعلَّمَ شيئاً من القرآن الكريم في تلك الليلة المباركة، ثمَّ قدم بُريدة على رسول الله ﷺ بعد أنْ مضتْ غزاة بَدْر، وأُحُد، وتعلَّمَ بقية سورة مريم، وأقام مع رسولِ الله ﷺ، فكان مِنْ ساكني المدينة المنوّرة، وشهد معه مشاهده التالية، فكان خير فارس، ومقداماً جريئاً، ومغواراً لا يهاب الردى، فالإيمان يدفعه لإعلاء كلمة الله تعالى، ورَفْع راية الجهاد خفَّاقة في سماء الحق والخير والعدالة.

الفـارِسُ الغَـازي:

* في الصَّحيحين عن بُريدة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه غَزا مع رسولِ الله ﷺ ست عشرة غزوة.

* وروى مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحِهِ بسندِهِ عن بريدة قال: غزا رسولُ الله ﷺ تسع عشرة غزوة قَاتَلَ في ثمانٍ منهنّ.

* وهذا يتّفقُ مع ما رواه الشَّيخان في صحيحَيْهما[2] عن أبي إسحاق السَّبيعي قال: كنتُ إلى جنبِ زيد بن أرقم، فقلتُ له: كم غزا النَّبيُّ ﷺ مِنْ غزوة؟!.

قال: تسع عشرة.

فقلتُ: كم غزوةً أنتَ معه؟.

قال: سبع عشرة.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧٩/٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة العُشيرة، وباب: كم غزا النَّبيِّ ﷺ. وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: عدد غزوات النبي ﷺ.

قلت: فأيّتهنّ كانت أوّل؟.

قال: العُشيرة، أو العُسَيرة.

فذكرتُ ذلك لقتادة قال: العُشَيرة ـ بالشين ـ.

* وكان بُريدة ـ رضي الله عنه ـ مع رسولِ الله ﷺ لما غزا غزوة المُريسيع، وكان له شَأْنٌ يومئذ مع رئيس بني المُصْطلق(1).

* ولمَّا أنزل الله عزَّ وجلَّ نَصْره يومَ المريسيع على المسلمين، أمرَ رسولُ الله ﷺ بأسارى المريسيع ـ وهم بنو المصطلق ـ فكُتِّفوا، وجُعِلُوا ناحية، واستعمل بُريدة بن الحصيب عليهم.

* ويومها تزوّج رسولُ الله ﷺ جُويرية بنت الحارث سيّد بني المصطلق، وعند ذلك أَعْتَقَ المسلمون بسببِ هذا التَّزويج مئة أهل بيت من بني المُصطلق قد أسلموا وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ(2).

* ولما كانت غزاة الحديبية، كانَ بُريدة بن الحُصيب ـ رضي الله عنه ـ ممَّنْ شهدها، وممن بايع بيعة الرّضوان تحت الشَّجرة(3)، وحظيَ بمرضاةِ الله عزَّ وجلَّ مع الذين بايعوا لقول الله سبحانه: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

* وفي معرضِ المشَاهد والمغازي، نجد بُريدة ـ رضي الله عنه ـ مِمَّن شهد غزاة خيبر في سنة سَبْعٍ من الهجرة مع سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، وأبلى فيه بلاءً محموداً ميموناً حَسَناً، شهد به القاصي والدَّاني.

* حَدَّثَ بُريدة عن شهودهِ هذه الغَزَاة فقال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، فكنتُ فيمَنْ صَعِد الثُّلْمة، فقاتلتُ حتى رأى بلائي ومكاني، وأبليتُ

---

(1) انظر في هذا: زاد المعاد لابن القيم الجوزية (٣/ ٢٥٧).
(2) انظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٨٩ و٢٩٠ و٢٩٤ و٢٩٥) بشيء من الاختصار.
قالت السيدة عائشة: لا أعلمُ امرأةً أعظم بركة على قومها من جويرية.
(3) الاستيعاب (١/ ١٧٧).

وعليَّ ثوبٌ أحمر، وما علمتُ أنّي ركبتُ في الإسلام ذنباً أعظم منه للشّهرة[١].

* وعن بعضِ أحداثِ فتحِ خيبرَ حدَّث بُريدة ـ رضي الله عنه ـ فقال: لما كان يوم خيبرَ أخذَ اللواءَ أبو بكر، فرجعَ ولمْ يُفْتَحْ له، فلمّا كان الغد أخذه عمر، فرجع ولم يُفتح له، وقُتِل محمود بنُ مسلمة، فرجع النَّاسُ، فقال رسول الله ﷺ: «لأدفعنَّ لوائي غداً إلى رجلٍ يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، لن يرجعَ حتى يُفْتَحَ له».

فبتنا طيّبة أنفسنا أنَّ الفتح غداً، فصلّى رسولُ الله ﷺ صلاة الغَداة، ثمَّ دعا باللواء، وقام قائماً؛ فما منّا منْ رجلٍ له منزلة منْ رسولِ الله ﷺ إلا يرجو أنْ يكون ذلك الرَّجل، حتى تطاولتُ أنا لها، فدفعتُ رأسي لمنزلةٍ كانت لي منه، فدعا عليَّ بنَ أبي طالب وهو يشتكي عينه، قال: فمسَحَها ثم دفعَ إليه اللواء، وقال بُريدة: إنَّه كان صاحب مرحب[٢].

* وفي يومِ الفتحِ الأعظم لمكةَ، عَقَدَ رسولُ الله ﷺ في غزوة فتح مكة لواءَيْن، فحملَ أحدهما بُريدة بن الحصيب[٣]. وحظي بريدة بشرفِ معيّة رسول الله ﷺ في تلك الغزوة؛ التي ظفر فيها المسلمون الظفر المؤزَّر.

* وبعثه رسولُ الله ﷺ حين أراد غزوةَ تبوك إلى قبيلةِ أسلم يستنفرهم إلى عدوهم، فأدّى مهمَّته أحسن أداء، وحظيَ بشرفِ تلك الغزوة.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٧٩) وقد علّق الإمام الذّهبي ـ رحمه الله ـ على هذه الفقرة بقوله: بلى، جهّال زماننا يعدّون اليوم مثل هذا الفعل منْ أعظمِ الجهاد، وبكلِّ حال فالأعمالُ بالنّيات، ولعلَّ بُريدة ـ رضي الله عنه ـ بإزرائه على نفسه يصيرُ له عمله ذلك طاعة وجهاداً، وكذلك يقعُ في العمل الصّالح، ربّما افتخر به الغِرُّ، ونوَّه به، فيتحول إلى ديوان الرياء، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧٠).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٨٠) و«صاحب مرحب» أي: مرحب اليهودي الذي برز في خيبر وقتله علي بن أبي طالب، وكان الفتح والنصر المبين.

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٤٢).

* وكان بُريدة يحمل لواء الأمير أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ حين غزا أرضَ البلقاء إثر وفاةِ رسولِ الله ﷺ[1].

* ولما بُويع أبو بكر الصِّدِّيق ـ عليه هطائل الرّضوان وسحائب الرحمة ـ أَمَرَ بريدة أن يذهب باللواء إلى بيتِ أسامة، ولا يحلّه أبداً، حتى يغزوَ به أسامة. قال بُريدة: فخرجتُ باللواءِ حتى انتهيتُ به إلى بيت أسامةَ، ثمَّ خرجتُ به إلى الشَّام معقوداً مع أسامةَ، ثم رجعتُ به إلى بيتِ أسامة، فما زال معقوداً في بيتهِ حتى توفي[2].

* هذا وقد خرج بُريدة مع عمر بن الخطاب إلى الشَّام لما رجع من سَرْغ[3] أميراً على ربع أسلمَ، حيث عيّنه عمر أميراً، فكان من أمرائه المرموقين.

* وكان بُريدة ـ رضي الله عنه ـ مِنَ الأُمناء، فقد استعمله رسولُ الله ﷺ على صدقاتِ أسلم وغفار، وتوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عن بريدة.

بُـرَيدة وَأَخْبـارٌ وضيئَـةٌ مشرقـة:

أخبارُ بُريدة ـ رضي الله عنه ـ كثيرةٌ جداً، ومناقبه مشهورة، وَعَنْها المصادرُ الموثوقة التي وصلتنا، وحفظتها ذاكرةُ التاريخ بتألُّق وتقدير.

* فقد تابع بريدة ـ رضوان الله عليه ـ رحلة الفروسيّة والجهاد والجلاد بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، ورحل إلى البصرة، وسكَنَها مدة، ثمّ غزا خراسان في زمنِ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وحدّث مَنْ سمع بريدة مِنْ وراء نهر بَلْخ ـ نهر جيحون ـ قال: لا عيشَ إلا طراد الخيلِ الخيلَ[4].

* ومن أخبار ومناقب بُريدة ـ رضي الله عنه ـ أنّه كان يكنُّ الحبَّ والاحترام لأكابرِ الصَّحابة الكرام، يدافعُ عنهم، ويدعو لهم؛ ويعرفُ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٩).
(٢) انظر: حياة الصحابة (١/ ٤٢٥).
(٣) «سَرْغ»: موضع في أول الحجاز وآخر الشَّام من منازل حاج الشَّام.
(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٤٣).
وهذا الكلمة المأثورة تدلُّ على نفسية بريدة المحبّة للجهاد ومقاومة أعداء الإسلام.

سابقتهم وفضلهم، وهذا دليلُ إيمانه العميق، وتمثّله للخُلُق الإسلامي الكريم.

* حدّث عن هذا رجلٌ من بَكْر بنِ وائل قال:

كنتُ مع بُريدةَ الأسلمي بسجستانَ؛ قال: فجعلتُ أُعرِّض بعليِّ بن أبي طالب، وعثمانِ بنِ عفان، وطلحة بنِ عبيد الله، والزُّبير بنِ العوام، لأستخرج رأيه. قال: فاستقبل القِبْلة، فرفع يديه فقال:

اللهم اغفر لعثمانَ، واغفر لعليّ[1] بن أبي طالب، واغفر لطلحة بن عبيد الله، واغفر للزّبير بن العوام.

قال: ثمّ أقبل عليَّ فقال لي: لا أَبَالكَ، أتُراكَ قاتلي؟!.

قال: فقلتُ: واللهِ ما أردتُ قَتْلك ولكن هذا أردتُ منك.

قال: قومٌ سبقتْ لهم منَ اللهِ سوابق، فإنْ يَشَأْ يغفرْ لهم بما سَبَقَ لهم فعل، وإنْ يشأ يعذّبهم بما أحدثوا فَعَل، حسَابهمُ على الله عزَّ وجلَّ[2].

* وكان بُريدة بن الحصيب ـ رضوان الله عليه ـ أحد رُواة الحديث النّبويّ الشّريف. رُوي له عن رسولِ الله ﷺ مئة وأربعة وستون حديثاً، اتفق البخاريّ ومسلم على حديث، وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بأحد عشر حديثاً[3].

* وأحاديث بريدة منثورة في كتب الصَّحيح والسُّنن والمسانيد؛ حدّث عنه

---

(١) كان بريدة يحبُّ عليَّ بن أبي طالب بأمْرٍ منْ رسول الله ﷺ، فقد بعث رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب إلى اليمن ليقبض خمس الغنائم التي غنمها خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وهو يجاهد في اليمن، وليخلفه في الجهاد، فذهب واستلمه، واصطفى منه جارية لنفسه، فأثار ذلك نفس بريدة الأسلمي، وكان في نفسه شيء من عليّ، فلمّا قدم على النّبيّ ﷺ، ذكر له فقال: «يا بريدة، أتبغض علياً؟».
قال: نعم.
قال: لا تبغضه، فإنّ له الخمس أكثر من ذلك».
قال بُريدة: فما كان أحد من النّاس أحبّ إلي من عليّ. (رواه البخاري).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٤٣) ومختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٨٠ و١٨١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات.

ابناه: سُليمان وعبد الله، وأبو نضر العبدي، وعبد الله بن مَوْلة، والشَّعبيّ، وأبو المليح الهذلي، وطائفة[1].

* ومن مرويّات بُريدة ـ رضي الله عنه ـ ما أخرجه أبو داود، والتّرمذي ـ وحَسَّنَه ـ وابن ماجه، وابن حبّان في صحيحه عن بُريدة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنّي أسألك بأنّي أشهدُ أنَّك أنتَ الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصّمد، الذي لم يلدْ، ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «لقد سألتَ الله بالاسم الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب»[2]. وقد مرَّتْ معنا بعض أحاديثه من خلال ثنايا سيرته العطرة، أشرنا إليها في مواضعها.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾:

* تدلُّ أخبار بُريدة بن الحصيب الأسلميّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه نزل مدينة مَرْو، عن أمرِ رسولِ الله ﷺ.

قال أحمد بن سنان: نزلَ بُريدة بن الحصيب مَرْو، عن أمر رسول الله ﷺ حتى قال له: «كُنْ في بَعْثِ المشرق، ثم في بَعْثِ خراسان، ثم اسكنْ مدينة مرو»[3] فقدم بريدة مرو، وأقام بها، ونَشَرَ العلمَ في جنباتها، وأثرى أهلها وعلماءها بفنون الحديث النبويّ، وما سَمِعَه ورآهُ منْ رسولِ الله ﷺ من خِصاله الخيّرة، وصفاته الحميدة، وجوامع كَلِمه، ودُرَر أقواله.

* وعن إقامته في المشرق يحدِّثُ بُريدة ـ رضي الله عنه ـ فيقول: قال لي رسولُ الله ﷺ وللحكم الغفاري: «أنتما عينانِ لأهلِ المشرق، وبكما يُحْشَر أهل المشرق»[4] فقدما مرو، وماتا بها.

* وعن بريدة أيضاً أنَّ النّبيَّ ﷺ قال له: «يا بُريدة إنَّه لا يَكل بصرك،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٩).
(٢) نقلاً عن حياة الصحابة (٣/ ٣٣٥) طبعة رابعة.
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٥/ ١٧٨).
(٤) المصدر السّابق وانظر الاستيعاب (١/ ١٧٩).

ولا يذهب سمعك، أنتَ نورٌ لأهل المشرق»[1].

* قال عبد الله بن بريدة: مات والدي بمرو، وقبره بحصين، وهو قائدُ أهلِ المشرق يوم القيامة ونورهم؛ قال لي بُريدة: قال النّبيُّ ﷺ: «أيّما رجل من أصحابي ماتَ ببلدة فهو قائدهم ونورهم يوم القيامة»[2].

* توفي بُريدة في مرو سنة اثنتين وستين من الهجرة، وهو آخرُ مَنْ توفي من الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بخراسان[3]، وقد أوصى ألاَّ يُدفنَ على جادّة، فحُفِرَ له على جادة، فسقط ثم تنحوا به عنِ الجادَّة، فدفنوه. وقد دُفن بمرو رجلان فارسان من أصحاب رسول الله ﷺ: بريدة الأسلميّ، والحكم الغفاري.

* وبعد، فتلك أويقات حُلوة عبقة، قضيناها مع فارسٍ من فرسانِ الرَّسول ﷺ، أرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ أكونَ قد وفِّقت في الحديثِ عنه، وأرجو الله أن يحشرنا في معيّة هؤلاء الذين صَدقُوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا رجالاً ملء إهابهم الصدق، والعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق والهدى والخير.

* * *

---

(١) المصدر السَّابق وانظر الاستيعاب (١/ ١٧٩).
(٢) المصدران السابقان.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٣٣).

(٢)

عَامِرُ بنُ الأكْوَعِ

- رضي الله عنه -

قال عنه رسول الله ﷺ: «إنّه لجاهد مُجاهد».

Scanned by CamScanner

بحَار الفضَائِل:

* قال رسولُ الله ﷺ: «أَسْلَم سَالَمها الله، وغفَار غَفَر اللهُ لها، أما إنّي لم أقُلْها، ولكن قالها الله عزَّ وجلَّ»(١).

* والفارسُ اليوم؛ نستضيفُه منْ قبيلةِ أَسْلَم، هذه القبيلة المحبوبة منَ الله ورسولهِ؛ لأنَّها ما حاربتْ رسول الله ﷺ، بل جاءتْ للإسلام طائعة، ولَمعَ كثيرٌ منْ أفرادها في عالم الصَّحابة الفُرسان الشُّجعان الميامين، منْ مثل: سَلَمة بن الأكوع، وبُريدة بن الحُصيب، وربيعة بن كَعْب ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم ممن ملأت فضائلهم الدُّنيا، وكانت أعمالهم تعبقُ بالطِّيْبِ على مرِّ الأيام، وكرِّ العصور.

* وفارسنا اليوم، رجلٌ آتاه عزَّ وجلَّ بسطةً في الجسمِ، وجمالاً في الصَّوت، فقد كان حَسَن الصَّوت، يرتجزُ لرسولِ الله ﷺ، بل كان أحد حُداةِ رسول الله ﷺ، الذين كانوا يَحْدُونَ بين يديه في السَّفر؛ منهم: عبد الله بن رواحة الأنصاريّ، وسلمةُ بن الأكوع، وأَنْجشَة، وغيرهم.

* وَرَدَ في صحيحِ مسلم: كان لرسولِ الله ﷺ حادٍ حَسَن الصَّوت، فقال له رسولُ الله ﷺ: «رويدك يا أنجشة(٢)! لا تكسرِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم. وانظر: التاج الجامع للأصول (٣/ ٤١٧).
قال القرطبي في المفهم (٦/ ٤٧٠): تفضيل بعض القبائل على بعض إنما هو بحسب سبقهم للإسلام، وأفعالهم فيه. وتفضيلُهم خبرٌ من الشارع عمّا لهم عند الله تعالى من المنازل والمراتب، فلا يُقدَّم مَنْ أخر، ولا يؤخَّر مَنْ قدَّم.

(٢) أنجشة: عبدٌ أسود، كان حَسَن الصَّوت بالحداء، حدا بأزواج النَّبيِّ ﷺ في حجة الوداع، فأسرعتِ الإبلُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا أنجشة! رويدك، رفقاً بالقوارير» أي: بالنِّساء. وحدَّث أنسُ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أنجشةَ كان يحدو بأمّهات المؤمنين، فاشتدَّ بهنَّ السَّير فقال رسول الله ﷺ: «يا أنجشة! رفقاً بالقوارير».
وعن أنس ـ رضي الله عنه قال: كان أنجشةُ يحدو بالنساء، وكان البَراء بن مالك يحدو بالرجال.
وكان أنجشة حَسَن الصَّوت، وكان إذا حدا أعنقتِ الإبلُ ـ أسرعت ـ فقال =

القَوارير»[1].

يعني: ضَعَفَة النِّساء.

* أمّا الفارس الذي نعيشُ في ظلالِ سيرته اليوم، فهو عامرُ بن الأكوع الأسلميّ[2]، عمّ سلمة بن الأكوع، ويُقال: أخو سلمة بن الأكوع الأسلميّ.

* كان آل الأكوع هؤلاء من فئةٍ سَارعوا إلى الإيمان عندما سمعوا دعوةَ رسولِ الله ﷺ يدعو إلى ربِّهِ عزَّ وجلَّ وإلى دِينِهِ الإسلام، فهاجروا إليه، وسلكوا طريق الهدى، والتمسوا دِينَ الحقِّ، فكانوا من النَّاجحين النَّاجين في الدنيا والآخرة.

لَولاَ اللهُ مَا اهْـتَـدَيْـنَـا:

* هذا هو شعار عامر بنُ الأكوع: لولا الله ما اهتدينا، حيث كان يحدو في غزواته بهذا الحُداء، وهذا الرَّجز الجميل. وقد استمعَ رسولُ الله ﷺ إلى رَجَزَهِ، واستمتع به، فدعا له بالرَّحمة، فنَال الشَّهادة، فكان مِنْ أصحابها الذين قطفوا ثمارها، بل إنَّ له لأَجْرَيْنِ، كما تحدَّث بذلك الحبيبُ المصطفى ﷺ.

* كان ذلك في غزاةِ خيبر، وفي هذه الغزوة حَظِي عامرُ بنُ الأكوع ـ رضي الله عنه ـ بالشَّهادة، في العام السَّابع من الهجرة النَّبويَّة المباركة.

= النَّبي ﷺ: «يا أنجشة! رويدك سوقك بالقوارير» (أسد الغابة ١/ ١٤٤) ترجمة رقم (٢٤٠).

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب، ومسلم في الفضائل برقم (٢٣٢٣) باب: رحمة النّبي ﷺ للنّساء، وأحمد في المسند (٣/ ١٠٧و١١٧و١٨٦و٢٢٧و٢٥٤و٢٨٥) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) طبقاتُ ابن سعد (٤/ ٣٠٣و٣٠٤) وأسدُ الغابة (٣/ ١٩ ـ ٢١) ترجمة رقم (٢٦٩٩) ومنح المدح (ص ٢٠٩ و٢١٠) وزاد المعاد (٣/ ٣١٧ و٣١٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٤٠٤ و٤٠٥ و٤٠٨ و٤٠٩ و٤١٧ و٤٣٠) والإصابة (٢/ ٢٤١ و٢٤٢) والسِّيرة الحلبية (٢/ ٧٢٧ و٧٢٨ و٧٢٩) وحياة الصحابة (١/ ٥٤٤ و٥٤٥) وغيرها.

* تحدَّثتْ كُتُبُ الحديثِ والسِّيرةِ والطَّبقاتِ وغيرها عن خَبَرِ هذه الغزوة فقالت:

خرج رسولُ الله ﷺ إلى خيبرَ، ومعه أصحابه، وساروا ليلاً، حتى إذا كانوا في بعض الطَّريق، قال رجلٌ من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هُنَيهاتك؟! - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل عامر، وأخذ يحدو بالقوم يقول:

تـــاللهِ لـــولا اللهُ مـــا اهتـــدينـــا ... ولا تصـــدقْنـــا ولا صَلَّيْنَـــا
فـــاغفـــرْ فـــداءً لـــكَ مـــا اتقينـــا ... وثبِّـــتِ الأقـــدامَ إنْ لاقينـــا
وأنـــزلـــنْ سكينـــةً علينـــا ... إنَّـــا إذا صِيْـــحَ بنـــا أَتينـــا
وبـــالصِّيـــاح عـــولـــوا علينـــا ... وإنْ أرادوا فتنـــةً أَبَيْنَـــا[1]

* كان عامرُ بنُ الأكوع - رضوان الله عليه - يعيدُ هذا الرجز بصوت ندي ينضحُ حلاوة وطلاوة، ويشع بأرق الأنفاس والمشاعر، فيلامس شغاف القلوب، مما شنَّف أسماع الركب، وفيهم سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، ولما سمعه الرَّسول الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «مَنْ هذا السَّائق؟».

قالوا: عامرُ بنُ الأكوع الأسلميّ يا رسول الله!

قال: «يرحمه الله». وفي روايةِ أحمد: «غَفَرَ لكَ ربُّكَ»[2].

قال رجل[3] منَ القوم: وَجَبَتْ يا رسول الله! لولا أمتعتنا به.

وتابعَ الجيشُ الإسلاميُّ مسيرَةُ إلى خيبرَ، وعامر يحدوهم، حتى قدموا خيبرَ ليلاً[4]، وضربوا الحصارَ حولَ حصونهم، وخرجتِ اليهودُ منَ

---

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها وعددها في الروايات في المصادر، فجمعنا بين شتيتها، وآلفنا بينها.
(٢) وَرَدَ في المسندِ أنَّ رسولَ الله ﷺ ما استغفرَ لإنسانٍ قطّ يخصّه إلا استشهد.
(٣) قال في المسند: إنَّ الرجل هو عمر بن الخطّاب الذي قال: يا رسول الله! لو متّعتنا بعامر.
(٤) كان رسولُ الله ﷺ إذا غزَا قوماً، لا يغيرُ عليهم، ولا يبدأ بالقتالِ، حتى يصبحَ وينظر، فإنْ سمعَ أذاناً كفَّ عنهم، وإلا أغارَ. وانتهى رسولُ الله ﷺ إلى خيبرَ ليلاً، فلمّا أصبح ولم يسمعْ أذاناً ركب.

=

الحصون، وتصافَّ القومُ، فأمّا المسلمون فأخذوا يذكرونَ الله ذِكْراً كثيراً، وأمّا اليهود، فقد خَرجَ ملكهم مرحب يخطرُ بسيفه، وهو يقول:

قَـد عَلِمـت خيبـرُ أنّـي مـرحـبُ　　　شـاكـي السِّـلاح بطـلٌ مُجـرَّبُ

إذا الحروبُ أقبلت تلهَّبُ

وعندما برزَ إليه عامرُ فقال:

قـد عَلمـتْ خيبـرُ أنّـي عـامـرُ　　　شـاكـي السّـلاح بطـلٌ مغـامـرُ

فاختلفا ضربتَيْن، فوقعَ سيفُ مرحب في ترسِ عامر، وذهب يُسَفِّل له[1]، فرجَعَ سيفُ عامر على نفسه ـ وكان السَّيفُ قصيراً ـ فأصابَ عين ركبة عامر، فمات عامر شهيداً ـ رضي الله عنه ـ[2].

* وأمّا مرحبُ فقد قتله عليّ بن أبي طالب فيما تواترت بهِ الأخبارُ، ومفادها أنّه لما كانت ليلةُ الدُّخول إلى خيبر، قال رسولُ الله ﷺ: «لأعطينَّ هذه الرَّاية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، يفتحُ الله على يديه».

= ذكر الواقديُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ أهلَ خيبر سمعوا بقصده لهم، فكانوا يخرجونَ كلَّ يوم متسلحينَ مستعدين، فلا يَرونَ أحداً، حتى إذا كانتِ الليلةُ التي قَدِمَ فيها المسلمون، ناموا فلم تتحركْ لهم دابّة، ولم يَصِحْ لهم ديكٌ، وخرجوا بالمساحي طالبينَ مزارعهم، فوجدوا المُسْلمين.

هذا؛ وقد وَرَدَ في الصَّحيح ما يؤكِّد الذي قلناه؛ فقد أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً ـ وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ـ فلمّا أصبح خرجتِ اليهودُ بمساحيهم ومكاتلهم، فلمّا رأوه قالوا: محمد والله! محمّد والخميس ـ الجيش ـ فقال النّبيُّ ﷺ: «خربتْ خيبر، إنا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساء صَبَاح المنذرين» (صحيح البخاري برقم ٤١٩٧).

(١) «يسفل له»: أي: يضربه من أسفل.

(٢) عن فتح الباري (٧/ ٥٣٠ ـ ٥٣٣) حديث رقم (٤١٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٢) مع الجمع والتصرف اليسير بينهما.

* فباتَ النَّاسُ يدوكون[1] أيّهم يُعطاها، فلمّا أصبح النَّاس، غَدوا على رسولِ الله ﷺ كلّهم يرجو أنْ يُعْطَاها، فقال: «أينَ عليّ بن أبي طالب؟!».

قالوا: يا رسول الله! هو يشتكي عينه.

قال: «فأرسلوا إليه».

فأُتِيَ به، فبصقَ رسولُ الله ﷺ في عينه، ودعا له، فبرأ كأنْ لم يكن بِهِ وجعٌ، فأعطاه الرَّاية، فقال عليٌّ: يا رسول الله! أقاتِلهم حتى يكونوا مثلنا؟

قال: «انفُذْ على رِسْلِك حتى تَنْزل بساحتهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يَجبُ عليهم من حقِّ اللهِ فيه، فوالله لأنْ يهديَ الله بكَ رجُلاً واحداً خيرٌ لك منْ أن يكون لك حُمْرُ النّعم»[2].

فخرجَ مرحب وهو يقول:

أنا الذي سمَّتني أمِّي مرحبُ ... شاكي السِّلاح بطلٌ مجرَّبُ
إذا الحروبُ أقبلت تلهَّبُ

فبرزَ إليه عليّ وهو يقول:

أنا الذي سمتني أمِّي حيدره ... كليثِ غاباتٍ كريهِ المنظره

---

(١) «يدوكون»: أي: في اختلاف واختلاط.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاريُّ في مواضعَ من صحيحه؛ فقد أخرجه في المغازي، باب: غزوة خيبر؛ وفي الجهادِ: باب دعاء النَّبيّ ﷺ إلى الإسلام والنّبوة؛ وباب: فضل مَنْ أسلم على يديه رجلٌ؛ وفي فضائل أصحاب النَّبيّ ﷺ باب: مناقب علي بن أبي طالب.
وأخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٠٦) باب: فضائل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأيضاً برقم (١٨٠٧) و(٢٤٠٤). وأخرجه التِّرمذي برقم (٢٧٢٦) وأحمد في المسند (١/ ١٨٥) و(٥/ ٣٣٣) وانظر: تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ٤٠٧) وحياة الصَّحابة (١/ ٥٤٤ و٥٤٥) وغيرها.
«حمر النعم»: من حُمْر، وهو من ألوان الإبل المحمودة. قيل: المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدّق بها. وقيل: تقتنيها وتملكها. وكانت مما تتفاخر العربُ بها. (فتح الباري ٧/ ٤٧٨).

أوفيهمُ بالصّاع كيل السَّنْدَره

فضرب مرحَباً، ففلق هامته، وكان الفتح[(١)].

«إنَّ لـــهُ لأَجْـرَيْـــنِ»:

* بعد أنْ تمَّ فتح خيبر، واستشهد عامر بن الأكوع ـ رضوان الله عليه ـ قفل المجاهدونَ من خيبر، وكان مِنْ بينهم سلمة بن الأكوع[(٢)] ـ رضي الله عنه ـ ورسول الله ﷺ آخذه بيده، فنظرَ إلى سلمةَ، فرآه شاحباً، حزيناً، ساكتاً، فسأله: «ما لك؟».

فقال سلمةُ: فداكَ أبي وأمّي يا رسول الله! زعموا أنَّ عامراً حَبِط عمله، وقالوا: إنّما قتله سلاحه.

فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قاله؟».

قال سلمةُ: فلان وفلان، وعدَّدَ نَاساً.

فقال: «كذَبَ[(٣)] مَنْ قاله، إنَّ له لأَجْرَيْنِ ـ وجَمعَ بين إصبعَيه ـ إنّه لجاهِدٌ مُجَاهِدٍ، قلَّ عربيٌّ مشى بها قبله»[(٤)].

* وفي روايةِ ابن سعد ـ رحمه الله ـ قال: «كذب مَنْ قال ذلك! إنَّ له لأجرين، إنّه قُتِل مجاهداً، وإنّه ليعومُ في الجنَّة عَوْمَ الدّعموص»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٠٦).
و«السَّندرة»: مكيال واسع، والمعنى: أقتل الأعداء قتلاً واسعاً سريعاً.
ومن الجدير بالذكر أن مرحباً اليهودي كان قد كتب على سيفه:
هـــذا سيـــفُ مَـــرحـــب ... مَـــنْ يـــذقـــه يعطـــب

(٢) اقرأ سيرته في هذا الكتاب ص(٢٠٥).

(٣) «كذب»: أي: أخطأ.

(٤) الحديث أصله في الصّحيحين، في صحيح البخاري برقم (٤١٩٦) باب: غزوة خيبر. وفي صحيح مسلم برقم (١٨٠٢) باب: غزوة خيبر أيضاً. وانظر: أسد الغابة (٣/ ٢١) والإصابة (٢/ ٢٤٢).

(٥) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٠٤) وانظر: شرح السير الكبير (١/ ١٠٣) و«الدعموص»: دودة تكون في الغدران.

* وبهذا سُرِّي عن سلمةَ بنِ الأكوع عندما علم أنَّ الفارس المجاهد عامر بن الأكوع في جنَّات ونهر، في مقعدِ صدقٍ عند مليك مقتدر.

* رضي الله عن عامر بنِ الأكوع من فرسان الرَّسول ﷺ، وأنزل رحمته عليه، فلقد كان بحقٍّ «جاهد مجاهد» كما وصفه ﷺ، وما ذلك إلا لفروسيته، وشهامته، واقتداره، ومعرفته بفنون القتال، تشرف بالجهاد، إذ نال مرتبة الشهادة، ويالها من نعمةٍ عظمى!.

* * *

(٣)

عَبْدُ اللهِ بنُ أُنَيْسٍ

ـ رضي الله عنه ـ

أهداهُ النَّبيُّ ﷺ عَصًا، وقال له: «تخصَّرْ بها في الجنَّةِ».

مِنْ نَوادِرِ الأبْطَال الشجعان:

* كانَ منْ أفذاذِ أصْحَاب رسولِ الله ﷺ شجاعةً، وبطولةً، وجرأةً، وإقداماً، لا يهابُ الموتَ في لقاءِ الرِّجال، عرفَ الإقدام وعرفه الإقدامُ منذ أنْ فتحَ عينيه على هذه الدُّنيا، فما خاف ولا وجل من أيِّ مخلوق.

* هذا الفارس المِقْدام أحد السَّابقين إلى ساحةِ الإسلام، ودوحة الإيمان، ومائدة الرّحمن، عَرَفَ الإسلام إلى قَلْبه الطَّريق وهو في عرين الصَّحابة الأنصار، ويبدو أنَّه أسلمَ حينما كان سفير الإسلام مصعبُ بنُ عُمير ـ رضي الله عنه ـ في المدينةِ يُعَلِّم أهلَها، ويُفقِّههم في الدِّين الحنيف، ويتلو عليهم ما حَفِظَه من آياتِ الله، والحكْمَة البالغة.

* وعملَ الإيمان عَمَلَه في نَفَس هذا الفارس، فأضحى ينظرُ بنورِ الله عزَّ وجلَّ، وأصبحتِ الأصنامُ منْ أبغضِ الأشياء لديه، فكان أحدَ ثلاثةٍ منْ قومهِ الذين يكسرون آلهةَ بني سَلِمَة وأصنامهم، وهؤلاء الأبطال الأخيار: معاذ بن جبل[(١)]، وثعلبة بن عَنَمة، وعبد الله بن أُنيس ـ رضي الله عنهم ـ[(٢)] فمَنْ هو فارسنا من بين هؤلاء الأعلام الأخيار؟!.

* هو أبو يحيى عبد الله بنُ أُنيس[(٣)] بن أسعد بن حرام الجهنّي حليف بني

---

(١) اقرأ سيرته في كتابنا: «علماء الصحابة».

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٨٠) والاستبصار (ص ١٣٧) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٠).

(٣) السِّير الكبير (١/ ٢٦٦) والمسند (٥/ ٤٢٩ ـ ٤٣٢) طبعة دار الفكر بدمشق، والمغازي (انظر الفهارس ٣/ ١١٩٣) وطبقات ابن سعد (انظر الفهارس ٩/ ١١٤ و١١٥) والمحبر (ص١١٧ و١١٩ و٢٨٢) وحلية الأولياء (٢/ ٥ و٦) والاستبصار (ص ١٣٧ و١٦٦ و١٦٧ و١٦٨ و١٦٩) والاستيعاب (٢/ ٢٤٩ و٢٥٥) ومنح المدح (ص ١٥٣ و١٥٤) والمعرفة والتاريخ (١/ ٢٦٨ و ٢٦٩) ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣٤ و٣٩ و٤١ و٤٩ و٤٥ و٢٤٣ و٢٩٣) و(٥/ ٤٦٤ و٤٦٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٠ و٢٦١) والوافي بالوفيات (١٧/ ٧٦ ـ ٧٨) والكامل في التاريخ (٢/ ١٤٦ و١٤٧) والبداية والنهاية (٨/ ٥٧) والإصابة (٢/ ٢٧٠ و٢٧١) وغيرها =

سلمة من الأنصار، فيُقال له الأنصاريّ.

* شَهِدَ عبد الله بن أُنيس العقبة في السَّبعين من الأنصار.

قال ابن الكلبيّ: كان عبد الله بن أُنيس مهاجريّاً، أنصاريّاً، عقبيّاً[1].

وقال أبو عمر القُرطبيّ: كان عقبيّاً، شَهد أُحُداً وما بعدها[2].

هذا وعبد الله بن أُنيس واحدٌ منْ فُرسان الصَّحابة؛ الذين وعوا حديثَ رسولِ الله ﷺ، وحفظوه، ورووه، فقد رُوي له عن رسولِ الله ﷺ أربعةٌ وعشرونَ حديثاً، روى الإمام مسلم أحدها في ليلةِ القدر.

* روى عنه جابر بن عبد الله، وأبو أمامة ـ رضي الله عنهما ـ وروى عنه من التَّابعين جماعة منهم: بُسْر بن سعيد، وبنوه الأربعة: عطيّة، وعمرو، وضمرة، وعبد الله[3]. وأحاديثه في الصِّحاح وغيرها.

* ومن مرويَّاته ما أخرجه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في المُسند بسند رفعه إلى أبي أمامة الأنصاريّ عن عبد الله بنِ أنيس الجهنيّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أكبر الكبائر الشِّرك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وما حَلَفَ بالله يميناً صَبْراً، فأَدْخَل فيها مثل جناح بعوضة إلا جعله الله نكتةً في قلبهِ إلى يوم القيامة»[4].

«آجَرَكَ اللهُ»:

شَهِدَ عبدُ الله بنُ أُنيس ـ رضوان الله عليه ـ المشَاهد والمغازي النَّبويَّة

= كثير من المصادر.

(1) الاستيعاب (٢/ ٢٥٠) ومنح المدح (ص١٥٣).

(2) الاستيعاب (٢/ ٢٥٠).

(3) الاستيعاب (٢/ ٢٥٠) والاستبصار (ص١٦٨) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦١).

(4) المسند(٥/ ٤٣٠) برقم (١٦٠٤٣) طبعة دار الفكر بدمشق.

«اليمين الغموس»: الكاذبة التي يتعمَّدها صاحبُها عالِماً بأنَّ الأَمْرِ بخلافه، وهي التي تغمسُ صاحبها في الإثم.

بمعيّةِ رسولِ الله ﷺ خلا غزوةَ بدر[1]، إذ ظنَّ أنَّ الرسولَ ﷺ لن يلقى عدوّاً، أو يحارب جيشاً.

* ورجعَ رسولُ الله ﷺ فائزاً منصوراً منْ بدر، تحيطُ به ثلّةٌ منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين أبدعوا وحلّقوا عالياً في بدر، وخرج أسيد بن حُضير ـ رضي الله عنه ـ فلقيَ رسولَ الله ﷺ وقال: يا رسول الله! الحمدُ لله الذي ظفّرك، وأقرَّ عينك، والله يا رسول الله! ما كان تخلُّفي عن بدر، وأنا أظنُّ أنَّك تلقى عدوّاً، ولكنّي ظننتُ أنّها العيرُ، ولو ظننتُ أنّه عدوٌّ ما تخلفتُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «صدقْتَ».

* وأمّا عبد الله بن أُنيس، فقد خرَجَ، ولقيَ رسولَ الله ﷺ بمكان يُسمّى تُربان، وتحدَّث عن سببِ تخلُّفه فقال:

يا رسول الله! الحمدُ لله على سلامتك وما ظفّرك! كنتُ يا رسول الله ليالي خرجتَ مَورُوداً ـ محموماً ـ فلم يفارقني حتى كان بالأمسِ فأقبلتُ إليك، فقال رسول الله ﷺ: «آجرَكَ الله»[2].

الشُّجَاعُ الحَكِيم:

* بعد أنْ شهدَ عبدُ الله بن أُنيس غزاةَ أحدٍ مع رسولِ الله ﷺ، سوَّلت نفسُ أحد الأعراب ويدعى: سُفيان بن خالد بن نبيح الهذليّ أن يجتاحَ المدينةَ المنوَّرةَ، وقد تجمَّع منْ حولهِ كثيرٌ منَ الأعراب ومنْ شذّادِ الآفاق، من بني هُذيل ومن غيرهم، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم.

* كان يجمعُ هؤلاء الطَّمع، وسوء الطِّباع، والانغماس في الشَّهوات، وفي المحرَّمات والفواحشِ ما ظهر منها وما بَطَن، حتى لقد سألتْ جماعة من هُذيل رسولَ الله ﷺ حينَ أرادوا الإسلام أن يبيحُ لهم فاحشةَ الزِّنى، وأنْ

---

(1) جزم الذهبي في تاريخه أن عبد الله بن أنيس لم يشهد بدراً. انظر (تاريخ الإسلام عهد معاوية ص٧٣).

(2) المغازي (١/ ١١٧).

يتركَهم يعمهون[1] في ضلالهم، لا يردعهم رادعٌ، ولا وازعٌ[2]، فقال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يصوِّر سخْفَهم، ويُعيِّرهم بهذه المطالبِ الدَّنيئة التي تأنفها أحطُّ الحيوانات:

سـألـتْ هـذيـلٌ رسـولَ الله فـاحشـةً
ضلَّـتْ هـذيـلٌ بمـا سـألـتْ ولـم تُصبِ
سـألـوا رسـولَهـم مـا ليـسَ معْطِيَهـم
حتـى الممـات وكـانـوا سُبَّـة العـربِ
ولـن تـرى لهـذيـلٍ داعيـاً أبـداً
يـدعـو لمكـرمـةٍ عـن منـزل الحَـربِ
لقـد أرادوا خـلالَ الفحـش ويحهـم
وأنْ يحلّـوا حـرامـاً كـان فـي الكتـبِ

* وبدأتْ ساعةُ الصِّفرِ لنهايةِ هؤلاء الأشرار بزعامةِ رئيسهم ورأسهم سفيان بن خالد الهذليّ.. ولكنْ مَنْ للقضاء على رأس الأفعى، وجرثومة الوباء والبَلاء؟! هنالك يبرزُ في ميدان الفدائية، وساح الفروسيّة، البطلُ المغامرُ الجريءُ عبد الله بن أُنيس الجهنيّ، ذلك الذي لا يهابُ أحداً إلا الله عزَّ وجلَّ، فاستدعاه رسولُ الله ﷺ، وسيّرهُ إلى سفيانَ بنِ خالد بنِ نُبيح الهذليّ يوم الإثنين؛ لخمسٍ خَلَوْنَ منْ شهرِ المحرم، على رأسِ خمسةٍ وثلاثينَ شهراً من الهجرة، ليقتله وليلحقه بأبي جهل بنِ هشام، وعتبةَ بن ربيعة، وأُبَي بن خلف، وأكابر المجرمين، وذلك بعد أنِ استفاضتِ الأخبارُ على رسولِ الله ﷺ أنَّ هذا الخبيثَ الفاجرَ الأفَّاكَ يريدُ حربَ رسولِ الله ﷺ والمسلمين، وهو يجمعُ الجموع لهذا الهدف الخبيث الدنيء.

* كان عبد الله بن أُنيس ـ رضوان الله عليه ـ لا يهاب أحداً، غير أنَّه كان لا يعرفُ صفةَ هذا الفَاجرِ الكفور، فقال لرسولِ الله ﷺ بأدبٍ ينضحُ برحيقِ الإيمان وعبيرِ الطَّاعة: صِفهُ لي يا رسول الله! حتى أعرفهُ.

---

(١) «يعمهون»: يتحيرون، ويتردَّدون، فلا يهتدون إلى وَجْه الصَّواب.

(٢) «وازع»: الدافع الداخلي الذي يمنعُ الإنسان من سلوكٍ مُعيَّن. والزاجر.

فقال رسولُ الله ﷺ يصفُ هذا الشَّيطان الفاجر: «إذا رأيتَه هِبْتَه، وفرِقْتَ منه، ووجدتَ له قشعريرة، وذكرتَ الشَّيطان».

ولا جرم أنَّ صفاتَ هذا اللعين صفاتٌ مرعبةٌ مفزعةٌ، تزلزلُ القلبَ من بين أضَالع مَنْ يسمعها، لا، بل إنَّها تبثُّ الرُّعبَ والخوفَ بنفوسِ أشجعِ الأبطال، وأجرأهم بأن يقدم على ملاقاةِ سفيان بن خالد الهذلّي، وشخصيته الشّيطانية الإبليسيّة، فقد اقترن فيه شراسة الخُلُق وكيد الشيطان.

* ولكنَّ رسولَ الله ﷺ كان أعلم النَّاس بأصحابهِ، وأعرفهم بموازينهم في ميدان البطولة، وإقدامهم على الموت في سبيلِ إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، واستجابةً لرسولِ الله ﷺ، الذي يدعوهم لما يحييهم حياةً خالدة أبدية.

* وعبدُ الله بنُ أُنيس واحدٌ منْ هؤلاء الفُرسان الأبطال، الذين يعرف الرَّسول ﷺ إقْدامهم على مواقفِ البطولة الفدائية، فاختصَّه ﷺ بهذه المهمّة من بينِ الصَّحابة الكرام - رضوان الله عليهم -.

* كان الفاجرُ الخبيثُ سُفيان بن خالد الهذليّ قد اتخذ من عُرَنَةَ[1] مقاماً له، ومجمعاً لمن يلتفُّ حولهَ من صعاليكِ العرب؛ وشذّاذهم، فأراد ﷺ أنْ يبغتَه - بما لم يكن في تقديره، وتدبيره، وحساباته - ليقضي عليه وهو في مَهْده المهيض، قبل أن يستشريَ خطره، وتنتقل عَدْواه، ويزداد عتوُّه وفجوره، ويكثر جمعه.

* لذلك بعثَ رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُنيس سرية وحده[2]، وسيَّره إليه في خفيةٍ حتى لا تتسربَ أخبار سَيْرِه إلى ذلكَ الفاجر، فيأخذ حذْره، وكان عبد الله شجاعاً جريئاً، لا يهابُ الموت، ولذلك وصَفَه له رسول الله ﷺ

---

(1) «عرنة»: مدخل عرفات للحجيج القادمين من مكة والمدينة.

(2) قال الإمامُ محمّد بن الحسن الشّيباني - رحمه الله -: ولا بأس للإمام أنْ يبعثَ الرجل الواحد سريةً، أو الاثنين أو الثّلاثة إذا كان ذلك محتملاً. لما روي أنَّ النبي ﷺ بعث حُذيفة بن اليمان في بعضِ أيام الخندق سريةً وحده، وبعث عبد الله بن أنيس سرية وحده، وبعث دحية الكلبيّ سرية وحده، وبعث ابن مسعود وخبّاباً سرية. (شرح السّير الكبير ٦٩/١).

وصفاً محذّراً فقال: «إذا رأيتَه هِبْتَه، وفَرَقْتَ، ووجدتَ له قشعريرة، وذكرتَ الشَّيطان»[1].

فقال عبدُ الله بنُ أُنيس ـ رضي الله عنه ـ يا رسول الله! مافرقتُ منْ شيءٍ قطّ.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «آيةُ ما بينك وبينه ذلك» ليزيدَ في تحذيره، ويشدَّ منْ عزيمته، ويجعله يتخذ الاحتياطات اللازمة، فمن عَرَفَ قوة عدوه استعدَّ له الاستعداد الكافي.

* وخرجَ عبدُ الله بنُ أُنيس ـ رضي الله عنه ـ يمشي وحدَه، وليس معه إلا سيفه، وليس له منْ دليل على هذا الفاجر سوى ما وصفه به رسولُ الله ﷺ، حتى لقيَهُ في عُرنَة، وحوله جموعٌ منَ الصَّعاليك[2] والفُتَّاك، فوجده يمشي ووراءه الأحابيشُ ومَنْ ضوى إليه منَ المرتزقة، ومن فجّار الأشرارِ، ومن حثَالة النَّاس، وأوغادهم الأنذال.

* وهنا تظهر دلائل نبوَّة الحبيبِ المصطفى ﷺ، وفي تلكَ اللحظة بالذَّات؛ لحظةَ اللقاء يتحقَّقُ ما قاله ﷺ لعبدِ الله بنِ أُنيس من أنَّه سيخافُ، وهذا عبدُ الله نفسه يقول لما رآه: فهِبْتُه، وعرفتُه بنعته ﷺ، وقلتُ في نفسي: صدقَ اللهُ ورسوله، وقد دخلتُ في وقتِ العَصْر حين رأيته، فصليتُ وأنا أمشي أومىءُ إيماء برأسي، فلما دنوتُ منه قال: ممن الرَّجل؟

---

(1) هذا الوصفُ الواضح المتميز بشخصية سفيان بن خالد الهذلّي، هذا العتيُّ الفاجرُ يدلُّ على أنّه قد بلغ من قُبحِ المنظر، وسوءِ المشهد، وشراسة الخلق، ولؤم الطبع، ودناءة النَّفس، ما تتضاءل معه رؤوس الشَّياطين التي ضربها الله مثلاً لأقبح القبح، وأسوأ السوء.
فرؤية سفيان هذا تمثّل لرائيه صورة الشَّيطان في أقبح، وأبشع مرائيه، ألقى الله عزَّ وجلَّ عليه من أوصاف الفجور، وبشاعة المنظر، ما يجعله أمام كل من يراه مرعباً مخيفاً، يهابه أفتك الناس، وأجرؤهم على الفتك.

(2) «الصَّعاليك»: الفُتَّاك، جمع صُعْلُوك. يُقال: فَتَكَ فَتْكاً: رَكِب ما تدعو إليه نفسُه غير مبالٍ بالعواقب.

قلتُ: من خزاعةَ، سمعتُ بجمعك لمحمّد، فجئتك لأكونَ مَعَك.

وكان رسولُ الله ﷺ قد قال لعبد الله بن أُنيس: «انتسبْ إلى خزاعةَ».

فقال العُتُلُّ[1] المعتدي الأثيم ابن نبيح: أجَل، إنّي لفي الجَمْعِ له.

قال عبد الله بن أُنيس: فمشيتُ معه، وحدثته، فاستحلى حديثي، وأنشدتُه شِعْراً.

* هذا؛ وقد كان عبد الله بن أُنيس ـ رضي الله عنه ـ قد استأذنَ رسولَ الله ﷺ أنْ يقولَ منَ المعاريض، ولحن الكلام، والتَّورية ما يدخلُ على هذا العتلِّ اللئيم الطُّمأنينة إليه، وموقفه منه، كيما يؤكد له أنَّه جاء إليه ليكون معه.

* قال عبد الله بن أُنيس وهو يحدِّثُ الفجور ابن نبيح: عجباً لما أحدَثَ محمّد منْ هذا الدِّيْن المحدث، فارقَ الآباء، وسفَّه أحلامهم!

* فقال الخبيثُ سفيان بن خالد يستحلي كلمات عبد الله بن أُنيس، ولا يستجلي معانيها الكريمة[2]، وقد نَفَشَه الغرورُ الأحمقُ: إنَّ محمّداً لم يلقَ أحداً يشبهني.

* قال عبدُ الله بنُ أُنيس ـ رضوان الله عليه ـ يصفُ هذا الفاجر المتشيطن في مشيته، وهو يتوكأ على عصا يهدُّ الأرض من ثقل وطئه، وعتوّ كبريائه حتى انتهى إلى خبائه، وتفرّق عنه أصحابه، إلى منازلَ قريبةٍ منه، وهم يطيفون به، ويلتفُّون حوله خبائه، فقال: هلمّ يا أخا خزاعة!

* قال عبد الله: فدنوتُ منه، فقال لجاريته: احلُبي، فحلبتْ ثمّ ناولني،

---

(١) «العتل»: الشديد الجافي الغليظ.

(٢) إنَّ كلمات عبد الله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ كلمات سامية عظيمة، وهي من الحقّ الصّريح البيّن؛ لأنّها إلهامُ الإيمان الصّادق، واليقين الرّاسخ، وهي صريحةٌ في مبانيها، بيّنة في معانيها، واضحةٌ في حقائقها، وكلّها حقّ وهدى ونور؛ لأنَّ سيدنا محمداً ﷺ بعثه الله بدين الإسلام دين الهدى والحقّ؛ ليخرج النَّاس من ظلمات الشّرك والوثنية إلى نورِ الله، نور التَّوحيد، وهو دِينٌ سفّه عقول أولئك الذين اتخذوا الحجارة معبوداً لهم.

فمصصتُ، ثمَّ دفعته إليه، فعبَّ كما يعبُّ الجمل حتى غاب أنفه في الرَّغوة، ثـمَّ قـال: اجلسْ، فجلسـتُ معه، حتـى إذ هـدأ النَّـاس، ونـام أصحابه وصعاليكه، اغتررته[1]، وحملتُ عليه السَّيف فقتلته، واحتززتُ رأسه وأخذته، ثمَّ أقبلتُ، وتركتُ نساءَه يبكينَ عليه، وكان النَّجاء منِّي حتى صَعِدتُ جبلاً، فدخلتُ غاراً، وأقبل الطَّلبُ وأنا مختفٍ في الغار، وضربت العنكبوت على الغَار، وأقبل رجلٌ معهِ إداوة ضخمة، ونعلاه في يده، وكنتُ حافياً ألهثُ منَ العَطش، فوضعَ إداوته ونعله، ثمَّ قال لأصحابهِ: ليس في الغارِ أحدٌ، فانصرفوا راجعين، فخرجتُ فشربتُ ما في الإداوة، ولبستُ النَّعلين، فكنتُ أسيرُ الليل، وأتوارى النَّهار، حتى قدمتُ المدينةَ، فوجدتُ رسولَ الله ﷺ في المسجد، فلمّا رآني قال: «أَفْلَح الوَجْه».

فقلتُ: أفلحَ وجهُك يا رسول الله! ووضعتُ رأسي بين يديه، وأخبرته خبري، فدفع إليَّ عَصاً، وقال لي: «تخصَّر بها في الجنَّة؛ فإنَّ المتخصرين في الجنَّة قليل»[2]. فكانت هذه العصا عند عبد الله بن أُنيس حتى إذا حضرته المنية، أوصى أهله أنْ يدرجوها في أكفانِه، ففعلوا ذلك، ودُفِنَتْ معه ـ رضي الله عنه ـ.

* لقد كانت شجاعةُ عبدِ الله بن أُنيس الفدائية الباسلة نسيج وحدها، وكان تصرُّفه مع هذا الفاجر الخبيث تصرُّف البطل المؤمن؛ الذي لا يهزُّه فجورُ

---

(١) «اغتررته»: أي: أخذته في غفلة.

(٢) انظر: السِّير الكبير (١/ ١١١ و٢٦٦ و٢٦٧ و٢٦٩) وطبقات ابن سعد (٢/ ٥٠ و٥١) والمغازي (٢/ ٥٣١ ـ ٥٣٣) وأنساب الأشراف (١/ ٣٧٦) ودلائل النبوة (٤/ ٤٠ ـ ٤٢) مع الجمع والتصرف بينها. وانظر: الاستبصار (ص ١٦٧ و١٦٨) والبداية والنهاية (٤/ ١٤٠ و١٤١) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣٤٦) والسيرة الحلبية (٣ / ١٨٧) ورجال مبشرون بالجنة (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٣) والسِّيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥). وللقصة أصل في كتب الحديث، فقد رواه أبو داود في كتاب الصَّلاة، باب صلاة الطالب، وأحمد في المسند، انظر الفتح الرباني (٧/ ٢٧ و٢٨) و(٢٢/ ٢٨٠ و٢٨١) وانظر مجمع الزوائد (٦/ ٢٠٣) وقال: رواه أبو يعلى، وانظر نيل الأوطار للشوكاني (٣/ ٣٢٣). وغيرها كثير من المصادر.

الفَاجرين في مظهرهم ومخبرهم، وكان ـ رضي الله عنه ـ قويَّ القَلْب، ثَبْتَ الجَنَان، راسخَ اليقين، عظيمَ الإيمان، فلمَّا تمكَّنَ من الخبيثِ العتلِّ سُفيان بن خالد ـ استلَّ سيفه البتّار، وحزَّ رأسه، وعاد يحملُ نجاحَ مهمته إلى قائدهِ الأعلى سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ.

* ويستقبلُ رسولُ الله ﷺ صاحبه البطل داعياً له بالفَلاح، والنَّجاح، واليُمْن؛ ليكون أسوة حسنة لغيره في مجالِ الفروسية، والفدائية.

* هذا؛ ولم يدعْ عبد الله بن أُنيس ـ رضي الله عنه ـ هذه الحادثة تفوتنا دون أنْ يرسمها بالكلمات الهامسة الآسرة منْ لطائف شعره اللطيف.

قال ابنُ هشام: وقال عبدُ الله بنُ أُنيس ـ رضي الله عنه ـ في ذلك:

تـركـتُ ابـنَ ثـورٍ كـالحُـوار وحـوْلَـه
نـوائـحُ تَفْـري كـلَّ جَيْـبٍ مقـدَّدِ[١]

تنـاولتـه والظَّعـن خَلْفِـي وخلفـه
بـأبيـضَ مـنْ مـاءِ الحـديـد المهنَّـدِ[٢]

عجـوم لهـامِ الـدَّارعيـن كـأنَّـه
شهـابُ غضـىً مـنْ ملهـبٍ متـوقِّـدِ[٣]

أقـولُ لـه والسَّيـفُ يعجـم رأسـه
أنـا ابـن أُنيـس فـارس غيـر قعـددِ[٤]

أنـا ابنُ الـذي لـم ينـزلِ الـدَّهـرَ قِـدْره
رحيـب فنـاء الـدَّار غيـر مـزنـدِ[٥]

---

(١) «الحوار»: ولد الناقة إذا كان صغيراً. «تفري»: تقطع. «الجيب»: فتحة الثوب.
(٢) «بأبيض»: أي: بسيف. «مهند»: منسوب إلى الهند.
(٣) «عجوم»: عضوض. «هام»: الرؤوس. «شهاب»: قطعة من نار. «غضى»: شجر يشتد التهاب النار فيه.
(٤) «القعدد»: الجبان اللئيم.
(٥) «رحيب»: متسع. «المزند» الضيق البخيل.

وقلـتُ لـه خُـذْهـا بضـربـةِ مـاجـدٍ
حنيـف علـى دِيْـنِ النَّبـي محمـدِ[1]

وكنـتُ إذا هـمَّ النَّبـيُّ بكـافـرٍ
سبقـتُ إليـه بـاللسـانِ وبـاليـدِ[2]

عَبْدُ اللهِ وفُروسيةٌ أخرى مضيئة:

* بعد أنْ قام عبد الله بن أنيس بأحلى مهمَّة فردية في دُنيا الفروسية، شَهِدَ غزوةَ الأحزاب، وخبر مكْرَ اليهود وخبثهم، وعرف كيفَ جمَّعُوا، وحزَّبوا الأحزاب على رسولِ الله ﷺ، وأدرك مكائدهم وتأثيرها الواسع.

* كان أبو رافع سلاَّم بن أبي الحُقيق اليهوديّ فيمن حزَّب الأحزاب على رسولِ الله ﷺ، وكان شديد الإيذاء له وللمسلمين، وكان تاجراً مشهوراً بأرضِ الحجاز، وقد اتخذَ من ثرائه وسيلة للصدِّ عن سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

هذا؛ وقد كانتِ الأوسُ قَبْلَ غزاة أحدٍ قد قتلتْ كعبَ بن الأشرف اليهوديّ[3]، فاستأذنتِ الخزرجُ رسولَ الله ﷺ في قَتْلِ سلاَّم بن أبي الحُقيق اليهوديّ وهو بخيبرَ، فأذن لهم.

وكان ممَّا صنع الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ، أنَّ هذَيْنِ الحَيين منَ الأنصار كانا يتصاولان ويتسابقان في سبيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ، وإرضاء رسوله ﷺ، فكانتِ الأوسُ لا تصنعُ شيئاً إلاّ وقالتِ الخزرج: والله! لا تذهبون بهذهِ فَضْلاً علينا عند رسولِ الله ﷺ وفي الإسلام، فلا ينتهون حتى يُوقعوا مثلها، وإذا

---

(١) «الماجد»: الشريف. «الحنيف»: هنا الذي نزع عن دين الشرك إلى دين الإسلام.
(٢) انظر: الأبيات في السّيرة النّبوية(٤/ ٣٥٥ و٣٥٦) بشرح أبي ذر الخشنّي، والبداية والنهاية (٤/ ١٤١) ومنح المدح (ص ١٥٤ و١٥٥) والروض الأنف (٤/ ٢٣٨) ورجال مبشرون بالجنة (١/ ٣٦٣ و٣٦٤).
(٣) اقرأ: سيرة هذا الفاجر الخبيث في كتابنا «المبشرون بالنار» (١/ ٢١٣ ـ ٢٣٦) ستجد عظمة رسول الله ﷺ ورحمته.

فعلتِ الخزرجُ شيئاً قالتِ الأوسُ مثل ذلك[1].

* ولما أصابتِ الأوسُ كعبَ بنَ الأشرف اليهوديّ، قالتِ الخزرجُ: واللهِ! لا تذهبون بهذه فَضْلاً علينا، فتذكروا مَنْ رجلٌ لرسولِ الله ﷺ كابنِ الأشرف، فذكروا سلاَّم بن أبي الحقيق وهو بخيبر. فاستأذنوا رسول الله ﷺ، فأذن لهم، فخرج إليه مِنَ الخزرجِ خمسة من بني سَلِمة؛ أولهم: عبد الله بن أنيس البطل الجريء صاحب السَّوابق البطولية الفدائية، وعبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وأبو قتادة بن ربعي، وخزاعي بن أسود، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عُتيك، فخرجوا حتى قدموا خيبر، فأتوا دار ابن الحُقيق ليلاً، فلمْ يَدعُوا بيتاً في الدَّار إلاَّ أغلقوا على أهله، ثمَّ قاموا على بابه فاستأذنوا، فخرجت امرأته، فقال: مَنْ أنتم؟

قالوا: نلتمس الميرة.

قالت: ذاكم صاحبكم، فادخلوا عليه.

فلمَّا دخلوا عليه، ضربوه بسيوفهم، وتحامل عَليه عبد الله بن أُنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه، وهو يقول: حَسْبي حَسْبي.

* وخرجَ الأبطالُ الخمسة، وقد أنْهوا حياةَ هذا الفاجر الغادر، عدوّ الله وعدو المسلمين، وسمعوا نَعْيَه، ثمّ أتوا رسولَ الله ﷺ وأخبروه الخبر، وكلّ واحد يدَّعي قَتْله، فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا أسيافكم» فأتوه بها، فنظر فيها، ونظر إلى سيفِ عبد الله بن أُنيس فقال: «هذا قتله، أرى فيه أثر الطَّعام والشَّراب»[2].

---

(1) وكذا يكون التنافسُ الشريف لإعلاء صَرْح الحق، وتشييد قلاع الهدى، فالهدف خدمة الإسلام، وإزاحة العقبات، وتنحيتها جانباً، فيعلوا الخير ويبسق الصلاح، ويشتدّ ساعدُ المجتمع المسلم.

(2) انظر: الاستبصار (ص ١٦٦ و١٦٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣٤٢ و٣٤٣) مع الجمع والتصرف، وانظر طبقات ابن سعد (٢/ ٩١) والمغازي (١/ ٣٩١ و٣٩٢) والسّيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٧٥) والسيرة الحلبية(٣/ ١٥٣) والبداية والنهاية (٤/ ١٣٨). وكان قتل أبي رافع في رمضان سنة ست ـ كما ذكر ابن سعد ـ.

* ولقد عبَّر شُعراء الصَّحابة - رضوان الله عليهم - ببيانهم الرّائع عن هذه الحادثة، وكان منَ أبرزَ أشعارهم ما قاله حسان بن ثابت - رضي الله عنه - يصف بطولة هؤلاء الأعلام الفرسان الشُّجعان الأخيار:

للهِ درّ عصـــابـــةٍ لاقيتَهـــم
يـا بـنَ الحُقيـق وأنـتَ يـا بـنَ الأشـرفِ

يَسْـرُون بـالبِيْـضِ الخفـافِ إليكـم
مَـرَحـاً كـأسـدٍ فـي عـريـنٍ مغـرفِ

حتـى أتـوكـم فـي محـلِّ بـلادكـم
فسقـوكـم حتفـاً ببيـض ذفّـف

مستبصـريـنَ لنَصْـرِ ديـن نبيِّهـم
مستصغـريـن لكـلِ أمْـرِ مجحـفِ[1]

* ولعبد الله بن أنيس - رضي الله عنه - موقف ينمُّ عن حضور قَلْب، وعن فروسية نادرة في عالَم الشَّجاعة، حيثُ قَتَل أحد كبار اليهودِ أيضاً، وذلك في سرية قائدها عبد الله بنَ رواحة الأنصاريّ - رضي الله عنه -.

* فقد روي: أن سلام بن أبي الحُقيق لما قُتِل بيدِ البهاليل من فُرسان الأنصار، أمّرتِ اليهود عليهم رجلاً يُدعى أسير بن رزام، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحربِ رسولِ الله ﷺ، فبعثَ إليه رسولُ الله ﷺ عبد الله ابن رواحة في نَفَر من أصحابه، فيهم البطل صاحب الفروسيّة المشهورة، والفدائية المذكورة: عبد الله بن أُنيس - رضي الله عنه - فقدموا على أُسَير، فكلّموه، وقالوا له: إنّك إنْ قدمتَ على رسولِ الله ﷺ استعملك على خيبرَ، وأكرمك، فطمعَ أسيرٌ في ذلكَ، وخرج معه نفر من اليهود، مع كلِّ رجل رديف منَ المسلمين، وحمله عبد الله بن أُنيس على بعيره، حتى إذا كانوا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٣٨/٤) نقلاً عن السِّيرة.
«عصابة»: جماعة. «البيض»: السيوف. «مرحاً»: نشاطاً. «عرين»: بيت الأسد.
«مغرف»: ملتف الأغصان. «ذفف»: سريعة القتل.

بالقرقرة من خيبرَ على ستةِ أميال، ندم أُسير بن رزام على مسيرة إلى رسول الله ﷺ.

* قال عبدُ الله بنُ أُنيس: وأهوى أسيرٌ بيده إلى سيفي ففطنتُ له، ودفعتُ بعيري، وقلتُ: غدراً أي عدوّ الله؟! فعل ذلك مرتين، فنزلتُ، ثمّ ضربته بالسّيف، فقطعتُ رِجْلَه، فسقط، وكان بيده عصا غليظة، فضربني بها ضربةً شجّتني، ومِلْنَا على أصحابه فقتلناهم، وهرب منهم رجلٌ، فقدمنا على رسولِ الله ﷺ فقال: «لقد نجّاكم اللهُ منَ القوم الظّالمين» وتَفَلَ رسولُ الله ﷺ على شجّةِ عبد الله بن أُنيس فلم تقحْ، ولم تؤذِه[1].

* وبهذا حقَّقَ عبدُ الله بن أُنيس ـ رضي الله عنه ـ بطولةً أخرى في عالَم البطولة، وخلَّصَ المسلمين من مجرمٍ آخر منَ المجرمين الذين يصدُّون عن سبيل الله وما نزل من الحقِّ، فكان لهم فرسان الصّحابة بالمرصاد، فقضوا على مكائد الأعداء في مهدها.

الرِّحْـلَـةُ الأَخِيْـرَة ونَـفَحَاتُ الخُـلُود:

* ظلَّ عبد الله بن أُنيس ـ رضي الله عنه ـ يتابعُ رحلةَ الجهادِ والفروسيّةِ، فشهدَ المغازي النّبوية كلّها، وشهد خيبرَ، وغزوة الفتح، وحُنين، وتوفيَ رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن عبد الله بن أُنيس.

* وقد شاركَ عبد الله بن أُنيس شعراء الصّحابة، وبُلغَاءَ المُسلمين في رثاءِ النّبيّ ﷺ، فجاءتْ قريحته بقصيدةٍ عينية تفيضُ برقةِ العَاطفة، وجمال المشَاعر، وتعبّرُ عن تأثّره الشّديد لفَقْدِ الرسولِ ﷺ الذي لم يفقد الماضون مثله، بل ولا مثله حتى القيامة يُفقد، وها نحن أولاء نقتطفُ بضعة أبيات كاشفات منْ قصيدته الجميلة المؤثّرة:

---

(١) انظر: دلائل النبوّة للبيهقي (٤/ ٢٩٣ و٢٩٤) وتاريخ الإسلام للذّهبي (المغازي ص ٣٦١ و٣٦٢) مع الجمع والتصرف. وانظر طبقات ابن سعد (٢/ ٩٢) وأنساب الأشراف (١/ ٣٧٨) والمغازي (٢/ ٥٦٧ و٥٦٨) والسّيرة النبوية بشرح أبي ذر الخشنيّ (٤/ ٣٥٢ و٣٥٣) وغيرها من مصادر.

تطــاولَ لَيلـــي واعتــرتنـــي القـــوارعُ
وخطـــبٌ جليـــلٌ للبليـــةِ جـــامـــعُ
غـــداةَ نعـــى النَّـــاعـــي إلينـــا محمّـــداً
وتلـــك التـــي تستـــكُّ منهـــا المسَـــامـــعُ
فلـــو ردّ ميتـــاً قَتْـــل نفســـي قتلتهـــا
ولكنّـــه لا يـــدفـــع المـــوت دافـــعُ
فـــآليـــتُ لا أثنـــي علـــى هُلْـــك هـــالـــكٍ
مـــن النّـــاس مـــا أوفـــى ثبيـــرٌ وفـــارعُ
ولكنّنـــــي بـــــاكٍ عليـــــه ومتبـــــعٌ
مصيبتـــــه إنِّـــي إلـــى اللهِ راجـــعُ
وقـــد قبـــضَ الله النَّبييـــن قَبْلَـــه
وعـــاد أُصيبـــتْ بـــالـــرُّزى والتَّبـــابـــع[1]

* هذا؛ وقد عاش عبدُ الله بنُ أُنيس ـ رضي الله عنه ـ في ظلالِ الخلافة الرَّاشدة سَعيداً بما قدَّمه في العَصْر النّبوي من خَدَمَاتٍ لصَالح الإسلام، وها هو الآن يتابع رحلة الفروسيّة، فيخرج مع الجيوشِ الإسلامية التي فتحتِ الدُّنيا، فقد ذهبَ إلى مصرَ، ودخل إفريقية، ثمَّ قدم الشَّام، ورحل إليه وهو بالشَّام جابر بن عبد الله ليسمع منه حديثاً في القَصَاص[2].

* وفي سنَةِ أربعٍ وخمسينَ من الهجرة النَّبويَّة، كان عبد الله بن أُنيس ـ رضي الله عنه ـ يودِّعُ الدُّنيا؛ ليكون مع الذين أَنْعَم اللهُ عليهم.

* وتشيرُ أخباره إلى أنَّه توفي بالمدينةِ[3] أيام خلافة معاوية بن أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ.

* ذلكم هو عبدُ الله بنُ أنيس الصَّاحب الفَارس؛ الذي خلَّده تاريخ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٢٠ و٣٢١).
(٢) الإصابة لابن حجر (٢/ ٢٧٠).
(٣) أنساب الأشراف (١/ ٢٤٩). وهنالك رواية تقول: إنه مات بالشام (الإصابة ٢/ ٢٧٠).

الفروسيّة والفداء في عالم الإسلام، فكان بطلاً عملاقاً، وفارساً فذّاً.

* رضي الله عن عبدِ الله بنِ أُنيس، وجعله في علّيّين، وأذاقهَ رحمته، وحشرنا في زمرتهِ، إنّه سميعٌ مجيب، وبالإجابة جدير.

* * *

Scanned by CamScanner

(٤)

عُقْبَةُ بنُ عَامر

ـ رضي الله عنه ـ

كان عَالماً، مُقرئاً، فصيحاً، فرضياً، شاعراً، كبير الشَّأْن، رامياً منَ الرُّماة المذكورين.

Scanned by CamScanner

عظمة الإسلام:

* مَنْ كانَ يظنُّ أنَّ هذا الرَّجُل سيكون واحداً مِنَ الذين شاركوا بفتحِ دمشق، أعظم مُدُن الدُّنيا في عَصْر النُّبوَّة؟!

* ومَنْ كان يظنُّ أنَّ هذا الرَّجل سيغدو والياً على أرضِ الكنانة؟! ويغدو فارساً منَ الفُرسان الرُّماة القَادة الفاتحينَ؟!

* بل مَنْ كان يحسبُ أنَّ هذا الرَّجُل سينتقلُ منْ حياةِ الرعي إلى سدَّة العلماء؛ أُولي الفَضْل والنُّهى؟ بل سيغدو فارساً فرضياً عالماً؟!

* كلُّ ذلك كان في عِلْم الغيبِ، عند العليم الخبير، عالم الغيب والشَّهادة؛ ولقد تفجَّرتْ هذه المواهب الكريمة عند فارسنا اليوم في ذلك اليوم الأغرِّ الذي التَقَى فيه أنوار اليقين، والتقَى محمّداً رسول الله ﷺ معلِّم النَّاس الخير، ومُخْرِجهم من الظُّلمات إلى النُّور، بإذن العزيزِ الحميد.

* أسلم هذا الفارسُ العالمُ إِثْر هجرة رسولِ الله ﷺ إلى المدينة المنوّرة، وكان إسلامُه عن بصيرة، وبايع رسولَ الله ﷺ على ما بايع عليه المهاجرون الأخيار.

* إنَّ هذا الفارس؛ الذي جَمَعَ وجُمعتْ فيه تلكم الصِّفات، هو عقبة بن عامر بن عبس الجهنّي[1]، أبو حماد، أحد رفعاءَ الصَّحابة الكرام، وأحد فرسان المدرسة المحمَّدية العِظَام.

---

(1) السِّيَر الكبير (١/ ١١٠ و١١٢) ومسند أحمد (٤/ ١٤٣ و٢٠١) وطبقات ابن سعد (١/ ٣٤٣ و٣٤٤) ومسند أبي يعلى (٣/ ٢٧٦ ـ ٣٠١) والمحبر (ص٢٩٤) والمعارف (ص٢٧٩) والمستدرك (٣/ ٥٣٠ و٥٣١) والاستيعاب (٣/ ١٠٦) ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩٥ ـ ١٠١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٦) والنّجوم الزّاهرة (١/ ١٢٦ ـ ١٣٠) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عَهد معاوية ص٢٧١ ـ ٢٧٣) والعبر (١/ ٦٢) وتهذيب التّهذيب (٧/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤) وتقريب التهذيب (٢/ ٢٧) وحياة الصّحابة للكاندهلوي (انظر الفهارس ٣/ ٧٧٠) وغيرها من المصادر.

إسـلامُه وَبَيْعَتُـه:

* رحَّبتِ المدينةُ المنوَّرة بهجرة رسولِ الله ﷺ ترحيباً كريماً، وقد وصلَ أريجُ ذلك إلى البوادي التي تحيطُ بها، ولامست دعوة التَّرحيب العطرة أُذُنَ عُقبة بن عامر؛ الذي كان يقطعُ نهاره في غُنَيمات يرعاها، فتشوَّقَ لمعرفةِ رسولِ الله ﷺ وللإسلام، ولكنْ ماذا يفعل؟

* عقبة نفسه ينقلُ لنا لحظات اللقاء المبارك بأسلوبه، فيقول:

بلغني قدوم النَّبيِّ ﷺ، وأنا في غُنيمة لي بطرفِ المدينة المنورة أتولى رعيها، فتركتُ غُنيماتي، ثمّ قدمت المدينة على النَّبيِّ ﷺ، فسلَّمتُ، وقلتُ: يا رسولَ الله! بايعني.

فقال ﷺ: «بيعة أعرابية تريد، أو بيعة هجرة؟».

قلتُ: لا، بل بيعة هجرة.

فبايعني رسولُ الله ﷺ وأقمتُ معه، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا مَنْ كان ها هنا مِنْ مَعَدٍّ فليقم» فقام رجال، وقمتُ معهم، فقال: «اجلسْ أنت» وصنع ذلك ثلاث مرار.

فقلت: يا رسولَ الله! إنَّا نحن منْ معدّ.

قال: «لا».

قلتُ: ممَّن نحنُ؟

قال: «أنتم من قضاعةَ بنِ مالك بن حِمْيَر»(١).

* ويروي عُقبة بن عامر - رضوان الله عليه - كيف أضحى من تلامذة المدرسة المحمَّدية، وأحد فرسانها فيقول:

جئتُ في اثني عشر راكباً، حتى حللنا برسولِ الله ﷺ؛ فقال أصحابي: مَنْ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١/٩٦ و٦٧) بتصرف يسير. وعن إقامته قرب رسول الله ﷺ روى عقبة فقال: بايعت رسول الله ﷺ على الهجرة، وأقمت معه (طبقات ابن سعد ٤/٣٤٤).

يرعى لنا إبلنا، وننطلق فنقتبس مِنْ نبيِّ الله ﷺ، فإذا راح ورحنا، أقبسناه ممَّا سمعنا منْ رسولِ الله ﷺ؟

ففعلتُ ذلك أيَّاماً، ثمَّ إنِّي فكرتُ في نفسي، فقلتُ: لعلِّي مغبونٌ، يسمع أصحابي ما لم أسمعْ، ويتعلَّمون ما لم أتعلَّم من نبيِّ اللهِ ﷺ.

فحضرتُ يوماً، فسمعتُ رجلاً يقول: «مَنْ توضأ وضوءاً كاملاً كان من خطيئته كيوم ولدته أمُّه». فتعجبتُ لذلك[1].

فقال عمر بن الخطاب: فكيف لو سمعتَ الكلام الأوَّل كنتَ أشدَّ عجباً.

فقلت: اردد عليَّ ـ جعلني الله فداك ـ.

قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً فتح الله له أبواب الجنَّة، يدخل مِنْ أيِّها شاء، ولها ثمانية أبواب».

قال عقبة: فخرج علينا نبيُّ الله ﷺ، فجلستُ مستقبله، فصرفَ وجهه عنِّي، حتى فَعَلَ ذلك مراراً، فلمَّا كانتِ الرابعةُ قلتُ: يا نبي الله! بأبي وأمِّي أنت، لِم تصرف وجهك عني؟.

فأقبل عليَّ، فقال: «واحدٌ أحبّ إليك أم اثنا عشر؟» فلمَّا رأيتُ ذلك رجعتُ إلى أصحابي[2].

* ويبدو أنَّ عُقبة ـ رضي الله عنه ـ قد تركَ البادية، ولزم مجالسَ رسول الله ﷺ؛ ليكون واحداً مِنْ أوعيةِ العلْمِ في عَصْر النُّبوَّة. وفي تلك المجالسِ العظيمة المباركة خرج عقبة بحصيلةٍ وافرةٍ منَ العِلْم، وها هو يُحدِّثنا عن لقاءٍ معطاء من تلك اللقاءات المباركة.

* قال عُقبةُ: لقيتُ رسولَ الله ﷺ فابتدأته، فأخذتُ بيده، فقلتُ: يا رسولَ الله! ما نجاةُ المؤمن؟

---

(١) من هنا يتبيَّن حرصُ الصحابة الكرام على العلم والتعلُّم، وسماع ذلك بأنفسهم؛ للتبصر والعيش في ظلال العلم النبوي، فتتكامل الشخصية المسلمة بالعلم الذي يبني درجات الكمال، ويُبدِّد حلكات الظلام، ويسمو بالفرد والأمة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩٧).

قال: «يا عقبة أخرِس لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك».

ثمّ لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذَ بيدي، فقال: «يا عقبة بن عامر! ألاَ أعلِّمكَ خير ثلاث سور أُنزلت في التّوراة، والإنجيل، والزّبور، والقُرآن العظيم؟».

قلتُ: بلى، جعلني الله فداك. فأقرأني: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[2] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[3] ثم قال: «يا عقبة! لا تنسهنّ ولا تَبِتْ ليلة حتى تقرأهن».

قال عقبة: فما نسيتهنّ منذ قال: «لا تنسهنَّ» وما بتُّ ليلةً قطُّ حتى أقرأهُنَّ.

ثمّ لقيتُ رسولَ الله ﷺ، فابتدأته فأخذتُ بيده فقلتُ: يا رسول الله! أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة! صِلْ مَنْ قطَعَك، وأَعْطِ مَنْ حرمك، وأعرضْ عمّنْ ظَلَمك»[4].

مِنْ فُرسَانِ المَشَاهِدِ الراقية:

* لزمَ عُقبة بن عامر الجهنيُّ - رضوان الله عليه - رسولَ الله ﷺ، وكان من الصَّحابة المشهورين، ولما بدأتْ مغازي رسول الله ﷺ، فاتت عقبة غزاة بدر، لكنّه شهد أحداً فما بعدها منَ المشاهد الأخرى.

* ولما توجّه رسولُ الله ﷺ إلى غزوةِ تبوك، صَحِبه عقبة، وهو الذي روى خطبة الرّسول ﷺ يومئذ[5]، وهي تُشْبِه في مضمونها خطبة حجّة الوداع.

* ومن خلالِ الأخبار التي وصَلَتْنا عن عُقبة بن عامر - رضي الله عنه -

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة الفلق.

(٣) سورة النّاس.

(٤) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩٨ و٩٩) وللحديث أصل في مسند أحمد.

(٥) انظر: حياة الصحابة (٣/ ١٩) والبداية والنهاية لابن كثير (٥/ ١٣ - ١٤) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٤١، ٢٤٢).

استطعنا أنْ نستلهمَ بعض معاني الفروسيّة التي حققها هذا الفارس الكريم في ظلالِ الحياة المباركة؛ التي عاشها قربَ رسول الله ﷺ.

* فقد سمعَ عُقبة فضيلة الرّمي منْ رسولِ الله ﷺ، وأنّه مخُّ القوّة، فقد جاء عن عُقبة - رضي الله عنه - فيما وردَ في الصَّحيح قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ - وهو على المنبر - يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إنَّ القوةَ الرّمي، ألا إن القوةَ الرّمي، ألا إن القوة الرّمي»[١]. فكان عُقبة - رضي الله عنه - يتابع التَّدريب على الرّمي حتى بعد أنْ أصبحَ شيخاً كبيراً، يَشُقُّ عليه التّدريب على الرمي وعلى الحركة، وشهد له بهذا شاهدُ عيانٍ، وهو عبد الرحمن بن شماسة قال: إنَّ فُقَيماً النخميَّ قال لعقبة بنِ عامر: تختلف بين هذين الغرضَيْن، وأنتَ كبيرٌ يشقُّ عليك؟!

قال عُقبة: لولا كلامٌ سمعته عنْ رسولِ الله ﷺ لم أعانيه.

قال: «مَنْ علم الرّمي ثمّ تركه فليس منّا، أو قد عصى»[٢].

* ولهذا فإنّنا نجد عقبة غير منقطع عن التّدرب على الجهاد والرّمي ووسائله حتى آخر حياته. ولقد استخدم عقبة فنَّ الرماية في الغزواتِ بمعيّة رسولِ الله ﷺ، حتى لقد كان منَ الرُّماة المذكورين[٣] من أصحابِ رسول الله ﷺ.

عُقْبَةُ وَالجِهَادُ المُتَوَاصِل فـي سبيل الله:

* تدلُّ الأخبارُ الوثيقة التي وصلتنا عن عقبةَ بنِ عامر - رضي الله عنه - بأنَّه شهد فتوحَ الشَّام، وكان على البريدِ إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يبشِّره بفتحِ دمشق، حيثُ وصل المدينة في سبعة أو ثمانية أيام، وهذه فروسية

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٨٨) ومسلم في الإمارة برقم (١٩١٧) وأبو داود في الجهاد برقم (١٥١٤) وابن ماجه في الجهاد برقم (٢٨١٣) والترمذي: في التّفسير برقم (٣٠٨٣).

(٢) رواه مسلم.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٨).

منْ نوع خاص تشير إلى صَبْره على مواصلةِ السَّير في تلكم الأيام، ويالعقبة! كم تحمَّل من مشاق ليوصل أخبار المسلمين إلى قائدهم الأعلى!!

* حدَّثَ عقبةُ عن ذلك، فقال: خرجتُ من الشَّام يوم الجمعة، ودخلتُ المدينةَ يوم الجمعة، فقال لي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: هل نزعتَ خفَّيكَ؟

قلتُ: لا.

قال: أصبتَ السُّنَّة.

* وفي المدينةِ دخل عقبة المسجد النَّبويَّ، ووقفَ عند قبر رسولِ الله ﷺ، ودعا الله عزَّ وجلَّ أن يكرمهَ في مسيرةِ الجهاد، وتشفَّع بالرَّسول ﷺ تيسير طريقه في عودته إلى الشَّام، فكان ذلك، ورجع منَ المدينة إلى الشَّام في يومين ونصف بدعائه عند قبر رسول الله ﷺ، وتشفّعه به في تقريب طريقه[١]. هذا وقد سكن عقبة دمشق مدة، وكانت له دار بها بناحية قنطرة سَنان من نواحي باب توما[٢].

ثمَّ إنَّ عقبة شهد فَتْح مصر، واختطَّ بها داراً، وولي الجند بمصر لمعاويةَ ابنِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنه ـ ثمَّ إنَّه عَزَله بعد ثلاث سنين عنها، وولَّى مكانه مسلمةَ بن مُخلَّد[٣]، وولاَّه قيادة المسلمين في مغازي البحر، وكان في قيادته ناجحاً، عارفاً بالسُّنَّةِ، عالماً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ سيفتحُ للمسلمين البُلدان، مصداقاً لقولِ رسولِ الله ﷺ فيما رواه عقبة عنه أنَّه قال: سمعتُ

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩٥ و٩٦) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٧ و٤٦٨) مع الجمع والتصرف بينها.

(٢) «باب توما»: هو أحد أبواب مدينة دمشق من الجانب الشَّرقي.

(٣) مسلمةُ بنُ مخلّد بن صامت الأنصاريّ الخزرجي، منْ كبارِ الأُمراء في صَدْرِ الإسلام، شهدَ مع معاوية بن أبي سفيان معركة صفّين، فولاه إمارة مصر، ثمّ أضاف إليها المغرب، وهو أوّل مَنْ جعل بنيان المنائر التي هي محلّ التّأذينِ في المساجد.

رسولَ الله ﷺ يقول: «سُتفتح عليكم أرَضون، ويكفيكم الله، فلا يعجزنَّ أحدكم أنْ يلهوَ بأسهمه»[1].

مَناقِبُ عُقْبَةَ وَتَرِكَتُه:

* كان عقبة بن عامر الجهنيّ ـ رضي الله عنه ـ أحدَ الأُمَناء منْ فرسان الصَّحابة الأوفياء، فقد كان محلَّ ثقة رسولِ الله ﷺ في جَمْع أموالِ الصَّدَقات، وناهيك بهذهِ الثِّقة التي لا يقوى على تحمُّلها إلا الأقوياء الأوفياء، والأشدّاء العظماء.

* وكان عقبةُ في مهمَّته لجمع الصَّدقات أميناً حفيظاً عليها، فإذا ما أراد أنْ يتصرَّف شيئاً سأل حبيبه، ومعلِّمه، ومُخْرجه إلى النُّور سيّدنا رسول الله ﷺ.

قال عقبة: بعثني رسولُ الله ﷺ ساعياً، فاستأذنته أنْ نأكل منَ الصَّدقة، فأذن لنا[2].

* وقد حظيَ عقبةُ بنُ عامر ـ رضي الله عنه ـ بمنقبةٍ كريمة، إذ خَدمَ رسولَ الله ﷺ، وذات مرّة أركبه النَّبيُّ ﷺ ومشى هو، ثمّ علَّمه المعوَّذَتَيْنِ.

* أخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده عن عقبةَ بنِ عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا أنا أقودُ برسولِ الله ﷺ في نقب مِنْ تلك النِّقاب إذ قال لي: «يا عقبة! ألا تركب؟».

قال: فأَجللتُ رسولَ الله ﷺ أنْ أركبَ مركبه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٥٧) ومسلم في الإمارة برقم (١٩١٨) باب: فَضْل الرمي والحثّ عليه. وأخرجه الترمذي في التفسير برقم (٣٠٨٣) باب: ومن سورة الأنفال.

ويُستفاد من هذا الحديث: فضيلة الرمي والمناضلة، والاعتناء بذلك، بنيّةِ الجهاد في سبيلِ الله تعالى، وكذلك المشاجعة وسائر أنواع استعمال السّلاح، ومثله المسابقة بالخيل وغيرها، والمراد بهذا كله التّمرن على القِتَال والتّدريب، والتّحذق فيه، ورياضة الأعضاء بذلك.

(٢) مسند أحمد (٦/ ١٢١) برقم (١٧٣١١) طبعة دار الفكر بدمشق.

ثمَّ قال: «يا عُقيب! ألا تركب؟».

قال: فأشفقتُ أنْ تكونَ معصية.

قال: فنزلَ رسولُ الله ﷺ، وركبتُ هُنية، ثمَّ ركب.

ثمَّ قال: «يا عُقيب! ألا أعلّمك سورتَيْن من خير سورتين قُرأ بهما النّاس؟».

قلت: بلى يا رسول الله!

قال: فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [1]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2] ثمَّ أقيمتِ الصَّلاة، فتقدَّم رسولُ الله ﷺ فقرأ بهما، ثمَّ مرَّ بي قال: «كيف رأيتَ يا عُقيب؟!! اقرأ بهما كلّما نِمْتَ، وكلّما قمتَ»[3].

* وظلّ عقبةُ يقرأ هاتين السُّورتَيْن عَمَلاً بنصيحةِ المصطفى ﷺ صباح مساء إلى نهاية حياته المباركة، المليئة بالبطولة، والمفعمة بالفروسية.

* ومن جليلِ مناقب عقبة ـ رضوانُ الله عليه ـ أنْ زادَه الله عزَّ وجلَّ جمالاً في الصَّوت، وأنْعمَ عليه بحُسْنِ التِّلاوة، حتى لكأن صوته يمسُّ الأفئدة فيداعبُ الوجدان، ويناغي العُيون، فإذا بالعبراتِ تنحدر مِنْ خشيةِ الله عزَّ وجل، ورعاً، وتقى، وإجلالاً لعظمة الخالق المولى.

---

(١) سورة الفلق.

(٢) سورة الناس.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٤٤ و١٥٠ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣ و١٥٥). ومسلم في المسافرين برقم (٨١٤) وأبو داود في الصلاة برقم (١٤٦٢ و١٤٦٣) باب: في المعوذتين. والنسائي (٢/ ١٥٨) وكذلك (٨/ ٢٥١ و٢٥٢ و٢٥٣ و٢٥٤). والترمذي في ثواب القرآن برقم (٢٩٠٤ و٢٩٠٥) باب: ما جاء في المعوذتين. وقال: هذا حديث حسن صحيح.
والدارمي في فضائل القرآن (٢/ ٤٦١ و٤٦٢) باب: في فضل المعوذتين. والبيهقي في السنن (٢/ ٣٩٤) باب: في المعوذتين.
وصحّحه ابن خزيمة برقم (٥٣٥ و٥٣٦) وابن حبان برقم (١٨٠٩ و١٨٣٣).
وانظر: البداية والنهاية (٥/ ٣٣٧).

* قال ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ: كانَ عقبةُ بنُ عامر ـ رضي الله عنه ـ منْ أحسنِ النَّاس صَوتاً بالقُرآن، فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: اعرضْ عليَّ، فقرأ عليه سورة براءة، فبكى عمر ـ رضي الله عنه ـ ثمَّ قال: ما كنت أظنُّ أنّها نزلت(1).

* ولعلَّ في ذِكرِ مناقب فُرسان الصَّحابة؛ الذين تحلَّقُوا حولَ المائدة المحمّدية ما يجلو الأَفهام، ويمتع الأسماع، ويصقل النُّفوس، لما فيها من فوائدَ مجموعةٍ، وقلائد منْ جُمانِ الحكمةِ، ولؤلؤ ومرجان من كنوز هؤلاء الذين خلَّدوا في تاريخ الفروسية آثاراً وضيئة ما تزال تسطعُ بجميل أنوارها على هذه الدُّنيا إلى ما يشاء الله تعالى.

* ففي حياة فارسنا عقبة وِقْفَات مضيئات وضيئات في فنِّ الفروسية والرِّماية، لا، بل إنّه روى أحاديث عديدة في هذا المضمار الزّاكي بشذا العلم، وعبير المعرفة، وظلّ يسيرُ على هداها في حياته.

* حدَّثَ عبدُ الله بن زيد الأزرق قال:

كان عقبةُ بنُ عامر ـ رضي الله عنه ـ يخرج فيرمي كلَّ يوم، ويستتبع رجلاً، فكأنَّ ذلك الرَّجل كاد أنْ يملَّ ويسأم، فقال له عقبة: ألا أخبرك ما سمعت منْ رسولِ الله ﷺ؟.

قال الرَّجل: بلى.

قال عقبة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يدخل بالسَّهمِ الواحد ثلاث نفر الجنّة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله». وقال: «ارموا واركبوا، وأنْ ترموا خير من أنْ تركبوا. وكلّ لهو يلهو به المؤمن فهو باطلٌ إلا ثلاث: رميه بسهمه

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (17/ 100) وتاريخ الإسلام(عهد معاوية ص273). وعلّق الإمام الذَّهبي ـ رحمه الله ـ على هذه الرواية بنفيس قوله كعادته فقال: معناه: ما كأني كنت سمعت لحسن ما حبَّرها عقبة بتلاوته. أو يكون الضَّمير في (نزلت) عائداً إلى آيات من السّورة استغربها عمر. والله أعلم.

عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهنَّ من الحقِّ»[1].

* ومنْ مناقب عقبة أنَّه كان أحد رواة الحديث النَّبوي الشَّريف، وأحد الأئمة من الصَّحابة، وأحد المقرئين والفقهاء الأخيار، الأطهار، الأبرار.

قال عنه الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: كانَ عالماً، مقرئاً، فصيحاً، فقيهاً، فرضياً، شاعراً، كبير الشَّأن[2]. وقال أيضاً: له معرفة بالقرآنِ والفرائض، وكان فصيحاً، شاعراً[3].

* وقد رُوي لعقبة عن رسولِ الله ﷺ خمسة وستون حديثاً؛ اتفق الشَّيخانِ على تسعةٍ منها، وللبخاري حديث، ولمسلم تسعة. روى عنه من الصَّحابة: جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس وغيرهما. ومن التَّابعين: سعيد بن المسيب، وأبو إدريس الخولاني، وعلي بن رباح وآخرون[4].

* ومن مروياته ما أخرجه أبو يعلى بسنده عن جعفر بن عبد الله بن الحكم، قال: سمعتُ عقبةَ بنَ عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ صُرِعَ عنْ دابته في سبيل اللهِ فمات وهو شهيد»[5].

* ويضافُ إلى مناقبِ عقبة أنّه كان كاتباً، جيِّد الخطِّ، وقد كَتَبَ مُصحفاً بخطِّه.

قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ في تاريخه: قال أبو سعيد بن يونس: مصحفه الآن موجودٌ بخطِّهِ، رأيته عند عليِّ بن الحُسين بن قديد، على غير التَّأليف

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩٩) وشرح السير الكبير (١/ ١١٢) وللحديث أصل في مسند الإمام أحمد (٦/ ١٢٧) برقم (١٧٣٣٧ و١٧٣٣٨ و١٧٣٤٠ و١٧٣٤١ و١٧٣٤٢) طبعة دار الفكر بدمشق.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٥).

(٣) تاريخ الإسلام (عهد معاوية ص٢٧٢).

(٤) عن تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص٢٧٢) مع الجمع بينهما.

(٥) مسند أبي يعلى (٣/ ٢٩٠) حديث رقم (١٧٥٢). هذا وقد وردت نماذج عديدة من مروياته خلال ترجمته.

الذي في مصحف عثمان. وكان في آخره: (وكَتَب عقبة بن عامر بيده). ولم أزلْ أسمع شيوخنا يقولون: إنَّه مصحف عقبة، لا يشكُّون فيه، وكان عقبة كاتباً، قارئاً، له هجرة وسابقة[1].

* وكان عقبة يعتني بمظهرِه، فقد قال عنه الهيثم بنُ عدي ـ رحمه الله ـ: كان عقبةُ يخضبُ بالسَّواد، ويقول: نسوِّد أعلاها فتأبى أصولها.

* وامتدتِ الحياةُ بعقبةَ إلى العَام الثَّامن والخمسين من الهجرة النَّبويَّة، وعاشَ في آخرِ حياته بمصرَ، وهو لا يخرج عن الطَّريق الذي رسمه من أوّل يومٍ دَخَلَ الإيمانُ في قلبه، بل ظلَّ زاهداً في كلّ شيءٍ، إلاَّ في فنِّ الفروسية والرِّماية، فالزيادة فيهما قربى إلى الله، وفَضْل كبير في الأجر والثواب.

* والآن، ما رأيكم أنْ نشهدَ اللحظات الأخيرة منْ حياة هذا الفارس الصَّحابي الكبير الجليل الأمير الشَّريف عقبة، وهو يوصي بنيه؟!

* حَسَناً، فقد أخرج الطَّبرانيُّ ـ رحمه الله ـ في معجمه الكبير عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أنَّه لما حضرته الوفاة قال:

يا بنيَّ! إنِّي أنهاكم عن ثلاث فاحتفظوا بها: لا تقبلوا الحديث عن رسولِ الله ﷺ إلا من ثِقة، ولا تدِينوا[2] ولو لبستم العباء، ولا تكتبوا شِعْراً تشغلوا به قلوبكم عنِ القُرآن[3].

* وتوفي عقبة بمصرَ سَنَة ثمانٍ وخمسين منَ الهجرة، وكان قد أنْفقَ ماله في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* نعم، توفي عقبة وله بضعةٌ وستونَ سنة، وعنده بضعة وسبعون قوساً، مع كلِّ قوسٍ ريش ونَبْل، وأوصى بهنَّ في سبيل الله تعالى[4].

---

(١) تاريخ الإسلام للذَّهبي (عهد معاوية ص٢٧٢ و٢٧٣).

(٢) «لا تدينوا»: أي: لا تستدينوا.

(٣) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٢٠١).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٩٩).

* لقد أراد عقبة الآخرة، وسعى لها سعيها، وماتَ على ذلك، وهو يرجو مرضاة الله، فرضي الله عنه وأرضاه، فقد كان من الفرسان الفاتحين، ومن رُفَعاء الصحابة الأكارم، والأجواد الأماثل.

* * *

(٥)

عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْل

- رضي الله عنه -

قال له النَّبِيُّ ﷺ: «مرحباً بالرَّاكب المُهَاجر».

وقفاتٌ متأنية مَعَ المَاضي:

* كانَ وَاحِداً مِنَ الذين وقَفُوا في وجْهِ الإسلام والسِّلْم بعنفٍ قرابة عشرين عاماً، لم يتوقَّفْ خلالها عن تقديمِ الأذى للرسولِ ﷺ وللمسلمين، وعندما قَذَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في قلبه نور الإيمان، ندمَ على كلِّ لحظةٍ قَضَاها بعيداً عن نعمةِ الحقِّ، والصِّراط السَّويِّ، وأخذَ يسجِّلُ في صَفحَات حياته الجديدة أعمالاً تتسِمُ بالصِّدقِ والإخلاص، ويُنْفقُ أَمْواله في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وفي سبيل الشَّهادة، وعبَّر عن صِدْقِ نيَّته أَصْدَقَ تعبير، فنال درجات الشُّهداء، ومنازل الخلود. فالإسلام يجبُّ ما قبله، والمهم هو لحظة التغيير والدخول في الدين، والإذعان للخالق المولى، وقَطْع كل العلائق مع ماضي الجاهلية، وتبديل ذلك أعمالاً صالحة، وسلوكاً حسناً.

* وقبل أن نتعرَّفَ شيئاً عن ماضي هذا الفَارسِ، دعونا نتعرَّف بطاقته وهويّته.. ترجم له الذَّهبيُّ - رحمه الله - بقوله: عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة، الشَّريف، الرئيس، الشَّهيد، أبو عثمان، القرشيّ، المخزوميّ، المكي[١].

* في بدايةِ إشراقِ شَمْسِ الدّعوة الإسلاميَّة، كان عكرمةُ من الذين اندفعوا يحاربونَ الدَّعوة بغلظة وشَطط، وبرز مع عددٍ من جبابرة قريش يذيقون مَنْ آمنَ أنواع التَّعذيب والعذاب، ويقعدون لهم كل مرصد[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٣) وانظر: المغازي للواقدي (انظر الفهارس ٣/ ١٢١١) وطبقات ابن سعد (انظر الفهارس ٩/ ١٣٥) ونسب قريش (ص٣١٠ و٣١١) والمعارف (ص٣٣٤) والاستيعاب (٤/ ١٤٨ - ١٥١) ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣١ - ١٤٠) وتهذيبُ الأسماء واللّغات (١/ ٣٣٨ - ٤٤٠) والبداية والنّهاية (٧/ ١٠ و١١) والعقد الثّمين (٦/ ١١٩ - ١٢٣) وتهذيب التّهذيب (٧/ ٢٥٧) وغيرها كثير.

(٢) قد يتساءل المرءُ: فيم هذا العذاب الذي لقيه النبيُّ ﷺ وأصحابُه وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله عز وجل منه؟
والجواب: أن ما يلاقيه الدعاةُ إلى الله تعالى والمجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي؛ سُنَّة إلهية في الكون منذ فجر التاريخ، فالإنسان مكلف بالعبودية، أي: =

* ظَلَّ عكرمةُ مع أبيهِ، وثلَّة منْ أكابرِ المجرمين يسترسلون في العداوةِ إلى أنْ أذنَ الله بالهجرة للمسلمين إلى الأنصار، فهاجر رسولُ الله ﷺ وأصحابه، واتخذوا المدينة سكناً لهم.

* وفي السَّنة الثَّانية من الهجرة، خرجَ أبو جهل إلى بَدْرٍ مع جيش يعدُّ ألف رجل؛ لكي يحاربَ المسلمين الذين عرقلوا تجارة قريش، وكان يهذي ويقول ـ وقد نَفَخَ شيطانُ الغرور صدره ـ: واللهِ لا نرجعُ حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطَّعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً.

* كان عكرمةُ بنُ أبي جهل يمتطي صهوةَ جوادِهِ، وقد تسربل بالحديد، وهو يمنِّي نفسه، أنَّه سيقضي على المسلمين.

* وعلى أرض بدرٍ التقى الجمعان، وما هي إلاَّ ساعة أو بعض ساعة حتى صُرِعَ أبو جهل، وقُتِلَ فكان كأمْسِ الدَّابر، وقُتِلَ معه عدد من أكابر المجرمين، وأُسِرَ آخرون من كبار قريش، أمَّا الباقون فقد أطلقوا أرجلهم للريح، وفرّوا من ساحةِ المعركة، وولّوا الدُّبُرَ في صورةٍ مبعثرة، وعلامات الخوف ترتسمُ على وجوههم التي أرهقها قَتَار الذُّلِّ، والهوان، والهزيمة.

* ورجع عِكرمةُ مع مَنْ رَجَعَ، وقد قَصَمَ الحزنُ ظهره، فقد خلَّف أباه مجندلاً على رمالِ بدرٍ، بعد أنِ احتزَّ عبد الله بن مسعود رأسه(١)، وترك سراةَ

= أنه مُطالَبٌ بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وهذا يستدعي تحمل الشدة والأذى.
ثم إنه لا بد من الفتنة والابتلاء ليظهر الصادقون، ويُكْشَف أمر المدَّعين الكاذبين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].
وكلما اشتدَّ العذاب، وادلهم الظلام، واشتدَّ الأمر، لابُدَّ من انبلاج الفجر، والاستبشار بأن النصر قاب قوسين أو أدنى.

(١) روى عبدُ الله بنُ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ أفتِّشُ القتلى يومَ بدرٍ، لأبشِّر رسولَ الله ﷺ بمَنْ أراه مقتولاً منهم، فرأيتُ أبا جهل صريعاً، وبه رمقٌ، فجلستُ على صدرِه، ففتح عينيه، وقال: يا رويعي الغنم، لقد ارتقيت مرتقىً صَعْباً. =

قومه مقرنين في الأصفاد، ولكن ما قد وقع لا يمكن ردُّه، وظل مجرد ذكريات، ولكن من نوع آخر، ذكريات قاتمة لا يحب أن تجثم في وجدانه طويلاً، لا بل لا يحبُّ أن تمرَّ في مخيلته.

عكرمة ومحاولات أخرى:

بعد سقوط أبي جهل قتيلاً في بدرٍ، صارت الرئاسة إلى عكرمة، ونظر عكرمة حوله، فرأى قريشاً تنوح على قتلاها قرابة شهر، واصبح شغل قريش الشاغل أن تثأر وتنتقم، ونضجت فكرة الثأر في أذهان قريش، واضطرمت في نفوسها أيضاً.

هذا؛ وقد زاد عِكرمة حماسة ونشاطاً لفكرة الثّأر، أنَّ رجالاً ممنْ أصيبَ آباؤهم وإخوانهم وعشيرتهم ببدر، قد مشوا إلى أبي سفيان بن حرب، وكلّموهُ في أخْذِ الثّأر، ولم يكن أبو سفيان أقلّ حماسة منهم، فأجمعوا كيدهم، وساروا نحو المدينة بثلاثةِ آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان بن حرب، وعلى

= فقلتُ: الحمدُ للهِ الذي مكّنني منْ ذلك.

فقال: لِمَنِ الدَّبرة؟

فقلتُ: للهِ ورسوله.

فقال: وما تريد أنْ تصنعه؟

فقلت: أحزُّ رأسك.

فقال: خُذْ سيفي فهو أمضى لما تريد، واقطعْ رأسي من كاهلي ليكونَ أهيب في عين النّاظر، وإذا رجعتَ إلى محمّد فأخبره أنّي اليوم أشدّ بغضاً له مما كنتُ منْ قبل.

فقال: قطعتُ رأسه، وأتيتُ به رسولَ الله ﷺ فقلتُ: هذا رأسُ عدوّ الله أبي جهل.

فقال عليه السَّلام: الله أكبرُ، هذا فرعوني، وفرعون أمّتي، كان شرُّه عليَّ، وعلى أمّتي أعظم من شرّ فرعون على موسى وأمته، ثمّ نفلني سيفه (السِّير الكبير ٢/ ٦٠٠).

ولاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ مدى تعنّت وتجبر فرعون الأمة، وهو في حالةٍ رهيبة، وقلبه ينبضُ بالكراهية لرسول الله ﷺ. هذا؛ وقد توسعتُ في ترجمة أبي جهل في كتابنا: «المبشّرون بالنار» (١/ ١٥ ـ ٥٣) وبيّنتُ هنالك عظمة رسول الله ﷺ الذي جابه أبا جهل وأمثاله من وقود النار، ثم لاحظْ كيف أخرج الله الحّي وهو عكرمة من الميت أبي جهل، وبهذا تحققت نبوءة رسول الله ﷺ.

ميمنةِ الجيشِ خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عِكْرِمة بن أبي جهل.

وعند سفح أحد، التقى الفريقان، وكان من أشدهم حماسة عكرمة الذي اندفع يرتجز، ويقول:

كلُّهم يزجره أرْحِبْ هَلاَ ... ولَنْ يَرَوْه اليومَ إلا مُقْبِلا

يحملُ رمحاً ورئيساً جحفلا[1]

ودارت المعركة فكانت حامية الوطيس، وكان النصر في بدايتها للمسلمين، ولكنْ ما لبثَ بعضُ رُمَاةِ المسلمين - وهم بأعلى الجبل - أنْ تركوا أماكنهم، ونزلوا ليجمعوا الغنائم، فتبدَّل وَجْهُ المعركةِ، واستطاع خالدٌ وعكرمة أنْ يصعدا الجبل، ويزيحوا الرُّماة منْ مواضعهم، وقَتَل عكرمةُ أميرَ الرُّماة عبد الله ابنَ جُبير الأنصاري[2]، ودبتِ الهزيمةُ بالمسلمين، واستشهد منهم قرابة سبعين رجلاً.

* وضعتِ الحربُ أوزارها، وعاد المشركون إلى مكةَ، بَيْدَ أنَّ عكرمة لم يشتفِ بما صنع، وعبَّر عن ذلك، وهو في طريقه إلى مكة بقوله: ما صَنَعْنَا شيئاً، أَصَبْنَا أشرافهم، ثمَّ رجعنا قبل أنْ نستأصِلهم، قبل أنْ يكون لهم وفر[3].

* وتمضي الأيامُ، فإذا بعكرمةَ يتَّجهُ مرةً أخرى نحو المدينة مع جيوشِ الأحزاب؛ الذين وجدوا خندقاً حولَ المدينة المنوَّرة يصدّهم، ويردّ كيدهم إلى نحورهم.

* ولَعِبَ الغضبُ بالمشركين وبفرسانِ الأحزاب، وأخذ بعضُ شجعانهم يطوفون قربَ الخندق يتلمسون فيه مضيقاً يقحمون منه خيولهم، فانتهوا إلى مكانٍ ضيّقٍ قد أغفل المسلمونَ حراسته، ومن هنالك عَبره نفرٌ منْ رؤسائهم يتقدَّمهم عكرمة، ونوفل بن عبد الله، وعمر بن عبد ودّ، وضرار بن الخطَّاب، وهُبيرة بن أبي وهب، وجالوا بخيلهم قربَ المسلمين، فتصدى

---

(1) «أرحب هلا»: كلمتان لزجر الخيل. «الجحفل»: العظيم.

(2) المغازي (١/ ٣٠٢) وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٧٦).

(3) المغازي (١/ ٣٦١).

لهم فارس الصَّحابة، وسيِّدُ الشُّجعان، ومذلُّ أهلِ الشِّرك والطُّغيان، عليّ - رضوان الله عليه - وسقى عمروَ بنَ عبد ودّ كأسَ المنية، فكان كأمسِ الذَّاهب. ولما رأى المشركون ما حلَّ بصاحبهم ولّوا مُدْبرين.

* وبلغ بهم الرُّعب مبلغاً عظيماً، فولى نوفل بن عبد الله منهزماً، وسقط هو وفرسه في الخندق، فقُتِل، أمّا عكرمة، فقد لعب به الخوف ذات اليمين وذات الشِّمال، فألقى رمحه وهو منهزمٌ لينجو بنفسه منْ سيوفِ المسلمين، ونجا بقفزةٍ منْ على الخندق، وولَّى مدبراً ولم يعقبْ، بينما أخذ حسّان بن ثابت - رضي الله عنه - يرسمُ بشعرهِ صورةَ فرارِ عكرمةَ فقال:

تــولّــى وألقــى لنــا رُمْحَــه ... فليتَــك عِكــرمَ لــم تَفْعَــلِ
ووليّــت تعــدو كعــدو الظَّليـم ... مــا أن تحــور إلــى المعــدلِ[1]
كــأنّــك فــي الكــفّ حفّــاقــة ... بكــفّ وليــدٍ ولــم يغفــل
ولــم تلــقِ ظهــرك مستــأبســاً ... كــأنَّ قفــاك قفــا فــرعــلِ[2]
ينــوءُ إلــى اللــؤمِ أجــداده ... ويــدركــه لــؤمــه مــنْ عَــلِ[3]

* وانفضَّتْ جموعُ الأحزاب بأنْ هزمهم الله عزَّ وجلَّ وحده، ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ثُمَّ مَـاذَا يَـا عِـكْرِمَـةُ؟

* في رحلة الإبحار في بحارِ أنوار اليقينِ، أخذتِ الإشراقاتُ الإيمانيةُ طريقَها إلى النُّفوسِ، لتضيءَ القلوب، والعقول، وتهتدي بهدي الله عزَّ وجلَّ.

* ففي عُمرةِ القضاء، دخل رسولُ الله ﷺ مكة، فأدَّى مَناسك العمرة، هنالك صَعِدَ بلال بن رباح - رضوان الله عليه - على ظهر الكعبة، وعطّر

---

(١) «الظَّليم»: ذكر النعام.
(٢) «الفرعل»: ولد الضبع.
(٣) انظر: ديوان حسان بن ثابت(ص٢٦١) طبعة دار المعارف بمصر.

الأسماع بأذانه العذب الذي انسكب في الآذان ليستقرَّ في النُّفوس.

* وغادرَ رسولُ الله ﷺ مكةَ، غادرها بعد أنْ تركَ فيها أثراً طيّباً بنفوس أهلِها جميعاً، وعبّدتِ الطَّريق الوعر إلى قلوب سادات قريش، واخترقَ نورُ الإسلام حجب ظلام الجاهليات والعصبيّات، وغزا قلوب العظماء فلانتْ عريكتهم، وخضعوا للحقّ بعدما تبيَّن لهم خطأهم.

* وكان خالدُ بنُ الوليد بطل بني مخزوم، وفارس قريش أوّل مَنْ تأثّر بعظمةِ الإسلام عقب عمرة القضاء، ووقفَ بمكةَ أمام جَمْع من قريش، وأعلن قائلاً: لقد استبان لكلّ ذي عَقْلٍ أنَّ محمداً ليس بساحرٍ ولا شاعر، وأنَّ كلامه منْ كلام ربِّ العالمين، فحقٌّ على كلِّ لبٍّ أنْ يتبعه. وسمع عكرمة مقالةَ خالدٍ فأنكر ذلك، وقال له: لقد صَبَوْتَ يا خالد!

* وصحّح خالد هذه المعلومةَ لعكرمةَ فقال بوضوحٍ: لم أصبُ، ولكنّي أسلمتُ.

فقال عكرمةُ: والله! إن كان أحقّ قريش ألا يتكلّم بهذا الكلام لأنتَ.

قال خالد مُستفهماً: ولم؟!

قال عكرمةُ وهو يريد أن يحرّك كوامنَ الحِقْد بنفسِ خالد: لأنَّ محمّداً أوضعَ شرفَ أبيك حين جُرح، وقتل عمّك، وابنَ عمِّك ببدر؛ فوالله! ما كنتُ لأسلم، ولا أتكلم بكلامك يا خالد! أما رأيت قريشاً يريدون قتاله؟!

فأجابه خالدٌ بهدوءٍ: هذا أمْرُ الجاهليةِ وحميتها، ولكنّي واللهِ! أسلمتُ حين تبيّنَ لي الحقّ.

* وسمعَ أبو سفيان هذا الحوار، وعَلِمَ بإسلام خالد، فقال له في غضبٍ: يا خالد! واللات والعزّى، لو أعلم أنَّ الذي تقول حقّ لبدأتُ بك قبل محمَّدٍ.

فأجابه خالد بتحدٍّ: فوالله! إنه لحقٌّ على رغم مَنْ رغم.

فاندفعَ أبو سفيان في غضبٍ شديد نحو خالد، فحجزه عكرمة، وقال له: مهلاً يا أبا سفيان! فواللهِ لقد خِفْتَ للذي خِفْتُ أنْ أقولَ مثل ما قال، وأكون على دِينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وقريش كلّها تبايعتْ عليه، والله!

لقد خفتُ ألاّ يحول الحول حتّى يتبعه أهل مكة كلّهم(١).

* وفي عام الفتح، أقبل رسولُ الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وهو على ناقته القصواء، ودخل مكة، ثمّ اجتمع المسلمون مع رسول الله ﷺ عند جبل الصَّفا، فوقف خطيباً وقال: «يا معشر قريش! ما ترون إنّي فاعل بكم؟».

قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «فإنّي أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطُّلقاء»(٢).

«يـأتِيْـكُم عِكْرمَـةُ مُـؤْمِنَـاً»:

* عندما دخلَ المسلمونَ مكة، خرج عكرمةُ هائماً على وجههِ، خائفاً يترقَّب، واتجه نحو اليَمَن، وظلَّ سائراً حتى أشرف على البحرِ.

* وكانت زوجهُ أمُّ حكيم بنت الحارث قد أسلمتْ يومَ الفتح، وجاءت رسولَ الله ﷺ وقالت: يا رسول الله! قد هربَ عكرمةُ منك إلى اليمن، وخاف أنْ تقتله فآمِنْه. فقال رسولُ الله ﷺ: «هو آمِنٌ».

* وخرجتْ أمُّ حكيم مسرعةً نحو اليمن تحمل كتابَ الأمان، وبشَارة العفو عن زوجها، فألفته بجانبِ البحر أمام سفينة تريدُ الإبحار، فقالت له: يا بن عمّ! جئتُك منْ عند أوْصلَ النَّاس، وأبرِّ النَّاس، وخيرِ النَّاس، لا تهلك نفسك، وإنّي قد استأمنتُ لك رسول الله ﷺ.

قال عكرمة وقد بدأ الأملُ يشرقُ في جوانب نفسه، ويستيقظ في أركان فؤاده: أنتِ فعلتِ؟!!

قالت: نعم، أنا كلَّمته فآمنك.

---

(١) لقد صدقَ حِدسُ عكرمة وإحساسه، وكان ما توقَّعه، فلم تمضِ سَنَة حتى كان فتح الفتوح، فتح مكة، وكان عكرمة نفسه من مفاتيح هذا الفتح وأسبابه، بل كان من الذين أنعم الله عزّ وجلَّ عليهم بالإسلام، ومنَّ عليهم بالإيمان.

(٢) حديث ضعيف، انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٧٤) والإحياء للغزالي (٣/ ١٥٨) وفقه السيرة لمحمد الغزالي (ص٣٨٢).

* وعاد عكرمةُ بصحبةِ زوجه إلى مكةَ، وها هو قد أصبح قريباً منها قاب قوسين أو أدنى، هنالك قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبّوا أباه؛ فإنَّ سبَّ الميت يؤذي الحيّ، ولا يبلغ الميت»[1].

* وقدم عكرمةُ على رسول الله ﷺ، فوثبَ إليه وما على النّبيِّ ﷺ رداء فرحاً بعكرمةَ، وعانقه، وقال له: «مرحَباً بالرّاكب المهاجر»[2]. ثمَّ جلسَ رسولُ الله ﷺ فوقف عكرمة بين يديه، ومعه زوجه متنقبة فقال: يا محمّد! إنَّ أمَّ حكيم أخبرتني أنّك آمنتني.

فقال ﷺ: «صَدَقَتْ، فأنتَ آمِن».

قال: فإلامَ تدعو يا محمَّد؟

فقال ﷺ: «أدعوكَ إلى أنْ تشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله، وأنْ تقيمَ الصَّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتفعل وتفعل» حتى عدَّ خصال الإسلام.

قال: والله! ما دعوتَ إلا إلى حقٍّ، وأمْر حَسَن جميل، قد كنتَ والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوتَ إليه، وأنتَ أصدقُنا حديثاً، وأبرُّنا برّاً. ثم إنَّ عكرمة قال: فإنّي أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله[3]. وقد سُرَّ النّبيُّ ﷺ بإسلامِ عكرمة سروراً عظيماً.

حَيَاةٌ صَافِيـةٌ رائقــة:

* بَدأ عكرمة ـ رضي الله عنه ـ إسلامه بالعَطاء منذ اللحظات الأولى، فَطَلب منْ رسولِ الله ﷺ أنْ يعلِّمه فقال: يا رسول الله! علِّمني خيرَ شيء أقوله.

فقال رسولُ الله ﷺ تقول: «أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً

---

(1) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٣) والسيرة الحلبية(٣/ ٤٠).
(2) مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) والحديث رواه الطبراني. وانظر مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٢).
(3) المغازي (٢/ ٨٥١ و٨٥٢).

رسول الله». وأحبَّ عكرمة أن يستزيدَ من الخيرِ، فقال: ثمَّ ماذا يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «تقول: أشهدُ الله، وأشهد مَنْ حَضر، أنِّي مسلمٌ مجاهدٌ مهاجر»؟

* ونظرَ رسولُ الله ﷺ إلى وجْهِ الرَّاكب المهاجر فألفى علامات الخجل ترتسمُ عليه، فدعا له بالخير، وقال له: «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه». فقال عكرمةُ والحياء يرتسمُ على وجهه، وحلاوة الإيمان تعمل عَمَلها في قلبهِ تدعوه ليطلب الدُّعاء من رسولِ الله ﷺ: يا رسول الله! إنِّي أسألك أنْ تستغفرَ لي كلَّ عداوة عاديتكها، أو مسير أوضَعْتُ فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنتَ غائب عنه.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له كلّ عداوة عادانيها، وكلّ مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، واغفر له ما نال مني من عرض في وجهي، أو أنا غائب عنه».

فقال عكرمةُ والسُّرور يبدو على وجهه: رضيتُ يا رسول الله! ثمّ قال عكرمة: أما واللهِ يا رسول الله! لا أدعُ نفقةً كنتُ أنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضعفها في سبيل الله(١).

* وبدأتْ حياةُ الألفة والمحبَّة... بدأت رحلة الإيمان، وتلاشت الجاهلية، وعداوة العصبية:

مَضَتِ العَداوة وانقضتْ أسبابُها
وَدَعَتْ أواصرُ بيننا وحُلُوم

عِكْرِمةُ في صُفوفِ فُرسَان المسلمين المُجَاهِدينَ:

* في ركبِ المجاهدينَ الفُرسان من الصَّحابة، سار عكرمة ـ رضوان الله عليه ـ وغدا واحداً منْ شجعانهم وعُبَّادهم، وبدأ رحلة جهاده بتكسير الآلهة المزعومة، والأصنام المتوزِّعةِ في البيوتِ، فكان لا يسمع بصنمٍ في بيتٍ من

---

(١) انظر: حياة الصحابة (١/ ١٧٦ و١٧٧) بشيء من التصرف. وانظر مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٢).

بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره، وكيف لا يسرعُ إلى ذلك، وقد سمعَ منادي رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان يؤمنُ باللهِ فلا يتركن في بيته صنماً إلا كسره أو حرقه»[١].

* لقد أضحى عكرمة من فُرسان المدرسة المحمّدية، نسي الماضي القاتم كلّه، لقد استضاءَ بنورِ الله ونور الإيمان، فأضاءَ له طريق الجهاد، فشهدَ المشَاهد بعد إسلامه مع رسول الله ﷺ، وأخلص فيها، وبرهَنَ على صدْقِ إسلامه، ففي غزاةُ حُنين، كان له موقفٌ طيّب، ومقالة تدلُّ على حُسْنِ إسلامه وبلائه[٢].

* هذا؛ وقد بعثه ﷺ عام حجته على هوازن يجمعُ صدقاتها[٣]، فقام بعملِهِ خير قيام، وتوفي رسولُ الله ﷺ وعكرمة يقوم بعمله، وكان يومئذ بتبالة - بلد باليمن - فعاد بعد أن أنهى عمله ليكون مع ركْبِ المجاهدين تحت لواء خليفة المسلمين الأوّل؛ أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه -.

* وقد أوْكَلَ إليه أبو بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - عَدَداً منَ المهام، وكلّها تكلّلتْ بالنَّجاح والظَّفر. وكان لعكرمة - رضي الله عنه - في قتال أهل الرِّدة كريم الأثر، حيثُ جاهد المرتدين من بني حنيفة.

* ثمَّ استعمله أبو بكر - رضي الله عنه - على جيشٍ، وبعثه إلى أهل عُمان، وكانوا قد ارتدوا، فرزقه الله عزَّ وجلَّ الظَّفر عليهم، وعادوا إلى حظيرة الإسلام، وعاد إلى المدينة، وهو يحملُ بشائر النَّجاح لأبي بكر - رضوان الله عليه -.

الشَّهيـدُ الكَريـمُ:

* هو ذا أبو بكر - رضوان الله عليه - يستنفرُ المسلمينَ إلى غزوِ الرُّوم

---

(١) المغازي (٢/ ٨٧١).
(٢) انظر: السيرة الحلبية (٣/ ٧٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٤) والاستيعاب (٣/ ١٤٩) والإصابة (٢/ ٤٨٩).

بالشَّام، فأسرعَ عكرمة يُلبّي نداءَ الجهاد، واصطحب معه زوجه أمّ حكيم، وقدم المدينة ومعه ثلّة منَ المؤمنين منهم: عمّه الحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وابنه عمرو بن عكرمة، وعسكروا بالجرف ـ على بعد ميلين من المدينة ـ فخرجَ أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ يطوفُ في معسكرهم، ويقوّي الضَّعيف منهم، فبصرُ بخباءٍ عظيم، حوله المَرابِط؛ ثمانية أفراس، ورماح، وعدَّة ظاهرة، وتساءل أبو بكر: ترى مَنْ صاحب هذا الخباء وهذه الأفراس؟ فانتهى إلى الخباء، فإذا خباء عكرمة ـ رضي الله عنه ـ فسلَّم عليه، وجزاه أبو بكر خيراً، وعرض عليه المعونة، فقال له عكرمة: أنا غنيٌّ عنها، معي ألفا دينار، فاصرفُ معونتك إلى غيري، ودعا له أبو بكر بخير[(١)].

* انطلقَ الجيشُ الغازي إلى الشَّام.. وفي اليرموك... وقفَ عكرمة ـ رضي الله عنه ـ وقفَة فرسان الصَّحابة الشُّجعان يُجابه الأمواجَ البشرية منَ الرُّوم، ويجتهد في القتال أيّ اجتهاد، وكان منَ المُدافعين عن فسطاطِ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

* وَصَفَ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ شجاعة عكرمة فقال: لمَّا كان يومُ اليرموك نزل فترجَّل، فقاتل قتالاً شديداً، ولما ترجَّل قال له خالدُ بنُ الوليد: لا تفعل، فإنَّ قَتْلَكَ على المسلمين شديدٌ.

فقال عكرمةُ ـ رضي الله عنه ـ: خلِّ عنِّي يا خالد! فإنَّه قد كان لكَ مع رسولِ الله ﷺ سابقة، وإنِّي وأبي كُنَّا من أشد النَّاس على رسولِ الله ﷺ[(٢)].

* نقل الإمامُ النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ قول عكرمة ـ رضي الله عنه ـ يوم اليرموك:

قاتلتُ رسولَ الله ﷺ في كلِّ مَوطنٍ، وأفرُّ منكم اليوم! ثمَّ نادى: مَنْ يبايع

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٩ و١٤٠) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٠) مع الجمع والتصرف.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٨) بتصرف يسير جداً.

على الموت؟ فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمئة من وجوهِ فرسانهم، فقاتلوا قدام فُسطاط خالد حتى أثبتوا[1] جميعاً جراحات، وقُتِلُوا إلا ضرار بن الأزور[2].

* كانَ عكرمة - رضي الله عنه - يَطْرَبُ لصليل السُّيوف، ومقارعة الأبطال، فلمَّا رأى ازدحام الفُرسان نزل عن جواده، وقاتل راجلاً، وراح يشقُّ صفوف الرُّوم بسيفه، وشُوهِدَ وهو يواجه الرِّماح، ويركب الأسنَّة حتى جُرِحَ بصدرِهِ ووجهه، فقيل له: اتقِ اللهَ، وارفقْ بنفسك.

فقال: كنتُ أجاهد بنفسي عن اللات والعزَّى، فأبذلها لها، أفَأَسْتَبْقيها الآن عنِ اللهِ ورسوله؟! لا والله أبداً، فلم يزددْ إلا إقداماً حتى قُتِل[3].

* سَقَطَ عكرمةُ شهيداً يرجو رحمةَ الله، كما سَقَط ابنهُ عمرو شهيداً أيضاً، مع ثلَّةٍ منَ المجاهدين، ولكن قبل أنْ يفارقوا الحياة أعطوا أروعَ الأمثلة في الكرم والإيثار، فكان من الصحابة الأخيار الأطهار.

* رُوي أنَّ الحارثَ بنَ هشام، وعكرمةُ بنُ أبي جهل، وعياشَ بنَ أبي ربيعة - رضي الله عنهم - جُرِحوا يومَ اليرموك حتى أُثْبِتُوا، فدعا الحارث بن هشام بماءٍ ليشربه، فنظر إليه عكرمة فقال: ادفعه على عكرمةَ، فلمّا أخذه عكرمة نظرَ إليه عيّاش، فما وصل إلى عيّاش حتى مات، وما وصل إلى أحدٍ منهم حتى ماتوا[4].

---

(١) «أثبتوا»: أي: جرحوا جراحة لا يقومون معها.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٠).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: حياة الصحابة (١/ ٣٢٤).
إنَّ الإيثار فضيلة أخلاقية نبيلة، لايتحلى بها إلا أصحاب القلوب الكبيرة، والهمم العالية، والعزائم الثابتة؛ لأنَّ الإيثار يحتاجُ في تحقيقه إلى صبر، واحتمال، وبذل، وكرم؛ ولذلك قال القرطبي: «إن الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، رغبةً في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوّة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة». =

* وهكذا اجتهد عكرمة في القتال حتى حظي بالشَّهادة، وانتقل إلى جوارِ العزيز الرَّحيم، وذلك في السَّنة الثَّالثة عشرة من الهجرة النبوية الشَّريفة، وكان له ثنتان وستون سنة، ولما استشهد وجدوا به بضعاً وسبعون منْ طعنةٍ، ورمية، وضربة ـ رضي الله عنه[1] ـ.

نَفَحَاتٌ مِنْ زَهْرِ رِيَاضِ عِكْرمة الفارس المغوار:

* في رحلتي مع هذا الفارسِ الكريم أحببتُ أنْ أختمَ سيرته بنفحاتٍ نديّة من زَهْر مناقبه العطرة، فعندما رَزَقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الإسلام، رحَّبَ بهِ الرَّسولُ الكريم ﷺ، وهشَّ بوجهه، وقام[2] إليه فرحاً به.

* أحبَّ عكرمة أنَّ يتدارك ما فاته في العبادةِ، فكان يُرى سَاجداً قانتاً، راغباً في تلاوةِ القُرآن الكريم، وعيناه تذرفانِ منْ خشْيَةِ الله. فعن أبي مُليكة قال:

كان عكرمةُ بن أبي جهل يأخذ المُصحف، فيضعه على وجههِ، ويبكي ويقول: كلام ربِّي، كتاب ربِّي[3].

وروى ابنُ أبي مليكة أيضاً قال:

كانَ عكرمة إذا اجتهدَ في اليمين قال: لا والذي نجّاني يومَ بدر[4]!

= والإيثار أسمى مراتب البذل.

وما أكثر الأمثلة الرائعة للإيثار في تاريخ السلف من أبناء الإسلام؛ مما يُعدُّ في نظر العامة من الناس كالرؤى أو الأحلام.

انظر: موسوعة أخلاق القرآن؛ للدكتور: أحمد الشرباصي (١/ ٥٣ وما بعدها).

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٤).

(٢) قيل: إنَّ قيام رسول الله ﷺ إلى عكرمةَ، وفرحه به؛ سببه أنَّ رسولَ الله ﷺ، رأى في منامهِ أنّه دخلَ الجنّةَ، فرأى فيها عِذْقاً مُذلّلاً، فأعجبه، فقيل: لمن هذا؟ فقيل له: لأبي جهل، فشقَّ ذلك عليه، وقال: «ما لأبي جهل والجنّة؟ والله! لا يدخلها أبداً» فلمّا رأى عكرمة أتاه مُسْلِماً، تأوّلَ ذلك العذْق عكرمة بن أبي جهل. (مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ١٣٣).

(٣) المستدرك (٣/ ٢٧٣) وحياة الصّحابة (٣/ ٢٨٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٣) ومجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥).

* هذا؛ وقد امتدحَ الإمامان الجليلان الزُّهري والشَّافعي جهادَ عكرمة ـ رضوان الله عليه ـ فقالا: كانَ محمودَ البَلاء في الإسلام، محمودَ الإسلام حين دَخَل فيه ـ رضي الله عنه ـ[(١)].

* وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ عن عكرمة: إنَّه لا يُعْرَفُ له ذَنْبٌ بعدما أسلم[(٢)].

* وقد سبقتْ لعكرمة بشارة مباركةٌ منْ رسولِ الله ﷺ بأنَّه منْ أهل الجنَّة؛ فقد جاء في هذا عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ عِكرمةَ بنَ أبي جهل قَتَلَ رجلاً من الأنصار ـ أي: قبل إسلامه ـ يُقال له: المجذر ـ وقيل: صخر ـ فأُخْبر بذلك رسولُ الله ﷺ فتبسَّم، فقال رجلٌ منَ الأنصار: يا رسول الله! تبسَّمتَ أنْ قَتَل رجلٌ من قومك رجُلاً من الأنصار من قومنا؟!

فقال ﷺ: «لا، ولكنِّي تبسَّمْتُ إذ كانا جميعاً في درجةٍ واحدة في الجنَّة».

قال: فأسلم عكرمة، وقُتل شهيداً يوم وقعةِ المسلمين بالرُّوم[(٣)].

* ومن زَهْر رياض عكرمة أنَّه روى عنِ النَّبيِّ ﷺ أحاديث[(٤)].

* رحمَ الله عكرمة، فقد صَدَقَ ما عاهد الله عليه، وقَضى نحبه شهيداً؛ فرضيَ الله عن عكرمة، وبجنَّته أكْرَمَهَ، بعد أن أسلم، وحسن إسلامُه، وهو الشريف، الرئيس، الشهيد.

* * *

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٤) مع الجمع بينهما.
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٣٤).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٣٤) بتصرف يسير جداً. وانظر: المستدرك (٣/ ٢٧١) والإصابة (٢/ ١٧٥) والسيرة الحلبية (٣/ ٤٠).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٠).

(٦)

أبو الدَّحداح

- رضي الله عنه -

قال عنه ﷺ: «كم منْ عذقٍ رَدَاح لأبي الدَّحداح في الجنَّـة!».

في رحَابِ الطِّيْب والكَرَم:

* تميّزتِ المدينةُ المنوّرة في العَصْرِ النَّبويِّ، ببساتين منْ نخيلٍ وأعناب، وجنّات معروشاتٍ، وغير معروشات، وزروع ونخيل صِنْوان، وغير صنوان.

* كانت بساتينُ المدينةِ ملتفّة الأغصانِ والأوراق، وارفة الظلال، وكان أهْلها يزرعونَ الحبوب والبقول، ولكنَّ اعتمادهم الرئيسيّ على النَّخيل، حيث إنَّ النَّخيلَ مصدرُ خيراتٍ كثيرة في حياتهم، فهم يرتبطون بالنَّخلة ارتباطاً وثيقاً، حتى تكاد تكون النَّخلةُ أحَدَ أفراد الأسرة، فكانوا يستخدمون النَّخل في الغذاءِ، وبناء بيوتهم وصناعاتهم، ووقودهم، وعلف دوابّهم[1].

* وقد حَبَا اللهُ سُبحانه المدينةَ المنورة بالماءِ والوديان الكثيرة، والآبار العَذْبةِ، ولذلك كثُرت فيها البَسَاتين، ومنها ما هو مُسَوَّرٌ، وكان يُسمَّى «الحائط» ناهيك أنَّ أهلَ المدينة كانوا يملكون ثروةً هائلة من الإبل، والبقرِ، والغنمِ، والخيل التي كانوا يستخدمونها في الحروبِ والجِلاد.

* من هاتيكَ البقعة الطَّيِّبةِ يأتي فارسُنا اليوم، فارسٌ باسلٌ منْ فرسانِ الرَّسول ﷺ، خطَّ صفحات مُشْرِقة مُشَرِّفَة في تاريخ البذل السَّمح، والعطاء الفيّاض، والجود اللامحدود... أتدرون مَنْ هذا الصَّحابي الفارس الكريم؟؟.

* إنَّه ثابت بن الدَّحداح ـ ويُقال: ابن الدَّحداحة ـ بن نُعَيم حليف الأنصار، ويُكنى أبا الدَّحداح، وأبا الدَّحداحة[2].

---

(١) اشتهرت المدينةُ المنوّرة بالنخلِ، حتى إنَّ عمروَ بنَ عوف كان يقول: مَنْ كان منكم يريد الرَّاسيات في الوَحْلِ، المُطعمات في المَحْلِ، المدركات بالذَّحل، فليلحق بيثرب ذات النَّخل. (معجم البلدان ٥/ ٨٥).

(٢) المغازي (١/ ٢٨١) والاستيعاب (١/ ١٩٧ و١٩٨) والاستبصار (ص ٣٣٩ و٣٤٠) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٢٨) وصفة الصَّفوة (١/ ٦١٦ ـ ٦١٨) والإصابة (١/ ١٩٣) وحياة الصَّحابة (١/ ٥١٦) و(٢/ ١٦١ و١٦٢) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٢٣ و٣٢٤) ودرر السَّحابة (ص٤٢٢ و٤٢٣) وغيرها.

* أسلم أبو الدَّحداح لمَا فَشَا ذِكْرُ الإسلامِ في المدينة المنوّرة، وكان واحداً ممن نضَّروا وَجْهَ التَّاريخ بخُلقُهم وكرمهم وبطولاتهم، وترك أثراً طيّباً يلامسُ القلوبَ لمساتٍ رقيقة فيوقظها لتذكرَهُ على مدى الأيام، وتوالي الجديدَيْن.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾:

* كان ثابتُ بنُ الدَّحداح صاحبَ نخلٍ وزروعٍ ذات أفنان، وكان في مكانٍ بعيد عن مسجد رسولِ الله ﷺ، لذا فقد كانَ تخفى عليه بعضُ الأمورِ الشَّرعية، ولكنَّه كانَ يعوِّضُ ذلك بسؤالِ رسولِ الله ﷺ[(١)].

* ذكر الماورديُّ والقُرطبيُّ في تفسيريهما، أنَّ العربَ في المدينةِ وما وَالاها، كانوا قد استنّوا بِسُنَّةِ بني إسرائيل في تجنُّب مؤاكلةِ الحائضِ ومساكنتها، ومشاربتها، ومجالستها في البيوت.

* ولم يَرُق لأبي الدَّحداح هذا التَّصرّف الشَّائن الشَّائه بحقِّ المرأةِ التي كرَّمَها الإسلام، وأعلى مقامها بعد أن كانت ـ في معظم الأحايين ـ نَسْياً مَنْسياً، فأتى رسولَ الله ﷺ وسأله[(٢)] عن مدى صحةِ هذه العادة، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

* بَلغَ ذلك اليهودُ فقالوا: ما يريدُ هذا الرجل أنْ يَدَعَ مِنْ أمرِنَا شيئاً إلا خالَفنا فيه[(٣)]؟!.

وهكذا انقشعتْ تلك الأوهامُ التي كانت تتغلغلُ بين الناس، وتسري بينهم

---

(١) تفسير الماوردي المسمى: النكتُ والعيونُ (١/ ٢٣٥) وتفسير القرطبيِّ (٣/ ٨٠ و٨١).

(٢) جاء في بعض الرّوايات أنّ السّائل هو: أُسد بن حُضير، وعبّاد بن بِشْر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: أسباب النّزول للواحدي (ص٦٢) ولباب النقول للسّيوطي (ص٤٣).

سريان الهشيم، واطمأنَّ أبو الدَّحداحِ إلى شَرْعِ الله عزَّ وجلَّ، وبذلك ردَّ اللهُ كيدَ اليهود إلى نحورهم، وأبطل كيدهم، فتلاشى مكرُهم، وتخلَّص المسلمون من شباكهم الواهية.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾؟:

* اندفعَ الصَّحابةُ الأنصارُ يتسابقونَ في الإنفاقِ في سبيل الله عزَّ وجلَّ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وما وسعهم الجهد، وكانوا ثابتين على البَذْلِ والجودِ، وقد عَرَفَ أبو الدحداح أنَّ الإنفاق في سبيل اللهِ عزَّ وجلَّ صنْو الجهاد، فلم يتوقفْ لحظةً واحدة عنِ البذلِ مما يملك ابتغاء وجه الله، فالإخلاصُ ديدنُ المسلم، وغايته المثلى.

* روى القرطبيُّ - رحمه الله - في تفسيرِهِ قصَّةً عن جُودِ أبي الدَّحْداح وكرمه، فقال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال أبو الدَّحداحِ: فِدَاكَ أبي وأمّي يا رسول الله! إنَّ الله يستقرضُنا وهو غنيٌّ عنِ القرض؟

قال: «نعم يريدُ أنْ يدخلكم الجنَّة به».

قال: فإنِّي إنْ أقرضتُ ربِّي قرضاً يضمن لي ولِصِبْيَتي الدَّحْداحة معي الجنَّة.

قال رسولُ الله ﷺ: «نَعَم».

قال: فناولْني يدَك.

فناوله رسول الله ﷺ يده، فقال أبو الدَّحداح: إن لي حديقتين؛ إحداهما بالسَّافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أمْلك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: «اجعلْ إحداهما لله، والأخرى دعها معيشة لكَ ولعيالك».

قال أبو الدَّحداح: فأشهدُك يا رسول الله! أنّي جعلتُ خيرهما لله تعالى، وهو حائطٌ فيه ستمئة نَخْلَة.

قال رسولُ الله ﷺ: «إذاً يجزيك الله به الجنة».

* وما أنْ صافحت كلمةُ الجنَّة سَمْع أبي الدَّحداح حتى استطار قلبه فرحاً ولم تعد الدنيا تسعه من السرور الذي داخله، وانطلقَ مسرعاً حتى جاء أمّ الدَّحداح زوجه وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النَّخل، وتطعمهم بعض التَّمر، فأنشأ يخاطبها والبِشْرُ يملأ صَفْحة وجهه، ويرتسم على أساريره، وهو يقول:

هَــدَاكِ ربِّــي سُبُــلَ الــرَّشَــادِ ... إلــى سبيــلِ الخيــرِ والسَّــداد

بِيْنــي مِــنَ الحــائــطِ بــالــودادِ ... فقــد مضــى قَــرضــاً إلــى التَّنَــادِ

أقــرضتُــه الله علــى اعتمــادي ... بــالطَّــوع لامَــنٌّ ولا ارتــدادِ

إلا رجــاء الضِّعــف فــي المعَــادِ ... فــارتحلــي بــالنَّفــس والأولادِ

والبِــرّ لا شَــكَّ فخيــرُ زادِ ... قــدّمــه المــرءُ إلــى المعــادِ

* ولم تكنْ أمّ الدَّحداح أقلّ كَرماً وجُوداً من زوجها أبي الدَّحداح، بل قالت له على الفور: ربح بيعُك! باركَ الله لك فيما اشتريتَ، ثمّ أجابته وأنشأت تقول:

بشّــركَ اللهُ بخيــرٍ وفــرحْ ... مثلــك أدّى مــا لــديــه ونَصَــحْ

قــد متّــع اللهُ عيــالــي ومَنَــحْ ... بــالعجــوة السَّــوداء والــزّهــو البلــحْ

والعبــدُ يسعــى ولــه مــا قــد كــدحْ ... طــول الليــالــي وعليــه مــا اجتــرحْ

* ثمّ أقبلت على صبيانها تخرجُ ما في أفواههم من التَّمر، وتنفضُ ما في أكمامهم، حتى أفضتْ إلى الحائطِ الآخر، وتركوا حائِطَهم هذا لله، فقال النَّبيُّ ﷺ: «كم من عذْقٍ رَدَاح ودار فَيَاح لأبي الدَّحداح في الجنَّة»[1]!.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢٣٨ و٢٣٩) بشيء من التَّصرف اليسير، وانظر تفسير الرازي (٦/ ١٤١) والاستيعاب (٤/ ٦١) والاستبصار (ص٣٣٩) وصفة الصفوة =

* حقّاً ربحَ بيعُ أبي الدّحداح، وقد قَبِل الله عزَّ وجلَّ منه قرضه، ونجح في هذا الامتحان العمليّ؛ لنيلِ شهادة الرّضوان، فكان من السُّعَداءِ الأبرار.

* وتابع أبو الدَّحداح حياة الإنفاق في وجوهِ الخير، فهو يعرفُ أنَّ المال لا يذهبُ بالإنفاق في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما يضاعفه أضعافاً كثيرة، يضاعفه في الدُّنيا مالاً وبركة وسعادة وراحة، وفي الآخرة نعيماً وملكاً كريماً، وقربى ورضواناً؛ لذلك كان يطيرُ إلى البذلِ طيراناً لينال الرضوان من الله تعالى.

وفي غزاةِ أحد بذل نفسه في سبيلِ ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فإلى قصّة شجاعتهِ واستشهاده نقرأها فيما يلي، ففيها القدوة، والنموذج الأمثل.

في رحَاب الشَّهَادة وريَاض الاستشهَاد:

* ها نحنُ أولاءِ نشهدُ بداية المعركة في غزوة أحد، وها قد نشبَ القتالُ بين المسلمين والمشركين، وصاحَ المسلمونَ بصوتٍ واحد: أمتْ، أمتْ، وكان هذا هو الشّعار الذي اختاره رسولُ الله ﷺ للمعركة.

* انطلقَ أبو الدَّحداح ـ رضي الله عنه ـ يجولُ بين صفوف المشركين، يضربُهم بسيفهِ البتار، وكان في مقدمة الصُّفوف المؤمنة مع ثلّةٍ منْ فرسانِ المسلمين الأشاوس، منهم: أبو بكرٍ، عمرُ، عليُّ، الزُّبير، أبو دجانةَ،

= (١/ ٦١٧ و٦١٨) ومجمع الزّوائد (٩/ ٣٢٣ و٣٢٤) ودر السّحابة (ص٤٢٢ و٤٢٣).
«العَذق»: النّخلة.
«العِذْق»: عرجون النخلة كالعنقود من العنب.
«الرّداح»: الضّخم المخصب الثّقيل لكثرة ما فيه من الثمر.
«الفياح»: الواسع.
ونشير إلى أن الغالب على المرأة الحرص وعدم الجود، أما أم الدحداح فتجاوزت بإيمانها مرحلة الشح، فانطلقت تبغي أقصى غايات الكرم، والإخلاص لله عز وجل، فأسرعت بإخراج ما في أفواه صغارها من التمر، بعد أن صار البستان وقفاً لله تعالى.

وطلحة وغيرهم منْ أبطالِ وفرسان المسلمين؛ الذين أبلوا بلاء حسناً، وشهدت لهم المعارك بِحُسْن الإقدام.

* لكنَّ كفَّةَ المسلمين قد تغيَّرت عندما خالفَ الرُّماة أَمْرِ رسولِ الله ﷺ، ونزلوا مِنْ قمَّة الجَبَلِ، فتغيَّر وجهُ المعركة، واستولى الاضطرابُ والذُّعر على المسلمين، لهولِ المفاجأة التي لم يتوقعْها أحدٌ.

* وفي وسطِ هذا الهول المحيط بالمؤمنين، صاحَ صائحٌ: إنَّ محمّداً قُتِلَ! فكانتِ الطَّامَّةُ التي هدّتْ ما بقي من قوَّةِ المسلمين، فانهزمَ بعضهُم ممّا أصابهم منَ اليأسِ والكَلالِ والاضطراب، واستشهد بعضهمْ الآخر[1].

* ولما رأى أبو الدَّحداح بعضَ المسلمين ذُهلوا وتوقَّفُوا عنِ القتالِ صاحَ قائلاً: يا معشر الأنصار! إليَّ إليَّ، أنا ثابت بنُ الدَّحداحة، إنْ كانَ محمّد قد قُتِل، فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ[2].

* وفي هذهِ اللَّحظات الحرجة، كان أبو الدَّحداح - رضي الله عنه - يجابهُ كتيبة كبيرة فيها كِبار فرسان المشركين الأشدّاء، فقاتلهم، وثَبَتَ ثباتَ الجبالِ الرَّواسي، ولكنَّ الشَّهادة[3] كانت بانتظارهِ ترفرف بالقربِ منه، فنَالها، ونعمت الشهادة في ساحات القتال!.

* ذكر الواقديُّ - رحمه الله - قصَّة استشهادِ أبي الدَّحداح - رضي الله عنه -

---

(١) من الحكمة أن تشيعَ مقولةُ قَتْله ﷺ، ففي هذا درسٌ للمسلمين كي يستفيقوا إلى حقيقةٍ مفادها: عَدَم الارتداد على الأعقاب في حال موته ﷺ، وأن يوطّنوا أنفسهم منذ اللحظة على ما سيكون في المستقبل فأمانة الدعوة والجهاد لا بُدَّ أن تبقى وتستمر، ومن الضروري أن يحملهاالمؤمنون الأقوياء في توكلهم وعقيدتهم.

(٢) السّيرة الحلبية (٢/ ٥٠٣ و٥٠٤).

(٣) قال ابنُ قيم الجوزية - رحمه الله - إنَّ الشَّهادة عند الله منْ أعلى مراتبِ أوليائه، والشّهداء هم خواصّه والمقرّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشّهادة، وهو سبحانه يحبُّ أنْ يتخذَ من عباده شهداء تُراق دماؤهم في محبّته ومرضاته، ويؤثرون رضاه، ومحابّه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيلِ هذه الدَّرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليطِ العدو. (زاد المعاد ٣/ ٢٢١ و٢٢٢).

فقال: أَقْبَل ثابتُ بنُ الدَّحداحة ـ رضي الله عنه ـ يوم أحد، والمسلمون أوزاع[1]، قد سُقِط في أيديهم[2] فجعل يصيحُ: يا معشر الأنصار! إليّ إليّ، أنا ثابت بنُ الدَّحداحة، إنْ كان محمّد ﷺ قد قُتِل، فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ، فقاتلوا عن دِينكم، فإنَّ الله مظهركُم وناصركم.

* فنهضَ إليه نَفَرٌ منَ الأنصار، فجعل يحملُ بمَنْ معه منَ المسلمين الثابتين في القتال، وقد وقفتْ له كتيبةٌ خَشْنَاء فيها رؤساؤهم: خالدُ بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمةُ بن أبي جهل، وضرارُ بن الخطّاب[3]، فجعلوا يناوشونهم[4]، وحَمَلَ عليه خالدُ بنُ الوليد بالرُّمح فطعَنَه، فأنفذَه فوقع ميتاً، وقُتِلَ مَنْ كان مَعَهُ مِنَ الأنصار، فيقال: إنَّ هؤلاء آخر مَنْ قُتِلَ مِنَ المسلمين يوم أُحُد[5].

* وهكذا قُتِلَ أبو الدَّحداح شَهيداً قريرَ العين، بعد أن سجَّلَ صفحةً وضيئةً في سجلِّ الفروسيّة، وفي تاريخ الشَّجاعة والبسالة والإقدام، والثبات.

* استُشْهد أبو الدَّحداح ـ رضوان الله عليه ـ بعد أنْ ربحَ بيعة قبل غزاة أحد، وبعد أنْ داعبتْ نفسه لمسة رقيقة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] ثمَّ تعقَّبَتْها لمسة أخرى «كم منْ عذقٍ رَدَاح لأبي الدَّحداح في الجنَّة!».

ثم تبعتها لمسةٌ أوصلته إلى جنَّات النَّعيم، إلى الاستبشار بنعمةٍ منَ الله

---

(١) «أوزاع»: متفرقون.
(٢) «سُقط في أيديهم»: تحيروا مما حصل لهم.
(٣) وهؤلاء الأربعة أسلموا فيما بعد، وصاروا من فرسان الرسول ﷺ وخيار المسلمين.
(٤) المغازي (١/ ٢٨١) والاستيعاب (١/ ١٩٧ و١٩٨) وصفة الصفوة (١/ ٦١٦) والإصابة (١/ ١٩٣).
«يناوشونهم»: تناوش القومُ في القتال: تناول بعضُهم بعضاً بالرماح، ولم يتدانَوْا كُلَّ التداني.
(٥) الاستبصار (ص٣٤٠).

وفَضْلٍ، إلى درجات الشُّهداء الذين هم أحياءٌ عند ربّهم يرزقون... فرحينَ.. نَعم بما أَنْعَم عليهم، وآتاهم منْ فضلهِ، ومَنِّهِ، وكَرمِهِ.

* ذلكم أبو الدَّحداح الأنصاريّ، أحد الفُرسان الأبرار، من جُنْد الصَّحابة الأنصار الذين كانوا حول الرّسول ﷺ، ونالوا الكرامة بالشَّهادة، حيثُ اتّخذهم الله شهداء أصفياء.

* رضي الله عن أبي الدَّحداح، وجزاه الجزاءَ الجميل، إنَّه سميعٌ مجيبٌ، وبالإجابة جدير.

* * *

الباب الرابع

فارسات فاضلات

(١)

أم حَرَام بنتُ مِلحَانَ

رضي الله عنها

قال ﷺ: «أولُ جَيشٍ منْ أُمّتي يغْزونَ البحرَ قَدْ أوجَبوا» قالت أمّ حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم».

النَّابقَةُ السَّابقَـةُ فـي عالـم الفارسـات:

* أمُّ حرام بنتُ ملحان بن خالد الأنصَارية النَّجارية المدنيّة، واحدةٌ مِنْ عليَة النِّساء اللاتي كُتِبَ لهنَّ الخلودُ، وكان لهنَّ شأنٌ بين نساء الإسلام.

* عاصرتْ أمُّ حرام أحداث النُّبوة في المدينة المنورة، وكانت منَ اللائي حظينَ بشرفِ صحبة رسول الله ﷺ، فقد أسلمتْ وبايعتْ رسول الله، واصطبغت بصِبْغة الإسلام، وتغذَّت بلبانه، وذاقت حلاوته، فاستقرتْ محبّته في قلبها النقي، وبدأت نفسها الصَّافية تشرق بنور النُّبوة، وتفيض بالبذل والإيثار والخير والجهاد والعلم والفروسية.

* وأمُّ حرام بنت ملحان إحدى السَّابقات الأنصاريات إلى الإسلام، ومن أوائل النِّساء اللواتي أعلنَّ إسلامهنَّ قبل هجرة النَّبي الكريم إلى المدينة، وهي كذلك مِنَ المؤمنات اللاتي شهد الله سبحانه لهنَّ وللمؤمنين بكمال الإحسان بقوله تعالى:

﴿وَالسَّـٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَـٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

الشَّجرةُ الطَّيِّبـةُ والثمـار اليانعـة:

* أمُّ حرام بنتُ ملحان أخت الغميصاء، والغميصاء هي أمّ سُلَيم بنت ملحان(١) إحدى النِّساء الفاضلات المبشّرات بالجنّة؛ اللاتي تركنَ أثراً مباركاً وضّاءً في عصر النُّبوة، وكُنَّ قدوةً حسنة لنساء الإسلام.

* وضيفةُ حلقتنا خالة سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وأخت البطلَيْن الشَّهيدين حرام وسُلَيم ابني ملحان بن خالد، شهدا بدراً وأُحُداً، وقُتِلا شهيدين يوم بئر معونة، وحرامُ بن ملحان أخوها؛ هو الذي حمل كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل زعيم بني عامر، وأحد الشُّعراء الفرسان،

---

(١) انظر سيرة أم سليم في هذا الكتاب ص(٧٨٨).

فلما أتاه بالكتاب لم ينظرْ فيه حتى عدا على حرام فقتله[1].

ورُوي عن سيدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ خاله حرام بن ملحان طُعِنَ يوم بئر معونة في رأسه، فتلقّى الدمَ بكفِّه، وقال: فُزْتُ وربِّ الكعبة[2]!

* وأمُّ حرام كذلك هي أمّ الشَّهيد قيس بن عمرو بن قيس وزوج الشَّهيد عمرو بن قيس بن زيد، فقد شهد ابنها قيس بدراً، وشهد مع أبيه أُحُداً، وقُتلا شهيدين يومها ـ رضي الله عنهما ـ.

* وحتى تكتمل أغصان الشَّجرة الطَّيبة فقد تزوّجها أحدُ أبطال الإسلام وعلمائهم سيّدنا عبادة بن الصامت، وما أدراك ما عبادة! فهو واحدٌ مِمَّنْ شهدوا العقبة مع السَّبعين منَ الأنصار، وأحد النُّقباء الاثني عشر، شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان عقبياً نقيباً بدرياً أنصارياً، فأكرمْ بهذه الأوسمة المباركة[3].

وأنجبتْ منه ابنها محمّد بن عبادة بن الصَّامت، وكان سيِّدنا عبادة ـ رضي الله عنه ـ يحسِنُ لزوجه أمّ حرام وإلى ابنها عبد الله بن عمرو بن قيس ربيبه، وكان عبد الله بن عمرو هذا؛ خيّراً فاضلاً صلّى القبلتين، وصحب النَّبي الكريم ﷺ وروى عنه[4].

* في هذه البيئة الطَّيبة المتفرّعة بالبركة والخير كانت حياة الصَّحابية الجليلة أمّ حرام بنت ملحان، ومن زوجها الصَّحابي الجليل عبادة بن الصَّامت اقتبستْ كلّ معالم الخير والفضائل التي كانت موجودة فيه، فقد كان أحد كُتّاب الوحي، وأحد معلّمي القرآن وجامعيه، وأحد النّجوم الأبرار ليلة

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير (ص١٨٠).
(٢) انظر الاستبصار (ص٣٦).
(٣) وهو من الموصوفين بالورع والفقه، له (١٨١) حديثاً، وهو ممن جمع القرآن في عهده ﷺ. شهد فتح مصر، وأقام بحمص، وهو أول من ولي قضاء فلسطين. مات في الرملة سنة (٣٤هـ). انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٦ و٢٥٧) والأعلام (٣/ ٢٥٨).
(٤) انظر في هذا كتاب الاستبصار (ص٦٨).

العقبة، وبطل الأبطال في بدر أمّ الأبطال، وغيرها من المشاهد، وكان عَلَماً مُنيراً في بيعة الرّضوان، وغير ذلك منَ المكارم التي استوحتْها منه، فشاركت في نُصْرة الإسلام ونشره ـ رضي الله عنها وعنه ـ.

المَكَانَةُ العُـلْيَـا التي لا تُـضاهـى:

* اشتهرتِ الصَّحابية الجليلة أمّ حرام بالتَّقوى والورع والفضل، وكانت من فضليات النساء؛ ممن لهن اليد الطُولى في تشييد قصور المحامد، وإيجاد صالحات الأعمال، وكُنَّ المثل الأعلى في مضمار الفضائل، وهي كما قال عنها الإمام الذَّهبي رحمه الله تعالى: كانت من علية النِّساء[١].

ولذلك كان النَّبي الكريم ﷺ يكرمها ويزورها في بيتها في قباء[٢] ذلك المكان الذي نزل فيه رسول الله ﷺ أول ما هاجر إلى المدينة المنورة.

وكان عليه الصَّلاة والسَّلام إذا ذهبَ إلى قباء استراح عندها، فكانت تكرمه وتُسَرُّ به، وكان رسول الله ﷺ يدخل عليها زائراً وعلى أختها أمّ سليم، حدَّثَ عن هذا أنس ـ رضي الله عنه ـ فقال: دخل علينا رسول الله ﷺ ما هو إلا أنا وأُمّي وخالتي أمّ حرام فقال: «قوموا فلأصلِّ بكم» فصلى بنا في غير وقتِ صلاة[٣]. ولما انتهت هذه الصَّلاة دعا لأهل البيت بكل خير من خيري الدُّنيا والآخرة.

ومن الجدير ذكره هنا أنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ أمَّ حرام وأمَّ سُلَيم كانتا محرماً لرسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن عبد البر أنَّهما كانتا إحدى خالاته من الرَّضاعة، وذكر آخرون أنَّهما كانتا خالتان لأبيه أو لجدّه، لأنَّ عبدَ المطلب كانت أمُّه من بني النَّجار[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٦).
(٢) انظر وفاء الوفا للسمهودي (٣/ ٨٨٢).
(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه، باب: جواز الجماعة في النافلة (٢/ ١٢٨) وانظر الاستبصار (ص٣٩ و٤٠).
(٤) انظر النووي على شرح مسلم (١٣/ ٥٧) وانظر السيرة الحلبية (٣/ ٧٣).

* وكانت لأمِّ حرام مكانة كبيرة عند النَّبي الكريم؛ فقد رُوي أنَّه ﷺ كان يدخل على أخت أمِّ سُليم وهي أمّ حرام ـ رضي الله عنها ـ وتفلِّي له رأسه الشَّريف وينام عندها[1]. روى سيدنا أنس ما يتوافق مع هذا مِنْ حديث؛ فذكر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنتِ ملحان فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحتَ عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسولُ الله ﷺ فأطعمته ثم جلستْ تُفَلِّي رأسَه فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، وبشَّرها بالشهادة، حتى أضحتْ تُدعى: الشهيدة[2].

حُبُّها للجِهَادِ:

* كانتِ الصَّحابيةُ الكريمة أمّ حرام ـ رضوان الله عليها ـ تتمنّى أنْ تكونَ مع ركْبِ الشُّهداء، وذلك لِمَا للشُّهداء مِنْ منزلةٍ وكرامة عند الله سبحانه، وكانتِ الشَّهادة في سبيل الله نصْبَ عينيها، وحلماً تودُّ تحقيقه، وكثيراً ما كانت تسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يرزقَها الشَّهادة إلى أَنْ بشَّرها رسولُ الله بذلك، ودعا لها بالشَّهادة[3]، وأخبرها بأنَّها شهيدة[4] ستغزو في البحر.

* وفي كتابه النَّفيس ـ الاستبصار ـ ذكر ابنُ قدامة المقدسي ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ حرام كانت تُدعى الشَّهيدة لحديثٍ روتْه عن رسول الله ﷺ يبشِّرُها فيه أنَّها مِنَ الأوَّلين[5].

منْ مَنَاقِبِهَا:

لأمِّ حرام ـ رضي الله عنها ـ مناقبُ تفيضُ بالبركة، وتتّسِم بالكرم؛ فمن

---

(١) انظر نسب قريش (ص١٢٤) والسيرة الحلبية (٣/ ٧٣).
(٢) انظر دلائل النبوّة للبيهقي (٦/ ٤٥٠)، وانظر وفاء الوفا (٣/ ٨٨٢).
وهناك صحابية أخرى بشَّرها رسولُ الله ﷺ بالشهادة، فكانت تُدعى الشهيدة، وهي أم ورقة الأنصارية.
(٣) الاستيعاب (٤/ ٤٢٤).
(٤) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣).
(٥) انظر نسب قريش (ص١٢٥)، وسنن الترمذي (١٦٤٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٧١٢).

ذلك أنّها كانت حافظةً واعيةً لحديث رسول الله ﷺ، روت عن النّبي الحبيب ﷺ خمسة أحاديث، أخرج لها منها في الصّحيحين حديثٌ واحد متفق عليه[1]، وروى عنها زوجُها سيّدنا عبادة بن الصّامتِ ـ رضي الله عنه ـ، وسيّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وروى عنها كذلك عُمير بن الأسود وعطاء بن يسار ويعلى بن شداد بن أوس[2] وغيرهم.

* ومما يُضَاف إلى مناقب أمّ حرام رضوان الله عليها، البذل والإيثار لرسول الله ﷺ والقيام على خدمته كلّما زارها، وفضيلة الجود والإيثار منْ صفات الأنصار الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم غيرهم، وخاصّة المهاجرين من صحابة رسول الله ﷺ، وهذا بلا شك يدلُّ على صفاء النّفس من أكدار الدُّنيا وزُخرفها، ويدلُّ على قوة الرُّوح والبعد عن الشُّح، لأنَّ الشُّحَّ داءٌ عُضَال لا يصدر عنه خير، وقد سجّلَ الله سبحانه هذه الميزة المباركة للأنصار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

بشارتُها بالجنَّة:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣و٢٤].

* الصَّحابيةُ المِعْطاء أمُّ حرام ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ واحدة من النِّساء اللائي عُرفنَ بنقاء السّريرة، وصدْقِ الإيمان، والإخلاص في العبادة، فحملَها الشوقُ إلى الجنَّة، وكانت تطلب مِنَ الله الشّهادة في سبيله، وسألتِ النّبيَّ الكريمَ أنْ يدعو الله لها ليجعلَها مِنَ الشُّهداء، فدعا لها بذلك، فاستطار قلبُها

---

(١) المجتبى (ص١٠٥). وقيل أنها روت سبعة أحاديث.

(٢) انظر الإصابة (٤/ ٤٢٤) وتاريخ الإسلام (٢/ ٣١٨).

فرحاً واستبشاراً بذلك، واستقرَّت صورةُ الشَّهادة في أعماقها، وباتت ترجوها، فالرَّسول الكريمُ ﷺ لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى علَّمه شديد القوى.

* وانتقل النَّبي الكريم ﷺ إلى الرفيقِ الأعلى وهو راضٍ عن أمّ حرام، وجاء عهدُ الخلفاء الرَّاشدين رضوان الله عليهم، وكانت أعظم الفتوحات، ولما كان عهد سيّدنا عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليه ـ، استمرتِ الفتوحات وتوسَّعت، وفي سنة (٢٧) هجرية غزا سيِّدُنا معاوية بن أبي سفيان قبرص في البحر، وخرجت أمُّ حرام ـ مع زوجها عبادة ـ رضي الله عنهما ـ غازية في البحر، وهنا حملتها الذِّكريات إلى أعوام مضت، وتذكَّرت بشارة النَّبي الكريم ﷺ بأنَّها ستغزو في البحر وستكونُ شهيدة.

ولنتركِ الآنَ حديث البشارة ترويهِ لنا صاحبة البشارة نفسها أمّ حرام ـ رضي الله عنها ـ، فقد ذكر عُمير بن الأسود العنسي أنَّه أتى سيِّدنَا عبادَة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ وهو بساحلِ حمصَ وهو في بناء له ومعه امرأته أمّ حرام، قال عُمير: فحدثتْنَا أمُّ حرام أنَّها سمعتْ رسول الله ﷺ يقول: «أولُ جيش مِنْ أمتي يغزون البَحر قد أوجبوا» ـ أي: وجبت لهم الجنّة ـ قالت أمُّ حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنتِ فيهم»[1].

* وتحققت أمنيةُ المجاهدة أمّ حرام بالاستشهاد أثناء غزو البحر، إذ صُرِعَتْ عن دابّتها حينما خرجت مِنَ البحر حيث رمتها بغلة لها فماتت ـ رضي الله عنها ـ.

ولنستمعْ إلى سيِّدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ يحدّثنا عن قصّة استشهاد خالته أمّ حرام فيقول: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان، فاتكأ عندها ثم ضحك.

---

(١) رواهُ البخاري في كتاب الجهاد برقم (٢٩٢٤) باب: فيما قيل في قتال الروم، وانظر جامع الأصول (٩/١٤٩ و١٥٠)، وانظر صفة الصفوة (٢/ ٧٠) وانظر تاريخ الإسلام (١/ ٣٩٥) والحلية (٢/ ٦١) وتاريخ دمشق (ص٤٨٦) تراجم النساء.

فقالت: لِمَ تضحك يا رسول الله؟

فقال: «ناس من أمتي يركبون البحرَ الأخضر[1] في سبيل الله مثلُهُم مَثَلُ الملوك على الأسرة».

فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أنْ يجعلَني منهم.

فقال: «اللهمَّ اجعلها منهم».

ثم عاد فضحك، فقالت له: مثل أو مم ذلك؟

فقال لها: «مثل ذلك».

فقالت: ادعُ الله أنْ يجعلني منهم.

قال: «أنتِ من الأولين ولَسْتِ منَ الآخرين».

قال أنس: فتزوّجت عبادة بن الصّامت، فركبتِ البحرَ مع بنت قرظة[2]، فلما قفلت ركبت دابتَها، فوَقَصَت[3] بها فسقطت عنها فماتت[4].

* وهكذا نالت أمّ حرام الجنّة، وحظيت بالشّهادة كما أخبرها بذلك رسولُ الله ﷺ.

منْ كَرَامَاتِهَـا بَعْـدَ مَوتِهَـا:

* للشُّهداء مكانة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وأمُّ حرام الشّهيدة قد أكرمها اللهُ بعد موتها، وفي قبرصَ قبرٌ يُدعى بقبر المرأةِ الصّالحة، ومنَ الطَّريف أنَّ البلاذريَ قد ذكر في كتابه «فتوح البلدان» خبراً مباركاً فقال: لما غزيت قبرس ـ قبرص ـ الغزوة الأولى ركبت أمّ حرام بنت ملحان مع زوجها

---

(١) هو البحر الأبيض المتوسط.

(٢) هي فاختة بنت قرظة زوجة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٣) أي: وثبت، ورمتها.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد، والإمام مسلم في كتاب الإمارة، وانظر البداية والنهاية (٦/ ٢٢٢)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٦٣)، وانظر كذلك دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٥٠ و٤٥١ و٤٥٢).

عبادة بن الصَّامت، فلمّا انتهوا إلى قبرصَ خرجت منَ المركب، وقُدِّمتْ إليها دابّة فعثرتْ بها فقتلتها، فقبرُها بقبرصَ يُدعى قبر المرأة الصَّالحة[١].

وذكر أبو الحسن ابن الأثير وغيره خبر تلك الغزوة فقالوا: وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدُفنت فيها، وكان أميرُ الجيش معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمانَ ومعه أبو ذر وأبو الدَّرداء، وغيرهما من الصَّحابة، وذلك سنة سبع وعشرين[٢] التي توافق سنة (٦٤٧) من الميلاد.

* ومن الأخبار المباركةِ ما ذكره هشام بن الغاز إذْ قَال: قبرُ أمِّ حرام بنت ملحان بقبرس وهم يقولون هذا قبرُ المرأة الصَّالحةِ رحمها الله[٣].

* وقَال هشامٌ أيضاً: رأيتُ قبرها ووقفتُ عليه بالسَّاحلِ بقاقيس[٤] سنة إحدى وتسعين.

وقال الذَّهبي رحمه الله: وبلغني أنَّ قبرَها تزوره الفِرنج[٥].

وذكر الزَّبيدي ـ رحمه الله ـ في «تاج العروس» كرامتها، ومشاهدتُه للجزيرة فقال: ولها مقام عظيمٌ بظاهرِ الجزيرة، اجتزتُ بها في البحر عند توجُّهي إلى بيت المقدسِ، وأُخبِرْتُ أَنَّ على مقامها أوقافاً هائلةً وخدماً، وينقلون عنها كرامات.

* وذُكِرَ عن كرامة أمّ حرام أنَّ النَّاسَ يقولونَ: هذا قبرُ المرأةِ الصَّالحة، وهم يعظِّمونَه، ويستسقون به.

* ومن الخير هنا أنْ نُوردَ ما علَّقَ به الدّكتور وهبة الزُّحيلي على الاستسقاء

---

(١) فتوح البلدان (١/ ١٨٢)، وانظر كذلك الأعلام للزركلي (٢/ ١٨٢).

(٢) انظر أسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٠٣)، والنجوم الزاهرة (١/ ٨٥)، وانظر الأعلام للزركلي (٢/ ١٨٢).

(٣) انظر الحلية (٢/ ٦٢) وصفة الصفوة (٢/ ٧٠) وورد في معجم البلدان قبرس بالسين.

(٤) انظر صفة الصفوة (٢/ ٧٠) ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٥٢).

(٥) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٧).

بالصَّالحين وزيارتهم فيقول: لا شكَّ بأنَّه ليس تعظيم عبادة وشرك، وإنّما حبٌّ واحترام، وأمَّا الاستسقاء بالصَّالحين أو التّوسل فهو كالاستسقاء بالعبّاس عمِّ النَّبي ﷺ الثَّابت في الآثار، والمرجع في الحقيقة هو الله، والذي دلَّ عليه القرآن الكريم هو دعاء الله مباشرة دون توسل[1].

* وبعد، فهذه لمحات عبقة شذيّة من حياة هذه الصَّحابية التي عاشت حميدةً، وماتت شهيدةً، وتحقَّقت بشارةُ النَّبي ﷺ بأنَّها «مَلكٌ على سرير»؛ فقد كانت أول مجاهدةٍ في البحر، وأول مَنْ غزت في البحر الأبيض المتوسط منَ النِّساء ـ رضي الله عنها ـ.

* رحم الله أمَّ حرام بنت ملحان ورضي عنها، ورحم الله أبا نعيم الذي استهلَّ ترجمته لأمِّ حرام بقوله: حميدةُ البرِّ، شهيدةُ البحر، التَّواقة إلى مشاهدة الجِنان، أمّ حرام بنت ملحان[2].

* ونحن في وَدَاع سيرتها الطَّيِّبة نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ و٥٥].

ولله درّ أبي نعيم عندما وصفها بقوله: حميدة البر، شهيدة البحر، التَّواقة إلى مشاهدة الجِنان، أمّ حرام بنت ملحان.

رضي الله عنها، وجَعَلها مع الأولين؛ في الفردوس الأعلى.

* * *

---

(١) عن كتاب عبادة بن الصَّامت؛ للزّحيلي (ص٢٩).
(٢) الحلية (٢/ ٦١).

(٢)

أُمُّ سُلَيم بنْتُ مِلْحَانَ

رضي الله عنها

قال ﷺ:

«دَخَلتُ الجنَّةَ فَسمعْتُ خَشفةً بينَ يَديَ؛ فَإِذا أَنا بالغُمَيصَاءَ بنتِ مِلحانَ».

Scanned by CamScanner

* **مع نسَـاءِ الأنصَـارِ الأطهـار:**

* قال رسول الله ﷺ في الأنصار: «اللهمّ ارحمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناء الأنصار»(١).

* وضيفةُ حلقتنا اليوم، واحدةٌ مِنْ نساء الأنصار، ومنَ الصَّحابيات الفاضلاتِ اللاتي جمعْنَ العلمَ والفقه والشجاعة والكرم، والصَّفاء والإخلاصَ لله وللرّسول ﷺ، وطارت شهرتُها في الآفاق، وحلّقتْ بأعمالها الصالحة في سماء الكرم والمكرمات.

* وهذه الصَّحابيةُ الخيِّرةُ هي أمُّ الصَّحابي الخيِّر الأثير لدى رسول الله سيدنا أنس بن مالك، استهلَّ أبو نُعَيم الأصبهاني ترجمتَها بقوله: أمُّ سُلَيم المستسلمة لحكم المحبوب، الطَّاعنةُ بالخناجرِ في الوقائعِ والحروب(٢).

* ولنتعرّف الآن نسبَ الصَّحابية الكريمة أم سُلَيم التي تُمتِّعُ سيرتُها العطرةُ الأسماع، وتهذِّبُ النُّفوسَ، وتصقل الطِّباع، فهي أمُّ سُلَيم بنتُ مِلْحان بنِ خالد بن زيد بن حرام النّجارية الأنصارية الخزرجية(٣).

* وأمُّ سُليم يُقالُ لها الغُميصاء، أو الرُّميصاء، واسمها: سهلة؛ وقيل: رملة، بيد أنَّها اشتهرت بأمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ.

* هذه المرأةُ العاقلة، دخل الإيمانُ قلبَها الصَّافي مِنْ أول يومٍ سمعتْ به، وسجَّلت أعمالاً طيِّبة وضّاءة تشهد لها بالفضل والسَّبْقِ والإحسان على مرِّ الأيام، فتعالوا نعطِّر الأسماعَ بسيرة هذه الصَّحابية المجاهدة الصَّابرة، الخاشعة الكَريمة، الدَّيِّنة الخيِّرة، المحدِّثة، كبيرة القَدْرِ والشَّأنِ.

* **المَوقفُ المُبارَكُ الموفّق:**

سجَّلتْ أمُّ سُليمٍ منذ اللحظات الأولى لإسلامها موقفاً رائعاً يفوحُ بالبركة،

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم.
(٢) الحلية (٢/ ٥٧).
(٣) عن سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٤).

ويشيرُ إلى رجاحة عقلِها، ويدل على إيمانها وإخلاصها وصدقها، فقد أسلمتْ وبايعتْ، وكان إذا ذاك زوجُها مالك بن النَّضر أبو أنس بن مالك غائباً، ودخل الإيمان قلبَها، واستقرَّ فيه، وأحبتِ الإسلامَ حبّاً شديداً خالط روحَها ونفسها، وبرهنتْ على صدقها عندما وقفت موقفاً صلباً صادقاً أمام زوجها الذي ظلَّ على شركه، ولهذا الموقف المبارك الرّائع قصة شائقة تشحذ الهمَم، وتغذي الأرواحَ، فلنستمعْ إلى القصة مِنْ أولها.

* لما آمنتْ أمُّ سليم برسولِ الله ﷺ، جاء زوجُها أبو أنس وكان غائباً، وعندما علم بإسلامها غضب غضباً شديداً، وقال لها: أصبوتِ؟ قالت: ما صبوتُ، ولكنّي آمنتُ بدين هذا الرَّجل.

ولم تتوقفْ عند هذا الكلام، بل جعلت تلقِّنُ ابنها أنساً وتشيرُ إليه قُلْ أشهد أن لا إلَه إلا الله قُلْ أشهدُ أنَّ محمّداً رسول الله، واستجاب أنس ونطق بالشَّهادة، وفاز بالسَّعادة، فأخذ الغضبُ مِنْ مالك كلَّ مأخذ، وجعل يقول لها: لا تفسدي عليَّ ابني، غير أنَّ أمَّ سُلَيم راحت تقول بحكمةٍ وهدوء: إنّي لا أفسدُهُ، بل أرشدُه.

وانطلق مالكُ بن النَّضر غاضباً يريد الشّام، فلقِيَهُ عدوٌّ له فقتله، ولما بلغها نبأُ مقتله قالتْ: لا جَرَمَ! لا أفطم أنساً حتى يدعَ الثَّديَ، ولا أتزوّجُ حتى يأمرني أنس، ويقول: قد قضَيْتِ الذي عليكِ[1].

* وانصرفت إلى تربية ابنها، تعلِّمه حبَّ النَّبي الكريم ﷺ، وحبَّ الإسلام. ولما قدمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ مهاجراً، جاءته أمُّ سُليم مصطحبةً أنساً وقالت: يا رسول الله! هذا أُنَيس أتيتُكَ به يخدمك، فادعُ الله له، قال: «اللهمّ أكْثِرْ مالَه وولده»[2].

* وكان أنس آنذاك غلاماً كاتباً ذكياً لمْ يبلغِ الحلمَ بعد، وقد نال الرّعاية

---

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٤)، والاستبصار ص(٣٧) بتصرف.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٤ و١٩٥) والإصابة (١/ ٨٤).

والرأفةَ والبركة في بيت النَّبي الكريم ﷺ، وغدا واحداً مِنْ سادات الصَّحابةِ ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ.

نِعْمَ المَهْـرُ:

* وفَتْ أمُّ سُليم بالعهد الذي قطعته على نفسها في تربية ابنها، ونشأ وهو يقول: جزى الله أمّي عنّي خيراً، لقد أحسنتْ ولايتي.

* وها هو أبو طلحة الأنصاري[1] يغدو يوماً على أمّ سُلَيم ويخطبها، وهنا وقفتْ هذه المرأةُ العاقلة وقفةَ تأملٍ، وفكَّرت بهدوء، فأبو طلحة لا يزال مشركاً، ولكنْ لعلّه يسمعُ منها مقالتها، ويصبح سعيداً بما تعرضه عليه، وعاد أبو طلحة ثانيةً فخطبها، وكلَّمها في شأنِ الزَّواج، فقالت: يا أبا طلحة! ما مثلُكَ يُردُّ، ولكنَّكَ امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ لا يصلح لي أَنْ أتزوَّجَك.

قال: فمَن لي بذلك؟

قالت: لكَ بذلك رسول الله ﷺ.

فانطلقَ أبو طلحة يريدُ النَّبي ﷺ ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه، فلما رآه قال: «جاءكم أبو طلحة وغرَّة الإسلام بين عينيه»، فجاء فأخبر النَّبي ﷺ بما قالت أمُّ سُليم فتزوَّجها على ذلك[2]. عندها قالت لابنها: يا أنس! قُمْ فزوِّجْ أبا طلحة، فزوّجها.

* وفي هذه القصة المباركة يقول ثابتُ بن أسلمَ البناني التَّابعي: فما سمعنا بمَهْرٍ قطّ كان أكرم مِنْ مهرِ أمّ سليم: الإسلام[3].

* لقد تحققتْ فراسة أمِّ سُليم بأبي طلحة، وسَعِدتْ به زوجاً مؤمناً خيّراً

---

(١) انظر ترجمة سيدنا أبي طلحة الأنصاري في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٤٥ و٢٤٦).

(٢) انظر حلية الأولياء (٢/ ٥٩ و٦٠)، والاستبصار ص(٣٧) والطبقات (٨/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧) وأسد الغابة (٥/ ٥٩١) وزاد المعاد (٥/ ١٧٨) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٥ و٣٠٦).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٦٦)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩).

كريماً مخلصاً، وسعدَ بها زوجةً عاقلةً تقيةً كريمةً حافظةً للعهد، أمّا أنس ابنها فقد سَعدَ بهذا الزَّواج المثمر المِعْطاء، وكانت سعادته أعظم حينما التحقَ ليخدمَ رسول الله ﷺ.

كَرَمُهَا وشَمائِلُها وخِصالها:

* شمائلُ الصَّحابية السَّخية أمّ سُليم كثيرة، ولا يمكن أنْ تُحصَرَ في صفحات محدودة، ولكنْ نحاول الاستئناس ببعض هذه الصِّفات المباركة، ومن أبرز شمائل أمّ سُليم: الكرم؛ الذي عبَّرتْ عنه عملياً، حدَّث عن هذا سيِّدُنا أنس فقال: كانت أمُّ سُليم أعطتْ رسولَ الله ﷺ عِذَاقاً - نخلاً - لها، ولما ردَّ المهاجرونَ إلى الأنصار منائِحَهم ردَّ رسولُ الله ﷺ إلى أمّي عِذاقها(1).

* وكانت أمُّ سُليم - رضي الله عنها - تتفقَّدُ النَّبي الكريم، وتتحفه بالهدية وبالطَّعام بين الحين والحين، وكان الله سبحانه يكرمُها ويبارك لها في طعامها بركةً ملموسةً، ولنستمعْ إلى سيدنا أنس يروي بعض هذه الكرامات عن أمّه فيقول:

كانت لها شاة، فجمعت مِنْ سمنِها في عُكَّة(2) ثم بعثتْ به مع ربيبة إلى رسول الله ﷺ، فانطلقتْ حتى أتتِ النَّبيَ الكريمَ وأخبرته بأنَّ العُكَّة قد بعثت بها أمُّ سُليم فقال: «أفرغوا لها عكَّتها»، ثم دُفِعتْ إليها، وجاءتْ فعلَّقتها على وَتَدٍ، فأتتْ أمُّ سُليم - وكانت غائبة - فرأتِ العكةَ ممتلئةً تقطرُ، فقالت للربيبة: أليسَ أمرتُك أنْ تنطلقي إلى رسول الله؟

فقالتْ: قد فعلتُ، وسلي رسول الله.

فذهبتْ أمُّ سليم وسألتِ النَّبي الكريم فقالت: «قد فَعَلَتْ قد جاءَتْ».

قالت أمُّ سليم: والذي بعثكَ بالحقِّ ودين الحقِّ إنّها لممتلئة تقطرُ سمناً.

---

(1) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (1/ 150).

(2) إناء من جلد يجعل فيه السمن.

فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أمّ سُليم أتعجبينَ أنْ كان الله أطعمَكِ كما أطعمْتِ نبيَّه؟ كُلي وأطعِمي».

قالت: فجئتُ إلى البيتِ فقسمتُ في قَعْب - كأس كبير - لنا كذا وكذا، وتركتُ فيها ما ائتدمنا شهراً أو شهرين[1].

* وكانت أمُّ سُليم - رضي الله عنها - تبعثُ للنَّبي الكريم الطَّعامَ والتَّمر لعلْمِها أنَّه يحبُّ ذلك، وذكر أنس أنَّ أمَّه بعثَتْ معه بقناع فيه رُطَب إلى النَّبي ﷺ، يقول أنس: فقبض قبضةً فبعث بها إلى بعض أزواجه، ثم أكَلَ أكْلَ رجل تعلم أنَّه يشتهيه[2].

ما عِندَكِ يا أمَّ سُلَيم؟

* قصصُ الكرمِ عند الصَّحابية المِعْطاء أمّ سُليم لا تنتهي وزيادة البركةِ في طعامها وطعام زوجها أبي طلحة ليس لها من حدٍّ أيضاً، فقد كانت - رضوان الله عليها - مضيافة كريمةً، دائمةَ التَّوكلِ على الله سبحانه، يروي سيِّدُنا أنس بن مالك ما يتوافق مع هذا فيقول:

قال أبو طلحة لأمِّ سُليم: لقد سمعتُ صوتَ رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرفُ فيه الجوع، فهلْ عندك مِنْ شيء؟ قالتْ: نعم، فأخرجتْ أقراصاً - أرغفةً - مِنْ شعير ثم أخذت خماراً لها فلفته فيه، ودسَّته تحت ثوبي، وأرسلتني إلى رسول الله ﷺ، فوجدتُه جالساً في المسجد ومعه النَّاس، فقمتُ عليهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «أرسلكَ أبو طلحة»؟ قلتُ: نعم، فقال لمَنْ معه: «قوموا».

قال: فانطلقَ، وانطلقتُ بين أيديهم حتى جئتُ أبا طلحة فأخبرتُه فقال: يا أمَّ سُليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالنَّاس وليس عندنا ما نطعمُهُم، فقالت: الله ورسولُه أعلم.

قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقيَ رسول الله ﷺ، فأقبل معه حتى دخل، فقال رسول الله ﷺ: «هلمّي ما عندك يا أمّ سُليم»، فأتتْ بذلك الخبز، فأمرَ

---

(١) عن حياة الصحابة (٣/ ٦٣٥) بتصرف يسير.
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٩).

به رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وعصرت عليه أمّ سُليم عُكّةً لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء أنْ يقولَ، ثمَّ قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا، فأكلَ القوم وشبعوا، وهم سبعون أو ثمانون رجلاً[(١)].

* ويضيفُ أبو نُعيم الأصبهاني على هذه الرِّواية قول سيدنا أنس: ثمَّ دعاني ودعا أبا طلحة؛ فقال: كُلوا فأكلنا حتى شبعنا ثم رفع يده؛ فقال: «يا أمَّ سُليم أينَ هذا مِنْ طعامِكِ حين قدَّمتيه»؟ قالتْ: بأبي أنتَ وأمّي، لولا أنّي رأيتُهم يأكلون لقلتُ ما نقص من طعامِنا شيء[(٢)].

* ولم تتوقفْ أمُّ سليم ـ رضي الله عنها ـ عن الكرم والجود، ولم ينقطعْ سخاؤها، فعندما أعرس رسول الله ﷺ بزينبَ بنت جحش أم المؤمنين، صنعتْ له طعاماً من تَمْرٍ وسَمْنٍ، وبعثتْ به مع أنس ابنها إلى رسول الله ﷺ، وأكل منه عدد كبير مِنَ النَّاس أيضاً[(٣)].

مَكَانَتُهَا وفَضْلُهَا ومقالها الرفيع:

* حظيتْ أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ بمكانةٍ رفيعةٍ عند النَّبي الكريم الذي كان يجلُّها ويحترمها ويزورُها، روى سيِّدُنا أنس قال:

كان النَّبي ﷺ يزور أمَّ سُليم أحياناً، فتدركه الصَّلاة فيصلي على بساط لنا وهو حصير ينضحه بالماء[(٤)].

* وروى أنس بن مالك أيضاً: أنَّ النَّبي ﷺ كان يزور أمّ سُليم فتتحفه بالشَّيء تصنعه له، قال أنس: وأخ لي أصغر مني يُكنى أبا عُمير، فزارنا

---

(١) الحديث متفق عليه، ورواه الإمام مالك في الموطأ كتاب صفة النبي جزء (٢) ٩٢٧ و٩٢٨ طبعة البابي الحلبي، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٣٥٧)، ودلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٥٣٢ و٥٣٣)، ووفاء الوفا (٣/ ٨٨١ و٨٨٢).

(٢) دلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٥٣٥).

(٣) انظر: حياة الصحابة (٢/ ٦٦١).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧).

النَّبيُّ ﷺ ذاتِ يوم فقال: «يا أمَّ سُليم! ما شأني أرى أبا عمير ابنكِ خاثر النَّفس»؟

فقالت: يا نبي الله! ماتتْ له صَعْوة - عصفورة - كان يلعبُ بها.

قال: فجعل النَّبي يمسحُ رأسه ويقول: «يا أبا عمير ما فعل النُّغير»[1]؟

وهذا يشير إلى أنَّ النَّبي الكريم كان يتبسَّط عند أمِّ سُليم، ويمزح مع ابنها الصَّغير.

* وأحياناً كان عليه الصلاة والسَّلام يتحفُهم بالزِّيارة والدُّعاء، فقد روى سيِّدُنا أنس عن هذا فقال:

دخل علينا رسولُ الله ﷺ، وما نحنُ إلا أنا وأمّي وخالتي أمّ حرام[2] فقال: «قوموا أصلي بكم»، فصلى بنا في غير وقتِ صلاة، فجعل النِّساء على يمينه، فلمّا قضى صلاته دعا لنا أهلَ البيت بكلٍّ مِنْ خيرِ الدنيا والآخرة[3].

* والآن، تعالوا نستمعْ إلى سيِّدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - يروي مكانة أمِّه عند رسول الله فيقول: كان رسول الله ﷺ إذا مرّ بجنبات أمّ سُليم دخلَ عليها فسلَّمَ عليها[4].

* وكفاها فخراً وشرفاً أَنْ يخصَّها النَّبيُّ الكريم بالزِّيارة والسَّلامِ والدُّعاء والصَّلاة في بيتها - رضي الله عنها -.

إنّي أَرحَمُهَـا:

* ممّا يجعل الصَّحابية الجليلة أمّ سليم - رضي الله عنها - ذات مكانة خاصة، ما رواه سيّدنا أنس في حديثه الذي يدلُّ على خيريّة أمّ سُليم وبركتها فقال: لم يكنْ رسولُ الله ﷺ يدخل بيتاً غير بيت أمّ سُليم، فَقِيلَ له في ذلك

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٦)، والاستبصار ص(٣٩).

(٢) اقرأ سيرة هذه الصحابية المباركة الشهيدة في هذا الكتاب ص(٧٧٨).

(٣) انظر الاستبصار ص(٣٩ و٤٠).

(٤) الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي.

فقال: «إنّي أرحمُهَا قُتِلَ أخوها معي»[1].

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ أخاها الذي عناه رسول الله ﷺ هو حَرام بنُ مِلْحانَ، شهد بدْراً وأُحُداً، وقُتِلَ شهيداً يوم بئر معونة سنة أربع منَ الهجرة، وهو قائل العبارة المشهورة المباركة، فُزْتُ وربِّ الكعبة! وذلك لما طُعِنَ مِنْ ورائِه، فطلعتِ الحربةُ مِنْ صدره ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ[2].

تَبرُّكُ أمِّ سُليم بالنّبيِّ ﷺ:

* محبةُ رسولِ الله ﷺ هي أساسُ الاتباع له، ولولا المحبةُ العاطفيةُ الصّادقة في القلب لما وُجِدَ وازعٌ يحملُ على الاتباع في العمل، وقد جعل النّبي الكريم ﷺ مقياسَ الإيمان بالله سبحانه وتعالى امتلاء القلب بمحبته عليه الصّلاة والسّلام، حيثُ تغدو هذه المحبّة أقوى من محبّة الوالد والولَدِ والنّاس أجمعين.

* من هنا كان الصّحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ يتسابقون إلى التّبرُّكِ بالنّبي الكريم ﷺ، وقد روى البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ صوراً كثيرة تشيرُ إلى تبرّكِ الصّحابةِ بآثار النّبي ﷺ لدفع الضرّ والاستشفاء وما شابه ذلك، ولعلَّ ضيفة حلقتنا أمّ سُليم من السّبّاقين والمُسارعين إلى هذا المجال؛ الذي أقرّها عليه الرّسولُ ﷺ.

* والآن لنتبرّك بالحديثِ مع تبرُّكِ أمّ سُليم بالنبي الكريم ﷺ، فقد روى الإمام مسلم في كتاب الفضائل، في باب طيب عَرَقِهِ ﷺ، أنّه عليه الصّلاة والسّلام كان يدخل بيت أمّ سُليم، فينام على فراشها وليست هي في البيت، فجاءَ ذات يومٍ فنام على فراشها، فجاءت أمُّ سليم وقد عَرِقَ رسول الله ﷺ واستنْقَعَ عرقه على قطعةِ أديم على الفراش؛ ففتحتْ عتيدتها ـ صندوق صغير ـ، فجعلتْ تنشّفُ ذلك العرقَ فتعصره في قواريرها، فأفاقَ النّبي ﷺ

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم، وانظر: السيرة الحلبية (٣/ ٧٣).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٧)، والاستيصار ص(٣٦).

فقال: «ما تصنعين يا أمَّ سُليم»؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركتَه لصبياننا، قال: «أَصَبْتِ»[(١)].

* وروى محمَّد بن سِيرين التَّابعي الجليل عن أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ عن مقبلِ النَّبي الكريم في بيتها وتعمُّدِها إلى مَسْحِ عَرَقِ رسول الله واحتفاظِها به؛ حيثُ قالت: كان رسول الله ﷺ يقيلُ في بيتي، فكنتُ أبسطُ له نِطْعاً فيقيلُ عليه فيعرق، فكنتُ آخذ سُكاً فأعجنه بعرقِهِ. قال ابنُ سِيرين: فاستوهبتُ مِنْ أمِّ سُليم من ذلك السُّك فوهبتْ لي منه، ولما مات محمَّد حُنِّطَ بذلك السُّك[(٢)]، وكان ـ رحمه الله ـ يهَبُ منه لأصحابه.

* وذكر السَّمهودي في كتابه النَّفيس «وفاء الوفا» أنَّه لما حضرت سيِّدنا أنس بن مالك الوفاة أوصى أَنْ يُجعَلَ في حنوطه من ذلك السُّك، فجُعِلَ في حنوطه[(٣)].

* وأمُّ سليم ـ رضي الله عنها ـ تعطينا درساً في الأدب والبركة في آنٍ واحدٍ، فقد كانت تتبرَّكُ بعَرَقِ النبي ﷺ، روى البراء بن زيد أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ ـ نام وقت الظَّهيرة ـ في بيتِ أمِّ سُليم على نِطْعٍ فعرقَ فاستيقظ وهي تمسحُ العرقَ، فقال: «ما تصنعين»؟، قالت: آخذُ هذا لِلبركة التي تخرجُ منك[(٤)].

* ومن عيونِ الأخبار الرَّائعة أنَّ أمَّ سُليم كانت تأخذ عرقَ النَّبي الكريم وتخلطُ به طيبَها، روت هذا بنفسها فقالت: كان رسول الله ﷺ يقيلُ عندي على نِطعٍ وكان مِعْراقاً ﷺ ـ كثير العرق ـ، فجعلتُ أَسْلِتُ العرقَ في قارورة، فاستيقظ فقال: «ما تجعلين»؟ قلتُ: أريدُ أَنْ أدوِّفَ ـ أخلط ـ بعرقك

---

(١) رواه الإمام مسلم (١/ ١٣)، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨ و٤٢٩) بألفاظ مشابهة.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٧)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨).
والسّك: نوع من الطيب.
(٣) وفاء الوفا (٣/ ٨٨١).
(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨).

طيبي[1]. وفي رواية أنّها قالت: هذا عرقُك نجعلُه في طِيبنا وهو أطيبُ الطِّيب[2].

* ومنَ الخير والبركةِ والمفيدِ في هذا المقام أنْ نُوردَ شيئاً عن رائحةِ عَرَقِ رسول الله ﷺ، فقد قال سيِّدُنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ: كانَ رسولَ الله ﷺ منذ أُسريَ به ريحُه ريح عروس، وأطيب من ريح عروس.

وعن سيِّدنا أنس أيضاً أنَّه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا مرَّ في طريقٍ منْ طرقِ المدينة، وجدوا منه رائحة الطِّيب وقالوا: مرَّ رسولُ الله ﷺ مِنْ هذا الطَّريق.

* وذكر إسحاقُ بن راهَوَيْه ـ رحمه الله ـ نحواً مِنْ هذا فقال: إنَّ هذه الرائحة كانت رائحة رسول الله ﷺ من غيرِ طيب.

* والإمام النَّووي ـ رحمه الله ـ يشيرُ إلى أنَّ هذا الرِّيحَ الطَّيبَ كرامةٌ مِنَ الله للنَّبي الكريمِ فيقول: وهذا ممّا أكرمه الله تعالى به.

* وقالوا: وكانتِ الريحُ الطَّيبةُ صفته ﷺ وإنْ لمْ يمسَّ طيباً، ومع هذا كان يستعملُ الطِّيبَ في أكثر أوقاته مبالغة في طيب ريحه لملاقاة الملائكة، وأخذِ الوحي، ومجالسة المسلمين.

* وكانت أمُّ سُليم ـ عليها رضوانُ الله ـ تتبرَّكُ بشعْرِ النَّبي الشَّريف، وتحتفظُ به في مكانٍ أمينٍ مِنْ متاعها، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ لما أراد أنْ يحلقَ رأسه بِمنى، أخذَ أبو طلحة شِقَّ شعره، فجاء به إلى أمّ سُليم؛ فكانت تجعله في سُكتها[3].

* أمّا موضع فَمِ النَّبي الشَّريف فَلَهُ مكان لا يصلُ إليه أحدٌ، ذكر أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ دخل على أمّ سُليم، وقِرْبةٌ معلقة فشرب منها

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٣٠٨ و٣٠٩).
(٢) انظر الحلية (٢/٦١)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/٢٥٨).
(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/٣٠٨).

قائماً، فقامت إلى فِيِّ السِّقاء وأمسكتْهُ عندها[1]. وذكر النَّووي رحمه الله أنَّ أمَّ سُليمٍ إنَّما قطعتْ فَمَ القِربة؛ لتحفظَ موضعَ فَمِ الرَّسولِ الكريم ﷺ، وتتبرَّك به وتصونَه عنِ الابتذال.

اللهُمَّ بـارِكْ لَهُمَـا:

* سَعِدَ أبو طلحة الأنصاري سعادةً عظيمةً بزواجِهِ من المؤمنةِ التَّقية أمِّ سُليم؛ التي كانت السَّبب في إخراجه من ظلماتِ الشِّرك إلى نور الإيمان والتَّوحيد والجهاد، وقد أكرمَ اللهُ هذَين الزَّوْجين المؤمنَيْن بولدٍ فرحا به كثيراً، وسمياه أبا عمير، وغدا أبو عمير طفلاً صغيراً، واتَّخذ طائراً صغيراً يلعبُ به، وكثيراً ما كان النَّبي الكريمُ الرؤوف الرَّحيم بالأطفال وبالمؤمنين يداعبُ أبا عمير هذا، وشاء الله سبحانه وتعالى أَنْ يمتحنَ هذه الأسرة الطَّاهرة التي أُسِّسَتْ على التَّقوى مِنْ أولِ يوم، فقد مرضَ أبو عمير، وخرج أبو طلحة ذات مرة إلى المسجد فقُبِضَ الصَّبيُّ الصَّغيرُ، وهنا ظهرت أمُّ سُليم بصورةٍ أخرى لا تقلُّ روعةً عن صورها السَّابقة، وسجَّلتْ فَضْلاً ظلَّ ذكره وما يزالُ وسيبقى إلى أَنْ يرثَ اللهُ الأرض ومَنْ عليها، فقد تلقَّتْ وفاتَه بنفسٍ راضيةٍ صابرةٍ وقالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وسجَّتْهُ في فراشه، وقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحةَ بابنه حتى أكونَ أنا أحدثه، ولنتركِ القصةَ لشاهد عيان يرويها لنا، وهذا الشَّاهد سيِّدنا أنس بن مالك فيقول:

كان ابنٌ لأبي طلحةَ يشتكي، فخرجَ أبو طلحة فقُبضَ الصَّبيُّ، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالتْ أمُّ سُليم: هو أسكنُ ما كان. فقرَّبتْ إليه العشاء فتعشَّى ثمَّ أصابَ منها. فلمَّا فرغَ قالت: واروا الصَّبيَّ، فلما أصبحَ أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «أعرستُم الليلةَ» قال: نعم. قال: «اللهمَّ بارِكْ لهما»، فولدت له غلاماً. فقال لي أبو طلحة: احمِله حتى تأتي به النَّبي ﷺ وبعثَ معه بتمرات فقال: «أمعكَ شيءٌ»؟ قلتُ: نعم تمرات،

---

(1) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٨).

فأخذَها النَّبي ﷺ فمضغَها ثم أخذها مِنْ فيه فجعلَها في فيِّ الصَّبي، ثم حنكه وسمَّاه عبدَ الله[1].

ورُوي أنَّ عبدَ الله بن أبي طلحة كان من الصَّالحين، وكانت تلك المسحةُ غرَّةً في وجهه، وقال عَبايةُ بنُ رافع: لقد رأيت لذلك الغلام سبعةَ بنين كلُّهم قد قرأ القرآن[2].

وهكذا نالت أمُّ سُليم وزوجها وأولادهما البركةَ من دعاء الرَّسول الكريم لهما.

* ومن الطَّريف أنَّ صاحب كتاب «السِّيرة الحلبية» قد أشار إشارة طيبةً إلى قصة أمِّ سُليم هذه، وتدلُّ هذه الإشارة على ما بلغتْهُ أمُّ سليم ـ رضي الله عنها ـ في مقام الصَّبر فقال: ولما أخبرَ أبو طلحة النَّبيَ ﷺ بما تقدم عن أمِّ سليم قال: «الحمدُ لله الذي جعل في أمتي مثل صابرة بني إسرائيل»، ولما سُئِلَ عليه الصَّلاة والسَّلام عن خَبَرِها؛ ذكر قصَّةً مشابهة لقصة أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ[3].

* وقد نالت أمُّ سليم خيراً كثيراً مِنْ دعاء رسول الله ﷺ لها مراراً عديدة، فمن ذلك ما حدَّث به سيدنا أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبي ﷺ دخل على أمِّ سُليم فأتته بتمر وسمن فقال: «أعيدوا سمنكم في سقائكم وتمركم في وعائكم فإنِّي صائم»، ثم قام في ناحية البيت فصلَّى صلاةً غيرِ مكتوبة فدعا لأمِّ سُليم ولأهل بيتها، فقالتْ أمُّ سُليم: يا رسول الله إنَّ لي خُويصة، قال: «ما هي»؟ قالت: خادمُكَ أنس، فما تركَ خيرَ آخرةٍ ولا دنيا إلا دعا لي به[4].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، وللحديث عدة روايات بهذا المعنى في كتب التراجم.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٣٣٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٦٩)، ودلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٩).

(٣) انظر القصّة في السيرة الحلبية (٣/ ٧٤).

(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٩).

وروى عن أمِّ سُليم ـ رضيَ الله عنها ـ أنّها قالت: لقد دعا إليَّ رسول الله ﷺ حتى ما أريدُ زيادة[١].

الوثبَةُ المحْسِنَةُ:

* كان أمُّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ من فاضلات النِّساء العاقلات، وكانت ـ رضي الله عنها ـ ذات رأيٍ سديد، وذكاء وفراسة، كما كانت على خُلق كريم، وجمعت صفات طيبة طاهرة، وفوق هذا كله كانت ترغبُ في العلم، وتسأل رسول الله ﷺ عما كان يشكل عليها[٢].

وفي هذه الخصال المباركة قالت أمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نعم النِّساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أنْ يسألْنَ عن الدِّين، ويتفقهنَ فيه[٣].

* وقد كان النَّبي الكريم ﷺ يعلِّم أمّ سُليم أمور الدِّين والعبادة، فمن ذلك ما رواه سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ إذْ قال: زار رسولُ الله ﷺ أمّ سُليم فصلى في بيتها صلاةً تطوعاً، وقال: «يا أم سُليم إذا صليتِ المكتوبةَ فقولي: سبحان الله عشراً والحمد لله عشراً والله أكبر عشراً، ثم سَلي الله ما شئتِ؛ فإنَّهُ يُقالُ لكِ نَعم نعم نعم»[٤].

* وهذه الصَّحابية الكريمة كانت مثالاً عالياً في الوفاء والإحسان، فقد أحسنت بإيمانها، وأحسنت برعايتها لزوجها وأولادها، وقَبْلَ هذا أحسنت لرسول الله ﷺ.

* بهذه الأخلاق وبهذه الشّمائل كانت تنال المكانة عند رسول الله ﷺ، وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يفيضُ عليها بالعلم والتَّوجيه اللطيفِ لأداء

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٤٣٩)، والاستبصار ص(٣٩).
(٢) انظر: حياة الصحابة (٣/ ٢٢١ و٢٢٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٦).
(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٢٦).

العبادات، ذكر ابن سعد أنَّ النَّبي الكريم ﷺ سأل أمَّ سُليم فقال لها: «ما لأمِّ سُليم لم تحجَّ معنا العام»؟

قالت: يا نبيَّ الله! كان لزوجي ناضِحان، فأمَّا أحدهما فحجَّ عليه، وأمَّا الآخر فتركه يسقي عليه نخلَه.

فقال النَّبي ﷺ: «فإذا كان رمضان أو شهر الصوم فاعتمري فيه، فإنَّ عمرة فيه مثل حجة، أو تقضي مكان حجة»، أو قال: «عمرة في رمضان تجزيك عن حجة معي»[1].

* وفي مجال الرِّفق، كان عليه الصَّلاة والسَّلام يرفق بأمِّ سُليم ومَنْ معها مِنَ النِّساء، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن أمِّ سُليم أنَّها كانت مع نساء النَّبي ﷺ وهنَّ يسوق بهن سوَّاق، فقال النَّبي ﷺ: «أي أنجشة رويداً سوقَك بالقوارير»[2].

شَجَاعتُهـا وجِهَـادُهَا وفروسيتهـا:

* عرفْنا أمَّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ سيِّدةً فاضلةً مِنَ الطِّراز الأول، عرفناها زوجاً صالحةً، وأمّاً رؤوفاً، وعابدةً قانتةً، وكريمةً سخيةً مباركةً، ولكنْ ماذا نعرفُ عن جهادها؟

* لا شك أنَّ أمَّ سليم ـ رضوان الله عليها ـ قد أبدعتْ في جميع المجالات، وكان لها جهاد مشكور مع كثير مِنَ النِّساء اللاتي جاهدْن مع رسول الله ﷺ، فقد أخرج الطَّبراني عن أمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يغزو معه نسوة مِنَ الأنصار فنسقي المرضى ونداوي الجرحى.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ يغزو بأمِّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ ونسوة معها مِنَ الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى[3].

* وذكر الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ أمَّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ شهدت

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٣٠).
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم.

حُنيناً وأُحداً، وكانت مِنْ أفاضل النِّساء[1].

* وقال محمّد بنُ سيرين التَّابعي الجليل: كانت أمُّ سُليم مع النَّبي ﷺ يوم أُحد ومعها خنجر.

* والآن سنرى بعض صور مشاركتها في الجهاد مع النَّبي الكريم ﷺ.

مَوقفُهَا الشجاع في غَزْوَةِ أُحُد:

* لم يكْفِ أمَّ سُليم ـ رضوان الله عليها ـ أَنْ تؤدي دورها في البيت فحسب، بل حرصت على أَنْ تشاركَ رجال الإسلام في جهادهم بسقاية الماء، ومداواة الجرحى، وما شابه ذلك، ففي غزوة أُحُد خرج مع المسلمين أربع عشْرةَ امرأة يحملنَ الطَّعام والشَّراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداوينهم، وكان منهن سيدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء بنت سيِّدنا رسول الله ﷺ، والصِّديقة بنت الصِّديق عائشة زوج النَّبي الكريم وحمنة بنت جحش وأمّ أيمن وأمّ عُمارة[2] وغيرهن.

وقد روى سيِّدُنا كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيتُ أمَّ سُليم بنتَ ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد[3].

* وكان لأمّ سُليم ولهؤلاء النّسوة أثرٌ طيبٌ وعملٌ مشكور يوم أحد، فقد روى الشَّيخان في صحيحيهما عن سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ولقد رأيتُ عائشة بنت أبي بكر وأمَّ سُليم، وإنَّهما لمشمرتان أرى خَدَمَ سُوقهما تنقزان ـ تهرولان ـ القرب على متونهما؛ تفرغانهِ في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنهما، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواهِ القوم.

دَورُهَا في خَيْبَـر:

* في غزوةِ خيبرَ خرج مع رسول الله ﷺ عشرون امرأة يبتغين الجهاد ومرضاة الله ومرضاة رسوله، منهن أمّ سلمة زوج النّبي الكريم، وأمّ عمارة

---

(1) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٤).
(2) اقرأ سيرة هذه الصحابية الجليلة في هذا الكتاب ص(٧٠٨).
(3) المغازي (١/ ٢٤٩).

المازنية، وكعيبة الأسلمية وبطلة حلقتنا أمّ سُليم رضي الله عنهن جميعاً.

وكان للصَّحابية المعطاء أمّ سُليم في هذه الغزوة فضيلة مباركة نالتها وخصَّها بها النَّبي ﷺ، وذلك عندما كان عليه الصَّلاة والسَّلام راجعاً من خيبرَ، وأراد أنْ يتزوَّجَ صفيةَ بنت حيي، فلمّا كان بموضع يُقال له «الصَّهباء» قال لأمّ سُليم: «انظري صاحبتَكِ هذه فامشطيها»، وأراد أنْ يعرسَ بها هناك، فقامت أمُّ سُليم فأخذتْ كساءين وعباءتين فسترت بهما عليها إلى شجرة فمشطتها وعطَّرتها، وأعرس بها رسول الله ﷺ هناك(١).

* وفي هذه الغزوة نالت أمّ سُليم أجْرَ الجهاد، وحظيتْ بمرضاة رسول الله وإكرامه وثقته، فأكرمْ بجهادِها وعملِها!

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ:

* للصَّحابيةِ المجاهدةِ أمّ سُليم - رضوان الله عليها - شأن كبير ودورٌ مبارك في غزوة حنين، تلك المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين، فقد خرجت تبتغي أجْرَ الجهاد مع النَّبي ﷺ، وكان معها خنجرٌ قد حزمته على وسطِها - وهي يومئذٍ حامل بعبد الله بن أبي طلحة - ورآها سيِّدُنا أبو طلحة فقال لها: ما هذا معك يا أمّ سُليم؟ قالت: خنجر أخذتُه معي.

وجاء أبو طلحة يوم حنين يُضحِكُ رسولَ الله ﷺ منْ أمّ سُليم؛ فقال: يا رسول الله ألَمْ تَرَ إلى أمّ سُليم معها خنجر؟، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما تصنعينَ به يا أمّ سُليم»؟، قالت: أردتُ إنْ دنا أحدٌ مِنَ المشركين منّي طعنتُه(٢).

مِنْ هذا المنطلق وصفها أبو نعيم بأنَّها الطَّاعنة بالخناجرِ في الوقائع والحروب، فأعظمْ بهذا الوصف!

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٤٠)، والمغازي (٢/ ٧٠٧ و٧٠٨)، وأنساب الأشراف (١/ ٤٤٣).

(٢) عن المغازي (٣/ ٩٠٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٦٦)، والسيرة الحلبية (٣/ ٧٣) بتصرف يسير.

* وهكذا حظيت الصَّحابية الجليلة - رضوان الله عليها - بشرف الجهاد، ولعِلْمِهَا بمكانة الجهاد وثوابه، سألَتِ النَّبي الكريم ذات مرة عندما برئت مِنْ مرضٍ أَلَمَّ بها فقالت: يا رسول الله ما أفضل الجهاد؟، فقال ﷺ: «عليك بالصَّلاة فإنَّها أفضلُ الجهاد، واهجري المعاصي فإنَّه أفضل الهجرة».

وظلتْ أمُّ سُليم رضي الله عنها تلتزمُ بهذه القاعدة إلى أنْ لقيت ربَّها.

بشارتُها بالجنَّة:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

* الصَّحابية الجليلة أمُّ سُليم رضي الله تعالى عنها، واحدةٌ مِنْ فضليات النِّساء اللائي تركنَ أثراً خالداً في تاريخ الإسلام، قال عنها الإمام النَّووي - رحمه الله -: كانت مِنْ فاضلات النِّساء(١).

كما كانت - رضي الله عنها - زوجةً صالحةً، وداعية حكيمة، ومربية فاضلة، أدخلتَ أَنساً ابنها في مدرسة النُّبوة فنبغ فيها، ونال أعلى درجات النَّجاح.

وكانت مع هذا وذاك حافظةً واعيةً لأحاديث المصطفى الكريم ﷺ، فقد رَوت عن النَّبي ﷺ أربعة عشر حديثاً، اتفقا على حديثين، وانفرد البخاريُّ بحديث ومسلم بحديثين(٢).

ومِمَّنْ روى عنها ابنُها سيّدنا أنس بن مالك، وسيّدنا عبد الله بن عبّاس، وسيّدنا زيد بن ثابت - رضي الله عنهم - وآخرون(٣).

* وقد حظيتْ أمُّ سُليم - رضي الله عنها - ببشارة النَّبي ﷺ بالجنَّة، لنستمع نبأ البشارة المباركة يزفّها لنا سيّدنا أنس - رضي الله عنه - قال: قال النَّبيُّ ﷺ:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٣).
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١١)، والمجتبى ص(١٠٤ و١٠٥).
(٣) الإصابة (٤/ ٤٤٢).

«دخلتُ الجنَّةَ فسمعتُ خشفةَ بين يدي؛ فإذا أنا بالغُميصاءَ بنت ملحان»[1].

* وللحديث لفظ آخر عند الإمام مسلم وفيه البشارة بالجنَّة، فعن سيدنا جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«رأيتُني دخلتُ الجنَّةَ فإذا أنا بالرُّميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعتُ خشفة، فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: هذا بلال»[2].

* وبعد، فقد عشْنَا لحظاتٍ طيبةً مباركةً مع صاحبة السِّيرة العطرة أمّ سُليم ـ رضي الله عنها ـ التي فازت بالرّضوان ـ الجنَّة ـ، وسعدت بصحبةِ النبي الكريم ﷺ، فأسعدَتْنا بأعمالها الرّائعة، رضي الله عنها وأرضاها.

وقبل أَنْ نودعَ الغُميصاء أمّ الأبطال، وأخت الشّهداء وزوج الكريم أبي طلحة نقرأُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ـ٥٥].

لقد كانت أم سُليم من فاضلات الصحابيات، وعقلائهن، فرضي الله عنها، فقد كانت امرأةً نادرة المثال في كل مجال.

* * *

(١) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي، كما رواه النسائي أيضاً.
(٢) رواه مسلم حديث رقم (٢٤٥٧)، وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٣٠).

(٣)

أم عمارة الأنصارية

- رضي الله عنها -

دعا لها النَّبي ﷺ ولأسرتها فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنَّـة».

فـي سِـلْكِ دُرَرِ الفُـرسَـانِ:

* هذه امرأةٌ تستحقُّ التَّسجيل في قائمةِ الفُرسان؛ الذينَ تحلَّقُوا حولَ رسولِ الله ﷺ، فلقد أظهرتْ منْ ألوانِ البطولة ما يستحقُّ الخلودَ في سجلِ الخلودِ.

* هذا؛ وإن نساء الصحابة سارَعْنَ باقتدار في سبيل الخير والجهاد، فكنَّ السابقات في حلبات المكارم، واصطلين بنيران الحرب، وأبدَعْنَ في ميدان الفروسية على الدوام.

* وإذا أردنا أنْ نفصحَ عن هويةِ هذه الفارسة، ألفيتنا نستمع إلى الإمام الذَّهبيّ حيثُ يقول في مطلع ترجمته لها: الفاضلة، المجاهدة، الأنصارية، الخزرجيّة، النّجاريّة، المازنيّة، المدَنيّة، شَهِدَتْ ليلة العقبة، وشهدتْ أُحُداً، والحديبية، ويوم حُنين، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلتِ الأفاعيل[1].

* الله أكبر! إذاً نحن مع فارسةٍ من طراز فريد، وستكون رحلتنا معطاء مع أمّ عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية المازنية[2] ـ رضي الله عنها ـ.

* وأسـرة أمّ عُمـارة مـنَ الأُسَـر الكـريمـة التـي تطـاول فـرعُهـا فـي سَمَـاء الفـروسيَّـة، والعِلْـم، والفَضَـائـل؛ فقـد كـان أخـوهـا عبـد الله ابن كعب المازنيّ منَ البدريين[3]. وكانَ أخوها عبد الرّحمن بن كعب

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨).

(٢) السِّير الكبير (١/ ٢٠٠) والمغازي (انظر الفهارس ٣/ ١٢١٣ و١٢١٤) ومُسند أحمد (٦/ ٤٣٩) وطبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢) والاستبصار (ص٨١ و٨٢ و٨٥ و١٦٥) والاستيعاب (٤/ ٤٥٥) وحلية الأولياء (٢/ ٦٤) وأنساب الأشراف (١/ ٢٥٠ و٣٢٥) وأسد الغابة (٦/ ٣٧١ و٣٧٢) ترجمة رقم (٧٥٤٣) والبداية والنّهاية (٤/ ١٦٠ و١٦٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٢) وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٧٤) وكنز العمال (١٣/ ٦٢٥) ونساء مبشرات بالجنة (١/ ٩١ ـ ١٢٦) وغيرها كثير.

(٣) عبدُ الله بنُ كعب بنِ عمرو المازنيّ الخزرجيّ، يكنى أبا الحارث، شهد بدراً، وكان=

المازنيّ[1] من البكّائين؛ الذين أثنى عليهم القُرآن الكريم.

* أمّا السَّيِّدة النَّبيلة أمّ عَمارة نفسها، فقد شهدتْ مع رسولِ الله ﷺ أكبر وأكثر مشاهده ومغازيه.

* نعم، لقد كانت أمُّ عمارة نسيبة بنت كعب الأنصاريّة النّجاريّة المازنيّة مِنْ أسبقِ وأشهر السَّابقين والسَّابقات في الأنصار إلى دوحةِ الإسلام، وساحة الإيمان، ومن أكثرهم وأكثرهن مشاهد مع رسولِ الله ﷺ.

= على الغنائم يومئذ، وشهد سائر المشاهد، وكان على خُمْسِ النّبي ﷺ فيها، توفي بالمدينةِ المنوَّرة سنة ثلاثين من الهجرة، وصلى عليه عثمان ـ رضي الله عنه ـ. (الاستبصار ص٨٣).

(١) عبدُ الرحمن بنُ كعبِ بن عمرو المازنيّ الخزرجيّ أبو ليلى، شهد أحداً وما بعدها، وتوفيَ في آخر خلافة عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ وهو أحد البكّائين السَّبْعة منَ الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

والبكّاؤون الصَّحابة سبعةٌ مِنْ فرسانِ رسولِ الله ﷺ، ومن تلامذةِ مدرسة النّبوة الكرام وهم: سَالم بن عُمير، وعُلبة بن زيد، وعبدُ الرحمن بن كعب أبو ليلى المازني أخو أمّ عمارة بطلة ترجمتنا؛ وعمرو بن الحمام، وعبدُ الله بن المغفل المزني، وهرميُّ بن عبد الله، ـ وقيل: سلمة بن صخر ـ وعرباضُ بن سارية ـ رضي الله عنهم ـ وقد جمعهم الشّاعر ابن الشّحنة بقوله، كما جاء في كتاب: «الكواكب السائرة» (١/ ٢٢٠):

ألا إنَّ بكّاءَ الصَّحابةِ سبعةٌ ... لكونهم قد فارقوا خيرَ مرسلِ
فعمرو أبو ليلى وعُلبةُ سالم ... كذا سَلْمَة عرباض وابن مغفل

وهؤلاء الصَّحابة الكرام جاؤوا رسولَ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، وطلبوا منه ما يحملهم عليه منَ الإبلِ أو غيرها، ليجاهدوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، فلم يجدوا عنده ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينُهم تفيض منَ الدَّمعِ حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، ولذا فقد سُمّوا بالبكّائين، وفي هؤلاء الأبطال الأخيار نزل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

انظر: (تفسير الخازن ٣/ ١٣٦) و(البداية والنهاية ٥/ ٥) والدرر (ص٢٨٧) والفصول في سيرة الرسول (ص٢١١).

* شَهِدت العقبة الكبرى مع زوجها وولديها حبيب وعبد الله ابني زيد، وبايعت رسولَ الله ﷺ يومئذ، فبوركتْ مِنْ مبايعة، وبوركتِ البيعة، ومَنْ بايعَ، وأكرمْ بهم جميعاً!

فقد قدَّموا خدمات للإسلام جليلة، ما يزال أريجها المعطار يفوح بالشذا العبق.

* كان عددُ الذين بايعوا بيعةَ العقبة الكبرى في ليلةِ العقبة، كما ذكر كعب بن مالك[1] - رضي الله عنه - فقال: اجتمعنا في الشِّعْبِ عند العقبة ونحنُ ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان مِنْ نسائنا: نسيبة بنت كعب أمّ عمارة إحدى نساء بني مازن بن النّجار، والثّانية: أسماء بنت عمرو بن عديّ بن نابي، إحدى نساء بني سلمة. وهي أمّ منيع[2].

* هذا ولم يشهد العقبة امرأة سوى هاتَين المرأتين اللتَيْن سجلتا أضوأ الأثر في تاريخ المشاهد، وقد افتتحَ أبو نُعَيم الأصبهاني - رحمه الله - في «حليته» أخبارها، وأشار إلى بيعتها فقال: أمُّ عمارة المبايعة بالعقبةِ، المحاربة عن الرّجال والشّيبة، كانت ذات جدٍّ واجتهاد، وصوم ونُسُكٍ واعتماد[3].

* ذكر الواقديُّ - رحمه الله - عن أبي صَعصَعَة قال: قالت أمُّ عمارة:

كانتِ الرّجالُ تصفِّقُ على يَدِ رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبة، والعبَّاسُ آخِذٌ بيدِ رسولِ الله ﷺ، فلمَّا بقيتُ أنا وأمّ منيع، نادى زوجي غزيّة بن عمرو: يا رسول الله! هاتانِ امرأتان حَضرتا معنا، يبايعنك، فقال رسولُ الله ﷺ: «قد بايعتُهما على ما بايعتكم عليه، إنّي لا أُصافح النّساء».

فَارِسَةُ يَومِ أُحُد وأَحْدَاثٌ جِسَام:

* قبل أن نمضيَ مع السَّيِّدَةِ النَّجيبة النَّبيلة أمّ عمارة بنت كعب، دعونا

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذه الموسوعة ص(٥١٠).
(٢) للمزيد من أخبار أمّ منيع اقرأ كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١/ ١٨٩ ـ ١٩٦)، ففي أخبارها وقفات مضيئة.
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٦٤).

نقف قليلاً وقْفَة فقهية عند حكم خروج المرأة المسلمة لميدان المعركة، كيما نكشف النِّقاب عن طبيعة دورها.

* فمن يُسْر الإسلام، وأحكام الشَّريعة الإسلامية: التَّخفيف عن غيرِ القَادرين على القيام ببعضِ التكاليف الشَّرعية، ومن ذلك أنَّه خَفَّفَ عن المرأةِ، فلم تُكَلَّف بأعباءِ القِتَال لضعف بنيتها الجسدية، ولأنَّها قد تكون سَبَباً في وقوعِ الفِتَنِ للجيشِ في حالة ظفر العدو بهم.

* ويختلفُ الحكم في خروجِ المرأة للقتال بحسبِ الظُّروف والملابسات، وقد ذكر الفقهاء ـ رحمهم الله ـ حالتَيْن في خروجِ المرأة إلى الجهاد:

الحالةُ الأولى: الجائزة، ولها صورتان:

الأولى: خروجُ أمير الجيش بامرأتِه لحاجته إليها[1].

الثَّانية: خروجُ المرأة الطَّاعنة في السِّنِّ لخدمةِ الجيش، كالسَّقي، وتجهيز الطَّعام، ومداواة الجرحى، ونحو ذلك[2].

الحالة الثَّانية: المكروهة.

فقد كره بعضُ الفُقَهاء خروج الشَّواب منَ النِّساء إلى ميادينِ القتال، فيُمْنَعْنَ من ذلك؛ لأنَّه قد يستظهر العدو على الجيش، فيستحلُّون ما حرَّمَ الله، ولأنَّهنَّ لَسْنَ أهلَ القتال لاستيلاء الخور والجبْنِ عليهن[3].

* ومع أنَّ خروج المرأة مجمعٌ على جوازه[4] لخدمة الجيش كالسَّقي،

---

(١) المغني (٩/ ٢١٥).

(٢) شرح السِّير الكبير (١/ ١٨٥) وزاد المعاد (٣/ ٢١١).

(٣) المغني (٩/ ٢١٥) وشرح السِّير الكبير (١/ ٢٠٠) وقال الإمام محمد بن الحسن الشَّيباني ـ رحمه الله ـ: ولا يعجبني أن يباشرن القتال، لأنَّ بالرجال غنية عن قتال النِّساء، فلا يشتغلن بذلك من غير ضرورة، وعند تحقق الضرورة بوقوع النفير عاماً، لا بأس للمرأة أنْ تقاتل بغير إذن وليها وزوجها. (شرح السير الكبير ١/ ٢٠١).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٨٨).

ومداواة المرضى، إلا أنَّه لا يجوز لها أنْ تقاتلَ، بدليل ما روته أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟!

قال: «لا، ولكنَّ أفضل الجهاد حجٌّ مبرور».

* ويجب على المرأة الجهاد إذا دعتْ إليه الضَّرورة، وذلك في حالتين:

الأولى: إذا اعتُدي عليها، فإنّه يجب عليها أن تدافعَ عن نفسها.

الثَّانية: إذا هاجم العدوُّ ديار المسلمين، فإنَّه يتعين على جميع المسلمين دفعه عنهم، وممن يجب عليه ذلك المرأة.

* هذا، وقد اضطرتْ ظروف المعركة السَّيِّدة أمّ عمارة المازنية، فقد خرجتْ مع الجيش المنطلق إلى أحد، فشهدت أُحُداً مع زوجها غزية بن عمرو[(١)]، ومع ولديها[(٢)].

* خرجت أمُّ عمارة تؤدِّي واجبَها؛ الذي يتناسبُ مع تكوينها وطبيعتها الأنثوية، فقد خرجتْ ومعها شَنٌّ[(٣)] لها في أوّل النَّهار تريد أنْ تسقيَ الجرحى، إلا أنَّ ظروفَ المعركةِ جعلتها تحملُ السَّلاح، ثمَّ قاتلت يومئذ، وأبلتْ بلاءً حَسَناً، وجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمحٍ، أو ضربة بسيفٍ، أو رمية سهم[(٤)].

* ولما شهدتْ أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ أُحُداً أبدتْ منَ الشَّجاعةِ الخارقةِ، والفدائيةِ الصَّادقة، والفروسيَّةِ الكاملةِ في الدِّفاع عنْ رسولِ الله ﷺ وهو متعرضٌ لطعناتِ الأعداءِ وضرباتهم جميعاً، حينماَ ولَّى عنه جمهرة

---

(١) غزية بن عمرو زوج أمّ عمارة بنت كعب، خلف عليها بعد زيد بن عاصم، فولدت له تميماً وخولة، ولهما صحبة، فهما أخوا عبد الله بن زيد لأمه، شهد غزية مع امرأته أم عمارة العقبة وأُحُداً. (الاستبصار ص٨٥).

(٢) أي: ولديها من زوجها الأول زيد بن عاصم بن عمرو، وهما: عبد الله وحبيب ابنا زيد بن عاصم، وقد صحبا النبي ﷺ (الطبقات ٨/ ٤١٢).

(٣) «الشن»: القِربة.

(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٢ و٤١٣) والاستبصار (ص٨٢) مع الجمع والتصرف.

المجاهدين - إلا قليلاً منهم - ووقفَ وحده لا يزولُ عن مقامه ولا يحول، ما يعجزُ الأبطال المغاوير عن مثله.

* قالتِ الصَّحابيةُ الجليلةُ أمُّ سعد بنت سعد بن الرَّبيع - رضي الله عنها -[1]: دخلتُ أمّ عمارة، فقلتُ: حدثيني خبركِ يوم أُحُد. فقالت نسيبةُ - رضي الله عنها -:

خرجتُ أوّل النَّهار، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، فجعلتُ أباشر القتال، وأذبُّ عن رسولِ الله ﷺ وهو في أصحابه، والدَّوْلةُ والرِّبح للمسلمين، فلمَّا انهزمَ المسلمون، انحزتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فجعلتُ أباشر القتال، وأذبُّ عنْ رسولِ الله ﷺ بالسَّيفِ، وأرمي بالقوسِ حتى خلصَتْ إليَّ الجراحة.

قالت أمّ سَعْد: فرأيتُ على عاتقها جُرحاً له غورٌ أجوف، فقلتُ لها: يا أمَّ عمارة، مَنْ أصابك هذا؟!

قالت: أقبلَ ابنُ قميئة - أقمأه الله - وقد ولَّى النَّاسُ عنْ رسولِ الله ﷺ يصيحُ: دلوني على محمّد، لا نجوتُ إنْ نجا، فاعترضَ له مصعبُ بن عُمير وناس معه، فكنتُ فيهم فضربني هذه الضَّربة، ولقد ضربتُه على ذلك ضربات، ولكنَّ عدوَّ اللهِ كان عليه درعان[2].

* ولقد أثَّرتِ الضَّربةُ في أمّ عمارة يومَ أُحُد، فغشي عليها من جراحتها، ولما أفاقت لم تهتم بما أصابها، وإنّما قالتْ: أينَ رسول الله؟ وما صنعَ المشركون معه؟ فقالوا لها: هو بخيرٍ والحمدُ لله.

* وتابعتْ مسيرة الفروسية، وها هي توردُ أحد فُرسان المشركين مواردَ المنون، فتجعله كأمْسِ الدَّابر؛ وتروي أمُّ عمارة نفسها خبر بطولتها يوم إذ فتقول:

---

(1) اقرأ سيرة أم سعد في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ١٦٣ - ١٧٤)، فسيرتها إمتاع للأسماع، وصفاء للأرواح.

(2) عن طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٣) بتصرف يسير جداً.

قد رأيتني، وانكشف النَّاسُ عنْ رسولِ الله ﷺ، فما بقي إلا في نُفَيرٍ ما يتمّون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذبُّ عنه، والنَّاس يمرُّون به منهزمين، ورآني ولا ترس معي، فرأى رجُلاً مولياً معه ترس، فقال لصاحب التُّرس: أَلْقِ ترسكَ إلى مَنْ يقاتل، فألقى ترسه، فأخذته، فجعلتُ أتترسُ به عن رسولِ الله ﷺ، وإنَّما فعل بنا الأفاعيل أصحابُ الخيل، لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم، إن شاء الله، ويُقبل رجُلٌ على فرس، فضربني، وتترَّستُ له، فلم يصنع سيفُه شيئاً، وولَّى، وأضربُ عرقوبَ فرسهِ، فوقعَ على ظهره، فجعل النَّبيُّ ﷺ يصيحُ: «يا بن أمّ عمارة، أمَّك! أمَّك!» فعاونني عليه حتى أوردته شعوب[1].

* وهذا أَحَدُ فرسان المُشركين يجرحُ ابنها عبد الله، فتورده المنية أيضاً، وتجعله نسياً منسياً؛ روى ابنُها عبد الله بن زيد هذا فقال:

جرحتُ يومئذ جرحاً في عضُدي اليسرى، ضربني عليه رجل كأنه الرَّقل، ولم يعرِّجْ عليَّ، ومضى عنِّي، وجعل الدَّمُ لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: «اعصب جرحَكَ» فتقبل أمِّي إليَّ، ومعها عصائب في حقويها[2] قد أعدَّتها للجراح، فربطت جرحي، والنَّبيُّ ﷺ واقفٌ ينظر إلي ثم قالت: انهض بُنيَّ فضاربِ القومَ، فجعل النَّبيّ ﷺ يقول: «ومنْ يطيقُ ما تطيقين يا أمَّ عمارة؟!».

* تقول أمُّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ:

وأقبل الرَّجل الذي ضربَ ابني، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا ضاربُ ابنك» فأعترضُ له فأضربُ ساقه فبرك، فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيت نواجذه، وقال: «استقدتِ[3] يا أمَّ عمارة» ثمّ أقبلنا نعلّه[4] بالسِّلاح حتى أتينا

---

(1) طبقات ابن سعد (٨/ ٣١٣ و٤١٤) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٩) و«الشعوب»: من أسماء المنية.

(2) «الحقو»: معقد الإزار.

(3) «استقدت»: اقتصصت، وأخذت بثأرك.

(4) «نعله»: نتابع ضربه بالسِّلاح، من العل: وهو الشُّرب بعد الشُّرب تباعاً.

على نفسِه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «الحمدُ للهِ الذي ظفَّركِ وأقرَّ عينك منْ عدوِّك، وأراكِ ثأرك بعينك»(١).

* وإلى هنا ما تزالُ المعركةُ مستمرةً، وما تزالُ ألوان الفروسيَّة ترسمها أمُّ عمارة في ميدان أُحُدٍ، وفي إحدى جولاتها حظيتْ بدعوةٍ مباركة مع أهلِ بيتها من رسولِ الله ﷺ رفعتها وإياهم مكاناً علياً، وظلُّوا يستبشرون بها في كلِّ مناسبة، وها نحنُ أولاء نذكر تلكم البشَارة التي قِيْلَتْ بين صَليل السّيوفِ، ورشقات النِّبال، ووخْزِ الرِّماح.

* أخرج ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن أمّ عمارة عبد الله بن زيد قال:

شهدتُ أُحُداً، فلمَّا تفرَّقوا عنْ رسولِ الله ﷺ، دنوت منه أنا وأمّي نذبُّ عنه، فقال: «ابن أمّ عمارة؟».

قلت: نعم.

قال: «ارم».

فرميتُ بين يديه رجلاً بحجر ـ وهو على فرسٍ ـ فأصبتُ عينَ الفرس، فاضطربَ الفرسُ، فوقع هو وصاحبه، وجعلتُ أعلوهُ بالحجارة، والنَّبيُّ ﷺ ينظر يتبسم. ونظرَ ﷺ إلى جرح أمّي على عاتقها فقال: «أمّك، أمّك، اعصبْ جرحها، باركَ الله عليكم من أهل بيت، مقام أمّك خيرٌ من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت، ومقام ربيبك ـ يعني: زوج أمّك ـ خير منْ مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت».

فقالت له أمّي: ادع الله أنْ نرافِقَك في الجنَّة.

فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنَّة».

فقالت: ما أبالي ما أصابني منَ الدُّنيا(٢).

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤ و٤١٥) بشيء من التصرف. وانظر السِّيرة النَّبويَّة لأحمد زيني دحلان (٢/ ٤٨).

* نعم؛ لقد حظيتْ أمُّ عمارة بدعوةٍ كريمةٍ من رسولِ الله ﷺ، وحسبُها هذه الدَّعوة، وذلك الدُّعاء الطَّيِّب، إذاً؛ فلا قيمة للدنيا، وقد سعدتْ بالنَّعيم المُقيم.

* وانتهتْ معركة أُحُد، وخرجت أمّ عُمارة منْ أرضِ المعركةِ وهي تحمل بضعة عشرَ جرحاً، أعظمها تلك الجراحة التي أصابها ابن قميئة، فداوته سنة كاملة، ثمّ نادى مُنادي رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد[1]، فشدَّتْ عليها ثيابها، فما استطاعتِ الخروج من نَزْفِ الدّم - رضي الله عنها -.

* ولما عاد رسولُ الله ﷺ، كان يسألُ عن حالها، ويتفقّد أحوالها، ويسأل أخاها وأولادها عن جراحاتها، ويدعو لها، وقد امتدحها ﷺ، وأعربَ عن فروسيتها وبسالتها يوم أُحُد، ودفاعها عنه بقوله: «ما التفتُّ يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تُقاتلُ دوني»[2].

* إنَّ المرءَ ليدهش، ويزداد سروراً من شجاعةِ هذه الفارسة؛ التي لا نكادُ نجد لها مثالاً أو مثيلاً في دنيا التّاريخ وتاريخ الدُّنيا، إنَّ لبطلتنا هذه تاريخاً حافلاً في باب الجهادِ في العَصْر النَّبوي.

أمُّ عمَـارةَ وفروسيَـةٌ أُخـرَى:

* بعد أنْ هزمَ الله عزَّ وجلَّ جيوشَ الأحزابِ، خرج رسولُ الله ﷺ إلى يهودِ بني قريظة، وخرجت معه أمّ عمارة لتؤدي دورها، وتُكْتب في عداد المجاهدين، وأنزل اللهُ نَصْره على رسولِه وعلى المؤمنين، وعادت أمُّ عمارة منْ تلك الغزاةِ، وقد حظيت بوسام الفروسية.

* ولما كان عام الحديبية سنة ستٍّ منَ الهجرة، خرجتْ مع رسول الله ﷺ، وقد شدَّت سكيناً بوسطها خيفة أن يغدر أحدٌ من المشركين بها.

* ولما كانتِ البيعةُ، بيعة الرضوان، كانت أمُّ عمارة منَ اللائي بايعن،

---

(١) «حمراء الأسد»: موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطَّريق إذا أردت ذا الحليفة.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥).

والصوت تحت قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨].

* وتتوالى مشاهد أمّ عمارة، ويتوالى تألُّقها في كلِّ مشهد تشهده مع رسولِ الله ﷺ، وها هو العام السَّابع من الهجرة يطلُّ على المسلمين وهم في المدينةِ، وها هو الشَّهر الأوّل منه شهر المحرم، وذلك الشَّهر الذي انطلق خلاله المسلمون إلى خيبرَ، ليقضوا على وكر الدَّسِ والتَّآمر والفَسَاد بزعامةِ اليهود هنالك.

* وأخذت أمّ عمارة طريقها إلى خيبرَ مع الجيش الغازي؛ الذي شهد بيعة الرِّضوان، حيثُ أعْلَنَ ذلكَ رسولُ الله ﷺ لما أرادَ الخروج إلى خيبرَ، وأكَّد ألا يخرج معه إلا أصحابَ الشَّجرة، وهم ألف وأربعمئة.

* وعلى أرضِ خيبر شهدت أمّ عمارة وشاهدت فروسيَّة أبطال المسلمين وفُرسان رسول الله ﷺ، وكيف أعزَّ الله نبيَّه، وأهلك أعداءه، ثمَّ عادت مع الجيشِ المنتصر إلى المدينةِ لتشهد عمرة القضية، وتدخل المسجد الحرام مع المؤمنين الموحِّدين.

* وفي رحلةِ الجهاد والفروسية، كانت أمُّ عمارة - رضي الله عنها - ممَّن شهد غزوةَ حُنين، وهنالك على أرضِ حُنين أخذت تُقاتل، وتدافعُ عن رسول الله ﷺ، ولما اشتدَّتْ رحى المعركة، وحمي وطيسها، هنالك تجالَدَ الفريقان مجالدةً شديدةً، ونظر رسولُ الله ﷺ إلى ساحةِ القتال، وقد احتدمَ القتالُ فقال: «الآنَ حَمِيَ الوطيس». ثم أخذَ قبضةً منْ ترابِ الأرض، فرمى بها وجوهَ القوم وقال: «شاهتِ الوجوهُ». وما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمي القبضة - حتى ولَّى القومُ مُدبرين، وحازَ المسلمونَ ما كان مع العدوّ مع من مالٍ وسلاحٍ وظَعْن، واستطاعت أمّ عمارة - رضي الله عنها - أنْ تقتل واحداً منْ فرسانِ المشركين، وتُلحِقَه بِمَنْ سبقه إلى جهنّم، وبئس المهاد.

* وينتهي العصر النَّبوي، ويطلُّ العصر الرَّاشدي، فإذا بأمّ عمارة تشهد أعظم المشَاهد، وأشدّها ضراوة في تاريخِ المشاهد، وكان لأمّ عمارة

حسابات قديمة مع زعيم الكذّابين مسيلمة بن حبيب الكذّاب، فكانت تصفية الحسابات في ذلك اليومِ الحاسم.

تُجَـاهِدُ فـي اليَمَـامَـةِ:

* عاشتِ السّيدةُ النّبيلة الفاضلةُ أمّ عمارة العصر النّبويّ المبارك، وأثرتْ دنيا النّساء، ودنيا الفروسية بشتّى أنواع الإقدام والبسالة، لقد قدّمَتْ كلّ غالٍ ورخيص في سبيلِ مرضاة الله عزّ وجلّ.

* ولما أذّنَ مؤذنُ أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ بالجهادِ للقضاء على حركةِ الرِّدة التي كادت تضرُّ بجسمِ الدّولةِ الإسلامية، وتفتكُ بالعربِ وبالمسلمين، وتؤذي الجزيرة بزعامةِ مسيلمة الكذّاب، انطلقت أمُّ عمارة إلى اليمامةِ، وشهدتها مع ابنها عبد الله، وقاتلتْ في هذه الموقعة قتالاً شديداً حتى قُطِعَتْ يدها، وجُرحت يومئذ اثني عشر جرحاً بين طعنةٍ وضربة؛ ولكنّ اللهَ عزّ وجلّ أكرمها بمقتل المتنبيء المزعوم مسيلمة الكذّاب الذي فجعها منْ قبلُ بابنها حبيبِ بنِ زيد، فصبرتْ، واحتسبتْ، وأقرّ الله عينها منه.

* فقد كان ولدها حبيبُ بنُ زيد ـ رضي الله عنه ـ مثلاً شروداً في إيمانه ويقينه؛ الذي أشرقَ في حناياه، واستقرَّ في قلبِه، أرسله رسولُ الله ﷺ إلى مسيلمةَ الكذّابِ ـ لعنه الله وأخزاه ـ فأخذه مسيلمة ليقتله، وقبل أنْ يقتله عرضه لامتحان في إيمانه وصدق يقينه في صورةٍ منَ البلاء، كانت أفجر وأسوأ ما سجلته الحياة لهذا الطّاغية وغيره من طواغيتِ الكُفْر في العَصْر النّبويّ.

* كان مسيلمةُ الكذّاب إذا سأل حبيب بن زيد: أتشهد أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم؛ وإذا قال له: أتشهد أنّي رسول الله؟ قال حبيب ـ رضي الله عنه ـ: أنا أصمُّ لا أسمع.

* هذا، وقد كرر ذلك مسيلمة على حبيب وهو ثابتُ اليقين، راسخ الإيمان، لا يتزعزع ولا يتحوَّل، فلما يئس منه مسيلمة، وعلم رسوخَ إيمانه، وصلابة يقينه، وقوة صبره على تحمُّل أبشع البلاء، قتله قتْلةً شنيعة، لا يقدم عليها إلا أفجر طاغوت منْ طواغيتِ الكفر والفجور، فجعل كلّما سأله

ويجيب حبيب بجوابهِ الذي لا جواب غيره، قطع منه عضواً، حتى أتى عليه عضواً، عضواً، وحبيب ينظر إلى قتلته الشَّنيعة وهو قرير العين، رضيّ القلب، هانىء النفس بهذا الاستشهاد في سبيلِ الله؛ الذي انفرد به، والذي أكرمه الله به، وألقى عليه الصَّبر في تحمل الشَّدائد في سبيلِ مرضاته، ففازَ مع الفائزين، ومع المؤمنين الذي لِهم أعلى المنازل في الجنَّات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

* وبلغ أمَّه نسيبة بنت كعب الخزرجيّة صنيعُ مسيلمة الكذَّاب بولدها المؤمن، التَّقي، النَّقي، فنذرت أن تقتل مسيلمة، فلمَّا جاء يوم اليمامة في وقائع الردَّة في خلافة أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ شمَّرَت أمُّ عمارة عن عزيمةٍ بطوليةٍ عامرةٍ بالإيمان، ينوء بأثقالها شجعان الفُرسان، واستأذنتِ الصِّدِّيق في الخروج فقال لها وقد عرف ماضيها النَّاصع في ساحات الجهاد: يا أمّ عمارة! ما مثلك يُحال بينه وبينَ الخروج، فقد عرفناك، وعرفنا جرأتك في الحربِ، فاخرجي على اسم الله.

* وخرجتْ أمّ عمارة على اسم اللهِ عزَّ وجلَّ، وشهدت ذلك اليوم مع ابنها عبد الله بن زيد شقيق حبيب قتيلِ مسيلمة، وخاضَتْ مع الأبطال غمار المعركة، وقاتلت قِتالاً شديداً حتى قطعت يدها يوم ذاك، ولكنّها لم تلتفتْ إلى ذلك، فقد كانت حريصة على قَتْلِ مسيلمة الكذَّاب لتبرَّ نَذْرَها وَقَسَمها.

* وما هي إلا جولةٌ حتى قُتِلَ مسيلمة الكذَّاب ـ لعنه الله ـ قتله وحشيُّ بنُ حرب بالحربةِ التي قَتَلَ بها حمزة سيِّد الأبطال والشُّهداء والفُرسان يوم أحد. وقيل: إنَّ مُسيلمةَ الكذَّاب قُتِل بسيف رسولِ الله ﷺ بيدِ البطل الفارس أبي دجانة[1] الأنصاريّ، وقيل: إنَّ ابنها عبد الله بن زيد قد شارك وحشياً في قَتْلِ مسيلمة[2]، ولما علمتْ بمقتله سجدت شكراً لله عزَّ وجلَّ، وعادت منَ

(١) اقرأ سيرة هذا الفارس في هذه الموسوعة ص(٦٥٨).
(٢) روي عن أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: قُطعتْ يدي يومئذ فما أوليتُ عليها، ثم أتيتُ ابني فوجدته قد قتل مسيلمة وهو يمسح سيفه من دمه. (الاستبصار ص٨٢).

اليمامة، وقد فقدت يداً سبقتها إلى الجنَّةِ، ولكنَّها كانت قريرة العين أنْ أبرَّ الله عزَّ وجلَّ قسمها، وأنّها فَقَدَتْ ما فَقَدَتْ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* وفي المدينةِ المنوّرة كان أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ يأتيها، ويسأل عن حالها وعنْ يَدِها[1]؛ التي طالما دافعتْ بها عن رسولِ الله ﷺ.

* ذكر السُّهيليُّ ـ رحمه الله ـ صاحب «الرّوض الأنف» قصّة تدلُّ على كرامتها فقال:

إنَّ النَّاسَ كانوا يأتونها بمرضاهم لتستشفي لهم، فتمسح بيدها على المريضِ، وتدعو له، فقلَّما مسحتْ بيدها تلك على ذي عاهةٍ إلا وبرىء بإذن الله عزَّ وجلَّ[2].

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ:

* الفارسةُ المجدَّة المجاهدةُ أمّ عمارة ممن يستحقُّ أنْ يكون في قائمة الخالدين، فكانت كذلك.

* عاشت المجاهدةُ أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ في بداية العصر الرَّاشدي تحظى بمكانةٍ رفيعة عند أبي بكر، كما كانت تحظى بالمكانةِ نفسها عند عمر الذي يعرف حقَّها، ويقدِّر شجاعتها وفروسيتها، وهل يمكن لأحدٍ عرفها أنْ ينسى مواقفها العطرة؟!

* وذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ تقدير عمر ـ رضي الله عنه ـ لأمّ عمارة في قصّة ساقها فقال: أُتي عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بمروطٍ، فكان فيها مِرْط[3] جيِّدٌ واسعٌ، فقال بعضهم: إنَّ هذا المرط لثمن كذا وكذا، فلو أرسلتَ به إلى زوجةِ عبد الله بن عمر صفيّة بنت أبي عُبيد[4]، وذلك

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٦).
(٢) الروض الأنف للسّهيلي (٢/ ٢٠١) بشيء من التصرف.
(٣) «المرط»: كساء غير مخيط من خز أو صوف يؤتزر به.
(٤) اقرأ سيرة التّابعية الجليلة صفيّة بنت أبي عبيد ـ في كتابنا «نساء من عَصْر التّابعين» (١/ ٩١ ـ ١٠٣) ففي سيرتها فوائد جليلة إن شاء الله.

حِذْثان[1] ما دخلت على ابنِ عمر، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أبعثُ بهِ إلى مَنْ هو أحقّ به منها، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب ـ رضي الله عنها ـ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تُقاتل دوني»[2].

* وقبل أنْ نقولَ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ ﴾ لا بدَّ وأن نشيرَ إلى أنَّ أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ قد رُوي لها أحاديث عن رسولِ الله ﷺ. ومن مرويّاتها ما أخرجه ابن سعد، وما ورد في السُّنن عنها قالت:

أتانا رسول الله ﷺ فقرّبْنا إليه طعاماً، فكان بعضُ مَنْ عنده صائماً، فقال النّبيُّ ﷺ: «إذا أُكِلَ عند الصّائم الطّعام صلّتْ عليه الملائكة»[3].

* أمّا عن وفاةِ أمّ عمارة ـ رضي الله عنها ـ فيعتقد أنّها كانت في مطلع العَصْر الرّاشدي، وفي بداية خلافة عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ. وحدد الزّركليُّ ـ رحمه الله ـ وفاتها سنة (١٣ هـ)[4].

* رضي الله عن أمّ عمارة، وعمر قلوبنا بالإيمان، وجَعَلنا معهم في أعلى الجِنان.

* * *

---

(١) «حِذْثان»: أي: أول زواجها.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥) وانظر: المغازي (١/ ٢٧١) وأنساب الأشراف (١/ ٣٢٥ و٣٢٦).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥ و٤١٦) والاستبصار (ص٨٢) وأسد الغابة (٦/ ٣٧١) والحديث أخرجه أكثر أصحاب السُّنن، فقد أخرجه الترمذي برقم (٧٨٥).

(٤) الأعلام للزّركليّ ترجمة نسيبة.

(٤)

أَسمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْر

رضي الله عنهما

قال ﷺ:

«إِنَّ لَكِ بِهِمَا نِطَاقَيْنِ في الجَنَّـةِ».

أصلها ثابت وفرعها في السماء:

* بطلةُ اليوم لا تحتاج إلى تعريفٍ أو تقديم، فهي كالشمس في رابعة النّهار، اقترنتْ بالإسلام واقترن الإسلام بها، من أولِ يوم هبت نسائمه على الدُّنيا[١].

* إنَّها أسماء بنت أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان أمُّ عبد الله، القرشية، التيمية، المكية، ثم المدنية.

* وأسماءُ ـ رضي الله عنها ـ صحابية جمعتِ الخيرَ من منابعه، شأنُها في ذلك شأن الشَّجرة المعطاء التي نبتتْ نباتاً طيباً، فكانت ثابتة الأصول، أمّا فروعُها فقد باركتها العنايةُ الإلّهية، فكان لها ذِكْرٌ جميلٌ، وسيرة عطرة ما تزال الأجيال تتنسّم رائحتها العبقة على مدى الأيام.

* وُلدت أسماء بمكةَ قبل الهجرة النَّبوية بسبع وعشرين سنة، وكان عُمْرُ والدها الصِّديق إحدى وعشرين سنة، وفي بيت الصِّديق نشأت نشأةً طيّبة، وقد حباها الله عقلاً ورزانة، فتخلَّقت بالأخلاق الأصيلة، ونشأت على حبِّ الفضيلة.

* أسلمت بطلتنا قديماً قبل الهجرة، وبايعت رسول الله ﷺ على يَدِ الصِّديق، فكانت في عداد السَّابقين الأولين، وفي طليعة الثُّلة الأولى من جيش الهدى ودين الحق، إذ كان رقمُها في سجل الإيمان الثامن عشر، فكانت من الصَّحابيات الفاضلات اللاتي لهن فضل السَّبْق في الإسلام.

وقد جمعت بين صِدْقِ الإيمان وعمق النَّظرة والشجاعة ما جعلها مثلاً طيباً بين نساء الإسلام[٢].

---

(١) لقد وضح صبح الإسلام، فظهرت المرأةُ في مشرق نوره، فيّاضة النفس بالإيمان، والوجدان، ملأى اليدين من حقّ موفور، وفَضْل مأثور، فقد أدلت دلوها في الفضائل، فكان لها أكبر الأثر في تكوين الرجال، ونَشْر العلم، كما تركتْ أجملَ الأثر وأبقاه في مجال اللسان والسِّنان.

(٢) خصَّ اللهُ تعالى أسماء بنعمة الإيمان والسَّبْق إلى الإسلام، وقد عُرِفَتْ برباطة =

مَنْ يُـدَانيها في الفضـائل والمكرمـات؟!

* لأسماء ـ رضي الله عنها ـ فضائل لم تجتمعْ لواحدة من النِّساء، فقد اقتعدت مكاناً علياً في عَالَمِ الصَّحابيات؛ حتى غدتْ ممَّنْ ينضحُ بالعلم والبركة والصَّبرِ والجهاد، ولننظر نظرة إكبار إلى البيئة الصَّالحة التي تهيأت لأسماء؛ فجعلت منها كوكباً يشعُّ بالنُّور والخير.

* فصهرها أفضل الخلق نبينا محمّد ﷺ.

* وأختها لأبيها أمُّنا عائشة زوج رسول الله ﷺ.

* وأبوها الصَّحابي الكريم، وشيخُ الصَّحابة، وأولهم إسلاماً، وأول المبشرين بالجنة من العشرة أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ.

* وجدّها لأبيها ـ أبو قحافة ـ صحابي كُتبتْ له السَّعادةُ بإيمانهِ وتصديقه.

* وجدّتها لأبيها ـ أم الخير ـ سلمى بنت صخر[1] صحابية كريمة، نالتِ الرِّضوان ببركة الصُّحبة.

* وعمّاتها الثّلاث صحابيات، وهن: أمُّ فروة وقُريبة وأمُّ عامر[2] بنات أبي قحافة.

* أمّا زوجها فهو صحابي كريم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد حسنات أبي بكر، حواري رسول الله، وابن عمته ﷺ، وأول مَنْ سلَّ سيفاً في سبيل الله، الزُّبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ.

* وابنُها صحابي جليل، عبد الله بن الزبير، أحد الأعلام في العلم والعبادة والشَّرف والجهاد.

= الجأش، والدَّفع بالحجة القوية، ورجاحة التفكير في المواقف الصعبة؛ التي تتزعزع فيها إرادة الإنسان، ويفلتُ من يده زمامُ تفكيره.

(١) انظر ترجمتها في الاستيعاب (٤/ ٤٢٩)، والإصابة (٤/ ٤٢٩)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٧٤٢٨).

(٢) انظر تراجمهن في الطبقات (٨/ ٢٤٩)، وفي الإصابة وأسد الغابة.

* وأخوها الشَّقيق عبد الله صحابي، كريم، لبيب، نجيب.

* وأخوها لأبيها عبد الرحمن ـ شقيق عائشة ـ أحد الصَّحابةِ الأعلام، كان مِنَ الرُّماة المذكورين والشجعان.

* وحَسْبُ أسماء شرفاً وفخراً ورفعةَ هذه النَّفحات التي أحاطتْ بها إحاطة السِّوار بالمعصم، فمَنْ يدانيها؟

ولهذا قيل: لم يوجد في أحد من الصحابة أربعة كلّهم رأوا النّبي ﷺ بعضهم ولد بعض إلا في بيتِ أبي بكر، فهي وأبوها وجدها وابنها ابن الزبير أربعتهم صحابيون(١) ـ رضي الله عنهم ـ.

* ومما يُضاف إلى مكارم أسماء أنَّ أختها أمّ المؤمنين عائشة قد كُنيت بكنيتها أمّ عبد الله.

فأكرمْ بهذا الشرف، وهذا النسب الطاهر الزكي!

أسْماءُ وحفْظُ السِّر:

* كانت أسماء ـ رضي الله عنها ـ تحرصُ كلَّ الحرص على تحقيق السَّعادة لرسولِ الله ﷺ، ولوالدها الصِّديق رفيق النَّبي الكريم في هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة، ناهيك بكتمانها لِسِرِّ الهجرة، فلم يكن إلا بضعة أشخاص يعلمون بهجرة النَّبي ﷺ من بينهم أسماء، ذكر هذا ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ فقال:

ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج إلا عليّ بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر(٢).

* ما أكرمَ البيتَ البكريّ! هذا البيت الكريم ذو التَّضحيات العظيمة برجاله ونسائه ومواليه، حاز الشَّرف في رحلة الهجرة، فالصِّديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وعبد الله بن أبي بكر الفتى اللقن الفطن اللبيب يتسمَّعُ أخبار المشركين

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٨)، والرياض النضرة (١/ ١٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٥).

في النَّهار؛ ثم يؤديها إذا أمسى لهما، ومولى الصِّديق عامر بن فهيرة يرعى غنمه نهاره كلَّه ثم يريحها قرب الغار، أمَّا أسماء فكانت تأتي بالطعام إذا أمست بما يصلحهما.

ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ[1]:

* ذاتُ النطاقين لقبٌ حظيت به أسماء ـ رضي الله عنها ـ يوم الهجرة، وكان لقباً أثيراً لديها تركَ في حياتها آثاراً طيّبة ومعانٍ كريمة، وما زال هذا اللقب يُذكر بالخير على مدى الأيام، فما أَنْ تُذكر أسماء إلا وتذكر فضائلها وخصوصاً يوم الهجرة.

* وقد أوردتْ كُتُب الحديث وكتب التَّراجم والسِّير؛ أَنَّ أسماء وعائشة ابنتي الصِّديق اشتركتا في تجهيز الطَّعام الذي سيأخذه المهاجران: رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، ثم وضعتاه في جراب ـ وعاء من جلد ـ ولما أرادتا رَبْط فم الجراب لم تجدا شيئاً، فشقت بطلة التَّضحية أسماء نطاقها نصفين، فربطت فم الجراب بنصفه، وانتطقتْ بالآخر، فلذلك سُميت ذات النطاقين أو ذات النطاق.

وقد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري عن أمِّنا عائشة قالت: «فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب؛ فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها فأوكتْ ـ ربطتْ ـ به الجراب، ولذلك كانت تسمى ذات النطاق»[2].

* إنَّ عمل أسماء هذا يعجز عنه الرجل الشُّجاع لما فيه من مخاطرَ وظلمة

---

(١) النطاق: هو ما تشد به المرأة وسطها، وكان الانتطاق من عادة النساء العربيات. وسُمِّيت: ذات النطاقين؛ لأنَّها كانت تجعل نطاقاً على نطاق. وقيل: كان لها نطاقان؛ تلبس إحداهما، وتحمل في الآخر الزاد لرسول الله ﷺ وهو في الغار.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٨٧ و١٨٨)، وانظر كذلك سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٧٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٨٣)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٧)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٨). «أحثّ الجهاز»: من الحث وهو الإسراع. والجهاز: ما يُحتاج إليه في السفر.

وحشة، ولما يحتاجه مِنْ جرأةٍ وثبات قلب وقوة أعصاب وتحكم بالمشاعر، ولم تتوقف شجاعة أسماء عند هذا المقدار فحسب، بل لك عزيزي القارىء أنْ تتصور مدى صبرها وتحملها للمشقة إذ كانت حاملاً بابنها عبد الله، ولك أنْ تتصور أسماء في هجعة الليل وهي تحملُ طعاماً وتسلك الطُرق الوعرة الطويلة، وتصعدُ جبلاً لتصلَ إلى الغار ـ غار ثور ـ كانت تجتاز كل هذه المخاطر[1] وعيون المشركين تتابعها، ولكنّه لطفُ الله سبحانه الذي أحاط بها، وعينه التي حفظتها.

مَوْقفٌ نَبيـلٌ وتصـرُّف حـكيم:

* وقفةٌ لطيفةٌ نُدققُ فيها النَّظر في موقف أسماء من جدها أبي قحافة، موقف يمثل صدق إيمانها، وسعة أفقها، وكمال عقلها، وحسن تصرفها في الأمور الطَّارئة، ويشير إلى كياستها وذكائها.

* روى ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ بسنده عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرجَ معه أبو بكر احتمل ماله كلَّه ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلقَ بها معه، فدخل علينا جَدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله! إنّي لا أراه إلا قد فجعكم بمالِهِ مع نفسه.

قلتُ: كلاّ يا أبت، ضَعْ يدَكَ على هذا المال، فوضعَ يده عليه.

فقال: لا بأس إذا كان تركَ لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا

---

(1) ثلاثة أميال تقريباً، كانت تقطعها هذه الصبية الجريئة الناشئة في جوف الليل، ووحشة الطريق، ماشية، متخفية، حَذِرة، مترقبة، حتى تصعد إلى هامة الجبل بين أسنّة الصخر ووعورة المسلك، ثم تنحدر في جوفه، فتوافي رسولَ الله ﷺ ووالدها بالزاد والأخبار.
تلكم الفتاةُ أسماء ذهبتْ إلى حيث يعجز أشدّاء الرجال، فأيُّ امرأةٍ هذه؟! وأيّ قلب ذلك الذي أودعه اللهُ تعالى بين ضلوعها وحناياها؟! وأية عزمة تلك التي خفقت في نفسها، وسرتْ بين جوانبها؟!

والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردتُ أَنْ أُسكنَ الشَّيخ بذلك[1].

مِنْ بُطولاتِ أَسْماء:

* لئن سلمتْ أسماء من عثرات الطريق إلى الغار، لقد نالتها الشدائد والآلام من بلاء قريش، وأذى كبرائها وكُبّارها، وهي آمنةٌ في دارها.

* حدَّثتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ عن واحد من مواقفها البطولية أمام جبابرة قريش فقالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، أتانا نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، وقفوا على الباب فخرجتُ إليهم فقالوا: أينَ أبوكِ؟

قلتُ: والله لا أدري أين أبي.

فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمةً طرح منها قرطي[2].

* أرأيتَ كيف وصل السَّفَهُ بأبي جهل ـ أخزاه الله ـ أَنْ يتخلى عن أخلاقِ العرب وشيمهم العظيمة في التَّرفع عن إيذاء المرأة؟ وأن ينزلَ بنفسه الحقيرة إلى الدَّركِ الأسفل من الإسفاف والسوء؟ فقد عجز عن مواجهة الرجال فضرب امرأة حاملاً!

أَسْماءُ وأَولُ مَوْلُود في الإسلام:

* لما تَمَّتْ هجرة النَّبي الكريم ﷺ وصاحبه أبي بكر، أرسلا مَنْ يأتيهما بأهلهما، وهاجرت أسماء ـ رضي الله عنها ـ وهيِ حاملٌ مُتمٌّ بابنها عبد الله بن الزُّبير.

وشاءت إرادةُ الله سبحانه أَنْ يُسجلَ هذا المولود في سجل الأوائل، ذكر هذا أبو جعفر الطبري في تاريخه فقال:

---

(١) انظر السيرة النبوية (١/ ٤٤٨)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢١٣ و٢١٤)، والبداية والنهاية (٣/ ١٧٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠) بلفظ قريب.

(٢) عن الحلية (٢/ ٥٦)، وأنساب الأشراف (١/ ٢٦١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٣٢٧)، والسيرة الحلبية (٢/ ٢٣٠) بتصرف.

وكان أول مولودٍ وُلدَ من المهاجرين في دار الهجرة، فكبّر أصحابُ رسول الله ﷺ حين وُلد، وذلك أنَّ المسلمين كانوا قد تحدثوا أنَّ اليهودَ يذكرون أنَّهم قد سحروهم فلا يُولد لهم، فكان تكبيرهم ذلك سروراً منهم بتكذيبِ الله اليهود فيما قالوا من ذلك[1].

* ولما وُلد عبد الله بن الزبير ـ في قباء ـ أَمَرَ النَّبي الكريم ﷺ جَدَّه أبا بكر فأذّنَ في أذنيه بالصَّلاة، ثم أخذ رسول الله ﷺ ابنَ أسماء ـ رضي الله عنهما ـ فحنّكه بتمرةٍ لاكها، فكان ريقُ رسول الله ﷺ أول شيء نزل في جوفه، وسمّاه عبد الله وكنّاه أبا بكر بكنيةِ جده أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ[2].

* وكان ميلادُ عبد الله بن الزُّبير فاتحةَ خيرٍ على المسلمين، واستبشروا به وتفاءلوا بمولده، ونشأ على حبِّ التَّقوى؛ فكان كما وصفته أمّه: قوّام الليل، صوّام النّهار، وكان يُسمى حمامة المسجد، وذكر البلاذري أبناء أسماء ـ رضي الله عنها ـ فقال: ولدت أسماء للزُّبير عبد الله وعروة والمنذر وعاصم وأمَّ حسن وعائشة[3].

* ومن الجدير بالذكر أنَّ أول مولود وُلدَ للأنصار بعد الهجرة ـ من أبوين صحابيين ـ الأميرُ العالمُ صاحبُ رسول الله وابنُ صاحبه النّعمان بن بشير[4] الخزرجي، ابن أخت الصَّحابي الجليل عبد الله بن رواحة ـ رضوان الله عليه ـ.

---

(1) تاريخ الطبري (٢/ ١٠) طبعة دار الكتب العلمية، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٣ و٣٦٥)، والعقد الفريد (٤/ ٤١٩).
(2) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٦).
(3) أنساب الأشراف (١/ ٤٢٢) والطبقات (٨/ ٢٥٠) والسمط الثمين (ص٢٠٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩).
(4) انظر ترجمة النعمان بن بشير في الاستيعاب (٣/ ٥٢٢)، والإصابة (٣/ ٥٢٩)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤١١)، والاستبصار ص(١٢٢ و١٢٣)، وأسد الغابة ترجمة رقم (٥٢٣٥).

الصَّابِرَةُ الشَّاكِرَةُ المحتسبة:

* ضربتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ أجملَ الأمثلة العملية في الصَّبر والشُّكر، وهاتان الصِّفتان من صفات أهل الجنَّة، فقد صبرت أسماء على الفَقْرِ، وشكرت الله سبحانه على النعمة، وتحدثتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ عن ذلك فقالت:

تزوَّجني الزُّبير وماله شيءٌ غير فرسه، فكنتُ أسوسه وأعلفه، وأدقّ لناضحهِ ـ بعيره ـ النَّوى وأستقي وأعجن، وكنتُ أنقلُ النَّوى منْ أرض الزُّبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ، فجئتُ يوماً والنَّوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نَفَرٌ، فدعاني فقال: «إخ إخ» ليحملني خلفه، فاستحييتُ وذكرت الزبير وغيرته. قالت: فمضى.

فلما أتيتُ أخبرتُ الزَّبيرَ فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد بخادم، فكفتني سياسة الفرس؛ فكأنَّما أعتقني[1].

* وقفةٌ بسيطةٌ مع أسماء ننظر فيما تحدثت به عن صبرها، فلم يكن فقر زوجها الزُّبير يمنعها من مساعدته والعمل على ما يرضيه، وتوفير أسباب السَّعادة له، فقد كانت تعمل بنفس راضية وقلبها مطمئن بالإيمان، قانعة بما قسم الله لهما، وزادُها في هذا كلِّه الصَّبر، فكان من نتيجة ذلك أنْ تبدَّلَ الحال، وأضحى الزُّبير في سَعَة.

وأكرم الله الزَّبيرَ وأسماء، وأصبحا ينعمان في الغنى، وفي هذه الحال ازدادتْ أسماءُ شكراً لله سبحانه وتعالى، فلم تُغْرِها الأموالُ الكثيرة، ولم تَشْغَلْها عن واجباتها تجاه ربِّها وبيتها، بل كانت تنفقُ في حدود ما أمرها به رسول الله ﷺ مِنْ مالِ زوجها الزبير، وكانت مع هذا كلِّه تلهجُ بالشُّكر لما أنعم الله عليها ولما أعطاها من خير.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠ و٢٩١)، وانظر الطبقات (٨/ ٢٥٠) بلفظ قريب، وانظر: زاد المعاد (٥/ ١٨٧).

ولله درُّ أبي نُعيم إذ وصفها في مطلع ترجمته لها بقوله: الصَّادقة الذَّاكرةُ، الصَّابرة الشَّاكرة، أسماء بنت الصِّديق، الشَّاقةُ نطاقها؛ لمعصم قِرْبةِ النَّبي ﷺ وعلاقها[1].

السَّخيـةُ الكَريمَـةُ ومحـاسن جودهـا:

* عُرِفتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ من بين النِّساء بأنَّها سخية اليد، كريمة الطَّبع، فُطرت مع السخاء وفُطرَ السخاءُ معها، ولها مع الجود والكرم مواقف رائعة، وهي التي كانت تقولُ لبناتها ولأهلها: أنفقوا أو أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفَضْل، فإنكن إنْ انتظرتن الفضل لم تُفضلن شيئاً، وإن تصدقتن لم تجدن فقده[2].

* كانتِ الصَّحابية أسماء ـ رضي الله عنها ـ سخية النَّفس، سَخَتْ بنطاقها يوم كانت لا تملك غيره، وهذا غاية الجود، سخَتْ بمواقفها الوضيئة، بحياتها وكل ما تملك في سبيل مرضاة الله سبحانه وتعالى، ولكنَّها لم تسخُ بذرةٍ مِنْ إيمانها أو ذرة من كرامتها، وقد شهد بجودها وكرمها القاصي والداني.

وصفها محمد بن المنكدر فقال: وكانت امرأة سخية النفس. وحدَّث محمّد بن المنكدر أيضاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأسماء بنت أبي بكر: «لا تُوكي فيوكي الله عليك»[3].

أضف إلى ذلك أنَّ النبي ﷺ أوصاها بمحاسن الجود والكرم، فقالت: مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا أحصي شيئاً، وأكيله، فقال: «يا أسماء! لا تحصي فيحصي اللهُ عليك».

قالت: فما أحصيتُ شيئاً ـ بعد قول رسول الله ﷺ ـ خَرَج من عندي

---

(١) الحلية (٢/ ٥٥).
(٢) الطبقات (٨/ ٢٥٢)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩).
(٣) الطبقات (٨/ ٢٥٢). ومعنى الحديث: لا تدَّخري ما عندك وتمنعي ما في يديك فتنقطع مادّةُ الرزق عنك.

ولا دَخَل عليّ، وما نَفَذَ عندي من رزقٍ إلا أخلفه الله.

* وبلغ من جود أسماء ـ رضي الله عنها ـ أَنْ ضُرب المثل بذلك، فقد روي أنّها كانت تمرضُ المرضةَ فتعتق كلَّ مملوكٍ لها[1].

* وقد وَصَفَ ابنها عبد الله جودها وكرمها فقال: ما رأيتُ امرأةً قط أَجْود من عائشةَ وأسماءَ، وجودهما مختلف، أمّا عائشة فكانت تجمع الشَّيء إلى الشَّيء حتى إذا اجتمع عندها وضعته في مواضعه، وأمّا أسماء فكانت لا تدخرُ شيئاً لغَد[2].

أَسْمـاءُ والقُـرآنُ الكَريـمُ:

* فصاحةُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ ساعدتها على فَهْم آيات القرآنِ الكريم فهماً صحيحاً، وتدبرِ معانيه وأحكامه بشكلٍ سليم، فقد سألها حفيدُها عبد الله بن عُروة فقال لها: كيفَ كانَ أصحابُ رسول الله ﷺ يفعلونَ إذا قُرِىء عليهم القرآن؟

قالت: كانوا كما نعتهم الله: تدمعُ أعينُهم وتقشعرُّ جلودهم.

قال: فإنَّ ناساً إذا قُرِىء عليهم القرآنُ خرّ أحدهم مغشياً عليه.

قالت: أعوذُ بالله مِنَ الشَّيطان.

هذا هو فَهْم أسماء لمعاني القرآن، فلا عجبَ في بلاغتها، فقد نشأتْ في بيت الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ.

* وكانت أسماء ـ رضوان الله عليها ـ نموذجاً طيباً بين النِّساء اللاتي جمعن بين مخافةِ الله وفَهْم كتابه، وقد شهد لها زوجها الزُّبير بنَ العوام ـ رضي الله عنه ـ بهذا، وناهيك بشهادة الزبير ـ فقال: دخلتُ على أسماء

---

(1) المصدر السابق، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩).
(2) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٢)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٨ و٥٩)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٠) والحديث أخرجه البخاري.
ولله درّ من قال:
وإنـي امـرؤ لا تستقـرّ دراهمـي ... علـى الكـفّ إلا عـابـرات سبيـل

وهي تصلي فسمعتُها وهي تقرأُ هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] فاستعاذتْ، فقمتُ وهي تستعيذُ، فلما طال عليَّ أتيتُ السُّوق ثم رجعتُ وهي في بكائها تستعيذ[1].

«صِلِي أُمَّكِ»:

* كانت أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ تتوخى الحق في كلِّ موقفٍ من مواقفها الحيوية، وتسألُ عما يرضي الله سبحانه، ولا تتأثر بالعواطف والأواصر ما دام ذلك يخالفُ مرضاةَ الله، فها هي تقفُ أمام أمِّها موقفَ الاستفسار والحيرة، ولكنَّ الحقَّ أقوى وأجدر أنْ يُتبعَ، فقد أوردت كُتُب الحديث والتَّراجم والسِّير عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت:

أتتني أمي[2] راغبة وهي مشركةٌ في عهد قريش إذ عاهدوا رسولَ الله ﷺ، فسألتُ النَّبي ﷺ: أَأَصِلها؟ فأنزلَ الله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ فقال: «نَعم صِلي أُمَّكِ»[3].

* وكانت أمُّها قد أتت بهدايا زبيب وسمن وقرظ، فأبتْ أسماء أنْ تقبلَ هديتها أو تُدْخلها إلى بيتها إلى أنْ وجدت الجوابَ الشَّافي لدى رسول الله ﷺ؛ وهكذا علّمها النَّبي الكريم أنَّ صِلة الرَّحمِ واجبةٌ وأنَّ الإسلام دينُ رحمةٍ وخيرٍ، وأنَّ صلة الرحم تُدخل صاحبَها الجنَّة.

وهذه فروسية نادرة من نوع خاصّ، فليست الفروسية مقتصرة على ساح الوغى، بل تمتد لتشمل مناحي الحياة كلها.

أسماءُ وحديثُ رَسُولِ الله ﷺ:

* لأسماءَ ـ رضيِ الله عنها ـ صلةٌ وثيقةٌ بالحديث النّبويِ الشَّريف، فقد

---

(١) انظر: الحلية (٢/ ٥٥)، والدر المنثور (٧/ ٦٣٥).

(٢) أم أسماء هي قتيلة بنت عبد العزى، وكانت ما تزال مشركة.

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد، وانظر تفسير الماوردي (٤/ ٢٢٣)، وأسباب النزول للواحدي ص(٣٤٩)، والدر المنثور (٨/ ١٣١)، وانظر الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص(٢٧٧).

كانت من الحافظات الواعيات له، روتْ عدداً من الأحاديث بلغتْ ثمانية وخمسين حديثاً، اتفق لها البخاري ومسلم على ثلاثة عشر حديثاً، وانفرد البخاري بخمسة أحاديث، ومسلم بأربعة(١).

* وأسماء ـ عليها رضوان الله ـ من الصَّحابيات اللاتي أكثرن مِنَ الرواية عن الرَّسول الكريم ﷺ كأختها أمِّ المؤمنين عائشة، وأمِّ المؤمنين أم سلمة، وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية(٢) وغيرهن، وهذا يشير إلى فضلها ومكانتها في عالم الحديث.

* حدَّث عن أسماء عددٌ جمٌّ مِنَ الصَّحابة والتَّابعين من مثل: ابنها عبد الله، وعروة، وعبد الله بن عباس، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير، ومولاها عبد الله بن كيسان وغيرهم(٣).

* ومن مروياتها عن رسول الله ﷺ قوله: «إنّي على الحوضِ أنظرُ مَنْ يَرِدُ عليَّ منكم»(٤).

وهذه فروسية في عالم الحديث النبوي، والعلم النافع.

مِنْ مَلامِحِ شَخْصيّتِهَا المتفردة:

* في شخصيةِ أسماء ـ رضي الله عنها ـ جوانب رائعة تدلُّ على تفرّدِها في مجالاتٍ خيّرة، فقد بارك الله سبحانه في عمرها، فَعُمِّرت دهراً قارب مئة سنة ولم يسقطْ لها سِنٌّ، وظلتْ محتفظة بعقلها ورأيها الصَّائب وكلماتها الرائعة، ولم تتوقفْ عن العطاء وأعمال البِر والخير، وشهدت معركة اليرموك مع زوجها الزبير ـ رضي الله عنهما ـ، وكان لها موقف شهير في هذه المعركة.

* وفي ظلِّ الخلفاء الرَّاشدين حظيت أسماء ـ رضي الله عنها ـ بالمكانة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦).
(٢) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد بن السكن في كتاب: نساء من عصر النبوة (١/ ١١١).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٨).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٨٩).

اللائقة التي تستحقها، فجميعهم كان يعرف فضلها ويقرُّ بسابقتها، فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد فرض للمهاجرات الأُوَلِ ألفاً ألفاً منهن أسماءُ بنت أبي بكر، وأسماءُ بنت عميس، وأمُّ عبد الله بن مسعود[(١)].

* ومنَ الجوانب العظيمة في شخصية أسماء حُسْن تعبيرها للرؤيا، فقد ذُكر أنَّ سعيدَ بن المسيب ـ رحمه الله ـ كان من أَعْبَرِ النَّاس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء عن أبيها[(٢)].

* وكانت أسماء ـ رضي الله عنها ـ زكية النفس، نقية السَّريرة، موصولة القلب بالله سبحانه، تراقبُ نفسها مراقبةً شديدةً في السِّر والعلانية، ومع هذا كله كانت ترى التَّقصير في نفسها، قال ابنُ أبي مليكة: كانت أسماء تصدع فتضعُ يدها على رأسها وتقول: بذنبي، وما يغفره الله أكثر[(٣)].

* ومن السِّمات اللامعة في حياة أسماء ـ رضي الله عنها ـ أنَّها كانت فصيحة، حاضرة القلب واللب، تقولُ الشعر؛ ولها في رثاء زوجها قصيدة جميلة تشير إلى بلاغتها. وهذه فروسية في اللسان والقول.

في رحَـابِ البَركَـةِ:

* ممَّا يعطر سيرة أسماء ـ رضي الله عنها ـ حرصها على التَّبرك بآثار رسول الله ﷺ، فقد كانت تسعى للحصول على كلِّ ما يمتُّ إلى التَّبرك بالرَّسول ﷺ لتزود نفسها بزادِ الإيمان والنُّور، وكانت تجدُ في ذلك برداً وسلاماً، وهذا ما جعلها تحتفظ بثوب للنَّبي الكريم ﷺ، ففي الصَّحيح عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أخرجت جُبَّةَ طيالسة فقالت: هذه جبةُ رسول الله ﷺ، وكان يلبسُها، فنحنُ نغسلها للمرضى يُستشفى بها[(٤)].

---

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري ص(٥٨٨).
(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ١٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٠).
(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٢٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٠).
(٤) هذا الحديث رواه الإمام مسلم في ـ اللباس والزينة ـ ورواه كذلك النسائي وابن ماجه وأحمد، وانظر الشفا (١/ ٤٦٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٥٠٣). ـ

* ولم يتوقف تبركُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ عند هذا الحدِّ، بل كانت تتبرك بماء زمزم أيضاً، فقد ذَكَر الفاكهيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ أهلَ مكةَ يغسلون موتاهم بماء زمزم إذا فرغوا من غسل الميت وتنظيفه تبركاً به، وذكر أنَّ أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ غسلت ابنها عبد الله بن الزبير بماء زمزم(١).

وفي هذا دليل على تقصّي أسماء ـ رضي الله عنها ـ لمنابعِ البركة في جميع صُورها.

أَسْمـاءُ والحجَّـاجُ بن يُـوسف الثقفـي:

* في تاريخ النِّساء مواقف حافلة بالبطولات والتَّضحيات، ولكنَّ بطلتنا أسماء تفوق النِّساء جميعاً في موقف يشير إلى ذكائها وجودها وحسن تصرفها، ذلك الموقف مع ابنها عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ الذي امتدَّ سلطانه على الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وجدَّدَ عمارة الكعبة.

غير أنَّ سلطانه بدأ ينحسر ويتلاشى، وأحاطت به جنود الحجاج بن يوسف الثَّقفي وهـو فـي مكةَ المكرمة، وأحجاز المنجنيق تنهمرُ عليه مِنْ كلِّ مكان، وكانتِ الفرصةُ سانحةً أمامه لطَلَب الأمان أو الفرار، ولكنْ أنَّى له ذلك وقد عرفته البلاد بطولها وعرضها بالشَّجاعة والثَّبات والإقدام؛ وأمُّه أسماء فدائية الإسلام الأولى، وها هي أمّه قد قاربت المئة وعقلها ما يزال يشعُّ بالحكمةِ وفَصْل الخطاب، وتوجه إليها يبثّها حزنه، ويستشيرها فيما يفعل، وقال لها:

يا أمّ قد خذلني النَّاس حتى أهلي وولدي، ولم يبق لي أملٌ؛ والقوم يعطونني ما أردتُ مِنَ الدُّنيا فما رأيك؟

فأجابته الأم العظيمة: يا بنيِ عشْ كريماً، ومُتْ كريماً؛ لا يأخذك القوم أسيراً.

وودّعَ عبد الله أمّه بنفسٍ راضيةٍ، وقال يخاطبها:

= وزاد المعاد (١/ ١٤٠)، والطبقات (١/ ٤٥٤).

(١) انظر: كتاب شفاء الغرام (١/ ٤١٥).

أسمـــــاءُ إنْ قُتلـــتُ لا تبكينـــي
لـــم يبـــقَ إلا حَسَبـــي ودينـــي
وصـــارمٌ لانَـــتْ بـــه يمينـــي

وسقطَ عبد الله بن الزبير شهيداً، وصلبه الحجاجُ في المسجد الحرام، وقيل لابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ أسماءَ في ناحية المسجد، فمال إليها وعزَّاها بابنها وقال:

إنَّ هذه الجثثَ ليست بشيءٍ وإنَّما الأرواح عند الله، فاتقي الله واصبري، فقالت: وما يمنعني وقد أُهدي رأسُ يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل(١).

* ومن روائع الأخبار ما أورده ابن عبد ربه حيث قال: إنَّ عبد الله بن الزُّبير كان أول مولود وُلد في الإسلام.

فلما وُلد كبَّر النَّبيُّ ﷺ وأصحابه، ولما قُتِلَ كبَّر الحجاج بن يوسف وأهل الشَّام معه، فقال ابنُ عمر: ما هذا؟ قالوا: كبَّر أهل الشَّام لقَتْلِ عبد الله بن الزبير، قال: الذين كبَّروا لمولده خيرٌ مِنَ الذين كبروا لقتله(٢).

* وصبرتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ، وضربت أروعَ الأمثلة في الثَّبات والوقوف بجرأةٍ وصلابةٍ أمام الحجاج، فقد ذكر أنَّ الحجاج دخل على أسماء فقال: إنَّ ابنَك أَلْحَدَ في هذا البيت، وإنَّ الله أذاقه مِنْ عذابٍ أليم.

قالت: كذبتَ! كان برّاً بوالدته، صوّاماً، قوّاماً(٣)، ولكنْ قد أخبرنا رسولُ الله ﷺ «أنَّه سيخرجُ من ثقيف كذّابان الآخر منهما شرٌّ مِنَ الأوَّلِ وهو مُبير»(٤)، فانصرف الحجاج دون أنْ يراجعها.

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٥).
(٢) العقد الفريد (٤/ ٤١٩).
(٣) وكأن الشاعر عناه بقوله:
وَصَـلَ النهـارَ بليلـه فـي طـاعـةٍ — وصـلاتُـه مـوصـولـةٌ بصيـامِ
كحلَـتْ بتقـوى الله مقلتُـه التـي — لـم تكتحـلْ أجفـانهـا بمنـام
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٦).

الأيامُ الأخيرةُ والوصيةُ المباركة:

* عاشتْ أسماء ـ رضي الله عنها ـ دهراً طويلاً، فكانت إحدى الوثائق الصَّحيحة التي وَعَتْ أحداثَ قَرْنٍ كاملٍ، وكانت خاتمةَ المهاجرين والمهاجرات وفاةً ـ رضي الله عنها ـ، وقبل وفاتها دفنتْ ابنها عبد الله بيدها، فعن ابن أبي مليكة قال: دخلتُ على أسماء بعدما أُصيب ابن الزبير فقالت: بلغني أنَّ هذا صَلَبَ عبد الله، اللهم لا تمتْني حتى أُوتى به، فأحنطه وأكفنه، فأتيتْ به بعد، فجعلتْ تحنطه بيدها وتكفنه بعدما ذهب بصرها، وصلَّتْ عليه، وما أتت عليها جمعة إلا ماتت.

* وكانت وصيةُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ لأهلها: أجمروا ثيابي إذا متُّ، ثم حنطوني، ولا تذروا على كفني حنوطاً، ولا تتبعوني بنار، ولا تدفنوني ليلاً[1].

* وكانتْ وفاة أسماء في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ـ رضي الله عنها ـ.

بشَارَتُها بالجنَّةِ:

* قالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ١٠٠].

* الصَّحابية الكريمة أسماءُ بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ نموذج رائع للنِّساء في عصرها وفي كل عصر، فقد كانت ابنة بارّة بوالديها، وأمّاً عظيمة خلّفتِ الأبطال والأعلامَ، وأختاً مثالية، وزوجاً كريمة، فقد ذُكر أنَّ زوجها الزُّبير كان شديداً عليها فقال لها أبو بكر:

يا بنية! اصبري فإنَّ المرأة إذا كان لها زوجٌ صالحٌ، ثم مات عنها فلم تتزوّجْ بعده؛ جَمَعَ اللهُ بينهما في الجنَّة[2].

---

(١) انظر: حياة الصحابة (٢/ ٦٩٤).
(٢) السمط الثمين (ص٢٠٤).

* أضفْ إلى ذلك كله أنَّها أوقفتْ حياتها لخدمة الرسول الكريم ﷺ، وجاهدت في سبيلِ الله حقَّ جهاده، فنالت بهذه الشَّمائل الكريمة البشارة بالجنَّة منذ فَجْر حياتها، وإليكَ نصّ البشارة كما ورد في عددٍ من المصادر الموثوقة، ففي قصة الهجرة جادت أسماء بنطاقها ونفسها من أجل تأمين السّعادة والطَّعام لرسول الله ﷺ، فقال لها النَّبي الكريم ﷺ: «إنَّ لكِ بهما نطاقين في الجنَّة»[1].

* وفي هذا الحديث الشَّريف بشارةٌ عظمى لأسماء في الجنَّة، وقد عاشت ـ رضي الله عنها ـ تريدُ الآخرة، وتسعى لها، وتعمل العملَ الصَّالح لتزيد من رصيدها الإيماني.

* رضيَ الله عن أسماء وأرضاها ونضَّر قبرها، ومع وداع سيرتها المباركة المعطار نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر في هذا: الاستيعاب (٤/ ٢٢٩)، والإصابة (٤/ ٢٢٤)، وأنساب الأشراف (١/ ٢٦٠)، والعقد الفريد (٤/ ٤١٧ و٢/ ٢١٣) وما بعدها، وانظر أيضاً السيرة الحلبية (٢/ ٢١٣)، ودر السحابة للشوكاني ص (٥٤٧)، وغيرها من المصادر.
ولله درّ مَنْ قال:
ولو كان النساءُ كمن فقدنا ... لفُضّلتِ النساءُ على الرّجال

(٥)

أسماء بنت عُمَيْس

رضي الله عنها

قال لها ﷺ:

«للناس هجرة واحدة ولكم هجرتان».

نفحاتُ الحقِّ المبين:

* ما إنْ سَرَتْ نسماتُ الإسلام الزكيةِ بمكةَ حتى أقبلتْ على رسول الله ﷺ وأسلمتْ بصحبةِ زوجها؛ ليأخذا مكانهما بين السَّابِقِينَ الذين أسهموا أَعْظَمَ إسهامٍ في سبيل إعزاز دينِ الله عزَّ وجلَّ، وليكونا من فرسان مدرسة النبوة.

* أسلمتْ ـ هذه الصَّحابية ـ قَبْلَ دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم[1]، فحازتْ نعمةَ السَّبْقِ التي لها وزنها في ميزان الإسلام، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

* وبطلتُنا هي أسماءُ بنتُ عُميس بن مَعَد الخثعمية[2]، زوج السَّيد الشَّهيد، عَلَم المجاهدين، جعفر بن أبي طالب، ابن عمِّ النَّبيِّ ﷺ؛ الذي لقَّبه بـ «ذي الجناحين»، وكنَّاه بـ «أبي المساكين» رضي الله عنه وأرضاه.

في ظِلالِ الهجْرَة:

* في مكةَ تَلَقَّتْ أسماءُ وزوجها نصيبَهما من الأذى والاضطهاد؛ عندها هاجر عددٌ موفورٌ من نساء الصَّحابة في رِفْقَةِ أزواجهنَّ إلى الحَبَشَةِ؛ ولم يخرجْنَ إلى إعداد الطَّعام أو النُّزهة، بل خرجنَ في طاعة الله عزَّ وجلَّ فِراراً بدِينِهنَّ، وذهبْنَ في شَدِّ أَزْرِ أزواجهن مشيراتٍ مؤتمناتٍ، ومعيناتٍ صادقاتٍ، فنِلْنَ أجراً عظيماً.

* وخرجتْ أسماء في صحبة زوجها جعفر أمير المهاجرين في أرض

---

(١) الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ رضي الله عنه، كانت دارُه على الصَّفا، وهي الدَّارُ التي كان النَّبي ﷺ يكونُ فيها، وفيها دعَا النَّاس إلى الإسلام، فأسلم فيها قوم كثير، كان آخرهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه. واقرأ سيرة الأرقم في هذا الكتاب ص(٣١٦).

(٢) الطَّبقات (٨/ ٢٨٠)، وتاريخ الطَّبري (٢/ ٣٥١)، والاستيعاب (٤/ ٢٣٠)، والرَّوض الأنف (١/ ٢٩٣)، والأعلام للزركلي (١/ ٣٠٦).

الحبشة، حيث لبثا بها سنين عدداً، فولدت له هناك عبد الله[١]، وعَوْناً، ومحمّداً.

* وفي الحبشة كانت أسماء خير عونٍ لزوجها على المضيّ في سبيلِ نَشْرِ الإسلام، فقد كان جعفر المتحدِّث اللبق، والموفق الفَطِن، والبليغ الفصيح، إذ استطاع ببيانِه وإشراق عقله أَنْ يُبْكيَ النَّجاشي ومَنْ حولَهُ مِنْ بطارقته، وكان مِنْ ثمرةِ ذلك أَنْ أدركَ النَّجاشي عظمةَ الإسلام، ولَمَسَ استقامةَ ضيوفِهِ المهاجرين، فأسلم على يَدِ جعفر[٢] رضي الله عنه، وأحسن نُزُلَ المسلمين، فعاشوا في ظلّ عدله لابثينَ فيه؛ كما قالت أمُّ سلمة ـ أمُّ المؤمنين ـ: وأقمنا عنده بخير دارٍ، مع خَيْرِ جار. . . حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة[٣].

أَسْمَـاءُ وابنُ النَّجَـاشِيّ:

* من الأخبار الطَّريفةِ التي رَفَعَتْ أسماء مكاناً علياً في الحبشة ما أورده مصعب الزُّبيري رحمه الله، أنَّه وُلِدَ للنَّجاشيِّ ـ ملك الحبشة ـ بعدما ولدت أسماء بنت عميس ابنها عبد الله بأيام، فأرسل النَّجاشيُّ إلى جعفر: ما سمَّيْت ابنك؟

قال: عبد الله؛ فسمّى النَّجاشي ابنه عبد الله، وأخذَتْهُ أسماء فأرضعته حتى

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، السَّيد العالم، أبو جعفر القرشيّ الهاشمي الحبشيّ المولد، المدنيّ الدّار، رأس السَّخاء الجوادُ بن الجوادِ في الجناحين، الصَّحابي بن الصَّحابي بنِ الصَّحابية رضي الله عنهم. له رواية، وهو آخر مَنْ رأى النبي ﷺ وصَحِبه من بني هاشم وفاةً. كان كبير الشَّأن كريماً جواداً، دعا له رسول الله ﷺ بالبركة فقال: «اللهمّ بارك له في تجارته» مات سنة (٨٠ هـ) وله (٨٠) سنة. وله أخبار رائعة في الجود والبذل، وضرب المثل بجوده فقيل:

وما كنت إلا كالأغرِّ بنِ جعفرٍ ... رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا

(تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٣٦٣ و٣٦٤)، و(سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٥٦ ـ ٤٦٢).

(٢) اقرأ سيرة جعفر بن أبي طالب في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (٢/ ٩٥) ففيه ما يثلج الصدور.

(٣) السِّيرة النبوية (١/ ٣٣٨).

فطمته بلَبَن ابنها عبد الله بن جعفر، ونزلتْ بذلك عندهم منزلة كبيرةً. فكان مَن أسلم بالحبشة يأتي أسماء ـ بعدُ ـ يُخْبِرُ خبرهم[1].

«وَلَكُم هِجْرَتَانِ»:

* افتتح أبو نعيم رحمه الله ترجمةَ أسماء بقوله: مهاجرة الهجرتين، ومصلِّية القبلتين، أسماء بنت عميس الخثعمية، المعروفة بالبحرية الحبشية[2].

* وهجرةُ أسماء الثَّانية، كانت إلى المدينة المنورة سنة سَبْع، حيث وافى المهاجرون رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لهم، وأعطاهم من الغنائم.

* لقد كانت هجرة أسماء رضي الله عنها هجرة من بعد هجرة، وشهد النَّبيُّ ﷺ لمهاجري الحبشة بهجرتين؛ فقد أخرج ابن سعد ـ رحمه الله ـ بسند وثيق عن عامر الشَّعبيِّ قال: قدمتْ أسماءُ من الحبشة، فقال لها عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه فاكهاً ـ مازحاً ـ: يا حبشية! سبقناكم بالهجرة.

فقالت: أيْ لعمري! لقد صدقتَ، كنتمُ مع رسول الله ﷺ يطْعِمُ جائعكم، ويعلِّم جاهلكم، وكنَّا البُعداء الطُّرداء، أمَا والله! لأذكرنَّ ذلكَ لرسول الله ﷺ، فأتَتْهُ، فقال لها: «للنَّاس هِجرةٌ واحدةٌ ولكم هجرتان»[3].

* أرأيتَ كيف قامتْ أسماء رضي الله عنها بحجةِ المهاجرين إلى الحبشة؟ وهل رأيت كيف فاءَتْ بأمرها إلى رسول الله ﷺ الذي أكرمها بكلامه، وخصَّها بمنقبةٍ كريمة جعلَتْها راضيةً؟!

---

(1) نسب قريش (ص٨١) بتصرف يسير.

(2) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ٧٤).

(3) الطبقات (٨/ ٢٨١)، بتصرف يسير جداً؛ وللحديث أصل في صحيح البخاري (٧/ ٣٧١ و٣٧٢)، ومسلم (٧/ ١٧٢ و١٧٣)، وأبو داود (٢٧٤٥)، والترمذي (١٥٥٩)، وانظر الحلية (٢/ ٧٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٢٤٤ و٢٤٥)، وأسد الغابة (٥/ ٣٩٦)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٠٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٣١ و٤٣٢)، وغيرها من المصادر الموثوقة.

* وبقوله ﷺ: «ولكم هجرتان» طابتْ نفس أسماء ومهاجري الحبشة بالخصوصيّة التي خصّهم بها النّبيُّ ﷺ، فكانت زاداً كريماً لهم، وشهادة تقدير يفخرون بها إلى ما شاء الله تعالى.

* وكان المؤمنونَ المهاجرون يأتونها جماعاتٍ يسألونها عن المكرمة النّبويّة، وهم في غِبْطَة وسرور، وكان أبو موسى الأشعريّ رضي الله عنه يستعيدُ منها حديث النّبيّ ﷺ: «ولكم الهجرةُ مرتين، هاجرتم إلى النّجاشي وهاجرتم إليّ».

«اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرَ طَعَامَاً»:

* وقفتْ أسماء تودِّعُ زوجها جعفرَ رضي الله عنهما، وقد خرج إلى مؤتة في الشّام ليجاهدَ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وكان جعفر أحد أمراء الجيش الثّلاثة، وكان يمتطي فرساً شقراء، ووقفَ الجيش الغازي يستمعُ إلى إرشادات النّبيّ ﷺ الذي حدَّدَ قادة الجيش فقال: «عليكم زيد، فإنْ أُصيب فجعفر، فإنْ أُصيب جعفر فابن رواحة»(١).

* وعن أخبار المعركة الدّائرةِ في مؤتة، أنبأَ العليمُ الخبيرُ رسولَه ﷺ بما حدثَ، وصعِدَ النّبيُّ ﷺ المنبر في المدينة، وأخبر المسلمين بمصيرِ جعفر وأصحابه واستغفر لهم؛ ثم ذرفتْ عيناهُ على جعفر، وذهب إلى بيته، ودعا بأولاده، وقرّبَهم منه وقبّلَهم، وكان المشهدُ مؤثراً، ذكرته أسماء نفسها فقالت:

دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، فدعا بنيَّ جعفر، فرأيتُه شمَّهُم، وذرفتْ عيناهُ.

فقلتُ: يا رسول الله أبَلَغَكَ عن جعفر شيء؟

قال: «نعم، قُتِلَ اليوم».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠٨/١)، والأمراء الثلاثة هم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم وأرضاهم. واقرأ سيرهم في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة».

فقمنا نبكي، ورجع فقال: «اصْنَعُوا لآلِ جعفر طعاماً فإنَّه قد جاءَ ما يشغَلُهم»[1].

* ثم دخل رسول الله ﷺ على أسماء في اليوم الثَّالث من استشهاد جعفر وقال لها: «لا تحدّي بعد يومك هذا»، واستعبرت أسماءُ رضي الله عنها، وذكرتْ يُتْم أولادها، فقال ﷺ: «العَيْلَةَ تخافين عليهم وأنا وليُّهُم في الدُّنيا والآخرة؟!». ثم دعا لها ولأولادِها.

* عندئذ اعتصمتْ أسماءُ رضي الله عنه بالصَّبر، فالصَّابرون يوفَّوْن أجرهم بغير حساب، وقد كَتَبَ الله عزَّ وجلَّ للصَّابرين والصَّابرات من جليل الأمر وجميلِ المثوبة، ما جعل أسماء تسترجع[2] وتتذكر قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

النَّجيبـةُ الكَرِيْمَـةُ الأريبـة:

* تزوَّجتْ أسماء بعد انقضاء عِدَّتها من الصِّديق[3] أبي بكر رضي الله عنه، واصطحبها معه في حجة الوداع، فولدتْ له محمَّداً بذي الحليفة، فهمَّ

(١) سنن الترمذي (٩٩٨)، وعلَّق الترمذي رحمه الله على هذا الحديث بقوله: هذا حديث حسن صحيح، وقد كان بعض أهل العلم يستحبُّ أنْ يوجه إلى أهل الميت شيء لشُغلهم بالمصيبة، وانظر سنن ابن ماجه (١٦١٠ و١٦١١)، والطبقات (٨/ ٢٨٢)، ودلائل النبوة للأصبهاني (٢/ ٦٨١).
أقول: تُكره الضيافة عند أهل الميت؛ إذ كان مِنْ هديه ﷺ: أنَّ أهل الميت لا يتكلَّفون الطعامَ للناس، بل أمر أن يُصنع لهم طعامٌ يرسل إليهم، وهذا مِنْ أعظم مكارم الأخلاق. انظر: حق المسلم على المسلم؛ لصديقنا: يوسف علي بديوي (ص١٤٣).

(٢) تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) ذكر ابن حجر أنَّ النَّبي ﷺ زوَّج أبا بكر أسماء بنت عميس يوم حُنين. (الإصابة ٤/ ٢٢٥).

أبو بكر رضي الله عنه بردِّهَا إلى المدينة المنوَّرَةِ، فسأل النَّبيّ ﷺ فقال: «مُرْهَا فلتغتسلْ ثم تهلّ بالحج»(١).

* وحجّتْ أسماء رضي الله عنها حجة الوداع، وبقيتْ عند أبي بكر إلى أنْ مات، فغسلته بوصيةٍ منه(٢).

* ثم تزوّجت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فولدت له يحيى، وعَوْنا(٣).

* وهكذا كانت أسماء من أَنْجبِ النِّساء، وأكرمهن أزواجاً، وأسدّهنّ رأياً، وأنفذهن في دين الله عزَّ وجلّ.

مكانَتُـهَا وفَضْلُـهَـا ومقامهـا الكريـم:

* مناقبُ أسماء رضي الله عنها كثيرة، لا يمكن أنْ تُحصرَ في هذه الصَّفحات، فقد شَهِدَ لها النَّبيُّ ﷺ بالإيمان، فقال: «إنَّ الأخوات لمؤمنات»(٤) وكنَّ تسع أخوات.

* وكانت أسماء من السَّابقات المهاجرات، والكريمات المُنْجبات، والنَّافذات بالرأيِ الجَزْلِ، والقول الفَصْلِ، والعِلْم المكين، كما أنّها كانت أكرم النَّاس أصهاراً، فمن أصهارها: سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، وحمزة، والعبَّاس رضي الله عنهما.

* وقد خصَّها النَّبيُّ ﷺ بمنقبةٍ فريدةٍ، روى ذلك ابن عبَّاس رضي الله عنهما فقال: بينما رسول الله ﷺ جالس وأسماءُ بنت عميس قريبة إذ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وأخرجه كذلك ابن ماجه (٣٠٧٤) من حديث طويل بلفظ مقارب.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ١١٩)؛ كما شاركت أسماء في تغسيل أم كلثوم وفاطمة ابنتي رسول الله ﷺ.

(٣) الطبقات (٨/ ٢٨٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٦).

(٤) الطبقات (٨/ ٢٧٨)، وأخوات أسماء لأمّها، هنّ: ميمونة أم المؤمنين، وأم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهن.

«يا أسماء! هذا جعفر مع جبريل وميكائيل مرَّ، فأخبرني أنَّه لقيَ المشركين يوم كذا وكذا فسلَّم فردِّي عليه السَّلام»[1].

أَسْمَاءُ وعُمَر بن الخطاب رضي الله عنهما:

* لما فرضَ عمر رضي الله عنه الأعطيةَ، فرضَ للمهاجرات الأُوَل ألف درهم، ومنهن أسماءُ بنت عميس، وأسماء بنت أبي بكر، وأمّ عبد الله بن مسعود[2].

وقد اشتهرتْ أسماء بتأويل الرُّؤيا، وكان عمرُ رضي الله عنه يسألها عن تعبير الرُّؤيا، فقد وَرَدَ أَنَّ عمرَ رأى في الرُّؤيا كأنَّ دِيكاً نَقرَهُ أسْفَل سرّته نقرتين، فسأل عن تأويل رؤياه أسماء فقالت: هذا رجلٌ أعجمي يصيبُكَ؛ فمضتْ لذلك أيام فطعنه أبو لؤلؤة المجوسيّ بسكين تحت سرّته طعنتين أو ثلاثاً، وكان أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً[3].

حفظُها للحَديثِ النَّبويّ:

* الصَّحابية الجليلة أسماء بنت عميس ممنْ روين عن النَّبي ﷺ فأكثرنَ، ولم يسبقها ـ من المهاجرات ـ في هذا إلا أمّ المؤمنين عائشة، وأمّ المؤمنين أمّ سَلَمة رضي الله عنهن.

* روت عن النَّبي ﷺ ستين حديثاً، وانفردَ بالإخراج عنها الإمام مسلم رحمه الله. وروى لها كذلك أصحاب السُّنن الأربعة: أبو داود، التّرمذي، النّسائي، وابن ماجه؛ رحمهم الله.

* وروى عنها من الصَّحابة: عمر بن الخطاب، وأبو موسى الأشعريّ، وعبد الله بن عبَّاس ـ ابن أختها ـ وعبد الله بن جعفر ـ ابنها ـ رضي الله عنهم.

* ومن غير الصَّحابة: عروة بن الزُّبير، وعبد الله بن شداد ـ ابن أختها

(1) سير أعلام النبلاء (1/ 211).
(2) الطّبقات (3/ 304).
(3) نوادر المخطوطات (2/ 155)، والطبقات (3/ 335).

سلمى ـ وسعيد بن المسيب، والشَّعبيّ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ـ حفيدها ابن ابنها ـ، وأم عون بنت محمد بن جعفر ـ حفيدتها بنت ابنها ـ وآخرون[1].

* فمن مروياتها الحِسَان، ما رواه عبد الله بن جعفر قال: علمتني أمّي أسماء بنت عميس شيئاً أَمَرَها رسولُ الله ﷺ أَنْ تقوله عند الكَرْب؛ أو في الكرب:

«الله ربّي لا أشرك به شيئاً»[2].

ذِكْرَياتٌ مَعَ الوَداعِ:

* مع وداع سيرةِ أسماء نتذكر أنَّ أوليات رائعة أحاطت بها، كان لها مكانة في تاريخ الإسلام، منها:

أنَّ ابنها عبد الله بن جعفر أول مولودٍ في الإسلام يُولد في الحبشة.

وزوجها جعفر أول مَنْ عقر فرساً في الإسلام.

وأسماء نفسها أول مَنْ أشارت بنعشِ المرأة[3].

* هذا وقد عاشت أسماء حياة طويلة، قال الذّهبي رحمه الله: عاشت بعد عليّ رضي الله عنهما، وذكر أنها توفيت سنة (٦٠ هـ)[4]، بينما أورد الزركليُّ

---

(١) أسد الغابة (٥/٣٩٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٧)، وتاريخ الإسلام (٤/ ١٧٩)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩٩)، والإصابة (٤/ ٢٣٥).

(٢) الحديث أخرجه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وانظر كتاب الفرج بعد الشدة (١/ ١٣٣)، وحياة الصحابة (٤/ ١٥٠)، الطبعة الأولى.

(٣) جاء في طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠٦) عن إسماعيل بن عامر، قال: أول مَنْ أشار بالنعش ـ نَعْش المرأة ـ أسماء بنت عُميس، حين جاءت من أرض الحبشة، رأت النصارى يصنعونه. وانظر: الأوائل لابن زيد الجراعي (ص٤٧).

(٤) تاريخ الإسلام ـ عهد معاوية بن أبي سفيان ـ (٤/ ١٧٨).

في الأعلام[1] أنَّها توفيت سنة (٤٠ هـ) رضي الله عنها.

* وفي وَداع سيرة أسماء العطرة نتذكر الوصيّة النَّبوية لها: «الله ربّي ولا أشركُ به شيئاً».

* * *

(١) الأعلام: (١/ ٣٠٦).

(٦)

هند بنت عتبة

رضي الله عنها

قال رسول الله ﷺ:

«بارك الله لكم في غنمكم، وأكثر والدتها».

وجاء الحقُّ:

* عشرون عاماً لم يخشعْ قلبها لذكرِ الله وما نزل من الحقّ.

* عشرون عاماً قضتها هذه المرأةُ في عداوة مفرطة لرسول الله ﷺ وللإسلام والمسلمين، لم تتوقفْ مرةً خلالها عن إظهار العداوة، فكانت تجودُ بحليِّها وذهبها في سبيل الصَّدِّ عن الإسلام، فهل رأيتم امرأة تجودُ بأثمن ما تملكه من متاع وزينة ـ وهي ضنينةٌ بهذا ـ لتصدَّ عن سبيل الله عزَّ وجلَّ بكلِّ ما أُوتيتْ من حيلة؟ حتى إنَّ رسول الله ﷺ أهدر دمها!

* هذه المرأة نفسها فازت مع الفائزين لما جاء الحقُّ وزهقَ الباطل، وكان شِرْكُها نَسْياً مَنْسياً، وكانت من أصنامها في غرور[1].

* وهذه المرأة هي هندُ بنتُ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس العبشميّة القرشيّة[2]، إحدى نساء العرب اللاتي كان لهنّ شهرة عالية قبل الإسلام وبعده؛ وهي أمُّ الخليفة الأمويّ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

---

(١) من أسباب تعلُّق هند بنت عتبة بالموروث الجاهلي سنين طويلة يتلخص في: غريزة الأنانية، أو حب الذات، تلك الغريزة العاتية الجبارة، والتي لا يكاد يخلو بشرٌ من سلطانها عليه، وقوة دفعها له، وتوجيهها لسلوكه.
وإنك لترى الناسَ تدفعهم الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها، ويدفعهم التنافسُ إلى التنازع والاختصام، ويدفعهم ذلك إلى ادِّعاء ما ليس لهم، وجحود ما عليهم من حق، وأكل أموال الناس بالباطل.
وعندما يطلُّ شيطان الخصومة برأسه، لا يكون إلا حب الغلب بأيِّ ثمن، وأية وسيلة.
ثم إنَّ هنداً كانت قوية الشخصية، وكبرياؤها شديد، وتعاليها عنيد... ولكن عنصر الإيمان إذا دخل النفوس أطفأ لهب الخصومة، فصارت نارُها برداً وسلاماً، وحطَّم طغيان الأنانية فاستحالت تسامحاً وإيثاراً، وحلَّق بالمؤمن من المتاع الأدنى إلى المثل الأعلى.
انظر: الإيمان والحياة؛ للدكتور الشيخ يوسف القرضاوي (ص١٨٤).

(٢) الاستيعاب (٤/ ٤٠٩)، وتاريخ دمشق (ص٤٣٧) تراجم النساء، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٢٩٨)، والإصابة (٤/ ٤٠٩).

* كانت هند زوجةً للفاكهِ بنِ المغيرة المخزوميّ، أحد فتيان قريش، فعانتْ من سوء رأيه ما حملَها على فراقه، وذلك في خبرٍ طويلٍ طريفٍ من أخبار الجاهلية[1]. ثم خلَفَ عليها أبو سفيان بن حرب[2]، فولدت له معاوية، وعتبة.

مَلامِحُ مِنْ شَخْصِيَّتِهَا المتـفرِّدة:

* كانت هند[3] إحدى فرائد قريش رأياً وحزماً وعزيمة، وبُعْدَ همَّةٍ وحُسْنَ بيان؛ وكانت فصيحة جريئة، صاحبةَ رأي وأَنفة، قال عنها الذَّهبي: كانت هند من أحسنِ نساء قريش، وأعقلهن[4].

* أضفْ إلى ذلك أنَّها كانت تقول الشِّعر الجيّد، وأكثر ما عُرِفَ من شعرها مراثيها لقتلى بدر، وفيهم أبوها عتبة بن ربيعة سيّد من سادات قريش وذوي آرائهم، وأخوها الوليد بن عتبة، وعمّها شيبة بن ربيعة وغيرهم.

* ومما يُعْرَفُ من صفات هند، ما أُثِر من حديث مروءتها في جاهليتها ـ على الرغم مما كان بينها وبين النَّبيِّ ﷺ ـ؛ إذ إنَّها لما علمتْ بعزمِ زينب

---

(١) انظر الخبر بطوله في: تاريخ دمشق (ص٤٤٠ و٤٤١)، والعقد الفريد (٦/ ٨٦ - ٨٨)، ومجمع الزَّوائد (٩/ ٢٦٧ و٢٦٨)، والسيرة الحلبية (٣/ ٤٤ و٤٥)، وغيرها من المصادر.

(٢) أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية القريشيّ الأمويّ المكيّ، أسلم زمن الفتح، وكان شيخ مكةَ إذ ذاك ورئيس قريش، شهد حُنيناً، وأعطاه النبيُّ ﷺ من الغنائمِ مئة بعير وأربعين أوقية، وشهد الطَّائف وفُقِئت عينه، ثم شهد اليرموك. روى له البخاريُّ ومسلم حديث هرقل من رواية ابن عباس. وكان أسنَّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين، توفي بالمدينة سنة (٣١ هـ) وله نحو تسعين سنة رضي الله عنه. (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٣٩ و٢٤٠)، و(تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٣٦٩ و٣٧٠).

(٣) هند، وهنيدة: اسم للمئة من الإبل خاصة. وهند اسم امرأة يصرف ولا يصرف؛ إن شئت جمعته جمع تكسير فقلت: هنود، وإن شئت جمعته جَمْع السلامة فقلت: هندات. وهند من أسماء الرجال والنساء. (لسان العرب مادة هند).

(٤) تاريخ الإسلام (٣/ ٢٩٨).

بنت رسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة المنورة، ذهبتْ إليها في هدأةٍ من الليل، وعرضتْ عليها مساعدتها كابنةِ عمٍّ تحفظ عَهْد القرابة، وأظهرت لها كلَّ مروءة وقالت: يابنة محمّد! بلغني عزمُك على الرَّحيل. فحاولتْ زينب رضي الله عنها أنْ تخفي خبرَ هجرتها عن هند؛ فقالت لها هند: لا تكذبيني، فإنَّ ما بين الرِّجال لا يتعداهم إلى النِّساء[1]، فإنْ أحوجَكِ معونة من مال أو عمل، فإنَّ أولى بإسعادك ابنة عمّك ـ تريد نفسها ـ[2]!

* ولما علمتْ هند أنَّ قريشاً عرضوا لزينبَ في هجرتها، خرجت إليهم تؤنّبهم على عملهم الشَّائن، وتهجوهم؛ وقالت لهم:

أفـي السّلـم أعيـاراً جفـاءً وغلظـةً

وفـي الحـربِ أشبـاه النِّسـاءِ العـوارك[3]

هِنْـد ومَـقْتلُ الأَحِبَّـة:

* خرج المشركونَ من مكةَ، وعلى رأسهم أشرافُها، وصفوة رجالها للدِّفاع عن تجارتهم، وللقضاء على المسلمين، بعد أنْ يقيموا ببدر ثلاثاً ينحرون الإبل، ويشربون الخمر، وتسمع بهم العرب؛ فتهابهم أبد الدَّهر، ـ هذا بزعمهم ـ.

* وكان في جيش المشركين من أقرباء هند: أبوها وأخوها وعمّها وزوجها؛ أمّا في جيش المسلمين فكان أخوها أبو حذيفة بن عتبةَ رضي الله عنه بصحبةِ مولاه سالم، وكان لأبي حذيفة موقفٌ عَطِرٌ يوم بدر، حيث دعا أباه إلى المبارزة، فقالت أختُه هند:

---

(١) أي: ما بين الرِّجال من العداوة القائمة، لا شأن لنا بها نحن النساء.

(٢) إن امرأةً تحمل مثل هذه الأخلاق، لهي جديرة بالاحترام، فقد آثرت صِلة الرحم على الموروث الجاهلي، وتناست العداوة القائمة؛ نظراً لجودة أخلاقها، وعظيم مروءتها.

(٣) «السلم»: الصّلح. «الأعيار»: جمع عير، وهو الحمار. و«النساء العوارك»: النساء الحائضات.

الأحْـولُ الأثْعَـلُ المـذمـومُ طـائـره
أبـو حـذيفـة شـرُّ النَّـاس فـي الـدِّيـنِ
أمَـا شكـرْتَ أبـاً ربَّـاكَ مِـنْ صغـرٍ
حتـى شببـتَ شبـابـاً غيـرَ محجـونِ(١)

* وفي الحقيقةِ، فهنا موضعٌ نديٌّ لوقفةِ إعجاب بوفاء المسلمين، وعظيمِ محبتهم لرسول الله ﷺ، وإيمانهم برسالته، فها هو أبو حذيفة يتصدى لأبيه، بل وعمّه وأخيه في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

* وفي بَدْءِ المعركة قُضيَ على عتبةَ وأخيه وابنه، ثم أسفرتِ المعركةُ عن مَقْتَلِ سبعين، وأَسْرِ سبعين، وولّى أهل الشِّرك الأدبار كاسفاً بالهم، خاشعة من الذُّلِّ أبصارُهم، لا يكاد أحدهم يلتقي نظرهُ بنظرِ صاحبه حتى يواري وجهه خجلاً وحَسْرةً وأسفاً، من سوء ما حلَّ بهم جميعاً، وكان في مقدمة الهاربين: زوج هند ـ أبو سفيان ـ.

* وفرح المسلمون بنصر الله عزَّ وجلَّ، وما أفاء عليهم من المغانم، بينما أُخبِر أهل مكةَ بهزيمةِ قريش ومصابها في كبرائها وأشرافها وسادتها.

وقد ذُهِلَ المشركون هنالك أول الأَمْر، فلم يصدقوا الخبر، إلى أنْ جاءتْ فلولُ المنهزمينَ تؤكدُ صِدْقَ الخبر، فخرّوا صعقين لهول ذلك، حتى لقد حُمَّ أبو لهب، ومات كَمداً بعد سبعة أيام، بينما ناحتْ نساءُ قريش ـ بعد فترة ـ شهراً كاملاً على قتلاها، فجززْنَ شَعْر رؤوسهن، وفَعْلنَ ما فعلن، فكان يُؤتى براحلةِ الرَّجل أو بفرسه فينُحْنَ حولها، ويندبْنَ صاحبها؛ ولم يخالفِ النِّساء في هذا إلاّ هند بنت عتبة، فقد مشى نساء منهن يوماً إليها فقلنَ لها:

ألا تبكينَ على أبيك وأخيك وعمِّك وأهلِ بيتك؟

فقالت: أنا أبكيهم فيبلغ محمّداً وأصحابه فيشمتوا بنا، ويشمت نساء بني الخزرج، لا والله حتى أثأرَ من محمّدٍ وأصحابه! والدُّهْنُ عليَّ حرامٌ حتى نغزوَ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦٦/١)، و«الأثعل»: مرادف الأسنان. «المحجون»: يقال حجن العود: عطفه، والمحجن: العصا المعوجة.

محمّداً! والله! لو أعلم أنَّ الحزنَ يذْهبُ من قلبي لبكيتُ، ولكنْ لا يذهبُ إلا أنْ أرى ثأري بعيني من قَتَلَةِ الأحبَّةِ.

* ومكثتْ هند لا تقرب الدُّهن، ولا تقربُ فراشَ أبي سفيان، وتحرِّضُ النَّاس حتى كانت وقعةُ أُحُدٍ. وكانت خلال ذلك ترثي قتلاها في بَدْر، فممّا قالَتْهُ في ذلك:

أبكـــي عميـــدَ الأبْطحَيْـــن كليْهمـــا
وحـاميهمـا مـن كـلّ بـاغٍ يـريـدُهـا
أبـي عتبـة الخيـرات ويحـك فـاعلمي
وشيبـة والحـامـي الـذِّمـار وليـدهـا
أولئــك آل المجــد مــن آل غــالــب
وفي العزِّ منها حين يُنمى عديدها[1]

التَّهيُّؤ لأُحُدٍ:

لم يهدأ ـ منذ بدر ـ لقريش بالٌ، فما تزال نساؤهم تذكرُ كلّ منهن في القتلى لها ابناً أو أباً أو زوجاً أو حميماً، فهي تتوجعُ له، فقرّرَ المشركون أخْذَ الثَّأر، وأصرتِ النِّسوةُ من قريش على أنْ يَسِرْنَ مع الرِّجال، في حين عارض بعض فرسان قريش ورجالهم منْ خروج النِّساء ومنهم صفوان بن أمية، فصاحتْ هندُ بنتُ عتبة بمَنْ يعترض خروج النِّساء، وقالت تخاطبُ صفوان:

إنَّك والله سلمتَ يوم بدر فرجعتَ إلى نسائك؛ نعم نخرج فنشهدُ القتال، ولا يردّنا أَحَدٌ كما رُدَّتِ الفتياتُ في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجُحْفَةَ ـ موضع ـ فقُتلتِ الأحبَّةُ يومئذ.

وخرجتْ قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هند[2] ـ وكنَّ خمس عشرة

---

(1) شاعرات العرب (ص٤٦٨)؛ وقد ورد أن هند بنت عتبة التقت الخنساء وتذاكرتا مصيبتهما، وقالت هند هذه القصيدة تجيب بها الخنساء على قصيدة لها من الوزن والروي نفسه.

(2) من النساء اللواتي خرجن إلى أحد: برزة بنت مسعود الثقفي امرأة صفوان بن أمية، وسلامة بنت سعد امرأة طلحة بن أبي طلحة، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة =

امرأة ـ وهي أشدهن على الثَّأرِ حرقة، وسار المشركون باتجاه المدينة، وكانت هند قد وعدتْ وأغرتْ وحشياً الحبشيّ خيراً كثيراً وذَهَباً وحلياً، إنْ هو قتلَ حمزةَ بن عبد المطلب لأنَّه قتل أعزَّ النَّاس عليها.

وفي أُحُد التقى الجمعان، واستعدَّ الفريقان للقتال، فأمَّا قريش فتذكر بدراً وقتلاها، وجعلتْ نساؤهن يمشين خلال صفوفهم يضربن بالدُّفوف و الطُّبول وعلى رأسهن هند بنت عتبة، ويقلن:

نحـنُ بنـات طـارق   نمشـي علـى النَّمـارق
إنْ تُقبلـوا نعـانـق   أو تُـدبـروا نفـارق

فراق غير وامق

* وأمَّا المسلمون فيذكرون الله عزَّ وجلَّ ونصره، وكان النَّبيُّ ﷺ قد وَضَع عدداً من الرُّماة فوقَ الجبلِ، ورتَّبَ الجيش بطريقةٍ تضمنُ له النَّصر ـ بإذن الله ـ ما لم يخالف ذلك أَحَدٌ.

* وبدأ القتال، وبدأتِ الدائرةُ تدور على المشركين بادىء الأمر، فأمَّا المؤمنون حقاً ـ وكان عددهم لا يزيد على سبعمئة ـ يقاتلون ثلاثة آلاف، ورجحت كفة المسلمين، وتمزقتْ قريش، وأوشكتْ نسوتها أنْ يؤخَذْنَ أسرى ذليلات؛ وشُغِلَ بعض المسلمين بجمْع الغنائم، وخالفَ بعض الرُّماة الذين على الجبل أَمْرَ النَّبيّ ﷺ، فتبدَّلَ وَجْهُ المعركة، فاهتبل المشركون هذه الفرصة، وانقضُّوا على المسلمين الذين تركوا ما بأيديهم من الأسلاب، وبدؤوا يقاتلون مرة أخرى؛ وكثُرَ القَتْل فيهم حتى بلغ السَّبعين، واستشهد حمزة بن عبد المطلب؛ إذ قُتل غدراً بيد وحشي[1].

= الحارث بن هشام، وهند بنت منبه امرأة عمرو بن العاص وغيرهن. انظر أسماءهن في المغازي(١/ ٢٠٢ و٢٠٣).

(١) انظرْ ـ عزيزي القارىء ـ كم جرّت مخالفةُ النبي القائد من أخطار جسيمة! وكم كانت نتيجةُ ذلك على الجيش بأجمعه!

لقد عادتْ خطيئةُ أفراد قليلين في جيش المسلمين؛ بالوبال عليهم جميعاً، بحيث لم ينجُ حتى رسول الله ﷺ من نتائجها، وتلك هي سُنَّة الله في الكون، لم يمنعها من =

* وطارت قريش فرحاً بنصرها، وحسبت أنها انتقمتْ لبدر أشدَّ الانتقام، وكانت هند من أشدّ القوم سروراً، فلم يكفها قَتْل حمزة رضي الله عنه، بل انطلقتْ هي والنّسوة اللاتي معها يمثّلنَ بالقتلى من المسلمين أبْشَع تمثيل، وأشنع فعْلَة، مما جعل زوجها أبو سفيان يبرأ من تبعتِها، وأعلن أنّه لمْ يأمرْ بذلك، وإن كان قد اشتركَ فيه، وقال يخاطب أحد المسلمين: أنّه كان في قتلاكم مَثْلٌ، والله ما رضيتُ وما سخطتُ، وما نهيتُ وما أمرتُ.

* وبعد هذا عَلَتْ هند على صخرة مشرفةٍ فصرختْ بأعلى صوتها:

نحـنُ جـزينـاكـم بيـومِ بـدرِ
والحـرب بعـد الحـرب ذات سعـرِ
مـا كـان عـن عتبـة لـي مـن صبر
ولا أخـي وعمّـه وبكـري
شفيـتُ صـدري وقضيـتُ نـذْري
شفيـتَ وحشـيٌّ غليـلَ صـدري[1]

* وانصرفَ المشركون عن أُحدٍ وهم مسرورون بما زال عنهم من عار بدر، وقالت هند حين انصرافها عن أحد:

= الاستمرار أنَّ رسول الله ﷺ موجودٌ في ذلك الجيش، وأنه أحبُّ الخَلْق إلى ربه جل جلاله.
فتأمَّل في نسبة خطيئة أولئك الأفراد؛ إلى أخطاء المسلمين المتنوعة اليوم، والمتعلِّقة بشتى نواحي حياتنا العامة والخاصة. تأمَّلْ هذا لتتصوَّر مدى لطف الله بالمسلمين إذ لا يهلكهم بما تكسب أيديهم، وبتقاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والاجتماع في كلمة واحدةٍ على ذلك.
وإذا تأمَّلْتَ في هذا، علمتَ الجوابَ عن سؤال بعضهم اليوم؛ عن الحكمة من أنَّ الشعوب الإسلامية تظلُّ مغلوبةً على أمرها، أمام الدول الباغية الأخرى، على الرغم من أنَّ هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون.
انظر: فقه السيرة النبوية؛ (ص٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(١) تاريخ الإسلام (٢/ ٢٠٥).

رجعــتُ وفــي نفســي بــلابــل جمَّــةٌ[1]

وقـد فـاتنـي بعـض الـذي كـان مطلبـي

ولكنّنــي قــد نلــتُ شيئــاً ولــم يكــن

كما كنتُ أرجو في مسيري ومَطْلبي[2]

إسْلامُهَا وبَيْعَتُهَا:

* أجمعتِ الرّواياتُ أنّ إسلامَ هند بن عتبة كان يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة، وحَسُن إسلامها.

* أمّا عن قصة إسلام هند فتقول المصادر ـ مع الجمع بينها ـ: إنَّ هنداً قالتْ لأبي سفيان: إنّما أريدُ أَنْ أتابعَ محمّداً.

قال: قد رأيتُكِ تكرهينَ هذا الحديث أمس.

قالت: إنّي والله! ما رأيتُ أَنْ عُبِدَ الله حقَّ عبادتهِ في هذا المسجد قبل الليلة، والله! إنْ يأتوا مُصلّينَ قياماً وركوعاً وسجوداً.

قال: فإنّكِ قد فعلتِ ما فعلتِ، فاذهبي برجلٍ من قومك معك.

فذهبتْ إلى عثمانَ ـ وفي رواية عمرَ ـ ومعها نسوةٌ ممّن أسلمن، فذهبَ فاستأذن لها، فدخلتْ متنقّبةً متنكرةً لحَدثِها، وما كان من صنيعها بحمزةَ، فهي تخاف أَنْ يأخذَها رسولُ الله ﷺ بحَدَثِها ذلك.

فقالت: يا رسول الله! الحمدُ لله الذي أظهر الدِّينَ الذي اختاره لنفسه لتَنْفعَني رَحمُكَ يا محمّد! إنّي امرأةٌ مؤمنةٌ بالله، مصدّقةٌ برسوله، ثم كشفتْ عن نقابها، وقالت: أنا هندُ بنت عتبة.

فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بكِ».

فقالت: والله! ما كان على الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أنْ يذلّوا من

---

(١) «البلابل»: الأحزان. «جمة»: كثيرة.

(٢) السيرة النبوية (٢/١٦٨).

خبائِك، ولقد أصبحتُ وما على الأرض أهل خباء أحبَّ إليّ من أنْ يعزّوا من خبائك.

فقال رسول الله ﷺ: «وزيادة».

وقرأ عليهن القرآن وبايعهن وقال: «تبايِعْنني على ألاَّ تشركْنَ بالله شيئاً».

فقالت هند: والله! إنَّك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرِّجال، وسنؤتيكَهُ.

قال: «ولا تسرقن».

قالت: والله! إنْ كنتُ لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا.

فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول: أمَّا ما أصبتِ فيما مضى فأنتِ منه في حِلٍّ.

فقال رسول الله ﷺ: «وإنَّكِ لهند بنت عتبة».

فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعفُ عما سلفَ، عفَا الله عنك.

قال: «ولا تزنين».

قالت: يا رسول الله! هل تزني الحرّة؟![1].

قال: «ولا تقتلن أولادكن».

قالت: قد ربيناهم صغاراً، وقتلْتَهُم يومَ بدر كباراً، فأنتَ وهم أعلم.

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب.

قال: «ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكم وأرجلكن».

---

(١) يعود استغراب هند لهذا، لأن الإماء هن اللاتي كن يُعرفن بالبغاء، وفيهن وفي ساداتهن أنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]. راجع في تفسير هذه الآية تفسير القرطبي والخازن وابن كثير وغيرها من التفاسير وأسباب النزول.

قالت: والله إنَّ إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التَّجاوز أمثل.

قال: «ولا تعصينني في معروف».

قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أنْ نعصيَك في معروف.

فقال رسول الله ﷺ لعمر: «بايعهن، واستغفر لهنَّ الله».

فبايعهن عمر، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النِّساء، ولا يمسّ امرأة ولا تمسّه امرأة إلا أحلَّها الله، أو ذات مَحْرَمٍ منه[1].

* ثم إنَّ رسول الله ﷺ أقرَّ أبا سفيان وهنداً على نكاحهما.

نِعْمَـةُ الإسْـلاَم الكبرى:

* لهند بنت عتبة ـ رضي الله عنها ـ شخصية متميزة في عالمِ النِّساء، فعندما فتحَ الله عليها بالإسلام انمحتْ معالمُ الأَدْرَان من قلبها، وأظهرتْ على أنَّها امرأة من طراز فريد في عالم الصَّحابيات؛ ففي سبيل الله عزَّ وجلَّ، وفي

---

(١) انظر الطبقات (٨/ ٢٣٦ و٢٣٧)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١ و١٦٢)، والاستيعاب (٤/ ٤١١)، وتاريخ دمشق (ص٤٤٩ و٤٥٠ وما بعدها)، وأسد الغابة (٥/ ٥٦٢)، والإصابة (٤/ ٤٠٩)، والسيرة الحلبية (٣/ ٤٦ و٤٧)، وللحديث أصل في الصحاح، فقد أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه: في البيوع والنفقات والأحكام، وأخرجه مسلم في الأقضية، وأبو داود (٣٥٣٢)، والنسائي (٨/ ٢٤٦)، وأحمد (٦/ ٣٩ و٥٠ و٢٠٦)، وكذلك ابن ماجه.

ونستطيع أن نخلصَ من هذه البيعة بالنقاط التالية:

أولاً: اشتراك المرأة مع الرجل على أساسٍ من المساواة التامة في جميع المسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم؛ ولذلك كان على الحاكم أن يأخذ عليهنَّ العهدَ بالعمل على إقامة المجتمع الإسلامي، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال.

ثانياً: لا يجوز ملامسة الرجل بشرة امرأةٍ أجنبية عنه؛ إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة كتطبيب، وفَصْد، وقلع ضرس، ونحو ذلك.

ثالثاً: يُباح كلامُ الأجنبية لدى الحاجة، وصوتها ليس بعورة، وهو مذهبُ جمهور الفقهاء.

سبيل دينه ما غَسَل الدَّم، وزالتِ الوحشة، وأُتلفتْ نوافِرُ القلوب، وطهَّرَ الله نفسها من نزعةِ الحقْدِ، وأبرأ قلبها من قرحة الغِلّ، وحسَر عن عقلها حجاب الجهل، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل، فلم تعُدْ تخضعْ لعقيدة فاسدة، وطبّقَتْ هذا عمليّاً، فلمّا أسلمتْ جعلتْ تضربُ صنماً لها في بيتها بالقدّوم فلذة فلذة، وهي تقول: كنّا منك ـ أو معك ـ في غرور[(١)].

* ويبدو أنَّ هنداً فُطرتْ على الكرم، فبعد أنْ أسلمتْ وصدَّقت، أرسلتْ بهديةٍ إلى النَّبيِّ ﷺ فدعا لها؛ فقد أوردَ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ هذا فقال:

لما أسلمتْ هندُ بنت عتبة أرسلتْ إلى رسول الله ﷺ بهديةٍ ـ وهو بالأبطح ـ مع مولاة لها بجديَيْنِ مشويّيْنِ وسِقَاء من جلد، فانتهتِ الجاريةُ إلى رسول الله ﷺ فسلَّمت وهو بين نسائه أمّ سلمة وزوجته ميمونة ونساء من نساء بني عبد المطلب فقالت: إنَّ مولاتي أرسلتْ إليكَ بهذه الهدية وهي معتذرة إليك وتقول:

إنَّ غنمنا اليوم قليلة الوالدة.

فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكم في غنمكم، وأكثر والدتها».

فرجعتِ المولاةُ إلى هندٍ، فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ، فسُرَّتْ بذلك، وكانتِ المولاةُ تقول: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكنْ نرى قَبْلُ ولا قريبُ.

فتقول هند: هذا دعاء رسول الله ﷺ وبركته، فالحمدُ لله الذي هدانا للإسلام، ثم تقول:

لقد كنتُ أرى في النّوم أنّي في الشّمس أبداً قائمة، والظّلّ مني ولا أقدرُ عليه، فلما دنا رسول الله ﷺ منا رأيتُ كأنّي دخلتُ الظّلَّ[(٢)].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧).
(٢) تاريخ دمشق (ص٤٥٦ و٤٥٧) بتصرف يسير.

مِـنْ فَـرَائِـدِ أَقْـوَالِهَـا الحكيمـة:

* لهند ـ رضي الله عنها ـ أقوال جميلة ـ قد رقَّتْ ورَاقَتْ ـ ساحرةُ اللفظ، آسرةُ المعنى، تدلُّ على رجاحة عقلها، وحُسْن تفكيرها، وتشيرُ إلى خبرتها في ميدان الحياة، وإلى جزالة رأيها، وموافقته للصَّواب، ولهذا وصفها ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ بقوله: كانت امرأة لها نفس وأَنَفَةٌ ورأيٌ وعقلٌ.

* فمن أقوالها في المرأة: المرأةُ غلٌّ ولا بدَّ للعنقِ منه، فانظرْ مَنْ تضعه في عنقك[1].

وقالت: إنَّما النِّساءُ أغلالٌ فليتخذِ الرَّجلُ غِلاًّ ليده.

* وكانت هند ـ رضي الله عنها ـ تحترم سيدنا عمر رضي الله عنه، وتنظر إليه نظرة إجلال، فلمّا ولى عمر ابنها معاوية رضي الله عنهما الشَّام قالت لمعاوية: والله! يا بني إنَّه لقلَّما ولدتْ حرة مثلك، وقد استَنْهَضَك هذا الرَّجل، فاعملْ بموافقتِه أحببتَ ذلك أمْ كرهته.

هـنْـد ومُعَاوِيَـةُ رضـي الله عنهمـا:

* فَطَمتْ هند ابنها معاويةَ على حبِّ الفضائل وعلى الشَّهامةِ والحزْم والأنفة، وقد وصفته وهي ترقصه وهو صغير فقالت:

إنَّ بنـــيَّ معـــرقٌ كـــريـــمْ
محبَّـــبٌ فـــي أهلـــهِ حليـــمْ
ليـــس بفحَّـــاشٍ ولا لئيـــمْ
ولا بطَخْـــرورٍ ولا شـــؤومْ[2]
صَخْـــرُ بنـــي فهـــر بـــه زعيـــم
لا يخلـــفُ الظَّـــنَّ ولا يخيـــم[3]

---

(١) الأعلام (٨/٩٨).

(٢) «الطخرور»: الرجل لا يكون جلداً، و«الطخرور»: الغريب.

(٣) «خام»: جبن ونكص.

* ومعاوية هذا نظر إليه رجلٌ وهو صغير فقال: إني أظنُّ هذا الغلام سيسود قومه!

فقالت: ثكلتهُ إنْ كان لا يسود إلا قومه[1].

ولله درّ مَنْ قال:

وإذا كـــانـــتِ النُّفـــوسُ كبـــاراً
تعبـــتْ فـــي مـــرادِهـــا الأجســـامُ

* ووصفَ معاويةَ أمَّه ـ رضي الله عنهما ـ فقال: أمَّا هند: فكانتِ امرأة من قريش في الجاهلية عظيمة الخَطَر، وفي الإسلام كريمة الخبر.

* ومعاوية ـ رضي الله عنه ـ أريبُ العرب، وألمعيُّها، ورثَ عن أمِّه هند، ما لم يرثْ عن أبيه، وكان معاوية إذا نُوزع الفخر بالمقدمة، وجُوذب المباهاة بالرأي انتسبَ إلى أمِّه، فصَدَعَ بذلك أسماع خصمه، وكثيراً ما كان يقول في سِجَالِ الفخر: أنا ابنُ هند[2]!

خاتِمَةُ المَطَاف:

* تابعتْ هند ـ رضي الله عنها ـ حياتها، محافظة على ما بايعتْ عليه رسول الله ﷺ؛ ولما كانت معركة اليرموك شهدتْها، وحرّضتْ على قتال الرُّوم

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٢٤)، والعقد الفريد (٢/ ٢٨٧).

(٢) أولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، فإن كان مما يذل الرجل في عصرنا أن يقال له: تربية امرأة، أو تربية أمه. أما في عصور الإسلام الزاهية، وأيامه الخالية، فكان مهبط الشرف الحر، والعز المؤثل، والمجد المكين، وقد رأينا فضليات خرجن رجالاً ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس بأعمالهم وعلومهم ومآثرهم العظيمة، اقرأ سيرهن في هذا الكتاب وغيره من كتبي المطبوعة، من مثل: أسماء بنت أبي بكر وابنها عبد الله، وفاطمة بنت أسد وابنها علي، والنوّار بنت مالك وابنها زيد بن ثابت، وصفية بنت عبد المطلب وابنها الزبير، وأم سليم وابنها أنس بن مالك، وأسماء بنت عميس وابنها عبد الله بن جعفر، وأم أيمن وابنها أسامة، وغيرهن كثيرات، رضي الله عنهن وأرضاهن.

يوم إذ[١]، وقَدِمَتْ على ابنها معاويةَ في خلافةِ عمر - رضي الله عنه -.

* وفي ميدان الفضائل كان لها الأثر المحمود، فقد روتْ عن النَّبيِّ ﷺ، وروى عنها ابنُها معاوية وعائشةُ[٢] أمُّ المؤمنين رضي الله عنهما، ومما روته أنَّها قالتْ:

قلتُ للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ أبا سفيان شحيحٌ وإنَّه لا يعطيني وولدي إلا ما أخذتُ منه وهو لا يعلم، فهل عليَّ من حَرَجٍ؟

قال: «خُذي ما يكفيكِ وولَدكِ بالمعروف»[٣].

* أمَّا عن وفاةِ هند بنت عتبة فتذكر الرِّوايات أنَّها توفيتْ سنة (١٤ هـ)[٤] في خلافة عمر؛ في اليوم الذي مات فيه أبو قحافة والد الصِّدِّيق رضي الله عنهما[٥].

* وبعد، فهذه شذرات من سيرة هند التي قضتْ بضعة أعوام في ظلِّ الإسلام، ولكنَّها تركت أثراً كريماً على مدى الأعوام، فرضي الله عنها وأرضاها، وأكرم مثواها، وأدخلها في رحمته، إنَّه غفورٌ رحيمٌ.

* * *

---

(١) تاريخ دمشق (ص٤٣٧)، والأعلام (٨/ ٩٨).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧).

(٣) الحديث رواه الخمسة إلا الترمذي، وانظر المسند (٦/ ٣٩)، والطبقات (٨/ ٢٣٧)، وتاريخ دمشق (ص٤٣٨).

(٤) هذه السنة توافق عام (٦٣٥م).

(٥) أسد الغابة (٥/ ٥٦٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧).

فهرس الموضوعات